المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء السادس

○ الطبعة الثانية ○
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل الحادي والستون

أديان العرب

والعرب قبل الإسلام مثل سائر الشعوب الأخرى تعبدوا لآلهة ، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان ، فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق ، ووضعوا لها أسماء وصفات ، وخاطبوها بألسنتهم وبقلوبهم ، سلكوا في ذلك جملة مسالك ، هي ما نسميها في لغاتنا بالأديان .

وتقابل كلمة (دين) العربية لفظة Religion في الانكليزية من أصل (لاتيني) هو Religere أو Religare . وآراء العلماء المعنيين بتأريخ الأديان وفلسفتها على اختلاف كبير جداً في وضع حد علمي مقبول بين الجميع لموضوع الدين ، وربما لا يوجد موضوع في العالم اختلفت في تحديده الآراء كهذا الموضوع : موضوع ماهية الدين وتعريفه ، حتى صار من المستحيل وضع إطار يتفق عليه لصورة يجمع على أنها تمثل الدين . والشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله كاتب ، هو أن يكتب رأيه بوضوح فيما يعنيه من (الدين) ، فإذا فعل ذلك ، صار من المعروف ما قصد صاحبه منه [١] .

وقد عرّف بعض العلماء الدين أنه إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعة والبشر ، يكون لها أثر في حياة هذا الكون [٢] . وعرفه آخرون أنه استمالة واسترضاء

---

١ Sir James G. Frazer, The Golden Bough, A Study in Magig and Religion, Vol., I, p. 50, Abridged Edition, London, 1947.

٢ E.B. Tylor, Primitive Culture, I, p. 424, Ency. Brita. Vol. 19, p. 103.

لقوى هي فوق البشر ، يؤمن أنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الانسان[1]. وهو عند بعض آخر شعور وتفكير عند فرد أو جماعة بوجود كائن أو كائنات إلهية ، والصلة التي تكون بين هذا الفرد أو تلك الجماعة وبين الكائن أو الكائنات الإلهية[2] . وهو يطلق بهذا الاعتبار على الإسلام كما يطلق على اليهودية والنصرانية وعلى المجوسية وعلى غيرها من أديان سواء أكانت سماوية أم غير سماوية كما يصطلح على ذلك بعض العلماء .

وهناك تعريفات وحدود كثيرة أخرى للدين، نشأت من اختلاف أنظار الباحثين بالقياس الى مفهوم الدين . فهناك مسائل كثيرة مختلف فيها : هل تدخل في نطاق حدود الدين أو لا كما ان مفهومه قد تغير عند الغربيين باختلاف العصور[3] .

وليس من السهل وضع حدود معينة لمعنى الدين ، فإن وجهات نظر الأديان نفسها تختلف في هذا الباب . وللدين في نظر الشعوب البدائية مفهوم يختلف كل الاختلاف عن مفهوم الدين عند غيرهم ، ومفهومه في نظر الأقوام المتقدمة يختلف باختلاف دينها وباختلاف وجهة نظرها الى الحياة . وهناك أمور تدخل في حدود الدين عند بعض أهل الأديان ، على حين انها من الأمور الأخلاقية أو من أمور الدولة في نظر بعض آخر ، ومن هنا تظهر الصعوبات في تعيين المسائل التي تعد من صلب الدين في نظر الجميع[4] .

وللدين مهما قيل في تعريفه ، شعائر تظهر على أهله ، فتميزهم عن أتباع الديانات الأخرى، كما في العبادات والمأكولات والمعابد واللغات وما شاكل ذلك[5] ، ولهذه الأمور أثر بالطبع في النواحي الاجتماعية والثقافية ، إذ تطبع أتباع الدين بطابع مميز خاص .

وقد زعم بعض المستشرقين ان لفظة (الدين) من أصل أعجمي ، وانها من

---

١ The Golden Bough, Vol.. I, p. 222, Abridged Edition, p. 50.

٢ H. Schmidt, Philosophische Wörterbuch, S. 551.

٣ Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Vol. 10, p. 662, Art. Religion, Encyclopaedia of Social Sciences, Vol. 13-14, p. 228, Ency. Brita., Vol., 19, p. 103, Friess and Schneider, Religion in Various Cultures, New York, 1932.

٤ Ency. Relig., Vol. 10, p. 263, Ency. of Social., Vol. 13-14, p. 228.

٥ Ency. Relig., Vol.. 10, p. 663.

الألفاظ المعربة ، أصلها فارسي هو (دَيْنا) **Daena** [1] . وقد دخلت في العربية قبل الاسلام بمدة طويلة . وترد لفظة (دين) بمعنى الحشر في الإرميـة والعبرانية كذلك . وهي (دينو) في الإرمية . وتقابل لفظـة **Daino** الإرمية لفظة الديان في العربية . وهي بمعنى القاضي في هذه اللغة . وتعني لفظة (دين) القضاء في اللغة البابلية . و (ديان) (ديونو) **Dayono** ، الحاكم والمجازي والقاضي في لغة بني إرم[2] . وهي بهذا المعنى في العربية أيضاً[3] .

والدين في تعريف علماء اللغة : العادة والشأن . تقول العـرب : ما زال ذلك ديني وديدني ، أي عادتي . والدين بمعنى الطاعة والتعبد. وقد ورد في الحديث: (كان على دين قومه) ، أي كان على ما بقـي فيهم من إرث ابراهيم ، من الحج والنكاح والميراث ، وغير ذلك من أحكام الايمان . وجاء : (كانت قريش ومن دان بدينهم،أي اتبعهم في دينهم ووافقهم عليه،واتخذ دينهم له ديناً وعبادة)[4] .

ومن (دين) الديّان ، بمعنى الحكم القاضي والقهار . ومن ذلك مخاطبة (الأعشى الحرمازي) الرسول بقوله :

يا سيد الناس وديّان العرب .

والديان : الله ، ومن أسماء الله[5] .

وقد وردت هذه اللفظة في المعنى المفهوم منها في الاسلام في بيت شعر ينسب الى أميّة بن أبي الصلت ، هو :

كلّ دين يوم القيامة عند اللـه إلاّ دين الحنيفـة زور[6]

---

١ Handwörterbuch des Islams, S. 98, Grundriss, der Iran. Philoso. I, I, S. 107, 270, I, 2, S. 26, 170, II, S. 644, Juynboll, Handbuch des Islamischen Gesetzes, S. 40, 58, Schorter Ency. of Islam, p. 78, Ency. I, p. 975, Zeitscher. fur Assyr., Bd., XIV, S. 351.

٢ برصوم (ص ٦٠) ، غرائب اللغة (١٨٢) .

٣ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دين) .

٤ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دين) ، تاج العروس (٩/٢٠٨ وما بعدها) ، (ديـن) .

٥ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دين) ، تاج العروس (٩/٢٠٨ وما بعدها) ، (ديـن) .

٦ الاغاني (٤/١٢٢) ، (دار الكتب المصرية) .

غير أننا لا نستطيع أن نحكم بورودها في شعر أمية ما لم نثبت أن ذلك الشعر هو من شعره حقاً ، وأنه ليس بشعر إسلامي صنع ووضع على لسانه ، فقد وضعت أشعار وقصائد على لسانه وعلى لسان غيره من الشعراء .

ووردت بهذا المعنى أيضاً في النصوص الثمودية . وردت في نص سجله رجل من قوم ثمود ، توسل فيه إلى الإلـه (ودّ) ، أن يحفظ له دينه ، (ا ل هـ د ي ن ي ق . ي د)[1] ، ووردت في نص آخر جاء فيه : (بدين ود امت)[2] ، أي (بدين ودّ أموت) ، أو (على دين ودّ أموت) . فاللفظة إذن من الألفاظ العربية الواردة في النصوص الثمودية ، وقد يعثر عليها في نصوص جاهلية مدوّنة بلهجات عربية أخرى .

ويصنف بعض العلماء، الأديان، الى صنفين: أديان بدائية Primitive Religions ، وأديان عليا The Higher Religions ، غير أن هذا التقسيم لا يستند الى التسلسل الزماني ، وإنما يقوم على أساس دراسة أحكام الدين وعقائده وعمق أفكاره . فالأديان التي تقوم على أفكار بدائية وعلى السحر Magic وعلى المبالغة في التقديس وتقديم القرابين Sacred ، والتي تنحصر عبادتها بأفراد قرية أو قبيلة واحدة ، وأمثال ذلك مما يشرحه علماء تأريخ الأديان وعلماء فلسفة الأديان ، هي من أديان الصنف الأول . فإذا توسع مجال الدين وشمل قبائل عديدة ، وتعمق في أحكامه وفي تشريعه وفلسفته ، وصار الإلـه أو الآلهة إلهاً ذا سلطان واسع أو آلهة ذات سلطان واسع عدّ الدين من الأديان العليا[3] .

وأما تقسيم الأديان الى أديان قبيلية Tribal Religions ، و(أديان قومية) National Religions ، وأديان مطلقة عامة(Absolute (Universal Religions (Religions) ، فإنه ، وإن كان تقسيماً واضحاً ظاهراً بالقياس الى الطرق الأخرى لتقسيم الأديان ، يرد عليه أنه تقسيم بني على أسس وحدود ليست لها أرض صلبة في جوهر الدين وأركانه ، فهو بعيد عن المبادىء الأساسية التي تجب مراعاتها في تقسيم كل علم أو موضوع[4] . كذلك تجابه التقسيم الثلاثي للأديان الى (أديان

---

١ Grimme, S. 34, 40.

٢ Mu 646/17, Grimme, 40.

٣ ENCY. BRITA., Vol. 19, p. 107.

٤ Ency. Brita. Vol. 19, p. 111.

الطبيعة) Nature Religion . و(ديانة الشريعة) Geztzes Religion ، و(ديانة الخلاص) Erlosungs Religion عند بعض العلماء الألمان صعوبات كبيرة تجعل السير على أساسه في دراسة تطور الدين أمراً عسيراً شاقاً[1] .

وتستند دراسات علماء تأريخ الأديان لتطور الأديان والأدوار التي مرت بها الى دراسة أمور كثيرة تأريخية ونفسية واجتماعية واقتصادية،ولهم في ذلك جملة طرق ، منها طريقة الدراسات المقارنة The Comparative Method ، وهي تعتمد كما يتبين من اسمها على المقارنات بين الأديان ، فتتناول جميع النواحي بالبحث ، لتجد ما بينهـا من مطابقات ومفارقات . ومنهـا طرق البحث التأريخـي والاجتماعي Historical and Sociological Methods وتستند الى الدراسات التأريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والعوامل الأخرى ، للنـاس وللمنطقة التي عاشوا فيها ، وأثر كل هذه العوامل في نمو الأفكار الدينية وظهورها . وطـرق عديدة أخرى تذكر في كتب تواريخ الأديان[2] .

وقد تقدمت دراسة تأريخ الأديان تقدماً كبيراً ، ولا سيا بعد اتبـاع أساليب الطرق التجريبية والبحوث المقارنة والتحليل النفسي في هذه الدراسة . وظهر بحث جديد شائق طريف ، هو (فلسفة الدين) The Philosophy of Religion ،أفاد كثيراً في معرفة دراسة تطور الأديان ومبادئها الأساسية ، كما ظهرت فروع أخرى كهذا الفرع لها صلة بدراسة الدين وتقدمه ، كالفرع النفسي الذي يعتمد عـلى الدراسات النفسية للدين ، وهو فرع نستطيع أن نسميه بـ (علم النفس الديني) The Psychology of Religion في الانكليزية و Religionspsychologie في الألمانية[3] . وكالفرع الذي يعتمد على أساليب بحث الاجتماع وطرقه لدراسة الدين باعتبار أن الدين نفسه ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية[4] .

وهناك عوامل عديدة لها أثرها في تطور الأديـان ، وفي (تكييفها) ، منها أثر (العوامل الطبغرافية)Topographic Factors . وأثر (المحيط) Climatic Factors

١ Philosophische Wörterbuch, S. 552.

٢ Ency. Relig., 10, p. 964.

٣ Strattons, Psychology of he Religious Life, 1911, Ency. Brita., 19, p. 111, Schmidt, S. 554.

٤ Schmidt, S. 554, J. Wach, Einfuhrung in die Religion, 1941.

وأثر الحالات النفسية في تكييف الدين ، وفي تصور الناس لآلهتهم . ولهذا تصور اليونان مثلاً آلهتهم على شاكلتهم ، تصوروها ذات أخلاق وصفات تشبه أخلاق البشر وصفاتهم ، تتخاصم وتتصادق وتتباغض وتحسد بعضها بعضاً ، تشرب الخمر وتحزن وتفرح ، وتسرق أيضاً . ونجد في الـ (ايدا) Edda نفسية الشعوب الشمالية الأوروبية ممثلة في الأساطير التي تتحدث عن الآلهة والأبطال[1] .

ويظهر أثر العوامل المذكورة في الديانة الهندية القديمة ، وهي من الديانات الآرية ، وفي الديانة المجوسية ، وهي من أهل السهول وديانات أهل الجبال ، وبين ديانات الساميين الشماليين وديانات الساميين الجنوبيين ، يظهر في الأساطير (Mythlogy) وفي تصور الآلهة وتقديمها وتأخيرها وما شابه ذلك من أمور[2] .

ولشكل المجتمع أثره كذلك في تطوير الدين وفي أحكامه . فمجتمع يقوم على الزراعة يختلف في تفكيره عن مجتمع يعيش على الصناعة أو على الرعي في بوادٍ واسعة ، كذلك للسياسة ولأشكال المجتمعات السياسية دخل في تطور الأديان . وقد كان التعاون وثيقاً جداً في الأيام الماضية خاصة بين السلطات الزمنية وبين السلطات الدينية حتى كان الحكام الزمنيون كهاناً في كثير من الأوقات ، كما حدث أن وقع اختلاف بين السلطتين أدى الى حدوث تغيير في عقيدة الحكومة أو أكثرية الشعب .

وطالما أدى قهر مدينة أو قبيلة أو شعب الى قهر آلهتها معها وموتها ، والى عبادة آلهة القاهرين المتغلبين باعتبار أنها أقوى وأعظم شأناً من آلهة المغلوبين التي لم تتمكن من حمايتهم من تعديات الغالبين . وقد تبقى تلك الآلهة فتندمج في آلهة المغيرين ، فيزداد بذلك العدد ، وتتعدد الآلهة ، وتختلط الأساطير بعضها ببعض وتتداخل . ولهذه الناحية أهمية كبيرة في تحليل عناصر هذه الأساطير ، ورجْعها الى منابعها الأولى . كذلك يكون للجوار وللصلات التأريخية والروابط الثقافية أثر في ديانات الشعوب وفي (تكييفها) ويكون للثقافة خاصة أثر بارز في هذا التوجيه.

غير أن للأديان كذلك أثرها في توجيه الأفراد والقبائل والشعوب ، وفيما ينتج عن عمل الإنسان من مجتمعات وسياسة وثقافة واقتصاد[3] . فهذه نواحٍ يجب أن

---

١ Ency. Social.. 13-14, p. 232.

٢ Ency. Social.. 13-14, p. 232.

٣ Ency. Social. 13-15, pp. 234.

تلاحظ كلها في دراستنا لتأريخ الأديان . هذا ويجب ألا نتصور أن أديان العرب قبل الإسلام لم تتأثر بمؤثرات خارجية ، فلم تأخذ من الأمم والشعوب التي اتصلت بها شيئاً ، جرياً على نظرية القائلين بعزلة العرب وبعدم اتصالهم بالخارج ، وبأنهم بدو ، لا علم لهم ولا رأي ولا دين . وهي نظرية نشأت عن عدم وقوف القائلين بها بأحوال العرب قبل الإسلام . وإذا وافق أولئك على أن اليهودية والنصرانية كانتا في جزيرة العرب قبل الإسلام كما نص على ذلك القرآن الكريم ، وأن من العرب من كان على دين يهود ، وأن منهم من كان على دين النصارى ، فلن يستطيعوا إنكار ورود اليهودية والنصرانية الى العرب من الخارج بعمل الهجرة والتبشير والاتصال بفلسطين والعراق . وسيوافقون أيضاً على أن الوثنيين قد تأثروا كذلك بوثنية غيرهم ،كما نص على ذلك الاخباريون وانهم أثروا في غيرهم أيضاً .

إن معارفنا عن أديان العرب قبل الاسلام مستمدة في الدرجة الأولى من النصوص الجاهلية بلهجاتها المتعددة من معينية وسبئية وحضرمية وأوسانية وقتبانية وثمودية ولحيانية وصفوية ، وهي نصوص ليس من بينها نص واحد وياللأسف في أمور دينية مباشرة ، مثل نصوص صلوات أو أدعية دينية أو بحوث في العقائد وما شابه ذلك . غير أن هذه النصوص المذكورة ،ومعظمها كما قلت سابقاً في أمور شخصية ، حوت مع ذلك أسماء آلهة ذكرت بالمناسبة ، وبفضلها عرفنا أسماء آلهة لم يصل خبرها الى علم الأخباريين ؛ لأن ذكرها كان قد انطمس وزال قبل الإسلام . ومن هذه النصوص استطعنا أن نستخرج آلهة القبائل العربية القديمة ، وأن نرجعها الى المواضع التي كانت تتعبد بها لها ، وأن نعين العصور التي كان الناس فيها يتعبدون لها على وجه التقريب .

كذلك تعد الكتابات والنقوش المدونة ببعض اللغات الأعجمية كالآشورية والعبرانية واليونانية واللاتينية ولغة بني إرم ، مورداً مفيداً لمعرفة أديان العرب قبل الإسلام بعد النصوص العربية . فقد وعت أسماء أصنام قديمة نصت عليها ، وبذلك ساعدتنا في الوقوف على عبادتها وعلى من تعبد لها من قبائل .

وأما أديان العرب قبيل الاسلام وعند ظهوره ، فالقرآن الكريم هو مرجعنا في هذا الباب . ففيه ذكر لما كان عليه الناس ولا سيما أهل مكة ويثرب والحجاز من عبادات وآراء ، وفيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل .

وفي تفسير القرآن الكريم تفصيل وشرح لما جاء موجزاً في الآيات البينات، ويضاف الى ذلك ما ورد عن هذا الباب في الحديث .

وفي الشعر المنسوب الى الشعراء الجاهليين إشارات الى بعض عقائد الجاهليين ، والى بعض الأصنام ، تعرّض لها شرّاح الدواوين بالمناسبات،وترد هذه الاشارات في القصص المروى عن أخبار الجاهلية وعن أنساب قبائلها وأيامها وأمثال ذلك وفي كتب الأدب واللغة والمعجمات ، وهي تعيننا بالطبع على زيادة مادتنا في هذا الموضوع .

ويضاف الى ذلك ما ورد في كتب السير والمغازي وفي كتب التواريخ من كتب خاصة مثل تأريخ مكة ، ومن كتب عامة عن عبادات القوم قبل الوحي وفي أثناء الوحي وعن أمر الرسول بتحطيم الأصنام والأوثان . وقد ورد بهذه المناسبة أوصاف بعضها ، وذكرت بعض المواضع التي كانت قائمة فيها ، والقبائل التي كانت تتعبد لها ، وما أدير حول بعضها من قصص ، أو ما قيل عنها في الجاهلية وفي تحطيمها من أقوال .

ومما يجب علينا ملاحظته ، ان الشعر الجاهلي الذي أمدّنا بفيض من معارف قيّمة عن الجاهلية القريبة من الاسلام ، لم يمدنا بشيء مهم عن الحياة الدينية عند الجاهليين ، فكأنه أراد مجاراة من دخل في الاسلام في التنصل من أيام الجاهلية ومن التبرؤ منها ، ومن غض النظر عن ذكر أصنام حرمها الاسلام . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان رواة الشعر في الاسلام ، قد أغفلوا أمر الشعر الجاهلي الذي مجّد الأصنام والوثنية ، وأهملوه ، فلم يرووه ، فمات ، وان بعضاً منهم قد هذب ذلك الشعر وشذبه ، فحذف منه كل ما له علاقة بالأصنام والوثنية ، ورفع منه أسماء الأصنام ، وأحلّ محلها اسم الله ، حيث يرد اسم الصنم . فما فيه اسم الله في الشعر الجاهلي ، كان اسم صنم في الأصل .

وقد ألّف بعض العلماء مؤلفات خاصة في الأصنام ، وصل الينا منها كتاب (الأصنام) لابن الكلبي[1] . أما المؤلفات الأخرى ، فلم يصل الينا منها إلا الاسم.

---

١ « كتاب الاصنام » بتحقيق المرحوم احمد زكي باشا ، القاهرة ١٩٢٥ م الطبعة الثانية ، « مطبعة دار الكتب المصرية » ، وسيكون رمزه : الاصنام . وقد طبع الكتاب مرارا ، وترجم الى الانكليزية والالمانية والى لغات أخرى .

وممن ألّف في هذا الموضوع أبو الحسن علي بن الحسين بن فضيل بن مروان[1] ، والجاحظ[2] . وقد استفاد ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) من كتاب (الأصنام) لابن الكلبي ، وأورد ما أخذه منه في الكتاب . أما النسخة التي اعتمد الحموي عليها ، فكانت بخط عالم مشهور وبروايته هو الجواليقي[3] .

وقد تعرض ابن الكلبي لذكر الوثنية والأصنام في مؤلفاته الأخرى عرضاً ، وأشار (ياقوت الحموي) في بعض المواضع الى روايات أخرى لابن الكلبي عن الأصنام ، ذاكراً انها ليست من كتاب (الأصنام) . كما استقى من منبع آخر ، هو محمد بن حبيب[4] .

وقد ألّف أبو عبدالله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع كتاباً في أديان العرب وآرائهم ، اسمه (آراء العرب وأديانها) ، وقف عليه ابن أبي الحديد ، وأشار الى بعض هفوات رآها فيه[5] . وللجاحظ مؤلف اسمه (أديان العرب) استفاد منه أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني[6] .

وبالرغم من فضل من تقدم ممن ذكرت وممن لم أذكر ، على دارس التأريخ الديني للجاهليين فإنهم عفا الله عنهم ، لم يتعمقوا تعمقاً كافياً في بحوثهم عن الوثنية ، ولم يتحرشوا بها في الغالب ، إلا بسبب اتصالها بالاسلام ، ثم إن في كثير مما ذكروه عن الوثنية طابع السذاجة وأسلوب الصنعة . وهو في أحوال الوثنية في الحجاز وعند القبائل التي ورد لها ذكر في حوادث الاسلام في أيام الرسول ، في مثل قدوم وفود سادات القبائل على النبي ، وأمر الرسول بتحطيم الأصنام . ولهذا لا نجد للوثنية في بقية مواضع جزيرة العرب ، مكاناً فيما كتبه أولئك العلماء

---

١ « كتاب الاصنام وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله تبارك اسمه » ، الفهرست (ص ١٢٥) ، الاصنام (٢٣) ، « الرد على عبدة الاوثان » ، معجم الادباء (١٣٢/١) .

٢ الاصنام (٢٣) ، وقد نقل منه (النويري) في كتابه نهاية الارب (١٥/١٦) ، (فهو ما نقله أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ــ رحمه الله ــ في كتاب له سماه : كتاب الاصنام ، قال فيه ...) .

٣ الاصنام (٢٤) .

٤ J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, S. 12.
وسيكون رمزه : Reste

٥ بلوغ الارب (٣٠٨/٢) .

٦ Brockelmann, Suppl.. I, S. 946.

عن الأصنام والأوثان أو الزندقة . ثم ان في الذي ذكروه وكتبوه تناقض محير ، وتنافر عجيب ، يجعلك تشعر ، ان رواة تلك الأخبار ، لم يكونوا يملكون يومئذ أدوات النقد لصقل ما سمعوه من أفواه الرواة ، وما نقلوه عمن أدرك الجاهلية من أقوال ، أو انهم كانوا يعمدون الى الوضع أحياناً : لصنع أجوبة عن أسئلة وجهت اليهم في أمور لم يأتهم علم بها من قبل .

خذ ما ذكره (الطبري) في تفسيره عن اللات والعزى ومناة ، تجده يروي أقوالاً ذكر سندها تتناقض فيما بينها بشأن هذه الأصنام ، وبشأن بيوتها ومواضعها، مما يدل على أن رواة تلك الأخبار لم يكونوا على علم بأخبارها ولا وقوف على حقيقتها ، بدليل أن كل واحد منهم ناقض غيره فيما قاله ، وأن أحدهم يذكر خبراً ثم يعود فيذكر ما يناقضه[1] . حدث كل ذلك في أمور كانت باقية الى ما بعد فتح مكة ، فكيف حالهم اذن في الأمور البعيدة نوعاً ما عن الاسلام .

ولا تتناول الموارد الإسلامية بعد ، إلا الوثنية القريبة من الإسلام والوثنية التي كانت متفشية بين قبائل الحجاز في الغالب ، وبين القبائل التي اعتمد عليها رواة الأخبار في جمع اللغة والأخبار. لذلك لا نجد فيها ذكراً للوثنية البعيدة عن الاسلام، فلم يرد فيها مثلاً أي شيء عن (المقه) إله سبأ الأكبر ولا عن بقية الآلهة العربية الجنوبية الكبيرة مثل (عثتر) ، وعن دين العرب الجنوبيين وشعائرهم ، ولا عن معبودات قبائل العربية الشرقية : أو قبائل العراق أو بلاد الشأم في الأزمنة البعيدة أو القريبة من الإسلام .

وأما أخبارها عن اليهودية والنصرانية ، فقليلة جداً ، قصتها وروتها لما لها من تماس وصلة بما جاء في القرآن الكريم ، أو لما لها من علاقة بأيام الرسول . ولهذا صارت خرساء صامتة بالنسبة الى أحوال أهل الكتاب في بقية أنحاء جزيرة العرب أو في العراق وفي بلاد الشأم . فلم تتحرش بهم إلا بقدر . وبسبب ذلك صارت معارفنا عنهم قليلة جداً . وقد كان في إمكان أهل الأخبار جمع معلومات واسعة عن النصرانية في العراق قبل الإسلام ، برجوعهم الى رجال الدين النصارى الذين كانوا في الحيرة وفي مواضع أخرى من العراق ، وهم رجال لهم علم واسع بهذه الأمور ، لكن اختلافهم عنهم في الدين على ما يظهر ، وانصرافهم إذ ذاك

---

1 تفسير الطبري (٢٧/٣٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٥٥) ، (عزز) .

عن رواية كلّ ما يتعلق بالأمور الجاهلية خلا ما يتعلق بالنواحي القبلية وبالنواحي الأدبية واللغوية ، كانا من العوامل الـتي أدت الى غض نظرهم عن البحث في هذه الأمور .

وبفضل إقرار الاسلام لبعض أحكام وشعائر الجاهليين ، استطعنا الوقوف على جانب من أحكامهم وشرائعهم . فعرفنا بذلك بعض شعائر الحج من حجّ مكة ، وبعض أحكامهم وآرائهم في الدين ووجهة نظرهم الى الحلال والحرام ، والتقرب الى بيوت الأرباب وغير ذلك . وما كان في وسعنا الوقوف عليهـا لولا تعرض الإسلام لها بالإقرار والتثبيت ، أو بالتحريم والنهي،فأشير الى كلّ ذلك في القرآن الكريم وفي كتب التفسير وأسباب النزول والحديث .

وقد عُني المستشرقون بهذا الموضوع ، فكتبوا بحوثاً فيه. ومن هؤلاء (ولهوزن) J. Wellhausen صاحب كتاب(بقايا الوثنية العربية) Arabischen Heidentums [1] و (دتلف نيلسن) Ditlef Nielsen [2] و (لودولف كريـل) Ludolf Krehl وغيرهم[3] .

وقد اعتمد (ولهوزن) على ما نقله (ياقوت الحموي) من كتاب الأصنام ومن غيره،ذلك لأن كتاب الأصنام لم يكن مطبوعاً ولا معروفاً ايام ألف (ولهوزن) كتابه عن الوثنية العربية .

ويعدّ كتاب (ولهوزن) أوسع مؤلف في موضوعه كتبه المستشرقون عن الوثنية العربية . وقد كتب المستشرقون حديثاً جملة بحوث عن الأصنام العربية الّتي عثر عليها في الكتابات فاتّ ذكرها في كتــاب (ولهوزن) ، لأن أكثر النصوص الجاهلية لم تكن قد نشرت يومئذ ، ولأن كثيراً منها قد نشر حديثاً ، فلم يكن في استطاعة (ولهوزن) بالطبع أن يبحث في شيء من التفصيل في الوثنيـة ببلاد العرب الجنوبية . لذلك كان أكثر ما جاء في كتاب (ولهوزن) مستمداً من روايات

---

١ استعملت الطبعة الثانية ، وقد طبعت ببرلين سنة ١٩٢٧ م .

٢ Ditlef Nielsen, Die Altorabische Mondreligeon und die Mosaische Meberlieferung, Strassburg, 1904.

٣ Ludolf Krehl, über die Religion der Varislamishen Araber, Leipzig, 1863.
اذا أردت أسماء بعض المراجع عن هذا الموضوع ، فارجع الى :
D. G. Pfannmüller, Handbuch der Islam — Literatur, 1923.

الأخباريين . فمن الضروري اضافة هذه البحوث الجديدة الى ما كتبه هو وأمثاله، لنحصل على صورة شاملة عن أديان العرب قبل الاسلام .

وتفيد الأعلام الجاهلية المركبة Theophorus Names المدوّنة في النصوص الجاهلية وفي الموارد الاسلامية فائدة كبيرة في معرفة الأصنام ، وفي تكوين فكرة عنها . ففيها أسماء آلهة ، وفيها بعض الصفات الإلهية التي كان يطلقها الناس على آلهتهم . ونجد هذه الأسماء المركبة عند بقية الشعوب السامية كذلك . ومن مقارنة هذه الأسماء بعضها ببعض ، استخرج العلماء آلهة اشترك في عبادتها جمع الساميين[1].

ونعني بـ Theophorus Names الاعلامّ المركبة من أسماء آلهة ومن كلمات أخرى مثل (عبد) و (عطية) و (امرىء) و (أوس) و (عائذ) و (جار) و (عوذ) و (وهب) . ترد قبل اسم الإله أو بعده ، فيتألف منها ومن أسماء الآلهة أسماء أعلام ، مثل عبد الأسد، وعبد الله ، وعبد سعد، وعبد العزّى ، وعبد محرق ، وعبد ذي الشرى ، وعبد يغوث ، وعبد ودّ ، وعبد قيس ، وعبد شمس ، وامرىء القيس ، وأمثال ذلك من أعلام .

ومعظم هذه الأعلام المدونة في مؤلفات الاسلاميين ، أسماء أشخاص عاشوا في الجاهلية القريبة من الاسلام ، حفظتها ووعتها ذاكرة الرواة ، ومنهم تناقلها أهل الأخبار . والغالب عليها الابتداء بكلمة (عبد) للرجال و (أمت) أي أمة للنساء ، ترد قبل اسم الصنم . أما الأسماء المبتدأة بكلمات أخرى غير (عبد) ، فمثل (أحمس الله) و (امرىء مناة) ، و (امرىء القيس) ، و (أنس الله) و (أوس الله) ، و (تيم اللات) ، و (خيليل) ، و (زيد اللات) ؛ و (زيد مناة) ، و (سعد اللات) ، و (سعد مناة) ، و (سعد ودّ) و (سعد العشيرة) ، و (سكن اللات) ، و (سلم اللات) ، و (شراحيل) و (شرحيل) ، و (شرحبيل) ، و (شكم اللات) ، و (شهميل) ، و (شيع القوم) ، و (عائذ الله) ، و (عمرو اللات) ، و (عوذ مناة) و (عينيل) ، و (قسميل) ، و (مطرويل) ، و (وهب اللات) . وهي قليلة من حيث الاستعمال بالقياس الى الأعلام المبتدأة بـ (عبد)[2] .

---

١ Dr. H. Brau, Die Altnordarabischen Kultischen Personennamen, in WZKM, Bd. 32, 1925, S. 31. ff. 85. ff. Reste, I. ff, Ency., Religi.. I p: 659

٢ Reste, S. I.

ويلاحظ على بعض الأعلام المركبة ، مثل عمرو اللات ، وعوف إيل ، وجد اللات ، وسعد مناة ، وودّ ايل ، ان الكلمات الأولى من هذه الأسماء تتأخر في أعلام أخرى ؛ فتسبق بكلمة توضع قبلها فيتكون منها علم مركب جديد كما في الأسماء الآتية : عبد عمرو ، وعبد عوف ، وعبد جدّ ، وعبد سعد ، وعبد ودّ ، وقد كانت متقدمة في الأعلام الأولى . أما في هذه الأعلام فصارت في المنزلة الثانية .

وهذه الأسماء التي حفظتها ذاكرة أهل الأخبار ، تخالف أكثر الأعلام العربية والسامية القديمة المدوّنة في النصوص وفي مؤلفات اليونان والرومان والسريان وغيرهم من حيث الصيغ والتراكيب . فقد ابتدأت هذه الأعلام كما رأينا بكلمات تلتهـا أسماء الآلهة . أما الأعلام القديمة ، فقد كانت على العكس تبدأ باسم الصنم، وبعده الألفاظ الأخرى ، مثل : (الشرح) (ايل شرح) و (اليفع) (ايـل يفع) و (الذرح) (ايـل ذرح) و (الكرب) (ايل كرب) و (السمع) (ايل سمع) و (اليثع) (ايل يثع) وأمثال ذلك . أو تبدأ بكلمات ثم تليهـا أسماء الأصنام ، إلا أنها ليست في حالة الإضافة، بل على صورة الإخبار والفاعلية، مثل (يذكر ايل) و (يثع ايل) و (يدع ايل) و (يشرح ايل) و(يسمع ايل) . و (ايل) (ال) هنا هو اسم الإلـه (ال) (ايلو) المعروف عند جميع الساميين[1] .

وقد يوضع حرف الجر ، وهو (اللام) (لامد) في الاسم ، ليـدل على تعلق الاسم بالإلـه ، مثل (لحي عثت) في النصوص العربية الجنوبية ، وقد عثر على طائفة من هذه الأعلام في الكتابات الفينيقية والعبرانية[2] .

وقد تهمل الكلمة الثانية من الاسم المركب ، ويقتصر على اللفظة الأولى ، كما في : أوس ، وزيد ، ووهب ، وتيم ، وسعد ، ونصر ، وعائذ ، وعبـد ، وأمثال ذلك من أعلام . فإنها اختصار لـ (أوس الله) ، و (زيد اللات) ، و (زيد مناة) ، و (وهب اللات) ، و (تيم اللات) ، و (سعد مناة)

---

١ Reste, S. I, Nöldeke, über den Gottesnamen El, in Monatsberichte der Köni. Akademie der Wissenschaft zu Berlin, 1880, S. 761, 1887, S. 1175.

٢ Reste, S. 7, Nöldeke, in Wiener Zeitshrift für die Kunde des Morgenlandes, Bd., VI, S. 313.

و (سعد ودّ) ، و (سعد اللات) ، و (نصر اللات) ، و (عائذ الله) و (عبد ود) ، وغير ذلك . وقد يحدث العكس ، فتسقط الكلمة الأولى ، وتبقى الكلمة الثانية التي هي اسم الإلـه ، ويصير هذا الاسم اسماً لشخص أو لأسرة أو لقبيلة ، مثل : مناف ، وغنم ، وشمس ، وإساف ، ونائلة ، وزهـرة ، وقيس ، وعُطارد ، وهبل ، وجدّ ، وأمثال ذلك . فإن هذه هي أسماء آلهة في الأصل ، سبقت بكلمات مثل (عبد) ، ثم أهملت هذه الكلمات الأولى ، وبقيت أسماء الآلهة حية ، ولكنها صارت أسماء لأشخاص وأسر وقبائـل ، تسبقها لفظة (بنو) في بعض الأحيان ، لتدل على الانتماء الى ذلك الاسم[1] . ولهذا الانتماء أهمية كبيرة في نظر الباحثين في فلسفة الأديان وتأريخها .

ويلاحظ أن بعض الأعلام المركبة المبتدأة بـ (عبد) مثلاً ، لا تتكون كلمتها الثانية من اسم إلـه ، إنما تكون اسم موضع أو اسم شخص أو اسم جماد ، مثل: عبد حارثة ، وعبد المطلب ، وعبد أمية ، وعبد الدار ، وعبد الحارث ، وعبد الحجر ، وما شاكل ذلك . ولبعض العلماء تفاسير وتعليلات في العوامل التي أدّت الى هذه التسميات : منها أن بعض هذه الأسماء هو لآلهة قديمـة ، نسيت فظن أنها أسماء أشخاص : وأن بعضاً آخر منها هو أسماء أشخاص كانت لهم قدسيـة أو منزلة خاصـة ، فتبرك الناس بتسمية أولادهم عبيداً لهم ، وهو شيء يحدث حتى الآن ، إذ نقول عبد المسيح ، وعبد الرسول ، وعبد علي ، وعبد الأمير ، وعبد الزهرة ، وعبد محمد ، وان بعضاً آخر هو مسمّيات لمجتمعات ، مثل : عبد أهله ، وعبد العشيرة ، وسعد العشيرة ، أو انـه نسبة الى طوطم أو جماد مقدس في نظر الناس[2] .

وقد قضى الاسلام على الأسماء الوثنية ، كما قضى على كثير من معالم الجاهلية ، فاستبدل من أسلم اسمه الجاهلي الذي له صلة بصنم أو بشرك باسم إسلامي ، وبذلك زالت تلك التسميات . كما زالت أكثر التسميات اليهودية والنصرانية بدخول أصحابها في الإسلام . وهـذا شيء مألوف في تأريخ الانسان . فقد قضت اليهودية على الأسماء الوثنية القديمة ، وعوضت عنها بأسماء يهودية ذات صلة بالتوراة ، وقضت النصرانية على الأعلام الوثنية ، أو طورتها لتكون ملائمة مع النصرانيـة ، وهكذا

١ Reste, S. 7. ff.

٢ Robertson, p. 42, Reste, S. 4.

حدث في الأديان الأخرى ، بل وهـذا ما يحدث اليوم في كثير من أنحاء العالم القلقة عند وقوع انقلابات سياسية ، حيث تتناول الأسماء أيضاً بالتغيير والتبديل ، لتناسب الوضع الجديد .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الصحابة ، كانت أسماؤهم ذات صلة بالأصنام ، فلما أسلموا أبدلها الرسول بأسماء اسلامية . فقـد كان اسم كاتب النبي (عبدالله بن الأرقم بن أبي الأرقم) (عبد يغوث) فلما أسلم ، دعي (عبدالله)[1] . وكان اسم (عبدالله بن أصرم بن عمرو بن شعيثة) الهلالي ، (عبد عوف بن أصرم) ، فلما قدم على النبي ، فقال من أنت ؟ قال عبد عوف ، قال النبي : أنت عبدالله ، فأسلم[2] . ونجد غيرهما وقد أبدل الرسول أسماءهم ، حتى صار من يسلم يبدل اسمه إن كان له صلة بصنم ، حتى ماتت الأسماء الجاهلية التي هي من هذا القبيل .

والأساطير Myth = Mythos ، ونعني بها هنا الخرافات والأقاصيص المتعلقة بالآلهة Legend ، هي مصدر مهم لمعرفة تطور الأديان وتطور فكرة الألوهية عند الشعوب . وهي قد تكون شعراً ، وقد تكون نثراً،وفي كلتا الحالتين تكون مادة خصبة للباحثين .

ومعارفنا عن الأساطير العربية الدينية قليلة جداً . وهذا مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن العرب لم تكن لهم أساطير دينية عن آلهتهم ، كما كان عند غيرهم من الأمم كاليونان والرومان والفرس وعند بقية الآريين ، بـل حتى عند بعض الشعوب السامية الأخرى مثل البابليين[3] . وفي رأيي اننا لا نستطيـع أن نجزم في مثل هذه الأمور ، لأن أحكامنا عن اليونان والرومان والبابليين انما استنبطناها من نصوص ومؤلفات وصلت الينا . أما العرب الجاهليون ، فلم يصل الينا منهم حتى الآن نصٌ ما في هذا الموضوع، يمكننا من الحكم بعدم وجود الأساطير الدينية عند العرب الوثنيين .

ومشكلتنا أننا لا نملك كما قلت نصوصاً دينية جاهلية ، ولا كتباً كتبها يونان أو لاتين أو سريان أو غيرهم عن أساطير العرب في الجاهليـة نستطيع استخراج

---

١ الاصابة (٢/٢٦٥) ، (رقم ٤٥٢٥) .
٢ الاصابة (٢/٢٦٧) ، (رقم ٤٥٣٤) .
٣ Ency. Religl. I, p. 660.

حكم منها عن أساطير العرب . ولكن هذا الوضع لا يخولنا نفي وجود الأساطير عند العرب ، بحجة بداوتهم وضيق أفقهم وبساطة تفكيرهم ، كما أنه لا يخولنا أيضاً الحكم بوجود أساطير عندهم من طراز عالٍ كما نجده عند اليونان مثلاً .

ويتبين من بعض روايات الأخباريين ، وهي قليلة ، أن العرب كانت لهم أساطير كالذي رووه من أن (العَيوق) عاق (الدبران) لما ساق الى الثريا مهراً ، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً ، فهو يتبعها أبداً خاطباً لها ، ولذلك سموا هذه النجوم القلاص[1] وكالذي رووه عن (العَبُور) و (الغُمَيصاء) و(سُهَيل). وقد كانت هذه النجوم مجتمعة ، فانحدر سُهَيل فصار يمانياً ، وتبعته العَبُور فعبرت المجرَّة ، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت[2]. وكالذي رووه من أن (الزُهرة) كانت امرأة حسناء ، فصعدت الى السماء ومسخت نجماً ، وأمثال ذلك من قصص يظهر أنه من بقايا قصص أطول قديم[3] .

وإذْ لم تصل الينا نصوص دينية جاهلية ، صعب علينا تكوين فكرة صحيحة عن مفهوم الدين عند العرب ، وعن كيفية عبادتهم لآلهتهم ، وعن كيفية تصورهم للآلهة ، خاصةً عند العرب الذين عاشوا قبل الميلاد .

وقد تعيننا أسماء الآلهة والأعلام المركبة في تكوين وجهة نظر عن صفات آلهة الجاهليين . فكلمات مثل (ودّ) و (شرح) و (سعد) و (سمع) ، أو تعابير مثل (ذت حمم) (ذات حميم) و (ذت صنتم) (ذات صنتم) و (ذت رحبن) (ذات رحبن) و (ذت بعدن) (ذات بعدن) (وذ قبضم) (ذو قبضم) وما شابه ذلك ، لا بد أن تكون لها معانٍ خاصة تشير الى صفات الآلهة التي قيلت لها ، فتفيدنا في فهم عبادة الجاهليين وتفكيرهم في تلك الآلهة .

وإذا كانت بعض أسماء الآلهة أو صفاتها واضحة مفهومة تمكن الاستفادة منها في تكوين فكرة عن الآلهة ، فإن هناك بعضاً آخر يحيط بمعناه الغموض ، فلا نستطيع شرح معناه أو ترجمته الى اللغات الأخرى . وليس من المعقول بالطبع عدم وجود مدلول أو مراد لأسماء هذه الآلهة عند من وضعها لها ، ونسبها اليها، وانما المعقول هو ان هذه المسميات نسيت بتقادم الزمن وبزوال دولتها وعظمتها

---

١ بلوغ الارب (٢/٢٣٩) .
٢ بلوغ الارب (٢/٢٣٩) .
٣ البلخي : البدء والتأريخ (٣/١٤) .

من الوجود ، وضاعت معالمها ، فلم يبق منها إلا الأسماء المجردة [1] . ولعل معانيها كانت غامضة حتى على من كان يتعبد لها ، لاختفائها منذ زمن طويل ، وعدم ورود نصوص مدونة الى المتعبدين لها في هذه المعاني،وهذا شيء مألوف معروف .

وتختلف نظرة الانسان الى الخالق والخلق باختلاف تطوره ونمو عقله ، ولهذا نجد فكرة (الله) (الإله) التي تقابل كلمة Deus في اللاتينية وكلمة Theos في اليونانية وكلمة God في الانكليزية ، تختلف باختلاف مفاهيم الشعوب ودرجات تقدمها . فهي عند الشعوب البدائية القديمة والحديثة في شكل يختلف عن مفهومها عند الشعوب المتحضرة . كذلك اختلفت عند سكنـــة البوادي عن سكنـــة الجبال والهضاب،ويختلف مفهوم فكرة الله عند الشعوب السامية عنها عند الشعوب الآرية، لأسباب عديدة يذكرها علماء تأريخ الأديان[2] . بل يختلف هذا المفهوم في داخـــل الشعب الواحد ، يختلف فيه باختلاف ثقافة الانسان وتقدم مداركه العقلية، فتصور كل انسان خالقه على قدر عقله ودرجة ثقافته ، صوّره وكأنه مرآة صافية لنفسه ولدرجة نمو عقله . ومن هنا قيل : ان الانسان يصنع إلهه بنفسه ، أي يصوره على نحو صورته ومبلغ تفكيره .

يقول (أكسينوفان) Xenophanes : « تصور الأحباش آلهتهم فطس الأنوف، سوداً . وتصور أهل (تراقية) Thracians آلهتهم ذوي عيون زرق وشعر أحمر . وزعم اليونان أن تصورهم للآلهة هو التصور الصحيح . أما تصور الزنوج وأهل تراقية عن آلهتهم ، فهو تصور فاسد باطل ! ولو كان للماشية والخيل والسباع أيد تتمكن من الرسم والنحت ، لرسمت الخيل آلهتها على صورة خيل،ولنحتت تماثيلها على صورتها ، ولرسمت الماشية ونحتت آلهتها على صورتها وهيئتها، تماماً كما يصور الانسان وينحت آلهته على صورته وقدر إدراكه . كـل صنف يتصور ويرى آلهته على صورته »[3] . وقد نسب اليونان الى آلهتهم كل الصفات والأعمـــال الانسانية المعروفة بين اليونانيين ، فتصوروهم على هيئة بشر ، لهم الفضائل،ولهم الرذائل، يتزوجون وينسلون ويحبّون ويعشقون ويسرقون ويكرهون ويتخاصمون بينهم ويتحاسدون

---

١ Handbuch, S. 189.

٢ Ency. Religi., Vol. 6, p. 243, W. Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semites, London, 1894, p. 5, Ency. Britd., 10, p. 480, «Lyod».

٣ Ency. Religi., 10, p. 113.

ويقومون بأقبح الأعمال كما يفعل الانسان[1] .

وهناك أشكال عديدة للعبادة ، تمثل تعدد وجهة نظر الانسان بالقياس الى مفهوم الألوهية لديه . فهناك عبادة تسمى عبادة آباء القبائل ، حيث أسبغ على أجداد القبائل ما يسبغ عادة على الآلهة من نعوت وصفات . وتجد هذه العبادة عند القبائل البدائية . وقد يكون هؤلاء الأجداد أجداداً حقيقيين ، وقد يكونون أشخاصاً خلقتهم الأساطير . ومهما يكن من شيء ، فقد أعطي هؤلاء صفات الربوبية ونعوتها ، ونظر اليهم نظرة من فيه قوى خارقة ذات هيمنة على العالم والخلق . وقد اصطلح على تسمية هذه العبادة بـ All Fathers في الانكليزية وبـ Verehrung des Stammesvaters و بـ Urvaters في الألمانية ، لأنها تقوم على أساس عبادة الأجداد[2] .

وألّه بعض الناس الظواهر الطبيعية ، لتوهمهم أن فيها قوى Spirit روحية كامنة مؤثرة في العالم وفي حياة الإنسان، مثل الشمس والقمر وبعض النجوم الظاهرة. وقد كانت الشمس والقمر أول الأجرام السماوية التي لفتت أنظار البشر اليها ، لما في الشمس من أثر بارز في الزرع والأرض وفي حياة الانسان بصورة مطلقة . كذلك للقمر أثره في نفس الإنسان بما يبعثه من نور يهدي الناس في الليل ، ومن أثر كبير يؤثر في حس البشر . فكانا في مقدمة الأجرام السماوية التي ألّهها الانسان. عبدهما مجردين في بادىء الأمر ، أي دون أن يتصور فيهما ما يتصور من صفات ومن أمور غير محسوسة هي من وراء الطبيعة . فلما تقدم وزادت مداركه في أمور ما وراء الطبيعة ، تصور لهما قوى غير مُدْرَكة ، وروحاً ، وقدرة ، وصفات من الصفات التي تطلق على الآلهة . فخرجتا من صفتهما المادية البحتة ومن طبيعتهما المفهومة ، وصارتا مظهراً لقوى روحية لا يمكن ادراكها ، إنما تدرك من أفعالها ومن أثرهما في هذا الكون .

وإذا كانت هذه العبادة قد اقتصرت على الظواهر الطبيعية البارزة المؤثرة ،

---

١ Ency. Religi., 10, p. 113.

٢ في الاصل « Father ours » ، وقد أطلق « هويت » « Howitt » الاصطلاح « All Father » عليه ،

Howitt, Native Tribes of S.E. Australia, London, 1904, Making of Religion, London, 1898, Ency. Religi., Vol. 6, p. 243.

فإن هناك توسعاً في هذه العبادة تراه عند بعض الأقوام البدائية ، يصل الى حد تقديس الأحجار والأشجار والآبار والمياه وأمثال ذلك ، إذ تصوروا وجود قوى روحية كامنة فيها ، فعبدوها على أن لها أثراً خطيراً في حياتهم . ونجد في أساطير الشعوب البدائية أن الإنسان من نسل الحيوان ومن الأشجار أيضاً ، كذلك تجد أمثلة عديدة من هذا القبيل في أساطير اليونان والرومان والساميين .

وهناك الشرك ، وهو عبادة آلهة عديدة ، كما ان هناك عقيدة التوحيد التي تدين بوجود إلـه واحد خالق لهذا الكون . وليس للشرك بالطبع عدد معين من الآلهة ، فقد يكون بضعة آلهة ، وقد يكون عشرات . والشرك هو الدين المعاكس لدين التوحيد ، ويعرف بإسم : Polytheism في الانكليزية من كلمة Polys اليونانية ومعناها (كثير) و (تعدد) ، ومن كلمة يونانية ثانية هي Theos وتعني (الإلـه) (الآلهة) . ويختلف الشرك عن عقيدة الـ Polydaemonism القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعة Nature ، كما يختلف عن أديان التوحيد Monotheism من حيث القول بتعدد الآلهة ، وعن القائلين بمبدأ (الحلول) (Pantheism) من حيث حلول الإلـه في الخلق والخلق في الإلـه[1] .

وتطلق في العربية كلمة (إلـه) على الإلـه الواحد ، وكلمة (آلهة) في حالة الجمع ، أي في حالة القول بوجود آلهة عديدة . وتقابل كلمة (إلـه) كلمة (ايلوه) Eloah = Eloh في العبرانية الواردة في سفر (أيوب) . ومنها كلمة (إيلوهيم) Elohim في حالة الجمع ، أي آلهة المستعملة في العهد القديم بالقياس الى آلهة الوثنيين[2] . وكلمة (إلـه) لا تعني على كل حال إلهاً معيناً على نحو ما تعنيه لفظة (الله) في العربية التي يراد بها الله الواحد الأحد ليس غير .

أما (الله) ، وهي كلمة الجلالة ، فهي (اسم علم) خاص به على رأي، وهي (علم مرتجل) في رأي آخر . وقد ذهب الرازي الى انه من أصل سرياني أو عبراني . أما أهل الكوفة فرأوا انه من (ال إلـه) ، أي من أداة التعريف

---

١ Ency. Religi., Vol. 10, p. 112.

٢ Hastings, p. 299, Ency. Religi., Vol. 6, p. 248, Ency. Bibli., III, Col. 33239 Hebrew Lexicon, 42, Ency., II, p. 464.

(ال) ومن كلمة (إله) . وهناك آراء لغوية أخرى في أصل هذه اللفظة [1] .

ولم يعثر على لفظة (الله) في نصوص المسند ، وإنما عثر في النصوص الصفوية على هذه الجملة : (ف ه ل ه) ، وتعني (فالله) أو (فيا الله) و (الهـاء) الأولى هي أداة التعريف في اللهجة الصفوية . وقد وردت الجملة على صورة أخرى في بعض الكتابات الصفوية . وردت على هذا الشكل : (فـ ه ل ت) ، أي (فالات) (فيا الآت) أي في حالة التأنيث . وتقابل (اللات) ، وهي صنم مؤنث معروف ذكر كذلك في القرآن الكريم [2] .

ويظن بعض المستشرقين أن (الله) هو اسم صنم كان بمكة ، أو أنه (إلـه) أهل مكة ، بدليل ما يفهم من القرآن الكريم في مخاطبته ومجادلته أهل مكـة من اقرارهم بأن الله هو خالق هذا الكون [3] .

وترد في العربيـة كلمة أخرى من الكلمات المختصة بالخالق ، هي (ربّ) وجمعها (أرباب) . وهي من الكلمات العربية الجاهلية المذكورة بكثرة في القرآن الكريم ، ولهـا معنى خاص في اللاهوت وفي الأدب العربي النصراني . وتقابل كلمة Lord في الانكليزية . وكلمة (بعل) ، و (ادون) في اللغات السامية الأخرى[4] . ويذكر علماء اللغة أن (الربّ) هو الله ، هو ربّ كلّ شيء ، أي مالكه . وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو ربّ الأرباب، ومالك الملوك والأملاك ، ولا يقال الربّ في غير الله ، إلا بالإضافة .

وقد قال الجاهليون : (الربّ) للملك . قال الحارث بن حلزة :

وهو الربّ ، والشهيد على يو م الحيـارين ، والبلاء بلاء[5]

ويظهر أن لفظـة (الرب) و (رب) كانت بمعنى (سيد) ومالك عند

---

١ الطبري : تفسير (١/٤٠) ، اللسان (١٧/٣٥٨) ، الكشاف (ص ٨) ، تفسير الرازي (١/٨٤ وما بعدها) ، البيضاوي (١/٤) طبعة (Fleisher) المفردات ، للاصفهاني (ص ١٩ وما بعدها) . Ency., II, p. 464.

٢ Ency. Religi., Vol. 6, p. 248.

٣ Ency. Religi., Vol. 6, p. 248.

٤ Ency. Religi., Vol. 6, p. 248, Ency., III, p. 1088.

٥ اللسان (١/٣٩٩) ، (ربب) .

الجاهليين ، ولم تكن تعني العلمية عندهم . أي ألوهية خاصة بالله ، وهي تؤدي معنى (بعل) عندهم أيضاً . فكانوا يطلقونها على الإلـه والآلهة وعلى الإنسان باعتباره سيّداً ومالكاً . أما هذا التخصص الذي يذكره علماء اللغة ، فقد حدث في الإسلام من الاستعمال الوارد في القرآن الكريم .

و (ربّ البيت) ، الله ، وكذلك : (رب هـذا البيت)[1] . و (رب الدار) ، أي مالكها ، وكل من ملك شيئاً ، فهو ربّه . وبهذا المعنى (هو رب الأرباب) . أما (الربة) ، فعنوا بها الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف بالطائف . وكان لهم بيت يسمّونه (الربة) و (بيت الربة) ، يضاهي (بيت الله) بمكة . فلما أسلموا هدمه (المغيرة) . و (الربة) : كعبة كانت بنجران ، لمذحج وبني الحارث بن كعب يعظمها الناس[2] .

وأما (بعل) ، فمعناها مالك وصاحب ورب في اللهجات السامية . فترد بعل الموضع الفلاني ، أي صاحب ذلك الموضع وربه . ومؤنث الكلمة هو (بعلت) . وترد كلمة (بعل) بمعنى زوج في العربية ، وقد وردت بهذا المعنى في مواضع من القرآن الكريم[3] ، وأما الزوجة ، فهي (بعلت) (بعلة) أي في حالة التأنيث[4] .

ولما كانت لفظة بعـل تعني الرب والصاحب ، صار اسم الموضع يرد بعـد (بعل) ، فيقال : (بعل صور) ، و (بعل لبنان) ، و (بعل غمدان)، أي رب المواضع المذكورة وصاحبها وسيدها . أما اذا وردت اللفظة مستقلة دون ذكر اسم الموضع المنسوب اليها بعدها ، فتعني عندئذ رب وإلـه، أي رب الجماعة المتعبدة المؤمنة به[5] .

وقد ورد في القرآن الكريم في صدد الكلام عن الياس Elijah « وانّ إلياسَ لَمِنَ المرسلين . إذ قـال لقومه : ألا تتقون ؟ أتدعون بعـلاً وتذرون أحسن الخالقين »[6] . وقد ذهب الطبري في تفسير (بعل) في هذه الآية الى أن بعـلاً

---

١ (فليعبدوا رب هذا البيت) ، قريش ، الآية ٣ .
٢ اللسان (٣٩٩/١ وما بعدها) ، (ربب) .
٣ البقرة : الآية ٢٢٨ ، هود : الآية ٧٥ ، النور ، الآية ٣١ .
٤ Ency., I, p. 610, Robertson, p. 94.
٥ Robertson, p. 94.
٦ الصافات ، الآية ١٢٢ وما بعدها .

تعني رباً في لغة أهل اليمن ، او ان المراد ببعل صنم[1] .

ومن رأي (روبرتسن سمث) Robertson Smith أن العرب اقتبسوا المعنى الديني لبعل من الأقوام السامية المجاورة لهم مثل سكّان (طور سيناء) أو موضع آخر ، أخذوه من تلك الأقوام التي عرفت باشتغالها بالزراعة ، ولا سيما زراعة النخيل ، وان هذا المعنى دخل اليهم بدخول زراعة النخيل الى بلاد العرب ، وأنه استعمل عند العرب المزارعين . أما البدو والرعاة ، فإنهم لم يستخدموا تلك اللفظة بالمعنى المذكور[2] . وهو رأي يخالف رأي بعض المستشرقين من أمثال (نولدكه) Nöldeke و (ولهوزن) Wellhousen الذين يرون أن عبادة (بعل) هي عبادة سامية قديمة كانت معروفة عند قدماء العرب منذ أقدم العهود[3] .

ويرى بعض المستشرقين ان لفظة (بعل) أطلقت خاصة على الأرض التي لا تعتمد في زراعتها على الأمطار أو على وسائل الري الفنية، بل على المياه الجوفية وعلى الرطوبة في التربة ، فينبت فيها خير أنواع النخيل والأثمار ، فهي تمثل الخصب والنماء . والظاهر ان الساميين كانوا يخصصون أرضهم بالآلهة، لتمنّ عليهم بالبركة واليمن ، فتكون في حمى ذلك الإله (بعل الموضع الفلاني) . ومن هنا صارت جملة (بعل سميم) (بعل سمن) (بعل سمين) تعني (رب السماء) ، ويعنى بذلك المطر الذي هو أهم واسطة من وسائط الإسقاء والخصب والنماء في جزيرة العرب وفي البلاد التي يسكنها الساميون[4] . ورأى مستشرقون آخرون ان جملة (أرض بعل) تعني الأرض التي تسقى بالأمطار[4] .

وذكر العلماء أن لفظة (الال) بمعنى الربوبية ، واسم الله تعالى . وأن كل اسم آخره (ال) أو (ايل) فمضاف الى الله تعالى ، ومنه (جبرائيل) و (ميكائيل) . وذكر أن (أبا بكر) لما سمع سجع (مسيلمة) ، قال : هذا كلام لم يخرج من ال ولا بر ، أي لم يصدر عن ربوبية[6] . وقد ذهب

---

١ تفسير الطبري (٢٣/٥٣) ، Ency., I, p. 610.

٢ Robertson, p. 97.

٣ Nöldeke, in ZDMG., Bd. 40, 1886, S. 174, Reste, S. 146, Handbuch, I, S. 240.

٤ Robertson, p. 97, Ency. Religl., I, p. 664.

٥ Reste, S. 146.

٦ تاج العروس (٧/٢١١ وما بعدها) ، (أل) .

بعض علماء اللغة الى أن اللفظة (ايل) من المعربات . عربت عن العبرانية، وهي فيها اسم الله[1] . وهي من الألفاظ العامة التي ترد في اللغات السامية ، ولا يعرف معناها على وجه مضبوط ، ويظن أنهـا بمعنى (القادر) و (العزيز) والقهار ، والقوي ، والحاكم . وترد في الشعر وفي أسماء الأعلام في الغالب . وقلـما نجدها ترد في النثر[2] .

وقد وردت في نصوص المسند وفي نصوص أخرى ألفاظ كثيرة مثل (ود) و (سمع) أي (سميع) و (حـكم) أي (حكيم) ، و (حلم) أي حليم) و (علم) أي (عالم) و (عليم) ، و (رحم) أي (رحيم) ، و (رحمنن) أي (الرحمن) ، وأمثال ذلك . ذكرت على صورة أسماء آلهة . لكنها في الواقع صفاتها لا أسماؤها . ذكرت في مقام ذكر أسماء الآلهة ، كما يقول المسلم في دعائه ربه يا سميع ويا حكيم ويا رحيم . وهي صفات وردت في القرآن الكريم .

وعلى من يريد الوقوف على رأي الجاهليين في طبائع آلهتهم وفي تعيين صفاتها، حصر هذه الصفات وضبطها ، وتعيين مدلولها ، وهي صفات تدل على معـان خلقية مجردة . وستمكن بذلك من الوقوف على نظرة الجاهليين الى آلهتهم ، ومن تعيين وتثبيت عددها إذ سيظهر لنا من هذه الدراسة ان أكثر تلك الأسماء ليست أسماء آلهة ، وانما هي صفات لها ، وان الكلمات التي لا يشك في كونها أسمـاء صحيحة قليلة جـداً ، ربما لا يتجاوز عددها الثلاثة ، هـي الثالوث . ومن يدري ؟ فقد تكون في النتيجه اسماً لإلـه واحد ، وعندئذ يمكن أن نتوصل الى نتيجة علمية بالقياس الى عقيدة الشرك أو التوحيد عند العرب الجاهليين .

ويجد الانسان اليوم سذاجة مضحكة في بعض العقائد الدينية التي كانت عنـد الشعوب القديمة ، ويستصعب تصور اعتقاد الناس بها ، وهو ينسى أن هذه العقائد أو بعضها على الأقل ، لا تزال معروفة بين بعض قبائل افريقية وأستراليا، وأماكن أخرى من العالم ، وان العقل الانساني في تطور مستمر ، وان هناك بشراً يؤمنون بعقائد ورثوها عن آبائهم لا تقل غرابة عن غرابة بعض المعتقدات الـتي نؤاخذ

---

١ تاج العروس (٢١٨/٧) ، (ايل) .

٢ Hastings p. 299 «God».

بها قدماء البشر ، مع أنهم من الشعوب المتقدمة في الحضارة وفي المدنيـــة ، ومن القرن الــذي نفتخر بتسميته بقرن العقوق على الأم ، والهروب منهـــا الى بيوت أخرى ، تكون بعيدة عنها ، سابحة في هذا الفضاء .

وقد يصعب على الانسان اليوم تصوّر وجود فائدة أو ضرر من أشياء جامدة لا يمكن قطعاً أن تضرّ أو تنفع ، ولكن القدماء تصوروه مع ذلك واعتقـــدوه . فقدسوا الأحجار والأشجار والحيوانات ، وقدّسوا الأرواح والأمـوات من الآباء والأجداد والقديسين ، وتعبّدوا لها . ولهذه العبادات أسماء علميـة خاصة اصطلح على تسميتها العلماء .

والدين هو إيمان وعمل : إيمان بوجود قوى هي فوق طاقة البشر ، لها تأثير في حياته وفي مقدراته ؛ وعمل في أداء طقوس معينة تعين شكلها الأديان للتقرب إلى الآلهة ولاسترضائها . والإيمان هو قبل العمل بالطبع ، فلا بد للقيام بالشعائر ، أو بأداء العمل ، من وجود إيمان عنـــد الشخص أو الأشخاص بوجود إلـه أو آلهة . حتى يقوم بعمل ديني[1] . فالعمل تابع للايمان ، ونتيجة من نتائجه ، وهو شعاره ومظهره . وهو أبرز عند الأقوام البدائية من الايمان لدرجة عقليتها ومجال تفكيرها الضيق . ومن العمل : الرقص ، والأفراح الدينية ، والسحر ، والقرابين ، والحج ، والصلوات[2] .

وقد أقر الاسلام أشياء من أمور الدين كان يمارسها الجاهليون في جاهليتهم ، لأنها لا تتعارض مع مبـــادىء الإسلام . ودراسة أمثال هذه الأشياء توضح لنـــا نواحي خافية علينا في الزمن الحاضر من الحياة الدينية عند الجاهليين ، لذلك أرى من الضروري تتبع هذه الأشياء لتدوين تأريخ صحيح للدين عند الجاهليين . وأرى من الضروري كذلك تتبع الأساطير والعادات الموروثة التي لها صلة وعلاقة بالدين الجاهلي بين الأعراب والحضر في كل أصقـــاع جزيرة العرب ، ولا سيما القرى العربية النائية عن العمران المنعزلة عن الأعاجم ، فإن معظم هذه الأساطير والتقاليد هي من بقايا الوثنية العربية القديمة ، بقيت جذورها ثابتة راسخة في الأفئدة حتى اليوم .

---

١ The Golden Bough, p. 50, Abridged Edition.

٢ Ency. Brita., Vol. 19, p. 108.

ولا بد أيضاً لدراسة الدين عند الجاهليين دراسة صحيحة من الرجوع الى أصول الأشياء ، وأعني بأصول الأشياء هنا ديانة الساميين الأولى بشكلها البدائي القديم . فمن تلك الشجرة تفرعت أديان الشعوب السامية ، وفي ذلك الدين نجـد الأصول والأسس التي بنيت عليها الديانات الفروع .

أما كيف نتمكن من الرجوع الى الأصل ومن معرفة ديانة الساميين القديمة ، فموضوع ليس بالسهل اليسير ، ونحن ، وان كنا نملك بعض المؤلفات والبحوث عن أديان الساميين ، لا نستطيع أن نجرؤ فنقول ان البحث قد نضج فيه ، وان القوم قد استوفوه من أطرافه وأكملوه ، بل ان كثيراً ممـا تطرق اليه العلماء هو موضع جدل واختلاف ، ولن يمكن التوصل الى نتائج مقبولة معقولة إلا اذا تمكن الباحثون من الحصول على وثائق جديدة تكشف النقاب عن أديان قدماء الساميين.

وللتوصل الى تكوين رأي عن أديان الساميين القديمة لا بد من دراسة النصوص الدينية الساميّة كلها ، ودراسة كل ما له صلة بالدين عنـد الساميين ، ومقارنة الأديان السامية بعضها ببعض ومراجعة الأصول اللغويـة للمصطلحات الدينية عند جميع الشعوب السامية للتوصل منها الى الأسس العميقة المدفونة التي أقيم عليها بنيان ديانـة الساميين . ثم لا بد أيضاً من دراسة المؤثرات الخارجيـة التي أثرت في الساميين من عوامل طبيعية ومن عوامل أخرى غير طبيعية ومن الأثر الثقافي الذي كان لغير الساميين في الساميين .

ويتبين من دراسة الأساطير السامية وجود شكل من أشكال التوحيد Henoteism عند القبائل السامية البدائية ؛ يمثل في اعتقاد القبيلة بوجود إلـه لها واحد أعلى ، غير ان هذا لا يعني نفي اعتقادها بتعدد الآلهة . فإننا نرى ان تلك القبائل كانت تعتقد ، في الوقت نفسه، بالأرواح كأنها كائنات حية ذات أثر وسلطان في مصير هذا الكون ، وفي ضمنه الانسان ، وبآلهة مساعدة للإلـه الكبير[1] .

والديانات السامية ، وإن كانت في الأصل من ديانة قديمة،قد تطورت وتغيرت بعوامل عديدة من العوامل التي تؤثر في كل المجتمعات البشرية فتحدث فيها انقلاباً في التفكير وفي طراز الحياة . ومن هذه العوامل المؤثرات الخارجية والمحيط الجديد. وسنجد ان ديانة العرب الجنوبيين ، وإن كانت في الأصل من تلك الديانة السامية

---

[1] Ency. Religl., II, p. 283.

الأصلية فيها مثل (ال) (ايل) وأمثال ذلك ، قد غيرت في ديانتها، وبدّلت في تصوراتها للآلهة ، حتى صارت في بعض معتقداتها على نقيض مع معتقدات الساميين الشماليين .

وفي الدين معبود يعبد هو الله ، أو جملة آلهة ، أو قوى خارقة تلعب في مقدرات الانسان. وعبدة يتعبدون له أو لها . فهم عبّاده أو عبّادها . و (العبادة) الطاعة ، وأداء الواجبات المفروضة على الانسان تجاه الله[1] ، أو الآلهة .

والرأي المعروف بين الناس حتى الطبقة المتعلمة منهم ، أن العرب الجاهليين كانوا على جانب عظيم من الانحطاط الديني قبل الاسلام ، وأن تفكيرهم في ذلك تفكير منحطّ لا يتجاوز تفكير القبائل البدائية . وهو رأي خاطىء ، يفنده القرآن الكريم . وإذا كان ما يقوله صحيحاً بالقياس الى السواد والأعراب ، فإنه لا يصح أن يكون حكماً عاماً على الكلّ ، ولا سيما على المتحضرين وعلى من كان لهم اتصال بالعالم الخارجي .

وتأريخ أديان العرب قبل الإسلام ، فصل مهم جداً من فصول تأريخ العرب عامة قبل الاسلام وبعدها ، بدونه لا يمكن فهم عقلية القوم الذين نزل الوحي بينهم وطريقة معرفة تفكيرهم ووجهة نظرهم الى الخالق والكون ثم الأسباب التي دعت الى نزول الوحي وظهور الإسلام . وبدون دراسة أديان الجاهليين ومقالاتهم في الخالق والخلق ، لا نتمكن أبداً من فهم رسالة الإسلام فهماً صحيحاً . بل ان هذه الدراسة أيضاً فصل مهم جداً لفهم كثير من الأمور الواردة في التوراة والانجيل إذ كان العرب قوماً من هذه الأقوام التي كانت لها صلات قديمة بأرض الوحي التي نزل بها الكتاب المقدس بعهديه ، وعضو فعال في هذه المجموعة المسماة بالشعوب السامية . ما نعثر عليه من جديد في الناحية الدينية، يكشف عن غوامض عديدة من غوامض العهدين، فجدير بالعلماء وبنا إذن الانصراف الى البحث والاستقصاء للعثور على المصطلحات المفقودة من هذا الفعل .

وسنرى في الفصول القادمة أسماء رجال كان لهم شأن وخطر في الحياة الدينية للجاهليين ، وقد زعم أهل الأخبار ان بعضاً منهم كان من الأنبياء الذين جاءوا الى قومهم برسالة . وان بعضاً آخر ، كان من المصلحين الهادين ، من أصحاب

---

[1] تاج العروس (٢/ ٤١٠ وما بعدها) .

العقول النيرة التي هزأت بالأوثان وبديانات قومهم . وان رجالاً منهم كانوا على الحنيفية ، يريدون بها ديانة التوحيد ، وان آخرين بشّروا بالوثنية، وأشاعوها بين العرب ، لما كان لهم من مكانة ونفوذ . وان رجالاً من الجاهليين كانوا على ملة اليهودية ودين المسيح . وان قوماً من أهل الجاهلية كانوا على عبادة (الله) و (الرحمان) ، وكل المذكورين كانوا ممن مهد الجادة اذن لظهور الاسلام .

وقد أدى ظهور الاسلام الى ظهور مصطلحات جديدة وموت مصطلحات قديمة، وصارت هذه المصطلحات من علائم الوثنية . ولا بد لنا للوقوف على صورة أوضح للحياة الدينية عند الجاهليين من وجوب دراسة الألفاظ الجاهلية ذات المعاني الدينية بجمعها وتبويبها وتثبيت معانيها ، فبهذه الدراسة نستطيع الوقوف على مبلغ تغلغل الحياة الدينية في نفوس الجاهليين ، ومعرفة مدى تعمقهم في الدين وفهمهم له .

ومن الدراسات التي يجب أن تنال منا الرعاية والعناية لمعرفة الحياة الدينية وتطورها عند الجاهليين معرفة صحيحة ، دراسة المصطلحات الدينية بحسب اللهجات العربية، وأماكن تلك اللهجات ، وأسماء الأصنام أو الأوثان ، ومعتقدات سكان تلك الأرضين في هذه الأيام ، فإن دراسة مثل هذه تفيدنا فائدة كبيرة في معرفة أسس الحياة الدينية عند الجاهليين ، وفي معرفة اختلاف العرب أو اتفاقهم في العقائد وفي الأمور الدينية ، ومعرفة العوامل والأسباب التي أدت الى ذلك ، ثم معرفة المؤثرات الخارجية في الحياة الدينية للجاهليين . وبتثبيت هذه وأمثالها وبمقارنتها بأسماء أصنام الأقوام المجاورة وآلهتهم ومصطلحاتهم ، نستطيع فهم كثير من الأمور الغامضة من الحياة الدينية عند العرب وعند تلك الأقوام ، وفهم الاحتكاك العقلي والصلات الروحية التي كانت بين تلك الشعوب قبل الاسلام .

إن الأخباريين عفا الله عنهم ، لم يعنوا بتنسيق هذا الذي توصلوا اليه ورووه لنا من آراء الجاهليين في الدين . فرووا روايات مختلفة متناقضة أو مقتضبة اقتضاباً مخلاً وجاءوا بأمور تثبت ان أولئك الأخباريين لم يكونوا على مستوى عالٍ من النقد والتعمق في دراسة الأخبار ، وانهم كانوا يروون أخبارهم بالمعنى المفهوم من الأخبار ؛ يأخذون ما يقال لهم فيروونه على نحو ما سمعوه وإن كان فيما يروونه ما يخالف المنطق والفهق السليم . والاستسلام للروايات داء يذهب بالفائدة منها ، ويعود على المؤرخ بأفدح الأضرار . ولهذا نجد أنفسنا في موضوع أديان العرب

قبـل الاسلام في زوبعة عاتية وعاصفة مليئة بالرمال نتخبط فيهـا للحصول على مخرج نخرج منه ، وليس لنا إلا الأمل بالخروج من هذه العاصفة العاتية المتعبة في وقت ما .

وهذا الذي أورده أهل الأخبار عن أهل الجاهلية على ما فيه من تناقض وتضارب واقتضاب ، هو كما رأينا مادتنا الوحيدة عن الحياة الدينية عند عرب الجاهلية قبيل الاسلام وعند ظهوره ، ولا سيما بالنسبة الى عرب الحجاز وعرب الشأم والعراق . وهناك روايات لم نستفد منها حتى الآن ، لصعوبة التوصل اليها ، لا لكونها في بطون المخطوطات ، ولهذا يصعب الحصول عليها . فإن الكثير منهـا قد طبع ، وهو في متناول الأيدي ، إنمـا صعوبتها في كونها في كتب مطبوعة طبعاً على الطريقة القديمة بلا نظام ولا ترتيب ولا تبويب فنيّ ولا فهرست لما في الكتـاب المطبوع من مواد ومن أسماء أشخاص أو أصنام أو أوثان أو ما شابه ذلك . وليس أمام المؤرخ في هذه الحالة إلاّ أن يقرأ تلك الكتب من بسملتها حتى منتهاها ، ليحصل منها في النهاية على كلمة أو كلمتين أو خبر أو أخبـار ، ولكن كيف يتمكن المؤرخ من قراءة كتب ضخمة كتفسير الطبري وكتب التفـاسير الأخرى وشروح الحديث وكتب التواريخ والطبقات وبقية الكتب إذا كان الكتـاب يتألف من أكثر من عشرة أجزاء ، وهي كلها بلا فهرست للأعلام ولا لما في الكتاب من فوائد ومواد . لا يتمكن المؤرخ بالطبع من قراءة كلّ هذه الموارد المذكورة مع تساوي عمره بسائر أعمار الناس ، ولو مدّ الله في عمره وصيّره إنساناً آخر ذا عمر طويل من أعمار الأناس الذين أرخهم (السجستاني) في كتاب المعمرين ، لتمكن من الإحاطة ببعض تلك الموارد على الأقل . غير أن عمر المؤرخ ويا للأسف مثل أعمار سائر النـاس ، قصير محدود ، فليس في إمكانه الإحاطة بما ورد في هذه الكتب الواسعة المجهولة ، على ظهورها في عالم الوجود ووجودها في خزانة كتب المؤرخ وفي يد أي شخص يريد الحصول عليها ، لأن الموضوع ليس موضوع وجود كاتب مطبوع أو مخطوط ، إنما هو اكتشاف ما في المطبوع أو المخطـوط من آراء وأخبار وأعلام .

ما دام الوضع على هذا الحال وما دامت أكثر كتبنا غير مفهرسة ولا منسقة ، فليس في استطاعة المؤرخ أن يأتي بشيء كثير يشفي غليـل من يريد المزيد من

المعرفة عن الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام . .وهذا أمر يؤسف له بالطبع كثيراً . وسيأتي بعدنا من يضيفون الى هذا العلم البسيط الذي توصلنا اليه علماً كثيراً ، ثم يتوصل من بعدهم الى أكثر من ذلك ولا شك . ومن يدري ؟ فلعلّهم يتوصلون الى كتابات جاهلية تغنيهم عن كل هذا الذي أخذناه من موارد إسلامية كتبت بعد الجاهلية بعشرات السنين . وليس لنا ، وسنكون بالطبع من الماضين ، إلاّ أن ندعو لمن يأتي بعدنا بالتوفيق والنجاح التام .

الفصل الثاني والستون

التوحيد والشرك

كانت العرب في الجاهلية على أديان ومذاهب : كان منهم من آمن بالله ، وآمن بالتوحيد ، وكان منهم من آمن بالله ، وتعبد للأصنام ، اذ زعموا أنها تقربهم اليه . وكان منهم من تعبد للأصنام ، زاعمين أنها تنفع وتضر ، وأنها هي الضارة النافعة [1] . وكان منهم من دان باليهودية والنصرانية ، ومنهم من دان بالمجوسية ، ومنهم من توقف ، فلم يعتقد بشيء ، ومنهم من تزندق ، ومنهم من آمن بتحكم الآلهة في الانسان في هذه الحياة ، وببطلان كل شيء بعد الموت، فلا حساب ولا نشر ولا كتاب ، ولا كل شيء مما جاء في الإسلام عن يوم الدين .

ومذهب أهل الأخبار ، أن العرب كانوا على دين واحد ، هو دين ابراهيم، دين الحنيفية ودين التوحيد . الدين الذي بعث بأمر الله من جديد ، فتجسد وتمثل في الاسلام . وكان العرب مثل غيرهم ، قد ضلوا الطريق ، وعموا عن الحق ، وغووا بعبادتهم الأصنام . حببها لهم الشيطان ، ومن اتبع هواه من العرب، وعلى رأسهم ناشر عبادة الأصنام في جزيرة العرب : (عمرو بن لحي) .

وذهب (رينان) Renan الى ان العرب هم مثل سائر الساميين الآخرين

---

١ أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله النجيرمي الكاتب ، أيمان العرب في الجاهلية ، (تحقيق محب الدين الخطيب) ، (القاهرة ١٣٨٢) « ص ١٢ وما بعدها » .

موحدون بطبعهم ، وان دياناتهم هي من ديانات التوحيد . وهو رأي يخالفه فيه نفر من المستشرقين[1] .

وقد أقام (رينان) نظريته هذه في ظهور عقيدة التوحيد عند الساميين من دراسته للآلهة التي تعبّد لها الساميون ، ومن وجود أصل كلمة (ال) (ايل) في لهجاتهم ، فادعى ان الشعوب السامية كانت تتعبد لإلـٰه واحد هو (ال) (ايل) الذي تحرف اسمه بين هذه اللهجات ، فدعي بأسماء أبعدته عن الأصل ، غير ان أصلها كلها هو إلـٰه واحد ، هو الإلـٰه (ال) (ايل)[2] .

و (التوحيد) الايمان بإلـٰه واحد أحد لا شريك له ، منفرد بذاته في عدم المثل والنظير . لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام[3]. ويقال للديانة التي تدين بالتوحيد : Monotheism في اللغات الأوروبية، من أصل يوناني هو Monos ، بمعنى (واحد) ، و Theos بمعنى (إلـٰه) ، لأنها تقول بوجود إلـٰه واحد[4] . ويتمثل القول في التوحيد في اليهودية وفي الاسلام .

والشرك في تفسير العلماء الاسلاميين ، ان يجعل لله شريكاً في ربوبيته، غير الله مع عبادته ، والايمان بالله وبغيره ، فصاروا بذلك مشركين[5] . ومن الشرك ان تعدل بالله غيره ، فتجعله شريكاً له . ومن عدل به شيئاً من خلقه فهو مشرك ، لأن الله وحده لا شريك له ولا ند له ولا نديد[6] . ويقال له Polytheismus = Polytheism في اللغات الأوروبية . من أصل يوناني هو Polys ، ومعناها كثرة وتعداد ، و Theos بمعنى (إلـٰه) . فيكون المعنى : القول بتعدد الآلهة ، أي الشرك . نقيض القول بالتوحيد Monotheismus . فالشرك هو الدين المعاكس لدين التوحيد . ويختلف عن عقيدة الـ Polydoemonism القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعة Nature ، وبوجود أثر لها في حياة الانسان، كما يختلف

---

١ Ency. Religi., Vol. II, p. 383

٢ E. Renan, Histoire Générale et Système comparé des Langues Sémitiques, Paris, 1855, Vol. I, Chapt I, p. 1. ff.

٣ تاج العروس (٥٢٦/٢) ، (وحد) .

٤ Ency. Religi., 10, p. 112.

٥ تاج العروس (١٤٨/٧) ، (شرك) .

٦ اللسان (٤٤٩/١٠ وما بعدها) ، (شرك) .

عن القائلين بمبدأ (الحلول) Pantheism من حيث حلول الإله في الخلق والخلق في الإله[1].

وقد ذهب أهل الأخبار الى أن العرب الأولى كانت على ملة ابراهيم ، من الايمان بإله واحد أحد ، اعتقدت به ، وحجّت الى بيته ، وعظمت حرمه ، وحرمة الأشهر الحرم ، بقيت على ذلك ، ثم سلخ بهم الى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان، وابتعدوا عن دين آبائهم وأجدادهم ، حتى أعادهم الإسلام اليه[2] .

ونظرية أن العرب جميعاً كانوا في الأصل موحدين ، ثم حادوا بعد ذلك عن التوحيد فعبدوا الأوثان وأشركوا ، نظرية يقول بها اليوم بعض العلماء مثل (ويليم شميد) Wilhelm Schmidt الذي درس أحوال القبائل البدائية وأنواع معتقداتها ، فرأى ان عقائد هذه القبائل البدائية الوثنية ترجع بعد تحليلها وتشريحها ودرسها الى عقيدة أساسية قائمة على الاعتقاد بوجود (القديم الكل) أو (الأب الأكبر) الذي هو في نظرها العلة والأساس . فهو إله واحد . وتوصل الى أن هذه العقيدة هي عقيدة سبقت التوحيد ، ثم ظهر من بعدها الشرك . وقد أطلق عليها في الألمانية مصطلح Urmonotheismus أي التوحيد القديم[3] .

ويأخذ بهذه النظرية علماء اللاهوت وبعض الفلاسفة ، وفي الكتب السماوية تأييد لها أيضاً . فالشرك وعبادة الأصنام بحسب هذه النظرية ، نكوص عن التوحيد ، ساق اليه الانحطاط الذي طرأ على عقائد الانسان فأبعده عن عبادة الله[4] .

اننا لا نستطيع ان نتحدث عن عقيدة التوحيد عند العرب قبل الاسلام استناداً الى ما لدينا من كتابات جاهلية ، لعدم ورود شيء عن ذلك . فالنصوص التي وصلت الينا ، هي نصوص فيها أسماء أصنام ، وليس فيها ما يفهم منه شيء عن التوحيد عند العرب قبل الميلاد وبعده ، إلا ما ورد في النصوص العربية الجنوبية المتأخرة من عبادة الإله (ذ سموى) (ذو سموى) ، أي صاحب السماء ، بمعنى إله السماء . وهي عبادة ظهرت متأخرة في اليمن بتأثير اليهودية والنصرانية

---

١ Ency. Religi., Vol. 10, p. 112.

٢ النجيرمي ، أيمان العرب (١٢ وما بعدها) ، الاصنام (ص ٦) .

٣ Schmidt, S. 637, W. Schmidt, Der Ursprung der Gottesidee, 4 ed., 1912.

٤ Ency. Religi., Vol. 7, p. 113.

اللتين دخلتا اليمن ووجدتا لها أتباعاً هناك ، بل حتى هذه العبادة لا نستطيع أن نتحدث عنها حديثاً يقينياً ، فنقول انها عبادة توحيـد خالص تعتقد بوجود إلـه واحد على نحو ما يفهمه أهل القول بالتوحيد .

وقد ذكرت جملة (ذ سموى) في نص مع الإلـه (تالب ريمم) (تالب ريام) ، رب قبيلة (همدان) . ويدل ذكر اسم هذا الإلـه مع اسم إلـه آخر على ان عقيدة التوحيد لم تكن قد تركزت بعد ، وانها كانت في بدء تكوينها ، فلما اختمرت في رؤوس القوم ، ذكرت وحدها في النصوص المتأخرة ، دون ذكر أسماء الأصنام الأخرى ، مما يشير الى حدوث هذا التطور في العقائد ، والى ظهور عقيدة التوحيد والايمان بإلـه السماء عند جماعة من العرب الجنوبيين . وقد أكملت هذه العقيدة بأن صار إلـه السماء رب السماء والأرض[1] .

ولم يكن (ذ سموى) ، (ذ سمى اله) ، (ذو السماء إلـه) أي (صاحب السماء) ، أو (إلـه السماء) ، أو (رب السماء) ، إلـه جماعه معينة أو إلـه قبيلة مخصوصة ، بل هو إلـه ولدته عقيدة جديدة ظهرت في اليمـن بعـد الميلاد على ما يظن تدعو الى عبادة إلـه واحد هو (ربّ السماء) ، فهو إلـه واحـد مقره السماء . ويرى بعض المستشرقين أن هذه العقيدة هي نتيجة اتصال أهل اليمن باليهودية والنصرانية على أثر دخولها العربية الجنوبية،فظهرت جماعة تأثرت بالديانتين تدعو الى عبادة إلـه واحد هو (رب السماء)[2] .

وأما عبادة (الرحمن) (رحمنن) ، فهي عبادة توحيد ، ظهرت من جزيرة العرب فيما بعد الميلاد . وقد وردت كلمة (رحمنن) ، أي (الرحمـن) ، في نص يهودي كذلك وفي كتابات (ابرهة) ، وردت في نصوص عربية جنوبيـة أخرى وفي نصوص عثر عليها في أعالي الحجاز[3] . وقد كان أهل مكة عـلى علم بالرحمن ، ولا شك ، باتصالهم باليمن وباليهود . ولعلهم استخدموا الكلمـة في

---

١ Handbuch, I, S. 102.

٢ Handbuch, I, S. 104, Rivista, 1955, Fax. I, II, p. 109, Le Muséon, 1954, tome LXVII, p. 118.

٣ Glaser 554, 406 = 410, Halevy 63, CIH, Pars 4, Tomus, I, Capt. I, No. 6, p. 15 - 9, II, 537 - 543, p. 257 - 300, CIH, 6, 45, 537, 538, 539, 541, 542, 543, MM, Altsüd., 19, Rep. Epig., 3904, 4069, 4109, Stambul, 7608, Asmara, I, Le Muséon, LII, p. 51.

معنى الله . وإن ذكر علماء اللغة أو علماء التفسير أن اللفظة لم تكن معروفة عند أهل مكة في الجاهلية [1] .

وقد جاء في النص اليهودي المذكور : (الرحمن الذي في السماء واسرائيل وإلـه اسرائيل رب يهود) . وقد حمل هذا النص بعض الباحثين على القول بأن العرب الجنوبيين قد أخذوا هذه الكلمة وفكرتهم عن الله من اليهودية، وان فكرة التوحيد هذه انما ظهرت بتأثير اليهودية التي دخلت الى اليمن . غير ان من الباحثين من رأى خلاف هذا الرأي . رأى ان افتتاح النص بذكر الرحمن ، ثم اشارته بعد ذلك الى إلـه يهود ، وورود كلمة (الرحمن) في نص آخر يعود الى سنة (٤٦٨) للميلاد [2] . كتبه صاحبه شكراً للرحمن الذي ساعده في بناء بيته : كل هذه وأسباب أخرى ، تناقض رأي القائلين بأن عقيدة الرحمن عقيدة اقتبست من اليهود [3] .

وقد ذكر بعض علماء اللغة ان (الرحمن) اسم من أسماء الله مذكور في الكتب الأول ، وان اللفظة عبرانية الأصل ، وأما (الرحيم) فعربية . وذكروا ان (الرحمن) اسم مخصص بالله ، لا يجوز أن يسمى به غيره [4] . وقد أنشدوا للشنفرى أو لبعض الجاهلية الجهلاء :

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يمينها [5]

فيظهر من هذا البيت أن الشاعر كان يدين بعبادة الرحمن . ونجد مثل هذه العقيدة في قول سلامة بن جندل الطهوي :

---

١ Handbuch, I, S. 248, Halevy, Revue des Etudes Juives, 1891, Vol. 22, pp. 125 - 129, 281, 23, p. 304, Margoliouth, The Relations, p. 67.

٢ CIS, 7.

٣ Margoliouth, The Relation between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam, p. 67.

٤ تاج العروس (٨/٣٠٧) ، (رحم) ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٦)، تفسير الطبري (١/٤٤) ، تفسير ابن كثير (١/٢١) .

٥ تفسير الطبري (١/٤٤) ، وورد :
لقد لطمت تلك الفتاة هجينها ألا بتر الرحمن ربي يمينها
الاشتقاق (ص ٣٧) .

عجلتم علينا عجلتينا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق[1]

فإن ذلك يعني أن قوماً من الجاهليين كانوا يدينون بعبادة (الرحمن) . ومما يؤيد هذا الرأي ما ورد من أن بعض أهل الجاهلية سموا أبناءهم عبد الرحمن ، وذكروا أن (عامر بن عتوارة) سمى ابنه (عبد الرحمن)[2] .

وقد وردت لفظة (الرحمن) في شعر ينسب الى (حاتم الطائي) هو :

كلوا اليوم من رزق الإلـه وأيسروا وإن على الرحمان رزقكم غداً

وحاتم من المتألهة ، ويعده البعض من النصارى و (الرحمن) نعت من نعوت الله في النصرانية ، من أصل (رحمونو) ، Rahmono[3] ، فهل عبر شاعرنا بهذه اللفظة عن هذا المعنى النصراني ؟

« وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى ردّ الله عليهم ذلك بقوله : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى. ولهذا قال كفّار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لعلي: اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم . رواه البخاري . وفي بعض الروايات : لا نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة »[4] .

وذكر أن المشركين سمعوا النبيّ يدعو ربه ، يا ربنا الله ويا ربنا الرحمن ، فظنوا أنه يدعو إلهين ، فقالوا : هذا يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو مثنى مثنى . وأن أحدهم سمع الرسول يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم فقال لأصحابه : انظروا ما قال ابن أبي كبشة دعا الرحمن الذي باليمامة. وكان باليمامة رجل يقال له الرحمان[5] .

---

١ تفسير الطبري (١/٤٤) ، (سلامة بن جندب الطهوي) ،
عجلتم علينا اذ عجلنا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق
تفسير ابن كثير (١/٢١) ،
٢ الاشتقاق (ص ٣٧) .
٣ غرائب اللغة (١٨٢) .
٤ تفسير ابن كثير (١/٢١) .
٥ تفسير الطبري (١٥/١٢١) ، سورة الاسراء ، الآية ١١٠ ، روح المعاني (١٥/١٧٦) .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن ذلك الشخص الذي زعموا انه كان يُعرف بـ (رحمان اليمامة) . لكنهم ذكروا ان (مسيلمة الكذاب) ، كان يقال له رحمان اليمامة [1] . فهل عنوا بـ (رحمان اليمامة) مسيلمة نفسه ، أم شخصاً آخر كان يدعو لعبادة (الرحمان) قبله ؟

وورد ان قريشاً قالوا للرسول : « انا قد بلغنا انك انما يعلمك رجل باليمامة ، يقال له الرحمن ولن نؤمن به أبداً » . فنزل فيهم قوله : « كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك ، وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربي لا إلّه إلا هو عليه توكلت واليه متاب » [2] . وذكر بعض أهل الأخبار : كان مسيلمة بن حبيب الحنفي ، قد تسمى بالرحمن في الجاهلية ، وكان من المعمرين ، وذلك قبل أن يولد عبدالله أبو رسول الله [3] .

وورد في بعض أقوال علماء التفسير ان اليهود قالوا : (ما لنا لا نسمع في القرآن اسماً هو في التوراة كثير . يعنون الرحمان ، فنزلت الآية) [4] .

ويرى المستشرقون ان عبادة (الرحمن) (رحمنن) ، انما ظهرت بين الجاهليين بتأثير دخول اليهودية والنصرانية بينهم [5] .

وقد ذكر (اليعقوبي) أن تلبية (قيس عيلان) ، كانت على هذا النحو : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك أنت الرحمان ، أتتك قيس عيلان ، راجلها والركبان» [6] وأن تلبية عك والأشعرين ، كانت :

نحج للرحمان بيتاً عجباً مستتراً مغبباً محجباً [7]

وفي التابيتين المذكورتين دلالة على اعتقاد القوم بإلّه واحد ، هو الرحمان .

---

١ اللسان (٢٣١/١٢) ، (رحم) ، تاج العروس (٣٠٧/٨) ، (رحم) .
٢ سورة الرعد ، الآية ٣٠ ، الروض الأنف (٢٠٠/١) ، سيرة ابن هشام (٢٠٠/١) (حاشية على الروض) ، تفسير الطبري (١٠١/١٣) .
٣ الروض الأنف (٢٠٠/١) .
٤ القرطبي ، الجامع (٣٤٣/١٠) .
٥ G. Ryckmans, Inscriptions Sudarabes, X, No. 515, Le Muséon, 66, 1953, p. 314, Ryckmans 330. b., CIH 541, G. Ryckmans, in Le Muséon, 59, 1946, p. 165, A. Jamme, La Religion Sud-Arabe, Preislamique, 275.
٦ اليعقوبي (٢٢٥/١) .
٧ اليعقوبي (٢٢٦/١) .

ولم ترد لفظة (الرحمان) إلاّ مفردة ، فليس لها جمع ؛ لأنها تعبير عن توحيد ، وليس في التوحيد تعدد ، فالتعدد شرك . على عكس لفظة (رب) ، التي تؤدي معنى (إلـه) ، وهي تعبير عن اعتقاد ، لا اسم علم لإلـه ، ولذلك وردت لفظة (أرباب) بمعنى آلهة تعبيراً عن تعدد الآلهة ، وهو الشرك . وقد كان الجاهليون يقولون : ربّي وربك وربنا وأربابنا ، كما يقولون إلهي وإلاهك وآلهتنا [1] .

وقد تكون كلمة (ه رحم) (هارحيم) ، أي (الرحيم) الواردة في النصوص الصفوية[2] وفي النصوص السبئية اسم إلـه[3] ، وقد تكون صفة من صفات الآلهة على نحو ما تؤديه كلمة (الرحيم) من معنى في الاسلام .

وللعلماء آراء في ظهور عبادة الشرك . ورأي رجال الدين منهم ، ان الناس كانوا أمة واحدة في الدين ، كانوا على التوحيد جميعاً ، ثم ضلّوا فعبدوا جملة آلهة وصاروا مشركين[4] . أما غيرهم من العلماء الذين يستندون الى الملاحظات ودراسة أحوال القبائل البدائية وعلى فروع العلوم الأخرى المساعدة مثل علم النفس وعلم الاجتماع، فيرون ان عقيدة التوحيد ظهرت متأخرة بالنسبة الى ظهور الوثنية والشرك. ظهرت بعد أن توسعت مدارك الانسان ، فشعر أن ما كان يتصوره من وجود قوى روحانية عليا في الأشياء التي عبدها لم يكن سوى وهم وخداع، وصار يقتصد في الشرك ، الى أن اهتدى الى عبادة إلـه واحد .

ظهور الشرك :

هناك عدة عوامل دعت الى ظهور الشرك ، أي تعدد الآلهة ، وأثرت في تعدد الآلهة . هناك عوامل طبيعية وعوامل رسّية Characteristics ، وعوامل

---

١ هناك ربك ما أعطاك من حسن وحيثمايك أمر صالح فكن
شرح ديوان زهير (١٢٣) .

٢ Handbuch, I, S. 248, Vogue, Syrie Centrale, Inscriptions Sémitiques, Paris, 1868 - 1877, p. 142, No. 402, Dussuad, voyage Archéologique au Safa, Paris, 1901, No. 258, Mission, p. 88, Les Arabes en Syrie, p. 152.

٣ CIS, 4, 2, No. 40, p. 63, Grahmann, S. 246.

٤ Ency. Religi., 10, p. 112.

سياسية وعوامل تأريخية واجتماعية واقتصادية وعوامل أخرى ، كل هذه أثرت في شكل الشرك وفي تعدد الآلهة وفي كيفية تصور الناس لآلهتهم . ولا يعني هذا انها أثرت كلها مجتمعة وفي آن واحد ، انما يعني ان ظهور الشرك وشكله هو نتيجة عوامل متعددة وأسباب مختلفة أثرت في ظهوره وفي تكوين صورة الآلهة في نظر المؤمنين بها المتعبدين لها .

وإنّا لنجد وجهة نظر الشعوب عن الآلهة أو الإلـه تختلف باختلاف ثقافتها ومستواها الاجتماعي ، وللوضع السياسي دخل كبير في الشرك وفي عدد الآلهة وفي شكل الدين . لقد كان لكل قبيلة إلـه خاص بتلك القبيلة يحميها من الأعداء ومن المكاره ، ويدافع عنها في الحروب والملمات ، ويعطيها النصر . كما كان للقرى والمدن آلهتها الخاصة بها . فإذا تحالفت القبائل أو القرى أو المدن تحالفت آلهتها معها ، وكوّنت حلفاً وصداقة متينة بينها . أما إذا تحاربت هذه القبائل او القرى او المدن ، فيكون لهذه الحرب أثر كبير في مستقبل الآلهة وفي عددها . فقد ينصرف المغلوبون عن آلهتهم الى عبادة آلهة أخرى ، لأنها أصبحت ضعيفة لا قدرة لها على الدفاع عن عَبَدَتها . وقد يتأثر الغالبون بعبادة المغلوبين الذين خضعوا لهم ، فيضيفون آلهة المغلوبين الى آلهتهم ، فيزيد بذلك عدد الآلهة ، ولا سيما إذا كان المغلوبون أصحاب ثقافة عالية ، وكان لهم ادب وفن .

والعادة أن آلهة القبائل أو المدن الرئيسية تكون هي الآلهة الرئيسية للحلف أو في المملكة . ويكون إلـه القبيلة ذات النفوذ أو العاصمة عندئذ ، هو إلـه الحكومة الكبير . أما الآلهة الأخرى ، فتكون دونه في المنزلة ، ولهذا يرد اسمها في الغالب بعد اسم الإلـه الكبير .

كذلك يجب ألا ننسى عامل الجوار والاتصال الثقافي في ظهور الشرك ، فكثيراً ما يؤدي هذا الاتصال الى اقتباس آلهة المجاورين واضافتها الى مجموعة الآلهة عند ذلك الشعب ، فيزيد بذلك عدد الآلهة أو ينقص . فقد تطغى الآلهة الجديدة المقتبسة على الآلهة القديمة ، ويقل شأن بعضها فيهمل ، ثم يموت اسمها . وقد يحدث ذلك بطريق الحرب أيضاً ، كما ذكرت ، فيتغير العدد بذلك .

ولرجال الدين ولسادات القبائل وللأمراء وللملوك أثر في ظهور الشرك . كان في إمكانهم اقرار مستقبل الآلهة بإضافة آلهة جديدة على الآلهة القديمة ، أو بإبعاد

إلـّه أو آلهة عن عبادة قومهم ، فيزيد أو ينقص بذلك عـــدد الآلهة . وقد كان سادات القبائل والوجوه يغيـّرون عبادة أتباعهم بإدخال عبادة إلـّه جديد ، يأخذونه من زيارتهم لبلـــد غريب ، كأن يكون أحدهم قد أصيب بمرض وهو في ذلك البلد ، فيشار عليـــه بالتعبد وبالتقرب لإلـّه ذلك البلد أو لأحد آلهته ، فيصادف أن يشفى ، فيظن أنه شفي ببركة ذلك الإلـّه وبقدرته وقوته ، فيتقرب له ويتعبد له ، فإذا أعاد حمل عبادته الى أتباعه ، فيعبد عندهم . ويضاف عـــلى آلهتهم ، ويصير أحدهم وقد يطغى اسمه عليها ، وذلك حسب درجة تعلق سيد القبيلة به، وحسب درجة ومكانة سيد القبيلة بين الناس. وتأريخ الجاهلية مليء بحوادث تبديـل آلهة بسبب تبديل سادات القبائل ووجوه الناس لعقائدهم ولآلهتهم ، فتدخل القبيلة كلها في العبادة الجديدة . وقد كان اسلام قبائل برمتها ، بسبب دخول سيدها في الاسلام ، فالناس تبع لساداتهم ولقادتهم ، و « الناس عـلى دين ملوكهم » كما هو معروف ومشهور في أقوال العرب .

ومعظم أسماء الآلهة صفات للآلهة لا اسم علم لها ، فودّ ورضى والمقـه وذات حميم وأمثالها ، هي صفات في الأصل ، مضى عليها الزمـن ، فاستعملت استعمال الأسماء الأعلام . وظن أنها آلهة قائمة بذاتها . فلما جاء الباحثون وجمعوها حسبوها أسماء آلهة ، فزاد بذلك عدد الآلهة ، واعتبرت الأسماء الكثيرة مـن سيماء الإفراط في الشرك . بينما هي صفـــات لإلـّه ، أو آلهة لا يزيد عددها على ثلاثة ، هي الثالوث الكواكبي المقدس الذي تعبدوا له .

ولا بد لنا من الإشارة الى اصطلاح أطلقـــه (ماكس مولر) Max Müler على مرحلة من العبـــادة هي بين بين ، لا هي توحيد Monotheism ولا هي شرك Polytheism ، بل هي مرحلة تعبد فيها الانسان على رأي هذا الباحث الى إلـّه واحد هو إلـّه القبيلة ، مع الاعتقاد بوجود آلهة أخرى[1] . وهـذا الاصطلاح هو Henotheismus . وقد رأى (فلايدلر) Pfleidler أن الساميـين لم يكونوا موحدين بطبعهم كما ذهب (رينان) الى ذلك ، بل كانوا يدينون بإلـّه قومي ، ومن هذه العقيدة ظهر التوحيد الخالص كما حدث عند الاسرائيليين[2] .

---

١ Max Müller, Varlesungen über den Ursprung und die entwicklung der Religion, 1880, Schmidt, S. 261.

٢ Ency. Religi., 10, p. 811, Pfleidler, Philosophy of Religion, London, 1885 - 1888, III, p. 19.

وفي القرآن الكريم إشارات الى أنواع من الشرك كان عليه الجاهليون ، وفيه تعريف لمعنى الشرك ، فالشرك في قوله تعالى : (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون)[1] عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة أو الخشب أو المعادن ، أي مما لا روح له وقابل للكسر[2] . وفي بعض الآيات أن من أنواع الشرك القول بأن الجن هم شركاء لله[3] . ومن أنواعه أيضاً القول بأن الملائكة هم شركاء لله وبناته[4] . وفي آيات أخرى ان من الشرك اتخاذ آلهة أخرى مع الله[5] . والآلهة هنا شيء عام . فيه تأليه الكواكب وعبادة الأشياء غير المنظورة ، أي غير المادية وعبادة الأصنام .

وفي القرآن الكريم جواب عن فلسفة القوم وتعليلهم لعبادة الأصنام واتخاذهم (أولياء) من دون الله ، إذ يقولون جواباً عن الاعتراض الموجه اليهم في عبادة غير الله : (والذين اتخذوا من دونه أولياء . ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى . ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون)[6] . ويتبين من هذه الآية ومن آيات أخرى ان فريقاً من العرب كانوا يعتقدون بوجود الله ، وانه هو الذي خلق الخلق ، وأن له السيطرة على تصرفات عباده وحركاتهم ، ولكنهم عبدوا الأصنام وغيرها ، واتخذوا الأولياء والشفعاء لتقربهم الى الله زلفى[7] .

وفي كتاب الله مصطلحات لها علاقة بعبادة الشرك ، منها (شركاء) جمع (شريك) ، وهو من اتخذه المشركون شريكاً مع الله[8] . و (أنداد) (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله)[9] (وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله . قل : تمتعوا ، فإن مصيركم الى النار)[10] . و (أولياء)

---

١ الاعراف ، الآية ١٩١ وما بعدها ، يونس ، الآية ١٨ .
٢ تفسير الجلالين (١/١٣٩) ، « طبعة المطبعة المليبجية » .
٣ الانعام ، الآية ١٠٠ ، الجلالين (١/١١٦) .
٤ سبأ ، الآية ٤٠ وما بعدها .
٥ الانبياء ، الآية ٢٤ .
٦ الزمر ، الآية ٣ ، الجلالين (٢/١٣٣) .
٧ الزمر ، الآية ٣ ، الانعام ، الآية ١٤٨ ، النحل ، الآية ٣٥ .
٨ الانعام ، الآية ١٠٠ ، راجع « فتح الرحمن لطالب آيات القرآن » (ص ٢٣٨) ، حيث تجد المواضع الواردة في القرآن الكريم .
٩ البقرة ، الآية ١٦٥ .
١٠ ابراهيم ، الآية ٣٠ .

و (وليّ) و (ولياً)[1] و (شفعاء) و (شهداء)[2] . فهذه الكلمات وأمثالها تعبر عن عقائد الجاهليين قبيل الاسلام . وعن اعتقادهم في عبادة أشياء أخرى مع الله كانوا يرون انها تستحق العبادة ، وانها في مقابل الله في العرف الاسلامي ، أو انها شركاء في ادارة الكون أو انها مساعدة لله .

والشرك في تفسير العلماء المسلمين ، أن تعدل بالله غيره ، فتجعله شريكاً له . فهو يشمل أشياء عديدة . منها عبادة الكواكب ، أي عبادة القوى الطبيعية ، وعبادة الجن والملائكة والأمور الخفية ، وبمعنى آخر عبادة القوى الخفية ، أو القوى الروحية ، وعبادة الأمور المادية كالأصنام والأحجار ، باعتبار انها تشفع للانسان عند الآلهة ، وعبادة الانسان والحيوان ، الى غير ذلك من عبادات .

ومن العبادات التي يجب أن يشار اليها عبادات اصطلح علماء الأديان على تسميتها بمسميات حديثة ، تمثل عقائد قديمة ، ولبعضها أتباع أحياء يرزقون . ولبعض منها آثار ومظاهر ، دخلت في الأديان الباقية ، وصبغت بصبغتها ، وهي من بقايا العقائد الدينية البدائية التي رسخت في النفوس وفي القلوب حتى صار من الصعب على الانسان أن يتخلص منها ، فبقيت راسخة تحت مسميات جديدة. ومن تلك العقائد : الـ Shamanism ، و Tatemism ، و Fetishism ، و Ancestor - worship ، و Animism ، وغيرها من مسميات سيرد الحديث عنها في هذا الكتاب[3] .

أما الـ (شمانية) ، فقد أخذت من كلمة (شمن) Shaman ومعناها كاهن أو طبيب (شمان) ، أو من كلمة Shemen التي معناها صنم أو معبد، أو من أصل آخر . ويراد بها اليوم ديانة تعتقد بالشرك ، أي تعدد الآلهة Polytheism ، أو بعبادة الأرواح Polydomonism مع عبادة الطبيعة Nature - worship لاعتقادها بوجود أرواح كامنة فيها . ويعتقد في هذا الدين أيضاً بوجود إلـه أعلى هو فوق جميع هذه الأرواح والقوى المؤلهة ، وبتأثير السحر[4] .

---

١ راجع فهارس القرآن الكريم ، مثل فتح الرحمن (ص ٤٨٠) .
٢ فتح الرحمن (ص ٢٤٠) .
٣ A.A. Bowman, Studies in the Philosophy of Religion, London, 1938, p. 67.
٤ Ency. Religi., II, p. 441.

ويستعين الـ (شمن) ، وهو الكاهن أي رجل الدين ، بالقوى الخارقة التي لديه والتي لا يملكها الرجل الاعتيادي في اعتقاد أبناء هذه العقيـــدة في الاتصال بالأرواح وبما وراء الطبيعة للتأثير فيها . ولدى هذا الكاهن أرواح مأمورة بـين يديه للقيام بما يطلب منها القيام به . وهو يمارس أعمالاً سحرية للتأثير في الأرواح. فللسحر في هذا الدين أهمية ومقام . ويقوم الـ (شمن) عند أكثر المتدينين بهذا الدين بأعمال الطبيب[1] .

وأما (الطوطمية) ، فقد تحدثت عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب[2]. وقد بينت عقيدتها في (الطوطم) ، ورأي العلماء في كيفية ظهور المجتمع (الطوطمي) ، وهو مجتمع يقوم على أساس الجماعة أو القبيلة ، يرتبط أفراده برباط ديني مقدس، هو رباط (الطوطم) ، رمز الجماعة .

وأما الـ Fetishism ، من أصل Factitus اللاتيني ، بمعنى السحر ، أي القوة المؤثرة الخفية Magic ، فللباحثين في تأريخ الأديان آراء متعددة في تعريفها وفي تثبيت حدودها[3] . والرأي الغالب الشائع بينهم انها عبادة أو تقديس للأشياء المادية الجامدة التي لا حياة فيها لاعتقاد أصحابها بوجود قوة سحرية فيها ؛ وقوى غير منظورة في تلك الأشياء تلازمها ملازمة مؤقتة أو دائمة . ويحمل الـ Fetish (البد) لجلب السعد إلى صاحبه . وهو في نظر (تيلور) Dr. Tylor بمثابة (إلـه البيت) وقوة فاعلة خفية تطرد الخبائث عن صاحبه ، وتجلب الخير له . ولحدوث الأحلام ونشوئها في نظر الأقوام البدائية دخل كبير في رأي العلـماء في ظهور هذه العقيدة[4] .

وأصحاب هذه العقيدة لا ينظرون الى تلك الأشياء المادية على انها نفسها ذات قوة فعالة خفية ، وانها الرمز أو الصورة للإلـه المنسوب ذلك الشيء اليـه ، بل هم يرون ان تلك الأشياء ليست سوى منازل أو مواضع لاستقـــرار تلك القوى المؤثرة التي يكون لها دخل في إسعاد الانسان . وهو يقدس الأشياء المادية كالحجارة

---

١ Ency. Religi., Vol. 11, p. 441.

٢ (ص ٥١٨ وما بعدها) .

٣ Ency. Religi., Vol. V, p. 894.

٤ Ency. Brita., Vol. 9, p. 202, Taylor, Primitive Culture, II, p. 143, Waitny, Anthropologie der Naturvölker, II, S. 174.

مهما كانت صغيرة أو كبيرة ، مهندمة ومصقولة صقلتها يد الانسان ، ومستها أو لم تمسها يد ، بل كانت على نحو ما وجدها في شكلها الطبيعي، لأنه حينما يتقرب إلى تلك الحجارة ، لا يتقرب اليها نفسها ، بل يتقرب الى الروح التي تحل فيها. فالروح هي المعبودة ، لا الحجر الذي تحل الروح فيه ، وليس الحجر أو المواد الأخرى إلا بيتاً أو فندقاً تنزل الروح فيه .

أما عبادة الأسلاف Ancestor worship ، فهي فرع من أهم فروع الدين في نظر بعض العلماء ، بل هي الأساس الذي قام عليه الدين في نظـر آخرين ، ولا سيما عند (سبنسر) H. Spencer [١] . وأمـا الأسباب التي دعت البشر الى هذه العبادة ، فهي الحب والتقدير للأبطال والرؤساء والأمـل في استمرار دفاعهم عنهم وحمايتهم للجماعة التي تنتمي اليها كما كانت تفعل في حياتها ورد أذى الأعداء الأموات منهم والأحياء . فتمجيد الأبطال والخوف منهم ، هو الذي حمل البشر على عبادة الأسلاف عـلى رأي . وهناك من رأى ان تمجيـد الأبطال والاشادة بذكرهم ، هو الذي أوجد هذه العبادة ، ومنهـم من نسبها الى الخوف منهم حسب[٢] .

وسواء أكان منشأ هذه العبادة الحب والتقدير أو الخوف أو كلاهما،فإن أساس هذه العقيدة هو الايمان ببقاء الروح ، روح الميت ، وان بإمكان هذه الروح نفع الأحياء أو إلحاق الأذى بهم . ورؤية الأحياء وسماع توسلاتهم ودعواتهم لهـا . فالميت وإن كان قد دفن في قبره وغيب بين التراب ، إلا انـه يسمع ويعي ، فروحه حية وبإمكانه النفع والضر . وهذه العقيـدة هي التي حملت بعض الشعوب على مخاطبة الأرواح من فجوات مخصوصة في الأرض ومن مواضع أخرى لاستشارتها في بعض الأمور التي تهمها ، وللتحدث معها في مسائل خطيرة كتقديم مشورة أو أخذ رأي أو استفسار عن اسم قاتـل أو سارق . ولهـذه الغاية اتخذت مواضع مقدسة Oracle يتقرب فيها الى الأرواح وللاستفسار منها . فكان في اليونان مثلاً موضع شهير عرف بإسم Thesprotia ، وموضع آخر عرف بإسم Phigalia في (أركاديا) Arcadia [٣] . وكان في ايطاليـا موضع للتنبؤ يقـع على بحيرة

---

١ Ency. Relig., I, pp. 425, 427.

٢ Jevons, Introduction to History of Religion, p. 54.

٣ Herodothus, V, 92, Pausanus, III, 17, 8, 9.

(أفيرنوس) Avernus [1] . وكانت العادة في هذا الموضع أن يتقرب الراغبون في استشارة الأرواح الى الموضع المقدس بتقديم ضحية ، وعندئذ ينام السائل في الموضع المقدس ، فتظهر له الروح في المنام ، فتحدثه بما يحتاج اليه[2] .

ولعبادة السلف علاقة بعبادة الأصنام Idolatry . ويلاحظ ان عبادة السلف تقود أتباعها في بعض الأحيان الى الاعتقاد بأن قبيلتهم تنتمي الى صلب جد واحد، أصله حيوان في رأي الأكثرين ، أو من النجوم في بعض الأحيان . وهذا ما يجعل هذه العقيدة قريبة من (الطوطمية)[3] .

ولهذه العبادة أثر كبير في نظام أصحابها الاجتماعي ، إذ هي تربط الأجيال الحاضرة بالأجيال الماضية بروابط متينة ، وتؤلف من أصحاب هذا المذهب وحدة قوية ، كما ان لها أثراً مهماً في الأسرة ، فهي في الواقع عبادة تخص الأسرة قبل كل شيء[4] .

ومعارفنا عن عبادة السلف عند الجاهليين قليلة ، ويمكن أن نستنتج من أمر النبي بتسوية القبور ونهيه عن اتخاذها مساجد ومواضع للصلاة ان الجاهليين كانوا يعبدون أرواح أصحاب هذه القبور ويتقربون اليها . ولعل في عبارة (قبر ونفس) أو (نفس وقبر) الواردة في بعض النصوص الجاهلية ما يؤيد هذا الرأي ، فإن النفس هي الروح .

ومن آثار عبادة السلف عند العلماء حلق الرأس وإحداث جروح في الجسد واحتفالات دفن الموتى ولبس المسوح والعناية بالقبور والصلاة عليها أو إقامة شعائر دينية فوقها أو علامات خاصة بالميت أو الموتى للتقديس[5] . ونحن اذا استعرضنا روايات الأخباريين نجد آثار هذه العبادة معروفة بين الجاهليين .

وقد أشار أهل الأخبار الى قبور اتخذت مزارات، كانت لرجال دين ولسادات قبائل يقسم الناس بها ، ويلوذون بصاحب القبر ويحتمون به ، كالذي كان من

---

١ Ency. Religi., I, p. 428.

٢ Ency. Religi., Vol. I, p. 430, Crooke, Popular Religion, I, 179, Wilken, Het Animisme bij de Volken Indischen Archipel, 1884 - 1885, I, 74 ff.

٣ Ency. Religi., I, p. 536. Taylor, Primitive Cultures, II, p. 193,

٤ Ency. Religi., I, p. 432.

٥ Hastings, p. 300, Ency. Religi., 7, p. 325, «Ancestor - Worship ».

أمر ضريح (تميم بن مرّ) ، جدّ (تميم) ، وكالذي ذكروه من أمر (اللات) من أنه كان رجلاً في الأصل ، اتخذ قبره معبداً ثم تحول الرجل الى صنم . ونجد في كتب الحديث نهياً عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها . وقد أشارت الى اتخاذ اليهود والنصارى قبور سادتهم وأوليائهم مساجد ، تقربوا اليها ، لذلك نهي أهل الاسلام من التشبه بهم في تعظيم القبور[1] ، كما نهى عن تكليل القبور وتجصيصها ، والتكليل رفع القبر وجعله كالكلّة ، وهي الصوامع والقباب التي تبنى على القبور[2] .

وأما الـ Animism ، فهو اعتقاد بوجود أرواح مؤثرة في الطبيعة كلّها Nature ، ولذلك يؤلّه كثيراً من المظاهر الطبيعية المرئية وغير المرئية منها ، لاعتقاده بوجود قوى هي فوق الطبيعة ، منها ما يكون في جسم ، وهو (النفس) Saul ، ومنها ما لا يكون في الأجسام وهو (الروح) Spirit[3] .

ويمكن تقسيم هذه العبادة الى ثلاثة أصناف : عبادة النفس ، نفس الإنسان أو الحيوان وخاصة منها عبادة الأموات Necrolatry، وعبادة الأرواح Spiritism ، وعبادة الأرواح التي تحلّ في المظاهر الطبيعية ، إما بصورة مؤقتة وإما بصورة دائمة Naturism[4] .

والآراء في هذه المعتقدات لا تزال في مراحلها الأولى ، وهي موضع جدل بين العلماء ، لأنها قائمة على أساس الملاحظات والتجارب التي حصلوا عليها من دراساتهم لأحوال المجتمعات البدائية لهنود أمريكا ولقبائل افريقية واستّرالية ، ولا يمكن بالطبع حدوث اتفاق في الدراسات الاستقصائية المبنية على المشاهدات والملاحظات. وإذ كانت هذه الدراسات غير مستقرة وغير نهائية حتى الآن ، فقد صعب بالطبع تطبيقها على معتقدات العرب قبل الاسلام ، وزاد في هذه الصعوبة قلة معلوماتنا في هذه الأمور . وليس من الممكن في نظري أن نتوصل إلى نتائج علمية غير قابلة للأخذ والرد في هذه الموضوعات في الزمن الحاضر ، بل ولا في المستقبل

---

١ صحيح مسلم (٢/٦٦) ، (باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها ، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد) .

٢ اللسان (١١/٥٩٥) ، (كلل) .

٣ Schmidt, S. 24.

٤ Ency. Religi., I, p. 535.

القريب ، ما لم يحدث ما ليس في الحسبان ، من العثور على نصوص دينية تكشف لنا عن عقائد الجاهليين .

ونستطيع ان نقول إجمالاً ان من الجاهليين من كان يدين بعبادة الأرواح على اختلاف طرقها ، ويؤمن بأثرها . وللعلماء من مفسرين ولغويين وغيرهم تفاسير عديدة للروح ، تفيدنا كثيراً في معرفة آراء الجاهليين عنها ، كما ان للاخباريين قصصاً عنها وعن استقلالها وانفصالها عن الجسد بعد الموت واتصالها بالقبر وغير ذلك ، يمكن أن تكون موضوع دراسة قيّمة لمن يريد التبسط في دراسة هذه الأمور .

عبادة الكواكب :

وقد رأى بعض العلماء ان عبادة أهل الجاهلية هي عبادة كواكب في الأصل . وان أسماء الأصنام والآلهة ، وإن تعددت وكثرت ، إلا انها ترجع كلها إلى ثالوث سماوي ، هو : الشمس والقمر والزهرة . وهو رمز لعائلة صغيرة ، تتألف من أب هو القمر ، ومن أم هي الشمس ، ومن ابن هو الزهرة . وذهبوا إلى أن أكثر أسماء الآلهة ، هي في الواقع نعوت لها ، وهي من قبيل ما يقال له الأسماء الحسنى لله في الاسلام .

وقد لفت الجرمان السماويان : الشمس والقمر ، نظر الانسان اليهما بصورة خاصة ، لما أدرك فيهما من أثر في الانسان وفي طباعه وسحنه وعمله ، وفي الجو الذي يعيش فيه ، وفي حياة زرعه وحيوانه ، وفي تكوين ليله ونهاره والفصول التي تمر عليه . فتوصل بعقله يوم ذاك إلى انه نفسه ، وكل ما يحيط به ، من فعل هذين الجرمين ومن أثر أجرام أخرى أقل شأناً منهما عليه . فنسب اليهما نموه وتكوينه وبرءه وسقمه ، وحياة زرعه وماشيته ، ورسخ في عقله انه إن تقرب وتعبد لهما ، ولبقية الأجرام ، فإنه سيرضيها ، وستغدق عليه بالنعم والسعادة والمال والبركة في البنين ، فصار من ثم عابد كوكب .

ونجد في حكاية كيفية اهتداء (ابراهيم) إلى عبادة إله واحد ، الواردة في سورة الأنعام ، تفسيراً لسبب تعبد الانسان للأجرام السماوية . (وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نُري

ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنّ عليه الليل ، رأى كوكباً ، قال : هذا ربي ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربي ، فلما أفل ، قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)[1] . فقد لفت ذلك الكوكب نظر ابراهيم ، وبهره بحسن منظره وبلونه الزاهي الخالب ، فتعبد له ، واتخذه رباً ، فلما أفل ، ورأى كوكباً آخر أكبر حجماً وأجمل منظراً منه ، تركه ، وتعبد للكوكب الآخر ، وهو القمر . فلما أفل ، ورأى الشمس بازغة ، وهي أكبر حجماً وأظهر أثراً وأبين عملاً في حياة الانسان وفي حياة زرعه وحيوانه وجوّه ومحيطه ، ترك القمر وتعبّد للشمس ، فيكون قد تعبّد لثلاثة كواكب ، قبل أن يهتدي إلى التوحيد ، هي القمر والشمس ، والمشتري أو الزهرة على ما جاء في أقوال المفسرين[2] .

ويشير القرآن الكريم في موضع آخر الى عبادة الجاهليين للأجرام السماوية ، ولا سيما الشمس والقمر ، ففيه : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إيّاه تعبدون »[3] .

وهذه الأجرام السماوية الثلاثة هي الأجرام البارزة الظاهرة التي بهرت نظر الإنسان ، ولا سيما الشمس والقمر . والزهرة ، وإن كانت غير بارزة بروز الشمس والقمر ، غير أنها ظاهرة واضحة مؤثرة بالقياس الى بقية الأجرام ذات مظهر جذاب ، ولون باهر خلاب ، وقد يكون هذا المظهر الجميل الأخاذ هو الذي جعلها ابناً للشمس والقمر في أساطير العرب الجنوبيين .

واعتبر الجاهليون القمر أباً في هذا الثالوث ، وصار هو الإله المقدم فيه ، وكبير الآلهة . وصارت له منزلة خاصة في ديانة العرب الجنوبيين . وهذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل

---

١ الانعام ، الآية ٧٥ وما بعدها .
٢ تفسير الطبري (٧/١٥٨ وما بعدها) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٧/٢٥) .
٣ فصلت ، الآية ٣٧ .

التغليب[1] ، وعلى الذهاب الى أن هذا المركز الذي يحتله القمر في ديانة العربية الجنوبية لا نجده في أديان الساميين الشماليين ، مما يصح أن نجعله من الفروق المهمة التي تميز الساميين الجنوبيين عن الساميين الشماليين[2] .

ويرجع أولئك المستشرقون هذا التباين الظاهر بين عبادة الساميين الجنوبيين وعبادة الساميين الشماليين وتقديم القمر على الشمس عند العرب الجنوبيين الى الاختلاف في طبيعة الأقاليم والى التباين في الثقافة ، ففي العربية الجنوبية يكون القمر هادياً للناس ومهدئاً للأعصاب ، وسميراً لرجال القوافل من التجّار وأصحاب الأعمال في الليالي اللطيفة المقمرة ، بعد حرّ شديد تبعثه أشعة الشمس المحرقة ، فتشل الحركة في النهار ، وتجعل من الصعب على الناس الاشتغال فيه ، وتميت من يتعرض لأشعتها الوهاجة في عز الصيف القايظ . إنها ذات حميم حقاً ، فلا عجب إذا ما دعيت بـ (ذت حمم) ، (ذات حميم) ، (ذات الحميم) عند العرب الجنوبيين . ولذلك ، لا يستغرب إذا قدمه العرب الجنوبيون في عبادتهم على الشمس، وفضلوه عليها . واذا كانت الشمس مصدراً لنموّ النباتات نموّاً سريعاً في شمال جزيرة العرب ، فإن أشعة الشمس الوهّاجة المحرقة تَقِفُ نموَّ أكثر المزروعات في صيف العربية الجنوبية ، وتسبب جفافها واختفاء الورد والزهر في هذا الموسم ، فلا بد أن يكون لهذه الظاهرة أثر في العقلية التي كوّنت تلك الأساطير[3] .

ويرى (هومل) أن ديانات جميع الساميين الغربيين والعرب الجنوبيين هي ديانة عبادة القمر أي أن القمر فيها مقدم على الشمس ، وهو عكس ما نجده في ديانة البابليين . ويعلل ذلك ببقاء الساميين الغربيين بدواً مدة طويلة بالقياس الى البابليين . ويلاحظ أيضاً أن الشمس هي أنثى ، وأما القمر فهو ذكر عند الساميين الغربيين ، وهو بعكس ما نجده عند البابليين[4] .

والاسم الشائع للقمر بين الساميين ، هو : ورخ ، و (سن) (سين) ، وشهر . وشهر خاصة هو الاسم الشائع المستعمل للقمر في الكتابات الجاهلية التي

---

١ D. Nielsen, Die Altarabische Mondreligion.

٢ Handbuch I, S. 213.

٣ Handbuch, I, S. 213, Die Altarbische Mondreligion, S. 49, Die Sabaische Gott Ilmukah, S. I.

٤ Hommel, Grundriss, I, S. 85.

عثر عليها في العربية الجنوبية وفي النصوص التي عثر عليها في الحبشة، وفي الأقسام الشمالية الغربية من جزيرة العرب . ويلاحظ ان الصور التي ترمز إلى القمـــر مما عثر عليه في تلك النصوص هي متشابهة تقريباً ، ومتقاربة في الشكـل ، مما يدل على ان الأسطورة الدينية التي كانت في مخيلة عبدة القمر عنه كانت متشابهة ومتقاربة ومن أصل واحد . أما كلمة (قمر) ، فلم ترد حتى الآن في النصوص الجاهلية التي وصلت الينا ، وهذا مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن هذه التسمية متأخرة [1] .

ويلاحظ ان النصوص العربية الجنوبية لا تسمي القمر بإسمه دائماً في النصوص، وإنما تشير اليه بكناه وصفاته في الغالب . ويظهر ان ذلك من باب التأدب والتجمل أمام رب الأرباب . ونجد هذا التأدب في مقام الأرباب عند جميع البشر ، فلا يخاطب الانسان ربه كما يخاطب غيره من الإنس ، أي بإسمه المعتاد ، لأنه الرب والإلـه ، وهو فوق الانسان . وهو إذا خاطبه بإسمه ، فإنما يفعل ذلك على سبيل التودد والتقرب والتحبب إلى الرب ، فهو نوع من أدب التقرب إلى الآلهة .

ولما كان القمر هو الأب ، خاطبه المؤمنون به بـ (ودم ابم) ، وبـ (ابم ودم) ، أي (وَدٌ أبٌ) ، و (أب وَدٌ) ، ولا غرابـة في ذلك . فإذا كان القمر أباً للآلهة ، فلِمَ لا يكون إذن أباً للانسان عبده ، وهو في حاجـة شديدة اليه ، حاجة العبد إلى سيده والولد إلى والده ؟

ودعوه أيضاً بـ (عم) ، ولِمَ لا ؟ أليس العم في مقـام الأب ؟ ثم إنّ العرب لا تزال تخـاطب الكبير بـ (عم) دلالة على تقديره واحترامه ، فليس بغريب إن نادى المؤمنون إلهم القمر : يا عم ! لبرحمهم وليبـارك فيهم ، إن في هذا النداء تقرباً وتواضعاً واشعاراً بضعف السائل تجاه المخاطب [2] .

والأب عند العرب كلّ من كان سبباً في إيجاد شيء أو اصلاحه أو ظهوره . ويقوم العم عندهم مقام الأب . ولذلك سمّي مع الأب الأبوين [3] .

وقد عثر عـلى أخشاب وأحجار حفرت عليها أسماء ودّ ، أو جمل (ودم

---

١ Handbuch, I, S. 214.

٢ Handbuch, I, S. 214.

٣ المفردات في غريب القرآن ، للراغب الاصفهاني (ص ٤ وما بعدها) ، مادة أبا في كتاب الالف .

ابم) ، أو (ابم ودم) ، وذلك فوق أبواب المباني ، لتكون في حمايته وللتبرك باسمه وللتيمن به ، كما وجدت كلمة (ودّ) محفورة على أشياء ذات ثقـوب ، تعلق على عنق الأطفال لتكون تميمة وتعويذة يتبرك بها . فعلوا ذلك كما يفعـل الناس في الزمن الحـاضر في التبرك بأسماء الآلهة والتيمن بها لمنحها الحبّ والبركة والخيرات .

ونعت القمر بـ (كهلن) ، أي (الكهل) في نصوص المسند ، وفي نصوص عثر عليها في الأقسام الشمالية من العربية الغربية . وتعني لفظة (كهلن) ، القدير والمقتدر والعزيز[1] . وهي من نعوت هذا الإلـه .

ونعت بنعوت أخرى ، مثل (حكم) ، أي (حكيم) و (حاكم) و (صدق) أي (صديق) و (صادق) ، و (علم) ، أي (عليم) .و (عالم) و (علام) ، وبنعوت أخرى عديدة من هذا القبيل ، وهي من نوع (الأسمـاء الحسنى) لله عند المسلمين . ترينا الإلـه إلهاً قديراً قوياً عالماً حامياً مساعداً لأبنائه المؤمنين به . يحبّهم حبّ الأب الشفيق لأبنائه الأعزاء .

والإلـه (القمر) ، هو الإلـه (المقه) عند السبئيين . وهو إلـه سبأ الكبير . وهو (عم) عند القتبانيين . كما سأتحدث عن ذلك في أصنام الكتابات ، وهـو ودّ عند المعينين و (سن) (سين) ، عند الحضارمة .

واتخذ الثور من الحيوانات رمزاً للقمر ،ولذلك عُدّ الثور من الحيوانات المقدسة التي ترمز الى الآلهة . ونجد هذه الصورة مرسومة في النصوص اللحيانية والثمودية وعند غير العرب من الشعوب الساميّة . وقد نص على اسمـه في الكتابات ، إذ قيل له (ثور)[2] .

وقد ذكر (الألوسي) ، ان عبدة (القمر) « اتخذوا له صنماً على شكل عجل ، وبيد الصنم جوهرة يعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياماً معلومة في كل شهر ، ثم يأتون اليه بالطعام والشراب والفـرح والسرور . فإذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديـه »[3] . ولم يشر الى اسم الجاهليين الذين فعلوا ذلك . فلعله قصد عبدة القمر بصورة عامة من العرب وغيرهم .

١ Halevy 237, Chrestoma. 91, 97, Grundriss, I, S. 136, Glaser, 284.

٢ Glaser 1546, Wiener Museum 5, Handbuch, I, S. 214.

٣ بلوغ الارب (٢/٢١٦) .

وذهب بعض الباحثين إلى احتمال كون (الحية) تمثل الإلـه القمر ، وهي تمثل الروح أيضاً عند بعض آخر[1] .

والشمس ، هي من أول الأجرام السماوية التي لفتت اليها أنظار البشر بتأثيرها في الانسان وفي الزرع والنماء . وهذا التأثير البارز جعل البشر يتصور في الشمس قدرة خارقة وقوة غير منظورة كامنة فيها ، فعبدها وألـهها ، وشاد لها المعابد ، وقدّم لها القرابين . وهــي عبادة فيها تطور كبير ورقي في التفكــير إذا قيست بالعبادات البدائية التي كان يؤديها الانسان للأحجار والنباتات والأرواح .

وقد تعبّد العرب للشمس في مواضع مختلفة في جزيرة العرب . وترجع عبادتها إلى ما قبل الميلاد ، في زمن لا نستطيع تحديده ، لعدم وجود نصوص لدينا يمكن أن تكشف لنا عن وقت ظهور عبادة الشمس عند العرب . وعبدها أقوام آخرون من غير العرب من الساميين ، مثل البابليين والكنعانيين والعبرانيين . وقد أشير في مواضع عديدة من العهد القديم إلى عبادة الشمس بين العبرانيين ، وجعل الموت عقوبة لمن يعبد الشمس . ومع ذلك ، عبدت في مدن يهوذا . وقد اتخذت جملة مواضع لعبادة الشمس فيها عرفت بـ (بيت شمس) Beth Shemesh[2] .

والشمس أنثى في العربية ، فهي إلهة ، أمــا في كتابات تدمر فهي مذكر ، ولذلك فهي إلـه ذكر عند التدمريين . ويرى (ولهوزن) Wellhousen أن ذلك حدث بمؤثرات خارجية[3] . وكانت عبادة الشمس شائعة بــين التدمريين . وورد في الكتابات التي عثر عليها في (حوران) أسماء أشخاص مركبة من شمس وكلمة أخرى ، ويدلّ على ذلك شيوع عبادتها عند أهل تلك المنطقة . وذكر (سترابو) أن Helios أي الشمس ، هي الإلـه الأكبر عند النبط . ولكن الكتابات النبطية لا تؤيد هذا الرأي . والإلـه الأكبر فيها هو (اللات) . فلعل (سترابو) قصد بـ Helios اللات . وإذا كان هذا صحيحاً ، فتكون اللات هي الشمس .

والشمس من الأصنام التي تسمى بها عدد من الأشخاص،فعرفوا بـ (عبد شمس). وقد ذكر الأخبــاريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر ، لأنه أول من عبد

---

١ Arabien, S. 269.

٢ Hastings, p. 880, Die Araber, III, S. 125. ff.

٣ Reste, S. 60 Waddington 2569, 2587, Vogue, Palmy., 2, 8, 19, 75, 116, 125, Reste, S. 60.

الشمس ، فدعي بـ (عبد شمس)[1] . وقد ذكر ان بني تميم تعبدت له . وكان له بيت ، وكانت تعبده بنو أدّ كلها : ضَبّة ، وتميم ، وعديّ ، وعُكْل : وثور ، وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شُريف بن جروة ابن أسيد بن عمرو بن تميم ، فكسره هند بن أبي أهالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن[2] .

وذكر أن (عبد شمس)، اسم أضيف الى شمس السماء ، لأنهم كانوا يعبدونها. والنسبة (عبشمي)[3] .

وكانت العرب تسمّي الشمس (الإلهة) تعظيماً لها ، كما يظهر ذلك من هذا الشعر :

تروّحنا من اللعباء قسراً فأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا
على مثل ابن ميّة فانعياه تشق نواعم البشر الجيوبا [4]

ويقال لها (لاهة) بغير ألف ولام .

وعرفت الشمس بـ (ذُكاء)[5] عند الجاهليين. وقد تصور أهل الجاهلية الصبح ابناً للشمس تارة ، وتصوروه تارة حاجباً لها . فقيل حاجب الشمس . وقيل يقال للصبح ابن ذكاء لأنه من ضوئها[6] .

وكانوا يستقبلون الشمس ضحى. ذكر (الأسقع) الليثي ، انه خرج إلى والده، فوجده جالساً مستقبل الشمس ضحى[7] . وإذا تذكرنا ما أورده أهل الأخبار عن

---

١ منتخبات (ص ٥٧) .
٢ المحبر (٣١٦) .
٣ تاج العروس (٤/١٧٢) ، (شمس) .
٤ ينسب هذا الشعر لمية بنت أم عتبة بن الحارث ، وقيل لبنت عبد الحارث اليربوعي وقيل : لنائحة عتيبة بن الحارث ، وقيل لام البنين بنت عتيبة بن الحارث ، تاج العروس (٩/٣٧٤) ، اللسان (١٧/٦٣٠) ، تاج العروس (٩/٥١٠) ، (لاه)، (تروحنا من اللعباء قصرا) ، ابن الاجدابي الازمنة والانواء (٧٩) .
٥ بالضم
٦ تاج العروس (١٠/١٣٧) ، (ذكو) .
٧ الاصابة (١/٥١) ، رقم (١٢١) .

صلاة الضحى ، وهي صلاة كانت تعرفها قريش ، ولم تنكرها ، أمكننا الربط بين استقبال الشمس ضحى وبين هذه الصلاة .

وقد لاحظ بعض السياح ان آثار عبادة الشمس والقمر لا تزال كامنة في نفوس بعض الناس والقبائل،حيث تتجلى في تقدير هذين الكوكبين وفي تأنيب من يتطاول عليهما بالشتم أو بكلام مسيء وفي تعظيمها من بين سائر الكواكب تعظيماً يشير إلى انه من بقايا الوثنية القديمة على الرغم من إسلام أولئك المعظمين[١] .

ويلي الشمس والقمر (الزهرة) ، وهي ذكر في النصوص العربية الجنوبية ، ويسمى (عثتر) . وهو بمثابة (الابن) للشمس والقمر . وهذا الثالوث الكوكبي يدل ، في رأي الباحثين في أديان العرب الجنوبيين ، على أن عبادة العربية الجنوبية هي عبادة نجوم . وهو يمثل في نظرهم عائلة إلهية مكوّنة من ثلاثة أرباب، هي : الأب وهو القمر ، والابن وهو الزُّهرة ، والأم وهي الشمس .

وإذ كان القمر هو الأب وكبير الآلهة الثلاثة ، صار اسمه في طليعة من يذكر اسمه من الآلهة في النصوص ، وصارت له كنى ونعوت كثيرة لا تجاريها في الكثرة نعوت الآلهة الأخرى،وبه تسمى أشخاص كثيرون . وهذا ما حدا ببعض المستشرقين على إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل التغليب . وهذا المركز الذي يحتله القمر في ديانة العرب الجنوبية ، لا نجده في أديان الساميين الشماليين عن الساميين الجنوبيين[٢] . كما يصح اعتبار تذكير (الزهرة) (عثتر) عند العرب الجنوبيين ، من جملة الفروق التي نراها بين ديانة سكان العربية الجنوبية وديانات الساكنين في شمال العربية الجنوبية ، فإن (الزهرة) هي أنثى عندهم .

وعبد بعض أهل الجاهلية أجراماً سماوية أخرى،وتقربوا اليها بالنذور والصلوات . ففي كتب الأخباريين ان طائفة من تميم عبدت (الدّبران) ، وان (العيوق) في زعمهم (عانق الدبران لمّا ساق إلى الثّريا مهراً ، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً ، فهو يتبعها أبداً خاطباً لها ، ولذلك سمّوا هذه النجوم القلاص)[٣] .

---

١ Handbuch, I, S. 199, 201, 205, W. Gifford Palgrave, Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia, London, 1866, 250, A. Grahmann, Arabien, S. 81.

٢ Handbuch, I, S. 213.

٣ بلوغ الارب (٢٣٩/٢) ، ابن الاجدابي ، الازمنة والانواء (٧١) .

وفي كتبهم أيضاً ان بعض قبائل لخم وخزاعة وحمير وقريش عبدوا (الشعرى العبور) ، وان أول من سنّ ذلك لهم ، وأدخل تلك العبادة اليهم (أبو كبشة) . وهو (جزء بن غالب بن عامر بن الحارث بن غبشان الخزاعي) ، أو (وجز ابن غالب) ، وهو من خزاعة ثم من بني غبشان ، أحد أجداد النبي من قبل أمهاته . خالف قريشاً في عبادة الأصنام وعبد الشعرى العبور . وكان (وجز) يقول : إن الشعرى تقطع السماء عرضاً ، فلا أرى في السماء شيئاً ، شمساً ولا قمراً ولا نجماً ، يقطع السماء عرضاً . والعرب تسمي الشعرى العبور ، لأنها تعبر السماء عرضاً ، ووجز هو أبو كبشة الذي كانت قريش تنسب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،اليه ، والعرب تظن ان أحداً لا يعمل شيئاً إلا بعرق ينزعه شبهه ، فلما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دينَ قريش ، قالت قريش : نزعه أبو كبشة ، لأن أبا كبشة خالف الناس في عبادة الشعرى . وكانوا ينسبون رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه . وكان أبو كبشة سيداً في خزاعة ، لم يعيروا رسول الله صلى الله عليه وسلم به من تقصير كان فيه ، ولكنهم أرادوا أن يشبهوه بخلاف أبي كبشة ، فيقولون : «خالف كما خالف أبو كبشة »[1] . وذكر (القرطبي) ان أول من عبد الشعرى (أبو كبشة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ، من قبل أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يسمّون النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ابن أبي كبشة ، حين دعا إلى الله وخالف أديانهم ، وقالوا : ما لقينا من ابن أبي كبشة ! وقال أبو سفيان يوم الفتح ، وقد وقف في بعض المضايق وعساكر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تمرّ عليه : لقد أمِرَ أمر ابن أبي كبشة)[2]. وكان (الحارث) ، وهو (غبشان بن عمرو بن بؤي بن ملكان) ، ويكنى أبا كبشة ، ممن يعبد الشعرى[3] .

و (الشعرى) Sirius هي المقصودة في الآية : « وإنه هو ربّ الشعرى»[4] . وكان ناس في الجاهلية يعبدون هذا النجم الذي يقال له الشعرى . وهو النجم

---

١ الزبيري ، كتاب نسب قريش (٢٦١ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٤٢/٤) ، (كبش) .

٢ تفسير القرطبي (١١٩/١٧) ، تفسير الطبرسي (١٨٣/٢٧) ، (١٨٣/٩) ، (طبعة طهران) ، المحبر (١٢٩) ، ابن سعد ، طبقات (١/١ ص ٣١) .

٣ المحبر (١٢٩) .

٤ النجم ، الآية ٤٩ .

الوقاد الذي يتبع الجوزاء ، ويقال له المرزم[1] . وقد كان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم[2] .

وذكر بعض العلماء أن (الشعرى) كوكب نير يقال له المرزم ، وطلوعه في شدة الحر . وتقول العرب إذا طلعت الشعرى ، جعل صاحب النحل يرى . وهما: (الشعريان) : العبور ، والشعرى الغميصاء . تزعم العرب أنهما أختا سهيل . وعبدت طائفة من العرب الشعرى العبور . ويقال : إنها عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها عرضاً غيرها . وسميت الأخرى الغميصاء ، لأن العرب قالت في حديثها: إنها بكت على أثر العبور حتى غمصت[3] .

والعرب تقول في خرافاتها : إن سهيلاً والشعرى كانا زوجين ، فانحدر سهيل فصار يمانياً ، فاتبعته الشعرى العبور فعبرت المجرة فسميت العبور ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت عيناه ، فسميت غمصاء لأنها أخفى من الأخرى[4] .

ويذكرون أن بعض طيء عبدوا (الثريا)،وبعض قبائل ربيعة عبدوا (المرزم)، وأن (كنانة) عبدت القمر[5] . ويتبين من بعض الأعلام المركبة ، مثل : عبد الثريا ، وعبد نجم ، أن الثريا ونجماً ، كانا صنمين معبودين في الجاهلية[6] . وقد ذهب بعض المفسرين الى أن (النجم) المذكور في سورة (النجم) : (والنجم اذا هوى)[7] : الثريا[8] (والعرب تسمي الثريا نجماً)[9] . وقال بعض آخر : « إن النجم ههنا الزهرة ، لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها »[10] .

---

١ تفسير الطبري (٢٧/٤٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٣٤١) ، (جوز) ، القرطبي ، الجامع (١٧/١١٩ وما بعدها) .
٢ تفسير القرطبي (١٧/١١٩) .
٣ تاج العروس (٣/٣٠٥) ، (شعر) .
٤ تفسير القرطبي (١٧/١١٩ وما بعدها) .
٥ بلوغ الارب (٢/٢٤٠) ، تاج العروس (٨/٣١١) ، (رزم) .
٦ Ency. Religi., I, p. 66.
٧ سورة النجم ، الآية ١ .
٨ تفسير الطبري (٢٧/٢٤) .
٩ تفسير القرطبي (١٧/٨٢ وما بعدها) .
١٠ المصدر نفسه .

وعبَدَ بعض الجاهليين (المريخ) ، واتخذوه إلهاً ، كما عبد غيرهم (سهيلا) Canapus و (عطارد) Merkur و (الأسد) Lion و (زحل) .

وقد ذكر أهل الأخبار ، ان أهل الجاهلية يجعلون فعلاً للكواكب حادثاً عنه. فكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وكانوا يجعلون لها أثراً في الزرع وفي الانسان ، فأبطل ذلك الاسلام ، وجعله من أمور الجاهلية . جاء في الحديث : « ثلاث من أمور الجاهلية : الطعن في الأنساب ، والنياحة ، والاستسقاء بالأنواء»[1].

ومن مظاهر الشرك المتجلي في التعبد للأمور الطبيعية الملموسة ، عبادة الشجر، وهي عبادة شائعة معروفة عند الساميين . وقد أشار (ابن الكلبي) الى نخلة (نجران) ، وهي نخلة عظيمة كان أهل البلد يتعبدون لها ، (لها عيد في كل سنة . فإذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحليّ للنساء ، فخرجوا اليها يوماً وعكفوا عليها يوماً)[2] . ومنها العزى وذات أنواط . يحدثنا أهل الأخبار عن ذات أنواط ، فيقولون : (ذات أنواط : شجرة خضراء عظيمة ، كانت الجاهلية تأتيها كل سنة تعظيماً لها ، فتعلق عليها أسلحتها وتذبح عندها ، وكانت قريبة من مكة . وذكر انهم كانوا إذا حجّوا، يعبقون أرديتهم عليها ، ويدخلون الحرم بغير أردية ، تعظيماً للبيت،ولذلك سميت (ذات أنواط)[3] . (وقد روي ان بعض الناس قال : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)[4] .

ونستطيع أن نقول إن آثار عبادة الشجر لا تزال باقية عند الناس . تظهر في امتناع بعضهم وفي تهيبهم من قطع بعض الشجر ، لاعتقادهم أنهم إن فعلوا ذلك أصيبوا بنازلة تنزل بهم وبمكروه سيحيق بهم . ولذلك تركوا بعض الشجر كالسدر فلم يتعرضوا له بسوء[5] .

وتعبد بعض أهل الجاهلية لبعض الحيوانات . فقد ورد أن جماعة الشاعر (زيد الخيل) ، وهم من طيء ، كانوا يتعبدون لجمل أسود . فلما وفد وفدهم على

---

١ ابن الاجدابي ، الازمنة والانواء (١٣٦) .
٢ البلدان (٨/ ٢٦٠) ، (نجران) .
٣ البلدان (١/ ٣٦٣) ، (أنواط) ، تاج العروس (٥/ ٢٣٦) ، (فوط) ، الازرقي (٧٤ وما بعدها) .
٤ رسالة الغفران (١٤٠ وما بعدها) .
٥ Grahmann, S. 82.

الرسول ، قال لهم : « ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله عزّ وجلّ »[1] . وورد أن قوماً كانوا بالبحرين عرفوا بـ(الأسبذيين) ، كانوا يعبدون الخيل[2] . ذكر أنهم قوم من المجوس ، كانوا مسلحة لحصن المشقر من أرض البحرين[3] . فهم فرس . وأن بعض القبائل مثل (إياد) ، كانت تتبرك بالناقة[4] .

الشفاعة :

والشفاعة من أهم مظاهر الشرك عند الجاهليين . وأقصد بالشفاعة هنا ، ما ورد في القرآن الكريم من تبرير أهل الجاهلية لتقربهم الى الأصنام بأنهم ما يتعبدون لها إلا لتقربهم الى الله : « ويعبدون من دون الله مالا يضرّهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله »[5] . « والذين اتخذوا من دونه أولياء . ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى . إنّ اللهَ يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون»[6] . فهم يحاجّون الرسول ، ويدافعون عن التقرب الى الأصنام ، بقولهم : إنها تشفع عند الله ، فهي شفيعة ، فهم لا يعبدون الأصنام إذن ، ولا يشركون بالخالق ، وإنما هم يتقربون اليه بها . فهي الواسطة بينهم وبين الله[7] .

الأصنام :

ومن جملة ما كان يتوسط به الجاهليون لآلهتهم ليكونوا شفعاء لهم عندها ، التماثيل المصنوعة من الفضة أو الذهب أو الحجارة الثمينة والخشب . ومن عادتهم انهم كانوا يدونون ذلك على الحجارة ، فيكتبون عدد التماثيل وأنواعها وأسماء الآلهة أو اسم الإلـه الذي قدمت له تلك الأشياء واسم الناذر ، ويشار إلى السبب الداعي

---

١ الاغاني (١٦/٤٧) ، الاصابة (٥٥٥/١) ، (رقم ٢٩٤١) .
٢ البلاذري ، فتوح (٨٩) ، (البحرين) .
٣ اللسان (٤٩٣/٣) ، (سبذ) .
٤ الاغاني (٩٣/١٥) ، « في أخبار أبي دواد الايادي » .
٥ سورة يونس ، الرقم ١٠ ، الآية ١٨ .
٦ الزمر ، الآية ٣ .
٧ المفردات ، للاصفهاني (٢٦٤) .

إلى ذلك ، كأن يذكر بأن أصحابها توسلوا إلى الإلـه أو الآلهة المذكورة برجائهم الذي طلبوه ، فأجيبت مطالبهم ، ولذلك قدموا هذه النذور ، فهي وفاء لدين استحق عليهم بسبب ذلك النذر وتلك الشفاعة .

ولا بد لنا من الاشارة هنا إلى ان الأصنام كانت تدافع عن قبائلها وتذب عنها وتحامي عنها في الحرب ، كما يدافع سيد القبيلة عن قبيلته ، وان أبناء القبيلة أبناؤها وأولادها ، ولذلك كانوا يقولون عنها (اب) (أب) في كتاباتهم ، ويكتبون عن أنفسهم (أبناء الصنم ...) . وفي الشعر الجاهلي أمثلة عديدة تشير إلى اعتقاد القوم باشتراك آلهتهم معهم في الحرب وفي انتصارهم لهم . ففي الحرب التي وقعت بين (بني أنعم) و (بني غطيف) بشأن الصنم (يغوث) ، يقول الشاعر :

وسارَ بنا يغوثُ إلى مرادٍ فناجزناهمُ قبل الصباحِ[1]

وطبيعي أن يعد أعداء القبيلة أعداء لصنم القبيلة ، وأعداء الصنم أعداء للقبيلة، فأعداء الآلهة وأعداء القبيلة هم خصوم لا يمكن التفريق بينهم .

وفي معركة أُحد ، وهي من المعارك الحربية المهمة التّي جرت بين الإسلام والوثنية على مستقبل العرب الديني ، نادى أبو سفيان بأعلى صوته : « اعلُ هُبَلْ ! اعلُ هبل ! » ، ليبعث الحماسة في نفوس الوثنيين ، وليستغيث بصنمه في الدفاع عن أتباعه المؤمنين به . أما المسلمون ، فاستنجدوا باللهِ ، إذ ردّوا عليه ردّة قوية عالية : « الله أعلى وأجل » . فقال أبو سفيان : « ألا لنا العزى ولا عُزى لكم » . فأجابه المسلمون : « الله مولانا ولا مولى لكم »[2] .

وفي الحروب يحارب كل إلـه عن قبيلته ، ويجهد نفسه في الدفاع عنها في سبيل حصولها على النصر . ولهذا السبب كانت القبائل والجيوش تحمل أوثانها أو صور آلهتها أو رموزها الدينية المقدسة معها في الحروب . تتبرك بها وتستمد منها العون والنصر . ولما حارب الأعراب الملك (سنحاريب) ملك آشور ، حملوا أصنامهم : (دبلت) (دبـلات) Diblat ، و (دية) Daja = Daia

---

١ البلدان (٥١١/٨) .
٢ الطبري (٥٢٦/٢) . « معركة أحد » .

و (نوخيا) Nuhaia و (ابريلو) Ebirillu و (عثر قرمية) Atar Kurumaia ، معهم لتدافع عنهم،ولتحارب معهم الآشوريين. ولكن الآشوريين غلبوهم وانتصروا عليهم وأخذوا غنائم وأسرى منهم ، كان في جملتها هـذه الأصنام المسكينة ، التي وقعت في الأسر وبقيت في أسرها الى أن توفي (سنحاريب) وتولى ابنه (أسرحدون) الحكم ، فاسترضى الأعراب هذا الملك وجاءوا بهدايا كثيرة، رجاء استرضائه لإعادة أصنامهم اليهم ، فرقّ على حالهم وأعاد اليهم تلك الأصنام السيئة الحظ ، التي كتب عليها أن تسجن،وتمكنت من استنشاق ريح الحرية من جديد[1] .

وسقطت أصنام الأعراب مرة أخرى في أسر الآشوريـين ، وذلك في أيام (أسرحدون) ، فلما انضم (لبلي) (ليل) Laili ملك (يادي) (يادع) (يدي) (يدع) Jadi' = Jadi' إلى الثائرين على حكم هذا الملك ، لحقت بهم الهزيمة ، وسقطت أصنامه أسيرة في أيدي الآشوريين ، وأخذت إلى (نينوى) ، فلم يجد الملك (ليل) (ليلي) أمامه من سبيل سوى الذهاب إلى عاصمـة الملك لاسترضائه ، حيث طلب العفو والصفح عما بدر منه ، فقبل (أسرحدون) منه ذلك ، وتآخى معه ، وأعاد اليه أصنامه[2] .

وكان في جملة الأصنام التي شاء سوء طالعها الوقوع في أسر الآشوريين الصنم (اترسمين) (اترسماثين) (Atarsamin) (A-tar-sa-ma-a-a-in) . و (اتر) هو (عثتر) ، فيكون المراد به (عثتر السماء) عثتر السماوات ، ويدل ذلك على أنه إلـه السماء . وكان قد وقـع أسيراً في أيديهم ايام الملك (أسرحدون) ، فلما توفي الملك وانتقل عرشه إلى ابنه (أشور بانبال)، جاء Uaite العربي اليه ، وهو أحد سادات القبائل إلى الملك،وصالحه وأرضاه، فأعاد اليه أصنامه ومنها الصنم المذكور[3] .

وطالما كان يعرض حمل المحاربين أصنامهم معهم في الحروب الى وقـوع تلك الأصنام في الأسر ، تقع كما يقع الإنسان في الأسر . بل يكون أسر الأصنام في نظرهم أشدّ وقعاً في نفوسهم من أسر الإنسان . إنها آلهة تدافع وتحامي ، إنهـا

١ Musil, Deserta, p. 481, Reall., II, S. 265, Thompson, Prisms of Esarhaddon and of Ashurbanipal, p. 20.

٢ Musil, Deserta, p. 483, Realb., I, S. 440, Rawlinson, The Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World, Vol. II, p. 470 - 471.

٣ Reall., I, 310, Schrader, KAT., S. 434, Streck, Vorderasiatische Bibliotheck, VIII S. 72.

آلهة القبيلة كلّها ، فأسرها معناه في عرفهم أسر القبيلة كلها ، فأسر الآلهة شيء كبير بالنسبة الى القبيلـــة . وقد أشرت الى استيلاء الآشوريين على أصنام قبائل (عربي) التي حاربتهم ، والى أخذها أسيرة الى أرض آشور ، والى مفاوضة الأعراب معهم على الصلح في مقابل إعادة تلك الأصنام اليهم . فلما أعيدت الأصنام الى أصحابها ، كتب الآشوريون عليها كتابة تخبر بوقوعها في الأسر ، وبانتصار آلهة آشور عليها ، لتكون نذيراً للمؤمنين بها ، يحذرهم من حرب ثانية توقع هذه الأصنام في أسر جديد .

وقد أشير الى (خيل اللات) في مقابل (خيل محمد) ، في شعر لأبي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، إذ قال :

لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلب خيل الله خيل محمد[1]

ومن أمثلة العرب : (لا تفر حتى تفر القبة) ، أو (لا نفر حتى تفر القبة)[2] . ويراد بالقبة : قبة الصنم ، أي خيمة الصنم التي تحمل مع المحاربين وتضرب في ساحة القتال ، ليطوف حولها المحاربون، يستمدون منها العون والنصر . كما كانوا يستشيرون الأصنام عند القتال ، ويأخذون برأيها فيما تأمر به .

وحمل الأصنام مع القبيلة في ترحالها وفي حروبها وغزواتها يستلزم بذل عنايـــة خاصة بها للمحافظة عليها من الكسر ومن تعرضها لأي سوء كان . وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في سمتها ، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر . وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة ، وللموضع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه،وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز . ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هـذا المعبد ، واتخاذ معبد ثابت ، لخروج ذلك على سنن الآبـــاء والأجداد . ولذلك لم يرض العبرانيون عن المعبد الثابت الذي أقامه سليمان ، لما فيه من نبذ للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان إلى مكان .

واعتقاد القبائل أن أصنامها هي التي تجلب لهـا النصر والخسارة ، كان يؤدي في بعض الأحيان الى الإعراض عن الصنم المحبوب ونبذه ، نتيجة لانهزام القبيلة،

---

١ الاصابة (٤/٩٠) ، (رقم ٥٣٨) .
٢ المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الاول) ، (ص ١١) .

إذ يتبادر الى ذهن تلك القبيلة أن تلك الهزيمة التي نزلت بها إنما كانت بسبب ضعف ربها واستكانته وعدم اقتداره في الدفاع عنها ، ولذلك تقرر الاستغناء عنه والتوجه الى ربّ قويّ جديد . وقد يكون ذلك الرب هو ربّ القوية المنتصرة ، أو رب قبيلة من القبائل التي عرفت بتفوّقها في الحروب ، فيكون التوفيق حليف ذلك الرب . وهكذا الأرباب في نظر قبائل تلك الأيام كالناس لها حظوظ ، والحظ هو دائماً في جانب القوي .

وكان على كهّان صنم القبيلة المغلوبة ايجاد تفسير لعلة الهزيمة التي لحقت بعبدة ذلك الصنم ، والبحث عن عذر يدافعون به عن الصنم ، ويلقون اللوم فيه على أتباعه ، لتبرئة ذمته وابعاد المؤمنين به عن الشك في قدرته وعظمته . فكان من أعذارهم ، أن الهزيمة عقاب من الإلـه أرسله الى أتباعه لابتعادهم عن أوامره ونواهيه ، ولعدم إطاعتهم أحكام دينه ، ولمخالفتهم آراء رجال دينهم وكهّانه . ولن تنقشع عنهم النكبة ، ويكتب لهم النصر ، إلا إذا تابوا وعملوا بأوامر الكهّان وأرضوا الآلهة ، وعملوا بما أوجبته شريعتهم عليهم . وهكذا يلوم الكهان الناس، دفاعاً عن آلهتهم التي خلقوها بأنفسهم ، وحماية لمصالحهم القائمة على استغلال تلك المخترعات ، التي نعتوها آلهة وأصناماً .

ولما كانت الآلهة آلهة قبائل ، كان نبذ الفرد لإلـهه معناه نبذه لقبيلته وخروجه على إجماعها ، فلا يسع شخصاً أن يغير عبادة إلـه القبيلة إلا اذا خرج على قبيلته وتعبّد لإلـه آخر . فإن تغيير عبادة الأفراد لأصنامهم في نظر قدماء الساميين أمر إدّ ، هو بمثابة تبديل الجنسية في العصر الحاضر . إن عبادة الأصنام عبادة موروثة يرثها الأبناء عن الآباء ، وليست بشيء اختياري ، فليس للرجل أن يختار الصنم الذي يريده بمحض مشيئته . إن الصنم دين وهو رمز للقبيلة ، والمحامي المدافع عن شعبه ، والرابطة التي تربط بين الأفراد ، فالخروج عليه معناه خروج على ارادة الشعب ، وتفكيك لوحدته ، وهو مما لا يسمح به وإلا تعرّض الثائر للعقاب[1] .

نعم ، كان في إمكان أصحاب الكلمة والسيادة والرئاسة تغيير أصنام القبيلة ، أو تبديل دينها ، كما سنرى فيما بعد . فهؤلاء هم سادة ، والناس تبع لسادتهم ،

---

١ Robertson, p. 37. f.

وفي المثل : « الناس على دين ملوكهم » . لقد أضاف سادة أصناماً الى قبائلهم، فعبدت وتمسك أتباعهم بعبادتها ، وكأنهم قد تلقوا أوامرهم من السماء ، ونبذت قبائل بعض أصنامها ، بأمر من سادتها . ودخلت قبائل في الاسلام، لدخول سيدها فيه ، ودخلت أخرى قبل ذلك في النصرانية، بتنصر سادتها، بكلمة أقنعت الرئيس ، أو بعد محاورة ، أو بإبلال من مرض قيل له انه كان ببركة ذلك الدين، فدخل أتباعه في ذلك الدين من غير سؤال ولا جواب .

عبادة الأصنام :

ويتبين من غربلة روايات الأخباريين ان عبادة الأصنام كانت منتشرة انتشاراً واسعاً قبيل الاسلام، حتى كان أهل كل دار قد اتخذوا صنماً في دارهم يعبدونه . « فإذا أراد الرجل منهم سفراً ، تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه الى سفره ، واذا قدم من سفره تمسح به ، فكان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله »[1]. وقد كان أشق شيء في نظر قريش نبذ تلك الأصنام وتركها وعبادة إلّه واحد « وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، ان هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق »[2] .

يقول ابن الكلبي : « واشتهرت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً . ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت ، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ... فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً ، أخذ أربعة أحجار ، فنظر الى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاث أثافي لقدره . فإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر ، فعل مثل ذلك . فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون اليها »[3] . وروي أنه لم يكن حي

---

١ ابن هشام (١/٦٤) « هامش الروض » ، ابن هشام (١/٨٤) ، الاصنام (٣٢) . خزانة الادب (٣/٢٤٥) .

٢ سورة ص ، الآية ٤ وما بعدها .

٣ الاصنام (٣٣) .

من أحياء العرب إلا وله صنم يعبده يسمونه : « أنثى بني فلان . ومنه قوله تعالى : إن يدعون من دونه إلا إناثاً[1] . والإناث كل شيء ليس فيه روح مثل الخشبة والحجارة »[2] . وقد كان المشركون يعبدون الأصنام « ويسمونها بالإناث من الأسماء كاللات والعزى ونائلة ومناة وما أشبه ذلك »[3] .

ولم يذكر (ابن الكلبي) العوامل التي دفعت بعبدة الأحجار الى اختيار أربعة أحجار من بين عدد عديد من الأحجار ، ثم اختيار حجر واحد من بين هذه الأحجار الأربعة المختارة . فهل أخذ هذا العدد من نظرية العناصر الأربعة التي وضعها الفيلسوف (امبدوكلس) (Empedokles) (٤٩٠ — ٤٣٠ قبل الميلاد). نظرية أن الكون قد تكوّن من عناصر أربعة هي : النار ، والماء ، والهواء ، والتراب ، فكانوا يختارون لذلك أربعة أحجار ، تمثل هذه القوى الأربع المكونة على رأي الناس في ذلك الوقت لأساس الكون ، ثم يختارون حجراً واحداً من بينها يكون أحسنها وأجملها ، ليكون رمزاً لها ، وممثلاً للإله .

وقد كان من الجاهليين من يختار الأحجار الغريبة فيتعبد لها . فإذا رأوا حجراً أحسن وأعجب تركوا الحجارة القديمة وأخذوا الحجارة الجديدة . قال (ابن دريد) : « الحارث بن قيس : وهو الذي كان اذا وجد حجراً أحسن من حجر أخذه فعبده . وفيه نزلت : أفرأيت من اتخذ إلهه هواه »[4] . فهذه هي عبادة الأحجار عند الجاهليين .

ولدينا أمثلة عديدة تفيد ان كثيراً من الجاهليين كانوا يحتفظون في بيوتهم بأصنام يتقربون اليها كل يوم . ولا يعني ذلك بالطبع ان تلك الأصنام كانت أصناماً كبيرة منحوتة نحتاً فنياً ، بل كان أكثرها تماثيل صغيرة ، وبعضها أحجاراً غير منسقة ولا منحوتة نحتاً جيداً ، وانما هي أحجار تمثل الصنم الذي يتقرب اليه المرء . روي ان (أحمر بن سواء بن عدي السدُوسي) ، كان له صنم يعبده ، فعمد اليه فألقاه في بئر ، ثم جاء الى الرسول فأسلم[5] .

---

١ النساء ، الآية ١١٧ .
٢ اللسان (٣٤٩/١٢) ، (صنم) .
٣ تفسير الطبري (١٧٩/٥ وما بعدها) ، روح المعاني (١٣٤/٥) .
٤ الاشتقاق (٧٦) .
٥ الاصابة (٢٢/١) .

وكان بين الجاهليين قوم كرهوا الأصنام وتأففوا منها ، رأوا انها لا تنفع ولا تضر ولا تشفع ، فلم يتقربوا اليها ، وقالوا بالتوحيد ، ومن هؤلاء (مالك بن التيهان) ، وهو من الأنصار ومن المسلمين الأولين الذين دخلوا في الاسلام من أهل (يثرب) ، و (أسعد بن زرارة)[1] .

وقد شك بعض المستشرقين في وجود أصنام عند العرب الجنوبيين[2] ، ويظهر أن الذي حملهم على قول هذا القول ، هو ما رأوه من تعبد العرب الجنوبيين لإلهة منظورة في السماء هي الكواكب الثلاثة المعروفة ، فذهبوا الى انتفاء الحاجة لذلك الى عبادة أصنام ترمز الى تلك الآلهة . وعندي أن في اصدار رأي في هذا الموضوع نوع من التسرع ، لأننا لم نقم حتى اليوم بحفريات علمية عميقة في مواضع الآثار في العربية الجنوبية حتى نحكم حكماً مثل هذا لا يمكن إصداره إلا بعد دراسات علمية عميقة لمواضع الآثار ، فلربما تكشف دراسات المستقبل عن حلّ مثل هذه المشكلات . إن الإسلام قد هدّم الأصنام وأمر بتحطيمها ، فذهبت معالمها ، إلا أنه من الممكن احتمال العثور على عدد منها ، لا زال راقداً تحت التربة ، لأنه من الأصنام القديمة التي دفنت في التربة قبل الاسلام بسبب دمار حلّ بالموضع الذي عبد فيه ، أو من الأصنام التي وصلت اليها أيدي الهدم ، فطمرت في الأتربة ، وعلى كلّ فالحكم في هذا الرأي هو كما ذكرت للمستقبل وحده ، وعليه الاعتماد .

والرأي الذائع بين الأخباريين عن كيفية نشوء عبادة الأصنام قريب من رأي بعض العلماء المحدثين في هذا الموضوع . عندهم أن الناس لم يتعبدوا في القديم وفي بادىء بدء للأصنام ، ولم يكونوا ينظرون اليها على أنها أصنام تعبد ، إنما صوّروها أو نحتوها لتكون صورة أو رمزاً تذكرهم أو يذكرهم بالإلـه أو الآلهة أو الأشخاص الصالحين . فلما مضى عهد طويل عليها ، نسي الناس أصلها ، ولم يعرفوا أمرها ، فاتخذوها أصناماً وعبدوها من دون الله . وتحملنا رواياتهم في بعض الأحيان على الاعتقاد أنهم كانوا يعتقدون بعقيدة المسخ ، كالذي رووه عن الصنمين إساف ونائلة من أنهما « رجل وامرأة من جرهم ، وأن إسافاً وقع عليها في الكعبة فمسخا »[3] ، وبعقيدة التقمص كالذي رووه عن الصنم اللات من أنه كان إنساناً

---

١ طبقات ابن سعد (٣/٤٤٨) « صادر » .

٢ Arabien, S. 247.

٣ الروض الأنف (١/٦٤) .

من ثقيف، فلما مات قال لهم عمرو بن لحيّ : لم يمت ، ولكن دخل في الصخرة. ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنياناً يسمى اللات »[1] . أو كالذي رووه عن الأصنام ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، من أن هؤلاء كانوا نفراً من بني آدم صالحين ، « وكان لهم أتباع يقتدون بهم . فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صوّرناهم كان أشوق لنا الى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوّروهم فلما ماتوا ودبّ اليهم ابليس ، فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم »[2] .

وهذه العقيدة هي التي خلقت للأخباريين جملة قصص عن وجود أرواح كامنة في تلك الأصنام ، كانت تتحدث الى الناس ، وهي التي أوحت اليهم بذلك القصص الذي رووه بمناسبة أمر النبي بهدم الأصنام ، من خروج جنّ من أجوافها حينما قام بهدمها المسلمون . وقد كان أولئك الجنة على وصفهم إناثاً ، والغالب انهن على هيأة زنجيات شمطاوات عجائز ، وقد نثرن شعورهن[3] . وهي صور مرعبة ولا شك في نظر الناس ، ومن عادة الناس منذ القديم أن يمثلوا الجنة على هيأة نساء طاعنات في السن مرعبات .

والخوف من هذه الأرواح أو الجنة التي كانت تقيم في أجواف الأصنام على رأي الجاهليين ، حمل بعض من عهد اليهم تحطيم تلك الأصنام على التهيب من الإقدام على مثل ذلك العمل خشية ظهورها وفتكها بمن تجاسر عليها. وهذا الخوف هو الذي أوحى اليهم ولا شك برواية القصص المذكور .

ويمثل الصنم قوة عليا هي فوق الطبيعة ، وقد يظن انها كامنة فيه[4] . وتكون الأصنام على أشكال مختلفة ، قد تكون على هيأة بشر ، وقد تكون على هيأة حيوان أو أحجار أو أشكال أخرى. ولهذه الأصنام عند عابديها مدلولات وأساطير. وهي تصنع من مواد مختلفة ، من الحجارة ومن الخشب ومن المعادن ومن أشياء أخرى بحسب درجة تفكير عبدتها وتأثرهم بالظواهر الطبيعية والمؤثرات التي تحيط

---

١ البلدان (٣١٠/٧) « اللات » .

٢ تفسير الطبري (٦٢/٢٩) .

٣ البلدان (٣١٠/٧) « اللاث » .

٤ Ency. Religi.. 7, p. 112.

بهم . وقد تستخدم خُشُبٌ خاصة تؤخذ من أشجار ينظر اليها نظرة تقديس واحترام في عمل الأصنام منها . ويتوقف صنعها على المهارة التي يبديها الفنان في الصنع . ويحاول الفنان في العادة ان يعطيها شكلاً مؤثراً له علاقة بالأساطير القديمة وبالكائن الذي سيمثله الصنم . وقد يكون الصنم من حجارة طبيعية عبدها عن أجداده كأن يكون من حجارة البراكين ، وقد يكون من النيازك عبدها لظنه بوجود قوة خارقة فيها .

ولعبادة الأصنام صلة وثيقة بتقديس الصور Images . وكذلك بصور السحر Magical Images . فكل هذه الأشكال الثلاثة هي في الواقع عبادة . ونعني هنا بتقديس الصور ، الصور المقدسة التي تمثل أسطورة دينية أو رجالاً مقدسين كان لهم شأن في تطور العبادة ، أو جاءوا بديانة ، وأمثال ذلك ، فأحب المؤمنون بهم حفظ ذكراهم وعدم نسيانهم أو الابتعاد عنهم ، وذلك بحفظ شيء يشير اليهم ويذكرهم بهم ، وهذا الشيء قد يكون صورة مرسومة ، وقد يكون صورة محفورة أو منحوتة أو مصنوعة على هيأة تمثال أو رمز يشير الى ذلك المقدس[1] . فالصور المرسومة إذن ، هي نوع من العبادة أيضاً ، ينظر اليها نظرة تقديس وإجلال .

ونجد في روايات أهل الأخبار عن منشأ عبادة الأصنام عند العرب ما يؤيد هذا الرأي ، فهناك رواية طريفة عن الصنم (سواع) تزعم أن سواعاً كان ابناً لشيث ، وأن يغوث كان ابناً لسواع ، وكذلك كان يعوق ونسر ، كلما هلك الأول صورت صورته وعظمت لموضعه من الدين.ولما عهدوا في دعائه من الإجابة . فلم يزالوا هكذا حتى خلف الخلوف ، وقالوا : ما عظّم هؤلاء آباءنا إلا لأنها ترزق وتنفع وتضر ، واتخذوها آلهة . وهناك رواية أخرى تزعم أن الأوثان التي كانت في قوم نوح ، كانت في الأصل أشخاصاً صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا ، أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً ، وسموها بأسمائها ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك وتنوسخ العلم بها عبدت[2] .

---

١ Ency. Religi. Vol. 7, p. 110.

٢ الروض الأنف (١ / ٦٢) ، تفسير الطبرسي (٥/ ٣٦٤) .

وهناك روايات عن أصنام جعلتها أشخاصاً مسخوا حجراً ، فعبدوا أصناماً ، وصاروا شركاء لله ، تعبد لها ، لأنها في نظرهم تنفع وتضر .

ونجد في أخبار فتح مكة ان الرسول حينما دخل الكعبة رأى فيها صور الأنبياء والملائكة ، فأمر بها فمحيت. ورأى فيها ستين وثلاث مئة صنم مرصعة بالرصاص، وهبـــل أعظمها ، وهو وجاه الكعبـــة على بابها ، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون ، فأمر بها فكسرت[1] .

أما هذه الصور ، فقيل انها صور الرسل والأنبياء ، وبينها صورة (ابراهيم) وفي يده الأزلام يستقسم بها[2] .

الأصنام :

والصنم في تعريف علماء اللغة هو ما اتخذ إلهاً من دون الله،وما كان له صورة كالتمثال (مثال) ، وعمل من خشب ، أو ذهب ، أو فضة ، أو نحاس ، أو حديد ، أو غيرها من جواهر الأرض . وقال بعضهم : الصنم جثة متخذة من فضة ، أو نحاس ، أو ذهب ، أو خشب ، أو حجارة ، متقربين به الى الله ، فالشرط فيه أن يكون جثة : جثة انسان أو حيوان . وقيل : الصنم الصورة بلا جثة[3] . وذكر ان الصنم ما كان من حجر أو غيره[4] . وعرف بعضهم الصنم بأنه ما كان له جسم أو صورة فإن لم يكن له جسم أو صورة ، فهو وثن[5] . و (الصنمة) ، الصورة التي تعبد[6] . وقد كان (المنطبق) صنماً من نحاس أجوف يكلمون من جوفه[7] .

---

١ ابن الاثير (٢/١٠٥) ، (فتح مكة) ، امتاع الاسماع (١/٣٨٣ وما بعدها) .
٢ (فترك عمر صورة ابراهيم عليه السلام ، حتى محاها عليه السلام) ، امتاع الاسماع (١/٣٨٣) ، الروض الانف (٢/٢٧٥ وما بعدها) .
٣ اللسان (١٥/٢٤١) (١٦/٣٣٣) ، تاج العروس (٨/٣٧١) ، (٩/٣٥٨) ، (صنم) ، القاموس (٤/١٤١ ، ٢٧٤) ، الاشتقاق (٣٠٢) ، الاصنام (٥٣) ، المفردات (٢٨٩) .
٤ الروض الانف (١/٦٢) .
٥ اللسان (١٢/٣٤٩) ، (صنم) ، (صادر) .
٦ اللسان (١٢/٣٤٩) ، (صنم) .
٧ المحبـــر (٣١٨) .

ووردت لفظة (صلم) في كتابات عثر عليها في أعالي الحجاز ، اسم علم لإلـه ازدهرت عبادته بصورة خاصة بمدينة (تيماء) . ويرجع بعض المستشرقين تأريخ ازدهار عبادة هذا الصنم الى حوالي سنة (٦٠٠) قبل الميلاد . وقد ورد اسمه علماً لأشخاص في الكتابات اللحيانية . ورمز عنه برأس ثور في كتابات قوم ثمود[1] .

وقد وردت كلمة (أصنام)[2] و (أصناماً)[3] و (الأصنـــام)[4] و (أصنامكم)[5] في القرآن الكريم ، بحسب مواقع الكلمة في الجملة .

وذكر علماء اللغة أن كلمة (صنم) ليست عربية أصيلة ، وإنما هي معربـــة وأصلها (شمن) (شنم) ، ولكنهم لم يذكروا اسم اللغة التي عربت منها[6] . وترد اللفظة في اللهجات العربية الجنوبية . وردت (صلمن) في نصوص المسنـــد بمعنى (صنم) و (تمثال) ، و (مثال)[7] . ووردت في لهجات عربيـــة أخرى . وهي (صلمو) Salmo في لغة بني ارم ، ومعناها (صورة) . من أصل (صلم) بمعنى (صوّر) . وتقابل (صلم) في العبرانية[8] .

وقد ورد في قصص أهل الأخبار أن (بني حنيفة) تعبدوا لصنم من حيس، فعبدوه دهراً طويلاً ، ثم جاعوا فأكلوه ، فقال الشعراء في ذلك شعراً يعيرون به (بني حنيفة) لأكلهم ربهم زمن المجاعة[9] . وهو في رأيي من القصص الذي يضعه الخصوم في خصومهم للاستهزاء بهم .

---

١ Grimme, 23.

٢ الاعراف ، الآية ١٣٧ .

٣ الانعام ، الآية ٧٤ ، الشعراء ، الآية ٧٢ .

٤ ابراهيم الآية ٣٥ .

٥ الانبياء ، الآية ٥٧ .

٦ القاموس (١٤١/٤) ، اللسان (٢٤١/١٥) ، تاج العروس ، (٣٧١/٨) ، روح المعاني (٢١٠/١٣) ، خزانة الادب (٢٤٤/٣ وما بعدها) .

٧ (صلمن ذ صرفن وصلمنن ذ ذهبن) ، أي (تمثال من فضة ، وتمثالان من ذهب) ، راجع المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ، لغويدي (١٩) .

٨ غرائب اللغة (١٩٣) .

٩ الاعلاق النفيسة (٢١٧) .

الوثن :

وأما كلمة (وثن) ، فهي من الكلمات العربية القديمة الواردة في نصوص المسند. ويظهر من استعمال هذه الكلمة في النصوص مثل : (وليذبحن وثنن درا بخرفم ذبصم صححم انثيم وذكرم) ، أي (وليذبح للوثن مرة في السنة ذبحاً صحيحاً، أنثى أو ذكراً)[1] . ان الوثن هو الذي يرمز الى الإلـه ، أي بمعنى الصنم في القرآن الكريم .

الصلم :

ويظهر من استعمال كلمتي (صلمن) (الصلم) (صلم) و (وثنن) (الوثن) ان هناك فرقاً بين الكلمتين في نصوص المسند ، فإن كلمة (صلمن) تعني في الغالب تمثالاً يصنع من فضة ، أو من ذهب ، أو من نحاس ، أو من حجر ، أو من خشب ، أو من أية مادة أخرى ويقدم الى الآلهة لتوضع في معابدها تقرباً اليها ، لاجابتها دعاء الداعين بشفائهم من مرض أو قضاء حاجة ، أي انها تقدم نذوراً . أما الوثن ، فإنه الصنم في لهجتنا ، أي الرمز الذي يرمز به الى الإلـه ، والذي يتقرب له الناس .

والوثن في رأي بعض العلماء، لفظة مرادفة لصنم . وقال بعض آخر : (المعمول من الخشب أو الذهب والفضة أو غيرها من جواهر الأرض صنم ، وإذا كان من حجارة ، فهو وثن)[2] . وذكر بعض آخر ان الصنم ما كان لـه صورة جعلت تمثالاً ، والوثن ما لا صورة له . « وقيل ان الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة ينحت ويعبد ، والصنم صورة بلا جثة . وقيل : الصنم مـا كان على صورة خلقة البشر ، والوثن ما كان على غيرها » . « وقال آخرون: ما كان له جسم أو صورة ، فصنم ، فإن لم يكن له جسم أو صورة ، فهـو وثن . وقيل : الصنم من حجارة أو غيرها ، والوثن ما كان صورة مجسمـة .

---

1 المختصر ، لغويدي (١٨) .

2 الاصنام (٣٣) ، (روزا) ، تاج العروس (٨/٣٧١) ، (صنم) ، (٩/٣٥٨) ، (وثن) ، القاموس (٤/١٤١ ، ٢٧٤) ، اللسـان (١٧/٣٣٣) ، خزانـة الأدب (٣/٢٤٤ وما بعدها) ، سبائك الذهب (١٠١) .

وقد يطلق الوثن على الصليب وعلى كل ما يشغل عن الله » . وقال بعض آخر : « يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم ، ولا يقال وثن إلا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه »[1] . وذكر بعض آخر : « أصل الأوثان عند العرب، كل تمثال من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحوها ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها »[2] .

وذكر علماء اللغة أن (الودع) وثن[3] . ولم يذكروا شيئاً عنه غير ذلك . وقد أطلق (الأعشى) على الصليب (الوثن) ، إذ قال :

تطوف العفـــاة بأبوابـه كطوف النصارى ببيت الوثن

(أراد بالوثن الصليب) . « قال عديّ بن حاتم : قدمت على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال لي : الق هذا الوثن عنك، أراد به الصليب ، كما سمّاة الأعشى وثناً »[4] .

فنحن اذن أمام آراء متباينة في معنى (الصنم) و (الوثن) . منهم من جعل الصنم مرادفاً للوثن ، أي في معنى واحد ، ومنهم من فرّق بينهما ، ومنهم من جعل الصنم وثناً والوثن صنماً . والظاهر ان مردّ هذا الاختلاف ، هو اختلاف استعمال القبائل للكلمتين ، فلما جمـع علماء اللغة معانيها ، وقع لهم هـذا التباين وحدث عندهم هذا الاختلاف في الرأي .

وترد في كتب الأدب واللغة لفظـة (البعيم)[5] . اسم صنم ، والتمثال من الخشب ، وقيل الدمية من الصمغ[6] . والمِثال الشبه ، وما جعـل مثالاً لغيره ، والتمثال . وهو الشيء المصنوع مشبهاً بخلق واذا قدرته على قدره . وذكر انهـا الأصنام . وفي هذا المعنى وردت في القرآن الكريم : (ما هذه التماثيـل ؟ أي

---

١ الروض الانف (١/٦٢) .
٢ اللسان (١٣/٤٤٣) ، (وثن) ، (صادر) .
٣ اللسان (٨/٣٨٧) ، (ودع) .
٤ اللسان (١٣/٤٤٣) ، (وثن) .
٥ البعيم ، كأمير .
٦ تاج العروس (٨/٢٠٣) ، (البعيم) ، الاصنام (١٠٨) ، (تكملة) « روزا » .

الأصنام . وقوله تعالى : من محاريب وتماثيل ، هي صور للأنبياء)[1] . وذكر : التماثيل للأصنام ، والصورة ، والشيء المصنوع مشبهـاً بخلق من خلق الله . أي انسان أو حيوان أو نبات[2] . ويعبر عن التمثال والمثال بلفظة (امثلن) في العربيات الجنوبية . وردت في النصوص لمناسبة تقديم أصحابها تماثيل الى الآلهة لتوضع في معابدها وفاء لنذور نذروها لها[3] .

و (الدمية) الصورة المنقشة من الرخام ، أو عام من كل شيء ، أو الصورة عامة . والصنم ، والأصنام دمى . ومن أيمان الجاهليـة : لا والدمى ، يريدون الأصنام[4] . وذكر ان (الدمية) ما كان من الصمغ[5] .

و (البدّ) الصنم الـذي يعبد ، فارسي معرب . عرب من (بت) بمعنى (صنم)[6] . وذكر ان (البد) ، بيت الصنم والتصاوير أيضاً[7] .

وقد اشتغل بعض أهالي مكة بصنع الأصنام . فكان (عكرمة بن أبي جهل) ممن يعملها بمكة[8] . وكان الأعراب اذا جاءوا مكة أو المواضع الحضرية الأخرى اشتروا الأصنام منها للتعبد لها[9] .

هيأة الأصنام :

وقد وصف (ابن الكلبي) ، وهو الراوية الرئيس والعـالم الكبير بالأصنام هيأة بعض الأصنام ، فذكر مثلاً أن الصنم (هبل) ، كان على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركتـه قريش فجعلت له يداً من ذهب[10] . فهو تمثال إنسان اذن نحت من حجر أحمر أو وردي ، لا يستبعد أن يكون من عمل بلاد

---

١ تاج العروس (٨/١١١) ، (مثل) .
٢ تاج العروس (٨/١١١) ، (مثل) .
٣ Jamme 558, MaMb 201, Mahram, p. 24.
٤ تاج العروس (١٠/١٣١) ، (دمى) .
٥ الاصنام (١٠٨) ، (تكملة) .
٦ تاج العروس (٢/٢٩٥) ، (بدد) ، غرائب اللغة (٢١٨) .
٧ تاج العروس (٢/٢٩٥) ، (بدد) .
٨ الازرقي (١/٧٧ وما بعدها) .
٩ الازرقي (١/٧٨) .
١٠ الاصنام (٢٧ وما بعدها) ، الازرقي (١/٦٨) .

الشأم أو من عمل الفنانين اليونان ، واستورد من هناك ، فنصب في جوف الكعبة . استورده أحد سادة (مكة) وهو (عمرو بن لحيّ) على رواية أهل الأخبار ، أو غيره ، لما رأى فيه من حسن الصنعة ودقة النحت . فوضعه في موضعه . ولم يذكر أهل الأخبار سبب كسر اليد اليمنى للصنم ، هل كان ذلك بسبب حادث ، او بسبب أسطوري . وأما (اللات) فصخرة بيضاء منقوشة [1] ، في رواية أكثر الأخبار . وتمثال من حجر على رواية [2] . وأما العزى ، فهناك رواية تذكر أنها كانت صنماً ، أي تمثالاً ، ولكنها لم تعين صورته على نحو ما تحدثت عنها في الفصل الخاص بالأصنام . واما (ود) فقد كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل [3] . وأما (سواع) ، فكان صنماً على صورة امرأة . ولا يستبعد أن يكون من بين الأصنام الباقية ما كان على صورة حيوان . فقد كان الصنم (نسر) يمثل النسر .

وأقصد بالأصنام في هذا المكان أصنام المعابد ، أي الأصنام التي كان الناس يتقربون اليها بالتعبد والنذور . وأما الأصنام الصغيرة ، وهي التماثيل التي كان يتعبد لها الناس في بيوتهم أو يحملونها معهم في أسفارهم أو يحملونها معهم حيث ذهبوا تبركاً بها . فقد كانت كثيرة ، لا يخلو منها انسان ، وكانوا يتقربون بها الى الأصنام الكبيرة . وقد عثر المنقبون على عدد كبير منها ، وهي متفاوتة في الحجم وفي الروعة ودقة الصنع والاتقان .

عبادة الاصنام :

ونظرية (ابن الكلبي) ومن لفّ لفّه من الأخباريين ان نسل اسماعيل بن ابراهيم لمّا تكاثر بمكة حتى ضاقت بهم ، وقعت بينهم الحروب والعداوات ، فأخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا في البلاد التماساً للمعاش . وكان كلما ظعن من مكة ظاعن حمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة .

---

١ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤ وما بعدها) .
٢ تفسير أبي السعود (١١٢/٥) .
٣ الاصنام (٥٦) ، (٣٥) « روزا » .

فحيثما حلّوا ، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بهـا وصبابة بالحرم وحُباً له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون ، على إرث ابراهيم واسماعيل .

(ثم سلخ بهم الى ان عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتجثوا ما كان يعبد قوم نوح منها ، عـلى إرث ما بقي فيهم من ذكرها ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها : من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف على عرفة ومزدلفة ، واهداء البدن ، والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه)[1] .

فكان أول من غير دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامية ، عمرو بن ربيعة ، وهو لحي بن حارثة ابن عمرو بن عامر الأزدي ، وهو أبو خزاعة .

وكانت أم عمرو بن لحيّ ، فهـيرة بنت عامر عمرو بن الحـارث بن عمرو الجرهمي ، ويقال : قمعة بنت مضاض الجرهمي[2] .

وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة . فلما بلغ عمرو بن لحيّ ، نازعه في الولاية ، وقاتل جرهماً ببني اسماعيل ، فظفر بهم ، وأجلاهم عن الكعبة، ونفاهم عن بلاد مكة ، وتولى حجابة البيت بعدهم .

ثم إنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بالبلقاء من الشأم حمّة إن أتيتها، برأت . فأتاها ، فاستحم بها ، فبرأ . ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها عـلى العدوّ . فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا . فقـدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة . ثم أخذ عمرو ابن لحيّ في توزيع الأصنام على القبائل . وبذلك شاعت عبادة الأصنام بين الناس[3] .

---

١ الاصنام (ص ٦ وما بعدها) ، ابن هشام (١ /٨٢) ، الروض الأنف (١/٦١) .
٢ الازرقي ، أخبار مكة (١/٤٦) .
٣ الاصنام (ص ٦ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٧٦) ، البلدان (٨/٤٠٨ وما بعدها) ، (ود) ، مروج الذهب (٢/٢٢٧) ، (ذكر البيوت المعظمة ، والهياكل المشرفة) ، سبائك الذهب (١٠١) ، الروض الانف (١/٦٤) ، البلدان (٤/٦٥٢ وما بعدها) (طهران ١٩٣٥) .

هذه رواية شهيرة معروفة بين الأخباريين عن منشأ عبادة الأصنام وانتشارها عند العرب . وفي رواية أخرى : « كان أول من اتخذ تلك الأصنام ، من ولد اسماعيل وغيرهم من الناس ، وسمّوها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين اسماعيل ، هُذيل بن مدركة »[1] . فنسبت هذه الرواية اتخاذ الأصنام الى هذيل .

وهناك روايات أخرى في هذا المعنى تتفق مع الرواية الأولى من حيث الجوهر ولا تختلف معها إلا في بعض التفاصيل ؛ ففي رواية ان (عمرو بن لحيّ) حينما قدم (مآباً) من أعمال البلقاء ، وهي يومئذ بأيدي العماليق ، ووجدهم يتعبدون للأصنام ، سألهم أن يعطوه صنماً منها ليسير به الى أرض العرب ليعبدوه، فأعطوه الصنم هبل ، فأخذه ، وقدم به الى مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته[2] . فعينت هذه الرواية القوم الذين ذهب اليهم (عمرو بن لحيّ) ، والموضع الذي نزل به، وثبتت اسم الصنم الذي أخذه منهم . وهي زيادات لم نجدها في كتاب الأصنام . غير ان تشابه عبارات هذه الرواية التي ذكرها (ابن هشام) مع رواية (ابن الكلبي) ، يدل على ان المنبع واحد ، وانما الخلاف هو في ذكر بعض الفروع ، وفي اختصار بعض المواضع ، والإطناب في مواضع أخرى .

وفي رواية أخرى عن (ابن الكلبي) كذلك ، وهي في كتابه الأصنام ، ترجع أيضاً عبادة الأصنام الى عمرو بن لحيّ ، غير انها تروي الخبر في صيغة أخرى ، فتقول :

« وكان عمرو بن لحيّ ، وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد ، وهو أبو خزاعة ، وأمه فُهيرة بنت الحارث ، ويقال إنها كانت بنت الحارث بن مضاض الجرهمي ، وكان كاهناً . وكان قد غلب على مكة وأخرج منها جرهماً ، وتولى سدانتها .

---

١ الاصنام (ص ٩) ، نسب عدنان وقحطان ، للمبرد (٢٢ وما بعدها) ، المختصر في أخبار البشر ، لابي الفداء (١/٩٤) ، ابن هشام (١/٧٨) ، (البابي) ، البلدان (٤/٦٥٢) ، (طهران) ، ابن خلدون (٢/٦٨٦) ، مروج الذهب (٢/٥٦ وما بعدها) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، أبو الفداء (١/٧٦) .

٢ ابن هشام (ص ٦٢) ، حاشية على الروض الانف ، ابن هشام (١/٨٢) ، ديوان حسان (p. 11) ، (هرشفلد) ، ابن هشام (١/٧٨ وما بعدها ، ١٢٠) .

وكان له رئي من الجن،وكان يكنى أبا ثمامة ، فقال له : عجل بالمسير والظعن من تهامة ، بالسعد والسلامة ! قال : جيِّر ، ولا إقامة .

قال : ايت ضَفَّ جُدَّة ، تجد فيها أصناماً معـدة ، فأوردها تهامة ولا تهاب ، ثم ادع عبادتها قاطبة .

فأتى شطّ دجلة ، فاستثارها ، ثم حملها حتى ورد تهامة ، وحضر الحجّ ، فدعا العرب الى عبادتها قاطبة .

فأجابه عوف بن عُذْرة بن زيد اللاّت بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة ابن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، فدفع اليه ودّاً . فحمله الى وادي القُرى ، فأقره بدومة الجندل . وسمّى ابنه عبد ودّ . فهو أول من سُمّي به ، وهو أول من سمّي عبد ودّ ، ثم سمعة العرب به بعد[1] .

فهذه الرواية هي على شاكلة الرواية الأولى في منشأ عبادة الأصنام بين العرب قبل الاسلام بحسب رأي الأخباريين بالطبع ، سوى اختلافها عنها في المكان الذي أخذت الأصنام منه . فهنا (جُدّة) على ساحل البحر الأحمر ، وهناك البلقاء من أعمال الشأم . والموضعان ، وإن كانا يختلفان موقعاً ، يتفقان في شيء واحد هو وقوعها على حدّ مقصود ، يرده الأجانب منذ القديم للاتجار . فهل يعني هـذا استيراد تلك الأصنام من الخارج ، من بلاد الشأم أو من مصر ، وانهـا كانت من عمل اهل الشأم او اهل مصر او من عمل الروم او الرومان ؟ وتذكر رواية أخرى ان (عمرو بن لحيّ) ، إنما جاء بالصنم (هبل) ، من (هيت) بالعراق حتى وضعه في الكعبة[2] .

وعمرو بن لحيّ هو على اختلاف الروايات أول من غيّر دين اسماعيل،فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي . فقـأ عين عشرين بعيراً ، فصارت العادة أن يفقأ عين الفحل من الإبل إذا بلغت الإبل ألفاً . فإذا بلغت ألفين ، فقئت العين الأخرى . وقد نسب اليه كلام طويل . وزُعم له عمر مديد ، وقصص أخرجه من عالم الواقع الى عـالم القصص والأساطير ، ورجـع عصره الى ايام (العماليق) والى ايام (سابور ذي الأكتاف). وذكر ان العرب

---

١ الاصنام (ص ٥٤ وما بعدها) .
٢ الازرقي (١/٧٣ وما بعدها) ، الروض الانف (١/٦٥) .

جعلته (ربا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم ، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة)[1]، وذكروا انه كان ملكاً على الحجاز ، وكان كبير الذكر في ايامه ، الى غير ذلك من قصص يروونه عنه[2] .

وذكر (المسعودي) ، ان (عمرو بن لحيّ) حين خرج الى الشأم ورأى قوماً يعبدون الأصنام ، فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة،وأكثر من الأصنام ، وغلب على العرب عبادتها،انمحت الحنيفية منهم إلا لماماً ، ضج العقلاء في ذلك ، فقال (شحنة بن خلف) (سحنة بن خلف الجرهمي) :

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة   شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربّ واحد أبداً   فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مَهَلٍ   سيصطفي دونكم للبيت حجابا[3]

وكان (عمرو بن لحيّ) كاهناً على ما يذكره أهل الأخبار[4] ، وهو من (خزاعة) ، التي انخزعت من اليمن . ثبت حكمه على مكة ، بعد أن انتزع الحكم من جرهم ، وغلب قومه عليها ، فصاروا يطيعونه ويتبعون ما يضعه لهم . وقد نسبوا اليه وضع بقية الأصنام ، مثل اللات واساف ونائلة ، فهو على رأي أهل الأخبار مؤسس هذه الأصنام التي بقيت الى أيام النبي ، والتي حطمت بأمره عام الفتح ، وباستيلاء المسلمين على المواضع الأخرى .

وذكر أهل الأخبار أن (عمرو بن لحيّ) كان أول من غيَّر تلبية (ابراهيم). وكانت : (لبيك لا شريك لك . لبيك) ، فجعلها : (لبيك اللهم لبيك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما لك) ، وقد كان (ابليس) قد ظهر له في صورة شيخ نجديّ على بعير أصهب ، فسايره ساعة ، ثم لبى ابليس ، فلبى (عمرو) تلبيته حتى خدعه . فلبّاها الناس على ذلك[5] .

---

١ الروض الأنف (٦٢/١) ، البداية والنهاية (١٨٨/٢) .
٢ المختصر في أخبار البشر ، لابي الفداء (٩٤/١) .
٣ مروج الذهب (٢٩/٢ وما بعدها) .
٤ مروج الذهب (٣٠٣/٢) .
٥ الازرقي (١٢٦/١ وما بعدها) ، (٢٦/١ وما بعدها) ، ابن هشام (٧٩/١ وما بعدها) .

وقد قيل إنه بلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله ولا بعده في الجاهلية مبلغه[1] . ويظهر أنه كان من أصحاب الحول والسلطان والجاه، ولذلك ترك هذا الأثر في روايات أهل الأخبار . واني أرى أنه لم يكن بعيد عهد عن الإسلام، وإلاّ لمّ حفظت ذاكرة أهل الأخبار أخبارها عنه . والظاهر أنه كان كاهناً من الكهّان ، ورجلاً كبيراً من رجال الدين .

وروي أن الرسول ذكر أن (عمر بن لحي بن قمعة) كان أول من غيّر دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة[2] .

ولست أظن أن الرواة قد أقحموا اسم (عمرو بن لحيّ) في قصة انتشار الأصنام في جزيرة العرب اقحاماً من غير أصل ولا أساس ، فلا بد من أن تكون للرجل صلة ما بعبادة الأصنام عند الجاهليين ، ولا بد أن يكون من الرجال الذين عاشوا في عهد غير بعيد عن الاسلام ، لا قبل ذلك بكثير كما يدعي الأخباريون ، فما كان خبره ليصل اليهم على هذا النحو لو كان زمانه بعيداً عنهم البعد الذي تصوروه . وأنا لا أستبعد احتمال شراء (عمرو بن لحيّ) للأصنام من بلاد الشأم ومجيئه بها الى الحجاز ، ونصبه لها في الكعبة وفي مواضع أخرى ، لما وجده من حسن صنعة التماثيل في تلك البلاد ومن جودة حجارتها ، فاشترى عدداً منها ، لتنصب في المحجات ، فنسبت عبادة الأصنام اليه .

وزعموا أن (ابن أبي كبشة) : (جزء بن غالب بن عامر بن الحارث ابن غبشان الخزاعي)،كان ممن أدخل الشرك الى العرب ، وخالف دين التوحيد . لقد ذكروا أنه دعا الى عبادة (الشعرى العبور)[3] .

وليست عبادة الأصنام والأوثان عبادة خاصة بالعرب ، بل هي عبادة كانت معروفة عند غيرهم من الشعوب السامية ، وعند غير الساميين ، كما أنها لا تزال موجودة قائمة حتى الآن .

وكانت قريش تتعبد وتتقرب الى أصنام قبائل أخرى ، على شرط المثل ، أي أن تتقرب تلك القبائل وتتعبد لأصنام قريش . فقد ذكر (السكرى) أن قريشاً

---

١ أخبار مكة (٥٤) .

٢ الاستيعاب (١/١٢٠) .

٣ تاج العروس (٤/٣٤١) .

كانت تعبد صاحب كنانة ، وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش[1] . وقد تمكنت قريش بفضل هذه السياسة الحكيمة من جمع أصنام العرب وضمها في الكعبة ، وهذا ما جعل القبائل تعظم هذا المجمع ، وتحج اليه كل سنة مرة ، في موسم الحج ، بالإضافة الى الأيام الأخرى من أيام السنة ، حيث تقع فيها العمرة . فربحت من ذلك ربحاً معنوياً ومادياً ، وصارت مكة سوقاً مستقرة ثابتة ، يقصدها الناس في كل وقت .

الحلف بالأصنام والطراغيث :

ولعقيدتهم المذكورة في الأصنام ، كانوا يحلفون بها وبالطواغيت . والظاهر أن هذه العادة بقيت في نفوسهم حتى في الإسلام . فقد ورد في الحديث : « أنه قال من حلف بغير الله ، فقال في حلفه باللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله »[2] ، و « من حلف ، فقال في حلفه واللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله » ، ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك فليتصدق »[3] . وكانت ألسنتهم تسبقهم ، لما اعتادته من زمن الجاهلية من الحلف بالأصنام[4] .

١ المحبر (٣١٨) .
٢ ارشاد الساري (٩/٣٧٧) .
٣ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣) .
٤ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣) .

الفصل الثالث والستون

أنبياء جاهليون

ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن الجاهليين لم يعدموا من الأنبياء ، فقد ذكروا لهم أنبياء قالوا إنهم بشروا بالله وبدينه بين العرب الأولى ، ومنهم (هود) نبيّ (عاد) ، و (صالح) نبي قوم ثمود . وقد أشير اليهما في القرآن الكريم [1] .

وزعموا أن رجلاً من بني (قطيعة بن عبس) كان نبيّاً كذلك ، ولم يكن في بني اسماعيل نبيّ قبله . وهو الذي أطفأ الله به (نار الحرتين) .وكانت ببلاد عبس . فإذا كان الليل فهي نار تسطع في السماء ، وكانت طيء تُنفش بها إبلها ، وربما ندرت منها (العنق) ، أي قطعة فتأتي على كل شيء فتحرقه . وإذا كان النهار فإنما هي دخان يغور . فاحتفر (خالد) لها بئراً ، ثم أدخلها فيها ، والناس ينظرون ، ثم اقتحم فيها حتى غيبها . وذكروا أنه نجح في إخمادها ، وكان الناس يقولون : هلك الرجل ، فكذبهم ، وخرج سالماً . فلما حضرته الوفاة قال لقومه : إذ أنا مت ثم دفنتموني ، فاحضروني بعد ثلاث ، فإنكم ترون عيراً أبتر يطوف بقبري ، فإذا رأيتم ذلك فانبشوني ، فإني أخبركم بما هو كائن الى يوم القيامة . فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث، فلما رأوا العير وذهبوا ينبشونه، اختلفوا ، فصاروا فرقتين ، وابنه عبدالله في الفرقة التي أبت أن تنبشه ، وهو يقول : لا أفعل ! إني إذاً ادعى ابنَ المنبوش ! فتركوه .

---

1 سورة هود ، الآية ٥٣ ، ٦٠ ، ٨٩ ، الشعراء ، الآية ١٢٤ ، صالح ، سورة الاعراف الآية ٧٧ ، هود ، الآية ٦٢ ، ٨٩ ، الشعراء ، الآية ١٤٢ .

قال (الجاحظ) : والمتكلمون لا يؤمنون بهذا ، ويزعمون أن خالداً هذا كان أعرابياً وَبَرياً ، من أهل (شرج) و (ناظرة) . ولم يبعث الله نبياً من الأعراب ولا من الفَدّادين أهل الوبر ، وهم أهل البادية . إنما يبعثهم من أهل القرى ، وسكان المدن[1] .

ويظهر أنه عاش قبيل الإسلام . فقد ذكر أهل الأخبار أن ابنة له قدمت على النبي ، فبسط لها رداءه وقال : هذه ابنة نبي ضيعه قومه . وذكروا أنها لما سمعت سورة : « قل هو الله أحـــد » ، قالت : قد كان أبي يتلو هذه السورة[2] . وزعموا أنه هو الذي دعا على العنقاء ، فذهبت وانقطع نسلها[3] .

ثم نبيّ آخر اسمـــه (حنظلة بن صفوان) ، كان نبياً بعثه الله الى (أهل الرسّ) ، فكذبوه وقتلوه ، عاش في أيام (بختنصر) ، وقد نسب الى حمير ، وقيل إنه كان من أنبياء الفترة كذلك ، وإنه هو الذي دعا على العنقاء ، فانقطع نسلها[4] . وذكر بعض أهل الأخبار أن الله أرسل (حنظلة) الى أهـــل عدن ، فقتلوه[5] .

وذكر أهل الأخبار اسم نبي أرسل الى أهل (حضور) ، اسمه (شعيب بن ذي مهدم) . فقتلوه ، فاستأصلهم (بخت نصر) ، وقبره بـ (صنين) جبل باليمن[6] .

وذكر أهل الأخبار أن (مسيلمة بن حبيب الحنفي) ، كان ممن ادعى النبوة بمكة قبل الهجرة ، وصنع أسجاعاً[7] . وكان قد طاف قبل التنبي ، في الأسواق التي كانت بـــين دور العجم والعرب ، يلتقون فيها للتسوق والبياعات ، كنحو سوق الابلة ، وسوق لقه ، وسوق الأنبار ، وسوق الحيرة . وكان يلتمس تعلم الحيل والنيّرجات ، واختيارات النجوم والمتنبئين . وقد كان أحكم حيـــل السدنة

---

١ الحيوان (٤/٤٧٦ وما بعدها) .

٢ الحيوان (٤/٤٧٧) .

٣ (ذاك نبي أضاعه قومه) ، بلوغ الارب (٢/٢٧٨ وما بعدها) .

٤ اللسان (١٢/١٤٩) ، (عنق) ، تاج العروس (١/٤١٠) ، (عنق) .

٥ الروض الانف (١/٩) .

٦ الروض الانف (١/٩) .

٧ الحيوان (٤/٨٩) ، « مسيلمة بن عثامة بن كبير بن حبيب بن الحرث ، من بني حنيفة » ، ارشاد الساري (٦/٤٣٤) .

والحُواء وأصحاب الزجر والخط ، ومذهب الكاهن والعيّاف والساحر ، وصاحب الجن الذي يزعم أن معه تابعه[1] .

وقد أحكم من ذلك أموراً . فمن ذلك ، أنه صبّ على بيضة من خلّ قاطع، حتى لان قشرها ، فأدخلها في قارورة ضيقة الرأس،وتركها حتى جفت ويبست، وعادت الى هيئتها الأولى ، فأخرجها الى (مجاعة بن مرارة بن سلمى الحنفي) اليمامي ، وأهل بيته ، وهم أعراب ، وادعى بها أعجوبة ، وأنها جعلت له آية، فآمن به من في ذلك المجلس : مجاعة وغيره . ومن ذلك أنه كان قد حمل معه ريشاً في لون ريش أزواج حمام ، وقد كان يراهن في منزل مجاعة مقاصيص . فالتفت ، بعد أن أراهم الآية في البيض ، الى الحمام فقال لمجاعة : الى كم تعذب خلق الله بالقص ؟! ولو أراد الله للطير خلاف الطيران لما خلق لها أجنحة ، وقد حرمت عليكم قص أجنحة الحمام ! فقال له مجاعة كالمتعنت : فسل الذي أعطاك في البيض هذه الآية أن ينبت لك جناح هذا الطير الذكر الساعة ؟

قال مسيلمة : فإن أنا سألت الله ذلك ، فانتبه له حتى يطير وأنتم ترونه ، أتعلمون اني رسول الله اليكم ؟ قالوا : نعم . قال فإني أريد أن أناجي ربي ، وللمناجاة خلوة ، فانهضوا عني ، وان شئتم فادخلوني هذا البيت وادخلوه معي ، حتى أخرجه اليكم الساعة وافي الجناحين يطير . وأنتم ترونه ولم يكن القوم سمعوا بتغريز الحمام ، وكانوا بسطاء لا يعرفون حيل المحتالين . فلما خلا بالطائر أخرج الريش الذي قد هيأه ، فأدخل طرف كل ريشة مما كان معه في جوف ريش الحمام المقصوص ، من عند المقطع والقصّ . فلما غرز ريشه أخرجه ، وأرسله أمامهم من يده فطار ، واعتبروا عمله آية .

ثم انه قال لهم : ان الملَك ينزل إليّ ، والملائكة تطير وهي ذوات أجنحة ، ولمجيء الملك زجل وخشخشة وقعقعة ، فمن كان منكم ظاهراً فليدخل منزله ، فإنّ من تأمل اختطف بصره ! ثم صنع راية من رايات الصبيان التي تعمل من الورق الصيني ، ومن الكاغد ، وتجعل لها الأذناب والأجنحة ، وتعلق في صدورها الجلاجل ، وترسل يوم الريح بالخيوط الطوال الصلاب . ثم أرسلها مع الريح ، وهم لا يرون الخيوط ، والليل لا يبين عن صورة الرق ، وعن دقة الكاغد ،

---

١ الحيوان (٤/٣٦٩ وما بعدها) ، المعارف (٤٠٥) .

فتوهموا أن ذلك الملائكة : وتصارخوا ، وصاح : من صرف بصره ودخل بيته فهو آمن ! فأصبح القوم وقد أطبقوا على نصرته والدفع عنه . فهو قوله :

ببيضــة قارورٍ ورايــةِ شادن وتوصيل مقصوص من الطير جادف[1]

ونسب بعض أهل الأخبار (مسيلمة) على هذا النحو : (مسيلمة بن ثُمامة ابن كبير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن هفان بن ذهل بن الدول بن حنيفة)[2] و (مسيلمــة الكذاب بن حبيب) ثمامة بن كبير ، وجعله بعضهم (مسيلمة بن حبيب) . وجعلوا كنيته (أبا ثمامة) وقيل (أبا هارون) و (أبو ثمالة)[3] . وذكروا أنه كان يسمى بـ (الرحمان) قبل مولد (عبد الله) والـد رسول الله ، « وكانت قريش حين سمعت : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال قائلهم: دق فوك ، إنما تذكر مسيلمة رحمان اليمامة »[4] . وذكروا أنه دعا الى الرحمـان ، أي الى عبادة الرحمان . بينما عرف نفسه بـ (الرحمن) ، فقيل له : (رحمـان اليمامة)[5] . وأنه دعا الى عبادته هذه قبل النبوة ، وقد عرف أمره بمكـة ، فلما نزل الوحي على الرسول ، قال أهل مكة إنما أخذ علمه من (رحمان) اليمامة[6] . وقالوا له : « إنا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن ، ولن نؤمن به أبداً » . « فأنزل الله سبحانه : وهم يكفرون بالرحمن . قـل : هو ربي . كان مسيلمة بن حبيب الحنفي ، ثم أحد بني الدول قـد تسمى بالرحمن في الجاهلية،وكان من المعمرين . ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلمة تسمى بالرحمن قبل أن يولد عبدالله ابو رسول الله صلى الله عليه وسلم »[7] .

قال (الواحدي) في أسباب نزول الآية : « وهم يكفرون بالرحمن . قل :

---

١ الحيوان (٤/٣٧١ وما بعدها) ، المعارف (٤٠٥) .

٢ الروض الانف (٢/٣٤٠) ، (وفد بني حنيفة) ، امتاع الاسماع (١/٥٠٦) ، البلاذري ، فتوح (٩٧) ، (اليمامة) .

٣ الاشتقاق (٢٠٩) ، البلاذري ، فتوح (١٠٠) .

٤ الروض الانف (٢/٣٤٠) ، اليعقوبي (١/١٢٠) .

٥ Shorter Ency., p. 416.

٦ Shorter Ency., p. 416.

٧ الروض الانف (١/٢٠٠) .

هو ربي لا إلـه إلا هو عليه توكلت واليه متاب »[1] : « قال أهــل التفسير : نزلت في صلح الحديبية ، حين أرادوا كتاب الصلح . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن ، إلا صاحب اليمامة ، يعنون مسيلمة الكـذّاب . اكتب باسمك اللهم . وهكذا كانت الجاهلية يكتبون ، فأنزل الله تعالى فيهم هــذه الآية »[2] . وذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن . قالوا : وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا بــه وزادهم نفوراً »[3] ، « أن مسيلمة كان يدعى الرحمن . فلما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ، اسجدوا للرحمن قالوا : أنسجد لما يأمرنا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة بالسجود له »[4] . أو أنهم قالوا : «ما نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة . يعنون مسيلمة الكذاب »[5] .

ولا يعقل قول من قال ان مسيلمة كان يعرف بـ (الرحمن) قبــل ولادة (عبدالله) والد الرسول . أما انه كان أسنّ من الرسول فلا غرابة في ذلك ، ولكني لا أرى انه كان أكبر من الرسول بعشرات السنين . ومن الجائز ان يكون قد دعا الى عبادة (الرحمن) ، وهي عبادة كانت شائعة معروفة إذ ذاك ، في اليمامة وفي غير اليمامة ، فعرف بين قومه بـ (رحمن اليمامة) ، وذلك قبل نزول الوحي على الرسول ، فسمع أهل مكة بدعوته .

وورد في رواية ان (أبا جهل) سمع (رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحِجر ويقول : يا الله يا رحمن . فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة، وهو يدعو إلهين . فنزلت هذه الآية ، : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن)[6] . وفي هذا الخبر إن صح ، دلالة على ان أهل مكة كانوا قد سمعوا بعبادة (الرحمن) وانهم سمعوا ان قوماً من الجاهليين دعوا الى عبادته ، وان (أبا جهل) كان قد سمع قولهم ، ولهذا أخذ على النبي قوله : يا الله يا رحمن . ولا يعقل ألا يكون لأهل مكة علم بعبادة (الرحمن) ، التي تحدثت عنها في موضع آخر ، وقد كان

---

١ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٠ .
٢ أسباب النزول (٢٠٥ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٣١٧/٩ وما بعدها) .
٣ الفرقان ، الآية ٦٠ .
٤ تفسير الطبري (١٩/١٩) ، روح المعاني (٣٦/١٩) ،
٥ تفسير القرطبي (٦٤/١٣) .
٦ تفسير القرطبي (٣١٨/٩) .

لهم اتصال باليمن وباليمامة وبمعظم أنحاء جزيرة العرب . وأرى ان (مسيلمة) كان قد دعا الى عبادة الرحمن متأثراً بدعوة المتعبدين له ممن كان قبله على ما يظهر ، وهي عبادة إلـه اسمه (الرحمن) فعرف مسيلمة بـ (الرحمن) وبـ (رحمن اليمامة). وعبادة الرحمن ديانة متأثرة بفكرة التوحيد ، وبوجود إلـه واحد هو (الرحمن) رب العالمين .

وقد أشير الى موضع اسمه (وادي الرحمن) في الكتاب الذي أعطاه رسول الله الى (يزيد بن المحجل) الحارثي ، ورد فيه : (ان لهم غرة ومساقيها ووادي الرحمن من بين غابتها)[1] . ولا أستبعد احتمال وجود صلة بين هذه التسمية وبين الرحمن الإلـه .

وقد وصف الرواة (مسيلمة) بأنه (كان قصيراً شديد الصفرة أخنس الأنف أفطس)[2] .

ويظهر من غربلة ما ذكره أهل الأخبار عن (مسيلمة) أنه كان أكبر عمراً من الرسول . وأنه كان قد تكهن وتنبأ باليمامة ووجد له أتباعاً قبل نزول الوحي على النبي . وأن أهـل مكة كانوا على علم برسالته . ويذكر أهل الأخبار أن (مسيلمة) كان ابن مائة وخمسين سنة حين قتل[3] . وهو عمر قد بولغ فيه ولا شك ، إذ لا يعقل أن يكون في هذه السن يوم قتل ، فقد كان فعالاً نشيطاً ، نشاطاً لا يمكن أن يظهر إلا من رجل قوي فعال ، هو دون المائة .

وكان (مُسيلمة) يدعي أن معه رئيـّـاً في أول زمانه ، ولذلك قال الشاعر حين وصفه :

ببيضة قـارور وراية شادن   وخلة جنّي وتوصيل طائر[4]

وكان (مسيلمة) في جملـة رجال (وفد حنيفة) الذي قصد الرسول ، وفيهم (رحال بن عنفوة) . لكنه — كما يقول الرواة — لم يذهب مع الوفد

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٨) ، (ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الرسل بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام) .
٢ البلاذري ، فتوح (١٠٠) .
٣ الروض الانف (٢/٣٤٠) ، اليعقوبي (١/١٢٠) .
٤ الحيوان (٦/٢٠٥ وما بعدها) .

الى الرسول ، بل بقي مع رحال الوفد يبصرها لهم . فلما قرروا العودة ، بعد أن أسلموا وأعطاهم جوائزهم ، قالوا : « يا رسول الله إنّا خلفنا صاحباً لنا في رحالنا يبصرها لنا ، وفي ركابنا يحفظها علينا، فأمر له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمثل ما أمر به لأصحابه وقال : ليس بشرّكم مكاناً لحفظه ركابكم ورحالكم ، فقيل ذلك لمسيلمة ، فقال : عرف أن الأمر إليّ من بعده . فلما عادوا الى ديارهم ، ادعى مسيلمة النبوة،وشهد (رحال بن عنفوة) (الرحال بن عنفوة) ، أن رسول الله ، أشركه في الأمر ، فتبعه الناس[1] . وكان (الرحال) قد تعلم سوراً من القرآن ، فنسب الى (مسيلمة) بعض ما تعلم من القرآن، فكان من أقوى أسباب الفتنة على (بني حنيفة) . قتله (زيد بن الخطّاب) ، يوم اليمامة [2] .

وذكر (الطبري) ، أن (مسيلمة) كان يصانع كل أحد ويتألفه ولا يبالي أن يطلع الناس منه على قبيح . (وكان معه نهار الرجّال بن عنفوة) وكان قد هاجر الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقرأ القرآن ، وفقه في الدين ، فبعثه معلماً لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة ، وليشدد من أمر المسلمين ، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة ، شهد له أنه سمع محمداً ، صلى الله عليه وسلم، يقول : إنه قد أشرك معه ، فصدقوه واستجابوا له ، وأمروه بمكاتبة النبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، ووعدوه إن هو لم يقبل أن يعينوه عليه ، فكان نهار الرجّال ابن عنفوة لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه ؛ وكان ينتهي الى أمره[3] . وكان الذي يؤذن له : عبدالله بن النوّاحة ، وكان الذي يُقيم له (حجير بن عمير) ، ويشهد له ، وكان مسيلمة إذا دنا حجير من الشهادة ، قال : صَرّح حجير ، فيزيد في صوته ، ويبالغ لتصديق نفسه ، وتصديق نهار وتضليل مَنْ كان قد أسلم ، فعظم وقاره في أنفسهم[4] . فجعل (الطبري) اسم مساعد (مسيلمة) (نهار الرجال بن عنفوة) ، لا (الرحال بن عنفوة) (رحال بن عنفوة)

---

١ ابن سعد ، طبقات (٣١٦/١ وما بعدها) ، (وفد حنيفة) ، الطبري (١٣٧/٣ وما بعدها) ، (قدوم وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة) .
٢ الروض الآنف (٣٤٠/٢) .
٣ الطبري (٢٨٢/٣ وما بعدها) .
٤ الطبري (٢٨٣/٣) .

كما في الموارد الأخرى . لكنه عاد فدعاه (الرجال)[1] تارة و (رحال بن عنفوة) تارة أخرى ، حينما تكلم عنه وعن نهايته . وذلك في أيام (أبي بكر) ، أي في حوادث السنة الحادية عشرة[2] . وأظن أن مردّ هذا الاختلاف لا يعـود الى (الطبري) نفسه ، بل الى النسّاخ والى الطبع .

وقد أورد (الطبري) رواية أخرى في كيفية قدوم (مسيلمـة بن حبيب) على رسول الله . فذكر (ان بني حنيفة أتت بمسيلمة الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تستره بالثياب ، ورسول الله جالس في أصحابه ، ومعه عسيب من سعف النخل ، في رأسه خوصات ، فلما انتهى الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم،فقال له رسول الله : لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك!). ولم يشر (الطبري) الى أسماء من جاء معه من وفد (بني حنيفة) ، وقد ذكر بعد هذه الرواية الرواية السابقة التي ذكرتها،دون أن يشير الى أسماء رجال الوفد[3] . ثم قال بعد ذلك : (ثم انصرفوا عن رسول الله وجاءوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله ، فلما انتهى الى اليمامة ارتدّ عدو الله وتنبأ وتكذّب لهم ، وقال : إني قد أشركت في الأمر معه ، وقال لوفده : ألم يقل لكم رسول الله حيث ذكرتموني : أما انه ليس بشرّكم مكاناً ! ما ذلك إلا لما كان يعلم اني قد أشركت معه ، ثم جعل يسجع السجعات ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاةً للقرآن : لقد أنعم الله على الحُبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى. ووضع عنهم الصلاة ، وأحلّ لهم الخمر والزنا ، ونحو ذلك)[4] .

ولا يتفق ما ذكره (الطبري) من وضع (مسيلمة) الصلاة عن أتباعه ، مع ما أورده هو من اتخاذه مؤذناً يؤذن بين الناس ، ومن اتخاذه (مقيماً) يقيم له الصلاة ، ثم مع ما ذكره غيره من انه قلّص الصلوات الخمسة ، فجعلها ثلاثة صلوات في اليوم[5] . ولا يوجد دليل على تحليله الزنا والخمر .

وذكر ان (مسيلمة) ، بعد ان عاد الى قومه كتب كتاباً الى الرسول فيه :

---

١ الطبري (٣/٢٨٧) .

٢ الطبري (٣/٢٨١ - ٣٠١) ، (ذكر بقية خبر مسيلمة الكذاب وقومه من اهل اليمامة) .

٣ الطبري (٣/١٣٧) ، زاد المعاد (٣/٣١ وما بعدها) .

٤ الطبري (٣/١٣٨) ، زاد المعاد (٣/٣١) .

٥ Shorter Ency., p. 416.

(من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله ، أما بعد ، فإني قد أشركت معك في الأمر ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوماً يعتدون).
فكتب اليه رسول الله :. (بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، أما بعد ، فالسلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين) . وقدم بكتاب مسيلمة رجلان ، فسألهما رسول الله عنه فصدّقاه ، فقال : أما والله لولا ان الرسل لا تقتل لقتلتكما[1] .

وتذكر رواية أخرى ان مسيلمة قال للرسول يوم وفد عليه مع من وفد من رجال (حنيفة) : (إن شئت خلينا لك الأمر وبايعناك على انه لنا بعدك . فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : لا ولا نعمة عين ولكن الله قاتلك) .
وتذكر رواية أخرى ان (هوذة بن علي الحنفي) صاحب اليمامة ، قد كتب الى النبي ، أن يجعل له الأمر من بعده على ان يسلم ويصير اليه فينصره،فقال رسول الله : لا ولا كرامة اللهم اكفنيه ، فمات بعد قليل[2] .

وروي ان رسول الله ، بعث (حبيب بن زيد بن عاصم) أحد (بني النجار) و (عبدالله بن وهب الأسلمي) الى مسيلمة ، فلم يعرض لعبدالله ، وقطع يدي حبيب ورجليه[3] .

وذكر ان رسولي مسيلمة اللذين حملا كتابه الى الرسول ، كانا (ابن النوّاحة) و (ابن أثال) ، وانهما قالا لرسول الله : نشهد ان مسيلمة رسول الله . فقال الرسول : لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما . فعادا الى صاحبهما[4] .

وذكر (الطبري) أن (مسيلمة) « ضرب حرماً باليمامة ، فنهى عنه ، وأخذ الناس به ، فكان محرّماً ، فوقع في ذلك الحرم قُرى الأحاليف ، أفخاذ من بني أسيد ، كانت دارهم باليمامة فصار مكان دارهم في الحرم) ، فصاروا يغيرون على ثمار أهل اليمامة . ويتخذون الحرم دغلاً ، فإن نذروا بهم فدخلوه أحجموا عنهم ، وإن لم ينذروا بهم فذلك ما يريدون . « فكثر ذلك منهم حتى استعدوا عليهم ، فقال : انتظر الذي يأتي من السماء فيكم وفيهمُ ، ثم قال لهم :

---

١ امتاع الاسماع (١/٥٠٨ وما بعدها) ، اليعقوبي (١/١٢٠) .
٢ البلاذري ، فتوح (٩٧) ، (اليمامة) .
٣ البلاذري ، فتوح (١٠٢) .
٤ زاد المعاد (٣/٣٢) .

والليل الأطحم ، والذئب الأدلم ، والجذع الأزلم ، ما انتهكت أسيد من محرم . فقالوا : أما محرم استحلال الحرم وفساد الأموال ! ثم عادوا للغـارة ، وعادوا للعدوى . فقال : انتظر الذي يأتيني ، فقال : والليل الدامس ، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس . فقالوا : أما النخل مرطبة فقد جدّوها ، وأما الجدران يابسة فقد هدموها ، فقال اذهبوا وارجعوا فلا حقّ لكم »[1] .

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً زعموا أن (مسيلمة) نظمه مضاهـاة للقرآن . مـن ذلك قوله : « يا ضفدع نِقِّي كم تنقـين ! نصفك في المـاء ونصفك في الطين ! لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين »[2] . « وكان فـيما يقرأ لهم فيهم : إن بني تميم قوم طهر لقاح ، لا مكروه عليهم ولا إتاوة ، نجاورهم ما حيينا بإحسان ، نمنعهم من كل إنسان ، فإذا متنا فأمرهم الى الرحمان »[3] . «وكان يقول: والشاة وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق ، فمالكم لا تمجعون » . « وكان يقول : يا ضفدع ابنة ضفدع ، نقّي مـا تنقين ، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين » . « وكان يقول : والمبذّرات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً ، لقد فضلتم على أهـل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والباغي فناوئوه »[4] . وذكر بعض أهل الأخبار أن (أبا بكر) لما سأل وفداً من (بني حنيفة) أرسله (خالد) اليه عمّا كان يقوله لهم : « قالوا : كان يقول يا ضفدع نقي نقي ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنـا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكنّ قريشاً قوم يعتدون »[5] .

ويظهر من أسلوب هذه الآيات المنسوبة الى (مسيلمة) : انها محاكاة ومضاهاة للآيات الأولى من القرآن الكريم ، الآيات التي نزلت بمكة في عهد الرسالة الأولى.

---

١ الطبري (٣/٢٨٣) .
٢ الحيوان (٥/٥٣٠) .
٣ الطبري (٣/٢٨٣ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/٢٨٣ وما بعدها) .
٥ الطبري (٣/٣٠٠) .

وهي بذلك تختلف عن أسلوب الوحي المنزل بعد الهجرة بالمدينـــة[1] . ولم نجد فيما بقي من كتب أهل الأخبار ما يشير بشيء الى (قرآن مسيلمة) ، أو الى بقية أخرى منه .

هذا ولا بد لي من التنبيه الى اننا لا نستطيع التأكيد بأن ما نسب الى مسيلمة من كلام ، هو حق وصحيح . فمن الجائز أن يكون قد وضع عليه وضعاً . وقد رأينا كيف انهم اختلفوا في رواية (يا ضفدع) اختلافاً بينا في ضبط العبارات.

وكان الناس يقصدون (مسيلمة) ليسمعوا منه ، بعد ان اشتهر أمره . وقد تمكن من التأثير في بعضهم . وكان ممـن قصده (المتشمس بن معاوية) ، عم (الأحنف بن قيس) الشهير . فلما خرج من عنده قال عنه انه كذاب[2] . وقال عنه (الأحنف) ، وقد رآه أيضاً ، وقد سئل كيف هو ؟ ما هو بنبي صادق ، ولا بمتنبيء حاذق[3] .

وذكر أهل الأخبار ان مسيلمة كان صاحب (نيرجـات) وتمويه واحتيال . يدّعي المعجزات والآيات ، وانه أول من أدخل البيضة في القارورة ، وأول من وصل جناح الطائر المقصوص ، وكان يدّعي ان ظبيـــة تأتيه من الجبـل فيحلب لبنها . وقد جربه قوم ، فوجدوا آياته (منكوسة . تفل في بئر قوم سألوه ذلك تبركاً ، فملح ماؤها . ومسح رأس صبي فقرع قرعاً فاحشاً ، ودعا لرجـــل في ابنين له بالبركة ، فرجع الى منزله ، فوجد أحدهما قد سقط في البئر والآخر قد أكله الذئب . ومسح على عيني رجل استشفى بمسحه فابيضت عيناه)[4] ، ومسح وجه (أبا بصير) ، وهو صبي من (بني يشكر بن وائل) ، وكانوا أتوا به (مسيلمة) ، فعمي ، فكني (أبا بصير) ، وكان يروى عنه[5] . وأتته امرأة من بني حنيفة ، تكنى بأم الهيثم ، (فقالت : إن نخلنا لسحق وإن آبارنا لجرز ، فادع الله لمائنا ولنخلنا ، كما دعـا محمد لأهل هزمان) ، فدعـا بسجل ، ودعا لهم فيه ، ثم تمضمض بفمه منه ، ثم مجه فيه ، فانطلقوا به حتى فرغوه في تلك

---

١ Shorter Ency., p. 416.
٢ المعارف (٤٢٤) .
٣ امالي المرتضى (٢٩٢/١) .
٤ الروض الآنف (٣٤٠/٢) .
٥ المعارف (٤٥٤) .

الآبار ، ثم سقوه نخلهم ، فغارت مياه تلك الآبار ، وخوى نخلهم . وقد ذكر (الطبري) هذه الملاحظة : (وانما استبان ذلك بعد مهلكه)[1] .

وروى (الطبري) ، أخباراً أخرى من هذا النوع ، ذكر ان (نهاراً) قال له : برك على مولودي بني حنيفة ، فقال له : وما التبريك ؟ قال : كان أهل الحجاز اذا ولد فيهم المولود أتوا به محمداً فحنّكه ومسح رأسه ، فلم يؤت مسيلمة بصبي فحنّكه ومسح رأسه إلا قرع ولثغ . وذكر ان (نهاراً) قال له : توضأ واعطِ وضوءك الى أصحاب الحيطان ، أي البساتين كما يفعل محمد ، فأعطى أحدهم وضوءه ، فسقى به حائطه ، فيبست أشجاره ، وصارت الأرض يباباً لا ينبت مرعاها . وأعطى (مسيلمة) رجلاً سجلاً من ماء،وكانت أرضه سبخة ، فأفرغه في بئره ، فغرقت أرضه ، فما جف ثراها ، ولا أدرك ثمرها . وأتته امرأة فاستجلبته الى نخل لها يدعو لها فيها ، فجزت كبائسها يوم عقرباء كلها[2] .

وقد عرف (مسيلمة) بين أتباعه بـ (رسول الله) ، وكانوا يتعصبون له، ويؤمنون به إيماناً شديداً . وذكر أن (طلحة النميري) جاء الى اليمامة ، فقال: « أين مسيلمة ؟ قالوا : انه رسول الله ! فقال : لا ، حتى أراه ، فلما جاءه. قال : أنت مسيلمة ؟ قال : نعم . قال : من يأتيك ؟ قال : رحمن . قال : أفي نور أو في ظلمة ؟ فقال : في ظلمة ، فقال : أشهد أنك لكذّاب وأن محمداً صادق ، ولكن كذّاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر » ، أو (أنه قال : كذّاب ربيعة أحبّ إليّ من كذّاب مضر) ، فقتل معه (يوم عقرباء)[3].

ويظهر من بعض ملاحظات (الطبري) عن هذه الأخبار ، أنها إنما ظهرت وقيلت بعد هلاك (مسيلمة) . فقد قال في موضع : « وكانوا قد علموا واستبان لهم ، ولكن الشقاء غلب عليهم »[4] ، وقال في موضع آخر : « وانما استبان ذلك بعد مهلكه » ، و « استبان ذلك بعد مهلكه »[5] . ولهذه الملاحظات أهمية كبيرة بالطبع في تقييم صدق هذه الروايات وصحتها ، فالعادة أن من يفشل ويهلك

---

١ الطبري (٣/٢٨٤ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٢٨٥ وما بعدها) .
٣ الطبري (٣/٢٨٦) .
٤ الطبري (٣/٢٨٦) .
٥ الطبري (٣/٢٨٥) .

لا سيما اذا كان قـد نال حظاً من المكانة والجاه والاسم ، يحمل عليه كثيراً ، ولا يتورع حتى أصحابه ومن كان يؤمن به من الدس عليه .

واتخذ (مسيلمة) مؤذناً يؤذن له في أتباعه اسمه (حجير) . (وكان أول ما أمر أن يذكر مسيلمة في الآذان ، توقف . فقال له محكم بن الطفيل : صرح حجير ، فذهبت مثلاً) . وكان (محكم بن طفيل الحنفي) صاحب حربه ومدبر أمره ، وكان أشرف منه في حنيفة [1] . وذكر (الطبري) ، أن الذي كان يؤذن له (عبدالله بن النوّاحة) ، وكان الذي يقيم له حُجير بن عمير ، ويشهد له . وكان مسيلمة إذا دنا حجير من الشهادة ، قال صرح حجير ، فيزيد في صوته ويبالغ لتصديق نفسه [2] . وذكر أن مؤذنه (حجير) ، كان إذا أذن يقول أشهد أن مسيلمة يزعم أنه رسول الله ، فيقول مسيلمة له : أفصح حجير ، فذهبت مثلاً [3] .

ورووا أنه تزوّج (سجاح) التي تنبأت ، وهي تميمة من (بني يربوع) ، وكان يقال لها (صادر) وكان لها مؤذن ، يقال له (زهير بن عمرو) ، من (بني سليط بن يربوع) ، ويقال إن (شبث بن ربعي) أذّن لها [4] .

وذكروا أنها كانت كاهنة زمانها ، تزعم أن رئيها ورئي سطيح واحد ، ثم جعلت ذلك الرئي ملكاً حتى ادعت النبوة ، فاختلفت مع (مسيلمة) وكذبتـه وجحدت نبوته، فلما اتصلت به وتزوجته ، وهبت نفسها له . فقال لها فيما زعموا :

ألا قومي الى المخدع ... فقد هيّى لك المضجع
فإن شئت سلّقنـاك ... وان شئت على أربع
وإن شئت بثلثيـه ... وإن شئت بـه أجمع

فقالت بل به أجمع . فجرى المثل بغلمتها حتى قيل أغلم من سجاح [5] .

---

١ الروض الآنف (٢/٣٤٠ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٢٨٣) .
٣ البلاذري ، فتوح (١٠٠) .
٤ المعارف (٤٠٥) .
٥ ثمار القلوب (٣١٥ وما بعدها) .

وفيها قال قيس بن عاصم ، وقيل عطارد بن حاجب بن زرارة :

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها   وأصبحت أنبيـــاء الله ذكرانا
يا لعنـــة الله والأقوام كلهم   على سجاح ومن بالإفك أغرانا
أعني مسيلمة الكذاب لاسقيت   أصداؤه ماء مزن حيثما كانا [1]

ولما قتل (مسيلمة) رثاه بعض شعراء بني حنيفة بقوله :

لهفي عليك أبا ثمامـــة   لهفي عـــلى ركني تهامة
كم آيـــة لك فيهـــم   كالشمس تطلع من غمامة [2]

قتله (وحشي) قاتل حمزة [3] .

وذكر أهل الأخبار ان (مسيلمة) كان قد تزوج (كبشة بنت الحارث بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس) [4] (كيسة بنت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس) [5] ، ثم تركها فخلف عليها (عبدالله بن عامر بن كريز) ، فولدت له . ويظهر انها لم تلد من (مسيلمة) .

والذي يقرأ ما ذكره (الطبري) عن (مسيلمة) وعن صلة (نهار) به ، يخرج بصورة تظهره شخصاً جاهلاً بليداً ، يحركه ويوجهه (نهار) حيث يريد ، لا يفهم ولا يعقل ، ولا يعرف كيف يتصرف ، ولا يتخذ رأياً حتى يشير عليه (نهار) به . (فكان نهار الرجّال بن عنفوة لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه) [6] . وهي صورة تخالف ما نقرأه عنه في الموارد الأخرى . ولو كان (مسيلمة) على نحو ما صوّره الطبري ، لما التفت حوله (بنو حنيفة) ، ولما استماتوا في الدفاع عنه . ولما ضحّى (الرحال بن عنفوة) و (محكم بن الطفيل) وغيرهما بأنفسهم

---

١ ثمار القلوب (٣١٥) ، المعارف (٤٠٥) .
٢ المعارف (٤٠٥) ، « كم آية لابيهم » ، الحيوان (٣٧٨/٤) .
٣ رسائل الجاحظ (١٨٠/١) ، الطبري (٢٩٤/٣ وما بعدها) .
٤ كتاب نسب قريش (٢٠) .
٥ الروض الآنف (١٩٨/٢ ، ٣٤١) ، (كيسة بنت الحارث بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس) ، المحبر (٤٤٠) ، امتاع الاسماع (٢٤٧) ، كتاب نسب قريش (١٤٧) .
٦ الطبري (٢٨٣/٣) .

في الدفاع عنه . حتى ان منهم من بقي مؤمناً به حتى بعد مقتله ، وتغلب المسلمين على اليمامة .

وقد كتب الجاحظ قصة مسيلمة وقصة (ابن النواحة) ، ولعلّه قصد به (عبدالله بن النواحة) مؤذنه ، في كتابه المفقود حتى اليوم (فصل ما بين النبيّ والمتنبيّ) ، حيث ذكر جميع المتنبين[1] . وذكر (البلاذري) أن (مسيلمة) ، كان قد أرسل كتابه الذي كان وجهه الى الرسول والذي فيه (من مسليمة رسول الله ، الى محمد رسول الله ، أما بعد : فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً لا ينصفون ، والسلام عليك . وكتب (عمرو بن الجارود الحنفي) ، مع (عبادة بن الحارث) أحد بني عامر بن حنيفة ، وهو (ابن النواحة) الذي قتله عبدالله بن مسعود بالكوفة[2] .

وكان (مسيلمة) قد أمر (عمرو بن الجارود الحنفي) ، بتدوين كتابه الذي وجهه الى الرسول ، فأمر الرسول كاتبه (أُبي بن كعب) بالردّ عليه . ومعنى هذا أن مسيلمة كان قد اتخذ له كتبة يكتبون له رسائله ، على نحو ما كان لرسول الله .

وأنا لا استبعد احتمال علم (مسيلمة) بالكتابة والقراءة . وإن لم ينص أهل الأخبار على ذلك . كما لا استبعد احتمال التقائه باليهود وبالنصارى وأخذه منهم ، فقد كان في اليمامة قوم من أهل الكتاب ، ودعوته الى عبادة إلّه هو (الرحمن) ، تدل على تأثره بأتباع هذه الديانة وبأهل الكتاب .

هذا ولم أجد في الأخبار المتعلقة بمسيلمة خبراً يفيد صراحة أن مسيلمة كان قد اعتنق الاسلام ودخل فيه . فالأخبار التي تتحدث عن مجيئه الى يثرب لا تشير الى ذلك ، والأخبار الأخرى التي تتحدث عنه وهو في اليمامة لا تشير الى قبوله الإسلام كذلك ، بل نجد فيها كلها أنه ظل يرى نفسه نبياً مرسلاً من (الرحمن) وصاحب رسالة ، لذلك فليس من الصواب أن نقول : (ردة مسيلمة) ، أو (ارتداد مسيلمة) ، أو نحو ذلك ، لأنه لم يعتنق الإسلام ثم ارتد عنه ، حتى ننعته بالمرتد .

---

١ الحيوان (٣٧٨/٤) .
٢ البلاذري ، فتوح (٩٧) .

وكان (مجاعة بن مرارة) الذي نزل عليه (مسيلمة) ، من رؤساء (بني حنيفة).
وممن وفد على الرسول ، فأعطاه النبي أرضاً باليمامة يقال لها (الغورة) ، وكتب له بذلك كتاباً . وذكر بعض أهل الأخبار انه كان بليغاً حكيماً وقد أسر (يوم اليمامة) ، فتوسط له بعض وجوه (بني حنيفة)،لدى خالد أن يبقيه ، فأرسله الى (أبـي بكر) ، فصفح عنه . وقد كان قد انجرف مع من انجرف فمال الى (مسيلمة) وأيده ، وحارب معه . وله شعر أشار فيه الى مسيلمة [1] ، ونعته فيه بـ (الكذاب) . ولما وفد على (أبـي بكر) اقطعه (الخضرمة) ، ثم قدم على عمر ، فأقطعه الرياء ، ثم قدم على عثمان ، فأقطعه قطيعة أخرى [2] .

وأما (الرحال بن عنفوة) (رحّال بن عنفوة) ، فهو (نهار الرجال بن عنفوة)،(الرجّال بن عنفوة) في تأريخ الطبري [3] . وهو من وجوه(بني حنيفة) واسمه (نهار) ، وكان في الوفد الذي جاء الى الرسول ، وقد اختلف الى (أبـيّ بن كعب) ليتعلم منه القرآن . وكان رئيس وفد (حنيفة) (سلمى بن حنظلة) [4] . وقد تعلّم سورة البقرة وسوراً من القرآن [5] . وذكر انه كان على غاية من الخشوع واللزوم لقراءة القرآن والخير ، ثم انقلب على عقبيه وصار من أشد أعوان مسيلمة المقربين له ، فشهد له ان الرسول أشركه معه في الأمر. وكان احد وفد (بني حنيفة) الى رسول الله ، وفيهم (فرات بن حيان) [6] .

وأما (محكم بن طفيل بن سبيع) الحنفي ، فقد كان من أشراف وسادات

---

١ قال مجاعة :
أترى خالدا يقتلنا اليو م بذنب الاصيفر الكذاب
لم ندع ملة النبي ولا نحـ ن رجعنا فيها على الاعقاب
(الاصغر) الاصابة (٣٤٢/٣) ، (رقم ٧٧٢٤) ، الحيوان (٣٧١/٤) ، (حاشية المرزباني ، معجم (٤٧٢) ، الجاحظ ، البيان (٢٦٣/٣) ، « مجاعة بن مرارة بن سلمى بن زيد بن عبد بن ثعلبة بن يربوع بن الدول بن حنيفة » ، كتاب الطبقات ، لخليفة بن خياط (٦٦ ، ٢٨٩) .
٢ البلاذري ، فتوح (١٠٣) .
٣ طبعة (دار المعارف) بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .
٤ ابن سعد ، طبقات (٣١٦/١) ، (وفد حنيفة) ، الروض الأنف (٣٤٠/٢) .
٥ البلاذري ، فتوح (٩٧) .
٦ الاصابة (٥٢١/١) ، (رقم ٢٧٦١) .

(بني حنيفة) . وهو أشرف من مسيلمة في حنيفة [1] . وكان من المقدمين عند مسيلمة . وقد عهد (مسيلمة) اليه قيادة احدى المجنبتين في قتـاله مع (خالد ابن الوليد) . وقد عرف بـ (محكم اليمامة) . وقد قتل وهو يحارب المسلمين[2]. « قتله خالد بن الوليد يوم مسيلمة »[3] .

وأما (فرات بن حيان بن ثعلبة بن عبد العزى بن حبيب) العجلي ، فكان عيناً لأبي سفيان في حروبه ، وكان ممن هجا الرسول ، ثم أسلم ومدحه،وأقطعه الرسول أرضاً باليمامة ، ثم سكن الكوفة وأقام بها . وكان في حرب الخندق عيناً للمشركين[4] .

وأما أثال بن النعمان الحنفي ، فكان مع (فرات بن حيان) حين قدم المدينة وقد كلّم الرسول . وذكر في رواية أنه كان مع ثمامة بن أثال في قتال مسيلمة في الردة [5] .

وكان (ثمامة بن أثال بن النعمان بن سلمة الحنفي) ، من قدماء من أسلم من أهل اليمامة . فقد أرسل رسول الله خيلاً قبل نجد ، فجاءت به ، فربطوه بسارية من سواري المسجد بيثرب ، فكلمه الرسول ، ثم امر فأطلق من رباطه ، فدخل في الإسلام ، وأمره ان يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ! قال : لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبـة حنطة ، حتى يأذن فيها النبي . ثم خرج الى اليمامة ، فمنعهم أن يحملوا الى مكة شيئاً . فكتبوا الى النبي : إنك تأمر بصلة الرحم ، فكتب الى ثمامة أن يخـلي بينهم وبين الحمل اليهم[6] . وكانت ميرة قريش من اليمامة ومنافعهم منها، وكانت ريف مكة . ولما ارتد أهل اليمامة ، وصاروا مع مسيلمة ، ثبت أثال على الاسلام فكان مقيماً باليمامة ينهاهم عن اتباع مسيلمة وتصديقه ، فلما عصوه وأصفقوا على اتباع مسيلمة ، عزم على مفارقتهم ، ففارقهم ولحق بالعلاء بن الحضرمي في مقاتلة

---

١ الروض الأنف (٣٤١/٢) .
٢ الطبري (٢٩٠/٣) ، الاشتقاق (٢١٠) ، تاج العروس (٢٥٤/٨) ، (حكم) .
٣ اللسان (١٤٢/١٢) ، (حكم) ، تاج العروس (٢٥٤/٨) ، (حكم) .
٤ الاصابة (١٩٥/٣) ، (رقم ٦٩٦٦) .
٥ الاصابة (٣٣/١) ، (رقم ٣٥) .
٦ رشاد الساري (٤٣٢/٦ وما بعدها) .

المرتدين من أهل البحرين ، فلما ظفروا اشترى ثمامة حلة كانت لكبيرهم : (الحطم) فرآها عليه ناس من (بني قيس بن ثعلبة) ، فظنوا أنه هو الذي قتلـه وسلبه فقتلوه . وقد رووا له شعراً في الرسول وفي الردة[1] . وكان له عم اسمه (عامر ابن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفي) . وقد كان مسلماً[2] .

وجاء في رواية ان رسول الله لما بعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى في رجب سنة تسع ، فأسلم المنذر ورجع العلاء ، فمرّ باليمامة ، قال له ثمامة بن أثال : انت رسول محمد ؟ قال نعم . قال : لا تصل اليه ابداً ، فقال له عمه : عامر بن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفي : ما لك وللرجل ، فأسلم عامر ، ووقع ثمامة بعد ذلك في الأسر[3] .

وكان (معمر بن كلاب الرماني) ، جاراً لثمامة بن أثال ، وهو ممن وعظ مسيلمة وبني حنيفة ونهاهم عن الردة ، فلما عصوه تحول الى المدينة ، فمنعه ثمامة حتى ردّه وشهد قتال اليمامة مع خالد[4] .

و (الحطم) المذكور ، هو (الحطم بن هند) البكري ، أحد (بني قيس ابن ثعلبة) ، قدم المدينة في رواية في عير له يحمل طعاماً فباعه ، ثم دخل على النبي ، فبايعه وأسلم ، فلما قدم اليمامة ، ارتد عن الاسلام ، وخرج في عير له تحمل الطعام في ذي القعدة يريد مكة ، وكان عظيم التجارة ، وأراد المسلمون أن يتلقوه ويأخذوا ما معه ، فمنعهم الرسول من ذلك لحرمة الشهر . وذكر انه بعد ان قابل الرسول ، وسمع منه مبادىء الاسلام . قال الحطم : في أمرك هذا غلظة ، أرجع الى قومي ، فأذكر لهم ما ذكرت ، فإن قبلوه أقبلت معهم ، وان أدبروا أدبرت معهم . قال له ارجع . فلما رجع مرّ بسرح من سرح المدينة ، فساقه فانطلق به[5] .

وذكر أن (الحطم) قتل في الجيار ، من نواحي البحرين ، لما ارتدت بكر ابن وائل[6] .

---

١ الاصابة (١/٢٠٤) ، (رقم ٩٦١) ، الاستيعاب (١/٢٠٥ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، تاج العروس (٧/٢٠٣) ، (أثل) .
٢ الاصابة (٢/٢٤١) ، (رقم ٤٣٩٠) .
٣ الاصابة (٢/٢٤١) ، (رقم ٤٣٩٠) .
٤ الاصابة (٣/٤٧٥) ، (٨٤٥٢) .
٥ تفسير الطبري (٦/٣٨) .
٦ تاج العروس (٣/١١٦) ، (جير) .

هذا هو كل ما ورد الى علمنا عن الأنبياء العرب في الجاهلية . وقد حصلنا عليه من المؤلفات الاسلامية . أما نصوص جاهلية ، فيها شيء عن النبوة والأنبياء، فلم يصل الينا منها أي شيء .

يقول (أبو العلاء المعري) عن ادعاء بعض الناس بالأمامة والنبوة في الإسلام: « ولم تكن العرب في الجاهلية تقـدم على هذه العظائم ، والأمور غير النظائم ، بل كانت عقولهم تجنح الى رأي الحكماء ، وما سلف من كتب القدماء . إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي ، وينظرون الى من زعم ذلك بعين الغبيّ »[1] . فهو ينكر وجود نبوة وأنبياء عند الجاهليين للسبب المذكور . وهو يقصد ولا شك بها، النبوة على وفق المعنى المفهوم منها في الاسلام . أي أن تكون بوحيّ ينزل على النبيّ من الاسلام ، وبكلام منزل يتلوه على الناس ، يكون كلام الله لا كلام النبيّ .

---

1 رسالة الغفران (٤٤٠) ، (بنت الشاطىء) .

الفصل الرابع والستون

الله ومصير الانسان

لا نعرف رأي الجاهليين في الخلق ، وفي كيفية نشوء هذا الكون، إذ لم تصل الينا نصوص جاهلية في هذا المعنى . ولا بد أن يكون لهم كما كان لغيرهم رأي في الخلق وفي نشوء الكون . فموضوع نشوء الكون وظهوره ، من الموضوعات التي تثير رأي كل انسان مهما كانت ثقافته وكان تفكيره .

وفي القرآن الكريم كلمات مثل (البارىء) و (المصور) و (الخلاّق) و (خلقنا) و (خلقت) و (خلقناكم) و (خالق) وغيرها مما له علاقة بخلق الكون والانسان وبقية المخلوقات ، وفيه كيفية خلق الله للكون ومن فيه وكيفية خلق الانسان ومن أي شيء خلق. ولكن هل كان يعرف جميع الجاهليين هذا المعنى المنزل في كلام الله ، وهل نزلت هذه الآيات لإرشاد الناس الى ذلك، أو انها نزلت لتذكير القوم ولفت نظرهم الى شيء يعلمونه ولكنهم كانوا ينسبونه لغير الله أو يتجاهلونه ، إن كان ذلك على سبيل التذكير ، فمعنى هذا ان لأهل الجاهلية رأياً في كيفية الخلق ، وإن كان ذلك على سبيل التعليم والإرشاد ، فإنه يدل على أن من خوطب بتلك الآيات لم يكن له فقه وعلم بما خوطب به .

وفي القرآن الكريم آيات فيها خطاب للمشركين في بيان فساد رأيهم واعتقاداتهم ، وفيها ردّ عليهم ، منها نستطيع أن نحيط بعض الإحاطة بآرائهم في الوجود وفي البعث والحشر والحساب وغير ذلك من أمور تتعلق بدياناتهم . وهذه الآيات هي

الشواهد الوحيدة التي نملكها من آراء القوم في ذلك العهد. أما ما جاء في روايات الأخباريين وفي كتب التفسير والحديث والملل والنحل ، ففيه بعض الشيء عن آراء الجاهليين القريبين من الاسلام ، ولا سيما عرب مكة ويثرب عن تلك الأمور .

ويفهم من القرآن الكريم ان من الجاهليين من كان يعتقد ان للعالم خالقاً خلق الكون وسوّاه ، وان منهم من كان يعتقد بوجود إلـه واحد فهم موحدون ، وان منهم من أقر بوجود إلـه واحد غير انه رأى تعذر الوصول اليه بغير وسطاء وشفعاء فاعتقد بالأرواح وبالجن وعبد الأصنام لتكون واسطة تقربه الى الله[1] .

أما كيف خلق الله الأرض والسماوات وكيف نشأ الكون، فذلك ما لم يتعرض له القرآن الكريم حكاية على لسان الجاهليين . ولذلك لا نعرف رأي أولئك القوم الذين عاصروا الرسول وعاشوا قبيل الاسلام في كيفية ظهور الوجود وخلق الكون .

ويفهم من بعض الأخباريين أن من الجاهليين من كان يرى أن خالقاً خلق الأفلاك ، غير أنها تحركت أعظم حركة فدارت عليه وأحرقته ، لأنه لم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها ، وأن منهم من كان يقول : « إن الأشياء ليس لها أول البتة ، وإنما تخرج من القوة الى الفعل . فإذا خرج ما كان بالقوة الى الفعل ، تكونت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء آخر . وقالوا إن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله . وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التي فيه »[2] . وهذا كلام إن صح أنه من كلام الجاهليين ومن مقالاتهم ، فإنه يدل على تعمق القوم في المقالات ، وعلى أن لهم رأياً وفلسفة في الدين ، وأنهم لم يكونوا على الصورة التي يتخيلها معظمنا عنهم ، وهي الصورة التي رسمها لهم أهل الأخبار في أثناء كلامهم العام عن الجاهليين .

الله الخالق :

ويظهر من القرآن الكريم ، أن قريشاً كانوا يؤمنون بإلـه واحد خلق الكون ، وهو رب السماوات والأرض . ففي سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من خلق

---

١ بلوغ الارب (٢/١٩٤ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٢/٢٢٠ وما بعدها) .

السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ : الله ، فأنى يؤفكـــون »[1] . وفي هذه السورة نفسها سؤال آخر موجه الى المشركين « ولئـن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ، ليقولن : الله ، قـل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون »[2] . وفي سورة لقمان سؤال آخر موجـه الى أولئك المشركين ، وجواب صادر منهم ، هو هذا الجواب نفسه : إقرار بوجود خالق واحد خلق السماوات والأرض : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن : الله . قل الحمد لله،بل أكثرهم لا يعلمون »[3] . وفي سورة الزخرف: « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن : خلقهن العزيز العليم »[4]. وفي سورة الزمر : « ولئن سألهتم من خلق السماوات والأرض، ليقولن الله»[5]، وفي سورة الزخرف أيضاً : « ولئن سألتهم من خلقهم ، ليقولن : الله . فأنى يؤفكون »[6] ، وفي سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من نـزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ، ليقولن : الله »[7] . وهناك آيات أخرى عـلى هذا النحو ، فيها أسئلة موجهة الى المشركين عن خلق السماوات والأرض،وأجوبة على ألسنتهم فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله .

وفي القرآن الكريم أيضاً ان قريشاً كانت تعتقد ان الله هو الذي ينزل المطـــر ويحيي الأرض بعد موتها[8] ، وفيه انهـــم كانوا يقسمون به[9] ، وانهم كانوا قد جعلوا له نصيباً مما ذرأ من الحرث والأنعام[10] ، وانهم كانوا يقولون إن الله هو الذي شاء فجعلهم وآباءهم مشركين ، وانه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحداً[11]، وانهم كانوا يتضرعون اليه ويستغيثون به في الكوارث والملمات ، وانهم جعلوا له

---

١ سورة العنكبوت ، الرقم ٢٩ ، الآية ٦١ .
٢ العنكبوت ، الآية ٦٣ .
٣ سورة لقمان ، الرقم ٣١ ، الآية ٢٥ .
٤ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٩ .
٥ الزمر ، الرقم ٣٩ ، الآية ٣٨ .
٦ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٨٧ .
٧ العنكبوت ، الرقم ٢٩ ، الآية ٦٣ .
٨ العنكبوت ، الآية ٦٣ .
٩ الانعام ، الآية ١٠٩ ، النحل ، الآية ٣٨ .
١٠ الانعام ، الآية ١٣٦ .
١١ الانعام ، الآية ١٤٨ .

بناتاً وبنين وشركاء الجن[1] . فقريش اذن وفق هذه الآيات قوم ، كانوا يؤمنون بإلـه عزيز عليهم ، ومن آيات ذلك انهم جعلوا له نصيباً في أموالهم،مع ان المال من أعز الأشياء على الانسان ، لا سيما بالنسبة لتلك الأيام .

وفي تلبية الجاهليين المنصوص عليها في كتب أهل الأخبار اعتراف صريح واضح بوجود إلـه . كانوا يلبون بقولهم : (لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريك هو لك . تملكه ومـا ملك ، يعنون بالشريك الصنم ، يريدون ان الصنم وما يملكه ويختص بـه من الآلات التي تكون عنـده وحوله والنذور التي كانوا يتقربون بها اليه كلها ملك لله عز وجل)[2] فذلك معنى قولهم : تملكه وما ملك . فهم يعترفون ويقرون بوجود الله ، لكنهم يتقربون اليه بالأصنام . وهذا هو الشرك .

وفي دعاء العرب اعتراف بوجود (الله) ، فقولهم : (رماه الله بما يقبض عصبه) ، و (قمقم الله عصبه) ، و (لا ترك الله لـه هارباً ولا قارباً) ، و (شتت الله شعبه) ، و (مسح الله فاه) ، و (رماه الله بالذبحـة) ، و (رماه الله بالطسأة) ، و (سقاه الله الذيغان) ، و (جعل الله رزقه فوت فمه) ، و (رماه في نيطه) ، و (قطع الله به السبب) ، و (قطـع الله لهجته) ، و (مدّ الله أثره) ، و (جعل الله عليها راكباً قليل الحداجة) ، و (لا أهدى الله له عافيـة) ، و (أثل الله ثلله) ، و (حتّـه الله حت البرمة) ، و (رماه الله بالطُّلاطلة) ، و (رماه الله بالقصمل) ، و (ألزق الله به الحَوْبة) ، و (لحاه الله كما يُلحى العود) ، و (اقتثمه الله اليه) ، و (ابتاضه الله) ، الى آخر ذلك من دعاء يدل على وجود ايمان بخالق هو الله[3] .

وفي الشعر المنسوب الى الجاهليين اعتقاد بوجود الله ، واتقاء منه ، وتقرب اليه باحترام الجوار وقرى الضيف . هذا عمرو بن شأس يقول في شعره :

---

١ الانعام ، الآية ١٠٠ .

٢ اللسان (١٠/٤٥٠) ، (شرك) .

٣ راجع بقيته في ذيل الامالي والنوادر (ص ٥٧ وما بعدها) ، (عود الى بحث دعاء العرب) .

ولولا اتقاء الله والعهد قد رأى منيتــه منى أبوك اللياليــا [1]

فلولا اتقــاء شأسٍ اللهَ ، لفتك بخصمه ، وجعله من الهالكين . وفي بعضه اعتراف بأن هذه الأرض الواسعة هي (بلاد الله) ، أينما حللت فيها فهي أرضه وبلاده [2] . وهذه نظرة مهمة جداً عن رأي الجاهليين في الله وفي الأرض ، إن صح أن هذا الشعر الوارد فيه حقاً من شعر أهل الجاهلية .

و (اللهُ) كما جاء في شعر زهير بن أبي سُلمى ، عالم بكل شيء ، عارف بالخفايا وبالأسرار ، وبما ظهر من الأعمال وما بطن [1] .

فلا تكتمنّ الله ما في نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم [3]

وهو عدوٌ للأشقياء شديد عليهم ، لا يرحم ظالماً ، وأمرهُ بُلُغٌ به تشقى به الأشقياء [4] وهو يثيب على الإحسان ، ويجزي المحسن على جميل إحسانه [5] . وهو الذي يعصم من السيئات والعثرات [6] . وهو مقر بوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال ، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة ، فلا مخلص له [7] .

---

١ الاغاني (١٠/٦٢) ، نسب عمرو بن شأس وأخباره في هذا الشعر وغيره ·
بدا لي أن الله حق فزادني الى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا
شرح ديوان زهير (٢٨٧) ·

٢ فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
ديوان عروة (٥١) ·

٣ شرح ديوان زهير (١٨) ·

٤ فهداهم بالاسودين وأمر الله بلغ يشقى به الاشقياء
اللسان (١٠/٣٠٢) ، (بلغ) ،
فهداهم بالاسودين وأمر الله بلغ تشقى به الاشقياء
تاج العروس (٦/٤) ، (بلغ) ·

٥ رأى الله بالاحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو
شرح ديوان زهير (١٠٩) ·

٦ ومن ضريبته التقوى ويعصمه من سيئ العثرات الله والرحم
شرح ديوان زهير (ص ١٦٢) ·

٧ فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
شرح ديوان زهير ، لثعلب (ص ١٢) ، بلوغ الارب (٢/٢٧٧ ومابعدها) ، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٥١٨) ، جمهرة أشعار العرب (٧١) ·

والله (كريم) لا يكدر نعمة ، اذا دُعي أجاب . وهذا هو رأي الأعشى في الرب ، اذ يقول :

ربّـي كريم لا يكدر نعمة واذا يناشد بالمهارق أنشدا [1]

وقد ورد اسم الجلالة في أشعار كثير من الشعراء الجاهليين : ورد في شعر امرىء القيس وغيره ، فامرؤ القيس يقول : (من الله) و (لله)[2] ، و (تالله)[3] ، و (قبح الله)[4] ، و (والله)[5] ، و (يمين الله) ، و (يمين الإلـه)[6] ، و (الإلـه) هي (الله) ، و (الحمد لله)[7] . ونرى العرب عامة تستعمل في كلامها : (لله دره)[8] ، و (لا يبعـد الله)[9] ، و (لحى الله)[10] ،

---

١ ديوان الاعشى ، قصيدة ٣٤ (ص ١٥١) ، « تحقيق كاير » .

٢ فاليوم أشرب غـير مستحقب اثمـا من الله ولا واغـل
لله زبدان أمسى قرقرا جلـدا وكان من جندك أصم منضودا
شرح ديوان امرىء القيس ، للسندوبي (ص ٦٣ ، ١٥٢) ، وسيكـون رمزه : سندوبي .

٣ تالله قد علمت قيس اذا قذفت ريـح الشتاء بيوت الحي بالعنـن
شرح ديوان زهير (١٢١) .
يا لهـف هند اذ خطئن كاهـلا تالله لا يذهـب شيخي باطـلا
سندوبي (١٥٤) .

٤ ألا قبـح الله البراجم كلهـا وجدع يربوعـا وعفـر دارهـا
سندوبي (١٨٠) .

٥ فقد أصبحـوا والله أصفاهم به أبـر بميثاق وأوفى بجـيران
والله لا يذهـب شيخي باطلا حتى أبـير مالكـا وكاهنـا
سندوبي (١٥ ، ١٨٩) ، شرح ديوان زهير (٢٤) .

٦ كـلا يمـين الالـه يجمعنـا شئى وأخوالنـا بنـو جشمـا
سندوبي (١٨١) .

٧ أرى ابلي والحمد لله أصبحـت ثقالا اذا ما استقبلتها صعودهـا
سندوبي (٦٤) .

٨ كـم شامـت بـي ان هلكـ ـت وقائـل : للـه دره !
ديوان لبيد (ص ٢) ، « تحقيق كارل بروكلمن » .

٩ وقولي ألا لا يبعـد الله أربـدا وهدى به صدع الفؤاد المفجعـا
ديوان لبيد (ص ٦) .

١٠ لحى الله صعلوكا اذا جـن ليله مصافي المشاش آلفا كل مجـزر
ولله صعلـوك صفيحـة وجهه كضوء شهـاب القابس المتنـور
ديوان عروة بن الورد (٢٦ ، ٥٣) .

و (جزى الله)[1] ، و (عمر الله)[2] ، وأمثال ذلك مما يرد في أشعار الشعراء الجاهليين ، يخرجنا تدوينه وحصره في هذا المكان عن حدود الموضوع .

وقد جاءت لفظة الجلالة في ايمان أخرى ، في مثل : (لعمر الله) ، و (ها لعمر الله) كالذي ورد في شعر زهير :

تعلمن هـا لعمر الله ذا قسماً فاقصد بذرعك وانظر أين تنسلك[3]

وورد (هـا الله) و (والله) و (الله) و (نعم الله) و (أي والله لأفعلن) ، و (ايم الله) و (ايمـن الله) و (يعلم الله) و (علم الله) وأمثال ذلك[4] .

ومن ايمانهم الدالة على الاعتقاد بوجود خالق ، قولهم : (لا وبارىء الخلق) ، و (لا والذي يراني من حيث ما نظر) و (لا والذي نادى الحجيج له) ، و (لا والـذي يراني ولا أراه) ، و (لا والذي كل الشعوب تدينـه) ، و (حرام الله لا آتيك) ، و (يمين الله لا آتيك) ، و (لا والذي جلد الإبل جلودها) ، و (والذي وجهي زمم بيته) ، و (لا والـذي هو أقرب إلي من حبل الوريد) ، و (لا ومقطع القطر) ، و (لا وفالق الإصباح) ، و (لا ومهب الرياح) و (لا ومنشر الأرواح)[5] ، الى غير ذلك من ايمان حلفوا بها ، تدل على إيمان وعقيدة بوجود خالق ، فحلفوا به .

ونجد في معلقة امرىء القيس قسماً بالله حكي على لسان صاحبة صاحب المعلقة :

فقالت : يمين الله ما لك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلي[6]

وترى في بيت لامرىء القيس وهو يذكر اقدامه على الشرب :

فاليوم أسقى غير مستحقب إثمـاً من الله ولا واغل[7]

---

١ جزى الله خيرا كلما ذكر اسمه أبا مالك ان ذلـك الحي اصعدوا
ديوان عروة (ص ٥٠) .

٢ قعيدك عمر الله ، هل تعلميننى كريما اذا اسود الانامل أزهـرا
ديوان عروة بن الورد (٢٢) ، Reste, S. 224.

٣ السنن الكبرى (١٠/٢٦ وما بعدها) ، المخصص (١٣/١١٣) .

٤ المخصص (١٣/١١٤ وما بعدها) .

٥ ذيل الامالي (ص ٥٠ وما بعدها) .

٦ المعلقات العشر وأخبار شعرائها (٦٢) .

٧ شعراء النصرانية (١٩) .

فالرجل مؤمن بالله ، وقد وفى بما عاهد الله عليه ، وهو لا يخشى بعد ذلك إثماً اذا شرب ، لأنه وفى بنذره .

ونراه يذكر الله أيضاً في هذا البيت :

لله زبدان أمسى قرقراً جلداً   وكان من جندل أصم منضودا [1]

ثم نراه يشكر الله بجملة : (والحمد لله) في هذا البيت :

أرى إبلي والحمد لله أصبحت   ثقالاً إذا ما استقبلتها صعودها

ونراه يحث الناس على التمسك بحبل الله ، فبالله يكون النجاح ، ويحث الناس على عمل البر ، والبر خير حقيبة الرجل :

والله أنجح ما طلبت به   والبر خير حقيبة الرجل

ونفهم من هذه الأبيات ومن أبيات أخرى ، إن امرأ القيس رجل مؤمن يعتقد بالله الواحد ، مؤمن بالله الواحد ، مؤمن بالثواب وبالعقاب ، وأنه كان يخاف الله ويخشى الإثم والفسوق ، ولا أدري أينطبق هذا الذي نقوله على امرىء القيس الذي يتحدث عنه أهل الأخبار ويصفونه بأنه رجل عابس ميال الى اللهو والشهوات رمى صنمه بسهم وأنبه لما جاء الجواب بخلاف ما كان يرغب فيه ويشتهيه . ثم لا أدري اذا كان اسلوب هذا الشعر من أسلوب الشعر الجاهلي وطرازه ؟ وإذا كان هذا الشعر صحيحاً ، فلم أدخل رواته شاعره في الجاهليين الوثنيين ولم يدخلوه في عداد المؤمنين بالله من الأحناف ؟

وإذا اعتقدنا بصحة الأبيات المنسوبة الى عبيد بن الأبرص :

من يسأل الناس يحرموه   وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير   والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك   علام ما أخفت القلوب

وقلنا مع القائلين إنها من شعر ذلك الشاعر حقاً ، وجب عده إذن في جملة

---

[1] شعراء النصرانية (٤٠) .

الموحدين المؤمنين المسلمين ، وإن عاش قبل الإسلام . فرجل يقول هذا القول ، لا يمكن إلاّ أن يكون مسلماً مؤمناً بالله الواحد الأحد علاّم الغيوب والعارف بما في القلوب ، ومن الممهدين للتوحيد بين العرب قبل الإسلام .

وقد أهمل بعض رواة هذه المعلقة البيت الآتي :

والله ليس لـــه شريك   علام ما أخفت القلوب

وكأنهم فطنوا الى ان من غير المعقول نسبته الى رجل وثني ، مهما كان رأيه في الأوثان والتوحيد ، لا يمكن أن يستعمل هـذه الألفاظ التي لم يستعملها العرب بهذا الشكل إلا في الاسلام .

والى عبيد نفسه ينسب الأخباريون قول هذا البيت :

حلفت بالله إنّ الله ذو نعم   لمن يشاء وذو عفو وتصفاح

ورجل يقول هذه الأبيات وأبياتاً أخرى من لونها ، لا يمكـــن إلا ان يكون موحداً مؤمناً ، من فصيلة المؤمنين بالله من الأحناف . وقد أراح (شيخو) نفسه وأراح الناس حين ذهب الى ان عبيداً وأمثاله من الشعراء الجاهليين كانوا نصارى وان هذا التوحيد هو توحيد نصراني محض ، وقف عليه عبيد في زيارته للحيرة مهد النصرانية في ذلك العهد ، فاعتنقه ، فهو على رأيه اذن شاعـــر نصراني ، وشعره شعر نصراني لا يرد ولا يرفض .

ونجد (طفيل بن عوف) الغَنَوي يقسم بـ (الإلّه) في شعره . غير أن هناك رواية تضع (رضى) موضعَ (الإلّه) فيكون القسم بـــه ، ورضى اسم صنم كان لطيء[1] . وقد ذكر (الله) في مواضع أخرى من شعره ، وقال إنه هو الذي يصلح الأمور ، ويسد العجز والثُغر التي ليس في وسع الإنسان سدّها[2]،

---

1 « فقال بصـــير يستبين رعالهـــا   هم والالـــه من تخافـــين ، فاذهبي
ويروي ، ولعلها رواية أبي عبيدة :
وقال بصـــير قـــد أبان رعالهـــا   فهي ورضى من تخافين ، فاذهبـــي
ورضى اسم صنم كان لطيء ، ديوان طفيل بن عوف الغنوي « تحقيق ف· كرنكو » (لندن ١٩٢٧) ، (ص ١٢) ·

2 لعمري لقد خلى ابن جيدع ثلمـــة   فمن أين ان لم يرأب الله تـــرأب
ديوانه (ص ١٩) ·

وإنه يجزي الناس على أعمالهم[1] .

وفي معلقــة (الحارث بن حلّزة) اليشكري : « أمر الله بلغ تشقى بــه الأشقياء »[2] ، وأن الله عالم بالأمور[3] .

ونجــد (المتلمس) ، يقسم بالله في شعره ، ويــذكر الله في مثل جملة (أبى الله)[4] للتعبير عن مشيئة الله وإرادته ، وجملة (لله دري) في التعجب[5] وجملة (تقوى الله)[6] ، و (عاداك الله)[7] وغيرها مما يدل على أنه كان يعتقد أن الله يعادي الأعداء ويحب المحبين .

ولكننا نجده في مواضع أخرى يقسم باللات وبالأنصاب ، والمقصود بالأنصاب الأوثان مما يشعر أنه كان يؤمن بها ، فكيف نوفق بين اعتقاده بالله واعتقاده باللات

---

١ جزى الله عوفا من موالي جنابــة ونكــراء خيرا كــل جاد مودع
ديوانه (ص ٥٠) .
جزى الله عنا جعفرا حين أزلقـت بنا نعلنــا في الواطئــين فزلــت
ديوانه (ص ٥٧) .

٢ فهداهم بالاسودين ، وأمــر الله بلــغ تشقــى بــه الاشقيــاء
شرح القصائد العشر (٤٦٨) ، (البيت رقم ٦٢) من المعلقة .

٣ وفعلنــا بهــم كمــا علــم الله ومــا ان للخائنــين دمــاء
البيت (رقم ٧٥) من المعلقة ، (ص ٤٧٥) من شرح القصائد العشر للتبريزي (محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٤ يــا آل بــكر ألا لله احكمــوا طال الله الثواء وثوب العجز ملبوس
ديوان المتلمس (ص ١٦٩) ، (طبعة فولرس) ، جمهرة أشعار العرب (ص ٤٤ ، ٢٠٦) ، شعراء النصرانية (٣٣٢) .
وقــال :
وهل لي أم غيرها ان تركتهــا أبى الله الا أن أكون لهــا ابنا
شعراء النصرانية (٣٣٨) .
وقــال :
اطردتني حــذر الهجــاء ولا والــه والانصــاب لا تئــل
وذلك في رواية . وفي الروايات الشائعة « واللات » بدلا من والله ، ديــوان المتلمس (١٧١) .

٥ تفرق أهلي مــن مقيــم وظاعــن فللـــه دري أي أهلــي أتبــع
ديوان المتلمس (ص ١٨٧) .

٦ وأعلــم علــم حــق غــير ظــن وتقوى الله مــن خــير العقاد
ديوان المتلمس (ص ١٩٥) ، شعراء النصرانية (٣٤٣) .

٧ لا خــاب من تفعــك من رجالهــا بــلا وعــادى اللــه مــن عاداكا
ديوان المتلمس (ص ٢٠٦) ، شعراء النصرانية (٣٤٨) .

والأنصاب ؟ وهل نعدّ هذا الشعر صادراً من شاعر واحد ؟ نعم ، يجوز أن يكون قاله هو . قاله لأنه كان يعتقد بوجود إلّه ، فهو يؤمن به ويقر بوجوده، غير أن قسمه باللات والأنصاب ، هو من باب عقيدة الجاهليين المؤمنين بوجود إلّه ، ولكنهم كانوا يتقربون اليه بالأصنام والأوثان والأنصاب . ويتوقف هذا التفسير بالطبع على اثبات أن هذا الشعر له حقاً ، وليس مفتعلاً ، ولا مما أدخل الرواة عليه تغييراً أو تبديلاً .

ونجد في شعر النابغة الجعدي ، أبو ليلى عبدالله بن قيس ، الشاعر المخضرم المتوفى سنة (٦٥) للهجرة ، قصيدة مطلعها :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

يلي هذا المطلع قصة نوح والسفينة ، وهي سفينة مصنوعة من خشب الجوز والقار . وفي هذه القصيدة اعتراف بالتوحيد ، وبوجود إلّه واحد لا شريك له ، لا يحمد إلا هو ، وهو شعر لا يمكن أن يكون إلا من شعر شاعر مسلم،إن صح انه من شعره ، فيجب أن يكون مما نظمه في الاسلام .

وينسب الى (لبيد) اعتقاده ان الله يبسط الخير والشر على عباده ، وانه منتقم ممن يخالفه ، معاقب له ، كما عاقب (إرما) و (تبعا) ، وقوم (لقمان بن عاد) ، و (أبرهة) وذلك في أبيات أولها :

من يبسط الله عليه إصبعاً بالخير والشر بأي أولعا

وهي رجز ، يرى بعض العلماء انها ليست من رجزه[1] .

ونجد معود الحكماء ، وهو معاوية بن مالك بن جعفر ، يذكر الله ويحمده ، فيقول : « بحمد الله » ، ويقول (عامر) : « أردتُ لكيما يعلم الله انني » ، ويقول (خداش بن زهير) : « وذكرته بالله بيني وبينه »[2] .

---

١ ديوان لبيد (٣٣٧ وما بعدها) .

٢ شرح ديوان لبيد ، (ص ٢١) ، (المقدمة) ، (تحقيق الدكتور احسان عباس) ، قيل له معود الحكماء لقوله :

أعود مثلها الحكماء بعدي اذا ما الحق في الاشياع نابا

تاج العروس (٢/٤٤٠) ، (عود) .

وذكر أهل الأخبار ان الجاهلين الوثنيين كانوا يفتتحون كتبهم بجملة (باسمك اللهم). ساروا في ذلك على هدى (أمية بن أبي الصلت) مبتدعها وموجدها، كما في رواية تنسب الى ابن الكلبي. وذكر بعض آخر ان قريشاً كانت تستعمل هذه الجملة منذ عهد قبل الاسلام، وانها بقيت تستعملها الى ظهور الاسلام. وقد استعملها الرسول، ثم تركها، وذلك بنزول الوحي باستعمال (بسم الله الرحمن الرحيم)[1]. ونحن لا يهمنا هنا اسم مبتدع هذه الجملة، وانما الذي يهمنا منها هو ما فيها من عبارة تدل أيضاً على التوحيد. فإذا صح ان الجاهلين كانوا يستعملون هذه الجملة، فإن استعمالها هذا يدل على اعتقاد القوم بإله واحد، أي بعقيدة التوحيد، ولا يعقل بالطبع استعمال شخص لهذه الجملة في رسائله، يفتتح بها كتبه، لو لم يكن من أصحاب عقيدة التوحيد، وقد جاء في بعض الأخبار ان هذا الاستعمال متأخر، وانه حدث بعد ان تغيرت عوائد القوم في افتتاح كتبهم، فقد كانت عوائدهم القديمة افتتاح رسائلهم بأسماء آلهتهم كاللات والعزى، فرفعوا تلك الافتتاحيات القديمة واستبدلوا بها هذه الجملة الجديدة، جملة (باسمك اللهم). وعلى كل، فإن جملة (باسمك اللهم) وأمثالها إن صح انها من ذلك العهد حقاً فإنها تدل على حدوث تطور في الحياة الدينية عند الجاهليين. وإلا، فكيف يتصور استعمال هذه الجملة الموحدة مع وجود الشرك لو لم يكن قد حدث تطور فكري كبير في هذا العهد حملهم على استعمال هذه الجملة وأمثالها من الجمل والألفاظ الدالة على التوحيد[2]؟

وقد درس بعض المستشرقين هذا الموضوع، ولا سيما موضوع ورود اسم الجلالة في الشعر الجاهلي، فذهبوا في ذلك مذاهب. منهم من أيد صحة وروده في ذلك الشعر، وآمن أن الشعر الذي ورد فيه هو شعر جاهلي حقاً، ومنهم من أنكر ذلك، وأظهر أنه شعر منحول مصنوع، صنع على الجاهليين فيما بعد، ومنهم من ذهب الى أنه شعر صحيح، غير أن رواة الشعر أدخلوا اسم الجلالة فيه، ولم يكن هو فيه في الجاهلية، بأن رفعوا أسماء الأصنام وأحلوا اسم الله محلها.

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٧٥)، تاج العروس (٩/٤١١)، (لاه).

٢ «دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: اكتب باسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم».، الطبري (٢/٦٣٤)، (صلح الحديبية).

وبينما نجد أهل الأخبار ينسبون الى هؤلاء الشعراء وأمثالهم الاعتقاد بالله، نجدهم ينسبون اليهم ، الحلف بالأصنام ، والاعتقاد بها . فقد نسبوا الى (خداش بن زهير) شعراً آمن به بالله ، ثم نسبوا له قوله :

وبالمروة البيضاء يوم تبالة   ومحبسة النعمان حيث تنصرا

والمروة البيضاء، هي ذو الخلصة ، ثم هو يقسم بمحبسة النعمان ، وهو نصراني[1]. أفلا يدل هذا على وجود تنافر أو تناقض في عقيدة أمثال هؤلاء الشعراء ؟ والذي لا وقوف له على طبائع أهل الجاهلية ، يرى هذا الرأي ، أو يذهب الى أن هذا الشعر مصنوع مفتعل . أما الذي يعرف عادة العرب في القسم ، فلا يستغرب منه ولا يرى فيه تنافراً ، فقد كان الجاهليون يقسمون بكل شيء ، يقسمون بالشجر وبالحجر وبالكواكب ، وبالليل وبالنهار ، وبالأصنام ، وبعمر الإنسان وبحياتهم وبلحى الرجال ، وبالأصنام وبالمعابد ، وبالله ، وبالخبز والملح ، لا يرون في ذلك بأساً ولا تناقضاً مع عقيدتهم . هذا (عديّ بن زيد) العبادي ، يقسم بمكة ، وهو نصراني ، لا يري للكعبة في دينه حرمة ولا مكانة . أقسم بها على قاعدة العرب في القسم ، وقد أقسم بأمور أخرى من أمور أهل الجاهلية الوثنيين، ولم يذكر أحد أنه بدل دينه ، وصار وثنياً . وكذلك الأمر مع غيره من شعراء نصارى ويهود وعبّاد أصنام ، أقسموا برهبان النصارى وبأمور نصرانية ، مع أنهم كانوا عبّاد أوثان .

ومن القائلين بالرأي الأخير ، (نولدكه) . فقد ذهب الى ان رواة الشعر وحملته في الاسلام هم الذين أدخلوا اسم الجلالة في هذا الشعر ، وذلك بأن حذفوا منه أسماء الأصنام ، وأحلّوا محلها اسم الله . فما جاء فيه اسم (اللات) حل محله اسم (الله)[2] . وقد ذهب أيضاً الى ان رواة الشعر في الاسلام حذفوا من شعر الجاهليين ما لم يتفق مع عقيدتهم ، وما وردت فيه أسماء الأصنام . ومن جملة ما استدل به على أثر التغيير والتحريف في الشعر الجاهلي ورود كلمة (الرحمان) في شعر شاعر جاهلي من هذيل ، زعم ان ورود هذه الكلمة في هذا الشعر دليل

---

١ شرح ديوان لبيد (٢١) .

٢ Nöldeke, Beiträge, S. IX, ff.

كاف لاثبات أثر التلاعب فيه ، لأن هذه اللفظة اسلامية استحدثت في الاسلام ، ولا يمكن أن ترد في شعر شاعر جاهلي[1] . وقد فات (نولدكه) صاحب هذا الرأي ان الكلمة بهذا المعنى كلمة جاهلية ، وردت في نصوص المسند وفي نصوص جاهلية أخرى ، وان من جملة من استعملها (أبرهة) الحبشي في نصه الشهير المعروف بنص سد مأرب ، وان قوماً من الجاهليين تعبدوا للرحمان ، على نحو ما تحدثت عن هذه العبادة في موضع آخر من هذا الكتاب .

وادعاء أن لفظة (الله) لم تكن موجودة في الأصل ، وإنما أقحمت فيه من بعد ، وذلك بإزالة رواة الشعر لأسماء الأصنام التي ذكرها أولئك الشعراء ، واحلالهم اسم الله في محلها ، حتى ظهر ذلك الشعر وكأنه شعر شعراء موحدين يعتقدون بوجود إله واحد[2] . هو تعليل فيه شيء من التكلف ، فليس كل شعر فيه اسم الأصنام بصالح لقبول الجلالة ، فقد لا يستقيم من حيث الوزن أو المعنى بإدخال تلك اللفظة في موضع اسم الصنم . ثم إن من الشعر الجاهلي المروي في الإسلام ما بقي محافظاً على اسم الصنم دون أن يمس ذلك الاسم بسوء . ولو كان من عادة الرواة حذف اسم الأصنام عامة لما تركوا لها بقية في الشعر . ثم ما هي الفائدة التي يجنيها الرواة من طمس أسماء الأصنام ، وهم يعلمون أن أهل الجاهلية كانوا وثنيين ، يدينون بالأصنام ، وكانوا يقسمون بها ، وقد رووا أمثلة من ذلك القسم !

أما (ولهوزن) ، فيرى أن عدم ورود أسماء الأصنام في الشعر الجاهلي إلا في النادر وإلا في حالة القسم أو في أثناء الإشارة الى صنم ، أو موضع عبادة ، ليس بسبب تغيير الرواة الاسلاميين وتبديلهم لأسماء الأصنام . وإنما سببه هو أدب الجاهليين وعادتهم في عدم الإسراف والإسفاف في ذكر أسماء الآلهة الخاصة ، وذلك على سبيل التأدب تجاه الأرباب ، فاستعاضوا عن الصنم بلفظة (الله) التي لم تكن تعني إلهاً معيناً ، وإنما تعني ما تعنيه كلمة ربّ وإله . ومن هنا كثر استعمالها في القسم وفي التمني أو التشفي وأمثال ذلك من حالات[3] .

---

[1] Nöldeke, Beiträge, S. X.

[2] Werner Caskel, Das Schiksal im der Altarabische Poesie, Leipzig, 1926, S. 8, Goldziher, Abhandlungen, II, S IX-LXXVI, Ahlwardt, Bemerkungen über die Achtheit der Aletn Arabischen Gedischte.

[3] Reste, S. 217. ff.

ويرى (ولهوزن) أن لفظة (الله) كانت بهذا المعنى في الأصـــل . كانت تعني إلهاً على وجه التعميم ، دون التخصيص ، أي أنها لا تشير إلى إلـه معين . استعملتها كل القبائل بهذا المعنى ، فهي صفة تشير الى الألوهيـة المجردة ، وإن كان أفراد كل قبيلة يقصدون بها صنمهم الخاص بهم . استعاضوا بهـا عن ذكر اسم الصنم . وان استعمالها جملاً مثل : (حاشا لله) و (لله درك) و (لاها الله) ، و (تا لله) ، و (ايم الله) ، و (لحا الله) ، و (جزى الله) ، و (جعلني الله فداك) ، و (لك الله) ، و (أرض الله) ، وأمثالها ، هو من هذا القبيل ، الله فيها بمعنى الرب والإلـه . ولما كانت أداة التعريف تفيـــد التخصيص ، فدخولها في اسم الجلالة أفاد التخصيص والعلمية . وهذا ما حدث ، إذ فقدت الكلمة معناها العام ، واتجهت نحو التخصص حتى صارت بهـذا المعنى الذي صارت عليه في الاسلام[1] .

وقد ذهب مستشرقون آخرون الى صحة ورود لفظة الجلالة في الشعر الجاهلي . كما ذهبوا الى ان ورودها في القرآن الكريم أو في الحديث ، لا يمنع من ورودها في الشعر الجاهلي ، ولا يكون سبباً للطعن في ذلك الشعر ، لأن من الجاهليين من كان يؤمن بوجود إلـه هو فوق الآلهة عندهم ، فورود اسمه في شعرهم ، ليس بأمر غريب .

وورود اسم الجلالة في أشعار الجاهليين يحملنا على البحث في أصله : هل هو اسلامي محدث ، أو هو اسم جاهلي قديم ؟ وبحث مثل هـذا يجب ان يستند الى النصوص . غير اننا ويا للأسف لا نملك نصاً جاهلياً يمكن أن يفيدنا في هـــذا الباب ، فكل النصوص الجاهلية التي وصلت الينا خرس لم تنطق بشيء عن اسم الجلالة ، فليس أمامنا إلا اللجوء الى الطريقة المألوفة في مثل هذه الأحوال ، وهي الرجوع الى آراء علماء اللغة ، والى المقابلة بين العربية واللهجات السامية الأخرى . أما آراء علماء اللغة ، فإنها مثل آرائهم الأخرى في أصول الكلمات الصعبة التي على شاكلتها ، كلها حدس وتخمين . ولا يمكن أن يستنبط منها شيء تأريخي ، يرجعك الى أول عهد ظهرت فيه هذه اللفظة ، والى المراد منها . وأما المستشرقون ، فمنهم من يرى ان اللفظة عربية أصيلة ، ومنهم من يرى انها من (ألاها) Alaha

---

[1] Reste, S. 218.

ومعناها (الإلـه) بلغة (بني إرم) . أما الذين قالوا بعربيتها ، فيرون انها من (اللات) ، اسم الصنم المعروف ، تحرف وتولد منه هذا الاسم[1] .

واللفظة (الله) من أصل (إلاه) ، أي (رب) ، و (بعل) ، وهي من الألفاظ السامية القديمة . ويقال (إلهة) (إلاهة) للأنثى . لأن من الجاهليين من تعبد للآلهة الأناث . وتقابل (هـ ــ اله) (ها الاه) (هالاه) في النصوص الثمودية ، أي (الله)[2] . كما ترد هذه اللفظة في نصوص عربية أخرى مثــل النصوص اللحيانية .

ويلاحظ ان لفظة (الله) هي من التسميات التي وردت في النصوص الشمالية ، ويدل ورودها في هذه النصوص على تأثر العرب الشماليين بمــن اختلطوا بهم من الشعوب التي كانت تقيم في شمال جزيرة العرب ، وأخذهم عبادة هذا الإلـه منهم. ولم تكن هذه اللفظة اسم علم في الأصل ، ثم تخصصت على ما يظهر من النصوص المتأخرة ، فصارت تدل على إلـه معين ثم على إلـه واحد أحد هو إلـه الكون في الاسلام .

ويذكر علماء اللغة ان (لاه) الله الخلق يلوههم خلقهم ، واللآهة الحية ، منها سمّي الصنم اللات بها ، وجوز (سيبويه) اشتقاق اسم الجلالة منها . قال الأعشى :

كدعوة من أبي كبار   يسمعها لاهه الكبــار

ولاه : علا وارتفع . وسميت الشمس إلاهة لارتفاعها في السماء[3] . وذكـروا ان (ال) اسم الله ، وكل اسم آخره ال أو ايل ، فمضاف الى الله ، ومنــه جبرائيل وميكائيل[4] ، فهو (ايل) اذن ، إلـه جميع الساميين القديم .

وتعداد المواضع التي وردت فيها لفظة الجلالة أو لفظــة إلـه والإلـه في الشعر الجاهلي ، يخرجنا عن صلب الموضوع ، ويجعل البحث جافاً مملاً . غير أن في استطاعتنــا أن نقول إنها وردت في أكثر ذلك الشعر إن لم نقل فيه كله . وأن ورودها فيه يشير الى اعتقاد أصحاب ذلك الشعر بإلـه واحد قهّار هو إلـه العالمين.

---

١ Ency. Religi., I, p. 661, Ency., I, p. 302.

٢ Reste, S. 209, Mission, II, p. 557, 559, 564, Grohmann, S. 87. ff.

٣ تاج العروس (٩/٤١٠) ، (لاه) ، (٩/٣٧٤) ، (اله) .

٤ تاج العروس (٧/٢١١ وما بعدها) ، (أل) .

غير أن هذا القول يتوقف بالطبع على إثبات أن ذلك الشعر هو شعر جاهلي حقاً ، وأن من نسب اليهم قالوه من غير شك،وأنه لم يوضع على ألسنة أولئك الجاهليين .

الاعتقاد بإله واحد :

والـــذي يفهم — وذلك كما سبق أن قلت — من القرآن الكريم ومن الحديث أن قريشاً ومن كان على اتصال بهم ، أو غيرهم من قبائل أخرى ، لم يكـونوا ينكرون عبـــاده الله ، ولم يكونوا يجحدون الله ، بل كانوا يقرون بوجوده ، ويدينون له ، وإنما الذي أنكره الإسلام عليهم وحاربهم من أجله وسفه أحلامهم عليه ، هو تقربهم الى الأصنام والأوثان ، وتقديسهم لها تقديساً جعلهـــا في حكم الشركاء والشفعاء ومرتبـــة الألوهية . والاسلام لا يعترف بهـــذه الأشياء ، وهو ينكرها ، ومن هنا حاربته قريش ومن كان على هذه العقيدة من حلفائهـــا ومن القبائل التي كانت ترى رأيها . فهنا كان موطن الخلاف ، لا عقيدة الإيمان بالله[1].

وإذا أخذنا بهذا الرأي ، رأي اعتقاد الجاهليين أو بعضهم بإلـه واحد ، نكون بذلك قد حللنا عقدة الازدواجية ، أي العقيدة الثنائية عند الجاهليين ووجودها في شعرهم ، فلا نجد عندئذ غرابة إذا وجدنا شاعراً يذكر الله في شعره ويحلف به، ثم نجده يذكر الأصنام في الشعر نفسه ، ويقسم بها قسمه بالله .

ويكاد يكون الاجماع على ما تقدم . قال ابن قيم الجوزية في معرض مقارنته بين آراء المجوس وعبدة الأوثان من العرب : « بل كفر المجوس أغلظ . وعبّاد الأوثان كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ، وأنه لا خالق إلا الله ، وأنهم إنما يعبدون آلهتهم لتقربهم الى الله سبحانه وتعالى ، ولم يكونوا يقرون بصانعين للعالم أحدهما خالق للخير والآخر للشر كما تقوله المجوس »[2] . فالوثنية على هذا الرأي، ليست نكراناً لوجود إلـه ، وإنما هي اعتقاد بوجوده ، واعتقاد بفائدة التقرب اليـــه ، بتقربهم الى الأصنام والأوثان ، أي الشفعـــاء ، بما في ذلك المبالغة في تقـــديس الأشخاص والقبور .

---

١ Reste, S. 217, Lyall, Ancient Arabian Poetry, p. XXIX.

٢ زاد المعاد (٢٢٤/٣) ، (فصل في حكمه في الجزية ومقدارها وممن تقبل) .

ولا نجد للعرب إلهاً قومياً خاصاً بهم كالذي نجده عند العبرانيين من تعلقهم بـ (يهوه) ، وعدهم اياه إلهاً خاصاً باسرائيل . فقد صار هذا الإلـه إلـه جميع قبائل اسرائيل ويهوذا . أما العرب ، فقد كانوا يعبدون جملة آلهة : كل قبيلة لها إلـه خاص بها وآلهة أخرى ، ولم يكن لها إلـه واحد له اسم واحد يعبده جميع العرب . والظاهر ان القبائل الساكنة في الحجاز ونجد والعراق والشأم، صارت قبيل الاسلام تتنكر لأصنامها العديدة ، وتأخذ بالتوحيد وبالاعتقاد بإلـه واحد هو الله، وهو الذي نجده في هذا الشعر الجاهلي الذي هو حاصل تغريد شعراء قبائل عديدة مما يدل على ان قبائل اولئك الشعراء دانوا بالاعتقاد بوجود ذلك الإلـه فوق الأصنام والأوثان ، وقد توّجت هذه العقيدة بتاج النصر في الاسلام . غير ان (الله) في الاسلام يختلف عن الله الجاهليين . فالله هو إلـه العالمين ، إلـه جميع البشر على اختلافهم . ليس له شريك من أصنام وأوثان .

أما الله الجاهليين ، فهو رب الأرباب ، وإلـه الآلهة ، يسمو فوق آلهة القبائل أي آلهة القبيلة الواحدة . ولهذا ذكر في شعر شعراء مختلف القبائل ، لأنه لا يختص بقبيلة واحدة .

ويقال لما يعبد من دون الله : الأنداد . وفي كتاب النبي لأكيدر : وخلع الأنداد والأصنام . والند : مثل الشيء والنظير . وفي التنزيل : واتخذوا من دون الله أنداداً ، أي ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله[1] .

والله إلـه ذكر . وكيف لا يتصور الإنسان إلهه ذكراً ، والذكر هو قوي مقتدر بخلاف الأنثى ! وحيث أن الله هو قوي ومصدر القوة والخلق ، فلا بد وأن يكون ذكراً في عقلية تلك الأيام ، ولا بد من التعبير عنه بصيغ التذكير . كما يلاحظ أن الجاهليين قد تصوروه واحداً ، فلم يخاطبوه بصيغة الجمع ، مما يفهم منه التعدد .

ولم يتطرق الشعر الجاهلي الى موضوع وجود إلهة أي أنثى تكون زوجاً له . ولم يشر القرآن الكريم الى اعتقاد الجاهليين بوجود زوجة له . فهو في نظرهم إذن إلـه واحد متفرد لا يشاركه مشارك في حياته . وإذ كان الله واحداً أحداً أعزب، فلا يمكن أن يكون له ولد . ولكن القرآن الكريم يشير الى اعتقاد الجاهليين بوجود

---

١ اللسان (٣/٤٢٠) ، (ندد) .

بنين وبنات لله . ففي سورة الانعام : « وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون »[1] . وقد ذهب المفسرون الى أن العرب قالت الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود والنصارى عزير والمسيح ابنا الله ، وأن النصارى قالت المسيح ابن الله ، وقال المشركون الملائكة بنات الله[2] . وفي سورة النحل « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون »[3] ، وفي سورة الصافات « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون »[4] ، « ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون . اصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون »[5] . وفي سورة الزخرف «أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين»[6] وفي سورة الطور « أم له البنات ولكم البنون »[7] . وأجمعوا على أن قريشاً وأضرابهم كانوا يزعمون أن الله اصطفى الملائكة بناتاً له . ولم يذكروا كيف صاروا له بناتاً . وقد ورد في بعض الروايات أن كفار قريش قالوا : « الملائكة بنات الله . فسأل أبو بكر من أمهاتهن ؟ فقالوا : بنات سروات الجن »[8] .

وورد في بعض أقوال علماء التفسير ، ان (أعداء الله) زعموا : ان الله وابليس اخوان[9] . ولم يذكروا من هم (أعداء الله) أهم من العرب أم من غيرهم !

ويظهر ان الذين آمنوا بوجود إلـه ، تصوروا مكانه فوق الانسان ، أي فوق الأرض ، في السماء . لذلك كانوا اذا توجهوا اليه بالدعاء رفعوا أيديهم الى السماء . والسماء ، المكان المرتفع اللائق بأن يكون مقر الرب أو الأرباب . وهو اعتقاد نجده عند غير الجاهليين أيضاً . ومن هذه النظرة ظهر (بعل سمين) (بعل سمن) ، أي (رب السماء) و (إلـه السماء) المذكور في بعض نصوص المسند . وهو إلـه قبيلة (امر) (أمر) من القبائل العربية الجنوبية . الإلـه المرسل للسحاب

---

١ الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ١٠٠ .
٢ تفسير الطبري (١٩٧/٧ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٠٩/٧) .
٣ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ٥٧ .
٤ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٤٩ .
٥ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٥١ وما بعدها .
٦ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ١٦ .
٧ الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٣٩ .
٨ تفسير الطبري (٦٩/٢٣) .
٩ تفسير الطبري (٦٩/٢٣) .

ومنزل الغيث وباعث الحركة والخصب والخير للناس[1] . وقد تعبد له الصفويون كذلك ، وذكر في نصوصهم . وعرف عندهم بـ (هـ – بعل سمن)[2] .

ولهذه النظرة اتخذ زهادهم لهم معابد خلوية على قمم الجبال وعلى الهضاب والمرتفعات وابتنوا الصروح للتعبد فيها ومناجاة الرب ، واتخذوا من الكهوف المنقورة في الجبال مآوي يتعبدون فيها ويعتكفون الأيام والشهور والسنين . وكانوا اذا أمسكت السماء قطرها ، وأرادوا الاستمطار ، أصعدوا البقر في جبل وعر ، وقد أضرموا النار في السلع والعشر المعقودين في أذنابها ، وهم يتبعون آثارها ، يدعون الله ويستسقونه[3] . ولولا اعتقادهم ان الجبل أقرب الى الله من الأرض ، لما أتعبوا أنفسهم ، فصعدوا الجبل المرتفع مع بقرهم، فكان استسقاءهم من الأرض.

الجبر والاختيار :

هذا وأود ان ابين ان اكثر الذين كانوا يدينون بالتوحيد ، ويعتقدون بوجود إلـه واحد خلاّق لهذا الكون ، كانوا يؤمنون بما نسميه : « القضاء والقدر » او (الجبر) بتعبير أصح . فالخير والشر من الله ، وكل شيء في هذا الكون محتوم مكتوب . وما يصيب الانسان ، لا بد ان يكون قد كتب عليه ، ولا راد لما هو مكتوب ، بل نجد هذه النظرة حتى عند من لم يأت اسم الله في شعره ، فلا ندري أكان من المؤمنين بالله ام لا . وفكرة ان كل شيء في هذا الكون مقدر محتوم ، فكرة قديمة غلبت على عقلية الشرقيين ، بسبب الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية التي كانت سائدة اذ ذاك ، أوضاع جعلت الغالبية من الناس تشعر انها مسخرة ، وانها تدفع في حياتها دفعاً وفي سبيل خدمة النخبة المتحكمة ، المسيرة للأمور ، أضف الى ذلك تأثير عامل الجو في الانسان .

وقضية الجبر والاختيار ، قضية لا نجدها عند المؤمنين بوجود إلـه هو (الله)، أو آلهة أخرى من الجاهليين فقط ، بل نجدها عند غيرهم أيضاً ممن لم يكن يقر بعبادة (الله) ، وينكر وجود خالق ، نجدها عند ممن كان يتعبد للأصنام ،

---

١ Rep. Epigr. 4142, Grohmann, S. 245.

٢ F. V. Winnett, Safaitic Inscriptions from Jordan, p. 18, 23.

٣ ابن فارس ، رسالة النيروز (ص ١٨ وما بعدها) .

أو للقوى الخفيّة ، أو لا يدري أي شيء عن الآلهة والخلق ، أو من الدهرية ، القائلين بالدهر . فهؤلاء أيضاً كانوا يعتقدون أن الإنسان ، مسير ولا اختيار له في هذه الدنيا ، فكل شيء مكتوب عليه . كتب عليه منذ ولد . والسبب ، هو ما قلته: وجود عوامل عديدة سيرت الانسان واستعبدته من أوضاع سياسية واجتماعية وعسكرية واقتصادية ومناخية تحكمت فيه ، حتى رسخ في عقل الجاهلي ، أن كل شيء في هذه الدنيا مقدر مكتوب ، وأن ما كتب على الجبين ، لا يمكن تغييره ولا تبديل له، ولا اعتراض على ما هو مكتوب ، ولا راد لأمر كتب في السماء .

الموت :

وفي مطلع قائمة الموضوعات التي أثارت البشرية ولا تزال تثيرها قضية الموت الذي هو ضد الحياة والعالم الثاني الذي يصير اليه الانسان بعد الموت[1] . إن الموت أمر مخيف راعب يثير مشاعر كل انسان . فما الذي سيكون مصيره بعد الحياة ، وإلى أي مكان سيتجه بعد هذه الحياة ، وهل الموت انطفاء لشعلة الحياة وانحلال للجسد الى الأبد ؟ أو هو مرحلة من حياة الى حياة أخرى يحيا فيها الانسان حياة جديدة ، ويبعث بعثاً جديداً يبعثه من خلقه ؟ ثم ما الذي سيكون عليه في العالم الثاني ؟ هل يعيش عيشة راضية مطمئنة ، عيشة تفوق معيشته في عالمه الأول ؟ أم سيعيش عيشة أخرى ؟ إما راضية ناعمة ، وإما شقيّة تعسة بحسب عمل الإنسان وما قدمه لنفسه من عمل في العالم الأول ؟ هذه الأسئلة وعشرات من أمثالها شغلت بال الانسان البدائي والراقي ولا تزال تشغله . كل وجد لها أجوبة ، وكل قنع بما أجاب به عنها ، ورضي بها . وكانت للجاهليين على اختلافهم آراء في هذه المشكلات لا شك في ذلك .

والموت في كلام العرب : السكون . يقال مات بمعنى سكن[2] . وهذا هو المعنى المفهوم للموت عند الجاهليين . فالمراد من الموت هو سكون الجسد بعد مفارقة الروح له . وقد حار الجاهليون ، كما حار غيرهم في تفسير ظاهرة الموت،

---

١ المخصص (٢/٦٤) .

٢ تاج العروس (١/٥٨٦) ، (موت) .

وكيفية وقوع الموت وحدوثه . وقد اعتبره بعضهم حدثاً طبيعياً ، يحدث للانسان كما يحدث لأي شيء آخر في هذا الكون من التعرض للهـلاك والدمار . واعتبره بعض آخر ، مفارقة الروح للجسد . وهم الذين اعتقدوا بالثنائية وبالازدواجية في حياة الانسان ، أي بوجود جسد وروح . واعتبره آخرون موت للنفس ، وبوفاة النفس يتوفى الجسد ويصيبه السكون . فالموت عندهم مفارقة الروح للجسد ، فإذا مات الانسان خرجت روحه من أنفه ، او من فـه ، فينفض الانسان نَفَسَه . واذا مات ميتة طبيعية ، يقال عن الميت : مات حتف أنفه ، ومات حتف فيه ، أي ان روحه خرجت من أنفه او من فه ، وهو قليـل ، لأن النفس في نظر اهل الجاهلية تخرج بتنفسه ، كما يتنفس من أنفه . ويقـال أيضاً حتف أنفيه . وكانوا يعتقدون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، وأما القتيـل ، والجريح ، فتخرج روحه من موضع جرحه[1] .

ويقال : (زهقت نفس فلان) ، اي خرجت روحه . فهم يتصورون اذن ان روح الانسان كائن مستقل اذا فارق الجسد مات . (وفي الحديث : إن النحر في الحلق واللبّة ، وأقروا الأنفس حتّى تزهق ، اي حتى تخرج الروح من الذبيحة ولا يبقى فيها حركة)[2] .

و (الرمق) بقية الحياة ، او بقية الروح ، وآخر النفس[3] . فكأنهم تصوروا ان الشخص المريض او الجريح ، قد ودع معظم نفسه ، ولم تبق من روحه إلا بقية لا تزال في جسده ، هي الرمق .

البعث :

لم يكن كثير من الجاهليين يؤمنون بالبعث كما يتبين ذلك من القرآن الكريم . لقد كانوا يرون أن الموت نهاية ، وانهم غير مبعوثين ، وأن البعث بعد الموت شيء غير معقول ، لذا تعجبوا من قول النبي بوجود البعث والحساب . « وقالوا

---

١ تاج العروس (٦/٦٤ وما بعدها) ، (حتف) .
٢ اللسان (١٠/١٤٧) ، (زهق) .
٣ اللسان (١٠/١٢٥) ، (رمق) .

إن هي إلا حياتنا الدنيـــا وما نحن بمبعوثين »[1] ، « وأقسموا بالله جهـد ايمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[2] ، « وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورفاتاً إنّا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل :الذي فطركم أول مرة ، فسينغضون اليك رؤوسهم ، ويقولون : مـــتى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً »[3] . و « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير »[4] ، و « إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب »[5] ، و « لئن قلت إنكم مبعوثون بعـد الموت ، ليقولن الذين كفروا إن هـــذا الا سحر مبين »[6] ، و « بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون »[7] ، و « ان تعجب فعجب قولهم : أإذا كنّا تراباً أإنا لفي خلق جديد »[8] ، و (أيعدكم أنـكم اذا متّم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعـــدون . ان هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »[9] . و « قـــال الذين كفروا أإذا كنّا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا ، نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين . ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون . ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل عسى أن يكون ردف لـكم بعض الذي تستعجلون »[10] ، و « وقالوا : أإذا ضللنا في الأرض أإنّا لفي خلق جديد ، بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم

---

١ الانعام ، الآية ٢٩ .

٢ النحل ، الآية ٣٨ ، تفسير الطبري (١٠٤/٨ وما بعدها) .

٣ الاسراء ، الآية ٤٩ وما بعدها ، تفسير الطبري (١٠٤/١٤ وما بعدها) ، روح المعاني (١٢٨/١٤) .

٤ التغابن ، رقم ٦٤ ، الآية ٧ .

٥ الحج ، رقم ٢٢ ، الآية ٥ .

٦ هود ، رقم ١١ ، الآية ٧ .

٧ المؤمنون ، الآية ٨٢ ، الصافات ، الآية ١٦ .

٨ الرعد ، الآية ٥ .

٩ المؤمنون ، الآية ٣٥ وما بعدها .

١٠ سورة النمل ، رقم السورة ٢٧ ، الآية ٦٧ وما بعدها .

ملك الموت الذي وكل بكم ، ثمّ الى ربكم ترجعون »[1] . و« إن هؤلاء ليقولون: إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين »[2] .

والآيات المتقدمة وأمثالها[3] كلها حكاية عن رأي كثير من الجاهليين في نفي البعث وفي عدم امكان العودة الى حياة أخرى بعد موت يهلك الجسم ويفني العظام فيجعلها رميماً ويمحو كل أثر للجسم ، لذا كان البعث من أهم ما عارض فيه الجاهليون معارضة قاسية شديدة ، وكان من الموضوعات التي تندروا بها وسخروا وآخذوا عليها الرسول[4] . وكانوا يقولون : « إن هي إلا موتتنا الأولى التي نموتها. وهي الموتة الأولى ، وما نحن بمنشرين بعد مماتنا ولا بمبعوثين تكذيباً منهم بالبعث والثواب والعقاب » . وقالوا للرسول : « فأتوا بآبائنا الذين قد ماتوا ان كنتم صادقين ان الله باعثنا من بعد بلانا في قبورنا،ومحيينا من بعد مماتنا »[5] . وقالوا : « أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون؟ يقولون منكرين بعث الله اياهم بعد بلائهم . أئنا لمبعوثون أحياء من قبورنا بعد مماتنا ومصيرنا تراباً وعظاماً قد ذهب عنها اللحوم . أو آباؤنا الأولون الذين مضوا من قبلنا فبادوا وهلكوا ؟ »[6] .

وكان من محاججة قريش للرسول ومحاولتهم إفحامه وتعجيزه قولهم له يوم اجتمعوا به : « يا محمد ؟ فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت انه ليس من الناس احد أضيق بلداً ولا اقل ماءً ولا أشد عيشاً منا . فسلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشأم والعراق . وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول ، أحق هو ام باطل ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وانه بعثك رسولاً كما

---

١ السجدة ، رقم السورة ٣٢ ، الآية ١٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٢١/٩٦) ، روح المعاني (٢١/١١٢ وما بعدها) .

٢ الدخان ، رقم السورة ٤٤ ، الآية ٣٤ وما بعدها ، تفسير الطبري (٢٥/٧٦ وما بعدها) .

٣ هود ، ٧ ، المؤمنون ٨٢ وما بعدها ،سبأ ، ٣ وما بعدها ، الجاثية ، ٢٤ وما بعدها .

٤ الكشاف (١/٤٤٨) ، (٢/٧٤ ، ١٨٩ ، ١٩٥ وما بعدها) ، الطبرسي (٧/٣٩) ، (١٤/٧٥) ، (١٥/٥٨) .

٥ تفسير الطبري (٢٥/٧٦) ، (١/٧٨ وما بعدها) .

٦ تفسير الطبري (٢٣/٣٠) .

تقول ! »[1] . وسألوه أسئلة اخرى من هذا القبيل ، لتعجيزه في اثبات البعث . « جاء عبدالله بن أبيّ الى النبي صلى الله عليه وسلم ، بعظم حائل فكسره بيده، ثم قال : يا محمد ، كيف يبعث الله هذا وهو رميم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يبعث الله هذا ويميتك ثم يدخلك جهنم »[2] . وأتى (أبيّ بن خلف) رسول الله (بعظم حائل ففته ثم ذراه في الريـــح . ثم قال : يا محمد من يحيي هذا وهو رميم ؟ قال الله يحييه ثم يميته ، ثم يدخلك النار »[3] . و « جاء العاص ابن وائل السهمي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعظم حائل ففته بين يديه . فقال يا محمد أيبعث الله هذا حياً بعدما أرم ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ، ثم يميتك ، ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم »[4] .

وممن أنكر البعث على ما ذكره الأخباريون قوم من قريش كانوا زنادقة أنكروا الآخرة والربوبية ، أخذوا زندقتهم هذه من الحيرة[5] . وإذا كان من هؤلاء من كان يقدم القرابين والهدايا لأصنامه ، فإن ذلك لا يعني أنه كان يفعل ذلك لترضى عنه في العالم التالي ، بل كان يفعل ذلك لترضى عنه في هذه الحياة الدنيا ، لتمن عليه بالنعم والخيرات . أمـــا العالم الثاني ، فهو عالم لا يهتم به ، لأنه لم يكن يتصور وجوده ولا حدوثه بعد الموت[6] .

ويتجلى هذا الانكار للحشر والبعث في أبيات تنسب الى (شدّاد بـن الأسود ابن عبد شمس بن مالك) يرثي بها قتلى قريش يوم بدرٍ ، وهم الذين قتلوا في تلك المعركة وألقوا في القليب :

أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا   وكيف حياة أصداء وهام ؟
أيعجز أن يرد الموت عـــني   وينشرني إذا بليت عظـــامي

أراد الشاعر إنكار البعث،وأن يصير الإنسان مرة أخرى انساناً بعد أن تتحول

---

١ ابن هشام (١/١٨٦) ، (حاشية على الروض) .
٢ تفسير الطبري (٢٣/٢١) ، روح المعاني (٢٣/٥٠) .
٣ تفسير الطبري (٢٣/٢١) ، الاشتقاق (٨٠) .
٤ تفسير الطبري (٢٣/٢١) .
٥ المحبر (ص ١٦١) ، بلوغ الارب (١/٣٤٥) ، المعارف (٦٢١) .
٦ Reste, S. 185.

روح الانسان الى طير[1] .

وذكر ان (الحارث بن عبد العزى) ابو رسول الله من الرضاعة ، لما قدم مكة ، قالت له قريش : « ألا تسمع يا حار ما يقول ابنك هذا ؟ فقال : وما يقول : قالوا : يزعم ان الله يبعث بعد الموت ، وان لله دارين يعذب فيها من عصاه ، ويكرم فيها من أطاعه . فقد شتت أمرنا وفرّق جماعتنا »[2] . فهم ينكرون البعث والحساب ، ولا يريدون سماع شيء عنهما ، ولا يصدقون عودة الروح الى الجسد بعد أن فارقته ، فذلك عندهم من المستحيلات ، ولذلك سخروا من البعث لما سمعوا به . وكيف يكون بعثاً وقد فنيت الأجساد ، فلم تبق منها بقية !

فرأي من أنكر الحشر والبعث من أهل الجاهلية ، ان الحياة حياة واحدة ، هي حياتنا التي نحن فيها في دار الدنيا ، ولا يكون بعد الموت بعث ولا حساب ، نحيا ونموت ، يموت بعضنا ويحيا بعضنا ، وما يميتنا إلا الأيام والليالي ، اي مرور الزمان وطول العمر[3] . فالحياة اذن حياة وموت في هذه الدنيا ، وهي استمرار للاثنين على مدى الدهر ، يولد انسان ثم يموت ليحل محله انسان آخر ، وهكذا بلا انتهاء .

ونجد رأي الناكرين للبعث في قوله تعالى : « وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر »[4] . فهم يقولون : ما هي الا حياتنا الدنيا ، نموت نحن ويحيا أبناؤنا بعدنا ، فجعلوا حياة ابنائهم بعدهم حياة لهم ، لأنهم منهم وبعضهم ، فكأنهم بحياتهم أحياء . والدهر الزمان ، وهو الذي يهلك ويفنى[5] . فالحياة بهذا المعنى ، فعل مستمر ، وتطور لا ينتهي ، يهلك جيل ،

---

١ وهي من أبيات رويت بصور مختلفة ، وفي بعضها زيادات ، راجع ابن هشام (١/١١٣) ، هامش على الروض الانف ، كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير (ص ٣٠٨) ، « طبعة أوروبة ١٩٢٧ » ، بلوغ الارب (٢/١٩٨) ،

يحدثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟

بلوغ الارب (٢/١٩٢) .

٢ الروض الآنف (١/١٠٧) .

٣ تفسير الطبرسي (٢٥/١٣٦) ، (بيروت) ، (٢٥/٧٨) ، (طهران) .

٤ الجاثية ، الآية ٢٤ ، تفسير الطبري (٢٥/٩١) ، روح المعاني (٢٥/١٣٩) .

٥ تفسير الطبري (٢٥/٩١ وما بعدها) ، (بولاق) ، (٢٥/١٥١ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٥٤) .

ليأخذ محله الجيل الذي نبت منه . وكلٌ يأخذ دوره في هذه الحياة ، فإذا انتهى دور انسان ، قام بدوره نسله ، وهكذا ، وبهذا المعنى تفسر الحياة ، ويفسر الموت .

وقد يسأل سائل اذا كان أغلب أهل الجاهلية لا يؤمنون بثواب ولا بحساب وبعث ونشر ، فلمَ تعبّدوا اذن لإلّه ، وتقرّبوا الى الأصنام ، وقدّموا القرابين والنذور ؟ وجوابي على هذا السؤال ، هو ما ذكره المتقدمون عنه . قالوا : « كانت العرب في الجاهلية تدعو في مصالح الدنيا فقط ، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدوّ ، ولا يطلبون الآخرة ، اذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها »[1] . فعبادتهم الله وتقربهم الى الآلهة ، هي لمصلحة دنيوية ، لنفع ولزيادة في مال ، ولدفع شر الأذى والأمراض وعيون الحساد ، ومن كل ما هو شر ، أما الآخرة ، فلا علم لهم بها .

وما خوفهم من الآلهة إلا لاعتقادهم أنها تضرهم وتهلكهم وتنزل بهم الشرّ في هذه الدنيا . فإذا أقسم أحدهم كذباً ، انتقمت الآلهة منه وأنزلت به نازلة ، لذلك تجنبوا الايمان الكاذبة ، وامتنعوا من الحلف جهد إمكانهم ، لخوفهم من عاقبة الحلف الكذب . والعاقبة السيئة تكون في هذه الدنيا . وهي عواقب مادية ، لأن عقلية اكثر اهل الجاهلية لا تدرك إلا القيم المادية للأشياء . فتصوروا العاقبة السيئة تصوراً مادياً ، كنزول مرض بإنسان أو نزول كارثة بماله او بإبله أو بزرعه او بأهله ، وهي أمور يخشاها الجاهلي ، تكون معجلة في نظره ، اي في هذه الدنيا . لأنهم لا يعرفون ان في الحياة داراً غير هذه الدار ، ولا يؤمنون بحشر وبعث .

جاء في الأخبار ان (ضمام بن ثعلبة) السعدي ، ويقال التميمي ، لما قدم على الرسول ، اقبل حتى وقف على رسول الله ، وهو في اصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله : انا ابن عبد المطلب . قال : أمحمد؟ قال : نعم . قال : يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسئلة فلا تجدنّ في نفسك . قال : لا اجد في نفسي . سل عمّا بدا لك . قال انشدك بالله إلهك وإلّه من كان قبلك وإلّه من هو كائن بعدك الله امرك ان نعبده وحده

---

١ تفسير القرطبي (٢/٤٣٢) .

لا نشرك به شيئاً ، وان نخلع هذه الأوثان التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : اللهم نعم . ثم سأله عن الفرائض ، فأسلم . فلما قدم على قومه ، فاجتمعوا اليه ، (فكان أول ما تكلم به ، ان قال : بئست اللات والعزى . قالوا : مه يا ضمام اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون . قال : ويلكم انهما والله ما يضران وما ينفعان)[1] . فالعقاب عقاب مادي في هذه الدنيا ، ترسله الآلهة على الانسان .

غير ان فريقاً من الجاهليين كما يقول أهل الأخبار كان يؤمن بالبعث وبالحشر بالأجساد بعد الموت ، ويستشهدون على ذلك بـ (العقيرة) وتسمى (البلية) أيضاً . والبلية الناقة التي كانت تعقل عند قبر صاحبها اذا مات حتى تموت جوعاً وعطشاً . ويقولون انه يحشر راكباً عليها ، ومن لم يفعل معه هذا حشر راجلاً . وهذا مذهب من كان يقول منهم بالبعث ، وهم الأقل . ومنهم زهير فإنه قال :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر   ليوم حساب أو يعجل فينقم[2]

ويذكر أيضاً انهم كانوا يعكسون رأس الناقة أو الجمل أي يشدونه الى خلف بعد عقر احدى القوائم او كلها لكيلا تهرب ، ثم يترك الحيوان لا يعلف ولا يسقى حتى يموت عطشاً وجوعاً،ذلك لأنهم كانوا يرون ان الناس يحشرون ركباناً على البلايا ومشاة اذا لم تعكس مطاياهم عند قبورهم[3]،وفي هذا المعنى قال الشاعر في البلية :

والبلايا رؤوسها في الولايا   مانحات السموم حر الخدود

والولايا هي البراذع ، وكانوا يثقبون البرذعة فيجعلونها في عنق البلية وهي معقولة . وأوصى رجل ابنه عند الموت بهذه الوصية :

يا سعد اما أهلكن فإنني   أوصيك إن أخا الوصاة الأقرب

---

١ الاستيعاب (٢٠٧/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الروض الانف (٩٦/١) ، الشعر والشعراء (٧٦/١) ، (بيروت ١٩٦٤ م) .
٣ تاج العروس (٤٣/١٠) ، اللسان (٩٢/١٨) ، النهاية (١١٥/١) ، رسالة الغفران (٣٣٣ وما بعدها) ، (بنت الشاطئ) .

لا تتركـــن أباك يمشي خلفهم   تعباً يخرّ عــلى اليدين وينكب
احمل أباك عــلى بعـير صالح   وابق الخطيئة إنــه هو أصوب
ولعلّ مالي ما تركت مطيّــة   في اليم أركبها إذا قيل اركبوا[١]

وذكر أنهم كانوا يحفرون للبليـة حفرة وتشد رأسها الى خلفها وتبلى ، أي تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً . وكانت النساء ، يقمن حول راحلة الميت فينحن إذا مات أو قتل ، وقد عرفن بـ (مُبَكّيات)[٢] .

وفي رواية أن بعض المشركين كان يضرب راحلة الميت بالنار وهي حيّة حتى تموت[٣] ، يعتقدون أنهم إنما يفعلون ذلك ، ليستفيد منها الميت بعد الحشر[٤] .

وإذا كانت عقيدة الجاهليين في عقر الحيوانات المسكينة وإهلاكها قـد ماتت وزالت ، بسبب تحريم الإسلام لها ، فإن فكرة حشر الناس ركباناً لا تزال باقية حية عند بعض الناس . فالذين يقدمون (العقيقة) في الحياة أو يقدمونها حـين الوفاة ومع نقل الجنازة أو على القبر ، يختارون أحسن الحيوانات وأقواها لتتمكن من حملهم يوم المحشر ، وتنهض بهم ، فيسير راكباً ، ولا يحشر وهـو مترجل يسير في تلك الساعات الرهيبة ماشياً على قدميه .

ويقال للموت وللحساب (اللِزام)[٥] .

ولا أعتقد أن نحر الإبل على القبر وتبليله بدم الإبل المذبوحة[٦] ، مجرد عـادة يراد بها إظهار تقدير أهل الميت له ، او تمثيل كرم الراحل حتى بعـد وفاته ، بل لا بد أن يكون هذا النحر من الشعائر الدينية والعقائد الجاهلية التي لها علاقة بالموت وباعتقادهم أن موت الانسان لا يمثل فناءً تاماً وإنما هو انتقـال من حال الى حال .

---

١ الشعر لـ (جريبة بن الاشم الفقعسي) ، يوصي ابنه به وقد ورد بصور أخرى ، راجع الروض الآنف (٩٦/١) ، النهاية ، لابن الاثير (١١٥/١) ، اللسـان (٨٥/١٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٤٣/١٠) ، طبقات الامم (٤٩) .
٢ اللسان (٨٥/١٤ وما بعدها) .
٣ المخصص (١٢٢/٦) ، اللسان (١٥/١٦) ، الاغاني (١٢٢/٦) .
٤ الاغاني (٤٨/١٦) ، « أخبار زيد الخيل » ، (١٧٦/١٧) ، (بيروت ١٩٥٥) ، Reste, S. 180.
٥ تاج العروس (٥٩/٩) ، (لزم) ، المخصص (١٢٢/٦) .
٦ الاغاني (٨٨/١٩) .

وذكر (السكّري) ، أن أكثر العرب كانوا يؤمنون بالبعث . واستشهد على ذلك بشعر للأعشى ، ذكر فيه الحساب . كما ذكر أنهم كانوا يؤمنون بالحساب، واستشهد على رأيه هذا بشعر للأخنس بن شهاب التميمي[1] . وقول (السكري) هذا مردود، بما ورد في القرآن الكريم من إنكار أغلبهم للحساب والبعث والكتاب، وأما الذين قالوا بالبعث ، فهم طائفة لا تصل الى مستوى الكثرة أو الكلّ حتى نستعمل صيغة التعميم .

وإذا كان ما تصوره أهل الجاهلية عن البعث والحشر صحيحاً على نحو ما ذكره أهل الأخبار ، فلا يستبعد أن يكون القائلون بـه أو بعضهم قد تصوروا الحساب على نحو ما يحاسب الانسان على عمله في دنياه . ويلاحظ أن القيامة والبعث والحشر والجنة والنار هي من الكلمات العربية التي لا يستبعد أن يكون لها مفهوم قريب من مفهومها الإسلامي عند الجاهليين .

أما كيف تصور أولئك الجاهليون حدوث البعث والحشر ، هل هو قصاص وثواب وعقاب وحساب وجنّة ونار، أو هو بعث وحشر لا غير ، فأهل الأخبار لم يأتوا عنه بجواب ، ولم يذكروا رأي تلك الفئة المقرة بالبعث والحشر في ذلك. ولهذا فليس في استطاعتنا إعطاء صورة واضحة عن الحشر وعمّا يحدث بعده من تطورات وأمور .

ولم تتحدث الكتابات الجاهلية عما سيحدث للانسان بعد موته . وكل ما ورد فيها هو توسل الى الآلهة بأن تنزل غضبها على كل من يحاول تغيير قبر ، أو ازالة معالمه ، أو دفن ميت غريب فيه ، وان تنزل به الأمراض والآفات والهلاك. ولم تذكر تلك النصوص السبب الذي حمل أهل القبور على التشدد في المحافظة على القبر وعلى ضرورة بقائه ودوامه . فلا ندري اذا كان ذلك عن تفكير بوجود بعث ، وبتصور قيام الميت من قبره مرة أخرى ، ورجوعه ثانية الى الحياة ، او الى عالم ثانٍ ، هو عالم ما بعد الموت ، ولهذا حرصوا حرصاً شديداً على عدم السماح بدفن أحد في قبر ، إلا اذا كان من أهل صاحب القبر ومن ذوي رحمه، حتى لا يتأذى الميت من وجود الغرباء ، وليستأنس بأهله وبذوي قرابته مرة أخرى بعد عودة الحياة اليه ، فيرى نفسه محشوراً معهم ، ومع من أحبه في حياته، عائشاً

---

١ المحبر (٣٢٢) .

معهم ، كما كان قد عاش معهم ، أو ان حرصهم على حرمة القبر ، انما كان عن مراعاتهم لحرمة القبر ، وعلى منزلة الموتى ، فالمسّ بحرمة القبر ، مسّ بحرمة الميت ، وانتهاك لمقامه ولمكانته ، ولما كان عليه في هذه الحياة !

وهناك من كان يعتقد ان الميت وان غيب في قبره وانقطعت علاقته بآله وذويه ، الا ان روحه لن تموت ، وانه يظل وهو في قبره يقظاً ، متتبعاً لأخبار أهله . تخبره بها هامته التي تكون عند ولد الميت في محلته بفنائهم ، لتعلم ما يكون بعده فتخبره به ، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه :

هامي تخبّرني بما تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمكروها [1]

وأما ما ورد في الشعر الجاهلي من أمر الحشر والنشر والحساب والكتاب والعالم الثاني ، فهو مما ورد ودوّن في الاسلام ، ولم أجد في رواية من روايات أهـل الأخبار ان أحداً من رواة الشعر الجاهلي ، ذكر انه نقل ما نقل من هذا الشعر من ديوان جاهلي ، أو من كتاب كتب قبل الاسلام . ومـع ذلك ، فإن هذا المروي عن العالم الثاني قليل ، لذلك لا نتمكن لقلتـه من تكوين صورة واضحة عن ذلك العالم ومن التحدث بطلاقة عن رأي أصحاب هذا الشعر في الحشر والنشر والبعث .

وأما ما ورد في شعر (أميّة بن أبي الصلت) عن الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار ، فهو أوسع ما ورد في الشعر الجاهلي في هذا الموضوع . وأمية ، هو الشاعر الجاهلي الوحيد الذي جاء أكثر شعره في نزعات دينية وفكرية ، ذلك لأنه كان في شك من عبادة قومه ، وكان على شاكلة غيره ممن سئم تلك العبادة ، ينهى قومه عنها ، ويسفه أحلامها ، وقد تأثر باليهودية وبالنصرانية . وفي شعره اعتقاد بالجنة والنار والبعث . وبصحة المعاد الجسماني ، وبوجود الجنة والنار بالمعنى الحقيقي ، لا المجازي ، وهو يتفق في ذلك مع الإسلام . كما تحدثت عـن ذلك في الفصل الخاص بالأحناف .

وكان (الأعشى) ممن يؤمن بالله وبالحساب ، وقد استشهد من قال ذلك عنه

---

[1] مروج (١٣٣/٢) .

بأبيات شعر تشعر أنه كان يؤمن بالحساب وبقيام الانسان بعد الموت لمحاسبته على عمله . من ذلك قوله :

يراوح مـن صلوات المليك   طوراً سُجوداً وطوراً جُؤارا
بأعظم منك تُقى في الحساب   إذا النسمات نفضن الغبـارا [1]

وكان (زهير بن أبي سلمى) على مذهب من كان منهم يقول بالبعث ، وهم الأقل[2] قال :

يؤخر فيوضع في كتابٍ فيدخر   ليوم الحساب أن يعجل فينقم[3]

وكان (حاتم) طيء من المتألهين ، ومن المعتقدين بالحساب . وقد أورد أهل الأخبار له شعراً في ذلك[4] .

البلية والحشر :

ولم يذكر أهل الأخبار كيف تصور القائلون بالقيامة وبالحشر من أهل الجاهلية قيام الموتى ومشيهم الى المحشر . فقد ذكروا ان قومـاً من الجاهليين كانوا اذا مات أحدهم عقلوا ناقة على قبره وتركوها حتى تبلى ، وتسمى لذلك (البلية) . وقالوا : « البلية كغنيّة الناقة التي يموت ربها ، فتشد عند قبره ، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً أو يحفر لها وتترك فيهـا الى ان تموت ، لأنهم كانوا يقولون صاحبها يحشر عليها ، و (كانوا يزعمون ان الناس يحشرون ركباناً على البلايا ومشاة اذا لم تعكس مطاياهم عند قبورهم) . وذكر أنهم (كانوا في الجاهلية يعقرون عند القبر بقرة أو ناقة أو شاة ، ويسمون العقيرة البلية) ، (وفي فعلهم هذا دليل على انهم كانوا يرون في الجاهلية البعث والحشر بالأجساد. وهم الأقل . ومنهم زهير)[5] . وفي هذا المعنى يقول جريبة بن أشيم[6] :

---

١ رسالة الغفران (١٨٠) .
٢ الروض الانفا (٩٦/١) .
٣ الروض الانف (٩٦/١) .
٤ رسالة الغفران (٤٨٨) .
٥ تاج العروس (٤٣/١٠ وما بعدها) ، (بلى) ، القاموس (٣٥٠/٤ وما بعدها) .
٦ اللسان (٦٢٥/١٢) ، (هوم) ، تاج العروس (١١٢/٩) ، (هيم) ، (جريبة بن الاشيم الفقعسي) ، بلوغ الارب (٣٠٧/٢) .

يا سعدُ إمـا اهلكنّ فإنني أوصيك أن أخا الوصاة الأقربُ
لا أعرفن أباك يحشر خلفكم تعباً يخرّ على اليدين وينكب
واحمـل أباك على بعير صالح وتقى الخطيئة انه هو أصوب
ولعلّ لي مما جمعت مطيّة في الحشر أركبها اذا قيل: اركبوا[1]

ومن ذلك قول عمرو بن زيد المتمني يوصي ابنه عند موته في البلية :

أبنيّ زوّدني اذا فارقتني في القبر راحلةً برحل فاتر
للبعث أركبها اذا قيل : اظعنوا مستوثقين معاً لحشر الحاشر
من لا يوافيه على عثراته فالخلق بين مدفع أو عاثر[2]

وقال عويمر النبهاني :

أبنيّ لا تنسَ البليّة إنها لأبيك يوم نشوره مركوب[3]

وأوصى رجل ابنه عند الموت بهذا :

لا تتركنّ أباك يحشر مرة عدواً يخر على اليدين وينكب[4]

وطريقتهم في ذلك أن أحدهم اذا مات ، بلوا ناقته ، فعكسوا عنقها الى مؤخرتها مما يلي ظهرها ، أو مما يلي كلكلها أو بطنها ، ويأخذون وليّة فيشدون وسطها ، ويقلدونها عنق الناقة ، ويتركون الناقة في حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت، وربما أحرقت بعد موتها ، وربما سلخت وملء جلدها ثماماً[5] .

قال شاعر في البليّة :

والبلايا رؤوسها في الولايا مانحات السموم حر الخدود

---

١ اللسان (١٢/٦٢٤) ، (هوم) ، تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٧ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٠٩) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٠٩) .
٤ الروض الآنف (١/٩٦) .
٥ بلوغ الارب (٢/٣٠٧) ، اللسان (١٤/٨٥ وما بعدها) ، (بلا) .

والولايا هي البراذع . وكانوا يثقبون البرذعة ، فيجعلونها في عنق البليّة وهي معقولة حتّى تموت[1] .

أما كلمة (جهنم) ، فيرى العلماء أنها من الكلمات المعربة . ويظن المستشرقون أنهـا من أصل عبراني[2] . ومن أسماء جهنم على رأي علماء اللغة (الهاوية)[3] . و (أم الهاوية)[4] .

---

١ الروض الأنف (١/٩٦) .
٢ المعرب ، للجواليقي (ص ١٠٧) « طبعة دار الكتب المصرية » ، Ency., I, p. 998.
٣ اللسان (٢٠/٢٥٠) .
٤ المخصص (١١/٣٨) .

الفصل الخامس والستون

الروح والنفس والقول بالدهر

ويحملنا قول بعض الجاهليين بوجود البعث ، وبالصدى والهامة ، على التحرش بموضوع الروح وماهيتها عند أهل الجاهلية ، وعن كيفية تصورهم لها . وقد سأل أهل مكة الرسول عن ماهية الروح ،فنزلت الآية : « ويسألونك عن الروح ، قلِ : الروحُ من أمر ربي ،وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً »[1]. ويذكر المفسرون أن اليهود حرضوهم على توجيه هذا السؤال الى الرسول ، امتحاناً واحراجاً له[2]. وفي سؤالهم له عن الروح معنى اهتمام القوم بالموضوع ، ومحاولة إثارة مشكلة للرسول كانت مهمة في أعين الناس يومئذ ، مما يدل على أهمية هذه القضية في ذلك العهد . وورد أن يهود يثرب هم الذين سألوه عن أمر الروح ما هي؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ فنزل الوحي عليه بالآية المذكورة[3] .

و (الروح) في تعريف علماء اللغة ما به حياة الأنفس ، والذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة . وذهب بعضهم الى ان الروح والنفس واحد ، غير ان

---

١ الاسراء ، الآية ٨٥ .

٢ القرطبي ، الجامع (١٠/٣٢٥) .

٣ تفسير الطبري (١٥/١٠٤ وما بعدها) ، القرطبي ، الجامع (١٠/٣٢٣ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (١٥/٩٣) ، (بيروت ١٩٥٦) ، تفسير ابن كثير (٣/٦١) ، تفسير البيضاوي (١٥/٣٨٢) ، تفسير أبو السعود (٢/٢٣٠) ، تفسير السيوطي (٤/١٩٩ وما بعدها) ، تفسير الكشاف (٢/١٩٧) ، ارشاد الساري (٧/٢١٢) .

الروح مذكر والنفس مؤنثة[1] . وقال بعض آخر الروح هو الذي بـه الحياة ، والنفس هي التي بها العقل ، فإذا نام النائم قبضت نفسه ، ولم يقبض روحه ، ولا يقبض الروح إلا عند الموت . وذكـر بعض العلماء : لكل انسان نفسان : احداهما نفس التمييز ، وهي التي تفارقه اذا نام ، فلا يعقل بها ، والأخرى نفس الحياة ، واذا زالت زال معها النفَس ، والنائم يتنفس . وقد يراد بالنفس الدم ، وفي الحديث : ما ليس لـه نفس سائلة ، فإنه لا ينجس المـاء اذا مات فيه . فعبر عن الدم بالنفس السائلة ، وكما ورد في قول السموأل :

تسيل على حد الظبات نفوسنا   وليست على غير الظبات تسيل

وانما سمّى الدم نفساً لأن النفس تخرج بخروجه[2] .

وقد يعبر بها عن الانسان جميعه ، وعن الجسد[3] . وهناك كلمة أخرى ترد في معنى (الروح) ، هي (النسيم) . و (النسم) نفس الـروح كالنسمة ، يقال ما بها نسمة ، أي نفس ، وما بها ذو نسم ، اي ذو روح . والنسم نفس الريح اذا كان ضعيفاً كالنسيم[4] . وقد ربطوا بين النسيم والروح ، لمـا كان قد علق في أذهانهم اذ ذاك من ان الروح نوع من انواع النسيم ، وهو النفس الذي يتنفسه الانسان ، ومن ان النفس من النسم كذلك ، وان بـين التنفس والنفس صلة . والتنفس يكون بالنسيم . ولهذا قالوا لمن يموت موتاً طبيعياً : (مات حتف أنفه) ، و (مات حتف فيه) ، والحتف الموت ، لأن نفسه يخرج بتنفسه من أنفه او فيه . ولأنهما نهاية الرمق ، ومنهما يكون التنفس[5] .

ويظهر من دراسة معاني الكلمات المذكورة ، أن لفظـة (نفس) هي بمعنى الإنسان والجسد في الشعر الجاهـلي القديم ، أما (الروح) ، فبمعنى النفس ،

---

١ تاج العروس (١٤٧/٢) ، (روح) .
٢ اللسان (٢٣٣/٦ وما بعدها) ، (نفس) .
٣ اللسان (٢٣٤/٦ وما بعدها) ، (نفس) .
٤ تاج العروس (٧٤/٩ وما بعدها) ، (نسم) ، اللسان (٤٦٢/٢) ، تـاج العروس (١٤٧/٢) .
٥ تاج العروس (٦/حتف) .

أي التنفس واستنشاق الهواء والريح[1] . وتقابل لفظة (نفس) لفظة (نيفش) Nephesh في العبرانية ، وتطلق على نفس كل كائن حي ، من إنسان أو حيوان، وبهذا المعنى وردت في العهد القديم[2] . وتقابل لفظة Soul في الانكليزية و Seele في الألمانية . وقد استعملت لفظة Psyche اليونانية بمعنى نفس في العهد الجديد[3] . ومن هذه اللفظة اليونانية أخذ العلماء مصطلحهم Psychology Psychologie ، أي علم النفس ، ثم مصطلحات العلوم الأخرى المتعلقة بموضوع النفس . وهي في الوقت الحاضر علوم عديدة .

أما لفظة (الروح) ، فتقابل كلمة (روح) Ruach في العبرانية ، ولفظة Spirit في الانكليزية ، و Geist في الألمانية . وتكون في مقابل النفس في علم النفس، وتقابل لفظة Pneuma في اليونانية ، ومعناها الهواء والريح والنفس .

ونجد بين المعاني التي ذكرها علماء العربية للألفاظ المذكورة ، وهي : النفس، والريح ، والهواء ، والنسيم ، وبين المعاني الواردة في اللغات الأعجمية عنها شبهاً كبيراً ، يرجع الى وجهة نظر الإنسان في تفسير مظاهر الحياة ، وشعوره بوجود شيء في نفسه خارج عن حدود المادة ، أي عن الجسم او الجسد ، لا يمكن أن يمسكه ولا أن يلمسه ، فسمّاه (نفساً) تارة وسماه (روحاً) تارة أخرى ، وفرق بين الاثنين تارة ثالثة . وقد تصور أن النفس والروح ، شيئان لهما علاقة بالحياة . فنسب الحياة اليهما او الى أحدهما . ونظراً الى أنهما غير محسوسين ، ولا يمكن الامساك بهما أو لمسهما ، تصورهما الانسان تصوراً يختلف باختلاف درجة مداركه ومقدار ثقافته ودرجة ما توصل اليه من علم في ذلك الوقت .

وقد تصور اليونان النفس ، على انها هواء ونسيم ، وتصوروها على هيأة طائر صغير في شكل الانسان ، او على شكل طير ، او فراشة[4] . وهو تصور عرف عند غيرهم ايضاً ، بل يكاد يكون الغالب على الناس . ولا زال الناس يصورون الروح على هيأة طائر ، يسبح في الفضاء ، فإذا مات الانسان صعدت روحه الى خالقها ، او الى السماء . فالأرواح طيور تكون في الانسان ، اذا انفصلت عن

---

١ Shorter Ency., p. 433.

٢ التكوين ، الاصحاح الاول ، الآية ٢٠ .

٣ انجيل متى ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٢٦ . Hastings, p. 872.

٤ H. Schmidt, Philosophisches Wörterbuch, S. 518.

الجسد مات ، وأخذت هي تطير مرفرفة في الأعالي . وبهذا الرأي أخذ بعض الجاهليين تفسير النفس . تصوروا (النفس طائراً ينبسط في الجسم ، فإذا مات الانسان او قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً بصدح على قبره) . (وكانوا يزعمون ان هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبداً مستوحش،ويوجد في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور ، وانها – أي النفس – لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم ما يكون من بعده فتخبره)[1] . وزعموا انه اذا قتل قتيل ، فلم يدرك به الثأر خرج من رأسه طائر كالبومة ، وهي الهامة ، والذكر الصدى ، فيصيح على قبره اسقوني اسقوني ، فإن قتل قاتله كفّ عن صياحه . وكان بعضهم يقول ان عظام الموتى تصير هامة وتطير. وذكر ان الصدى حشو الرأس ، ويقال لها الهامة أيضاً ، او الدماغ نفسه[2] .

وكان من زعم بعض الجاهليين ، ان الانسان اذا مات او قتل اجتمع دم الدماغ او أجزاء منه ، فانتصب طيراً هامة،ترجع الى رأس القبر كل مئة سنة[3] . ويرجع هذا الرأي الى عقيدة قديمة تعتبر الدم مقراً للنفس ، بل تجعل الدم في معنى النفس ، والنفس في معنى الدم ، وذلك للصلة الوثيقة الكائنة بين الدم والنفس ، ولأن الانسان اذا قتل سال دمه ، فتخرج روحه بخروج الدم من الجسم ، اي خروج النفس من الدم ، بعد ان كانت كامنة فيه . ويمثل هذا الرأي رأي العبرانيين ايضاً في النفس وفي صلتها بالدم ، ورأي غيرهم من الشعوب[4] .

وكان اعتقادهم أن مقر الدم ومركز تجمعه في الدماغ ، ومن هنا قيل : بنات الهام : مخ الدماغ[5] ، فلا غرابة إذا تصوروا ان الروح تنتصب فيه ، فتكون هامة تخرج من الرأس ، وتطير . ويكون خروجها من الأنف او الفم ، لأن النفَس يكون منها . فتتجمع الأرواح حول القبور ، ويكون في وسعها مراقبة أهل الميت وأصدقائه ونقل أخبارهم اليه . ولهذا السبب ، تصوروا المقابر مجتمع

---

١ بلوغ الارب (٢/٣١١) .

٢ تاج العروس (١٠/٢٠٧) ، (صدى) ، (٩/١١٢) ، اللسان (١٦/١٠٨) ، المعاني الكبير (٢/٩٥١ ، ١٠٠٨ وما بعدها) .

٣ بلوغ الارب (٢/١٩٩ ، ٣١١) ، الروض الأنف (٢/١٠٩) .

٤ Hastings, p. 101.

٥ اللسان (١٢/٦٢٥) ، (هوم) .

الأرواح ، تطير فيها مرفرفة حول القبور . والى هذه العقيدة أشير في شعر أبي دُواد :

سلّط الموت والمنون عليهم فلهم في صدى المقابر هام

وكذلك في شعر للشاعر لبيد :

فليس الناس بعدك في نقيرٍ وليسوا غير أصداء وهام [1]

ولهذا سمّوا الدماغ (الطائر) لأنهم تصوروه على صورة طير . قال الشاعر :

همُ أنشبوا صم القنا في نحورهم وبيضاً تقيض البيض من حيث طائر

عنى بالطائر الدماغ . وعبر عنه للسبب المذكور بـ (الفرخ)[2]

وورد أن (الصدى) ما يبقى من الميت في قبره ، وهو جثته[3] ، وقيل : حشوة الرأس ، أي دماغ الانسان الهامة والصَّدَى . وكانت العرب تقول إن عظام الموتى تصير هامة فتطير . وقال بعض الأخباريين : إن العرب تسمي ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت اذا بلي ، الصدى[4] .

وقد نهى الإسلام عن الاعتقاد بالصدى والهامة . ورد في الحديث: « لا عدوى، ولا هامة ، ولا صفر »[5] .

وذكر بعض العلماء أن المراد من (صفر) في الحديث النبوي المذكور دابة يقال إنها أعدى من الجرب عند العرب ، فأبطل النبي أنها تعدي . وقال بعض آخر أراد به النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وهو تأخيرهم المحرم الى صفر في تحريمه وجعل صفر هو الشهر الحرام ، فأبطله الرسول[6] .

---

١ اللسان (١٢/٦٢٤ وما بعدها) ، (هوم) ،تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) .
٢ تاج العروس (٢/٢٧٢) ، (فرخ) ، (٣/٣٦٤) ، (طير) .
٣ قال النمر بن تولب ، وهو من المخضرمين :
أعاذل أن يصبح صداي بقفرة بعيدا نآني ناصري وقريبي
البرقوقي (ص ٧٥) .
٤ أضربك حيث تقول الهامة اسقوني
البرقوقي (ص ٧٦) .
٥ اللسان (١٢/٦٢٤) ، (هوم) ،تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) .
٦ اللسان (٦/١٣٣) ، (٤/٤٦٣) ، (صفر) ، (صادر) .

وقد لخص (المسعودي) آراء أهل الجاهليــة في النفس والروح ، فقال : « كانت للعرب مذاهب في الجاهلية في النفوس ، وآراء يتنازعون في كيفياتها ، فنهم من زعم ان النفس هي الدم لا غير ، وان الروح الهــواء الذي في باطن جسم المرء منه نفسه ، ولذلك سمّوا المرأة منه نفساء ، لما يخرج منها من الدم ، ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفسٌ سائلة اذا سقط في الماء : هل ينجسه ام لا ؟ قال تأبطَ شراً لخاله الشنفرى الأكبر وقد سأله عن قتيل قتله ، كيف كانت قصته ؟ فقال : ألجمته عضباً ، فسالت نفسه سكبــاً . وقالوا ان الميت لا ينبعث منه الدم ، ولا يوجد فيه ، بدأ في حال الحياة ، وطبيعته طبيعة الحياة والنماء مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات بقي اليبس والبرد ، ونفيت الحرارة »[1] .

ثم تطــرق (المسعودي) الى رأي من قال ان النفس طائر ينبسط في جسم الانسان ، فإذا مات او قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً اليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً ، يسمونه الهام ، والواحدة هامة[2] .

ونظراً الى قلة ما لدينا من موارد عن الروح والنفس وعلاقتها بالجسد ، عند الجاهليين ، فإننا لسنا في وضع نستطيع فيه ان نتحدث عن رأي عموم الجاهليين في تركيب الانسان . هل هو من (جسد) و (روح) ، أو (جسد) و (نفس) أي ثنائــي التركيب ، او انه من (جسد) و (روح) و (نفس) ، اي ثلاثي التركيب . فقد رأينا انهم يجعلون الــروح والجسد شيئاً واحداً أحيانــاً ، ويفرقون بينهما أحياناً اخرى . ولكننا نستطيع ان نقول ان غالبيتهم كانت ترى ان الانسان من جسد ، هو الجسم ، أي مادة ، ومن شيء لطيف ليس بمـادة هو الروح او النفس ، وهما مصدرا القوى المدركة في الانسان ومصدرا الحياة . وان بانفصالها عن الجسد ، او بانفصال الجسد عنها يقع الموت .

ويظهر من مخاطبات الوثنيين للأصنام ، كأنهم كانوا يتصورون أن لها روحاً وأنها تسمع وتجيب . ومن الجائز حلول الروح في الجماد . وقد ورد عن (ابن الكلبي) عن (مالك بن حارثة) أن والد مالك هذا كان يعطيه اللبن ، ويكلّفه

---

١ مروج (١٣٢/٢) .
٢ مروج (١٣٣/٢) .

بأن يذهب به الى الصنم ود ليسقيه،فكان مالك يشربه سراً ويبخل به على صنمه[1]. واذا صح خبر ابن الكلبي هذا ، فإنه يدل على (حارثة) ، وربما غيره أيضاً من عبدة الأصنام ، كان يرى ان الصنم يعقل ويدرك ، يسمع ويرى ، وانه وان كان من حجر ، إلا أنه ذو روح . كما ورد أن من المشركين من كان يرى أن الشمس ملك من الملائكة ذات نفس وعقل[2] .

ويتبين من تشديد النبي في تسوية القبور مع الأرض ، ومن لعن المتخذين على القبور المساجد والسُرُج ، ومن النهي عن الصلاة الى القبور ، ومن حديث : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[3] ، ان المشركين كانوا يقدسون قبور اسلافهم ، ويتقربون اليها ، لزعمهم انهم أحياء ، لهم أرواح ؛ تعي وتسمع وتدرك ، وتفرح وتغضب وتجيب ، وتنفع وتضر ، ولهذا حاربها الرسول ، وأمر بتسوية القبور ، ابعاداً عن أمر الجاهلية في ذلك ، وخشية العودة الى ما كانت عليه : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى »[4] ، تعبير عن معنى هذه المشاركة وعن رأيهم في عبادة الأصنام .

الرجعة :

واعتقد قوم من العرب في الجاهلية بالرجعة: اي الرجوع الى الدنيا بعد الموت. فيقولون ان الميت يرجع الى الدنيا كرة أخرى ويكون فيها حياً ، كما كان[5] . ولعل هذه العقيدة هي التي حملت بعض الجاهليين على دفن الطعام وما يحتاج الانسان في حياته اليه مع الميت في قبره ، ظناً منهم ، انه سيرجع ثانية الى هذه الدنيا ، فيستفيد منها ، فلا يكون معدماً فقيراً . ويفهم من كتب الحديث ان من الناس

---

١ بلوغ الارب (٢/٢١٤) .
٢ بلوغ الارب (٢/٢١٥) .
٣ بلوغ الارب (٢/٢١٤) .
٤ الزمر ، الرقم ٢٩ ، الآية ٣ .
٥ تاج العروس (٥/٣٤٨ وما بعدها) ، (رجع) ، (والرجعة : مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم . ومذهب طائفة من فرق المسلمين من أولي البدع والاهواء ، يقولون ان الميت يرجع الى الدنيا ويكون فيها حيا كما كان) ، اللسان (٨/١١٤) ، (رجع) .

من سأل الرسول عن الرجوع الى هذه الدنيا [1] ، مما يشير الى معرفة القوم عند ظهور الاسلام بهذا الرأي .

و « لمّا توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام عمر بن الخطاب ، فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله توفي،وان رسول الله والله ما مات، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع بعد ان قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن ايدي رجال وأرجلهم يزعمون ان رسول الله مات » . ثم جاء (أبو بكر) « وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ؟ فأنصت ، فأبى إلا ان يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ايها الناس ، انه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه الآية : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل[2] .. الى آخر الآيـة » . « وقال عمر : والله ما هو إلا ان سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت حتى وقعت على الأرض ، ما تحملني رجلاي ، وعرفت ان رسول الله قد مات » .

وقد اعتقد بعض الجاهليين بـ (المسخ) . وهو تحول صورة الى صورة أخرى أقبح ، وتحول انسان الى صورة أخرى أقبح ، او الى حيوان . كأن يصير إنسان قرداً ، او حيواناً آخر[3] ، او الى شيء جماد . من ذلك ما يراه بعض أهل الأخبار عن (اللات) ، من انه كان رجلاً يلت السويق عند صخرة بالطائف، فلما مات قال لهم (عمرو بن لحيّ) ، إنه لم يمت ، ولكنه دخل الصخرة ،ثم أمرهم بعبادتها وبنى بيتاً عليها يسمى اللات[4] . وما رووه ايضاً عن (أساف) و (نائلة) ، من أنهما كانا رجلاً وامرأة ، عملا عملاً قبيحاً في الكعبة،فمسخا حجرين[5] . وما رووه من أن (سهيلاً) كان عشاراً على طريق اليمن ظلوماً ،

---

١ النهاية (٢/٧٢) ، (رجع) .
٢ سورة آل عمران ، الآية ١٤٤ (٢٢ الطبري (٣/٢٠٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٢/٢٧٩) ، (مسخ) .
٤ تاج العروس (١/٥٨٠) ، (لت) .
٥ تاج العروس (٦/٤٠ وما بعدها) . (اسف) ، اللسان (١٠/٣٤٨) ، الاصنام (٩ ، ٢٩) ، الروض الآنف (١/٦٤) ، المحبر (٣١٨) .

فسخه الله كوكباً[1] .

وورد أن بعض الملائكة عصى الله فأهبط الى الأرض في صورة رجل تزوّج أم جرهم فولدت له جرهماً . وأن ما تولد بين الملك والآدمي يقال له (العلبان)[2]. وان (النسناس) جنس من الخلق يثب أحدهم على رجل واحدة ، أصلهم حيٌّ من عاد عصوا رسولهم فسخوا نسناساً ، لكل إنسان منهم يد ورجل من شق واحد ، ينقزون كما ينقز الطائر ويرعون كما ترعى البهائم[3] .

وقد ذكر (الجاحظ) أمثلة من امثلة المسخ التي وقعت للحيوان على اعتقاد الناس ، من ذلك : اعتقادهم ان السمك (الجريّ) والضباب كانتا أمتين من الأمم مسختا . واعتقادهم ان (الإربيانة) كانت خيّاطة تسرق السلوك ، وانها مسخت وترك عليها بعض خيوطها لتكون علامة لها ودليلاً على جنس سرقتها ، ومن ان (الفأرة) كانت طحّانة ، والحية كانت في صورة جمَل ، وان الله عاقبها حتى لاطها بالأرض ، وقسم عقابها على عشرة اقسام ، حين احتملت دخول ابليس في جوفها حتى وسوس الى آدم من فيها . ومن ان الإبل خلقت من أعناق الشياطين ، وان الكلاب امة من الجن مسخت ، وان الوزغة والحكأة من ممسوخ الحيوان[4] .

ومن أمثلة المسخ : جرهم ،فقد زعم ان جرهماً كان من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم . وكان بعض الملائكة قد عصى الله ، فأهبط الى الأرض في صورة رجل ، تزوج أم جرهم فولدت له جرهماً[5] . وزعموا ان سهيلاً كان عشاراً باليمن ، فلما ظلم مسخه الله نجماً[6] . و (الزهرة) ، وقد زعموا انها كانت بغياً عرجت الى السماء فسخها الله شهاباً[7] . و (البسوس) ، وقد زعموا انها كانت امرأة مشؤومة اسمها : البسوس ، أعطي زوجها ثلاث دعوات مستجابات، وكان له منها ولد ، فكانت محبّة له . فقالت اجعل لي منها دعوة واحدة . قال : فلكِ واحدة . فماذا تريدين ؟ قالت : ادع الله ان يجعلني أجمل امرأة

---

١ تاج العروس (٣٨٤/٧) ، (سهل) ، الحيوان (٢٩٧/١) .
٢ الحيوان (١٨٧/١) ، (٧٠/٤) ، حاشية (٦) .
٣ تاج العروس (٢٥٧/٤) ، (نس) .
٤ الحيوان (١٥٢/١ ، ٢٩٧) ، (٦٨/٦ ، ١٥٥) ، (٦٨/٤) .
٥ الحيوان (١٨٧/١) ، (٦٩/٤) ، الروض الآنف (٩٧/١) .
٦ الحيوان (٢٩٧/١) ، (٦٩/٤) .
٧ الحيوان (٦٩/٤) .

في بني اسرائيل . ففعل فرغبت عنه ، لما علمت أن ليس فيهم مثلها ، فأرادت سيئاً . فدعا الله تعالى عليها أن يجعلها كلبة نبّاحة ، فذهبت فيها دعوتان . فجاء بنوها ، فقالوا : ليس لنا على هذا قرار،قد صارت أمنا كلبة يعيرنا بها الناس : فادع الله تعالى ، أن يردهـــا الى حالها التي كانت عليها ، ففعل . فعادت كما كانت : فذهبت الدعوات الثلاث بشؤمها ، وبها يضرب المثل[1] .

ونجد عقيدة (المسخ) عند غير العرب أيضاً . ففي التوراة أن الله مسخ امرأة لوط ، فصارت عمود ملح[2] . ونجدها عند الهنود وعند غيرهم من الأمم القديمة . وقد تسرب من اليهودية الى العرب المسلمين كثير من القصص الوارد في المسخ .

وقـــد أنكر بعض المتكلمين (المسخ) ، وأنكره قوم آخرون ، لكنه جوّزوا (القلب) . وهو أن يُقلب ابن آدم قرداً من غير أن ينقص من جسمـــه طولاً أو عرضاً[3] .

الزندقة :

وقد أشار بعض الأخباريين الى اعتقاد بعض قريش بالنور والظلمـة ، زاعمين انهم أخذوه من الحيرة . ويسمي الأخباريون أصحاب هـذا الرأي (الثنوية) ، وأطلقوا على تلك الفئة المذكورة من قريش : (الزنادقة)[4] . ولم يذكروا شيئـاً عن زندقة تلك الجماعة من قريش ولا عن رجالها . وأشار بعض أهل الأخبار الى وجود الزندقة والتعطيل في قريش : « وكانت الزندقة والتعطيل في قريش »[5] . وقد وصفوا الزنديق بأنه القائل بدوام بقاء الدهر[6] ، ولا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الخالق . فهو دهري ملحد لا يؤمن بوجود إلَه واحد ، وهو من (الثنوية) على

---

١ تاج العروس (١٠٩/٤) ، (بس) .
٢ التكوين ، الاصحاح ١٩ ، الآية ٢٤ وما بعدها .
٣ الحيوان (٧٣/٤) .
٤ اللسان (١٢/١٢) « زندق » ، (١٤٧/١٠) ، « بيروت ١٩٥٦ » ، تاج العروس (٢٧٣/٦) ، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة) ، المعارف (٦٢١) ، المعرب ، للجواليقي (١٦٦) .
٥ البدء والتأريخ ، (٣١/٤) ، بلوغ الارب (٢٢٨/٢) .
٦ اللسان (١٤٧/١٠) « بيروت ١٩٥٦ » ، اللســـان (١٢/١٢) ، « زنـــدق » « بولاق » .

رأي بعض العلماء[1] . والى هذا المعنى في تفسير زندقة قريش ، ذهب أكثر أهل الأخبار . وقد عدّ (أبو العلاء) المعري (شداد بن الأسود الليثي) المعروف أيضاً بـ (ابن شعوب) ، وهـي أمه ، شاعر زنادقة قريش . وذلك لشعره الذي فيه :

ألا من مبلـغ الرحمن عني ... بأني تارك شهـر الصيام
اذا ما الرأس زايل منكبيه ... فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا ابن كبشة أن سنحيا ؟ ... وكيف حياة أصداء وهام
أتترك ان ترد الموت عني ... وتحييني اذا بليت عظامي[2]

والزندقة كلمة معربة ، ذكر علماء اللغة انها أخذت من الفارسية ، أريد بها في الأصل الخارجون والمنشقون على تعاليم دينهم ، فهي في معنى (هرطقة) . وقد صار لها في العهدين : الأموي والعباسي مدلول خاص ، حيث قصد بها (الموالي الحمر) ، الذين تجمعوا في الكوفة ، وكانوا يظهرون الاسلام ويبطنون تعاليـم المجوسية والإلحاد[3] .

وفي كلام أهل الأخبار عن الزندقة ووصفهم لزندقة قريش إبهام وغموض وخلط. وإذا كان الزنديق هو القائل ببقاء الدهر ، وبعدم وجود عالم ثان بعد الموت ، فتكون الزندقة (الدهرية) ويكون الزنديق هو الدهريّ لقوله بالدهر وبأبدية الكون والمادة[4] . أما القول بالثنوية : بالنور والظلمة ، وبالكفر والالحاد، فشيء آخر ، يختلف عن القول بالدهر . والظاهر أن الجمع بين القول بالدهر وبالقول بالنور والظلمة وبالكفر والالحاد ، إنما وقع في الإسلام ، بسبب الخلط الذي وقع بين المعنى المفهوم للفظة في الفارسية القديمة وفي الفارسية الحديثة ، وبالمعنى الذي ظهر للكلمة في الإسلام . والذي تحول الى زندقة بغيضة تحوي العناصر المذكورة، والتي كانت تؤدي بمن يتهم بها الى القتل .

---

١ اللسان (١٤٧/١٠) ، (زندق) ، الغزالي ، فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة (١٧٣) ، (١٩٦١) ،

٢ رسالة الغفران (٤٢١ وما بعدها) .

٣ « والحمراء العجم ، لبياضهم ، ولان الشقرة أغلب الالـوان عليهم » ، اللسان (٢٨٨/٥) « حمر » ، Shorter Ency. of Islam, p. 659, Muh. Stud., I, S. 150.

٤ المعرب (ص ١٦٦ وما بعدها) ، اللسان (١٢/١٢) ، (١٤٧/١٠) ، طبعة دار بيروت «١٩٥٦ م » .

وقد أشير في القرآن الكريم الى وجود القائلين بالدهر : « وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر »[1] . وهم على حد قول المفسرين والأخباريين ، من لا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الله . وهو مذهب ودين كان عليه كثير من أهل الجاهلية ، يسخر من البعث بعد الموت ، ويرى استحالة ذلك . ولم يذكر المفسرون أن من عقيدة هؤلاء القول بالثنوية،أي بالنور والظلمة، وبوجود إلهين : إلّه الخير وإلّه الشر .

وقد ذكر (محمد بن حبيب) أسماء (زنادقة قريش) ، فجعلهم : (أبو سفيان ابن حرب) ، و (عقبة بن أبي معيط) ، و (أبي بن خلف الجمحي)، و (النضر بن الحارث بن كلدة) ، و (منبه) و (نبيه) ابنا (الحجاج) الهمّيان ، و (العاص بن وائل) السهمي ، و (الوليد بن المغيرة) المخزومي . وذكر انهم (تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة)[2] . فربط هنا بين الزندقة وبين (نصارى الحيرة) . وقد ذهب (ابن قتيبة) أيضاً ، الى أخذ قريش الزندقة من الحيرة[3] .

والذي نعرفه عن المذكورين،انهم كانوا من المتمسكين الأشداء بعبادة الأصنام . وقد كان (أبو سفيان) يستصرخ (هبل) على المسلمين يوم أُحد ، ويناديه : (أُعلُ هُبَلُ ، أعْلُ هُبَلُ) ، وقد نص على انه كان من أشد المتحمسين لعبادة الأصنام[4] . ولم يذكر أحد من أهل الأخبار ، انهم كانوا ثنويين على رأي المجوس ، يقولون بإلهين ، بالنور والظلمة ، وانهم تعبّدوا للنـار ، أو تأثروا برأي مزدك أو ماني الذي أضيف اليه الزنادقة ، ولا نجد في آرائهم المنسوبة اليهم وفي حججهم في معارضة الرسول ما يشير الى (زندقة) بمعنى (ثنوية) ، لذلك فزندقة من ذكرت لا يمكن أن تكون بهذا المعنى ولا على هذه العقيدة[5] .

وللوقوف على زندقة من ذكرت من رجال قريش ، ولتحديد معنى زندقتهم، يجب الرجوع الى ما نسب اليهم من آراء والى مـا عارضوا به الرسول وحاربوه

---

١ الجاثية ، الآية ٢٣ .
٢ المحبر (١٦١) ، (زنادقة قريش) .
٣ المعارف (٦٢١) ، الاعلاق النفسية (٢١٧) .
٤ اللسان (٢١٢/١٤) ، تاج العروس (١٦٢/٨) ، (هبل) ، الاصنام (٢٨) .
٥ راجع معنى الزندقة في مروج الذهب (٢٧٥/١) ، (أثناء حديثه على بهرام) .

من أجله . ويمكن حصر ذلك في أمرين : التقرب الى الأصنام والتعبد لها،والدفاع عنها بقولهم : « ما نعبدهم إلاّ ليقربونا الى الله زلفى »[1] ، ولا علاقة لهـذه العقيدة بالزندقـة . والأمر الثاني ، هو القول بالدهر وبالتعطيل ، أي بنكران البعث والحشر والنشر . ويتجلى ذلك في قولهم لرسول الله : إن كنت صادقاً فيما تقول ، فابعث لنا جدّك : (قصي بن كلاب) ، حتى نسأله عمّا كان ويحدث بعد الموت ، وأمثال ذلك مما له علاقة بنفي وقوع البعث . وهو الـذي له صلة بالزندقة . فالزندقة بهذا المعنى قول بالدهر وبدوامه ونكران للبعث ، لا الثنويـة بمعنى القول : بالنور والظلمة .

وأما ما يرويه أهل الأخبار من أخذ زنادقة قريش زندقتهم من الحيرة[2] ، أو من نصارى الحيرة[3] ، فإن فيه تأييداً لما قلتـه من أن الزندقة لا تعني المجوسية والثنوية ، وإنما القول بالدهر ، وانكار المعاد الجسماني[4] . وهـو قول قريب من قول من أنكر بعث الأجسام ، وآمن ببعث الروح فقط من النصارى ومن غيرهم من أهل الأديان .

والزندقة بهذا المعنى قريبة من رأي القائلين بالدهر ، وهم (الدهرية) الذين أشير اليهم في القرآن الكريم ، في الآية : (وقالوا ما هـي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر)[5] . وهم من يقول ببقاء الدهر ، وبنكران البعث والآخرة ، والخالق والرسل والخلق على بعض الآراء ، وينسبون كل شيء الى فعل الدهر ، أي الأبدية مع التأثير في حياة الانسان وفي العالم . ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ والنعوت التي تشير الى وجود هذا التأثير في الحياة فقالوا : يد الدهر ، وريب الدهر ، وعُدواء الدهر ، و (الدهر لا يبقي على حدثانه) ، و (الدهر يحصد ريبه ما يزرع) ، وأمثال ذلك من تعابير ، فنسبوا اليه الفعل في الكون وفي كل ما فيه[6] .

---

١ الزمر ، سورة رقم ٣٩ ، الآية ٣ .

٢ المعارف (٦٢١) .

٣ المحبر (١٦١) .

٤ مروج (١٠٢/٢) ، (ذكر ديانات العرب وآرائها في الجاهلية) .

٥ الجاثية ، سورة رقم ٤٥ ، الآية ٢٤ ، تفسير الطبرى (١٥١/٢٥) ، (القاهـرة ١٩٥٤) .

٦ ألم أخبرك أن الدهـر غـول ... ختـور العهـد يلتهـم الرجالا
ألا انمـا الدهـر ليـال وأعصر ... وليس على شيء قويـم بمستمر
السندوبي (٨٣ ، ١٧١) .

ونسبوا الإماتة الى الدهر ، فقالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر » أي وما يميتنا إلا الأيام والليالي ، اي مرور الزمان وطول العمر ، انكاراً منهم للصانع . قال أحدهم :

فاستأثر الدهـــر الغداة بهم   والدهـــر يرميني وما أرمـــي
يا دهر قد أكثرت فجعتنا   بسراتنا ووقرت في العظم[1]

فكانوا في الجاهلية يضيفون النوازل الى الدهر ، والنوازل تنزل بهم من موت أو هرم ، فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر ، فيجعلون الدهر الذي يفعله ، فيذمونه ويسبونه . وقد ذكروا ذلك في أشعارهم[2] .

ومن الجمل التي تنسب الفعل الى الدهر ، قولهم : « أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر » ، والدهر يجلب الحوادث ، ففي هذه الجمل وأمثالها معنى أن ما ينزل بالإنسان من قوارع ، وما يحلّ به من إبادة هو بفعل الدهر، فهو إذن المهيمن على العالم والمسخر له[3] .

وقد كان هـــذا الاعتقاد راسخاً في نفوس كثير من الجاهليين ، وفي نفوس كثير ممن أدرك الإسلام فأسلم ، فكانوا إذا أصيبوا بمكروه وبحادث مزعج نسبوا حدوثه الى الدهر ، فسبّوه كما يتضح من حديث : « لا تسبّوا الدهر ، فـــإن

---

١ تفسير الطبرسي (١٣٦/٢٥) ، (بيروت ١٩٥٥) ، (٧٨/٢٥ وما بعدها) ، (طبعة طهران) ٠

٢ تاج العروس (٢١٨/٣) ، (دهر) ٠

٣ ديار بني سعد بن ثعلبـــة الالي   أذاع بهم دهر على النـــاس دائب
فأذهبهم ما أذهب النـــاس قبلهم   ضراس الحـــروب والمنايا العواقب
Caskel, S. 45.

ولست اذا ما الدهر أحدث نكبة   ورزء! بزوار القرائـــب أخضعـــا
Caskel, S. 50.

والا تعاديني المنيـــة أغشكـــم   على عـــدواء الدهر جيشـــا لهامـــا
Caskel, S. 51.

ابن قتيبة : الشعراء (٢٢٩) ،
غنينـــا زمانـــا بالتصعلك والغنى   كما الدهر في أيامه العسر واليسر
Caskel, S. 51.

قال زهير بن أبي سلمى :
واستأثر الدهـــر الغـــداة بهـــم   والدهـــر برمينـــى ولا أرمـــى
ديوان زهير (٣٨٥) ٠

اللهَ الدهر » ، أو (فإن الدهر هو الله) . ومن حديث : « يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر الدهرَ ، وإنما أنا الدهر : أقلب الليل والنهار »[1] . وأحاديث أخرى من هذا القبيل . وقد ذكر (الجاحظ) ، أن من الصحابة والتابعين والفقهاء من نهى الناس من قول : طلع سهيل وبرد سهيل ، وقوس قزح ، كأنهم كرهوا ما كانوا عليه من عادات الجاهلية ، ومن العود في شيء من أمر تلك الجاهلية ، فاحتالوا في أمورهم ، ومنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق[2] .

وفي هذين الحديثين توفيق لفكرة الجاهليين في الدهر ، وللعقيدة الإسلامية في التوحيد بأن صير الدهرُ اللهَ ، وصيره بعض العلماء من أسماء الله الحسنى . والذي حملهم على ذلك،على ما أرى ، صعوبة إزالة تلك الفكرة التي رسخت في النفوس منذ القدم عن فعل الدهر ، وعن أثره في الكون ، فرأى القائلون بذلك إزالتها بجعل الدهر اسماً من أسماء اللهِ ، أو هو الله تعالى ، وهو واحد أحد ، والدهر واحد أبدي أزلي كذلك ، فلا تصادم في هذا التوفيق بين الرأيين .

وقد وقع هذا التوفيق على ما أعتقد بعد وفاة الرسول في أمور عديدة نسبت الى الرسول،وقد ثبت عدم إمكان صدورها منه . وللحكم على صحة نسبة الحديثين الى الرسول أحيل القارىء على الطرق التي وردا بها ؛ والى آراء العلماء فيهما ، وأعتقد أنه إن فعل ذلك فسيجد في نسبتها الى الرسول بعض الشك ، إن لم أقل كل الشكّ .

وتعبر لفظة (الزمان) عن معنى (الدهر) كذلك . وقد ذهب علماء اللغة الى ان الزمان ، أقصر من الدهر ، اذ يقع على الزمان القصير ، أما الدهر ، فالزمان الدائم ، أي الزمان الذي لا ينتهي بنهاية . وأنا لا يهمني في هذا المكان تفريق العلماء بينهما في الطول والقصر ، انما المهم عندي هو ان الجاهليين استعملوا الزمان استعمالهم للدهر ، ونسبوا اليه ما نسبوه للدهر من فعل في الانسان وفي الحياة والعالم . هذا (زهير بن أبي سُلمى) يتشكى منه في قصيدته التي يمدح بها (هرم بن سنان) . فيقول في مطلعها :

---

1 اللسان (٣٧٨/٥) ، (دهر) ، تاج العروس (٢١٨/٣) ، (دهر) ، المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي ، تفسير الطبرسي (١٣٦/٢٥) ، (بيروت ١٩٥٥) ، صحيح مسلم (٢/١٥ وما بعدها) .
2 الحيوان (٣٤٠/١ وما بعدها) .

لمن الديارُ بقُنّة الحجر أقوين من حجج ومن دهر
لعبَ الزمان بها وغيّرها بَعدي سَوافي المُور والقَطر[1]

وتجد اللفظة في أشعار غيره من الشعراء الجاهليين والاسلاميين تعبّر عن (غدر الزمان) وعن (كذبه)[2] وتلوّنه وتلاعبه بمقدرات الانسان[3] . وفي كـل هذه المواضع التي استعملت فيها تعبير عن تلك العقيدة التي لا تزال راسخة في نفوس كثير من الناس ، وهي ان الحياة قسمة ونصيب وحظ وبخت، وانه ليس لمخاوق على ما يقدره له القدر من سلطان . وان الزمـان يلعب بالانسان وبالكون كيف يشاء ، مع ان الانسان لو فكر في نفسه وتأمّل في عقله ، لوجد انـه هو الذي خلق الزمان اي الدهر فأوجده على صورته هذه،بأن حدده وعيّنه بسنين وبقرون، وليس الزمان إلا دوام وبقـاء لهذا الكون ، وليس له اي فعـل حقيقي في هذا الكون ، والانسان هو الذي أوجـد السنين ليقيس بها طول الزمان ، لحاجته الى معرفته ، وان حسابه بالسنين مهما سيطول ، فإنه لن يبلغ ولن يكون في مقدوره بلوغ نهاية الكون .

والمعنى الذي نفهمه من (الدهر) في الشعر الجاهلي ، هو الأبدية مع التأثير في حياة الانسان وفي العالم . ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ التي تشير الى وجود هذا التأثير في الحياة ، فقالوا : يد الدهر ، وريب الدهر ، وعـدواء الدهر ، وأمثال ذلك من تعابير . فنسبوا اليه الفعل في الكون وفي كل ما هو فيه[4] .

---

١ وفي بعض الروايات « لعب الرياح » ، شرح ديوان زهير (ص ٨٧) ، Caskel, S. 44.

٢ أفرحت أن غدر الزمـان بفارس قلـح الكلاب وكنت غير مغلـب
يا مر قـد كذب الزمـان عليكـم ونكـأت قرحتكـم ولـما أنكـب
Caskel, S. 51.

٣ ولـو سألت سراة الحـي عنـي عـلى أنـي تلـون بـي زمـانـي
Caskel, S. 52.

٤ (والدهر لا يبقى على حدثانه) ، « والدهر يحصد ريبه ما يزرع » .
ألـم أخبـرك أن الدهـر غـول ختـور العهـد يلتهـم الرجالا
ألا انمـا الدهـر ليـال وأعصر وليس على شيء قويـم بمستمـر
Caskel, Die Schiksal in der Altarabischen Poesie, Leipzig, 1926, S. 48, W. L. Schramaier, über den Fatalismus der Varislamischen Araber, S. 12, Bonn, 1881.

ومن نسب اليه القول بالدهر ، الحارث بن قيس ، المعروف بابن الغيطلة[1] .

وتؤدي لفظة (الأيام) هذا المعنى كذلك ، بل استعملت أجزاء اليوم مثل (الليالي) للتعبير عن تلك الفكرة أيضاً . فالليالي هي كالأيام ، لا يمكن أن يطمأن اليها ، ولا ان يوثق بها ، إنها تتلون وتتبدّل ولا تخلص لأحد . وحيث أن الليالي هي أوقات الراحة والاستقرار والهدوء ، وأوقات الانس والطرب والإنفراد بالأحبة ، وهي أوقات الغدر والاغتيال والغارات والغزو في الوقت نفسه ، فيكون ذكرها في الشعر وتفضيلها على النهار وتقديمها عليه ، ونسبة الخير أو الشر اليها أكثر من نسبتها الى النهار شيئاً طبيعياً . لذلك يجب ألا يستغرب ما نقرأه في الشعر وما نسمعه من أفواه الناس من نسبة تبدل الحال والتلون الى الليالي أكثر من النهار[2] .

وقد استعملت لفظة (عَوْض) في معنى الدهر والزمان ، وردت في شعر شاعر من شعراء بكر بن وائل ، فعبر بهذه اللفظة عن زمانه . واستخدام بكري لهذه الكلمة ، يشير الى الصنم (عوض) الذي كانت بكر قبيلة هذا الشاعر تتعبد له[3] . وقد أقسموا بها ، فقالوا : (عوض لا يكون ذلك أبداً)[4] ، ولا أستبعد وجود صلة بينها وبين الصنم (عوض) .

وأما (الحِمام) ، فإنه قضاء الموت وقدره ، يقال : (حُمّ أجله) اي قضي وقدر[5] . وقد وردت لفظة (حم) ومتعلقاتها في أشعار عديدة بهذا المعنى . اي القضاء والتقدير . فورد (ما حُمّ واقع) . وورد (أحم الله ...) و (حمّه الله) ، و (حمت لميقاتي) ، و (حمّي) ، و (حمام الموت) ، و (حمام

---

١ أنساب (١٣٢/١) .

٢ فان تك غبراء الخبيبة أصبحت ... خلت منهم واستبدلت غير ابدال
بما قد رأى الحي الجميع بغبطة ... بها والليالي لا تدوم على حال
Caskel, S. 45.

٣ « وعوض معناه أبدا أو الدهر . سمي به لانه كلما مضى جزء عوضه جزء أو قسم . أو اسم صنم لبكر بن وائل » ، القاموس (٣٣٧/٢) ، قال الاعشى :
حلفت بمائرات حول عوض ... وأنصاب تركن لدى السعير
وقيل ان هذا الشعر لرشيد بن رميض العنزي . والسعير اسم صنم كذلك ، تاج العروس (٥٨/٥ وما بعدها) ، (عوض) .

٤ تاج العروس (٥٨/٥) ، (عوض) .

٥ تاج العروس (٢٥٨/٨) .

النفس) ، و (حمام المنون) ، و (حمام)[1] . وهي من حيث هذا المعنى كالحتف والأجل والآجال والحتوف والمنون .

القضاء والقدر :

ويسوقنا هذا الموضوع الى البحث عن فكرة القضاء والقدر عند الجاهليين . فقد كان بين أهل الجاهلية من كان يقول بالجبر ، وبأن الإنسان مسيّر لا مخيّر . وان كل ما يقع له مكتوب عليه،ليس له دخل في حدوثه . ومن هؤلاء القائلون بالدهر والمنون والحمام وما شاكل ذلك من مصطلحات تشير الى وجود هذا الرأي عندهم .

ولا يعني القول بالجبر ، ان قائله من المتألهين القائلين بوجود خالق أوجد الكون ، فقد كان من المجبرة من كان ملحداً ، لا يقول بخالق ، وكان منهم من كان مشركاً . كما أن بينهم من كان يؤمن بوجود خالق أو جملة آلهة . فليس لمذهب الجبر علاقة بالخالق ، وإنما هو مذهب يرى ان الإنسان مسيّر ، وأنه يسير وفق ما كتب له ، ومنهم من ينسبه الى علة : هي الله أو الدهر ، ومنهم من لا ينسبه الى أحد وهو مذهب موجود في اليهودية وفي النصرانية وفي الإسلام .

ونجد هذه العقيدة في شعر الشاعر النصراني (عديّ بن زيد العبادي)، وربما نجدها أيضاً عند سائر إخوانه النصارى ومن كان على هذا الدين من غيرهم من العرب . والواقع ان الاعتقاد بوجود إلـه خلق الكون منفرداً ، أو آلهة خلقوا الكون مشتركين ، يحمل الانسان على أن يتصور نفسه أنه لا شيء تجاه خالقه أو آلهته وانه من صنعهم ، فما يقوم به ، هو من صنع الله أو من صنع الآلهة .

---

[1] قال البعيث :

ألا يا لقوم كل ما حم واقع ... وللطير مجرى والجنوب مصارع

وقال الاعشى :

تؤم سلامة ذا فائش ... هو اليوم حم لميعادها

وقال خباب بن غزي :

وارمى بنفسي في فروج كثيرة ... وليس لامر حمه الله صارف

تاج العروس (٨/٢٥٨) .

وهي عقيدة لا بد أن يكون للأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إذ ذاك دخل في شيوعها بينهم . ونكاد نجد أكثر الشعوب الشرقية على هذا الرأي . وأما ما ظهر من نظرية حرية الارادة وقدرة الإنسان على خلق أفعاله واختياره ، فإنه من تأثير الفلسفة الاغريقية التي دخلت النصرانية .

ونرى (حاتم الطائي) وهو من النصارى على رأي ، مؤمناً بالقضاء وبالقدر وبما يأمر به الله ، اذ يقول :

اتيح له من ارضه وسمائه حِمامٌ ، وما يأمر به الله يفعل

فأسند الأمر والنهي في هذا البيت الى الله ، وأما الانسان فإنه مأمور مسيّر .

ونجده يكل أمره الى الله ، ويدعو قومه الى تسليم أمرهم للإلـه الذي يرزقهم اليوم ويرزقهم غداً :

كلوا اليوم من رزق الإلـه وأيسروا وإن على الرحمان رزقكم غدا

ونجد (المثقب العبدي) مؤمناً بالله ، وبالقدر . فما يقع للانسان يكون بمشيئة الإلـه وقدره :

وأيقنت إن شاء الإلـه بأنه سيبلغني أجلادها وقصيدها [1]

و (القدر) و (المقدر) و (المقدور) و (الأقدار) و (القضاء) ، من الألفاظ القديمة التي كانت تؤدي هذا المعنى الذي نبحث فيه قبل الاسلام . واستعمال المتكلمين للقضاء والقدر وللقدرية ، لا يعني ان تلك الكلمات من الألفاظ التي نبعت في الاسلام . بل ان ظهورها في هذا العهد واشتهارها فيه ، هو لاستخدام العلماء لها في مدلولات معينة وفي مصطلحات وأفكار توسعت واستقرت في هذا العهد .

ونجد الاشارة الى القدر في شعر الجاهليين والمخضرمين بالمعنى الذي نقصده هنا ، اي شيء مقدر مفروض على كل انسان . هذا لبيد الشاعر المخضرم يذكر ان ما يرزقه هو من فضل الله عليه ، وما يحرمه فإنه مما يجري به

---

١ تاج العروس (٢/٤٦٨) ، (قصد) .

القدر[1] . ونجد فكرة القدر مركزة قوية صريحة في شعره ، فهو يعتقد ان القَدَر خيره وشرّه من الله ، وان ما يصيب الانسان مكتوب عليه ، ولا راد لما هو مكتوب . ولا دخل لامرىء في عمله ، فليحمد الله على خيره ، وليشكره على شرّه ايضاً ، فهو العالم وحده بما هو صالح وضار[2] . وشعره هذا لا بد ان يكون مما نظمه في الاسلام ، اذ لا يعقل ان يكون من نظم عصر وثني، لما يتجلى عليه من الطابع الاسلامي في الفكر وفي الأسلوب والعرض .

كذلك نجد هذه العقيدة عقيدة القدر في شعر (زهير بن أبي سُلْمى) وفي شعر غيره من الشعراء . هذا زهير يقول : إن المنايا أمر لا مفرّ منه ، وإن من جاءت منيّته لا بد أن يموت ، ولو حاول الارتقاء الى السماوات فراراً منه[3] . ثم نجده يقول :

وجدت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم[4]

فليس للإنسان دخل في عمله ، وإنما كل شيء يقع له في حياته هو مكتوب عليه . مكتوب عليه أن يموت في أجله ، وأن يعيش الى أجله ، وان يكون غنياً وأن يكون فقيراً ، وليس للإنسان عمل على سلطان الحظ .

ومن القائلين بالقدر ، (عَبيد بن الأبرص) ، الشاعر الجاهلي الشهير، المقتول في قصة معروفة مشهورة . نجد في الشعر المنسوب اليه اسم (الله) يتردد في كثير من المواضع ، ونراه من المتشائمين المؤمنين بالمنايا وبالمحتّم المكتوب ، وتراه يتوكل على الله ، ويدعو الناس الى الاعتماد عليه ، فيقول :

---

١ فما رزقــت فان اللـه جالبــه ... وما حرمت فما يجري بـه القــدر
ديوان لبيد (ص ٥٤) ، (طبعة ليدن ١٨٩١) .
ولا أقــول اذا ما أزمـة أزمـت ... يا ويح نفسي ممـا أحدث القــدر
Caskel, S. 20.

٢ من يبسط الله عليـه اصبعــا ... بالخيـر والشــر بأي أولعـــا
ديوان لبيد (٨ ، ١١ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥) ، (طبعة بروكلمن)
Ency., III, p. I.

٣ ومن هاب أسباب المنايـا ينلنـه ... ولو نــال أسباب السمـاء بسلم
شرح ديوان زهير لثعلب (ص ٣٠) ، « وطر بالذي قد حم » ، Caskel, S. 54.

٤ الحيوان (١٠٣/٢) .

من يسأل الناس يحرموه　　وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كلّ خير　　والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك　　علاّم ما أخفت القلوب[1]

ونراه يقول في المنايا :

فأبلغ بنيّ وأعمامهم　　بأن المنايا هي الوارده
لها مدة فنفوس العباد　　اليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنا　　فللموت ما تلد الوالده[2]

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويذكر الموت ، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاة الشدائد والأهوال ، وينصح الناس بالسير على هذا المنوال . والذي يقرأ شعره ، يشعر انه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس ميّالة الى التقشف والتصوف ، مؤمن بالعدل ، كاره للظلم ، فهل كان عبيد على هذه الشاكلة؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه ؟ او هو من نظم من عاش بعده في الاسلام ؟.

ونجد (عمرو بن كلثوم) في جملة من آمن بالقضاء والقدر ، وبأن الموت مقدر لنا ، ونحن مقدرون له ، وذلك في قوله :

وأنّا سوف تدركنا المنايا　　مقدرة لنا ومقدرينا[3]

وهو من المؤمنين بالله ، الحالفين به . وذلك كما جاء في بيت شعر نسبوه اليه :

معاذ الله يدعوني لحنث　　ولو أقفرت أياماً قتار[4]

وكما ورد في أشعار أخرى تنسب اليه .

والشاعر (لبيد) من هذه الطبقة التي اعتقدت ان الله خالق كل شيء ،

---

١ البيان والتبيين (١/٢٢٦) ، شعراء النصرانية ، القسم الرابع (ص ٦٠٧) .
٢ شعراء النصرانية ، القسم الرابع (٦٠٤ وما بعدها) .
٣ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٣٨٤) ، (البيت رقم ٧ من المعلقة) ، شرح القصائد السبع للزوزني (١٤٦ وما بعدها) ، جمهرة أشعار العرب (١٢٠) .
٤ المحبر (٤٧١) .

يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، فلا دخل للانسان في عمله . تراه يقول :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل[1]

وتؤدي لفظة (منا) معنى القدر ، ومنها (الماني) بمعنى القادر ، و(المنيّة) بمعنى الموت ؛ لأن الموت مقدر بوقت مخصوص[2] . وهي من الكلمات السامية المشتركة الواردة في مختلف لهجات هذه المجموعة . ولهذه الكلمة صلة باسم الإلـه الكنعاني (منى) ، وهو إلـه القدر . ولها أيضاً صلة بالصنم (منوات) (منوت) من أصنام ثمود ، وبـ (مناة) من أصنام الجاهليين[3] .

ومن أصل (منـــا) (المنايا) الواردة في أشعار الجاهليين[4] . و (الماني) الواردة في شعر منسوب الى سويد بن عامر المصطلقي ، هو :

لا تأمن الموت في حلّ ولا حرم	إن المنـــايا توافي كل إنسان
واسلك طريقك فيها غـــير محتشمٍ	حتى تلاقي ما يمنى لك المـــاني

في رواية . و :

لا تأمــنن وإن أمسيت في حرم	حتى تلاقي ما يُمنّي لك المـــاني
فالخــيرُ والشر مقرونان في قرن	بكل ذلك يأتيك الجديـــدان

---

١ الاغاني (٩/١١٢) ، (٢١/١٢٦) .

٢ تاج العروس (١٠/٣٤٧ وما بعدها) .

ان المنيـــــة منهـــل	لا بـــد أن أسقى بكأس المنهـــل

الاغاني (١٥/٧٩) ،

واذا المنيـــة أنشبت أظفارهـــا	ألفيت كـــل تميمـــة لا تنفـــع

ولو كنت في بيت تسد خصاصه	حوالي مـــن أبنـــاء نكرة مجلس
ولو كان عندي حازيـــان وكاهن	وعلـــق أنجـــاسا عـــلى المنجس
اذا لاتتنى حيـــث كنـــت منيتـــي	يخـــب بهـــا هاد الى معـــرس

Caskel, S. 29.

٣ Caskel, S. 22, Ency. Religi. I, p. 661.

٤

وأن المنايـــا ثغـــر كـــل ثنيـــة	فهـــل ذاك عما يبتغي القوم محضر

وغبـــراء مخشي رداهـــا مخوفـــة	أخوهـــا بأسباب المنايـــا مغرر

ديوان عروة بن الورد (ص ٣٨) ، (تحقيق نولدكه) ، كوتنكن ١٨٦٣) .

على رواية أخرى .

وفي هذا البيت الذي ينسبه بعض الرواة الى أبي قلابة الهُذلي :

فلا تقولن لشيء سوف أفعله حتى تلاقي ما يمني لك الماني[1]

وتؤدي كلمة (المنون) معنى الدهر والموت[2] ، وقد تسبق بكلمة (ريب) في بعض الأحيان ، فيقال : (ريب المنون) كما يقال (ريب الدهر)[3] .

ويرى (نولدكه) ان هذه الكلمات هي أسماء آلهة ، وليست أسماء أعلام ، هي أسماء تعبر عن معان مجردة للألوهية ، وهي مما استخدم في لغة الشعر للتعبير عن هذه العقائد الدينية . فالزمان مثلاً أو الدهر ، لا يعنيان على رأيه هذا إلهاً معيناً ، ولا صنماً خاصاً ، انما هي تعبير عن فعل الآلهة في الانسان[4] .

وبعض هذه الكلمات — في رأي (ولهوزن) — مثل قضاء ومنيّة ، هي بقايا جمل اختصرت ، ولم يبق منها غير بقايا ، هي هذه الكلمات . فكلمة قضاء هي بقية جملة أصلها (قضاء الله) ، سقطت منها الكلمة الأخيرة ، وبقيت الأولى . وكذلك الحال في منية ، فإنها بقية جملة هي : منية الله ، سقط عجزها ، وبقي صدرها . وهي تعني ان المنية هي منية الله تصيب الانسان[5] .

يبدو ان من الغريب ذكر الدهر والزمان والحمام والمنايا وأمثالها في الشعر ونسبة الفعل اليها ، بينما يهمل ذكر الأصنام فيه أو نسبة الفعل الى الله . فهل يعني هذا ان الجاهليين لم يكونوا يعلمون ان لله سلطاناً وحولاً ، وان المنايا والحتوف وكل خير أو مكروه هو من فعل الله ؟ الواقع ان هذا الذي نذكره يذهب اليه أهل

---

١ تاج العروس (١٠/٣٤٧) ، اللسان (١٥/٢٩٢) ، (منى) .

٢ تاج العروس (٩/٣٥٠ وما بعدها) .

٣ « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » ، الطور ، الآية ٣٠ .

أإن رأت رجلا أعشى أضر به ريب المنون ودهر مفند خبل

تخوفني ريب المنون وقد مضى لنا سلف قيس معا وربيع

ديوان عروة بن الورد (ص ٤٣) ، نولدكه) ،

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

Caskel, S. 41.

٤ Ency. Religi., I, p. 661.

٥ Reste, S. 222.

الجاهلية ولم يقصدوه . وما ذكر الدهر في الشعر ، إلا كتشكّي الناس من الزمان او من الحظ او النصيب في هذه الأيام . وشكواهم من ذلك لا يعني تحديد سلطان الله ، أو نكرانه ، وانما هو بقية من تصور انساني قديم بنسبة كل فعل وعمل الى قوة خفية هي القوة العاملة ، وهي ما عبرت عنها بالدهر وبالزمان . وذلك لما يتصورونه من مرور الأيام والسنين وبلاء الانسان فيه ، وبقاء الأرض والكون، ومثل هذه النسبة والشكوى عامة عند جميع الشعوب البدائية والمتطورة المتقدمة ، فنراها عند القبائل البدائية ونراها عند الغربيين .

ولا يقتصر هذا الاستعمال على الشعر وحده ، بل نجد ذلك في النثر وفي كلام الناس الاعتيادي . لذلك لا أرى صحيحاً ما ذهب اليه بعض المستشرقين من ان نسبة الفعل الى الدهر هو من الاستعمالات الخاصة بالشعر[1] .

وهناك كلمات أخرى تشير معانيها الى هذه الفكـرة فكرة القدر ، وان الخير والشر وكل ما يصيب الانسان هو مقدر مكتوب . وهي نظـرة لا بد أن تكون قد انبعثت من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ومـن أثر المحيط في الانسان . ومن شعور الانسان بأن قوى خفية تلعب بـه وتوجهه حيث يشاء[2] . فنسب كل ذلك الى غيره ، وصير نفسه مسخراً موجهاً كالريشة في مهب الرياح.

وتؤدي عقيدة القدر بصاحبها الى التشاؤم ، والى القنوط والاستسلام . والتوجع والتألم ، والتشكي من عبث الدهر بالإنسان ، وهو ليس له دخل في رده وصده. وقد تؤدي بمعتنقها الى الخمول والكسل ، والى العجز في هذه الحياة ، والى ردّ كل مـا يصيبه بسبب كسله وعدم استخدام قابلياته ومواهبه الى غدر الدهر به وحنق الزمان عليه ، وتلاعب الحدثان بأموره . ونجد أكثر شعراء أهل الجاهلية ، هم على هذه الشاكلة ، يبكون أيامهم ، ويتذكرون الماضي ، ويتوجعون، لأنهم سائرون نحو مستقبل مؤلم موجع،لا حول فيه لإنسان ولا قوة . انه عالم الشيخوخة أو عالم الموت أو عالم الفقر . وأمثال ذلك من العوالم المفزعـة . يستوي في ذلك امرؤ القيس والشعراء المخضرمون . فأنت اذا تصفحت دواوينهم قلـما تجد فيهم شاعراً متفائلاً ، أو شاعراً غير مبال بالأيام ، لا يهمه ما يأتي به الدهر ، حتى

---

١ Caskel, S. 54.

٢ والمـال ما خـول الالـه فـلا بـد لـه أن يحـوزه قـدر
شرح ديوان زهير (ص ٣١٤) .

ليخيل الينا أن هذا طبع . والواقع أننا نجد الشعراء في الجاهلية والإسلام وأكثر الكتّاب والخطباء على هذا المنوال ، مما يحمل المرء على القول بوجود التشاؤم في طبع العرب .

وموضوع (القدر) من المواضيع التي حيّرت المسلمين أيضاً . فانقسموا في ذلك الى مذاهب . وقد مرّ الرسول بناس كانوا يتذاكرون في القدر ، فقال : انكم قد أخذتم في شعبين بعيدي الغور . أي يبعد أن تدركوا حقيقة علمه، كالماء الغائر الذي لا يقدر عليه [1] .

وقد ذكر علماء التفسير أن قريشاً خاصموا الرسول في القدر ، وأن رجلاً جاء الى الرسول فقال : يا رسول الله ففيم العمل ؟ أفي شيء نستأنفه ، أو في شيء قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله: اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، سنيسره لليسرى، وسنيسره للعسرى [2] . ويظهر من ذلك أن قريشاً أو جمعاً منهم ، لم يكونوا يؤمنون بالقدر ، بل كانوا يؤمنون بأن فعل الانسان منه ، وان لا لأحد من سلطان في تصرفه وفعله .

القدرية :

وذكر ان الشاعر (الأعشى) كان قدرياً ، يرى ان للانسان دخلاً في فعله، وأن له سلطاناً على نفسه ، حيث يقول :

استأثر الله بالوفاء وبالـ ـعدل وولى الملامة الرجلا [3]

فالانسان مسؤول عن فعله ، ملام على ما يرتكبه من قبيح . فالله عادل ، لا يجازي الانسان إلا على فعله ، ولو كان قد قدر كل شيء له ، وحتمه عليه كان ظالماً . وقد أخذ الأعشى رأيه هذا « من قبل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك » .

---

١ تاج العروس (٣/٤٥٧) ، (غور) .
٢ تفسير الطبري (٢٧/ ٦٤ وما بعدها) .
٣ الاغاني (٩/١١٢) ، (٢١/١٢٦) .

فنحن أمام عقيدتين . عقيدة تقول : إن الله خالق كل شيء ، وان فعل الانسان من تقدير الله وأمره، فهو يفعل بفعله وبحسب ما قدره له ، ورأي يقول ان الانسان خالق فعله ، فهو حرّ مختار ، ولهذا فهو وحده مسؤول عن عمله ، من خير أو شرّ . والرأي الأول أظهر عندهم وأقوى من الرأي الثاني .

الحظ :

وحظ الإنسان ، أي ما يصيبه في حياته ، هو جزء من هذا الموضوع أيضاً . مشتبك به ، متصل بأجزائه . والحظ في اللغة النصيب والجد . أو خاص بالنصيب من الخير والفضل[1] . والنصيب ، هو ما قدر وما قسم لك ، أي حظك. والحظ[2] وهو (البخت) . وقيل : البخت من المعربات ، وقيل من الألفاظ التي تكلمت العرب بها قديماً[3] . وذكر علماء اللغة أن الجد البخت والحظ في الدنيا . ويفهم من الأمثلة الواردة في شرح معنى اللفظة ، أنها في معنى الحظوة والرزق[4] . أي في معنى الشيء الحسن المفرح مما يصيب الإنسان .

قالوا : والحظ موجود في المرزوق والمحروم ، وفي المحارف ، وفي القبائل ، فربما سعدت بالحظ ، وربما حظيت بالجد . وهو كذلك في الشعر وفي النباهة ، ورب عاقل فاهم أديب ، لا يكون إلا دائم الصبر على الشدة ، لسلطان الحظ على الإنسان[5] .

ونظرية (القسمة والنصيب) ، معروفة في الاسلام ، وقد بحث فيها علماء الكلام . فهي من الموضوعات التي بحثت في الجاهلية والاسلام . ونجد أحد الشعراء يقول :

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاظ قسمت وجدود

وهو بيت ينسب لسويد بن حذاق العبدي ، ويروى للمعلوط بن بدل القريعي ، وصدره :

---

١ تاج العروس (٥/٢٤٩) ، (حظ) .
٢ تاج العروس (١/٤٨٦) ، (نصب) .
٣ تاج العروس (١/٥٢٥) ، (بخت) .
٤ تاج العروس (٢/٣١٣) ، (جدد) .
٥ الحيوان (٢/١٠٢ وما بعدها) .

متى ما يرى الناس الغني وجاره فقير يقولوا عاجز وجليد

أي « انما أتاه الغني لجلادته ، وحرم الفقير لعجزه وقلة معرفته ، وليس كما ظنوا ، بل ذلك من فعل القسام وهو الله سبحانه وتعالى ، لقوله : نحن قسمنا بينهم معيشتهم »[1] . وفي هذا المعنى قول الشهاب المقري:

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب ولا ملامه[2]

وأهل الجاهلية يرجعون القسمة الى الدهر والزمان والحظ . فأبطل الاسلام ذلك، اذ جعلها بأمر الله وقدره . فالله هو مقدر الأقدار ، ومقسم القِسَم ، وموزع الحظوظ والأرزاق .

الطبع والطبيعة :

ومن الموضوعات التي لها صلة بالقضاء والقدر ، موضوع الطبع ، أي الخليقة والسجية التي جبل عليها الانسان . فرأي كثير من الجاهليين ، ان الانسان مجبول على طبيعته التي ولد فيها ، وكل انسان على طبيعته ، ولن يستطيع تبديل طبعه ، ولا تغيير السجايا ، لأنها مكتوبة على الانسان مسنونة ، ولا تبديل لما طبع المرء عليه[3] . وطبائع الانسان لا يغيرها إلا الموت . جاء في شعر لبيد :

فاقنع بما قسم المليك ، فإنما قسم الخلائق بيننا علامها[4]

وهو شعر قد يكون مما قاله في الاسلام .

و (زهير بن أبي سلمى) ، ممن يعتقدون بهذه العقيدة ، ويأخذون بهذا الرأي . فهو القائل :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ولو خالها تخفى على الناس تعلم[5]

١ تاج العروس (٥/٢٤٩) ، (حظ) .
٢ المصدر نفسه .
٣ اللسان (٨/٢٣٢) ، (طبع) .
٤ اللسان (١٠/٨٦) ، (خلق) .
٥ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٢٤٠) ، (البيت ٥٨ من المعلقة) ، (القاهرة ١٩٦٤) .

الفصل السادس والستون

الالهة والتقرب اليها

لا نملك – ويا للأسف – نصوصاً جاهلية فيهـا وصف لطبائع الآلهة ، ولا أساطير فيها شيء على رأي أهل الجاهلية في أخلاق أربابهم . ولهذا صار مرجعنا وسندنا في تكوين صورة عن طبائع الآلهة وأخلاقها ، دراسة وتفسير أسماء الآلهة ونعوتها التي نعتت بها ، لاستخراج شيء منها يعيننا على تكوين هذه الصورة .

وتفسير أسماء الآلهة ومعرفة أصولها وجذورها ، عملية ليست سهلة يسيرة، بسبب جهلنا بمعاني بعض تلك الأسماء ، وعدم وقوفنا على أصولها التي اشتقت منها، لأن اللهجات التي دوّنت بها ، لا تزال بعيدة عن مداركنا ، ولأن قواعد نحوهـا وصرفها تختلف بعض الاختلاف عن قواعد وصرف عربيتنا ، ونحن لا نملك اليوم المؤهلات الكافية ، للحكم في تلك اللهجات حكمنا في عربيتنا .

واسم الإلـه هو صفة في الغالب ، ألبسها الزمن بمضي الوقت لباس العلمية ، فعدت اسماً علماً ، فإذا استطعنا الرجوع الى أصول وجذور هذه الأسماء الصفات، نكون قد استنبطنا شيئاً عن طبائع تلك الآلهة من صفاتها المذكورة ، ونجحنا بعض النجاح من تكوين رأي عن تلك الديانات الجاهلية .

هنالك أسماء مثل (ال) (ايل) ، يجد الباحثون صعوبة في الاتفاق على تعيين أصولها ، وضبط معانيها ، وهناك أسماء واضحة جليّة ظاهرة ، تدل على أشياء معروفـة محسوسة ، مثل (شمس) و (ورخ) بمعنى قمر ، و (عثتر) ، و (الشعرى العبور) و (نجم) ، و (ثريا) وأمثال ذلك من أسماء تشير الى

أشياء مادية ، هي كواكب ونجوم ، يستدل منها على وجود عبادة الأجرام السماوية عند الجاهليين . وهناك أسماء ، هي نعوت في الواقع ، لا تدل على ظواهر حسية وإنما تعبر عن أمور معنوية ، مثل (ودّ) بمعنى (حبّ) و (رضى)، و(سعد)، و (حكم) ، و (نهي) ، و (صدق) ، و (رحمن) ، و (رحم) (ها ـ رحم) (الرحيم) ، و (سمع) ، (سميع) ، و (محرمم) (محرم) ، وأمثال ذلك من ألفاظ ، هي نعوت ، جرت بين الناس مجرى الأسماء . وعلى هذه الصفات الأسماء سيكون جلّ اعتمادنا في استنباط الصورة التي نريد تكوينها عن طبيعة آلهة العرب الجنوبيين .

وعلينا ان نضيف على ما تقدم الأعلام المركبة المضافة للأشخاص ، مثل (عبد ود) ، و (عبد مناف) ، و (عبد شمس) ، و (عبد يغوث) ، و (امت العزى) (أمة العزى) ، فالكلمات الثانية من الاسم ، أسماء أصنام . وفي تركيب الاسم على هذا النحو ، دلالة على تذلل الانسان تجاه ربه ، واعتبار نفسه عبداً له ، وفيه تعبير عن صلة الأشخاص بربهم ، أضف اليها الأعلام المركبة تركيباً إخبارياً ، مثل (ودم ابم) ، أي (ود أبٌ) أو (أبٌ ود) ، ففي هذا التركيب دلالة على حنو الإله على المؤمنين به ، واشفاقه عليهم، إشفاق الأب على أولاده .

ودراسة الأمور المذكورة ، هي مصدر مهم ، بل هي تكاد في هذا اليوم ان تكون المصدر الوحيد لفهم ذات الآلهة وادراك شخصيتها ، ولفهم تطور الدين على مر العصور والأجيال ، وكيف تطور الدين عند الجاهليين الى يوم ظهور الاسلام .

هذا ، ونجد في النصوص العربية الجنوبية المتأخرة ، أسماء آلهة لا نجد لها موضعاً في النصوص العربية الجنوبية المتقدمة ، واختفاءً لأسماء الآلهة القديمة التي كانت لامعة ساطعة في سماء الألوهية عند العرب الجنوبيين قبل الميلاد . ونجد أسماء آلهة قبائل تعبد عند قبائل أخرى مع معبوداتها القديمة، وأسماء آلهة كانت لامعة شهيرة ، تحولت الى آلهة صغيرة . وفي كل هذه الملاحظات دلالة على حدوث تطور في الحياة الدينية عند الجاهليين ، وعلى تأثر العقائد بمؤثرات داخلية وخارجية، فأحدثت هذا التطور الذي نبحث عنه .

ومن بين أسماء الآلهة ، أسماء مركبة ، استهلت بـ (ذ) ، أو بـ (ذت) . و (ذ) ، بمعنى (ذو) في عربيتنا ، و (ذت) بمعنى (ذات) . و (ذ) للمذكر ، و (ذت) للمؤنث ، أما الكلمات التالية ، فهي صفات . فجملة (عثتر ذ قبضم) ، تدل على إلـه ذكر ، اسمه (عثتر ذو القبض) (عثتر ذو قبض) ، أو (عثتر القابض) بتعبير أصح . وجملة (ذ شقرن) ، و (ذ صهرم)[1] ، و (ذ عذبتم) ، و (ذ يسرم)[2] ، و (ذ امر وشمر)، أي الآمر الناهي[3] ، و (ذ انبي) ، هي جمل تشير الى إلـه ذكر ، لوجود (ذ) علامة التذكير فيه . وجملة (ذت حمم) ، و (ذت بعدن) ، و (ذت برن) ، و (ذت غضرن) ، و (ذت رحبن) ، و (ذت صهرن) ، و (ذت صنتم) ، و (ذت ظهرن) ، تشير الى آلهة إناث ، لوجود (ذت) (ذات) في الاسم . ومعنى هذا ان العرب الجنوبيين كانوا قد جعلوا الآلهة كالانسان اناثاً وذكوراً . وهو ما ورد في القرآن الكريم عن أهل مكة وبعض قبائل الحجاز ، من قوله تعالى : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون »[4]، ومن قوله : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون »[5] . وقوله تعالى: « واصطفى البنات على البنين »[6] ، و « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين »[7]، و « أم له البنات ولكم البنون »[8] . وقد ذكر علماء التفسير انه « لا ينبغي ان يكون لله ولد ذكر ولا أنثى . سبحانه نزه جل جلاله بذلك نفسه عما أضافوا اليه ونسبوه من البنات ، فلم يرضوا بجهلهم اذ أضافوا اليه ما لا ينبغي اضافته اليه ، ولا ينبغي أن يكون له من الولد ان يضيفوا اليه ما يشتهونه لأنفسهم ويحبونه لها ولكنهم أضافوا اليه ما يكرهونه لأنفسهم ولا يرضونه لها من البنات ما يقتلونها اذا كانت لهم »[9] . وذكروا « ان مشركي قريش كانوا يقولون : الملائكة بنات الله ،

---

١ Rep. Epigr. 504.
٢ REP. EPIGR. 2831, 4688.
٣ Handbuch, I, S. 244.
٤ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ٥٧ .
٥ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٤٩ .
٦ الصافات ، الرقم ٣٧ . الآية ١٥٣ .
٧ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ١٦ .
٨ الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٣٩ .
٩ تفسير الطبري (٨٣/١٤) ، روح المعاني (١٥٦/١٤) .

وكانوا يعبدونها »[1]. وقد وبخهم القرآن الكريم على قولهم هذا،واستخف بأحلامهم وبما قالوه جهلاً وحماقة .

وذكر علماء التفسير أن كفار قريش قالوا : « الملائكة بنات الله . فسأل أبو بكر من أمهاتهن ؟ فقالوا سروات الجن . يحسبون أنهم خلقوا مما خلق منه إبليس »[2].. وإنهم قالوا : « ان الله وابليس اخوان » ، وان بين الله وبين الجنة نسباً[3] . ولم يذكر علماء التفسير من قال هذا القول من كفار قريش . ولا كيف صارت الملائكة بناتاً لله ، او كيف اصطفى الله له البنات ، ولِمَ فضلهن على البنين ، إذ لم يذكروا ان أهل الجاهلية نسبوا له ولداً ذكراً ، ولم يذكروا هل اختار الله البنات اختياراً من خلقه ، أو من زواج ؟ وقد رأيت ان رواية نسبت الى قريش قولهم إن امهات الملائكة سروات الجن ، وذلك حين سألهم أبو بكر من أمهاتن[4] .

ولا نجد في نصوص المسند إشارة الى زواج الآلهة ، والى وجود بنات لها . وما قلناه من وجود آلهة ذكور ، وآلهة أناث ، هو استنباط من وجود علامة التذكير (ذ) وعلامة التأنيث (ذت) في أسماء الآلهة . أما موضوع زواج القمر بالشمس ، وظهور ولد ذكر منه هو (عثتر) . فهو من استنباط علماء العربيات الجنوبية ومن آرائهم التي استخلصوها من دراستهم للنصوص . فليس في المسند أي شيء عنه . وليس في المسند ، أي شيء عن دين العرب الجنوبيين ، وعن أساطيرهم في الآلهة وفي الخلق ، ولا عن صلواتهم وأدعيتهم وكل ما يتعلق بالدين من أمور .

وكل اسم ورد في المسند استهل بلفظة (ذت)،(ذات) ، فيراد به الشمس، وهي إلهة ، وكل لفظة بدأت بـ (ذ) ، (ذي) ، فإنها تعني إلهاً ، هو القمر أو عثتر . فنحن أمام ثالوث سماوي ، يمثل عقيدة الجاهليين في الألوهية ، كما يمثل عقيدة الساميين عموماً . والثالوث السماوي هو نواة الألوهية عند جميع الساميين، ومنه انبثقت عقيدة التوحيد فيما بعد .

---

١ تفسير الطبري (٢٣/٦٧ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٣/١٣٥) .
٢ تفسير الطبري (٢٣/٦٩) .
٣ المصدر نفسه .
٤ تفسير الطبري (٢٣/٦٩) .

وعثتر ، هو (النجم الثاقب) المذكور في القرآن الكريم[1] . وقد ذهب المفسرون الى ان العرب كانت تسمي الثريا النجم . وذكر بعض منهم ان النجم الثاقب هو زحل . والثاقب الذي قد ارتفع على النجوم[2] . وذكر بعض آخر ان النجم الثاقب هو الجدي[3] . وأقسم في موضع آخر من القرآن الكريم بـ (النجم)[4] . وقد ذهب المفسرون الى ان النجم الثريا[5] ، ونحن لا يهمنا هنا اختلاف علماء التفسير في تثبيت المراد من النجم ، انما يهمنا ان المراد به نجم من النجوم . فنكون أمام ثالوث معبود : هو الشمس والقمر والنجم الثاقب ، الذي هو (عثتر) في نصوص العرب الجنوبيين .

وقد ذكر ان العرب تعبدت للشمس وللقمر ، وان طائفة منها ، تعبدت لكواكب أخرى مثل الشعرى ، حيث تعبدت لها خزاعة وقيس ، ومثل (سهيل) ، حيث تعبدت لها (طيء) . و (عطارد) ، وقد تعبّد له (بنو أسد) . و (الأسد) ، وقد تعبد له بعض قريش . و (الدبران) ، وقد تعبدت له (طسم) . و (الزهرة) ، وقد تعبد لها أكثر العرب . و (زحل) ، وقد تعبد له بعض أهل مكة . حتى ان من الباحثين من زعم ، ان (الكعبة) كانت معبداً لزحل في بادىء الأمر . وتعبد للمشتري قوم من لخم وجذام[6] .

ونجد في الكتابات العربية الجنوبية جملة : (ودم ابم) ، أي (ودٌ أب) و (ابم ودم) ، أي (أبٌ ود) . كما نجد جملة : (ولد ود) و (اولد ود) (اولد هو ود) ، أي (اولاد ود) بمعنى (شعب معين) . وتعبر الجمل الأولى عن معنى ان الإلـه (ود) ، هو إلـه شفيق رحيم عطوف على الإنسان ، هو بالنسبة له بمنزلة الأب من الابن . فهو (أب) للإنسان لا بالمعنى الحقيقي بالطبع ، أي بمعنى ان الانسان انحدر من صلبه ، بل بالمعنى المجازي الذي أشرت اليه . وبهذا المعنى نفسر جملة : (أولاد ودّ) تعبيراً عن معنى (شعب

---

١ سورة الطارق ، رقم ٨٦ ، الآية ٣ .
٢ تفسير الطبري (٩١/٣٠) .
٣ تفسير القرطبي ، الجامع (١/٢٠) .
٤ سورة النجم ، الرقم ٥٣ ، الآية ١ .
٥ تفسير الطبري (٢٤/٢٧) .
٦ Johann Ernest Osiander, Studien über die Varislamische Religion der Araber, in ZDMG., 1853, S. 463 - 505, Grohmann, S. 81.

معين) ، فالإلـه (ود) هو أب هذا الشعب يحميه ويدافع عنه ويعطف عليه . وبهذا المعنى وردت أيضاً جملة (ولد عم) عند القتبانيين و (ولد المقه) عند السبئيين . فـ (عم) الذي هو (القمر) في لغة القتبانيين ، هو بمنزلة الأب لشعبه ، وكذلك (المقه) ، الذي هو (القمر) في لهجة سبأ[1] .

وقد عبّر عن الشمس بلفظة (هـ الت) ، أي (الإلهة) في النصوص العربية الشمالية[2] . وقيل لها (نكرح) في النصوص المعينية ، و (ذت حمم) (ذات حمم) (ذات حميم) في النصوص السبئية ، كما قيل لها (ذت بعدن) و(ذت غضرن) ، و (ذت برن) ، و (ذت ظهرن) ، في هذه النصوص كذلك . وقيل لها (ذت صنتم) و (ذت صهرن) و (ذت رحبن) في النصوص القتبانية[3] . ومن الممكن التعرف على بعض هذه الأسماء التي أريد بها الشمس . فـ (ذت حمم) ، بمعنى (ذات حمم) ، و (ذات حميم) . وقد وردت لفظة (حميم) و(يحموم) في القرآن الكريم[4] . والحميم الحار الشديد الحرارة ، المتقد من شدة الحرّ الساخن الشديد السخونة[5] . وقد ذكر علماء التفسير أن (اليحموم) ، دخان حميم ، ودخان شديد السواد يخرج من نار جهنم[6] . فمعنى (ذت حمم) ، إذن ، الإلهة ذات الحرارة الشديدة المتقدة المهلكة ، التي تلفح وتحرق . والشمس ، نفسها حارة ، ملتهبة متقدة . لذلك يكون الناس قد أخذوا صفتها هذه منها ، فأطلقوها عليها ، وصاروا ينعتونها بها ، ويخيفون الناس منها ، بانتقامها منهم إن خالفوا أمرها وعملوا عملاً يثير غضبها عليهم .

ويقابل هذه الإلهة ذات الحميم ، الإلـه (الـ حمون) (حمون) و (بعل حمون) عند الساميين الشماليين . فهذا الإلـه الذكر عند الساميين الشماليين ، بسبب ان لفظة (الشمس) ، نفسها مذكرة عندهم ، هو ذو حميم وحما، أي ذو سخونة وحماوة وشدة حرارة[7] . وقد نعت عندهم بالنعت الذي نعت به عند العرب

١ Handbuch, I, S. 217, D. Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, S. 61.
٢ Handbuch, I, S. 224.
٣ Handbuch, I, S. 224, 260.
٤ الواقعة ، الرقم ٥٦ ، الآية ٤٣ .
٥ تاج العروس (٧/٢٥٩ وما بعدها) ، (حمم) .
٦ تفسير الطبري (٢٧/١١٠ وما بعدها) .
٧ Handbuch, I, S. 225.

الجنوبيين . فهو إلّه ذو حرارة مفزعة ، وحميم لا يوصف . وقد استمد هذا الوصف من الطبيعة بالطبع . فالشمس مبعث الحرارة على هذه الأرض ، يدرك الانسان حرارتها في كل مكان . فهي اذن (ذت حمم) حقاً .

وعرفت الشمس بـ (اثرت) في كتابات قتبانية ، ومعناها : (اللامعة) ، أو الشديدة اللمعان بعبارة أصح والمتوهجة . فهي في معنى (ذت حمم) . وعرفت أيضاً بـ (ذت اثر) ، (ذات أثر) ، وبـ (ربت اثر) ، (ربة أثر)[1] . ونجد في النصوص النبطية الإلهة الشمس وقد عرفت بـ (ربت الاثر) بمعنى ربة التوهج ، مما يدل على ان (اثرت) ، و (ذت اثر) ، و (ربت أثر) ، في القتبانية هذه الإلهة الشمس[2] .

وقد يعبر عن (الشمس) بـ (الفرس) . والفرس من الحيوانات التي قدسها قدماء الساميين . وقد كان العرب الجنوبيون يتقدمون بتماثيل الخيل، تقرباً الى الآلهة. ومنها الإلهة (ذت بعدن) (ذات البعد) ، أي البعيدة ، وهي الشمس[3] .

وأما (عثتر) ، الذي هو (الزهرة) ، فيرد اسمه في نصوص عربية جنوبية كثيرة . ولاسمه هذا صلة بأسماء بعض الجاهليين الواردة الينا ، مثل : (أوس عثت) بمعنى (عطية عثتر) و (لحيعثت) (لحى عثت)[4] .

وفي الكتابات العربية الجنوبية أسماء يظن انها تخص الإلّه (عثتر) . منها : (ذقبضم) ، و (ذيهرق) ، و (ذجفت) ، و (ذجرب)، و(جرب)، و (متب نطين) ، و (متب قبت) ، و (متب مضجب) ، و (يهر) و (بر) وغيرها[5] .

وقد عرف (عثتر) بـ (الشارق) في الكتابات ، فورد (عثتر شرقن) أي (عثتر الشارق) . وعرف بـ (شرقن) فقط . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن المراد من (شرقن) بمعنى الطالع من الشرق ، أو (عثتر المشرق) . وهو تفسير رده بعض آخر من الباحثين ، إذ رأوا أن (شرقن) ، بمعنى

---

١ Handbuch, I, S. 226.

٢ Handbuch, I, S. 226.

٣ Handbuch, I, S. 227.

٤ Handbuch, I, S. 228.

٥ Handbuch, I, S. 228.

(الشارق) . وهي لفظة ترد في اللهجات العربية الشمالية[1] . وقـــد سبق لي أن بينت رأي المفسرين في (النجم الثاقب) المذكور في القرآن الكريم ، وقلت باحتمال المراد به هذا الكوكب،وان ذهبوا الى انه الثريا أو زحل أو الجدي . و(الشارق) صنم من أصنام الجاهليين تسمى به عدد من أهل الجاهلية،سموا بـ (عبد الشارق)[2] قد يكون رمزاً لهذا الإلـه .

وورد في بعض كتابات المســـند : (ذ غربم) ، و (عثتر ذ غربم) أي (الغارب) و (عثتر الغارب) . ومعنى ذلك (نجمة الغروب) ، أو (نجمة المساء) ، و (كوكب المساء) ، في مقـــابل (نجمة الصباح) و (كوكب الصباح)[3] .

وورد (عثتر نورو) ، و (نورو) ، أي (عثتر نور) ، (نور)[4] . ونور صفة من صفات الله في الاسلام . (الله نور السماوات والأرض . مثل نوره). ولفظة (نورو) ، هي نعت من نعوت (عثتر) . وورد (سحرن) ، بمعنى السحر . والسحر ، قبيل الصبح وآخر الليل ، فيراد بذلك (كوكب السحر)، أي الكوكب الذي يطلع عند طلوع السحر . كما ورد (متب نطـــين) ، أي (الحامل للرطوبة) ، وورد (عثتر قهحم) ، أي (عثتر القدير) و (عثتر القادر) و (القاهر) ، و (سمعم) ، أي (السميع) ، و (نوبم) و (نبعن)[5] و (يغل) (يغلن) بمعنى المدمر ، والمنتقم . وقد ورد هذا النعت في أحجار القبور بصورة خاصة . وذلك لتذكير من يحاول تغيير الحجر أو أخذه من موضعه أو تدميره أو إلحاق أذى به ، أو الاستفادة منه في أغراض أخرى ، بأنه في حماية إلـه قدير منتقم[6] .

وقد ذهب بعض البـــاحثين الى أن الإلـه (رضى) (رضو) الذي يرد في النصوص الثمودية والصفوية ، هو الإلـه (عثتر) . وهو صنم ذكره أهل الأخبار، لكنهم لم يذكروا شيئاً عن صلته بالكواكب ولا عن المعبود الذي يمثله[7] .

---

١ Handbuch, I, S. 228, Fell, in ZDMG., 54, (1900), S. 231 - 259.

٢ تاج العروس (٦/٣٩٣) ، (شرق) .

٣ Arabien, S. 245.

٤ سورة النور ، الآية ٣٥ ، تفسير الطبري (١٨/١٠٤) ، (١٨/١٤٤) .

٥ Rep. Epigr. 4194.

٦ Arabien, S. 245.

٧ Handbuch, I, S. 229.

وقد ورد في الأخبار المتعلقة بـ (الرها) ان أهل هذه المدينة ، كانوا يعبدون الشمس ويعتقدون بوجود إلـه يطلع قبلها اسمه (أزيزوس) Azizos ، وإلـه يظهر بعدها ، يسمى (مونيموس) Monimos . وذهب الباحثون الى ان (أزيزوس) ، هو (عزيز) . وهو نجم الصباح ، ويطلع قبل طلوع الشمس. ويمثل (رضى) (رضو) ، و (عثتر) . ويرد اسم (رضى) في الكتابات التدمرية كذلك[1] . و (عزيز) (العزيز) من صفات الله في الاسلام .

وقد ذهب بعض الباحثين الى ان الصنم المنحوت على شكل طفل هو رمز لـ (عثتر) ، أي (رضى) (رضو) ، و (عزيز) . وقد حفر على شكل طفل عاري الجسم في الكتابات التدمرية . أما الشمس والقمر ، فقد مثلا انسانين كاملين . ونجد هذا التصور للآلهة في الديانات الفطرية ، التي استمدت ادراكها لِكُنْه الآلهة عن مظاهر الطبيعة[2] .

ولعلّ تصور الجاهليين الإلـه (رضو) على هيأة طفل ، هو الذي يحلّ لنا المشكلة الواردة في أخبار (نيلوس) Nilus عن تقديم العرب Saracens قرابين أطفالاً لكوكب الصباح . ذكر (نيلوس) أن العرب سرقوا ابنه الجميل الصغير (ثيودولس) Théodulus ، وقرروا تقديمه قرباناً لكوكب الصباح . وقد قضى الطفل ليلة تعسة صعبة ، فلما طلع الكوكب ، وحان وقت تقريب الطفل قرباناً له ، نام مختطفوه ، ولم يستيقظوا إلا وقد طلعت الشمس ، وفات وقت القربان، وبذلك نجا الطفل من الهلاك[3] . وقد تفسر جملة « إننا نقدم لك قرباً يشبهك » الواردة في دعاء عثر على نصه في (حرّان) قصة تقديم الأطفال الجميلة قرابين الى هذا الإلـه[4] .

وقد أشار كتاب يونان الى تعبد العرب الى الشمس والقمر وكوكب الصباح، وهي أجرام سماوية تراها العين . ذاكرين أن العرب لا يتعبدون لآلهة روحية لا يبصرونها بأعينهم . ولهذا تعبدوا لهذه الأحرام المادية وللأحجار[5] .

---

١ Handbuch, I, S. 229.

٢ Handbuch, I, S. 231.

٣ Handbuch, I, S. 203, Nili Opera, Tomus, 79, 1865, in Migne, Patrologia, Series Graeaca.

٤ Handbuch, I, S. 231.

٥ المصدر نفسه .

وأما (مونيموس) Monimos ، فإنه (منعم) . و (منعم) من صفات الله في الإسلام . فالله هو (المنعم) المتفضل على عباده العزيز المقتدر .

وذهب بعض الباحثين الى أن الصنم (ذو الخلصة) المذكور في كتب أهل الأخبار ، والذي كان له بيت يدعى : (الكعبة اليمانية) ، ويقال له (الكعبة الشامية) أيضاً ، والذي هدم في الاسلام ، هو تعبير آخر عن الصنم (عثتر) ، أي الإلـه المكون مع القمر والشمس للثالوث[1] .

ويظن ان (ملك) اسم آخر من أسماء (عثتر) . وقد تسمى به رجل عرف بـ (عبد ملك) . كما ورد اسم (عبد ملكا) في النصوص النبطية والإرمية ، بمعنى (عبد الملك)[2] . ويرد اسم (ملك ال) (ملك ايل) كثيراً في الكتابات الثمودية . كما ورد في كتابة من الكتابات القتبانية (مختن ملكن)[3] . وقد ظن ان لفظة (ملك) تعني ملكاً ، أي رئيس حكومة ملكية ، فترجمت جملة (مختن ملكن) بـ (مختن الملك) ، أي ملك قتبان . غير ان هذه الترجمة وإن كانت ترجمة مقبولة ، إلا انها غير دقيقة . ولو ترجمت لفظة (ملكن) بمعنى (الملك) ، على انه اسم إلـه لكانت الترجمة أدق وأصح . فنحن نجد النص القتباني الذي وردت فيه جملة (مختن ملكن) يقول : « بنى الملك ورمّ معبد ودّ واثرت ومختن ملكن) ، أي « بنى الملك ورمّ معبد ود وأثرت ومختن الملك» ، ولو ترجمناها على هذه الصورة : « بنى الملك ورم معبد ود وأثرت ومعبد الإلـه الملك » ، كانت الترجمة أنسب وأقبل . ويجب ان نتذكر ان الله هو : الملك ، في الاسلام ، وان (عبد الملك) ، وهو من أسماء المسلمين كذلك يعني : عبد الله . وان (الملكوت) من الملك مختصة بملك الله . ورد في القرآن : « وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض »[4] .

ومن الممكن فهم الصلة بين لفظة (ملك) التي تعني إلـه ، وبين لفظة (ملك) المالك على الأرض ، أي الملك الدنيوي . فالإلـه مالك ، والملك مالك أيضاً ، مالك شعبه . ومن هنا فلا غرابة اذا ما رأينا عقيدة تقديس الملوك عند الشعوب

---

١ Handbuch, I, S. 232.

٢ Handbuch, I, S. 232

٣ Hommel, Aufs., S. 206.

٤ تاج العروس (١٨١/٧) ، (ملك) .

القديمة ، واعتبار بعضها ملوكها من نسل الآلهة . فالآلهة قوة خارقة، والملوك قوة مسيطرة مهيمنة ، تفعل في القديم ما تشاء بغير حساب ، وهي ألسنة الآلهة الناطقة على الأرض ، فلا بد وان تكون للآلهـة اذن صلة بالملوك ، ولا بد وان يكون لملوك الأرض نسب وان تكون لهم قرابة بالآلهة . وقد فسر بعض الباحثين جملة: (ولد ود) ، التي نعت بها أحد ملوك قتبان ، تفسيراً بهذا المعنى ، تفسيراً يعبر عن اعتقاد القوم ، بأن ملوكهم هم من نسل الإلـه (ود)[1] . ولكني أرى اننا لو فسرنا لفظة (ولد) بالمعنى المجازي ، أي ولد الإلـه ود على سبيل المجاز ، بمعنى ان الإلـه منه بمنزلة الوالد من الولد ، في العطف والود ، فإن هذا التفسير يكون مقبولاً أكثر من تفسير الولد المتسلسل من صلب الإلـه ود .

الآلهة :

توصلنا من دراساتنا المتقدمة ، الى أن الآلهة كالبشر ذكوراً وأناثاً . وتوصلنا منها الى أن القمر ، هو مذكر عند جميع العرب على اختلاف لهجاتهم ، وأما (الشمس) ، فهي أنثى عندهم . وأما (النجم) ، الذي هو (عثتر)، فهو ولد ، عند العرب الجنوبيين . وعلى ذلك فنحن أمام ثالوث سمـاوي يتألف من إلاهين ذكرين ومن إلاهة أنثى .

وقد عجزنا عن الإهتداء الى كيفية ظهور هذا الثالوث . أو العائلة الصغـيرة المختارة المكونة من ذكرين وأنثى . لأننا لم نعثر على نص جاهلي أو غير جاهلي يتحدث عن كيفية ظهوره . وعجزنا عن التوصل الى علاقة أعضاء هذا الثالوث بعضهم ببعض ، وذلك لسبب مماثل ، هو عدم وجود نص لدينا يشرح لنا هذه العلاقة ! ولم نتمكن من العثور على أي مورد يشرح لنا كيفية ظهور هذه الآلهة، ولا سيما الإلـه (عثتر) الذي يعد ابناً للقمر وللشمس .

ولم نعثر ويا للأسف على نصوص جاهلية فيها بعض الشيء عن كيفية التقـاء القمر بالشمس ، وفي كيفية طلوع (النجم) (عثتر) . فبينما نجد في اللغات اليونانية والهندية واللاتينية تعابير عن التقاء الشمس بالقمر ، فيهـا معنى النكاح ،

---

[1] Handbuch, I, S. 233.

نجد أنفسنا قد عجزنا عن الحصول على مثل هذه المصطلحات في النصوص الجاهلية، ولهذا لم نتمكن من تكوين رأي عن تصور الصلة التي كان يراها الجاهليون بين الشمس والقمر . وفي اليونانية والهندية وأساطير الشعوب الأخرى ، أن القمر اقترن بالشمس ، وتزوج بها ، وتغنت بذلك الزواج[1] .

وبالنظر لوجود الإله الذكر والإلهة الأنثى في نصوص المسند ، وفي مؤلفات أهل الأخبار ، فلا يستبعد احتمال مجيء يوم قد نعثر فيه على نصوص قد تتعرض الى اسطورة زواج القمر بالشمس . وفي عربيتنا لفظة (اقتران) نطلقها على اقتران الشمس بالقمر وعلى اقتران الكواكب بعضها ببعض ، وترد في كتب النجوم والأنواء . وفي هذه اللفظة معنى الازدواج .

إن هذه الأسطورة التي جعلت من الأجرام السماوية آلهة ، وحصرت الألوهية في ثلاثة أجرام منها في الغالب ثم زوجتها وأولدتها ، حولت هذا الزواج الى زواج حقيقي سماوي يشبه زواج الإنسان على سطح الأرض . زواج تكوّن من ذكر وأنثى ، من أب وأم ، انتج ولداً عند العرب الجنوبيين ، وولدين عند شعوب أخرى غير عربية هما كوكبا الصباح والمساء ، أو بناتاً هي الملائكة أو الجن عند فريق من الجاهليين .

ونجد الإله (القمر) يلعب دوراً كبيراً في الأساطير الدينية عند الجاهليين . دوراً يتناسب مع مقامه باعتباره رجلاً بعلاً أي زوجاً ، والزوج هو (البعل)، والرب والسيد وصاحب الكلمة على زوجه وأهله عند العرب . وهو القوي ذو الحق ، وعلى الزوجة حق الطاعة والخضوع له . وبناءً عل هذه النظرية جعل الإله القمر صاحب الحول والصول والقوة في عقيدة أهل الجاهلية في الأرباب . ومن هذا الإله القوي الجبار ، جاء (الله) بعد أن تحول الثالوث عند بعض الجاهليين الى (واحد) ، واستخلصوا منه عبادة (الله) .

وقد عرف القمر بـ (ثور) . ولعل ذلك بسبب قرنيه اللذين يذكران بالهلال . دُعي بهذه التسمية ، أي (ثور) في الكتابات[2] . وقد رمز الى الإله القمر بـ (ثور) عند شعوب سامية قديمة أخرى[3] .

١ Handbuch, I, S. 206. ff.

٢ Glaser 1546, Wiever Museum 5.

٣ Handbuch, I, S. 214, D. Nielsen, Altarabische Mondreligion, S. 110.

ونظراً لأن القمر هو الإلـه الذكر ، صار بمنزلة الأب . فدعي بـ (ابم) ، أي (أب) . ونعت بمحب ، فقيل له (ودم) (ود) ، لأنه يحب عبيده ويشفق عليهم . وهو (كهلن) ، أي القادر والقدير ، وهو (حكم) ، اي الحاكم والحكيم ، وهو (سمعم) ، اي السامع والسميع ، وهو (علم) ، اي العالم والعليم ، والبصير المبصر ، وهو (نهى) ، اي الناهي[1] ، وهو (صدق) الصادق الصديق المتعالي المنعم الكريم الى غير ذلك من نعوت عرف بها ورمز بها اليه في النصوص .

ويجب ان نتنبه الى ان الكتابات الجاهلية وكذلك أخبار أهل الأخبار ، قد نصتا على اسم الإلهة الشمس ، فدعوها باسمها ، اي الشمس . أما القمر ، فلا نجد لاسمه الخاص ذكراً يتناسب مع مقامه . نعم ذكر بـ (شهر) و (سين) في النصوص العربية الجنوبية . و (شهر) القمر في العربيات الجنوبية ، ولا زال الناس يسمونه بهذه التسمية في جنوبي جزيرة العرب . لكننا نجد أسماءه المأخوذة من النعوت ، اي من صفاته تطغى عليه . فهو (ود) في الغالب في النصوص المعينية . ويظن من لا علم عميق له بالعربيات الجنوبية ، انه اسم إلـه خاص ، بينما هو اسم من أسماء عديدة للإلـه القمر عند شعب معين ، وهو (المقه) ، اي المنير والنور عند السبئيين ، اي صفة للقمر . وهكذا قل عن باقي أسمائه ، فهي صفات له في الغالب ، لا اسم علم خاص به ، كما في حالة الشمس .

ونحن نجد هذه الظاهرة في روايات أهل الأخبار أيضاً . فبينما تنص أخبار أهل الأخبار على تعبد بعض العرب للشمس ، وعلى مخاطبتهم لها بـ (الإلاهة) وبـ (لاهة)[2] . وعلى تعبد بعضهم لزحل أو للمشتري أو لغيرهما من الأجرام السماوية كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر ، لا نجد للقمر ذكراً في أخبار أهل الأخبار . فلم يشيروا الى اسمه ولا الى تعبد الجاهليين له ، حتى ليذهب الظن بعد تتبع جميع ما ورد في تلك الأخبار واستقصاءها استقصاء تاماً ان الجاهليين لم يعرفوا عبادة القمر . والظاهر أن أهل الأخبار كانوا في جهل من عبادة الجاهليين للقمر، بسبب ما شاهدوه من تعبد أهل مكة وغيرهم وكذلك القبائل الى الأصنام وتقربهم

---

١ Handbuch, I. S. 215, D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriften, S. 15.

٢ ابن الاجدابي (٧٩) .

اليها ، وقولهم أنها تقربهم الى الله،وبسبب نص القرآن الكريم على تعبد الجاهليين وتقربهم للأصنام والأوثان . فذهبوا الى أنهم كانوا مجرد عبـــدة أوثان ولم يفطنوا الى أنهم اتخذوا الأصنام واسطة وشفيعة للآلهة التي هي أجرام سماوية في الأصل . أو لأن أهل الجاهلية القريبين من الإسلام ، كانوا قد ابتعدوا عن عبادة الكواكب ولم يعودوا يذكرونهـــا ذكر أجدادهم لها ، واختصروا عبادتها ، بأن جعلوا من الثالوث إلهاً واحداً ، هو (الله) . فتقربوا اليه ، وعكفوا يتقربون اليه بالتقرب الى الأصنـــام والأوثان . وذلك باتخاذهم إياها رموزاً مشخصة وممثلة للإلـه على الأرض . فكان لكلّ قبيلة صنم يقربهم في زعمهم الى الله .

واذا أردنا تلخيص ما توصلنا اليه عن آلهة العرب الجنوبيين ، قلنا انهم تعبدوا كما ذكرنا لثالوث سماوي تألّف من القمر والشمس ومن عثتر ، وهو الزهرة في رأي معظم الباحثين . وقد عرف القمر بـ (ود) عند المعينيين ، وبـ (المقه) عند السبئيين ، وبـ (عم) عند قتبان ، وبـ (سن) (سين) عند حضرموت، وبـ (ود) عند أوسان . وعرفت الشمس بـ (نكرح) عند المعينيين،وبـ (شمس) عند السبئيين ، وبـ (اثرت) (اثيرت) عند القتبانيين ، وبـ (شمس) عند أهل حضرموت وأوسان . وعرف (عثتر) بـ (عثتر) عند المعينيين والسبئيين وعند قتبان وأهل حضرموت والأوسانيين[1] .

وقد رمز الفن العربي الجنوبي الى هذا الثالوث السماوي المقدس برموز. فرمز الى القمر بهلال نحت او نقش على الأحجار والأخشاب والمعادن . والهلال ، يشير بالطبع الى مطلع القمر في أول الشهر القمري . كما اشير اليه برأس ثور ذي قرنين . أما الشمس ، فقد صورت قرصاً او دائرة ، او كتلـــة او هالة ، والقرص ، صورة طبيعية لقرص الشمس ، التي تظهر في السماء قرصاً وهاجاً يبعث الحرارة والنور . وأما الزهرة ، فرمز اليها بصورة نجمة في النقوش العربية الجنوبية وبثمانية خيوط اشعاعية في النصوص البابلية[2] . وهي ذكر وولد عند العرب الجنوبيين .

---

١ A. Jamme, La Religion Sudarabe Preislamique, in M. Brillant et R. Aigrain, Histoire des Religions, IV, Paris, 1956, 239-307, G. Ryckmans, Les Religions Arabes Preislamiques, Bibliothèque de Muséon, 26, Louvian 1951, 25-64, G. Ryckmans, De Maangod in de Voorislami.

٢ Handbuch, I. S. 201, Grohmann, Göttersymbole, S. 37-44, H. Primy, Altorientalische Symbolik, Berlin, 1915, S. 75, 76, 142.

وقد هدم الإسلام عبادة الكواكب ، وحرم السجود للشمس وللقمر ، والصلاة لها ، وحاول اجتثاث كل ما له صلة بتلك العبادة ، فلم يبق اليوم من العرب من يتعبد للثالوث السماوي المقدس . ولكننا لا نزال نرى بعض العوام يغضبون إذا سب أحدهم الشمس أو القمر ، ويتقرب الأطفال الى الشمس بأسنانهم التي يخلعونها ، لتعطيهم أسنان غزال ، أي اسناناً جميلة بيضاء ، الى غير ذلك من أوابد يعرفها الأعراب .

وفي القرآن الكريم : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر . واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون »[1] . « فله فاسجدوا وإياه فاعبدوا دونهما ، فإنه إن شاء طمس ضوءهما فترككم حيارى في ظلمة لا تهتدون سبيلاً ولا تبصرون شيئاً »[2] . وقد خاطب الله قريشاً وغيرهم بذلك ، مما يدل على أنهم كانوا يسجدون للشمس والقمر . ولعلهم كانوا يفعلون ذلك عند الشروق وعند الغروب . وقد ذكر (ابن كثير) في تفسيره الآية المذكورة ، ما يأتي : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به »[3] .

والسجود الخضوع ، ومنه سجود الصلاة ، وهو وضع الجبهة على الأرض ، والانحناء ، وسجد طأطأ رأسه . وكان النصارى يسجدون لأحبارهم ، أي سادتهم من رجال دينهم . و (المسجد) من الألفاظ المعروفة عند الجاهليين . وهو البيت الذي يسجد فيه ، وكل موضع يتعبد فيه ، فهو مسجد[4] .

صفات الآلهة :

ومعظم أسماء الآلهة هو كما سبق ان ذكرت صفات في الأصل ، استعملت

---

١ فصلت ، رقم ٤١ ، الآية ٣٧ .
٢ تفسير الطبري (٧٧/٢٤) .
٣ تفسير ابن كثير (١٠٢/٤) .
٤ قال حميد بن ثور :
فضول أزمتها أسجدت سجود النصارى لاحبارها
تاج العروس (٣٧١/٢) ، (سجد) .

استعمال الأسماء الأعلام . وهي كثيرة يتبين من دراستها ان الآلهة كالانسان ، تغضب وترضى ، تحب وتبغض ، قوية شديدة ، رؤوفة رحيمة شفيقة ، اذا رضيت عن انسان أسعدته في هذه الدنيا ، وإن غضبت عليه أهلكته، سميعة بصيرة حكيمة حليمة . باقية خالدة خلود الدهر ، بينما الانسان هالك .

ومن النعوت الواردة في نصوص المسند : (رحم) ، أي (رحيم) ، فالآلهة رحيمة بعبادها ، تغفر ذنوبهم وتصفح عن سيئاتهم ، وهي (حليمة) (حلم) ، سميعة (سمع) ، قديمة (كهلن) ، تحمي عبادها حماية الأب لأبنائه (ابحمى) ، ترضى عنهم رضاء الأب عن أولاده (اب رضو) . شفيقة بهم شفقة الأب بأبنائه (اب شفق) ، وتهتم بهم (اب شعر) ، وهي فخورة (ايل فخر) (الفخر) ، عالية سيدة العالم (ال تعلى) (ايل تعلى) ، (ايل تعالى) ، و (بعل) (بعلت)[1] .

ومن الصفات والنعوت التي أطلقتها النصوص الثمودية على الآلهة : (عم) ، بمعنى رحيم ورؤوف . و (سمع) ، بمعنى (سميع) ، و (رم بمعنى العظيم ، و (الرامي) ، والكبير . و (ابتر) (أبتر) بالمعنى المفهوم من اللفظة في عربيتنا ، اي ، ليس له ولد[2] . ولهذه الصفة أهمية كبيرة بالنسبة لدارس الحياة الدينية وتطور فكرة الألوهية عند الجاهليين ، لأنها تشير الى ان صاحب النص الذي خاطب إلهه بقوله : (ه الـه ابتر) ، (ها إلـه ابتر) ، بمعنى (فيا الله الأبتر) ، اي الإلـه الذي لم يلد ولا ولد له ، كان يعتقد ان إلهه لم يلد أحداً ، فهو فرد واحد أحد . وقد وردت لفظة (ابتر) في نص ختم بهذه الجملة : (ه الـه ابتر بلك سر لن)[3] ، اي : (فيا إلاه أبتر بلك سرور لنا) . او بتعبير أوضح : (فيا إلهي أو إلاهنا الذي ليس له ولد . بلك نسرّ) ، أو (فيا إلهنا أبتر بك سرور لنا) ، أو (أنت سرور لنا) .

والآلهة تساعد الناس وتعاونهم وتغيثهم . هذا نص ثمودي كتبه رجل من قوم ثمود ، توسل فيه الى إلهه أن يرسل المسرات (ميسر) ، الى من نزلت بهم

---

١ Arabien, 246.

٢ Hu 475, JSA 302, 305, 306, H. Grimme, S. 66.

٣ السطر الرابع من النص المذكور .

الدواهي من الناس . وان يعاون العاملين . (ذ اتا يعمل)[1] . وهذا نص آخر ، كتبه شخص آخر ، وجهه الى الإلـه (رضو) ، يقول فيـه : (ه رضو ات عون عمل)[2] ، أي (يا رضو امنح العون لمـن يعمل) ، أو (يا إلهي رضو العون للعامل) .

والآلهة ضياء للناس ، تضيء لهم سواء السبيل ، تمنحهم نعمة الرؤية وترشدهم الى النور . هذا نص يقول : (الى ن ا م ت ض ي ل ن)[3]. فهـو يطلب من الإلـه أو من المعبد ، أن يضيء لكاتبي النص السبيل ، وأن ينقـذهم من الغفوة التي أصيبوا بها ، ليتجلى لهم الحق . وفي نص آخر: « بلك ري نور تمت حيت »[4]، ومعناه « بلك رأينا النور . وتمت الحياة » ، أو « بلك نور . ضياء .. حياة»، أو ما شابه ذلك . فالإلـه هو نور لهذه الحياة ، وضياء للناس .

والله عالم بكل شيء ، ذو المعرفة والعلم . وقـد وردت صفة (ه ع ر ف) (ها عارف) (ها عرف) أي العارف في نص وسم بـ JSA 568 [5] . وفي نص آخر ، وسم بـ Hu 626 [6] . وهو العالم المحيط بكل شيء ، وقـد عبر عن هذه الصفة بلفظة (حصي) ، و (أحصى) بمعنى أحاط وأحصى كـل شيء عدداً[7] ، فالله محيط بكل شيء عالم لا يخفى على علمه شيء .

ووصفت الآلهة في النصوص الثمودية بأوصاف أخرى ، مثـل (عبر) بمعنى (القدير) والقوي والمعتبر ، و (ذ عبر) ، (ذو عـبر) بمعنى ذو الحول والطول ، وذو القوة والقدرة . و (ذبر) ، وهي بهذا المعنى أيضاً[8] . وهـو (العوذ) ، (عوذ) ، والملجأ لكل إنسان[9] . وهو (العلي) ، وقد وردت جملة (عل رضو)، بمعنى (أعل رضو) ، وهي جملة تذكرنا بقول (أبو سفيان)

---

١ Hu 643/6, JSA 409, 504, Grimme, S. 33-34.

٢ Hu 643/6, Grimme 33.

٣ Grimme, S. 35, 41.

٤ Grimme, S. 41.

٥ Grimme, S. 37.

٦ Grimme, S. 42.

٧ تاج العروس (٩١/١٠) .

٨ Grimme, S. 44.

٩ Grimme, S. 44.

يوم معركة (أحد): « اعلُ هبل ، اعلُ هبل »[1] . وإني أرجح أن لفظة (عل) في هذا النص ، تعني (على) ، أي حرف جر ، فيكون المعنى (على رضو الملجأ) ، و (على رضو المعوّل) .

ولم أعثر في النصوص الجاهلية على نعت يشير الى استخفاف أو حطة بالآلهة . فلم أجد إلهاً نعت فيها باللؤم أو بالسرقة ، أو بالاعتداء على الأعراض ، أو رمي بالحسد ، حسد الناس أو حسد أمثاله من الأرباب ، كما لم أجد ما نجده في الأساطير اليونانية من وجود فروق بين الآلهة ، وتباين بينها في المنزلة والمكانة ، بحيث نجد آلهة كبيرة غنية ، وآلهة ضعيفة فقيرة تحسد الأولى وتنقم عليها ، وآلهة تسرق وتنهب لحاجتها الى المال ولفقرها ، ولم أجد فيها التخصص الذي نجده في الآلهة اليونانية ، من وجود آلهة للبحار ، وآلهة للهواء ، وآلهة للحب ، وآلهة للخمر ، ونحو ذلك . وكل ما نجده عندهم ، هو وجود آلهة شعوب وقبائل، مثل ود إلـه شعب معين ، والمقه إلـه شعب سبأ ، وهبل إلـه قريش ، وهكذا نشأت من الظروف المحلية التي عاش فيها الجاهليون .

ولا أستبعد وجود (ميثولوجيا) أي أساطير عند الجاهليين ، تدور حول آلهتهم ، فقد تحدثت عن رأي بعضهم في (الشعرى) ، ولكني أستبعد وجود أساطير دينية معقدة عندهم على شاكلة الأساطير اليونانية ، أو الأساطير المصرية أو الهندية ، لما بين الظروف المحيطة بالجاهليين وبين الشعوب المذكورة من فروق . والأساطير هي من حاصل المجتمع والظروف المتحكمة في الانسان .

وإذا وجدنا آلهة أهل الجاهلية على هذا النحو من الصفات المذكورة ، حساسة ذات حسّ مرهف ، تنفعل بسرعة ، تغضب وترضى ، فيجب أن نعرف أن هذه الصفات ، تمثل خلق من أطلقها على أربابه ، فأرباب الناس من صنعهم ، هو الذي أوجد تلك الأصنام وسوّاها ، فما دام هو موجدها ، فلن تكون آلهته إلا على شاكلته ، إنها صورة صادقة له .

الثواب والعقاب :

وما يفعله الانسان من خير أو شر ، سيكون ثوابه وجزاؤه في هذه الدنيا .

---

[1] Grimme, S. 44.

والآلهة ، هي التي تثيب وتعاقب . تثيب المتقي المتعبد لهـا المتقرب اليها بالنذور وبالبر بمعابدها ، فتعطيه مالاً وتبارك له في نفسه وفي أهله ، وتعطيه ذرية صالحة ذكوراً . وتنجيه من البلايا والآفات ومن الأوبئة والأمراض ، وترجعه سالماً معافى من الحروب ، تشفي جروحه اذا جرح ، وتغدق عليه بالنعم من غنائم الحرب . فهذا هو الثواب . ثواب في الدنيا وكفى .

أما العقوبة ، ففي الدنيا وحدها أيضاً ، وتكون بإنزال البلاء بمن يستحقه من الخارجين على أوامر الآلهة ، المتجاسرين على حرمة المعابد ، المارقين على النظام، المخالفين لسلوك المجتمع ، المتجاوزين على حقوق غيرهم . ومن البلاء الأمراض، من عمى وعور ، واصابة عضو من أعضاء الجسم بعطب ، والأوبئة . ونجد في النصوص توسلات الى الآلهة بأن تصيب من يغير النصوص المدونة الموضوعة شواخص على القبور ، ومن يتطاول على حرمة المقابر ، أو يدفن غريباً فيها بغير اذن ، بالعمى والعور ، لتجاوزه على حرمة القبور . وكان في روع أهل مكة وما حولها ان من يعرض للسائبة ، أو لحرمات الله ، أصابته عقوبة في الدنيا [1] . وعقوبات الدنيا أشد تخويفاً للأعرابي ، وأكثر وقعاً في نفسه من العقوبات المؤجلة في العالم الثاني ، ثم إن معظم أهل الجاهلية لا يؤمنون باليوم الثاني،ولا بحشر وبعث ونشر.

ولولا الثواب والخوف من العقاب في هذه الدنيا ، لما تقدم انسان وهو فقير بائس ، بأعز ما عنده الى آلهته ، على فقره وجوعه ، ليقدمه قربة اليه ، وهو في أشد الحاجة له ، ولما بنى الناس المعابد ، وتقدموا اليها بالهدايا والنذور، ولما ذكر رجل آلهته وتبرك باسمها ، ووضع ملكه في حمايتها ورعايتهـا ، ولعمّت الفوضى المجتمع ، وأكل بعضهم بعضاً ، ونهبوا المال . والخوف من العقوبة في هـذه الدنيا ، ساعد بالطبع كثيراً في ردع الأشرار عن غيهم ، وفي منعهم من الاعتداء على الحرمات ، كما ان الإثابة في هذه الدنيا حملتهم على عمل الخير ، وعلى التقرب الى المعابد والعمل بأوامر رجال الدين ، لتحقيق رضى الآلهة ، وفي نيـل رضاها كسب مادي وربح ملموس أكيد في هذه الحياة .

ولولا الأمل في الرضى والثواب ، والخوف من الآلهة ، لما جعل الناس أنفسهم عبيداً الى الآلهة . فسمّوا أنفسهم (عبد ود) و (امت العزى) (أمة العزى)،

---

١ تفسير الطبري (٥٩/٧) ، تفسير القرطبي (٣٣٦/٦) .

و (عبد يغوث) ، و (عبد مناة) ، وما شابه ذلك من أسماء دُعي أصحابها
بها ، أملاً في العمر الطويل ، وفي التهرب من الموت . فقد كان الآباء والأمهات
ينذرون نذراً ، انه ان ولد لهم مولود ، أخدموه إلهاً من الآلهة ، ودعوه عبداً
له حتى يعيش . يفعل هذا الفعل من لا يعيش له مولود ، ومن يولد له مولود
لكنه لا يعمر طويلاً ، بل يموت طفلاً أو في مقتبل العمر . فأمل الانسان في ان
يضع الإله حمايته ورعايته للمولود ، دفعه على ركوب هذا المركب، لاقناع الآلهة
بدفع الموت عن أبنائهم وحمايتهم منه .

ولدينا نصوص جاهلية عديدة ، تخبر عن تلبية الآلهة توسلات المتعبدين لها ،
ووفائها لهم بما طلبوه منها . ففي نص ثمودي يخاطب انسان ربه (منف) (مناف)
بقوله : (سمعت منف)[1] ، أي (سمعت ندائي يا مناف) ، أي استجبت
لندائي ، فوفيت لي يا إلهي مناف . وقد دوّنه حمداً له وشكراً واعترافاً بفضله
عليه . وفي نص آخر،يخبر صاحبه انه بريء. وان ربه شفاه مما ألم به من مرض .
فيقول (برات) ، أي (برأت)[2] ، و (برتن)[3] ، و (برتتن)[4] . وفي
نص آخر يشكر انسان ربه (صلم)[5] . ولم يرد في النص السبب الذي حمل صاحب
النص على شكر إلهه (صلما) ، لكننا نستطيع ان نحزر ، فنقول انه طلب منه
شيئاً ، فصار على نحو ما أراد فشكر إلهه لذلك . وفي نص آخر ، توسل من
شخص الى إلهه (صلم) لكي يعينه في الفاجعة التي فجع بها[6] . وفي نص آخر،
توسل الى إلهه لأن يمنحه : (خلود) ، أي الخلود ، بمعنى طول العمر[7] .

ومن التوسلات الجميلة التي وجهها الثموديون الى آلهتهم ، قول أحدهم :
(بالهى امت) ، (بـ الهى اموت)[8] ، (بإلهي أموت) ، أو (في حب إلهي
أموت) ، أو (في إلهي أفنى) . فهو يخاطب ربه . وقد ملأ قلبه العشق
نحوه . العشق الإلهي الذي نقرأه في كتب المتصوفة، ونسمعه في تغاريدهم يخاطبون

---

١ Hu. 421, Eu. 775, Hu 505/37, H. Grimme, S. 58.

٢ Hu. 504/34.

٣ Hu. 497.

٤ JSA 503.

٥ « صلم شكر » ، JSA 17.

٦ Grimme, S. 34, 40.

٧ Grimme, S. 35, 41.

٨ Hu 255/20, Eu 250, Grimme, S. 66.

بها الله . ونجد هذا الحب الإلهي والهروب الى الله في نص ثمودي آخر، هذا نصه :
(بم مرر . ب ل ه ى جرت . ب ل ه ى ا م ت لبب ذ ه غ ث ت)[1] .
أي (من مرّ . بإلهي استجرتُ . بإلهي أموت . اعطني لبك . يا مغيث) ،
وبعبارة أوضح : (من مرّ) و (مر) اسم صاحب النص ، فهو يوجه نداءه
الى ربه (استجرتُ بإلهي . وبإلهي أموت . اسمع ندائي يا من يغيث) ، أو
(يا مغيث) . ففي هذه التوسلات وأمثالها رقة الشعور الديني ، والحس المرهف
الذي يكون عند كبار المتصوفة في مناجاتهم الله .

التطاول على الأرباب :

وفي روع أهل الجاهلية ان من سب الأرباب أو تطاول في كلامه عليها، نزلت
به قارعة . فلما أسلم (ضمام بن ثعلبة) السعدي أو التميمي ، وقدم على قومه ،
(فكان أول ما تكلم به ، ان قال : بئست اللات والعزى . قالوا : مه يا ضمام
اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون . قال : انهما والله ما يضران ولا
ينفعان)[2] . ولمّا تحرش الرسول بالأصنام خوّفه المشركون من ان يصاب بسوء ،
والى تخويفهم هذا أشير في القرآن الكريم : « ويخوّفونك بالذين من دونه ، ومن
يضلل الله ، فما له من هاد »[3] . يعني « ويخوّفونك (هؤلاء المشركون) يا محمد
بالذين من دون الله من الأوثان والآلهة أن تصيبك بسوء ، ببراءتك منها وعيبك
لها ، والله كافيك ذلك »[4] . و « كانت زنيرة روميّة، فأسلمت فذهب بصرها ،
فقال المشركون : أعمتها اللات والعزى » ، « وقالت قريش ما أذهب بصرها
إلا اللات والعزى »[5] .

---

١ Hu 518/27, Grimme, S. 67.
٢ الاستيعاب (٢/٢٠٨) ، (حاشية على الاصابة) ،
٣ الزمر ، ٢٩ ، الآية ٣٦ .
٤ تفسير الطبري (٢٤/٥) ، تفسير القرطبي (١٥/٢٥٨) .
٥ الاصابة (٤/٣٠٥) ، (رقم ٤٦٥) .

الفصل السابع والستون

التقرب الى الالهة

وكما تقوم الصداقة بين النـــاس على أساس الود والتقرب والاتصال والتذكر بتقديم الهدايا والألطاف ونفائس الأشياء ، كذلك تقوم الصلة بين الانسان وآلهتـــه على أساس من الود والصداقة أيضاً . وإذ كانت الآلهة أقدر من الانسان ، كان من اللازم على البشر التودد اليها بشتى الطرق المعبرة عن معاني التقرب والتحبب والتعظيم ، لتتذكره ، فتمنّ عليه بالبركة والسعد وبخير ما يشتهيه ويرغب فيه .

والبشر عبيد لآلهتهم ، فعليهم ان يؤدوا لها ما يجب أن يؤديه العبد لسيده . إن على العبد واجبات وفروضاً يجب ان يؤديهـــا لصاحبه ومالكه ، وعلى الانسان كائناً ما كان ان يقوم بأداء ما فرض عليه لآلهته وأربابه في اوقات مكتوبة وفي المناسبات .

ولما كانت عقلية الانسان القديم وعقلية كل بدائي تقوم على فهم الإدراك الحسي في الدرجة الأولى ، كان للهدايا وللنذور والقرابين والشعائر العملية المقام الأول في دياناته ، لأنها ناحية ملموسة تراها الأعين وتدركها الأبصار ، وفيها تضحية تقنع المتدين التقي المتقرب بها الى آلهته بأنه قد قدّم شيئاً ثميناً لها ، وانها لذلك سترضى عنه حتماً ، لأنه قد آثرها على نفسه فقدم اليها أعز الأشياء وأغلاها . انها سترضى عنه ، لأنه لم ينسها ، ولم يغفل عنها ، ولم يفتر حبه لها . وسترضى عنـــه كلما تذكرها وقام بأداء هذه الواجبات المفروضة أو المستحبة لها ، كما يرضى الصديق عن صديقه أو السيد عن عبده ، بإظهار الاخلاص وبالحرص على أداء الأعمال المرضية .

والدين عقيدة ، أي (ايمان) Belief وعمل . والعمل أبين وأظهر وأقوى في الديانات القديمة من الايمان ، بسبب ان الايمـــان بالقلب ، وهو لا يكون إلا بين المرء وربه ، ولا يمكن لأحد الاطلاع عـــلى كنهه . أما العمل فهو تجسيد للايمان وتعبير عنه بصورة عملية واقعية . وهو الناحية المحسوسة الظاهرة للتدين . ولا يفهم البدائي من الدين إلا مظاهره ، التي ترتكز عـــلى تضحية وبذل مادي لارضاء الآلهة ، فعنده انه متى بذل أعز ما يملكه في سبيل آلهته عدّ مؤمناً تقياً ، ترضى عنه الآلهة ، وألسنتها الناطقة بلسانها على الأرض : طبقـــة رجال الدين . ولهذا رأى بعض العلماء ، انه لدراسة دين من الأديان القديمة يجب الاهتمام بشعائره وبالأحكام التي فرضها على أتباعه ، لأنها هي أساس ذلك الدين وجوهره[1] .

لقد كانت ديانات الجاهليين ذات حدود ضيقة ، آلهتها آلهة محلية ، فالإلـه إما إلـه قبيلة وإما إلـه موضع . وطبيعي ان تكون صلة الانسان بإلهه متأثرة بدرجـــة تفكير ذلك الانسان وبالشكل العام للمجتمع . والإلـه في نظرهم هو حامي القبيلة وحامي الموضع ، وهو المدافع عنها وعنه في ايام السلم وفي ايام الحرب ، ما دام الشعب مطيعاً له منفذاً لأوامره وأحكامـــه وللشعائر المرسومة التي يعرفها ويقررها ويقوم بتنفيذها رجال الدين .

ويكون ارضاء الآلهة بالتقرب اليها وبتنفيذ أوامرها التي تعينها وتثبتها خاصتها المختصة بين القبيلة او الشعب ، أعني كهّانها ورجال الدين الذين يعرفون اوامرها وأحكامها خير معرفة ، وهم الذين يفسرونها ويأمرون بتنفيذها بين الناس . وقد يكون هذا التنفيذ في ايام او أشهر ثابتة معينة تكون لهـا قدسية وحرمة خاصة ، وقد يكون في مواسم . يرى الناس ان آلهتهم تكون في تلك الأوقات حاضرة متهيئة قريبة منهم تسمع شكاواهم وما عندهم من مطالب . ويكون هـذا التنفيذ بصور مختلفة أهمها زيارة المعابد والتبرك بأصنامها ، وتقديم النذور لها ، وايقاف الحبوس عليها ، والحج اليها في الأوقات المفروضة وفي كل وقت آخـــر ممكن ، وأداء الصدقات والزكاة ، تزكية للمال ، وتطهيراً للنفس من الذنوب .

ومن اهم ما تقرب به الانسان الى آلهته (النذور) و (القرابين) و (المنح) ، اي الصدقات والعطايا . وتدخل (الذبائح) في باب النـــذور والقرابين كذلك .

---

[1] Robertson, p. 16.

ويجب ان اضيف (القرى) اي الضيافة عليها أيضاً ، لما لها من صبغة أخلاقية دينيــة ، حتى صارت الضيافة من الواجبات المثبتــة في نظام (مكة) . وهي (الرفادة) أي تقديم الطعام لمن يحتاج اليه .

والمنحة عند العرب ان يعطي الرجل صاحبه المال هبة أو صلة فيكون له ، او ان يمنح الرجل أخاه ناقة او شاة يحلبها زماناً واياماً ثم يردّها . وقد تقــع على الأرض،وهي ان يعطي الرجل غيره أرضاً ليزرعها ويستفيد منها،هبة او عارية[1] . ويظهر من الاشارة اليها في الحديث ، انها كانت من أعمال البر المعروفة عند أهل الجاهلية ، وكانوا يتقربون بها الى آلهتهم .

ولم تحدد الوثنية الأشياء التي كان على الانسان ان يتقدم بها الى آلهته قربة اليها او وفاءً لنذر ، بل تركت له الأبواب مفتوحة ، فله ان يتقرب الى أربابه بكل ما يختار ويشاء ، من امور بسيطة رخيصة الى أشياء ثمينة غالية ، كــل حسب مقدوره وقابلياته . فنجد بين النذور مباخر وتماثيل ومصابيح ، واشياء نفيسة من ذهب او من جواهر . كما كانوا يتبركون بوضع حصونهم وبيوتهم وبساتينهم ومزارعهم في حراسة الآلهة ورعايتها ، لتحفظها ولتحفظ أصحابها .

ويمكن تقسيم ما تقدم به الجاهليون الى أربابهم الى قسمين : قسم إجباري ، يجب الوفاء به بسبب (نذر) مثلاً ؛ وقسم تطوعي ، اي اختياري مثل (المنح) والذبائح التي تقدم في المواسم وفي سائر الأيام ، ويقال لها (ندب) و (ندبت) (ندبة) . و (المندوب) في عربيتنا المستحب[2] . وأدخل في القسم الأول ما يقال له (خطت) (خطات) (خطأة) ، اي (الحطيئة)[3] . ويراد بها تقديم (فدية) عن عمل مخالف قام به انسان ، مثل تقديم ذبيحة بسبب دخول انسان نجس في المعبد .

واذا كنا في شيء من الجهل بالنسبة الى الزكاة التي كان الناس يدفعونها في نجد او العربية الشرقية او في الحجاز الى المعابد والى رجال الدين ، لعدم وجود نصوص جاهلية تكشف النقاب عنها ، فإن لنا بعض المعرفة عن الزكاة التي كان

---

١ تاج العروس (٢٣٢/٢) ، (منح) .

٢ تاج العروس (٤٨١/١) ، (ندب) .

٣ Ancient Israel, 418-421, 425, 429.

يقدمها اهل العربية الجنوبية الى معابدهم ، ظفرنا بها في الكتابات التي عثر عليها هناك ، وقد وردت فيها اشارات اليها في نصوص تعرضت لها بالمناسبات .

وهذه الزكاة حصص عينية مقررة تدفع الى المعبد على شاكلة الحصص التي تدفع الى أصحاب الأرض والحكومة ، تخزن في مخازن المعابد ، لتصدّر الى الخارج ، او لتباع في الأسواق ، او ليصرف منها على المعابد ورجال الدين والمحتاجين . فكان القتبانيون مثلاً يدفعون عُشر حاصلهم الى المعبد ، ويعرف ذلك عندهم بـ (عصم)[1] ، تدفع هذه الضريبة عن حاصلات الأرض ، وذلك في كل سنة . وقد عرفت هذه الضريبة بـ (عشر) عند المعينيين . وهي ضريبة تدفع ايضاً عن الحيوان الى المعبد . وهذه الضريبة هي في الواقع من الضرائب العامة التي كانت تدفعها أمم اخرى عديدة الى المعابد ، وتستند الى تقاليد تأريخية قديمة ، والى نظرية ان الأرض هي ملك للآلهة ، فهي التي تنعم على الانسان بالحاصل وبالخير وبالبركات ، فعلى الانسان تخصيص جزء من حاصله لتلك الآلهة . فإذا قصّر انسان في أداء ما عليه الى الآلهة ، تعرّض للعقاب ولحرمان الآلهة اياه من البركة والخصب[2] .

ويتبين من نصوص المسند انه كانت في العربية الجنوبية أرضون واسعة مسماة بأسماء الآلهة ، أجّرتها المعابد للرؤساء او سلّمتها الى ايدي (الكبراء) لاستغلالها في مقابل أجر يدفعونه الى المعبد يتفق عليه . وهذه الأرضون هي أوقاف حبست على الآلهة تعرف بـ (وتفم) (وتف)[3] . ومن غلات هذه الأوقاف ومن (العصم) والنذور والهبات الأخرى ينفق على المعابد وعلى رجال الدين .

وقد ظهر في العربية الجنوبية نظام اقطاعي (كهنوتي) ، أسياده رجال الدين ، تولوا الإشراف على ادارة أملاك المعبد الواسعة وعلى استغلالها وادارة شؤونها ، وجباية الأرضين التي يوقفها المؤمنون أصحابها على الآلهة ، وعلى استحصال حقوق المعبد من المتمكنين . وقد أشير في كتابات المسند الى ارضين واسعة كانت اوقافاً للمعابد ، أجّرت الى سادات القبائل لاستغلالها في مقابل أجر اتفق عليه . ويظهر ان بعض اولئك السادات كانوا أقوياء وأصحاب نفوذ فاستولوا على (الحبوس)

---

١ السطر الثالث من النص الموسوم بـ : Kataba. Texte, I, Glaser 1601

٢ Hastings, p. 940.

٣ Katab. Texte, II, S. 30.

استيلاءً في مقابل اجور زهيدة كانوا يدفعونها للمعبد ، ولما لم يكن في وسع المعبد فعل شيء تجاههم ، اضطر الى قبول الأجر الزهيد الرمزي الدال على تملك المعبد للارض . أما السادات فكانوا يؤجرون الأرض لأتباعهم بأجور عالية ، ويربحون من ذلك أرباحاً كبيرة .

وعثر المنقبون على وثائق في خرائب بعض المعابد ، تبين منها انها كانت نصوص عقود ايجار واستئجار لأملاك المعبد ، اي للأوقاف المحبوسة على أرباب المعبد . وقد ذكر المستأجرون فيها الشروط التي اتفقوا عليها مع المعبد في مقابل استغلال الوقف . واذا كان المستأجر غير متمكن من أداء ما عليه للمعبد في مقابل استغلال الأرض ، فإن من حقه الاستدانة من غيره او الاتفاق معه على المساهمة معه في الاستغلال والاستثمار على شرط أخذ موافقة رجال المعبد على ذلك، وإدخال اسم الشخص الثاني في العقد ، كي يكون مسؤولاً شرعاً عن تنفيذ شروط العقد في حالة عدم تمكن زميله من ذلك[1] .

وقد اقتضى تضخم املاك المعابد خلق جهاز خاص لادارة الأملاك والأوقاف والاشراف على استحصال (الأعشار) عن الدخل وتركات الارث والمشتريات الى جانب النذور والقرابين وتوقيع العقد . جهاز رأسه كبار رجال الدين ، الذين يمثلون الآلهة على الأرض، وقاعدته صغار رجال الدين ومن عهد اليهم أمر الادارة من غير رجال الدين . فصار للمعبد بذلك نفوذ كبير في اقتصاد العربية الجنوبية في ذلك الوقت .

وفي المعابد مواضع يرمي الزوار فيها ما يجودون به على المعبد ، تكون أمام الأصنام في الغالب . وهي خزائن تتجمع فيها النذور والهبات ، فيأخذها السدنة . وأغلب ما يرمى فيها الحلي والمصوغات المصاغة من الذهب والفضة ، والأشياء النفيسة الأخرى . كما كانوا يعلقون السيوف والألبسة الثمينة على الأصنام وعلى الأشجار المقدسة تقرباً اليها ، ووفاء بنذور نذروها لها .

ولم يبخل الجاهليون على أصنامهم، فقدموا لها حتى المأكل والمشرب، لاعتقادهم انها تسرّ بذلك وتفرح . فقد علقوا على (ذي الخلصة) ، وهو صنم نصبه

---

١ Die Bodenwirtschaft, S. 22, A. Steinwenter, Beiträge Zum Offentlichen, 1915.

(عمرو بن لحيّ) ، القلائد وبيض النعام ، والبرد النفيسة ، وقدموا له الحنطة والشعير ، بل واللبن أيضاً ، ليشرب منه ، وذبحوا له [1] . فهم يعتقدون أن في الصنم روحاً ، وان في مقدوره التلذذ بهذه النذور . وكان في روعهم أنه يشرب من ذلك اللبن .

وقد أشير الى الهبات التي تقدم الى المعابد والآلهة بكلمة (وهبم) في النصوص القتبانية . بمعنى (وهبٌ) و (هبات) . ووردت كلمات أخرى تؤدي هذا المعنى أيضاً . منها : (ودم) ، و (شفتم) ، و (بتم) [2] . وتقابل هذه ما يقال له : (منحة) و (المنحة) عند العرب الشماليين .

وفي جملة ما يدخل في هذا الباب (بكرت) ، أو (الباكورة) أول كل شيء . مثل الثمر وأول مولود بالنسبة للحيوان ، حيث يهدى للآلهة . وقد كان معروفاً عند العبرانيين وعند غيرهم من الساميين . وذلك أن يجعل صاحب المال ثمرة أول زرعه أو حيوانه نذراً لآلهته [3] . وقد أشير الى هذا النذر أو الهبة في نصوص المسند . ومن (الباكورة) العقيقة التي تحدثت عنها في موضع آخر من هذا الكتاب .

وتلعب النذور دوراً خطيراً في الحياة الدينية عند الجاهليين ، حتى صارت عندهم بمثابة المظهر الأول والوحيد للدين . فالعامة لا تكاد تفهم من الدين إلا تقديم النذور للآلهة ، لتجيب لها طلباتها وتنعم عليها بنعمائها . والنذور هي وعد على شرط . يتوسل الناذر الى آلهته بأنها ان أجابت طلباً عينه ، وحققت مطلباً نواه ، فعليه كذا نذر ، يعينه ويذكره . فهنا عقد ووعد بين طرفين في مقابل تنفيذ شرط أو شروط ، أحد طرفيه السائل صاحب النذر ، أما الطرف الثاني فهو الإله او الآلهة . وأما الشرط ، فهو تنفيذ المطالب التي يريدها الناذر . وأما النذر ، فهو أشياء مختلفة ، قد تكون ذبيحة ، وقد تكون جملة ذبائح ، وقد تكون نقوداً ، وقد تكون فاكهة أو زرعاً ، وقد تكون أرضاً ، وقد تكون تمثالاً ، وقد تكون حبساً لانسان يهب نفسه او مملوكه او ابنه لإلهه او لآلهته ، وقد يوهب

---

١ الازرقي ، اخبار مكة (٧٨) ، (لايبزك) .

٢ N. Rhodokanakis, Katab Texte, I, S. 18, 26.

٣ في العبرانية « بكوريم » ، Ancient Israel, 380, 404, 493.

ما في بطن المرأة او ما في بطن الحيوان ، وقد يكون النذر حيوانات حية . وهكذا نجد مادة النذر كثيرة مختلفة متباينة بتباين النذر والأشخاص[1] .

ولا يشترط في وفاء النذر ان يكون عيناً اي مادة ، إذ يجوز ان يكون امراً معنوياً ، كأن يذكر الناذر في نذره انه إن اجاب الإلـه الفلاني طلبه وبارك له ومنحه طفلاً ، يخدمه له او يسميه عبده ، اي عبد ذلك الإلـه الذي نذر له . وكثير من الأسماء المبتدأة بـ (عبد) يليها اسم (صنم) ، هي من هذا القبيل، دعي اصحابها بها ليحمي من سمّي به صاحب ذلك الاسم في مقابل تلك التسمية . ومن هذا القبيل عبد مناف وعبد مناة[2] .

ومن هذا القبيل ايضاً نذر المواهب ، كأن ينذر شخص مواهبه لصنم او لمعبد، بأن يتعهد ان يقوم بترنيم التراتيل الدينية في الأعياد او في اوقات الصلوات والمناسبات في ذلك المعبد ، او يقوم فيه بأعمال فنية مثل رسم منظر ديني او تزيين معبد الإلـه ، والنذر بالصيام وبغير ذلك[3] .

ويعبر عن الابن الذي ينذره أبوه أو أمه بأن يجعله خادماً للمعبد أو للصنم أو للكنيسة ذكراً كان أم أنثى (النذيرة) . وذلك لأنه حبس على خدمة الإلـه أو الصنم أو المعبد وتفرغ ، فلا يخدم أحداً سواها[4] . وفي التنزيل : « إني نذرت لك ما في بطني محرراً »[5] .

ويقال للنذر (النَّحْب) ، وهو ما ينذره الإنسان على نفسه فيجعله نحباً واجباً. وقيل : إنما قيل للنذر نذراً ، لأنه ينذر فيه ، أي أوجب على النفس[6] . ووردت لفظة (نذر) (نذرم) (نذرن) في نصوص المسند ، بمعنى (نذر) و(نذور).

---

١ تفسير الطبري (٣/٩١ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٥٤) **القاموس** (٢/١٢٠) ، Ency. Brita., Vol., 25, p. 200, Reste, S. 112, Ency. Religi., 12, p. 644.

٢ الروض الانف (١/٦) .

٣ تفسير الطبري (٥/٥٨٠ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، تفسير البيضاوي (٦/١٥٤) ، القرطبي ، الجامع (١١/٩٧ وما بعدها) ، الطبرسي (٢/٣٤٥) .

٤ اللسان (٥/٢٠٠) ، (نذر) ، تاج العروس (٣/٥٦١) ، (نذر) .

٥ آل عمران ، الآية ٣٥ ، تفسير الطبري (٣/١٥٧ وما بعدها) ، القرطبي ، (٤/٦٥ وما بعدها) ، تفسير البيضاوي (٣/٢٠ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (١/٣٥٨ وما بعدها) روح المعاني (١/٥٦١) .

٦ اللسان (٥/٢٠٠) ، تاج العروس (٣/٥٦١) .

ومن هذه النذور (الربيط) . فقد كان الجاهليون ينذرون أنهم إذا عاش لهم مولود جعلوه خادماً للبيت ، أي لبيت الصنم . ومن هنا لقب (الغوث بن مرّ) بالربيط « لأن أمه كانت لا يعيش لها ولد ، فنذرت لئن عاش هذا لتربطن برأسه صوفة ، ولتجعلنه ربيط الكعبة ، فعاش ففعلت وجعلته خادماً للبيت حتّى بلغ الحلم ، فنزعته فلقب الربيط »[1] .

ويظهر من بعض الروايات أنهم كانوا يربطون الربيط بالبيت . فقد ذكروا أن أم (الغوث) لما « ربطته عند البيت أصابه الحرّ ، فمرت به ، وقد سقط وذوى واسترخى »[2] ، فيظهر أنهم كانوا يربطونه برباط بالموضع المقدس، ليكون على اتصال تام به ، كما يفعل الناس اليوم من ربط مرضاهم ومن لا يعيش طويلاً من الأولاد بقبور الأولياء بخيط أو حبل ، رجاء الشفاء وطول العمر . وقد يعقدون خيطاً أو شريطاً بالقبر ، لهذا الغرض .

وقد كان اصحاب النذور يتنسكون ويكثرون من تعبدهم ومن تقربهم للصنم الذي نذروا له ، ليمنّ عليهم ويحقق لهم ما طلبوه . وقد اشار (لبيد) الى الناسكات ينتظرن النذر بقوله :

توجس النُبُوحَ شُعْثا غُبراً كالناسكات ينتظرن النذرا[3]

ومن نذورهم في الجاهلية ، انهم كانوا ينذرون بألا تهب الصبا حتّى يذبحوا او ينحروا[4] . ويظهر ان هذه عادة كانت لها صلة بطقوس دينية جاهلية قديمة، نجدها عند اهل مكة وعند الأعراب .

وتكون النذور في حالات الشدة والضيق في الغالب . فإذا أصيب انسان بمكروه او أصيب عزيز له بذلك ، نذر الى آلهته نذراً ، يقدمه لها حالة تحقق الشرط ، فإن صادف ان تحقق ما طلبه ، وجب على الناذر الوفاء بنذوره . ونظراً لظروف ذلك الوقت ، فقد كانت النذور كثيرة ومتنوعة . منها نذور مادية ، ومنها نذور

---

١ تاج العروس (١٤٢/٥) ، (ربط) .
٢ الروض الأنف (٨٥/١) .
٣ ديوان لبيد (٣٣٦) .
٤ الكامل (٥٢/٢ وما بعدها) .

معنوية ، مثل التعبد والتبتل وخدمة بيوت الأصنام وما شاكل ذلك من نذور[1] .

وقد كانوا لا يحلّون لأنفسهم التملص والتخلص من الوفاء بالنذور، لاعتقادهم انهم إن أكلوها ولم يوفوا بها ، غضبت عليهم الآلهة ، ولا سيما الإلـه الذي جعلوا نذرهم له ، فيصابون بغضب منها ، وينالهم مكروه ، فهم لذلك يوفون نذورهم ولا يقصرون في الأداء ، إلا لحاجة او لاستهتار او لتغلب الشح على النفس، ومع ذلك ، فقد كانوا يلجأون الى الحيـل الشرعية في هذا التهرب ، بإيجاد الحلول والأعذار .

ونجد في نصوص المسند عدداً كبيراً من الكتابات تفيد ان صاحب الكتابة قد قدّم الى الإلـه الفلاني كذا وكذا ، لأنه أجاب طلبه وأعطاه ما أراد ووفاه بحسب طلبه ، فقدم اليه كذا وكذا وفاء لنذره . وتذكر في النص أحياناً جملة لتنزل اللعنة او لينزل الهلاك والدمار او ما شابه ذلك على من يحاول ازالـة النذر والأثر عن موضعه او إلحاق الأذى به او ما شابه ذلك من عبارات . وقد ورد مثل ذلك في النصوص الثمودية واللليانية والنصوص الأخرى . وتفهم فكرة النـذر والغاية منه صراحة من هذه الكتابات ، فالناذر قدّم نذره ، لأن الإلـه المذكور او الآلهـة المذكورة أجابت طلبه ووفت له ما أراد ، فوفى هو له أو لها ما اشترط على نفسه تقديمه عند عقده صيغة النذر . فالإلـه او الآلهة طرف يسمع ويتعاقد ويجيب ويفعل او تفعل تماماً كما يفعل الانسان ، وهي تشترط على الطرف الثاني اي على السائل الوفاء بالنذر ، لأنه دين يجب عليه دفعه في مقابل تنفيذ الآلهة الشروط المذكورة، وإلا فإن الآلهة تغضب عليه وتوقع القصاص عليه ، وقد تسحب ما قدمت له حينما عقدت النذر معه .

وكانت القرابين البشرية في جملة الأشياء التي قدمها الإنسان نـذراً الى آلهته . وكان (عبد المطلب) ، كما يذكر أهل الأخبار قـد نذر إن توافى له عشرة رهط أن ينحر أحـدهم . فلما اكتمل العدد ، قرر الوفاء بنذره ، وذلك بذبح أحدهم . وإذ لم يكن قد عين الولد الذي سيذبحه ، ذهب كعادة أهـل مكة الى هُبَل يستقسم عنده . فلما أصاب النصيب (عبدالله) ، ذهب الى (إساف) ونائلة

---

[1] طبري (٣/١٤٤ وما بعدها) ، روح المعاني (١/٥٦١ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٥٦١) ، (نذر) ، تفسير البيضاوي (٣/٢٠ وما بعدها) .

وثني قريش اللذين تنحر عندهما ، ليذبحه ، « فقامت اليه قريش من أنديتها : فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه . فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » . ثم سألوه أن يذهب الى عرّافة كانت بالمدينة لها (تابع) ، لترى رأيها في الموضوع وتفتي فيه ، فلما ذهب اليها،وجدها بخيبر ، فأشارت عليه أن يعود الى مكة ، ثم يضرب بالقداح على ابنه وعلى عشر من الإبل وهو مقدار الدية عندهم ، فإن خرجت القدّاح على عبدالله ضربوا القداح مرة أخرى ، فإن خرجت القداح على عبدالله مرة أخرى ، أعادوا الضرب حتى يقع على الإبل ، فيكون الرب قد رضي عنه ، فتنحر الإبل عندئذ . فسمع نصيحتها وفعل ، ونحرت الإبل فدية عن ابنه (عبدالله)[1] . والظاهر أن عادة نحر الأبناء عند الكعبة قد بقيت حتى بعد دخول العرب في الإسلام ، بدليل ما ورد عن نذر امرأة أن تنحر ابنها عند الكعبة في أمر إن فعلته ، ففعلت ذلك الأمر ، فجاءت الى المدينة تستفتي علماءها في الأمر . فأشار عليها من استفتتهم بوجوب الوفاء بالنذر ، ولكنهم ذكروا لها أن الله قد نهى عن قتل أنفسكم ، وذكروا لها قصة عبد المطلب المذكورة ، ومعنى ذلك تقديم الفداء[2] .

كذلك كان من عادة الجاهليين النذر في ساعات الشدة والخطر ، فكان بعض النساء ينذرن أن يجعلن ولدهن (حمساً) إن شفي الرب ابنها من مرض ألمّ به ، كما كانوا ينذرون بحلق شعر الرأس أو جزّ شعر الناصية أو الاعتكاف والانزواء بعيداً عن الناس[3] . وهي عادات نجدها عند غير العرب أيضاً[4] .

وقد أشار المفسرون وأصحاب الحديث والأخبار الى نذور كانت معروفة في الجاهلية ، فمنعها الاسلام . وفي بعضها نوع من التحايل والتلاعب ، حيث كانوا يتصرفون بحسب أهوائهم وشهواتهم ومنافعهم وقت استحقاق النذر . ومن ذلك ما أشير اليه في القرآن الكريم : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى

---

١ الطبري (٢/١٧٢ وما بعدها) ، ابن الاثير الكامل (٢/٢) .
٢ الطبري (٢/١٧٢) .
٣ الازرقي (١/١٢٣) .
٤ Shorter Ency. p. 439.

الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون »[1] . وقد ذكر المفسرون ان من الجاهليين من كان يزرع لله زرعاً وللأصنام زرعاً ، فكان اذا زكا الزرع الذي زرعوه لله ولم يزك الزرع الذي زرعوه للأصنام ، جعلوا بعضه للأصنام وصرفوه عليها ، ويقولون ان الله غني والأصنام أحوج ، وان زكا الزرع الذي زرعوه للأصنام ، ولم يزك الزرع الذي زرعوه لله لم يجعلوا منه شيئاً لله . وقالوا هو غني .

وكانوا يقسمون الغنم ، فيجعلون بعضه لله ، وبعضه للأصنام ، فما كان لله أطعموه الضيفان ، وما كان للصنم أنفقوه على الصنم . وكانوا اذا اختلط ما جعل للأصنام بما جعل لله تعالى ردوه ، واذا اختلط ما جعل لله بما جعل للأصنام تركوه . وقالوا الله أغنى . واذا هلك ما جعل للأصنام ، بدّلوه مما جعل لله ، واذا هلك ما جعل لله لم يبدلوه بما جعل للأصنام[2] .

فهم يتطاولون على ما خصصوه لله من نصيب ، ويتصرفون به كما يشاؤون ، ويحافظون على ما خصصوه للأصنام ، بزعمهم أنها شركاء لله ، ويقدمونه لها . ولعل ذلك بسبب أن ما كان يخصصونه للأصنام كان يجد له معقباً وسائلاً ، يراجع أصحاب الحرث أي الزرع وأصحاب الأنعام لاستحصال حق الأصنام منهم . وهو حق مفروض ، وهم السدنة ورجال الأصنام ، فكانوا يستحصلون حقوق الأصنام منهم ، على حين كان ما يخصصونه لله نذراً لا يعرف به غير الناذر ، فكان يتلاعب به ، ويعطيه أو يعطي جزءاً منه الى جامعي حق الأصنام ، على اعتبار أنها شريكة لله ، وبذلك يتهرب من أداء النذر كاملاً بهذه الحيلة الشرعية ، فلا يستخرج من ماله الذي خصصه لنفسه شيئاً عن الوفاء بالنذر وفاءً تاماً ، أو لاعتقادهم أن الله بعيد عنهم ، وهو غفور رحيم ، أما الأصنام ، فقريبة منهم ، وهي منتقمة أشد الانتقام .

ويتبين من دراسات النذور عند الشعوب القديمة أنها كانت نتيجة حاجة ، وتصور الانسان أن بإمكانه التأثير على آلهته بهذه النذور ، فيجعلها تميل الى اجابة طلبه

---

١ الانعام ، الآية ١٣٦ .

٢ تفسير الطبرسي (٣٦٩/٨ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣٠/٨ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٨/٨) ، تفسير التبيان ، للطوسي (النجف ١٩٦٠) ، (٣٠٧/٤ وما بعدها) ، القرطبي ، الجامع (٨٩/٧) ، الكشاف (٤٧١/١) .

وحل مشكلاته ، وذلك بتقديم مطالب مغرية تطمعها ، وهدايا سارة تفرح بها ، كما يفرح الانسان عند تقديم أمثالها اليه،فيهش لصاحب الهدية ويرتاح له ويتقرب اليه ، ويعد الهدية نوعاً من التقرب والتودد والتحبب ، فمن واجب من أهديت اليه الهدية مقابلة المتودد بالمثل . وأما الحاجات التي كان يرجو الناذرون تحقيقها ، فهي في الغالب الحصول على ثروة ، أو صحة وعافية أو ذرية أو نصر وتوفيق . والناذر على يقين بالطبع من أن الإلـه الذي نذر له النذر قادر على تحقيق ذلك ، وإلا لم يتقدم اليه بهذا النذر[1] .

ويدخل في باب النذور ما يأخذه المرء عهداً على نفسه بتجنب الطيبات واللذيذ من العيش ، أو بالابتعاد عن الناس واعتزالهم على نحو ما يفعله الرهبان والناسكون لأمد معين أو لأجل غير معلوم . ونجد أمثلة عديدة من هذا العهد في أخبار الجاهليين ، كالذي ذكروه عن (امرىء القيس) من أنه قال حينما بلغه مصرع والده : « الخمر عليّ والنساء حرام حتى أقتل من بني أسد مئة وأجز نواصي مئة »[2] ، وكالذي رووه عن غيره من الجاهليين . وهي كلها من هذا الطراز . أخذ الشخص عهداً على نفسه بألا يقرب امرأة أو يشرب خمراً أو يضع طيباً أو يقرب اللذائذ حتى يأخذ بثأره أو يتحقق ما نوى عليه ، وقد يحدد ذلك بوقت بأن يعين أجل العهد[3] .

وإذ كان النذر عهداً، كان من اللازم تنفيذ العهد ؟ فإذا مات من أخذ عهداً على نفسه بأن يفعل شيئاً لم يفعله ، فعلى ورثته وقبيلته الوفاء بعهده . فإذا مات شخص كان قد نذر على نفسه الأخذ بثأر قتيل ولم يوفِ بعهده ، بسبب موته، فعلى اهله وذوي قرابته وأفراد قبيلته الأخذ بالثأر . ولذلك كانت أحقاد الثأر تنتقل من الآباء الى الأبناء فالأحفاد ، وتستغرق أحياناً زمناً طويلاً حتى يؤخذ بالثأر . وقد نشأت عن هذه العهود مشكلات خطيرة في المجتمع الاسلامي في موضوع العهود التي يمكن تنفيذها والعهود التي لا يجوز تنفيذها ، او التي يسمح بعدم تنفيذها وفي مبلغ التبعة التي تترتب على الورثة في تنفيذ العهود[4] .

---

١ Ency. Religi. 12, p. 656.
٢ الاغاني (٨/٦٥) ، (ذكر امرىء القيس ونسبه وأخباره) .
٣ ابن هشام (٥٤٣) ، Shorter Ency. p. 428.
٤ Shorter Ency. p. 429.

القرابين :

وتؤلف القرابين جزءاً مهماً من عبادة الأمم القديمة ، بل تكاد تكون العلامة الفارقة عندهم للدين . والرجل المتدين في عرفهم هو الرجل الذي يتذكر آلهته ويضعها دائماً نصب عينيه ، وذلك بتقديم القرابين لها ، ولست أخطيء اذا قلت انها كانت عندهم أبرز من العبادات العملية كالصلوات ، لأن الانسان القديم لم يكن يفهم آنئذ من الحياة إلا مفهومها المادي . وهو يرى بعينيه ويدرك ان ما يقدم اليه من هدايا يؤثر في نفسه كثيراً ، ولذلك كان من الطبيعي ان يتصور بعقله ان القرابين هي أوقع في نفوس آلهته من اي شيء كان ، فقدمها على كل شيء ، وجعلها عبادة يتقرب بها الى الآلهة كما يتقرب اهل الأديان السماوية الى الإلـه بالدعاء والصلوات ، فهي في نظره عبادة تقربه الى الأرباب .

وقد كان الجاهليون ، يعظمون البيت بالدم ، ويتقربون الى أصنامهم بالذبائح، يرون ان تعظيم البيت او الصنم لا يكون إلا بالذبح ، وان الذبائح من تقوى القلوب . والذبح هو الشعار الدال على الاخلاص في الدين عندهم، وعلامة التعظيم . « قال المسلمون : يا رسول الله ، كان اهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحق ان نعظمه »[1] .

ويظهر من قول أحد الشعراء الجاهليين :

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وما هُريق على الأنصاب من جسدِ

أن الجاهليين كانوا يريقون دم الضحية على الأنصاب، وهي موضوعة في الكعبة، ويمسحون الكعبة[2] .

وكلمة (قربان) وجمعها (قرابين) ، هي من أصل (ق ر ب) ، وقد استعملت وخصصت بهذا المعنى لأنها تقرب الى الآلهة . والقربان هو كل ما يتقرب به الى الله . فليس القربان خاصاً بالذبائح ، وان صار ذلك مدلوله في الغالب[3] .

---

١ نفسير الطبري (٤٨/٦) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٠٦) .
٣ تاج العروس (٤٢٢/١) ، (قرب) ، اللسان (١٥٨/٢) ، (قرب) .

ومن القرابين ما يقدّم في أوقات معينة موقوتة، ومنها ما ليس له وقت محدد ثابت بل يقدم في كل وقت . ومن أمثلة النوع الأول ما يقدم في الأعياد أو في المواسم أو في الأشهر أو في أوقات معينة من اليوم وفي ساعات العبادات ، ومن أمثلة النوع الثاني ما يقدم عند ميلاد مولود ، أو انشاء بناء أو القيام بحملة عسكرية أو لنصر وما شابـــه ذلك من أحوال . ويدخل في النوع الأول الاحتفاء بأعياد الآلهة ، حيث تكسى أصنامها أحسن الحلل ، وتزين بأجمل زينة ، ثم يوضـــع أمامها ما لذّ من الطعام وما حسن من الهدايا ، وتذبح لها الذبائح ، تذبح على الأنصاب ، ويأتي الكهّان ليقوموا بتأدية الشعائر الدينية المقررة في هذه الأحوال .

ومعظم نصوص المسند كتابات دونت عند تقديم قربان او نذر الى الآلهة في ميلاد مولود ، او شفاء مريض ، او بناء معبد او بيت ، او حفر خنـــدق او تشييد برج او سور ، او حفر بئر او زواج وما شاكل ذلك . ويظهر منها ان الناس في ذلك العهد كانوا يقدمون القرابين الى آلهتهم في مناسبات كثيرة ، تقرباً اليها وارضاء لها ، ولكي تمنّ على أصحابها بالخير والبركة .

وقد استعملت نصوص المسند لفظة (ذبح) و (ذبحم) بمعنى (ذبحوا) و (ذبح) و (ذبيحة) و (ذبائح) . وقد تسبق بكلمة (يوم) ، فتكون (يوم ذبح) ، اي (يوم ذبحوا) ، ثم يذكر بعدها عدد ما ذبح ونوعه ، ثم كلمة (اذبح) بمعنى (ذبائح) في بعض الأحيان . والذبائح التي تقدم الى الآلهة هي الإبل والبقر والثيران والغنم والمعز ، وهي اكثر الحيوانات شيوعاً في الذبـــح عند الشعوب السامية الأخرى . ولم نجد في نصوص المسند ذكراً لحيوانات اخرى كالأسماك او الدجاج مثلاً ، ولعل ذلك بسبب ضآلة قيمتها وتفاهتها بالقياس الى أثمان الحيوانات الأخرى ، مما جعل الناس يأنفون من الاشارة اليها في النصوص .

وفي بعض الأديان حرق الذبائح وسكب دمائها على النار كما يفعل العبرانيون، إذ اتخذوا مذبحاً للمحروقات . ويسمى أيضاً بمذبح النحاس . وكانت ناره لا تطفأ، وتقدم اليه الذبائح عـــلى الدوام ، ويعرف ذلك عندهم بـ (عولاه) Olah ، وتفسير الكلمة الشيء الذي يعلو[1] .

وينفي (ولهوزن) وجود المحارق عند الجاهليين ، وعنده أن العرب لم يكونوا

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٤٥٨/١) ، Hastings, p. 111.

يحرقون الذبائح للأرباب ، بل كانوا يكتفون بالذبح وبسكب دم الذبيحة على النصب كله أو بعضه ، أو انهم يتركونه يسيل الى (الغبغب) . وليس في الذي بين أيدينا من نصوص ما يدل على ان الجاهليين كانوا يحرقون ذبائحهم لأربابهم على نحو ما كان يفعله العبرانيون،غير أن ذلك لا يمكن أن يكون مع ذلك دليلاً قاطعاً وحجة كافية في اثبات أن هذه العادة لم تكن عند جميع الجاهليين .

وهناك ذبائح من نوع آخر قدمها الانسان الى آلهته ، من نوع لا تشمله كلمة خروف او شاة او بقرة او ثور او جمل ، من نوع آخر لا تشمله اية تسمية من هذه التسميات التي تطلق على هذه الحيوانات التي يأكلها الانسان في العادة ، هي ذبائح يعاقب القانون كل من يمارسها في الوقت الحاضر بأشد العقوبات ، هي ذبائح بشرية قدمها الانسان الى آلهته لاعتقاده انها زلفى محببة الى نفوسها ، وانها ستفيد المجموع وتنقذه من كثير من الأوبئة والأمراض وأنواع الشر والضر ، إن كان الانسان الحديث يتبرأ منها في الزمن الحاضر ويتنكر لها ويحاول تبرئة أجداد أجداده من ممارستها قبل مئات من السنين ، فالتأريخ لا يستطيع ان يجد دليلاً يثبت تبرئة أكثر أديان شعوب العالم القديمة من تقديم هذا النوع من القرابين ، وفي التوراة أمثلة عديدة تتحدث عن تقديم العبرانيين لهذا النوع من القرابين الى (يهوه) ، ليرضى عن شعبه ، ويعفو عنه ، ويتقرب منه[1] . كذلك نجد هذه العادة عند اليونان والرومان والهنود والفراعنة والصينيين واليابانيين وغيرهم .

أما عند الجاهليين ، فذكر (فورفيريوس) Forphyrius أن أهل (دومة) Duma كانوا يذبحون في كل سنة إنساناً عند قدم الصنم تقرباً اليه[2] . وذكر (نيلوس) Nilus أن من عادة بعض القبائل تقديم أجمل من يقع أسيراً في أيديهم الى (الزُهرة)،ضحية لها تذبح وقت طلوعها ، وقد وقع ابنه (تيودولس) Theodolus أسيراً حوالى سنة ٤٠٠ م في أيدي الأعراب Saracens ، وهيء ليذبح قرباناً الى الزُهرة غير ان أحوالاً وقعت أفاتت عليهم الوقت المخصص لتقديم

---

١ الملوك الاول ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٣٤ ، الملوك الثاني ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٣ ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ١٧ ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ٦ ، صموئيل الاول ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ٣٢ ، الملوك الثاني ، الاصحاح الثالث ، الآية ٢٧ ، القضاة ، الاصحاح الحادي عشر ، الآية ٣٠ وما بعدها ، ومواضع أخرى ، Hastings, p. 813, Ency. Religi., p. 864.

٢ Reste, S. 115.

الذبائح ، أنقذته من الذبح ، فاكتفى آسروه ببيعه في أسواق الرقيق بـ (ألوسة) Elusa ، فاستقر هناك الى أن صار أسقفاً على المدينة [1] . وذكر أيضاً أن الملك (المنذر) ملك الحيرة قدم أحد ابناء الحارث الذي وقع أسيراً في يديه ونحو من أربع مئة راهبة قرابين الى العُزّى [2] . غير أننا يجب أن نكون في حذر شديد من قراءة أمثال هذه الروايات ، لأن مصدرها في الغالب هو الخيال . كذلك يجب ان نمرّ برواية الأخباريين عن قصة عبد المطلب وعبدالله بشيء من الاحتراس والحذر ، بل والشك والريبة ، ويخيل إليّ ان الأخباريين استفادوا في هذه القصة من حكاية ابراهيم واسحاق .

وليس في الذي بين أيدينا من نصوص المسند نصٌ ما فيه خبر يشير الى تقديم شخصٍ ما ملك او كاهن او اي انسان آخر ذبيحة بشريـة الى الآلهة ، كذلك لا نجدُ في النصوص الأخرى مثل النصوص الثمودية او اللحيانية او الصفوية مثل هذه الاشارات .

وتلعب (المذابح) التي سبق ان تحدثت عنها ، دوراً خطيراً في العبادة عند الساميين ، بل تكاد تكون المظهر الأساسي للدين والتعبد عندهم في ذلك العهد . ولهذا كان المتدين يكثر من ذبح الذبائح لأنها تقربه الى الآلهة في نظره .

الترجيب :

وقد عرف شهر (رجب) بكثرة ما كان ينحر فيه من عتائر للأصنام ، فلا بد ان يكون لذلك أصل وسبب ، كأن يكون هذا الشهر من الأشهر التي كان لها حرمة خاصة في الجاهلية القديمة . وشهر رجب هو من الأشهر الحرم المعظمة التي لم يكن يحلّ فيها القتال [3] . وقد سمّي الذبـح في هذا الشهر بـ (الترجيب) ، وقيل للذبائح التي تقدم فيه (العتائر) جمع (عتيرة) . وقد عدّت العتائر من شعائر الجاهلية . وأطلق بعض علماء اللغة كلمة (العتائر) على ذبـح الحيوانات

---

١ Ency. Religl., 6, p. 853.

٢ Hastings, A Dictionary, Vol. I, p. 75.

٣ تاج العروس (١/٢٦٦) ، (رجب) .

الأليفة ، وأطلق لفظة (النافرة) على ذبح الحيوانات الوحشية[1] . « وفي الحديث: هل تدرون ما العتيرة ، وهي التي يسمونها الرجبية ؟ كانوا يذبحون في شهر رجب ذبيحة ، وينسبونها اليه . يقال هذه ايام ترجيب وتعتار . وكانت العرب ترجب، وكان ذلك لهم نسكاً »[2] .

وذكر بعض أهل الأخبار ان أول من عتّر العتائر وسن العتيرة للعرب ، هو (بورا) ، وهو (بوز) ، وهو ابن شوحا ، وهو سعد رجب ، وهو أول من سن الرجبية للعرب . وهو ابن يعمانا ، وهو قوال ، وكان في عصر سليمان ابن داوود[3] . والظاهر ان أحد أهل الكتاب قصّ على الأخباريين هذه القصة ، فنسبوا هذه السنّة الجاهلية الى هؤلاء الأشخاص .

وكان بعض السادة ينحرون إذا أهلّ (الشهر الأصم) ، اي (شهر رجب). روي : ان (حاتماً الطائي) كان ينحر اذا أهلّ الشهر ، ينحر عشراً من الإبل ويطعم الناس لحومها ، وذلك لحرمته ومنزلته عنده ، ولتعظيم (مضر) . فهو من شهود مضر الخاصة[4] .

وعرفت (العتيرة) بـ (الرجبية) عند الجاهليين كذلك ، لأنها كانت تذبح في شهر رجب ، فنسبوها اليه . وعرفت ايام رجب بـ (ايام الترجيب) . وورد (ايام ترجيب وتعتار) . وقيل للذبائح التي تقدم فيه (النسائك) كذلك[5] .

وأصل (النُسك) : الدم ، وبهذا المعنى ورد من فعل كذا وكذا فعليه نسك ، اي دم يهريقه . و (النسيكة) : الذبيحة . و (مَنْسك) : الموضع الذي تذبح فيه النسيكة ، وهذا هو المعنى القديم الأصلي للكلمة . وقد صار من معانيها في العربية الشمالية ، العبادة والطاعة ، وكل ما يتقرب به الى الله تعالى ، لما كان للذبح من شأن في الديانات القديمة بحيث كان يعدّ عبادة أساسية عندها ،

---

١ Reste, S. 118.

٢ تاج العروس (١/٢٦٦ وما بعدها) ، (رجب) ، مسند احمد بن حنبل (٢/١٧٣) .

٣ الطبري (٢/٢٧٤) .

٤ الاغاني (١٦/٩٤) .

٥ تاج العروس (١/٢٦٦ وما بعدها) ، اللسان (١/٣٩٦) ، المعاني الكبير (٣/١١٧١) ، المخصص (١٣/٩٨) ، مجمع البيان للطبرسي (٢/١٥٠) .

ولذلك قيل لمن انصرف الى التعبد : الناسك[1] .

وقد فسر علماء التفسير لفظة (نسك) الواردة في الآية : « ففدية من صيام أو صدقة أو نسك »[2] ، بذبح ذبيحة شاة أو ما فوق ذلك[3] .

والعرف في الذبح عندهم ، انهم كانوا يسوقون ما يريدون تعتاره اي ذبحه الى النصب الخاص بالصنم او الى الصنم نفسه ، ثم يذبحونه بعد التسمية باسم ذلك الصنم ، وبيان السبب في ذبح هذه العتيرة ، ثم يلطخ رأس الصنم بشيء من دم تلك العتيرة[4] . وقد منع المسلمون من أكل ذبائح المشركين ، لأنها مما أهل لغير الله ، ولأن المشركين لم يكونوا يذكرون اسم الله عليها، بل كانوا يذكرون اسم الصنم الذي يذبحون له عليها . فحرم ذبائح المشركين لذلك على المسلمين[5] .

وقد أبطل الاسلام (الرجبية) وهي العتيرة ، كما أبطل (الفرع) ، وهو ذبح أول نتاج الإبل والغنم لأصنامهم ، فكانوا يأكلونه ويلقون جلده على الشجر. ويذكر انهم كانوا اذا أرادوا ذبح الفرع زينّوه وألبسوه[6] ، ليكون ذلك أوكد في نفوس الآلهة ، وتعريفاً للناس . وكانوا يفعلون ذلك تبركاً . وفي الحديث : لا فرع ولا عتيرة[7] .

وذكر انهم كانوا اذا بلغت الإبل ما يتمناه صاحبها ذبحوا ، او اذا تمت إبل احدهم مائة عتر عنها بعيراً كل عام فأطعمه الناس ولا يذوقه هو ولا أهله ، قيل بل قدم بكره فنحره لصنمه. وقد كان المسلمون يفعلونه في صدر الاسلام ثم نسخ[8]. وذكروا ان العتيرة الذبيحة التي كانت تذبح للأصنام ويصب دمها على رأسها[9] .

و (العِتر) الصنم الذي يصاب رأسه من دم العتر . قال زهير :

فزلّ عنها وأوفى رأس مرقبة   كناصب العتر دمى رأسه النسك[10]

---

١ تاج العروس (١٨٦/٧ وما بعدها) ، (نسك) ، اللسان (٣٨٩/١٢) ، (نسك)
٢ البقرة ، الآية ١٩٦ .
٣ تفسير الطبري (١٣٤/٢ وما بعدها) .
٤ ديوان زهير ، للاعلم الشمنتري (٤٦) .
٥ تفسير الطبري (١٢/٨ وما بعدها) ، سورة الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ١١٨ وما بعدها .
٦ بلوغ الارب (٤٠/٣ وما بعدها) .
٧ تاج العروس (٤٤٩/٥) .
٨ تاج العروس (٤٤٩/٥) .
٩ اللسان (٥٣٧/٤) ، (عتر) ، المرزوقي ، الازمنة والامكنة (٢٧٨/١) .
١٠ اللسان (٥٣٧/٤) ، (عتر) .

وكانوا يؤكدون على تلطيخ الصنم الذي يعتر له ، أو (النصب) بشيء من دم العتيرة . يفعلون ذلك على ما يظهر،ليحس الصنم بالدم فوقه . فيتقبله ويرضى به عنهم ، ويتقبل عتيرتهم .

ويظهر من غربلة ما جاء في روايات علماء اللغة والأخبار عن العتيرة والرجبية، أن العتيرة بمعنى الذبيحة ، وأن (العتر) الذبح عامة ، في رجب وفي غير رجب. و (العتائر) الذبائح التي كانوا يذبحونها عند أصنامهم وأنصابهم في رجب وفي غير رجب ، والتي كانوا يلطخون بدمائها الصنم الذي كانوا يعترون له . وأما (الرجبية) فهي العتائر التي تعتر في رجب خاصة ، وقد كانت كثيرة . ولذلك نسبت الى هذا الشهر . ونظراً الى كون الرجبية عتيرة ، ذهب البعض الى أن العتيرة الرجبية[1] . فظن أنهم قصدوا بذلك أن العتيرة هي الرجبية ، مع أن الرجبية من العتائر ، أي بعض من كل ، وليست مساوية لها .

وقد كان بعض أهل الجاهلية إذا طلب أحدهم أمراً نذر لئن ظفر به ليذبحن من غنمه في رجب كذا وكذا ، أو أن يقول : إن بلغت إبلي مائة عترت عنها عتيرة ، فإذا ظفر به ، أو بلغت مائة ، فربما ضاقت نفسه عن ذلك ، وضن بغنمه ، فصاد ظبياً فذبحه ، أو يأخذ عددها ظباء ، فيذبحها مكان تلك الغنم ، وهي (الربيض) . وإلى ذلك أشير في شعر للحارث بن حلزة اليشكري :

عنتاً باطلاً وظلماً ، كما تعـ ـتر عن حجرة الربيض الظباء[2]

فذلك نوع من أنواع التحايل للتخلص من الوفاء بالنذور .

وكان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم[3] ، وانما يأكل لحومها غيرهم . كما كانوا يضرجون البيت بدماء البدن[4] ، ويضرجون أصنامهم بها . وورد في رواية

---

١ اللسان (٥٣٧/٤) ، (عتر) ، الاصنام (٣٢) ، (مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤ م) ، تاج العروس (٣٨٠/٣) ، (عتر) ، المخصص (٩٨ وما بعدها) .

٢ « عننا » اللسان (٥٣٧/٤) ، (عتر) ، « عنتا » ، تاج العروس (٣٨٠/٣) ، (عتر) ، البيت رقم (٥١) من المعلقة ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٤٦٣ وما بعدها) .

٣ تفسير القرطبي (٦٤/١٢) .

٤ تفسير القرطبي (٦٥/١٢) .

أخرى ، انهم ينحرون هديهم عنـــد الأصنام ، فإذا نحروا هدياً قسموه فيمن حضرهم[1] .

ومن ذبائح أهل الجاهلية (الشريطة) . كانوا يقطعون يسيراً من حلق الشاة ويتركونها حتى تموت ويجعلونه ذكاة لها . وقد نهي عن ذلك في الاسلام . وقيل ذبيحة الشريطة ، هي انهم كانوا يشرطونها من العلة ، فإذا ماتت قالوا قد ذبحناها[2] .

ومما يلاحظ في تقديم الذبائح ، ان الناذر يراعي الجنس في اختيار الذبيحة ، فإذا كان مقرب القربان ذكراً ، اختار قربانه حيواناً ذكـراً ، وان كان المقرب أنثى ، اختيرت الذبيحة أنثى . ولا زال الناس يراعون ذلك حتى اليوم . ونجد هذه العادة عند غير العرب أيضاً ، فقد كان أهل العراق يقدمون كتف حيوان، في مقابل شفاء كتف انسان ، ورأس ذبيحة في مقابـــل رأس ناذر ، وهكذا . وكانوا يجعلون الرأس رمزاً أحياناً ، فينذرون تقديم رأس المريض أو الصبي الى الإلـه ، إن منّ عليه بالعافية وبالصحة . ويقصدون بذلك بدلاً ، رأس حيوان أو رمزاً يرمز اليه من ذهب أو فضة[3] .

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام :

ومن النذور والقرابين ما يكون حيوانات حية ، تسمى كلها او بعضها باسم الأرباب ، فتحبس عليها ، وتكون حرة طليقة لا يجوز مسها بسوء . وقد أشير في القرآن الكريم الى (البحيرة) ، و (السائبة) ، و (الوصيلة) ، و (الحام)[4] ، وللعلماء في هذه المصطلحات كلام ، مهما تضارب واختلف ، فإنه يوصلنا الى نتيجة هي ان الجاهليين كانوا يراعون هذه الأمور مراعاة شديدة، ولهم فيها قواعد وأحكام ترجع الى تقاليد موروثة قديمة ، حافظوا عليهـــا ، وظلوا يحافظون عليها الى ان منعها الاسلام .

---

١ ابن هشام (١/٦٥) ، هامش على الروض الانف .
٢ تاج العروس (٥/١٦٧) ، (شرط) .
٣ Ancien Israel, p. 434.
٤ المائدة ، الآية ١٠٣ .

فأما البحيرة ، فالناقة أو الشاة تترك فلا ينتفع من لبنها ولا تحمل ولا تركب، وترعى وترد الماء فلا ترد ، فإذا ماتت حرموا لحمها على النساء وأباحوه على الرجال ، ذلك بعد ان تنتج خمسة أبطن أو عشرة أو ما بين ذلك[1] . وقيل أيضاً الناقة اذا نتجت خمسة أبطن نظروا في البطن الخامس فإن كان ذكراً نحروه،فأكله الرجال والنساء جميعاً ، وان كانت أنثى شقوا أذنها ، فتلك البحيرة ، فلا يجز وبرها ولا يحمل عليها ، وحرم على النساء ان يذقن من لبنها شيئاً وان ينتفعن بها ، وكان منافعها للرجال دون النساء[2] . وقيل الشاة التي تشق أذنها،وذلك شيء كان لأهل الجاهلية . تشق أذنها أو أذن الناقة بنصفين ، وقيل بنصفين طولاً ، ليكون التبحير علامة لها[3] .

وقيل : البحيرة هي التي يمنع درّها للطواغيت ، فلا يحتلبها أحد من الناس[4]. قيل لها البحيرة ، لأنهم بحروا اذنها ، أي شقوها ، وكان البحر علامة التخلية . وقال بعض العلماء : البحيرة هي ابنة السائبة[5] . وقال بعض آخر : البحيرة من الإبل يحرم أهل الجاهلية وبرها وظهرها ولحمها ولبنها إلاّ على الرجال ، فما ولدت من ذكر وأنثى ، فهو على هيئتها ، وان ماتت اشترك الرجال والنساء في أكل لحمها[6] . وورد أن البحيرة من الإبل ، كانت الناقة اذا نتجت خمسة أبطن نحروا الخامس ان كان سقباً ، وان كان ربعة شقوا أذنها واستحيوها وهي بحيرة . وأما السقب فلا يأكل نساؤهم منه ، وهو خالص لرجالهم ، فإن ماتت الناقة أو نتجوها ميتاً فرجالهم ونساؤهم فيه سواء يأكلون منه[7] . والمرار من (السقب) الذكر من ولد الناقة[8] .

وورد في الأخبار أن أول من بحر البحائر رجل من (بني مدلج) ، كانت له ناقتان فجدع آذانهما وحرم ألبانهما وظهورهما ، وقال هاتان لله ، ثم احتاج

---

١ تاج العروس (٢٨/٣) ، (بحر) ، اللسان (١٠٦/٥) .
٢ مجمع البيان ، للطبرسي (٢٥١/٢) ، شمس العلوم (حـ١ ، ق١ ، ص ١٣٣) ، المفردات (٢٦) .
٣ الاشتقاق (١١٨) ، اللسان (١٦/٤ وما بعدها) .
٤ الطبري (٥٩/٧) ، القرطبي ، الجامع (٣٣٥/٦) .
٥ القرطبي (٣٦٣/٦) .
٦ تفسير الطبري (٥٨/٧) .
٧ تفسير الطبري (٥٩/٧ وما بعدها) .
٨ اللسان (٤٦٨/١) ، (شعب) .

اليها ، فشرب ألبانهما وركب ظهورهما[1] . كما نسب التبحير الى (عمرو بن لحيّ) ، إذ قيل إنه كان أول من بحر البحيرة وسيب السائبة[2] .

وأما السائبة ، فهي الناقة أو البعير أو الدابة تترك لنذر ، أو بعد بلوغ نتاجها حداً معلوماً ، فلا تركب ولا يحمل عليها ولا تمنع من ماء وكلأ ، وتترك سائبة لا يحل لأحد كائناً من كان مخالفة ذلك[3] . « وكان الرجل في الجاهلية اذا قدم من سفر بعيد ، أو برىء من علة ، أو نجّته دابة من مشقة أو حرب ، قال ناقتي سائبة ، أي تسيب ، فلا ينتفع بظهرها ، ولا تحلأ عن ماء ، ولا تمنع من كلأ ، ولا تركب ، وقيل : بل كان ينزع من ظهرها فقارة ، أو عظماً ، فتعرف بذلك . فأغير على رجل من العرب ، فلم يجد دابة يركبها ، فركب سائبة ، فقيل : أتركب حراماً ؟ فقال : يركب الحرام من لا حلال له ، فذهبت مثلاً »[4] . و « قيل : هي أم البحيرة ، كانت الناقة اذا ولدت عشرة أبطن ، كلهن أناث : سيبت فلم تركب ، ولم يشرب لبنها إلا ولدها أو الضيف حتى تموت . فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء جميعاً ، وبحرت اذن بنتها الأخيرة ، فتسمى البحيرة ، وهي بمنزلة أمها في أنها سائبة »[5] . وقيل السائبة : كان الرجل من أهل الجاهلية يسيب من ماله من الأنعام ، فلا يمنع حوضاً أن يشرع فيه ، ولا مرعى أن يرتع فيه ، فيهمل في الحمى ، فلا ينتفع بظهره ، ولا بولده ولا بلبنه ولا بشعره ولا بصوفه ، فهو مخلاة لا قيد عليه ، ولا راعي له . وكان في روعهم أن من تعرض للسوائب أصابته عقوبة في الدنيا[6] .

ويذكر أهل الأخبار ان أول من سيب السوائب (عمرو بن عامر الخزاعي) ، أي (عمرو بن لحيّ بن قمعة بن خندف) ، أخا بني كعب ، وهو أول من غيّر دين ابراهيم . وقد رجعوا خبرهم هذا الى رسول الله[7] . وقيل ان أول من

---

١ تفسير الطبري (٥٦/٧) .
٢ اللسان (١٦/٤ وما بعدها) ، ابن هشام (٧٨/١) ، (البابي) .
٣ الكشاف (٣٦٨/١) ، الطبرسي (٢٥١/٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٠٥/١) .
٤ الاشتقاق (٧٦ وما بعدها) .
٥ اللسان (٤٧٨/١) .
٦ تفسير الطبري (٥٩/٧ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٣٣٦/٦) .
٧ تفسير الطبري (٥٦/٧ وما بعدها) ، القرطبي ، الجامع (٣٣٧/٦ وما بعدها) .

ابتدع ذلك (جنادة بن عوف)[1] ، وهو من النسأة ، كما سيأتي الكلام عنه فيما بعد .

وأما الوصيلة . فالناقة التي وصلت بين عشرة أبطن ، أو الشاة التي وصلت سبعة أبطن . وفي رواية : ان الشاة اذا ولدت ستة أبطن نظروا ، فإن كان السابع ذكراً ذبح وأكل منه الرجال والنساء ، وان كان أنثى تركت في الغنم ، وان كان ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، ولم يذبح ، وكان لحمه حراماً على النساء . وفي رواية : ان لبن أم الوصيلة حلال على الرجال دون النساء[2] . وقالوا : الوصيلة الشاة اذا أتامت عشر اناث متتابعات في خمسة أبطن ، ليس بينهن ذكر . فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الاناث ، إلا ان يموت شيء منها فيشترك في أكله ذكورهم واناثهم[3] .

وأما الحام ، فالبعير اذا نتج عشرة أبطن من صلبه ، قالوا : قد حمى ظهره ، فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى[4] . وقالوا : الحام من الإبل ، كان الفحل اذا انقضى ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه[5] . وقالوا بل الحام ان الفحل اذا نتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره ولم يركب ولم يجز وبره ويخلى في إبله يضرب فيها لا ينتفع به بغير ذلك . وذكر ان الحام ، الفحل يضرب في الإبل عشر سنين ، ويقال : اذا ضرب ولد ولده قيل قد حمى ظهره ، فيتركونه لا يمس ولا ينحر أبداً ولا يمنع من كلأ يريده ، وهو من الأنعام التي حرمت ظهورها[6] .

وذكروا ان أول من حمى الحامي هو (عمرو بن لحيّ) ، وذلك في سنن أخرى سنها لأهل الجاهلية[7] .

وقد أشير في سورة (الأنعام) الى أشياء كان يفعلها أهل الجاهلية ، يتقربون بها الى آلهتهم ، كانوا يحرمون من أنعامهم أشياء لا يأكلونها ويعزلون من حرثهم

---

١ القرطبي ، الجامع (٣٣٧/٦) .
٢ تاج العروس (١٥٥/٨) ، الكشاف (٣٦٨/١) .
٣ القرطبي ، الجامع (٣٣٧/٦) .
٤ الكشاف (٣٦٨/١) ، تاج العروس (١٠٠/١٠) ، اللسان (٢٢٠/١٨) .
٥ القرطبي ، الجامع (٣٣٦/٦) .
٦ تفسير الطبري (٥٧/٧ وما بعدها) .
٧ تفسير الطبري (٥٦/٧ وما بعدها) .

شيئاً معلوماً لآلهتهم ويقولون لا يحلّ لنا ما سمينا لآلهتنا [1] . فورد : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم . ساء ما يحكمون » وورد : « وقالوا هذه أنعام وحرث ، حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » [2] .

وذكر المفسرون أن من المشركين من حرم ظهور بعض أنعامهم، فلا يركبون ظهورها ، وهم ينتفعون برسلها ونتاجها وسائر الأشياء منها غير ظهورها للركوب. وحرموا من أنعامهم أنعاماً أخر فلا يحجون عليها . وقد ذكروا أن المراد بذلك: البحيرة والسائبة والحام . وأنهم كانوا قد جعلوا ألبان البحائر للذكور دون الإناث. وان كانت ميتة اشترك فيها ذكورهم وإناثهم . وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وان كانت أنثى تترك فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء [3] . فالمراد بهذه الآيات ما ذكرته عن الأمور المتقدمة .

وقد كان بعض أصحاب النذور ينذر ، فإذا تم النذر وصار وبلغت ابلهم أو غنمهم ذلك العدد ، بخل بإبله أو شاته وضاقت نفسه عن الوفاء وضن بإبله وبغنمه فاستعمل التأويل ، وقال : إنما قلت إني أذبح كذا وكذا شاة ، والظباء شاء ، كما ان الغنم شاء ، فيجعل ذلك القربان شاءً كله مما يصيده من الظباء فلذلك يقول الحارث بن حلزة اليشكري :

عنناً باطلاً وظلماً كما تعـ ـتر عن حجرة الربيض الظباءُ [4]

وكان الرجل من العرب في الجاهلية اذا بلغ إبله ألفاً عار عين بعير منها ،

---

١ تفسير الطبري (٣٥/٨) .
٢ الانعام ، الآية ١٣٦ وما بعدها .
٣ تفسير الطبري (٣٧/٨ وما بعد) .
٤ الاصنام (١٣) ، شرح المعلقات للزوزني (ص ١٦٧) ، المعاني الكبير (١٠١٢/٢) .

وسرحه لا ينتفع به[1] . وكان من عادتهم اذا بلغ إبلهم المئة ، ترك ركوب ظهر بعير منها ، فلا يركب ولا ينتفع به ، ويقولون لذلك : الأخلاق[2] .

وكانوا يتصدقون بمائة من الإبل على الفقراء والمحتاجين والمعابد ، وما شاكل ذلك . روي ان (حنيفة) النعم ، وهو من أثرياء الجاهلية ، لما شعر بدنو أجله، جمع بنيه ، ثم أوصى بمائة من إبله على يتيمه صدقة . وكانوا يسمونها (المطيبة)[3].

وقد عرف ما كان يحبسه أهل الجاهلية على أصنامهم من السوائب والبحائر والحوامي وغيرها بـ (الحبس) . وقد أطلق الاسلام ما حبسوا وحلل ما حرموا ، وهو جمع حبيس[4] .

وكانت لهم مكرمات ، فعلوها في الجاهلية عن خلق ودين ورغبة في شهرة وسمعة. منها انهم كانوا يتصدقون بأموالهم على أبناء السبيل وعلى الفقراء والمحتاجين. ذكر ان (الأسود بن ربيعة بن أبي الأسود) اليشكري ، قال لرسول الله : « يا رسول الله إن أبي كان تصدق بمال من ماله على ابن السبيل في الجاهلية ، فإن تكن لي مكرمة تركتها ، وإن لا تكن لي مكرمة ، فأنا أحق بها . فقال : بل هي لك مكرمة فتقبلها » . وذكر ان رسول الله قال : « ألا ان كل مكرمة كانت في الجاهلية ، فقد جعلتها تحت قدمي ، إلا السقاية والسدانة »[5] . وهذه المكرمات هي من مآثر العرب في الجاهلية ، مكارمها وتفاخرها التي تؤثر عنها[6] .

وتحريم أكل لحوم الحيوانات في مثل هذه الحالات على النساء وتخصيصه بالرجال، وجوازه في حالات أخرى،ثم تحريم الانتفاع من لبنها على النساء في بعض الحالات وعلى الرجال والنساء في حالات أخرى إلا الضيوف وعلى جواز ركوبها : كل هذه تشير الى أنها من شريعة قديمة . وقد رجع بعض العلماء ذلك الى الطوطمية ، غير أن من العسير قبول هذا التفسير .

وقد كان الجزارون المجازون شرعاً يقومون بذبح الذبائح عند العبرانيين، وهم

---

١ تاج العروس (٩٧/١) ، (فقأ) ، (٤٢٨/٣) ، (عور) .
٢ Reste, S. 114.
٣ الاستيعاب (٣٩٥/١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ تاج العروس (١٢٥/٤) ، (حبس) .
٥ الاصابة (٥٩/١) ، (رقم ١٥٨) .
٦ تاج العروس (٥/٣) ، (أثر) .

الذين يقررون صلاح الذبيحة أو عدم موافقتها لأحكام الشرع . أما عند الجاهليين فلا نعرف شيئاً عمن كان يقوم بذبح الضحايا التي تقدم الى الأصنام ، كما أننـا لا نستطيع أن نتحدث عن الشروط التي كانوا يشترطونها في الذبيحة ليكون لحمها صالحاً للأكل .

والطيب والبخور من أهم المواد التي كان يتقرب الجاهليون الى آلهتهم بإهدائها الى المعابد . ولم تكن هذه عادة خاصة بالجاهليين وحدهم ، بل هي عادة معروفة في جميع الأديان ، ولا تزال باقية مستعملة . يحرق البخور في المباخر والمجامر ، لتنبعث روائحه الزكية في أنحاء المعبد . أما الخلوق وأنواع الطيب ، فتلطخ بهـا الأصنام وجدران المعبد ، وطالما تقدم المؤمنـون الى آلهتهم بمبخره ليحرق البخور فيها . ومن بين نصوص المسند ، نص كتبه مؤمن اسمه (عبد أصدق) وأبناؤه إلى الإله (ود) ، ذكروا فيه أنهم قدموا اليه مبخرة تعويضاً عن المبخرة التي سرقها اللصوص من معبده[1] .وقد عثر في اليمن على مباخر كبيرة نحتت من الصخر، أهديت الى المعابد ، ليحرق فيها البخور[2] .

وبين ما قدم الى الآلهة ، الملابس والأقمشة وأنواع الأطعمة ، حتى اللبن قدّم الى الصنم (ود) على رواية الأخباريين .

ووردت لفظة (الهدْي) في القرآن الكريم[3] . ويراد بها ما أهدي الى مكـة من النعم وغيره من مال أو متاع . والعرب تسمي الإبل هَدْياً ، لأنها تهدى الى البيت لتنحر ، فأطلقت على جميع الإبل،وإن لم تكن هدياً تسمية للشيء ببعضه[4] . وذكر ان الهَدْي ما أهدي الى بيت الله من ناقة او بقرة او شاة او ثياب وكل ما يهدى . فهو عام في جميـع ما يتقرب به من الذبائـح والصدقات . إلا ان الاطلاق انما ينصرف الى أحد الأصناف الثلاثة من الإبل والبقر والغنم ، وسوقها الى الحرم وذبحها فيه[5] . وقد ذكر (الهدي) في شعر لزهير بن أبي سلمى :

فلم أر معشراً أسروا هدياً   ولم أر جار بيت يستباء

---

١ Glaser 324, Handbuch, I, S. 216.

٢ Ency. Religi., I, p. 352.

٣ البقرة ، الآية ١٩٦ ، المائدة ، الآية ٢ ، ٩٧ ، الفتح ، الآية ٢٥ ، تفسير الطبـري (٣٧/٦) .

٤ اللسان (٣٥٨/١٥ وما بعدها) .

٥ القرطبي ، الجامع (٣٩/٦) .

يذكر رجلاً أسر يشبهه في حرمته بالبدنة التي تهدى[1] .

وعرف الهدي المقلد بقلائد ، تشعر انه مما أهدى الى بيت الله بـ (القلائد) . فلا يجوز لأحد ان يتحرش به ، أو ان يفك قلائده ، لأن ذلك تجاوز على مال الله ، وهو مال معلم عليه معروف بقلادته انه من الهدي المخصص بالبيت . فإذا فكت قلادته سرق وحسب من أموال الناس الخاصة[2] . والظاهر ان من الجاهليين من كان يتطاول على أموال البيت ، فيستولي على الهدي ، ويفك القلائد ، ويسطو بذلك على الإبل المقلدة والبقر المقلد ، وذلك كما يظهر من الآية : « لا تحلّوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد »[3] . ومنهم من كان يسطو على الهدي قبل وصوله موضعه من البيت .

وكانوا يهدون الإبل والبقر الى بيوت أصنامهم . وقيل للناقة أو البقرة أو البعير تهدى الى مكة (البدنة) . وقد أشير الى البدن في القرآن ، فورد : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله »[4] . تهدى الى بيت الله فلا تركب[5] . وذكر ان البدن السمان من الإبل والبقر[6] . ويظهر من غربلة ما ورد في روايات علماء التفسير عن البدن ، انها الهدايا التي تقدم الى الكعبة ، تحبس فتبقى حية ، لا يجوز لأحد التطاول عليها ، وكانوا ينحرونها أيضاً . والإبل تنحر قياماً معقولة . فكانوا اذا أرادوا نحر البعير ، عقلوا احدى يديه، فيقوم على ثلاث قوائم[7] . ولم يكونوا يركبون البدن إلا عن ضرورة[8] . فالبدن إذن ما يهدى الى مكة ، ليحبس على اسمها ، أو ليذبح تقرباً الى رب البيت .

حمى الآلهة :

والحماية الحبوس من أرض ومن حيوان ، شددت شرائع الجاهليين في وجوب

---

١ تفسير الطبري (٢/١٢٨) .
٢ تفسير الطبري (٦/٣٧) .
٣ المائدة ، الرقم ٥ ، الآية ٢ .
٤ الحج ، الآية ٣٦ ، تفسير الطبري (١٧/١١٧) .
٥ اللسان (١٣/٤٨ وما بعدها) ، (بدن) .
٦ تفسير الطبري (١٧/١١٧) ، القرطبي ، الجامع (١٢/٦٠) .
٧ القرطبي ، الجامع (١٢/٦٠) ، تفسير الطبري (١٧/١١٧ وما بعدها) .
٨ اللسان (١٣/٤٨ وما بعدها) ، (بدن) .

المحافظة على حرمتها وعدم الاعتداء عليها. وهددت من يتجاسر على مال الأرباب بعقوبة تنزل عليه منها وبغضب الآلهة عليه ، وبمصير سيء يلحق به ، فضلاً عن العقوبة التي تنزلها المعابد به ، قد تصل حد القتل . فصار من المحظور اعتضاد نبات الحرم وصيد الحيوان فيه ، ومن يفعل ذلك يكون آثماً ، وقد يعرض نفسه لغضب الناس عليه . فصار الحرم مرتعاً آمناً للطيور ، ولا زال الناس لا يتحرشون بطيور المعابد ولا يمسونها بأي سوء ، بل يقدمون لها ما تحبه من المأكول ، لتعيش عليه .

وجعلت المعابد لحيواناتها وللهدي وللقلائد مواضع خاصة ، اختارتها لترعى فيها جعلت (حمى) للأرباب . لا يجوز لأحد رعي سوائمه بها ولا التطاول على دواب تلك الأحمية ، لأنها مما حبس للأصنام . وتكون هذه المواضع مخصبة معشبة ذات حياة ، وقد تزرع . وتكون غلتها للمعبد .

الفصل الثامن والستون

رجال الدين

أقصد برجال الدين ، أولئك الذين خـدموا الأصنام ، أو زعموا أنهم ألسنة الأرباب الناطقة على سطح الأرض ، والذين كانوا يوجهون الناس توجيها روحياً دينياً ، ويرعون حرمة المعابد والأماكن المقدسة وشعائر الدين ويحافظـون عليها ، ويضعون قواعدها للناس .

ومعارفنا عن هذا الموضوع قليلة ضئيلة ، لعدم وجود نصوص جاهلية تتحدث عن ذلك ، ولعدم ورود شيء مهم عنه في روايات أهل الأخبار . وليس لنا من أمل في زيادة علمنا بهذه الناحية ، إلا في المستقبل ، فلعله يكشف عن نصوص جاهلية جديدة ، قد يرد فيها شيء جديد عن رجال الدين عنـد الجاهليين ، أو في موارد أخرى عربية أو غير عربية قديمة ، قد تكون مختبئة مطمـورة ، يأمر الزمن باخراجها ، ليقف عليها الباحث عن هذا الموضوع .

ومن الألفاظ الخاصة برجال الدين ، لفظة (رشو) ، الواردة في النصوص المعينية والقتبانية ، أطلقت على من كان يقوم بخدمة الإلـه (ود) إلـه معين الرئيس و (عم) إلـه شعب قتبان الرئيس[1] . فهي في معنى سادن في لغة أهل الحجاز . ووردت لفظة (شوع) في المعينية أيضاً في المعنى نفسه . و (رشوت) (رشوة)

[1] Handbuch, I, S. 131, 218, Katab. Texte, II, S. 80.

بمعنى سادنة وكاهنة ، مما يدل على وجود سادنات وكاهنات بين رجال الدين الجاهليين[1] .

ووردت في المعينية وفي اللحيانية لفظة (افكل) (أفكل) بمعنى (رشو) وسادن ، أي القائم بأمر الصنم ، والسادن له . فورد : (افكل ود) ، أي سادن ود[2] . وتقابل هذه اللفظة لفظة (ابكلو) Apkalu في الأكادية[3] . وعرفت السادنة والكاهنة بـ (افكلت) (أفكلة)[4] .

والسدنة ، قومة الأصنام ومتولو أمرها . وكان أمر فتح البيت بمكة وغلقه وتولي أمره الى السادن . وهو من (بني عبد الدار) ، وقد أقر الرسول السدانة فيهم عام الفتح[5] . ويعرف السادن بـ (الحاجب) كذلك . فالسدانة والحجابة هما بمعنى واحد[6] . غير ان الحجابة تخصصت بحجابة الملوك والحكام ، فصارت وظيفة ادارية ذات مدلول خاص . فالحاجب هو الذي يتولى تقديم الناس الى الملوك أو منعهم من الوصول اليهم ، وذلك في الجاهلية وفي الاسلام. أما السدانة ، فإنها ظلت محافظة على معناها هذا الخاص بالمعابد والمواضع المقدسة. ولهذه المنزلة ولصلتها بالآلهة وبالأصنام عدت السدانة من درجات الشرف والجاه ، وكانت لأصحابها حرمة ومكانة في النفوس .

والسدانة ، تنتقل بالارث من الآباء الى أكابر الأبناء وتنحصر في الأسرة فتكون من حقها ومن نصيبها ، لا يمكن انتزاعها منها إلا بقوة لا يمكن التغلب عليها . ومن واجب العشيرة التي تنتمي هذه الأسرة اليها الدفاع عنها إن حاول غريب انتزاع هذا الشرف منها . لقد كانت سدانة الكعبة في (بني عبد الدار) ، وكانت حجابة (ود) في (دومة) الجندل الى (بني عامر الأجدار) ، (بنو الفرافصة بن الأحوص) من كلب[7] . وكانت سدنة العزى (من بني

---

١ Arabien, S. 249.

٢ Grahmann, S. 87, Jaussen — Savignac, II, 380.

٣ Grohmann, S. 249.

٤ راجع النصوص رقم ٩ ، ١٢ ، ٢١ ، ١٠٤ ، وكتاب W. Caskel, S. 132.

٥ تاج العروس (٢٣٣/٩) ، (سدن) .

٦ Reste, S. 130.

٧ المحبر (٣١٦) . Reste, S. 130.

صرمة بن مرة) ، وكان سدنة (جهار) من (آل عوف) من (بني نصر)[1]، وكان سدنة (سواع) (بنو صاهلة)،من هذيل[2] . وكان سدنة بيت (الربة) أي الشمس ، من (بني أوس بن مخاشن بن معاويـة بن شريف بن جروة بن أسيّد بن عمرو بن تميم) ، وكان سدنة (الفلس) ، (بنو بولان) ، وكان سدنة (مناة) (الغطاريف) من الأزد . وسدنة (السعيدة) (بنو العجلان)، وسدنة (ذو الخلصة) ، (بنو هلال بن عامر) ، وكان سدنة (ذو اللبا)، (بنو عـامر) ، وسدنة (المحرق) ، (آل الأسود) العجليّون . وسدنة (مرحب) (ذو مرحب) ، أي من يتولى أمر الصنم[3] .

وكان (مسعود) الثقفي ، زوج (سبيعة) ، وقائد ثقيف في الفجار ، من من سدنة اللات[4] . وهو من سادات ثقيف . ومن أبنائه (عروة بن مسعود)، وأمه (سبيعة) بنت (عبد شمس) . وذكر انه الذي ذكر الله عزّ وجل في التنزيل من القريتين عظيم . وأحد أربعة اتصل سؤددهم في الجاهلية والإسلام[5] .

وكان لهذه الأسر التي تولت السدانة ، مكانة كبيرة في قومها ، فعدّت من الأسر الشريفة ذات النفوذ عند الجاهليين . وقد استفادت من النذور والقرابين التي تقـدم الى بيوت الأصنام ، إذ تكون من حقهـا ونصيبها . وقد ظهر من (بني مخاشن بن معاوية بن شُريف بن جروة بن أسيـد بن عمرو بن تميم) ، حكام حكموا بعكاظ[6] . والحكومة من امارات الشرف والجاه والتقدير ، كما ظهر منها أئمة تولوا الإجازة بالمواسم ، وهي من علائم التعظيم والتفخيم عندهم .

غير ان هذا الحق لا يستوجب ولا يشترط أن تكون السدانـة في أسرة من القبيلة أو الموضع الذي فيه بيت الصنم أو الأصنام ، فقـد كان كثير من سدنـة الأصنام من قبيلة لا تنتمي اليها من يقع بيت الصنم في أرضها . فكانت السدانة مثلاً لبني أنعم في جرش ، ولبني الغطريف في قديـد ، ولبني شيبان في نخلة ،

---

١ المحبـر (٣١٥) .
٢ المحبر (٣١٦) .
٣ المحبر (٣١٦ وما بعدها) .
٤ المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الاول) ، (ص ٧ وما بعدها) .
٥ الاشتقاق (٢/١٨٦) .
٦ المحبـر (١٣٤) .

ولآل أمامة في تبالة وهكذا[1] . ويظهر ان هؤلاء توارثوا هذا الحق من عهد سابق، إما لأنهم استوردوا الصنم أو تلك الأصنام الى هـذه المواضع فأقاموا فيها ، وإما لأنهم كانوا يسكنون مع قبيلتهم في تلك الأماكن ، ثم حدث لسبب من الأسباب أن جلت قبيلتهم عن الموضع . أما السدنة ، ففضلوا البقاء في الموضع الذي كانوا فيه حيث أصنامهم والبيت . ونجد مثل ذلك أيضاً عند العبرانيين[2] .

ويظهر من تفسير لفظة (صوفة) و (صوفان) ، على رأي بعض العلماء ، أن هذه الكلمة كانت تقال لكل من ولي البيت شيئاً من غير أهله ، أو قام بشيء من خدمة البيت أو بشيء من أمر المناسك[3] . ومعنى هذا أن خدمة البيت : بيت مكة أو غيره ، لم تكن خاصة بأهل الموضع الذي يكون فيه هـذا البيت ، بل كان من الجائز أن يتولاها أناس من أهل ذلك الموضع ، وأناس من غيرهم أيضاً كأن يقيم أشخاص في ذلك المكان ، فتطول إقامتهم به ، وتظهر منهم زعامة أو من أولادهم ، تؤدي بهم الى الاستحواذ على رئاسة البيت ورئاسة ذلك المكان ، كالذي كان من أمر (قصي) مثلاً .

ولا بد من ادخال (النسأة) ، في رجال الدين . فقـد كان الناسىء ، هو الذي ينسىء النسيء ، يعين موسم الحج ويثبته للناس . فهو اذن فقيه القوم وعالمهم ومفتيهم في أمر الحج[4] .

وقد كان من أهم واجبات (النسأة) ، تثبيت وتعيين الأشهر . فقد كانت لدى الجاهليين أشهر حرم ، لها حرمة ومنزلة خاصة في نفوسهم ، لما كان لها من علاقـة بآلهتهم وبتعبدهم لها ، وبالحج فيهـا الى معابد الآلهة . مثل شهر (ذ الالت) (ورخن ذ الالت) ، وهو شهر خصص بالآلهة ، كما يظهر من تسميته بها . يظهر أنه كان شهر تقرب وعبادة للأرباب ، ومثل شهر (ذ عم) ، (ذو عم) ، و (عم) هو إلـه قتبان الرتيس، فيظهر أنه شهر مقدس خصص بعبادة هذا الإلـه ، أو أن يوماً أو عيداً خاصاً به ، كان يقع فيه ، فدعي لذلك باسمه . ومثل شهر (ذ حجتن) ، أي شهر (ذو الحجة) ، وهو شهر خصص

---

[1] Reste, S. 130.

[2] RESTE, S. 31.

[3] الروض الانف (١/٨٥) .

[4] المحبر (١٥٦ وما بعدها) ، المعاني الكبير (٣/١١٧١) .

بالحج . ومثل الأشهر الأربعة الحرم التي تتحدث عنها الموارد الاسلامية .

والإجازة بعرفة من الأعمال التي لها تماس بالدين، فهي من شعائر الحج ومناسكه. ولا بد وان نعدّ (المجيز) ، وهو الذي يجيز الناس من المزدلفة الى منى من رجال الدين . وممن كانت له منزلة وحرمة في قومه ، لما لمركزه من أهمية في الحج .

وقد أشار (السكري) الى (أئمة العرب) ، فذكر انهم الذين تولوا أمر المواسم ، وأمر القضاء بعكاظ ، والذين كانوا سدنتهم على دينهم وأمناؤهم على قبلتهم ، وكانوا من قريش ، والذين تولوا الإفتاء في دينهم . وهم من (بني مالك بن كنانة)[1] . ولما تحدث عن (النسأة) ، قال : « نسأة الشهور من كنانة وهم القلامسة ، واحدهم قلمّس ؛ وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم في دينهم »[2] . والفقيه العالم (وفقيه العرب عالمهم)[3] . والفقه العلم ، (وقد جعلته العرب خاصاً بعلم الشريعة) . وفقهه تفقيهاً علمه . (ومنه الحديث: اللهم علمه الدين وفقهه في التأويل ، أي علمه تأويله)[4] .

وفي القرآن الكريم: « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين »[5]. والفقه العلم بالشيء والفهم له والفطنة[6].وقد خصصت اللفظه بعلم الفقه في الاسلام. مما يدل على أن لها صلة منذ أيام الجاهلية بالعلم وبالدين . وأن (الفقهاء) ، العلماء بأمور الدين عند الجاهليين كذلك . وفيه ألفاظ يستدل منها على وجود مفهوم العلم والعلماء والتعلم والدين وفهمه والشريعة والأحكام عند الجاهليين ، ولا تكون هذه عند قوم ليس لهم علماء ورجال دين يعلمون من هم دونهم أحكام الدين، ليتفقهوا فيه ، وليتعلموا ما هو واجب عليهم وما هو غير واجب ومفروض عليهم .

والإفتاء الإجابة عن مسألة . « ومنه قوله تعالى : قل : الله يفتيكم في الكلالة» و (الفتيا) و (الفتوى) ما أفتى به الفقيه في مسألة[7] . وقد استفتى أصحاب

---

١ المحبر (١٨١ وما بعدها) .
٢ المحبر (١٥٦) .
٣ تاج العروس (٤٠٢/٩) ، (فقه) .
٤ تاج العروس (٤٠٢/٩) ، (فقه) .
٥ التوبة ، الرقم ٩ ، الآية ١٢٢ ، تفسير الطبري (٤٨/١١) ، روح المعاني (٤٣/١١) .
٦ تاج العروس (٤٠٢/٩) ، (فقه) .
٧ تاج العروس (٢٧٥/١٠) ، (فتى) .

رسول الله الرسول في أمر النساء وإرثهن فتزل الوحي : « ويستفتونك في النساء . قل : الله يفتيكم فيهن »[1] . فقد كان أهل الجاهلية يستفتون فقهاءهم وأهل الفتيا منهم فيما يشكل عليهم من أمور الدين ، فيفتون لهم ما يرونه من رأي واجتهاد . فنحن ، اذن أمام فقه في الدين واجتهاد فيه عند أهل الجاهلية .

والإمام ما ائتم به قوم من رئيس أو غيره، كانوا على دين أو كانوا مشركين. فهو الذي يقتدى به[2] . وقد وردت الكلمة في سبعة مواضع من القرآن الكريم في حالة الإفراد ، ووردت خمس مرات في حالة الجمع ، أي (أئمة) ، أطلقت على أئمة الكفر وعلى الغواة كما أطلقت فيه على المؤمنين الهادين الى الحق . وأئمة الكفر في قوله تعالى : « فقاتلوا أئمة الكفر » ، أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وأبو سفيان ، وهم الذين كانوا يؤذون الرسول ، وهمّوا بإخراجه وعادوه[3] . فالإمام إمام دين وإمام دنيا : رجل دين يقتدى به ، ورئيس قبيلة وشريف قوم وسيدهم . ونظراً لقلة استعمال اللفظة في الرئاسة الدينية ولاستعمالها في معنى الرئاسة الدينية في الغالب ، ولا سيما في الاسلام حيث خصصت برئاسة دينية ، من إمامة للمسلمين ، وإمامة في الفقه ، وإمامة في الصلاة، ولعدم اطلاق الجاهليين لها على سادات القبيلة أو سادة القوم ، إلا في القليل . فإن في استطاعتنا القول انها كانت عندهم في معنى الرئاسة الدينية كما هو الحال في الاسلام .

ونجد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد بوجود رجال دين كان لهم رأي في الخلق وفي الخالق وفي الحياة ، منهم من بشر برأيه وحاول نشره : ومنهم من تبتل واعتكف وقنع بإيمانه برأيه وبصحة عقيدته . حتى ان منهم من كان قد تبتل وتنسك وسلك طريق الزهاد في اجتناب الطيبات ولذات الحياة ، ومن ذلك أكل اللحم . فقد عرف (عبدالله بن عبد الملك بن عبدالله)[4] الغفاري ، بـ (أبي اللحم) (آبى اللحم) ، لأنه كان يأبى أن يأكل اللحم . وكان شريفاً شاعراً ، ينزل (الصفراء) ، وشهد (حنيناً) وقتل بها[5] .

---

١ النساء ، الآية ١٢٧ ، تفسير الطبري (٥/١٩١) ، روح المعاني (٥/١٤٣) .
٢ تاج العروس (٨/١٩٣) ، (أمم) .
٣ التوبة ، الرقم ٩ ، الآية ١٢ ، تفسير الطبري (١٠/٦٢) .
٤ ذكر « ابن الكلبي » أن اسمه « خلف بن عبد الملك » ، وقيل اسمه الحويرث .
٥ الاصابة (١/٢٣) ، (رقم ١) .

وعرف (عثمان بن مظعون) بتبتله ، حتى انه ابتعد عن زوجه ، فلم يقربها، وكاد ان يختصي ، حتى نهاه عن ذلك رسول الله . وكان على هذا الرأي في جاهليته من شدة التمسك بالزهد عن الدنيا والابتعاد عن ملذاتها،وقد كان نصرانياً متأثراً بالرهبانية ، أخذ آراءه هذه من زهاد النصارى ، الذين غلب التصوف عليهم ، وابتعدوا عن الدنيا ، ورأوا ان الخلاص من الخطيئة والإثم،هو بالتقشف وبالابتعاد عن كل حلو محبوب في هذه الدنيا[1] .

وقد عرفت الجاهلية رجالاً آخرين كانوا مثل عثمان بن مظعون والرهبان في التأمل والتفكر والابتعاد عن الناس . وهي رهبانية حاربها الاسلام ، إذ نهى عن الرهبنة . رأى (عمر) رجلاً مطأطئاً رأسه ، فقال : ارفع رأسك ، فإن الاسلام ليس بمريض . ورأى رجلاً متماوتاً ، فقال : لا تمت علينا ديننا ، أماتك الله . ونظرت عائشة الى رجل كاد يموت تخافتاً ، فقالت : ما لهذا ؟ قيل : انه من القراء ، فقالت : كان عمر سيد القراء ، وكان اذا مشى أسرع،واذا قال أسمع، واذا ضرب أوجع[2] . وذكر ان عشرة من الصحابة اجتمعوا في بيت (عثمان بن مظعون) ، واتفقوا على ان يصوموا النهار،ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش، ولا يأكلون اللحم والودك ، ويلبسوا المسوح ، فسمع رسول الله بهم ، فنهاهم عن ذلك[3] .

و (الصارورة) والصرار الذين تبتلوا وتركوا النكاح . وهذا من فعل الرهبان . وهو معروف عند العرب . والصرورة الرجل في الجاهلية يحدث حدثاً فيلجأ الى الكعبة ، فلا يهج ، فكان إذا لقيه وليّ الدم في الحرم ، قيل له هو صرورة ولا تهجه ، تعظيماً للبيت واحتراماً له[4] .

ومثل (صرمة) المعروف بـ (أبي قيس) ، وكان ترهب في الجاهلية واغتسل من الجنابة ، وهمّ بالنصرانية ثم أمسك . وكان قوّالاً بالحق لا يدخل بيتاً فيه جنب ولا حائض الى أن أدرك الإسلام ، فأسلم[5] . ويظهر من ذلك ،

---

١ ارشاد الساري (٨/١٠ وما بعدها) .
٢ اللسان (٢/٩٤) ، (موت) .
٣ الطبرسي ، مجمع البيان (٣/٢٣٦) .
٤ اللسان (٤/٤٥٣) ، (صرر) ، تاج العروس (٣/٣٣١) ، (صرر) .
٥ الاصابة (٢/١٧٦) ، (رقم ٤٠٦١) .

أن الاغتسال من الجنابة والابتعاد عن الحائض من الشعائر التي راعاهـا المتدينون من أهل الجاهلية ، من الموحدين الذين تأثروا باليهودية ، لكنهم لم يدخلوا فيها ولا في النصرانية ، بل أمسكوا عن الديانتين ، ودعوا الى عبـادة واحد أحد ، وماتوا على هذا الدين .

ومثل (وكيع بن سلمة) الإيادي ، صاحب الصرح بحزورة مكة ، فقد كان كاهناً ورجل دين ، وقالوا كان صديقاً من الصديقين . اتخذ صرحاً يصعد اليـه بسلالم ، فكان يدعي أنه يناجي ربّه من ذلك الموضع[1] . وكان يعظ الناس وينصحهم بالتدين بدينه وبالابتعاد عن عبادة الأوثان ، على شاكلة الأحناف . وهو في الواقع واحد منهم ، ويجب اعتباره أحدهم ، لأن ما ينسب اليه ينسب أيضاً الى الحنفاء .

والصدّيق الكثير الصدق ، ومن صدق بقوله واعتقـاده وحقق صدقه بفعله . « قال الله تعالى واذكر في الكتاب ابراهيم . انه كان صديقاً نبياً . وقال تعالى : وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، أي مبالغة في الصدق والتصديق »[2] . وهم من آمن بالله وصدق به وبشّر بعبادته بين الناس ، وكان باراً بنفسه وبغيره . وهي بمعنى (بار) في لغة بني إرم[3] .

وقد نسب أهل الأخبار الى رجال من الجاهليين فتاوى وأحكام صارت سنناً في قومهم . من ذلك ما نسبوه الى (قصي) من أمور ، زعموا انها صارت سنّة احتذت بها قريش ، وان بعضاً من أحكامه بقيت الى الاسلام،فأقرها[4] ، وما نسبوه الى (عامر بن الظرب) العدواني من حكم في (الخنثى) جرى حكم الاسلام به[5] . وما ذكروه من افتاء (عامر بن جشم بن غنم) ، المعروف بـ (ذي المجاسد) في التوريث على قاعدة : ان للذكر مثل حظ الانثيين ، وهو حـكم حكم بـه الاسلام . ومن أمور أخرى ، يرد ذكرها في المواضع المناسبة من هذا الكتاب[6] ، مما يدل على ان الحياة الدينية عند الجاهليين ، هي آراء وفتاوى ، أفتى بها رجال من أهل الدين والمروؤة والعقل والعـلم من أهل الجاهلية ، فأخـذ بها قوم من

---

١ المحبر (١٣٦) .
٢ تاج العروس (٤٠٥/٦ وما بعدها) ، (صدق) ، تفسير الطبري (٦٧/١٦) .
٣ غرائب اللغة (١٩٢) .
٤ المحبر (٢٣٦) .
٥ المحبر (٢٣٦) .
٦ المحبر (٢٣٦ وما بعدها) .

أتباعهم ، وساروا بموجبها . وبقي بعض منها الى الاسلام . غير ان تلك الفتاوى لم تكن عامة ، شملت كل العرب ، بل حتى كل قوم ذلك المفتي أو الإمام ، إذ لم تكن عند العرب سنّة واحدة ملزمة ، لسبب انهم كانوا شيعاً وقبائل ، ولكراهتهم الخضوع للقيود العامة ، إلا كرهاً ، وذلك في الأمور التي لا بد لهم من الخضوع لحكمها لأنها من أصول الأعراف التي يقوم عليها وجودهم مثل عرف الأخذ بالثأر .

ومن الصعب تصور وجود طبقة خاصة كبيرة لرجال الدين على نحو ما كان عند المصريين مثلاً أو الآشوريين أو البابليين أو اليونان أو الرومان، أو في الكنيسة، بسبب النظام القبلي الذي كان غالباً على جزيرة العرب . وصغر المجتمعات الحضرية. فالأصنام هي أصنام محلية ، أصنام قبيلة ، لذلك كان عبدتها هم عبدة القبيلة أو القبائل المتعبدة لها . وفي محيط اجتماعي ضيق مثل هذا المحيط ، لا يمكن ظهور طبقة خاصة برجال الدين ذات نفوذ واسع ، إنما تكون قدرتها بقدرة المحيط الذي تعيش فيه . ولما كانت حياة البداوة حياة بسيطة غير معقدة ، تعذر علينا أن نتصور حياة دينية معقدة عند أبناء البادية . وكل ما يمكن وجوده عندهم ، هو ما كان له علاقة بمحيطهم وبمعيشتهم البسيطة ، مثل السدانة والكهانة وأمثال ذلك مما يحتاج اليه البدوي لحل مشكلات حياته ولجلب السعادة له .

ولم أجد في نصوص الجاهليين ولا في أخبار أهل الأخبار ، ما يفيد قيام رجال الدين من أهل الجاهلية ، بتلقين الناس أصول الدين وتعاليمه ، أو شرح نصوص دينية لهم . أو تعليمهم الناس مبادىء القراءة والكتابة في المعابد على نحو ما كان يفعله اليهود والنصارى في ذلك الوقت . ولكن هذا لا يكون دليلاً على نفي وجود شيء من ذلك عندهم . فقد يجوز أن يعثر في المستقبل على نصوص تفيد بوجود ذلك عندهم . ذكر أن رجلاً من (خثعم) قال : « كانت العرب لا تحرم حلالاً ولا تحلل حراماً . وكانوا يعبدون الأوثان ويتحاكمون اليها »[1] .

وفي القرآن الكريم آيات مثل : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله بزعمهم . وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم ، فلا يصل الى الله ، وما كان لله ، فهو يصل الى شركائهم . ساء ما يحكمون .

---

١ ابن عساكر ، التاريخ الكبير (٣١٧/١) .

وكذلك زين لكثير من الناس قتل أولادهم،شركاؤهم ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه،فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر" لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم،وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، افتراء" عليهم ، سيجزيهم بما كانوا يفترون »[1] ، وآيات أخرى وكلمات تفيد وجود تشريع ومشرعين لدى الجاهليين ، أي رجال دين يبينون لهم الحلال والحرام وأوامر الأصنام ، ويشرعون لهم من تشريع كالذي نراه في هذه الآيات وغيرها من أحكام وضعوها للناس باسم آلهتهم ، فوبخهم الله في القرآن على افترائهم هذا على الله وعلى الأصنام التي لا تنطق ولا تعقل .

وكان من أهم واجبات رجال الدين والزهاد والمتنسكين ، الاشراف على المعابد وصيانة أموالها ، وخدمة الأصنام وتنفيذ الأحكام ، وتلبية طلبات الناس في التوسط لدى الآلهة برفع الضر والكرب عنهم ، أيام الشدة وساعات العسر . من ذلك التوسل الى الآلهة . بحفظ القوافل ، وانزال الرحمة بالناس سني القحط . ومن ذلك ما يسمونه بالاستسقاء . فقد كانوا يستسقون إذا أجدبوا ، فإذا أرادوا ذلك أخذوا من ثلاثة أشجار وهي : سلع وعشر وشبرق ، من كل شجرة شيئاً من عيدانها وجعلوا ذلك حزمة ، وربطوا بها ظهر ثور وأضرموا فيها النار، ويرسلون ذلك الثور ، فإذا أحس بالنار عدا حتى يحترق ما على ظهره ويتساقط . وقد يهلك ذلك الثور فيسقون[2] .

وذكر انهم كانوا اذا أرادوا الاستمطار في الجاهلية اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر ، ثم صعدوا بها في جبل وعر ، وأشعلوا فيها النيران ، وضجوا بالدعاء والتضرع ، فكانوا يرون ان ذلك من أسباب السقيا . ولأمية بن أبي الصلت شعر في ذلك[3] .

وكان من عادة أهل مكة في الاستسقاء ، انهم كانوا اذا أجدبوا وقحطوا ، واشتدت بهم الحاجة ، خرج من كل بطن منهم رجل ، ثم يغتسلون بالماء ، ويتطيبون ، ثم يلتمسون الركن ويطوفون بالبيت العتق سبعاً،ثم يرقون أبا قبيس ،

---

١ الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ١٣٧ وما بعدها .
٢ السيرة الحلبية (١٣٢/١) .
٣ الحيوان (٤٦٦/٤ وما بعدها) .

فيتقدم رجل منهم ، يكون من خيارهم ، ومن رجال الدين فيهم ، ممن يتبركون به ، فيدعو الله ويستغيث ، طالباً الرحمة والغوث بالمتوسلين اليه . ويذكرون ان (عبد المطلب) ، كان ممن استسقى لأهل مكة ولغيرهم مراراً [1] .

التبرك برجال الدين :

ويظهر من أخبار أهل الأخبار ، ان رجال الدين من أهل الجاهلية كانوا يباركون أتباعهم ويقدسونهم ويلمسون رؤوسهم لمنحهم البركة والشفاء من الأمراض. فكان أحدهم يضع يده على رأس مريض ، أو يلمس جبهته ، ليمنحه بركة تشفيه ، أو عافية تصيبه ، أو تبركاً وتقرباً بذلك الى الآلهة . وكانوا يتفلون في فم الصبيان ، لتكون التفلة بركة لهم ، وعافية ، وشفاء من مرض ، أو علماً يصيب الصبي ، حينما يكون رجلاً .

ويظهر من القرآن ومن الحديث النبوي ، ان أهل الكتاب من الجاهليين كانوا يبالغون في التقرب من رجال دينهم وفي التبرك بهم ، حتى انهم كانوا يتسابقون في الحصول على قطعة من ملابس أوليائهم ورجال دينهم ورهبانهم ونساكهم للتبرك بها ، وفي شعر امرىء القيس،وشعر غيره إشارة الى هذا التبجيل والتعظيم .

تنفيذ الأحكام :

ولم يكن تنفيذ الأحكام الدينية إلزامياً ، انما كان عن طاعة وموافقة . ثم إن العرب لم يكونوا على دين واحد يرجع الى شرائعه ، حتى يلزم المرء بتنفيذ ما جاء في حكمه [2] . فكان أمر إطاعة أحكام رجال الدين رهناً بمكانة رجل الدين وبما له من هيبة ونفوذ بين قومه .

وقد رأينا أن من الناس من كان يثور حتى على آلهته ، إذا وجد أنها لم تلب طلباته . وأنه كان يتوسل اليها ويلوذ بها لمساعدته عند الشدة ، ثم يهددها ويتوعدها

---

١ السيرة الحلبية (١/١٣٢ وما بعدها) .
٢ اليعقوبي (١/٢٢٧) ، (حكام العرب) .

بالابتعاد عنها وبترك زيارتها وبنبذها ، إن هي صمت آذانها عنه ، ولم تجب مـا طلبه منها . وقد قصصنا حكايـة امرىء القيس مع صنمه ، اذ رمى السهام في وجهه وعنفه وشتمه ، لأن جواب الاستقسام لم يكن على نحو مـا كان يريد . ولم يكن ذلك من عمل أهل الجاهلية وحدهم ، بل نجد وقوع مثل هذه الحوادث في الاسلام أيضاً .

وقد رأينا أن في الجاهليين — كما في كل قوم — أناس كانوا لا يقيمون وزناً لحلال أو حرام ، فكانوا يستحلون المظالم ، ولا يجعلون للحرمات حرمة، ويعتدون في الأشهر الحرم . كانوا إذا حضروا الأسواق ، أباحوا لأنفسهم الاعتداء فيهـا على أموال الناس فسمّوا : « المحلون » . ومنهم قبائل من أسد وطيء وبني بكر ابن عبد مناة بن كنانة ، وقوم من بني عامر بن صعصعة [1] . فهؤلاء لا يعرفون الحـلال ولا الحرام ، والشهور والأيام عندهم سواء بسواء ، يغزون فيهـا متى شاؤوا ، حتى في الأشهر الحرم . اذا لا حرمة عندهم لشهر .

وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، فيسمون الذادة المحرمون [2] . وهم من بني عمرو بـن تميم ، وبني حنظلة بن زيد مناة ، وقوم من هذيل ، وقوم من بني شيبان ، وقوم من بني كلب بن وبرة . فكانوا يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس . وكـان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم في الأشهر الحرم .

ولم تكن للجاهليين أحكام في الحلال والحرام بالنسبة الى المأكول على ما يظهر ، بل كان مرجع الحرمة والإباحة عندهم الى عرف القبائـل . فلـما نزل الأمر في الاسلام بتحريم أكـل الميتة ، أي الحيوان الميت ، عجبت قريش من ذلك ، واحتجوا قائلين : كيف تعبدون شيئاً لا تأكلون مما قتل ، وتأكلون أنتم مما قتلتم؟ وكانوا يقولون ما الذي يموت ، وما الذي تذبحون إلا سواء . وذكر « ان ناساً من المشركين دخلوا على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أخبرنا عن الشاة اذا ماتت من قتلها ؟ فقال الله قتلها . قالوا : فتزعم ان ما قتلت أنت

1 اليعقوبي (١/٢٤٠) ، (أسواق العرب) .
2 اليعقوبي (١/٢٤٠) ، (أسواق العرب) .

وأصحابك حلال ، وما قتله الله حرام ! »[1]. وذكر ان فارس أوحت الى أوليائها من مشركي قريش ان خاصموا محمداً وقولوا له : ان ما ذبحت فهو حلال وما ذبح الله بشمشار من ذهب ، فهو حرام . فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء »[2] . فقد كانت قريش تأكل كل شيء ، من ميتة ومختنقة ومن نطيحة وما أكل السبع وما أهل للصنم ، فنزل تحريم ذلك في الاسلام .

وذكر انهم كانوا يقطعون يسيراً من حلق الشاة ويتركونها حتى تموت، يجعلون عملهم هذا ذكاة لها . وقيل : ذبيحة الشريطة ، هي انهم كانوا يشرطونها من العلة ، فإذا ماتت ، قالوا : قد ذبحناها . وذكر ان الشريطة الشاة أثر في حلقها أثر يسير كشرط المحاجم ، لا يستقصى في ذبحها ، والشريطة أيضاً المشقوقة الأذن من الإبل ، لأنها شرطت آذانها ، واذا كان التعريف الأول صحيحاً ، فإن معنى هذا انهم كانوا يراعون بعض الأحكام في الذبح ، أي ان لهم أحكاماً دينية في كيفية الذبح . وقد نهى الاسلام عن أكل الشريطة[3] .

واستباح الجاهليون أكل (النطيحة) ، وهي المنطوحة التي ماتت من النطح . واستباحوا أيضاً أكل الفريسة والأكيلة والرمية[4] .

وقد كان رجال الدين وسادات القبائل ، يحرمون بعض الأشياء على أنفسهم، إذا شعروا بوجود ضرر بها ، وبأن في فعلها إلحاق أذى في الإنسان وخدشاً في الإسم . فحرم بعض رجال الجاهلية الخمر على أنفسهم تكرماً وصيانة لأنفسهم . منهم عامر بن الظرب العدواني ، وقيس بن عاصم ، وصفوان بن أميّة بن محرث الكناني ، وعفيف بن معديكرب ، وسويد بن عدي بن عمرو بن سلسلة الطائي، وغيرهم . لما وجدوا فيها من ضرر على الأبدان ، وأثر في العقل ، واضاعة للمال[5] . وورد في بعض الموارد أن أول من حرم الخمر في الجاهلية (الوليد بن المغيرة) ، وقيل : (قيس بن عاصم) ، ثم جاء الإسلام بتقريره[6] .

١ تفسير الطبري (١٢/٨ وما بعدها) .
٢ تفسير الطبري (١٣/٨) .
٣ تاج العروس (١٦٧/٥) ، (شرط) .
٤ تاج العروس (٢٤٠/٢) ، (نطح) .
٥ الأمالي ، للقالي (٢٠٤/١ وما بعدها) .
٦ صبح الاعشى (٤٣٥/١) .

وذكروا أن أول من حرم القمار في الجاهلية (الأقرع بن حابس) التميمي ، ثم جاء الإسلام بتقريره . وأن أول من رجم في الزنا في الجاهليـــة (ربيعة بن حدّان) ، ثم جاء الإسلام بتقريره في المحصن . وأول من حكم أن الولد للفراش اكثم بن صيفي ، حكيم العرب ، ثم جاء الإسلام بتقريره . وأن أول من قطع في السرقة في الجاهلية : (الوليد بن المغيرة) ، ثم جاء الإسلام بتقريره . وان أول من سنّ الدية مائة من الإبل (عبد المطلب) جد النبيّ ، ثم جاء الإسلام بتقريرها . وأن أول من أوقد النار بالمزدلفة ، قصي بن كلاب ، وان أول من أظهر التوحيد بمكة (قس بن ساعدة الإيادي)[1] .

ولكننا نجدهم يتقيدون بعرفهم وعاداتهم تقيداً شديداً ، والعرف عنـــدهم هو ما استقر في نفوسهم وثبت في ذهنهم ، حتى صار في حكم الدين عندهم ، فلا يجوز لأحد الخروج عليه وكسر حكمه . وعرف القبيلة ، الذي هو دينها ، هو الذي يعين لها الحرام والحلال ، والمباح والمحرم . وأحكام رجال القبيلة من رؤساء وسادة وحكّام ، هي منبع التشريع والإفتاء في أمور الدين والحق في القبيلة . وما يلائم طبيعة القبائل ، ويناسب عقليتها وينبع من محيطها ، يكون ديناً على القبائل إطاعته ، لأنه في صالحها جميعاً ، ولأن في مخالفته ضرراً بالغاً ، فصار من ثم في درجة أحكام الشرع عندها .

ومن قبيل الأعراف التي صارت ملزمة عندهم لكل أحد ، وفي حكم الأحكام اللزومية ، وجوب احترام العقود والعهود وما اتفق عليه من عهود . مثل مراعاة الأشهر الحرم بالنسبة للمحرمين . فـــلا يجوز لأحد القتال فيها ولا الاعتداء على أحـــد ، ولو كان قاتلاً مطلوباً بدم . ومثل مراعاة حرمـــة الأماكن المقدسة ، كالمسجد الحرام ، فلا يجوز لأحد التعرض لحيوان لجأ اليه ، أو لانسان لاذ به ، ولو كان قاتلاً . وهذا ما حمل البعض على ملازمة (البيت الحرام) وعدم الخروج منه ، لأنه غير آمن على نفسه ، ولأنه مطلوب بدم .

ومثل ما كان يفعله الناس من التمسك بالعهود والمواثيق والأحلاف. وقد عيب رجلان قتلا رجلين كانا تقلدا لحاء شجر الحرم الذي كان أهل الجاهلية يتقلدونه ،

---

١ صبح الاعشى (٤٣٥/١ وما بعدها) .

ليأمنوا به على أنفسهم ، لأنهما قد خالفا بذلك العهود وما اتفق عليه من وجوب مراعاة الحرمات[1] .

وقد كان من عرفهم : انهم كانوا يتقلدون من لحاء شجر مكة، فيقيم الرجل بمكانه ، حتى اذا انقضت الأشهر الحرم فأراد ان يرجع الى أهله قلّد نفسه وناقته من لحاء الشجر فيأمن حتى يأتي أهله . وكان من عرفهم في رواية من روايات أهل الأخبار ، انهم اذا خرجوا من بيوتهم يريدون الحج ، تقلدوا من لحاء السمر ، واذا أرادوا العودة الى ديارهم تقلدوا قلادة شعر ، فلم يعرض لهم أحد بسوء[2] . وذكر أيضاً ، ان الرجل منهم ، كان يتقلد قلادة من لحاء شجرة من شجر الحرم ، ثم يذهب حيث يشاء ، فيأمن بذلك[3] . وان اهل مكة كانوا يفعلون ذلك في تجارتهم ، فيضعون القلائد في أعناقهم وفي أعناق بهائمهم ، فلا يعرض لهم أحد بسوء . إذ كانوا يرون الوفاء بالميثاق عهداً في أعناقهم وديناً يلزمهم بالوفاء في أحكامه .

كسوة رجال الدين :

يقول أهل الأخبار في معرض كلامهم على كسوة العرب : « وأما أهل الحضر وسكنة المدر منهم ، فكانوا يتفننون في لبوسهم ، ويختلفون في كسوتهم ، فكان الكاهن لا يلبس المصبغ والعرّاف لا يدع تذييل قميصه وسحب ردائه ، والحكم لا يفارق الوبر ؛ والشاعر منهم كان اذا أراد الهجاء دهن أحد شقي رأسه ، وأرخى إزاره ، وانتعل نعلاً واحدة ، وكان لحرائر النساء زيّ ، ولكل مملوك زي ، ولذوات الرايات زي .. »[4] . فيظهر من قولهم هذا انه قد كان لرجال الدين أو لبعض منهم زي ، يميزون أنفسهم به عن بقية الناس ، وهو شيء معروف عند البشر من قديم الأيام الى اليوم. فلا نستبعد وجود زي خاص لرجال الدين عند الوثنيين الجاهليين . أما رجال الدين من أهل الكتاب ، فقد كانوا يتزيون بزي خاص يميزهم عن بقية أتباعهم . وقد نص على ذلك أهل الأخبار .

---

١ ألم تقتلا الحرجين اذ أعورا كما يمران بالايدي اللحاء المضفرا
تفسير الطبري (٣٨/٦) .
٢ تفسير الطبري (٣٧/٦ وما بعدها) .
٣ المصدر نفسه .
٤ بلوغ الارب (٤٠٧/٣) .

الفصل التاسع والستون

الاصنام

نجد في كتاب الأصنام لابن الكلبي وفي المؤلفات الإسلامية الأخرى ، أسماء عدد من الأصنام كان الجاهليون يعبدونها ، وهي على الأكثر أصنام كان يتعبد لها أهل الحجاز ونجد والعربية الشمالية،وذلك قبيل الإسلام . ومن هذه الموارد الإسلامية استقينا علمنا عن هذه الأصنام[1] .

وقد ذكر أهل الأخبار ان بعض هذه الأصنام اناث . وهن اللات ، والعزى ، ومناة . وهي أصنام ذكرت في القرآن الكريم : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى »[2] . ويجب ان نضيف اليها الشمس .

اللات :

واللات من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب . ذكر ابن الكلبي أنه كان صخرة مربعة بيضاء ، بنت ثقيف عليها بيتاً صاروا يسيرون اليه ، يضاهون به

١ كتاب الاصنام ، لابن الكلبي ، بتحقيق المرحوم ، أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٩٢٥ م (مطبعة دار الكتب المصرية) ، (كتاب الاصنام وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله تبارك اسمه) ، الفهرست (١٢٥) ، (الرد على عبدة الاوثان) ، معجم الادباء (١/١٣٢) ، (كتاب الاصنام) ، للجاحظ ، وقد نقل منه النويري ، نهاية الارب (١٦/١٥) .

٢ سورة النجم ، الآية ٢٠ .

الكعبة ، وله حجبة وكسوة ، ويحرمون واديه . وكانت سدانته لآل أبـي العاص ابن أبـي يسار بن مالك من ثقيف ، أو لبني عتاب بن مـالك . وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه أيضاً ، ويتقربون اليه ، حتى أن ثقيفاً كانوا إذا ما قدموا من سفر ، توجهوا الى بيت اللات أولاً للتقرب اليه ، وشكره على السلامة ، ثم يذهبون بعد ذلك الى بيوتهم[1] . فيتبين من ذلك أن معبـد اللات الشهير كان في مدينة الطائف ، مركز قبيلة ثقيف ، يقصده الناس للتبرك به . وقـد كانت له معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة من الحجاز .

وذكر ابن كثير ان اللات (صخرة بيضاء منقوشة ، عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش)[2] ، فلم تكن صخرة اللات صخرة ملساء حسب ، بل كانت الى ذلك منقوشة ، وكانت في داخـل بيت له أستار على شاكلة الكعبة . والفناء هو حرم معظم عند أهـل الطائف ، تعظيم قريش لحرم البيت . حرم على الناس قطع شجره ، وصيد حيوانه ، ومن دخله صار آمناً[3] .

وكانت تحت صخرة اللات حفرة يقال لها (غبغب) ، حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم الى الصنم . فلما هدم المغيرة الصنم أخـذ تلك الأموال وسلّمها الى أبـي سفيان امتثالاً لأمر الرسول[4] .

ويظهر من وصف أهل الأخبار لبيت اللات انه كان على طراز البيت بمكة من حيث المنزلة والاحترام والكسوة . فقد كان يكسى في كل عام كسوة . ويظهر ان ثقيفاً اتخذت له سدنة وخدماً يقومون بحراسة البيت وخدمته وتنظيفه على نحو

---

١ البلدان (٧/٣١٠) (اللات) ، الاصنام (١٦) ، اللسان (٢/٣٨٨) ، تاج العروس (١/٥٨٠) المحبر (٣١٥) ، الواقدي (٣٨٤ وما بعدها) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، بلوغ الارب (٢/٢٠٣) ، قاموس المحيط (١/١٥٦) ، تفسير البحر المحيط ، لابي حيان الاندلسي (٨/١٦٠ وما بعدها) ، (الطبعة الاولى ١٣٢٨ هـ) ، تفسير الطبري (٢٧/٥٨ وما بعدها) ، فتح الباري (١٠/٢٣٥ ، ٢٥٣) ، (تفسير ابـن كثير (٤/٢٥٣) .

٢ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣ وما بعدها) .

٣ العرب في سوريا قبل الاسلام (١١١ وما بعدها) .

٤ الطبري (٣/٩٩ وما بعدها) (دار المعارف) ، Reste, S. 31.

ما كان في مكة وفي بيوت الآلهة الأخرى[1] .

ويرى ابن الكلبي ان الصنم (اللات) ، هو أحدث عهداً من مناة[2] . أما نحن، فلا نستطيع ان نجرؤ فنقول بهذا القول ، لأن الصنمين هما من الأصنام القديمة التي ورد ذكرها في كتابات النبط والصفويين ، ثم ان (هيرودوتس) أشار الى (اللات) ، كما سأذكر ذلك . وليس من السهل حتى بالنسبة الى ابن الكلبي أو غيره ، ممن تقدم عليه بالزمن الحكم على زمن دخول عبادة الصنمين الى جزيرة العرب ، لأن ذلك يعود الى زمن سابق لا تصل ذاكرة الرواة اليه .

ومكان بيت اللات في موضع مسجد الطائف،أو تحت منارة مسجد الطائف. وقد عرف البيت الذي بني على اللات بيت الربة ، ويقصدون بالربة اللات ، لأنه أنثى في نظر عابديه[3] . ولا ندري أكان انشاء مسجد الطائف على موضع معبد اللات رمزاً لحلول بيت الله محل بيت الربة،وبيت الأصنام ، وتعبيراً عن حلول الإسلام محل عبادة اللات والأصنام ، أم كان ذلك لسبب آخر ، هو وجود أسس سابقة وحجارة قديمة موجودة ، فاستسهل لذلك إقامة بناء المسجد في هذا المكان ؟ وقد فسر بعض المستشرقين إقامة المسجد في هذا المكان ، بأنه تخليد لذكرى الوثنية في نفوس بعض من أسلم لسانه وكفر قلبه ، فسرهم قيام المسجد في هذا المكان ليبقى أثراً يذكرهم بذكرى صنمهم القديم اللات[4] .

وللأخباريين روايات عن صخرة اللات ، منهـا أنها في الأصل صخرة كان يجلس عليها رجل ، يبيع السمن واللبن للحجاج في الزمن الأول ، وقالوا : إنها سميت باللات لأن عمرو بن لحي كان يلت عندها السويق للحجاج على تلك الصخرة، وقالوا : بل كانت اللات في الأصل « رجلاً من ثقيف . فلما مات ، قال لهم عمرو بن لحي : لم يمت ، ولكن دخل في الصخرة ، ثم أمر بعبادتهـا ، وأن يبنوا بنياناً يسمى اللات » . وقالوا : « قام عمرو بن لحي ، فقـال لهم : إن ربكم كان قد دخل في هذا الحجر ، يعني تلك الصخرة،نصبها لهم صنماً يعبدونها. وكان فيه وفي العزى شيطانان يكلمان الناس ، فاتخذتها ثقيف طاغوتاً ، وبنت لها

---

١ Das Gotzenbuch, S. 93.

٢ الاصنام (١٦) .

٣ العرب في سوريا قبل الاسلام (١١٢) .

٤ العرب في سوريا قبل الاسلام (١١٢) .

بيتاً ، وجعلت لها سدنة ، وعظمته ، وطافت به » . وقيل : « كانت صخرة مربعة ، وكان يهودي يلت عندها السويق »[1].

وذكر المفسر (أبو السعود) أن هناك رواية تزعم أن حجر اللات كان على صورة ذلك الرجل الذي قبر تحته ، وهو الذي كان يلت السويق ، فلما مات ، عكفوا على قبره فعبدوه[2] . وقيل إن اللات : الذي كان يقوم على آلهتهم ، ويلت لهم السويق[3] .

فنحن أمام رأي يزعم ان (اللات) انسان في الأصل مات ، وكان يخدم الأصنام ، فيتقدم اليها يلت السويق ويعطيه للناس ، فلما توفي ، دفن في موضعه الذي كان يلت السويق عنده ثم اتخذ قبره مزاراً، كما اتخذت قبور أخرى مزارات ينحر عندها ويتبرك بها الناس ، ولهذا نهى الاسلام ، عن اتخاذ القبور مزارات، حتى لا تعظم من دون الله ، كالذي حدث عند الجاهليين[4] .

وذكر بعض أهل الأخبار ان صنم اللات انما سمي لاتاً ، من (لوى ، لأنهم كانوا يلون عليها ، اي يطوفون)[5] ، ويعتكفون للعبادة عنده[6] . ومعنى هذا ان عبّاد هذا الصنم لم يكونوا يكتفون بالذبح عنده ، بل كانوا يطوفون حوله ، طوافهم حول أصنام أخرى . وذكر انه سمي لاتاً ، من اللتات، وكل شيء يلت به سويق أو غيره نحو السمن[7] .

ولدينا رأي آخر في سبب تسمية اللات لاتاً ، خلاصته : « ان الناس اشتقوا اللات من اسم (الله) ، فقالوا (اللات) ، يعنون مؤنثه منه »[8] . وذكر

---

١ الاصنام (١٦ وما بعدها) ، البلدان (٣١٠/٧) (اللات) ، النقائض (١٤١) ، تاج العروس (٥٨٠/١ وما بعدها) ، اللسان (٣٨٨/٢) ، روح المعاني (٤٧/٢٧ وما بعدها) ، الازرقي ، أخبار مكة (٧٩ وما بعدها) (طبعة لايبزك) ، تفسير الخازن (١٩٤/٤ وما بعدها) .
٢ تفسير أبي السعود (١١٢/٥) .
٣ تفسير الطبري (٣٥/٢٧) .
٤ كان النهي عن ذلك في أول ظهور الاسلام ، ثم أذن به ، بدلالة الحديث : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور . ألا فزوروها ، فانها تذكركم بالآخرة) .
٥ تفسير البيضاوي (١٩٩/١) (سورة النجم) .
٦ روح المعاني (٣٧/٢٧ وما بعدها) .
٧ اللسان (٨٣/٢) (بيروت ١٩٥٥) .
٨ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤ وما بعدها) .

الطبري ان « اللات هي من الله ، ألحقت فيه التاء ، فأنثت ، كما قيل عمرو للذكر وللأنثى عمرة ، وكما قيل للذكر عباس ثم قيل للأنثى عباسة »[1] .

وورد في بعض روايات أهل الأخبار ان الثقفي الذي كان يلت السويق بالزيت ويقدمه للناس ، لما توفي قبر في موضع اللات ، فعكفوا على قبره، فعبدوه وجعلوه وثناً ، وزعم بعض آخر انه قبر عامر بن الظرب العدواني[2] . فترى هذه الروايات ان (بيت الربة) ، هو قبر رجل ، دفن فيه ، فعبد وصير إلهاً . وزعم قوم انه كان رجلاً من ثقيف ، يقال له (صرمة بن غنم) ، وكان يسلأ السمن ، فيضعه على صخرة ، فتأتيه العرب ، فلما مات ، عبدته ثقيف[3] .

وتفسير أهل الأخبار لاسم (اللات) ، هو بالطبع من تفسيراتهم المألوفة الكثيرة التي لا يمكن أن نثق بها ، ولا يمكن أن نحملها على محمل الصدق والعلم . فالاسم هو من الأسماء القديمة التي عرفت قبل الميلاد . ويرى بعض المستشرقين أنه ادغام وسط بين (الالاهت) (ال سال هت) Al Alahat والإدغام التام (اللات) (ال لت) Allat ، على نحو مـا حدث للفظ الجلالة : (الا لاه) (ال – ال ه) الذي صار (الله)[4] .

وفي قول أهل الأخبار أن صخرة اللات كانت ليهودي ، يلت عندها السويق، أو لرجل من ثقيف ، غمز وطعن في ثقيف ، وقد غمز بها في أمور أخرى أشرت اليها في مواضع أخرى . ويعود سبب هذا الغمز الى المنافسة التي كانت بين أهل الطائف وأهل مكة ، ثم الى الكراهية الشديدة التي حملها أهل العراق وأهل الحجاز وغيرهم للحجاج لأعماله القاسية ، وعدم مبالاته ومراعاته للحرمات حتى بالنسبة الى الكعبة ، مما حمل الناس على كرهه وكره قومه ثقيف ، وعلى وضع قصص عن ثقيف .

ولا يستبعد أن تكون صخرة اللات صخرة من هذه الصخور المقدسة التي كان يقدسها الجاهليون ومن بينها (الحجر الأسود) الذي كان يقدسه أهل مكة ومن

---

١ تفسير الطبري (٣٤/٢٧) ، تفسير الطبرسي (٤٨/٢٧ وما بعدها) .
٢ روح المعاني (٤٧/٢٧ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤ وما بعدها) ، تفسير أبي السعود (١١٢/٥) (سورة النجم) .
٣ الخازن (١٩٤/٤ وما بعدها) .
٤ رينه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام (١١٤) .

كان يأتي الى مكة للحج وفي غير موسم الحج ، لذلك كانوا يلمسونه ويتبركون به . وإذا أخذنا برأي ابن الكلبي من أن عمرو بن لحي قال للناس : « إن ربكم كان قد دخل في هذا الحجر » ، أو أن الرجل الذي كان عند الصخرة لم يمت ، ولكن دخل فيها أو أن روح ميت حلت فيهـا ونظرنا الى رأيه هذا بشيء من الجد ، فلا يستبعد أن يشير هذا الرأي الى ما يسمى بـ (الفتيشزم) fetichism أي عبادة الأحجـار في اصطلاح علماء الأديان . ويعنون بها عبادة الأرواح التي يزعم المتعبدون لها أنهـا حالة في تلك الأحجار ، وخاصة الأحجار الغريبة التي لم تصقلها الأيدي ، بل عبدت على هيأتها وخلقتها في الطبيعة ، وهي من العبادات المنحطة بالنسبة الى عبادة الصور والتماثيل والأصنام [1] .

وذكر ان قريشاً تعبدت للصنم اللات بموضع نخلة عند سوق عكاظ ، وقيـل انه كان بالكعبة [2] . وذكر ان (اللات بيت كان بنخلة تعبده قريش) [3] . ويلاحظ ان من أهل الأخبار من جعل العزى بيتاً كان بنخلة [4] أي هذا البيت المذكور .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان منهم من رأى ان اللات بيت للصنم ، الذي كان بالطائف ، وان منهم من رأى انه كان بنخلة تعبده قريش . وأما عباد البيت الأول ، فهم ثقيف . ولا أستبعد وجود بيوت عبادة أخرى في غير هذين المكانين في الحجاز وفي غير الحجاز .

واللات من الآلهة المعبودة عند النبط أيضاً ، وقد ورد اسمها في نصوص (الحجر) و (صلخد) و (تدمر) ، وهي من مواضع النبط [5] . وهو (ه ل ت) (هـ ـ لت) (ها ـ لت) في النصوص الصفوية [6] ، ومعناها (اللات) ، لأن (الهاء) حرف تعريف في اللهجة الصفوية . وقد ذكر أكثر من ستين مرة في الكتابات الصفوية . وهو أكثر آلهة الصفويين وروداً في نصوصهم ، ويدل ذلك على شيوع عبادته بينهم [7] .

---

١ Robertson, p. 209.

٢ الخازن (٤/١٩٤ وما بعدها) ، البيضاوي ، سورة النجم (١/١٩٩) ، روح المعاني (٢٧/٤٧ وما بعدها) .

٣ تفسير الطبري (٢٧/٣٥) .

٤ تفسير الطبري (٢٧/٣٥) .

٥ Reste, S. 32, Vogue 6, 8, Euting 3, Waddington 2203, Dussaud - Macler, Mission, p. 55.

٦ Ency. Religi., I, P. 661.

٧ العرب في سوريا قبل الاسلام ، (١١١) .

ويذكر الباحثون ان النبط عدّوا اللات أماً للآلهة ، وهي في نظر (روبرتسن سمث) الإلهة الأم لمدينة (بطر) ، وتقابل الإلهة Artemis عند أهل قرطاجة[١] . وقد عبدت اللات في تدمر ، وفي أرض (مدين) عند اللحيانيين[٢] . وقد وصف (أفيفانيوس) Epiphanius معبد الإلهة اللات في مدينة (بطرا) ، فذكر انه معبد (الأم العذراء Virgin mother . كما انها كانت معبودة عند أهل (الوسة) (الوس) Elusa كذلك . ويظهر ان عبادتها كانت قد انتقلت من النبط ومن القبائل العربية الشمالية الى أهل الحجاز[٣] .

وصنم اللات ، هو (أليلات) (أللات) Alelat = Alilat المذكور في تأريخ (هيرودوتس) . ذكر أنه من آلهة العرب الشهيرة[٤] . والتسمية عربية النجار ، وقد غيرت تغييراً طفيفاً ، اقتضته طبيعة اللغة اليونانية ، فذكره (هيرودوتس) على النحو المذكور . فهـذا الصنم إذن هو أول صنم عربي يرد اسمـه في نص مؤرخ يوناني . وهو يقابل الإلـه Minerva أي (أثينة) Athene عند اليونان[٥] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن (اللات) تمثل (الشمس) ، وهي أنثى أي إلهة[٦] أما (رينه ديسو) ، فيرى أنها لا تمثل الشمس ، وانما تمثل كوكب الزهرة ، وخطأ رأي من يقول إن اللات الشمس[٧] .

وقد انتهت الينـا أسماء رجال أضيفت إلى اللات ، مثل : (تيم اللات) ، و (زيد اللات) ، و (عائذ اللات) ، و (شيع اللات) ، و (شكم اللات) ، و (وهب اللات) وما شاكل ذلك من أسماء . ومما يلفت النظر أننا لم نلاحظ ورود اسم (عبد اللات) بين أسماء الجاهليين[٨] .

وقد أقسموا باللات ، كما أقسموا بالأصنام الأخرى ، ونسب الى أوس بن حجر قوله[٩] :

---

١ Smith, p. 56, Reste, S. 33.
٢ Arabien, S. 82.
٣ Smith, p. 56, Das Gotzenbuch, S. 91.
٤ Herodotes, I, 181, III, 8, Arabien, S. 82.
٥ Arabien, S. 82.
٦ Ency. Religi., I, p. 661.
٧ العرب في سوريا قبل الاسلام (١١٥) .
٨ الاصنام (١٨) ، المحبر (٢١٣ ، ٣٢٧ ، ٣٥٠ ، ٤٥٣) .
٩ الاصنام (١١) ، (روزا) .

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله ، ان الله منهن أكبر

وهدم اللات في جملة ما هدم من الأصنام،وأحرق البيت وقوضت حجارته ، هدمه بأمر الرسول المغيرة بن شعبة في أغلب الروايات . وكان الناس ينظرون الى هدمه في خوف وفزع وهلع خشية أن ينالهم شيء من أذى انتقاماً منهم ، لأنهم لم يدافعوا عن بيت ربتهم ، وكانت نساء ثقيف حسراً يبكين عليه . فلما انتهى الهدم ، ولم يحدث لهن شيء، أخذ المغيرة مالها وحليها من الذهب والجزع وأعطاه أبا سفيان ، وكان الرسول قد أرسله مع المغيرة في وفد ثقيف الذي جاء اليه عارضاً عليه الاسلام ، فأخذه منه أبو سفيان ، ليقضي من مال اللات دين عروة والأسود ابني مسعود[1] .

ولما أصيبت ثقيف بهزيمة ، واحتمت بالطائف قال الشاعر :

وفرّت ثقيف الى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر[2]

ويظهر من هذا الشعر الذي ينسب الى (شداد بن عارض الجشمي) ، وقد قاله حين هدمت وحرقت اللات :

لا تنصروا اللات ان الله مهلكها وكيف نصركم من ليس ينتصر ؟
ان التي حرقت بالنار فاشتعلت ، ولم تقاتل لدى أحجارها ، هدر
ان الرسول متى ينزل بساحتكم يظعن ، وليس بها من أهلها بشر

ان ثقيفاً بقيت مخلصة لصنمها مؤمنة به ، حتى بعد هدمه وتحريقه ، فقال الشاعر شعره ، ينهى ثقيفاً عن العود اليها والغضب لها[3] .

ويظهر من بيت ينسب الى كعب بن مالك الأنصاري ، هو قوله :

وننسى اللات والعزى وودّاً ونسلبها القلائد والسيوفا[4]

---

1 الطبري (٩٩/٣ وما بعدها) ، البلدان (٣١٠/٧) ، البداية والنهاية (١٤٩/١) ، نهاية الارب (٥٩/١٨ وما بعدها) ، ابن سيد الناس ، عيون الاثر (٢٢٩/٢ وما بعدها) ، ابن هشام (٣٢٦/٢) ، الروض الانف (٣٢٦/٢) .
2 الاغاني (٨٠/١٩) ، المشرق ، السنة ١٩٣٨ م (حـ١) (ص ٤) .
3 الاصنام (١١) (روزا) ، الاصابة (١٣٩/٢) ، (رقم ٣٨٥٢) .
4 ابن هشام (٦٣/١) (هامش روض الانف) .

ان الناس كانوا يعلقون القلائد والسيوف على تلك الأصنام . وروايات الأخباريين تؤيد هذه الدعوى ، إذ نذكر ان الجاهليين كانوا يقدمون الحلي والثياب والنفائس وما حسن وطاب في أعين الناس هدية ونذوراً الى الأصنـــام ، فكانوا يعلقون ما يمكن تعليقه عليها ، ويسلمون الأشياء الأخرى الى سدنة الأصنام .

وقد ذكر الرحالة الانكليزي (جيمس هاملتون) ان صخــرة اللات كانت لا تزال في ايامه بالطائف . وقد شاهدها فوصفها بأنها صخرة من الغرانيت ذات شكل خماسي ، وان طولها زهاء اثنّي عشرة قدماً [1] .

ويظهر انه كان للات بيت وقبة يحملها الناس معهم حين يخرجون الى قتال ، فينصبان في ساحة الجيش ، ليشجع المحاربون فيستميتوا في القتال ، وينادي المنادون بنداء تلك الأصنام مثل : يا للات ، وقد كانت لبقيــة الأصنام بيوت وقباب أيضاً [2] . وعادة حمل الأصنام الى المعارك والحروب واشراكها مع الناس في القتال بإحضارها ساحة المعارك عادة قديمة،معروفة عند العرب وعند غيرهم . وقد سبق أن قلت إن الآشوريين ذكروا أنهم أسروا أصنام (أريبي) العرب في أثنـــاء قتالهم معهم ، أسروها مراراً ، وكانوا يثبتون عليها خبر الأسر ، كما أن الفلسطينيين والعبرانيين وغيرهم كانوا يحملون معهم أصنامهم في القتال [3] .

العزّى :

والعزّى صنم أنثى كذلك ، وهي أحدث عهداً في نظر ابن الكلبي من اللات ومناة . وأما الذي اتخذ العزّى على رواية ابن الكلبي ، فهو ظـــالم بن أسعد . وضعت (بواد من نخلة الشامية ، يقال له حراض ، بأزاء الغمير ، عـــن يمين المصعد الى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق الى البستان بتسعة أميال ، فبنى عليها بساً (يريد بيتاً) . وكانوا يسمعون فيه الصوت) [4] وينسب اليه بيت العزى كذلك .

---

١ James Hamilton, Sinai, The Hegaz and Soudan, London, p. 150, (1857).

٢ Das Götzenbuch, S. 83.

٣ صموئيل الاول ، الاصحاح الرابع ، الآية ٥ وما بعدها ، صموئيل الثاني ، الاصحاح الخامس ، الآية ٢١ ، الاصحاح ١١ ، الآية ١١ .

٤ الاصنام (١٧ وما بعدها) ، البلدان (١٦٥/٦) (العزى) ، سبائك الذهـب (١٠٤) ، بلوغ الارب (٢٠٣/٢ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣٥/٢٧) ، المحبر (١٢٤ ، ٣١١ ، ٣١٥) ، تفسير الطبرسي (١٧٥/٢٧) (طهران) .

وقد زعم بعض أهل الأخبار ان (العزى) كان بيتاً بالطائف تعبده ثقيف. ويظهر ان هذا اشتباه قد وقع لهم ، وأنهم خلطوا بين اللات والعزى ، فتوهموا أن بيت اللات هـو العزى فقالوا ما قالوه . ونجد في تفسير الطبري تأييداً لهذا الرأي [1] .

وورد في بيت شعر ينسب الى (حسان بن ثـابت) ان بيت العزى كـان (بالجزع من بطن نخلة) [2] .

ويظهر أن العزى كانت (سمرات) ، لها حمى ، وكان الناس يتقربون اليها بالنذور . وهي بالطبع عبادة من العبادات المعروفة للشجر [3] . وقـد ذكر الطبري روايات عديدة تفيد أن (العُزّى) شجيرات ، ولكنه أورد روايات أخرى تفيد انها حجر أبيض [4] . فنحن إذن أمام رأيين : رأي يقـول إن العزى شجيرات ، ورأي يرى أنها حجر . وذكر (ابن حبيب) ان العُزى شجرة بنخلة عنـدها وثن تعبدها غطفان ، سدنتها من بني صرمة بن مرة [5] . وذكر غيره انها سمرة لغطفان [6] .

وقد تسمى العرب وقريش بالعزى ، فقالوا : (عبد العزى) [7] . وقد أقسموا بها ، ولها يقول درهم بن زيد الأوسي :

إني ورب العزى السعيـدة والله الذي دون بيته سرف [8]

وأقدم من سمي باسم (عبد العزى) في رأي ابن الكلبي هو عبد العزى بن كعب [9] . وقد ذكر ابن دريد أسماء عدد من أهل مكة عرفوا بـ (عبد العزى) ،

---

1 تفسير الطبري (٣٥/٢٧) ، (العزى بيت بالطائف تعبده ثقيف) .
2 الازرقي ، (ص ٧٨ وما بعدها) .
3 أخبار مكة ، للازرقي (٧٤/٢) ، اللسان (٣٧٨/٥) ، (عز) ، تاج العـروس (٥٥/٤) ، تفسير الخازن (٢١٧/٦ وما بعدها) ، الشوكاني ، فتح (١٠٥/٥)، تفسير البحر المحيط ، لأبي حيان الاندلسي (١٦٠/٨ وما بعدها) ، تفسير ابـن كثير (٢٥٣/٤) .
4 تفسير الطبري (٣٥/٢٧) .
5 المحبر (٣١٥) ، تفسير الطبرسي (٤٨/٢٧ ومـا بعدهـا) ، تفسير البيضاوي (١٩٩/١) .
6 مراصد الاطلاع (٩٣٧) .
7 الاصنام (١٦ وما بعدها) .
8 الاصنام (١٣) (روزا) ، مراصد الاطلاع (٩٣٧) .
9 الاصنام (١٨) .

منهم بـ (عبد العزى بن قصي) ، و (عبد العزى بن عبد مناف) ، و (عبد العزى بن عبد المطلب)[1] .

ويظهر من هذا الشعر المنسوب الى (زيد بن عمرو بن نفيل) :

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني غنم أزور[2]

ان عبّاد العزى كانوا يتصورونها أماً ، ولها ابنتان ، ولعله أراد بـ (ابنتيها) اللات ومناة . وقد نسب بعض أهل الأخبار عبادة العزى الى عمرو بن لحي جرياً على عادتهم في نسبة عبادة الأوثان اليه ، فقالوا انه قال لعمرو بن ربيعة والحارث ابن كعب : إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعزى لحر تهامة [3] . وفي رواية لابن اسحاق : ان عمرو بن لحي اتخذ العزى بنخلة ، فكانوا اذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالكعبة ، لم يحلوا حتى يأتوا العزى ، فيطوفون بها ، ويحلّون عندها ، ويعكفون عندها يوماً . وكانت لخزاعة . وكانت قريش وبنو كنانة كلها تعظم العزى مع خزاعة وجميع مضر . وكان سدنتها الذين يحجبونها بنو شيبان من بني سليم ، حلفاء بني هاشم[4] .

وتشير روايـــة من زعم أن عمرو بن لحي قال لقومه : « إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعُزى لحر تهامة » ، صحت او لم تصح ، الى وجود صلة بين اللات والعُزى . وقد ذكرت العُزى بعد اللات في القرآن الكريم. وكذلك ترد بعد اللات في جميع روايات الأخباريين . مما يشير الى وجود صلة بين الـلات والعزى . ولا يستبعد ان تكون هذه الصلة بين الصنمين قد جاءت الى أهل الحجاز من بلاد الشأم من اهل تدمر وبادية الشأم والصفويين ، إذ وردا وكأنهما إلهـــان متقابلان ، فحمل ذلك بعض المستشرقين على تصور أنهما يمثلان كوكبين : كوكب الصباح وكوكب المساء[5] .

---

١ الاشتقاق (٣٤٨) (الفهرست) .
٢ الاصنام (١٤) (روزا) .
٣ الازرقي ، أخبار مكة (١/ ٧٤) (باب ما جاء في اللات والعزى) .
٤ الازرقي (١/ ٧٤ وما بعدها) .
٥ العرب في سوريا قبل الاسلام (١٢٥) .

والعُزى مثل اللات ومناة من الآلهة المعبودة عند عرب العراق وعرب بـلاد الشأم ، وعند النبط والصفويين . وقد ذكر اسم العُزى مرتين في المصادر المؤلفة بعد الميلاد ، وأشار اسحاق الأنطاكي Isaac of Antioch من رجال القرن الخامس للميلاد ، الى اسم العُزى في حديثه عن مدينة (بيت حور) Beth-Hur ودعاها بـ Beltis ، وسماها (كوكبتا) . ويظن ان (كوكبتا) Kawkabta ، أي (كوكبة) المذكورة في المصادر السريانية ، هي أنثى كوكب ، تعني الكوكب الذي يظهر عند الصباح ، وهو العُزى عند الجاهليين[1] . ويراد بها (الزهرة) Venus ، عند النبط[2] . حيث اتخذوا لها معبداً في مدينة (بصرى) في منطقة (رم) عرف بـ (بيت ايل) . وقد نص (بروكوبيوس) Procopius ، على انها (أفروديت)[3] . وهي كناية عن القمر على رأي بعض المستشرقين[4] .

ولعل العزى هي (ملكة السماء Melekheth Hash-Shama المذكورة في سفر (ارميا)[5] ، وقد جاء فيه : ان أهل (اورشليم) كانوا يصنعون كعكاً، يتقربون به الى تلك الإلهة : إلهة السماء . وقد كان الجاهليون يتقربون بالخبز والكعك الى (كوكب السماء)[6] .

ويظهر من ورود اسم امرأة هو : (امت عزى) ، (أمة العزى) ، في نص عربي جنوبي ، ان عبادة العزى كانت معروفة هناك. وقد قدم أحد العرب تمثالاً من ذهب الى هذه الإلهة[7] .

وقد كان آل لخم ، ملوك الحيرة ، ينحرون الأسرى قرباناً للعزى. وقد زعم بعض المؤرخين السريان ان (المنذر بن ماء السماء) ضحى بأربع مئة راهبة للعزى[8] .

---

١ Reste, S. 40, Ency. Vol. IV, p. 1059, Rothstein, S. 81, 141. Shorter Ency. of Islam, p. 617.

٢ Arabien, S. 82.

٣ Procopius, De Bello Persi., II, 28, Arabien, S. 28, 82.

٤ Arabien, S. 82, Reste, S. 40, Ryckmans, 15.

٥ أرميا ، الاصحاح السابع ، الآية ١٨ وما بعدها) .

٦ Hastings, p. 778, Das Gotzenbuch, S. 95.

٧ Das Gotzenbuch, S. 94.

٨ Malalas, II, 166, Noldeke, Sassaniden, S. 171, Ghass., II, Anm. 3, Theophanes, 273, Land, Anecd. Syr., III, 247, Rothstein, S. 81, Paulys-Wissowa, Erster Halband, 1893, S. 1281.

وذكر (إسحاق الأنطاكي) ان العرب كانوا يقدمون الأولاد والبنات قرابين للكوكبة (كوكبتا) ، فينحرونهم لها ، ويقصد بـ (كوكبتا) العزى[1] .

وكانت قريش تتعبد للعزى ، وتزورها وتهدي اليها ، وتتقرب اليها بالذبائح. وذكر ابن الكلبي انها كانت أعظم الأصنام عند قريش، وان قريشاً كانت تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى . فإنهن الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى » . وكانوا يقولون : هن بنات الله ، وهن يشفعن اليه . وكانت قريش قد حمت لها شعباً من وادي حراض ، يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة . وكان لها منحر ينحرون فيه هداياهم ، يقال له الغبغب ، فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها[2] .

وكانت قريش تستعين بأصنامها حين تحارب ، تستجير بها وتستمد منها العون في الحرب[3] ، لتبعث الهمة والنشاط في النفوس بذكرها . فلما كان يوم أحد نادى (أبو سفيان : « اعلُ هبل ، اعلُ هبل » فقال المسلمون : « الله أعلى وأجل). فقال (أبو سفيان) : « لنا العزى ولا عزى لكم » . فقال المسلمون : « الله مولانا ولا مولى لكم »[4] .

ويقول ابن الكلبي أيضاً : « ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزى ، ثم اللات ، ثم مناة . فأما العزى ، فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية . وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش للعزى.وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء الآخرين، وكلهم كان معظماً لها) ، أي للعزى[5] .

ولابن الكلبي رأي في اقبال قريش على العزى ، إذ يقول : « فأما العزى ، فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية . وذلك فيما أظن لقربها منها »[6] . فجعل قرب بيت العزى من قريش،هو السبب في إقبال قريش عليها .

---

١ Isaak von Antiochia, Opera, I, 220, (Ed. Bickell), Reste, S. 40, Das Gotzenbuch, S. 96.

٢ الاصنام (١٨) وما بعدها ، (١٢) (طبعة روزا كلينكه روزنبركر) بمدينة (لايبزك ١٩٤١ م) .

٣ Arabien, S. 83.

٤ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) ، الطبري (٥٢٦/٢) ، « معركة أحد » .

٥ الاصنام (٢٧) .

٦ الاصنام (١٦) (روزا) .

وهو يرى هذا الرأي نفسه حين تكلم على الأصنام : ود ، وسواع ، ويعوق ، ونسر ، وقارن بينها وبين الأصنام اللات والعزى ومناة . إذ قال: « ولم يكونوا يرون في الخمسة الأصنام التي دفعها عمرو بن لحي .. كرأيهم في هذه ولا قريباً من ذلك . فظننت أن ذلك كان لبعدهم منهم »[1] .

وقال ابن الكلبي في كتابه الأصنام « وقد بلغنا أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ذكرها يوماً ، فقال : لقد أهديت للعزى شاة عفراء ، وأنا على دين قومي »[2] .

وكان فيمن يتقدم الى العزى بالنذور والهدايا ، والد خالد بن الوليد . ذكر خالد أن والده كان يأتي العزى بخير ما له من الإبل والغنم ، فيذبحها للعزى ، ويقيم عندها ثلاثة ايام[3] .

وممن تعبد للعزى بنو سليم وغطفان وجشم ونصر وسعد بن بكر[4] . وغني وباهلة وخزاعة وجميع مضر وبنو كنانة . وقد ارتبطت قبائل غطفان بعبادة العزى وتقديسها بصورة خاصة،حتى لقد ذكر (ياقوت الحموي) ان (العزى سمرة كانت لغطفان يعبدونها،وكانوا بنوا عليها بيتاً ، وأقاموا لها سدنة)[5] . وقد عرف البيت بـ (كعبة غطفان)[6] . وذكر (الطبري) أن العزى (صنم لبني شيبان)، بطن بن سليم حلفاء بني هاشم ، وبنو أسيد بن عبد العزى ، يقولون : هذا صنمنا ، وانها (كانت بيتاً يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومضر كلها)[7]. وقد تعبدت لها ثقيف كذلك ، بأن اتخذت لها صنماً[8] . والظاهر ان قريشاً كانت تعد العزى حامية وشفيعة لها[9] .

وكان لحرم العزى شعب حمته قريش للصنم ، يقال له سقام في وادي حراض

---

١ الاصنام (١٧) (روزا) .
٢ الاصنام (١٨) وما بعدها ، (١٢) (طبعة روزا روزنبركر) .
٣ الازرقي ، أخبار مكة (٧٨ وما بعدها) .
٤ نفسير الطبرسي ، مجمع البيان (٥/٣٦٤) ، اليعقوبي (١/٢٢٥) .
٥ البلدان (٦/١٦٦) ، (٤/١١٦) (صادر) .
٦ Shorter Ency., p. 617, Arabien, S. 83.
٧ الطبري (٣/٦٥) ، (دار المعارف) .
٨ Arabien, S. 83, Doughty, Documents Epigraphiques, 35, Travels in Arabia Deserta, II, p. 511, 515.
٩ Arabien, S. 83.

على طريقة قريش في اتخاذ حرم للكعبة. وقد صار هذا الحمى موضعاً آمناً لا يجوز التعدي فيه على أحد ، ولا قطع شجره ، ولا القيام بعمل يخل بحرمة المكان[1] . فذاك قول أبي جندب الهذلي ثم القردي في امرأة كان يهواها ، فذكر حلفها له بها :

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة   بفرع التي أحمت فروع سقام[2]

وينسب (ابن الكلبي) بناء (بيت العزى) الى (ظالم بن أسعد) ، إذ يقول : « بس : بيت لغطفان بن سعد بن قيس عيلان كانت تعبده . بناه ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف ، لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع البيت . ونص العباب : وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع الى قومه ، وقال : يا معشر غطفان ، لقريش بيت يطوفون حوله والصفا والمروة ، وليس لكم شيء ، فبنى بيتاً على قدر البيت ، ووضع الحجرين فقال : هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به عن الحج . فأغار زهير بن جناب بن هبل بن عبدالله بن كنانة الكلبي ،فقتل ظالماً ، وهدم بناءه »[3] .

وجاء في رواية أخرى ان (بني صداء) قالوا : أما والله لنتخذن حرماً مثل حرم مكة ، لا يقتل صيده ، ولا يعضد شجره ، ولا يهاج عائذه، فوليت ذلك بنو مرة بن عوف . ثم كان القائم على أمر الحرم وبناء حائطه رباح بن ظالم ففعلوا ذلك ، وهم على ماء لهم يقال له بس ، فلما بلغ فعلهم هذا وما أجمعوا عليه زهير بن جناب ، قال : والله لا يكون ذلك وأنا حي ، ولا أخلّي غطفان تتخذ حرماً أبداً ، ثم سار في قومه حتى غزا غطفان ، وتمكن منها ، واستولى على الحرم ، وقطع رقبة أسير من غطفان به ، وعطل الحرم وهدمه[4] .

وذكر بعض أهل الأخبار ، ان العزى صنم كان لقريش وبني كنانة، أو سمرة عبدتها غطفان بن سعد بن قيس عيلان . أول من اتخذها منهم : (ظالم بن أسعد)

---

١ البلدان (٥/٩١) ، (٦/١٦٦) .
٢ الاصنام (١٢) (روزا) .
٣ الاغاني (٢١/٦٣) ، تاج العروس (٤/١٠٩) ، البلدان (٢/١٧٩) ، اللسان (٧/٣٢٧) ، (بس) .
٤ الاغاني (٢١/٦٣) .

فوق ذات عرق الى البستان بتسعة أميال ، بالنخلة الشامية بقرب مكة ، وقيل بالطائف ، بنى عليها بيتاً وسمّاه بُساً ، وقيل بساء ، وأقاموا لها سدنة مضاهاة للكعبة ، وكانوا يسمعون فيها الصوت ، فبعث اليها رسول الله خالد بن الوليد ، عام الفتح ، فهدم البيت ، وقتل السادن وأحرق السمرة [1] .

ويظهر مما تقدم أن البيت هدم مرتين : مرة في الجاهلية ، على يد زهير بن جناب ،وقتل إذ ذاك بانيه ظالم ، والمرة الثانية عام الفتح على يد خالد بن الوليد [2] .

وأما سدنة العزى ، فكانوا من بني صرمة بن مرّة ، أو من بني شيبان بن جابر بن مرة بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن عتبة بن سليم بن منصور . فهم من بني شيبان ، من بني سليم حلفاء بني هاشم [3] .

وكان آخر سادن للعزّى (دبية بن حرمي السلمي ثم الشيباني) ، قتله خالد ابن الوليد بعد هدمه الوثن والبيت وقطعه الشجرة أو الشجرات الثلاث [4] . وفي رواية : أن هدم العزّى كان لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان ، وكان سادنها أفلح بن النضر السلمي من بني سليم . فلما حضرته الوفاة دخل عليه أبو لهب يعوده وهو حزين ، فقال له : مالي أراك حزيناً ؟ قال : اخاف ان تضيع العزّى من بعدي . قال أبو لهب : فلا تحزن ، فأنا اقوم عليها بعدك . فجعل ابو لهب يقول لكل من لقي : إن تظهر العزى ، كنت قد اتخذت عندها يداً بقيامي عليها ؛ وإن يظهر محمد على العزّى ، وما أراه يظهر ، فابن أخي . فأنزل الله تبارك وتعالى « تبت يدا أبي لهب وتب » [5] . وتدل هذه الرواية إن صحت على ان أفلح بن النضر لم يكن آخر سادن للعزى ، وان الهدم لم يكن في حياته ، وإنما كان بعد وفاته .

وتشبه هذه القصة قصة أخرى وردت في الموضوع نفسه ، عن أبي أحيحة

---

١ تاج العروس (٤/٥٥) ، (عزز) .
٢ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) .
٣ الطبري (٣/٦٥) (دار المعارف) ، تاج العروس (٤/٥٦) ، (عزز) .
٤ البلدان (٦/١٦٧ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/٢٠٥) ، ابن هشام (١/٦٥) (هامش الروض الانف) ، الطبري (٣/١٢٣) ، (٣/٦٥) (دار المعارف) ، الاصنام (١٥) (روزا) ، (ودبية بن حرمس السلمي سادن العزى) ، تاج العروس (١٠/١٢٤) ، (دبي) .
٥ أخبار مكة ، للازرقي (١/٧٦) ، البلاذري ، أنساب (١/١٢١) .

وأبي لهب . فلما مرض أبو أحيحة ، وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ، مرضه الذي مات فيه ، كان اهم ما شغل باله عبادة العزى وخشيته ان لا تعبد من بعده ، فلما اجابه ابو لهب مهوناً عليه الأمر : رد والله ما عبدت حياتك (لأجلك)،ولا تترك عبادتها بعدك لموتك ! سره هذا الجواب ، وأفرج عنه . فقال : « الآن علمت ان لي خليفة »[1] .

ويروي ابن الكلبي ان الرسول أمر بالقضاء على العزى ، وذلك عام الفتح ، فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقال له : ايت بطن نخلة ، فإنك تجد ثلاث سمرات ، فاعضد الأولى . فأتاها فعضدها ، فلما جاء اليه عليه السلام : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا ، قال : فاعضد الثانية ؟ فأتاها فعضدها . ثم أتى النبي عليه السلام ، فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا . قال : فاعضد الثالثة . فأتاها . فإذا هو بحبشية نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بأنيابها ، وخلفها دبية بن حرمي الشيباني ثم السلمي، وكان سادتها . فلما نظر الى خالد ، قال :

أعزّ شدي شدة لا تكذبي ... على خالد ألقي الخمار وشمري

فإنك الا تقتلي اليوم خالداً ... تبوئي بذل عاجلاً وتنصري

فقال خالد :

يا عز كفرانك ، لا سبحانك ... إني رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها ، فإذا هي حممة . ثم عضد الشجرة ، وقتل دبية السادن. ثم أتى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فأخبره فقال : تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب . أما انها لن تعبد بعد اليوم[2] .

---

١ الاصنام (٢٣) .

٢ الاصنام (١٥ وما بعدها) (روزا) ويختلف نص الشعر المذكور المنسوب الى (دبية) في كتاب الاصنام بعض الاختلاف عن نص تأريخ الطبري (٣/٦٥) ، امتاع الاسماع (١/٣٩٨) ، تفسير الطبرسي (٢٧/٤٨ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٧/٤٧ وما بعدها) ، الازرقي (٧٨ وما بعدها) .

ويظهر من شعر لـ (أبي خراش الهذلي) أن (دبية) كان كريماً ، يطعم الناس ، عظيم القدر، له جفنة حين الشتاء ، وقد مدحه ، إذ حذاه نعلين جيدين، كما رثاه يوم قتل بأبيات ذكرها (ابن الكلبي) في كتابه الأصنام[1] .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (خالد بن الوليد) هدم بيت العزى عام الفتح، وقتل إذ ذاك سادنـــه (ربيعة بن جرير السلمي)[2] . وروايات الأخباريين عن العُزى يكتنفها شيء من الغموض واللبس ، ويدل ذلك على أنهم لم يكونوا على علم تام بالعُزى . فبينما هم يذكرون أن العزى شجرة أو سمرة[3] . تراهم يذكرون في روايـــات أخرى أنها شيطانة تأتي ثـــلاث سمرات ، أي ان العزى هي تلك الشيطانـــة ، لا السمرة أو السمرات الثلاث[4] . ثم تراهم يذكرون في روايات أخرى أن العزى صنم ، وان الرسول حينما أمر خالد بن الوليد بهدمه ، قال له لما هدم العزى ، وعاد : « أرأيت شيئاً ؟ قال : لا ، قال : فارجع فاهدمه ، فرجع خالد الى الصنم ، فهدم بيته ، وكسر الصنم ، فجعل السادن يقول: أعزى اغضبي بعض غضباتك . فخرجت عليه امرأة حبشية عريانة مولولة ، فقتلها وأخذ ما فيها من حلية ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بذلك، فقال: تلك العزى ، ولا تعبد العزى أبداً »[5] . ومعنى هذا أن العـزى صنم ، كان في داخل بيت العُزى ، وأن خالد بن الوليد كسره ، وهدم بيته . ولم يكن شجرة. أما تلك السمرة أو السمرات الثلاث ، فلم تكن إلا أشجاراً نبتت في حرم البيت. لذلك صارت محرمة لا يجوز مسها بأي سوء كان .

وقد سمّى بعض أهل الأخبار اسم آخر سدنة العزى (دُبَيَّة) و (دبية بن

---

١ الاصنام (١٤ وما بعدها) (روزا) .

٢ تاج العروس (١٠٩/٤) ، (بس) ، ابن سعد ، حلمات (١٤٦/٢) .

٣ السمر : شجر صغار الورق قصار الشوك وله برمة صفراء يأكلها الناس ، وليس في العضاه شيء أجود خشبا من السمر ، بلوغ الارب (٣٠٤/٢) ، تاج العروس (١٠٩/٤) ، (بس) .

٤ البلدان (١٦٧/٦ وما بعدها) ، المحبر (٣١٥) ، بلوغ الارب (٢٠٤/٢) ،الاصنام (١٥ وما بعدها) (روزا) .

٥ الطبري (٦٥/٣) (دار المعارف) ، روح المعاني (٤٧/٢٧ وما بعدها) .

حرمس السلمي)[1] ، وسمّاه بعض آخر (ربية السلمي) ، و (ربية بن جرمي)[2] ، و (ربيعة بن جرير السلمي)[3] .

والرأي المعقول المقبول ، هو ان العزى صنم ، له بيت ، وأمامه غبغب، أي خزانة يضع فيها العباد المؤمنون بالعزى هداياهم ونذورهم لها ، كما كانوا ينحرون لها ، إذ لا يعقل ان يقال إن خالداً كسر الصنم وهدم بيته[4] . ثم لا يكون العزى ، صنماً بل يكون شجرة ، أو شجرات . وأما الشجيرات، فإنها شجيرات مقدسة أيضاً ، لأنها في حرم العزى ، وشجر الحرم هو شجر مقدس لا يجوز قطعه ، ولذلك كان أهل مكة يتجنبون مس شجر الحرم بسوء ، فلما أراد (قصي) اعتضاده ، هابت قريش عمله وخافت سوء العاقبة ، ونهته عن مسه بسوء، ولكنه أقدم على قطعه ، لم يبال برأيهم ، ولم يحفل بنصائحهم ، فقطعه . وكان بيت العزى يسمع فيه الصوت. وقد ذكر الأخباريون انه كان في كل من اللات والعزى ومناة شيطانة ، تكلمهم ، وتظهر للسدنة وقد نسبوا ذلك الى صنع ابليس[5] . والظاهر ان الحبشية المذكورة التي قتلها خالد،وزعم انها شيطانة ان صح ما ذكره الرواة عن وجودها ، كانت امرأة كان السادن يخفيها في موضع سري ، وهي التي تجيب عن أسئلة السائلين فينسب السادن كلامها الى العزى .

ومما يؤيد رأيي في ان (العزى) صنم ، ما ورد في تفسير (الطبري) من قوله : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خالد بن الوليد الى شعب بسقام ليكسر العزى ، فقال سادنها ، وهو قيمها : يا خالد أنا أحذركها إن لها شدة لا يقوم اليها شيء . فمشى اليها خالد بالفأس فهشم أنفها[6] . مما يدل على انها كانت صنماً أنثى ، أي تمثالاً لامرأة ، لأنها أنثى .

ويظهر من هذا البيت :

أما ودماء مائرات تخالها على قنة العزى وبالنسر ، عندما[7]

---

١ بلوغ الارب (٢/٢٠٤) .
٢ تاج العروس (٤/٥٥ وما بعدها) ، (عزز) .
٣ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) .
٤ المحبر (١٢٣) .
٥ الازرقي (١/٧٥) ، (باب ما جاء في اللات والعزى) .
٦ تفسير الطبري (٢٤/٥) ، تفسير القرطبي (١٥/٢٥٨) .
٧ اللسان (١٣/٣٤٩) ، (قنن) .

ان عبّـاد العزى كانوا قد لطخوا قنة الصنم ، أي أعلاه ورأسه بدم الأضاحي . وكذلك فعل عبّاد الصنم نسر بقنة صنمهم .

مناة :

ويعد الصنم مناة أقدم الأصنام عند الأخباريين . وهو من الأصنام المذكورة في القرآن الكريم : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى »[1] . وهذه الأصنام الثلاثة هي إناث في نظر الجاهليين .

وموضع مناة بالمشلل على سبعة أميال من المدينة[2] ، وبقديد بين مكة والمدينة[3] ، وقيل أيضاً انه بموضع (ودان) أو في موضع قريب منه[4] . وذكر اليعقوبي ان مناة كان منصوباً بفدك مما يلي ساحل البحر[5] . والرأي الغالب بين أهل الأخبار انه كان على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد[6] . وذكر (محمد بن حبيب) أنه كان بسيف البحر وكانت الأنصار وأزد شنؤة وغيرهم من الأزد تتعبد له . وأما سدنته ، فهم (الغطاريف) من الأزد[7] . وذكر أن تلبيته كانت على هذه الصورة : « لبيك اللهم لبيك ، لولا ان بكراً دونك ، يبرك الناس ويهجرونك ، وما زال حج عثج يأتونك . أنا على عدوائهم من دونك »[8] .

وتسكت أكثر روايات أهل الأخبار عن معبد (مناة) فلم تذكر شيئاً عنه ،

---

١ النجم ، الآية ١٩ وما بعدها .
٢ تاج العروس (١٠/٣٥١) ، تفسير الطبري (٢٧/٣٢ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣ وما بعدها) ، تفسير الخازن (٤/١٩٤ وما بعدها) ، تفسير أبي السعود (٥/١١٢) ، اللسان (٢٠/١٦٧) ، تفسير الطبرسي (٢٧/٤٨) .
٣ مجمع البيان (٩/١٧٦) ، البلدان (٢/٩٤٤) ، عمدة القاري (٩/٢٨٧) .
٤ البلدان (٨/١٦٧ وما بعدها) .
٥ اليعقوبي (١/٣١٢) ، (١/٢٢٥) .
٦ ابن هشام (١/٨٧) ، الاصنام (١٣ وما بعدها) ، الروض الانف (١/٦٥) ، أخبار مكة (١/٧٣وما بعدها) ، البداية والنهاية (٢/١٩٢) ، عمدة القاري (٩/٢٨٧) .
٧ المحبر (٣١٦) .
٨ المحبر (٣١٣) .

ولكن (الطبري) يشير في تفسيره إلى أنه كان بيتاً بالمشلل[1] ، وهو كلام منطقي معقول ، إذ لا يعقل أن يكون هذا الصنم ، مجرد صخرة أو صنم قائم في العراء تعبث به الرياح والشمس ، ثم ان له سدنة ، ولا يعقل أن تكون لصنم سدنة ، ثم لا يكون له بيت يؤويه . ولست أستبعد أن يكون له ، (جب) يلقي المؤمنون فيه هداياهم ونذورهم . وذكر (الطبري) أيضاً أن معبده كان بـ (قديد) . وأما عبدته ، فخزاعة ، وبنو كعب[2] .

والأخباريون على خلاف فيما بينهم على هيأة (مناة) وشكله ، منهم من يقول إن مناة صخرة ، سميت بذلك لأن دماء النسائك كانت تمنى عندها ، أي تراق[3]. ومنهم من يقول إنه صنم كان منصوباً على ساحل البحر ، فهو على هيأة ومثال ، وقد نحت من حجارة[4] ، وجعله بعض الرواة في الكعبة مع بقية الأصنام[5] .

والذين يذكرون أن مناة صخرة ، يرون أن الناس كانوا يذبحون عندها فتمنى دماء النسائك عندها ، أي تراق ، فهي إذن ، وبهذا الوصف مذبح تراق عنده الذبائح الذي تقدم نسيكة للإلهة . ويذكرون أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك « كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها »[6] . ويتبين من ذلك ان هذا الموضع كان مكاناً مقدساً ، وقد خصص بإلـه ينشر السحب ويرسل الرياح فتأتي بالأمطار لتغيث الناس ، وان لهذا الإلـه صلة بالبحر وبالماء ، ولذلك أقيم معبده على ساحل البحر[7] . وقد تكون هذه الصخرة مذبحاً أقيم عند الصنم ، أو عند معبده لتذبح عليه ما يهل للصنم ، فسمي باسمه ، ولذلك يمكن التوفيق بين الرأيين : كونه صخرة ، وكونه صنماً .

ويظهر من أقوال ابن الكلبي ان هذا الصنم كان معظماً ، خاصة عند الأوس

---

٢ تفسير الطبري (٢٧/٣٥) .

١ تفسير الطبري (٢٧/٣٥) .

٣ تفسير الطبري (٢٧/٣٢ وما بعدها) .

٤ تفسير الطبرسي ، مجمع البيان (٩/١٧٦) ، البلدان (٨/١٦٧ وما بعدها) .

٥ مجمع البيان (٨/١٦٧ وما بعدها) .

٦ تفسير الطبري (٢٧/٣٢ وما بعدها) ، الكشاف (٣/١٤٤ وما بعدها) ، تفسير البيضاوي (١/١٩٩) .

٧ وكان منصوبا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، بين المدينة ومكة وما قارب ذلك من المواضيع ، البلدان (٨/١٦٧ وما بعدها) .

والخزرج ، أي أهل يثرب ومن كان يأخذ مأخذهم من عرب المدينة والأزد وغسان (فكانوا يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك[1] . ولكن القبائل العربية الأخرى كانت تعظمه كذلك ، وفي جملتها قريش[2] وهذيل وخزاعة[3] . وأزد شنؤة ، وغيرهم من الأزد . وقيل ثقيف أيضاً ، وذكرت رواية أخرى ان العرب جميعاً كانت تعظمه وتذبح حوله[4] . أما سدنته، فالغطاريف من الأزد[5] .

وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمون مناة ، ويهلون منها للحج الى الكعبة[6] .

فمناة اذن من الأصنام المعظمة المقدسة عند (الخزرج) . وكانوا يحلفون بها ويقفون عندها . وفي ذلك ورد شعر ينسب الى عبد العزى بن وديعة المُزني أو غيره من العرب :

إني حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج

فالمحل الذي يقف فيه (آل الخزرج) ، هو المحل الذي يحلف به أمام مناة . وكان العرب في الجاهلية يسمّون الأوس والخزرج جميعاً : الخزرج ، ولذلك يقول الشاعر في بيته : (عند محل آل الخزرج)[7] .

وترجع بعض الروايات تأريخ مناة الى (عمرو بن لحي) فتزعم أنه هو الذي نصبه على ساحل البحر مما يلي قديداً[8] . وقد أخذت من الرواية التي ترجع أساس عبادة الأصنام وانتشارها بين العرب الى ذلك الرجل .

---

١ الاصنام (١٤) ، البلدان (١٦٩/٨) (مناة) الازرقي (٧٣/١ وما بعدها) .
٢ الاصنام (١٣ ، ١٥) ، البلدان (١٦٩/٨) .
٣ البلدان (١٦٩/٨) ، اللسان (١٦٧/٢٠) .
٤ الكشاف (١٤٤/٣ وما بعدها) .
٥ المحبر (٣١٦) ، البلدان (١٦٧/٨ وما بعدها) .
٦ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) ، اللسان (١٦٧/٢٠) .
٧ الاصنام (١٣ وما بعدها) .
٨ أخبار مكة (٧٣/١ وما بعدها) ، البلدان (٦٥٣/٤) .

وكان المتعبدون لهذا الصنم يقصدونه ، فيذبحون حوله ، ويهدون له . ويظهر من روايات ابن الكلبي عن هذا الصنم ، أنه كان من الأصنام المعظمة المحترمة عند جميع العرب . وقد قصد ابن الكلبي بعبارة : « وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله »[1] عرب الحجاز على ما أعتقد . وكان سدنته يجنون من سدانتهم له أرباحاً حسنة من هذه الهدايا التي تقدم الى معبده باسمه .

وقد بقي سدنة هذا الصنم يرتزقون باسمه ، الى أن كان عام الفتح ، فانقطع رزقهم بهدمه وبانقطاع سدانته . فلما سار الرسول في سنة ثمان للهجرة ، وهي عام الفتح أربع او خمس ليال من المدينة ، بعث علياً اليه ، فهدمه وأخذ ما كان له ، فأقبل به الى النبي ، « فكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان أهداهما له ، أحدهما : يسمى مخذماً ، والآخر رسوباً . وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في بيته :

مظاهر سربالي حديد عليهما عقيلاً سيوف : مخذم ورسوب

فوهبهما النبي لعليّ ، فيقال : إن ذا الفقار ، سيف علي أحدهما . ويقال : إن علياً وجد هذين السيفين في الفلس ، وهو صنم طيء ، حيث بعثه النبي فهدمه[2] .

وفي رواية للواقدي أن الذي هدم الصنم هو سعد بن زيد الأشهلي ، هدمه سنة ثمان للهجرة[3] . وفي رواية أخرى ان الذي هدم الصنم هو أبو سفيان[4] .

وقد كانت القبائل تتجنب ان تجعل ظهورها على (مناة) إعظاماً للصنم ، ولذلك كانت تنحرف في سيرها ، حيث لا يكون الصنم الى ظهرها[5] . وفي ذلك قال الكميت بن زيد الشاعر ، أحد بني أسد بن خزيمة بن مدركة :

وقد آلت قبائل لا تولي مناة ظهورها متحرّفينا

---

١ الاصنام (١٥) ، الاصنام (٤٩) ، (القاهرة ١٩١٤) .
٢ الاصنام (١٥) ، البلدان (٨/١٦٨) .
٣ الطبري (٣/١٢٣) ، روح البيان ، لاسماعيل حقي أفندي ، (٤/٥٥١) ، تأريخ الخميس ، للديار بكري (٢/١٠٧ وما بعدها) ، أمتاع الاسماع (١/٣٩٨) ، البخاري (٥/١٨) .
٤ البداية والنهاية (٢/١٩٢) ، الروض الانف (١/٦٥) ، ابن هشام (١/٨٧) .
٥ ابن هشام (١/٩٠) .

ويظهر من ورود اسم هذا الصنم في القرآن الكريم ، ومن انتشار التسمية به في مثـــل (عبد مناة) و (عبدة مناة) و (زيـــد مناة) و (عوذ مناة) و (سعد مناة) و (أوس مناة) بين عدد من القبائل المختلفة ، مثـــل تميم وطيء وكنانة ، ان عبادة (مناة) كانت منتشرة انتشاراً واسعاً بين القبائل[1] . ولهذه الكلمات المتقدمة على كلمة (مناة) شأن كبير في وصف الصورة التي كانت في مخيلة عبدة مناة عنه ، إذ تمثله إلهاً كريماً يسعد عباده ويساعدهم في المكـــاره والملمات ويعطيهم ما يحتاجون اليه .

والصنم مناة هو (منوتن) (منوت) Manavat عنـــد النبط ، ويظن ان لاسمه صلة بـ (مناتا) Menata في لهجـــة بني إرم ، و (منا) Mana في العبرانية ، وجميعها (مانوت) (منوت) Manot ، وباسم الإلـه (منى) Meni ، وبكلمة (منية) ، وجمعها (منايا) في عربية القرآن الكريم . وهي لذلك تمثل الحظوظ والأماني ، وخاصة الموت[2] . ولهذا ذهب بعض الباحثين الى ان هذه الإلهة هي إلهة المنية والمنايا عند الجاهليين[3] .

وقد ذكر (منى) Meni مع (جد) Gad في العهد القديم . والظاهر ان كلمة (جد) كانت مصدراً ، ثم صارت اسم علم لصنم . وذكر (منى) مع (جد) له شأن كبير من حيث معرفة الصنمين . فالأول هو لمعرفة المستقبل وما يكتبـــه القدر للانسان من منايا ومخبآت لا تكون في مصلحة الانسان . والثانـــي ، وهو (جد)، لمعرفة المستقبل الطيب والحظ السعيد (tyche) (fortune) في اليونانية، فهما يمثلان إذن جهتين متضادتين[4] .

هبل :

يقول ابن الكلبي : « وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان أعظمها هبل . وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة إنسان ، مكسور اليد

---

١ تاج العروس (١٠/٣٥١) . Reste, S. 29.

٢ Reste, S. 28, Ency. Religi., I, pp. 231, 661.

٣ Das Gotzenbuch, S. 87.

٤ Hastings, pp. 275, 604.

اليمنى . أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب . وكان أول من نصبه خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر . وكان يقال له هبل خزيمة .

وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة أقداح ، مكتوب في أولها : صريح والآخر ملصق . فإذا شكوا في مولود أهدوا اليه هدية ، ثم ضربوا بالقداح ، فإن خرج صريح ألحقوه ، وإن خرج ملصق دفعوه . وقدح على الميت،وقدح على النكاح، وثلاثة لم تفسر لي على ما كانت . فإذا اختصموا في أمر ، أو أرادوا سفراً او عملاً ، أتوه فاستسقوا بالأزلام عنده . فما خرج ، عملوا به وانتهوا اليه . وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبدالله [1] .

وتذكر رواية أخرى أن خزيمة بن مدركة كان أول من نزل مكة من مضر، فوضع هبل في موضعه ، فكان يقال له صنم خزيمة ، وهبل خزيمة . وورث أولاده سدانته من بعده [2] . وقد ذهب (ابن الكلبي) هذا المذهب أيضاً ، إذ قال : « وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة » [3] .

ولا خلاف بين أهل الأخبار في أن (هبل)، كان على هيأة انسان رجل [4] .

وهناك روايات تنسب هبل الى عمرو بن لحي ، تقول إنه جاء به الى مكة من العراق من موضع هيت ، فنصبه على البئر وهي الأخسف والجب الذي حفره إبراهيم في بطن الكعبة ، ليكون خزانة للبيت ، يلقى فيه ما يهدى الى الكعبة ، وأنه هو الذي أمر الناس بعبادته ، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده ، وكان على هذه الروايات من خرز العقيق على صورة إنسان ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، فأدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب . وكانت له خزانة للقربان وكان قربانه مائة بعير . وله حاجب يقوم بخدمته [5] .

---

١ الاصنام (٢٧ وما بعدها) (تحقيق احمد زكي باشا) ، سبائك الذهب (١٠٤) الازرقي (٦٨/١ وما بعدها) ، ابن هشام (٦٤/١) ، الطبري (٢٠٢/٢) ، (الاستقامة) ، (٢٤٠/٢) « المعارف » ، خـزانة الادب (٢٤٤/٣) ، سبائك الذهب (١٠١) ، ابن الاثير ، الكامل (١٨/٢) ، مروج الذهب (٢٣٨/١) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، البداية والنهاية (١٨٧/٢) .

٢ طبقات ابن سعد (٣٩/١) .

٣ الاصنام (روزا) ، نهاية الارب (١٢/١٦) .

٤ الطبرسي ، مجمع البيان (٦٨/٢٩ وما بعدها) (بيوت ١٩٥٤ م) .

٥ اخبار مكة ، للازرقي (٢٧/١ ، ٦٨ وما بعدها) ، الروض الانف (٦٥/١) .

وجاء في رواية ان عمرو بن لحي خرج من مكة الى الشأم في بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، وهم ولد عملاق ، ويقال عمليق ، وجدهم يتعبدون للأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه الأصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا . فقال لهم : أفلا تعطوني منها صنماً ، فأسير به الى أرض العرب ، فيعبدوه ؟ فأعطوه صنماً يقال له هبل ، وأخذه ، فتقدم به الى مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته[1] .

ولسنا نجد في كتب أهل اللغة أو الأخبار تفسيراً مقبولاً لمعنى (هبل) . وقد ذهب بعضهم الى انه من (الهبلة) ، ومعناها القبلة . وذكر بعض آخر انه من (الهبيلي) ، بمعنى الراهب ، وذكر ان (بني هبل) كانت تتعبد له[2] . وذكر انه من (هُبل) بوزن (زُفَر)، ومعناها كثرة اللحم والشحم، أو من (هبل) بمعنى غنم ، وما شاكل ذلك من آراء[3] . ويكمن سبب اضطراب العلماء في تسميته في انه من الأصنام المستوردة من الخارج التي حافظت على تسميتها الأصلية، فوقع لديهم من ثم هذا الاضطراب .

وكانت تلبية من نسك هبل : « لبيك اللهم لبيك . اننا لقاح ، حرمتنا على أسنة الرماح ، يحسدنا الناس على النجاح »[4] .

ويذكر أهل الأخبار ان (هبل) كان أعظم أصنام قريش ، وكانت تلوذ به وتتوسل اليه ، ليمنّ عليها بالخير والبركة ، وليدفع عنها الأذى وكل شر . وكانت لقريش أصنام أخرى في جوف الكعبة وحولها ، ولكن هبل هو المقدم والمعظم عندها على الجميع . وقد نصب على الجب الذي يقال له (الأخسف) ، وهو بئر ، وكانت العرب تسميها (الأخشف)[5] .

وذهب بعض المستشرقين الى ان (هبل) ، هو رمز الى الإله القمر ، وهو

---

١ سيرة ابن هشام (٦٢/١) ، (وقد طبعت في هامش كتاب الروض الانف للسهيلي) ، ديوان حسان (تحقيق هرشفلد) ، سيرة ابن هشام (٨٢/١) ، البداية والنهاية (١٨٧/١ وما بعدها) ، اليعقوبي (٢١١/١) ، مروج (٢٣٨/٢)٠

٢ اللسان (٦٨٦/١١) ، تاج العروس (١٦٨/٨) ، (هبل) ٠

٣ البلدان (٤١٦/٨) ٠

٤ المحبر (ص ٣١٥) ٠

٥ أخبار مكة (٦٦/١ وما بعدها) ٠

إلـه الكعبة ، وهو الله عند الجاهليين[1] . وكـان من شدة تعظيم قريش له انهـم وضعوه في جوف الكعبة . وانه كان الصنم الأكبر في البيت .

ويرى بعض الباحثين ان صورة الحية أو تمثالها يشيران الى هبل ، أو إلى هبل وود . وقد عثر على صورة لحيـّـة في (رم) ، يظهر انها رمز الى (هبل) أو ود[2] .

وذكر (ياقوت الحموي) أن هبل (صنم) لبني كنانة : بكر ومالك وملكان، وكانت كنانة تعبد ما تعبد قريش ، وهو اللات والعزى . وكانت العرب تعظم هذا المجمع عليه . فتجتمع عليه كل عام مرة[3] . وقال غيره : « وكان هبـل لبني بكر ومـالك وملكان وسائر بني كنانة . وكانت قريش تعبد صاحب بني كنانة ، وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش »[4] .

وقد ورد اسم هبل في الكتابات النبطية التي عثر عليها في الحجر ، ورد مع اسم الصنمين : دوشرا (ذي الشرى) ، و (منوتو) (مناة)[5] . وقد تسمى به أشخاص وبطون من قبيلة كلب ، مما يدل على أن هذه القبيلة كانت تتعبـد له ، وأنه كان من معبودات العرب الشماليين[6] . وباسم هذا الصنم سمي (هبل بن عبدالله بن كنانة الكلبي جدّ زهير بن جناب)[7] .

ولما أراد النبي الإنصراف عن أحد ، علا صوت أبي سفيان : أعل هُبَل، أعل هُبَل . فقال النبي لعمر : أجبه ، قال : ما أقول له ؟ قال : الله أعلى وأجل . فقال : لنا العزى ولا عزى لـكم . فقال النبي لعمر قـل : الله مولانا ولا مولى لـكم[8] .

---

١ Reste, S. 73, 221, Grohmann, S. 87.

٢ Grohmann, S. 87, Jaussen — Savignac, Mission, I, 169.

٣ البلدان (٤٤٢/٧ وما بعدها) .

٤ المحبر (٣١٨) .

٥ Ency., II, 327, CIS, II, NR : 189, Jaussen et Savignac, Mission, I, p. 169, Reste, S. 75, 221, L. Krehl, Uber die Religion der Vorislamischen Araber, S. 90, Osiander, in ZDMG., VII, S. 493.

٦ Ency. Religi., I, p. 664.

٧ كتاب المعمرين (ص ٢٩) (هبل) .

٨ الاصنام (ص ٢٨) ، اللسـان (٦٨٦/١١) ، (٢١٢/١٤) ، تـاج العروس (١٦٢/٨) ، الاشتقاق (٣١٦/٢) .

أصنام قوم نوح :

وزعم ابن الكلبي أن خمسة أصنام من أصنام العرب ، من زمن نوح ، وهي: ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر[1] . وقد ذكرت في القرآن الكريم : « قال نوح : ربّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ، ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا : لا تذرون آلهتكم ، ولا تذرن ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ولا يعوق ونسراً ، وقد أضلوا كثيراً »[2] . ويظهر ان ورود اسمها على هذا النحو في القرآن ، هو الذي حمله على رجع هذه الأصنام الى أيام نوح .

وزعم (ابن الكلبي) ان الأصنام المذكورة كانت في الأصل قوماً صالحين ، ماتوا ، في شهر ، وذلك في أيام (قابيل) ، فجزع عليهم بنو قابيل ، وذوو أقاربهم ، وقام رجل من قومهم ، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فصار الناس يعظمونها ويسعون حولها ، ثم جاء من بعدهم من عبدها ، وعظم أمرها ، ولم يزل أمرها يشتد ، حتى أدرك (نوح) فدعاهم الى الله ، والى نبذ هذه الأصنام ، فكذبوه ، فكان الطوفان ، فأهبط ماء الطوفان هذه الأصنام من جبل (نوذ) الى الأرض ، وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من أرض الى أرض حتى قذفها الى أرض جدة ، ثم نضب الماء وبقيت على الشط ، فسفت الريح عليها حتى وارتها . وبقيت مطمورة هناك أمداً ، حتى جاء (رئي) (عمرو ابن لحي)وكان يكنى أبا ثمامة ، فقال له : عجّل بالمسير والظعن من تهامة ، بالسعد والسلامة . قال عمر : جير ولا إقامة . فقال الرئي ايت ضف جدة تجد فيها أصناماً معدة ، فأوردها ولا تهاب ، ثم ادع العرب الى عبادتها تجاب . فأتى شط جدة فاستثارها ، ثم حملها حتى ورد تهامة . وحضر الحج ، فدعا العرب الى عبادتها قاطبة . فأجابه سادات القبائل ، ووزع تلك الأصنام عليهم ، وأشاعوا عبادتها بين الناس[3] ، ومن ثم عبد العرب هذه الأصنام .

وذكر أيضاً ان الأصنام المذكورة هي أصنام نحتها الشيطان على صورة خمسة بنين من أبناء (آدم) ، ماتوا فجزع الناس عليهم ، لأنهم كانوا عبّاداً صالحين .

---

١ الاصنام (٨) (روزا) .
٢ سورة نوح ، الآية ٢١ وما بعدها .
٣ الاصنام (٣٣ وما بعدها) (روزا) .

فسوّل لهم الشيطان ان يصنع لهم تماثيل على هيأتهم وصورهم ، لتذكرهم بهم فسرّوا برأيه ، وصنعها لهم ، فما لبث الناس ان عبدوها ، حتى تركوا عبادة الله ، وكان (ود) أكبرهم وأبرهم ، فصار أول معبود عبد من دون الله[1] .

ود :

وكان الصنم ود من نصيب (عوف بن عُذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحلف بن قضاعة)، أعطاه اياه (عمرو بن لحي) فحمله الى وادي القرى ، فأقره بدومة الجندل . وسمّى ابنه عبد ود ، فهو أول من سمي به ، وهو أول من سمّى عبد ود ، ثم سمّت العرب به بعد[2] . وقد تعبّد له بنو كلب[3] .

ومنهم من يهمز فيقول أدّ . ومنه سمي (عبد ودّ) و (أد بن طابخة)، و (أدد) جد معد بن عدنان[4] .

وجعل عوف ابنه عامراً الذي يقال له عامر الأجدار سادناً له ، فلم يزل بنوه يسندونه حتى جاء الله بالإسلام .

وقد استنتج (ياقوت الحموي) من هذه الرواية التي يرويها (ابن الكلبي) أن الصنم اللات أقدم عهداً من ودّ ؟ لأن وداً على هذه الرواية قد سلم الى عوف وعوف هو حفيد زيد اللات الذي سمي بـ (زيد اللات)،نسبة الى الصنم اللات، فودّ على هذا أحدث عهداً من اللات[5] .

وفي رواية لمحمد بن حبيب أن ودّاً كان لبني وبرة ، وكانت سدنته من بني الفرافصة بن الأحوص من كلب[6] . ويشك (ولهوزن) Wellhausen في

---

١ روح المعاني (٧٧/٢٩ وما بعدها) .
٢ الاصنام (٣٤) (روزا) اللسان (٤٦٨/٤) (بولاق) روح المعاني (٧٧/٢٩ وما بعدها) .
٣ اللسان (٤٦٨/٤) تفسير ابي السعود (١٩٨/٥) ، تفسير الخازن (٣١٤/٤) ، تفسير ابن كثير (٤٢٦/٤ وما بعدها) ، الروض الانف (٦٣/١) ، ابن هشام (٦٣/١) ، (هامش على الروض) .
٤ اللسان (٤٥٥/٤) ، (ودد) .
٥ البلدان (٤١٠/٨) (نهاية مادة ود) .
٦ المحبر (٣١٦) ، البلدان (٤٠٧/٨) (ود) .

صحة هذه الرواية ، فقد كان الفرافصة بن الأحوص على رأيه نصرانياً ، وهو والد نائلة زوج الخليفة عثمان . ثم ان (الفرافصة) لم يكن من بني عمرو بن ودّ ، ولا من بني عوف بن عذرة ، فلا يعقل أن تكون السدانة اليه وفي نسله [1] .

وود على وصف (ابن الكلبي) له في كتابه الأصنام « تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل »[2] . وقد أخذ ابن الكلبي وصفه هذا لود من أبيه عن مالك بن حارثة الأجداري .

ومالك بن حارثة الأجداري ، هو من بني عامر الأجدار ، وهم سدنة ود . وزعم ابن الكلبي ان أباه محمد بن السائب الكلبي حدثه عن مالك بن حارثه أنه قال له : إنه رأى وداً ، وأن اباه كان يبعثه ، وهو صغير ، باللبن اليه ، فيقول : اسقه إلهك ، فيشربه مالك ، فيعود وقد شرب اللبن . أما أبوه فيظن انه قد أعطى وداً إياه[3] .

وذكر (جارية بن أصرم الأجداري) ، من بني عامر بن عوف ، المعروف بعامر الأجدار ، انه رأى وداً بدومة الجندل في صورة رجل[4] . وورد أن من عبدة (ودّ) بعض تميم ، وطيء ، والخزرج ، وهذيل ، ولخم[5] .

ويظهر انه (أدد) عند ثمود . وأدد من الأسماء المعروفة . وقبيلة (مرة) ، نسبة الى (مرة بن أدد) . وقد عرف بـ (كهلن) ، أي (الكاهل) . (هكهل) (ها — كهل) . ويظن أن الإله (قوس) (قيسو) (قوسو) ، هو (ود) ، أي اسم نعت له . وذهب بعض الباحثين الى أن (نسراً) و (ذا غابة) (ذ غبت) يرمزان اليه[6] .

---

١ Reste, S. 17, Ency. Religl., I, p. 662.

٢ الاصنام (٥٦) ، (٣٥) (روزا) سبائك الذهب (١٠٤) ، البلدان (٩٠٤/٨) (ود) .

٣ الاصنام (٥٥) .

٤ الاصابة (٢١٩/١) ، (رقم ١٠٤٤) .

٥ Reste, 14 - 18, Ryckmans 16, Grohmann, S. 87.

٦ Jaussen — Savignac, Mission, II, 395, 581, Grohmann, S. 87.

وقد بقي ود قائماً في موضعه الى ان بعث رسول الله خالدَ بن الوليد من غزوة تبوك لهدمه . فلما أراد خالد هدمه ، اعترضه بنو عبد ود وبنو عامر الأجدار ، وأرادوا الحيلولة بينه وبين هدمه ، فقاتلهم وأوجعهم ، وقتل منهم ، فهدمه وكسره . وذكر ابن الكلبي انه كان فيمن قتل رجل من بني عبد ود يقال له قطن بن شريح ، ورجل آخر هو حسان بن مصاد ابن عم الأكيدر صاحب دومة الجندل[1] .

ويرى بعض المستشرقين استناداً الى معنى كلمة (ود) بأن هذا الصنم يرمز الى الود ، اي الحب ، وانه صنو للإلهين (جيل) Gil و (بحد) Pahad عند الساميين . ويستندون في رأيهم هذا إلى بيت للنابغة مطلعه : (حيّاك ود)[2] ، غير ان من العسير علينا تكوين رأي صحيح عن هذا الصنم. ولا أستبعد أن تكون كلمة (ود) صفة من صفات الله لا اسم علم له .

وهناك من يرى وجود صلة بين (ود) و (ايروس) Eros الصنم اليوناني، ويرى انه صنم يوناني في الأصل استورد من هناك ، وعبدته العرب . وهو رأي يعارضه (نولدكه) ، لانتفاء التشابه في الهيأة بين الصنمين[3] .

و (ود) هو الإله الأكبر لأهل معين . وسوف أتحدث عنه فيما بعد .

سواع :

أما سواع ، فكان موضعه برهاط ، من أرض ينبع . وذكر انه كان صنماً على صورة امرأة ، وهو صنم هذيل . وينسب ابن الكلبي انتشار عبادته ــ كعادته ــ الى عمرو بن لحي ، فذكر ان مضر بن نزار أجابت عمرو بن لحي، فدفع الى رجل من هذيل (يقال له الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر) سواعاً،فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخلة ، يعبده من يليه من مضر[4] . وذكر (ابن حبيب) انه كان بـ (نعمان) ، وأن

---

١ الاصنام (٥٥) .
٢ Reste, S. 17, Ency. Religi., VIII, p. 180.
٣ Ency. Religi., I, p. 662.
٤ الاصنام (٥٧) ، البكري (٢/٦٩٧) (رهاط) ، اللسان (١٠/٣٤) (بولاق).

عبدته : بنو كنانة ، وهذيل ، ومزينة ، وعمرو بن قيس بن عيـلان . وكان سدنته بنو صاهلة من هذيل . وفي رواية أن عبدة سواع هم آل ذي الكلاع[1] . وذكر (اليعقوبي) أنه كان لكنانة[2] .

وفي رواية أخرى يرجع سندها الى (ابن الكلبي) كذلك ، تزعم أن سواعاً صنم كان برهـاط من أرض ينبع ، وينبع عرض من أعراض المدينة . وكانت سدنته بنو لحيان . ثم تقول إنه لم يسمع بورود اسم هذا الصنم في شعر هذيل ، إنما بورود اسمه في شعر رجل من اليمن[3] .

وورد في رواية أخرى ان (سواعاً) صنم من أصنام همدان[4] .

ويرى (نولدكه) أن سواعاً لم يكن من الأصنام الكبرى عند ظهور الإسلام، وهو في نظره من الأصنام التي لم ترد أسماؤها في الأعلام المركبة ، ويـدل عدم ورود اسمه في هذا الأعلام على خمول عبادته بين الجاهليين[5] .

وفي السنة الثامنة من الهجرة هدم سواع ، وكان الذي هدمه عمرو بن العاص، فلما انتهى الى الصنم ، قال له السادن : ما تريد : قال : هدم سواع ، قال : لا تطيق تهدمه ، قال له عمرو بن العاص : أنت على الباطل بعد. فهدمه عمرو، ولم يجد في خزانته شيئاً ، ثم قال للسادن : كيف رأيت ، قال : أسلمت والله[6].

و (سواع) من الأصنام التي ورد اسمها في القـرآن الكريم : « وقالوا : لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعـاً ولا يغوث ويعوق ونسراً »[7] . وقد ذكر بعض العلماء ، انه صنم عبد في زمن نوح ، فدفنته الطوفان، فأشار (ابليس)

---

١ المحبر (٣١٦) ، البكري (٦٧٩/٢) .
٢ اليعقوبي (٢٢٥/١) .
٣ الاصنام (٦) (روزا) ، البلدان (٣٤١/٣) ، (رهاط) ، تاج العروس (٢٩٠/٥) اللسان (٢٤/١٠) ، القاموس (٤٢/٣) (سوع) .
٤ الاصنام (٥٧) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٣٦٤/٥) ، الكشاف (١٤٣/٤) ، تفسير البيضاوي (٢٣٩/١) ، روح المعاني (٧٧/٢٩ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤٢٦/٤ وما بعدها) تفسير ابي السعود (١٩٨/٥) .
٥ Ency. Relig. I, p. 663.
٦ الطبري (٦٦/٣) (دار المعارف) ، (حوادث السنة الثامنة) ، امتاع الاسماع (٣٩٨/١) .
٧ نوح ، ٧١ ، (الآية ٢٢ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٦٢/٢٩) ، روح المعـاني (٧٧/٢٩) .

على الجاهليين بالتعبد له ، فعبدته همدان ، ثم صار لهذيل ، وكان برهاط وحجّ اليه . وقال (ابن الكلبي) انه لم يسمع بذكره في أشعار هذيل . وقد قال رجل من العرب :

تراهم حول قيلهم عكوفاً كما عكفت هذيل على سواع
يظل جنابه برهاط صرعى عتائر من ذخائر كل راع[1]

وذكر بعض أهل الأخبار ان سواعاً وبقية الأصنام التي ذكرت معه في سورة نوح ، « كانوا قوماً صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم . فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صوّرناهم كان أشوق لنا الى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوّروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ اليهم ابليس ، فقال : انما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم »[2] .

ورهاط من بلاد بني هذيل ، ويقال وادي رهاط ببلاد هذيل ، ذكر انه على ثلاثة أميال أو ثلاث ليال من مكة[3] .

ونسب بعض أهل الأخبار هدم الصنم (سواع) الى (غاوي بن ظالم السلمي) (غاوي بن عبد العزى) . ذكروا أن هذا الصنم كان (لبني سليم بن منصور) ، فبينما هو عند الصنم ، اذ أقبل ثعلبان يشتدان حتى تسنّماه ، فبالا عليه فقال :

أربّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ثم قال : يا معشر سليم ؟ لا والله هذا الصنم لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ! فكسره ولحق بالنبيّ عام الفتح . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، ما اسمك ؟ فقال : غاوي بن عبد العزى . فقال : بل أنت راشد بن عبد ربه . وعقد له على قومه . وقيل إن هذه الحادثة إنما وقعت لعبّاس بن مرادس السلمي ، وقيل لأبي ذر الغفاري[4] .

---

١ تاج العروس (٥/٣٩٠) ، (ساع) .
٢ تفسير الطبري (٢٩/٦٢) .
٣ تاج العروس (٥/١٤٥) ، (رهط) ، نوادر المخطوطات ، أسماء جبال تهامة وسكانها (٤٠٩) .
٤ اللسان (١/٢٣٧) ، (ثعلب) ، (صادر) ، (كان الصنم الذي يقال له سواع بالمعلاة ، فذكر قصتة اسلامه وكسره اياه) ، الاصابة (١/٤٨٢ وما بعدها) ، (رقم ٢٥١٧) .

يغوث :

وأمـا يغوث ، فكان أيضاً على رواية ابن الكلبي ، في جملة الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على من استجاب الى دعوته من القبائل ، دفعه الى أنعم بن عمرو المرادي ، فوضعه بأكمة مَذْحج باليمن ، فعبدته مذحج ومن والاها وأهل جرش[1] . وقد بقي في أنعم الى ان قاتلتهم عليه بنو غطيف من مراد ، فهربوا به الى نجران ، فأقروه عند بني النار من الضباب ، من بني الحارث بن كعب. واجتمعوا عليه جميعاً[2] . وفي رواية أن عبدة يغوث هم بنو غطيف من مراد[3] .

وفي رواية أن يغوث بقي في أنعم وأعلى من مراد ، الى أن اجتمع أشراف مراد وتشاوروا بينهم في أمر الصنم ، فقر رأيهم أن يكون فيهم ، لما فيهم من العدد والشرف . فبلغ ذلك من أمرهم الى أعلى وأنعم ، فحملوا يغوث وهربوا به حتى وضعوه في بني الحارث بن كعب ، في وقت كان النزاع فيه قائماً بين مراد وبني الحارث بن كعب. فلما أبت بنو الحارث تسليم الصنم الى مراد،وتسوية أمر الديات ، أرسلت عليها مراد جيشاً فاستنجدت بنو الحارث بهمدان ، فنشبت بينهما معركة عرفت بيوم الرزم ، انهزمت فيها مراد ومنيت بخسارة كبيرة قبيحة، وبقي الصنم في بني الحارث . وقد وافق يوم الرزم يوم بدر[4] .

وذكر (الطبرسي) أن بطنين من طيء أخذا يغوث ، فذهبا به الى مراد ،

---

١ الاصنام (١٠ ، ٥٧) ، اللسان (٢/ ٤٨٠) (غوث) تاج العروس (١/ ٣٣٧) (غوث) ، قال الشاعر :

وسار بنـا يغوث الى مـراد فناجزناهم قبل الصباح

البلدان (٨/ ٥١١) (يغوث) الروض الانف (١/ ٦٣) سبائك الذهب (١٠٤) ، بلوغ الارب (٢/ ٢٠١) القاموس (١/ ١٧١) ، روح المعاني (٢٩/ ٧٧ ومـا بعدها) ، تفسير البيضاوي (١/ ٢٣٩) .

٢ المحبر (٣١٧) .

٣ الطبرسي (٥/ ٣٦٤) ، الكشاف (٤/ ١٤٣) ، تفسير أبي السعود (٥/ ١٩٨) ، تفسير الخازن (٣١٤) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٦) .

٤ البلدان (٨/ ٥١١) ، (يغوث) .

Reste, S. 20, Ency. Religl., I, p. 663, A. Fischer, In ZDMG., 58, 869, Nöldeke, in ZDMG., 40, 161, 168, Das Götzenbuch, S. 28.

فعبدوه زماناً ، ثم أن بني ناجية أرادوا أن ينزعوه منهم ، ففروا به الى بني الحارث بن كعب[1] .

ويظهر من غربلة هذه الروايات أن الصنم يغوث كان في جرش أو على مرتفع قريب من هذه المدينة . أما سدنته ، فكانوا من بني أنعم بن أعلى من طيء ، وكانوا في جرش . وفي حوالي سنة ٦٢٣ ، أي السنة التي وقعت فيها معركة بدر ، حدث نزاع على الصنم : أراد بنو مراد ان يكون الصنم فيهم وسدنته لهم ، وأراد بنو أنعم الاحتفاظ بحقهم فيه . فهرب بنو أنعم بصنمهم الى بني الحارث ، واحتفظوا به بعد أن وقعت الهزيمة في مراد[2] .

وفي الحرب التي وقعت بين (بني أنعم) و (غطيف) حمل عبدة (يغوث) صنمهم معهم وحاربوا ، مستمدين منه العون والمدد . وفي ذلك يقول الشاعر :

وسار بنا يغوث إلى مراد فناجوناهم قبل الصباح[3]

ويظهر ان (بني أنعم) ، وسائر عبدة هذا الصنم ، كانوا يحملون صنمهم معهم في غالب الأحوال عند قتالهم القبائل الأخرى[4] .

ولا يستبعد ان تكون لاسم هذا الصنم علاقة بفكرة المتعبدين له عنه ، بمعنى ان المتعبدين له كانوا يرون انه يغيثهم ويساعدهم . وقد ظن بعض الباحثين انه يمثل الإله الأسد . وانه كان (طوطم) قبيلة مذحج ، يدافع عنها ويذب عن القبيلة التي تستغيث به ، على نحو ما فعله الاسرائيليون من استغاثتهم بـ (حية النحاس) المسماة (نحشتان) Nehushtan [5] ، التي كانت (طوطماً) في الأصل على رأي (سمث)[6] .

ونجد بين أسماء الجاهليين عدداً من الرجال سمّوا بـ (عبد يغوث) ، منهم

---

١ الطبرسي (٥/٣٦٤) .

٢ Reste, S. 21, A. Fischer, Der Gotze Jaguth, in ZDMG., BD., 58, S. 869, Leipzig, 1904.

٣ البلدان (٨/٥١١) .

٤ Reste, S. 20, Das Botzenbuch, S. 83.

٥ الملوك الثاني ، الاصحاح الثامن عشر الآية ٤ .

٦ Das Gotzenbuch, S. 82, Smith, The Religion of the Seites, London, 1927, p. 227, Journal of philo., IX, 99.

من كان في مذحج ، ومنهم من كان في قريش ، ومنهم من كان في هوازن . وقد كان قائد بني الحارث بن كعب على تميم في معركة (الكلاب) عبد يغوث ، كما كان لدريد بن الصمة أخ اسمه (عبد يغوث) . ومن مذحج : (عبد يغوث) ابن وقاص بن صلاءة الحارثي ، الذي قتلته (التيم) يوم الكلاب الثاني[1] . ومن بني زهرة : عبد يغوث بن وهب ، وعبيد يغوث ، وامها صفية بنت هشام بن عبد مناف[2] . ويدل ذلك على ان عبادته كانت معروفة بين مذحج وأهل جرش وقريش وهوازن ، وقبائل أخرى مثل تغلب[3] .

ولم يرد اسم هذا الصنم في الكتابات[4] . وقد ذهب (روبرتسن سمث) الى انه (يعوش) Ye'ush المذكور في سفر التكوين ، وهو أحد أجداد أدوم[5] . ويمثله الأسد في نظر (روبرتسن سمث)[6] .

يعوق :

ويعوق أيضاً في جملة هذه الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على القبائل . لقد سلمه عمرو الى مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيوان بن نوف ابن همدان فوضعه في موضع خيوان ، حيث عبدته همدان وخولان ومن والاها من قبائل . وكان في أرحب[7] .

وذكر (ياقوت الحموي) ان ابن الكلبي قال : « واتخذت خيوان يعوق ، وكان بقرية لهم يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة ، ولم أسمع لها

---

١ المحبر (٢٥١) ، (عبد يغوث بن الحارث بن وقاص ، قتل يوم الكلاب وكان على مذحج يومئذ) ، الاشتقاق (٢٣٩) .

٢ الاشتقاق (٩٥) .

٣ Ency. Religi., I, p. 663.

٤ Ency. Religi., I, p. 663.

٥ التكوين ، الاصحاح ٣٦ ، الآية ٥ ، ١٤ ، ١٨ ، وأخبار اليوم الاول ، الاصحاح الاول ، الآية ٢٥ .

٦ Robertson, p. 226.

٧ الاصنام (٥٧) القاموس (٣/٢٧٠) ، الطبرسي (٥/٣٦٤) ، سبائك الذهب (١٠٤) الاكليل (١٠/٥٦) ، الكشاف (٤/١٣٤) ، الاشتقاق (٢٥٣) ، البلدان (٥/٤٣٨) ، روح المعاني (٢٩/٢٧ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤/٤٢٦ وما بعدها) ، تفسير الخازن (٤/٣١٤) تفسير ابي السعود (٥/١٩٨) .

ولا لغيرها شعراً فيه . وأظن ذلك لأنهم قربوا من صنعاء واختلطوا بحمير، فدانوا معهم باليهودية أيام تهود ذي نواس ، فتهودوا معه »[1]. ونسب (الطبرسي) عبادة يعوق إلى كهلان ، وذكر انهم توارثوه كابراً عن كابر، حتى صار الى همدان[2]. وذكر في رواية أخرى ان يعوق اسم صنم كان لكنانة[3].

وذكر بعض أهل الأخبار : (يعوق) صنم كان لكنانة ، « وقيل كان لقوم نوح عليه السلام ، كما في الصحاح . او كان رجلاً من صالحي أهل زمانه . فلما مات جزعوا عليه فأتاهم الشيطان في صورة إنسان . فقال : أمثله لكم في محرابكم حتى تروه كلما صليتم ، ففعلوا ذلك به وبسبعة من بعده من صالحيهم ، ثم تمادى بهم الأمر الى أن اتخذوا تلك الأمثلة أصناماً يعبدونها »[4].

وتشير ملاحظة (ابن الكلبي) من أنه لم يسمع بأن همدان أو غير همدان سمت (عبد يعوق)[5] الى أن يعوق لم يكن من الأصنام المهمة بين العرب عند ظهور الإسلام ، وان عبادته كانت قد تضاءلت ، وانحصرت في قبائل معينة .

وهنالك بيت ينسب الى مالك بن نبط الهمداني الملقب بذي المعشار ، وهو من بني خارف أو من يام بن أصى ، هذا نصه :

يريش الله في الدنيا ويبري ولا يبرى يعوق ولا يريش[6]

نسر :

وأما نسر فكان من نصيب حمير، أعطاه عمرو بن لحي قيل ذي رعين المسمى (معديكرب) فوضعه في موضع بلخع من أرض سبأ ، فتعبدت له حمير الى أيام

---

١ البلدان (٨/٥١٠) (يعوق) ، Reste, S. 22, Ency. Religl., I, p. 663.

٢ الطبرسي (٥/٣٦٥) .

٣ اللسان (١٠/٢٨١) (صادر) تاج العروس (٧/٢٩) ، اللسان (١٢/١٥٤) (بولاق) .

٤ تاج العروس (٧/٢٩) ، (عوق) .

٥ الاصنام (٧) ، (روزا) ، البلدان (٤/١٠٢) .

٦ الروض الانف (١/٦٣) ، ابن هشام (١/٦٣) ، (هامش الروض) .

ذي نواس ، فتهودت معه ، وتركت هذا الصنم[1] . وكان عباد نسر آل ذي الكلاح من حمير على رواية من الروايات[2] . وذكر (محمد بن حبيب) ، أن حمير تنسكت لنسر ، وعظمته ودانت له ، وكان في غمدان قصر ملك اليمن[3] . وذكر اليعقوبي أنه كان لحمير وهمدان منصوباً بصنعاء[4] .

ونسر هو (نشر) Nesher في العبرانية[5] . وهو صنم من أصنام اللحيانيين كذلك ، ويجب ان يكون من أصنام العرب الشماليين لورود اسمه في الموارد العبرانية والسريانية على انه اسم إلـه عربي[6] .

وأشير في التلمود الى صنم ذكر ان العرب كانوا يعبدونه اسمه (نشرا) Neshra و (نشرا) هو (نسر) . وقد ورد اسم الصنم (نسر) عند السبئيين كذلك، وكان من الآلهة المعبودة عند كثير من الساميين ، وقد عبد خاصة في جزيرة العرب[7] .

ولم يشر ابن الكلبي الى صورة الصنم نسر ، ولكننا نستطيع ان نقول استناداً إلى هذه التسمية انه كان على هيأة الطائر المسمى باسمه ، وقد وجدت أصنام على صورة نسر منحوتة على الصخور خاصة في أعالي الحجاز[8] . ويؤيد هذا الرأي رواية ذكرها الطبرسي في أشكال الأصنام ، أسندها إلى الواقدي ، قال فيها : « كان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر من الطير »[9] .

---

١ الاصنام (٥٧ وما بعدها) ، البلدان (٢٨٦/٨) (نسر) ابن هشام (٦٣/١) ، (هامش الروض) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، الكشاف (١٤٣/٤) بلوغ الارب (٢٠١/٢) ، القاموس (١٤١/٢) .

٢ الطبرسي (٣٦٤/٥) ، تاج العروس (٥٦٣/٣) ، اللسان (٦٠/٧ وما بعدها)، (نسر) .

٣ المحبر (٣١٧) .

٤ اليعقوبي (٢٢٥/١) .

٥ Hastings, p. 200.

٦ Handbuch, I, S. 44.

٧ Ency. Religi., I, p. 663.

٨ XXIX, S. 600. Robertson, p. 226, Noldeke, in ZDMG., 1886, S. 186.

٩ الطبرسي (٣٦٤/٥) .

عميأنس :

وعميأنس (عم أنس) ، هو صنم خولان ، وموضعه في أرض خولان . وكان يقدم له في كل عام نصيبه المقرر من الأنعام والحروث[1] . وذكر ابن الكلبي ان الذين تعبدوا له من خولان هم بطن منهم يقال لهم (الادوم) وهم الأسوم . وفيهم نزلت الآية : « وجعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا: هذا لله ، بزعمهم،وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون »[2] . وكانوا « يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله بزعمهم . فما دخل في حق الله من حق عميأنس ، ردوه عليه ، وما دخل في حق الصنم من حق الله الذي سموه له ، تركوه له »[3] .

وقد ورد ذكر هذا الصنم في خبر (وفد خولان) الذي قدم على رسول الله في شعبان سنة عشر ، إذ ذكر أن رسول الله قال لهم : « ما فعل عم أنس » ، فقالوا : بشرّ وعرّ ، أبدلنا الله به ، ولو قد رجعنا اليه هدمناه[4] . « وقد بقيت منا بعد بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به »[5] .

وقد كانوا يقدمون له القرابين حتى في أيام الضيق وأوقات المحنة ، تقرباً اليه . لقد قالوا للرسول حين سألهم : « ما أعظم ما رأيتم من فتنته » « لقد رأيتنا وأسنتنا حتى أكلنا الرمة ، فجمعنا ما قدرنا عليه ، وابتعنا مئة ثور، ونحرناها لعم أنس قرباناً في غداة واحدة ، وتركناها تردها السباع ، ونحن أحوج اليها من السباع ، فجاءنا الغيث من ساعتنا . لقد رأينا العشب يوارى الرجال ، ويقول قائلنا : أنعم علينا عم أنس »[6] . وذكروا له أنهم كانوا يقتسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم ، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له[7] .

---

١ سبائك الذهب (١٠١) ، خزانة الادب (٣/٢٤٥) ، سيرة محمد (١/٥٣) ، (طبعة فرانكفورت) ، ابن خلدون (٢/١٦٩) ، الاغاني (٣٠/١٢٤) .
٢ الانعام ، الآية ١٣٧ .
٣ الاصنام (٤٤) .
٤ نهاية الارب (١٨/٨٢) ، ابن سعد (١/٣٢٤) (صادر) .
٥ عيون الاثر (٢/٢٥٣) .
٦ عيون الاثر (٢/٢٥٣ وما بعدها) .
٧ المصدر نفسه .

اساف ونائلة :

وللأخباريين قصص في اساف ونائلة ، وهما في زعم بعضهم إنسانان عملا عملاً قبيحاً في الكعبة ، فمسخا حجرين ، ووضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما . فلما طال مكثهما ، وعبدت الأصنام ، عبدا معها . وكان أحدهما بلصق الكعبة ، والآخر في موضع زمزم . فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة الى الآخر ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما[1] . وفي رواية أن اسافاً كان حيال الحجر الأسود . وأما نائلة ، فكان حيال الركن اليماني[2] . وفي أخرى أنهما « أخرجا الى الصفا والمروة فنصبا عليها ليكونا عبرة وموعظة ، فلما كان عمرو بن لحي ، نقلهما الى الكعبة ونصبهما على زمزم : فطاف الناس بالكعبة وبهما حتى عبدا من دون الله »[3] . وذكر (اليعقوبي) ، أن (عمرو بن لحي) وضع (هبل) عند الكعبة ، فكان أول صنم وضع بمكة . ثم وضعوا به اساف ونائلة كل واحد منهما على ركن من أركان البيت . فكان الطائف إذا طاف بدأ بأساف فقبله وختم به . ونصبوا على الصفا صنماً يقال له مجاور الريح وعلى المروة صنماً . يقال له مطعم الطير»[4]. فاليعقوبي ممن يرون إن اسافاً ونائلة كانا عند الكعبة ، لا على الصفا والمروة .

وتذكر رواية أخرى ان أساف صنم وضعه عمرو بن لحي الخزاعي على الصفا، ونائلة على المروة . وكانا لقريش . وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة . أو هما رجلان من جرهم ، أساف بن عمرو ونائلة بنت سهل فجرا في الكعبة ، وقيل أحدثا فيها ، فمسخا حجرين ، فعبدتهما قريش[5] . وورد ان موضع أساف ونائلة عند الحطيم[6] . وورد ان اسافاً رجل من جرهم ، يقال له اساف بن يعلى ، ونائلة

---

١ الاصنام (١٨) (روزا) الروض الانف (١/٦٤) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، ابن هشام (١/٨٦) ، الطبري (٢/٢٨٤) ، المحبر (٣١١ ، ٣١٨) ، اليعقوبي (١/٢٢٤) ، الطبري (٢/٢٤١) ، (المعارف) .

٢ الطبرسي (٥/٣٦٤) ، روح المعاني (٢/٤١) .

٣ الروض الانف (١/٦٥) ، ابن هشام ، تاج العروس (٦/٤٠) ، اللسان (٩/٦)، (أسف) ، البلدان (١/١٧٠) .

٤ اليعقوبي (١/٢٢٤) .

٥ تاج العروس (٦/٤٠ وما بعدها) ، اللسان (١٠/٣٤٨) ، الروض الانف (١/٦٤) ، بلوغ الارب (٢/٢٠٥) ، ابن هشام (١/٦٤) ، اللسان (٩/٦) ، (أسف) ، (صادر) .

٦ الازرقي ، أخبار مكة (١/٧٠) .

امرأة من جرهم يقال لها نائلة بنت زيد ، وكان اساف يتعشقها في أرض اليمن، فأقبلا حجاجاً ، فدخلا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت ، ففجر بها في الكعبة ، فمسخا حجرين ، فأصبحوا فوجدوهما ممسوخين ، فوضعوهما موضعها . فعبدتهما خزاعة وقريش ، ومن حج البيت بعد من العرب[1] .

وذكر (محمد بن حبيب) ان اسافاً كان على الصفا . وأما نائلة، فكان على المروة . (وهما صنمان . وكانا من جرهم . ففجر اساف بنائلة في الكعبة، فمسخا حجرين ، فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما ، ثم عبدا بعد)[2] . وكان نسك قريش لأساف : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك »[3] .

وورد اسم اساف في بيت شعر ينسب إلى بشر بن أبي خازم الأسدي ، هو:

عليه الطير ما يدنون منه   مقامات العوارك من اساف[4]

وورد ان نائلة حين كسرها الرسول عام الفتح ، خرجت منها سوداء شمطاء تخمش وجهها وتنادي بالويل والثبور[5] .

ويظهر أن مردّ هذا القصص الذي يقصه علينا أهل الأخبار عن الصنمين، إنما هو الى شكل الصنمين . كان (اساف) تمثال رجل على ما يظهر من روايات الأخباريين ، وكان (نائلة) تمثال إمرأة . يظهر أنهما استوردا من بلاد الشأم، فنصبا في مكة ، فتولد من كونهما صنمين لرجل وامرأة ، هذا القصص المذكور ولعله من صنع القبائل الكارهة لقريش ، التي لم تكن ترى حرمة للصنمين .

وكانت قريش خاصة تعظم ذينك الصنمين وتتقرب اليهما ، وتذبح عندهما وتسعى بينهما . أما القبائل الأخرى ، فلم تكن تقدسهما ، لهذا لم تكن تتقرب اليهما ، ومن هنا لم يكن الطواف بهما من مناسك حج تلك القبائل .

---

١ الاصنام (٦) (روزا) ، (٩) ، (القاهرة ١٩١٤) .
٢ المحبر (٣١١) .
٣ المحبر (٣١١) ، صبح الاعشى (٤٦٢/٤) ، أخبار مكة ، للازرقي (٧٢) ، (طبعة لايبزك) ، (نائلة بنت وهب) ، (أساف بن عمر ، ونائلة بنت سهل) ، تفسير الطبري (٤٣/٢)، (١٩٥٤ م) .
٤ ديوان بشر بن أبي خازم ، ملحق الديوان رقم ١١ ، (صفحة ٢٣٣) .
٥ الروض الانف (٦٥/١) .

وكانت قريش تحلف عند هذين الصنمين . ولهما يقول (أبو طالب) ، وهو يحلف بهما حين تحالفت قريش على بني هاشم :

أحضرت عند البيت رهطي ومعشري وأمسكت من أثوابــه بالوصائل
وحيث ينــخ الأشعرون ركــابهم بمغضي السيول من أساف ونائــل

فكانا على ذلك الى أن كسرهما الرسول يوم الفتح فيما كسر من الأصنام[1] .

ويظهر من الشعر المتقدم ، أن أسافاً ونائلة كانا في موضعين مكشوفين، وعندهما كان ينيخ الأشعرون . ويؤيد ذلك هــذا الشعر المنسوب الى بشر بن أبـي خازم الأسدي :

عليه الطير مــا يدنون منه مقامات العوارك من أساف[2]

حيث يظهر أن الطير كانت تقف مكتظة عليه ، لا تخاف من أحد ، ولا تفزع من قادم ، لأنها في حرمة صنم .

رضى :

ورضى ، ويكتب رضاء في بعض الأحيان ، هو صنم آخر . وذكر ابن الكلبي انه كان لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، فهدمه المستوغر ، وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . هدمه في الاسلام[3] . وتعبدت لهذا الصنم قبيلة تميم . وقد ورد اسم (عبد رضى) بين أسماء الجاهليين . ويظهر ان قبيلة طيء كانت قد تعبدت له كذلك[4] .

و (رضى) من الأصنام المعروفة عند قوم ثمود . وقد ورد اسمه في كتابات

---

١ تاج العروس (٦/٤٠) ، « أسف » .
٢ ابن الكلبي (٢٩ وما بعدها) ، ديوان بشر بن أبي خازم ، ملحق الديوان ، رقم ١١ ، (ص ٢٣٣) .
٣ الاصنام (٣٠) ، (١٩) ، (روزا) ، الروض الانف (١/٦٧) ، تــاج العروس (١٠/١٥١) ، (رضو) .
٤ الاغاني (٧/١٤٧) ، (٩/١٦ ، ٤٧) .

ثمودية عديدة[1] . وكانت عبادته منتشرة بين العرب الشماليين . وورد في نصوص تدمر وبين أسماء بني إرم[2] ، كما ورد في كتابات الصفويين . وورد على هـذا الشكل : (رضو) و (رضى)[3] ، و (هرضو) (ها ـ رضو) . ويظن انه يرمز إلى كوكب .

ويظهر من بيت شعر ينسب إلى المستوغر في كسره رضى في الاسلام ، هو :

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها تلا تنازع أسحما[4]

ان الصنم (رضى) (رضاء) ، هـو أنثى ، بدليـل استعمال ضمـير التأنيث في لفظة (فتركتها) . فهو إلهـة . ويرى بعض الباحثين ، انه إلهة أيضاً عند العرب الصفويين .

مناف :

و (مناف) : صنم من أصنام الجاهلية ، قال عنه ابن الكلبي : « وكان لهم مناف ، فيه كانت تسمى قريش (عبد مناف) . ولا أدري أيـن كان ، ولا من نصبه ؟ »[5] . وسمي به أيضاً رجال من هذيل[6] . و « بـه سمي عبد مناف . وكانت أمه أخدمته هذا الصنم »[7] .

وفيه يقول بلعاء بن قيس :

وقرن وقد تركت الطير منه كمعتبر العوارك من مناف[8]

---

١ Reste, S. 58, Ency. Religi., I, p. 662, Hubert Grimme. Die Losung des Sinai., S. 43, 44.

٢ Vogue 6, 84, Reste, S. 59.

٣ العرب في سوريا قبل الاسلام (١٣٥ وما بعدها) .

٤ الاصنام (١٩) ، (روزا) ، (٣٠) ، (أحمد زكي) ، الروض الانف (١/٦٧) ، (فتركتها قفرا بقاع أسحما) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، ابن هشام (١/٦٦) ، (حاشية على الروض) ، تـاج العروس (١٠/١٥١) ، ابن كثـير ، البدايـة (١/١٩٢) .

٥ الاصنام (٣٢) ، (٢٠) ، (روزا) ، تاج العروس (٦/٢٦٣) . (ناف) .

٦ Reste, S. 57.

٧ تاج العروس (٦/٢٦٣) ، (ناف) ، الاصنام (٣٢٢) ، البلدان (٨/١٦٦) ، النقائض (١٤١) ، بيفان) ، بلوغ الارب (٢/٢٠٦) .

٨ تاج العروس (٦/٢٦٣) . (ناف) .

ويتبين من ورود اسم (مناف) بين عرب الشأم أنه كان إلهاً معبوداً عندهم كذلك . وقد عثر علـــى اسمه في كتابة دَوّنها شخص اسمه : (أبو معن) على حجر توجه بها الى الإلهة مناف ، ليمن عليه بالسعد والبركة ، وحفرت عـــلى الحجر صورة الإلـه (مناف) على هيأة (رجل لا لحية له) يتحدر على عارضيه شعر رأسه الصناعي المرموز به الى الإلهة الشمس ، وحول جفنيه وحدقتيه خطّان ناعمان ، ويزين جيده قلادة ، كما ترى غالباً في تصاوير الآلهة السوريين ، وعلى صدره طيات ردائه ، ويرى طرف طيلسانه الإلهي الذي ينعطف من كتفه الأيسر فيتصل الى الأيمن ويعقد به [1] . وقد ذهب المتخصصون الذين فحصوا هذه الكتابة الى أنها من حوران .

وقد عثر على كتابة وجدت في حوران ، ورد فيها اسم (منـــاف) مع إلـه آخر ، ورد اسم مناف فيها على هذا الشكل .(MN, PHA) وقد عثر على كتابة أخرى وجد فيها الاسم على هذه الصورة : (منافيوس) Manaphius ، مما يدل على أن المراد بالإسمين شيء واحد ، هو الإلـه مناف[2] .

ذو الخلصة :

أما ذو الخلصة ، فكان صنم خثعم وبجيلة ودوس وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن ، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة [3] ، والحارث بن كعب وجرم وزبيد والغوث بن مر بن أد وبنو هلال بن عامر ،وكانوا سدنته[4] . وذكر ابن الكلبي ان سدنته بنو أمامة من باهلة بن أعصر[5] .

---

١ المشرق ، السنة الرابعة والعشرون ، العدد ٣ ، اذار ١٩٣٣ م ، (ص ١٩٨ ومـــا بعدها) .

٢ المشرق ، السنة ٢٤ ، اذار ١٩٣٣ ، العدد ٣ ، (ص ١٩٨ وما بعدها) ، Ency. Religl., I, p. 662, Ephem. Epigr., II, 390 No. 22, Mordtmann, in ZDMG., XXIX, 1875, S. 106.

٣ الاصنام (٣٥ ، ٤٧) ، (٢٢) (روزا) ، ابـــن هشـــام (١/ ٣٠) ، الازرقي (٢٥٦/١) ، الروض الانف (٦٦/١) ، بلوغ الارب (٢٠٧/٢) ، اليعقوبـــي (٢٢٥/١) .

٤ المحبر (٣١٧) .

٥ الاصنام (٢٢) (روزا) .

وصفته انه (كان مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيأة التاج) . وكان بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة [1] . وله بيت يحج اليه . وجعل (ابن حبيب) موضع البيت في العبلاء على أربع مراحل من مكة [2] .

وفي رواية لابن اسحاق ان عمرو بن لحي نصب ذا الخلصة بأسفل مكة، فكانوا يلبسونه القلائد ، ويهدون اليه الشعير والحنطة ، ويصبون عليه اللبن ، ويذبحون له، ويعلقون عليه بيض النعام [3] .

وهناك روايات جعلت ذا الخلصة (الكعبة اليمانية) لخثعم ، ومنهم من سمّاه كعبة اليامة . وأظن ان هاتين الروايتين هما رواية واحدة في الأصل ، صارت روايتين من تحريف النساخ . ومنهم من جعل ذا الخلصة بيتاً في ديار دوس [4] . ويستنتج من كل هذه الروايات ان ذا الخلصة بيت كان يدعى كعبة أيضاً ، وكان فيه صنم يدعى الخلصة ، لدوس وخثعم وبجيلة وغيرهم [5] .

ويظهر من حديث : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة ، والمعنى انهم يرتدون ويعودون إلى جاهليتهم في عبادة الأوثان ، فتسعى نساء بني دوس طائفات حول ذي الخلصة ، فترتج أعجازهن » [6] . ويستنتج من ذلك ان بني دوس وغيرهم كانوا يطوفون حول كعبة ذي الخلصة التي في جوفها صنم الخلصة .

وكان (بيت ذي الخلصة) من البيوت التي يقصدها الناس للاستقسام عندها

---

١ الاصنام (٢٢) (روزا) (٣٤) (أحمد زكي) ، الازرقي (١/٧٣) .
٢ المحبر (٣١٧) بلوغ الارب (٢/٢٠٧) ، صفة جزيرة العرب (١٢٧) .
٣ الازرقي ، أخبار مكة (١/٧٣) (باب ما جاء في الاصنام التي كانت على الصفا والمروة) ، تاج العروس (٤/٣٨٩) (خلص) ، البلدان (٨/٤٣٤) .
٤ ابن هشام (١/٣٠) ، الاغاني (٩/٧) ، الاكليل (٨/٨٤) ، بلوغ الارب (٢/٣٢٩) ، وقد أجمل السيد رشدي الصالح ملحس الروايات الواردة عن ذي الخلصة في نهاية الاول من تأريخ مكة للازرقي . وهو يرى أن البجلي لم يهدم بنيان بيت ذي الخلصة تهديما تاماً ، وانه بقي الى أيام الملك عبد العزيز آل سعود ، فأزاله ، وأحرقت الشجرة التي كانت بجانب البيت وهي شجرة العبلاء . وذهب أيضا أن ذلك البيت لم يكن بتبالة ، انما كان في تروق وقد عرف البيت بالولية كذلك . الازرقي (١/٢٥٦ وما بعدها) ابن هشام (١/٦٤) (حاشية على الروض الانف ، تاج العروس (٢/٣٧٨) ، الروض الانف (١/٦٥ وما بعدها) .
٥ اللسان (٧/٢٩) (خلص) (صادر) .
٦ اللسان (٧/٢٩) (خلص) .

بالأزلام . وكانت له ثلاثة أقدح : الآمر ، والناهي ، والمتربص[1] .

وفي ذي الخلصة قال أحد الرجّاز :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا مثلي ، وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

وكان سبب قوله أنه قُتل أبوه ، فأراد الطلب بثأره ، فأتى ذا الخلصة ، فاستقسم عنه بالأزلام ، فخرج السهم ينهاه عن ذلك ، فقال تلك الأبيات . ومن الناس من ينحلها امرأ القيس[2] . وذكر (ابن الكلبي) أيضاً أنه لما أقبل امرؤ القيس بن حجر ، يريد الغارة على بني أسد ، مَرّ بذي الخلصة ، فاستقسم عنده ثلاث مرات . فخرج الناهي . فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم ، ثم غزا بني أسد ، فظفر بهم[3] .

وقد هدم البيت في الإسلام ، « فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها ، قدم عليه جرير بن عبدالله مسلماً . فقال له : يا جرير : ألا تكفيني ذا الخلصة ؟ فقال : بلى . فوجهه اليه . فخرج حتى أتي بني أحمس من بجيلة ، فسار بهم اليه . فقاتلته خثعم وباهلة دونه. فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مئة رجل ، وأكثر في خثعم ، وقتل مئتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم . فظفر بهم وهزمهم ، وهدم بنيان ذي الخلصة ، وأضرم فيه النار فاحترق[4] . وورد في رواية أن هدمه كان قبل وفاة الرسول بشهرين أو نحوهما[5] .

ويذكر (ابن الكلبي) أن موضع بيت ذي الخلصة عند عتبة باب مسجد تبالة[6] أما (ابن حبيب) ، فذكر أنه صار بيت قصار في العبلاء[7] . وذكر أن موضعه

---

١ الاصنام (٢٢ ، ٢٩) (روزا) .
٢ الاصنام (٣٥) (٢٢) (روزا) الروض الانف (٦٥/١) ، ابن هشام (٦٥/١) (هامش على الروض الانف) بلوغ الارب (٢٠٧/٢) .
٣ الاصنام (٢٩) (روزا) .
٤ الاصنام (٢٣) (روزا) ، الطبري (١٥٨/٣) (دار المعارف) .
٥ الروض الانف (٦٦/١) .
٦ الاصنام (٢٣) (روزا) .
٧ المحبر (٣١٧) .

مسجد جامع لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم[1] .

ويظهر من رثاء امرأة من خثعم لذي الخلصة حين هدمه جرير بن عبدالله ، وأحرق بيته ، وهو قولها :

وبنو أمامة بالوليّة صرعوا ثملا يعالج كلهم انبوبا[2]

ان (الخلصة) كان صنماً أنثى ، أي إلهة ، ولذلك قيل له (الوليّة) ، كما ترى ذلك في البيت المذكور . ونجد في مواضع أخرى من روايات أهل الأخبار ما يؤيد هذا الرأي ، فقد استعملوا ضمير التأنيث للتعبير عنها[3] ، كما قالوا فيه (المروة البيضاء)[4] . وأما تعبيرهم عنه بضمير التذكير ، مثل قولهم (وكان) ، فإنهم أرادوا بذلك لفظ (صنم) فذكروه .

سعد :

وكان لمالك وملكان ، ابني كنانة ، بساحل جدة وتلك الناحية صنم يقال له سعد . وكان صخرة طويلة[5] . وذكر (اليعقوبي) انه كان لبني بكر بن كنانة[6] . وذهب (ابن اسحاق) إلى انه في موضع قفر ، وقيل انــه قرب اليمامة . وقد أورد الأخباريون عنه هذه القصة : « أقبل رجل منهم بإبــل له ليقفها عليه ، يتبرك بذلك فيها . فلما أدناها منه نفرت منه ، وكان يهراق عليه الدماء ، فذهبت في كل وجه وتفرقت عليه ، وأسف فتناول حجراً فرماه به ، وقال : لا بارك الله فيك إلهاً . أنفرت عليّ إبلي » . ثم خرج في طلبها حتى جمعها ، وانصرف عنه ، وهو يقول :

---

١ الروض الانف (٦٥/١) .

٢ الاصنام (٢٣) (روزا) .

٣ الازرقي (٧٣/١) ، تاج العروس (٣٨٩/٤) .

٤ قال خداش بن زهير العامري :
وبالمروة البيضــاء يــوم تبالــة ومحبــة النعمــان حيث تنصرا
الاصنام (٢٢) (روزا) .

٥ الاصنام (٣٦ وما بعدها) (٢٣) (روزا) ابن هشام (٦٤/١) (حاشية عــلى الروض) تاج العروس (٣٧٨/٢) .

٦ اليعقوبي (٢٢٥/١) .

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعي لغيّ ولا رشد[1]

وذكر (ابن قتيبة) أن سعداً صنم على ساحل البحر بتهامة ، تعبده علك ومن يليها ، ويقال كانت تعبده هذيل[2] .

وقد ورد اسم (سعد) في أسماء الأشخاص المركبة المضافة ، مثل (عبد سعد) ، وهو مما يدل على أن الناس كانوا يتبركون به بتسمية أبنائهم باسمه[3] .

وقد ورد اسم هذا الصنم في كتابات النبط ، فدعي بـ (سعدو)[4] . كما ورد في كتابات الصفويين ، مما يدل على أنه كان بين الأصنام التي تعبد لها أولئك القوم[5] . ويظن انه يرمز الى كوكب .

ذو الكفين :

وهناك صنم عرف عند الأخباريين بـ (ذي الكفين) وكان لدوس ، ثم لبني منهب بن دوس . فلما أسلموا ، بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، الطفيل بن عمرو الدوسي ، فحرقه وهو يقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أكبر من ميلادكا
اني حشوت النار في فؤادكا[6]

ويظهر من هذا الرجز أنه أحرقه بالنار . ومعنى هذا أنه لم يكن صنماً من

---

١ الاصنام (٣٧) ، (٢٣) (روزا) ابن هشام (٦٤/١) ، (حاشية على الروض الانف) الروض الانف (٦٤/١) ، تاج العروس (٣٧٨/٢) ، اللسان (٢٠٢/٣) (سعد) بلوغ الارب (٢٠٨/٢) ، اللسان (٢١٨/٣) (صادر) .
٢ الاشتقاق (٢٥) ، تاج العروس (٣٧٨/٣) ، (سعد) .
٣ الاغاني (١٧١/١١) ، Reste, S. 60.
٤ Handbuch, I, S. 234. O. Eissfeldt, 150, Arabien, S. 85.
٥ Ency. Religi., I, p. 662.
٦ الاصنام (٣٧) ، (٢٣) (روزا) الازرقي (٧٨/١ ، ٢٦٩) ، تاريخ الخميس (١٠٩/٢) ، تاج العروس (٢٣٥/٦) ، (كف) ، اليعقوبي (٢٢٥/١) ، (أقدم)، الروض الانف (٢٣٥/١) .

حجر ، وإنما كان من خشب ، أو أنه أراد بيت الصنم . وذكر أن هذا الصنم كان صنم (عمرو بن حممة الدوسي) أحد حكام العرب[1] .

ذو الشرى :

وكان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد ، صنم يقال له ذو الشرى[2]. وورد في رواية للأخباريين أن (ذا الشرى) صنم لدوس كان بالسراة[3] . وقد ورد اسم هذا الصنم في الحديث النبوي ، وورد بين أسماء الجاهليين اسم (عبد ذي الشرى)[4] .

ويرى بعض اللغويين ان الشرى ما كان حول الحرم ، وهو إشراء الحرم[5] ، فإذا كان هذا التعريف صحيحاً، فإنه يكون في معنى (ذات حمى) عند السبئيين[6]. وكان له حمى ، به ماء يهبط من جبل ، حمته دوس له[7] .

و (ذو الشرى) إلّه ورد اسمه في كتابات (بطرا) و (بصرى) ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد .

الأقيصر :

أما الأقيصر ، فكان صنم قضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان ، وكان في مشارف الشأم . وقد ذكر اسمه في شعر لزهير بن أبي سلمى ، ولربيع بن ضبع الفزاري ، وللشنفرى الأزدي[8] . وكانوا يحجون اليه ويحلقون رؤوسهم عنده ، ويلقون مع الشعر قرة من دقيق[9] . وهي عادة كانت متبعة عند بعض قبائل اليمن كذلك .

---

١ امتاع الاسماع (٣٩٨/١) .
٢ الاصنام (٣٨) ، (٢٤) (روزا) بلوغ الارب (٢٠٩/٢) .
٣ تاج العروس (١٩٧/١٠) .
٤ Ency. Religi, I., p. 663, Reste, S. 48.
٥ (وأشراء الحرم : نواحيه ، والواحد شرى) ، اللسان (٤٢٨/١٤) (صادر) .
٦ Reste, S. 51.
٧ نهاية الارب (١٤/١٨ وما بعدها) .
٨ الاصنام (٣٨ وما بعدها) ، (٢٤) (روزا) ، تاج العروس (٤٩٧/٣) ، اللسان (٤١٦/٦) ، الاغاني (١٤١/٢١) .
٩ البلدان (٣٤١/١ وما بعدها) (الاقيصر) الاصنام (١٨) .

ويذكر (ابن الكلبي) أن هوازن كانت تنتاب حجاج الأقيصر ، فإن أدركت الموسم ، قبل أن يلقي القرة ، أي قبضات من دقيق ، قال أحدهم لمن يلقي : « أعطنيه . فإني من هوازن ضارع » ، وإن فاته ، أخذ ذلك الشعر بما فيه من القمل والدقيق ، فخبزه وأكله . وقد عيرت هوازن في ذلك ، فقال معاوية بن عبد العُزى بن ذراع الجرمي ، في (بني جعدة) وكانوا قد اختصموا مع بني جرم في ماء لهم الى النبي يقال له العقيق ، فقضى به رسول الله لجرم ، شعراً منه :

ألم تر جرماً أنجدت وأبوكم ... مع القمل في جفر الأقيصر شارع ؟
إذا قرة جاءت بقول: أصب بها ... سوى القمل؟إني من هوازن ضارع[1]

ويظهر من بيت شعر رواه (ابن الأعرابي) ، هو :

وأنصاب الأقيصر حين أضحت ... تسيل على مناكبها الدماء

ومن بيت لزهير بن أبي سلمى ، هو :

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهداً ... وما سحقت فيه المقادم والقمل[2]

انه كان عند الصنم الأقيصر أنصاب ينحر الناس عليها ذبائحهم التي يتقربون بها إلى هذا الإلـه . وكانت أكثر من نصب واحد ، وقد تلطخت بالدماء من كثرة ما ذبح عليها .

وأشير إلى (أثواب الأقيصر) في بيت للشنفرى الأزدي[3] . ويظهر ان عباده كانوا يطوفون حوله ، وهم يلبون ويغنون[4] .

---

١ الاصنام (٣٠) (روزا) .

٢ الاصنام (٣٠) (روزا) تاج العروس (٣/٤٩٧) ، اللسان (٦/٤١٦) ، الاغاني (٢١/١٤١) .

٣ وان امرءا أجار عمرا ورهطه ... علي ، وأثواب الافيصر ، يعنف
الاصنام (٢٥) (روزا) .

٤ البلدان (١/٣٤٠) .

نهم :

وكان لمزينة صنم يقال له : نهم ، كسره سادنه خزاعي بن عبد نهم ، وهو من مزينة من بني عداء ، وأعلن إسلامه[1] . ويظهر من أبيات لأمية بن الأسكر ان أتباع الصنم كانوا يقدمون الذبائح له ، ويقسمون به . وقد سمى منهم جملة رجال عرفوا بـ (عبد نهم) من بني هوازن وبجيلة وخزاعة[2] . وهـذا مما يدل على انتشار عبادة هذا الصنم بين هذه القبائل أيضاً .

عائم :

وكان لأزد السراة صنم يقال له عائم . ورد اسمه في شعر لزيد الخير، المعروف أيضاً بزيد الخيل[3] .

سعير :

أما سعير ، فهو صنم عنزة[4] . وكان الناس يحجون اليه ويطوفون حولـه ، ويعترون العتائر له ، وقد ورد في شعر لجعفر بن خلاس الكلبي ، وكان راكباً ناقة له ، فمرت به ، وقد عترت عنزة عنده ، فنفرت ناقته منه ، فأنشأ يقول :

نفرت قلوصي من عتائر صرعت حول السعير تزوره ابنا يقدم
وجموع يذكر مهطعين جنابـه ما ان يحـير اليهم بتكـلم[5]

---

١ (وكان سادن نهم يسمى خزاعي بن عبد نهم ، من مزينة ثم من بني عداء . فلما سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ثار الى الصنم فكسره . وأنشأ يقول :
ذهبت الى نهـم لاذبـح عنـده عتـيرة نسك كالتي كنـت أفعـل
فقلت لنفسي حـين راجعت عقلها أهـذا الـه أبكـم ليس يعقـل ؟
أبيـت فديني اليـوم دين محمد الـه السمـاء الماجـد المتفضـل
الاصنام (٣٩ وما بعدها) (٢٥) (روزا) معجم الشعراء (٣٢٨) ، بلـوغ الارب (٢/٢١٠) .

٢ Reste, S. 58.

٣ الاصنام (٤٠) ، (٢٥) (روزا) الاغاني (١٦/٥٧) ، بلوغ الارب (٢/٢١٠) .

٤ الاصنام (٤١) ، (٢٥) (روزا) بلوغ الارب (٢/٢١٠) .

٥ الاصنام (٢٥) (روزا) (٤١) (أحمد زكي باشا) .

وبين أسماء الرجال أناس عرفوا بـ (سعير)[1] . والسعير النار واللهب ، ولا استبعد وجود صلة بين هذا المعنى وبين هذا الصنم . بأن يكون هذا الصنم ممثلاً للشمس[2] .

الفلس :

وكان لطيء صنم يقال له الفلس ، وكان أنفاً أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجأ ، أسود ، كأنه تمثال إنسان . وكانوا يعبدونه ، ويهدون اليه ، ويعترون عنده عتائرهم ، ولا يأتيه خائف إلاّ أمن عنده ، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها اليه إلاّ تركت له ولم تخفر حويته أي حوزته وحرمه[3] . ذكر (ابن حبيب) انه كان بنجد ، وكان قريباً من فيد وسدنته بنو بولان[4] .

وبولان جد بني بولان هو الذي بدأ بعبادته على رواية ابن الكلبي . وكان آخر من سدنه منهم رجل يقال له صيفي « فأطرد ناقة خلية لامرأة من كلب من بني عُلَيم ، كانت جارة لمالك بن كلثوم الشمجي ، وكان شريفاً ، فانطلق بها حتى وقفها بفناء الفلس . وخرجت جارة مالك ، فأخبرته بذهابه بناقتها ، فركب فرساً عُرياً وأخذ رمحه ، وخرج في أثره ، فأدركه وهو عند الفلس ، والناقة موقوفة عند الفلس ، فقال له : خل سبيل ناقة جارتي . فقال : انها لربك . قال : خل سبيلها . قال : أتخفر إلهك ؟ فبوأ له الرمح ، فحل عقالها ، وانصرف بها مالك ، وأقبل السادن على الفلس ، ونظر إلى مالك ، ورفع يده وقال ، وهو يشير بيده اليه :

يا ربّ إن مالك بن كلثوم أخفرك اليوم بنابٍ علكوم
وكنت قبل اليوم غير مغشوم

---

1 Reste, S. 61.

٢ تاج العروس (٣/٢٦٨) ، (سعر) .

٣ الاصنام (٥٩ وما بعدها) ، (٣٧) (روزا) الروض الانف (١/٦٥) نهاية الارب (١٨/٧٧) ، البلدان (٣/٩١١) ، جمهرة (٣/٣٨) .

٤ المحبر (٣١٦) ، اليعقوبي (١/٢٢٥) .

يحرضه عليه . وعدي بن حاتم يومئذ قد عثر عنده وجلس هو ونفر معه يتحدثون بما صنع مالك . وفزع لذلك عدي بن حاتم وقال ، انظروا ما يصيبه في يومه هذا . فمضت له أيام لم يصبه شيء . فرفض عدي عبادته وعبادة الأصنام وتنصر . فلم يزل متنصراً حتى جاء الله بالاسلام ، فأسلم .

فكان مالك أول من أخفره . فكان بعد ذلك السادن إذا أطرد طريدة ، أخذت منه . فلم يزل الفلس يعبد حتى ظهرت دعوة النبي عليه السلام ، فبعث اليه علي بن أبي طالب ، فهدمه ، وأخذ سيفين كان الحارث بن أبي شمر الغساني ، ملك غسان قلده اياهما ، يقال لهما مخذم ورسوب ، فقدم بهما علي بن أبي طالب على النبي ، فتقلد أحدهما ، ثم دفعه إلى علي بن أبي طالب ، فهو سيفه الذي كان يتقلده »[1] . وجاء في بعض الروايات ذكر ثلاثة سيوف ، هي : مخذم ، ورسوب ، واليماني[2] .

وقد عرف (مالك بن كلثوم بن ربيعة) الشمجي المذكور ، بـ (مخفر الفلس) ، لأنه أخفر ذمته ، وكان لا تخفر ذمته[3] .

و (الفلس) ، هو (هفلس) (ها – فلس) ، عند لحيان . وقد تعبدوا له مع أصنام أخرى ، وردت أسماؤها في نصوصهم[4] .

ويلاحظ أن (ابن الكلبي) الذي يروي هذا الخبر ، كان نفسه قد روى قبل ذلك أن السيفين مخذماً ورسوباً ، كانا على الصنم مناة ، صنم الأوس والخزرج ، وأن الذي أهداهما له هو الحارث بن أبي شمر الغساني ، وأن علي بن أبي طالب لما هدم مناة ، أخذ السيفين معه ، فجاء بهما الى الرسول . فيظهر من ذكره للخبر مع صنمين انه وقع في هفوة أو نسي ، فجعل من القصة الواحدة قصتين .

أصنام أخرى :

وكانت لطيء أصنام أخرى ، منها اليعبوب ، وهو صنم لجديلة طيء ، وكان

---

١ الاصنام (٣٧ وما بعدها) ، (روزا) ، نهاية الارب (١٨/٧٧) ، تاج العروس (٤/٢١٠) ، (الفلس) .

٢ Das Gotzenbuch, S. 140.

٣ الاشتقاق (٢/٢٣٥) .

٤ Jaussen — Savignac, Mission, II, 484, Grohmann, S. 984.

لهم صنم أخذته منه بنو أسد ، فتبدلوا اليعبوب بعده . وقد ورد ذكره في شعر لعبيد :

فتبـــدلوا اليعبوب بعـــد إلههم صنماً، فقروا ، يا جديل ، وأعذبوا

أي : لا تأكلوا على ذلك ، ولا تشربوا [1] .

وأما باجر ، فكان صنماً للأزد ومن جاورهم من طيء وقضاعة [2] .

ولم يذكر ابن الكلبي في كتابه الأصنام اسم الصنم الجلسد . وهو صنم كانت كندة تتعبد له ، وكذلك تعبد له أهل حضرموت . وكان سدنته بنو شكامة من السكون ، وهم من كنـــدة . وكان للصنم حمى ، ترعاه سوامه وغنمه ، فإذا دخلته هوافي الغنم ، حرمت على أربابها ، وصارت ملكاً للصنم [3] .

وقد وصف بأنه كان كجثة الرجل العظيم ، من صخرة بيضاء ، لها كالرأس أسود ، إذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الإنسان . وكانوا يكلمون منه ، وتخرج منه همهمة ، ويقربون القرابين اليه ، ويلطخون بدمه ، ويكترون ثيـاب السدنة يلبسونها حينما يقربون قرباناً اليه ويريدون مكالمته [4] .ويلاحظ أن تغيير الملابس وابدالها للتطهر ، له مثيل عند العبرانيين [5] .

المحرق :

وكان المحرق (محرق) صنماً لبكر بن وائل وبقية ربيعـة في موضع سلمان . وأما سدنته ، فكانوا أولاد الأسود العجلي . وقد نسب اليـه بعض الرجال فورد

---

١ الاصنام (٣٩) (روزا) ، (٦٣) (أحمد زكي باشا) ، المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، الجزء الاول (ص ٥) .
٢ الاصنام (٦٣) (٣٩) (روزا) .
٣ البلدان (١٢٢/٣) . قال المثقب العبدي ، وقيل عدي بن وداع :
فبـــات يجتـــاب شقارى كما يبقـــر مـــن يمشي الى الجلســـد
تاج العروس (٣٢٤/٢) ، (جلسد) .
٤ البلدان (١٢٢/٣ وما بعدها) .
٥ التكوين ، الاصحاح الخامس والثلاثون ، الآية ٢ .

(عبد محرق)[1] . ويظن بعض المستشرقين انه عرف بـ(محرق) لأن عبدته كانوا يقدمون اليه بعض القرابين البشرية محروقة[2] . وكان بنو بكر بن وائـل وسائر ربيعة ، قد جعلوا في كل حي من ربيعـة له ولداً . (وكان في عنزة بلج بن المحرق . فكان في عميرة وغفيلة عمرو بن المحرق . وكان سدنتـه آل الأسود العجليون)[3] .

الشمس :

والشمس صنم كان لبني تميم ، وله بيت . وكانت تعبده بنو أد كلها : ضبة، وتميم ، وعدي ، وعكل ، وثور . وأما سدنته ، فكانوا من بني أوس بن مخاشن ابن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تمـيم . فكسره هند بن أبي هالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن[4] . وقد قيل لها : الإلاهة[5] . وذكر (اليعقوبي) ان قوماً من (عذرة) تعبدوا لصنم يقال له : شمس[6] .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار ، ان الشمس صنم قديم . وأول من تسمى بـه سبأ بن يشجب[7] . وذكر (اليعقوبي) ، انه صنم قوم من عذرة[8] .

وقد وردت جملة أسماء منسوبة إلى الشمس ، عرف أصحابها بعبـد شمس ، منهم من قبائل أخرى من غير تميم . ويدل ذلك على ان عبادتها كانت معروفة في مواضع مختلفة من جزيرة العرب . وعرف بعض الأشخاص بـ (عمرو شمس) عند العرب الشماليين[9] .

---

١ الاصنام (١١١) (تكملة الاصنام) البلدان (٣٩٣/٧) (المحرق) ، تاج العروس (٣١٣/٦) ، (حرق) .

٢ Reste, S. 57, Ency. Religl., I, p. 660.

٣ المحبر (٣١٧) .

٤ المحبر (٣١٦) ، البلدان (٢٩٣/٦) (شمس) .

٥ شمس العلوم (حـ ١ ق ١ ص ٩٣) .

٦ اليعقوبي (٢٢٥/١) .

٧ تاج العروس (١٧٢/٤) ، (شمس) .

٨ اليعقوبي (٢٢٥/١) .

٩ Ency. Religl., I, 660.

وفي جملة أصنام تميم الأخرى ، الصنم تيم ، وبه سمي رجـال من تميم ومن غيرهم ، مثل (عبدتيم) و (تيم الله)[1] .

وهناك أسماء أصنام أخرى لم ترد في كتاب الأصنام ، إنمـا وردت في كتب أخرى . وقد ذكرها (ابن الكلبي) نفسه في بعض مؤلفاته . ومن هذه الأصنام: الأسحم ، والأشهل ، وأوال ، والبجة ، وبلج ، والجبهة ، وجريش ، وجهار ، والدار ، وذو الرجل ، والشارق ، وصدا ، وصمودا ، والضمار ، والضيزن ، والعبعب ، وعوض ، وعوف ، وكثرى ، والكسعة ، والمـدان ، ومرحب ، ومنهب ، والهبا ، وذات الودع ، وياليل[2] ، وذريح[3] ، وباجر ، والجـد ، وحلال ، والحمام ، وذو اللبا ، والسعيدة ، وغنم ، وفراض ، وقزح ، وقيس ، والمنطبق ، ونهيك[4] .

أما أوال ، فإنه ايال ، وهو صنم بكر وتغلب[5] .

وأما جهار ، فقد كان من أصنام هوازن ، وموضعه بعكـاظ ، وسدنته آل عوف النصريون ، ومعهم محارب فيه . وكان في أسفل أفطح[6] . وكانت تلبيـة من نسك لجهار : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، اجعل ذنوبنا جبار ، وأهدنا لأوضح المنار . ومتعنا وملنا بجهار »[7] .

وأما الدار ، فصنم سمي به عبد الدار بن قصي بن كلاب[8] .

وأما الدوار ، فصنم كانت العرب تنصبه ، يجعلون موضعاً حوله ، يدورون به ، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار ، ومنه قول امرىء القيس :

فعنّ لنا سرب كأن نعاجه   عذارى دوار في ملاءٍ مذيل[9]

وقد ذكر (ابن الكلبي) ان العرب تسمي الطواف حول الأصنـام والأوثان

---

١ الاغاني (١٦٨/١٨) ، كتاب المعمرين (٣١) ،
٢ الاصنام (١٠٧ وما بعدها) (تكملة) .
٣ المحبر (٣١٤ ، ٣١٨) .
٤ Reste, S. 64.
٥ الاصنام (١٠٧) .
٦ المحبر (٣١٥) .
٧ المحبر (٣١٢) .
٨ الاصنام (١٠٨) ، تاج العروس (٢١٦/٣) ، الاشتقاق (٥٦ ، ٩٧) .
٩ اللسان (٣٨٤/٥) .

الدوار[1] . وعرف بعض أهل الأخبار الدّوار بأنه (نسك للجاهلية يدورون فيه لصنم أو غيره)[2] .

ويظهر من دراسة ما ورد في كتب أهل الأخبار وفي كتب اللغة عن (الدوار) ان الدوار لم يكن صنماً ، وانما هو طواف حول صنم من الأصنام ، أي عبادة من العبادات لا تختص بصنم معين . وقد كان من عادة الجاهليين الطواف حول الأصنام . فظن بعض أهل الأخبار ان الدوار صنم معين ، أو انه صنم ينصب ، فيدور الناس حوله .

وأما ذو الرجل ، فهو صنم من أصنام أهل الحجاز[3] . ويظهر ان هذا الصنم، وكذلك الصنم (ذو الكفين) ، هما من الأصنام التي تغلبت صفاتها على أسمائها، فنعتت بهذه النعوت ، كأن تكون لرجل أحد الصنمين ، ولكفى الصنم الآخر ميزة خاصة وعلامة فارقة مثل كسر أو دقة صنعة ، جعلت الناس يدعون الصنمين بالنعتين البارزين . ويرى (نولدكه) احتمال كون هذين الصنمين حجرين في الأصل من الأحجار المقدسة Fetish التي كان يعبدها الناس في القديم ، ثم تحولت إلى صنمين بعد ان رسمت عليها بعض التصاوير صيرتهما على شكل انسانين[4] .

وسمي بالصنم (الشارق) جملة رجال عرفوا بعبد الشارق[5] . ولكلمة الشارق علاقة بالشروق . وقد ذهب (ولهوزن) إلى ان المراد به الشمس لشروقها[6] . و (الشريق)اسم صنم أيضاً[7] . وعندي ان الشارق وشريقاً نعتان للآلهة ، وليسا اسمين لصنمين ، وانهما في معنى (شرقن) الواردة في نصوص المسند ، وتعني (الشارق) ، أي اللفظة المذكورة تماماً . وقد وردت نعتاً في نصوص عربية جنوبية كثيرة ، مثل جملة : (عثتر شرقن) ، أي (عثتر الشارق) . فالشارق إذن نعت من نعوت الآلهة ، أو اسم من أسماء الله الحسنى ، بالتعبير

---

١ الاصنام (٢١) (روزا) .
٢ تركت الطير عاكفة عليه كما عكف النساء على دوار
شرح ديوان لبيد (ص ٤٤) ، المعاني الكبير (١/١٠٥) .
٣ الاصنام (١٠٩) .
٤ Ency. Religl., I, 663.
٥ الاصنام (١٠٩) ، تاج العروس (٦/٣٩٢) ، القاموس (٣/٢٤٨) .
٦ Reste, S. 65.
٧ اللسان (١١/٤٦) .

الإسلامي . وقد يقابل لفظة (نور) الذي هو نعت من نعوت الله في الإسلام، كما ورد في القرآن الكريم : « الله نور السماوات والأرض »[1] .

وأما صدا وصمودا والهبا ، فإنها من أصنام قوم عاد على رواية الأخباريين[2] .

وأما الضمار ، فكان صنماً عبده العباس بن مرداس السلمي[3] ، وبنو سليم[4] . ولما حضرت مرداس الوفاة ، أوصى به الى ابنه العباس ، وطلب منه العناية به، لأنه يضر وينفع . فلما ظهر الإسلام ، أحرق العباس ضماراً ، وأتى النبي فأسلم[5].

والعبعب ، هو صنم كان لقضاعة ومن داناهم . وقد يقال بالغين المعجمة ، فيخلط بينه وبين الغبغب[6] . ورأيي أن الكلمتين أصلها كلمة واحدة ، حرفها النساخ فصارت كلمتين .

وأما (عوض) فهو صنم كان من أصنام بكر بل وائل . وقد ذكر مع الصنم سعير في بيت شعر نسب الى الأعشى ، أو الى رشيد بن رميض العزى[7] .

وكان (جد) (الجد) صنماً معروفاً عند عدد من الشعوب السامية ، وليس من المستبعد أن يكون لاسم القبيلة الإسرائيلية (جد) (جاد) علاقة باسم هذا الصنم[8] . وقد ورد في النبطية (جدا) . وورد في الأسماء العربية (عبد جد)

---

١ سورة النور ، السورة رقم ٢٤ ، الاية ٣٥ .

٢ الاصنام (١١٠) ، (وصمود كزبور : اسم صنم كان لعاد يعبدونه . قال يزيد بن سعد ، وكان آمن بهود عليه السلام :

عصمت عاد رسولهم فأمسوا عطاشا لا تمسهم السماء
لهم صنم يقال له صمود يقابله صداء والهباء
وان اله هود هو الهي على الله التوكل والرجاء

وهو مذكور في كتب السير ، تاج العروس (٢/٤٠٢) .

٣ الاصنام (١١٠) ، (وضمار : صنم عبده العباس بن مرداس ورهطه) ، تاج العروس (٣/٣٥٣) ، (ضمر) ، الروض الانف (٢/٢٨٣) .

٤ البكري (٨٨١) (ضمار) .

٥ البلدان (٥/٤٤٠) ، ابن هشام (٨٣٢) ، (ضماد) الاغاني (١٣/٦٢) ، (أخبار العباس بن مرداس) .

٦ الاصنام (١١٠) ، تاج العروس (١/٣٦٣) ، اللسان (٢/٦٤) ، (عب) .

٧ الاصنام (١١٠) (وبه فسر ابن الكلبي قول الاعشى :

حلفت بمائرات حول عوض وأنصاب تركن لدى السعير

قال : والسعير : اسم صنم كان لعنزة خاصة ، كما في الصحا) ، قال الصاغاني : ليس البيت للاعشى ، وانما هو لرشيد بن رميض العنزي) ، تاج العروس (٥/٥)، اللسان (٩/٥٦) ، Reste, S. 66.

٨ Robertson Smith, Marr., p. 43, Kinship, p. 261, Nöldeke in ZDMG., XXXI, 86, CIS, IV. p. 20, Ency. Religi., I, p. 661.

و (عبد الجد)[1] .

و (كثرى) من الأصنام المنسوبة الى طسم وجديس ، ظل باقياً معروفاً الى أيام الرسول ، فكسره نهشل بن عرعرة ولحق بالنبي[2] . وقد ورد بين أسماء الجاهليين من دعي بـ (عبد كثرى) . ويرى (نولدكه) في عدم ورود أداة التعريف (ال) مع (كثرى) في (عبد كثرى) ، دلالة على أن هذا الصنم هو من الأصنام القديمة . ويرى أيضاً ان كلمة (كثرى) هي مجرد لقب من ألقاب (العزى) ، نسي فظن أنه اسم صنم مستقل[3] .

وأما المدّان ، فصنم يظهر انه كان من أصنام أهل الحجاز . وقد سمي به جملة رجال عرفوا بـ (عبد المدان) ، وكان له بيت[4] .

وأما (مرحب) ، فصنم من أصنام حضرموت ، وبه سمي (ذو مرحب) سادن هذا الصنم[5] . وكانت تلبية من نسك له : « لبيك . لبيك ، اننا لديك . لبيك ، حببنا اليك »[6] .

وللأخباريين جملة آراء في معنى ذات الودع ، وهي أنثى . وقد ورد اسمها في الشعر ، وكانت العرب تقسم بها . قيل انها وثن بعينه ، وقيل هي مكة لأنه كان يعلق الودع في ستورها ، وقيل سفينة نوح ، كانت العرب تقسم بها ، فتقول بذات الودع ، قال عدي بن زيد العبادي :

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت   فيكم وقابل قبر الماجد الزارا[7]

---

١ Ency. Religi., I, p. 662.

٢ الاصنام (١١٠) ، (وكثري كسكرى : صنم كان لجديس وطسم ، كسره نهشل بن الربيس بن عرعرة ولحق بالنبي ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكتب له كتابا . قال عمرو بن صخرة بن أشنع :

حلفت بكثرى حلفة غير برة   لتستلبن أثواب قيس بن عازب

تاج العروس (٥١٣/٣) .

٣ الاشتقاق (٢٣٥) ، Reste, S. 67, Ency. Religi., I, p. 660.

٤ الاصنام (١١١) ، تاج العروس (٣٤٢/٩ وما بعدها) ، اللسان (٢٨٩/١٧) ، الاشتقاق (٢٣٧/٢) .

٥ الاصنام (١١١) ، تاج العروس (٢٦٩/١) ، (رحب) ، المحبر (٣١٨) .

٦ المحبر (٣١٤) .

٧ الاصنام (١١١) ، اللسان (٢٦٧/١٠) (ودع) ، تاج العروس (٥٣٥/٥) .

ويااليل ، اسم صنم كذلك ، أضيف اليه فقيل (عبد ياليل) ، كما قيل (عبد يغوث) و (عبد مناة) و (عبد ودّ)[1] .

وأما (ذريح) (ذرح) ، فكان لكندة بالنجير من اليمن ناحية حضرموت. يظهر أنها كانت تحج اليه ، وأن له بيتاً يقصد ، بدليل ورود تلبية من نسك اليه ، وهي : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كلنا كنود ، وكلنا لنعمة جحود . فاكفنا كل حية رصود » . ويظن (ولهوزن) أنه يمثل الشمس . (وذرح) اسم من الأسماء ، ويرد في الأعلام العربية الجنوبية المركبة ، مثل (ذرح ايل) .

وذهب (نولدكه) إلى ان (ذرح) هو مثل الشارق و (محرق) صنم يمثل الشمس. والظاهر ان عبادة هذا الصنم لم تكن منتشرة خارج حدود العربية الجنوبية[2] .

وأما باجر ، فإنه من أصنام الأزد ومن داناهم من طيء. وقد سمي به رجال عرفوا بـ (عبد باجر)[3] .

وحلال ، هو صنم فزارة . أما الحمام ، فإنه صنم بنو هند من بني عذرة .

وكان في المشقر صنم لبني عبد القيس يسمى ذا اللبا ، سدنته بنو عمرو[4] . وكانت تلبية من نسك له : « لبيك اللهم لبيك . لبيك،رب فاصرفن عنا مضر. وسلمن لنا هذا السفر . ان عما فيهم لمزدجر . واكفنا اللهم أرباب حجر »[5] .

وكان المنطبق صنماً ، للسلف وعك والأشعريين ، وهو من نحاس ، يكلمون من جوفه كلاماً لم يسمع بمثله . فلما كسرت الأصنام ، وجدوا فيه سيفاً،فاصطفاه الرسول . وسمّاه (مخدماً)[6] . وذكر (ابن حبيب) ان تلبية من نسك لمنطبق: « لبيك اللهم لبيك ، لبيك » . ويلاحظ ان الأخباريين ذكروا ان السيف (مخدم) (مخذم) كان سيفاً على الصنم مناة أو (الفلس) صنم طيء ، كما ذكروا ان السيف (رسوب) كان على الصنم (مناة) ، أو الفلس كذلك .

وأما الصنم نهيك ، فقد كان من الأصنام الموضوعة في مكة . وذكر (الأزرقي) ان عمرو بن لحي نصب هذا الصنم عند الصفا ، وابه كان يعرف بـ (مجاود

---

١ الاصنام (١١١) .
٢ Reste, S. 65, Ency. Religi., I, p. 660.
٣ Reste, S. 64.
٤ Reste, S. 65.
٥ المحبر (٣١٤) .
٦ البلدان (١٧٩/٨) (المنطبق) المحبر (٣١٨) .

الريح) (مجاور الريح) ، وانه نصب الصنم : مطعم الطير عند المروة[1]، فكان الناس في موسم الحج يحجون إلى الصنمين .

ولعل هذين الصنمين كانا من الأصنام التي خصصت بالسماء،وان الناس كانوا يضعون الحبوب عندهما لتأكلها الطيور . ولذلك قيل لنهيك (مجاود الريح) ، ولصنم المروة (مطعم الطير) .

وغنم ، ذكر أنه كان في جملة الأصنام الموضوعة بمكة . وقد ورد اسم رجال، واسم أسر[2] .

وفراض ، صنم كان بأرض سعد العشيرة[3] . وقد حطمه رجل منهم اسمه (ذُباب) ، وهو من (بني أنس الله بن سعد العشيرة) . حطمه ، ثم وفد الى النبي فأسلم ، وقال شعراً في ذلك ، أشار فيه الى هدمه ذلك الصنم[4] . وكانوا يذبحون له ويلطخونه بالدم[5] .

أما قزح (قزاح) ، فالظاهر أنه صنم ، كان الناس يتصورون أنه يبعث الرعد والعواصف . وقد نسي على ما يظن . ولا بد أن يكون لقوس قزح علاقة ما بهذا الصنم القديم . وقد يكون لاسم قزح ، وهو من مواضع الحرم بمكة ، علاقة باسم هذا الوثن العتيق . وقد تعبد بنو أدوم لصنم اسمه (قزح) Koze مما يدل على أنه هو الصنم العربي الذي نتحدث عنه . والظاهر أنه كان من الأصنام القديمة المعروفة ؛ غير أنه فقد منزلته وقلّت أهميته ، فلم يكن من الأصنام الكبرى عند ظهور الإسلام[6] . ويخالف (نولدكه) رأي بعض المستشرقين الذين ذهبوا الى أن المراد بقزح الشيطان ، لا صنم من الأصنام[7] .

و (قيس) اسم صنم قديم . نسيت عبادته ، وصار اسم أشخاص . ودليل كونه صنم قديم وروده في الأعلام المركبة ، مثل (عبد القيس) ، فإن في هذه

---

١ المحبر (٣١٣) ، الازرقي (١/٧٣) .
٢ ابن هشام (١٤٥) ، (بنو غنم) ، المحبر (٢٨٨) ،
٣ في نهاية الارب (فراص) ، نهاية الارب (١٨/١٨) ،
٤ تبعت رسول الله اذ جاء بالهدى | وخلفت فراضا بدار هوان
شددت عليه وشدة فتركته | كأن لم يكن والدهر ذو حدثان
نهاية الارب (١٨/١٨) .
٥ نهاية الارب (١٨/١٥١) .
٦ Josephus, Antiq., XV, 253.
٧ Ency. Religl., I, p. 661.

التسمية دلالة على أن قيساً اسم إلـه . ولقيس علاقة بـ (قوس) Quas ، وهو إلـه من آلهة أدوم[1] .

وقد ورد اسم (قيس) (قس) و (قوس) في الكتابات . وهما اسم إلـه واحد . عثر على معبد له في مدائن صالح[2] .

وأما (عوف) ، فقد استدل من التسمية بـ (عبد عوف) على انـه اسم صنم ، غير اننا لا نعرف من أمر عبادته شيئاً ، فلعلـه من الأصنام التي ذهب ذكرها قبل الاسلام بزمن طويل . وقد ذكر أهل الأخبار انه (صنم) ، ولم يذكروا اسم عبدته[3] .

وذكر (اليعقوبي) ان للأزد صنم ، يقال له (رئام)[4] .

والسعيدة ، صنم أنثى وعلامة تأنيثه وجود تاء التأنيث بآخـره . وكان لسعد هذيم وسائر قضاعة إلا (بني وبرة) ، وعبدته الأزد أيضاً .وكان سدنته (بنو عجلان) وموضعه بأحد[5] « وورود ان (السعيدة) بيت كان يحجه ربيعة في الجاهلية »[6] .

وورد في جملة أسماء أهل الجاهلية اسم (سعد العشيرة) . وقد ذهب أهـل الأخبار إلى ان (مذحجاً) كان يعرف بذلك الاسم[7] . و (العشيرة) اسم صنم من الأصنام القديمة ، وله علاقة بعبادة الساميين . فقد كان الكنعانيون يضعون وثناً في محلات العبادة يسمونه (العشيرة) ، كما كانوا يتعبدون له لأنه من آلهتهم القديمة. وهو إلهة ، أي أنثى عند الكنعانيين . ويظهر ان (العشيرة) من الآلهة السامية القديمة التي كانت تعبد بصورة خاصة عند الساميين الغربيين،كما عبر بلفظة (العشيرة) عن (المذبح) (المزبح)[8] . واسم (عبد عشيرة) مرتبط بالطبع باسم هذا الإلـه .

---

١ Reste, S. 67.

٢ « بت قسو » ، « بيت قيسو » ،
Reste, 67, Ryckmans 18, Grohmann, S. 85, Jaussen — Savignac, Mission, II, 501, 520, 528, I, 169, 200, CIS, II, 209, Doughty, Documents Epigraphiques, 38, CIS, II, 198, J. Euting, Tagebuch, II, 262.

٣ تاج العروس (٦/٢٠٦) ، (عوف) .

٤ اليعقوبي (١/٢٢٥) .

٥ المحبر (٣١٦ وما بعدها) .

٦ اللسان (٣/٢١٥) (صادرة) ، تاج العروس (٢/٣٧٨) (سعد) .

٧ الاشتقاق (٢/٢٣٧) .

٨ Encyclopaedia Biblica, By Cheyne, Vol. I, 3330.

ومن دلائل عبادة (الأشهل) ، وورود الأشهل في الأعلام المركبة ، مثل (عبد الأشهل) . وقد ذكر (ابن دريد) ان الأشهل صنم[1] .

وأشار (محمد بن حبيب) إلى صنم قال له : (زائدة) ، لم يذكر من كان يتعبد له[2] .

وذكر علماء اللغة اسم صنم قالوا له : (الضيزن) . وقال بعضهم : « والضيزنان صنمان للمنذر الأكبر ، كان اتخذهما بباب الحيرة ليسجد لهما من دخل الحيرة امتحاناً للطاعة »[3] .

وأدخل بعض علماء اللغة (الغري) في عداد الأصنام . فقال : « والغريّ : صنم كان طلي بدم » . وذكر بعض آخر أن الغري : نصب كان يذبح عليه النسك . وذكروا أن الغريين بناءان طويلان ، يقال هما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش ، وسمّيا الغريين لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله في يوم بؤسه[4] .

ومن الأصنام صنم اسمه (عير) ، قيل إنه كان لعبد عمرو المعروف بـ (بكر ابن جبلة الكلبي) ، كان قومه يعظمونه[5] . وصنم اسمه (جريش) ، اليه نسب : (عبد جريش)[6] .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (كعباً) و (كعيباً) المذكورين في قصة (القليس) التي أقامها (أبرهة) بصنعاء ، هما صنمان[7] .

---

١ الاشتقاق (٢٦٣) ، تاج العروس (٤٠٢/٧) ، (شهل) .
٢ الاشتقاق (ص ١٣) .
٣ اللسان (٢٥٤/١٣) ، (ضزن) ، ناج العروس (٢٦٤/٩) ، (ضزن) .
٤ اللسان (١٢٢/١٥) ، (غرا) ، تاج العروس (٢٦٤/١٠) ، الجوهري ، تاج اللغة (٥٢٦/٢) .
٥ الاصابة (١٦٦/١) .
٦ تاج العروس (٢٨٨/٤) ، (جرش) .
٧ البداية ، لابن كثير (١٧٠/٢ وما بعدها) .

الفصل السبعون

أصنام الكتابات

أقصد بـ (أصنام الكتابات) الأصنام التي عرفنا خبرها وأمرها من الكتابات الجاهلية ومن الكتابات الآشورية ومن كتب الكتبة (الكلاسيكيين) ، وذلك تمييزاً لها عن الأصنام التي أخذنا علمنا بها من روايات الأخباريين في الغالب .

وقد سبق لنا أن وقفنا على أسماء بعض آلهة الأعراب ، وذلك أثناء حديثنا عن الآشوريين والعرب . وقد ذكرت تلك الأسماء في الكتابات الآشورية لمناسبة سقوط أصنامها أسيرة في أيدي الآشوريين . وكان الأعراب الذين حاربوا الآشوريين قد حملوها معهم ، اما تبركاً وتيمناً بها ، وتفاؤلاً من وجودها معها بالنصر والغنائم ، واما لأنها كانت معهم في خيمتها المتخذة معبداً لها فسقطت في أيدي الآشوريين باكتساح الآشوريين لمنازل أولئك الأعراب . فأخذها الآشوريون معهم ، وحملوها الى عاصمتهم أسيرة كما بؤسر البشر ، وسجنوها عندهم ، إذلالاً لعبادها وإهانة لهم ، وازدراء بشأن تلك الآلهة المغلوبة السيئة الحظ التي لم تتمكن من مساعدة عبادها في القتال والتي لم تتمكن حتى من تخليص نفسها من الأسر ، فوقعت هي نفسها أسيرة ذليلة في أيدي عبدة آلهة أخرى . وبقيت في أسرها هذا ، حتى وجد الأعراب الا مناص لهم من استردادها من الآشوريين إلا باسترضائهم وبإعلان خضوعهم لهم . فذهبوا الى نينوى ، وقدموا طاعتهم لملك آشور ، وأمر عندئذ بإعادة أصنامهم اليهم ، وكتب الآشوريون فوقها كتابة تشير الى سقوطها في أسرهم ، والى تغلب آلهة الآشوريين على آلهة الأعراب،وتفوق إله آشور على

تلك الأصنام ، وبعد أن نقش عليها اسم الملك . ثم أعيدت وهي على هذه الصورة اليهم[1] .

ومن هذه الأصنام دلبت (دلبات) Dilbat[2] ، و (عتر سماين) (عشتر السماء) Atarsamain (A-tar-sa-ma-a-in) و (عتر قرمية) (عتر قرمي) (Atar Kurumiaa) ، و (ديه) (دايا) (Diya) = (Dija) ، و (نوهيا) (نخيا) (نهيا) (نهى) (Nuhaia) ، و (ابريلو) (Ebirillu) . وهي الأصنام التي كتب عليها أن تسجن فأعيدت الى أصحابها ، ووضعت في أماكنها وسر أتباعها ولا شك بهذه العودة[3] .

وقد حرفت أسماء هذه الأصنام، حتى صار من الصعب علينا تشخيصها . ولعل اسم الصنم (دلبت) هو تحريف(ذات بعل) ، أي (الشمس) . والشمس إلهة عند العرب ، تعبدت لها قبائل عديدة ، كما تكلمت عنها في موضع آخر ، وقد عرفت به الإلهة عندها . وأما (عتر سمين) ، فهو (عشتر السماء) ، و (عشتر) من الآلهة المعبودة عند العرب ، وقد ورد اسمه في نصوص المسند . ويرى بعض الباحثين انه إلهة ، أي أنثى[4] . ويرمز إلى (الزهرة) في رأي غالب العلماء[5] . وقد أشير في النصوص القتبانية إلى قبيلة عرفت بـ (عتر سمين) ، أي باسم هذا الصنم[6] ، لعلها من عبدته ، فنسبوا اليه .

وأما (نوهيا) (نخيا) (نهى) (نهيا) ، فهو الإله (نهى) . وقد ورد في الكتابات الثمودية ، اسم صنم بهذا الاسم[7] . فلعل له صلة بالصنم المذكور .

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٢/٣٢٠) ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٥٩١) ، (١/٦٠٠) ، Pritchard, p. 291.

٢ Reallexi., I, S. 125, Winckler, AOF., I, S. 526, Schell, Le Prisme D'Assaraddon, (1914), p .18, British Museum Tablets, K3087, Smith, History of Sennacherib, (1878), p. 138.

٣ Pritchard, p. 291, D.J. Wixman, The Vassal-Treaties of Esarhaddon, p. 4.

٤ Schrader, KAT., S. 434.

٥ Handbuch, I, S. 228.

٦ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٢/٣٣٢) .

٧ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٥/١٥١) .

وحدثنا (هيرودوتس) — في أثناء كلامه على حملة (قمبيز) على مصر — عن إلهين من آلهة العرب ، هما : (باخوس) Bacchus و (اورانيا) (Urania) . وذكر ان العرب تسمي (باغوس) (اوراتل) Oratal ، وتسمي (اورانيا) (أليلات) Alilat [1] . و (اليلات) ، هو الصنم (اللات) ، الذي يرمز إلى (الشمس) ، فهو إلهة ، أي أنثى . ويقابل (اثينة) Athene التي ظهرت عبادتها متأخرة بعض التأخر بالنسبة إلى الآلهة الأخرى[2] . و (اللات) من الأصنام العربية المعروفة التي ذكرت في القــرآن ، وفي النصوص النبطية والصفوية ، كما سأتحدث عن ذلك في المواضع المناسبة . وأما Oratal ، فهو تحريف على ما يظهر لاسم صنم من الأصنام العربية ، صار من الصعب ارجاعه إلى صنم من الأصنام التي نعرفها الآن[3] .

وقد حفظت النصوص الجاهلية أسماء عدد لا بأس به من الأصنام، كان الناس يقضون الليالي سهراً في عبادتها والتودد اليها ، لتنفعهم ولتدفع الأذى وكل سوء عنهم ، وكانوا يتقربون اليها بالنذور والقرابين . ثم ذهب الناس وذهبت آلهتهم معهم ، وبقيت أسماء بعض منها مكتوبة في هذه النصوص ، وبفضل هذه الكتابات عرفنا أسماءها ، ولولاها لكانت أسماؤها في عداد المنسيات ، كأسماء الآلهــة التي نسيت لعدم ورود أسمائها في النصوص .

وبين هذه الأسماء أسماء يجب اعتبارها من (الأسماء الحسنى) ، أي (أسماء الله الحسنى) في المصطلح الاسلامي لأنها نعوت وصفات للآلهة، التصقت بها حتى صارت في منزلة الأسماء العلمية . وهي تفيد المؤرخ كثيراً ، إذ انها تعينه في فهم طبيعة تلك الآلهة ، وفي فهم رأي المؤمنين بها ، في ذلك الوقت .

وفي طليعة أسماء الآلهة المدونة في نصوص المسند ، اسم الإلـه (ود) ، إلـه معين الكبير ، وإلـه قبائل عربية أخرى ، منها (ثمود) ، حيث ورد اسمه في كتاباتهم ، و (لحيان) ، حيث ذكر في كتاباتهم أيضاً . كما كان من الأصنام الكبرى في الحجاز عند ظهور الاسلام . وقد ذكر في القرآن الكريم مع أسمــاء

---

١ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٢/٣٤٣) و Herodotus, I, p. 213.

٢ Ency. Religl., I, p. 661.

٣ المصدر نفسه .

أصنام أخرى عبدت في عهد نوح[١] . وقد ظن بعض المستشرقين ان هذا الصنم لم يكن معبوداً في الجاهلية القريبة من الاسلام وعند ظهور الاسلام ، وهو رأي غير صحيح ، إذ ورد ذكره في شعر للنابغة ، وكان له معبد في دومة الجندل ، وسدنة وأتباع . ولدينا أسماء جملة رجال جاهليين عرفوا بـ (عبد ود) . وقد ذكر ان قريشاً كانت تتعبد لصنم اسمه ود ، ويقولون له أدّ أيضاً[٢] .

ونعت (ود) بالإلـه (الهن) (الهن) في بعض الكتابات، جاء في أحد النصوص (ودم الهن) ، أي (ود الإلـه) . و (كهلن) ، أي (الكاهل) بمعنى القدير والمقتدر[٣] . وهما من صفات هذا الإلـه التي كان يراها المعينيون فيه.

ويرمز (ود) إلى القمر ، عند المعينيين ، وهو الإلـه الرئيس عندهم . وقد وردت لفظة (شهرن) ، أي (الشهر) بعد كلمة (ود) في بعض الكتابات . فورد : (ودم شهرن) ، أي (ود الشهر) . وتعني لفظة (شهر) القمر في عربية القرآن الكريم[٤] . و (ود) ، هو الإلـه (القمر) عند بقية العرب الجنوبيين . ومتى ورد اسمه في نص ، قصد به القمر .

وقد نعت (ود) بـ (الأب) ، تعبيراً عن عطفه على المتعبدين له وعن رحمته بهم . فورد في النصوص المعينية : (ودم ابم) ، و (ابم ودم) أي(ود أب) ، و (أب ود) ، فهو بمثابة الأب للانسان . والأب من كان سبباً في ايجاد شيء أو اصلاحه أو ظهوره . وقد عثر على أخشاب وأحجار حفرت عليها أسماء ود أو جمل (ودم ابم) أو (ابم ودم) ، وذلك فوق أبواب المباني ، لتكون في حمايته ورعايته ، وللتبرك باسمه وللتيمن به ، كما وجدت كلمة (ود) محفورة على أشياء ذات ثقوب ، تعلق على عنق الأطفال لتكون تميمة وتعويذة يتبرك بها[٥] . فعلوا ذلك كما يفعل الناس في الزمن الحاضر في التبرك بأسماء الآلهة والتيمن بها لمنحها الحب والبركة والخيرات .

ويظن ان لفظة (ود) ، ليست اسم علم للقمر ، بل هي صفة من صفاته، تعبر عن الود والمودة . فهي من الأسماء الحسنى للقمر اذن .

---

١ سورة نوح ، الآية ٢٣ .

٢ البلدان (٨/٤٠٧) ، (ود) .

٣ Hommel, Grundriss, I, S. 136, Glaser 284, Halevy 237, Chrestom., 91, 97.

٤ Glaser 324, 504, Handbuch, I, S. 37.

٥ Halevy 534, 535, 583, 586, 587, 591, 685, Glaser 80, 84.

وقد ورد اسم (ودّ) في كتابة ثمودية دوّنها أحد المؤمنين الفانين في حب (ودّ) ، جاء فيها : « أموت على دين ودّ » ، « بدين ودّ أمت » ، وجاء في كتابة أخرى : « يا إلهي احفظ لي ديني ، يا ودّ أيده »[1] .

وورد اسم (ودّ) في النصوص اللحيانية[2] . فتكون عبادة هذا الإلـه قد انتشرت في العربية الغربية من أعالي الحجاز الى العربية الجنوبية . وذلك منذ ما قبل الميلاد الى ظهور الإسلام .

وقد اقترن اسم (ود) مع (ال) (ايل) في بعض الكتابات العربية الجنوبية . و (ايـل) هو الإلـه السامي القـديم . ولعلّ في (ود ال) (ودّ ايل) معنى (حب ايل) ، فتكون (ودّ) هنا صفة من صفات الإلـه . وامـا (ايل) ، فإنها قد تعني ما تعنيه كلمة (إلـه) في عربيتنا ، وقد تعني إلهاً خاصاً في الأصل هو إلـه الساميين المشترك القديم[3] .

وقد وردت في نص قتباني جملة : (بت ودم) أي (بيت ود)[4] . ومعناها معبد خصص بعبادة الإلـه (ودّ) . ولا بد أن تكون هناك جملة معابد خصصت بعبادة هذا الإلـه .

ويرى بعض المستشرقين استناداً الى معنى كلمة (ودّ) أن هـذا الصنم يرمز الى الودّ ، أي الحبّ وانه صنو للإلهين (جيل) Gil و (بحد) Pahad عند الساميين . ويستندون في رأيهم هذا الى بيت للنابغة هو :

حياك ودّ وأنى لا يحل له لهو النساء وان الدين قد عزما[5]

---

١ Herbert Grimme, Die Lösung des Sinaischriften, Die Altthamudische Schrift, Münster, 1926, S. 40.

٢ Handbuch, I, S. 616.

٣ Handbuch, I, S. 217, H. Bauer, in ZDMG., Bd., 69, 1915, S. 561.

٤ Hommel, Die Südarabische Alterthumer, S. 2.

٥ البلدان (٨ : ٤٠٨) ، (ود) .

قالت أراك أخـا رحـل وراحلة تغشى متالف لـن ينظرنك الهرمـا
حيـاك ود فانـا لا يحـل لنـا لهـو النساء وان الدين قـد عزمـا
مشمريـن عـلى خوض مزممة نرجو الالـه ونرجو البـر والطعما

شعراء النصرانية (ص ٧٠٥) .

Reste, S. 17, 31, 42, 53, Ency. Religi., VIII, p. 180.

وهناك من يرى وجود صلة بين (ود) و Eros الصنم اليوناني ، ويرى أنه صنم يوناني في الأصل استورد من هناك ، وعبد عند العرب . وهو رأي يعارضه (نولدكه) لعدم وجود تشابه في الهيأة بين الصنمين[1] .

ومن آلهة المعينيين الإلـه : (كهلن) ، أي (الكهل) و (الكاهـل) . وقد ورد اسمه في النصوص التي عثر عليها في الأقسام الشمالية من العربية الغربية كذلك[2] . وهو يرمز مثل (ودّ) الى (القمر) .

وعرف (ود) بـ (نحس طب) (نحسطب) . (ونحس) بمعنى (نحش) ، أي الحيّة ، و (طب) بمعنى طيب ، فيكون المعنى (الحية الطيبة) . والحيّة رمز لود . فيكون المراد من (نحس طب) الإلـه ودّ[3] .

ومن بين أسماء الآلهة التي ورد اسمها في النصوص المعينية،اسم الإلـه (نكرح) . ويرى بعض الباحثين انه إلـه البغض والحرب . وان (نكرح) في معنى (كره) في عربيتنا . وانه (نكرو) أو (مكرو) Makru = Nakru عند البابليين . وهو (العدو) فهو على طرفي نقيض مع الإلـه (ود)[4] . ويرون انه يرمز إلى الشمس ، وانه في منزلة (ذت حمم) (ذات الحميم) عند السبئيين[5] .

وقد وجد من دراسة الكتابات المعينية ان آلهة المعينيين ترد مرتبة عـلى هذه الصورة في بعض الأحيان : (عثتر) يليه (ود) ثم (نكرح) ، وتذكر بعدها جملة (الـالـات معن) ، بمعنى (آلهة معين)[6] .

وهناك آلهة أخرى وردت أسماؤها في كتابات المعينيين ، لا نعرف من أمرها شيئاً يذكر . منها : (بلو) إلـه البلاء والنوازل والموت ، و (حلفن) (حلفان) ، وهو خاص بالقسم ، و (ورفو) ، وهو حارس الحـدود ، و (منضح) (منضحت) (منفحة) ، إلـه الماء والـري والحدود ، و (متبقبط) ، إلـه الحصاد[7] . غير ان من الجائز في رأيي ألا تكون هذه الأسماء أسماء آلهة ، وانما

---

١ Ency. Religi., I, p. 662.

٢ Handbuch, I, S. 215.

٣ Grohmann, Göttersymbole, S. 71.

٤ Ency. Religi., 10, P. 882, Handbuch, I, S. 20, 40.

٥ Handbuch, I, S. 188, Ilmukah, S. 56.

٦ Ilmukah, S. 55, Glaser 1089, 1660, Halevy 208, N. Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 26, Glaser 1144, Halevy 353.

٧ Arabien, S. 246.

هي مجرد مصطلحات يراد بها أمور أخرى .

وتعبد السبئيون للإلـه (المقه) ، إلههم الكبير . ويعد في منزلة (ود) عند المعينين ، ويرمز إلى (القمر) . وهو المقدم عندهم على سائر الآلهة . اليه تقرب (المكربون) والملوك بالأدعية والهدايا ، واليه توسل الشعب في كل ملمة تنزل به . ونجد اسمه مدوناً في كثير من النصوص السبئية . بل تعبّد له أهل الحبشة كذلك، فنجد له معبداً عند (يحا) (يها) . انتقلت عبادته اليهم من السبئيين الذين كان لهم نفوذ سياسي وثقافي على الساحل الافريقي المقابل لليمن ، ويظهر أثر ذلك في الخط الحبشي حتى اليوم .

وليس للعلماء رأي واضح صحيح في معنى (المقه) ، ويرى (ايوالد Ewald) ان الكلمة من أصل (لمق) ، وهي بمعنى (لمع) ، فيكون للاسم — على ذلك — معنى اللمعان[1] ، ويمكن أن تكون كلمة (المقه) اذن ، بمعنى (الثاقب) و (اللامع). وقد كان الجاهليون يقسمون بالنجوم الثاقبة ،أي النجوم التي يتوقد ضياؤها ويتوهج . ورد في القرآن الكـريم : « والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب » . وقال المفسرون : « النجم الثاقب ، يعني يتوقد ضياؤه ويتوهج » . وذكروا ان العرب كانت « تسمي الثريا : النجم . ويقال إن الثاقب : النجم الذي يقال له زحل . والثاقب أيضاً الذي قد ارتفع على النجوم »[2] . وقد ذهب (هومل) إلى ان (المقه) ، انما تعني (سيده)[3] . وذهب بعض الباحثين الى ان اللفظة من (ال) (ايل) ، اسم الإلـه (ايـل) الشهير ، المعروف عند جميع الساميين . ومن (مقهو) بمعنى قوي . فيكـون الاسم (ايل قوى) ، (ال مقهو)[4] .

وتدل روايات الأخباريين عن (المقه) على عدم وقوفهم على حقيقة هـذه التسمية ، فقد حاروا فيها ، واضطربوا في أمرها ، ولم يظهر أحـد من بينهم من عرف حقيقتها . فصيرها بعضهم اسماً من أسماء الملكة (بلقيس) ، وصيرها بعض آخر مصنعة من مصانع الجن التي بنتهـا على عهد (سليمان) ، وجعلهـا

---

١ سورة الطارق ، رقم ٨٦ .
٢ تفسير الطبري (٣٠/ ٩٠ وما بعدها) .
٣ Handbuch, I, S. 40.
٤ Arabien, S. 244.

(الهمداني) الزهرة ؛ « لأن اسم الزهرة في لغة حمير : يلمقه والمق » . ذكروا أن بناء (يلمقه) ظل قائماً باقياً الى أيام غزو الحبشة لليمن ، فهدموه[1] . وإذا صحت رواية الهدم هذه ، فلا يستبعد حينئذ أن يكون ذلك بسبب كونه معبداً وثنياً خصص بعبادة الأوثان،والأحباش نصارى سعوا لطمس الوثنية ونشر النصرانية في البلاد . ولعلّه أراد به معبد (المقه) بمأرب ، فهدمه الحبش للاستفادة من أحجاره لبناء كنيستهم التي بنوها بهذه المدينة . وقد كان ذلك المعبد قد خصص بعبادة (المقه) إلـه سبأ الكبير ، فعرف بـ (المقه) ، و (يلمقه) عند سواد الناس .

وقد حفظت لنا نصوص المسند أسماء جملة معابد خصصت بعبادة المقه، وللتمييز بينها ذكرت أسماء المواضع التي شيدت عليها تلك المعابد . ومن أشهرها معبد (المقه) الكبير بمدينة (مأرب) ، المعروف بمعبد (المقه بعل اوم) (المقه بعل أوام) ، وهو معبد لا تزال آثاره باقية ، زارته ونقبت فيه بعثة (وندل فيلبس) الامريكية الى اليمن[2] . وتعرف بقايا هذا المعبد عند أهل اليمن باسم (حرم بلقيس) و (محرم بلقيس) . فأحل الدهر اسم امرأة محل اسم إلـه قديم كبير .

ووردت في بعض النصوص هذه الجملة : (المقه ثور بعل ...) ، ومعناها : (المقه ثور ربّ)[3] . أي (المقه الثور هو رب ...) كما وردت جمل مثل : (المقه ثهون) ، بمعنى : (المقه المتكلم) . ومثل (المقه ثهون بعل اوم) ، أي (المقه المتكلم ربّ أوم) ،(أوام) . ويظن أن المراد بذلك الكاهن المتكلم باسم الرب (المقه) . فقد كان لبعض المعابد كهنة ، يزعمون أن الآلهة تتكلم فيها ، ويقومون أنفسهم بدور الوساطة والترجمة . فإذا أراد شخص سؤال إلهه عن مشكلة يريد حلاً لها ، أو عن قضية عويصة ، أو عن سرقة وما شاكل ذلك، يذهب الى المعابد المختصة ، التي يزعم أن الآلهة تجيب فيها ، فيتقدم الى الكاهن بنذر وبهدايا مناسبة ، ثم يلقي سؤاله ، فيظهر عندئذ صوت مسموع ، يزعم أنه

---

١ البكري (١٣٩٨) .
D. H. Müller, Burgen, II, S. 972, Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, S. I.
٢ Wendall Phillips, Qataban and Sheba, 1955.
٣ D. Nielsen, Die Altarabische Mondreligion, S. 107.

صوت الإلـه الذي لا يرى،يجيب على السؤال أو على الأسئلة ، بما يناسب السؤال .
وقد كُنّي عن (المقه) بـ (ثور) في بعض الكتابات . ومما يؤيد أن المراد (بثور) هذا الإلـه ، هو صورة رأس الثور في كثير من الكتابات ، وهي ترمز اليه ، كذلك رمز اليه بنسر وبصور الحيات . وهذه الصور من الرموز الدالة على الإلـه القمر عند قدماء الساميين[1] . وقد صور العبرانيون (يهوه) على هيأة عجل[2] . ويلاحظ أن أكثر الأوثان والصور (صلمن) التي كان الناس يقدمونها الى معابد (المقه) وفاء لنذور نذروها لها ، اشتملت على صور ثيران ، ويلاحظ كذلك أن الثيران ، كانت من أكثر الحيوانات التي كان المتعبدون يقدمونها ذبائح لهذا الإلـه . وقد استنتج (دتلف نلسن) من هاتين الملاحظتين ومن تسمي أشخاص وأسر وعشائر وقبائل باسم (ثور) ، أن الثور رمز يراد به هذا الإلـه (المقه)، أي القمر[3] .

وورد في النصوص السبئية اسم إلـه هو (هوبس) (هبس) ، وورد منفرداً ، وورد مع الإلـه (المقه)[4] . وقد قصد به الإلـه القمر . ومعنى (هوبس) على رأي (فرسنل) Fresnel اليابس والجاف ، وهو وصف للقمر[5] . ويعلل ذلك بفعل القمر البارز في احداث الجزر حيث تنسحب المياه من الساحل مسافة الى البحر . وقد أشار (الهمداني) الى أن اسم القمر (هيبس) ، والظاهر ان هذه التسمية للقمر ظلت معروفة في اليمن بعد الإسلام[6] .

ووردت جملة (المقه ذ قبلم) في بعض النصوص ووردت (هوبس) ، و (المقه ذ هوبس)[7] ، بمعنى اليابس . وذكر بعض العلماء ان معنى ذلك (المقه) الذي يؤثر في المد والجزر[8] ، وذلك لما لاحظه المتعبدون له من وجود أثر له في احداث المد والجزر .

---

١ Ilmukah, S. 51.

٢ الملوك الاول ، الاصحاح الثاني عشر ، الآية ٢٨ ، الخروج ، الاصحاح ٣٢ ، الاية٤ .

٣ Ilmukah, S. 52.

٤ Hommel, Grundriss, I, S. 85, Altertumer, 1899, S. 28.

٥ Handbuch, I, S. 40.

٦ Bürgen und Schlosser, II, S. 20-22, Hommel, Sudarabische Altertumer, S. 30.

٧ Rep. Epigr. 4921, 4963.

٨ Arabien, S. 244.

وقد أشير اليه بـ (هلل) بمعنى هلال ، وبـ (ربع) ، أي الربع الأول من الشهر ، وبـ (حول) ، بمعنى تمام الشهر ، أي القمر كاملاً . ومن صفاته (سمع) ، أي سميع[1] .

و (عم) هو إلـه شعب قتبان الرئيس . وقد ورد اسمه مقروناً مع الإلـه (أنبي) في نصوص قتبانية عديدة . وهو يقابل الإلـه ود عند المعينيين ، والإلـه (المقه) عند السبئيين ، والإلـه (سن) (سين) عند أهل حضرموت . فهو الإلـه القمر اذن عند القتبانيين .

وكلمة (عم) من الكلمات السامية القديمة الواسعة الانتشار عند الساميين . وقد ذكرت في نص يقدر انه كتب حوالي سنة (٤٥٠٠) قبل الميلاد ، وهي من كلمات عهد الأمومة ، ثم صارت من المصطلحات الدينية مثل (ال) (ايل) El ، و (بعل) Baal ، و (ادون) Adon ، و (ملك) Malke وما شابهها من أسماء الألوهية : كانت نعتاً في الأصل من جملة النعوت التي كان يطلقها الساميون على آلهتهم ، ثم جعلت علماً لإلـه[2] .

وترد لفظة (أنبي) في الكتابات القتبانية علماً على إلـه ذكر هو القمر . وقد وردت بعد اسمه كلمة (شيمن) ، ومعناها (الحامي) والحافظ ، فورد (انبي شيمن) ، أي (أنبي المحامي) و (أنبي الحافظ) ، والمدافع عن المؤمنين به . فهو اذن في معنى (عم)[3] . ولا بد أن يكون لهذا النعت صفات بصفات هذا الإلـه ، أي انه اسم من أسماء الله الحسنى .

ومن آلهة قتبان التي ذكرت مع (عم) الإلـه (حوكم) و (اثرت) و (نسور) و (ال فخر) . ويرى (هومل) ان الإلـه (اثرت) هو إلهة أنثى . هي في نظره زوج الإلـه (عم)[4] . ويظن ان (اثرت) هي الشمس ، ويظن أيضاً أن هذه الكلمة قريبة في المعنى من كلمة (عشيرة) (عشيرات) العبرانية ، و (عشرتو) الآشورية البابلية ، وأنها تعني في القتبانية الشروق أو الشارقة والشرقة الشديدة .

---

١ REP. EPIGR. 3945, 4067, 4228, 4991, 4992, 4993, CIH 282, Arabie S. 244.

٢ Ency. Religi., I, p. 387, Glaser, Mitteilungen, II, S. 21.

٣ Glaser 1602, SE 84, Ilmukah, S. 56, D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriftten, S. 14.

٤ Südar., S. 22, Glaser 160. « شفتتم لعم وآثرت » .

من (عثر) بمعنى شرق وإشراق ، أضيف الى نهاية الكلمة حرف التأنيث؛ لأن الشمس مؤنثة ، كما فعل في عثتر إذ عد مؤنثاً عند الساميين الشماليين ، فصار (عثترت) (عشترت) (عشتروت) ، أي أنثى . وكما فعل في (كوكب) و (ملك) ، و (ذي الخلصى) ، و (ذي الشرى) ، حيث أضيفت اليها التاء ، فصارت (كوكبت) (كوكبة) ، و (ملكت) (ملكة) ، و (الخلصت) و (شربت)[1] .

ويحتمل على رأي (هومل) ، أن يكون (حوكم) (حوك) إلـه السماء ، ويظهر أنه من الآلهة الخاصة بشعب قتبان[2] . أما (دتلف نلسن) ، فيرى احتمال كون الكلمة من (حكم)[3] .

وقد عبر عن الإلهة (الشمس) بـ (ذت حمم) ، أي (ذات حميم) ، (ذات حمم) ، (ذات الحميم) ، أي ذات الحرارة الشديدة والأشعة المتوهجة التي تشبه الحميم من شدة الحر . وهذا المعنى قريب من (ال حمون) El-Hamon و (بعل حمون) Ba'al Hammon في العبرانيــة ، ويراد بها الشمس . و(حمت) (حمه) Hamma في العبرانية هي الشمس . وورد في بعض النصـوص التدمرية اسم الإلـه (حمن) Hamman ، وورد هذا الاسم في بعض النصوص النبطيـة التي عثر عليها في حوران . وهذا الإلـه هو الشمس . وقد كنّي عنها بالأشعـة الحارة المحرقة التي ترسلها خاصة في أيام الصيف[4] .

وهناك من فسر (ذت حمم) بـ (ذات حمى) (ذات الحمى) ، والحمى الموضع الذي يحمي ، ويخصص بالإلـه أو المعبد أو الملك أو سيد قبيلة ، والمكان الذي يحيط بالمعبد ، فيكون حرماً آمناً لا يجوز لأحد انتهاك حرمته[5] . وفي جزيرة العرب جملة مواضع يقال لها (حمى) ذكر أسماءها الأخباريون .

---

١ Handbuch, I, S. 237, Glaser 1395, 1604, SE 84, Rhodokanakis, Katabanische Inschriftten, II, S. 121.

٢ Hommel, Grundriss, I, S. 140.

٣ D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriftten, S. 15.

٤ Handbuch, I, S. 225, Hommel, Aufsatze und Abhandlungen, II, S. 177, Ilmukah, S. 53, Oslander, in ZDMG., Bd., 20, S. 282.

٥ Handbuch, I, S. 225, Oslander, in ZDMG., Bd., 20, 1866, S. 282, Hommel, Aufsatze, II, S. 177, Mordtmann, Himjarische Inschriftten, S. 27, ZDMG., Bd., 31, S. 88, Saba, Denkmaler, S. 258, Fell, in ZDMG., Bd., 54, S. 250.

وعبر عن الشمس بـ (ذت بعـدن) (ذات بعدان) كذلك ، أي ذات البعد . وهي كنية قصد بها الشمس حينما تكون بعيدة عن الأرض أي في أيـام الشتاء . وقد استدل على ذلك بجملة وردت في نصوص المسند ، هي : (بعلمن بعدن وقرين) ، أي (بالعالم البعيد والقريب) ، بمعنى في الماضي والحاضر[1] . وقصد بذلك الشمس في هذا الوقت من السنة حيث تكون أشعتها غير محرقة ولا شديدة مؤذية للناس[2] . وأنا لا استبعد أن يكون المراد من ذات البعد،الإلهة التي تشمل برحمتها وبركتها الأبعاد ، أي المسافات الواسعة والأماكن البعيدة فضلاً عن القريبة أو الإلهة البعيدة عن الناس التي لا يمكن أن يصل اليها أحد .

وكنّي عن الشمس في النصوص القتبانية بكنى أخرى ، منها : (ذت صنتم)، (ذات صنتم) ، (ذات صنت) ، و (ذت رحـبن) ، (ذات رحبان) (ذات الرحاب) ، و (ذت صهرن) (ذات الصهر)[3] ، و (ذت غدرن) أي (ذات الغدر) و (ذات الغدران) ، و (ذت برن) ، (ذات بران) ، (ذات البر) ، و (ذت ضهرن) ، (ذات ضهـران) ، و (ذ محرضو ومشرقتن) ، أي ذات اللون الذهبي المشرق . و (مشرقتن) ، بمعنى الغروب والشروق ، و (تدن) (تدان) (تدون) ، و (تنف) ، وذلك في الكتابات الـبثية ، و (ذت حسولم) (ذات حسول) ، أي شمس الشتـاء ، وذلك في النصوص المعينية[4] .

وقد عرف إلـه حضرموت الرئيس بـ (سن) (سين) ، وهو القمر . وهو إلـه شعب حضرموت الخاص . وقـد نعت بنعوت ، مثل (ذ عـلم) ، أي (ذو العلم) ، بمعنى العالم ، وبنعوت أخرى . وورد اسمه في كتابات عثر عليها في (يحا) بالحبشة[5] .

و (عثتر) من الآلهة التي ورد اسمها في نصوص كثيرة من نصوص المسند .

---

١ Glaser 618, CIS, 541.

٢ Handbuch, I, S. 226.

٣ W. Fell, Südarabische Studien, in ZDMG., Bd., 54, S. 238, (1900), Neue Katabanische Inschriftten, S. 15.

٤ Arabien, S. 245.

٥ Rep. Epigr., 3616, Grohmann, S. 245.

ورد في نصوص معينية وسبئية وحضرمية وقتبانية . ويقابله Atargatis المدون اسمه في كتب (الكلاسيكيين) ، و (عتر) Atar' عند السريان ، و (عشتر) (عشتار) . وقد ذكر في نصوص الأشوريين والبابليين والكنعانيين والعبرانيين والحبش وغيرهم ، مما يدل على انه كان من الآلهة التي كانت عبادتها شائعة في منطقة واسعة ، وانه كان من الآلهة الكبرى قبل الميلاد[1] .

وقد ورد (ام عثتر) ، و (ابم عثتر) في بعض النصوص . وقصد بالجملة الأولى : (أم عثتر) ، وبالجملة الثانية (أب عثتر) (عثتر أب) . وقد استنتج (دتلف نلسن) من ذلك ان (عثتر) هنا هو بمثابة الإله الرئيس ، فهو أب وأم للآلهة يليه القمر في الترتيب ثم الشمس[2] . وذهب في بحث آخر له عن ديانة العرب الى ان المراد بـ (ام عثتر) الشمس ، باعتدادها أنثى إلهة أماً. أما ولدها فهو (عثتر)[3] . وليس بمستبعد ان يكون المراد من (ام عثتر) ، ان (عثتر) بمنزلة الأم للمتعبدين لها ، تريد لهم الخير والبركة وتعطف عليهم وتحبهم عطف الأم على ولدها . وان المراد من (عثتر ابم) (عثتر أب) ، ان (عثتر) هو بمنزلة الأب للمتعبدين له ، يشفق عليهم ويحبهم،ويمنحهم الخير والصحة والبركة . وذهب بعض الباحثين الى ان المراد من عبارة (ام عثتر) ، الإلهة الشمس ، لأنها أم (عثتر) ، وان المقصود من (ابم عثتر) (أب عثتر) لإله القمر ، الذي هو زوج الشمس ، ومن زواجها ولد الابن (عثتر) .

وقد جاء في نص سبئي وجد في مدينة (صرواح) ان صاحبة النص قدمت الى الإلهة (ام عثتر) (ام عثتر) أربعة تماثيل من ذهب،لأنها وهبت لها أربعة أطفال ، هم ولد واحد وثلاث بنات ، كلهم أحياء يرزقون . ولأنها سرت قلبها بهذه الذرية . وهي لذلك قدمت هذه التماثيل ، ولترجو منها ان تستمر في الإنعام عليها وعلى ابنها وبناتها بالصحة والعافية[4] . وقد قصد بـ (ام عثتر) هنا

---

١ Winckler, Altorient. Forschungen, I, S. 528, Hilprecht, Baby., Exped., IX, 51, 76, Ency. Religi., Vol., II, p. 165.

٢ D. Nielsen, Mondreligion. S. 42.

٣ Handbuch, I, S. 228.

٤ Handbuch, I, S. 228, Derenbourg, Etudes Sur L'Epigraphic du Jemen, Paris, 1884, NO : II.

الإلهة الشمس . ويتبين من هذا النص أن السبئيين كانوا ينظرون الى (ام عثر)، نظرة البابليين الى (عشتار) على أنها إلهة الخصب[1] .

وقد عثر في النصوص النبطية ، على اسم إلهة هي (ربة العثر) (ربت عثر) ، أي الشمس[2] .

وورد اسم (عثتر) في عــدد كبير من نصوص المسند على هذا النحو : (عثتر شرقن) ، و (عثتر ذ قبضم) ، و (عثتر ذ يهرق) . و (عثتر ذ يهر) ، وهكذا . وتعني جملة (عثتر شرقن) ، عثتر الشارق . وقد ذكر أهل الأخبار أن (الشارق) صنم كان في الجاهلية وبه سمّوا عبد الشارق . مثل (عبد الشارق بن عبد العُزّى) الجهني شاعر من شعراء الحماسة[3].فلفظة (شرقن) إذن ، نعت لـ (عثتر) ، معناه (الشارق) .

ويرى بعض الباحثين أن (عثتر شرقن) ، هو الإلَه الحارس للمعابد والمقابر اليه يصلى ويدعى أن تصل الهبات الى المعابد[4] . واليه توسل المتوسلون لحفظ قبورهم من عبث العابثين بهــا المُعَبّرين لأحجارها الطامعين في كنوزها ، ولهــذا نعت بـ (عثتر يغل) ، أي (عثتر المنتقم)[5] .

وأما جملة (عثتر ذ قبضم) ، فقصد بـ (قبضم) معنى (القابض) أو (الجالس) ، أو اسم موضع يقال له (قبض) . فيكون المعنى : (عثــتر رب موضع قبض)[6] . وأما (يهرق) و (يهرق) (يهريق) ،فهو اسم مدينة من مدن معين . كان بها معبد لعبادة (عثتر)[7] .

وورد أيضاً (عثتر غربن) ، أي (عثتر الغارب) ، كناية عن غروبه ، أو عن طلوعه عند الغروب ، فهو اذن نجم الشروق ونجم الغروب ، أو النجم الشارق والنجم الغارب . كما ورد (عثتر نورو) (عثتر نورن) ، أي (عثتر

---

١ D. Nielslen, Altarabische Mondreligion, S. 41.

٢ Littmann, NO : 24, Lidzbarski, Ephem., Bd., 3, S. 292, Handbuch, I, S. 227.

٣ تاج العروس (٦/٣٩٢) ، (شرق) .

٤ Ency. Religi., 10, p. 883.

٥ Arabien, S. 245.

٦ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 27, Ency. Religi., 10, p. 882, Glaser 1089, 1660, Halevy 208.

٧ Handbuch, I, S. 228, Hommel, Grundriss, I, S. 85, W. Fell, in ZDMG., Bd., 54, S. 231-259.

نور) و (عشـــتر المنير) ، تعبيراً عن لمعانه وعن النور الظاهر عليه . وجاء (عثتر سحرن) ، أي (عثتر السحر) ، بمعنى عثتر الذي يظهر عند السحر، وعبر عنـــه بـ (متب نطين) ، أي الحامل للرطوبة ، تعبيراً عن الرطوبة التي تكون عند ظهوره ، فنسبوها اليه[1] .

وقـــد تكرر ذكر اسم (عثتر) في بعض النصوص ، على سبيل التوكيد والتشديد في القسم وفي الدعاء ، كما نفعل نحن أحياناً من اعادة اسم الله في الايمان المغلظة وفي التوسلات عند ساعات المحنة والشدة . ورد : (بعثتر شرقن، وبعثتر ذ قبضن ، وود ونكرحم ، وبعثتر ذ يهرق ، وبكل ال ل ات معن)[2] . أي: (بعثتر الشارق وبعثتر ذو قبضن وبودّ ، ونكرح ، وبعثتر ذو يهرق ، وبكلّ آلهة معين) ، أو (وبحـــق عثتر الشارق ، وبحق عثتر القابض أو رب موضع قبض ، وبحق ودّ ، ونكرح وعثتر رب يهرق ، وبحق كل آلهة معين) .

ولدينا جملة أسماء مركبة ورد فيها اسم (عثتر) ، مثـــل (اوس عثتر) (او سعثت) و (هوف عثت) (هو فعثت) ، و (لحي عثت) (لحيعثت). و (عثت) هنا هو اختصار (عثتر)[3] .

ومن آلهة العرب الجنوبيين الإلـه (قينن) (قينان) ، وهو إلـه قبيلة (سخيم)، النازلة بـ (شبام) ، (شبام سخيم)[4] .

ومن بين أسماء آلهة العرب الجنوبيين اسم الإلـه : (ال) (ايل) ، ذكر اسمه مستقـــلاً كما ورد مقروناً باسم الإلـه (عثتر) كما في الكتابتين الموسومتين بـ Halevy 144 ، وبـ Halevy 150 ، وقد قدم ذكره فيها على اسم الإلـه (عثتر)[5]. وقد ورد بكثرة في الأعلام المركبة .

ومن بين أسماء الآلهة التي ورد اسمها في النصوص العربية الجنوبية ، اسم الإلـه (تلب ريم) (تالب ريام) . وهو إلـه خاص بقبيلة (همدان) . كما أن (المقه) هو إلـه (سبأ) و (سين) (سن) إلـه حضرموت ، و (عم) إلـه قتبان،

---

١ Arabien, S. 245.

٢ الفقرة الخامسة من النص : Glaser 1150, Halevy 192.

٣ Handbuch, I, S. 228.

٤ Arabien, S. 245.

٥ Handbuch, I, S. 218, Halevy, in Journal Asiatique, 1872, Tome 19, p. 152.

و (ود) إلـه معين . وقد ظهر بظهور نجم (بني بتع) واشتهر بهم . وكان ظهوره حوالى الميلاد بصورة خاصـة . ففي ذلك العهد اشتد أمر أقيال همدان ، فاستأثروا بالحكم ، ودعوا أنفسهم ملوكاً ، ورفعوا إلـه قبيلتهم فوق الآلهة الأخرى، فنحروا له الذبائح ، وقدّموا له النذور ، وتنافسوا في بناء معبده . ودام عزيزاً مكرماً ما دام نفوذ ملوك همدان[1] .

وقد كانت لهذا الإلـه مثل سائر الآلهة الأخرى جملة معابد ، غير أن معبده الأكبر هو المعبد المعروف بمعبد (تلب ريم بعل ترعت) أي : (تـألب ريام رب ترعت)[2] . ويظهر أن كلمة (ترعت) هي اسم موضع ، أقيم المعبد عليه . وهو معبد كانت تقدم اليه أقيال (سمعى) وقبائل همدان الأخرى النذور والقرابين والهدايا ، وتحبس له الأرضين .

ومن الآلهة التي ورد اسمها في الكتابات العربية الجنوبيـة ، الإلـه (حول) (حويل) ، والإلـه (جلسد) (الجلسد) . وتدل لفظة (حول) على الحول والقوة . فلعلّ معنى اسم هذا الإلـه هو (الحويل) ، أي صاحب الحول والقوة. بمعنى القوي . وهو من آلهة حضرموت[3] .

وورد اسم الإلـه (حلفن) في جملة أسماء الآلهة المذكورة في الكتابات العربية الجنوبية . وقد ورد في جملة نصوص تتعلق بحبس أموال وبعقد عقود . ويلاحظ ان أصحابها استعانوا بهذا الإلـه لانزال النقمة والعذاب وأشد الجزاء بكل من يحاول أن يغير او يبدل تلك العقود والنصوص ، أو يتجرأ فيستولي على الأموال والحبوس المقررة ، كما رجوا منه أن يشملهم هم وجماعتهم برحمته وبلطفه وكرمه لاخلاصهم له ولفنائهم في حبه[4] .

ومن بين الآلهة إلـه عرف بـ (ذ سموي) ، أي (رب السماء) ،وهو إلـه ظهر اسمه قبل الميلاد بقليل[5] . وقد بقي اسمه متألقاً في سماء اليمن ، يقدم اليـه الناس النذور والقرابين الى ما بعد الميلاد . ويرى بعض الباحثين ، ان عبادته تدل

---

١ Ilmukah, S. 68.

٢ Hommel, Grundriss, I, S. 143.

٣ Handbuch, I, S. 188, Ilmukah, S. 55, Hommel, Sudarabische, S. 22.

٤ Halevy, 147, 148, Rhodokanakis, Stud., I, S. 57, 59.

٥ Handbuch, I, S. 88.

على ظهور عقيدة التوحيد عند العرب الجنوبيين ، إذ تدعو الى عبادة إلـه واحد، هو (رب السماء)[1] .

ولدينا كتابة مخرومة أسطراً ، لكنها لا تزال مع ذلك مفهومة ، تفيد ان جماعة من الأشرار المارقين تطاولوا على حرم (اوثن ذ سموي) أي (الوثن رب السماء) ، فسرقوه ، ونهبوا ما كان فيه ، واستولوا على ما كان حبس له . ولكن عبدته عادوا ، فجمعوا ما سرق ، وأصلحوا ما أفسد ، وتقربوا الى الإلـه (رب السماء) بطلب التوبة والغفران ، وختموا نصهم بهذه الجملـة : (و ذ سموى ليزامتعن شعبهو) ، أي (وليمتع رب السماء شعبـه)[2] . ويقصد النص بشعبه أتباع هذا الإلـه وعبدته .

وإلى هذا الإله ، الإلـه : (ذ سمي) (ذ سموي) ، إلـه السماء تعبدت قبيلة (امر) (أمر) . ويعد (بعل سمن) (بعل سمين) (بعل السماوات) إلهاً للبركة والخصب ، إذ يرسل المطر فينشر الخير للناس[3] .

ونقرأ في النصوص العربية الجنوبية اسم إلـه جديد ، هو الإلـه (رحمنن) ، أي (الرحمن) . وهو إلـه يرجع بعض المستشرقين أصله الى دخول اليهودية الى اليمن وانتشارها هناك . وهذا الإلـه هو الإلـه (رحمنه) Rahman-a (رحمنا) في نصوص تدمر[4] .

وورد في نص : (رحمنن بعل سمين) (رحمنن بعل سمن) ، أي (الرحمن رب السماء) ، أي انه إلـه السماء . فصار في منزلة الإلـه (ذ سموى) . ثم لقب بـ (رحمنن بعل سمين وارضن) ، أي (الرحمن رب السماء والأرض) في نصوص أخرى[5] . فصار إلـه السماوات والأرضين .

وقد نشر نص بالمسند ، وردت فيه جملة : (الرحمن الذي في السماء واسرائيل رب يهود)[6] . وهو نص ، إن صح نقله عن الأصل بدقة وعناية ، وإن صح

---

١ Handbuch, I, S. 104, Rivsta, 1955, Fasc., I, II, p. 109, Le Muséon, 1954, Tome, LXVII, p. 118.

٢ REP. EPIGR. 850, Rhodokanakis, Stud., S. 162, Mordtmann, Beiträge, S. 188.

٣ REP. EPIGR., 4142, Arabien, S. 245.

٤ Handbuch, I, S. 104, 248.

٥ Le Muséon, 1954, Tome, LXVII, p. 103.

٦ Margoliouth, Relations, p. 68.

انه نص صحيح غير مزيف ، يشير الى تأثر صاحبه باليهودية وبعبارة الرحمن . وقد استشهد به من قرأه على تهود صاحبه .

ويرد اسم الإلـه (بعل سمن) (بعل السماء) (بعل السماوات) في الكتابات الصفوية ، وفي كتابات تدمر ، حيث ورد (بعل شمن) (بعل شمين) ، وفي كتابات بعلبك ، وفي كتابات اللحيانيين . وقد ظهرت عبادته قبل الميـلاد[1] . ويظهر لذلك انه من الآلهة المعروفة عند الساميين وعند العرب الشماليين قبل الميلاد ، ومن الجائز ان يكون قد انتقل الى العرب الجنوبيين من العرب الشماليين .

ووردت في الكتابة الموسومة بـ SE 48 أسماء آلهة هي : (م ح ر ض و) (محـرضو) ، و (م ش ر ق ي ت ن) (مشرقيـتن) و (نسور) و (ال فخر)[2] . وقد ذهب (رودوكناكس) الى ان المراد من محرضو ومشرقيتن الشمس . وذهب آخـرون الى ان المراد بهما القمر والزهرة . وذهب فريق آخـر الى ان المراد بذلك غروب الشمس وشروقها[3] . أما (نسور) ، فاسم إلـه ، لعل له صلة بـ (نسر) . وقد وردت في نص سبئي هـذه الجملة : (بت نسور وبت ال) (بيت نسور وبيت ال) ، ويقصد بـ (بت) (بيت) معبد لعبادة هذين الإلهين : (نسور) و (ال) . و (ال) هو (ايل) (ايلو) إلـه الساميين القديم[4] .

وورد في أحد النصوص السبئية هذا التعبير : (اهـل نسور) مؤديـاً معنى (قوم نسور) و (ملة نسور) ، ويراد بهم جماعة هذا الإلـه التي كانت تتعبد له . وعرف أحد أشهر السنة في النصوص السبئية المتأخرة بـ (ذ نسور) ، ولعله أريد بذلك نسبة الشهر المذكور الى هذا الإلـه[5] .

و (نسور) هو (نسر) على رأي بعض الباحثين . ويرمز الى (القمر)[6] . وقد حصل المنقبون على أحجار حفرت عليها صورة النسر ، فعلوا ذلك على سبيل التيمن والتبرك بهذا الإلـه .

---

١ Arabien, S. 86, Ryckmans 20.

٢ الجملة الخامسة والسادسة من النص : Rhodokanakis, Katabanische, II, S. 28.

٣ Katabanische. II, S. 38, Hommel, Grundriss, S. 689, 719, Sab. Denkm., S. 80, Sudarabische, S. 22.

٤ Glaser 418, 419.

٥ Glaser 418, 419, 1549, Katabanische, II, S. 36.

٦ D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriftten, S. 14.

وورد اسم إلـه دعي بـ (نسر) ، يظن أنه إلـه (ذ قلع) ، (ذو قلاع) ، اسم موضع أو قبيلة . ويرى الباحثون أنه الإلـه (نسور) الذي نتحدث عنه[1] .

و (نسر) هو اسم صنم من الأصنام التي عرفها أهل الأخبار . فقد زعموا أنه أحد أصنام نوح الخمسة ، وأن (عمرو بن لحي) جاء به الى حمير ، فأشاع عبادته بينهم[2] .

وأما اسم الإلـه (ال فخر) ، فيظهر أنه مؤلف من كلمتين ، هما : (ال) اسم الإلـه (ايـــل) المعروف عند الساميين ، و (فخر) ، وهي نعت من نعوت الآلهـــة . كما في كلمة (ال تعلي) في النصوص القتبانية ، وهـــي بمعنى (الله تعالى) في لهجتنا . و (فخر) العربية ، هي مثل (بخرو) في الآشورية، ومنها العلم المركب : (نبخر بلو)[3] .

وورد اسم الإلـه : (يعوق) أي الصنم يعوق المعروف ، في نص متأخر ، يعود عهده الى ما بعد الميلاد ، وورد معه اسم : (رحمنن بعل سمن) ، أي (الرحمن رب السماء) . وقد أرخ النص بشهر (ذ دون) (ذ داون) (ذي دوأن) لسنة (٥٧٤) من التأريخ الحميري . المقابلة لسنة (٤٥٩) للميلاد[4] .

وهناك أسماء آلهة لا نعرف من أمرها في الوقت الحاضر شيئاً كثيراً ، من بينها الإلـه (بلو) ، وقد عبر عنه بأنه إلـه البلاء والموت والمنون . وإلـه يقـــال له (حلفن) (حلفان) ، ويقال إنه إلـه القسم والحلف واليمين،والإلـه (ورفو)، وهو إلـه الحـــدود ، أي الإلـه المختص بالمحافظة على الحدود ، و (منضح) (منضحت) ، وهو إلـه الماء والري ، و (متبقبط) ، وهو إلـه الحصاد عند المعينيين ثم الإلـه (يهرهم) ، وهو إلـه المطر[5] .

ولا بد من الاشارة الى اسم إلـه ورد في كتابات عثر عليها في (شبام سخيم)

---

١ راجع النص : Rep. Epigr., 4725, Arabien, S. 246.

٢ Reste, S. 23, Ryckmans 16, Winckler, Arabisch-Semitisch Orientalisch, S. 118, Arabien, S. 85.

٣ Katabanische, II, S. 38.

٤ Ryckmans, in Le Muséon, 1954, Tome, LXVII, pp. 100, A. Fakhry, An Archaelogy. Journey to Yemen, III, p. 195, PL : XXLX, XXX.

٥ Arabien, S. 246.

وهو الإلـه (قينن) (قينان) . وهو إلـه (بني سخيم)[1] .

لقد تجمع لدى علماء العربية الجنوبية من أسماء آلهة العرب الجنوبيين مـا ينيف على مئة اسم إلـه ، غير أن اكثر هذه الأسماء ليست في الواقع أعلاماً ، وإنمـا هي صفات ونعوت للآلهة ذكرت بدلاً من ذكر اسم الإلـه الخاص . أو كنايـة تشير الى أسماء المواضع التي كانت فيها معابد تلك الآلهة ؛ فقد كان لبعض المدن معابد خصصت بعبادة إلـه ، ربما كان إلـه المدينة أو جملة آلهة لها بالطبع صلـة بالمدينة وبالشعب الذي تنتمي المدينة اليه . غير أن هذه الآلهة جميعها يمكن رجعها الى ثلاثة ، هي القمر والشمس والزهرة . أي الى ثالوث يرمز الى هذه الكواكب الثلاثة [2] .

وهناك أسماء مثل (يثعم) في السبئية ، و(ككون) في المعينيـة ، و (ارن يدع)[3] ، و (سميهت) ، و (ذ اينت) ، و (نقين) ، و (نو شم) و (هروم) ، يظن أن لها صلة بالآلهة .

وكما حفظت نصوص المسند أسماء بعض آلهة العرب الجنوبيين،حفظت النصوص الثمودية واللحيانية والصفوية والنبطية كذلك أسماء بعض آلهة تلك الشعوب . وهي كما يظهر من دراستها وتحليلها خليط من آلهة ترد أسماؤها في روايات الأخباريين ، ومن آلهة ترد أسماؤها في النصوص العربية الجنوبية ، كما ان بينها أسماء آلهة لم ترد لا في أخبار الأخباريين ولا في نصوص المسند . ولاتصال مواطن هـذه الشعوب بمواطن الساميين الغربيين وبمواطن الساميين الشرقيين ومتاخمتها لعرب العراق ونجد والقبائل العربية في الحجاز ولصلاتها التأريخية القديمة بالعرب الجنوبيين،كان لدراسة الناحية الدينية عند هذه الأقوام أهمية كبيرة في معرفة التطورات الدينية قبل الاسلام، وهذا الخليط الذي أشرت اليه هو في حد ذاته دراسة قيمة تشير الى التقاء التيارات الدينية واتصالها بهذه البقاع .

وحفظت النصوص الثمودية أسماء جملة آلهة ، تعبدوا لها وتقربوا اليها بالقرابين والنذور . منها الإلـه : (ود) و (جد هـدد) و (شمس) و (عزيز)

---

١ Arabien, S. 245

٢ Ency. Britani., Vol., 19, p. 486.

٣ Arabien, S. 246.

و (نعرجد) و (عمى شجا) و (رضو) و (منت) و (كهل) و (نهي) و (ايل) (ال) و (لت) (السلات) و (عتر سم) (عتر سمن) و (صلم) و (منف) (مناف) .

و (جد) هو إلـه عرف عند بني إرم وعند العرب الشماليين وفي المقاطعات السورية ، وهو إلـه (السعد) في اليونانية ، يسعد الأشخاص والبيوت . وقد سمي به موضع (بعل جد) وموضع (مجدل جد) ، وأسماء مواضع أخرى فيها كلمة (جد)[1] .

وقد وجدت جملة (الإلـه ازيزوس الفتى الطيب) مدونة على جدران أحد المعابد باللغة اللاتينية،ووجدت جملة أخرى فيها :(الإلـه الطيب الفتى فوسفورس)[2]، وفي وصف الإلهين بـ (الفتى) وبـ (الطيب) دلالة على ان المتعبدين لهما كانا يتصوران انهما كانا فتيين طيبين خيرين يمثلان الطيب والمودة . ونجد في نص تدمري وصفاً للإلهين : (ارصو) و (ازيزو) ، أي (رصو) و (عزيز) ، يشبه الوصف المتقدم ، إذ ورد : (لارصو ولازيزو : الإلهان الخيران المجزيان)، و (ازيزو : الإلـه الطيب والرحيم) . فوصف الإلهان بأنهما خيران ، ويجزيان الناس خيراً . وهي نعوت تمثل وجهة نظر القوم الى هذين الإلهين .

وقد عثر في (تدمر) على نص ورد فيه : « لا رصو ولا زيزو . الإلهان الخيران المجزيان . قد عمله بعكي (بعلي؟) بن ير حيبولا . أفكل ازيزو الإلـه الطيب والرحيم . لسلامته ولسلامة إخوته . في شهر اكتوبر من سنة ٢٥ . فليذكر الناس يرحى النحات »[3] . فنحن أمام إلهين : (ارصو) و (ازيزو) ، من آلهة تدمر .

وورد اسم الإلـه (ازيزوس) والإلـه (مونيموس) في كتابات عثر عليها في (الرها) وفي حوران وتدمر. وقد ظهر الإلهان في نقش ، حفر عليه موكب عربة الشمس . نقش (أزيزوس) ، وهو يتقدم العربة ، و (مونيموس) ، وهو يتبعها[4] .

---

١ Hastings, p. 276.

٢ رينه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام (١٤٠) .

٣ رينه ديسو (١٣٥ وما بعدها) .

٤ رينه ديسو (١٣٤ وما بعدها) .

و (ارصو) (أرصو) ، هو الإلـه (رضو) عـلى ما يظن . وأما (ازيزوس) (أزيزو) ، فهو اسم إلـه لعله (عزيز) ، تحرف فصار على النحو المذكور في الكتابات اللاتينية : والإرمية . وأما (مونيموس) ، فهم (منعم). وأرى أن عزيزاً ورضياً ومنعماً هي من الأسماء الحسنى ، أي نعوت من نعوت الآلهة لا أسماء علم . وذلك على نحو ما نسمّي اليوم بـ : (عبد الرضا) ، وبـ (عبد العزيز) ، وبـ (عبد المنعم) .

و (هدد) هو اسم إلـه تعبدت له شعوب عديدة من شعوب الساميين ، منهم بنو إرم والعرب الجنوبيون والشماليون ، كما تعبد له الآشوريون . وقد اقترن اسمه عند الآشوريين والبابليين بـ (رمان)،ودخلت عبادته اليهم من بني إرم الغربيين . ويمثل (هدد) مثل (رمان) (رمون) Rimmon = Rammon = Ramman إلـه الهواء والرعد والعواصف ، ويظهر أنه من أصل عربي هو (هد) . ومن اسم هذا الصنم الاسم (بنهدد) (بن هدد) (بنحدد) المذكور في التوراة[1] .

ولا بد ان تكون لهذا الإلـه صلة بالإلـه (جد) ، ومن هذا الاقتران ظهر (جد هدد) في كتابات قوم ثمود .

و (رضو) هو الصنم (رضى) عند الأخباريين ، وهو صنم بقي حياً تتعبد له القبائل العربية حتى الاسلام ، فكسر[٢] . ويرى (دتلف نيلسن) ، انه يمثل الزهرة عند قوم ثمود والصفويين ، وانه في منزلة (عثتر) عند العرب الجنوبيين[٣] . وقد تعبدت له (بنو ربيعة بن كعب) ، كما تعبّد له أهل تدمر والنبط وأهل الصفاة ، وعرف بـ (هـ — رضو) (هارضو) ، أي بادخال (ه) (ها) أداة التعريف على الاسم . وقد انتشرت عبادته بين قبائل نجد والحجاز[٤] .

ويرى (رينه ديسو) ان (رضى) إلهة عند الصفويين ، وانها كانت إلهة كذلك عند بقية العرب . أما (ارصو) ، فإنه مذكر عند أهل تدمر[٥] .

---

١ Hastings, p. 323.

٢ الاصنام (ص ٣٠) .

٣ Handbuch, I, S. 229.

٤ E. Oslander, 499, Reste, S. 58, Ryckmans 18, Jaussen-Savignac, Mission, II, 565, 583, 598, Arabien, S. 84.

٥ رينه ديسو (١٣٦) .

أما (عزيز) ، فإنه الإلـه (عزيزو) Azizo المعروف عند أهل (الرها) ، الذي تحدثت عنه . وقد ذهب بعض الباحثين الى انه يمثل كوكب الصباح ، أي الزهرة . وقد وصف في كتابة مدونة باليونانية انه : Deus bonus puer phosphorus أي الإلـه الجميل اللمّاع ذو الأشعة البراقة التي تشبه في لمعانها لمعان الفوسفور[1] .

و (كهل) أو (كاهل) ، هو (كهلن) المذكور في كتابة معينية. وقد ورد الاسم مقروناً في نص ثمودي بأداة التعريف (ه) (ها) ، أي (ه ك ه ل) (ها ـ كهل) (هكهـل) . وتعني لفظة (كهـل) المعنى المفهوم منها في عربيتنا ، كما تعني (القدير)[2] .

وتعني كلمة (نهي) في الثمودية ما تعنيه لفظة (حكم) في العربية الجنوبية، أي (حكم) وحاكم و (حكيم) في بعض الآراء ، ولعلّهـا تعني (الناهي) وتكون بذلك صفة للإلـه.وقد ورد اسم هذا الإلـه في مواضع عديدة من الكتابات الثمودية[3] .

وأما (منف) ، فإنه الصنم (مناف) المذكور عند أهل الأخبار[4] . وقد تعبدت له قريش ولحيان ، كما تحدثت عنه في موضعه .

وقد ورد اسم (صلم) في عدد من الكتابات الثمودية . ويظهر أن الثموديين كانوا قد أخذوا عبادة هـذا الإلـه من أهل (تيماء) . فقد كانت تيماء من أهم الأماكن المتعلقة بعبادة هذا الصنم في حوالي السنة (٦٠٠) قبل الميلاد . وقـد جاءت عبادته اليهم من (بني إرم) . ومنهم انتقلت عبادته الى العرب . وتدل بعض الأسماء المركبة الواردة في الكتابات اللحيانية مثل اسم (صلم يهب) (صلميهب) على أنه كان معبوداً عند اللحيانيين كذلك[5] . ومن لفظة (صلم) جاءت كلمـة (صنم) على رأي بعض المستشرقين .

وقد ورد اسم (عترسم) (هـ ـ عترسم) في عدد من الكتابات الثمودية .

---

١ Handbuch, I, S. 220.

٢ Handbuch, I, S. 215, Glaser 299, Halevy 237, Hommel, Grundriss, S. 163, E. Littmann, Zur Entzifferung der Thamudischen Inschriftten, 1904, S. 75.

٣ Handbuch, I, S. 215.

٤ أخبار مكة ، للازرقي (١/٧٨) ، Ryckmans 16, Reste, S. 18, Arabien, S. 84.

٥ Hubert Grimme, Die Losung des Sinaischriftproblems, Die Altthamudische Schrift, Munster, 1926, S. 23, Arabien, S. 86.

وقد توسل فيها أصحابها منه أن يمن عليهم بالبركة والخير والصحة والسلامة[١] .
وقد جاء اسم هذا الصنم من (عثتر سمن) (عتر سماء) ،أي (عثتر السماء) .

والإلـه (ود) هو إلـه معروف عند الثموديين كما سبق أن ذكرت . وقد تودد اليه عباده والمؤمنون به ، فذكروه في كتاباتهم ، ورمزوا اليه بصورة حية، كما رمز اليـه العرب الجنوبيون بصورة رأس ثور . وقد تعبر صورة الحية عن الروح التي في بدن الإنسان[٢] .

وذهب (دتلف نلسن) الى أن من بين آلهة ثمود إلـه اسمه (ملك) ، وهو يرى أن الإسم المركب (عبد ملكن) ، أي (عبد الملك) ، لا تعني كلمة (ملك) ، الواردة فيه بالمعنى السياسي الذي نفهمه منها ، وإنما المراد بها اسم إلـه . وذهب أيضاً الى أن لفظـة (ملكن) الواردة في النص القتباني الموسوم بـ Glaser 1600 لم يقصد بها ملكاً من ملوك قتبان ، بل أريد بهـا إلـه اسمه ملكن ، أي (الملك) . وذكر أيضاً ان اسم (عبد الملك) من الأسماء المعروفة في الجاهلية ، ورد في نصوص الثموديين والصفويين[٣] .

وفي الكتابات الثمودية أسماء مركبة مثل (يعذر ال) (يعذر ايل) ، و(صلم ال) (صلم ايل) ، و (عزر ال) (عزر ايل) ، و (سعد ال) (سعد ايل)، و (ود ال) (ود ايل) ، اختتمت باسم الإلـه (ال) (ايل) ، مما يدل على ان (ال) (ايل) كان من الآلهة التي تعبّد لها قوم ثمود .

ومن الأسماء الثمودية المركبة الأخرى (بعثتر) وفيه اسم الإلـه (عثتر) الذي عرفناه في المسند ، و (يثع امر) (يثع أمر). وفيه اسم الإلـه (يثع) ، وهو من الأسماء المستعملة بكثرة في العربية الجنوبية . و (صلم دع) و (صلمن دعم) ، فـ (صلمن) اسم الإلـه (صلم) من آلهة قوم ثمود المعروفة ، و (تيم يغث) (تيم يغوث)، وهو اسم مركب من اسمي إلهين هما : (تيم) و (يغوث)[٤] .

---

١ Hubert Grimme, S. 43.

٢ Arabien, S. 269.

٣ Handbuch, I, S. 232, D. Nielsen, Studier over Oldarabiske Indskrifter, Kobenhava, 1906, p. 136, O. Weber, Studien zur Sudarabischen Altertumskunde, in MVAG., 1917, S. 26-31.

٤ Grimme, S. 33.

ووردت في الكتابات اللحيانية ، أسماء جملة آلهة . منها : (ذ غابت) (ذو غابة) و (عوض) ، و (ود) ، و (بعل سمن) ، و (سلمان) (سلمن)، و (العزى) ، و (منف) (مناف) ، و (جدت) ، و (ال) (ايل) ، و (إلّه) ، و (لت) (الت) ، و (سمع) ، و (نصر) ، و (منت) ، و (هفلس) ، و (عجلبون) (عجلبن) ، وأكثر هذه الآلهة كما نرى معروفة ، وردت أسماؤها في الكتابات وفي مؤلفات أهل الأخبار .

والإلّه (ذ غبت) (ذو غابة) ، هو من أشهر آلهـة اللحيانيين . ولعله إلههم الأول والأكبر . ومع ذلك ، فإننا لا نعرف عنه شيئاً كثيراً . وقد كان له معبد في (الديدان)[1]. وخوطب بكلمة (قدست) ، أي القدس أو المقدس في كتابة من كتاباتهم ، وقيل انه في جملة ما قدم اليه من قرابين ، قرابين من البشر[2] .

وليست كلمة (ذ غبت) (ذو غابة) ، اسم علم للإلّه ، بل هي صفة له ، تعني : (صاحب الغابة) ، أو (صاحب غابة) . وقد وردت لفظـة (ذ غبت) في الأعلام المركبة ، مثل : (عبد ذ غبت) (عبد ذو غابة) ، و (فلح ذ غبت) (فالح ذو غابة) ، و (خرح ذغبت) (خرح ذو غابة) ، و (مـر ذ غبت) ، أي (مرأ ذو غابـة) ، و (زيد ذ غبت) ، أي (زيد ذو غابة) . وورد (عرر ذ غبت) ، أي (عرر ذو غابة) . والعرو والعر ، الجرب ، وهو مرض جلدي معروف . فكأن صاحب الكتابة أراد بها ، ان الإلّه (ذو غابة) يرسل هذا المرض الى مخالفيه ومن يعارض أحكامـه أو يعتدي على غيره[3] .

وأما (عوض) ، فقد ورد اسمه في الأعلام المركبة مثل : (عبد عوض)، و (جد عوض) ، وقد تعبّد له الصفويون كذلك[4] .

وأما ودّ ، فهو إلّه عام له شهرة عند العرب ، وقد عمت عبادته كل جزيرة

---

١ Ryckmans 19, Jaussen-Savignac, Mission, II, 368, 371, 375, W. Caskel, Lihyan, S. 45, Arabien, S. 85.

٢ Histoire Generale des Religions, Tome, IV, p. 312, Preislamiq., p. 19.

٣ W. Caskel, Lihyan., S. 44.

٤ Histoire, IV, p. 312, Preislamiq., p. 19, Handbuch, I, S. 193.

العرب . والظاهر أنه كان من الآلهة العربية القديمة،وقد بقي معبوداً حتى الإسلام : وهو من الأصنام المذكورة في القرآن[1] . وقد نعت بـ (افكل) ، وورد اسمه في الأعلام اللحيانية المركبة[2] . وتعبدت له تميم ، وطيء ، والخزرج ، وهذيل، ولخم ، وقريش . وأقيم له صنم في دومة الجندل ، صنع على هيأة انسان . ويرى البعض انه الإلـه (أدد) عند ثمود . ويظن أن الصنم (قوس) يرمز اليه ، ويرى بعض الباحثين أن (نسراً) والصنم (ذو غابت) يرمزان اليه كذلك[3] .

وقد نعت (ود) في بعض النصوص العربية بـ (نحسطب) (نحس طب)، ومعناه (الحية الطيب) (الحية الطيبة) ، لأن الحية رمز للإلـه (ود)[4] .

ويظن أن اللحيانيين كانوا يتعبدون لهذا الإلـه منذ كانوا في مواطنهم الأولى ، فلما هاجروا الى (ديدان) لم ينسوه ، ولكنهم بقوا يتعبدون له ويتقربون اليه ، لأنه إلـه الآباء والأجداد وإلـه لحيان الأكبر ، كما تفعل بقية القبائل في اتخاذ إلـه الآباء والأجداد الإلـه الأول للقبيلة ، والصنم الأكبر بين الأصنام[5] .

وأما (بعل سمن) أي (رب السماء)،فقد تحدثت عنه ، ووجدنا أنه كان معبوداً عند العرب الجنوبيين ، والغالب أنهم أخذوا عبادته من العرب الشماليين . وقد كان له معبد في (ديدان) . وقد نعت معبده بـ (احرم) (احرام) ، بمعنى (الحرم) ، أي حرم الإلـه (بعل سمين) (رب السماء)[6] . وتعبد له (النبط) وكانوا قد أقاموا له معبداً في (سيع) ، وذلك فيما بين السنة ٣٣ / ٣٢ — ١٢ / ١٢ قبل الميلاد[7] .

والظاهر أن اللحيانيين قد أخذوا هذا الإلـه من النبط . وقد تشرف أحدهم بتسمية نفسه بـ (عبد سمن) أي (عبد السماء)[8] . وقصد بـ (سمن) الإلـه

---

١ سورة نوح ، رقم ٧١ ، الآية ٢٣ .

٢ Histoire, IV, p. 312.

٣ Arabien, S. 87, Reste, S. 14, Ryckmans, 16, Jaussen-Savignac, Mission, II, p. 395, 581.

٤ Grohmann, Gottersymbole, S. 71.

٥ Lihyanish, S. 44.

٦ Histoire, IV, p. 312, Preislamiq., p. 20.

٧ W. Caskel, Lihyan, S. 45.

٨ W. Caskel, Lihyan, S. 124

(بعل سمن) ، أي (رب السماء) . وقد اختصر الاسم ، فصار (سمن) (سمين) .

والعزى من الأصنام المعروفة عند أهل الأخبار . وقد بقيت عبادته معروفة الى الاسلام. وقد أشير اليه في القرآن . وقد ذكر اسمه في كتابات عثر عليها في(العلا)[1]. وتعبد له النبط كذلك ، وصنعت له معبداً في (بصرى) دعي (بيت ايل) . وعبر عنه بـ (كوكبتا) ، أي (الكواكب) ، وهو أنثى ، أي إلهة[2] .

وقد ورد اسم (العزى) على هذه الصورة : (هنعزى) في كتابة لحيانية ، دوّنها رجل اسمه (أوس بن حجر)[3] . ويظن بعض الباحثين ، أن العزى تمثل كوكب الصباح . ويظهر أن اللحيانيين قد أخذوا عبادتها من نبط بلاد الشأم[4]. وأنها لم تكن من آلهة اللحيانيين في الأصل ، بدليل عدم ورود اسمها كورود (ذو غابة) أو الآلهة اللحيانية الأخرى في النصوص اللحيانية[5] .

وورد اسم العُزى في الأعلام المركبة ، مثل : (بل عزيني) (بال عزيني) و (بـ ايل عزيني) ، أي بـ (العزيني) ، وذلك في الكتابات الثمودية . و (تيم العزى) و (عبد العزى) و (امت العزى) ، وفي كتابات أخرى تعود الى ما بين القرن الخامس قبل الميلاد ، والقرن الرابع بعد الميلاد[6] .

ويظهر من بعض الأعلام اللحيانية المركبة ، مثل (اوس يه) (اوس يهو) ، و (عزريه) (عزر يهو) ، أن القسم الثاني من الاسم ، وهو (يه) (يهو) ، قريب من (يهوه) ، وهو الإلـه الكبير المعروف عند العبرانيين . فـ (يه) (يهو) هو اسم إلـه من آلهة اللحيانيين .

وأما الإلـه (جدت) ، فالغالب أنه إلهة ، أي إلهاً أنثى بدليل وجود تاء التأنيث في آخر الاسم . والأصل هو (جد) ، وهو اسم إلـه تكلمت عنه[7] .

---

١ Histoire, IV, p. 312, Preislamiq., p. 20.

٢ Doughty, Travels in Arabia Deserta, II, p. 511, 515.

٣ W. Caskel, Lihyan., S. 82.

٤ Lihyan., S. 262.

٥ Lihyan., S. 45.

٦ Littmann, Thamud und Safa, S. 29.

٧ Ryckmans, Preislamiques, p. 19, Histoire, IV, p. 312.

وأما (هفلس) (ها ــ فلس) ، فإنه (الفلس) ، عند أهــل الأخبار . وقد ذكروا أنه كان على هيأة حجر أسود تعبدت له (سليم) ، أو على صورة إنسان قدّ من حجر عند (طيء)[1] .

و (قيس) و (قيسو) من أسماء الآلهة المذكورة في الكتابات اللحيانيـة . وقد كان له معبد عرف بـ (بت قس) (بيت قيس) في مدائن صالـح[2] . ويدل وجود اسمه في الأعلام العربية المركبة ، مثل (عبد قيس) و (عبــد القيس) ، انه كان من الأصنام المعروفة المعبودة عند بقية العرب في مختلف أنحاء جزيرة العرب .

وورد في كتابة لحيانية اسم إلـه هو : (محر) (هـ ــ محر) (همحــر) وبعده اسم إلـه آخر ، هو (هنا كتب) . ويظهر انه من الآلهــة التي كانت تعبد في العربية الجنوبية وعند المعينيين الشماليين ، وتعني لفظة (محر) شريعة ، أو قانون أو أمر ، أو سُنّة . وهو من الآلهــة التي اختفى اسمها في الكتابات اللحيانية المتأخرة[3] .

وأما (هنا كتب) (هانىء كاتب) (هني) (هاني) ، و (هنى كتب) (هاني كتب) المذكور مع (هـ ــ محــر) (همحر) (هامحــر) ، فيرى (كاسكل) W. Caskel انه الإلـه (توت) Thot[4] . و (توت) هو إلـه مصري ، ويرمز اليه بصورة قرد . ويمثله الإلـه (نبو) عند البابليين . ويمثل (توت) (هرمس) و (المريخ) Merkur . فهو الإلـه الكاتب . ولعــل اللحيانيين أخذوا إلههم هذا من المصريين[5]. ولكننا لا نستطيع أن نجزم ان اللحيانيين قد تصوروا إلههم هذا على صورة (قرد) محاكاة للمصريين لأنهم أخذوه منهم، إذ لا دليل لدينا نستدل به على انهم تصوروا ذلك الإلـه بصورة قرد[6] .

---

١ E. Osiander, 501, Reste, S. 51, Preislamiques, p. 17 Arabien, S. 84, Jaussen-Savignac, Mission, II, p. 84.

٢ Reste, S. 67, Preislamiques, p. 48, Arabien, 85, Jaussen-Savignac, Mission, II, 501, 520, 528, I, 169, 200, CIS, II, 209, Daughty, Documents Epigraphiques, p. 38, CIS, II, 198, J. Euting, Tagebuch., II, S. 262.

٣ Lihyan, S. 45.

٤ Preislamiques, p. 20, Arabien, S. 86.

٥ Lihyan, S. 45.

٦ Lihyan, S. 45.

ووردت في بعض الكتابات اللحيانية أعلام مركبة ، جاء فيها اسم هذا الإله ، مثل (جرم هنا كتب) ، و (زيد هنا كتب) . ومعنى (جرم) و (زيد) خادم أو عبد ، فيكون الاسم (عبد هنا كتب) ، (عبد هنا كاتب)[١] .

وأما (سلمن) (سلمان) ، فإنه من الآلهة التي ظهرت عبادتها عند اللحيانيين المتأخرين . ويرى بعض الباحثين انــه والإله (اب الف) (أبو ايلاف) من الآلهة التي كان واجبها حماية القبور . وقد رمز عن (ابي ايلاف) بصورة أسد يوضع عند جانب القبر ليحميه[٢] .

وقد ورد اسم الإله (ابا لف) (ابو ايلاف) اسم علم لشخص كان كبيراً على قومه ، وذلك في ايام الملك (عبدان بن ها نواس)[٣] .

وورد اسم إله هو (شمس) ، وقد عبد عند أهل تدمر أيضاً ، كما تعبدت له تميم . ونجد بين أسماء رجال قريش وقبائل أخرى أسماء تدل على تعبد الناس للشمس ، ومن هذه الأسماء : (عبد شمس)[٤] .

وأما الإله (عجلبن) (عجلبون) (عجل بن) ، فإنه من الآلهة اللحيانية المتأخرة . ويظهر ان اسمه الأصلي هو (عجل بل) (عجل بول) (عجلى بل) أي (عجل) و (بول) . ونجد اسمه مع (يرحى بول) (يرح بل) (يرحبل) ، و (بل) في الكتابات التدمرية . ويظهر ان تاجراً جاء بــه الى اللحيانيين ، وأدخل عبادته عندهم . ويظهر انه جاء به من العراق[٥] .

ولدينا أسماء ونعوت آلهة تعبد لها اللحيانيون من غير شك ، وإن لم نعثر عليها في كتاباتهم ، توصلنا الى معرفتها والوقوف عليها من دراستنا للأسماء اللحيانيــة المركبة ، مثل (كبر ال) (كبر ايل) ، و (متع ال) (متع ايل) ، و (ذرح ال) (ذرح ايل) (ذرحال) ، و (عذر ال) (عذر ايل) ، وأمثال ذلك ، فإن اللفظة الثانية وهي (ال) (ايل) ، هي الإله (ايــل)

---

١ Lihyan, S. 45.
٢ Lihyan, S. 45.
٣ Lihyan., S. 113.
٤ Starcky, Palmyre, 37, 80, O. Eissfeldt, 95, 101, Arabien, S. 87.
٥ Lihyan, S. 45.

(ايلو) ، وهو من الآلهة السامية القديمة [1] .

وبين الأسماء التي وصلت الينا ، اسم رجـل عرف بـ (عبد قني) (عبد قاني) [2] ، مما يدل على ان لفظة (قني) ، هي اسم إلـه أو نعت من نعوت الآلهة .

وورد في الكتابات اللحيانية المتأخرة اسم رجـل عرف بـ (عبد غث بن زد له سمم) [3] ، أي (عبد غوث بن زيد لاه بن سمم) (سموم) ، كما ورد (زد غث) ، أي (زيد غوث) [4] ، وذلك يدل على ان لفظة (غوث) اسم إلـه . وعندي ان (غوثاً) نعت من نعوت الآلهة ، أي اسم من أسماء الله الحسنى لا اسم علم لإلـه خاص .

و (خرج) من الآلهة التي تعبد لها اللحيانيون ، بدليل ورود اسمه في أسماء الأعلام المركبة مثل : (زيد خرج) و (عبد خرج) [5] .

ويعد (رعن) من آلهة اللحيانيين كذلك ، إذ ورد في الأعــلام المركبة ، مثل : (رعنامر) ، أي (رعن أمر) ، وهو اسم رجل من (ديدان) . فـ (رعن) من آلهة الديدانيين أيضاً ، ومثل : (رعنامد) (رعن امد) ، ومعنى (امد) أغضب ، و (رعنلثع) ، (رعن لثع) ، أي (رعن احاط) و (رعن ادرك) . فـ (رعن) اذن اسم إلـه من آلهة اللحيانيين والديدانيين [6] .

والإلـه (يثع) و (يثعن) ، من الآلهة التي تعبد لها اللحيانيون ، فقد ورد في النص الذي وسمه الباحثون برقم (٧٣) وبـ J S 73 و M 26 ، اسم امرأة عرفت بـ (امتيثعن بنت دد) ، أي (أمة يثعن بنت داد) ، (أمة اليثع بنت داد) ، وورد في الكتابات اسم رجل عرف بـ (يثع حيو) [7] ، واسم رجل آخـر هو

---

١ (جرم ال) (جرم ايل) (عزال ، (عزايل) (عم ال) ، (عم ايل) ، (ايس ال) (ايس ايل) ، (سعد ال) (سعد ايل) ، (يمسك ال) (يمسك ايل) ، Lihyan, S. 46.

٢ Lihyan, S. 47, 143, JS 214.

٣ JS 41, Lihyan, S. 109.

٤ JS 298, Lihyan, S. 47, 154.

٥ Lihyan, S. 47.

٦ Lihyan, S. 47, JS 108, JS 116, JS 142.

٧ Lihyan, S. 100.

(يثعحن) ، مما يدل على ان (يثع) كان إلهاً معبوداً ومعروفاً عند (بني لحيان).

وقد ورد في كتابة من كتابات (ديدان) اسم رجل عرف بـ (يثع امر) (يثع أمر) ، فقد ورد في النص الموسوم بـ (٢) من الكتابات القبوريـة : (كهف : يثعامر) ، أي (قبر : يثعامر) (قبر يثع أمر)[1] . واسم (يثع أمر) هو من الأسماء الشائعة المعروفة عند العرب الجنوبيين ، وقد تسمى به ملوك من ملوك (سبأ) . فالظاهر انـه من الأسماء التي أخذها الديدانيون واللحيانيون عن العرب الجنوبيين ، ومن الجاليات العربية الجنوبية التي كانت قد استقرت في أيام عز الحكومات العربية الجنوبية في هذه الأماكن . فـ (يثع) اذن ، هو إلـه من آلهة العرب الجنوبيين في الأصل ، انتقلت عبادته منهم الى أهل ديدان واللحيانيين .

ومن الآلهة التي نجد لها أثراً في عبادة اللحيانيين من دراستنا لأسمائهم ، الإلـه: (حمد) (حميد) . فقد ورد في اسم امرأة عرفت بـ (امتحمد بنت عصم)[2] . وأرى ان (حمد) أو (حميد) ليس اسم إلـه ، أي اسم علم ، وانما هو نعت من نعوت الآلهة ، أي اسم من الأسماء الحسنى ، التي يسم الانسان بها آلهته ، على سبيل التأدب والاحترام .

ونرى أثر عبادة الإلـه (مناة) عند اللحيانيين من دراستنا للأعلام المركبـة أيضاً ، مثل : (عبد مناة) (عبد منت)[3] ، و (اسمنت) (اوس منت) ، أي (أوس مناة)[4] ، و (عبمنت) اختصار (عبد مناة) و (عبدة مناة) ، و (عذ منت) ، أي (عوذ مناة) ، و (عابذ مناة) ، و (هون منت) (هون مناة) ، و (نعم منت) (نعممت) أي (نعم مناة) ، و (نسمنت) (نسأ مناة) ، و (قن منت) (قنمنت) ، أي (قين مناة) ، و (سنفمنت) (سنف مناة) ، و (تهنمنت) (تهنأ مناة) ، الى غير ذلك من أعلام مركبة، ورد فيها اسم ذلك الإلـه[5] الذي هو إلهة ، أي أنثى عند العرب . وقد ذكرت

---

١ Lihyan, S. 78.

٢ راجع السطر الاول من النص المرقم بـ : ٧٨ ، المنشور في كتاب : Lihyan, S. 115.

٣ Lihyan, S. 103.

٤ JS 10, Lihyan, S. 143.

٥ Dihyan, S. 46.

في القرآن الكريم . ولا أستبعد ان يكون أنثى عند اللحيانيين أيضاً . ولعل لأصل الكلمة التي أخذ اسم هذه الإلهة منه ، وهو (منوتو) Manotu في النبطية ، وتعني (منية) في عربيتنا صلة ، بجعل الإلـه إلهة ، أي تحويلها الى إلهة أنثى .

والصنم (اللات) من الأصنام النبطية ، المعبودة عند النبط ، والمعبودة عند ثمود كذلك ، والظاهر ان عبادته انتقلت الى عرب الحجـاز ونجـد من العرب الشماليين ، الذين تأثروا بعبادة النبط[1] .

ووردت لفظة (هتهم) في كتابة لحيانية ، وردت بمعنى (إلاهتهم) ، أي تعبيراً عن إلهة أنثى[2] . ويظن (كاسكل) ، انها تصغير (لات) (لث) . و (اللات) ، من الآلهـة المعروفة المعبودة عند النبط ، وكذلك عنـد العرب الشماليين ، وعند عرب الحجاز . وقد ذكرت في القرآن الكريم ، وهي إلهـة ، أي أنثى. وترد اللفظة عندهم في الأعلام المركبة مثل : (تيم اللات) (تيم لات)[3] .

وقد وردت لفظة (هله) (هـ ــ لاه) في كتابـة لحيانية ، وردت بصيغة التوسل والنداء والخطاب ، أي بمعنى : (اللهم) و (يا الله)[4] . ووردت لفظة (لله) ، أي (الى الإلـه) أو (لله) ، في كتابة أخرى[5] . وهي لا تعني في كلتا الحالتين إلهاً خاصاً معيناً ، وانما تؤدي المعنى الذي تؤديه لفظة (إلـه) و (الإلـه) في عربيتنا ، و God في الانكليزيـة ، وربما قصد بها إلـه لحيان الأكبر (ذو غابة) ، كما يقصد المسلمون باطلاقها لفظة (الله) ، وذلك للتعبير عن اسم الله بأسلوب مؤدب مهذب[6] .

ومثل : (هنا له) (هنا لاه) (هنى لاه) ، و (نساله) (نسألاه) (نسى لاه) ، و (ودع لاه) (ودع له) ، و (مراله) (مرأ لاه)، و (تيم له) (تيم لاه) ، و (وهب له) (وهب لاه) ، و (زيد له) (زيد لاه) ، و (جرم له) (جرم لاه) ، و (سعد له) (سعد لاه)[7] ،

---

١ Lihyan, S. 46.
٢ Lihyan, S. 89.
٣ Lihyan, S. 46.
٤ Lihyan, S. 103.
٥ Lihyan, S. 104.
٦ Lihyan, S. 46.
٧ Lihyan, S. 46.

فإن الجزء الأخير من الاسم وهو (له) (لاه) ، هو (إلّه) . وإلّـه من الألفاظ الدالة على الله ، وترد في أكثر اللغات السامية .

ويلاحظ ان أكثر استعمال (ال) (ايل) في العبرانية هو في الشعـر وفي أسماء الأعلام المركبة ، ولم يستعمل في النثر إلا قليلاً [1] . أما في اللهجات العربية وفي اللغات السامية الأخرى ، فقد استعملت اللفظة في الأعلام المركبة في الغالب ، وفي معنى (إلّه) مثل (ال تعلى) ، أي (الإلّه تعالى) ، وما شاكل ذلك ، أي بمعنى اسم من أسماء الله الحسنى وإلّه .

وعلى الرغم من ورود (ال) (ايل) El بصورة يستنبط منها انها قصدت إلهاً معيناً خاصاً ، أي اسم علم ، لا نستطيع ان نقول إن (ال) اسم علم لإلّه معين مخصوص ، مثل الآلهـة الأخرى التي ترد أسماؤها في الكتابات ، ذلك لأن الذين ذكروا (ال) (ايل) في الأعلام المركبـة ، أو في مواضع أخرى من كتاباتهم لم يقصدوا كما يتبين من الاستعمال إلهاً معيناً اسمه (ال) (ايل) ، وانما أرادوا ما نعبر عنه بقولنا (إلّه) والجمع آلهة . فلفظة (إلّه) عندنا ليست اسم علم ، وانما تعبر عن اسم الجلالة دون ذكر اسمه . وهي كذلك عندهم وعنـد بقية الساميين بمعنى (رب) ، وإلّه و (بعل) عند الأقدمين .

ولا يعرف العلماء معنى لفظة (ال) (ايل) على وجه علمي دقيق . ولكنهم يفسرونها عادة بمعنى (القدير) و (الحاكم) . ومعنى ذلك ان (ال) نعت من نعوت الآلهة ، أو اسم من أسماء الله الحسنى بحسب التعبير الاسلامي . ويرى بعض العلماء احتمال عدم وجود صلة له بـ (الوهيم) Elohim الكلمة العبرانيـة التي تطلق على الإلّه [2] .

وأما آلهـة الصفويين ، فهي (اللت) (لت) (هلت) ، و (دين) (ديان) ، و (هله) (هـ ل هـ) ، و (جدعوذ) ، و (بعل سمن) ، و (شيع هـ — قوم) (شيـع القوم) ، و (اثـع) ، و (صالح) ، و (ذ الشرا) (ذو الشرى) ، و (رضا) (رضى) ، و (جدضيف) ، و (رحم) (رحيم) [3] .

---

١ Hastings, p. 299, Lihyan, S. 46, Le Muséon. 1954, Tome, LXVII, p. 106.

٢ Hastings, p. 299.

٣ Ryckmans, p. 21.

و (الت) ، أي (اللات) إلهة أي أنثى ، ويراد بها الشمس . وقد مثلت في بعض النصوص الصفوية بقطعة من الشمس رسمت بصورة بدائية ، ورسمت في بعض النصوص السامية الشمالية بشكل امرأة عارية [1] ، رمز اليها بصورة فرس في النصوص العربية الجنوبية، والفرس من الحيوانات المقدسة التي ترمز الى الشمس عند قدماء الساميين وعند غيرهم من الشعوب ، ولذلك كان الناذرون لها يقدمون لها تماثيل مصنوعة على هيأة فرس [2] .

ولفظة (ديان) (ديّان) ، ليست اسم صنم على ما يظهر، وانما هي صفة من صفات الآلهة . وهي معروفة في عربيتنا وعند المسلمين ، تطلق على الله .

وقد استعمل الصفويون (جد عوض) اسماً لإلـه ، كما استعملوا اسماً آخر قريباً منه هو (جد ضيف) .

وقد ورد اسم الإلـه : (جد عوض) (هجد عوض) في نص محفوظ في متحف دمشق ، وسم بـ Damas 1312 ، وورد بعده اسم الإلهين : (شع هقوم) (شيع هقوم) ، و (هلت) (اللات) [3] .

وتقابل لفظة (جد) معنى الحظ في اللغـة اليونانية ، وقد صار في الأقاليم السورية المتحضرة الإلـه الحارس للمدينة . و (جد عوذ) هو إلـه معروف مشهور عند الصفويين ، وورد اسمه في كتاباتهم . وقد ذهب (رينـه ديسو) الى ان لفظة (عوذ) (عويذ) هي اسم عشيرة أو قبيلة كانت تتعبد للإلـه (جد) ، وكانت سدنته منهم ، فنسب اليهم وعرف بـ (جد عوذ) (جد عويذ) على طريقة العرب في ذلك العهد من نسبة الأرباب الى القبائـل أو العشائر أو السدنة التي يخدمونها أو الى الأشخاص الكبار [4] .

وقد ورد اسم الإلـه (جد ضيف) (جـد ضف) في عدد من الكتابات الصفوية التي عثر عليها في المملكة الأردنية الهاشمية . كما ورد فيها اسم إلـه آخر هو الإلـه : (هجد عوذ) (ها ــ جد عوذ) [5] .

---

١ Handbuch, I, S. 214.

٢ Handbuch, I, S. 227, Grohmann, Gottersymbole und Symboltiere auf Sud-arabischen Denkmaler, Wien, S. 70.

٣ Ryckmans, Inscriptions Safaitiques, Louvain, 1951, p. 87.

٤ رينه ديسو (١٣٧)

٥ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, 1951, Vol., I, p. 27.

أما الإلـه (شيع القوم) ، فقد ورد اسمه في النصوص النبطية في (بطرا) وفي (تدمر) ، وهو إلـه القوافل في نظر بعض المستشرقين[1] .

وهو إلـه يحمي قومه. وقد احتمى به أهل القوافل خاصة من الأعراب وقطّاع الطرق . ولذلك كان التجار وأصحاب القوافل يذكرون اسمه وربما يحملون وثنه معهم لحمايته لهم في أثناء السفر حتى بلوغهم ديارهم سالمين .

وقد نعت في كتابة نبطية دوّنها أحد نبط (تدمر) ، بأنه (الذي لا يشرب خمراً)[2] . وهذا يعني ان هذا الإلـه كان يكره الخمور ، ويكره شاربيها ، ولعل في ذلك فكرة تحريم الخمر عند جماعته . وقد كان في الجاهليين من حرموا الخمر على أنفسهم . كما نعت بـ (الإلـه الطيب المجازي)[3] ، وهو نَعْت نُعِت به وبمثله آلهة أخرى . وقد ذهب بعض الباحثين الى احتمال وجود جماعة من النبط ومن غير النبط كانت تحرم شرب الخمر ، بدليـــل ما جاء في النص النبطي من نعته بأنه (الإلـه الطيب المجازي الذي لا يشرب الخمر)[4] . و (يثع) هو في جملة الآلهة التي تعبد لها الصفويون ، كما تعبد له غيرهم أيضاً . وقد قلت سابقاً باحتمال انتقال عبادته الى هذه الأرضين من العرب الجنوبيين الذين كانوا قد نزحوا اليها واستولوا عليها وذلك قبل الميلاد. وتعني لفظة (يثع) الحامي والناصر والمساعد، وقد حرّف في اليونانية الى (ايثاؤس) و (يشع) . وقد ورد (يثع) في نص توسل فيه صاحبه الى هذا الإلـه ان يعينه على المكاره ، وتوسل آخر اليه ان يثأر ممن يتبعه ، وطلب اليه آخر ان يشفيه من المرض[5] .

و (رحم) (رحيم) مثل (رحمن) ، أي (الرحمن) ، لعلهما اسمان من أسماء الله الحسنى في الأصل ، ثم صارا اسمين علمين . وينطبق هـذا القول على لفظة (صالح) الواردة في نصوص الصفويين[6] .

---

١ Histoire., IV, p. 14.

٢ Littmann, Semitic Inscriptions, 1904, p. 70, Montgomery, p. II, Cooke, North Semetic Inscriptions, p. 304.

٣ رينه ديسو (١٤٥) .

٤ رينه ديسو (١٤٥) .

٥ رينه ديسو (١٤٣ وما بعدها) .

٦ Preislamiques, p. 23.

وقد قرأ بعض الباحثين لفظة (رحم) : (رحام) . أما (نولدكه) ، فقد قرأها بتشديد حرف الحاء[1] . ولعـدم وجود علامات لحركات الحروف ، يجوز ان تقرأ الكلمة (رحيم) ، كما ذكرت آنفاً . وقد ورد اسم هذا الإلـه في نص تدمري أيضاً ، لأنه كان معبوداً عندهم أيضاً[2] .

وقد ذكرت (الشمس) في نص أو نصين أو أكثر من ذلك بقليل من النصوص الصفوية . وعبادة الشمس ، هي عبادة قليلة الانتشار بين الأعراب ، على عكس الحضر الذين كانوا يتعبدون لها . ولهذا كان أكـثر الذين عبدوها من الحضر ، أو من الأعراب الذين تطوروا بأن ركنوا الى حيـاة الحضر ، أو توسطوا بين الحياتين[3] .

وفي جملة النصوص الصفوية التي ورد فيهـا اسم (الشمس) ، نص سجله رجل اسمه (خالص بن شهم[4] بن عمرة بن عم)[5] . وقـد توسل الى (شمس وجد عوذ واللات) ان تنزل العمى بمـن يتطاول على الكتابة فيمحوها ويطمس معالمها[6] .

و (شمس) من هذه الآلهـة التي ذكرت في الأعـلام المركبة ، إذ ورد (عمشمس) (عم شمس)[7] . وهي إلهة معروفة ، تعبد لهـا العرب الجنوبيون وغيرهم من العرب ، كما انها من الآلهـة المعبودة عند بقيـة الساميين . ويرى (كاسكل) ان الشمس كانت تعد إلهاً ذكراً عند أكثر العرب الشماليين في هذا العهد ، أي في القرن الأول قبل الميلاد ، والقرن الأول للميلاد[8] .

ونجد اسم الإلـه (بعل سمن) في الكتابات الصفوية كذلك[9] . والصفويون ،

---

١ رينه ديسو (١٤٤) .
٢ رينه ديسو (١٤٤) .
٣ رينه ديسو (١٤٤ وما بعدها) .
٤ « شهم » « شهيم » على هذه الصورة : « شوهيم » دونها مترجم : رينه ديسو ، أما الأصل الصفوي ، فهو « شهم » ، راجع رينه ديسو (١٤٢) .
٥ في الأصل « عمرت » ، « عمرة » ، في الترجمة « عمرت » ، رينه ديسو (١٤٢) ، و « عم » في الأصل ، في الترجمة « عوم » ، رينه ديسو (١٤٢) ، ربما « عوام » .
٦ رينه ديسو (١٤٢) .
٧ Lihyan, S. 47, 144.
٨ Lihyan, S. 48.
٩ Littmann, Safa., S. 58.

هم كما ذكرت قبائل عديدة طافت في هذه الأرضين التي عثر على الكتابات الصفوية بها ، وهم من مواضع متعـددة ، ولم يكونوا من موطن ثابت ، لذلك كانوا يعبدون آلهة مختلفة ، آلهة قبائلهم ، وآلهة قبائل سبقتهم ، وآلهـة قبائل اختلطوا بها فأخذوا عنها معبوداتهم ، مثل هذا الإله (بعل سمين) ، أي بعل السماء ، أو رب السماء .

وتعدّ اللات من أهم الآلهـة عند الصفويين ، بدليـل كثرة ورود اسمها في كتاباتهم . فقد ورد اسمها في أكثر من ستين مرة في الكتابات[1] .

و (هـ ل هـ) ، (هله) هي بمعنى : (اللهم) . فلفظـة (له) هي بمعنى (إله) و (لاه) . وقد ذهب بعض المستشرقين الى انها تعني (الله) . واذا صح هذا الرأي ، دلّ على ان لفظة الجلالة (الله) كانت معروفة عنـد العرب الجاهليين قبل الاسلام بقرون . وقد وردت في عدد من النصوص الصفوية مسبوقة بحرف (الهاء) في الغالب ، وهو حرف النداء ، كالذي ورد في نص صفوي سجّله شخص اسمه (سني بن سني بن محنن) ، ذكر فيه انه عثر على أثر عمه ، ثم توسل الى (له) إذ خاطبه بقوله : « فهله سلم لذ ساد وغيرت » ، أي : « فيا الله امنح السلامة لمن سار بمعنى سافر وساعده »[2] .

و (رضى) (رضا) هو من الآلهة التي تعبد لها الصفويون كذلك ، وقد تحدثت عنه في مواضع عدة ، اذ كان معبوداً عند غيرهم أيضاً . وهو (ارصو) (ارضو) في الغالب ، الذي يرد في نصوص تدمر . وقد ورد اسم (رضى) في عدد من الكتابات الصفوية ، يتوسل فيها أصحابه اليه أن يمنّ عليهم بالسلامة والنعم ، وأن يبعد عنهم شر الأعداء وكيدهم ، وأن ينزل النقمة وغضبه على أعدائهم ،الى أمثال ذلك من توسلات وأدعية[3] .

وورود (عبد حت) ، أي (عبد حوت) ، في الكتابات المتأخـرة[4] ، يدل على ان (حوتاً) من أسماء الآلهة التي تعبد لها اللحيانيون .

---

١ العرب في سورية قبل الاسلام (١١١) .
٢ رينه ديسو (١٣٤) .
٣ رينه ديسو (١٣٤) .
٤ Lihyan, S. 47, 143, JS 89.

و (حمل) اسم إلـه أيضاً ، لورود اسمه في الأعلام المركبة مثل : (عبد حمل)[1]، وهو من الأسماء التي وردت في الكتابات اللحيانية المتقدمة[2] .

وكثيراً ما نجد أناساً يتوسلون الى هذه الآلهة بأن تمنحهم السلام والرحمة ، وان تنكل بأعدائهم ، بل نجد شواخص القبور ، ترجوها ان تصيب بالعمى من يطمس كتابة الشاخص ، الذي يحمل اسم صاحب القبر المدفون فيه وان تنزل به الأمراض والآفات[3] . ومعنى هذا ان المؤمنين بها كانوا يعتقدون انها تثيب وتعاقب ، تمنح السلام والخير ، وتنفع وتضر،وتنزل الأذى بمن تريد وتشاء ، ولهذا توسل الناس اليها وخاطبوها ، إما لرجاء وإما لايذاء .

أما آلهة النبط ، نبط (بطرا) ، فهـــي : (ذو الشرى) Dushara ، و (اللات) ، وهو إلهة ، (ام الآلهة)[4] ، و (منوتو) ، أي (مناة)[5] ، و (قشح) ، و (هبلو) ، أي (هبل) ، و (شيع القوم) حامي القوم ، وإلـه القوافل[6] .

وأما (ذو شرا) Dausarys = Dousares (دوسرا) ، فإنه (ذو الشرى) الذي يرد اسمه عند أهل الأخبار . وهو من آلهة (بطرا) ، وقد زعم انه في منزلة (ديونيسوس) Dionysos . وعرف بـ Deos Arabikos = Dieu Arabiques في بعض الكتابات اليونانية التي عثر عليهـــا في الأردن ، والتي يعود عهدها الى سنة (١١٦ ــ ١١٧) أو (١٢٦ ــ ١٢٧) للميلاد ، مما يدل على انه كان من الآلهة المعروفة بين العرب ، وانه إلههم الخاص بهم[7] .

وذكر ان Dusares هو في منزلة Dionysus ، وقد عرف عند اليونان بأنه إلـه العرب ، كما ذكرت . وانه الإلـه Pakades عنـد النبط ، وله معبـد في (جرش) Gerash[8] .

---

١ Lihyan, S. 47.

٢ Lihyan, S. 143.

٣ راجع النصوص في رينه ديسو (ص ١٢٦ فما بعدها) .

٤ CIS, II, 85, 98, NSI, 80, Ency. Religl., 9, p. 112.

٥ CIS, II, 97, 98, NSI, 79. Ency. Religl., 9, p. 22.

٦ Ency. Religl., 9, p. 22.

٧ R. De Vaux, Une Nouvelle Inscription au dien Arabikue, ADAJ, I, 1951, p. 23, Arabien, S. 86.

٨ BASOR, NUM : 83, 1941, p. 8.

وورد اسم (دشر) (دوشرا) Dushares في عدد من النصوص الصفوية. ورد في هذه الجملة مثلاً : (فهلت وهدشر ثار لمن حولت)[1] ، أي (فيا اللات ويا ذو الشرى ، إثأرا ممن يحوّل) . ويقصد بـ (يحوّل) ، يحوّل شاهد القبر الذي كتبت عليه هذه الكتابة . كما ورد في عدد من الكتابات، يرجو فيها أصحابها من هذا الإلـه ان ينعم عليهم بالسلامة وان يتقبل منهم أعمالهم .

وقد ورد مع اسم (ذي الشرى) في بعض الكتابات النبطيـة ، اسم الإلـه (هبل) واسم (مناة) . و (هبل) هو صنم قريش الرئيس . وهو إلـه الكعبة ويرمز الى القمر . وقد وضع في الكعبة على هيأة انسان ، وأمامه حفرة عبر عنها بلفظة (بغبغ) ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، فعوضته قريش بيد من ذهب ، والظاهر ان الحية ترمز اليه ، أو الى ود ، وان الحية التي قيـل انها كانت في بئر زمزم ، هي رمز هبل[2] .

وورد اسم (اللات) مدوناً في نصوص نبطية عديدة ، فقد عثر بـ (صلخد) على كتابات من سنة (٤٠) قبل الميلاد ، وسنة (٥٠) بعد الميلاد ، وسنة (٩٥) للميلاد ، وعلى نصوص أخرى ، وقد ذكر فيها اسم هذه الإلهة، وأشير فيها الى تشييد معبد خصص بعبادتها ، والى سدنة كانوا يقومون بخدمتها . ووجدت كتابات في مواضع نبطية أخرى ، ورد فيها اسم (اللات) ، ويدل كل ذلك على ان اللات كانت من المعبودات المقدره عند نبط هذه الديار[3] .

أما الكتابات النبطية المدونة في أماكن أخرى من بلاد الشأم وفي أعالي الحجاز، فقد ورد فيها اسم (اللات) . ورد فيها على انه من الآلهة الكبيرة ، التي يخدمها سدنة ، ولها معابد خصصت بعبادتها . فقد جاء في نص مؤرخ بسنة (٤٧) للميلاد ان شخصاً اسمه (ملكو بن قصيو) (مالك بن قصي) ، أو (مليك بن قصي) ، كان كاهناً (للات) في موضع (حبرن) (حبران) ، وهو من جبل حوران[4] .

---

١ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol., II, p. 28, 1953.

٢ الازرقي ، أخبار مكة (١/٦٨ وما بعدها) .

٣ رينه ديسو (ص ١١٦ وما بعدها) .

٤ رينه ديسو (١١٥) ، Jaussen-Savignac, Mission, II, p. 506.

وأما آلهة (تدمر) ، فهي (بل) ، أي (بعل) و (عزيزو) ، و (ارصو) (ارضو) ، و (شيع القوم) ، و (شمش) (شمس) و (الـلات) ، و (ايل) ، و (بعل شمين) ، و (سعدو) . ويلاحظ ان الكتابات التدمرية تستعمل في الغالب الكنايات والنعوت الإلهية بدلاً من أسماء الآلهـة ، فاستعملت (تبارك اسمه) ، و (رب العالم) ، و (الله المحسن) ، و (رب العالمين) ، وأمثال ذلك كناية عن آلهـة تدمر . وهي تشير الى وجود فكـرة التوحيد عند التدمريين . والى اغراب أهل تدمر عن التصريح بأسماء الآلهة ، والاكتفاء بذكر نعوتها وأسمائها الحسنى ، على طريقة العبرانيين في تجنب ذكـر اسم الإلـه ، والتكنية عنه بنعوته . وقد يكون لآراء الفلاسفة اليونان أثر في معتقدات أهل تدمر في آلهتهم[1] .

ويرى (ليدزبارسكي) Lidzbarski ان (بل) ، هو إلـه تدمر الأكبر . وهو (بعل) . ولمركزه الخطير عند أهل تدمر ، دعاه اليونان (زيوس) Zeus أما (ملك بل) ، فإنه الشمس ، وأما (عجلى بل) ، فهو القمـر . ويقدم عادة على (ملك بل) في الكتابات . وتقدم القمر على الشمس عادة قديمة عند أهل تدمر لا بد أن يكون لها سبب بالطبع[2] .

أما الإلـه (عزيزو) ، فهو العزى . ويؤيد ذلك ما ذكره أحد الكتبة اليونان من انه كان كوكب الصباح عند العرب، وانه الإلـه الرؤوف الرحيم الذي عبدته العرب قبل الاسلام . ويلاحظ ان هذا النعت وارد في نص تدمري ، مما يثبت كون (عزيزو) هو (العزى) الإلـه الشهير[3] .

وأما (ارصو) (ارضو) ، فيظن (ليدزبارسكي) انه Oratal الذي ذكر المؤرخ (هيرودوتس) ، انه أحد آلهة العرب الكبرى مع الإلـه (اللات) . ويظن ان (ارصو) ، هو (رضا) (رضى) الإلـه الذي أشار اليه الأخباريون .

وأما (اللات) ، فقليل الورود في النصوص التدمرية مع شيوع الأسماء المركبة

---

١ Ency. Religi., 9, p. 592.

٢ Ency. Religi., 9, p. 593.

٣ Ency. Religi., 9, p. 594.

المؤلفة منها ومن كلمات أخرى عندهم[1] .

وأما (منوتو) ، فإنه (مناة) المذكور في القرآن[2] . وكان له معبد في (قديد) ، بين مكة والمدينة ، وقد صنع من حجر ، وتعبدت له الأوس والخزرج ، وهذيل ، وخزاعة . وتعبد له النبط كذلك ، وأقاموا له معبداً أشير اليه في كتابات (مدائن صالح) ، كما تعبدت لـه ثمود ولحيان ونبط تدمر[3] . وهو أنثى في نظر أهل الأخبار ، والظاهر ان بينه وبين المنيّة صلة ، كما بينت ذلك قبلاً .

وقد عبد الإلـه (بعل شمن) (بعل شمين) في تدمر . وقد رأينا انه عبد عند اللحيانيين والصفويين ، وعند غيرهم أيضاً . وقد وجد اسمه في كتابة تعود الى القرن الثاني قبل الميلاد ، تبين منها انه كان معبوداً في (بعلبك) . وهو كما قلت الإلـه (بعل سمن)[4] .

وأما (سعدو) ، فقد رأى بعض المستشرقين انه الإلـه (القمر) ، وانه الصنم (سعد) ، وهو من الأصنام التي ذكرها أهـل الأخبار . وقد تعبّد له بعض كنانة ، ويقال هذيل ، كما تحدثت عنه[5] .

وورد في بعض كتابات (حوران) اسم إلـه دعي بـ (قصي) . واليـه تنسب بعض الأعلام المركبة التي ورد فيها اسمه ، مثل (عبد قصي) . ويظن انه الإلـه المسمى بـ (زيوس كاسيوس) Zeus Kasios وبـ Jupiter Casius = Jupiter Casiu في الكتابات اليونانية[6] . وفي جملة هذه الأسماء المركبـة المعروفة التي وردت الينا ، اسم (وهب لث) ، أي (وهب اللات) ، وهو اسم ابن الملك (أذينة) من زوجه (زنوبيا) ، أي (الزبّاء)[7] .

---

١ Ency. Religi., 9, p. 594.

٢ سورة ٥٣ ، الآية ٢٠ .

٣ Jaussen-Savignac, Mission, I, p. 169, 192, CIS, II, No. : 224, J. Starcky, Palmyre, 85, Arabien, S. 84.

٤ Arabien, S. 86. Ryckmans, 20.

٥ O. Eissfeldt, 150, Arabien, S. 85, Handbuch, I, S. 234.

٦ Arabien, S. 86.

٧ رينه ديسو (١٢٢) .

وقد ذهب (رينه ديسو) ، الى ان العنصر العربي كان مهماً في تدمر ، وله أثر في حياة المدينة ، وانه هو الذي أدخل عبادة اللات الى تدمر . وقد عبر عنها بـ (اثينا) ، ولهـذا ترجموا اسم ابن الزبّاء ، أي (وهب اللات) ، بـ (اثينودور) Athenodore[1] .

وجاء في كتابات نبط (مدائن صالح) اسم إلـه عرف بـ (شيع هقوم) (شع هقم) (هشع هقم) (شيع هاقوم) (شيع القوم) ، وهو إلـه القوافل والمحاربين . يدافع عن القوافل وعن رجالها ويصد عنها لصوص الطرق وقطّاعها ، ولهذا كان يتقرب اليه التجـار بالنذور وبالدعوات لينزل بمن يتحرش بتجارتهم العذاب الأليم[2] . وهو أيضاً من آلهة قوم ثمود والصفويين[3] ، كما تحدثت عن ذلك .

وقـد بني للعزى معبـد في (بصرى) ، عرف بـ (بت ال) ، أي (بيت ايل)[4] .

وأما آلهة (ديدان) ، فلا نستطيع التحدث بإفاضة عنها ، لعـدم وصول كتابات ديدانية الينا ، فيها ذكر لتلك الآلهة . وفي الأسماء الديدانية المركبة أسماء آلهة ، على رأسها (ال) (ايل) الذي ورد في (كبر — ال) (كبر ايل) ، و (متع ال) (متعال) (متع ايـل) ، و (ذرحال) (ذرح ايل) ، و (وسقال) (وسق ايل) ، و (ال — بر) (ايل — بر) ، و (العم) (ايل — عم) ، و (شيال) (شيم — ايل) ، و (الاب) (ال اب) ، (ايل اب) ، فإن (ايل) (ال) في هذه الأسماء هو الإلـه (ايل)[5] .

ثم : (إلـه) ، و (يثع) ، و (خرج) ، و (رعن) ، و (دد) (داد) ، و (نعر) ، و (قس) (قوس) (قيس) . وبعض هـذه الألفاظ نعوت للآلهة ، لا أسماء أعلام ، وبعضها من أصل عربي جنوبي ، مثل (يثع) ، فإنها نعت من نعوت الآلهة ، معناه : (المساعد) (الناصر) (المؤيد) ،

---

١ رينه ديسو (١٢٢) .
٢ Arabien, S. 86.
٣ F. V. Wineth, Safaitic Inscriptions from Jordan. University of Toronto Press, 1957, p. 20.
٤ Arabien, S. 82.
٥ Lihyan, S. 37.

وقد عرف عند السبئيين . وبعض آخر من أصل شمالي مثل (دد) (داد) ، فإنه من معبودات الكنعانيين والنبط[1] .

ويرى (كاسكل) ان (خرجا) هو إلـه ، والخرج في العربية أول ما ينشأ من السحاب ، وبه سمي (الخرج) . وقد ورد في الأعلام المعينية المركبة : (عبد خرج) ، و (زيد خرج)[2] . ويحتمل أن يكون قد جاء الى الديدانيين من المعينيين الذين كانوا أصحاب ديدان قبل الديدانيين .

ويرد (دد) (داود) في الأسماء المركبة كذلك ، وكذلك بصيغة التأنيث ، أي (ددت) (دادت) ، أي إلهة . ويعني (دد) عـم[3] . فقد ورد (حي — دد) (حي داد) ، وورد (عبد ددت) ، أي (عبد دادت)، يدل على ان (داد) إلـه من الآلهة المعبودة ، وان (ددت) إلهة .

و (قس) أي (قوس) هو أيضاً من أسماء الآلهة ، اذ ورد مكوناً لاسم رجل ، عرف بـ (جلتقس) ، أي (جلت قوس)[4] . وورد اسم آخـر في الأعلام المركبة كذلك ، هو (قس) ، في اسم (عبد قس) ، ويمكـن ان يقرأ (قوساً) كما يمكن ان يقرأ (قيساً) ، أي (عبد قيس) ، و (عبد قيس) و (عبد القيس) من الأسماء المعروفة عند العرب . فـ (قوس) و (قيس) من الآلهة المعروفة عند العرب .

و (قوس) هو من آلهة (بني أدوم) ، أي الأدوميين،اذ كان يعبد عندهم . وقد ذهب (بروى) Braeu الى ان الإلـه (قيس) هو إلـه واجبه حماية الحدود[5] .

ووردت لفظة (صلم) في الأعلام المركبة كذلك ، مثل (صلمجد) أي (صلم جد) ، ومثل (صلميحب) (صلم يحب)[6] ، ومعنى ذلك ان (صلما) هو اسم إلـه .

يلاحظ ان بين الآلهة المذكورة أسماء ، هي في الواقع ليست أسماء ، وانما هي

---

١ Lihyan, S. 38.

٢ Lihyan, S. 38.

٣ Lihyan, S. 38. Lihyan, S. 47, 145.

٤ Lihyan, S. 47, 146.

٥ Lihyan, S. 47, Brau, in WZKM., XXXII, 56.

٦ Lihyan, S. 47, 152, JS 314, 382.

صفات ، أو ما يقال له (أسماء الله الحسنى) في الاسلام ، استعملت وأطلقت على الآلهة حتى صارت في منزلة الأسماء . كما نجد صفات وضعت قبلها لفظة (ذ) أي (ذو) أو (ذت) ، أي (ذات) ، وأطلقت على الآلهة اطلاق الأسماء على المسميات . ومن هذا القبيل (ذعقل) ، أي (ذو عقل) ، و (ذ شرى)، أي (ذو الشرى) ، و (ذقبض) ، أي (ذو قبض) ، و (ذت انوط) ، أي (ذات أنواط) ، و (ذت حمم) ، أي (ذات حميم) ، و (ذت بعدن)، أي (ذات البعد) ، فليست هذه أسماء في الأصل ، وانما هي على ما ذكرت، وقد عبر بها عن آلهة معينة ، حتى صارت عندهم في منزلة الأسماء .

الآلهة التي ورد ذكرها في النصوص :

وأود ان أدوّن هنا أسماء ونعوت الآلهة التي أشير اليها في نصوص المسند، وفي النصوص الأخرى باختصار ، ليحيط بها القارىء ، وهي : (ود) إلـه معين الكبير . وقد ورد في نصوص أخرى عثر عليها في أعالي الحجاز . و (المقه) إلـه سبأ الكبير ، و (سن) (سين) إلـه حضرموت الكبير ، و (ورخ) و (شهر) ، و (عم) إلـه شعب قتبان . وهي كلها في معنى واحد ، اذ قصد بهـا الإلـه القمر .

ومن الأسماء الأخرى : (انبي) (أنبي) ، و (شرقن) (الشارق) ، و (رحم) (الرحيم) (رحيم) ، و (رحمنن) (الرحمن) ، و (عثتر) ، و (اثرت) (اثيرت) ، و (بعل) ، و (بعلت) ، و (ذات انوت) (ذات أنوات) ، و (ربت اثر) ، و (بعدن) ، و (ذت بعدن) ، و (بـرن) ، و (ذت برن) ، و (غضرن) ، و (ذت غضرن) ، و (حمم) (حميم) ، و (ذت حمم) (ذات حميم) (ذات حمم) ، و (نشقم) (نشق) ، و (رحبن) (رحاب) (الرحاب) ، و (ذت رحبن) (ذات الرحاب) ، و (صهرن) (الصهر) ، و (ذت صهرن) (ذات الصهر)، و (صنتم) ، و (ذت صنتم) ، و (ضهرن) ، و (عم ذ دون) ، أي (عم رب دأون) (عم صاحب داوان) ، و (ال) (ايل) ، و (كهلن) (الكاهل) . و (حرمن) (الحرم) ، بمعنى الإلـه ، و (حرمت) (حرمة) ،

بمعنى الإلهة . و (هوبس) ، و (حلم) (حليم) ، و (حكم) (حوكم) ، و (متب قبط) ، و (متب نطين) ، و (نهى) ، و (نكرح) ، و (نسر)، و (نسور) ، و (رب شهر) ، و (رب ثون) ، و (صدق) (صديق) (صادق) ، و (شمس) ، و (سموى) ، و (شرقن) ، و (سمع) (سميع) (سامع) ، و (تالب) (تلب) ، و (تلب ريمم) (تالب ريام) ، أي الإلّه (تالب) رب موضع (ريام) لوجود معبد كبير له به . و (عثرت) ، و (عــزيّ) ، و (تلب سمعى) (تالب سمعى)[1] ، و (حول) (حويل) ، و (ذ جربم) (ذو جرب) ، و (ذ قبضم) (ذو قبض) (ذو القبض) (القابض) ، و (سمعى) ، و (شريت) (شرى) ، و (عثتر شرقن) ، و (عزين) ، و (قزح) ، و (متب مذجب) ، و (نرو)[2] .

ومن أسماء آلهــة ثمود : (ود) ، و (جـد هدد) ، و (شمس) ، و (عزيز) ، و (نعرجد) ، و (عمى شجا) ، و (رضو) و (منت) ، و (كهل) ، و (نهي) ، و (ايل) (ال) ، و (لت) (لات) ، و (عثرسم) (عثر سمن) ، و (صلم) ، و (منف) ، و (عثتر) ، و (يثع) ، و (يغث) (يغوث) ، و (بعلت) ، و (يهو) ، و (فلس)، و (عوذ) .

وتمكن الباحثون من الحصول على أسماء عدد من آلهة لحيان ، منها : (ابلهف) (اب الف) (ابالف) ، بمعنى (أبو ايلاف) ، و (عجلبن) ، و (بدع سمع) (بدعسمع) ، و (بعلسمن) ، (بعـل السماء) ، و (ذ غبت) (ذو غابــة) ، و (هنا كتب) (هانىء كتب) ، و (له) (لاه) ، و (لهت) (الهات) ، و (لت) (لات) ، و (همحر) (ها محر) ، و (سلمن) (سلمان) ، و (هنعزي) (هانعزي) ، و (ود)[3] .

---

١ Handbuch, I, S. 260-261.

٢ Handbuch, I, S. 260.

٣ W. Caskel, Lihjan, S. 141.

وحصلنا من الكتابات الصفوية على أسماء بعض الآلهة ، مثـــل : (اللات) (لت) ، و (العزى) ، و (مناة) (منات) ، و (رضا) (رضو) ، و (هله) (هالاه) (الله) ، و (جدعوذ) ، و (شمس) ، و (رحم)، و (شيع هقوم) (شيع القوم) ، و (اثع) (اثاع) ، و (بعل سمين) (بعل سمن) ، و (دوشر) (ذوالشرى) (دشر) ، و (جدضف) (جد ضيف)[1] .

[1] Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol., I, 1951, p. 27.
والعدد الثاني الصادر سنة ١٩٥٣ (ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ .

الفصل الحادي والسبعون

شعائر الدين

ولكل دين شعائر تكون له سمة وعلامة تميزه عن غيره من الأديان . ولمّا كنا قد ذكرنا ان الجاهليين كانوا شعوباً وقبائل ، لم تجمع بينهم وحدة فكر ولم تضمهم دولة واحدة ، أو عقيدة مشتركة ، فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن شعائر واحدة لجميع عرب الجاهلية .

وما سأذكره عن ديانات أهل الجاهلية ، مستمد إما من نصوص جاهلية ، وذلك فيما يخص العربية الغربية والعربية الجنوبية في الغالب،وإما من موارد اسلامية، وهو ما يتناول أهل الحجاز ، قبيل ظهور الاسلام ، وبعض أنحاء نجد . وهو مما جاء عنهم في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي وفي كتب التفسير والسير والأخبار مما له صلة بأيام الجاهلية المتصلة بالاسلام ، وبظهور الاسلام .

وفي مقدمة شعائر الدين عند أهل الجاهلية : الأصنام وبيوتها والتقرب اليها بالصلاة وبالسجود وبالطواف حولها ، وبالنذور ، وبالحبوس وبالقسم بها ، وذلك لتمنّ على عبدها الانسان فتمنحه ما يرجوه في هذه الحياة من صحة وعافية ومال ونسل وذكور : وتكاد تنحصر الكتابات الجاهلية [1] التي عثر عليها حتى الآن بهذه الأمور ، اذ لا نكاد نجد فيها شيئاً له علاقة بالآلهة يخرج عن حدود ما ذكرت . ويكاد يقتصر ما جاء في روايات أهل الأخبار عن ديانة أهل الجاهلية بهذه الأمور

١ Grohmann, S. 89, Jaussen - Savignac, Mission, II, 397, 401, 452.

أيضاً ، فلا تتجاوز ما ذكرته من تقرب الى صنم أو توسل اليه وطواف بـه ، لنيل شيء منه يتمناه ويرجوه في هذه الحياة الدنيا .

أما الصلاة الى الآلهة على نحو ما يفهم من الصلاة في الإسلام فلا نجد لها ذكراً في النصوص الجاهلية ، ولا نكاد نجد لها صورة واضحة صحيحة في روايات أهل الأخبار ، اللهم إلا فيما يخص صلوات اليهود والنصارى والعرب فقد كان هؤلاء يصلون في كنائسهم في أوقات معينة ، وقف بعض أهل الجاهلية عليها ، فأشاروا اليها في أشعارهم وفي حديثهم عن أهل الكتاب .

وقد ذُكر ان عبدة (الشمس) كانوا قد (اتخذوا لها صنماً بيده جوهر على لون النار ، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت ويصلّون فيه لها ثلاث كرات في اليوم، ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون به . وهم اذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها،واذا غربت واذا توسطت الفلك. ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة ، لتقع عبادتهم وسجودهم له. ولهذا نهى النبي ، صلى الله عليه وسلم، عن تحري الصلاة في هذه الأوقات قطعاً لمشابهة الكفار ظاهراً ، وسداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام)[1] . وذكر (اليعقوبي) ان العرب كانت « اذا أرادت حج البيت الحرام ، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلّوا عنده ثم تلبوا »[2] . وفي هذين الخبرين دلالة على وجود الصلاة عند الجاهليين ، ولا سيما في خبر عبدة الشمس ، حيث كانوا يصلّون ثلاث كرات لها في اليوم .

وذكر ان (التسبيح) بمعنى الصلاة والذكر ، روي ان (عمر) جلد رجلين سبّحا بعد العصر ، أي صلّيا . وان قول الأعشى :

وسبّح على حين العشيّات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

يعني الصلاة بالصباح والمساء وعليه فسر قوله : فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، يأمرهم بالصلاة في هذين الوقتين[3] .

---

١ بلوغ الارب (٢/٢١٥ وما بعدها) .
٢ اليعقوبي (١/٢٢٥) .
٣ اللسان (٢/٤٧٣) ، (سبح) .

وذكر انهم كانوا يصلّون على موتاهم ، وكانت صلاتهم ان يحمل الميت على سرير ، ثم يقوم وليّه ، فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه . ثم يقول : عليك رحمة الله . ثم يدفن[1] .

وقد أشير الى سجود الناس للشمس والقمر في القرآن الكريم : « ومن آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا ، فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون »[2] . « يقول تعالى ذكره : فإن استكبر يا محمد هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم من مشركي قريش وتعظموا عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر ، فإن الملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن ذلك ولا يتعظمون عنه »[3] . كما أشير الى سجود أهل (سبأ) الى (الشمس) في الآية : « وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون »[4] . وفي هذه الآية وصف لتعبد أهل سبأ للشمس وسجودهم لها . وقد ذكر المفسرون أن ملكة سبأ « كانت لها كوة مستقبلة الشمس ، ساعة تطلع الشمس تطلع فيها ، فتسجد لها »[5] . فسجودهم للشمس ، هو عبادة لها وتعظيماً لشأنها .

الصوم :

وأما (الصوم) ، فنحن لا نجد له ذكراً في الكتابات الجاهلية بالمعنى المفهوم منه عند أهل الكتاب أو المسلمين . وهو في اللغة الإمساك عن الشيء والترك له . وقيل للصائم صائم لامساكه عن المطعم والمشرب والمنكح ، وقيل للصامت صائم لامساكه عن الكلام . « وقوله عزّ وجل : إني نذرت للرحمان صوماً . قيل :

---

١ المحبر (٣٢٠ وما بعدها) .
٢ سورة فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٣٧ وما بعدها .
٣ تفسير الطبري (٢٤/٧٧) .
٤ النمل ، الرقم ٢٧ ، الآية ٢٤ .
٥ تفسير الطبري (١٩/٩٤ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٣/١٩٠ وما بعدها) .

معناه صمتاً ، ويقويه قوله تعالى : فلن أكلّم اليوم إنسياً »[1] . والصوم : الصبر كذلك .

وقد ذكر (الصوم) في السور المدنية ، أما في السور المكية ، فقد ذكر مرة واحدة ، في (سورة مريم) : « فقولي : إني نذرت للرحمن صوماً . فلن أكلم اليوم إنسياً »[2] . وقد حددت السور المدنية أصول الصيام في الإسلام .

والصوم المعروف عند اليهود والنصارى معروف عند أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال واحتكاك بأهل الكتاب . فقد كان أهل يثرب مثلاً على علم بصوم اليهود ، بسبب وجودهم بينهم . وكان عرب العراق وبلاد الشأم على علم بصوم النصارى ، بسبب وجود قبائل عربية متنصرة بينهم . وكان أهل مكة ، ولا سيما الأحناف منهم والتجار على معرفة بصيام أهل الكتاب . وبصيام الرهبان ، المتمثل في السكوت والتأمل والجلوس في خلوة ، للتفكير في ملكوت السماوات والأرض . ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن من الجاهليين من اقتدى بهم ، وسلك مسلكهم. فكان يصوم ، صوم السكوت والتأمل والامتناع عن الكلام والانزواء في غار حراء وفي شعاب جبال مكة .

ويذكر أهل الأخبار ان قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء . وفي هذا اليوم كانوا يحتفلون ، ويعيّدون ، ويكسون الكعبة ، وعللوا ذلك بأن قريشاً أذنبت ذنباً في الجاهلية ، فعظم في صدورهم ، وأرادوا التكفير عن ذنبهم ، فقرروا صيام يوم عاشوراء ، فصاموه شكراً لله على رفعه الذنب عنهم[3]. وذكر ان رسول الله كان يصوم عاشوراء في الجاهلية ، ولما قدم المدينة واظب عليه وأمر الناس بصيامه حتّى نزل الأمر بصيام رمضان . وقد ذكر العلماء انه يحتمل ان قريشاً اقتدت بصيامه في الجاهلية ، بشرع سالف ، ولذا كانوا يعظمونه بكسوة البيت الحرام فيه[4] . وذكر بعضهم: كان يوم عاشوراء ، يوماً تصومه قريش في الجاهلية، اقتداءً بشرع سابق ، وكان النبي يصومه في الجاهلية ، فلما قدم المدينة صامه على عادته وأمر أصحابه بصيامه في أول السنة الثانية ، فلما نزل رمضان ، كان من

---

١ اللسان (/٣٥٠) ، (صوم) .
٢ سورة مريم ، رقم ١٩ ، الآية ٢٦ .
٣ بلوغ الارب (٢/٢٨٨) .
٤ ارشاد الساري (٣/٤٢١) ، (باب حكم صيام عاشوراء) .

شاء صام يوم عاشوراء ومن شاء لا يصومه . وعللوا سبب صيام (قريش) هذا اليوم ، انه كان أصابهم قحط ثم رفع عنهم ، فصاموه شكراً[1] . وورد « ان قريشاً كانت تعظم هذا اليوم ، وكانوا يكسون الكعبة فيه ، وصومه من تمام تعظيمه » . وذكر ان رسول الله ، كان يتحرى صوم يوم عاشوراء على سائر الأيام ، وكان يصومه قبل فرض رمضان . فلما فرض رمضان ، قال : من شاء صامه ، ومن شاء تركه . وبقي هو يصومه تطوعاً ، فقيل له : « يا رسول الله انه يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال ، صلى الله عليه وسلم : اذا كان العام المقبل ان شاء الله صمنا اليوم التاسع،فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله »[2] .

وذكر أيضاً ان قريشاً كانوا اذا أصابهم قحط ثم رفع عنهم صاموا شكراً لله وحمداً له على اجابة دعوتهم[3] .

وقد أشار أهل الحديث الى صيام (يوم عاشوراء) ، فجعله بعضهم الصيام الذي كان في الإسلام قبل فرض صيام شهر رمضان ، وذكر بعضهم أنه كان مفروضاً الى السنة الثانية من الهجرة ، ثم نسخ بصوم رمضان[4] .

وقد أشير الى الصيام في السور المكية من القرآن الكريم كما أشير اليه في السور المدنية ، ويدل نزول الوحي به في مكة وفي المدينة أنه كان من الشعائر الدينية القديمة ، وأن قريشاً كان لها علم به . ويظهر من بعض الآيات أن المراد من الصوم لم يكن الامتناع من الأكل والشرب حَسْبُ ، بل كان يعني في أول عهد النبوة الامتناع عن الكلام كذلك[5] .

ورواية أن قريشاً كانت تصوم في يوم (عاشوراء) ، لا تتفق مع الروايات الأخرى في كيفية فرض صيام شهر رمضان . ففي هذه الدوايات أن النبي «حين قدم المدينة رأى يهود تصوم يوم عاشوراء ، فسألهم : فأخبروه أنه اليوم الذي غرّق الله فيه آل فرعون ، ونجّى موسى ومن معه منهم . فقال : نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه . فلما فرض صوم شهر رمضان ،

---

١ ارشاد الساري (٦/١٧٤) ، « باب أيام الجاهلية » .
٢ زاد المعاد (١/١٦٤ وما بعدها) .
٣ ارشاد الساري (٦/١٧٤) .
٤ راجع كتب الحديث : باب الصوم .
٥ سورة مريم ، الآية ٢٦ . وهي سورة مكية ، رقمها ٥٨ حسب نزول السور بمكة .

لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء ، ولم ينههم عنه »[1]. وورد أن يهود خيبر والمدينة كانوا يعظمون صيام عاشوراء ويتخذونه عيداً[2] .

ويقصدون بصوم اليهود يوم عاشوراء ، ما يقال له (يوم الكفارة) ، وهو يوم صوم وانقطاع ، ويقع قبل عيد المظال بخمسة أيام ، أي في يوم (١٠ تشرى) وهو يوم (الكبور) Kipur . ويكون الصوم فيه من غروب الشمس الى غروبها في اليوم التالي ، وله حرمة كحرمة السبت ، وفيه يدخل الكاهن الأعظم قدس الأقداس لأداء الفروض الدينية المفروضة في ذلك اليوم[3] .

ومما يلاحظ ان علماء التفسير والحديث ، قد اختلفوا اختلافاً كبيراً في موضوع الصيام قبل نزول الأمر به وفرضه . فقال بعضهم كان المسلمون يصنعون كما تصنع من صيامهم خمسين يوماً (حتى كان من أمر أبي قيس بن صرمة وعمر بن الخطاب ما كان ، فأحل لهم الأكل والشرب والجماع الى طلوع الفجر)[4] . وقال بعض آخر ، كان صيام الناس قبل فرض رمضان صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وذكر ان ذلك كان تطوعاً لا فرضاً ، ولم يأت خبر تقوم به حجـة بأن صوماً فرض على أهل الاسلام غير صوم شهر رمضان[5] . ولم أتمكن من العثور على خبر قاطع يفيد بأن المسلمين كانوا يصومون بمكة قبل الهجرة الى المدينة .

ولا صلة لقصة (أبي قيس بن صرمة الأنصاري) (أبو صرمة الأنصاري) و (عمر بن الخطاب) بصيام عاشوراء ولا بعدد أيام الصوم . وكـل ما ورد فيها ان المسلمين كانوا في أول مـا افترض عليهم في رمضان اذ أفطروا وكان الطعام والشراب وغشيان النساء لهم حلالاً ما لم يرقدوا ، فإذا رقدوا حرم عليهم ذلك الى مثلها من القابلة ، فلم يزل المسلمون على ذلك ، حتى نام (أبو قيس بن صرمة) بعد افطاره وكان يعمل في حيطان المدينـة بالأجر ، فلما أفاق أبى ان يأكل شيئاً وأصبح صائماً ، وكان (عمر) قد وقع على جارية له ، فنزل الوحي

---

١ الطبري (٢/٢٦٥) ، « ذكر بقية ما كان في السنة الثانية من الهجرة » ، ارشاد الساري (٣/٤٢١) .
٢ ارشاد الساري (٣/٤٢٣) .
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٦٠) .
٤ تفسير الطبري (٢/٧٥ وما بعدها) .
٥ تفسير الطبري (٣/٧٦ وما بعدها) .

بنسخ ذلك عنهم في آية : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن . علم الله انكم كنتم تختانون أنفسكم »[1] . فلا صلة لقصتيها بموضوع الصوم .

ويظهر أنه خبر صيام قريش يوم (عاشوراء) ، هو خبر متأخر ، ولا يوجد له سند يؤيده . ولا يعقل صيام قريش فيه ، وهم قوم مشركون . وصوم (عاشوراء) ، هو من صيام يهود . وهو صيام كفارة واستغفار عندهم ، فلمَ يستغفر قريش ويصومون هذا اليوم ؟ وماذا فعلوا من ذنب ، ليطلبوا من آلهتهم العفو والغفران ؟ وإذا كان هناك صوم عند الجاهليين ، فقد كان بالأحرى أن يصومه الأحناف ، ولم يرد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد صيامهم في (عاشوراء) ولا في غير عاشوراء . ثم إن علماء التفسير والحديث والأخبار ، يذكرون أن الرسول صام (عاشوراء) مقدمه المدينة على نحو ما ذكرت قبل قليل . وأنه بقي عليه حتى نزل الأمر بفرض رمضان . ويظهر أن الرواة أقحموا اسم قريش في صيام (عاشوراء) ، لإثبات أنه كان من السنن العربية القديمة ، التي ترجع الى ما قبل الأسلام . وأن قريشاً ، كانت تصوم قبل الإسلام[2] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أن صوم أهل الجاهلية : صوم امتناع عن الأكل والشرب وإتيان النساء . وهو صوم الاسلام ، وصوم امتناع عن الكلام وحبس للسان ، إما لأمد معين قصير ، مثل يوم أو اسبوع ، وإما لأمد طويل. وقد أشير في القرآن الكريم ان هذا الصوم في قوله تعالى : « فقولي إني نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلّم اليوم أنسياً »[3] . وروي أن رجالاً من زهاد أهل الجاهلية كانوا يصومون هذا الصوم .

وقد اتخذ الصوم نذراً ، روي أن (أبا بكر) دخل على امرأة من (أحمس) يقال لها (زينب) ، فرآها لا تتكلم ، فقال : ما لها لا تكلم ؟ قالوا : حجت مُصمتة ، قال لها : تكلمي . فإن هذا لا يحل . هذا من عمل الجاهلية،فتكلمت.

---

١ البقرة ، الآية ١٨٧ ، تفسير الطبري (٢/٩٤ وما بعدها) .

٢ Sprenger; Leben, III, S. 54.

٣ سورة مريم ، الرقم ١٩ ، الآية ٢٦ ، تفسير الطبري (١٦/٥٦) ، روح المعاني (١٦/٧٩) .

فقالت له : من أنت : قال امرؤ من المهاجرين . قالت : أي المهاجرين ؟ قال لها : من قريش . قالت له : من أي قريش أنت ؟ قال : إنك لسؤول . أنا أبو بكر . قالت : ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال : بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم . قالت : وما الأئمة ؟ قال لها: كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم ؟ قالت : بلى . قال : فهم أولئك على الناس[1] .

فالتصميت ، وهو الصوم عن الكلام ، من فعل أهل الجاهلية . وهو معروف عندهم ، ولعله وقع لهم بتأثرهم بأهل الكتاب .

التحنث :

ومن طرق عبادة أهل الجاهلية : التحنث ، أي التعبد والتقرب الى الآلهة ، ومن ذلك حديث (حكيم بن حزام) : « أرأيت أموراً كنت اتحنث بها في الجاهلية من صلة رحم وصدقة، أي أتقرب الى الله تعالى بأفعال في الجاهلية »[2] . وكان رسول الله « يجاور في حراء من كل سنة شهراً ، وكان مما تحنّث به قريش في الجاهلية . والتحنث : التبرر » . « فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به — اذا انصرف من جواره — الكعبة قبل ان يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً » ، ثم يرجع الى بيته . وذكر ان ذلك الشهر هو شهر رمضان[3] .

الاختتان :

ومن شعائر الدين عند الجاهليين الاختتان . وهو من الشعائر الفاشية بينهم ،

---

١ ارشاد الساري (٦/١٧٥ وما بعدها) ، (انها مصمتة ، انها نذرت أن لا تتكلم . فقال : تكلمي انما هذا من فعل الجاهلية) ، الاصابة (٤/٣١٥ وما بعدها) ، (رقم ٥١٣ ، ٥١٥) ، اللسان (٢/٥٥) .

٢ تاج العروس (١/٦١٦) ، (حنث) .

٣ الطبري (٢/٣٠٠) .

حتى انهم كانوا يعيرون (الأغرل) ، وهو الشخص الذي لم يختتن . وكان منهم ولا سيما أهل مكة من يختن البنات أيضاً ، بقطع (بظورهن) . وتقوم بذلك (الختانة) (الخاتنة) . وقد كانوا يعيرون من تكون أمه (ختانة) نساء ، فإذا أرادوا ذم أحد قالوا له : يا ابن مقطعة البظور ، وإن لم تكن أم من يقال له : خاتنة [1] .

وأما الاغتسال من الجنابة وتغسيل الموتى ، فمن السنن التي أقرت في الاسلام ، وقد أشير الى غسل الميت في شعر للأفوه الأودي . وأشير الى تكفين الموتى والصلاة عليهم في أشعار منسوبة الى الأعشى وإلى بعض الجاهليين [2] . وورد أن قريشاً كانت تغسل موتاها وتحنطهم ، ولكننا لا نستطيع تعميم هذه الأمور على كل العرب ، ولا الإدعاء بأنها كانت من شعائر الدين عندهم ، لما ذكرته مراراً من اختلاف العرب بأمور دينهم ، وعدم خضوعهم لدين واحد . بل ورد أن المشركين لم يكونوا يغتسلون من الجنابة ، وقد ذهب المفسرون الى أن لفظة (نجس) الواردة في الآية : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . وان خفتم عيلة ، فسوف يغنيكم الله من فضله » [3] . فانما قصد بها أجناب ، « سمّاهم بذلك لأنهم يجنبون فلا يغتسلون . فقال : هم نجس ولا يقربوا المسجد الحرام ، لأن الجنب لا ينبغي له أن يدخل المسجد » [4] . ولما نزل الأمر بمنع المشركين من دخول مكة ، « شق ذلك على أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : من يأتينا بطعامنا ومن يأتينا بالمتاع ؟ فنزلت وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » . و « كان المشركون يجيئون الى البيت ويجيئون معهم بالطعام ويتجرون فيه . فلما نهوا أن يأتوا البيت قال المسلمون من أين لنا طعام ؟ فأنزل الله وان خفتم عيلة ، فسوف يغنيكم الله من فضله » [5] .

والقرابين والنذور وزيارات المعابد والحج ، هي من أبرز الشعائر الدينية عند

---

١ تاج العروس (٥٢/٣) ، (بظر) ، نهاية الارب (١٠٠/١٧) .
٢ المحبر (٣١٩ وما بعدها) .
٣ سورة التوبة ، الآية ٢٨ .
٤ تفسير الطبري (٧٤/١٠) .
٥ تفسير الطبري (٧٥/١٠) .

سواد الناس . وتكاد تكوّن مفهوم الدين عندهم ، وذلك لما فيها من تماس مباشر بأمور حياتهم ومصالحهم . فهم يفعلون ذلك لغايات استرضاء الآلهة والتوسل اليها بأن تعطيها غلة وافرة ومالاً ، فكانوا اذا تقربوا الى صنم أو دعوا ربهم أو أدوا مناسك حجهم (فلا يسألون ربهم) إلا متـاع الدنيا (فمن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا . هب لنا غنماً ، هب لنا إبلاً) . (وكانوا يعني في الجاهلية يقفون يعني بعد قضاء مناسكهم ، فيقولون : اللهـم ارزقنا إبلاً ، اللهم ارزقنا غنماً) ، وفي هؤلاء نزلت الآية : « فمن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا، وماله في الآخرة من خلاق »[1] .

والفقر هو الذي حمل هؤلاء على ان يتقربوا الى آلهتهم بالنذور والقرابين وبالحج على فقرهم وجوعهم ، على أمل ان تعطف الآلهة عليهم ، فتمن عليهم بالمـال واليسر والبركة والصحة ، تماماً كما يفعل شرّاء أوراق (النصيب) أو أوراق سباق الخيل من الفقراء والمحتاجين على أمل الربح والكسب .

وهذه النظرة المادية الساذجة،هي التي حملت عوامهم على تهديد آلهتهم وإخبارها انهم سيمتنعون عن تقديم أي نذر أو أداء أيـة زيارة لها ، إن لم تمنّ عليهـم وتستجيب لأدعيتهم ، فتنفذ طلباتهم وما طلبوه منها . وهي التي تحملهم بعد ذلك على التراجع عن تهديداتهم هذه ، وعلى الاستغفار واظهار الندم لها ، لما بدر منهم من سوء أدب ، على أمل استرضاؤها من جديد ، بعد أن فشلت وسائل التهديد من تخويف تلك الآلهة .

الحلال والحرام :

يقول (ابن عساكر) في رواية تنسب الى رجل من خثعم : « كانت العرب لا تحرم حلالاً ولا تحل حراماً . وكانوا يعبدون الأوثان ويتحاكمون اليهـا »[2] . ومعنى هذا انهم كانوا يحللون ويحرمون . وأن أمر الحلال والحرام الى رجال الدين منهم ، وهم سدنة الأوثان .

وقـد تعرض (اليعقوبي) لموضوع (أديان العرب) وشعائرها ، فقال :

---

١ البقرة ، الآية ٢٠٠ ، تفسير الطبري (٢/١٧٤ وما بعدها) .
٢ التاريخ الكبير ، لابن عساكر (١/٣١٧) .

« وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل الملل ، والانتقال الى البلدان ، والانتجاعات . فكانت قريش وعامة ولـد (معد) بن عدنان على بعض دين ابراهيم ، يحجون البيت ويقيمون المناسك ، ويقرون الضيف ويعظمـون الأشهر الحرم ، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ، ويعاقبون على الجرائم »[1] . فأدخل في الدين أموراً نعدها اليوم من الأعراف وقواعد الأخلاق والسلوك ، وجعلها من سنة ابراهيم ، أي دين العرب القديم قبل افساده بالتعبد للأصنام .

وذكر (السكري) ، أن العرب كانت « دون من سواها من الأمم . تصنع عشرة أشياء منها : في الرأس خمسة . وهي المضمضة والاستنشاق والسواك والفرق وقص الشارب . وفي الجسد خمسة . هي : الختانة وحلق العانة ونتف الأبطين ، وتقليم الأظفار والاستنجاء . خصت بهذا العرب ، دون الأمم »[2] . فهذه الأمور العشرة هي من شعائر العرب في نظر (السكري) . وهي شعائر ، لا يمكن أن نجاريه في رأيه ، فنقول إنها كانت في جميع العرب ، وإنها كانت فيهم خاصة ، دون غيرهم من الأمم وفي كلام (السكري) أمور كثيرة لا يمكن التسليم بصحتها بل نجده هو يناقض نفسه في مواضع أخرى من كتابه . من ذلك قوله : «وكانوا يؤمنون بالحساب »[3] « ولا يأكلون الميتة »[4] ، فعمم رأيه ، وجعله شاملاً كل العرب ، بينما هو رأي طائفة من الجاهليين ، وليس جميع أهل الجاهلية . وللقرآن الكريم دليل ذلك ، فقد حمل عليهم لنكرانهم البعث والحساب ، وحرم على المسلمين أكل لحم الميتة . « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير »[5] . وكانوا يأكلونها في الجاهلية .

وورد أن ممن حرم أكل الميتة على نفسه (حارثة بن أوس) الكلبي ، وهو جاهلي ، يقول :

لا آكـل الميتة ما عمرت نفسي وإن أبرح املاقي
والعقد لا أنقض منه القوى حتى يواري القبر أطباقي[6]

---

١ اليعقوبي (١/٢٢٤) ، (أديان العرب) .
٢ المحبر (٣٢٩) .
٣ المحبر (٣٢٢) .
٤ المحبر (٣٢٩) .
٥ المائدة ، الآية رقم ٣ ، تفسير الطبري (٦/٤٤) ، روح المعاني (٦/٥١) .
٦ المحبر (٣٢٩) .

الفصل الثاني والسبعون

الحج والعمرة

والحج الذهاب الى الأماكن المقدسة في أزمنة موقوتة ، للتقرب الى الآلهة،والى صاحب ذلك الموضع المقدس . وتقابل هذه الكلمة Pilgrinage في الانكليزية [1] . والحج بهذا المعنى معروف في جميع الأديان تقريباً، وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين .

وكلمة (حجّ) من الكلمات السامية الأصيلة العتيقة ، وقد وردت في كتابات مختلف الشعوب المنسوبة الى بني سام[2] . كما وردت في مواضع من أسفار التوراة[3] . وهي تعني قصد مكان مقدس وزيارته .

وفي روع الشعوب السامية القديمة وغيرها أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها ، قيل لها في الأزمنة القديمة (بيوت الآلهة) . ولذلك يرى المتعبدون والمتقون شدّ الرحال اليها ، للتبرك بها وللتقرب اليها ، وذلك في أوقات تحدد وتثبت ، وفي أيام تعين تكون أياماً حرماً لكونها أياماً دينية ينصرف فيها الانسان إلى آلهته ، ولذلك تعدّ أعياداً ، يعمد فيها الناس ، بعد اقامتهم الشعائر الدينيـة المفروضة

---

١ تفسير الطبري (٢/٤٤) ، (البابي) ، اللسان (٢/٢٢٦) ، الاقناع (١/٣٣٤)، الكشاف ، للزمخشري (١/٣٨٩ وما بعدها) ،
Ency. Brita., Vol., 17, p. 925, Ency. Religl., Vol., 10, p. 10.

٢ تاج العروس (٢/١٦ وما بعدها) ، اللسان (٣/٤٨ وما بعدها) ،
Ency. Religl., 10, p. 23.

٣ Shorter Ency. of Islam, p. 123.

وبعد أدائهم القواعد المرسومة ، الى الفرح والسرور والرقص ، ليدخلوا السرور الى قلوب الأرباب . ففي الحج إذن مناسك وشعائر دينية وعبادة تؤدى ، واجتماع وسرور وحبور .

ويكون الحج بأدعية وبمخاطبة الى الآلهة وبتوسلات لتتقبل حج ذلك الشخص الذي قصدها تقرباً اليهـا . وهذا هو الشائع والمعروف عن الحج ، غير أن من الجاهليين من كان يحج حجاً مصمتاً ، أي دون كلام ، فلا يتكلم الحاج طيلـة أيام حجه . وقد كان ذلك من عمل الجاهلية [١] .

وقد ميّز الشهر الذي يقع فيـه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته بـ (شهر ذي الحجة) وبـ (شهر الحج) . وذلك لوقوع الحج فيه . وهذه التسمية المعروفة حتى الآن في التقويم الهجري ، هي تسمية قديمة ، كانت معروفـة في الجاهلية ، وردت في نصوص الجاهلية . فبين أسماء الأشهر الواردة في نصوص المسنـد اسم شهر يعرف بـ (ذ حجتن) أي (ذي الحجة) ، ويدل ذلك على أنه الشهر الذي يحج فيه . وقد وردت كلمة (حج) في نصوص المسند كذلك [٢] .

وقد ذكر (أفيفانيوس) Epiphanius ان من أسماء الأشهر عند العرب شهراً اسمه Aggathalbaeith (حج البيت) [٣] ، أراد به شهر (ذي الحجة) . والعرب الذين قصدهم هذا الكاتب هم عرب (الكورة العربية) ، ومعنى هذا ان العرب الشماليين كان لهم شهر يسمى بـ (ذي الحجة) كذلك [٤] .

ولفظة Aggathalbaeith ، هي لفظة عربية النجار حرفت على لسان (أفيفانيوس) وقومه ، لتناسب منطقهم ، فصارت على هذا النحو ، وهي من كلمتين عربيتين في الأصل ، هما (حجة البيت) ، أو (حج البيت) . ويكون نص (أفيفانوس) هذا من النصوص المهمة بالنسبة لنا ، التي تساعدنا في الرجوع بتأريخ استعمال هذا المصطلح الى ايامه ، ولا بد وان يكون ذلك المصطلح قد استعمل قبل أيام ذلك الكاتب ولا شك .

ويقع شهر الحج (ذي الحجة) — على رواية (افيفانيوس) — في (تشرين

---

١ ارشاد الساري (٦/١٧٥) .

٢ D. Nielsen, Mondreligion, S. 86, Glaser 1054, Wiener Mus., No. 7.

٣ Shorter Ency. of Islam, p. 124.

٤ Reste, S. 85, Ency. Religi., 10, p. 10.

الثاني)[1] ، وأشار (بروكوبيوس) الى ان العـــرب كانوا قد جعلوا شهرين من السنة حرماً لآلهتهم لا يغزون فيها ولا يهاجم بعضهم بعضاً[2] ، كما أشار (فوتيوس) الى الأشهر الحرم عند العرب[3] . والشهران اللذان أشار اليهما (بروكوبيوس) ، هما شهرا ذو القعدة وذو الحجة في نظر (ونكلر) ، وهما يمثلان — في رأيه — (جولاي) و (أغسطس) أي تموز وآب[4] .

إننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نقول إن شهر (ذ حجتن) المذكور في المسند ، أو Aggathalbaeith الذي ذكره (افيفانيوس) ، هو شهر (ذو الحجة) الشهر المعروف الذي كان من شهور أهل مكة . فمن الجائز أن يكون حج العرب الشماليين أو حج العرب الجنوبيين في وقت آخر يختلف عن وقت حج أهل مكة، فيكون شهرهم المذكور شهر آخر يقع في موسم آخر من السنة ، ولا ينطبق مع شهر (ذي الحجة) .

ويرى (ونكلر) أن ما ذكره (فوتيوس) من احتفال العرب مرتـين في السنة بالحج الى معبدهم المقدس : مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور ، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف وذلك لمـدة شهرين ، إنما يراد بذلك شهر رمضان لاقتران الشمس فيه ببرج الثور . وأما الشهران الآخران فهما ذو القعدة وذو الحجة[5] .

ويظهر من غربلـة ما أورده أهـل الأخبار من روايات عن موسم الحج في الجاهلية ، أن الحج الى مكة كان في موسم ثابت ، هو الربيع على رأي كثـير من المستشرقين ، أو الخريف على رأي (ولهوزن)[6] . وذلك بسبب مـا ذكر عن النسيء ومن رغبة قريش وغيرها من أن يكون في وقت واحد ، كما تحدثت عن ذلك في باب النسيء . وقـد ذهب (ولهوزن) الى أن (الشهر الحرام) المذكور في القرآن الكريم ، هو (شهر الحج) ، وهو الشهر الأول من السنة،

---

١ Reste, S. 100, Epiphanius, Haer., 51, 24.

٢ Procopius, II, 16.

٣ Reste, 101.

٤ Winekler, ALF. II, Reihe, Ibd., S. 336.

٥ Winckler, ALF., II, Reihe, Ibd., S. 336.

٦ Shorter, p. 124.

أي شهر محرم ، بينما يرى المفسرون أنه رجب ، أو ذو القعدة أو ذو الحجة[1] . والأصح أنه أي شهر من الأشهر الحرم .

وقد ورد في القرآن الكريم : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج »[2] . وقد قال (الطبري) : « اختلف أهل التأويل في قوله : الحج أشهر معلومات . فقال بعضهم : يعني بالأشهر المعلومات : شوالاً وذو القعدة ، وعشراً من ذي الحجة »، « جعلهن الله سبحانه للحج ، وسائر الشهور للعمرة ، فلا يصلح ان يحرم أحد بالحج إلا في أشهر الحج . والعمرة يحرم بها في كل شهر »[3] ، وذكر ان الله لم يسمّ أشهر الحج في كتابه ، لأنها كانت معلومة عندهم[4] ، وان المراد بذلك انه لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج ، فإن من سنّة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج[5] . وبناءً على ذلك ، فلا يكون المراد من الآية ان الحج يقع في كل وقت من أوقات هذه الأشهر . وانما هو في وقت معين ، ولكن الإحرام للحج ، أي العزم عليه يكون في أي وقت من هذه الأشهر المذكورة ، وليس في الأشهر الأخرى . وذكر (المسعودي) ان أشهر الحج : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة[6] .

ومعنى ما تقدم ان الجاهليين كانوا يتهيأون للحج من دخول شهر شوال ، فيصلحون أمورهم ، ويحضرون ما يحتاجون اليه من لوازم السفر، فإذا أراد أحدهم تجارة وكسباً ذهب الى الأسواق ، حتى يهل شهر ذو الحجة ، وإن لم يرد تجارة، ذهب في أي وقت يراه مناسباً له . فبدء موسم الحج اذن والتهيؤ له يكون من شهر شوال .

ويظهر من شعر نسب الى (عوف بن الأحوص) أنه سمى شهر (ذي الحجة) (شهر بني أميّة) . إذ يقول :

وإني والذي حجت قريش ... محارمه وما جمعت حراء
وشهر بني أميّة والهدايا ... إذا حبست مضرجها الدماء[7]

---

1 Shorter, p. 409.
2 البقرة ، الآية ١٩٧ .
3 تفسير الطبري (١٠٥/٢) .
4 القرطبي ، الجامع (٤٠٥/٢) .
5 تفسير الطبرسي (الجزء الثاني) (ص ٢٩٢ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢٣٥/١) .
6 مروج (١٨٩/٢) ، الكشاف (٢٥٤/١) .
7 شرح ديوان لبيد (٢١) .

وقد ذهب (ولهوزن) وجماعة آخرون من المستشرقين الى تعدد بيوت الأرباب التي كان يحج اليها الجاهليون في شهر (ذي الحجة) والى عدم حصر الحج عند الجاهليين بموضع واحد[1] . ومعنى هذا أن حج أهل الجاهلية لم يكن الى (مكة) وحدها ، بل كان الى محجات عديدة أخرى . بحيث حج كل قوم الى (البيت) الذي قدسوه وكانوا يتقربون اليه ووضعوا أصنامهم فيه . ويتفق هذا الرأي مع ما يراه أهل الأخبار من وجود بيوت للأصنام ، وكان الناس يزورونها ويتقربون اليها ويذبحون عند أصنامها ويطوفون حولها ويلبّون تلبية الصنم الذي يطوفون حوله .

والحج الى مكة والى البيوت المقدسة الأخرى ، مثل بيت اللات في الطائف وبيت العزى على مقربة من عرفات وبيت مناة وبيت ذي الخلصة وبيت نجران وبقية البيوت الجاهلية المعظمة ، إنما هو أعياد يجتمع الناس فيها للاحتفال معاً بتلك الأيام وهم بذلك يدخلون السرور على أنفسهم وعلى أنفس آلهتهم بحسب اعتقادهم وتقترن هذه الاحتفالات بذبح الحيوانات ، كل يذبح على قدر طاقته ومكانته ، فيأكل منها في ذلك اليوم من لم يتمكن من الحصول على اللحم في أثناء السنة لفقره ، فهي أيام يجد فيها الفقراء لذة ومتعة وعبادة .

ويذكر أهل الأخبار أن الحج الى مكة كان في الجاهلية كذلك، وأن الجاهليين كانوا يحجون الى البيت منذ يوم تأسيسه ، وأنهم كانوا يقصدون مكة أفواجاً من كل مكان . وأن ملوكهم كانوا يتقربون الى (بيت الله) بالهدايا والنذور، وأن منهم من حج اليه . وأن الناس كانوا يقسمون بالبيت الحرام لما له من مكانة في نفوس جميع الجاهليين .

غير اننا نجد في روايات بعض أهل الأخبار ما ينافي تعظيم كل العرب للبيت وحجهم اليه واحترامهم للحرم وللأشهر الحرم. فقد ورد ان من العرب من (كان لا يرعى للحرم ولا للأشهر الحرام حرمة) ، ومنهم (خثعم) و (طيء)[2] ، وأحياء من قضاعة ويشكر والحارث بن كعب[3]. وورد ان ذؤبان العرب وصعاليكها

---

١ Reste, S. 84.

٢ تاج العروس (٢٤١/٨) ، (حرم) .

٣ الجاحظ . الحيوان (٢١٦/٧ وما بعدها) ، النجيرمي ، أيمان العرب (١٢) ، المحبر (٣١٩) .

وأصحاب التطاول ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، ولا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً . وقد كانوا خطراً يهدد البيت وأهله لذلك، ألف (هاشم) بين قريش وسادات القبائل ألفة ليحمي بهم البيت . قال (الجاحظ) في تفسيره للإيلاف : « وقد فسره قوم بغير ذلك . قالوا : إن هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها اليه ليحمي بها أهل مكة . فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب التطاول ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً ، مثل طيء وخثعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب »[1] . ورؤوس القبائل الذين جعل هاشم عليهم ضرائب يؤدونها اليه ليحمي بها أهل مكة ، هم رؤساء مكة ولا شك ، ومن كانت له مصلحة تجارية مباشرة بمكة ، فكان يأخذ من هؤلاء ما يأخذه ثم يجمعه ويعطيه الى (المؤلفة قلوبهم) من سادات القبائل النازلين حول مكة وعلى مقربة منها ، كما ألف بين مكة وبين سادات القبائل الذين تمر قوافل مكة بأرضهم في طريقها الى الشأم أو العراق أو اليمن ، بروابط (الإيلاف) ، أي العقود التي عقدها معهم ، باعطائهم جعلاً معيناً ، أو حقوقاً تبين وتكتب ، أو ربحاً يدفع مع رؤوس المال عن البضائع التي تدفع لقريش ، لتقوم قوافلها ببيعها في الأسواق. وبذلك أمنت مكة وسلمت تجارتها ، ودانت بعض القبائل بدين قريش في الأشهر الحرم ، لما فيها من فائدة ومنفعة مادية بينة ظاهرة ، فاحترمتها، وبهذا أمن الحج واستراح التجار من قريش ومن غيرهم في ذهابهم بحرية وبأمان في هذه الشهور الى الأسواق .

وليست لدينا ويا للأسف أخبار مدوّنة عن مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين. لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص الواردة الينا . ما خلا الحج الى (بيت الله الحرام) بمكة ، حيث حفظت الموارد الإسلامية لنا شيئاً من ذلك ، بسبب فرض الحج في الاسلام ، واقرار الاسلام لبعض شعائره التي لم تتعارض مع مبادئه ولولا ذلك لما عرفنا شيئاً عن الحج الى مكة عند الجاهليين . ولهذا فسأقتصر في كلامي هنا على الحج الى مكة فقط . إلا إذا وجدت خبراً أو نصاً عن حج غير

---

[1] رسائل الجاحظ (٧٠) ، Kister, p .119, 143. ، طبقات الشعراء ، لابن سلام (٦١) ، الثعالبي ، المضاف والمنسوب (٨٩) ، النقائض (٦٧١/٢) ، ابن هشام (٦٠٣/١) ، الأزمنة والامكنة ، للمرزوقي (١٦٦/٢) ، الاغاني (٤٢/٢١) .

أهل مكة من الجاهليين الى مكة أو الى بيوت أخرى فسأتكلم عنه حينئذ .

ويظهر من غربلة ما جاء في روايات أهل الأخبار عن (حج البيت) ، أن مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة للحجاج ، بل كانت تختلف باختلاف القبائل. فقد انفردت (قريش) بأمور من أمور الحج ، واعتبرتها من مناسك حجها ، وانفردت قبائل أخرى بمناسك لم تعتبرها (قريش) موجبة لها ، ولم تعمل بها ووقفت قريش في مواقف ، اعتبرتها مواقف خاصة بها . وأوجبت على من يفد الى مكة للحج ، مناسك معينة سنتحدث عنها . فلما ظهر الاسلام وحّد مناسك الحج وثبتها . وأوجب على كل مسلم اتباعها .

ويبدأ الحج في الاسلام بلبس (الاحرام) حين بلوغه (الميقات) المخصص للجهة التي جاء منها . و (ميقات) الحج موضع احرامهم[1] . وقد عين الرسول أكثر (المواقيت) وثبتها ، فجعل (ذا الحليفة) ميقاتاً لأهل (يثرب) ، و (الجحفة) ميقاتاً لأهل الشأم ، و (يلملم) ميقاتاً لأهل اليمن ، و (قرن المنازل) لأهل نجد ومن يأتي من الشرق نحو الحجاز . وأما (ذات عرق) ، فميقات أهل العراق ، قيل ان الرسول ثبته ، وقيل إنه ثبت بعد فتح العراق . أما أهل مكة ، فكانوا يحرمون من بيوتهم[2] . ويجوز أن تكون هذه المواقيت من مواقيت أهل الجاهلية كذلك ، وقد ثبتها الاسلام .

ويستعد الجاهليون للحج عند حضورهم موسم (سوق عكاظ) . فإذا انتهت ايام السوق ، وأراد منهم من أراد الحج ، ذهب الى (مجنة) ، فأقام بها الى هلال ذي الحجة ، ثم ارتحل عنها الى (ذي المجاز) ، ومنه الى (عرفة) ، فإذا كان يوم التروية ، تزودوا بالماء وارتفعوا الى عرفة. هذا بالنسبة الى التجار، الذين كانوا يأتون هذه المواضع للتجارة . أما بالنسبة الى غيرهم ، فقد كانوا يقصدون الحج في أي وقت شاءوا ، ثم يذهبون الى (عرفة) للوقوف موقف عرفة ، يقصدها (الحلة) ، أما (الحمس) فيقفون بـ (نمرة) ، ثم يلتقون جميعاً بمزدلفة للإفاضة[3] .

---

١ تاج العروس (١/٥٩٤) ، (وقت) .
٢ شرح النووي على صحيح مسلم (٥/١٩٠ وما بعدها) ، (حاشية على ارشاد الساري) ، ارشاد الساري (٣/٩٧ وما بعدها) .
٣ الازرقي ، اخبار مكة (١/١٢١ وما بعدها) .

ويبدأ حج أهل الجاهلية بالإهلال . فكانوا يهلّون عند أصنامهم ، ويلبون اليها ، فإذا انتهوا من ذلك قدموا مكة ، فكان الأنصار مثلاً يهلون لمناة في معبده ، أي انهم كانوا يغادرون (يثرب) الى معبد الصنم،فيكونون فيه لمراقبة هلال ذي الحجة، فإذا أهلّوا لبّوا ، ثم يسير من يسير منهم الى مكة ، لحج البيت[1] .

والطواف بالبيوت وبالأصنام ، ركن من أركان الحج ، ومنسك من مناسكه . وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام ، فإذا دخل أحدهم الحرم ، واذا سافر أو عاد من سفر ، فأول ما كان يفعله الطواف بالبيت . وقد فعل غيرهم فعل قريش ببيوت أصنامهم ، إذ كانوا يطوفون حولها، كالذي كان يفعله أهل يثرب من طوافهم بـ (مناة)[2] .

وقد ذكر الأخباريون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون حول الرجمات ، وهي حجارة تجمع فتكون على شبه بيت مرتفع كالمنارة ، ويقال لها الرجمة[3] . وكان الجاهليون يطوفون حول الأصنام والأنصاب كذلك . وذكر (نيلوس) Nilus أن الأعراب كانوا يطوفون حول الذبيحة التي يقدمونها قرباناً للآلهة[4] . وكانوا يطوفون حول القبور أيضاً : قبور السادات والأشراف من الناس .

وطافوا حول (الأنصاب) ، ويسمون طوافهم بها (الدوار) . فكانوا يطوفون حول حجر ينصبونه طوافهم بالبيت ، وسمّوا تلك الأحجار الأنصاب[5] .

وللطواف كلمة أخرى هي (الدوار) من (دار) حول موضع من المواضع ، وطاف حوله الشيء ، واذا عاد الى الموضع الذي ابتدأ منه . ونجد هذا المعنى في شعر الشاعرين الجاهليين : امرىء القيس ، وعنترة بن شدّاد العَبْسي[6] . وقد ذكر علماء اللغة أن (الدوار) صنم كانت العرب تنصبه ، يجعلون موضعاً حوله يدورون به ، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار . ومنه قول امرىء القيس :

فَعَنّ لنا سِربٌ كأن نِعاجه عذارى دوار ، في مُلاءٍ مذيل[7]

---

١ صحيح مسلم (٤/٦٨ وما بعدها) .
٢ شرح صحيح مسلم ، للنووي (٨/٢١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٣/٤٢٢ وما بعدها) ، « عمر » اللسان (٦/٢٨٤) .
٤ Reste, S. 108.
٥ الاصنام (٣٣ ، ٤٢) .
٦ اللسان (٤/٢٩٦ وما بعدها) . Shorter Ency. of Islam, p. 585.
٧ اللسان (٤/٢٩٧ وما بعدها) .

وقيل إنهم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالكعبة . وقيل حجارة كانوا يطوفون حولها تشبهاً بالكعبة[1] .

وتلعب عبادة الحجر دوراً بارزاً في (الدوار) . فقد كان قوم من أهل الجاهلية يقيمون الأحجار ، ثم يطوفون حولها ، يتخذون الدوار عبادة لهم . وقد تكون الأحجار أصناماً ، وقد تكون حجارة تنتقى فيطاف حولها . و « عن أبي رجاء العطاردي ، قال : لما بعث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب ، فلحقنا بالنار ، وكنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه ، ألقينا ذلك وأخذناه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به . وكنا اذا دخل رجب قلنا جاء منصل الأسنة ، فلا ندع سهماً فيه حديدة ، ولا حديدة في رمح إلا نزعناها وألقيناها »[2] .

ويلاحظ ان الجاهليين كانوا يقيمون وزناً للحليب في أمور العبادة ، فقد كانوا يسكبونه على الأصنام ، كما رأينا في باب الأصنام، وفي القصة المتقدمة . ويلاحظ ان الرواية قد خصصت حليب الغنم ، ولم تشر الى حليب الإبل ، أو حليب أية ماشية أخرى، مما قد يدل على وجود رابطة بين هذا الحليب وبين (الدوار) وان له علاقة بالأساطير ، وذلك في حالة صدق الخبر بالطبع .

والطواف من أهم طرق التعبد والتقرب الى الآلهة . يؤدونه كما يؤدون الشعائر الدينية المهمة مثل الصلاة ، وليس له وقت معلوم . ولا يختص ذلك بمعبد معين ولا بموسم خاص مثل موسم الحج ، بل يؤدونه كلما دخلوا معبداً فيه صنم ، أو كعبة أو ضريح ، فهم يطوفون سبعة أشواط حول الأضرحة أيضاً : كما يطوفون حول الذبائح المقدمة الى الآلهة . فالطواف ، إذن من الشعائر الدينية التي كان لها شأن بارز عند الجاهليين .

وكانوا يطوفون بالبيت في نعالهم ، لا يطأون أرض المسجد تعظيماً له[3] . إلا أن يكون الحاج فقيراً حافياً ، فقد كان منهم من لا يملك نعالاً ولا خفاً ولا

---

١ تاج العروس (٢١٦/٣) ، (دار) .
٢ زاد المعاد (٣٢/٣) ، (فصل في قدوم وفد بني حنيفة) ، ارشاد الساري (٤٣٥/٦) ، (باب وفد بني حنيفة) .
٣ اليعقوبي (٢٢٦/١) ، (أديان العرب) .

سائر ما يلبس بالرجل لفقره . وذكر أن رسول الله قال : « من لم يجد نعلين، فليلبس خفين »[1] . وقد ذكر (السكري) ، أن (الحمس) كانوا « لا يطوفون بالبيت إلا في حـــذائهم وثيابهم ، ولا يمسون المسد بأقدامهم تعظيماً لبقعته »[2] . وذكر أن (الحلـــة) كانوا على العكس منهم . « فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ، ثم استكروا من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد . ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم »[3] .

وكانوا يدخلون جوف الكعبة بنعالهم،لا يتأثمون من ذلك . وذكر أن (الوليد ابن المغيرة » كان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة ، تعظيماً لها ، فخلع الناس نعالهم[4] .

وعدّة الطواف حول الكعبة عند الجاهليين سبعة أشواط ، ولا أستبعد ان يكون هذا العدد ثابتاً بالنسبة الى الطواف حول البيوت الأخرى أوحول الرجمات والأنصاب والقبور أيضاً . فقد كان الطواف سبعة أشواط مقرراً عنـــد غير العرب أيضاً ، وقد ذكر في (التوراة) ، اذ كان العبرانيون يمارسونه[5] . والعدد سبعة هو من الأعداد المقدسة المهمة عند الشعوب القديمة . ولهذا أرى ان غير قريش من العرب كانوا يطوفون هذا الطواف أيضاً حول محجّاتهم في ذاك الوقت .

وقد ورد أن من الجاهليين من كان يطوف ويده مربوطة بيـد انسان آخر ، بحبل أو بسير ، أو بزمـــام أو منديل ، أو خيط أو أي شيء آخر ، يفعلونه نذراً،أو حتى لا يفترقا . وقد نهي عن ذلك في الإسلام . فقد روي أن الرسول رأى أحدهما وقد فعل ذلك ، فقطع بيده ذلك الرباط[6] .

---

١ صحيح مسلم (٤/ ٢ وما بعدها) ، (كتاب الحج) ، ارشاد الساري (٣/ ٣١٣ وما بعدها) ، (باب لبس الخفين للمحرم اذا لم يجد النعلين) .

٢ المحبر (١٨٠) .

٣ المحبر (١٨٠ وما بعدها) .

٤ ابن رستة ، الاعلاق (١٩١) .

٥ Shorter Ency. of Islam, p. 585.

٦ صحيح البخاري (٢/ ١٧٩) ، ارشاد الساري (٣/ ١٧٣ وما بعدها) ، (باب الكلام في الطواف) .

الحمس والطلس والحلة :

والأخباريون يذكرون ان الطائفين بالبيت كانوا على صنفين : صنف يطوف عرياناً ، وصنف يطوف في ثيابه . ويعرف من يطوف بالبيت عرياناً بـ (الحِلة). أما الذين يطوف بثيابهم ، فيعرفون بـ (الحمس)[1] . وأضاف بعض أهل الأخبار الى هذين الصنفين ، صنفاً ثالثاً قالوا له : (الطلس)[2] .

وقبائل الحلة من العرب : تميم بن مرّ كلّها غير يربوع ، ومازن ، وضبة، وحميس ، وظاعنة ، والغوث بن مر ،وقيس عيلان بأسرها ما خلا ثقيفاً وعدوان ، وعامر بن صعصعة ، وربيعة بن نزار كلها. وقضاعة كلها ما خلا علافاً وجناباً . والأنصار وخثعم ، وبجيلة ، وبكر بن عبد مناة بن كنانة ، وهذيل بن مدركة ، وأسد وطيء ، وبارق . وقد ذكر هذه الأسماء (محمد بن حبيب)[3] . وذكرها (اليعقوبي) على هذا النحو : تميم وضبة ومزينة والرباب وعكل وثور وقيس عيلان كلها ما خلا عدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها ، وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد[4] .

وهم يذكرون ان (الحِلة) هم ما عدا الحمس وانهم كانوا يطوفون عراة إن لم يجدوا ثياب أحمس،وكانوا يقصدون من طرحهم ثيابهم طرحهم ذنوبهم معها[5] . ويذكرون انهم كانوا يقولون: «لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب» ، « ولا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها » ، « ولا نطوف في ثياب عصينا الله فيها» ، وذكر انهم « كانوا اذا طافوا خلعوا ثيابهم وقالوا لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فيلقونها عنهم ، ويسمون ذلك الثوب اللقي »[6] . وفي رواية ان من يطوف

---

١ تفسير الطبري (٢/ ١٧٠) ، البخاري ، (كتاب الحج ، الباب ٩١) ، (كتاب التفسير، الباب ٣٥) ، البلدان (٤/ ٦٢٠ وما بعدها) ، الازرقي (١/ ١١٣) ، اليعقوبي (١/ ٢٢٦) ، (النجف ١٩٦٤ م) ، المحبر (١٧٨) ، ابن هشام (١/ ٢١٢) ، الكشاف (١/ ٢٥٦) ، شرح حماسة أبي تمام ، للتبريزي (١/ ٧)، شرح المفضليات ، للانباري (٢٥٩) ، ابن رشيق ، العمدة (٢/ ١٨٨) ، ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان (١٨) .

٢ المحبر (١٧٨ وما بعدها) .

٣ المحبر (١٧٩) .

٤ اليعقوبي (١/ ٢٢٦) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

٥ الروض الانف (١/ ١٣٣) .

٦ الازرقي (١/ ١١٧) ، اللسان (٢٠/ ١٢٢) ، الكشاف (٢/ ٦٠) .

من (الحلة) بثيابه يضرب وتنتزع منه ثيابه[1] . فجعلت هذه الرواية خلع الثياب واجب على الحلة محتّم عليهم ، لا يجوز مخالفته ، وإلا تعرض المخالف للعقاب .

وتخضع النساء لهذه القاعدة أيضاً اذا كنّ من الحلة ، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة[2] . وقيل تضع احداهن ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه[3] . وقيل كانت تقف على باب المسجد ، فتقول : من يعير مصوناً؟ من يعير ثوباً ؟ من يعيرني تطوافاً ؟ فإن أعارها أحد ثوباً أو كراه لها طافت به ، وإلا طافت عريانة كما يطوف الرجال على حد زعم الروايات . لا يستر عورتها لباس أو قماش ، بل كانت تضع احدى يديها على قبلها واليد الأخرى على دبرها وتطوف حول البيت على هذا النحو . وهم يروون في ذلك بيتاً ينسبونه لامرأة جميلة ، قيل هي : ضباعة بنت عامر بن صعصعة ، طافت بالبيت عريانة وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله[4]

وشاعت بعض الروايات أن تخفف من وقع طواف النساء على هذه الصورة في النفوس ، فذكرت ان بعض النساء كانت تتخذ سيوراً فتعلقها في حقوتها تستتر بها[5] ، وذكرت روايات أخرى انهن كن يطفن ليلاً ، وبذلك يتخلصن من وقوع سترهن في أعين الرجال ، لأن طواف الرجال في النهار[6] .

وقد وصفت بعض الروايات طواف العريان فقالت : « يبدأ بإساف فيستلمه ، ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعاً ، استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس ، فيأخذها فيلبسها ولا يعود الى الطواف بعد ذلك

---

١ الكشاف (٢/ ٦٠) ، الازرقي (١/ ١١٢ وما بعدها) .
٢ صحيح مسلم (١٨/ ١٦٢) .
٣ سيرة ابن هشام (١/ ١٣٣) « حاشية على الروض » .
٤ الازرقي (١/ ١١٥ ، ١١٧) ، اللسان (١١/ ١٢٩) ، « طوف » الروض (١/ ١٣٣) ، صحيح مسلم (١٨/ ١٦٢) ، تفسير الطبري (٨/ ١١٨) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٧/ ١٨٩) .
٥ الازرقي (١/ ١١٧) .
٦ الازرقي (١/ ١١٧) ، الطبرسي (٣/ ٤١٤) .

عرياناً »[1] . هذا هو طواف أهل الجاهلية قبل الاسلام على رواية أهل الأخبار .

وجاء في بعض الروايات : « كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عراة، إلا ان تعطيهم الحمس ثياباً ، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء » ، « فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً ولا يسارٌ يستأجر به ، كان بين أحد أمرين : إما ان يطوف بالبيت عرياناً ، وإما ان يطوف في ثيابه ، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه ، فلم يمسه أحد . وكان ذلك الثوب يسمى اللقى »[2] . وجاء أيضاً ان (الحمس) كانوا « يقولون نحن أهل الحرم ، فلا ينبغي لأحد من العرب ان يطوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل اذا دخل أرضنا إلا من طعامنا »[3] .

وورد انهم « كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون »[4] .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان طواف الطائف عرياناً انما يكون للمرة الأولى ، فإذا عاد فطاف بعد ذلك ، لبس ملابسه ، وطاف بملابسه كالحمس لا يلقيها خارج حدود الحرم .

والتفسير الذي ذكره الأخباريون لطواف العري ، هو رغبة الطائف حول البيت ان يكون نقياً متحرراً عن ذنوبه وآثامه بعيداً عن الأدران . واعتقاده ان طوافه بملابسه طواف غير صحيح ، لأن ملابسه شاركته في آثامه ، فهي ملوثة نجسة ، ولذلك هاب من لبسها ، فإذا أتم طوافه تركها في موضعها، ولبس ملابس أخرى جديدة[5] .

ويذكر الأخباريون ان تلك الملابس التي يلقيها المحرم تبقى في مكانها، لا يمسها أحد ، ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح . ويقال لهذه الثياب التي تطرح بعد الطواف (اللقي) . وقد أشير اليها في شعر

---

١ الازرقي (١/١١٤) .
٢ تفسير القرطبي (٧/١٨٩) .
٣ المصدر نفسه .
٤ تفسير النيسابوري (٩/١٥٧) ، « حاشية على تفسير الطبري » ، تفسير الطبري (٩/١٥٧ وما بعدها) .
٥ الازرقي (١/١١٧) ، اللسان (٢٠/١٢٢) ، الكشاف (٢/٦٠) .

لـ (ورقة بن نوفل)[1] . ولعل اعتقاد القوم بأن تلك الملابس ملوثة بالأدران ، هو الذي منع الناس الآخرين من لمس تلك الملابس والاستفادة منها، فتركوها لذلك للأرض وللشمس والرياح تعبث بها الى ان تتمزق وتهرى[2] .

ولكننا نجد الأخباريين يعودون فيروون روايات تناقض ما ذكروه عن (اللقي). إذ يقولون : كان الحلة اذا ختموا طوافهم وأتموه بنائلة ، خرجوا الى ثيابهم التي ألقوها خارج باب المسجد ، فلبسوها ، فإذا أرادوا الطواف مرة أخرى طافوا بملابسهم[3] . فهم يقرون في هذه الرواية طواف العري ، ولكنهم ينكرون ترك (اللقى) على الأرض لتدوس عليها الأقدام ولتلعب بها الرياح وتعبث بها الأهوية والأتربة ، ويجعلون أصحابها يعودون اليها فيلبسونها تارة أخرى .

ونقرأ في كتبهم رواية أخرى تذكر ان أحداً من الحلة اذا لم يجد ثياب أحمسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها ، غير ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه ثم جعلها لقى يطرحها بين أساف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها منتفع حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والأمطار[4] .

وقد ذكر (محمد بن حبيب) ان (الحلة) كانوا اذا دخلوا مكة « تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ثم استكروا لهم من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة ان يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد . ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم . فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة . وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس يأخذ ثيابه . فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً . وانما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم الى البيت لأنهم كانوا اذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم إلا اللحم . وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حرمي عياض بن حمار المجاشعي : كان اذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله »[5] .

---

١ كفى حزنا كرّي عليه ، كأنه لقى بين أيدي الطائفين حريم
الازرقي (١/١١٢ ، ١١٤) ، اللسان (٢٠/١٢٢) ، النهاية في غريب الحديث (٤/٢٩) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٧/١٨٩) .

٢ Robertson Smith, p. 751.

٣ الازرقي (١/١١٤) .

٤ الازرقي (١/١١٤) .

٥ المحبر (ص ١٨٠ وما بعدها) .

فالذي يطوف بالبيت عرياناً ، هو ضعيف (الحلة) ، ممن لا قبل له على استكراء ثياب له من أحمسي ، وممن لا صاحب له من الحمس ، يعطيه ثياباً ليلبسها . أما المتمكن من (الحلة) ، ومن له صديق من الحمس ، فلا يطوف عرياناً ، وانما يطوف بثياب أحمسي .

ويرى (روبرتسن سمث) ان الذي أوحى الى الجاهليين وجوب طرح ملابس الحلة اذا أحرم فيها،اعتقادهم بتقدس تلك الملابس في أثناء الإحرام مما يجعلها في حكم الـ (تابو) Tabu عند الأقوام البدائية ، ولذلك لا يجوز استعمالها مرة أخرى، وهم أنفسهم قوم غير مقدسين[1] .

وقد منع الاسلام طواف (العريّ) في أي وقت كان ، وحتم على الجميع قريش وغيرهم لبس (الإحرام)[2] . وقد ذكر علماء التفسير في تفسير قوله تعالى : « واذا فعلوا فاحشة ، قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها . قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون »[3] . ان هذه الآية نزلت في حق المتعرين الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة ، « فإذا قيل لهم : لِمَ تفعلون ذلك ؟ قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » ، « فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون ، ونقتدي بهديهم ونستن بسنّتهم . والله أمرنا به فنحن نتبع أمره فيه »[4] . فنحن اذن أمام سنّة جاهلية قديمة ، ترجع طواف العري الى أمر سابق وشريعة سابقة .

وأما (الحمس) ، فهم الذين كانوا يطوفون بثيابهم ، ثم يحتفظون بها فلا يلقونها ، فلهم من هذه الناحية ميزة امتازوا بها على الحلة . ولهم على الحلة ميزة أخرى ، هي انهم كانوا يقفون الموقف في طرف الحرم من (غرة) : يقفون به عشية عرفة ، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة ، ويفيضون منه الى المزدلفة[5] . ولا يقفون موقف غيرهم بعرفة ، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل . وحجتهم انهم أهل الحرم فلا يخرجون منه مثل سائر

---

١ R. Smith, p. 751.

٢ الازرقي ، أخبار مكة (١/١١١) .

٣ الاعراف ، الرقم ٢٧ الآية ٢٨ .

٤ تفسير الطبري (٨/١١٤) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٧/١٨٧) .

٥ الازرقي (١/١١٦ وما بعدها) (٢/١٥٨ وما بعدها ، النهاية (١/٢٣٣) ، شرح النووي، (٨/١٨٠) وما بعدها) ، Ency., II, p. 335.

الناس . ويقولون : « نحن أهل الحرمة وولاة البيت وقطّان مكة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف»[1].

وتفسير كلمة (الحمس) في رأي علماء اللغة التشدد في الدين ، سُمّوا حمساً لأنهم كانوا يتشددون في دينهم ، فكانوا اذا زوّجوا امرأة منهم لغريب عنهم ، أي لمن كان من الحلة اشترطوا عليه ان كل من ولدت له ، فهو أحمسي على دينهم . وكانوا اذا أحرموا لا يأتقطون الاقط ، ولا يأكلون السمن ولا يسلؤونه ولا يمخضون اللبن ، ولا يأكلون الزبد، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرماً ، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه ، وانما يستظلون بالأدم ، ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم . وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم . وكانوا اذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الاسلام ، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه . وكانوا يقولون : لا تعظموا شيئاً من الحل ، ولا تجاوزوا الحرم في الحج فلا يهاب الناس حرمكم ، ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم ، فقصروا عن مناسك الحج .والموقف من عرفة وهو من الحل ، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه ، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة : يقفون به عشية عرفة ، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة ، ويفيضون منه الى المزدلفة . فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا . وكانوا يقولون : نحن أهل الحرم ، لا نخرج من الحرم، ونحن الحمس . وكانوا اذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم ، تسوّروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ، ثم ينزلون في حجرتهم ، ويحرمون ان يمروا تحت عتبة الباب[2] . فهم يحرمون اذن أشياء لم تكن العرب تحرمها[3] .

---

١ ابن هشام (١٣٢/١) « هامش على الروض » .

٢ الازرقي (١١٦/١ وما بعدها) ، النهاية (٢٣٣/١ ، ٢٩٣) ، الاشتقاق (١٥٣) ، ابن هشام (٢١١/١) ، الكامل ، لابن الاثير (٣٩١/١) ، الطبرسي (٤١١/٢) .
Caetani, Annali, I, S. 121, Ency., II, p. 335, Snouck Hurgounje, Het Mekkaanische Feest, p. 21, 77, 111, 130.

٣ المعاني (٩٩٨/٢) .

والحمس : قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس على رواية[1] . تضاف اليهم خزاعة والأوس والخزرج وجشم وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة وأزد شنوءة وجذم زبيد وبنو ذكوان من بني سُليم وعمرو اللات وثقيف وغطفان والغوث وعدوان وعلاف وقضاعة على رواية للأزرقي[2] . وهم : (قريش) وكنانة وجديلة قيس ، وفهم ، وعدوان ، وثقيف ، وعامر بن صعصعة على رواية أخرى[3] . وقد ذكر (ابن سعد) ، ان الحمس هم : قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب . أو حليف قريش . وذكر بعض الرواة انهم قريش وعامر بن صعصعة ، والحارث بن كعب[4] . وذكرهم بعض آخر على هذا النحو : قريش ، وكنانة ، وخزاعة ، وثقيف ، وخثعم ، وعامر بن صعصعة ، ونصر بن معاوية . وأضاف (القرطبي) جشماً اليهم[5] . وورد ان « الحمس لقب قريش ومن ولدت قريش ، وكنانة وجديلة قيس . وهم : فهم وعدوان ابنا عمرو بن قيس عيلان ، وبنو عامر بن صعصعة ، ومن تابعهم في الجاهلية . هؤلاء الحمس . وانما سمّوا لتحمسهم في دينهم أي تشددهم فيه ، وكذا في الشجاعة فلا يطاقون ، أو لالتجائهم بالحمساء وهي الكعبة »[6] .

وأورد (ابن حبيب) أسماء الحمس من العرب ، فقال : « قبائل الحمس من العرب : قريش كلها . وخزاعة لنزولها مكة ، ومجاورتها قريشاً . وكل من ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب .

فمن ولدت قريش : كلاب ، وكعب ، وعامر ، وكلب بنو ربيعة بن عامر ابن صعصعة . وأمهم مجد بنت تيم بن غالب بن فهر . واياها عنى لبيد بن ربيعة بقوله :

سقى قومي بني مجد وأسقى نميراً والقبائل من هلال

---

١ النهاية في غريب الحديث (١/٢٩٣) ، تاج العروس (٤/١٣٢ وما بعدها) ، (حمس) ، اللسان (٧/٢٥٧ وما بعدها) ، (حمس) ، ، ارشاد الساري (٣/٢٠٠)، البلخي ، البدء والتاريخ (٤/٣٢ وما بعدها) .

٢ البلدان ، (مكة) ، .Kister, p. 138

٣ الطبقات (١/٧٢) ، (صادر) .

٤ ابن هشام (١/٢١٢) ، ابن قتيبة ، المعارف (٢٦٩) ، المعاني (٩٨٩) ، المرزوقي ، شرح الحماسة (٣١) ، .Kister, p. 132

٥ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢/٣٤٥) ، أبو حيان ، البحر المحيط (٢/٦٣) ، .Kister, p. 132

٦ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (حمس) .

والحارث بـن عبد مناة بـن كنانة . ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة ، بنزولهم حول مكة . وعامر بن عبد مناة بن كنانة . ومالك ، وملكان ، ابنـا كنانة ، وثقيف ، وعدوان ، ويربوع بن حنظلة . ومازن بن مالك بن عمرو بن تميم . وأمها جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر . ويقال : ان بني عامر كلهم حمس لتحمس اخوتهم من بني ربيعة بن عامر . وعلاف ، وهو ربّان بن حُلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة . وجناب بن هبل بن عبدالله من كلب . وأمه آمنـة بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة . وأمهـا مجد بنت تيم الأدرم بن غالب ابن فهر »[1] .

ويتبين مما تقدم ان (الحمس) ، لم يكونوا قريشاً وحدهم وسكان الحـرم ، وانهم لم يكونوا جماعة قامت وظهرت على رابطة الدم والنسب ، كما هو الحـال بالنسبة الى القبيلة . بل هم قريش وكل من نزل الحرم وسكن مكة ، وطوائف من العرب شاركت قريشاً في مناسك حجها ، وسارت على نهجها في الحـج ، وشاطرتها الرأي في دينها . وقد ذكر (الجاحظ) ان (عامر بن صعصعة) ، و (خزاعة) ، و (ثقيفاً) ، والحارث بن كعب ، كانوا ديّانين ، أي على رأي ودين[2] . وكانوا على دين قريش . وقال غيره : « وصارت بنو عامر من الحمس وليسوا من ساكني الحرم لأن أمهم قرشية . وهي مجد بنت تيم بن مرة . وخزاعة انما سميت خزاعة ، لأنهم كانوا من سكان الحرم فخزعوا عنـه ، أي خرجوا . ويقال انهم من قريش انتقلوا ببنيهم الى اليمن . وهم من الحمس »[3].

وقد ميّز بعض العلماء بين (الحمس) وهم نزلاء الحرم ، وبين المتحمسين الذين دخلوا في الحمس ، لأن أمهاتهم من قريش ، بأن أطلقوا عليهم لفظـة (الأحامس) . فقالوا : « والأحماس من العرب الذين أمهاتهم من قريش »[4] .

وجاء في بعض الأخبار ان (غطفان) ، لما اتخذت لها بيتاً أرادت به مضاهاة الكعبة ، وجعلت له حرماً كحرم مكة . أغار (زهير بن جناب الكلبي) عليه

---

١ المحبر (١٧٨ وما بعدها) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٥٤٠) ، ابن عبد البر ، انباه (٨٧) ، المفضليات ، شرح الانباري (٢٥٩) .
٢ Kister, p. 136.
٣ تاج العروس (١٣٢/٤) ، (حمس) .
٤ تاج العروس (١٣٣/٤) ، (حمس) .

وهدمه[1] . وكان زهير من الحمس .

وقد وصف (ابن سعد) (التحمس) بقوله : « والتحمس أشياء أحدثوها في دينهم تحمسوا فيها ، أي شددوا على أنفسهم فيها ، فكانوا لا يخرجون من الحرم اذا حجّوا ، فقصروا عن بلوغ الحق ، والذي شرع الله ، تبارك وتعالى، لابراهيم وهو موقف عرفة ، وهو من الحل ، وكانوا لا يسلؤون السمن ولا ينسجون مظال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم ، وشرعوا لمن قدم من الحاج ان يطوف بالبيت وعليه ثيابه ما لم يذهبوا الى عرفة ، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إلا عراة أو في ثوبي أحمسيّ ، وان طاف في ثوبيه لم يحلّ له ان يلبسها »[2] .

وللجاحظ ملاحظات قيمة عن قريش لها صلة بالتحمس ، وقد تفسر لنا معنى التحمس وسبب شموله أناساً هم من غير قريش .

ذكر ان الاسلام لما ظهر ، لم تكن هنالك أية امرأة قرشية ، كانت مسبية عند غير قريش . ولم تكن هنالك أية امرأة مسبية في أيدي القبائل وأمها من قريش . ويذكر أيضاً ان قريشاً لم تكن تزوج بناتها من أبناء أشراف القبائل حتى تشترط عليهم ان من تلد منهن ، فيكون من يلدن من الحمس . أما هم ، فكانوا اذا تزوجوا من بنات قبائل أخرى ، فإنهم لم يشترطوا على أنفسهم أي شرط، وكان من هذه القبائل عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة والحارث بن كعب ، (وكانوا ديّانين) . وكانوا على دين قريش في أمورها . وكانت قريش كريمة ، ولم ترض بالغارات والغزو ولا بالظلم ولم تقبل بالوأد ولا بالدخول بمن يقع في أيديهم أسرى من النساء . وكان من فضائلهم ان منّ الله عليهم بالإيلاف . فأغناهم وجعلهم (لقاحاً) ، فلم يخضعوا للملك ، ولم يستعبدهم سلطان أجنبي[3] . ولم يدفعوا أي شيء عنهم للملك من الملوك . بل كانت الملوك تأتي الى مكة وتعظم البيت وتحترم سكانه . وهم قريش الحمس[4] .

---

١ الاغاني (١٢/١٢١) ، (٢١/٦٣) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٢) ، (صادر) .
٣ أخذت هذه الملاحظات من (كستر) (Kister) ، لعدم وجود مخطوطة الجاحظ التي نقل منها عندي . وهي : مختارات فصول الجاحظ ، الموجودة في المتحف البريطاني برقم ٣١٨٣ .
٤ ابن الفقيه ، كتاب البلدان (١٨) .

ويظهر من ملاحظات الجاحظ المذكورة ، ان من أهم مبادىء الحمس ، نبذ الغارات ، أي الغزو ، حتى جعلته قريش ركناً من أركان دينها . كما تمسكت بركن آخر ، هو عدم الدخول بمن يقع في أيديهم من النساء السبايا في حالة ما اذا أغارت قبيلة عليهم ، واعتدت عليهم ، فانتصرت قريش عليها ، وأخذت منها سبايا . أما الحمس الآخرون ، مثل عامر بن صعصعة وثقيف والحارث بن كعب ، وأمثالهم ممن تحمسوا ، فلم يتمسكوا بهذه الأصول . وذكر (ابن الفقيه) ان القبائل المذكورة لم تكن في الأصل حمساً ، على دين قريش ، وانما تحمست وصارت من الحمس بتأثير قريش عليها[1] . وقريش تمسكوا وحدهم بالحمس ، (وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء)[2] . وقد عرفت مكة بـ (دار الحمس) ، كما جاء ذلك في شعر ينسب الى (الكاهن اللهبي)[3] . وعرفت قريش بـ (أهل الله)[4] .

ونجد بين (الحمس) والحرم صلة متينة ، تشير الى الأصل الديني للحمس والى ارتباطهم بالكعبة . فذهب (الزمخشري) الى ان (حمس) من (حرم)[5] : ومن دلائل هذه الصلة أيضاً ما ورد في كتب أهل الأخبار من ان الكعبة كانت قد عرفت بـ (الحمساء) . سميت بذلك (لأن حجرها أبيض الى السواد)[6] . ومن ان (الحمس) هم نزلاء الحرم[7] . فبين الحمس والحرم ، صلة متينة اذن . حتى قيل ان المنسوب الى الحرم من الناس (حرمي)[8] . و (ان عياض بن حمار المجاشعي ، كان حرمي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكان اذا حج طاف في ثيابه . وكان أشراف العرب الذين يتحمسون على دينهم ، أي يتشددون اذا حج أحدهم لم يأكل إلا طعام رجل من الحرم : ولم يطف إلا في ثيابه .

---

١ Kister, p. 137.

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٨) ، (أهل الله) ، Kister, p. 137.

٣ الروض الانف (١/١١٨) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٤٩١) ، Wellhausen, Reste, S. 134, Kister, 138.

٤ Kister, p. 139.

٥ الزمخشري ، الفائق ، (حمس) ، Kister, p. 138.

٦ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (حمس) .

٧ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (حمس) .

٨ بالكسر .

فكان لكل رجل من أشرافهم رجل من قريش . فيكون كل واحد منهما حيرمي صاحبه »[1] . ويفسر لنا هذا المعنى أيضاً قولهم : « رجل حرام : داخــل في الحرم » ، و « الحرم بالكسر الرجل المحرم . يقال : أنت حل وانت حرم»[2].
وقد أنجب الزواج المشروط بين قريش وبين من يتزوج منها حمساً جدداً ، انتقل الحمس اليهم عن طريق (شرط عقد الزواج) من جهة الأمهــات . أما نسل هؤلاء الحمس الجدد ، الذين هم في الواقع أنصاف أحماس ، فقد صار حمساً مثل قريش ، لأنهم ولدوا من والد حسب من الحمس ومن والدة أحمسية . وبذلك لم يعد الحمس أهل مكة وحدهم ، بل شمل أهل مكة ومن تزوج مكّيات فأنجبن ولداً ، عدّوا حمساً بشرط العقد .

وتذكر بعض الروايات ان عقيدة (الحمس) لم تكن قديمة ، بل ظهرت قبيل الاسلام . « قال ابن اسحاق : كانت قريش لا أدري قبل الفيـل أو بعده ، ابتدعت أمر الحمس رأياً . فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها،وهم يعرفون ويقرون انها من المشاعر والحج ، إلا انهم قالوا : نحن أهل الحــرم ، ونحن الحمس . والحمس أهل الحرم . قالوا : ولا ينبغي للحمس ان يتأقطوا الأقط ولا يسلؤوا السمن ، وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرماً ، ثم قالوا : لا ينبغي لأهل الحل ان يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجاً أو عمّاراً ، ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس »[3] . ولم تذكر هذه الرواية سبب ظهورها ، ولا من أوجدها من رجال قريش .

ويتبين من غربلة ما ذكره أهل الأخبار عن الحمس : ان الحمس هم أهل مكة الأحرار في الأصل ، ثم من دان بدينهم . وجدوا أنفسهم في ضنك شديد، في واد غير ذي زرع ، لا شيء عندهم غير (البيت) ، فتحمسوا في دينهم وتشددوا وتعاونوا فيما بينهم على العمل معاً ، وعلى الدعوة الى عبادة رب البيت واقراء الضيف والامتناع عن غزو غيرهم ، وعن التحرش بأحد ، إلا اذا تحرش بهم ، وعلى إغاثة الملهوف ومساعدة من يأت البيت حاجاً أو معتمراً أو قاصداً

---

١ تاج العروس (٢٤٣/٨) ، (حرم) .
٢ تاج العروس (٢٤٣/٨) ، (حرم) .
٣ ارشاد الساري (٢٠٠/٣) .

تجارة ، وتقديم الرفادة له . ونصرة الغريب . وحافظوا على الحرمات : حرمة البيت وحرمة الحج وحرمة الأشهر الحرم ، ووضعوا لأنفسهم قواعد صارمة في آداب السلوك في موسم الحج وفي غيره ، تشعر انهم كانوا ينظرون الى أنفسهم كأنهم (جنس) ، فضله الله على بقية أجناس العرب ، لهم مناسكهم ، ولبقية العرب مناسكهم ، ولهم قباب خاصة يضربونها لأنفسهم في سوق عكاظ وفي المواضع الأخرى تميزهم عن سائر من يفد الى هذه المواضع،وترفعوا عن مصاهرة سائر الناس إلا اذا وجدوا انهم أكفاء لهم ، والكفاءة : القوة والمال . وأقاموا مجتمعهم الخاص هذا على قواعد دينية تعاونية اقتصادية (صاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء)[1] . شعارهم انهم (أهل الله)[2] ، دينهم « التحمس والتشدد في الدين، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال ، فلما زهدوا في الغصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة : فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم ، والنجاشي بالحبشة ، والمقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء »[3]. وكان ان تفردوا بالإيلاف، وللايلاف ارتباط بالحمس ، وتوجهوا الى التجارة والاتجار ، وجمعوا بين الدين والمال ، وأفسحوا المجال لمن به نشاط وهمة ان يجمع مالاً وأن يكون غنياً على ان يساهم بنصيبه في تحمّل أعباء مجتمعهم ، للدفاع عن (بيت الله) ولكسب المتحالفين معهم وتوزيع العدل فيما بينهم ، توزيعاً يخفف من حدة التفاوت فيما بين الغني والفقير ، حتى لا يقع اختلال في التوازن بين طبقات المجتمع، يحمل الفقراء على انتزاع المال من الأغنياء كرهاً وقسراً . وجعلوا ذلك واجباً من واجباتهم ، فحثوا على رفع الظلم ، واتخذوا السقاية والرفادة ، وعقدوا (حلف الفضول) للدفاع عن المحتاج ، وجعلوا (الإيلاف) الذي سأتكلم عنه في الجزء الخاص بالحياة الاقتصادية ، سبباً من أسباب اشاعة الرحمة ومساعدة الفقراء وتخفيف وطأة الفقر في هذه القرية : (أم القرى) ، وفي ذلك يقول (مطرود بن كعب الخزاعي) في رثائه عبد المطلب :

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨) ، (أهل الله) ، (ص١١) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) .

٢ ثمار (ص ١٠) .

٣ ثمار (ص ١١ وما بعدها) ، سيرة ابن دحلان (١/١٤٠) ، (حاشية على السيرة الحلبية) .

يا أيها الرجل المحول رحله ... ألا نزلت بآل عبد منافِ
هبلتك أمك لو نزلت عليهم ... ضمنوك من جوع ومن إقراف
الآخذون العهد من آفاقها ... والراحلون لرحلة الإيلاف
والمطعمون اذا الرياح تناوحت ... ورجال مكة مستون عجاف
والمفضلون اذا المحول ترادفت ... والقائلون هلمّ للأضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم ... حتى يكون فقيرهم كالكافي
كانت قريش بيضة فتفلقت ... فالمحّ خالصة لعبد منافِ[1]

قام رجال من رجال مكة بالانفاق على المحتاجين، فعدّوا ذلك ديناً ومروءة وشهامة. فكان (نعيم بن عبدالله) العدوي ، ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم[2] . وكان (حكيم بن حزام) ينفق من أرباحه على المحتاجين من آله وذويه[3] . وكان صديق النبي قبل المبعث[4]، وتذكر كتب السير والتراجم أسماء رجال آخرين عرفوا بتصدقهم على الفقراء والمحتاجين ، اعتبروها منقبة وقربة لهم في الجاهلية ، وقد أقرهم الرسول عليها .

فالحمس (أهل الله) ، وأمته ، تجمعهم عبادة الله والأصنام ، والمناسك والشعائر التي وضعوها لهم ، والتجارة التي جعلوها مثل شعائر دينهم ، ينفقون من أرباحهم منها في سبيل (الله) . أي بيت الله وأهله المستضعفون ، حتى جعلوا الصدقة وإطعام المحتاج من أمور الدين. فمجتمعهم مجتمع جمع بين الدين والتجارة، وبين الدين والمال . حثهم على التعاون بخلط رؤوس أموالهم والاتجار معاً بقوافل ، وفيه ربح كبير مضمون ، وحثهم على إنصاف من ليس له شيء حتى يصير

---

١ أخذت هذه الابيات من أمالي المرتضى (٢/٢٦٨) ، وتختلف بعض الاختلاف عن أمالي القالي (١/٢٤١ وما بعدها) ، التي فيها :
منهم علي والنبي محمد ... القائلان هلم للاضياف
وعن سيرة ابن هشام (١/١١٧) ، (حاشية على الروض الانف) ، وعن معجم الشعراء (٣٧٥) ، وشرح ابن أبي الحديد (٣/٤٥٣) ، والعيني (٤/١٤٠) ، والبكري ، سمط (٥٤٧ وما بعدها) ، وعن تفسير الطبرسي (حـ ٣٠ ص ٥٤٥) ، (طبعة طهران) ، تفسير سورة لايلاف قريش ، وعن ابن العربي ، محاضرات الابرار (٢/١١٩) ، والبلاذري ، أنساب (١/٥٨) ، والدياربكري ، تأريخ الخميس (١/١٥٦) .
٢ الاصابة (٣/٥٢٧) ، (رقم ٨٧٧٨) .
٣ نسب قريش (١/٣٦٧) ، (رقم ٦٤٤) ، Kister, p. 125.
٤ الاصابة (١/٣٤٨ وما بعدها) ، (رقم ١٨٠٠) .

مكتفياً غير محتاج ، لا يوجه عينه نحو غيره حسداً وحقداً . شعار هذا المجتمع الله والأصنام والحج والتجارة ، مجتمع لم يكن يخلو بالطبع من أحامس بخلاء ، شذوا عن الطريق ، واغتصبوا أموال الفقراء ، كما هو الحال في كل مجتمع بشري .

وقد اقتصرت (قريش) ، وهم من الحمس ، على استعمال القباب المصنوعة من الأدم لا يضربها غيرها بـ (منى)[1] . لأنهم (كانوا لا ينسجون مظال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم)[2] . وقد استعمل الرسول في حجه هذا النوع من القباب[3] . ولا بد أن يكون لاقتصار قريش على استعمال هذا النوع من القباب دون غيرها في هذا الموضع ، سبب ما ، الأرجح انه عامل ديني واجتماعي[4] . ويلاحظ انه كان للقباب الحمر ذكر خطير ، وجاه عظيم في نظر الجاهليين ، فكان أصحابها يفتخرون على غيرهم بأنهم (أهل القباب الحمر)[5] ، وقد كان الملوك والسادة يضربون لأنفسهم القباب الحمر . فهي من امارات الجاه والمكانة والنفوذ .

ويظهر من بعض الأسماء أو الجمل التي وردت فيها كلمة (أحمس) و (حمس) ان هذه الكلمة هي نعت أو اسم من أسماء الآلهة عند الجاهليين في الأصل ، ثم تغير معناها بعد ذلك فصارت على النحو الذي ذكره علماء اللغة نقلاً عن الروايات التي ترجع ذلك المعنى الى الجاهلية المتصلة بالاسلام . ففي الأسماء الواردة الينا : (أحمس الله) ، و (بنو أحمس) ، و (أبو أحمس) ، و (الأحامس)[6] ؛ ما يفيد ان الأصل بعيد جداً عن المعنى الذي فهمه وذهب اليه أهل الأخبار ، وان للكلمة معنى دينياً خاصاً قديماً ، هو التشدد في الدين والتمسك به ، وبعبادة الصنم ، والمحافظة على سنّة الآباء والأجداد مع تصلب وتقشف .

---

١ (كانت قباب قريش من الأدم ، لا يضربها غيرهم بمنى) ، المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني ــ آذار ، ١٩٣٩ (ص ٩٥) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (٤١/١) .
٣ ابن سعد ، الطبقات (٨٨/٢) ، أسد الغابة (٢٥١/١) .
٤ المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني ــ آذار ، ١٩٣٩ (ص ٩٥) .
٥ أهل القباب الحمر   والنعم المؤبل والمدامه
ديوان عبيد الابرص (٢٩) ، (طبعة لايل) .
٦ الاغاني (٤٦/٢) ، الاشتقاق (١٥٣) ، تاج العروس (١٣٢/٤ وما بعدها)، (حمس) .

والأحماس من العرب الذين أمهاتهم من قريش[1] ، صاروا من الحمس بسبب أمهاتهم .

هذا وقد نزل الوحي بتنظيم الحج وفق مبادىء الاسلام ، فأباح للحجاج ما كانت الحمس حرمته على نفسها من طعام الحج إلا طعام أحمسي ، على نحو ما ذكرت قبل قليل . وما ذكر من ان قوماً كانوا قد حرّموا على أنفسهم ما يخرج من الشاة لبنها وسمنها ولحمها ، اذا حجوا أو اعتمروا[2] . كما نزل بوجوب ستر العورة ولبس الإحرام في الحج ، وذلك بالنسبة الى المحلّين ، وأغلبهم من الأعراب ومن الفقراء ، حيث كانوا يطوفون عراة ، وفي ضمنهم النساء[3] . فنزل الوحي بـ : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين »[4] . ونهوا عن ذلك[5] . وذكر عن أبي هريرة انه قال : « بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر ، لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان »[6] .

كما نزل الوحي بجواز دخول الحجاج بيوتهم وخيامهم وما يأوون اليه من بيوتها ، من أبوابها ، لا كما كان يفعل بعضهم في الجاهلية وفي أول الاسلام ، من انه اذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه ، فإن كان من أهل المدن نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلماً فيصعد فيه ، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل من الباب حتى يحل من احرامه ويرون ذلك ذماً ، إلا ان يكون من الحمس . وهم : قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وبنو عامر بن صعصعة ، وبنو النضر بن معاوية . نزل الوحي بذلك في الآية : «وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون»[7] .

---

١ تاج العروس (٤/١٣٣) ، (حمس) .
٢ تفسير الطبري (٨/١٢١) .
٣ تفسير الطبري (٨/١١٨) .
٤ الاعراف ، الآية ٣١ .
٥ تفسير الطبري (٨/١١٨ وما بعدها) ، أسباب النزول (١٦٨ وما بعدها) .
٦ صحيح مسلم (٤/١٠٧) ، (باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان الحج الاكبر) .
٧ البقرة ، الآية ١٨٩ .

وقد ذهب بعض أهل الأخبار والسير الى ان الآية المذكورة ، نزلت في أمر الحمس ، « لأن الحمس لا يدخلون تحت سقف ولا يحول بينهم وبين السماء عتبة باب ولا غيرها ، فان احتاج أحدهم الى حاجة في داره تسنم البيت من ظهره ، ولم يدخل من الباب »[1] . وذهب المفسرون الى انها نزلت في الأنصار، فقد كانوا اذا حجّوا فجاءوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل فدخل من قبل بابه ، فكأنه عير بذلك ، فنزلت هذه الآية . وورد: « كانت قريش تدعى الحمس ، وكانوا يدخلون من الأبواب في الاحرام،وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الاحرام ، فبينما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في بستان ، إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري، فقالوا : يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وانه خرج معك من الباب ! فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : فإنّ ديني دينك ! فأنزل الله : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها »[2] . وقد أغفلت بعض الروايات اسم من كان لا يدخل البيوت من أبوابها ، بأن قالت : « كان أهل الجاهلية يأتون البيوت من ظهورها ويرونه براً » ، أو « كانوا في الجاهلية اذا أحرموا أتوا البيوت من ظهورها ، ولم يأتوا من أبوابها » ، أو « إن ناساً كانوا اذا أحرموا لم يدخلوا حائطاً من بابه ولا داراً من بابها أو بيتاً » ، أو « كان ناس من أهل الحجاز ، اذا أحرموا لم يدخلوا من أبواب بيوتهم ودخلوها من ظهورها »[3] ، وذكر ان من كان يفعل ذلك ، فانما يفعله،لأنهم كانوا يتحرجون من ان يكون بينهم وبين السماء حائل[4] .

وقد جعل (اليعقوبي) العرب في الجاهلية على دينين : دين الحمس ودين الحلة . وذلك بالنسبة للمشركين . وذكر ان منهم من دخل في دين اليهودية وفي النصرانية ، ومنهم من تزندق وقال بالثنوية ، وبهذه الفرق حصر (اليعقوبي) أديان أهل الجاهلية . إذ قال : « فهاتان الشريعتان اللتان كانت العرب عليها . ثم دخل قوم من العرب في دين اليهود ، وفارقوا هذا الدين . ودخل آخرون

---

١ الروض الانف (١/١٣٤ وما بعدها) .
٢ أسباب النزول (ص ٣٥ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (٢/١٠٨ وما بعدها) .
٤ المصدر نفسه .

في النصرانية ، وتزندق منهم قوم ، فقالوا بالثنوية »[1] .

والتعميم الذي يطلقه (اليعقوبي) وبقية المؤرخين والأخباريين في قولهم « وكانت العرب في أديانهم » ، لا يمكن التسليم به ، إلا بالنسبة لأهل مكة ولمن كان يقصدهم من العرب . أما بالنسبة لجميع العرب ، فهذا ما لا يمكن التسليم به .

وأما (الطلس) ، فقد وصفهم (محمد بن حبيب) بقوله انهم : « بين الحلة والحمس : يصنعون في احرامهم ما يصنع الحلة ، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس . وكانوا لا يتعرون حول الكعبة ، ولا يستعيرون ثياباً ، ويدخلون البيوت من أبوابها ، وكانوا لا يئدون بناتهم ، وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون »[2] . وهم سائر أهل اليمن ، وأهل حضرموت ، وعك وعجيب ، وإياد بن نزار[3] .

وذكر ان من الحجاج من كان يحج بغير زاد ، وان منهم من كان اذا أحرم رمى بما معه من الزاد ، واستأنف غيره من الأزودة ، وان « قبائل من العرب يحرمون الزاد اذا خرجوا حجاجاً وعمّاراً » ، فنــزل الوحي : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى »[4] ، فأمر من لم يكن يتزود منهم بالتزود لسفره ، ومن كان منهم ذا زاد ان يتحفظ بزاده فلا يرمي به[5] . وقد عرف هؤلاء بـ (المتوكلة) ، لتوكلهم على (رب البيت) في اطعام أنفسهم ، واعتمادهم في ذلك على السؤال.

وقد ذكر علماء التفسير ان الآية : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » نزلت « في طائفة من العرب كانت تجيء الى الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا ، فكانوا يبقون عالة على الناس ، فنهوا عن ذلك ، وأمروا بالزاد . وكان للنبي صلى الله عليه وسلم في مسيره راحلــة عليها زاد ، وقدم عليه ثلثمائة رجل من مزينة ، فلما أرادوا ان ينصرفوا قال : يا عمر زوّد

---

١ اليعقوبي (١/٢٢٦) .
٢ المحبر (ص١٨١) .
٣ المحبر (ص١٧٩) ، الروض (١/١٣٣) .
٤ البقرة ، الآية ١٩٧ .
٥ تفسير الطبري (٢/١٦٢) ، (ان قوما كانوا يرمون بأزوادهم ويتسمون بالمتوكلة ، فقيل لهم تزودوا من الطعام ، ولا تلقوا كلكم على الناس) ، تفسير الطبرسي (١/٢٩٤) .

القوم ..... كما روى البخاري عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس »[1] .

ويظهر مما تقدم ان (المتوكلة) لم يكونوا جميعاً من الفقراء المحتاجين ، بل كان منهم قوم أغنيــاء فضل الله عليهم ، بدليل انهــم كانوا اذا حجّوا رموا زادهم ، أو أعطوه للمحتاج اليه ، يفعلون ذلك ديانة وتقرباً الى الله ، كما فعل (المتوكلــة) من بعدهم في الاسلام . فهم اذن طائفة من الطوائف الجاهليــة المتدينة ، ترى ان التقشف في الحج ، يزيد في ثوابه ، ويقرب أصحابه الى رب البيت .

ويريد أهل الأخبار بالثياب (الإحرام) على ما يظهر . وهو قديم وقد عرف عند غير العرب أيضاً . وهو محاكاة لملابس رجال الدين الذين يخدمون المعابد ، ويتقربون الى الآلهة . وهو يتكون من قطعتين من : إزار ومن وشاح . ويكون أبيض اللون . واللون الأبيض من الألوان التي تعبر عن معان دينية . فقــد كان رجال الدين والكهنة يلبسون الثيــاب البيض . كما انه شعار الحــزن عند بعض الشعوب ، وفي جملتهم عرب الحجاز[2] . ويظهر ان أهــل مكة وهم قريش ، كانوا يلبسون الإحرام ، أو يكرهونه لغيرهم من العرب أو يعيرونه لهم إن كانوا من حلفائهم ، فيحرمون كإحرام قريش . أما من لم يتمكن من الحصول عــلى الإحرام ، فقد كان يضطر بحكم الضرورة إلى الطواف عرياناً على نحو ما يقصه علينا أهل الأخبار .

أما بالنسبة الى أهل العربية الجنوبية من معينيين وسبئيين وقتبانيين وحضرميين ، فإننا لا نستطيع ان نتحدث عن سنة الطواف حول المعابد عندهــم ، لعدم ورود شيء عن ذلك في النصوص الواصلة الينا . ولكني لا أستبعد احتمال طوافهم حول بيوت أصنامهم على نحو ما كان يفعله أهل الحجـاز ، لأن الطواف حول بيوت الأصنام أو حول الصنم من السنن الشائعة بين العرب وعند جماعات من بني إرم والنبط .

---

١ تفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢/ ٤١١) ، تفسير ابن كثير (١/ ٢٣٩) .
٢ Shorter Ency. of Islam, p. 160.

التلبية :

وذكر (محمد بن حبيب) ان طواف أهل الجاهلية بالبيت اسبوعاً ، وذكر انهم كانوا يمسحون الحجر الأسود ، ويسعون بين الصفا والمروة . وكانوا يلبّون. وذكر ان نسك قريش كان لإساف ، وان تلبيتهم : « لبيك اللهم لبيك، لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك »[1] . وان تلبيـة من نسك للعزى : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ، ما أحبنا اليك » . وان تلبيـة من نسك للات : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى بيتنا بنيّة، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية أربابه من صالحي البريـة » . وكانت تلبية من نسك لجهار : « لبيك ، اللهم لبيك . لبيك ، اجعل ذنوبنا جبار، واهدنا لأوضح المنار ، ومتعنا وملنا بجهار » . وكانت تلبية من نسك لشمس : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، ما نهارنا نجره ، ادلاجه وحره وقره ، لا نتقي شيئاً ولا نضره، حجاً لرب مستقيم بره » ، وكانت تلبية من نسك لمحرّق : « لبيك ، اللهـم لبيك ، لبيك حجاً حقاً ، تعبّداً ورقاً » ، وكانت تلبية من نسك لودّ : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، معذرة اليك » . وكانت تلبيـة من نسك ذا الخلصة : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، بما هو أحب اليك » . وكانت تلبية من نسك لمنطبق : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك » . وتلبية عك ، انهم كانوا اذا بلغوا مكة ، يبعثون غلامين أسودين أمامهم ، يسيران على جمل ، مملوكين، قد جردا، فهما عريانان ، فلا يزيدان على ان يقولا : « نحـن غرابا عك » . واذا نادى الغلامان بذلك صاح من خلفهما من عك : « عك اليك عانية ، عبادك اليمانية ، كيما نحج الثانية ، على الشداد الناجية »[1] .

وكانت تلبية من نسك مناة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، لولا ان بكراً دونك يبرك الناس ويهجرونك ، ما زال حج عثـج يأتونك ، إنا على عدوائهم من دونك » . وتلبية من نسك لسعيدة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لبيك ، لم نأتك للمياحة ، ولا طلباً للرقاحة ، ولكن جئناك للنصاحة » . وكانت تلبيـة من نسك ليعوق : « لبيك اللهـم لبيك ، لبيك ، بغض الينا الشر ، وحبب الينـا الخير ، ولا تبطرنا فنأشر ، ولا تفدحنا بعثار » . وكانت تلبية من نسك ليغوث :

---

١ المحبر (٣١٣) .

« لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، أحبنا بما لديك : فنحن عبادك ، قد صرنا اليك » . وكانت تلبية من نسك لنسر : « اللهم لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، اننا عبيد ، وكلنا ميسرة عتيد ، وأنت ربنا الحميد ، اردد الينا مُلكنا والصيد». وكانت تلبية من نسك ذا اللبا : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، رب فاصرفن عنّا مضر ، وسلّمن لنا هذا السفر ، إن عما فيهم لمزدجر ، واكفنا اللهم أرباب هجر » . وكانت تلبية من نسك لمرحب : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، اننا لديك . لبيك ، حببنا اليك » . وكانت تلبية من نسك لذريح : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، كلنا كنود ، وكلنا لنعمة جحود، فاكفنا كل حية رصود ». وكانت تلبية من نسك ذا الكفين : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، إن جرهماً عبادك ، الناس طُرف وهم تلادك ، ونحن أولى منهم بولائك » . وتلبية من نسك هبل : « لبيك اللهم لبيك ، اننا لقاح ، حرمتنا على أسنة الرماح ، يحسدنا الناس على النجاح »[1] .

وقد تعرّض (اليعقوبي) لموضوع التلبية ، فقال : « فكانت العرب ، اذا أرادت حج البيت الحرام ، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلّوا عنده ، ثم تلبوا حتى يقدموا مكة . فكانت تلبياتهم مختلفة . وكانت تلبية قريش : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك ، تملكه وما ملك . وكانت تلبية كنانة : لبيك اللهم لبيك، اليوم يوم التعريف ، يوم الدعاء والوقوف . وكانت تلبية بني أسد : لبيك اللهم لبيك ، يا رب أقبلت بنو أسد ، أهل التواني والوفاء والجلد اليك . وكانت تلبية بني تميم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك عن تميم ، قد تراها قد أخلقت أثوابها وأثواب من وراءها ، وأخلصت لربها دعاءها . وكانت تلبية قيس عيلان: لبيك اللهم لبيك ، لبيك أنت الرحمان ، أتتك قيس عيلان ، راجلها والركبان . وكانت تلبية ثقيف : لبيك اللهم إن ثقيفاً قد أتوك ، وأخلفوا المال وقد رجوك . وكانت تلبية هذيل : لبيك عن هذيل قد أدلجوا بليل ، في إبل وخيل . وكانت تلبية ربيعة : لبيك ربنا لبيك ، لبيك إن قصدنا اليك . وبعضهم يقول : لبيك عن ربيعة ، سامعة لربها مطيعة . وكانت حمير وهمدان يقولون : لبيك عن حمير وهمدان والحليفين من حاشد والهان . وكانت تلبية الأزد : لبيك رب الأرباب ،

---

١ المحبر (٣١١ — ٣١٥) .

تعلم فصل الخطاب ، لملك كل مثاب . وكانت تلبية مذحج : لبيك رب الشعرى، ورب اللات والعزى . وكانت تلبية كندة وحضرموت : لبيك لا شريك لك ، تملكه ، أو تهلكه ،أنت حكيم فاتركه . وكانت تلبية غسان : لبيك رب غسان ، راجلها والفرسان . وكانت تلبية بجيلة : لبيك عن بجيلة في بارق ومخيلة، وكانت تلبية قضاعة : لبيك عن قضاعة ، لربها دفاعة ، سمعاً له وطاعة . وكانت تلبية جذام : لبيك عن جذام ، ذوي النهي والأحلام ، وكانت تلبية عك والأشعريين:

نحج للرحمان بيتاً عجبا مستتراً مضبباً محجبا [1]

و (التلبية) اجابة المنادي ، أي اجابة الملبي ربه . وقولهم : لبيك اللهـم لبيك ، معناه اجابتي لك يا رب ، واخلاصي لك [2] . وقد كان الجاهليون يلبّون لأصنامهم تلبيات مختلفة . وقد ذكر (أبو العلاء المعري) ، ان تلبيات العـرب جاءت على ثلاثة أنواع : مسجوع لا وزن له ، ومنهوك ، ومشطور . فالمسجوع كقولهم :

لبيك ربنا لبيك والخير كله بيديك

والمنهوك على نوعين : أحدهما من الرجز ، والآخر من المنسرح ، فالذي من الرجز كقولهم :

لبيك إنّ الحمد لك والملك لا شريك لك
إلا شريك هو لك تملكـــه وما ملك
أبو بنات بفدك

وكقولهم :

لبيك يا معطي الأمر لبيك عن بني النمر
جئناك في العام الزمر نأمل غيثاً ينهمـــر
يطرقُ بالسيل الخَمر

---

١ اليعقوبي (١/ ٢٢٥ وما بعدها) .
٢ اللسان (١/ ٧٣٢) ، (لبيب) .

والذي من المنسرح جنسان : أحدهما في آخره ساكنان كقولهم :

لبيك رب همـــدان من شاحط ومن دان
جئناك نبغي الإحسان بكل حرف مذعان
نطوي اليك الغيطان تأمل فضل الغفران

والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم :

لبيك عن بجيلـــه الفخمـــة الرجيله
ونعمـــت القبيلـــه جاءتك بالوسيلـــه
تؤمـــل الفضيلـــه

وربما جاءوا على قوافٍ مختلفة ، من ذلك تلبية بكر بن وائل :

لبيك حقاً حقـــا تعبـــداً ورقـــا
جئنـــاك للنصاحـــة لم نـــأت للرقاحـــه

وروي في تلبية (تميم) قولها :

لبيك لولا أن بكراً دونكا يشكرك النـــاس ويكفرونكا
ما زال منا عثج يأتونكا

ورووا أن من تلبيات همدان :

لبيك مع كـل قبيل لبيك همدان أبناء الملوك تدعوك
قد تركوا أصنامهم وانتابوك فاسمع دعاءً في جميع الأملوك

ومن تلبياتهم قولهم :

لبيك عن سعد وعن بنيهـــا وعن نساء خلفهـــا تعنيهـــا
سارت الى الرحمة تجتنيها

وختم (أبو العلاء المعري) رأيه عن التلبية بقوله : « والموزون من التلبية ، يجب أن يكون كله من الرجز عند العرب ، ولم تأت التلبية بالقصيـد . ولعلهم قد لبّوا به ولم تنقله الرواة »[1] .

1 رسالة الغفران (ص ٥٣٥ ـ ٥٣٧) . (بنت الشاطىء) .

والتلبية هي من الشعائر الدينية التي أبقاها الإسلام ، غير أنه غير صيغتها القديمة بما يتفق مع عقيدة التوحيد . فصارت على هذا النحو : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك »[1] . كما جعلها جزءاً من حج مكة ، بعد أن كانت تتم خارج مكة ، إذ كانت كل قبيلة تقف عند صنمها ، وتصلي عنده ثم تلبي ، قبل أن تقدم مكة[2] . وذلك بالنسبة لمن كان يحج مكة . فأبطل ذلك الإسلام ، وألغى ما كان من ذلك من حج أهل الجاهلية . وقد رأينا صيغ التلبيات ، وكيف كانت تلبيات القبائل خاصة بها ، تلبي كل قبيلة لصنمها ، وتوجه نداءها اليه .

وتردد جمل التلبية بصوت مرتفع ، ولعل ذلك لاعتقاد الجاهليين أن في رفع الصوت إفهاماً للصنم الذي يطاف له بأن الطائف قد لبى داعيه ، وأنه استجاب أمره وحرص على طاعته . وقد أشار بعض الكتاب (الكلاسيكيين) الى الصخب والضجيج الذي كان يرتفع في مواضع الحج بسبب هذه التلبية .

وهناك مواضع أخرى غير متصلة بالبيت الحرام ، كانت مقدسة وداخلة في شعائر الحج ، منها عرفة ومنى والمزدلفة والصفا والمروة ، ومواضع أخرى كان يقصدها الجاهليون لقدسيتها أو لوجود صنم بها ، ثم حرمها الاسلام ، فنسيت وأهملت فذهبت معالمها مع ما ذهب من معالم الجاهليين .

وتقف الحمس في حجها على أنصاب الحرم من نمرة على نحو ما ذكرت أما الحلة والطلس ، أي غير الحمس من بقية العرب فيقفون على الموقف من عرفة ، عشية يوم (عرفة) . فإذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس من أنصاب الحرم حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً . وكانوا يدفعون من عرفة اذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم . فيبيتون بمزدلفة حتى اذا كانت في الغلس وقفت الحلة والحمس على (قزح) ، فلا يزالون عليه حتى اذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في

---

١ البخاري ، كتاب الحج ، الحديث ٣١ وما بعده ، عمدة القاريء (١٧٢/٩ وما بعدها)، بلوغ الارب (٢٨٨/٢) ، ارشاد الساري (١٩٧/٣) ، (باب التلبية والتكبير اذا غدا من منى الى عرفة) .

٢ اليعقوبي (٢٢٥/١) ، (أديان العرب) .

وجوههم دفعوا من مزدلفة ، وكانوا يقولون : أشرق ثبير كيما نغير[1] .

ومن مناسك الحج الطواف بالصفا والمروة ، وعليها صنمان : اساف ونائلة . وكان الجاهليون يمسحونهما[2] . وكان طوافهم بهما قدر طوافهم بالبيت، أي سبعة أشواط . تقوم بذلك قريش ، أما غيرهم فلا يطوفون بهما ، وذلك على أغلب الروايات . ويظهر ان الصفا والمروة من المواضع التي كان لها أثر خطير في عبادة أهل مكة . ففي حج أهل مكة طوافان : طواف بالبيت ، وطواف بالصفا والمروة .

وبين الصفا والمروة يكون (السعي) في الاسلام ، ولذلك يقال للمسافة بين المكانين (المسعى) . وكان إساف بالصفا ، وأما نائلة فكان بالمروة[3] . ولا بد ان يكون لاقتران الاسمين دائماً سبب ، و (المسعى) هو الرابط المقدس بين هذين الموضعين المقدسين عند الجاهليين .

وكان أهل مكة يتبركون بلمس الحجر الأسود ، ثم يسعون بين الصفا والمروة. ويطوفون بإساف أولاً ويلمسونه ، كل شوط من الطواف ثم ينتهون بنائلة . ويلبّون لها : وكانت تلبيتهم لها : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك »[4] . وذكر أن (الأنصار) ، لما قدموا مع النبي في الحج ، كرهوا الطواف بين الصفا والمروة لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية ، وأرادوا تركه في الاسلام . وذكر أن قوماً من المسلمين قالوا : يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة ، فإنه شرك كنّا نصنعه في الجاهلية . فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بين الصفا والمروة مسحوا الوثنيين، فلما جاء الاسلام وكسرت الاصنام ، كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين ، فأنزل الله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله »[5] . ويتبين من غربلة الأخبار أن الذين كانوا يطوفون بالصنمين المذكورين ويسعون بينهما ، هم من عبّاد الصنمين وهم قريش

---

١ الازرقي (٢/٢٢٦) ، مسند ابن حنبل (١/٣٩ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢) ، الأم للشافعي (٢/١٨٠) .

٢ البلدان (٥/٣٦٥) ، (٨/٣٨) ، ارشاد الساري (٣/١٨٧) .

٣ Reste, S. 77.

٤ المحبر (٣١١) ، الازرقي (١/١١٢) .

٥ البقرة ، الآية ١٥٨ ، أسباب النزول (٣٠ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٢/٤٣) ، (طبعة البابي ١٩٥٤م) .

خاصة ، وليس كل من كان يحج الى مكة من العرب ، ولذلك كرهوا الطواف في الإسلام بالصفا والمروة . وقد استبدل الإسلام بالطواف السعي ، لهدم الصنمين اللذين كان الناس يطوفون حولهما واكتفى بالسعي بين الموضعين .

وذكر بعض العلماء أن العرب عامة كانوا لا يرون الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفون بينهما فأنزل الله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله »[1] ، أي لا تستحلون ترك ذلك[2] . وذكر أن الأنصار كانوا يهلّون لمناة في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام قالوا : يا نبي الله إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما ، فأنزل الله الآية المذكورة . وكان أهل (تهامة) ممن لا يطوفون أيضاً بين الصفا والمروة ، فلما جاء الاسلام ونزل الأمر بالطواف بالبيت ، ولم ينزل بالطواف بين الصفا والمروة ، قيل للنبي : انا كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة وان الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف بين الصفا والمروة فهل علينا من جناح أن لا نطوف بهما. فنزل الوحي: « ان الصفا والمروة من شعائر الله » ، فصار الطواف بين الصفا والمروة لجميع الحجاج ، لا كما كان في عهد الجاهلية . من اقتصاره على قريش وبعض العرب المتأثرين بهم . فكانوا يطوفون بهما ويمسحون بالوثنين إساف ونائلة ، فلما جاء الاسلام تحرج بعض الناس وفيهم قوم من قريش من الطواف بينهما لأنهما من شعائر الجاهلية ، فنزل الأمر به[3] .

وذكر أهل الأخبار ان السعي بين الصفا والمروة ، شعار قديم من عهد هاجر أم اسماعيل . وأما رمل الطواف ، فهو الذي أمر به النبي ، أصحابه في عمرة القضاء ليُري المشركين قوتهم ، حيث قالوا : وهنتهم حمى يثرب[4] .

---

١ البقرة ، الآية ١٥٨ .

٢ تاج العروس (٣/٣٠٤) ، (شعر) ، روح المعاني (٢/٤١ ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢/١١٤) ، الازرقي (٧٤) ، تفسير ابن كثير (١/١٩٨) ، صحيح البخاري (١/٤١٤) ، الموطأ (١/٣٧٣) ، ارشاد الساري (٣/١٨٧) .

٣ تفسير الطبري (٢/٢٧ وما بعدها) ، الطبرسي (٢/٤٥) ، ابن كثير (١/١٨٨ ، ٢٠٠) ، البخاري (١/٤١٤) ، (باب ٧٩) ، الموطأ (١/٦٥٣) ، (١/٣٧١) ، (باب ٤٠) .

٤ اللسان (١١/٢٩٥ وما بعدها) ، (رمل) .

وورد في خبر عن (عائشة) انها قالت : « إن الأنصار كانوا يهلّون في الجاهلية لصنمين على شط البحر ، يقال لهما : إساف ونائلة ، ثم يجيئون، فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون ، فلما جاء الاسلام ، كرهوا ان يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعون في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : إن الصفا والمروة من شعائر الله الى آخرها . قالت : فطافوا » . وهو خبر يناقض أخباراً أخرى يتصل سندها بـ (عائشة) ، تجمع على انهـا قالت : إن الأنصار أو الأنصار وغسان كانوا قبل ان يسلموا يصلّون لمناة ، فلا يحل لهم ان يطوّفوا بين الصفا والمروة، وكان ذلك سنّة في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة[1] ، ولم أجـد في خبر آخر شيئاً يفيد ان إسافاً ونائلة كانا على ساحل البحر .

و (السعي) في الاسلام سبعة أشواط ، تبدأ بالصفا ، وتختم بالمروة . وعندما يصل الحاج حد (السعي) يسعى ويهرول ، فإذا جاز الحد مشى . وكان الجاهليون يبدأون بـ (الصفا) وينتهون بـ (المروة) كذلك[2] .

ومن مناسك حج أهل الجاهلية الوقوف بـ (عرفة) ، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجـة ويسمى (يوم عرفة) . ومن (عرفة) تكون (الإجازة) للإفاضة الى (المزدلفة) ، ومن (المزدلفة) الى (منى) . وقد كان الجاهليون من غير قريش يفيضون في عرفة عند غروب الشمس ، وأما في المزدلفة فعنـد شروقهـا . وكان الذي يتولى الإجازة رجلاً من تميم يقال له (صوفـة) ، ثم انتقلت الى (صفوان) من تميم كذلك[3] . ولم يكن (الحمس) يحضرون عرفة ، وإنما يقفون بالمزدلفة ، وكان سائر الناس يقف بعرفة . ولما رأى أحد الصحابة رسول الله واقفاً بعرفة عجب من شأنه وأنكر منه ما رأى لأنه من الحمس ، وما كان يظن أنه يخالف قومه في ذلك ، فيساوي نفسه بسائر الناس[4] . فأنزل الله : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم »[5] ،

---

١ صحيح مسلم (٤/٦٨) ، (باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج الا به) .
٢ راجع باب الحج في كتب الحديث والفقه .
٣ ابن هشام (٧٧ ، ٨٢) ، اللسان (٧/١٩١) ، تاج العروس (٦/١٩٣) ، الروض الانف (١/٨٦) ، الصحاح (٣/١٠٩٩) ، البلدان (٤/١٠٤) .
٤ ارشاد الساري (٣/٢٠٠) ، تفسير الطبرسي (٢/٢٩٦) ، تفسير ابن كثير (١/٢٤٢ وما بعدها) ، أسباب النزول (٤٢) .
٥ البقرة ، الآية ١٩٩ .

فشمل ذلك الحمس وغيرهم . فأخذوا يقفون كلهم موقف عرفـة ، ووضع عن قريش ما فعلوه من تمييز أنفسهم عن الناس[1] .

وورد في روايات أخرى ، أن قريشاً وكل حليف لهم وبني أخت لهـم ، لا يفيضون من عرفات ، إنما يفيضون من المغمس ، وورد أن قريشاً وكل ابن أخت وحليف لهم ، لا يفيضون مع الناس من عرفات ، يقفـون في الحرم ولا يخرجون منه . يقولون : إنما نحن أهل حرم الله ، فلا نخرج من حرمه ، وأنهم قالوا « نحن بنو ابراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت ، وقاطنوا مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحل ، كما تعظمون الحرم . فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها »[2] .

وذكر أن قريشاً ومن دان بدينها تفيض من (جمع) من المشعر الحرام[3] . و (جمع) المزدلفة[4] .

و (عرفة) أو (عرفات) موضع على مسافة غير بعيدة عن مكة[5] . لا بد وان يكون من المواضع التي كان يقدسها أهل الجاهلية ، وان يكون له ارتبـاط بصنم من الأصنام ، وإلا لما صار جـزءاً من أجزاء مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين . ويقف الحجاج موقف عرفة من الظهر الى وقت الغروب . وقد يكون لموقف الجاهليين في عرفة وقت الغروب علاقة بعبادة الشمس . فإذا غربت الشمس اتجه الحجاج الى (المزدلفة) .

---

١ تفسير الطبري (٢/١٦٦ وما بعدها) .

٢ تفسير الطبري (٢/١٧٠) .

٣ أسباب النزول (٤٢) .

٤ قال أبو ذؤيب :

فبـات بجمـع ثم تم الى منـى ... فاصبح رادا يبتغي المزج بالسحل

تاج العروس (٥/٣٠٥) ، (جمع) .

٥ (وعرفات ، موقف الحاج ذلك اليوم على اثني عشر ميلا من مكة) ، تاج العروس (٦/١٩٣) ، تفسير الطبري (٤/١١٤ وما بعدها) ، أخبار مكة (١/١١٥ وما بعدها) .

الإفاضة :

ومن (عرفة) تكون الإفاضة الى (المزدلفة) . و (المزدلفة) ، موضع يكاد يكون على منتصف الطريق بين (عرفة) و (منى) . وفيه يمضي الحجاج ليلتهم ، ليلة العاشر من (ذي الحجة) . ومنه تكون الإفاضة عند الشروق الى (منى) . وقد نعت بـ (المشعر الحرام) في القرآن الكريم[1] . ويذكر أهل الأخبار ان (قصي بن كلاب) ، كان قد أوقد ناراً على (المزدلفة) حتى يراها من دفع من عرفة ، وان العرب سارت على سنته هذه ، وبقيت توقدها حتى في الاسلام[2] . ولا بد وان يكون من المواضع الجاهلية المقدسة كذلك ، التي كان لها صلة بالأصنام . وقد ذكر علماء اللغة اسم جبل بالمزدلفة دعوه (قزحاً) ، قالوا انه (هو القرن الذي يقف عنده الإمام)[3] ، وذكروا ان (قزح) اسم شيطان[4] . ونحن نعرف اسم صنم يقال له (قزاح) ، قد تكون له صلة بهذا الموضع .

ويفيض الحجاج في الجاهلية عند طلوع شمس اليوم العاشر من ذي الحجة من (المزدلفة) الى (منى) ، لرمي الجمرات ولنحر الأضحية . و(منى) موضع لا يبعد كثيراً عن مكة . ولعلماء اللغة آراء في سبب التسمية ، من جملتها انها عرفت بذلك لما يمنى بها من الدماء[5] . وذكر بعض أهل الأخبار ان (عمرو بن لحي) نصب بمنى سبعة أصنام ، نصب على (القرين) القرن الذي بين مسجد منى والجمرة الأولى صنماً ، ونصب على الجمرة الأولى صنماً ، وعلى الجمرة الوسطى صنماً ، وعلى شفير الوادي صنماً[6] . ولا بد أن يكون لهذا الموضع صلة بالأصنام ، نظراً لما له من علاقة متينة بمناسك الحج . وقد يكون لرمي الجمرات ولنحر الذبائح صلة بتلك الأصنام .

---

١ سورة البقرة ، الآية ١٩٨ ، تفسير الطبري (٢/١٦٤) ، روح المعاني (٢/٧٤) ، تفسير ابن كثير (١/٢٤٢) .

٢ نهاية الارب (١/١٠٩) ، (ذكر نيران العرب) ، صبح الاعشى (١/٤٠٩) ، الازرقي (٣٦ ، ١٣٠ ، ٤١١ ، ٤١٥) ، (وستنفلد) ، ابن هشام (٧٧) ، ابن سعد (١/٧٢) ، (صادر) ، اللسان (٩/١٣٨) ، البلدان (٤/٥١٩) ، تاج العروس (٦/١٣١) .

٣ تاج العروس (٢/٢٠٧) ، (قزح) .

٤ تاج العروس (٢/٢٠٧) ، (قزح) .

٥ تاج العروس (١٠/٣٤٨) ، (منى) .

٦ الازرقي (٢/١٤٢) .

وقد ذكر العلماء «أن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس،ويقولون: أشرق ثبير »[1] . وأن النبي خالفهم ، فأفاض حين أسفر قبل طلوع الشمس »[2]. وفي فعل المشركين ذلك ، ووقوفهم انتظاراً للإفاضة عند طلوع الشمس ، دلالة على عبادة الشمس عندهم ، ولهذا غيّر الرسول هذا الوقت .

و (رمي الجمرات) بمنى من مناسك الحج وشعائره . وهو من شعائر الحج كذلك المعروفة في المحجات الأخرى من جزيرة العرب . كما كان معروفاً عند غير العرب أيضاً . وقد أشير اليه في التوراة[3] . وهو معروف عند (بني إرم)[4]. وكلمة (رجم) من الكلمات السامية القديمة . وقد وردت في حديث (عبدالله ابن (مغفل) : لا ترجموا قبري ، أي لا تجعلوا عليه الرجم ، وهي الحجارة، على طريقة أهل الجاهلية ، ولا تجعلوه مسنّماً مرتفعاً[5] . وقد فعله أهل الجاهلية على سبيل التقدير والتعظيم . فكان أحدهم إذا مرّ بقبر ، وأراد تقدير صاحبه وتعظيمه وضع رجمة أو رجاماً عليه .

(والجمرات) ، أي مواضع (رمي الجمرات) عديدة عند الجاهليين ، يطاف حولها ، ويحج اليها[6] منها مواضع أصنام ، وأماكن مقدسة ، ومنها قبور أجداد . وقد ورد قسم بها في بيت ينسب الى شاعر جاهلي[7] . وترمى الجمرات على مكان عرف بـ (جمرة العقبة) وبـ (الجمار) وبـ (موضع الجمار) وهو بـ (منى) ، وتتجمع وتتكوم عنده الحصى . وهي جمرات ثلاث : الجمرة

---

١ ارشاد الساري (٣/ ٢١٠) .

٢ المصدر نفسه .

٣ التكوين ، الاصحاح الحادي والثلاثون ، (وقال لابان ليعقوب : هوذا هذه الرجمة ، وهو ذا النصب الذي وضعت بيني وبينك) ، الآية ٥١ .

٤ Shorter Ency., p. 464, Reste, S. 112.

٥ النهاية (٢/ ٧٤)) اللسان (١٥/ ١١٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/ ٣٠٤ ومابعدها) ، (رجم) .

٦ المشرق : السنة : السنة التاسعة والثلاثون ، تموز ـ أيلول ١٩٤١ م ، (٢٤٦) ، Reste, S. 111.

٧ فاقسم بالذي قد كان ربي وأنصاب لـدى الجمرات مغر
ابن هشام (٥٣٤) ، المشرق ، الجزء المذكور . قال حذيفة بن أنس الهذلي :
لأدركهم شعث النواصي كأنهم سواشق حجاج توافي المجمرا
اللسان (٥/ ٢١٧) .

الأولى ، والجمرة الوسطى ، وجمرة العقبة[1] .

ويرجع أهل الأخبار مبدأ رمي الجمرات الى (عمرو بن لحي) . يذكرون انه جاء بسبعة أصنام فنصبها بـ (منى) ، عند مواضع الحجرات ، وعلى شفير الوادي ، ومواضع أخرى ، وقسم عليها حصى الجمار ، احدى وعشرين حصاة ، يرمي كل منها بثلاث جمرات ، ويقال للوثن حين يرمى : أنت أكبر من فلان الصنم الذي يرمى قبله[2] .

وكانت إفاضة الجاهليين على هذا النحو : كان أمر الإفاضة بيد رجل من أسرة تناوبت هذا العمل أباً عن جد . وقد اشتهر منهم رجل عرف بـ (عميلة ابن خالد العدواني) ، واشتهر بين الناس بـ (أبي سيّارة) . كان يجيز الناس من المزدلفة الى منى أربعين سنة . يركب حماراً أسود ، وينظر الى أعالي جبل (ثبير) ، فإذا شاهد عليها أشعة الشمس الأولى نادى : أشرق ثبير ، كيما نغير ! ثم يجيز لهم بالإفاضة وفيه يقول الشاعر :

خلّوا الطريق عن أبي سيّاره وعن مواليه بني فزاره
حتى يجيز سالماً حماره مستقبل القبلة يدعو جاره
فقد أجار الله من أجاره[3]

وضرب به المثل ، فقيل : أصح من عير أبي سيّارة[4] .

وذكر (الجاحظ) أن اسم (أبي سيّارة) (عميلة بن أعزل) ، دفع بأهل الموسم أربعين عاماً ، ولم يكن عيره عيراً وإنما كان أتاناً ، ولا يعرفون حماراً وحشياً عاش وعمّر أطول من عير (أبي سيارة)[5] .

---

١ تاج العروس (١٠٧/٣) ، (حجر) ، (٣٤٨/١٠) ، (منى) .
٢ الازرقي ، أخبار (ص ٤٠٢) ، (لايبزك) .
٣ اللسان (١٩١/٧) ، الروض الانف (٨٦/١) ، الميداني (٤٢١/١ وما بعدها) ، البلدان (٦/٣) ، (ثبير) ، البكري (٣٣٥/١) ، (طبعة السقا) ، (وأبو سيارة: عميلة بن أعزل) ، الحيوان (٢١٥/٧) ، (عبد السلام محمد هارون) ، ارشاد الساري (٢١٠/٣) .
٤ تاج العروس (٢٨٧/٣) ، (سير) ، نهاية الارب (٣٦/١٦ وما بعدها) .
٥ الحيوان (١٣٩/١) .

وورد أن الذين كان لهم أمر الإجازة بالحجاج،وهي الإفاضة ، هم (صوفة) . وهم حيّ من مضر من نسل (الغوث بن مرّ بن اد بن طابخة بن اليـاس بن مضر) ، وقد سمّوا (صوفة) و (آل صوفة) ، لأن (الغـوث) أبوهم جعلت أمه في رأسه صوفة وجعلته ربيطاً للكعبة يخدمها . وكانوا يخدمون الكعبـة ويجيزون الحاج ، أي يفيضون بهم ، فيكونون أول من يدفع . وكان أحـدهم يقوم فيقول : أجيزي صوفة ، فـإذا أجازت ، قال : أجيزي خندف ، فإذا أجازت أذن للناس كلهم في الإجازة . وكانت الاجازة بالحج اليهم في الجاهلية . وكانت العرب إذا حجت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتّى تدفع بها صوفة ، وكذلك لا ينفرون من (منى) حتّى تنفر (صوفة) ، فإذا أبطأت بهم، قالوا: أجيزي صوفة . وورد أن (صوفة) قوم من (بني سعد بن زيـد منـاة) من تميم[1] .

ويفهم من رواية أن كلمة (صوفة) لم تكن اسم علم ، وإنمـا هي لفظة أطلقت على من كان يتولى البيت أو قام بشيء من خدمته ، أو بشيء من أمر المناسك[2] . فهم من رجال الدين ، تخصصوا بالإجازة بالنـاس في مواسم الحج . ولعلهم كانوا يضعون على رأسهم صوفة على هيأة عمامة أو عصابة ، أو عطر ، لتكـون علامة على أنهم من أهـل بيت دين وشرف . فعرفوا بـ (صوفة) وبـ (آل صوفة) وبـ (صوفان) . وفي ذلك قال (مرة بن خليف الفهمي) ، وهو شاعر جاهلي قديم :

إذا ما أجازت صوفة النقب من منى   ولاح قتار فوقـه سفع الدم[3]

و (يظهر) من الروايات الواردة عن (ثبير) ، أنه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين،أو أن على قمته صنماً أو بيتاً كانوا يصعدون اليه لزيارته وللتبرك به[4] .
ومن الشعائر المتعلقة بمنى نحر الذبائح ، وهي الأضحية في الاسلام و (العتائر)

---

١ تاج العروس (٦/١٦٩) ، (صوف) ، معجم الشعراء (٣٨٢) ، ابن هشـام (١/٧٧ ، ٨٢) .
٢ الروض الانف (١/٨٥) .
٣ معجم الشعراء (٣٨٢) .
٤ المشرق ، السنة التاسعة والثلاثون (١٩٤١ م) ، (ص ٢٥٩) .

في الجاهلية . ولذلك عرف هذا العيد : عيد الحج بـ (عيد الأضحى). وعرف اليوم الذي تضحى به الأضحية بـ (يوم النحر) وبـ (الأضحى) وبـ (يوم الأضحى) . وكانوا ينحرونها على الأنصاب وعلى مقربة من الأصنام ، فتوزع على الحاضرين ليأكلوها جماعة أو تعطى للأفراد . وقد تترك لكواسر الجو وضواري البر فلا (يصد عنها انسان ولا سبع)[1] . وتبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر ، لأنها أسمى مظاهر العبادة في الأديان القديمة .

وكان الجاهليون يقلدون هديهم بقلادة ، أو بنعلين ، يعلقان على رقبتي الهدي، اشعاراً للناس بأن الحيوان هو هدي ، فلا يجوز الاعتداء عليه، كما كانوا يشعرونه . والإشعار الإعلام . وهو ان يشق جلد البدنة أو يطعن في اسنمها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه ، وقيل في سنامها الأيمن حتى يظهر الدم ويعرف انهـا هدي . والشعيرة البدنة المهداة[2] .

وكان بعض أهل الجاهلية ، يسلخون جلود الهدي ، ليأخذوها معهم . ويتفق هذا مع لفظة (تشريق) التي تعني تقديد اللحم . ومنه سميت ايام التشريق ، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها ، أي تشرّر في الشمس[3] . وقيل سمي التشريق تشريقاً ، لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس[4]. ويظهر ان الجاهلين كانوا ينحرون قبيل شروق الشمس وعند شروقها ، بدليـل ما ورد في الحديث من النهي عن ذلك . ومن حديث : من ذبح قبل التشريق فليعد . أي قبل أن يصلي صلاة العيد ، وهو من شروق الشمس واشراقها ، لأن ذلك من وقتها[5] .

ولا يحل للحجاج في الجاهلية حلق شعورهم أو تقصيرها طيلة حجهم ، وإلاّ بطل حجّهم . ويلاحظ أن غـير العرب من الساميين كانوا لا يسمحون بقص الشعر في مثل هذه المناسبات الدينية أيضاً ، لما للشعر من أهمية خاصة في الطقوس

---

١ ابن هشام (١٠٠) ، المشرق : السنة السابعة والثلاثون ، كانـون الثاني – اذار ١٩٣٩ م ، (٩٢) .

٢ نقتلهم جيلا فجيلا تراهم   شعائر قربان بها يتقرب
تاج العروس (٣٠٣/٣ وما بعدها) ، (شعر) .

٣ تاج العروس (٣٩٣/٦) ، (شرق) .

٤ المصدر نفسه .

٥ تاج العروس (٣٩٣/٦) ، (شرق) .

الدينية عندهم ، ولا سيما اللحية لما لها من علاقة بالدين . ولهذا نجد رجال الدين والزهاد والأتقياء الورعين يحافظون عليها ويعتبرونها مظهراً من مظاهر التدين[1] .

وقد كانت القبائل لا تحلق شعورها في مواسم حجّها إلا عند أصنامها ، فكان الأوس إذا حجوا وقفوا مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم ، فإذا نفروا أتوا صنمهم مناة فحلقوا رؤوسهم عنده ، وأقاموا لا يرون لحجّهم تماماً إلا بذلك[2] . وكانت قضاعة ولخم وجذام تحج للأقيصر وتحلق عنده[3] .

وكان من عادة بعض القبائل ، مثل بعض قبائل اليمن ، القاء قرة من دقيق مع الشعر[4] . وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم بمنى وضع كل رجل على رأسه قبضة دقيق ، فإذا حلقوا رؤوسهم سقط الشعر مع ذلك الدقيق،ويجعلون ذلك الدقيق صدقة ، فكان ناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه ، فيرمون بالشعر وينتفعون بالدقيق. وفي ذلك يقول معاوية بن أبي معاوية الجرمي :

ألم ترَ جرماً أنجدت وأبوكم ... مع الشعر في قص الملبد شارع
إذا قرة جاءت تقول أصب بها ... سوى القمل إني من هوازن ضارع[5]

وكان من يقصد العزى يذبح عند شجرة هناك ثم يدعون ، وكان من يقصد مناة يهدي لها كما كان غيرهم يهدي للكعبة ويطوفون بها ثم ينحرون عندها ، وكان عبدة ذي الخلصة في أسفل مكة يذبحون عنده كذلك[6] . وكذلك كانت بقية القبائل تطوف في أعيادها حول أصنامها ، وتهدى اليها ، ثم تنحر عندها عند اكبالها هذه الشعائر دلالة على اكبالها شعائر الحج الى هذه المواضع وانتهائها منها على أحسن وجه .

وتميز الحيوانات التي يهيئها أصحابها أو مشتروها للذبح في الحج بعلامات، بأن توضع عليها قلائد تجعلها معروفة ، أو ان يحدث لها جرح ليسيل منه الدم ليكون ذلك علامة انها هدي . ويقال لذلك إشعار ، ومنه إشعار البدن ، وهو ان يشق

---

١ Smith, p. 323.
٢ الاصنام (ص ١٤) ، البلدان (١٦٩/٨) ، الازرقي (٧٣/١) .
٣ الاصنام (ص ٤٨) ، البلدان (٣١٤/١) ، Reste, S. 62.
٤ الاصنام (ص ٤٨) ، البلدان (٣١٤/١ وما بعدها) ، Reste, S. 62. ff.
٥ تاج العروس (٤٨٦/٣) ، (قرر) .
٦ بلوغ الارب (٣٤٤/١ وما بعدها) .

أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل منه الدم ليكون ذلك علامة الهدي[1] . وقد كان من أهل مكة من يتخذ من لحاء شجر الحرم قلادة يضعها في عنق البدن ، لتكون دلالة على انها هدي ، فلا يعترضها أحد[2] .

ويجوز للحجاج مغادرة (منى) في اليوم العاشر من ذي الحجة ، أي في اليوم الأول من العيد ، ففي هذا اليوم يكمل الحجاج حجهم ، ولكن منهم من يمكث في هذا الموضع حتى اليوم الثالث عشر ، وذلك ابتهاجاً بأيام العيد ، ومشاركة لاخوانه فيه . ويقال لذلك (التشريق) . وايام التشريق هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر[3] .

وكان أهل الجاهلية اذا قضوا مناسكهم وفرغوا من الحج ، وذبحوا نسائكهم، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم،فيقول بعضهم لبعض : كان أبي يطعم الطعام ، ويقول بعضهم : كان أبي يضرب بالسيف ، ويقول بعضهم : كان أبي جز نواصي بني فلان . يقولون ذلك عند (الجمرة) ؛ أو عند البيت ، فيخطب خطيبهم ويحدث محدثهم . أو انهم كانوا اذا قضوا مناسكهم وأقاموا بمنى قعدوا حلقاً ، فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية وفعالهم به ، يقوم الرجل ، فيقول : اللهم ان أبي كان عظيم الجفنة عظيم القبة كثير المال ، وما شاكل ذلك ، فنزل الوحي : « فإذا قضيتم مناسككم ، فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً»[4].

وكانوا إذا خرج أحدهم من بيته يريد الحج ؛ تقلد قلادة من لحاء السمر ، دلالة على ذهابهم الى الحج ، فيأمن حتى يأتي أهله . وذكر انه كان يقلد نفسه وناقته ، فإذا أراد العودة عادوا مقلدين بلحاء السمر . وروي أنهم إذا أرادوا الحج مقبلين الى مكة يتقلدون من لحاء السمر ، وإذا خرجوا منها الى منازلهم منصرفين منها ، تقلدوا قلادة شعر فلا يعرض لهم أحد بسوء . بقي ذلك شأنهم حتى نزل الأمر بمنع دخول المشركين مكة وبوجوب قتلهم حيث وجدوا[5] .

---

١ النهاية (٤٤٢/٢) .
٢ اللسان (٣٦٩/٤) ، (٨١/٦ وما بعدها) ، الموطأ (٢٤٩/١) ، مسند ابن حنبل (٢١٦/١ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٢٤٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩) ، (٣٥/٦ ، ٨٢ ، ٨٧) .
٣ تاج العروس (٣٩٣/٦) . (شرق) .
٤ البقرة ، الآية ٢٠٠ ، تفسير الطبري (١٧٢/٢ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٢٩٦/٢ وما بعدها) ،
٥ تفسير الطبري (٣٧/٦ وما بعدها) ، اللسان (٣٦٧/٣) ، (قلد) .

التجارة في الحج :

قــال علماء التفسير : كان متجر الناس في الجاهلية : عكاظ وذو المجاز ، فكانوا إذا أحرموا لم يتبايعوا حتى يقضوا حجهم . ويقولون أيام الحج أيام ذكر. وقالوا : «كان هذا الحي من العرب لا يعرجون على كسير ولا ضالة ليلة النفر. وكانوا يسمّونها ليلــة الصدر ، ولا يطلبون فيها تجارة ولا بيعاً » . وقالوا : « كان بعض الحاج يسمّون الداج . فكانوا ينزلون في الشق الأيسر من منى . وكان الحاج ينزلون عند مسجد منى ، فكانوا لا يتجرون حتى نزلت ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم . هي التجارة . قال : اتجروا في الموسم »[1] . والصدر الإفاضة . ومنه طواف الصدر . وهو طواف الإفاضة[2] .

والداج : الأجراء والمكارون والأعوان ونحوهم الذين مع الحاج[3] . وذكر ان قوماً جاءوا الى (عبدالله بن عمر) ، فقالوا : « انا قوم نكــرى ، فيزعمون انه ليس لنا حج . قال : ألستم تحرمون كما يحرمون ، وتطوفون كما يطوفون ، وترمون كما يرمون ؟ » قالوا بلى . قال فأنتم حاج[4] . ومن يكرى لخدمة الحاج ، فهو من الداج .

العمرة :

و (العمرة) هي بمثابة (الحج الأصغر) في الاسلام ، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها في شهر (رجب) . وللعمرة في الاسلام شعائر ومناسك ، وتكون بالطواف بالبيت وبالسعي بين الصفا والمروة . ولا بد أن يكون لها عند الجاهليين شعائر ومناسك . وهي في الاسلام فردية اختيارية ، وهي تختلف بذلك عن الحج الذي هو فرض عين على كل مسلم مستطيع ، وجماعي ، أي ان المشتركين فيـه يؤدونه جماعة[5] . أما بالنسبة الى الجاهليين ، فيظهر من ذكر العمرة في القــرآن

---

١ تفسير الطبري (١٦٤/٢ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣٢٨/٣) ، (صدر) .
٣ تاج العروس (٣٩/٢) ، (دج) .
٤ تفسير الطبري (١٦٤/٢ وما بعدها) .
٥ Shorter Ency. of Islam, p. 604. ff.

الكريم انهم كانوا يؤدونها كما كانوا يؤدون الحج ، ولوقوعها في شهر رجب ، وهو شهر كان الجاهليون يذبحون العتائر فيه ، لعلنا لا نخطىء اذا قلنا إنهم كانوا يذبحون ذبائحهم في العمـــرة ، حينما يأتون أصنامهم فيطوفون حولهـــا ، أما في الاسلام ، فالعمرة دون الحج . وإذ كانت في شهر رجب في الجاهلية . كانت حجاً خاصاً مستقلاً عن الحج الآخر الذي يقع في شهر ذي الحجة. حرص الجاهليون على ألا يوافق موعدها موعد مواسم الحج ، لما كان لها من أهمية عظيمة عندهم قد تزيد على الطواف المألوف في شهر الحج[1] .

وورد ان أهل الجاهلية كانوا يرون ان العمـــرة من أشهر الحـــج : شوال وذي القعدة وتسع من الحجة وليلة النحر ، أو عشر أو ذي الحجـة من الفجور في الأرض ، أي من الذنوب[2] ، ولكن بعضاً آخر كان يعتمر في كـل شهر ، ولا سيما في رجب ، حيث كانوا يحلقون رؤوسهم ويجيئون الى محجاتهم للعمرة . وورد ان أهل الجاهلية « كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أكبر الكبائر . ويقولون : اذا برأ الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر »[3] .

وذكر ان الأشهر الحرم ثلاثة سرداً وواحداً فرداً ، وهو رجب . أما الثلاثة، فليأمن من الحجاج واردين الى مكة وصادرين عنها ، شهراً قبل شهر الحـــج ، وشهراً بعده ، قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب ، ثم يرجع . وأما رجب،فللعمّار يأمنون فيه مقبلين وراجعين نصف الشهر للإقبال ونصفه للاياب ، إذ لا تكون العمـرة من أقاصي بلاد العرب كما يكون الحـــج . وأقصى منازل المعتمرين بين مسيرة خمسة عشر يوماً[4] .

ويلبس المعتمر (الاحرام) أيضاً . وقـد كان الجاهليون يكتفون في عمرتهم بالطواف بالبيت ، أما (السعي) بين الصفا والمروة ، فأغلب الظن ان العرب لم يكونوا يقومون به . بدليل ما ورد في القرآن الكريم من قوله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله،فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوّف بهما .

---

١ المشرق ، الجزء ٣٩ (١٩٤١) ، (ص ٢٥٠) ، Reste, S. 84.
٢ ارشاد الساري (٦/١٧٤) .
٣ الروض الانف (١/٣٥١) .
٤ الروض الانف (٢/٦٠) .

ومن تطوّع خيراً فان الله شاكر عليم »[1] . ففي هذا النص دلالة على ان الجاهليين من غير قريش لم يكونوا يدخلون السعي بينهما في شعائر الحج أو العمرة، وان الله أمر بادخاله فيهما . أما موقف الجاهليين بالنسبة لطواف العمرة، فهو نفس موقفهم بالنسبة للطواف بالبيت في أثناء الحج ، والفرق بين الحج والعمرة ، ان الحج هو الاحرام ثم الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة وقضاء مناسك عرفة والمزدلفة والوقوف بالمواضع التي أمر بالوقوف بها ، بينما العمرة الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة[2] ، فلا يكون موقف عرفة من العمرة . وكان الجاهليون يحلقون رؤوسهم للعمرة ، ويكون حلق الرأس علامة لها . فاذا وجدوا رجلاً وقد حلق رأسه علموا انه من (العمار) ، فلا يمسونه بسوء ، إلا اذا مس أحداً بسوء احتراماً للعمرة ولشعائر الدين[3] .

والفرق بين العمرة والحج في الاسلام ، ان العمرة تكون للانسان في السنة كلها ، والحج في وقت واحد في السنة . وتمام العمرة ان يُطاف بالبيت ، ويسعى بين الصفا والمروة ، والحج لا يكون إلا مع الوقوف بعرفة يوم عرفة واجراء بقية المناسك[4] .

وتقبيل الأحجار والأصنام واستلامها في أثناء الطواف أو في غير الطواف من الشعائر الدينية عند الجاهليين. كان في روعهم ان هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة، ويوصلهم اليها ، فتقربوا اليها ونصبوها في مواضع ظاهرة ، ومسحوا أجسامهم بها تبركاً . وكلمة (تمسّح) من الكلمات التي لها معاني عند الجاهليين ، وكذلك كلمة (استلم) و (استلام) عند أهل مكة خاصة حيث استعملت بالنسبة للحجر الأسود . وطريقتهم ان يمر الانسان يده على الحجر المقدس أو ان يمسه بها إن صعب استلامه كله . وقد يعوض عن ذلك بعصا يمدها الانسان الى الحجر حتى

---

١ البقرة ، الآية ١٥٨ .

٢ تفسير الطبري (٢/١٢٠ وما بعدها) .

٣ « وقد كان حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا ، وقالوا : عمار فلا بأس علينا منهم » ، تفسير الطبري (٢/٢٠٢) .

٤ اللسان (٦/٢٨٢) ، تاج العروس (٣/٤٢٢ وما بعدها) ، اللسان (٤/٦٠٤) ، (صادر) ، البلدان (٤/١٥٤) ، الاقناع (١/٣٣٤ ، ٣٩٧ وما بعدها) .

تلمسه ، وإذا تعذر الوصول اليـــه بسبب ما ، فيجوز أن يفعل ذلك راكباً على جمل [1] .

ومن هذا القبيل أيضاً طرق مطارق أبواب البيوت المقـــدسة طرقات خفيفة ، وامرار بعض الأشياء مثل الملابس على الأصنام والصخور والمواضع المقدسة لاكتساب البركة ،والتمسح بجدران البيت أو استلام أركانه أو التعلق بأطراف الكسوة . وتلطيخ الأحجار بدماء الضحية التي تقدم للأوثان وذلك بصب الدماء عليها ، أو بتلطيخها وتلويثها كلها أو جزء منها بدم الضحية ، توكيداً بإراقة دم الضحية في نفس من ضحيت الضحية من أجله [2] .

وقيل إن من شعائر الجاهليين في الحج أن الرجل منهم كان إذا أحرم ، تقلد قلادة من شعر ، فلا يتعرض له أحد . فإذا حجّ وقضى حجّه ، تقلـد قلادة من (إذْخِر) ، والإذخر نبات زكي الرائحة ، وأن الرجل منهم يقلد بعيره أو نفسه قلادة من لحِاء شجر الحرم ، فلا يخاف من أحد ، ولا يتعرض لـــه أحد بسوء [3] . وتذكرنا هذه العادة بمـــا يلبسه بعض الحجاج عند اتمامهم حجّهم وعودتهم الى بلادهم من لباس (كوفية) خاصة بأهل مكة ومن عقـــال حجازي وذلك بالنسبة للرجال ، وخمار أبيض بالنسبة للنساء ، وذلك طيلة الأيام السبعة الأولى من احتفالهم بالعودة من الحج .

ولم يكن الجاهليون القريبون من مكة أو البعيدون عنها يقصدونها في حج (عرفة) وعمرة (رجب) حسب ، بل كانوا يقصدونها في أوقات مختلفة وفي المناسبات ، للطواف حول الأصنام ، واستلام الحجر الأسود ، والتقرب الى الآلهة المحلية . وقد ساعد ذكاء سادة قريش الـــذي تجلى في جمعهم أكثر ما أمكنهم جمعه من أصنام القبائل في (البيت الحرام) ، على اجتذاب القبائل اليها ، وبذلك نشطوا في استغلال مواسم الحج والعمرة بالاستفادة من القادمين بالاتجار معهم ، وببيع ما

---

١ وفي الحديث أن الرسول طاف وسعى بين الصفا والمروة ، وهو على ظهر جمل ، البخاري (١/٦٦ ، ٢١١) ، السنن (٢/٣٧ ، ٣٩) ، مسلم (١/٤٨٦ ، ٤٨٨)، الاغاني (١٣/١٦٦) ، المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني – اذار ١٩٣٩ م (ص ٨٧ وما بعدها) .

٢ Reste, S. 109.

٣ بلوغ الارب (٢/٢٨٩) .

يحتاجون اليه من طعام وزاد ، فحصلوا على مال ، حسدهم علـيه الآخرون . فكان الفضل في ذلك للبيت . والى ذلك أشير في القرآن ، في سورة (قريش) : « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »[1] .

هذا ما عرفنـاه عن شعائر الحج الى مكة وعن مناسكـه في الجاهلية المتصلة بالاسلام . أما عن الحج الى البيوت الأخرى وعن شعائره ومناسكه ، فلا نكاد نعرف من أمرها شيئاً يذكر . ولكننا نستطيع ان نقول إن من أهم أركان الحج عند جميع الجاهليين ، وجوب مراعاة النظافة ، نظافـة الجسم ونظافة الثياب . ولذلك ، كانوا اذا حجّوا لبسوا ملابس خاصة بالحج هي (الاحرام) أو ملابس جديدة ، أو ملابس مستعملة نظيفة مغسولة،وذلك لحرمة هذه المواضع وقدسيتها ، فلا يجوز دخولها بملابس وسخة دنسة ، واذا كانوا يلبسون أحسن ما عندهم عند ذهابهم الى مقابلة عظيم أو سيد قبيلة أو رجل محترم ، احتراماً له واجلالاً لشأنه، أفلا يجب اذن لبس خير ما عند الانسان من ثياب لدخول بيوت الآلهة ، ولا سيما في مواسم الحج ؟. وكان منهم من يوجب على نفسه الغسل وتنظيف جسده حين دخوله المعبد أو اعتزامه الحج .

وتقبيل الأصنام والأحجار واستلامها في أثناء الطواف ، والتمسح لها،من الشعائر الدينية اللازمة في الحج وفي غير مواسم الحج عند الزيارات . كان في روعهم ان هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة ، ويوصلهم اليها، فتجعلها ترضى عنهم وتشفيهم مما هم فيه من سقم وأمراض ، فتقربوا اليها ومسحوا أجسامهم بها تبركاً وتقرباً. و (التمسح) بالصنم أو الحجر المقدس ، التبرك به لفضله وعبادته ، كأنه يتقرب الى الآلهـة بالدنو منه ولمسه[2] . وقـد كان رجال الدين يمسحون بأيديهم أجسام المرضى وثيابهم ، لازالة السوء عنهم . وقد ذكر أهل الأخبار ان الجاهليين كانوا يتمسحون بأصنامهم ، ويمسحون ظهورهم بها ، لاعتقادهم انها تشفيهم من كـل ألم وسوء .

واستلام الصنم أو الحجر المقدس،هو نوع من أنواع التقدير والتعظيم والتقرب. ويراد بذلك تقبيل الحجر ولمسه وتناوله باليد ومسحه بالكف . واذا صعب الوصول

---

١ سورة قريش ، الرقم ١٠٦ ، رقم الآية ٣ وما بعدها ، تفسير الطبري (١٩٧/٣٠)، روح المعاني (٢٤١/٣٠) .

٢ تاج العروس (٢٢٦/٢) ، (مسح) .

اليه لشدة الازدحام ، فقد يمدّ أحدهم قصبة أو عوداً أو عصاً اليه لمسّه، فيكون لمس هذه الأشياء له ، كأنه لمس حقيقي ، يجلب لصاحبه ما تمناه وطلبه ورجاه من ذلك الصنم أو الحجر[1] .

وقد أشار بعض (الكلاسيكيين) الى وجود غابة من النخيل في ركن من البحر الأحمر ، كان يؤمّها النبط للتبرك بها ، إذ كانت في نظرهم أرضاً مقدسة، عليها معبد من الحجر عليه كتابة ، وصفوها بأنها كتابة لا يستطيع اليوناني قراءتهـا ، وبه كهّان وكاهنات يقضون عمرهم في خدمة ذلك المعبد. قالوا : وفي كل خمس سنين يحج الناس اليه ، ويتجمعون عنده ، ويحضر معهم من في جوار المعبد من ناس ، فيذبحون ، ويتقربون الى آلهتهم . فإذا عادوا أخذوا معهم مـاءً من ذلك المكان ، للتبرك به ، لاعتقادهم أنه يمنحهم الصحة والعافية . وذكر بعض آخر أن الحج الى هذا البيت كان مرتين في السنة : الحج الأول في مطلع السنة، ويستغرق شهراً واحداً . أما الحج الثاني فيكون في نهاية الصيف، ويستغرق شهرين. وتكون هذه الأشهر الثلاثة أشهراً حرماً لا يحل فيها قتال ، يعمّها سلم أوجبتـه الآلهة على الانسان والحيوان[2] .

ونرى في هذه الشعائر مشابهة كبيرة لشعائر الحج في مكة . ولولا تعيين هؤلاء الكتبة المكان ، ونصهم على أنه على البحر الأحمر ، وانه غابة نخيـل ، لانصرف الذهن الى مكة ، إذ نجد أن شعائر الحج فيها تشبه هـذه الشعائر ، واستقاؤهم من ماء (زمزم) للتبرك به ، يشبه استقاء هؤلاء من بئر معبدهم هذا ، وقـد أهمل أولئك الكتبة أسماء الأشهر الحرم الثلاثة ، فأضاعوا علينا فرصة ثمينـة كانت تساعدنا كثيراً في الوقوف على تثبيت الأشهر عند الجاهليين .

ويلاحظ أن النبط كانوا يعقدون في أثناء هذه الأشهر الحرم سوقـاً ، تذكرنا بسوق عكاظ التي كان يعقدها أهل الحجاز . ولا شك أن موسم الحج في المعبـد المذكور ، الذي يتحول الى سوق للبيع والشراء ، يشبه موسم الحج في مكة حيث ينقلب أيضاً الى سوق .

---

١ اللسان (٢٩٧/١٢) ، (سلم) .

٢ Die Araber in der Alten Welt, I, S. 32. f.

الأعياد :

والأعياد من جملة مظاهر الأديان وشعائرها . والحج في حد ذاته عيد من أعياد الجاهليين . وقد كانت للجاهليين أعياد لها صلة بأديانهم ، غير اننا لا نستطيع ان نتحدث بالطبع عن وجود أعياد عامة يعيّد فيها جميع الجاهليين عبدة الأصنام ، لأن الأعياد العامة تستدعي وجود ديانة واحدة وعبادة إلـه أو آلهة مشتركة يعبدها جميع القوم ، واذ كانت العرب لا تعبد إلهاً واحداً أو آلهة مشتركة يقدسها أهل الوبر وأهل المدر منهم جميعاً ، فلا يمكن ان نتصور وجود أعياد عامة لجميع العرب ، في عهود ما قبل الاسلام .

ولفظة العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد على رأي علماء اللغة [1] . وهو بالمعنى المعروف الذي يخص الاحتفالات الدينية من الألفاظ المعربة المأخوذة عن لغة بني إرم على رأي المستشرقين . فـ (عيدا) في الإرمية هي (العيد) في العربية [2] .

---

١ تاج العروس (٤٣٨/٢) ، اللسان (٣١٣/٤) ، بلوغ الارب (٣٤٤/١) .
٢ Ency., II, p. 444.

الفصل الثالث والسبعون

بيوت العبادة

والمعبد هو الموضع المخصص للعبادة . وقد وردت في النصوص الجاهلية وفي عربية القرآن الكريم ألفاظ تؤدي هذا المعنى ، فقد كان الجاهليون قد اتخذوا معابد ثابتة ومعابد متنقلة مثل بيوت الوبر ، تعبدوا بها الى معبوداتهم قبل الاسلام وقبل الميلاد .

فقد كانت القبائل في حركة دائمة ، بحثاً عن الغزو والكلأ والماء . وكانت آلهتها في حركة دائمة أيضاً ، ترحل مع المتعبدين لها ، وتستقر عند استقرارهم بمكان ما . وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في قبتها ، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر . وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة، وللموضع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه . وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز[1] . ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هذا المعبد، واتخاذ معبد ثابت . لخروج ذلك على سنن الآباء والأجداد . ولذلك لم يرض العبرانيون عن المعبد الثابت الذي أقامه سليمان ، لما فيه من نبذ للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان الى مكان. ثم ان أهل الوبر قوم رحل ، ولا يمكن لمن هذا حاله اتخاذ معبد ثابت له ، لما كان عليه من وجوب نقل أصنامه معه حيث يذهب .

---

١ Die Araber, III, S. 132.

ولبيوت الأصنام سدنة ، يحفظون الأصنام بها ويرعونها ، وينقلونها معهم حيث ترحل القبيلة ، فإذا نزلت نزلوا بها ، ليقيموا لها الواجبات الدينية المفروضة في الخيمة المقدسة . حيث فرضت طبيعة البداوة على أصحابها هذا النوع من أنواع البيوت المقدسة ، وهذه الطقوس الدينية التي تلائم حياة الأعراب .

وبيوت العبادة عند الجاهليين ثلاثة أنواع : بيوت عبادة خاصة بالمشركين عبدة الأصنام ، وهم الكثرة الغالبة ، وبيوت عبادة خاصة باليهود ، وبيوت عبادة خاصة بالنصارى . أما بيوت عبادة المجوس ، فقد عرفت في العربية الشرقية وفي العربية الجنوبية ، ولكن عبّادها هم من المجوس ، أي العجم، فالمجوسية لم تنتشر بين العرب ، ولم تدخل بينهم إلا بين عدد قليل من الناس .

وما ذكرته عن بيوت العبادة ، خاص بالمعابد العامة ، وهناك مواضع عبادة خاصة ، جعلت في البيوت ، وضع أصحابها أصنامهم في ركن من أركانها ، وتقربوا اليها . روي ان العباس ، كان قد أقام الصنمين أسافاً ونائلة في ركن داره ، وكانا حجرين عظيمين[1] . واحتفظ غيره بأصنام في بيوتهم للتبرك بها ، ولحماية البيت ، وكانوا اذا سافروا حملوا أصنامهم الصغيرة معهم للاحتماء بها ، وأخذ بعض شباب المدينة ما وجده من أصنام في البيوت ، تعبّد لها آباؤهم فحطمها ، ومنهم من رماها في مواضع العذرة والقاذورات .

وقد استطعنا اليوم بفضل جهود السياح والمنقبين والباحثين من الحصول على بعض المعلومات عن معابد جاهلية كانت عامرة يوماً ما . وذلك بعثور المذكورين على ألواح مكتوبة وجدت في خرائب تلك المعابد . ولكن ما عثر عليه ، لا صلة له بالدين في الغالب ، فليس فيه أدعية أو صلوات أو كتابات تفصح عن عقائد القوم وعن أمور دينهم . ولهذا فإن علمنا بديانات الجاهليين لا يزال ضحلاً ، لم يتقدم تقدماً مرضياً ، وأملنا الوحيد في زيادته هو في المستقبل، فلعله يخرج من صناديق سره المكتومة ما يفصح عن عقائد القوم .

وقد اتخذ بعض العرب ، وهم المتمكنون ، بيوتاً وكعبات لعبادة أصنامهم ، وضعوا أصنامهم في أجوافها ، ومنهم من اتخذ صنماً ، فلم يبن عليه بناءً ، لعدم استطاعته ذلك . ومن لم يقدر عليه ، ولا على بناء بيت ، نصب حجراً أمام

---

١ الازرقي (١/١١٢) ، (٢/١٨٨) .

الحرم ، وأمام غيره ، مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ، وسمّوهـا الأنصاب[1] .

وذكر أن (وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي) ، كان قد اتخذ له صرحاً بالحزورة ، سوق كانت بمكة، يرتقيه بسلالم يتعبد فيه ، فعرف بصاحب الصرح[2] .

والبيت ، مأوى الانسان ومسكنه في الأصل ، ثم تجوز الناس فأطلقوا اللفظة على المعبد ، باعتبار أنه بيت الآلهة أو الإله ، لاعتقادهم أن الآلهة تحل به[3] . وقد كانوا يضعون الصنم أو الأصنام فيه . ويقال للبيت عندئذ (بيت الله) أو (بيت ريام) وهو بيت يذكر (ابن الكلبي) أنه كان لحمير بصنعاء ، وأن الناس كانوا يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح[4] ، أو (بيت الربة) وما شاكل ذلك ، بحسب اختصاص البيت بالصنم .

كذلك أطلقت كلمة (بيت) بمعنى معبد في نصوص المسند، فورد : (وقدسو بيت مرب) ، أي (وقدسوا بيت مأرب) أو (وبيت مأرب المقـدس)[5] . فلفظة بيت هي اللفظة التي استعملت لمواضع العبادة ، أي المعبد ، أطلقت قبـل اسم الإله أو الموضع لتدل على التخصيص . وهي ترد في لغات سامية أخرى في هذا المعنى نفسه .

وأما (الكعبة) فالبيت المربع ، وكل بيت مربع كعبة عند العرب . وقد خصصت في الإسلام بالبيت الحرام بمكة . والكعبة الغرفة أيضاً . وقد كان لربيعة بيت يطوفون به ، يسمونه الكعبات ، وقيل : ذو الكعبات ، وقد ذكره الأسود ابن يعفر في شعره ، فقال :

والبيتِ ذي الكعبات من سنداد[6]

والمسجد كل موضع يتعبد فيه[7] . وقد استعملها الجاهليون بهذا المعنى أيضاً .

---

١ الاصنام (٢١) « روزا » .
٢ تاج العروس (١٣٩/٢) ، (صرح) .
٣ المفردات (٦٤) .
٤ الاصنام (٧) « روزا » .
٥ CIH 541, Le Muséon, 1934, LXVII, p. 103.
٦ اللسان (٧١٨/١) ، المفردات (٤٤٦) .
٧ اللسان (٢٠٤/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٧١/٢) ، (سجد) .

وقد وردت اللفظة في نصوص بني إرم وفي النصوص النبطية والصفوية . ورد على هذه الصورة (مسجدا) في نصوص بني إرم ، وورد على هـذه الصورة في النصوص الصفوية أيضاً ، وقد عنت به معبداً [1] .

وقد عبر عن المعبد بلفظة (مكربن) ، أي (المكرب) أو (المكراب) في بعض نصوص المسند ؛ إذ ورد (مكربن يعق) ، بمعنى (معبد يعوق) [2] . ومن هذا الأصل أخذت كلمة (مكراب) في الحبشية ، ومعناها (معبد) [3] . ولهذا ذهب (كلاسر) وغيره الى ان (مكربة) Mocoraba ، المدينة المذكورة في (جغرافيا) (بطلميوس) هي (مكة) ، لأنها (مقربة) الى الأصنام ، فهي بمعنى (البيت) و (الكعبة) في لهجتنا [4] .

وتقابل كلمة (المعبد) كلمة Templum اللاتينية التي تعني موضعاً مربعاً ، فهي بمعنى (الكعبة) ، و (كعبة) في اللغة العربية . ويلاحظ توافق تام بين معنى الكلمتين في هاتين اللغتين [5] . ولا بد ان يكون لاتخاذ هذا الشكل للمعبد سبب ، إذ لا يعقل ان يكون قد جاء ذلك عفواً ، ولا سيما اننا نلاحظ ان الكلمتين : اللاتينية والعربية ، قد جاءتا من شكل البناء ونوعه وطرازه .

وذكر علماء اللغة ان في جملة الألفاظ التي تطلق على بيوت الأصنام والعبادة والتصاوير ، لفظة (البد) . وهي تؤدي معنى (صنم) كذلك . وذكروا انها من الألفاظ المعربة عن الفارسية . عربت من (بت) [6] ، وانها تعني البيت اذا كان فيه أصنام وتصاوير [7] .

وذكروا أن في جملة الألفاظ التي أطلقت على بيوت الأصنام لفظة (الطاغوت) والجمع (الطواغيت) . ورد أن العرب « كانت قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمهـا كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، وتهدي اليها ، كما

---

١ العرب في سورية قبل الاسلام (١١٩) .
Shorter Ency. of Islam, p. 330, Cooke, North Semitic Inscriptions, p. 238.

٢ Le Muséon, 1954, LXVII, p. 100.

٣ Ency., II, p. 586.

٤ Glaser, Skinzze, II, S. 235.

٥ Ency. Religi., Vol., 12, p. 236.

٦ تاج العروس (٢٩٥/٢) ، (بدد) .

٧ شمس العلوم (حـ ١ ، ق ١ ، ص ١١٩) ، غرائب اللغة (٢١٨) .

تهدي الى الكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر ، عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت ابراهيم الخليل ومسجده»[1].
وورد أن (الطاغوت) الصنم ، وكل معبود من دون الله ، ولما تقدم سُمي الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن طريق الخير طاغوتاً[2] . واللفظة تعني في لغة (بني إرم) : رئيس عقيدة ضلال ، وشيطان وصنم[3] .
و (الهيكل) من الألفاظ الدالة على موضع العبادة ، استعملت لبيوت الأصنام مجازاً ، ولمعابد النصارى[4] . والظاهر أن استعمالها كان عند العرب الشماليين في الغالب ، مثل عرب العراق وعرب بلاد الشأم ، ولا سيما عند النصارى منهم . أخذوها من الآراميين ، إذ هي بمعنى بيت الصنم ، أي معبد الوثنيين عندهم[5] . وقد وردت في لغة (المسند) كذلك ، وردت بمعنى (قصر)[6] ، ومعبد في أيام دخول النصرانية الى اليمن .
وقد أطلق (الديدانيون) على بيت (بعل سمن) ، لفظة : (احرم) بمعنى (الحرم) تعظيماً وتمجيداً له . فهو ذلك الإله[7] . وترد لفظة (محرم) — التي لا زالت حية معروفة يطلقها أهل اليمن على محرم (بلقيس) — في لغة المسند ، بمعنى المعبد ، والمسجد الحرام . وقد وردت في عدد من النصوص[8] .
وبيوت العبادة أنواع . بيوت عبادة كبيرة ، يحج اليها في أوقات معينة ، ومواسم محددة ، من مواضع قريبة أو بعيدة ، هي محجات يحج اليها في وقت معين ثابت ، يتقرب بها المتعبدون الى رب المحجة أو أربابها بأداء واجب الخضوع والطاعة . وتكون محجة واحدة في الغالب ، اختارها الإله أو الآلهة من بين سائر أماكن الأرض لتكون موضعاً مقدساً وحرماً آمناً ، فهي أقدس بقعة وأعز مكان في نظر المتعبدين لها على وجه هذه الدنيا . فلا تدانيها المعابد الأخرى ولا تبلغ منزلتها في الحرمة والمكانة .

---

١ ابن هشام (١/٨٦ وما بعدها) ، هامش على الروض الانف (١/٦٤) .
٢ المفردات ، للاصفهاني (٣٠٧) ، الاصنام (٦) ، تاج العروس (١٠/٢٢٥) ، (طغا) .
٣ غرائب اللغة (١٩٤) . Hughes, Dictionary of Islam, p. 625.
٤ تاج العروس (٨/١٧٠) ، (هيكل) .
٥ غرائب اللغة (٢٠٩) .
٦ Jamme, South Arab. Inscriptions, p. 433.
٧ Histoire, IV, p. 312, Preislamiques, p. 20.
٨ Jamme, South Arabi. Inscriptions, p. 440.

وهناك بيوت عبادة أخرى تكون دون المحجات في الأهمية والدرجة ، لأن الآلهة لم تخترها لنفسها ولم تنص على اسمها ، وانما هي دور عبادة أقامها الناس تقرباً الى تلك الآلهة . وهي متفاوتة في الدرجة أيضاً ، فيها المعابد الكبيرة التي صرف على اقامتها مال كثير ، وفيها معابد بسيطة ، يقيمها الناس تقرباً الى أربابهم .

والناس في ذلك العهد ، كالناس في ايامنا هذه ، لا يكتفون بتشييد معبد واحد في المدينة ، بل نجدهم يقيمون جملة بيوت للعبادة ، وقد خُصص بعضها بعبادة جملة آلهة ، وخصص بعضها بعبادة إلـه واحد معين، يذكر اسمه على باب المعبد . وقد تبنى في الموضع الواحد جملة معابد لإلـه واحد ، لأن المعابد من الأعمال الخيرية التي يقوم بها المؤمنون تقرباً الى الآلهة ، لذلك يصادف قيام جملة أسر ببناء معابد لذلك الإلـه ، تسميها باسمه وتنقش اسم الأسرة أو المتبرع بالبناء على موضع بارز من المعبد . وبفضل هذه الطريقة القديمة ، التي لا تزال البشرية تتبعها ، تمكنا من الحصول على معلومات عن تلك المعابد وعن الآلهة التي خصصت لها وعن أسماء المؤمنين الذين أقاموها .

وقد اتخذ الانسان من الكهوف بيوتاً للعبادة ، كما اتخذ من الجبال والمواضع المرتفعة أماكن بنى عليها معابده ، ليكون في رأيه ونظره أقرب الى السماء ، حيث تقيم الآلهة ، فتسمع دعاءه ، وتصل اليها كلمته ، وتستجيب له ، أكثر من استجابتها له لو كان على سطح الأرض . وبنى الحضري معبده في المواطن التي يقيم فيها ، وحاول جهده الإنفاق عليها ، والتفنن في بنائها وزخرفتها ، لتكون بيوتاً تليق بسكنى الأرباب . أما البدو ، فكانت معابدهم في الخيام ، تحفظ فيها أصنامها ، فتنتقل معها ، وتضرب في الموضع الذي تحل القبيلة فيه ، ينظرون اليها نظرة تقديس وإجلال ، لأنها حرم الآلهة وأماكنها وبيوتها المقدسة ، فلا يجوز تدنيسها ولا انتهاك حرمتها . لهذا لم يكن يسمح لأحد بالدخول اليها إلا اذا كان من رجال الدين .

ولهذه الخيام المقدسة سدنة ، يضعون الصنم أو الأصنام في جوفها ، ويسهرون على خدمتها ، وينقلونها معهم حيث تنتقل القبيلة . وهم يتوارثون خدمتها . واذا استقرت القبيلة وتحضرت ، تحضر معبد صنمها بتحضرها كذلك . ووجد الصنم

عندئذ له مستقراً دائماً ومقاماً ثابتاً ، ويصير عندئذ في عداد الأصنام الثابتة . ويكون للصنم عندئذ معبد تتناسب قيمته وأهميته ودرجة عمرانه ، مع مكانة القبيلة وعدد رجالها وغناها وما عندها من مال .

وللعين أهمية كبيرة في تقييم المعبد وفي نشر العبادة وفي تكوين شخصية الإله رب المعبد فيما بين الناس . فكما أن قيمة الانسان بملبسه وبأناقته وبحسن مظهره ، كذلك تكون قيمة المعبد بضخامته وبما يزين به من نقوش وزخارف وبما يعلق على الموضع المقدس منه من ذهب وفضة وأحجار كريمة . فالمعبد الضخم ، يدل على قوة الإله وقدرته في نظر من ينظر بعينه لا بعقله الى قيم الأمور ، أي في نظر السواد ، وهم الكثرة الغالبة ، ولذلك يجلبهم اليه ، وتلقى ضخامته في نفوسهم تأثيراً كبيراً يجعلهم يشعرون أنهم أمام بيت إله حقاً ، لما فيه من روعة ولما تفوح في داخله من روائح البخور والطيب ، لذا حرص رجال الدين على جعل معابدهم ضخمة فخمة ، لتجلب لها أكبر عدد ممكن من المتعبدين .

ومن أشهر المواضع المرتفعة التي حج اليها المتعبدون للتبتل والتعبد ، والتي ورد ذكرها في قصص أهل الأخبار : حِراء ، وأبو قبيس ، وثبير .

أما (حراء) فقد ورد في بيت منسوب الى شاعر جاهلي :

فإني والذي حجت قريش محارمه ، وما جمعت حراء[1]

وجعل أحد الأجبل الخمسة التي بُني من حجارتها البيت[2] . واليه كان يلجأ كبار قريش لدعوة آلهتهم في الملمات ، واليه أيضاً كان يأتي بعض المتحنثين النساك الزاهدين في عبادة الأوثان للتفكير والتأمل . وفيه غار تحنث فيه النبي ، ويعرف بـ (جبل النور)[3] . وورد ان أبا طالب أرسل عقيلاً ليأتي بالرسول اليه ، فذهب الى (كبس) ، وأخرجه منه . والكبس الغار[4] . ويظهر انه أراد به غار حراء .

---

١ البكري (٤٣٢/٢) ، (حراء) ، هو « عوف بن الاعوص » العامري ، شرح ديوان لبيد (٢١) .
٢ الازرقي ، أخبار مكة (٢٦/١) ، (ما ذكر من بناء ابراهيم عليه السلام الكعبة) .
٣ تاج العروس (٨٧/١٠) ، (حرو) .
٤ تاج العروس (٢٣٩/٤) ، (كبس) .

وأما (أبو قبيس) ، فيظهر من غربلة أخبار الأخباريين انه كان من المواضع المقدسة الداخلة في شعائر الحج ، يرتقي الحجاج ظهـــره ، ليتموا بذلك مناسك حجهم ، وليدعوا آلهتهم بما يطلبون ويرغبون . وكان مقصوداً عند نزول الشدة والبلاء . فالمظلوم يجد محله فوق هذا الجبل للدعاء عند انحباس المطر ، لنزول الغيث[1] .

وقد زعم بعض أهل الأخبار ، انه سمّي (أبا قبيس) برجل من مذحـــج حدّاد ، لأنه أول من بنى فيه ، أو بقبيس بن شالخ ، رجل من جرهم ، كان قد وشى بين عمرو بن مضاض وبين ابنة عمه (مية) ، فنذرت ان لا تكلمه ، وكان شديد الكلف بها فحلف ليقتلن قبيساً ، فهرب منه في الجبل المعروف به ، وانقطع خبره . فإما مات وإما تردّى منه ، فسمي الجبل أبا قبيس . « وله خبر طويل ذكره ابن هشام في غير هذا الكتاب . وكان أبو قبيس الجبل هذا يسمى الأمين ، لأن الركن ، أي الحجر الأسود ، كان مستودعاً فيه »[2] . « وكان الله عز وجل استودع للركن أبا قبيس حين غرق الله الأرض زمن نوح » ، فلما أقام (ابراهيم) قواعد البيت ، (جاءه جبريل بالحجر الأسود)[3] . والظاهر ان بيتاً للعبادة كان عليه ، وانه كانت له صلة بالبيت ، فتجسمت هـــذه الصلة في الذي ذكروه عن الحجر الأسود ووجوده فيه .

وأما (ثبير) ، فقد كانوا يفيضون منه في الحج على نحو يذكر في شعائر الحج .

ويلاحظ أن أهل العربية الجنوبية وأهل السراة قدسوا قمم الجبـــال ، فجعلوا فيها معابد لعبادة الآلهة ، مثل معبد (اوم) (أوّام) في (الو) . وقد أزيلت معالم تلك المعابد في الإسلام ، ولكن بعضها أخذ طابعاً اسلامياً فصير مثلاً قـبراً من قبور الأنبياء مثل : (حضور نبي شعيب) ، الذي يقع على قمة جبل تعد من أعلا قمم جبال العربية الجنوبية ، و (نبي ايوب) و (مقلى) عـــلى محر (مبلقة)[4] .

---

١ المشرق : السنة التاسعة والثلاثون ، تموز — أيلول ١٩٤١ ، (ص ٢٥٢ ومـــا بعدهـــا) .
٢ تاج العروس (٤/٢١٢) ، (قبس) .
٣ الازرقي (١/٢٧) ، (ما ذكر من بناء ابراهيم عليه السلام الكعبة) .
٤ تاج العروس (٣/١٤٨) ، (حضر) ، Beiträge, S. 85, Ency., II, p. 222.

وترجع قدسيــة المواضع المقدسة وحرمتها الى الاعتقاد بنزول الآلهة في هــذه المواضع ، والى وجود قوى خارقة فيها ، أو الى وجود مقدسين فيهـا قبروا في باطنها ، فقدست تلك المواضع لهذه الأسباب . وتعرف هذه المواضع المقدسة بأسماء من تقدست بهم ، وبأسماء المواضع التي تقع فيها .

وإنا لنرى كثيراً من الأماكن المقدسة قد أقيمت في جزيرة العرب عند الينابيع والآبار المقدسة حيث تروى الأرض بالماء فتنمو به المزروعات ويستقي منها الناس. وقد صوّر هذا الخصب لسكان تلك المنــاطق وجود قوى خارقة كامنة في تلك الأرضين كانت السبب في نظرهم في بعث الحياة للإنسان ولهذه الأرض[1] .

وقدست بعض المواضع وأقيمت المعابد بها ، بسبب وجود أشجار مقدسة بها ، ونجد في أخبار أهل الأخبار أن بعض المعابد مثل معبــد العزى ، كان المتعبدون يتقربون بها الى سمرات ، أي شجرات ثلاثة ، أو الى شجرة واحـدة ، فكانوا يعلقون عليها الحلي ويزينونها ، ومثل معبد (ذات أنواط) ، وهي شجرة كانت تعبد في الجاهلية ، وهي سمرة كان المتعبدون لها ينوطون بهــا سلاحهم ويعكفون حولها[2] .

وقدست مواضع أخرى لوجود أحجار مقدسة بها ، كانوا يطوفون حولها من هذه المواضع : (عكاظ) . فكان الناس يأتون الموضع في الموسم ، فينصبون فيه خيامهم ، ويقيمون سوقهم ، ويطوفون بأحجار عكاظ ، يقيمون عـلى ذلك أيام الموسم . فهي أيام عبادة وتجارة وفرح .

ولهذه القدسية والحرمة ، لم يسمح للسواد الأعظم من النــاس بدخول الغرف المقدسة المخصصة بالآلهة ، لأنها بيوت الآلهــة ، وعوض لهم عن هــذا التحريم بالطواف حولها أو بلمس جدرانها ، وللسبب نفسه ، حتّم على القاصدين لها غسل أجسامهم وتنظيفها ولبس ملابس طاهرة نظيفة ، كان سدنة بعض تلك المعابد ، أو أهل المواضع التي تقع فيها المعابد يؤجرونها للناس بأجــر معين مرسوم ، إن كانت تلك المعابد من المعابد الكبيرة وفي مواسم الحج . كذلك لم يكن يسمح لأحد بالدخول الى المعابد والأحذية في أرجلهم فلا بد من خلعها والدخول بغير أحذية

---

١ Ency. Religi., 6, p. 753, Robertson, p. 115.

٢ تاج العروس (٢٣٦/٥) ، (نوط) .

احتراماً لقدسية المكان وخشية التدنيس[1] . وقد حتم الجاهليون على من يريد دخول الكعبة من المتمكنين خلع نعليه ، احتراماً للبيت . ذكر أهل الأخبار ان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة (الوليد بن المغيرة) ، فخلع الناس نعالهم في الاسلام[2] .

وقد عثر على كتابات جاهلية تبين منها ، ان الجاهليين كانوا يعدّون طهارة الملابس وطهارة الجسم من الأمور الملازمة لمن يريد دخول المعبد ، فإذا دخل انسان معبداً وهو نجس عدّ آثماً ، وقد ورد ان رجلاً اتصل بامرأة ، ثم دخل المعبد بملابسه التي كان يلبسها حين اتصل بها ، فعدّ آثماً ، ودفع فدية عن إثمه ارضاءً للآلهة[3] . وورد ان رجلاً دخل معبد الإلـه (رب السماء) (ذسموى) بمعطف نجس ، فدفع فدية عن ذلك ، جزاء ما ارتكبه من إثم[4] . فدخول المعابد بملابس نجسة ، نجاسة : مادية أو معنوية ، إثم ، تعاقب الآلهة عليه،لهذا اشترطت دياناتهم عليهم عدم دخول بيوت الآلهة ، إلا بملابس طاهرة نظيفة حرمة وتقديراً لهذه البيوت .

وللسبب المذكور اشترط سدنـة الصنم (الجلسد) على من يريد من عبّاده تقديم قربان اليه ، أو تحليمه كراء ثياب مسدنة ، للبسها بدلاً من ملابسهم ، لأنها ملابس نظيفة طاهرة ، لم تمسها أدران مادية أو معنوية[5] . وهو شرط نجده عند غير العرب أيضاً كالعبرانيين[6] . وقد كانت المعابد تدخر ملابس تكريها لمن يريد أداء شعائر زيارة بيوت الأصنام .

وورد في كتب أهـل الأخبار ، أن الجاهليين حتموا على المرأة الحائض ألا تمس الصنم ولا تتمسح به،والا تدخل بيته لنجاسة الحيض[7] . وورد أن (فاختة) أم (حكيم بن حزام بن خويلد) ، كانت دخلت الكعبة وهي حامل متمّ بحكيم

---

١ Ency. Relig., 6, p. 753.

٢ ابن رسته ، الاعلاق (١٩١) ، صبح الاعشى (١/٤٢٨) .

٣ Glaser 1052, Hofmus 6, CIH 523, Grohmann, S. 251, f.

٤ Rep. Epigr., 3956, Grohmann, S. 252.

٥ البلدان (٣/١٢٢) .

٦ « ثم قال الله ليعقوب . قم فاصعد الى بيت ايل ، وأقم هناك ، واصنع هناك مذبحا لله الذي ظهر لك عند هربك من وجه عيسو أخيك . فقال يعقوب لاخيه وسائر من معه : أزيلوا هذه الالهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وابدلوا ثيابكم . وهلموا نصعد الى بيت ايل » ، التكوين ، الفصل (٣٥) . الآية ١ وما بعدها .

٧ الاصنام (٣٣) ، خزانة الادب (٣/٢٤٥) .

ابن حزام فأجاءها المخاض ، فلم تستطع الخروج من الكعبة ، فوضعته فيها فلفت في الأنطاع هي وجنينها وطرح مثبرها وثيابها الـتي كانت عليها ، فجعلت لقي لا تقرب[1]. فيظهر من هذا الخبر ان اهل مكة كانوا يعتبرون دم المخاض والولادة نجساً ، ولهذا اعتبرت الأنطاع التي وضعت (فاختة) جنينها عليها، بل اعتبرت هي نجسة أيضاً ، فلفت بالأنطاع ، وألقيت ، وجعلت لقي لا يمسها أحد .

وعثر المنقبون على أحواض داخل المعابد في العربية الغربية ، يظهر أنها كانت للوضوء ، لتطهير الجسم قبل الدخول الى المسجد ، موضع الصنم . وذلك بغسل الوجه واليدين والقدمين وربمـا الأبدان كذلك ، قبل الدخول الى بيت الصنم . ولكون هذا الوضوء تطهيراً للجسم ، عرفت (الميضأة) بالمطهرة ، لأنها تطهر من الأدران[2] . ولهذا السبب ، حفرت الآبار في المعابد ، لتموين هذه الأحواض بالماء ، وللتبرك أيضاً بالماء المقدس ، ولاستعماله في أغراض أخرى ، منها تنظيف الجسم من الأدران بعد قضاء الحاجة .

ولهم آداب اتبعوها حين دخولهم بيت الصنم وحين خروجهم منه . من ذلك ان القبائل كانت تتجنب ان تجعل ظهورها على مناة اعظاماً للصنم . فكانت تنحرف في سيرها ، حتى لا يكون الصنم الى ظهرها . وفي ذلك قال الكميت بن زيد ، أحد بني أسد بن خزيمة بن مدركة :

وقد آلت قبائل لا تولي   مناة ظهورها مُتَحرّفينا[3]

وقد تطورت أشكال المعابد وهندستها بتطور الحضارة ، وبشكل طبيعة الأرض التي يقام المعبد عليها . وهي تتناسب مع درجة تطور الشعوب ودرجة رقيها وطراز تفكيرها واختلاطها بالأمم المجاورة . ولذلك نجد معابد (تدمر) مثلاً قد تأثرت بطراز البناء الإغريقي ، لتغلغل الثقافة اليونانية فيها ، ولتأثر سكان المدينة باليونان . كذلك نجد هذا الأثر والأثر الروماني في معابد بلاد الشأم وفلسطين ، فالمعبد اذن

---

١ الروض الانف (١/١٣٤) ، الاصابة (١/٣٤٨) ، (رقم ١٨٠٠) ، كتاب نسب قريش (٢٣١) .
٢ تاج العروس (١/١٣٤) ، (وضوء) .
٣ ابن هشام (١/٩٠) ، المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الاول) ، (ص ١١) ، ابن هشام (١/٦٥) ، (حاشية على الروض الانف) ، (قصة عمرو بن لحـي ، وذكر أصنام العرب) .

هو نموذج معبر عن نفسية الناس وعن حضارتهم ودرجة تفكيرهم وعن هندستهم، ومدى تأثر فن البناء عندهم بالمؤثرات الداخليــة الأصيلة أو المؤثرات الدخيلة في الزمن الذي قام فيه البناء .

ومن هنا نجد معابد اليمن ، اتخذت لها الحجارة الضخمة المتقطعة من الصخور في بناء الجدر والأرض وفي الأعمــدة ، ونجد المعمار قد تفنن في تزويق الجــدر والأعمدة والسقوف وفي زخرفتها ، فصارت المعابد ضخمة جميلة ، لا تضاهيها المعابد التي أقيمت في مواضع سهلة من جزيرة العرب ، لعدم وجود المواد الصالحة للبناء فيها ، ولأن الطبيعة لم تهب للمعمار فيها ما يدفعه الى بناء أبنية ضخمة فيها تضاهي معابد أهل اليمن .

الاستفسار عن المغيبات :

ولم تكن المعابد مواضع عبادة وتقرب الى الأصنام حسب ، بل كانت مواضع استفسار عن المغيبات كذلك ، يقصدها أهل الحاجات لسؤال الآلهة عمــا عندهم من مشكلات ، أو عما سيخبئه لهم المستقبل من أمور ، أو عن أعمال يريدون القيام بها ، أو عن سرقة ، وما شابه ذلك من طلبات . ومن هذه البيوت بيت رئام ، وقد كانوا يكلمون منه وينحرون عنده[1] . وبيت العزى، وكانوا يسمعون فيــه الصوت[2] . والمنطبق وكان صنماً من نحاس يكلمون من جوفــه ، فيأتيهم الجواب[3] . وبيت (الجلسد) ، صنم كندة وأهــل حضرموت[4] . وقــد ذكر (الجاحظ) : « أنهم كانوا يسمعون في الجاهليــة من أجواف الأوثان همهمة ، وأن خالد بن الوليد حين هدم العزى رمته بالشرر حتى احترق عامــة فخذه ، حتى عاده النبي ، صلى الله عليه وسلم » . وهو ممن يشكون في صدور مثل هذه الأمور إذ يقــول : « « وهذه فتنة لم يكن الله ليمتحن بهــا الأعراب وأشباه الأعراب من العوام . وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطاف لمكان التكسب»[5] .

---

١ الاصنام (ص ١٢) ، الطبري (٢/٩٧) .
٢ الاصنام (ص ١٨) .
٣ المجد (ص ٣١٨) .
٤ البلدان (٣/١٢٢ وما بعدها) .
٥ الحيوان (٦/٢٠١) .

تكليم الأصنام :

ويقوم الكهان بتكليم الصنم ، وهم الذين يفسرون للسائلين المهمة أو الأصوات الصادرة من تلك الأصنام ويتكلمون على ألسنتها بما يلائم السائل مقابل نذر وهدايا وألطاف يقدمونها الى السدنة . وهـذا النوع من التنبؤ ، معروف عنـد اليونان والرومان،مشهور ومعروف عند غيرهم من الأمم كالبابليين والأشوريين والعبرانيين. بل هو يؤلف جزءاً مهماً من أركان الديانات القديمة ، ويطلق عليه Oracle في الانكليزية من Oraculum اللاتينية ، ومعناها التكلم . ولهذا النوع من التنبؤ صلة كبيرة بالسحـر Magic وبالكهانة في الديانات القديمة والديانات البدائية عند بعض الشعوب الافريقية والاسترالية في الزمن الحاضر . وقد اكتسبت بعض معابد اليونان شهرة كبيرة في هذا النوع من التنبؤ بالغيب ، وأشهرها معبد (دلفي) Delphi الذي كسب شهرة عظيمة في هذا الباب[1] .

وقد ورد في بعض النصوص ، ان قوماً كلموا آلهتهـم في شهر (ذ اجبى ذ عثتر) و (ذ فرعم ذ عثتر) ، فأجابهم الإلـه (عثتر) على ما سألوا عليه . وورد ان جماعة من المؤمنين بـ (عم) ، كلموه ، فأجابهم على ما سألوا عنه . وكانوا اذا كلموا الآلهة ، فوجدوا ان الأجوبة غير منسجمة مع الأسئلة ، أعادوا الأسئلة عليها وقدموا قرابين جديدة لها ، أو وزادوا في الحلوان،يفعلون ذلك حتى يسمعوا الجواب المناسب لأسئلتهم[2] .

ولم أسمع بوجود تكليم في مكة . فلم يذكر أحد من أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يأتون الكعبة لسماع أجوبة الأصنام عن أسئلة يوجهونها اليها،ولا عن وجود سدنة كانوا يقومون بأي نوع من التكليم . وإنما ذكروا أنهم كانوا يسألون الأصنام النصح والارشاد ، والأمر والنهي بفعل فعل أو تركه ، ويكـون ذلك بالاستقسام بالأزلام . وقد خصص الصنم (هبل) بهذا النوع من الإرشاد . وكانت عنـده سبعة قداح ، كل قـدح منها فيه كتاب : قدح فيه العقل ، إذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ، ضربوا بالقداح السبعة عليهم . فإن خرج العقل ، فعلى

---

١ Ency. Brita., Vol., 16, p. 830, T.D. Dempsey, The Delphic Aracle, 1918, L.R. Farnell, Cults of the Greek States, Vol., IV, p. 179.

٢ Grohmann, S. 251.

من خرج حمله . وقدح فيه (نعم) للأمر ، إذا أرادوه يضرب به في القداح، فإن خرج قدح فيه نعم ، عملوا به . وقدح فيه (لا) ، فإذا أرادوا الأمر ضربوا به في القداح ، فإذا خرج ذلك القدح ، لم يفعلوا ذلك الأمر . وقدح فيه (منكم) ، وقدح فيه (ملصق) ، وقدح فيه (من غيركم) ، وقدح فيه (المياه) ، فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح ، وفيها ذلك القدح ، فحيثما خرج به ، عملوا به . وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحدهم،ذهبوا به الى هبل وبمئة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا فلان ، أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق فيه . ثم يقولون لصاحب القداح : إضرب ، فإن خرج عليه (منكم) كان منهم وسيطاً ، وإن خرج عليه من (غيركم) كان حليفاً ، وإن خرج عليه (ملصق)، كان ملصقاً على منزلته فيهم لا نسب له ولا حليف ، وإن خرج عليه شيء مما سوى هذا مما يعملون به (نعم) عملوا به ، وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك ، حتى يأتوا به مرة أخرى ، ينتهون في أمرهم ذلك الى ما خرجت به القداح [1] .

وهكذا كانت قريش والقبائل التي تحج الى مكة تأتي الى هبل لاستشارته في قضايا تهمها . فما يخرج في القدح مما هو مكتوب ، يكون الجواب . غير أن بعض الأجوبة قد يأتي على خلاف رغبة السائلين ، ولذلك كانوا يغرون الضارب على القداح بالمضرب الى أن يخرج القدح الذي فيه يريدون ويشتهون.وقد يؤخرون ذلك بعض الوقت . وهم يفسرون النتيجة التي تظهر أنها رغبة الصنم وارادته بوحيها ، فتظهر بالقداح .

وذو الخلصة من الأصنام التي كان يستقسم عندها كذلك . والى هذا الصنم ينسب قول أحد الشعراء لهذه الأبيات :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العُداة زورا

---

١ الازرقي (٦٨/١ وما بعدها) ، الطبري (١٧٢/٢ وما بعدها) .

وهي أبيات ينسبها بعض الرواة الى امرىء القيس . وكان أبوه قتل ، ف
الطلب بثأره ، فأتى ذا الخلصة ، فاستقسم عنده بالازلام ، فخرج السهم ين
عن ذلك ، فقال هذه الأبيات التي تتحدث عن غضب الشاعر على هذا الصنم
لنهيه إياه عن الأخذ بالثأر . ولو كانت النتيجة كما يشتهي ، لما قال الشاعر
الأبيات بالطبع ، وتجاسر على الصنم[1] .

ولما كانت الحروب والغزوات من القضايا المهمة ، كانت استشارة الأص
والاستقسام بشأنها من الأمور المألوفة ، فكان أهل مكة اذا أرادوا الحرب
عقد هدنة أو إبرام أمر خطير أتوا (هُبل) يستقسمون عنده ليعطيهم الر
المصيب في هذا الموضوع .

والغالب ان يكون الاستقسام أمام الصنم ، ليقع في روع طالب الاستقسام
ما يجري انما هو بعلم الصنم وبوحيه ، فيكون ذلك أوكد في نفسه وأعمق تأثير

أشكال المعابد :

هذا ولا بد لي ان أشير الى اننا لا نملك حتى الآن رأياً واضحاً قاطعاً
شكل المعابد عند الجاهليين . ولا يمكن تكوين رأي واضح عن هذا النحو إلا
قيام علماء الآثار المتخصصين بدراسة آثار المعابد والكشف عنها ورسم مخطط
صحيحة لقواعدها وأسسها . ولذلك ، لا بد من مرور زمن ، حتى يتمكن ال
من تكوين رأي في أصول المعابد ، وكيفية إقامتها من الوجهة الدينية الأصولي
عند العرب قبل الاسلام .

واذا كان في استطاعتنا تحديد شكل (بيت الله) بمكة ، و (كعبة نجران
و (كعبة سنداد) ، أو (كعبات سنداد) ، كما يسميها البعض ، فإن
الصعب علينا تحديد هيأة بيوت الأصنام في المعابد الأخرى ، لعدم ورود نص يع
صفة تلك البيوت في أخبار أهل الأخبار . فلا ندري أكانت مكعبات ، أم
أشكال أخر .

ولما كانت المعابد بيوت الأرباب ، صارت لها حرمة خاصة وقدسية في ك

---

[1] الاصنام (٣٥ ، ٤٧) .

دين ، فلا يجوز انتهاك حرمتها ، ولا القيام بأعمال شائنة دنسة فيها ، خاصة بالقياس الى الأماكن المقدسة جداً التي تعدّ محجة للناس . وقد اتخذت حول البيوت مواضع عدّت جزءاً من المعبد حددت بحدود ، فما كان داخلاً عدّ حرماً آمناً ، وما كان خارج الحد كان خارجاً عن المعبد ، فليست له تلك الحرمة التي عيّنتها شريعة القوم للمعابد .

وأقدس مكان في المعبد هو (البيت) ، أي الغرفة التي تضم الصنم أو الأصنام . فقد كان البيت ، وهو المسمى الكعبة في مكة ، أقدم موضع عند قريش وعند غيرهم من عبدة الأصنام الذين كانوا يقدسون (البيت الحرام) ، وذلك بسبب وجود الأصنام فيه .

ويعبر في العربية الجنوبية عن البيت الذي توضع فيه الأصنام ، بـ (محتن)[1] فهو إذن بمثابة الكعبة بمكة .

ويقال للأرض الحرام المقدسة التي تحيط بـ (البيت) ، (الحرم) . قيل سمي (الحرم) حرماً لتحريم الناس فيه كثيراً مما ليس بمحرم في غيره من المواضع[2]. وقد وردت اللفظة في الكتابات النبطية . فوردت في كتابة نبطية عثر عليها في (بطرا) علماً لحرم الإلـه ذي الشرى ، قصد به الأرض المقدسة المحيطة ببيت ذلك الصنم ، والمعبد كله ، لأنه محرم ومقدس : (حرم ذي الشرى الإلـه ربنا)[3].

ولا يجوز لأحد انتهاك حرمة الحرم والاعتداء عليه . وإذا دخل انسان الحرم صار آمناً مطمئناً ، لا يجوز أن يعتدى عليه ، ولا أن يمس بسوء ، وإن كان قاتلاً . وحدود الحرم أنصابه ، وهي علاماته ، فمن اجتازها وصار في داخلها ، دخل في حرمة الحرم .

وما كان خارج الحرم ، هو من الحل ، أي من المنطقة الخارجة عن حرمة المعبد . فلا تشملها الأحكام المفروضة على الحرم .

وكان الرجل في الجاهلية إذا أحدث حدثاً ولجأ الى الكعبة ، لم يهج ، فكان إذا لقيه وليّ الدم في الحرم ، قيل له : هو صرورة ولا تهجه[4] .

---

١ Grohmann, S. 249.

٢ المفردات (١١٣) .

٣ Lidzbarski, Nord Semi. Epigra., S. 280, CIS., II, p. 350, G. A. Cooke, North Semi. Inscriptions, Oxford, 1903, p. 79, Ency. Religi., 6, p. 753.

٤ تاج العروس (٣٣١/٣) ، (صرر) .

ولمكانة الحرم في نفوس الجاهليين ولأنه موطن آمن من دخل فيه صار آمناً ، كان لا بد من تحديده ووضع معالم تشير الى نهايته ، إما بوضع أنصاب على أطرافه من تجاوزها الى داخله صار آمناً فلا يخاف على نفسه ، وإما ببناء حائل كجدار أو سياج أو أمثال ذلك ليكون اشارة الى حرمة ما وراءه في الداخل . وقد جعل أهل مكة حدود حرم البيت أنصاباً من تجاوزها الى الداخل صار في حرمة الحرم وفي حماية رب البيت .

وكانت أرض المعابد ، أي حرمها ، واسعة في الأصل ، ذات ماء وأشجار وحمى ، ثم تقلصت وضيقت وحددت بحدود ، بسكن الناس حولها، وبتقربهم من المعبد ، وبزيادة عدد عبّاده . فعندما يتألق نجم معبد ، ويكثر المؤمنون بصاحبه، يكثر زوّاره ، ويتسابق الناس الى السكن بجواره والتقرب منه جهد امكانه ، إذ يكون ذلك شرفاً لهم . شرف مجاورة البيت ، كما يكون مكسباً وموردا طيباً للمال ، لرغبة الزوار في مجاورة المعبد ، فيدفع هذا الطمع، أصحاب النفوذ والجاه على اختلاس الأرض والتجاوز على حدود الحروم فتضيق . كالذي حدث بمكة ، إذ كان الحرم واسعاً كبيراً ، يشمل الوادي كله ، فلما هبط (قصي) به وابتنى البيوت ، اعتدى من جاء بعده على الحرم حتى صغر ، مما دفع الخلفاء على شراء البيوت المجاورة وهدمها لاعادة أرضها الى الحرم ليتسع صدره للناس .

وتلحق بالمعابد أرضون ، يقال لها (حمى) لأنها في حماية الأرباب والأصنام ورعايتها ، فلا يعتدى عليها ، ولا يقطع شجرها ولا يرعى فيها ولا يسمح بصيد الحيوان فيها والاعتداء عليه في أرض الحمى[1] . فكان في الطائف (حمى)، وهو (حمى اللات) ، وقد خصص به ، وكان حمى في جرش[2] . بل كان وادي مكة الذي أُقيم البيت به (حمى) لرب البيت ، ولم يكن يسمح لأحد قبل (قصي) بقطع شجره ، ولا التجاوز على ما فيه من نبت . وقد كان (قُصي) كما يقول أهل الأخبار أول من اقتطع شجره ، وأقام البيوت لسكناه وسكنى قريش في ذلك الوادي .

ويفهم من كلام (نيلوس) Nilus أن العرب لم يكونوا يحيطون مواضعهم

---

١ اللسان (١٤/١٩٩) ، العرب في سوريا قبل الاسلام (١١١) .
٢ Ency. Religi., 6, p. 753.

المقدسة التي فيها أصنامهم بأسوار ، وإنما كانوا يجعلون لحرمها حجارة تكون حداً وعلامة للحرم . ويتبين من كلام هذا المؤرخ الذي أسر العرب ابنه وأرادوا تقديمه الى الزهرة قرباناً على حدّ قوله ، أنه قصد بالعرب الأعراب ، ولا سيما أعراب طور سيناء ، وقد كانوا أشداء غلاظاً يلقون الرعب في النفوس ، وكانوا يتاجرون بالرقيق يقبضون على من يقع في أيديهم ويبيعونه في أسواق الرقيق . وجماعة هذا شأنها لا تستقر في مكان ، لا يمكن بالطبع أن يكون لها معبد ثابت ، وإنما يكون معبدها الموضع الذي يوضع صنم القبيلة فيه . ولتعيين الأرض الحرام توضع تلك الحجارة .

إلا أن هذا لا يعني أن معابد أهل المدر كانت مسورة أو ذات حائل دائماً ، فقد ذكرت أن حرم بيت الله بمكة لم يكن مسوراً ، بل كان معلماً بأنصاب . ومكة موضع حضر . أما حرم معبد (المقه) بمأرب وكذلك أكثر معابد أهل اليمن ، فقد كانت مسوّرة بأسوار عالية قوية ، لها أبواب يدخل المتعبدون منها، تفتح وتغلق كما نفعل هذا اليوم في دور العبادة عندنا .

ومن المعابد الشهيرة : (البيت الحرام) ، أي (الكعبة) بمكة ، وسأتكلم عليه في موضع خاص . ومعبد (ذو الشرى) Dushare بمدينة (بطرا) ، و (كعبة سنداد) ، و (كعبة نجران) ، ومعابد عديدة في مواضع أخرى من جزيرة العرب ، ولا سيما اليمن .

والفضل في ظفرنا ببعض المعارف عن (بيت الرب) بمدينة (بطرا) ، يعود الى الكتابات النبطية ، والى ما كتبه بعض الكتبة اليونان والسريان عنه . وقد خصص هذا البيت بعبادة الإلّه (ذي الشرى) ، الذي هو (رب البيت)[١] التي أطلقها النبط على إلههم ، تذكرنا بجملة أخرى معروفة في الجاهلية عند أهل مكة ، كما هي معروفة عند المسلمين حتى اليوم ، هي جملة : (رب البيت) ، التي تعني إلّه البيت ، وهو الكعبة ، وقد أقرها وثبتها الاسلام . وقد نعت (رب البيت)، (رب بيت ذي الشرى) بـ (الذي يفرق الليل عن النهار)[٢] وهو نعت له أهمية كبيرة في تكوين فكرة عن وجهة نظر عبّاده اليه .

---

١ CIS, II, 235, RES, 1088.

٢ RES, 1102, Ency. Religi., p. 122.

وقد نصب في هذا المعبد الصنم (ذو الشرى) على قاعدة مكسوة بالذهب ، في بيت موشى بالذهب وبالصور التي تمثل مشاهد تقديم القرابين اليه . وهو في موضع مرتفع على صخرة عالية ، يحج اليه الناس من مواضع بعيدة ، للتقرب الى ذلك الإله الذي يقابل الإله (باخوس) و (ديونسيوس) (Dionysos- Bacchus) في رأي الكتبة اليونان واللاتين[1] .

وكان لهذا المعبد حج يقع في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول من كل عام ، فيفد اليه الناس من أماكن بعيدة للتقرب الى (رب البيت) ، فينحرون ويقضون الأيام المعينة ، ثم يعودون الى ديارهم . والظاهر ان هذه الكعبة لم تكن خاصة بأهل (العربية النبطية) ، انما كانت محجة لغيرهم من العرب ، كما يتبين ذلك من تصريحات بعض الكتبة (الكلاسيكيين) عنها .

وقد عرفت بعض معابد الجاهليين بـ (الكعبات) . ويدل ذلك على أن بناءها كان على هيأة مكعب كشكل بناء الكعبة ، وعلى أن العرب كانوا يبنون بيوت الأصنام الكبرى على هذا النحو . من هذه كعبة (سنداد) على ما يذكره الأخباريون ، وهي قصر كانت العرب تحج اليه فيطوفون حوله ، وقد عرف بـ (الكعبات) جمع كعبة وهو البيت المربع والمرتفع ، وبـ (ذات الكعبات) . و (ذي الكعبات) وكان مركز حج قبائل بكر بن وائل وإياد[2] . ولكن الأخباريين لم يتحدثوا بشيء من التفصيل عن هذا المعبد وعن كيفيته وشكله وعن الأصنام التي كانت فيه . وقد ذكر (ابن الكلبي) أن هذا البيت لم يكن بيت عبادة ، إنما كان منزلاً شريفاً[3] .

وذكر أن (ذات الكعبات) بيت كان لبكر وتغلب ابني وائل وإياد، وذكر أنه بيت كان لربيعة ، كانوا يطوفون به . وذكر أنه كان لإياد ، وكان كعبة

---

١ Ency. Religi., 9, p. 122, Epiphanius, Höer., LI, 22.

٢ البلدان (٥/١٥٠) ، « سنداد » ، (٧/٢٥٥) ، اللسان (١/٧١٨) ، (كعب) ، تاج العروس (١/٤٥٦ وما بعدها) ، Ency., II, p. 590.

٣ الاصنام (ص ٤٥) ، « وكان لربيعة بيت يطوفون به ، يسمونه الكعبات . وقيل : ذا الكعبات ، وقد ذكره الاسود بن يعفى في شعره ، فقال : والبيت ذي الشرفات من سنداد » .
اللسان (١/٧١٨) ، (كعب) .

بسنداد بين الحيرة والابلة[1] . وهو من منازل إياد أسفل سواد الكوفة ، وكان عليه قصر تحج العرب اليه[2] .

وكان بنجران بيت عبادة عرف بـ (كعبة نجران) . وهو بناء بُني على هيأة الكعبة . وفي رواية تنسب لابن الكلبي انها كانت قُبة من أدم من ثلاث مئة جلد ، كان اذا جاءها الخائف أمن ، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترفداً رفد[3] . ويستخلص من الأخبار الواردة عن هذه الكعبة ومن أسماء أصحابها ومن كونهم أساقفة انها كانت بيعة أسسها النصارى في مركز النصرانية في اليمن ، وهو موضع نجران ، وانه لا علاقة له بالوثنية . ويذكر الأخباريون ان بني عبد المدان ابن الديّان الحارثي أقاموها هناك ، مضاهاةً للكعبة[4] . وقد ذكر (ابن الكلبي) ان كعبة نجران لم تكن كعبة عبادة ، وانما كانت غرفة يعظمها القوم من بني الحارث بن كعب[5] . وبنو الحارث بن كعب هم رؤساء نصارى نجران .

وذكر بعض أهل الأخبار ان كعبة نجران وكانت لمذحج وبني الحارث بن كعب ، عرفت بـ (الربة)[6] .

وقد ذكر (ابن الكلبي) ان رجلاً من جهينة يقال له عبد الدار بن حُديب أراد بناء بيت بأرض من بلادهم يقال لها الحوراء ليضاهي به الكعبة حتى يستميل به العرب ، فأعظم قومه ذلك ، وأبوا عليه[7] . ونجد في كتاب (الأصنام) لابن الكلبي ، وفي كتب أهل الأخبار أسماء مواضع ذكر انها كانت بيوت عبادة حج اليها العرب حجهم لمكة . وذكر ان قريشاً بَنَتْ للعزى بيتاً بوادي حراض بإزاء الغمير ، وحمت له شعباً من وادي حراض يقال له سقام ، يضاهون به

---

١ تاج العروس (١/٤٥٧) ، (كعب) ، الاصنام (٤٥) ، البلدان (٥/١٤٩) .
٢ تاج العروس (٢/٣٨٣) ، (سند) .
٣ البلدان (٨/٢٦٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٥٥٦) ، (نجر) .
٤ البلدان (٨/٢٦٢) .
٥ الاصنام (ص ٤٥) .
٦ تاج العروس (١/٢٦٣) ، (ربب) ، قال الاعشى :
وكعبة نجران حتم عليك حتى تناجي بأبوابها
يزور يزيد وعبد المسيح وقيسا هم خير أربابها
تاج العروس (٣/٥٥٦) ، (نجر) .
٧ الاصنام (٤٥) .

الكعبة ، وقد حجت اليه ، وكانت تنحر عنده، ويتقربون الى العزى بالذبائح[1] .

وقد ذكر الأخباريون أنه كان بعكاظ صخور يطوف الجاهليون بها ويحجون اليها[2] . وإذا تذكرنا (دومة الجندل) ومعبدها الكبير ، فلا يستبعد أن تكون الأسواق الأخرى مواضع مقدسة قديمة كانت محجة للناس عامرة تفد اليها القبائل في مواسم الحج ، ثم فقدت خطورتها قبيل الإسلام ، ولم يبق عليها إلا طابع الأسواق التجارية .

وتكون في المعابد مواضع يلقي فيها العباد وأصحاب النذور هداياهم ونذورهم التي يتقربون بها الى آلهة المعبد . وقد أشار أهل الأخبار الى وجودها في الكعبة وفي المعابد الجاهلية الأخرى. ويظهر من وصفهم لها أنها كانت على شكل حفر، تلقى فيها تلك الهدايا والنذور . فذكر الأخباريون أنه كان على يمين الداخل الى البيت (جب) ، اتخذ خزانة للبيت يلقى فيه ما يهدى الى الكعبة ، وهو الجب الذي نصب عليه عمرو بن لحي (هُبَل) وهو صنم كانت قريش تعبده . وقد عرف علماء اللغة الجب بأنه البئر[3] ، ووصفها (الأزرقي) ، فقال : إنها كانت في جوف الكعبة على يمين من يدخلها ، وكان عمقها ثلاث أذرع ، وان اسمها (الأخسف) ، وكانت العرب تسميها (الأخشف)[4] .

السقاية :

وفي المعابد سقايا ، يستقى منها الماء للشرب وللتطهر ، كأن تغسل الأوجه والأيدي والأرجل بالماء ليسمح للزائر بدخول المعبد ، أو لتحل له إقامة الشعائر الدينية . ويعد الماء ماءً مقدساً ، لأنه من أرض مقدسة ، ولذلك يتبرك به أيضاً، ويستشفى بالشرب منه . وقد عثر المنقبون على آثار آبار وأحواض مطمورة في حرم المعابد ، كان المتعبدون يستفيدون من مياهها عند زيارتهم بيوت أربابهم ،

---

١ الاصنام (ص ١٦ ، ١٨ وما بعدها) .

٢ البلدان (٢٠٣/٦) ، المشرق ، السنة ٣٧ ، نيسان ــ حزيران ، ١٩٣٩ م (ص ٢٢٠) .

٣ اللسان (٢٥٠/١) « صادر » .

٤ أخبار مكة (٢٧/١ ، ٦٨) ، البلدان (٢٥٨/٧ وما بعدها) .

وعند أدائهم الشعائر الدينية . وبئر زمزم ، هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية .

وقد كانت سقاية الحاج من المآثر الكبيرة عند أهل مكة،وهي تسقية الحجاج من الزبيب المنبوذ بالماء . وكان يليها في أيام الرسول العباس بن عبد المطلب[1] . وكان بعضهم يسقي الحاج اللبن بالعسل .

المذابح :

وتلحق بالمعابد مذابح تذبح عليها القرابين التي يتقرب بها المؤمنون الى آلهتهم، ويقال للواحد منها ، (مذبح) و (نصب) و (مصب) و (غبغب) . وقد وردت لفظة (مذبح) و (مذبحت) ، أي (المذبحة) ، في طائفة من الكتابات . وهي مواضع الذبح ، حيث يكون تقريب القرابين الى الآلهة .

وقد ذهب علماء اللغة مذاهب في تحديد معنى (النصب) ، فرأى بعضهم ان النصب كل ما عبد من دون الله ، وذهب بعض آخر الى ان النصب صنم أو حجر كانت الجاهلية تنصبه ، وتذبح عنده ، فيحمرّ للدم ، وذهب آخرون الى ان الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب ، ويذبح عليها لغير الله تعالى[2] . وعرفها بعضهم بقوله : « النصب الأوثان من الحجارة ، جماعة أنصاب كانت تجمع في الموضع من الأرض ، فكان المشركون يقربون لها وليست بأصنام » ، « قال ابن جريج : النصب ليست بأصنام . الصنم يصور وينقش، وهذه حجارة تنصب ثلثمائة وستون حجراً . منهم من يقول ثلثمائة منها بخزاعة . فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة . فقال المسلمون : يا رسول الله ؟ كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم ، فنحن أحق ان نعظمه »[3] . ولو أخذنا برواية (ابن جريج) ، خلصنا الى ان هذه

---

١ اللسان (٣٩٢/١٤) . (سقى) ، الاصابة (٢٦٣/٢) ، (رقم ٤٥٠٧) .
٢ اللسان (٧٦٠/١) « صادر » ، (٢٥٩/٢) « بولاق » ، القاموس (١٣٢/١) ، تاج العروس (٤٨٦/١) ، الاصنام (٩٧) ، تفسير الطبري (٤٤/٦) ، الاصنام (٣٣) ، (المطبعة الاميرية ١٩٦٤) .
٣ تفسير الطبري (٤٨/٦) .

الأنصاب ، كانت بعدد أصنام الكعبة ، اي انهم كانوا قد خصصوا بكل صنم نصباً ، يذبحون عليه ما يتقربون به اليه من عتائر . فقد كان عدد أصنام الكعبة ثلثمائة وستون حجراً عام الفتح على ما يذكره أهل الأخبار ، إلا اذا اعتبرنا ما ذكروه عن عدد الأصنام وهماً ، وأخذنا برواية (ابن جريج) التي هي دون الرواية الأخرى في الشهرة والذكر .

وأشير الى (النصب) في شعر ينسب الى (الأعشى) ، يقال إنه قاله في مدح الرسول . هو :

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه لعاقبة والله ربك فاعبدا [1]

وعلى كل ، فنحن لو أخذنا بالروايتين ، أو برواية واحدة منها ، فإن العدد (٣٦٠) يلفت النظر حقاً . فلمَ خصص رواة الخبرين عدد الأصنام أو الأنصاب بهذا الرقم ، وهل يمثل ذلك شيئاً له صلة بالفلك ، أو بأسطورة دينية قديمة كانت عند أهل مكة ؟

وقد وردت كلمة (النصب) في آية اللحوم المحرمات التي لا يجوز أكلها في القرآن الكريم : « حرمت عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبعُ ، إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب » [2] . فجعلت الذبائح التي تذبح على النصب للأصنام في جملة التي لا يحل للمسلم أكلها ، فيفهم من هذه الآية أن النصب مواضع تذبح عليها القرابين . كما وردت في موضع آخر من سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان . فاجتنبوه » [3] . وقد ذكر علماء التفسير ، أن الأنصاب التي يذبحون عندها [4] .

وقد ذكر علماء التفسير ، ان أهل الجاهلية كانوا قد وضعوا حول الكعبة

---

١ تاج العروس (٤٨٦/١) ، (نصب) .
٢ المائدة ، الآية ٣ .
٣ المائدة ، الرقم (٥) ، الآية ٩٠ .
٤ تفسير الطبري (٢١/٧) .

أنصاباً ، أي حجارة كانوا يذبحون عليها ، فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم : وجعلوه على الحجارة . وكانوا يبدلونها إذا شاؤوا بحجر هو أحب اليهم منها [1] . كما كانوا قد وضعوا الأنصاب في بيوت الأصنام الأخرى ، يذبحون عليها ذبائحهم لها . وقد أشير الى (المائرات)، أي الدماء : دماء الذبائح لـ (رشيد بن رميض العنزي) :

حلفت بمائرات حول عوض وأنصار تركن لدى السعير [2]

و (عوض) صنم لبكر بن وائل ، و (السُعَير) صنم لعنزة خاصة .

و (نصب) هي (نصب) و (مصب) في اللهجات العربية الجنوبية ، و (نصب) و (مصبت) في الفينيقية ، و (مصبه) Masseba في العبرانية . ويراد بها مذبح ، تذبح عليها القرابين والضحايا التي يقدمها المتعبدون الى معبودهم Deity . ويعرف بـ Altar أي مذبح في الانكليزية . وهو من حجر واحد في الأصل ، قد يذبح عليه ، فيسيل الدم فوقه ويتلطخ به ، وقد يكون في نظرهم بمثابة المعبود الذي تقدم الضحية اليه . وقد يذبح عليه ، فيسيل الدم من فتحة تكون فيه الى بئر تتجمع فيها دماء الذبائح ، تكون عند قاعدة النصب .

وقد تخصص المذابح بحرق لحم الذبيحة كله أو بعضه عليها ، تقرباً الى الأصنام، كالذي كان يفعله العبرانيون [3] .

وقد عثر المنقبون على أحجار عديدة اتخذت أنصاباً لذبح القرابين عليها أو عندها ، عثر عليها في العربية الجنوبية بصورة خاصة . وفي بعضها فتحة على هيأة ثقب تسيل منه دماء القرابين الى موضع تتجمع فيه . وفي بعض آخر مسايلُ جانبية ، تسيل الدماء منها الى الخارج . وهذه الأنصاب هي (مذابح) ويقال للواحد منها (مذبحم) في العربيات الجنوبية أي (مذبح) . ولذبح القرابين (ذبحن) و (ذبحم) ، أي (الذبح) و (ذبح) .

---

١ تفسير الطبري (٤٨/٦ وما بعدها) ، « وهي أحجار كانت حول الكعبة يذبحون عليها للاصنام » ، ارشاد الساري (١٧٢/٦) .
٢ تاج العروس (٢٦٨/٣) ، (سعر) ، (٥٥٠/٣) ، (مور) .
٣ Hastings, p. 23.

فالنصب اذن ، الأحجار التي تذبح عليها القرابين وما يهل للأصنام . والعادة أن تكون أمام الصنم ، وعلى مقربة منه . فإذا ذبح القربان سال دمه على النصب الى ثقب يؤدي الى حفرة يتجمع فيها الدم . هي (الغبغب) . و (النصب) هو (مصبه) Massebah في العبرانية ، حيث كانوا يذبحون عليها القرابين . ولكثرة ما كان يذبح عليها صارت تبدو حمراء من لون الدم ، وقد أشير الى الحمرة في حـديث اسلام (أبي ذر الغفاري) ، إذ ذكر أنه وصف تعذيب قريش له بقوله : « فرماني الناس حتى كأني نصب أحمر »[1] .

وليس لأهل الأخبار رأي واحد في (الغبغب) ، وإنما ذهب بعضهم الى أن الغبغب هو المنحر ، وذهب بعض آخر الى أنه خزانة المعبد ، يلقي الناذرون فيها ما عندهم من نذور وقربات ، وذهب فريق آخر الى أنه بيت كان الناس يحجون اليه ، كما يحج الى البيت بمكة[2] . وقيل إنه كان لمعتب بن قيس بيت يقـال له غبغب ، كانوا يحجون اليه[3] .

والذي عليه أكثر أهل الأخبار أن (الغبغب) المنحر . وقد صرح بذلك (ابن الكلبي) في كتاب (الأصنام) : وهو يتحدث عن (العزى) ، فقال : « ولها منحر ينحرون فيه هداياها ، يقال له الغبغب »[4] . كما صرح بذلك علماء اللغـة إذ عرفوا الغبغب بأنه المنحر ، أو نصب كان يذبح عليـه في الجاهلية ، أو كل مذبح بمنى . وقد خصصه بعضهم بمذبح منى[5] : أو هو حجر ينصب بين يدي صنم ، وكان لمناف مستقبل ركن الحجر الأسود غبغب ، وقيل كانا اثنين.ويظهر من شرح علماء اللغـة للمثل : (رب رمية من غير رام) ، ينسب قوله الى الحكم بن عبد غوث أن الغبغب هو المذبح ، أي المنحر الذي ينحر عليه[6] .

---

١ الاصابة (٩٣/٤) ، (الرقم ٣٨٤) ، « فخررت مغشيا علي ، ثم ارتفعت كأنـي نصب أحمر » ، الاصنام (١١١) .

٢ مراصد الاطلاع (٩٨٣/٢) ، البـلدان (١٨٥/٤) ، اللسـان (٦٣٧/١) ، تاج العروس (٤٠٣/١) ، البلدان (١١٢/٦) ، الاصنام (١١١) ، ابن هشـام (٥٥/١) .

٣ ابن هشام (٥٥/١) ، البلدان (١١٢/٦) .

٤ الاصنام (١٣) « روزا » .

٥ اللسان (٦٣٧/١) .

٦ اللسان (٦٣٧/١) « صادر » ، (١٢٨/٢ وما بعدها) « بولاق » ، تاج العروس (٤٠٣/١) ، (غب) ، البلدان (٢٦٥/٦) ، (الغبغب) .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن (بيوت) الآلهة انه كان لكل (بيت) (غبغب) ، تذبح فيه هداياها ، أي ما يهدى الى تلك البيوت من قرابين . وقيل : الغبغب : المنحر ، وهو جبيل بمنى ، فخصص . وقيل كل منحر بمنى غبغب . قال الشاعر :

والراقصات الى منى فالغبغب[1]

ويذكر علماء اللغة ان (الغبغب) (العبعب) كذلك[2] . وان العبعب موضع الصنم . وصنم لقضاعة ومن داناهم[3] . وبيت كان لمعتب بن قيس، كانوا يحجون اليه كما يحجون الى البيت[4] . ويظهر من هذا الشرح ان (الغبغب) و (العبعب) ، كلمة واحدة ، لشيء واحد .

و (الغبغب) (الجب) كذلك . وهو حفرة يجمع فيها دم البدن ، والجمع (الجباجب) . قال « الزبير بن بكّار : الجباجب جبال مكة حرسها الله تعالى، أو أسواقها أو منحر . وقال البرقي ، حُفرٌ بمنى كان يلقى به الكروش ، أي كروش الأضاحي في ايام الحج ، أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا ، والعرب تعظمها وتفخر بها »[5] .

ويفهم أحياناً ان (الغبغب) ، حفرة أو بئر ، كان المتعبدون للأصنام يرمون بها نذورهم وهداياهم وما يتقربون به الى أصنام من نذور نفيسة ، من ذهب أو فضة أو حجارة كريمة . فكانت تحت صخرة (اللات) حفرة عرفت ب (الغبغب) حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم الى الصنم . فلما هدم الصنم أخذت من الغبغب تلك الأموال[6] . ويرادف الغبغب (الجب) ، الذي يقال له (الأخسف) و (الأخشف) ، وهو بئر في جوف الكعبة نصب (هبل) عليه . كان الناس يرمون فيها نذورهم وهداياهم . وتقع على يمين من يدخل البيت ، وكان عمقها ثلاث أذرع[7] .

---

١ تاج العروس (١/٤٠٤) ، (غب) .
٢ تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غب) .
٣ تاج العروس (١/٣٦٣) ، (عب) ، البلدان (٦/١١٢) ، الاصنام (١١١) .
٤ البلدان (٤/١٨٥) .
٥ تاج العروس (١/١٧٤) ، (جبب) .
٦ الطبري (٣/٩٩ وما بعدها) .
٧ اخبار مكة ، للازرقي (١/٦٦ وما بعدها) .

و (الغريّ) مذبح على ما يظهر من تفسير علما اللغة لهذه اللفظة . يظهر أنه كان صخرة تذبح عندها الذبائح وتطلى بدمها ، أو نصب تذبح القرابين عليه[1] .

ويعبر عن المذبح الذي تذبح عليه الحيوانات الكبيرة،مثل البقر بلفظة (حردن)[2].

ومن الألفاظ التي تطلق على المذبح ، (منطف) و (منطفت) ، أي (المنطفة) ، وهي المذبحة[3] . والمذبح ، هو (مذبحت) في نصوص المسند ، أي موضع الذبح .

المحارق :

وتلحق بالمعبد محارق ، تحرق فيها القرابين ، يقال لها (مصرب)[4] . وقد كان العبرانيون يحرقون قرابينهم ، في محارق تلحق بالمعبد ، وتكون جزءاً منه . أما العرب ، فإننا لا نستطيع أن نقول إنهم كانوا يحرقون قرابينهم في كل جزيرة العرب ، لأننا لا نملك أدلة آثارية على ذلك ، إلا معابد اليمن واعالي الحجاز ، حيث عثر على آثار المحارق في معابدها:مما يدل على أنهم كانوا يحرقون القرابين.

و (المصرب) ، المحرقة ، الموضع الذي يحرق به الخشب ذي الرائحة الطيبة أو البخور ، وهو مبخرة ، تكون في المعابد ، يحرق بها ، لتفوح منها روائح طيبة ، أثناء العبادة . وقد أشير اليها في نصوص المسند .

البخور والمباخر :

وللتبخير شأن كبير في أداء الفروض في المعابد ، إذ لا بد من حرق البخور فيها ، فيبخر بها المذبح والأصنام كما يبخر القائمون بأداء تلك الفروض . وتسمى المبخرة بـ (مسلم) ، وبـ (مقطر) وذلك في لغة بعض الجاهليين[5] .

---

١ اللسان (١٥/١٢٢) ، (غرا) ، تاج العروس (١٠/٢٦٤) .

٢ Grohmann, Arabien, S. 247.

٣ Grohmann, Arabien, S. 249.

٤ Grohmann, Arabien, S. 247.

٥ Grohmann, Arabien, S. 247.

و (المجمرة) والمجمر ، الموضع الذي يوضع فيه الجمر بالدخنة للتجمير[1] .

وقد أشير الى المجمرات والمباخر في كتابات المسند . وعثر المنقبون على نماذج منها ، قدمها الناذرون نذوراً الى آلهتهم ، وقد وضعوها في معابدها ، وهي في جملة الهدايا المرموقة التي تقدم الى المعابد بعضها من أحجار وبعضها من معدن بذل جهداً في صنعته وفي زخرفته حيث يكون هدية قيّمة تكون خليقة بوضعها في المعابد .

وقد كان الناس يأتون بالمجامر ليجمّروا بها الكعبة تقرباً بعملهم هذا الى الأصنام ، وذكر ان حريقاً أصاب الكعبة ، بسبب تطاير شرر من مجمرة امرأة جمرت البيت ، فأصاب ستار الكعبة ، فاحترق . والتجمير ، هو من شعائر التقدير والتعظيم . وهو مما يدخل في الطقوس ، وقد صرفت المعابد القديمة أموالاً على شراء (العود) وغيره لاحراقه في المجامر ، لتطييب المذبح والمعبد به . وكان البخور مما يبخر به في المعابد أيضاً . وقد استعمله الجاهليون في بيوتهم المعظمة كذلك .

وتلحق بالمعابد مواضع يخزن فيها ما يقدم الى المعبد من هدايا ونذور ، وما يرد اليه من غلات أوقافه . واذا كانت النذور والهدايا ماشية ، فقد تحفظ في مواضع بعيدة عن المعبد،أو توضع في احماء المعابد لترعى بها . ولا يجوز التعرض لها بسوء . وتعلم بعلامات تشير إلى أنها مما حبس على الأصنام . وكانت لهبل خزانة للقرابين . وكان قربانه مئة بعير ، وله حاجب يقوم بخدمته[2] . وفي جملة ما أهداه الناس الى أصنامهم السيوف والملابس ، وكانوا يعلقونها أحياناً على الأصنام[3] .

سدنة الآلهة :

ولبيوت العبادة سدَنة وحجبة وخدم ، يقومون كلهم بخدمة البيت وما فيه من أصنام . ويعبر في عربيتنا عن الذي يتولى أمر الصنم بـ (السادن) و (سادن الصنم).

---

١ تاج العروس (١٠٨/٣) ، (جمر) .
٢ الازرقي ، أخبار مكة (٦٨/١ وما بعدها) .
٣ نهاية الارب (١٩/١٦) .

وهو المسؤول عن الصنم أو الأصنام ، ومتولي أمرها . وهو المرجع الأعلى في سلسلة الرتب بالنسبة الى المعابد . ويعبر عنه بلفظة (شوع) في المعينية [1] ، وبلفظة أخرى هي (رشو) . وأما إذا كان السادن امرأة ، فيقال لها (رشوت) (رشوة) عندئذ [2] .

ويقال لسادن الآلهة (افكل) (أفكل) في اللحيانية . جاء (افكل لت) (أفكل لات) أي (سادن اللات) [3] . وتقابل هـذه اللفظة لفظة (ابكالو) Apkallu في اللغة الأكادية [4].

وتعد السدانة من المنازل الدينية والاجتماعية الرفيعة عند الجاهليين . وبيد السادن في العادة مفتاح بيت الصنم أو الأصنام . وتكون وراثية في الأغلب تنتقل في أفراد العائلة من الأب الى ابنه الأكبر أو الى غيره من البارزين في الأسرة . وهي منزلة شرف ، تكسب صاحبها جاهاً ، كما تكسبه مالاً ، لما تأتي به اليه من حبوس ونذور وقرابين . لذلك صارت سبباً لوقوع خصومات بين الأسر ، من أجل الاستحواذ عليها ، كالذي حدث مراراً في مكة من أجل الحصول على مفاتيح البيت .

وسدنة الأصنام في الجاهلية قومتها وحجابها ، وكانت السدانة واللواء بمكة لبني عبد الدار في الجاهلية ، فأقرها النبي لهم في الإسلام . فكان اليهم أمر مفتاح البيت [5] .

ومن قدماء من كانت اليهم ولاية أمر البيت الحرام أي سدانته ، رجل زعموا انه ولي أمر البيت بعد جرهم ، ودعوه (وكيع بن سلمة بن زهير (زهر) الإيادي) . جعلوه سادناً ، وجعلوه كاهناً ، فنسبوا اليه سجعاً من نوع سجع الكهان . ذكر انه جمع إياداً قبيل وفاته فنصحها وأوصاها . وزُعم انه بنى صرحاً بمكة ، وجعل فيه سلّماً كان يرقاه ليناجي الله. وكان الجاهليون يرون انه صدّيق

---

١ راجع النص رقم ٤ و ٥ من كتاب : نقوش خربة معين .
٢ Grohmann, Arabien, S. 248.
٣ Grohmann, Arabien, S. 82, Jaussen-Savignac, Mission, II, 506.
٤ Grohmann, Arabien, S. 248.
٥ تاج العروس (٢٣٣/٩) ، (سدن) .

من الصدّيقين ، وانه ينطق بالخبر اليقين من السماء . وذكر انه صاحب الصرح المعروف بحزورة مكة ، وانه هو القائل : « اسمعوا وصيتي : الكلام كلمتان ، والأمر بعد البيان . من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه ، وكل شاة معلقة برجلها » . فكان أول من قال هذه الكلمة ، فذهبت مثلاً [1] .

ويذكر أهل الأخبار انه لما مات وكيع ، نعي على الجبال . وفيه يقول بشير بن الحجير الإيادي :

ونحن إياد عباد الإلّه ورهط مناجيه في سلم

ونحن ولاة الحجاب العتيق زمان النخاع على جرهم

ويفسرون زمان النخاع بأنه داء يقال له النخاع ، سلّط على جرهم ، فأفنى منهم ثمانين كهلاً في ليلة واحدة ، سوى الشباب . وفي هذا الداء قال بعض العرب :

هلكت جرهم الكرام فعالاً وولاة البنية الحجاب

نخعوا ليلة ثمانين كهلاً وشباباً كفى بهم من شباب [2]

ويظهر ان داءً كان قد تفشى في عهد غير بعيد عن الاسلام بين جرهم ، فبقيت ذكراه في النفوس . ولا بد ان يكون (وكيع بن سلمة) ممن عاشوا قبيل الاسلام أيضاً ، فبقيت ذكراه في أهل مكة ، وإلا لما حفظت الذاكرة اسمه .

وقد ذكر أهل الأخبار أحياناً أسماء الأسر التي تولت سدانة البيوت المعظمة والمحجات ، كما ذكروا أسماء السدنة ، ولا سيا السدنة الذين كانت اليهم سدانة تلك البيوت عند ظهور الاسلام . وهم من أسر عريقة ، توارثت هذا المنصب من عهد بعيد ، وحافظت عليه ، وصارت بذلك من أشراف القوم .

---

١ المحبر (ص ١٣٦) ، الامثال ، للميداني (٢/ ٨١) ، البيان والتبيين (٢/ ١٠٩) ، بلوغ الارب (٢/ ٢٦٠) .

٢ بلوغ الارب (٢/ ٢٦٠ وما بعدها) .

حرمة المعابد :

ومع الحرمة التي كانت للمعابد ، انتهك المستهترون وذوو الحاجة حرمتها ، فسرقوا ما تمكنوا عليه من خزائنها . فقد سرقت خزانة الكعبة مراراً . ذكر أهل الأخبار أن سارقاً سرق من مالها في زمن جرهم ،وانه دخل البئر التي فيها كنزها، فسقط عليه حجر فحبسه فيها حتى أخرج منها وانتزع المال منه . وسرقت قبيل بنيانها في أيام الرسول ، سرقها فتيان من فتيان قريش وأودعوا المال عند (دويك) مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة . فقطعت قريش يده[1] .

---

١ الروض الانف (١/١٣٠) .

الفصل الرابع والسبعون

الكعبة

وكعبة مكة ، هي الكعبة الوحيدة التي بقيت محافظة على اسمها ومقامها حتى اليوم ، من بين الكعبات التي كانت في الجاهلية . فقد اندثر أثر الكعبات الأخرى وزالت معالمها ، ولم يبق لها مكان . والى الاسلام يعود ولا شك فضل بقاء (البيت الحرام) . وبفضل الإسلام أيضاً جمع العلماء ما تمكنوا من جمعه من تاريخ المدينة القديم والمعالم المتصلة بها ، ومن أخبار قريش ، لما لهذا التأريخ من صلة بظهور الاسلام[1] .

ويذكر أهل الأخبار أن الكعبة كانت معروفة عند العرب خارج الحجاز كذلك ، وأنهم كانوا يحجون اليها ويقدسونها ويقسمون بها . وأن ممن أقسم بها وذكر البيت

---

1 آل عمران ، الآية ٩٦ ، تفسير الطبري (٤/٦ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، الطبرسي (٢/٤٧٦) ، سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الآية ٢٦ ، تفسير الطبري (٣/٤٧ وما بعدها ، ٦٦ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٧/٧٨ وما بعدها) ، سورة ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري (١٣/١٥٢) ، روح المعاني (١٣/٢١٢) ، تفسير الطبرسي (٦/٣١٧ وما بعدها) ، البقرة ، الآية ١٢٧ ، تفسير الطبري (١/٥٤٦) ، تفسير الطبرسي (١/٢٠٦) ، البقرة ، الآية ١٥٨ ، تفسير الطبري (٢/٤٣) ، تفسير الطبرسي (١/٢٣٨ وما بعدها) ، سورة المائدة ، الآية ٩٧ ، تفسير الطبري (٧/٧٦ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٣/٢٤٦ وما بعدها) ، سورة الانفال ، الآية ٣٤ ، تفسير الطبري (٣/٢٣٨) ، تفسير الطبرسي (٣/٥٣٩) ، سورة الايلاف ، الآية ٣ ، تفسير الطبري (٣٠/٣٠٧ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (١٠/٥٤٣) .

في شعره (زهير)[1] و (النابغة)[2] . وقد عرفت بـ (البيت العتيق) ، وبـ (البيت المعمور)[3] . ورووا أن (عدي بن زيد العبادي) قصدها بقوله :

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت   فيكم وقابل قبر المـاجد الزارا

دعاها (ذات الودع) لأنه كان يعلق الودع في ستورها [4] .

وقد أقسم بها شاعر جاهلي آخر ، هو (عوف بن الأحوص) إذ قال :

واني والذي حجت قريش   محارمه وما جمعت حراء

وشاعر عامري آخر ، إذ قال :

فأقسم بالـذي حجت قريش   وموقف ذي الحجيج الى إلال[5]

يريد بذلك مكة . وبمكة بيت الله .

ومعارفنا عن (البيت الحرام) ضئيلة ، وفي الذي يذكره أهل الأخبار عنه ما لا يمكن قبوله ولا الأخذ به ، لأنه لا يدخل في حدود التأريخ ، ولغلبة الطابع القصصي عليه . ثم إن بعضه يناقض بعضاً ، وفي بعضه تحيز وتعصب لبيت قرشي على بيت آخر . وحتى القسم الذي يتناول الأيام القريبة من الإسلام ، لا يخلو من اضطراب ومن تناقض ، وفيه شعر نحل على أناس ، أقحمت أسماؤهم في قصص مكة ، لتشبيته على طريقتهم في تثبيت الأخبار برواية شعر يتعلق بها .

ولم يعثر حتى الآن على كتابة جاهلية تكشف القناع عن تأريخ (البيت الحرام). ولذلك انحصر علمنا بتأريخه بما ورد في الموارد الاسلامية عنه .

وقد نص في القرآن الكريم ، على ان ابراهيم واسماعيل هما اللذان رفعا القواعد من البيت « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ،

---

١ فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله   رجال بنوه من قريش وجرهم
ديوان زهير (١٥) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٦) .

٢ فلا ورب الذي قد زرته حججا   وما هريق على الانصاب من جسد
(فلا لعمر الذي مسحت كعبته) في رواية أخرى، ديوانه (٢٥)، الثعالبي، ثمار (١٧).

٣ البلدان (١/٥٢١) ، (بيروت ١٩٥٥) .

٤ تاج العروس (٥/٥٣٤) ، (ودع) .

٥ المحبر (٣١٩) ، شرح ديوان لبيد (٢١) .

وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال ابراهيم ربّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر . قال : ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثم اضطره الى عـذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبّل منا انك أنت السميع العليم »[1] . وقد كان تأسيس البيت في ايام العرب الأولى ، في ايام جرهم ، على روايات أهل الأخبار ، وفيهـم تزوج . وفي عهده ظهر ماء بئر زمزم[2] .

ويذكر أهل الأخبار ان مكة حرم آمن ، لا يحلّ فيه قتال ، ولم يكن أهله يقاتلون فيه ، وان أول بغي وقع فيه ، كان حرب وقعت بين (بني السباق بن عبد الدار) وبين (بني على بن سعد بن تميم) ، حتى تفانوا . ولحقت طائفة من (بني السباق) بعك ، فهم فيهم . وقيل أول بغي كان في قريش : بغي (الأقايش) ، وهم (بنو أقيش) من بني سهم ، بغى بعضهم على بعض ، فلما كثر بغيهم على الناس ، أرسل الله عليهم فأرة تحمل فتيلة ، فأحرقت الدار التي كانت فيها مساكنهم فلم يبق لهم عقب[3] .

وقد بقي البيت معبوداً مقدساً عند أهل مكة وعند غيرهم ، غير أن المشركين حوّلوه الى بيت لعبادة الأصنام والأوثان والشرك حتى عـام الفتح ، حيث أزال الرسول عنه آثار الجاهلية ، وأمر بطمس معالم الوثنية . وصار حرماً آمنـاً خاصاً بالإسلام لا يدخله مشرك ولا تطأ أرضه أقدام غير مسلم مؤمن بالله وبرسوله .

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة كانوا يعظمون البيت،وأن من سنن تعظيمهم له ، أن من علا الكعبة من العبيد ، فهو حرّ لا يرون الملك من عـلاها ، ولا يجمعون بين عزّ علوّها وذل الرق[4] .

---

١ البقرة ، السورة رقم ٢ ، الآيه ١٢٦ وما بعدها .

٢ الطبري (١/٢٧٥) ، قصص الانبياء ، (٦٩) ، Shorter Ency. of Islam, p. 178. ff., Grünbaum, Neue Beiträge zu Sem. Sogenkunde, S. 102, Goldziher, Die Richtungen der Islamischen Koranauslegung, S. 79, J. Harovitz, Koranische untersuchungen, S. 91.

٣ الروض الأنف (١/٢٨) .

٤ الثعالبي ، ثمار (١٨) .

وانهم لم يكونوا يبنون بنياناً مربعاً بمكة تعظيماً للكعبة [1] . وأن أول من بنى بها بيتاً مربعاً ، (بديل بن ورقاء) الخزاعي ، وهو أول من اتخذ بمكة روشناً ، وكانوا قبل ذلك يتحامون التربيع في البناء كيلا يشبه بناء الكعبة [2] وأن أول من سقف بمكة سقفاً (قصي بن كلاب) ، وكان الناس قبل ذلك إنما ينزلون في العريش . وأن أول من بوب بمكة باباً (حاطب بن بلتعة) [3] .

و (بديل بن ورقاء) ، هو (بديل بن ورقاء بن عبد العزى) ، شريف كتب اليه النبي يدعوه الى الاسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكة [4] . فلو أخذنا برواية من قال انه كان أول من بنى بيتاً مربعاً بمكة ، وأول من اتخذ بها روشناً ، وجب جعل حدوث ذلك في ايام النبي ، أو بسنين قليلة قبل المبعث ، فهل يعقل ذلك ؟ والروشن الرف ، و (الرشن) الكوة ، من الألفاظ المعربة عن الفارسية [5] .

وأما (حاطب بن أبي بلتعة) فهو (حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي) ، حليف بني أسد بن عبد العزى ، من الصحابة وممن شهد بدراً ، كان حليفاً للزبير ، وكان قد كتب كتاباً الى قريش يخبرهم بتجهيز رسول الله اليهم ، فضبط الكتاب قبل وصوله مكة ، واعتذر . فهو من الصحابة [6] ،وذكر ان الرسول أرسله الى (المقوقس) صاحب الاسكندرية [7] . فهل يعقل أن يكون أول من بوّب باباً بمكة ، وقد كانت البيوت قبله بمكة منذ وجدت ، فكيف كان يدخل الناس اليها ، وقد رأينا قصصاً لأهل الأخبار يروونه عن امتناع (الحمس) عن دخول البيوت من أبوابها ، والحمس هم قريش وأهل مكة قبل دخول (حاطب) اليها !

ويذكر أهل الأخبار أن البيت قد تهدم مراراً ، وأن السيول قوضت قواعده عدة مرّات ، لذلك لم يتمكن (بيت ابراهيم واسماعيل) من البقاء ، ولكن

---

1 الثعالبي ، ثمار القلوب (١٦) .
2 صبح الاعشى (١/٤٢٦) .
3 صبح الاعشى (١/٤٢٦) .
4 الاشتقاق (٢٨٠) .
5 تاج العروس (٩/٢١٦) ، (رشن) .
6 الاصابة (١/٣٠٠) ، (١٥٣٨) ، المحبر (٧٢) .
7 المحبر (٧٦) .

الجاهليين حرصوا على المحافظة على أسسه وشكله وموضعه . وإنهم كانوا بعد كل هدم أو تصدع يصيبه يحاولون إرجاعه الى ما كان عليه في أيام آبائهم وأجدادهم جهد امكانهم ، لا يحدثون فيه تغييراً ولا يدخلون على صورة بنائه تبديلاً .

و (البيت الحرام) بناء مكعب ، ولذلك قيل له (الكعبة) . وصفه أهل الأخبار،فقالوا كانت الكعبة قبل الاسلام بخمسة أعوام صماً ، أي حجارة وضعت بعضها على بعض من غير ملاط ، فوق القامة ، وقيل كانت تسع أذرع من عهد اسماعيل ، ولم يكن لها سقف ، وكان لها باب ملتصقة بالأرض . وكان أول من عمل لها غلقاً هو تبع[1]. ثم صنع (عبد المطلب) ، لها باباً من حديد ، حلاها بالذهب من ذهب الغزالين . وهو أول ذهب حليت به الكعبة[2] .

ووصف أهل الأخبار لها على النحو المذكور ، يجعلنا نتصورها وكأنها خربة بدائية بسيطة ، هي ساحة تكاد تكون مربعة أحيطت بجدار من أحجار رضمت بعضها فوق بعض من غير مادة بناء تمسك بينها ، تحط في فنائها الطيور وسباع السماء ، ولا يحول بين أرضها وبين أشعة الشمس المحرقة والأمطار التي تنزل على مكة أحياناً على شكل مياه خارجة من أفواه قرب ، أي حائل . إنها في الواقع حائط من أحجار لا يزيد ارتفاعه على قامة إنسان .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن أول من بنى جدار الكعبة ، (عامر) الجادر من الأزد . فقيل له : (الجادر)[3] . وكان أول من جدر الكعبة بعد اسماعيل[4] .

وأول تسقيف لها كان — كما يذكر أهل الأخبار — في التعمير الذي أجري عليها في النصف الأول من القرن السابع للميلاد ، وذلك قبل الاسلام بخمس سنين ، وعمر الرسول يومئذ خمس وثلاثون سنة . وسبب ذلك حريق أصابها — كما يزعمون — فقرروا إعادة بنائها ، واجتمعوا وعملوا رأيهم فكان قرارهم تسقيفها بخشب ، وقد أقيم السقف على ستة أعمدة من الخشب،وزعت في صفين . وزادا فيها تسع أذرع ، فصارت ثماني عشرة ذراعاً ، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يصعد اليها إلا في درج أو سلّم . ورفعوا من جدرانها التي بنوها بساف

---

١ الروض الانف (١/١٢٧) ، الطبري (٢/٢٨٣ وما بعدها) .
٢ الروض الانف (١/١٠١) .
٣ إبن سعد ، طبقات (١/٦٤) ، (صادر) .
٤ الاشتقاق (٢٥) .

من حجر وساف من خشب ، حتى زادت علـى ما كانت عليه في الأصل[1] . وورد في الأخبار ان رسول الله لما دخل الكعبة عام الفتح ، قام عند سارية فدعا، وفيها ست سوار[2] .

وذكر أهل الأخبار ، ان سبب بنيان الكعبة ، هو انهـا كانت رضمة فوق القامة ، وانها كانت قد تصدعت حتى تداعت جدرانهـا وتساقطت أحجارها ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك ان نفراً من قريش وغيرهم سرقوا كنز الكعبة ، وانما كان يكون في بئر في جوف الكعبة ، فأجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها[3] .

ولم يكن هذا البناء الجديد بناءً فخماً ، كما يظهر من الوصف الوارد في كتب أهل الأخبار . كل ما فيه أنه غرفة سقفت الآن بخشب ، أقيم سقفها على صفين من أعمدة ، كل صف ذي ثلاثة أعمدة . وأما حيطانها ، فقد زيد ارتفاعها فصار ثماني عشرة ذراعاً ، بعد أن كانت تسعة أذرع ، أو ارتفاع قامة أو أعلى من ذلك بقليل . وقد بنيت هذه المرة من مادة بناء قوية ، جعلت مدماكاً من حجارة ومدماكاً من خشب ، فكان الخشب خمسة عشر مدماكاً ، والحجـارة ستة عشر مدماكاً . وجعلوا سقفها مسطحاً له ميزاب ، يسيل منه ماء المطر . وهو عـلى الجملة لا يقاس بشيء بمعابد العربية الجنوبية مثل معبد (المقه) بمدينة مأرب أو المعابد الأخرى التي تمكن الباحثون من الوقوف على أسسها ومعالمهـا ، من حيث مساحة البناء أو الفن أو الروعة والعظمة .

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة استعانوا بتسقيف البيت بخشب سفينة رجل من تجار الروم رمى البحر بسفينته الى الساحل الى (الشعيبة) ، وهو مرفأ السفن من ساحل الحجاز ، وكان مرفأ مكة ، ومرسى سفنها قبل (جـدة) . فجاؤوا بالخشب الى مكة ، وكان بها نجار (قبطي) ، استعين به في تسقيف البيت بذلك الخشب . وذكر أن الذي سقف البيت علج كان في السفينة ، يحسن النجارة اسمه

---

١ الروض الانف (١/١٢٧ وما بعدها) ، الطبري (٢/٢٨٣ وما بعدها) ، « دار المعارف » ، البلدان (٧/٢٥٩) ، (الكعبة) ، مروج الذهب (١/١٦٩) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٢ صحيح مسلم (٤/٩٧) ، (باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره والصلاة فيها والدعاء في نواحيها كلها) .

٣ الطبري (٢/٢٨٣) .

(باقوم) . فجيء به مع الخشب،وسقف الكعبة . وقد سألهم عن كيفية تسقيفها هل يجعل السقف قبة أو مسطحاً ، فأمروة أن يكون مسطحاً ، فعمله على ما أمروه به[1] . ويذكرون أن قريشاً حين أرادوا بناء الكعبة أتى (عبدالله بن هبل ابن أبي سالم) ، ومعه مال ، فقال : دعوني أشركم في بنائها ، فأذنوا له فبنى الجانب الأيمن ، فـ (لبني كلب يد بيضاء في نصرتهم لقريش حين بنوا الكعبة)[2] . وصاحب هذا الخبر هو (ابن الكلبي) ، ولا استبعد أن يكون خبره هذا من وحي العاطفة نحو قومه الكلبيين .

وذكر أن (باقوم) الرومي ، كان يتجر الى (المندب) ، فانكسرت سفينته بالشعيبة ، فخرجت اليه قريش فأخذوا خشبها . وقالوا له ابنها على بنيان الكنائس، وقال لقريش : هل لكم أن تجروا عيري في عيركم ، يعني التجارة ، وأن أمدكم بما شئتم من خشب ونجار ، فتبنوا به بيت ابراهيم[3] .

ويذكر الأخباريون انه كان في بطن البيت قرنا كبش معلقان في الجدار تلقاء من دخلها يخلّقان ويطيّبان اذا طيب البيت ، وقد علق عليها معاليق من حليّ كانت تهدى الى الكعبة . ويرمز القرنان الى قرني الكبش الذي ذبحه ابراهيم الخليل[4] . وقد بقيا في الكعبة الى ايام (عبدالله بن الزبير) فاحترقا مع الكعبة[5] .

وقد زوقت الكعبة بعد هذا الحريق،زوق سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلت « في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمان ، شيخ يستقسم بالأزلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين . فلما كان يوم فتح مكة ، دخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، البيت ، فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب ، فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب فبلّ بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست .. ووضع كفّيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام ، وقال:

---

١ الازرقي (١/١٠٤) ، ابن هشام (١/١٣٠ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (١/١٣٠) .

٢ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) .

٣ الاصابة (١/١٤٠ وما بعدها) ، (رقم ٥٨٣) .

٤ الازرقي (١/١٠٠) .

٥ القاسمي ، شفاء الغرام (١٩) .

أمح جميع الصور ، إلا ما تحت يدي ، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه . ونظر الى صورة ابراهيم ، فقال : قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام، ما لابراهيم والأزلام »[1]. وقد بقيت صورة عيسى بن مريم وأمه ، الى ايام عبدالله بن الزبير، فلما تهدّم البيت ، تهدمت الصورة معه[2] .

وأعاد الجاهليون – كما يذكر أهل الأخبار – الصنم هبل الى مكانه ، نصبوه أمام (الغبغب) ، وأعادوا معه بقية الأصنام ، التي كانت تتعبد لها بعض القبائل . ووضعوا حول الكعبة أصناماً أخرى ، يجب أن تكون من الدرجة الثانية في المنزلة أي أصنام قبائل ضعيفة ، لذلك وضعت خارج البقعة المقدسة . وقد أوصلت الروايات عدة أصنام الكعبة عام الفتح الى (٣٦٠) صنماً ، كان بعضها منحوتاً من الحجارة ، وبعضها معمولاً من النحاس ، وبعضها قوارير ، وكان صنم خزاعة قوارير صفر . ولما دخل الرسول مكة ، أمر بها فأزيلت وحطمت ، فلم يبق من يومئذ بها صنم[3] . وذكر ان النبي دخل مكة « وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً . فجعل يطعنها بعود كان بيده . ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً »[4] .

وذكر في بعض الروايات أن رسول الله بعد أن طاف بالبيت سبعاً على راحلته دخل الكعبة فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها[5] . وأنه لما طاف بالبيت وجد حولها أصناماً مشدودة بالرصاص ، فحطمت ، وأعظمها (هبل) صنم قريش[6] .

ويتبين من الروايات الواردة عن بناء الكعبة وعن اختلاف أهل مكة وتشاحنهم وتنافسهم فيما بينهم على شرف وضع (الحجر الأسود) في مكانه أنه كان لهذا الحجر أهمية خاصة في نظرهم ، وأنه كان أقدس شيء عندهم . وإلا لما اختلفوا

---

١ الازرقي (١/١٠٤ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (٣/٨٧) ، ابن الاثير (٢/١٠٥)، نهاية الارب (١٧/٣١٣) .
٢ الازرقي (١/١٠٤) .
٣ السيرة الحلبية (١/١٤٤) ، ابن الاثير (٢/١٠٥) .
٤ صحيح مسلم (٥/١٧٣) ، « باب ازالة الاصنام من حول الكعبة » ، ارشاد الساري (٧/٢١٠) ، « باب وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »
٥ الروض الانف (٢/٢٧٤) ، نهاية الارب (١٧/٣١٢) .
٦ الروض الانف (٢/٢٧٦) ، نهاية الارب (١٧/٣١٤) .

هذا الاختلاف على وضعه ، حتى ليمكن أن يقال إنه كان فوق أصنام الكعبة منزلة ، بدليل عدم ورود إشارة ما الى وقوع اختلاف بشأن إعادة صنم من تلك الأصنام الى مواضعها . ولو كانت الأصنام أقدس منه ، لكان الاختلاف على شرف وضع تلك الأصنام لا الحجر الأسود بالطبع . وهذا التقديس الزائد يحملنا على التفكير في أسبابه وفي الميزة التي ميزت هذا الحجر على الأصنام وهي في طبيعتها حجارة مثله . لقد ذهب (ولهوزن) إلى أن قدسية البيت عند أهل الجاهلية ، لم تكن بسبب الأصنام التي فيه ، بل كانت بسبب هذا الحجر . لقد كان هذا الحجر مقدساً في ذاته ، وهو الذي جلب القدسية للبيت ، فصار البيت نفسه مقدساً ، مقدساً في حد ذاته ، بحجره هذا الذي هو فيه ، ولعله شهاب (نيزك) ، أو جزء من معبود مقدس قديم[1] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود الذي كان من أهم معبودات قريش ، لأنه يمثل بقايا حجر قديم كان مقدساً عند قدماء الجاهليين ، غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد[2] .

ويلاحظ ان التقرب الى الأحجار في بيوت العبادة كانت شائعة بين الجاهليين . وقد ذكر ان في (غيمان) موضع عبادة وفيه (حجر قحمم) (حجر قاحم) (حجر قاحم) ، وهو يشبه الحجر الأسود الذي كان يتقرب اليه الجاهليون في مكة . والحجر الذي كان في كعبة نجران وفي (تسلال) ، وفي مواضع أخرى عديدة ذكرها (الهمداني) . وقد عثر على مقابر جاهلية عديدة تبين للذين نقبوا فيها ان لها صلة بعبادة الأحجار ، وان تلك المقابر أقيمت عند موضع مقدس لوجود حجر مقدس فيه[3] .

وقد كان الجاهليون يلمسون الحجر الأسود للتبرك به ، وهو مبني في جدار الكعبة ، فيكون اللمس بالطبع للجانب البارز منه . وبين موضع (الحجر الأسود) وباب البيت يكون (الملتزم) ، وفي الناحية الشمالية الغربية (الحجر) أو (الحطيم) .

---

١ Reste, S. 74.

٢ المشرق : (١٩٤١) ، تموز ـ أيلول ، (ص ٢٤٧) .

٣ Beiträge, S. 84.

وكانت الجاهلية تتحالف وتحلف عنده[1] . ويقال للجهة التي فيها (الحجر الأسود) (الركن) . وذكر ان العرب في الجاهلية كانت تطرح بموضع الحطيم ما طافت به من الثياب ، فيبقى حتى يتحطم بطول الزمان ، فسمي الموضع حطيماً[2] .

وقد كانت الجاهلية تتحالف عند (الملتزَم) بالأيمان ، وتدعو على الظالم ، وتعقد الحلف[3] .

وذكر (اليعقوبي) ان الجاهليين كانوا قد وضعوا (إسافاً) و(نائلة)، داخل المسجد الحرام . وضعوا كل واحد منهما على ركـن من أركان البيت ، فكان الطائف اذا طاف بدأ،بإساف فقبله وختم بـه . وذكر انهم نصبوا عـلى الصفا صنماً ، يقال له (مجاور الريح) ، وعلى المروة صنماً يقال له (مطعم الطير)[4] .

وفي روايات أهـل الأخبار عن تزويق الكعبة بالصور لبس وغموض . وهي روايات عديدة ، يفهم من بعضها أن هذه الصور كانت بالزيت ، رسمت عـلى دعائم السقف . ويفهم مـن بعض آخر أنها كانت قد رسمت على أشياء متنقلة ، وأنها كانت معلقة على جدران البيت . ويفهم من بعض الروايات أن الرسول أمر فطمست معـالم جميع الصور ، ويفهم من بعض آخر ، أنه استثنى منها صورة مريم وابنهـا عيسى ، وأنها بقيت كما ذكرت الى أيام عبدالله بن الزبير . فلما تهدم البيت : تهدمت الصورة معه . أما رسم شجر أو صور ملائكة أو أشبـاه ذلك في الكعبة ، فأمر لا اعتراض عليه ، إذ يجوز أن يكون ذلك في معبد وثني ، يضم الأصنام . ولكن ما للوثنية والانبياء ، وما شأن الشرك بمريم وبابنها وببقيـة الرسل حتى ترسم صورهم على جدران أو أعمدة البيت ؟ ثم هل كانت الكعبـة مزوّقة قبل هـذا التزويق بالرسوم والصور ؟ وهل كانت هذه الصور من بقايا صور قديمـة ؟ أم هي صور حديثة رسمت بعد أن أعادت قريش بناء البيت ؟ ورأيي ان هذه الصور هي من عمل عمّال نصارى أراهم الروم الذين جلبهم أهل مكة مع (باقوم) بعد تحطم سفينتهم عند الساحل للاتجار معهم ولبناء الكعبة .

---

١ تاج العروس (١٢٥/٣) ، (٢٥١/٨) ، اللسان (١٦٦/٤) ، (٢٩/١٥) ، البلدان (٢٢٣/٢ وما بعدها) ، (١٩٠/٥) ، أخبار مكة ، للازرقي (٢٤٦) ، تاج العروس (٥٩/٩) ،

٢ اللسان (١٣٩/١٢) ، (حطم) ، تاج العروس (٢٥١/٨) .

٣ البلدان (١٤٦/٨) « الملتزم » .

٤ اليعقوبي (٢٢٤/١) .

و (باقوم) كما يقول الاخباريون هو الذي أشرف على إقامة البنـــاء وهندسته . وهو الذي سقف البيت وأقامه على عمد . ولا أستبعد ان يكون هـــو الذي رسم تلك الصور وحده أو بالاستعانة بإخوانه من بني جنسه الروم . وقـد كان هؤلاء نصارى ، فرسموا على جدران البيت أو أعمدته صور قصص كتابي ، ومنه صور الانبياء ، للزينة والزخرف . لم يجد أهل مكة فيها ما يناقض عقيدتهم في الاصنام. ومن يدري ، فلعله رسم لهم ذلك على أن له صلة بعقيدتهم التي كانوا عليها ، فلم يعترضوا لذلك عليه. أما طمس الاسلام لتلك الصور ، فللعلماء في ذلك كلام. وقد أشير اليه في كتب الحديث ، وأكثرهم على أن الرسول لم يستثن مـــن ذلك الطمس صورة[1] .

وفي الحرم بئر (زمزم) ، وهناك مقام ابراهيم ، وبين زمزم ومقام ابراهيم كان موضع الذبح ، ذبح القرابين . ويرى (ولهوزن) احتمال كون موضع المقام هو المكان الذي كان الجاهليون يذبحون فيه[2] .

ويرجع الأخباريون تأريخ بئر (زمزم) الى يوم بناء الكعبة وعهد اسماعيـــل . ويقال لها (بئر اسماعيل) أيضاً . وهي في الحرم في جهـــة الجنوب الشرقي من الكعبة في الجهة المقابلة للركن . ولا نعرف من أمرها شيئاً يذكر . ويظهـر من روايات أهل الأخبار عنها انها دفنت في ايام جرهم ، وان أهـــل مكة صاروا يستقون الماء من آبار أخرى احتفروها ، ويستوردونه من الخارج اليها ، حتى اذا كانت ايام عبد المطلب ، ألقي في قلبه ان يحتفرها ، فحفرها واستخـــرج منها كنزاً ، وظهر الماء بها منذ ذلك اليوم[3] . ولأهـل الأخبار تفاسير عديدة للفظـــة (زمزم) ، تدل على انهم لم يكونوا على علم بأصل التسمية ، مما جاء فيها ان الملك (سابور) لما حج البيت أشرف عليها وزمزم فيها ، فقيل لها (زمزم)[4] . وهكذا جعلوا (سابور) من المؤمنين الحجاج للبيت الحرام ، المتبركين بماء زمزم!

---

١ الازرقي (١/١٠٤) « تعليقات السيد رشدي الصالح ملحس على الازرقي » .

٢ Reste, S. 76.

٣ الطبري (٢/٢٥١) « دار المعارف » ، الروض الانف (١/٨٠ ، ٩٨ وما بعدها) ، الازرقي (١/٢٤ ، ٢٨٠ وما بعدها) ، البلدان (٢/٦٤٣) ، Shorter Ency. of Islam, p. 657.

٤ البلدان (٣/١٤٧) ، الصحاح (٥/١٩٤٥) ، اللسان (١٢/٢٧٥) ، البكري ، معجم (٢/٧٠٠) ، عمدة القاريء (٩/٢٧٧) ، البلدان (٢/٩٤٠ وما بعدها) .

وكان حرم (الكعبة) كما يظهر من روايات أهل الاخبار واسعاً شاسعاً ذا نبت وشجر . ولم يجرؤ أحد على احتطاب شجره او قطعه لحرمة المكان ولحرمة ما فيه ، فبقيت أشجاره على ما هي عليه ، حتى إذا ما كانت أيام (قصي) ، ضاقت مكة بمن وفد عليها من قريش ، ممن جاء بهم (قصي) اليها ، وقطعها (قصي) رباعاً ، وأرادوا البنيان ، ولكنهم هابوا قطع شجر الحرم للبنيان ، وتذكر رواية أنهم قالوا لقصي : كيف نصنع من شجر الحرم ؟ فحذرهم قطعها وخوفهم العقوبة في ذلك . فكان أحدهم يحوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله[1] . وتذكر روايات أخرى العكس . تذكر أن قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم ، فقطعها قصي بيده ، وأعانوه[2] . وبذلك تقلصت أرض الحرم وقلت أشجاره بالتدريج .

وتذكر رواية ان اهل مكة كانوا يهابون حتى في الإسلام قطع شجر الحرم . وقطع كل شجرة دخلت من أرض الحرم في دور أهل مكة . وان (عمر) لما قطع (دوحة) كانت في دار (اسد بن عبد العزى) ، وكانت تنال أطرافها ثياب الطائفين بالكعبة ، وذلك قبل ان يوسع المسجد ، ودّاها بقرة . وتذكر ايضاً ان (عبدالله بن الزبير) حين ابتنى دوراً بـ (قعيقعان) ترخص في قطع شجر الحرم للبنيان ، وجعل دية كل شجرة بقرة . وذكر ان (أبا حنيفة) ، قال إن كانت الشجرة التي في الحرم مما يغرسها الناس ويستنبتونها فلا فدية على من قطع شيئاً منها ، وإن كان من غيرها ففيه القيمة بالغاً ما بلغت[3] .

وفي الحديث ان الله حرم مكه ، وحرم شجر الحرم في جملة ما حرمه على الناس[4] .

ويظهر ان أرض مكة كانت كلها في الأصل قبل ايام (قصي) حمى للكعبة ، على عادة الجاهليين في تخصيص (حمى) لأربابهم تكون حول بيوتها ، ولهذا كانت أشجار هذا الحمى أشجاراً مقدسة لا يجوز قطعها ولا احتطابها ، سوى أخذ بعض أغصانها أو لحائها لعمل قلائد منها للاحتماء منها . فلما استباح أهل مكة لأنفسهم

---

١ الروض الانف (١/٨٧ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/٢٥٨) « دار المعارف » .
٣ الروض الانف (١/٨٧ وما بعدها) .
٤ الروض الانف (١/١٢٨) .

التطاول على الحرم ، أي على هذا الحمى ، بقطع شجره وتحويل أرضه الى بناء، أو بابقاء بعض أشجاره في داخل الدور ، بقوا ينظرون الى ذلك الشجر الباقي في البيوت نظرة هيبة وتقدير ، باعتبار انه من بقايا الحرم القديم . وبذلك صغرت مساحة الحرم ، وقلّت مساحته ، حتى اضطر الخليفة (عمر) الى توسيعه بشراء البيوت التي أقامها الناس عليه وادخالها في الحرم من جديد ، وذلك حين ضيّق الناس على الكعبة وألصقوا دورهم بها ، فقال : « إن الكعبة بيت الله ، ولا بد للبيت من فناء ، وانكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم » ، فاشترى بعض الدور من أهلها وهدمها وبنى المسجد المحيط بها ، ثم اشترى عثمان دوراً أخرى وأغلى في ثمنها [1] ثم زاد في المسجد من جاء بعدهما حتى وصل الى النحو الذي هو عليه الآن .

ولم يكن للحرم في الجاهلية سور ، إنما كانت تحدد معالمه وحدوده أنصاب نصبت على أطرافه . لتكون علامة على ابتدائه وانتهائه . أما ما نراه في الوقت الحاضر من وجود سور مرتفع له ، أي حائط به غرف ، فإنه مما حدث في الاسلام . وذكر أهل الاخبار ان الحرم قد ضرب على حدوده بالمنار القديمة التي بيّن ابراهيم مشاعرها ، وكانت قريش تعرفها في الجاهلية والإسلام ، لأنهم كانوا سكان الحرم، ويعلمون ان ما دون المنار الى مكة من الحرم ، وما وراءها ليس من الحرم . فما كان دون المنار،فهو حرم لا يحل صيده ولا يقطع شجره ، وما كان وراء المنار ، فهو من الحل يحل صيده ، إذا لم يكن صائده محرماً [2] .

الكسوة :

وكسوة البيت عادة قديمة ، كان يقوم بها الجاهليون . ينسبها الأخباريون الى (تبع أسعد الحميري) ، فيذكرون انه كساها بالأنطاع ، ثم كساها بثياب جدة من عصب اليمن ، أغلى ثياب معروفة في تلك الأوقات [3] . ولا يستبعد ان يكون الإكساء من بقايا المنشأ القديم للبيت ، حيث كان خيمة في الأصل . وقد

---

١ الروض الانف (١/١٢٩ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٨/٢٣٩) ، (حرم) ، اللسان (١٢/١٢٢) ، (حرم) .
٣ الأزرقي (١/١٦٥) ، الروض الانف (١/٢٤) .

ورد في الأخبار أنه كان في موضع البيت خيمة قبل أن تكون الكعبة[1] . وكذلك كان معبد بني اسرائيل خيمة في الأصل قبل أن يبنى الهيكل .

ويذكرون أن التبع الذي كسا البيت ، هو التبع الذي أتى به (مالك بن عجلان) الى يثرب لطرد اليهود عنها . وذكروا أن ذلك التبع هو (أسعد ابو كرب الحميري)[2] . وقد كساها الوصايل ، ثياب حبرة من عصب اليمن . وكانت الكعبة تكسى بالحبرة والبرود وغيرها من عصب اليمن ، تكسى بها ويوضع ما يفضل منها في خزانة الكعبة . فإذا تمزقت الكسوة ، تستبدل بكسوة أخرى تؤخذ من الخزانه . تكسى من الداخل والخارج ، وتطيب بالخلوق وتبخر بالمجامر[3] .

وقد سبق لي أن تحدثت عن (التبع أسعد) ، وذكرت ما قاله رواة الأخبار عنه ، وما جاء عنه في نصوص المسند . وكان قد علق في ذاكرة أهل الأخبار أشياء عنه وعن بعض من جاء بعده ، زوقت ونمقت على طريقتهم في رواية أكثر أخبار اليمن . ولعل ما ذكروه عن اكسائه البيت ، هو من مصنوعاتهم التي وضعوها في الاسلام ليجعلوا لأهل اليمن فضلاً على الكعبة ، فضل يسبق فضل العدنانيين عليها ، وقد رأينا أنهم أوجدوا لهم جملة أنبياء نسبوهم الى قحطان ، ووضعوا أشياء أخرى كثيرة ، في اظهار فضل القحطانيين على الاسماعيليين المتعربين يوم فات الحكم من قحطان وصار في أهل مكة في الإسلام . فكان النزاع القحطاني العدناني المعروف .

ولو جارينا أهل الأخبار ، وأخذنا برواياتهم في ان التبع (أسعد أبو كرب الحميري) ، كان أول من كسا الكعبة ، نكون قد رجعنا بمبدأ تأريخ اكساء الكعبة الى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد . وقد سبق ان تحدثت عن هذا الملك في الجزء الثاني من هذا الكتاب[4] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان كسوة الكعبة لم تكن كسوة واحدة ، ولا من نسيج واحد ، بل كانت انطاعاً ، أي أبسطة من أدم ، وحبرة وبروداً ، وغيرها من عصب اليمن . وهي برود يمنية يعصب غزلها ثم يصبغ وينسج ، فيأتي

---

١ الازرقي (١/٦) « ذكر هبوط آدم الى الارض » .
٢ البلدان (٤/٤٦٣) .
٣ أخبار مكة ، للازرقي (١/١٧٣ وما بعدها) .
٤ (ص ٥٦٩ فما بعدها) .

موشى ، وقيل هي برود مخططة[١] . وذكر ان النبي كساها الثياب اليمانية ، وان عمر وعثمان كسواها بالقباطي[٢] .

وذكر ان أول من كسا البيت الحرير (نتيلة بنت جناب بن كليب) وهي من (بني عامر) المعروف بالضحيان ، وكان من ملوك ربيعة . وكان العباس ابن عبد المطلب ابنها ، قد ضاع وهو صغير ، فنذرت امه إن وجدته ان تكسو البيت الحرير ، فكسته ، فهي أول من كساه ذلك[٣] . وقيل أول من كسا البيت الديباج خالد بن جعفر بن كلاب . أخذ لطيمة من البر وأخذ فيها أنماطاً فعلقها على الكعبة[٤] .

وروي انهم كانوا يكسون الكعبة يوم (عاشوراء) ، وذكر ان (بني هاشم) كانوا يكسونها يوم التروية بالديباج ، لتظهر في أحسن حال ، ويراها الناس على ذلك . أما اذا حلّ يوم عاشوراء ، فانهم يعلقون الازار عليها . وورد انهم كانوا يكسون الكعبة بالديباج يوم التروية ، فيعلق عليها القميص ولا يخاط ، حتى اذا ما انصرف الناس من (منى) خيط وترك الازار ، ثم تكسى بالقباطي يوم عاشوراء ، ويعلق عليها الازار ، ويوصل بالديباج[٥] .

ولا نستبعد احتمال كون يوم (عاشوراء) من الأيام التي كانت لها حرمة وقدسية عند أهل الجاهلية ، وإن كنا نجهل كل شيء عنه وعن سبب احتفال أهل مكة به ، وصومهم فيه . وقد ذهب بعض المستشرقين الى احتمال تأثر قريش بعاشوراء اليهود ، كأن يكون أحد سادة مكة قد أخذ ذلك اليوم عنهم فعظمه ، فأخذه أهل مكة عنه وجعلوه سنّة لهم . غير ان من الجائز ألا يكون لهذا اليوم صلة بعاشوراء اليهود ، وانما كان من تقاليد أهل مكة القديمة المعروفة عند غيرهم أيضاً ، ولا صلة له بيوم يهود[٦] .

ويظهر انهم كانوا يضعون الأكسية الجديدة فوق الأكسية القديمة ، فلا يرفعونها

---

١ اللسان (١/٦٠٤) ، (عصب) .
٢ الازرقي ، أخبار مكة (١/١٧٣ وما بعدها) .
٣ الاصابة (٢/٢٦٣) ، (رقم ٤٥٠٧) ، كتاب نسب قريش (١٨) ، الروض الانف (١/٧٧) .
٤ الروض الانف (١/٧٧) .
٥ الازرقي ، أخبار مكة (١/١٧٣ وما بعدها) .
٦ Shorter Ency., p. 47.

عنها ، فكانت تتراكم بعضها فوق بعض ، فلما جاء الاسلام ، استمروا على ذلك أمداً ، ثم رأى (شيبة بن عثمان) سادن البيت ، تجريدها من أكسية الجاهلية ، لأنها رجس من عمل الجاهليين فأزيلت . ثم رأى الخليفة المهـدي ، أن الأكسية قد أثقلت الكعبـة ، فأمر بتجريدها ، تخفيفاً عنها ، واكتفى بثلاث كسيّ من القباطي والخز والديباج[1] .

وذكر أهل الأخبار أن اول من حلّى البيت (عبد المطلب) ، جدّ النبي ، لما حفر (بئر زمزم)،وأصاب فيه من دفن جرهم غزالين من ذهب ، فضربهما في باب الكعبة[2] .

المال الحلال :

وقد تجنب أهل الجاهلية بناء معابدهم بمال حرام ، فلما أرادت قريش بنيـان الكعبة نادى مناديهم : لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً . لا تدخلوا فيـه مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحـد من الناس[3] . هذا ما يذكره أهل الأخبار ويروونه عن بناء البيت الحرام .

بقية محجات العرب :

ومن محجّات العرب وبيوتها المعظمة : بيت عرف بـ (بس) لغطفـان ، كانت تعبده . بناه (ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف) ، لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع البيت ، وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع الى قومه ، فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين ، فقال : هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به عن الحـج ، فأغار (زهير بن جناب الكلبي) ، فقتل ظالماً وهدم بناءه . وورد في رواية أخرى ان (العزى) سمرة عبدتها غطفان . أول من اتخذها (ظالم بن أسعد) ، فوق ذات

---

١ الازرقي ، اخبار مكة (١/١٧٣ وما بعدها) ، الاصابة (٢/١٥٧) ، (شيبة بن عثمـان) .

٢ البلدان (٤/٤٦٣ وما بعدها) .

٣ الروض الانف (١/١٣٠ وما بعدها) .

عرق الى البستان بتسعة أميال ، بنى عليها بيتاً وسمّاه بسّاً ، وأقام لها سدنة ، فبعث اليها رسول الله (خالدَ بن الوليد) ، فهدم البيت وأحرق السمرة[1] .

وفي أخبار أهل الأخبار عن بيت (العزى) ، أوهام وتناقض . فتراهم يجعلون (العزى) صنماً مرة ويجعلونها (سمرة) أو (شجرة) أو ثلاث سمرات مرة أخرى ، ثم تراهم يخلطون بين البيت وبين الحرم الذي كان حوله ، كما بينت ذلك في اثناء حديثي عن (العزى)[2] . والذي أراه ، انه كان للعزى بيت هو (بس) ، فيه صنم العزى ، وكان حوله حرم ، كحرم مكة ، به (سمرة) أو ثلاث سمرات ، كان الناس يقدسونها أيضاً ويتقربون اليها بالنذور . وهي جزء متمم لبيت العزى . فلما أمر الرسول خالد بن الوليد ، بهدم العزى ، هدم البيت وحطّم الصنم ، فرجع ، فلما سأله الرسول عنه ، واستفسر منه عن السمرة أو السمرات الثلاث ، وعلم منه انه لم يقطعها ، أمره بالعودة اليها وقطعها اجتثاثاً لكل علامة من علائم عبادة هذا الصنم . فقطعها . فقطع عن عبّادها كل صلة لهم كانت تربطهم بذلك الصنم .

ومن محجّات الجاهليين ، بيت الصنم (ذو الخلصة) ، ذكر أنه كان بتبالة ، وكان يسمى بـ (الكعبة اليمانية) ، تمييزاً له عن الكعبة التي عرفت بـ (الكعبة الشامية) . وذكر أنه نفسه عرف بـ (الكعبة الشامية) ، كما دعي بـ (كعبة اليمامة) ، وقد تحدثت عنه في أثناء كلامي على هذا الصنم . ولما هدم البيت والصنم بأمر الرسول ،صار مكانه موضع عتبة باب مسجد تبالة . وذكر أن البيت هو (ذو الخلصة)،والصنم (الخلصة) ، وقيل (ذو الخلصة : الصنم نفسه)[3] وقد عرف البيت بـ (الكعبة) كذلك ، لأنه كان بناءً مكعباً . وكان بيتاً في خثعم باليمن ، وكانت بجيلة تعظمه كذلك . به صنم ، هو (ذو الخلصة) ونصب يذبحون عليه[4] . ويظهر أنه كان من البيوت المعظمة الكبيرة ، بدليل ما ذكره العلماء من أن الرسول قال لجرير بن عبدالله البجلي : « ألا تريحني من ذي الخلصة » ؟ فذهب اليه وأحرق البيت وهدم الصنم وكسر النصب . وذكر

---

١ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) ، مراصد الاطلاع (٩٣٧) .
٢ البلدان (١/٤١٢) ، (بساء) .
٣ تاج العروس (٤/٣٨٩) ، (خلص) .
٤ ارشاد الساري (٦/٤٢٤ وما بعدها) .

أن موضع (ذي الخلصة) ، صار مسجداً جامعاً لبلدة يقال لها . العبلات من أرض خثعم[1] .

وقد ذكر (أبو العلاء المعري) أن فدك كانت في الجاهلية ذات أصنام . وكانوا يقصدونها للحج ، وذكر تلبيتهم لها[2] .

وكان بيت (اللات) من البيوت المعظمة عند ثقيف . كانوا اذا عاد أحدهم من سفر ، فأول ما يفعله أن يأتي (الربة) ، وهي اللات ليتبرك بها . وهي الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف . ولما أسلم (عروة بن مسعود الثقفي) ، وعاد الى قومه دخل منزله ، فأنكر قومه عليه دخوله قبل أن يأتي الربة ، يعني اللات. وفي حديث وفد ثقيف : كان لهم بيت يسمونه الربة . يضاهون بيت الله[3] . وكانت ثقيف تضاهي أهل مكة ، وتنافسهم على الزعامة . وكان لبيت اللات أستار وسدنة وحوله فناء معظم ، يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب[4] .

ولأهل اليمن بيوت تعبدوا لها ، وبقيت معظمة عندهم الى الاسلام . من ذلك بيت عرف بـ (بيت رئام) . ذكر (ابن اسحاق) ان أهل اليمن كانوا يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون . وكانوا يعتقدون ان رئاماً كان فيه شيطان ، وكانوا يملأون له حياضاً من دماء القربان ، فيخرج فيصيب منها ، ويكلمهم ، وكانوا يعبدونه[5] . وبيت غمدان ، وقد ذكروا ان الضحاك بناه باليمن على اسم الزهرة[6] ، فجعلوه بيتاً ، أي موضع عمادة ، بينما هو دار حكم وبيت الملوك بصنعاء ، كما سبق ان تحدثت عنه .

وذكر بعض أهل الأخبار ان (ريام) بيت بصنعاء كان لحمير ، وكان به كلب أسود . وان الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهدما البيت[7] .

وكان (ذو الكعبات) لبكر ولتغلب ابني وائل وإياد بسنداد ، وله يقول الأعشى :

---

١ ارشاد الساري (٦/٤٢٣ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٥٣٥) ، (بنت الشاطىء) .
٣ تاج العروس (١/٢٦٢) ، (دبب) .
٤ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣) .
٥ الروض الانف (١/٢٨) .
٦ نهاية الارب (١/٦٢) .
٧ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٤) .

بين الخورنق والسدير وبارق   والبيت ذو الكعبات من سنداد[1]

وذكر انه بيت كان لربيعة ، كانوا يطوفون به ، وقد ذكره الأسود بن يعفر في شعره ، فقال :

والبيت ذي الكعبات من سنداد[2] .

فالبيت للأسود لا للأعشى على هذه الرواية .

وقد تعرض (ابن كثير) لموضوع بيوت الأصنام : اللات والعزى ومناة ، فقال : « وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير ان هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ... قال ابن اسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب وتهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها »[3] . وما فات من أسماء المحجات في العربية الجنوبية والشرقية وفي نجد ، قد يزيد عدده على ما ذكرنا . فات عنا، لأن أهل الأخبار لم يذكروا شيئاً عنها ، لانصراف اهتمامهم الى الحجاز وما كان له صلة بالاسلام، من أرضين ، فحرمنا بذلك من الوقوف على أخبار المحجات في المواضع الأخرى من جزيرة العرب .

ويحجّ الناس الى هذه البيوت في أشهر معينة من السنة ، هي الأشهر الحرم ، وهي أشهر مقدسة لا يحل فيها قتال ولا اعتداء على أحد،فهي أشهر هدنة وسلام، أشهر خصصت بالآلهة ، فلا يجوز انتهاك حرمتها . وفي شهر الحج الذي يحج فيه الناس الى أصنامهم ، يجتمع الناس في المعبد لأداء الفروض المكتوبة المعينة، فيكون الاجتماع اجتماعاً دينياً وسياسياً وتجارياً يتعامل فيه الناس . ويتبادلون به السلع ، ويعود على أهل الموضع الذي فيه المعبد بأرباح كبيرة ولا شك . وقد ذكرت أن هذه الحرمة لم تكن عامة ، فقد كان من العرب من لا يراعيها ولا يحترمها ، ثم إننا لا ندري إذا كان أهل العربية الجنوبية أو العربية الشرقية كانوا يعرفونها أم لا !

---

١ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٤) .
٢ تاج العروس (١/٤٥٧) ، (كعب) ، اللسان (١/٧١٨) ، (كعب) .
٣ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣ وما بعدها) .

وليست كل المعابد محجة للناس ، يقصدونها في الأيام أو في المواسم . فقد كان في الموضع الواحد جملة معابد في بعض الأحيان ، ولا يحج اليها ، بل كانت المعابد التي يحج اليها معدودة معينة . لا بد أن تكون لها ميزة شرفتها على سائر دور العبادة الأخرى . ولهذه الميزة قصدت في المواسم من أماكن بعيدة . واذا استثنينا ما ورد عن مكة ، فإننا لا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن المعابد الكبيرة الأخرى . ثم إن في أكثر ما ذكره أهل الأخبار عن مكة غموض ومجال واسع للنقد ، لأنه منقول عن أفواه رجال يظهر أنهم نقلوا ما قيل لهم دون تحفظ أو تمحيص .

المزارات :

وقد عظم بعض أهل الجاهلية قبور ساداتهم ورؤسائهم واتخذوها أضرحة يزورونها ويتقربون اليها ويتبركون بها ، وقد بلغ من بعضهم ان جعلها حمى وملاذاً من دخل اليها أمن ، ومن لجأ اليها وكان محتاجاً أغيث ، ومن طلب العون واستغاث بصاحب القبر أغيث ، حتى صارت في منزلة المعابد . ومنها أضرحة السدنة والكهان وسادات القبائل ، فقد كان قبر (تميم) جدّ قبيلة (تميم) مزاراً معظماً عند أبناء القبيلة من احتمى به من (بني تميم) ومن غيرهم صار آمناً .

ولم أجد في أخبار اهل الأخبار ما يفيد بوجود أضرحة في مكة ، اتخذت مزاراً وموضعاً يتبرك به . يعظمونه ويتقربون اليه بالنذور والذبائح . لقد كان قبر قصي معروفاً عند أهل مكة ، ولكنهم لم يتخذوه مزاراً ومصلى على ما يتبين من روايات الأخباريين .

الفصل الخامس والسبعون

الحنفاء

وقد أشار القرآن الكريم الى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ، ولم تكن من اليهود ولا النصارى ، وانما اعتقدت بوجود إلـه واحد عبدته[1]. وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء ، غير ان ما ذكروه عنهم غامض لا يشرح عقائدهم ، ولا يوضح رأيهم في الدين ، فلم يذكروا عقيدتهم في التوحيد ، ولا كيفية تصورهم لخالق الكون .

وقد عرف هؤلاء بالحنفاء وبالأحناف ، ونعتوا بأنهم كانوا على دين ابراهيم ، ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، ولم يشركوا بربهم أحداً . سفهوا عبادة الأصنام، وسفهوا رأي القائلين بها[2] .

---

١ « وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ٠ قل : بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » ، البقرة ، رقم ٢ ، الآية ١٢٥ ، تفسير الطبري (١/٤٠٤) ، روح المعاني (١/٣٥٢) ، تفسير المنار (١/٢٧٩ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/١٩٦)، اللسان (١٠/٤٠٢ وما بعدها) ، النهاية في غريب الحديث، لابن الاثير (١/٢٦٥) الطبرسي ، مجمع البيان (١/٤٦٧) ، (١/٢١٥ وما بعدها) ، (طبعة طهران) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢/١٢٨) ، الطبري ، جامع البيان (١١/١٧٧) ، (٢١/٤٠) ، البيضاوي (١/١٥٩ ، ٢١٥) ، تفسير القرطبي (١٠/١٩٨) ، الكشاف، للزمخشري (١/٢٣٦) ، اللسان (٩/٥٦) «صادر» ، تأريخ الخميس ، للدياربكري (٢/١٧٧) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٢٤٤) ، تفسير القرطبي ، الجامع (١٠/١٩٨) ، (حنيفا) ، سورة النحل ، رقم ١٦ ، الآية ١٢٠ ٠

٢ النهاية (١/٢٩٩) ٠

وقد أشير الى (الحنيفية) و (الحنفاء) في كتب الحديث[1] . وقد بحث عنها شرّاح هذه الكتب . ومما نسب اليه حديث : « لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة »[2] . وحديث : « بعثتُ بالحنيفية السمحة السهلة»[3]. وحديث « أحب الأديان الى الله تعالى الحنيفية السمحة »[4] .

ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعاً كانوا قبل عمرو بن لحي الخزاعيّ على دين ابراهيم . كانوا موحدين يعبدون الله جل جلاله وحده ، لا يشركون به ولا ينتقصونه . فلما جاء عمرو بن لحيّ ، أفسد العرب ، ونشر بينهم أضاليل عبادة الأصنام ، بما تعلمه من وثنيي بلاد الشأم حين زارهم ، وحل بينهم ، فكان داعية الوثنية عند العرب والمبشر بها ومضلّهم الأول . وهو على رأيهم موزّع الاصنام بين القبائل ، ومقسّمها عليها . فكان من دعوته تلك عبادة الاوثان ، الى أن جاء الاسلام فأعاد العرب الى سواء السبيل ، الى دين ابراهيم حنيفاً ، وما كان ابراهيم من المشركين[5] .

ولقد فشت دعوة عمرو بن لحي وانتشرت ، حتى دخل فيها أكثرهم ، والضلال سريع الانتشار ، وقلّ عدد من حافظ على دين ابراهيم والمراعي لأحكام دين التوحيد الحنيف : من اعتقاد بوجود إلـه واحد أحد ، وطواف بالبيت ، وحج اليه ، وعمرة ، ووقوف على عرفة وهدي للبدن ، واهلال بالحج والعمرة ، وغير ذلك . فلم يبق منهم إلا عدد محدود في كل عصر الى زمن البعثة المحمدية[6] .

ولسنا نملك ويا للأسف شيئاً من الجاهلية يعيننا في الوقوف على عقائد الأحناف ودينهم ، فليس في كتابات المسند ولا في الكتابات الجاهلية الأخرى ، بل ولا في كتب اليونان واللاتين شيء عن عقيدتهم وعن آرائهم،لذلك اقتصر علمنا بأحوالهم على ما جاء في المؤلفات الاسلامية وحدها ، والفضل في حفظ أخبارهم للقرآن

---

١ راجع ونسنك : المعجم المفهرست لالفاظ الحديث النبوي الشريف ، حيث تجد الاشارة الى تلك الاحاديث .
٢ مسند أحمد بن حنبل (٤/١١٦) ، (٦/٣٣) .
٣ اللسان (٩/٥٦ وما بعدها) .
٤ مجمع البيان ، للطبرسي (١/٢١٥ وما بعدها) ، « أحب الدين الى الحنيفيه السمحة » ، الاصابة (١/٥١) ، (رقم ١١٤) .
٥ اللسان (١٠/٤٠٣) ، بلوغ الارب (٢/١٩٥) .
٦ بلوغ الارب (٢/١٩٦) .

الكريم ، فلولا اشارته اليهم وذكره لهم ، لما اهتم المفسرون وأصحاب الأخبار بجمع ما كان عالقاً في ذهن الناس عنهم . وللحديث وكتب السير والأدب فضل في جمع أخبارهم يجب ألا ينسى كذلك .

وللعلماء الاسلاميين آراء وتفسيرات في أصل لفظة (حنيف) وحنفاء وأحناف وفي معانيها . فهم يقولون ان الأصل (حنف) ، وحنف بمعنى مال . وحنف القدمين ميل كل واحدة منها نحو الأخرى . والحَنَفُ هو ميل عن الضلال الى الاستقامة ، والجنف ميل عن الاستقامة الى الضلال . والحنيف هو المائل . ومن هذا المعنى أخذ الحنف . وأما الحنيف ، فالذي يميل الى الحق ،وقيل الذي يستقبل البيت الحرام ، أو الحاج أو من يختتن ،والحنيف من أسلم في أمر الله فلم يلتوِ في شيء ، والحنيف المستقيم الذي لا يلتوِ في شيء[1] .

وقد وردت لفظة (حنيفاً) في عشر مواضع من القرآن الكريم[2] . ووردت لفظة (حنفاء) في موضعين منه[3] . وبعض الآيات التي وردت فيها آيات مكية ، وبعضها آيات مدنية . وقد نص في بعض منها على ابراهيم ، وهو على الحنيفية ، ولم ينص في مواضع منها على اسمه . وقد وردت لفظة (حنفاء) في سورتين فقط . هما : سورة الحج وسورة البينة ، وهما من السور المدنية .

وذكر بعض أهل الأخبار ان الحنيف عند أهل الجاهلية من اختتن وحج البيت فكل من اختتن وحج البيت هو حنيف[4] . وقد رأى الطبري ان ذلك لا يكفي ،

---

1 المفردات ، للاصفهاني (ص ١٣٣) ، اللسان (١٠/٤٤) ، (٩/٥٦ وما بعدها) « صادر » ، تاج العروس (٦/٧٧ وما بعدها) ، النهاية في غريب الحديث والاثر ، لابن الاثير (١٠/٢٦٥) ، تفسير الطبري (١/٢٥٨ وما بعدها) ، القاموس المحيط ، الفيروزآبادي (٣/١٣٠) ، تفسير الطبري (١/٥٦٣) ، «١٩٥٤» ، (٣/١٠٥) « دار المعارف » ، الملل والنحل ، (٢/٥٢) ، الاغاني (٣/١١٣ وما بعدها) « دار الثقافة بيروت ١٩٥٥ م » ، روح المعاني للالوسي (٣/١٧٣ وما بعدها) ، تفسير الخازن (١/٩٨) .

2 البقرة ، رقم ٢ الآية ١٣٥ ، آل عمران ، ٣ الآية ٦٧ ، ٩٥ ، النساء ، الرقم ٤ ، الآية ١٢٥ ، الانعام ٦ ، الآية ٧٩ ، ١٦١ يونس ، الرقم ١٠ ، الآية ١٠٥ ، النحل ، ١٦ ، الآية ١٢٠ ، الروم ، الآية ٣٠ .

3 الحج ، الآية ٣١ ، البينة ، الآية ٥ .

4 اللسان (١٠/٤٠٣ وما بعدها) ، الكشاف (١/١٧٨ ، ٢٣٦ ، ٤٠٧) ، الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن (١/٤٦٧ وما بعدها) ، (٣/١٠٩ وما بعدها) ، تفسير الفخر الرازي (١٣/٥٧ وما بعدها) ، (١٤/١٠ وما بعدها) ، (١٧/١٧١ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣/١٠٤ وما بعدها) .

بل لا بد من الاستقامة على ملة ابراهيم واتباعه عليها [1]. والذين يذكرون أن الحنيف هو من اختتن وحج البيت ، يذكرون أن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت ، ولهذا فكل من اختتن وحج البيت ، قيل له حنيف . وقد أضاف بعضهم اعتزال الأصنام والإغتسال من الجنابة الى ما ذكرت ، وجعلوا ذلك من أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن المشركين [2]، لأن الحنيفية على حد قولهم لو كانت حج البيت والاختتان لوجب أن يكون الذين كانوا يحجون ويختتنون في الجاهلية من أهل الشرك حنفاء، وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله : « ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » [3] .

وينسب أهل الأخبار الى الأحناف بالإضافة الى ما ذكرت ، امتناعهم عن أكل ذبائح الأوثان وكل ما أهل الى غير الله . فقد ذكروا عن كل واحد من الأحناف أنه كان قد امتنع عن أكل الذبائح التي تذبح للأوثان والأصنام ، لأنها ذبحت لغير الله . كما نسبوا اليهم تحريم الخمر على أنفسهم ، والنظر والتأمل في خلق الله ، ونسبوا اليهم أداء شعائر الحج وغير ذلك [4] .

وقد لخص (الفخر الرازي) و (الطبرسي) ، آراء العلماء في (الحنيفية) واجملاها في تفسيرهما للآية : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كنت من المشركين » . فقالا : « وفي الحنيفية أربعة أقوال : احدها انها حج البيت ، عن ابن عباس والحسن ومجاهد . وثانيها انها اتباع الحق ، عن مجاهد ، وثالثها انها اتباع ابراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس بعده من الحج والختان وغير ذلك من شرائع الاسلام ،

---

1 تفسير الطبري (٣/ ١٠٥ وما بعدها) ، (٣/ ٣٠٦) ، (٥/ ٢٩٧) ، (٧/ ٢٥١) ، تفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢/ ١٢٨) .

2 اللسان (٩/ ٥٦) « صادر » ، القاموس (٣/ ١٣٠) ، تاج العروس (٦/ ٧٧ وما بعدها) ، (حنف) .

3 الطبري ، جامع البيان (١/ ٥٦٤ وما بعدها) .

4 الاصنام (٦) « ١٩١٤ م » ، القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، (٤/ ١٠٩) « ١٩٣٧ م » « مطبعة دار الكتب المصرية » ، ابن خلدون (القسم الاول من المجلد الثاني) (ص ٧٠٧ وما بعدها) « بيروت ١٩٥٦ م » الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٢٣٨ وما بعدها ، ٢٥١) ، تفسير الرازي (٨/ ١٥٠ وما بعدها) .

والرابع انها الاخلاص لله وحده والاقرار بالربوبية والإذعان للعبودية »[1] .

ترى مما تقدم ، وسترى فيما بعد ان أهل الأخبار لم يكونوا على بينة تامة وعلم واضح بأحوال الحنيفية وبآرائها وقواعد أحكامها وأصولها ، وانهم خلطوا في بعض الأحيان فيما بينها وبين الرهبنة ، ولا سيما رهبنة النصرانية . فأدخلوا فيها من يجب اخراجهم عنها ، لأنهم كانوا نصارى على ما يذكره نفس أهل الأخبار في أثناء تحدثهم عنهم ، ومن هؤلاء : قيس بن ساعدة الأيادي وورقة بن نوفل ، وعثمان ابن الحويرث ، فقد نصوا نصاً صريحاً على انهم كانوا من العرب المتنصرة ، ثم نجدهم مع ذلك يدخلونهم في جملة الأحناف .

وللمستشرقين بحوث في أصلها ومعناها وفي ورودها عند العرب قبل الاسلام . ومنهم من يرى ان اللفظة من أصل إرمي ، وقد كانت معروفة عند النصارى ، وأخذها الجاهليون منهم ، وأطلقت على القائلين بالتوحيد من العرب ، على أولئك الذين ظهروا في اليمن خاصة ونادوا بالتوحيد وعبادة الرحمان . وهي ديانة توحيد ظهرت بتأثير اليهودية والنصرانية ، غير ان أصحابها لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وانما كانوا فرقة مستقلة تأثرت بآراء الديانتين[2] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان اللفظة من أصل عبراني ، هو : (تحينوت) tchinoth ، أو من (حنف) Hnêf ، ومعناه التحنث في العربية ، وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والزهّاد[3] . وقال (نولدكه) انها من أصل عربي هو (تحنف) ، على وزن تبرر ، وهي من الكلمات التي لها معانٍ دينية . ويلاحظ ان السريان يطلقون لفظة (حنفه) Hanfa على الصابئة[4]. وقد وردت لفظة (حنف) في النصوص العربية الجنوبية ، وردت بمعنى (صبأ) ، أي مال وتأثر بشيء ما[5] .

---

١ مجمع البيان (١/٢١٥ وما بعدها) ، التفسير الكبير ، للفخر الرازي (٤/٨٩ وما بعدها) .

٢ Ency., II, p. 259.

٣ Abraham I. Katsh., Judaism in Islam, New York, 1954, p. 108, f., J.A. Montgomery, Ascetic Strains in early Judaism, in, JBL., Vol., LI, (1932), pp. 183, Tar Andrae, Der ursprung der Islam und das Christentum, uppala, 1926, p. 40, Charles Lyall, The Ward Hanif and Muslim, in JRAS, 1903, p. 772, Sprenger, Das Leben, Bd. I, S. 45. ff.

٤ Ency., II, 259, Barhebraeus, Chronic., p. 176.

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 40.

أي بالمعنى الذي فهمه علماء اللغة. فاللفظة اذن من الألفاظ المعروفة أيضاً عند العرب الجنوبيين .

عندي أن لفظة (حنيف) ، هي في الأصل بمعنى (صابىء) أي خارج عن ملة قوم ، تارك لعبادتهم . ويؤيد رأيي هذا ما ذهب اليه علماء اللغة ، من أنها من الميل عن الشيء وتركه ، ومن ورودها بهذا المعنى في النصوص العربية الجنوبية . وبمعنى (الملحد) ، و (المنافق) ، و (الكافر) في لغة بني إرم، ومن اطلاق (المسعودي) و (ابن العبري) لهذه اللفظة على (الصابئة) . ومن ذهاب (المسعودي) الى أن اللفظة من الألفاظ السريانية المعربة . وقد اطلقت على (المنشقين) على عبادة قومهم الخارجين عليها ، كما أطلق أهل مكة على النبي وعلى أتباعه (الصابىء) و (الصباة) ، فصارت علماً على من تنكر لعبادة قومه ، وخرج على الأصنام . ولهذا نجد الإسلام يطلقها في بادىء الأمر على نابذي عبادة الأصنام ، وهم الذين دعاهم بأنهم على (دين ابراهيم) . ولما كان التنكر للأصنام هو عقيدة الإسلام لذلك صارت مدحاً لمن أطلق الجاهليون عليهم تلك اللفظة لا ذماً[1] .

وليست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء واضحة، فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي ، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية . فليس فيها شيء عن عقيدتهم في الله ، وكيفية تصورهم وعبادتهم له ، وليس فيها شيء عن كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسيرون عليها . نعم ، إن نفراً منهم كما ذكر الرواة كانوا قد قرأوا الكتب ووقفوا عليها ، ولكن ما تلك الكتب التي قرأوها ، وما أسماؤها . وهل هي التوراة والانجيل ؟ ولكن أي توراة وإنجيل ؟ التوراة والانجيل التي كانت بين أيدي الناس أو غيرها ؟ فالذي يفهم من كلام الرواة أن الحنفاء كانوا يرون تحريفاً في الكتابين ، وأن هناك تبايناً قليلاً أو كثيراً بين الأصل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بين أيدي الناس ، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية الى دين ابراهيم الحنيف ، فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادة ابراهيم . ولكن ما هي كتب ابراهيم وما هي عبادته ؟

---

١ راجع أيضا : Ency., II, p. 259.

وليس في امكاننا في الوقت الحاضر وضع حد صريح واضح لمفهوم الأحناف و (الدين الحنيف) عند الجاهليين ، لما ذكرته من عدم وجود موارد واضحة صريحة عن الأحناف ، ولعدم ورود أي شيء عنهم في نصوص جاهلية ، ولأن في الكثير من الذي يذكره المفسرون وأهل الأخبار عنهم غموض وإبهام أو صنعة وتكلف ، لذلك فليس أمامنا سوى الانصراف الى البحث عن جمع كل ما ورد عن الحنيفية في الشعر وفي النثر وتنقيته وغربلته لاستخراج المادة الصافية منه التي تفيدنا في الوقوف على تلك الحركة الدينية التي كانت بارزة عند المذكورين قبيل ظهور الاسلام . والوقوف عليها يفيدنا كثيراً ولا شك في فهم الاسلام الذي أثنى على الحنيفية وأرجعها الى ديانة ابراهيم ، وفي فهم اتجاهات الأحناف ودعوتهم التي وجهوها الى قومهم في نبذ عبادة الأصنام والأحجار والمعبودات المادية الأخرى، والالتجاء الى عبادة إلـه أعلى لا يشبه المادة ، هو إلـه واحد لطيف خبير .

والحنفاء ، كما يفهم من روايات أهل الأخبار ، كانوا طرازاً من النسّاك ، نسكوا في الحياة الدنيا ، وانصرفوا الى التعبد للإلـه الواحد الأحد إلـه ابراهيم واسماعيل،ساحوا في البلاد على نحو ما يفعله السياح الزهّاد بحثاً عن الدين الصحيح دين ابراهيم ، فوصل زيد بن عمرو بن نفيل الى الشأم والبلقاء ووقف على اليهودية والنصرانية ، فلم يرَ في الديانتين ما يريد[1] . ومنهم من أخذ على قومه هدايتهم بحثهم على ترك عبادة الأصنام ، لذلك لاقوا منهم غشاً ونصباً شديداً . ومنهم من كان يتأمل في هذا الكون،لذلك تجنب الناس واعتزلهم ، والتجأ الى الكهوف والمغاور البعيدة ابتعاداً عن الناس للتأمل والتفكر ، وقد تجنبوا الخمرة والأعمال المنكرة ، وقول الفحش ، وساروا على مثل الاسلام ، وان عاشوا قبل الاسلام، لأن الإسلام دين ابراهيم .

والذي يفهم من القرآن الكريم ، هو ان الحنفاء هم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام ، فلم يكونوا من المشركين ، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى ، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، و « وما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من

---

1 بلوغ الارب (٢٤٧/٢ وما بعدها) ، الطبرسي ، مجمع البيان (١١٠/٣) (٢٥٢/٧) ، (١٠٧/١١) (١٣٧/١٤) .

المشركين »[١] ، وان قدوتهم في ذلك ابراهيم . ويلاحظ ان لفظة (مسلم) استعملت في مرادف ومعنى لفظة (الحنيف) ، وان ابراهيم هو أبو وأول المسلمين . وقد وصف الاسلام بأنه دين الله الحنيف ، والدين الحنيف ، وان الشريعة الاسلامية، هي الحنيفية السمحة السهلة ، وذلك تمييزاً لها عن الرهبانية المتعصبة[٢] .

وقد عدّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصرانية ، وعدّوهم نصارى عرباً زهاداً كيّفوا النصرانية بعض التكييف ؛ وخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها. وقد استدلوا على ذلك بما ورد من تنصر بعضهم ، وبما ورد في بعض الأشعار الجاهلية من مواضع يفهم منها على تفسيرهم ان المراد بهم شيعة من شيع النصرانية [٣]. غير ان القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على ان الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وانهم ينتمون في عقيدتهم الى ابراهيم . ثم إن الأخباريين وإن أدخلوا في الأحناف أناساً نصوا على انهم كانوا نصارى ، إلا انهم نصوا في الوقت نفسه نصاً صريحاً على ان البقية الباقية ، كانت واقفة،لم تدخل في يهودية ولا نصرانية ، إذ وجدت في كل ديانة من الديانتين أموراً جعلتها تتريث،فلم تدخل في احداهما، وبقيت مخلصة لسنّة ابراهيم ، لذلك فلا يمكن اعتبار الأحناف نصارى خلصاً ، أو شيعة من الشيع النصرانية .

وقد كان من الحنفاء نفر من النصارى ، أخلصوا لنصرانيتهم وماتوا عليها . فهؤلاء هم نصارى من غير شك ، ويجب اخراجهم من طائفة الحنفاء ، وادخالهم في النصارى ، مثل (بحيرا) الراهب ، وأمثاله ممن سأتحدث عنهم فيما بعد .

ويلاحظ أن جميع من حشرهم أهل الأخبار في الحنيفية ، كانوا من القارئين، الكاتبين . وكانوا يشترون الكتب ويراجعونها ويتسقطون أخبار أهل الآراء والمذاهب والديانات . ولبعض منهم — كما يروي أهل الأخبار — علم باللغات الأعجمية مثل السريانية والعبرانية ، كما كان لهم علم ووقوف على تيارات الفكر في ذلك الوقت . وقد أضافوا الى علمهم الذي أخذوه من الكتب ، علماً حصلوا عليه من

---

١ آل عمران ، الآية ٦٧ وما بعدها ، البقرة ، الآية ٣٥ ، آل عمران ، الآية ٩٥ ، النساء ، الآية ١٢٤ ، الانعام ، الاية ٧٩ ، ١٦٢ ، يونس ١٠٥ .

٢ ابن سعد (١٢٨/١) ، قال عبد الله بن أنيس :
فقلت له خذها بضربة ماجد حنيف على دين النبي محمد

٣ Reste, S. 238, J.A. Montgomry, Ascetic Strains in Early Judaism, JBL., Vol., LI, 1932, p. 183, Abraham J. Katsch, Judaism in Islam, p. 108.

أسفارهم الى الخارج مثل العراق وبلاد الشأم ومن اتصالهم بالرهبان وبرجال الكنائس واليهــود . فهم بالنسبة لذلك الوقت الطبقة المثقفـة من الجاهليين نادت بالاصلاح وبرفع مستوى العقل وبنبذ الأساطير والخرافات وبتحرير العقل من سيطرة العادات والتقاليد فيه ، وذلك بالدراسات والتأمل وبقراءة الكتب وبالرجوع الى دين الفطرة، الذي لا يقر عبادة الشرك ولا عبادة الناس .

لذلك نستطيع أن نقول عن هؤلاء إنهم كانوا أناساً من النوع الذي نطلق عليهم كلمة (مصلحين) في الوقت الحاضر . من هذا الطراز الذي يريد اصلاح الأوضاع ورفع مستوى العقل . فهم جماعة ضد الأوضاع الاجتماعية السائدة في أيامهم . لأنها في نظرهم أوضاع مؤخرة تمنع الإنسان من التقدم ومن ادراك الواقع . وقد رأت أن العقل لا يقر التقرب الى أحجــار والى التبرك بها والذبح لها ، لأنها حجارة لا تعي ولا تفهم وليس في إمكانها أن تسمع أو تجيب لذلك نفرت منها . ومنهم من آمن بدين كالنصرانية ، ولكنه لم يكن على نصرانية قومه ، لأن عقله لا يقر التقرب الى المادة مثل الصليب والصور والتماثيل ، ومنهم من أبعدته مثل هــذه العبادة عن النصرانية ، فصيرته حائراً في أمره من الديانات ، يعتقد بإلـه ، ولكنه لم يستقر على دين . عائب على قومه من المشركين ما هم عليــه من جهل ومن عبادة أحجار ومن كل تقرب اليها .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر ذكروا انهم كرهوا عبادة الأوثان وسخفوا أحلام المتعبدين لها ، إذ وجدوا ان من الحمق التقرب الى حجــر لا يضر ولا ينفع ، وهو جماد ، فلما سمع بعضهم بالاسلام أسلموا . ولكنهـم لم يدخلوهم في عداد الأحناف . وقد رأينا ان من أهل الأخبار من جعل (مسيلمة) يدعو الى عبادة (الرحمن) قبل مبعث النبي . وقد ذكروا ان « عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد » السلمي ، كان قد رغب عن آلهة قومه في الجاهلية ، رأى انها باطلة ، وان الناس في ضلال إذ يعبدون الحجارة ، والحجارة لا تضر ولا تنفع ، فكان حائراً ، حتى اهتدى إلى الاسلام[1] .

وليس في أيدينا اليوم مورد يفيد بوجود تكتل وتنظيم لمــن أطلق الأخباريون

---

١ الاصابة (٣/٥ وما بعدها) ، رقم (٥٩٠٥) ، الاستيعاب (٢/٤٩١ وما بعدها) ، حاشية على الاصابة .

عليهم لفظة : (الحنفاء) : تكتل وتنظيم مع مظاهر خارجية وداخلية تميزهم عن غيرهم من أهل الأديان . لذلك ، فنحن لا نستطيع أن نقول إن الحنيفية كانت فرقة تتبع ديناً بالمعنى المفهوم من الدين ، كدين اليهودية أو النصرانية ، لها أحكام وشريعة تستمد أحكامها من كتب مُنزلة مقدسة ومن وحي نزل من السماء ، على نحو ما نفهمه من الأديان السماوية . لذلك ، فأنا لا أستطيع إقرار رأي من ذهب الى انهم كانوا جماعة دينية منظمة ، كرأي المستشرق (شبرنكر) ، الذي ذهب الى هذا المذهب[1] .

وجلّ هؤلاء الأحناف ، هم من أسر معروفة ، وبيوت يظهر أنهـا كانت مرفهـة أو فوق مستوى الوسط بالنسبة الى تلك الأيام ، ولهذا صار في امكانهم الحصول على ثقافة وعلى شراء الكتب ، وقد كانت غالية الثمن إذ ذاك ، لنيل العلم منهـا . كما صار في امكانهم الطواف في خارج جزيرة العرب لامتصاص المعرفة من البلاد المتقدمة بالنسبة الى تلك الأوقات ، مثل العراق وبـلاد الشأم . وقد اتصلوا كما يزعم أهل الأخبار فعـلاً برجال العلم والدين فيها ، وتحادثوا معهم وأخذوا الرأي منهم . ومن يدري فلعلهم قرأوا عليهم الكتب وفي جملتها كتب اليونان ، أو ترجمات كتبهم بالسريانية ، فحصلوا نتيجة لذلك على عـلم بمقالات اليونان وبآرائهم في الفلسفـة والدين والحيـاة . وقد تكون بعض الآراء المنسوبة اليهم ، والتي ترجع الى أصل يوناني ، قد قالوهـا من أخذهم لها من تلك الكتب ومن دراستهم على من اتصلوا بهم من العلماء في أثنـاء وجودهم في العراق وفي بلاد الشأم .

ونجد في الأخبار أن الرسول كان يعدّ الرهبانية مخالفة للحنيفية ، إذ ورد أن أبا عامر بن صيفي — المعروف بالراهب لأنه كان قد ترهب في الجاهليـة ولبس المسوح — قدم المدينة ورأى الرسول ، وسأله : ما هـذا الذي جئت به ؟ — فقال الرسول : جئت بالحنيفية دين ابراهيم ، قال : فأنا عليها ، فقال الرسول: لست عليها ، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منهـا . وقد سماه الرسول الفاسق . فذهب مغاضباً للرسول كما تقول الروايات، متوجهاً الى قيصر ، ليحمله على توجيه جيش الى المدينة للقضاء على الإسلام ، غير أنه مات وهو في بلاد الشأم[2] .

---

١ Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 4, Ency., II, S. 259.

٢ مجمع البيان (٩/٦٤ وما بعدها) ، (٣/٥٠٠) ، (طبعة طهران) .

وقد خرج (أبو عامر) واسمه (عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان ابن أمة)[1] الراهب أحد (بني ضبيعة) الى مكة مباعداً لرسول الله ، معه خمسون غلاماً من الأوس ، منهم (عثمان بن حنيف) . « فكان يعد قريشاً ان لو قد لقي محرماً لم يختلف عليه منهم رجلان ، فلما كان يوم أحد ، كان أول من لقي أهل المدينة أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ،وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية (الراهب) فسماه رسول الله الفاسق ، فلما سمع ردهم عليه ، قاتلهم ثم راضخهم بالحجارة » . ثم رجع مع قريش الى مكة ثم خرج الى الروم يوم فتحت مكة فمات بها سنة تسع ، ويقال سنة عشر . وأعطى (هرقل) ميراثه لكنانة بن عبد ياليل الثقفي[2] ، وكان قد اختصم مع علقمة بن علاثة في ميراثه ، فدفع هرقل ميراثه لكنانة قائلاً لعلقمة : هما من أهل المدر وأنت من أهل الوبر.

وكان له ولد اسمه (حنظلة) أسلم ، واستأذن رسول الله في قتل أبيه ، فنهاه عن ذلك . فلما كان يوم أحد شهده ، والتقى هو وأبو سفيان ، فلما استعلى حنظلة رآه (شداد بن شعوب) فعلاه بالسيف حتى قتله ، وقد كاد يقتل أبا سفيان . فقال النبي : « إن صاحبكم تغسله الملائكة »[3] ، فعرف بـ (غسيل الملائكة)[4] . فكان الابن مع المسلمين في هذا اليوم ، وكان الأب مع المشركين .

وروي أنه كان يتزهد في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام خرج الى الشأم وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار ، وأتى قيصر فاستنجده على النبي[5] . وروي أنه هو الذي حزب الأحزاب لقتال الرسول : فلما خذل لحق بالروم يطلب النصر منهم ، وقال لأناس من الأنصار ابنو مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ،

---

١ تاريخ الطبري (٢/٥١٢) ، (معركة أحد) ، المحبر (٤٧٠) ، سيرة ابن هشام (٢/١٢٩) ، (حاشية على الروض) ، أبو عامر بن صيفي بن مالك بن امية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الاوس ، الاوسي ، الاصابة (١/٣٦٠) ، (رقم ١٨٦٣) ، مروج الذهب (١/٨٨) ، (دار الاندلس) .

٢ الاصابة (١/٣٦٠) ، (رقم ١٨٦٣) .

٣ الاستيعاب (١/٢٧٩ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ الاصابة (١/٣٦٠) ، (رقم ١٨٦٣) ، الاستيعاب (١/٢٧٩ وما بعدها) ، حاشية على الاصابة) .

٥ تفسير النيسابوري (٩/٧٦) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، روح المعاني (٩/١١١) .

فإني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه، وكان قد خرج معه كنانة بن عبد يا ليل الثقفي وعلقمة بن علاثة . فأما علقمة وابن ياليل (ابن يالين) ، فرجعا فبايعا النبي وأسلما ، وأما (أبو عامر) فتنصر وأقام[1] .

ويظهر أن (أبا عامر الراهب) ، كان قد وضع مع جماعة من الأنصار الحاقدين على الرسول وعلى المهاجرين الذين صاروا يزاحمونهم في أعمالهم، واستحوذوا على التجارة واستغلوا أرض يثرب فقام قوم منهم بزراعتها ، خطة لعمل مكيدة يخرجون بها الرسول من المدينة ، يساعدهم في ذلك الروم . غير انها لم تنجح ، وهدم المسجد ، الذي تواعدوا على أن يكون موضع التآمر وملتقى الحاقدين على الرسول ، وقضي على المؤامرة ، وبقي (أبو عامر) عند الروم . فلما مات عاد (كنانة بن عبد يا ليل) الثقفي ، وكان رئيس ثقيف في زمانه ، وكان يقول: « لا يرثني رجل من قريش) ، مما يدل على أنه كان من الكارهين لقريش المتحاملين عليها وعلى الاسلام ، ففر الى (نجران) ثم توجه الى الروم . فلما مات (أبو عامر) عاد فأسلم[2] . وعاد (علقمة) أيضاً . وهناك روايات أخرى، تذكر أنه ارتد في أيام (عمر) ، والتحق بالروم ، ثم عاد الى الإسلام[3] .

ولاشتهار أبي عامر بالراهب ، ولما ورد في بعض الأخبار من انه كان حنيفاً ، ذهب (ولهوزن) الى ان الأحناف هم من النصارى ، وان حركتهم حركة نصرانية ، وانهم كانوا القنطرة التي توصل بين النصرانية والاسلام[4] . غير ان ما لدينا من معارف عن الأحناف ، لا يكفي لابداء رأي كهذا الرأي ، وللتسليم بمثل هذا القول ينبغي لنا الوقوف على آرائهم وقوفاً دقيقاً ومقارنة ما لدينا بما نعرفه من النصرانية لنتمكن من التوصل الى رأي علمي في هذا الشأن .

وفي بيت منسوب إلى أمية إشارة إلى الحنيفية ، ذكر فيه ان كل دين زور عند الله إلا دين الحنيفية . وقد رأينا ان أهل الأخبار يدخلون أمية في جملة

---

١ تفسير الطبري (١١/١٧ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٧/٣٢٠) ، (٨/٢٥٣ وما بعدها) .

٢ الاصابة (٣/٣٠٥) ، (رقم ٧٥٣٢) .

٣ الاصابة (٢/٤٩٦) ، (٥٦٧٧) .

٤ Wellhausen, Reste, S. 239. f.

الحنفاء ، ويقولون : انه لبس المسوح تعبداً ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل وحرم الخمر[1] . ويلاحظ ان الأخباريين ينسبون الى عدد من هؤلاء الأحناف لبس المسوح ، مما يشير الى انهم كانوا قد تأثروا بالرهبان المتقشفين وبالزهاد النصارى الناسكين، فأخذوا عنهم هذه الطريقة التي أشير اليها في القرآن الكريم وفي الحديث ، والتي عُدّت من البدع الممقوتة في الاسلام .

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً ذكروا ان الأحناف قالوه ، هو من نوع كلام الكهان المرتب على طريقة السجع ، أوردوه بنصه على ما ذكروه . غير ان من الصعب تصور صدور ذلك الكلام المنمق من أناس عاشوا قبل الاسلام ، ومحافظة الناس عليه محافظة تامة إلى ما بعد الاسلام . ويظهر على كل حال من دراسة روايات أهل الأخبار عن الكهان والأحناف ان كلام رجال الدين قبل الاسلام كان على هذا النمط من السجع ، ومن جمل مكررة معادة عامة . وقد ظل السجع الطريقة المحببة في الكتابة الى ايامنا هذه عند بعض الكتّاب .

ويفهم من كلام الرواة ان بعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى مثل ورقة بن نوفل ، أي على عكس ما يذكره الرواة أنفسهم من أن هؤلاء كانوا قد تجنبوا اليهودية والنصرانية متبعين ديانة ابراهيم[2] . والظاهر أن الرواة قد اشتبه عليهم الأمر، فخلطوا في بعض الأحيان بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الأصنام واعتقدوا التوحيد .

ولدينا أمثلة أخرى على هذا الوهم . وسنرى من تراجم عدد من الاحناف ان منهم من يجب ادخاله في عداد النصارى ، لا الاحناف . وقد نص أهل الاخبار أنفسهم على تنصرهم ، غير انهم ادخلوهم مع ذلك في جملة الاحناف حين تكلموا عنهم . فكأنهم عنوا بالاحناف من كان على حياة الرهبنة والتقشف.

وقد أدخل (المسعودي) بعض الاحناف في جماعة اهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد ، ومن أهل التوحيد ، ممن يقر بالبعث . ثم قال : « وقد اختلف الناس فيهم، فمن الناس من رأى انهم أنبياء ، ومنهم من رأى غير ذلك»[3].

---

١ كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور
الاغاني (٤/١٢٢) « طبعة دار الكتب المصرية » .

٢ بلوغ الارب (٢/٢٧٠) .

٣ مروج (١/٧٨) ، (دار الاندلس) .

وقد ذكر من بينهم (حنظلة بن صفوان) ، و (خالد بن سنان العبسي) ، و (رئاب الشنى) ، و (أسعد ابو كرب الحميري) ، و (قس بن ساعدة الإيادي) ، و (أمية بن أبي السلط الثقفي) ، و (ورقة بن نوفل) ، و (عداس) مولى (عتيبة بن ربيعة الثقفي ، و (ابو قيس) (صرمة بن أبي انس) الانصاري ، و (أبو عامر الاوسي) ، و (عبدالله بن جحش الاسدي) ، و (بحيرا الراهب)[1] . ومن هؤلاء من كان على النصرانية ، وقد نص (المسعودي) نفسه على ذلك .

والذين ذكر الرواة أسماءهم من الحنفاء هم أناس عاشوا في الجاهلية المتصلة بالاسلام ، ومنهم من أدرك الرسول ، ولا عبرة بالطبع لما زعمه الأخباريون من طول عمر أولئك الأشخاص وبلوغ بعضهم مئين عدة من السنين ، وادخالهم في المعمرين[2] ، فان من عادة الأخباريين إطالة عمر هؤلاء وأمثالهم من الرجال البارزين الظاهرين ، ليكون ذلك مناسباً لما يجيء في أخبارهم من الحكم المنسوبة اليهم ، وهي فكرة عامة نجدها عند غير العرب أيضاً، ولذلك نجد صور الحكماء والفلاسفة في الغالب على صورة شيوخ أصحاب لحى طويلة بيض ورأس جلله الشيب أو قضى على شعره الزمن والتفكير ، فصلّيع ، لأن هذه من علامات الحكمة والتفكير .

وعندي ان الحنفاء جماعة سخرت من عبادة الأصنام ، وثارت عليها وعلى المُثل الأخلاقية التي كانت سائدة في ذلك الزمن ، ودعت إلى إصلاحات واسعة في الحياة وإلى محاربة الأمراض الاجتماعية العديدة التي كانت متفشية في ذلك العهد، دعاها إلى ذلك ما رأته في قومها من إغراق في عبادة الاصنام ومن اسفاف في شرب الخمر ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرة ، فرفعت صوتها كما يرفع المصلحون صوتهم في كل زمن ينادون بالاصلاح ، وقد أثارت دعوتهم هذه المحافظين وأصحاب الجاه والنفوذ وسدنة الاوثان شأن كل دعوة إصلاحية . ويجوز ان يكون من بين هؤلاء من مال إلى النصرانية ، غير اننا لا نستطيع ان نقول انهم كانوا نصارى أو يهوداً ، انما أستطيع ان أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عبادة الإلـه رب السماء (ذو سموى) أو عبادة الرحمن في اليمن ،

---

١ مروج (١/٧٨ وما بعدها) .
٢ جعل السجستاني عمر قس بن ساعدة الايادي ، وهو من الحنفاء ، ثمانين وثلاث مئة سنة ، بلوغ الارب (٢/٢٤٦) .

متأثرين بمبادىء التوحيد التي حملتهـا اليهودية والنصرانيـة إلى اليمن . ولكنهم لم يكونوا أنفسهم يهوداً أو نصارى ، انما هم أصحاب ديانة من ديانات التوحيد .

ولا يعني قولي هذا ان الحنفاء كانوا على رأي واحد ودين واحد كالذي يفهم مثلاً من قولنا يهودي ونصراني ويهود ونصارى ، بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسير على شريعة ثابتة كالذي ذهب (شبرنكر) اليه [1] . إنما كان أولئك الاحناف نفراً من قبائل متفرقة لم تجمع بينهم رابطة ، انما اتفقت فكرتهم في رفض عبادة الاصنام وفي الـدعوة الى الاصلاح . وهذا المعنى واضح في آيات القرآن الكريم التي أشارت الى الحنفاء .

والرجـال الذين قال أهل الاخبار عنهم إنهم كانوا على دين ، وكانوا من الاحناف ، هم : قس بن ساعدة الإيادي ، وزيد بن عمرو بن نُفيل ، وأمية ابن أبي الصلت : وارباب بن رئاب ، وسويد بن عامر المصطلقي ، وأسعـد ابو كرب الحميري ، ووكيع بن زهير الإيادي ، وعمير بن جندب الجُهني ، وعدي بن زيد العبادي ، وأبو قيس صرمة بن أبي انس،وسيف بن ذي يزن ، وورقة بن نوفل القرشي ، وعامر بن الظّرب العدواني ، وعبد الطابخة بن ثعلب ابن وبرة بن قضاعة ، وعلاف بن شهاب التميمي ، والملتمس بن أمية الكناني، وزهير بن أبي سُلمى ، وخالد بن سنان العَبْسي ، وعبدالله القضاعي ، وعبيد ابن الابرص الاسدي ، وكعب بن لؤي بن غالب [2] .

وبعض هؤلاء مثل : (قس بن ساعدة الإيادي) و (عثمان بن الحويرث) و (عدي بن زيد العبـادي) نصارى ، وبعض منهم مثل (أسعد ابو كرب الحميري) ، (ابو كرب اسعد الحميري) [3] و (عبيد بن الابرص) ، و(زهير ابن أبي سلمى) ، مشكوك في أمرهم ، لا نستطيع أن نذكر شيئاً عن دينهم. ولهذا فأنا اذكرهم هنا بحذر ، مجاراة لمن أدخلهم في اهل الدين مـن الجاهليين . ولا أعني انهم كانوا على الحنيفية ، اي على شريعة التوحيد التي ينص عليها أهل الاخبار .

---

١ Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 4.

٢ بلوغ الارب (٢٤٤/٢ وما بعدها) ، مروج الذهب (٧٨/١) ، (دار الاندلس) .

٣ بلوغ الارب (٢٤٤/٢) ، مروج (٥٢/١ وما بعدها) .

وقد اقتصر (محمد بن حبيب) على ذكر بعض من تقدم ، حين تكلم عن (أسماء الذين رفضوا عبادة الاصنام) . فذكرهم على هذا النحو : عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبيد الله بن جحش ابن رئاب الاسدي . وذكر ان منهم من تنصر ومات على النصرانية ، مثل : عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش بن رئاب الاسدي[1] .

فأما قُس بن ساعدة الايادي ، فقد رفعه الاخباريون من مصاف أسوياء البشر ، ووضعوه في صف المعمرين الذين عاشوا مئين من السنين قيل سبع مئة سنة ، وقيل ست مئة سنة ، أو أقل من ذلك بكثير ، غير انه لا يقل عن ثلاث مئة سنة على كل حال[2] .

وأما مولده ، فمجهول . وأما وفاته ، فيكاد يحصل الاتفاق على انه كان قبيل البعثة . وقد ورد في رواية ان الرسول أدركه ورآه يخطب في سوق عكاظ خطبته الشهيرة المعروفة ، غير انه لم يحفظها ، وان أبا بكر ، وكان من جملة من حضر السوق وسمع الخطبة ، كان قد حفظها ، فأعادها على الرسول . وهي الخطبة الشهيرة المتداولة بين الناس والمحفوظة في الكتب . وهناك رواية تذكر ان الرسول كان يحفظها ، وقد تلاها على من حضر عنده ، وتلا بعضاً منها على وفد عبد القيس[3] .

---

١ المحبر (١٧١ وما بعدها) .

٢ وخيل : قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر ، وقيل : حذافة بن زهر بن نزار . وقيل : قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن ايدعان بن النمر الخ ... وقيل : هو ابن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدي بن مالك ، وهكذا . بلوغ الارب (٢٤٦/٢) ، البيان والتبيين (١/ ٥٠) « طبعة السندوبي » ، (١٩٢٦) ، شعراء النصرانية (٢/ ٢١١) ، « قس بن ساعدة الايادي بن عمرو بن عدي بن مالك بن أبدطان « ايدعان » بن النمر بن واثلة بن الطمنان بن عوذ مناة بن يقدم بن أفصى » المحبر (ص ١٣٦) ، الاغاني (١٤/ ٤٠) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢/ ٢٣٠) الميداني ، مجمع الامثال (١/ ١١٧) .

٣ وفي نصها بعض الاختلاف ، راجع :
الاصابة (٢٨٥/٥) ، « وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رجل منهم : هل تعرف قس بن ساعدة ؟ فقال رسول الله : ليس هو منكم . هذا رجل من اياد ، تحنف في الجاهلية ، فوافى عكاظ والناس مجتمعون ، فيكلمهم بكلامه الذي حفظ عنه » ، طبقات ابن سعد : الجزء الاول : القسم الثاني (ص ٥٥) ، « وفد بكر بن وائل » ، محاضر الابرار (ص ٤٨ وما بعدها) ، البداية والنهاية (٢/ ٢٣٠) .

ومما يلفت النظر في الروايات الواردة عن حفظ الرسول لخطبة (قس) ، هو اشارتها الى أن النبي كان يحفظ نص الخطبة ، ولم يكن يحفظ الشعر الملحق بها . مع ان حفـــظ الشعر أيسر من حفظ النثر . ولعل الرواة رووا ذلك لإظهار أن الرسول كان لا يقول الشعر ، وانما كان يسمعه . ولكننا نجدهم من ناحية أخرى يروون أنه كان يتلو من الشعر المناسب ما شاء ان يتلو ، وانه كان يستشهد بـه في كلامه ، وأنه كان يحفظ شيئاً من شعر الماضين والحاضرين . ولن يضير النبوة من حفظ الشعر شيئاً .

والنص المحفوظ لخطبة (قس) نص مختلف لم يتفق الرواة عليه . ممـــا يدل على أنه لم يكن مدوناً ، وإنما روي بروايات مختلفة ، ثم دونت فيما بعد .

وأوصل بعض الاخباريين قساً الى القيصر ، فزعموا انه ذهب اليه واتصل به ، وان القيصر أكرمـــه وعظمه . وانه سأله عن العلم قائلاً له : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه . قال : فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال : فـــا افضل الادب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : قلة رغبة المرء في اخلاف وعده . قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحق[1] . وهو كلام ينبئك أسلوبه وطبيعته عـن أصله وفصله ، وله أصل يرجع الى الفلاسفة اليونان . ونسبوا له قبراً جعلوه في موضع (رَوْحين) على مقربة من حلب في لحف جبل ينذر له[2] .

ونجد حديث قيصر المزعوم مع (قس) ، في رواية أخرى على شكل آخر . وقد أهملت هذه الرواية اسم قيصر ، فلم تشر اليه ، واكتفت بلفظة (قيل) ، فقالت : « قيل لقس بن ساعدة : ما أفضل المعرفة ؟ قال : معرفة الرجـــل بنفسه . قيل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ! قيل له : فما أفضل المروءة ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه »[3] .

وقُس هو مخترع أوجد للعرب أشياء عديدة على زعم أهل الاخبار ، أحدث لهم أموراً كثيرة . فهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكأ

---

١ شعراء النصرانية (٢/٢١١) ، الامالي ، للقالي (٣/٣٧) « دار الكتب » ، العقد الفريد (٢/٢٥٤ وما بعدها ، ٢٩٠ وما بعدها) .

٢ شعراء النصرانية (٢/٢١٦) ، الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) .

٣ العقد الفريد (٢/٢٩٠ وما بعدها) .

عند خطبته على سيف أو عصا وأول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول من قال : « أما بعد » ، وأول من كتب « إلى فلان بن فلان »[1] . وأول من قال : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » ، فكل ما عرفه العرب من هذه الامور ، هو من صنعة قس وعمله . ثم انه كان أحد حكماء العرب ، وكان أسقف نجران ، وخطيب العرب كافة[2] . وذكروا ان له ولقومه فضيلة ليست لاحد من العرب ، لان الرسول روى كلامه وموقفه على جمله الاورق بعكاظ وموعظته ، وعجب من حسن كلامه ، وأظهر تصويبه[3] ، وانه قال فيه: « يحشر أمة وحده »[4] .

وجاء في رواية في تفسير قول الرسول : « يحشر أمة وحده » ، أو «يرحم الله قساً ، إني لأرجو ان يبعث يوم القيامة أمة واحدة » ، ان وفداً من إياد قدم على النبي : فسألهم عن قس ، فقالوا : هلك . فقال : رحمه الله ، كأني أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أورق (أحمر) وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أوجدني أحفظه . فقال رجل من القوم ، أنا أحفظه يا رسول الله . سمعته يقول : ايها الناس اسمعوا وعوا ... إلى آخر الخطبة ، وما جاء بعدها من شعر، فقال رسول الله عندئذ قوله المذكور فيه[5] .

ويختلف هذا الخبر بعض الاختلاف مع خبر آخر أشرت اليه قبل قليل ، فقد ورد في ذلك الخبر أن رسول الله كان يحفظ تلك الخطبة ، غير أنه لم يكن يحفظ الابيات الملحقة بها ، وكان (أبو بكر) يحفظها ، فأعادها على مسامعه[6] . كما يختلف عن رواية أخرى ، جاء فيها ان الوفد الذي قدم على الرسول كان وفد (عبد القيس) ، وأن الذي قرأ الشعر عليه هو أحد بني عبد القيس[7] .

---

١ المؤتلف والمختلف ، للمرزباني (٣٣٨) ، بلوغ الارب (٢/٢٤٦) ، الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) مروج الذهب (١/٨٢) ، (٢/١٠٢) ، (دار الاندلس) ، البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) .

٢ اللسان (٨/٥٨) ، شعراء النصرانية (٢/٢١١) .

٣ بلوغ الارب (٢/٢٤٦) .

٤ الاغاني (١٤/٤٠) .

٥ الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) ، المعارف (٦١) ، البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) .

٦ البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) ، مجمع الامثال ، للميداني (١/١١٧) .

٧ البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) .

ويذكر بعض أهل الاخبار ، ان (الجارود) ، وكان في ضمن رجال وفد (عبد القيس) ، قال للرسول حين سأل عن (قس) : « فداك أبي وأمي كلنا نعرفه وإني من بينهم لعالم بخبره ، واقف على أمره . كان قس يارسول الله سبطاً من أسباط العمر عمّر ستمائة سنة، تقفر منها خمسة أعمار في البراري والقفار» . ثم أخذ في وصفه وفي ذكر عقائده ، وفي لقياه لـ (سمعان) رأس الحواريين . وخلص بعد ذلك الى ذكر نص خطبته بسوق عكاظ،ومطلعها : « شرق وغرب» ، حتى انتهى منهـا ، ثم ألحق بها شعراً[1] . وهي خطبة تختلف تماماً عن الخطبة المعروفة التي تنسب اليه ، وان كانت على نمطها من حيث الاسلوب والافكار ، وفيها مصطلحات اسلامية ترد في القرآن الكريم . ولا استبعد ان تكون من وضع شخص آخر غير الجارود . وضعها في العصور العباسية ، للحث على الزهد .

والجارود من سادات عبد القيس ، وكان نصرانياً ، قدم على النبي سنة عشر في وفد عبد القيس الاخير ، وسرّ الرسول بإسلامه ، وكان حسن الإسلام صلباً على دينه ، وقتل بأرض فارس في خلافة عمر ، وقيل بقي الى خلافة عثمان[2] .

ولو صح ما ذكروه من انه كان أسقفاً على نجران ، لوجب اخراجه اذن من الحنيفية وإدخاله في عداد النصارى . ولكن ليس مؤكداً انه كان اسقفاً على ذلك الموضع ، ويرى الاب (لامانس) احتمال كونه نصرانياً ، لان ما نسب اليه يبعث على هذا الظن[3] . وقد أدخـل الاب (لويس شيخو) قساً في جملة النصارى الجاهليين،وأورد اكثر ما نسب اليه في ترجمته[4] . غير ان كثيراً من هذا المنسوب اليه منسوب إلى غيره . وقد اشار إلى من نسب اليهم العلماء .

وذهب (شبرنكر) إلى ان قساً كان من (الركوسية) ، وهم فرقة عرفهم اهل اللغة بأنهم بين النصارى والصابئين ، شملت جماعة من الحائرين في امر دينهم، ولذلك عمدوا إلى السياحة والترهب والانزواء[5] . وقـد حسبهم العرب نصارى ، فأدخلوهم فيهم في اثناء كلامهم على هؤلاء[6] .

---

١ البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) .
٢ الاصابة (١/٢١٧ وما بعدها) ، (رقم ١٠٤٢) .
٣ Ency., II, p. 1161, Sprenger, Leben, I, S. 45.
٤ شعراء النصرانية (٢/٢١١ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (٤/١٦٣) .
٦ Sprenger, Leben, I, S. 43.

ويرى (لامانس) انه لو كان قس شخصية تأريخية حقاً ، فإن زمانه لا يمكن ان يكون في ايام الرسول او في ايام مقاربة من ايامه . إذ لا يعقـل عنده ان يتكون هذا القصص الذي صير قساً شخصية من الشخصيات الخرافيـة ، لو كان من المعاصرين او المقاربين له . ثم إن اياداً لم تكن في ايام الرسول كتلة واحدة، حتى ينسب قس اليها . فلا بد اذن ان تكون ايام هذا الرجل بعيدة بعض البعد عن ايام الرسول[1] .

غير ان حجج (لامانس) المذكورة لا يمكن ان تكون سنداً يؤيد ادعاءه في ان قساً كان شخصية خرافية ، او انه كان رجلاً حقاً ، ولكنه كان بعيد العهد عن الرسول . فقد روى الاخباريون قصصاً كثيراً عن سلمان الفارسي وعن غير سلمان من الصحابة ، لا يقل نسيجاً عن نسيج قصص قس ، فهل يتخذ هذا القصص حجة لانكار شخصية سلمان وغيره ممن ورد هذا القصص عنهم ؟ وهل يجوز ان نقول إن سلمان إن كان شخصاً حقاً فوجب ان تكون ايامه بعيدة عن ايام الرسول.

ولدى الرواة أبيات ينسبونها الى بعض الشعراء الجاهليين ، هم : الاعشى ، والحطيأة ، ولبيد ، ذكر فيها اسم قُسّ . وقد أشيد فيها بفصاحته وببلاغتـه وحكمته ، حتى جعل لبيد لقمان دون قس في الحكم[2] .

وورد اسم (قس) في هذا الشعر وفي أمثاله إن صح انه من شعر الجاهليين حقاً ، وورود اسمه في الحديث وفي الاخبار ، هو تعبير عن رأي اهل الجاهليـة في خطيب مفوه عدّ في نظرهم المثل الاعلى في الخطابة وممثل البلاغة عندهم فهو كشيوخ الخطباء عند اللاتين .

---

١ Ency., II, p. 1161.

٢ قال لبيد :

وأخلف قسـا ليتني ولعلني ... واعيـا على لقمان حكم التدبر

الاصابة (٥/٢٨٥) « قس » ، قال الاعشى :

وأحلم مـن قس وأجـرى من الذي ... بذى الغيل من خفان أصبح حاردا

وفي رواية أخرى :

وأحلم من قيس وأجرء مقدمـا ... لذى الدرع من ليث اذا راح حاردا

ديوان الاعشى (ص ٤٩) « تحقيق R. Geyer » . المؤتلف والمختلـف (ص ٣٣٨) ، وقال الحطياة :

وأقول من قس وأمضى اذا مضى ... من الرمح اذ مس النفوس نكالها

المؤتلف والمختلف (ص ٣٣٨) .

وجميع هذا القصص المروي عن قس ، هو من النوع الذي يحتاج الى تمحيص. وقد نسبوا اليه شعراً ، زعموا انه قاله وهو يبكي بين قبرين بنى بينهما مسجداً ، هما قبرا أخويه ، على حين ان أكثر الرواة يقولون إن هذا الشعر لغيره ، وان قصة القبرين لا تخص قساً، بل تخص أناساً آخرين ، وقد كانا في ايران وأصحابهما قبرا فيهما في الاسلام . ورواة هذا الخبر ، هم رواة خطبة قس الشهيرة ، وهم محمد بن السائب الكلبي عن ابي صالح ابن عباس وجماعة آخرون أشار (ابن حجر) الى بعضهم في كتابه : « الإصابة في تمييز الصحابة » ، وقد ضعف ابن حجر هذه الطرق ، فقال : « وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس ، وفيه شعره وخطبته ، وهو في الطوالات للطبراني وغيرها . وطرقه كلها ضعيفة»[1]. ثم عرج بعد ذلك الى ذكر بعض الطرق التي وردت فيها خطبة قس .

واما (زيد بن عمرو بن نُفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبدالله بن قرط ابن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر) ، فهو من قريش من بني عدي ، لم تعجبه عبادة قومه ، فانتقدها وسخفها وهزىء منها ووقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الاوثان ، ونهى عن قتل الموؤودة ، وامتنع من الذبح للأنساب ومن أكل الميتة والدم وما ذبح للأصنام . فكان في آرائه هذه مثل نفر آخر من قريش منهم : ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيدالله بن جحش ، لاموا قومهم على عبادتهم الاصنام ، واتخاذ الانصاب وعبادة ما لا يضر ولا ينفع[2] . وهم طائفة من المفكرين ، رأى بعضهم بلاد الشأم ، واتصل ببعض المبشرين النصارى ، ووقف على التطورات الفكرية في الخارج ، ولعله كان يقرأ ويكتب ، وله اطلاع على مؤلفات في الفلسفة والدين.

وترجع احدى الروايات سبب خروج (زيد) على عبادة قومه ، انه حضر يوماً وحضر معه في ذلك اليوم (ورقة بن نوفل) ، و (عبدالله بن جحش) و (عثمان بن الحويرث) ، عيداً من أعياد قريش ، عند صنم من أصنامهم ،

---

١ الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) ، الاصابة (٥/٢٨٦) .

٢ ابن هشام (١/٢٤٤ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٦/١٩٠) ، أسد الغابة (٢/٢٣٦) ، طبقات الشعراء (ص ٦٦) « طبعة ليدن » ، البداية والنهاية (٢/٢٣٧) ، ابن خلدون ، القسم الاول ، المجلد التاني (ص ٧٠٧) ، المسعودي ، مروج (١/٧٠) « محمد محيي الدين عبد الحميدي » الاغاني (٣/١١٣) ، البخاري (٥/٥٠) ، المعارف (٢٧) .

كانوا يعظمونه ، ويعكفون عنده ، او يديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، وكانوا ينحرون له ، فلما خلد بعضهم إلى بعض وتصادقوا ، قالوا ليكتم بعضكم على بعض ، واتفقوا على ذلك ، ثم قال قائلهم : تعلمون والله ما قولكم على شيء ، لقد أخطأوا دين ابراهيم وخالفوه . ما وثن يعبد؟ لا يضر ولا ينفع فابتغوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء . فخرجوا يطلبون ويسيرون في الارض يلتمسون اهل الكتاب »[1] .

وقد زار زيد الشأم والبلقاء ، وعاش الى خمس سنين قبل البعث ، فهو من أولئك الرهط الثائرين على قومهم ، والذين أدركوا أيام الرسول . وقد نسبوا اليه شعراً في تسفيه عبادة قومه ، وفي فراقه دينهم وما لقيه منهم . وكان قد أوذي لمقالته هذه في دين قومه ، حتى اكره على ترك مكة والنزول بـ (حراء) ، وكان (الخطّاب بن نفيل) عمه ، وقد وكل به شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفائهم كلفهم ألا يسمحوا له بدخول البلدة ويمنعه من الإتصال بأهلها ، مخافة ان يفسد عليهم دينهم وان يتابعه احد منهم على فراق ما هم عليه . واضطر زيد الى المعيشة في هذا المحل ، معتزلاً قومه ، إلا فترات ، كان يهرب خلالها سراً ، ليذهب الى موطنه ومسكنه ، فكانوا اذا أحسوا بوجوده هناك ، آلموه وآذوه[2] .

وورد في رواية ، يرجع رواتها سندها الى (هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل) ، اي الى حفيد (زيد) ، تذكر أن (زيد) خرج مع (ورقة ابن نوفل) يلتمسان الدين ، حتى انتهيا الى راهب بالموصل ، فسأله عن الدين ، فلم يقتنع بالنصرانية ، اما (ورقة) ، فاقتنع بها وتنصر[3] . وتذكر رواية أخرى ان (زيد بن عمرو) خرج الى الشأم ومعه : (ورقة بن نوفل) ، و (عثمان ابن الحويرث) ، و (عبيد الله بن جحش)[4] . ويذكر الرواة أن زيداً كان

---

١ البداية (٢/٢٣٨) ، ابن هشام ، سيرة (١/٢٤٢) .
٢ ابن هشام (١/٢٤٠ وما بعدها) (البابي) ، بلوغ الارب (٢/٢٥١ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (١/١٦٢) « طبعة دار صادر » ، مروج الذهب (١/٧٠) « القاهرة ١٩٥٨ م » ، البدايه (٢/٢٣٨) .
٣ البداية (٢/٢٣٨) .
٤ البداية (٢/٢٤٣) .

نديماً لورقة بن نوفل ، فمات ورقة ، وخرج زيد الى الشأم ، فقتله لخم وجذام[1].

ويذكر أهل الاخبار ان حرصه على الحنيفية وتمسكه الشديد بها ، حمله على السفر إلى بلاد شاسعة بحثاً عنها وعن مبادئها الصحيحة ، مبادىء ابراهيم الاصيلة الخالية من كل درن وشائبة . فذهب إلى الموصل والجزيرة ، ثم طاف في بلاد الشأم حتى انتهى إلى راهب بـ (ميفعة)[2] (ببيعة)[3] من أرض البلقاء أو (أيلة) ، فسأله عما قدم من أجله ، فأرشده إلى ان ما يبتغيه ويراه لا يجده في النصرانية، فغادره وتركه ، وعاد يريد مكة موطنه . فلما توسط بلاد لخم أو جذام ، عدوا عليه وقتلوه . وقالوا أيضاً انه التقى في اثناء أسفاره هذه بأحبار اليهود وبعلماء من النصارى ، ولكنه لم يجد عندهم ما يطمئن نفسه ، وما يرى فيه التوحيد الخالص ، ومبادىء ابراهيم ، لذلك لم يدخل في ديانة ما من تلك الديانتين ، حتى قتل[4] .

وتذكر رواية من الروايات ، أن (زيد بن عمرو بن نفيل) مات بالسم في بلاد الشأم ، سمّه بعض ملوك غسان[5] . وتجعل رواية أخرى مقتله بمكان يقال له (ميفعة) من أرض البلقاء بالشأم ، وتذكر ان قتلته هم من بني لخم[6] . وتذكر رواية ان (ورقة بن نوفل) ، لما سمع بخبر وفاته بكاه في شعر له[7] .

وهنالك روايات أخرى تفيد رجوع زيد الى قومه بعد عودته من الشأم، ووفاته وفاة طبيعية لا قتلاً بيد إنسان . « توفي وقريش تبني الكعبة قبل ان ينزل الوحي على رسول الله بخمس سنين » ، ودفن بأصل حراء[8] .

---

١ المحبر (١٧٥) .
٢ ابن هشام (٢٤٩/١) .
٣ « ببيعة » ، البداية (٢٣٨/٢) .
٤ ابن هشام (٢٤٩/١ وما بعدها) ، طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الاول (ص ٢٧٦ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢٥١/٢ وما بعدها) ، « فلما توسط أرض جذام عدوا عليه فقتلوه » المحبر (ص ١٧٢) ، سير أعلام النبلاء ، للذهبي (٩٠/١ وما بعدها) ، ابن خلدون (٧٠٧/٢ وما بعدها) ، المسعودي ، مروج (٧٠/١) ، ارشاد الساري (١٧٢/٦ وما بعدها) .
٥ المسعودي ، مروج (٥٦/٢) .
٦ البداية (٢٤١/٢) .
٧ ابن هشام (٢٤٩/١ وما بعدها) .
٨ طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الاول (ص ٢٧٧) ، البداية (٢٤١/٢) .

وفي رواية تظهر عليها سيماء الصنعة ، أن الذي أرشد (زيد بن عمرو) الى الحنيفية ، حبر التقى به في بلاد الشأم ، وعالم نصراني ، وذلك أنه كان قد سألها عن دين صحيح قويم ، فأرشداه الى الحنيفية دين ابراهيم . فدخل فيها وصار يرفع يديه الى الله ويقول : اللهم إني أشهدك اني على دين ابراهيم[1] . ونجد في هذه الرواية أسئلة وجهها (زيد) الى الحبر في البحث عن الله وعن دينه الحق، وأجوبة الحبر عليها . كما نجد أسئلة أخرى ذكر أنه وجهها الى العالم النصراني ، ونجد أجوبة ذلك العالم عليها . وكيف أنهما دلاه على الحنيفية[2] .

وذكر (ابن حبيب) ان زيداً (أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان)[3] . وقال عنه (ابن دريد) ، وكان قد « ترك دين العرب في الجاهلية وقلاه »[4] . وقصد بـ (دين العرب) الوثنية ولا شك . وزعم انه « كان يحيي الموؤودة . يقول للرجل اذا أراد ان يقتل ابنته مهلاً: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها اليك ، وإن شئت كفيتك مؤونتها »[5] . وقيل انه كان يقول : « اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب اليك سجدت اليه . ولكني لا أعلمه . ثم يسجد على راحته »[6] . وانه كان « يقول : إلهي إلـه ابراهيم ، وديني دين ابراهيم . وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله تعالى ! انكاراً لذلك واعظاماً له »[7] . أو « يا معشر قريش : أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فترعى فيه ، وتذبحوها لغيره ! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين ابراهيم غيري »[8] . ويستقبل القبلة ثم يقول :

---

١ الطبري ، تفسير (٣/٣٠٦) ، صحيح البخاري (٥/٥٠) ، « مطبعة الازهر بمصر »،

٢ الاغاني (٣/١٢٦ وما بعدها) « دار الكتب المصرية » ، البداية (٢/٢٣٨) .

٣ المحبر (ص ١٧١) .

٤ الاشتقاق (ص ١٠٣) .

٥ طبقات ابن سعد ، الجزء الثالث : القسم الاول (ص ٢٧٦ وما بعدها) .

٦ المحبر (ص ١٧١) .

٧ أسد الغابة (٢/٢٣٦) ، طبقات الشعراء (٦٦) « طبعة ليدن » ، بلوغ الارب (٢/٢٤٨) ، البداية والنهاية (٢/٢٣٧) ، ارشاد الساري (٦/١٧١ وما بعدها)

٨ الاغاني (٣/١١٩ وما بعدها) .

أنفي لرب البيت عانٍ راغم مهما يُجشّمني فإني جاشم
عذت بما عاذ به ابراهيم مستقبل القبلة وهو قائم[1]

وروى ان أسماء بنت أبي بكر « قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره الى الكعبة يقول : يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيري . ثم يقول : اللهم اني لو أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به . ولكني لا أعلم . ثم يسجد على راحته »[2] . ثم يصلي الى الكعبة ويقول : إلهي إلـه ابراهيم ، وديني دين ابراهيم[3] .

وذكر (ابن دريد) أن (زيد بن عمرو بن نفيل) ، أدرك أيام الرسول ، ثم قال : « وكان النبي عليه الصلاة والسلام قبل الوحي قد حبب اليه الانفراد ، فكان يخلو في شعاب مكة ، قال : فرأيت زيد بن عمرو بن نفيل في بعض المشاعب ، وكان قد تفرّد أيضاً ، فجلست اليه وقربت اليه طعاماً فيه لحم ، فقال لي يا ابن أخي اني لا آكل من هذه الذبائح »[4] .

وذكر (ابن دريد) ، أن زيد بن عمرو قال شعراً في تجنبه الأصنام، هو :

فلا عزى أدين ولا ابنيتها ولا صنمي بني عمرو أزور
أرباً واحداً أم ألف ربّ أدين اذا تقسمت الأمور[5]

ويفهم من هذا الشعر أن (عزى) ، إلهة ، أي انثى ، وان لها ابنتين اثنتين. ولم يشر (ابن دريد) الى اسميهما .

وقد صيغت الرواية المتقدمة التي تشير الى التقاء الرسول بزيد في شكل آخر . صيغت بهذه الصورة : « أتى زيد بن عمرو بن نفيل على رسول الله صلى الله

---

١ كتاب نسب قريش ، للزبيري (ص ٣٦٤) .
٢ البداية (٢/٢٣٧) ، الذهبي ، تأريخ الاسلام (١/٥٤) . البغدادي ، خزانة (٣/٩٩) .
٣ المصدر نفسه .
٤ الاشتقاق (٨٤) ، ارشاد الساري (٦/١٧١ وما بعدها) .
٥ الاشتقاق (٨٤) ، وورد :
أرباً واحداً أم ألف رب أدين اذا تقسمت الامور
عزلت اللات والعزى جميعاً كذلك يعقل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني عمرو أزور

عليه وسلّم ، ومعه زيد بن حارثة ، وهما يأكلان من سُفرة لهما ، فدعواه لطعامها ، فقال زيد بن عمرو: يا ابن أخي : أنا لا آكل مما ذبح على النصب»[1].

وورد خبر التقاء (زيد) مع رسول الله في رواية أخرى . يرجع رواتها سندها الى (زيد بن حارثة) . يذكرون أنه قال : خرجت مع رسول الله في يوم حار من أيام مكة ، وهو مردفي ، فلقينا زيد بن عمرو بن نفيل ، فحيا كل منا صاحبه . فقال النبي : يا زيد مالي أرى قومك قد شنقوك ؟ فأجابه زيد ، بأنه لا يهتم بذلك ، وأنه خرج يبتغي دين الله ، حتى قدم على أحبار خيبر ، فوجدهم يعبدون الله ويشركون به . ثم سأل أحد الأحبار ، وهو شيخ منهم عن الدين الذي يبتغيه، فقال له : ما نعلم أحد يعبد الله به إلا شيخاً بالحيرة، فخرج اليه . فلما كلمه قال له : إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك قد بعث نبيٌّ، قد طلع نجمه . فعاد الى مكة[2] . ولو صح هذا الخبر لوجب أن يكون زيد قد أدرك مبعث الرسول . ولكن أهل الأخبار مجمعون على أنه توفي قبل المبعث . وان الرسول نفسه قال عنه : يبعث يوم القيامة أمة واحدة . وعلى الخبر سيماء الصنعة والتزويق .

وروي عنه ان قومه كانوا اذا دعوه الى وليمة ، كان يأبى ان يأكل منها قائلاً : « اني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه »[3] . وهكذا كان يقاطع أكل لحوم الحيوانات التي تذبح للأصنام . ويشاركه في الامتناع عن أكل لحوم هذه الذبائح الأحناف الآخرون ، فقد روي ان ورقة بن نوفل كان لا يأكل من لحوم هذه الذبائح أيضاً للسبب المذكور[4] .

ويذكر أهل الأخبار ان (زيد بن عمرو بن نفيل) كان اذا خلص الى البيت استقبله ثم قال : لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً ، البر أرجو لا الخال ، وهل مهجر لمن قال . ثم يقول :

عذت بما عاذ به ابراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم[5]

---

١ البداية (٢/٢٣٨ ، ٢٤٠) .
٢ أسد الغابة (٢/٢٣١) .
٣ البخاري (٥/٥٠) .
٤ الاغاني (٣/١١٩) .
٥ الاغاني (٣/١١٧) .

أو « لبيك حقاً ، تعبداً ورقاً ، عذت بما عاذ به ابراهيم »[1] .

وذكر انه كان يأمر بالتوحيد وبعبادة إلـٰه واحد . من ذلك قوله :

لا تعبدنّ إلهاً غير خالقكم   وإن دعيتم فقولوا دونه حدد[2]

وزُعم انه كان يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة ، فصلى وسجد سجدتين ، ثم يقول : هذه قبلة ابراهيم واسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلّي له ولا آكل ما ذبح له ، ولا أستقسم بالأزلام ، وانما أصلّي لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج فيقف بعرفة ، وكان يلبي ، فيقول : لبيك لا شريك لك، ولا ندّ لك . ثم يدفع من عرفة ماشياً ، وهو يقول : لبيك متعبداً مرقوقاً[3] .

ويروي أهل الأخبار أقوالاً أخرى لزيد ، كما رووا له أشعاراً زعموا أنه قالها ، وهي في هذه الأمور التي ينسبونها الى الأحناف من ذكر لديانة ابراهيم وللتوحيد ومن ذمّ الى الأصنام ومن اصلاح لحال مجتمع ذلك اليوم[4] . كما رووا له أبياتاً من شعر زعموا أنه نظمه يعاتب فيه زوجته (صفية بنت الحضرمي) ، لأنها كانت تمانع في خروجه عن مكة وفي سفره الى الخارج التماساً لهذا الدين[5] .

وتفيد رواية من روايات أهل الأخبار بأن (زيد بن عمرو بن نفيل) ، كان في جملة من اشترك في (حرب الفجار) ، تقول إنه كان على رأس (بني عدي) وذلك في يوم شمطة[6] .

وروي أن رسول الله سئل عن (زيد بن عمرو) ، فقال : « يبعث أمة وحده يوم القيامة »[7] . بل روي أنه ترحم عليه ، وأنه قال : « رأيته في الجنة يسحب ذيولاً »[8] .

---

١ الاغاني (٢/٢٣٨) .
٢ تاج العروس (٢/٣٣١) ، (حدد) .
٣ البداية (٢/٢٣٩) .
٤ الاغاني (٣/١١٧) .
٥ ابن هشام ، سيرة (١/٢٤٧) .
٦ البلاذري ، أنساب (١/١٠٢) .
٧ البخاري (٥/٥٠) ، المعارف (٢٧) ، البغدادي ، خزانة (٣/١٠٠) .
٨ ابن سعد ، طبقات (٣/٢٧٣) .

وينسب أهل الأخبار لزيد شعراً، هو من هذا الشعر الذي ينسبونه الى الأحناف، ذي الطابع الديني، من بحث عن توحيد، وحث على عبادة إله واحد، واقرار بحساب وكتاب. وأمثال ذلك[1]. وقد نسب بعض منه الى (أمية بن أبي الصلت)، ونسب بعض منه الى شعراء آخرين. كما ان الرواة يروون هذا الشعر بقراءات مختلفة.

ومن ولد زيد رجل كان له سبق وقدم في الاسلام، هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. كان من السابقين الأولين ومن المهاجرين، شهد المشاهد والأحداث المهمة، إلا بدراً، فإنه لم يكن حاضراً بالمدينة إذ ذاك. وهو أحد العشرة المبشرة. ذكر انه أسلم قبل دخول رسول الله دار الأرقم. ولا بد ان يكون لرأي والده في دين قومه وما أبداه من ثورة صريحة جامحة على عقائدهم أثر في نشوء هذا الابن وفي اقدامه مع السابقين على الدخول في الاسلام، بعد ان كان والده قد سبق إسلامه برحيله الى الآخرة بسنين. وأمه (فاطمة بنت بعجة بن أمية بن خويلد بن خالد بن اليعمر) من خزاعة. ولسعيد أخت اسمها عاتكة بنت زيد[2].

وذكر (ابن هشام) ان زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، اتفقوا في الرأي والعقيدة، وتعاهدوا على نبذ عبادة قومهم وما كانوا عليه من ضلال، وتصادقوا، وكوّنوا عصبة خرجت على عبادة قريش، فلم يشتركوا معهم في أعيادهم، ولم يشاركوهم في عبادتهم، وظلوا حتى ماتوا عن عبادة قومهم صابئين[3].

أما عبيد الله بن جحش بن رئاب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فقد بقي مرتاباً في دين قومه، بعيداً عنهم وعن عبادتهم، حتى اذا ظهر الإسلام دخل فيه، ثم هاجر مع من هاجر الى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت مسلمة كذلك. فلما صار في الحبشة، فارق الإسلام

---

١ البداية (٢/٢٤١ وما بعدها).

٢ كتاب نسب قريش (٣٦٥)، الاستيعاب (٤/٣٦٥)، الاصابة (٢/٤٤)، (رقم ٣٢٦١).

٣ ابن هشام (١/٢٤٢) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد »، المحبر (١٧١، ١٧٥، ٢٣٧)، الروض الانف (١/١٤٥).

وتنصر ، وهلك هناك[1] .

وأما عثمان بن الحويرث ، فقد بقي مغاضباً قومه في دينهم ، ثم رأى الذهاب الى الروم ، فذهب اليهم ، وتقرب الى قيصر ، وحسنت منزلته عنده ، وتنصر ومنحه لقب (بطريق) ، وأراد تنصيبه ملكاً على مكة ، ولكن قومه أبوا عليه ذلك ، فلم يتمّ له مراده ، ومات بالشأم مسموماً ، سمّه عمرو بن جفنة الغساني[2].

وذكر (الزبيري) ، أن والدة (عثمان بن الحويرث) ، هي (تماضر بنت عمير بن أهيب بن حذافة بن جمح)[3] . وأنه خرج الى (قيصر فسأله أن يملّكه على قريش ، وقال : أحملهم على دينك ، فيدخلون في طاعتك ، ففعل . وكتب له عهداً وختمه بالذهب ، فهابت قريش قيصر ، وهمّوا أن يدينوا له ، ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة ، فصاح ، والناس في الطواف : إن قريشاً لقاح، لا تملك ولا تملك . فاتسعت قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان مما جاء له ، فمات عند ابن جفنة ، فاتّهمت بنو أسد ابن جفنة بقتله »[3] . وكان ابن جفنة حبس أبا ذئب عنده ، وأبا أحيحة بسبب عثمان بن الحويرث[4] . ويقصدون بابن جفنة : عمرو بن جفنة الغساني[5] .

وتذكر احدى الروايات ، ان وفاة (عثمان بن الحويرث) كانت بالشأم ، وقد مات عند قيصر ، وكانت وفاته قبل المبعث بثلاثين سنة ، أو نحوها . وقد رثاه (زيد بن عمرو بن نفيل)[6] ، وورقة بن نوفل[7] .

ويعد (عثمان بن الحويرث) من أشراف (بني أسد) من قريش[8] . وقد كان مع (خويلد بن أسد) على رأس (بني أسد) في (حرب الفجار)[9] .

---

١ ابن هشام (١/٢٤٣) ، المحبر ٧٦ ، ٨٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣) ، البداية (٢/٢٤٣) .
L. Krehl, Das Leben Muhammad, S. 14.

٢ ابن هشام (١/٢٤٣) ، الاشتقاق (ص ٥٩) ، المحبر (١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ٣٠٧) ، الروض الانف (١/١٤٦) .

٣ كتاب نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، وذكر صاحب « المحبر » أن أمه من الحبشيات (٣٠٧) .

٤ كتاب نسب قريش (٢١٠) .

٥ جمهرة ابن حزم (١٩٠) .

٦ البداية (٢/٢٤٣) .

٧ كتاب نسب قريش (٢١٠) .

٨ المحبر (١٦٥) .

٩ المحبر (١٧٠) .

وكان ينادمه (شيبة بن ربيعة بن عبد شمس). وقد تنصرا جميعاً ، وقتل شيبة يوم بدر كافراً [1] .

وأما (أمية بن أبي الصلت) ، فهو أحسن الحنفاء حظاً في بقاء الذكر ، بقي كثيراً من شعره ، وربما وضع كثير منه على لسانه ، وحفظ قسط لا بأس به من أخبـــاره . وسبب ذلك بقاؤه الى ما بعد البعث ، واتصاله بتأريخ النبوة والاسلام اتصالاً مباشراً وملاءمة شعره بوجه عام لروح الاسلام . لم يكن مسلماً ولم يرض أن يدخـــل في الإسلام ، لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه ، وأن يتزل الوحي عليه ، فيكون نبي العرب والعالم أجمعين . فلما رأى النبوة في الرسول، حسده ، وأثار المشركين عليه ، ورثى قتلاهم في معركة بدر ، وحرض قريشاً عليه ، حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه الثقفيون . لم يمت مسلماً ، ولم يمت على دين الوثنيين من قومه : بل مات كافراً بالديانتين [2] .

وقد جاء في بعض الروايات ، ان وفاة (أمية) ، كانت في السنة الثانيـــة من الهجرة [3] . وورد في روايات أخرى أنه توفي سنة تسع للهجرة ، كافراً قبـل أن يسلم الثقفيون [4] .

ورثاؤه قتلى معركة بدر ، محفوظ في قصيدة حائية : مطلعها :

ألا بكيت على الكـــرا م بني الكرام أولي الممادح
كبكا الحمام عـــلى فرو ع الأيك في الغصن الصوادح

---

١ المحبـــر (١٧٥) .

٢ الاغاني (٤/١٢٠ وما بعدها) ، « طبعة دار الكتب المصرية » ، ابن هشام (١/١١، ٤٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٨) ، (٢/١٦٠ ، ٣٢١ ، ٤٠١ ، ٤٠٦) ، (٣/٦٥) « طبعة محمد محيـــي الـــدين عبد الحميد » ، شرح السيرة النبوية ، لابي ذر بن محمد بن مسعود الخشني (١/٢٣ ، ٢٤) ، « تحقيق بولس بروفله » نسب قريش (٩٨) ، جمهرة الانساب (٢٥٧) ، ابن قتيبة ، الشعراء (٤٢٩) ، شعراء النصرانية (٢/٢١٩ وما بعدها) ، الاغاني (١٦/٦٩) ، الحيوان للجاحظ (٢/٣٢٠) ، خزانة الادب (١/١١٩) ، الشعر والسعراء (١٧٦) ، النووي ، تهذيب الاسماء (١/١٢٦) ، Ency. IV, p. 997.

٣ تاريخ الخميس (١/٤١٢) ، الاغاني (٤/١٢٤ ، ١٢٩) ، الشعر والشعـــراء (١/٣٦٩) .

٤ الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) .

وهي قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتلى المشركين ، ودفنهم بالقليب،وفيهم (عتبة) و (شيبة) ابنا (ربيعة بن عبد شمس) ، وهما ابنا خالة أميـــة . وقد ذكر بعض الرواة ان الذي حمله على قول هذا الشعر ، هو انه لما وصل الى القليب موضع مدفن قتلى قريش في بدر ، وكان ذاهباً الى المدينة يريد الدخول في الاسلام ، قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكباد من المشركين : هل تدري ما في هذا القليب ؟ قال : لا . قيل : فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان . فجدع أنف ناقته ، وشق ثوبه ، وبكى ، وعاد الى الطائف[1] .

وذكر ان أمية نال في بيتين من هذه القصيــــدة من أصحاب رسول الله ، ولذلك أهملها (ابن هشام) صاحب السيرة[2] . وذكر أيضاً ان النبي نهى عن روايتها[3] . ولكن الرواة رووها وحفظوها ودوّنوها في الكتب ، فكيف تجرؤوا على حفظها وتدوينها لو صح ان النبي نهى عن روايتها على نحو ما يزعمه أهـل الأخبار .

وأميّة مثل سائر المتألهين الآخرين من طبقة الحنفاء ، سافر الى الشام ، واتصل بأهلها ، وأوى الى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم عما يهمه من مشكلات دينية وعما كان يجول في خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم . وكان تاجراً ، يذهب مع التجار في قوافلهم الى تلك الـديار التي كانت في أيدي الروم . ثم إنه كان على ما يظهر من الروايات الـتي وردت في ترجمته وسيرته قارئاً كاتباً ، قرأ الكتب ، ووقف عليها ، ومنها ومن اتصاله برجال الدين وبأهل الكتاب تكونت عنده فكرته عن الدين،وشكّه في عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات. وقد بدا هذا التأثر في الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملة في شعره وفي الأمثلة والقصص المنتزع من الكتابين : للعهد القديم والعهد الجديد ومن موارد

---

١ ابن هشام (٤٠١/٢ وما بعدها) ، راجع القصيدة في (ص ٢٠) من ديوان أمية ، بيروت ١٩٣٤ ، بلوغ الارب (٢٥٦/٢) ، خزانة الادب (١١٩/١) ، الحيوان ، للجاحظ (٣٢٠/٢) ، الشعر والشعراء (١٧٦) ، البيان والتبيين (٢٩١/١) ، المسعودي ، مروج (٧٣/١) » محمد محيي الدين عبد الحميد « « ١٩٥٨ م » ، الاغاني (١١٩/٣ وما بعدها) ، خزانة الادب (٣٩/٢ وما بعدها) ، الاغاني (٤/ ١٢٢) ، الاصابة (١٣٤/١) ، (رقم ٥٥٢) .

٢ ابن هشام (٤٠٥/٢) .

٣ الاغاني (١٢٣/٤) « ذكر أمية بن أبي الصلت ونسبه وخبره » ، بروكلمان ، تأريخ الادب العربي (١١٣/١) .

أخرى عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب [1] .

وقد ورد في بعض الأخبار ان امية سافر مرة مع أبي سفيان والد معاوية في تجارة الى بلاد الشأم ، فكان كلما نزل منزلاً أخذ فيه سفراً له يقرأه على من معه ، كما كان يزور علماء النصارى ويتباحث معهم ، وكان يلبس ثوبين أسودين حينما يقابلهم [2] . ولم تذكر الرواية شيئاً عن السفر أو الأسفار التي كان يقرأ منها أمية ويشرحها لمن معه من التجار . وتذكر رواية أخرى انه كان قد بلغ مع (أبي سفيان) غزة أو (ايلياء) [3] .

ولأمية في هذا اليوم ديوان ضم أكثر ما نسب اليه من شعر . كما ان في بطون كتب الأدب والأخبار أشعاراً أخرى لم يرد لها ذكر في هذا الديوان . ومعظم شعره هو عن الدين والآخرة وعن الجنة والنار والحساب والكتاب ، وقد تضمن إشارات الى حوادث وقعت في ايامه ، أو في ايام قريبة من ايامه مثل قصة الفيل، كما تضمن بعض قصص الأنبياء ، ولتعرض شعره الى هذه النواحي نعت بشاعر الآخرة [4] .

ومما ذكره الأخباريون ورواة شعر أمية من أمثلة على استعماله للكلم الغريب ، انه استعمل (الساهور) للقمر ، وهي كلمة لا تعرفها العرب ، وانه ذكر (السلطيط) ، اسماً لله تعالى . وانه أطلق كلمة (التغرور) على الله تعالى في موضع آخر من شعره ، وانه سمّى السماء (صاقورة) و (حاقورة) وانه استعمل أشياء أخرى من هذا القبيل . ولولعه هذا باستعمال الغريب ، رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره [5] .

---

١ الاغاني (٤/١٢١ وما بعدها) « طبعة دار الكتب المصرية » ، « وكان يحكي في شعره قصص الانبياء ، ويأتي بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، يأخذها من الكتب المتقدمة ، أو بأحاديث من أحاديث أهل الكتاب » الشعر والشعراء (١/٣٦٩) .

٢ البداية والنهاية ، لابن كثير (٢/٢٢٠) ، الاغاني (٤/١٢٣ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) .

٣ البداية والنهاية (٢/٢٢٤) .

٤ تاريخ الادب العربي ، لبروكلمن (١/١١٣) « الترجمة العربية » ، عيون الاخبار ، لابن قتيبة (٦/٣٧٤) ، الحيوان (٧/٣٢١) « عبد السلام محمد هارون » ، البيان والتبيين (١/٢٩١) .

٥ الاغاني (٤/١٢١ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (٢/٢١٩) ، ديوان أمية فحول الشعراء ، « جمع بشير يموت » « بيروت ١٩٣٤ م » (ص ٥ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (١/٤٨) .

والساهور ، كلمة آرامية الأصل من أصل (سهرو) Sahro ، بمعنى القمر ، أي تماماً بالمعنى الوارد في شعر أمية[1] .

وهذا الشعر المنسوب الى أميـــة وغريبه خاصة مادة مهمة جداً تجب دراستها بعناية ، لمعرفة مبلغ صحة ما جاء في أخبار الرواة عن هذه الكلمات وعن أصولها ومواردها الأولى ، إن صح انها من أشعار تلك الأيام حقــاً ، إذ ترشدنا أمثال هذه الدراسات الى معرفة المنابع التي استقى منها هذا الشاعر علمه وإلهامه ومدى تأثره وتأثر أمثاله من الجاهليين بالآراء والتيارات الفكرية التي كانت في مكة وفي خارج جزيرة العرب قبيل الاسلام .

وقد روى الأخباريون قصصاً عن التقاء أمية بالرهبان ، وعن توسمهم معـــالم النبوة فيه ، فكانوا يسألونه أسئلة تستخرج من أجوبتها في نظرهم معالم النبوة . فلما كانوا يقفون على الأجوبة ، يقولون له : كادت النبوة تكون فيه ، لولا بعض النقص في علاماتها عنده ، كما رووا قصصاً عن شق طيرين لقلب هذا الشاعر ، لتنظيفه ، وتهيئة النبوة فيه . ولكنهما عندما وقفا عليه لم يجدا أن النبوة خلقت له[2]. وقد حاكى أهل الأخبار في قصصهم هذا ما رواه رجال السير عن علامات النبوة عند الرسول[3] . كذلك رووا أنه كان يتفرس في لغات الحيوانات ، فيعرف مـــا تقوله وما تريده ويقصه على الناس وانه كان يسخر الجنّ ، وكانت تطيعه، وأنه تنبأ بموته حينما نعب عليه الغراب[4] . فجعلوه بأخبارهم هذه في مرتبة تضاهي سليمان في علمه بمنطق الطير وبقية الحيوانات[5] . وذكر (ابن دريـد) : « كان بعض العلماء يقول له لولا النبي صلى الله عليه وسلم ، لادعت ثقيف أن أمية نبي ،لأنه قد دارس النصارى وقرأ معهم ، ودارس اليهود وكلّ الكتب قرأ »[6] .

وتشبه قصة تنظيف الطيرين لقلب أمية ، وهي القصة التي أشرت اليها قبـــل

---

١ غرائب اللغة العربية (ص ١٨٩) .
٢ الاغاني (٤/١٢٣ وما بعدها) ، شعراء النصرانية ، الجزء الثاني (ص ٢١٩) . ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء (٢٢٠ وما بعدها) « دار المعارف » .
٣ Sprenger, Leben, I, S. 119, M. cl. Huart, Le Livre de la Création et de L'histoire, I, pp. 56, 153, 155, 156, 190, 191, 195.
٤ البداية والنهاية (٢/٢٢٧ وما بعدها) .
٥ النمل ، الآية ١٥ وما بعدها .
٦ الاشتقاق (ص ١٨٤) .

قليل ، خبر (حليمة السعدية) مرضعة الرسول لصدر النبي . ورواة قصة شق صدر أمية وتنظيف قلبه هم من أهل الطائف ، ويرجعون سند قصتهم الى أخت أمية المسماة (الفارعة) ، « وكانت ذات لُبّ وعقل وجمال ، وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم بها معجباً »[1] ، وقد وفدت عليه ، فلما سألها عن شعر أخيها كما يقول الرواة ، قصت عليه قصة الطيرين ، كما قصت عليه قصة وفاته، فقال رسول الله : « ان مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها »[2] .

ويشير القصص الوارد عن التقاء (أمية) بالأحبار وبالرهبان وباتصاله بهم ، الى أن امية كان يرجو ان يكون نبياً ، وأنه كان يعتقد بقرب ظهور نبي وتأمله أن يكون هو ذلك النبي المرتجى :

ألا نبيّ منا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا [3]

وقد كسف وتألم كثيراً وأكل الحسد قلبه ، حين فلت الأمر منه ، اذ سمع بإعلان الرسول رسالته ، ودعوة الناس الى دين الله ، الذي كان أمية نفسه يدعو اليه . وقد ورد أنه لما سمع بنبوة الرسول قال : « إنما كنت أرجو ان اكونه»[4].

ويروي أهل الأخبار أن امية كان قد مات وهو معتقد بأن الحنيفية حق إذ رووا أنه قال في مرض موته ، « قد دنا أجلي ، وهذه المرضة فيها منيتي وأنا أعلم ان الحنيفية حق ، ولكن الشك يداخلني في محمد . وقال : لا بريء فأعتذر ولا قوي فأنتصر » .

وفي جملة ما رووه عنه ، انه عرف مجيء يومه من نعيب غراب ، نعب على مقربة منه . فحدث القوم بما سمعه من الغراب ، وكان يعرف منطقه ، وقال لهم

---

١ البداية والنهاية (٢/٢٢٤ وما بعدها) .

٢ البداية والنهاية (٢/٢٢٤ وما بعدها) ، تهذيب ابن عساكر (٣/١٢٧) ، مروج (١/٥٧ وما بعدها) ، الطبرسي ، مجمع (٧/٦٣ وما بعدها) ، الطبري ، تفسير (٩/١٢١) « طبعة البابي » ، تفسير ابن كثير (٢/٢٦٤) ، شرح الشهاب على البيضاوي (٤/٢٣٦) .

٣ البداية والنهاية (٢/٢٢٧) تهذيب ابن عساكر (٣/١٢٧) ، تأريخ الخميس ، (١/٤١٢) .

٤ الاغاني (٤/١٢٣ وما بعدها) .

انه سيموت وذكر علامة ذلك ، فكان ان مات على نحو ما قال للقوم[1] . وذكر أيضاً انه لما كان على فراش الموت محتضراً أفاق عدة مرات ، وكان يتلو في كل مرة : « لبيكما لبيكما ، ها أنذا لديكما » ، ثم يتلو هذا الكلام بكلام آخر فيه توسل وتضرع الى الإلـه ، الى ان أفاق للمرة الأخيرة ، فقال شعراً بيّن فيه ان الموت أمر لا بد منه ، وانه هالك في هذه المرة لا محالة ، ثم هلك ، دون ان يؤمن بالرسول[2] .

وهذا القصص الوارد عن أمية ، هو – بالطبع – من القصص المصنوع الموضوع ، مثل كثير من أخباره وأخبار غيره ، قص على ذوي القلوب الطيبة من الرواة والأخباريين ، فأخذوه ونقلوه كما نقلوا ما شاء الله من الاسرائيليات والأساطير ، وروي على انه مما كان يعلمه الأحبار والرهبان والخاصة من أهل الكتاب .

ولا أستبعد ان يكون هذا القصص قد ظهر في ايام الحجاج عصبية وتقرباً اليه ، فقد كان الحجاج من ثقيف ، وكان أمية من ثقيف كذلك . وقد أنتج الوضاعون في ايامه شيئاً كثيراً من الأخبار في قبيلة ثقيف ، كما أنتجوا شيئاً في ذمها وفي ذم رجالها نكاية به .

وقد يكون في قول (الحجّاج) حين سئل عن شعر أمية ، شيء من التوجع والتألم أو المبالغة في تقديره حين قال : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية ، وكذلك اندراسُ الكلام » . وقد يكون كلام الحجاج غير ذلك ، لو كان أمية من قبيلة أخرى .

ونحن نستطيع ادخال قول من قال عن (أمية) « قيل انه كان نبياً »[3] في جملة هذه الدعاوى التي وضعت في هذا العهد ، للرفع من شأن (ثقيف) ومن الرد على المتهجمين عليها الطاعنين حتى في نسبها الذين جعلوا (ثقيفاً) من بقية (ثمود) ، وأيدوا قولهم هذا بحديث زعموا ان الرسول قاله : « ثقيف من

---

١ البداية والنهاية (٢/٢٢٧) .
٢ الاغاني (٤/١٢٥ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات فحول (ص ٢٢٠ وما بعدها) ، الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) .
٣ تهذيب ابن عساكر (٣/١١٥) .

ثمود »[1] ، وجعلوه من عبد لأبي رغال ، وأبو رغال نفسه الذي نسب عبده اليه ، أي جد ثقيف ، هو في نظر العرب وقريش خاصة سبّة[2] .

ويذكرون عنه انه بعد ان صبأ عن قومه وتحنف ، لبس المسوح على زي المترهبين الزاهدين في هذه الدنيا ، ورافق الكتب ونظر فيها ، ليستلهم منها العلم والحكمة والرأي الصحيح ، ثم حرّم الخمر على نفسه مثل بقية المتألهين ، وتجنب الأصنام ، وصام ، والتمس الدين ، وذكر ابراهيم واسماعيل ، وانه كان أول من أشاع بين قريش افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة : «باسمك اللهم» ، وهي الجملة التي نسخت في الاسلام بجملة : « بسم الله الرحمن الرحيم »[3] .

ويذكر أهل الأخبار ان امية أخذ جملة : « باسمك اللهم » من شيخ كان منطوياً على نفسه في برية نائية ، وذلك حينما ألح عليه قوم كانوا معه من قريش في عير لهم ، كانت قد نفرت ، بأن يجد طريقة لطرد حيّة كانت تظهر بين ابلهم فتنفرها ، فذهب الى ذلك الشيخ واستشاره في طريقة تبعد عنهم أذى تلك الحيّة ، فأشار عليه باستعمال تلك الجملة ، فهربت الحيّة ونفرت منهم ، وقد كان سبب ظهور تلك الحيّة كما يذكر أهل الأخبار ، هو أن رجلاً من القوم هو : (حرب بن أمية بن عبد شمس) كان قد قتل حيّة فقررت زميلتها الانتقام من قتلتها ، فقتلته الجن انتقاماً منه بثأر تلك الحيّة . وهربت الجن عند سماعها تلك الجملة . وإليه أشير كما يقول أهل الأخبار بقولهم :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فحرب هذا المذكور في هذا البيت ، هو حرب بن أمية ، وأما الشيخ فكان رجلاً من الجن[4] .

---

١ الاغاني (٤/٣٠٧) « دار الكتب » .
٢ الاغاني (٤/٣٠٢) « دار الكتب » .
٣ المسعودي ، مروج (١/٥٧ وما بعدها) ، ديوان ، أمية « المقدمة » لبشير يموت « بيروت ١٩٣٤ » ، ابن خلدون (١/١٧٧ وما بعدها) ، (بيروت ١٩٦١ م) ، التنبيه والاشراف (٣٥٩) ، (مكتبة الخياط) .
٤ الحيوان للدميري (٢/١٩٥) ، الاغاني (٤/١٢٢ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) .

ويُذكر أنه لم يكن يرتضي من الأديان غير دين الحنيفية ديناً . وأنه قال ذلك في شعر له :

كل دين يوم القيامة عند الله ، إلاّ دين الحنيفية ، زور[1]

وأنه كان يعظم الله في شعره ويكبره ويحمده ، ويرى أنه إلـه واحد لا شريك له ، وأن من يشرك به أحداً فقد ظلم نفسه :

الحمـــد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما[2]

وهناك من يروي أن (النابغة الجعدي)،كان يدعي أن هذا البيت وما بعده هو من نظمه . قال ذلك أمام (الحسن بن علي بن أبي طالب)[3] .

ويروى ان النبي كان يسمع شعر أمية ، وان (الشريد بن سويد) (الشريد ابن عمرو) الثقفي ، كان ينشد له شيئاً منه ، في اثناء أحد أسفاره . فكان كلما أنشد له شيئاً منه ، طلب منه المزيد ، حتى اذا ما أنشده مئة بيت ، قال النبي له : كاد ليسلم ، أو كاد ليسلم في شعره . وذكر ان الرسول قال في حديث له عنه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه[4] . وانه لما سمع شعره في الدين والحنيفية ومطلعه :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا   بالخير صبحنا ربـي ومسّانا

قال : « إن كاد أمية ليسلم »[5] .

---

١ الاغاني (٣/١١٢) ، البغدادي ، خزانة الادب (٢/٣٩) ، شيخو ، شعـــراء النصرانية ، الجزء النـــاني (ص ٢١٩) ، ابن هشام ، السـيرة (١/٤٠) ، (٢/٩٨٢) ، الاغاني (٤/١٢٣) « دار الكتب » ، الاصابة (١/١٣٠) « مطبعـة السعادة » .

٢ المسعودي ، مروج (١/٧٠) .

٣ طبقات ابن سلام (١٠٦ وما بعدها) ، الاغاني (٥/١٠) .

٤ صحيح مسلم « كتاب الشعر » ، (٧/٤٨) « طبعة محمد علي صبيح » ، طبقات ابن سعد : (٥/٣٧٦) ، « الشريد بن سويد » « الرشيد بن سويد » ، بلـوغ الارب (٢/٢٥٣ وما بعدها) ، المعارف ، لابن قتيبة (٢٨) ، المزهر (٢/٣٠٩) ، خزانة الادب (١/٢٢٧) ، ابن سعد (٥/٣٧٦) ، الشعر والشعراء (١/٣٦٩) ، الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) .

٥ الاغاني (٤/١٣٢ وما بعدها) « دار الثقافة » ، شرح الشهاب على البيضـاوي (٤/٢٣٦) ، تفسير ابن كثير (٢/٢٦٤) ، ديوان المعاني ، لابي هلال العسكري (١/٢٦) .

وروي عن (ابن عباس) ، ان الرسول لما سمع شعر (أمية) :

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد[1]

قال: صدق أمية .

وفي رواية أنه : « كان قد قرأ الكتب القديمة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً ، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فاتفق أن خرج الى البحرين، وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام هناك ثماني سنين . ثم قدم ، فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في جماعة من أصحابة ، فدعاه الى الاسلام ، وقرأ عليه سورة يس ، حتى اذا فرغ منها ، وثب أمية يجر رجليه ، فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية ؟ فقال : أشهد انه على الحق . قالوا : فهل نتبعه ؟ قال : حتى انظر في امره . فخرج الى الشام ، وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بها ، ترك الاسلام . وقال : لو كان نبياً ما قتل ذوي قرابته فذهب الى الطائف ومات »[2] .

وفي هذه الرواية المنسوبة الى الزهري ، عن سماع أمية بن أبي الصلت بنبوة النبي وهو في البحرين ، ثم مجيئه الى مكة والتقائه بالرسول ومحاجته له في ظل الكعبة ، ثم انكسافه وتراجعه وذهابه الى الشام ، ثم عودته منها [3] ، تكلف ظاهر ، وفي تفاصيلها ما يناقض بعضه بعضاً .

وورد في رواية أخرى ، ان أمية بن أبي الصلت قدم المدينة فقال للنبي : ما هذا الذي جئت به ؟ فقال الرسول : الحنيفية دين ابراهيم . قال : فأنا عليها. فقال عليه الصلاة والسلام لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها . فقال: أمات الله تعالى الكاذب منا طريداً وحيداً ، ثم خرج الى الشأم ، وأرسل الى المنافقين أن استعدوا للسلاح . ثم أتى قيصر ، وطلب منه جنداً ، ليخرج النبي

---

١ الاصابة (١٢٩/١) ، الاصابة (١٣٤/١) ، (رقم ٥٥٢) . (القاهرة ١٩٣٩ م).

٢ روح المعاني (١١٢/٩ وما بعدها) ، تأريخ الخميس ، للدياربكري (٤١٢/١) ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي (٦٣/٧ وما بعدها) ، (بيروت ١٩٥٧ م) .

٣ راجع البداية والنهاية (٢٢٠/٢) .

من المدينة ، فمات بالشأم طريداً وحيداً . وهي قصة ينسب وقوعها الى (أبي عامر) الراهب ، كما سبق أن تحدثت عن ذلك[1] .

وتخالف هذه الرواية الروايات المألوفة الواردة الينا عن وفاة (أمية) بالطائف . وتزعم احدى الروايات ، ان أميــة كان قد أخذ ابنتيه وهرب بهما الى أقصى اليمن ، وذلك حين بعث النبي . ثم عاد الى الطائف ، فبينما هو يشرب مع اخوان له في قصر بالطائف ، إذ سقط غراب على شرفة في القصر فنعب، وأدرك أمية انه ميت ، لأنه عرف منطق الغراب ، وحدّث القوم بذلك في قصة مفصلة تجدها في الكتب ثم مات[2] . وقصة الشرب هذه تناقض ما يذكر عنه أهل الأخبار من انه كان لا يقترب من الخمر ، ومن انه كان قد حرمها على نفسه، شأنه في ذلك شأن بقية الأحناف . كذلك يناقض خبر تحريمه الخمر على نفسه،خبر آخر ، خلاصته انه كان يشرب يوماً مع عبدالله بن جدعان ، فأخــذ الشراب برأس (ابن جدعان) ، وأصاب عين أمية ، فلما كان اليوم الثاني وجلس أيضاً للشرب معه ، سأل (عبدالله) أمية عن سبب الألم البادي على عينه ، فلما أخبره بأنــه كان هو سببه ، ترك (ابن جدعان) الخمر استحياء مما فعله وقال شعــراً في سبب تركه الخمر . ويقول أهل الأخبار : « ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية ، إلا ترك الخمر استحياء مما فيه من الدنس »[3] .

وتؤيد قصة ذهاب (أمية) الى اليمن وسكنه أمــداً هناك قصة ينتهي سندها بـ (أبي سفيان) ، خلاصتها انه كان قد ذهب في ركب من قريش الى اليمن في تجارة ، فمرّ بأمية ، وقال له كالمستهزىء به : يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته ؟ فأجابه أمية : اما انه حق فاتبعه . وقال له قولاً يتنبأ فيه بمصير أبي سفيان وكيف سيؤتى به الى الرسول ، فيحكم فيه كما يريد[4] . ففــي هذه القصة توكيــد بخروج أمية الى اليمن حين بعث الرسول وبمكوثه زماناً هناك .

وذكر أنه الشخص الذي نزلت في حقه الآية : « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه

١ روح المعاني (١١١/٩) ، تفسير الطبرسي (٥٠٠/٣) ، (طبعة طهران) .
٢ الاغاني (١٣٠/٤ وما بعدها) ، الاصابة (١٢٩/١) .
٣ الاغاني (٣٣٢/٨) .
٤ البداية والنهاية (٢٢٤/٢) .

آياتنا ، فانسلخ منها »[1] . وهي آية قيل أيضاً إنها نزلت في (بلعام بن باعور) (بلعم بن ابر) ، (بلعام بن باعرا) ، أو في زوج البسوس ، أو في (النعمان ابن صيفي الراهب)[2] .

وأمية كأكثر الشعراء له شعر في المدح وله تعريض . وأكثر مدحه في (ابن جدعان) من أجواد العرب المعروفين المشهورين في الجاهلية[3] . وهو في المدح او في الرثاء او في كل مناسبة اخرى ، مستعمل لكلمات ذات صلة بالدين وبالأفكار الدينية ولمصطلحات لا ترد إلا نادراً في الأشعار المنسوبة الى الشعراء الجاهليين ، مما يدل على غلبة التفكير الديني عليه ، وتأثير ما قرأه او أخذه من غير العرب فيه. سئل الأصمعي عن شعر أمية ، فقال : « ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب،وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب »[4].

ووالد (أمية) ، هو (عبدالله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي) او (ربيعة ابن وهب بن علاج بن أبي سلمة) الثقفي على رواية (الزبيري)[5] . أما امه فهي (رقيّة بنت عبد شمس بن عبد مناف) . وقد كان والده شاعراً . ذكر انه مدح (سيف بن ذي يزن)[6] .

ومن الرواة من ينسب القصيدة التي تنسب الى والد أمية ، والتي هي في مدح (سيف بن ذي يزن) ، الى امية نفسه . وفي هذه القصيدة إشارة الى ذهاب (سيف بن ذي يزن) الى هرقل ، فلما لم يجد منه أية مساعدة أو اهتمام ، عافه ، وذهب الى كسرى ، حيث وجد منه مساعدة ، فجاءت اليه بعد سنين

---

١ . الاعراف ، الآية ١٧٥ ، الاغاني (٤/١٢٥ وما بعدها) « بيروت » ، تفسير الطبري (٩/٨٢ وما بعدها) .

٢ روح المعاني (٩/١١١) ، تفسير الطبرسي (٣/٤٩٩ وما بعدها) .

٣ المحبر (ص ١٣٨) ، ديوان أمية بن أبي الصلت : تحقيق « فريدرش شولتس » (Friedrich Schulthetz) ، المطبوع بمدينة « لايبزك » سنة ١٩١١ ، وكذلك ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٩٣٤ م . جمع بشير يموت ، التبريزي ، شرح ديوان الحماسة (٤/١٤٥) ، الاغاني (٨/٣٢٧) ، تهذيب ابن عساكر (٣/ ١٢٣) ، ابن هشام ، (٣/١٤١) .

٤ الاصابة (١/١٢٩) ، الاغاني (٤/١٣٠ وما بعدها) .

٥ نسب قريش (٩٨) .

٦ الاغاني (٤/١٢٠ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١/٣٦٩) ، (بيروت) ، تهذيب ابن عساكر (٣/١١٥) ، اليعقوبي (١/٢٣) ، الاغاني (٤/١٢٠ وما بعدها) ، الازرقي ، تأريخ مكة (١/٩٣) ، جمهرة الانساب (٢٥٧) .

من تعب ومواظبة [1] .

وينسب الى أمية شعر ، ذكر انه افتخر فيه بـ (نزار) وبـ (معـــد) . وبقبيلة (إياد) ، حيث نعتهم بـ (قومي إياد)[2] .

ويتلخص ما جاء في شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء في الاعتقاد بوجود إلـه واحد ، خلق الكون وسوّاه وعدله ، وأرسى الجبال على الأرض، وأنبت النبات فيها ، وهو الذي يحيي ويميت،ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم ، وليجازيهم بما كسبت أيديهم ، فريق في الجنة وفريق في النار ، يساق المجرمون عراة الى ذات المقامع والنكال مكبلين بالسلاسل الطويلة وبالأغلال ، ثم يلقى بهم في النار يصلونها يوم الدين ، يبقون فيها معذبين بهـــا ، ليسوا بميتين ، لأن في الموت راحة لهم ، بل قضى الله ان يمكثوا فيها خالدين أبداً[3] .

أما المتقون ، فإنهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال ، لهم ما يشتهون ، فيها عسل ولبن وخمر وقمح ورطب وتفاح ورمان وتين وماء بارد عذب سليم ، وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، وحور لا يرين الشمس فيها ، نواعم في الأرائك قاصرات ، على سرر ترى متقابلات ، عليهم سندس وجيـــاد ريْط وديباج ، حلّوا بأساور من لجين ومن ذهب وعسجد كريم ، لا لغو فيها ولا تأثيم ، ولا غول ولا فيها مُليم ، وكأس لا تصدع شاربيها ، يلذّ بحسن رؤيتها النديم ، تحتهم نمارق من دمقس ، فلا أحد يرى فيهم سئيم .

وللوقوف على آراء (أمية) ، وعلى معتقداته الدينية يجب الرجوع بالطبع الى أشعاره وما نسب اليه من كلام . ففي هذا التراث الذي تغلب عليه النزعة الدينية والحكمية ، تتمثل آراء ذلك الشاعر الجاهلي الذي أدرك أوائل المبعث ، وهي آراء قريبة جداً من الاسلام ، وبعضها يكاد يكون قولاً اسلاميـــاً في لفظه وفي معناه مسبوكاً في شعر . وفي هذا الشعر قصص الرسل والأنبيـــاء : آدم ونوح وقصة

---

١ كتاب التيجان ، لوهب ، (٣٠٧) ، الشعراء والشعراء ، لابن قتيبه (١/٣٦٩) ، بروكلمان (١/١١٤) ، Schultheso Orient. Studien, I, 73.

٢ الاغاني (٤/١٢٠) ، (٨/٣٢٧ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (٢/٢٣٤) .

٣ وسيق المجرمون وهم عراة   الى ذات المقامع والنكال
ديوان أمية (٤٩) .
جهنم تلك لا تبقى بغيا   وعدن لا يطالعها رجيم
ديوان أمية (٥٣) ، (بنسير يموت) .

طوفانه ، والغراب والحمامة[1] ، وقصة ذي القرنين وبلقيس وحكاية الهدهد[2] ، وقصة ابراهيم وتقديم ابنه للذبح،وداوود ، وفرعون ، وموسى ، وابن عاد[3] . وعيسى وأمه مريم وكيفية حملها به ، فوصف ذلك بانياً وصفه على نحو ما جاء في القرآن الكريم عن تكوّن عيسى ، مضيفاً الى ذلك زيادات في حديث مريم مع الملائكة وجواب الملائكة لها[4] . كما أورد في الشعر قصة (لوط أخي سدوم)[5] . وهي من القصص المذكور في التوراة ، وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل[6] .

وفي أكثر ما نسب الى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار ، تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلاً لما ورد عنها في القرآن الكريم . بل نجد في شعر أمية استخداماً لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله وفي الحديث النبوي ، فكيف وقع ذلك ؟ وكيف حدث هذا التشابه؟ هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق او ان امية اخذ مادته من القرآن الكريم ، او كان العكس ، اي ان القرآن الكريم هو الذي أخذ من شعر امية فظهرت الأفكار والألفاظ التي استعملها امية في آيات الله وسوره ؟ فكتاب الله اذن هو صدى وترديد لآراء ذلك الشاعر المتأله ، او ان هذا التشابه مردّه شيء آخر هو تشابه الدعوتين واتفاقهما في العقيدة والرأي ، او اعتماد الاثنين على مورد أقدم ، هما الكتابان المقدسان : التوراة والانجيل ، وما لهما من شروح وتفاسير ، او كتب او موارد عربية قديمة كانت معروفة ثم بادت وبقي أثرها في القرآن الكريم وفي شعر أمية بن ابي الصلت ، او ان كل شيء من هذا الذي نذكره ونفترضه

---

١ جزى الله الاجل المرء نوحا ... جزاء البر ليس له كذاب
ديوان أمية (١٨ وما بعدها ، ٥٨) ، (بشير يموت) الحيوان ، للجاحظ (٢/ ١١٧) ، البدء والتاريخ (١/ ٢٤) .

٢ قد كان ذو القرنين قبلي مسلما ... ملكا علا في الارض غير معبد
من قبله بلقيس كانت عمتي ... حتى تقضى ملكها بالهدهد
ديوان أمية (ص ٢٦) ، (بشير يموت) .

٣ حي داوود وابن عاد وموسى ... وفريع بنيانه بالثقال
انني زارد الحديد على النا ... س دروعا سوابغ الاذيال
ديوان أمية (٥٠ وما بعدها) ، (بشير يموت) .

٤ وفي دينكم من رب مريم آية ... منبئة بالعبد عيسى بن مريم
ديوان أمية (٥٨) ، (بشير يموت) .

٥ ثم لوط أخو سدوم أتاها ... اذ أتاها برشدها وهداها
ديوان أمية (٦٩) ، (بشير يموت) .

٦ راجع التوراة ، ومادة (Lot) في معجمات التوراة .

افتراضاً لم يقع ، وان ما وقع ونشاهده ، سببه ان هذا الشعر وضع على لسان امية في الاسلام ، وان واضعيه حاكوا في ذلك ما جاء في القرآن الكريم فحدث لهذا السبب هذا التشابه .

أما الاحتمال الأول ، وهو فرض أخذ امية من القرآن ، فهو احتمال إن قلنا بجوازه ووقوعه ، وجب حصر هذا الجواز في مدة معينة ، وفي فترة محدودة تبتدىء بمبعث الرسول ، وتنتهي في السنة التاسعة من الهجرة ، وهي سنة وفاة أمية بن أبي الصلت . اما ما قبل المبعث ، فلا يمكن بالطبع ان يكون امية قد اقتبس من القرآن ، لأنه لم يكن منزلاً يومئذ ، وأما ما بعد السنة التاسعة ، فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضاً ، لأنه لم يكن حياً ، فلم يشهد بقية الوحي. ولن يكون هذا الفرض مقبولاً معقولاً في هذه الحالة ،إلا اذا أثبتنا بصورة جازمة ان شعر امية الموافق لمبادىء الاسلام ولما جاء في القرآن قد نظم في هذه المدة المذكورة ، اي بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة ، وأن امية كان يتتبع نزول الوحي ، ويجمعه،وانه كان يملك نسخة مما نزل على الرسول ، رجع اليها واقتبس منها ، وإلا سقط العرض . فإذا أثبتنا ذلك وثبتنا تأريخ نظم هذا الشعر، أمكنت المقابلة عندئذ بين شعر أميّة وما جاء في معناه وفي موضوعه من آيات نزلت بين ابتداء نزول الوحي على الرسول وبين السنة التاسعة ، أما الآيات التي نزلت بعد هذه السنة ، فلا تكون شاهداً على أخذ أميّة منها : لأنه كان قد توفي في السنة التاسعة ، فلا يقع هذا الافتراض .

ولكن من في استطاعته تثبيت تواريخ شعر أمية وتعيينه ، وتعيين أوقات نظمه؟ إن في استطاعتنا تعيين بعضه من مثل الشعر الذي قاله في مدح عبدالله بن جُدعان او معركة بدر . ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه ، وهي غالبية لم يتطرق الرواة الى ذكر المناسبات التي قيلت فيها . ثم إن بعض هذا الكثير مدسوس عليه ، مروي لغيره ، وبعضه إسلامي ، فيه مصطلحات لم تعرف إلاّ في الإسلام ، فليس من الممكن الحكم على آراء أمية الممثلة في شعره هذا بهذه الطريقة . ثم إن أحداً من الرواة لم يذكر ان امية كان ينتحل معاني القرآن الكريم، وينسبها الى نفسه . ولو كان قد فعل ، لما سكت المسلمون عن ذلك ، ولكان الرسول أول الفاضحين له .

بقي لدينا افتراض آخر . هو أخذ القرآن الكريم من أميـــة . وهو افتراض ليس من الممكن تصوره ، فعلى قائله اثبات أن شعر أمية في هذا الباب هو أقدم عهداً من القرآن الكريم ، وتلك قضية لا يمكن اثباتها أبـداً . ثم إن قريشاً ومن لف لفها ممن عارض الرسول لو كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه ، لما سكتوا عنه ، ولقالوا له انك تأخذ من أمية ، كما قالوا له : انك تتعلم من غلام نصراني كان مقيماً بمكة ، واليه اشير في القرآن الكريم بقوله : « ولقد نعـلم انهم يقولون : انما يعلمه بشر ، لسانُ الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربـي مبين »[1]. ولقد أشار المفسرون الى اسم الغلام ، كما سأتحدث عن ذلك في الفصل الخاص بالنصرانية عند العرب قبل الاسلام ، ولم يشيروا الى أمية بن أبـي الصلت[2] . ثم إن أمية نفسه لو كان يعلم ذلك او يظن ان محمداً انما اخذ منه ، لما سكت عنه وهو خصم له ، منافس عنيد ، أراد ان تكون النبوة له ، وإذا بها عند شخص آخر ينزل الوحي عليه ، ثم يتبعه الناس فيؤمنون بدعوته . أما هو فلا يتبعه أحد. هل يعقل سكوت أمية لو كان قد وجد اي ظن وإن كان بعيداً يفيد ان الرسول قد اخذ فكرة منه ، او من المورد الذي اخذ أميـــة نفسه منه ؟ لو كان شعَر بذلك ، لنادى به حتماً ، ولأعلن للناس انه هو ومحمد أخذا من منبع واحد ، وان محمداً أخذ منه ، فليس له من الدعوة شيء ، ولكانت قريش وثقيف اول القائلين بهذا القول والمنادين به .

نعم ، لقد ورد في الحديث ، كما قلت قبل قليل ، ان الشريد بن سويد كان قد أنشد الرسول شعر أمية ، وانه كان كلما أنشده شيئاً منه طلب منـه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مئة بيت ، قال له الرسول : آمن شعره وكفـــر قلبه ، او آمن لسانه وكفر قلبه ، ولكننا هنا بحاجة الى تثبيت تأريخ هذا الإنشاد ، وإثبات صحة الرواية وتدقيق رجال السند ، لاثبات ان ما أنشد لم يكن قد نزل في مثله الوحي .

وممن ذهب الى افتراض أخذ الرسول من أمية من المستشرقين (كليمان هوار) و (بور) Power . زعم (بور) انه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن

---

١ النحل ، الآية ١٠٣ .
٢ سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٠) .

الكريم ، فإن ذلك يدل على ان الرسول أخذ من (أمية) ، لأن أمية أقدم من الرسول[1] . وهذا الافتراض مقبول كما لو أثبتنا ان هذا النظم شعر أصيل صحيح، وانه نظم قبل نزول مشابهه في القرآن الكريم ، وانه لم يضف اليه في الاسلام . فإن أثبتنا انه له ، جاز لها مثل هذا الادعاء .

وأما الرأي الثالث – وأعني به رأي من يرجع التشابه بين شعر امية وما ورد من مثل معانيه في القرآن الكريم الى أخذ الاثنين من التوراة والانجيل وتفاسيرهما، والى بعض (الصحف) و (المجلات) التي أشير الى وجودها عند العرب – فهو رأي قديم ، وليس بجديد . رأي قيـل عن الوحي كله ، لا عن القرآن وشعر امية او غير امية ، قبل ان يخلق المستشرقون بأكثر من ١٣٠٠ سنة ، فقد زُعم « ان النبي يتعلم من غلام نصراني اسمه جبر !! » . وقد أشير الى هـذا الزعم في كتاب الله ، وجاء الرد عليه في قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون ، إنما يعلمـه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » . فلم يُخفِ القرآن الكريم ذلك الطعن والمغمز ، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل إنه كان يعلمه ، فذكروا جبراً هذا ، وكان غلاماً مقيماً بمكة ، وقـال بعضهم بل هو رجل رومي اسمه غير ذلك .

ولو كان الرسول وأمية قد أخذا من منهل واحد ، واستقيا من مورد واحد، لما سكتت قريش عن القول به ، ولما سكت أمية نفسه وهـو الغاضب الحاقد على الرسول عن الجهر به . وكيف يعقل سكوته عن هذا ، وهو أمر مهم جـداً بالنسبة اليه . وسيف يحارب به الإسلام؟ولما سكت مسيلمة ومن كان على شاكلته من المتنبئين من الإشارة اليه في أثناء حروب الردّة ، وقد كانت فرصة سانحـة لإظهار هذه المقالة . ولما سكت (يوحنا الدمشقي) وأمثاله من التلميح الى ذلك، وقد لمح بأمور كثيرة في طعنه على الإسلام .

ثم إنّ هذ التشابه ، على ما يتبين من نقده وتمحيصه ، ليس من نوع مـا يحصل عن أخذ شخصين مستقلين من مورد معين ، إنما هو من قبيل مـا يحدث من اعتماد أحـد الشخصين على الآخر ، بدليل ورود أمور في القرآن الكريم ،

---

١ ديوان أمية (ص ٧) ، « المقدمة الالمانية » « بتحقيق فردرش شولثيس » ، بروكلمن (١١٣/١) . Cl. Huart, JA. X, Vol., IV, 1904, p. 125.

لم ترد في التوراة ولا في الانجيل ، ولكنها وردت في شعر امية ، وبدليل ورود أكثر قصص الأنبياء والآراء والمعتقدات في شعر أمية على شكل إسلامي ، لا على النحو الوارد عند أهل الكتاب . واستعمال هذا الشعر لجمل وألفاظ وتراكيب اسلامية واردة في القرآن الكريم وفي الحديث لا في الكتب السماوية المذكورة . فلو كان مردّ هذا التشابه الأخذ من مورد واحد ، لوجب انحصار هذا التشابه في الأمور المشتركة التي ترد في الكتب المقدسة : التوراة والانجيل والقرآن ، وفي شعر أمية حسب ، لا في المسائل التي ترد في شعر أمية وفي القرآن الكريم ، ولا ترد في الكتابين المقدسين أو في الكتب الأخرى .

ثم إن المقابلة بين نصين لمعرفة صلة احدهما بالآخر،وأخذ احدهما من الآخر ، تستوجب التأكد من صحة نسبة هذا الشعر الى أمية . ففي هذا الشعر مقدار لا يمكن ان يشك في وضعه وصنعه ، ومقدار نص العلماء نصاً على انه لغيره ، وهم انما ذكروه في شعر أمية ، لأن بعض اهل الأخبار نسبه اليه . ولذلك استدركوا هذا الخبر ، بالاشارة الى اسم قائله الصحيح . فلم يبق من هذا الشعر ما يصلح للمقابلة غير القليل منه ، وهو القليل الذي له صلة بعقيدة ودين . وهذا القليل هو ، في الغالب ايضاً ، تبع لما ورد في القرآن وحده ، لا لما ورد في الكتابين المقدسين . ولما كان القرآن محفوظاً ثابتاً ، فلم يرتق اليه الشك . اما شعر أمية ، فليس كذلك ، وهو غير معروف من حيث تعيين تأريخ النظم . فهذه المقابلة إن جازت ، فانها تكون حجة على القائلين بالرأي المذكور ، لا لهم . وقد كان عليهم ان يثبتوا أولاً اثباتاً قاطعاً صحة رأيهم في أصالة هذا الشعر ، لا ان يفترضوا مقدماً انه شعر أصيل صحيح ، وان يذهبوا رأساً الى انه هو والقرآن الكريم من وقت واحد ، بل انه على حد قول بعضهم أقدم منه ، فكتاب الله منتزع منه .

وممن قال باحتمال أخذ القرآن وأمية من مورد مشترك واحد،(فردرش شولثيس) Friedrich Schulthetz ناشر ديوان أمية. وقد زعم أيضاً احتمال أخذ أمية من بعض آيات الله التي كانت مُنزلة يومئذ ، ونظمها في شعره . استند في زعمه القائل باقتباس الرسول من مورد مشترك الى ورود بعض كلمات في القرآن الكريم وفي الحديث وفي كتب السير ، يفهم منها على زعمه ان الرسول كان قارئاً كاتباً ، ولكنه لم يشترط في هذه المؤلفات كونها الإنجيل والتوراة ، بل ذهب الى انها

(مجلة) و (صحيفة) ، تتضمن أحاديث وتفاسير وقصصاً دينياً قديماً [1] . أما دليله ، فافتراض واحتمال ، وليس له غير هذين . ولا يقوم علم إلا على دليل ملموس .

أما أنا ، فأرى ان مردّ هذا التشابه والاتفاق الى الصنعة والافتعال . لقد كان أمية شاعراً ، ما في ذلك شك ، لاجماع الرواة على القول به . وقد كان ثائراً على قومه ، ناقماً عليهم ، لتعبدهم للأوثان . وقد كان على شيء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية ، ولكني لا أظن أنه كان واقفاً على كل التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث من العرش والكرسي وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك . إن هذا الذي أذكره شيء إسلامي خالص،لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى ، ولا عند الأحناف. فوروده في شعر أمية وبالكلمات والتعابير الاسلامية ، هو عمل جماعة فعلته في عهد الإسلام : وضعته على لسانه ، كما وضعوا أو وضع غيرهم على ألسنة غيره من الشعراء والخطباء ، لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الاسلام ، ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه،وأنه لم يكن لذلك غريباً ، وأن هؤلاء كانوا يعلمون الغيب، يعلمون بقرب ظهور نبيّ عربي ، وأنهم لذلك بشروا به ، وأنهم كانوا يتمنون لو عادوا فولدوا في أيامه ، أو لو طال بهم العمر حتى يدركوه فيسلموا،وأمثال ذلك من قصص راج وانتشر ، كما راج أمثاله في كل دين من الأديان .

ولا بد وأن يكون هذا الوضع قد صنع في القرن الأول للإسلام ، لأن أهل الأخبار القدامى يذكرون بعض هذا الشعر [2] . وقد يكون قد وضع أكثره في عهد الحجاج تقرباً اليه ، لأنه من ثقيف ، وفي ذلك العهد وضع الوضّاع أخباراً كثيرة في الغض من شأن قوم الحجاج ، نكاية بـه فتقدم قوم آخرون اليه بالرفع من شأنها وبإضافة ذلك الشعر الى أمية وغيره ، ليكون رداً على كارهي ومبغضي الحجاج .

وتتبين آية الوضع في شعر أمية في عدم اتساقه وفي اختلاف أسلوبه وروحه .

---

١ Ency., IV, p. 998, Tar Andrae, Die Entstehung des Islams und das Christentums, upsale, 1926, S. 48.

٢ بروكلمان (١/١١٣) .

فبينما نجد شعره المنسوب اليه في المدح أو في الرثاء أو في الأغراض الأخرى مما ليس لها صلة مباشرة بالدين ، في ديباجة جاهلية على نسق الشعر المنسوب الى شعراء الجاهلية ، نجد القسم الديني منه والحكمي في أسلوب بعيد عن هذا الأسلوب ، بعيد عن الأساليب المعروفة عن الجاهليين ، أسلوب يجعله قريباً من شعر الفقهاء والصوفيين المتزمتين ، ونسّاك النصارى ، فهو بعيد جداً من أسلوب الجاهليين ، حتى أسلوب مثل (عدي بن زيد) العبادي والأعشى وبقية من نسب الى النصرانية من شعراء الجاهلية القريبين من الاسلام[1] . يضاف الى ذلك ما ذكره الرواة وأهل الأخبار من نسبة بعض ذلك الشعر إلى غيره من الشعراء .

وقد يقال إن أسلوب (أمية) في نظم الشعر الديني والحكمي ، هو أسلوب صحيح لا يمكن إلا ان يكون على هذا الحال ، هو أسلوب بعيد عن أسلوب الجاهليين في النظم ، لأن الشعر الجاهلي المعروف نظم في أغراض أخرى لا صلة لها بالحكم وبالدين ، وما جاء منه إلينا في الحكم وفي الدين هو على أسلوب آخر أيضاً ، بدليل ان بعض الشعراء منهم حين نظموا في الحكم ، رق شعرهم وبان عن نظمهم المألوف . وبدليل ان نظم (حسان بن ثابت) في الاسلام ، هو دون نظمه في الجاهلية من حيث الجزالة والفخامة في النظم ، وان شعر (لبيد) في الاسلام ، هو دون ما نظمه في الجاهلية ، بسبب تغير الظروف واختلاف الموضوع . وهو اعتذار صحيح ، ولكن أسلوب أمية في تعبيره عن الجنة والنار والبعث والحساب ، أسلوب آخر ، لا يفصح عن عقلية دينية جاهلية ، وانما عن عقلية إسلامية . ومن هنا جاء شكنا في صحة هذا الشعر وفي أصالته ، وليس من أسلوب النظم .

ولكن من الذي وضع هذا الشعر ، ثم أنكره على نفسه وأسنده إلى أمية ؟ ومن الذي رصع شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته ، ولكنها أبيات إسلامية ؟ ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر في ديوان نسبه اليه ؟ هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة ، ولكن أجوبتها كتاب يؤلف في حياة هذا الشاعر وفي شعره وديوانه ، عندئذ يكون هناك مجال للتنقيب عن هذه الأمور ، رُوي ان الحجّاج قال ، وهو على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية »[2] . فهل ذهب العالمون

---

١ Ency., IV, p. 998.

٢ الاغاني (١٢٣/٤) .

به حقاً قبل ايام الحجاج ؟ وهل كان شعره ضخماً واسعـاً ؟ أو هو قول من أقوال الحجاج ، وهو ثقفي من قوم أمية ، أو هو قول وزعم من زعم الرواة . وما أكثر مزاعم الرواة وحملة الأخبار .

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج الى دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً . فالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمد والمن ربّ العبا د أنت المليك وأنت الحكمْ

هي قصيدة إسلامية ، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعرٍ لم يؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً من كل قلبه ولسانه . خذ هذا البيت منها مثلاً :

محمـداً أرسله بالهـدى فعـاش غنيـاً ولم يُهتضم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطـاء من الله أعطيتـه وخصّ به الله أهـلَ الحرم
وقـد علموا انـه خيرهم وفي بيتهم ذي الندى والكرم
يَعيبون ما قال لما دعـا وقد فرج الله احدى البُهَمْ
به وهو يدعو بصدق الحديـ ـث الى الله من قبل زيغ القدم
أطيعوا الرسول عبـادَ الإلـ ـه تنجون من شرّ يومٍ ألم
تنجون من ظلـمات العذاب ومن حر نارٍ على من ظلم
دعانـا النبيّ به خـاتم فمن لم يُجبْه أسر النـدم
نبي هدىً صـادق طيب رحيم رؤوف بوصل الرحم
بـه ختم الله من قبلـه ومن بعـده من نبي ختم
يموت كما مات من قد مضى يردّ الى الله بـاري النسم
مع الأنبياء في جنان الخلود هُمُ أهلها غير حلّ القسم
وقدس فينـا بحب الصلاة جميعاً وعلّم خط القـلم
كتابـاً من اللهِ نقرأ بـه فمن يعتريه فقدمـاً أثم

اقرأ هذه المنظومة ، ثم احكم على صاحبها ، هل تستطيع ان تقول انـه كان

شاعراً مغاضباً للرسول ، وإنه مات كافراً ، وان صاحبها رثى كفار قريش في معركة بدر وأنه قال ما قال في الإسلام وفي الرسول ؟ اللهم ، لا يمكن أن يقال ذلك أبداً فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الايمان ، هو واعظ مبشر ، يخاطب قومه فيدعوهم الى الاسلام والى طاعة الله والرسول . إنه مؤمن قلباً ولساناً، مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، وإنه مات وهو على كفره وعناده وحسده للرسول ، ثم إن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، مع أن أمية ، كان قد توفي في السنة التاسعة من الهجرة ، فهل يعقل أن يكون إذن هو صاحبها وناظمها ؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها إذن دليلاً على وجود أيد لصناع الشعر ومنتجيه في شعر أمية . نحمد الله على أن صنّاعها لم يتقنوا صنعتها ، ففضحوا أنفسهم بها ، ودلّوا على مقاتل النظم .

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية ، وهي في وصف الجنة والنار استهلت بهذا البيت :

جهنم تلك لا تبقي بغياً ... وعدنٌ لا يطالعها رجيمُ

ثم استمر في قراءتها ، وفي ما جاء فيها من وصف للجنة والنار ، ثم انعم النظر في هذه الأبيات :

فذا عسل وذا لبن وخمرٌ ... وقمح في منابته صريمُ
ونخل ساقط الأكتاف عد ... خلالَ أصوله رطب قميمُ
وتفاح ورمان وموز ... وماء بارد عذب سليم
وفيها لحم ساهرة وبحر ... وما فاهوا به لهُمُ مقيم
وحورٌ لا يرين الشمس فيها ... على صور الدمى فيها سهوم
نواعم في الأرائك قاصرات ... فهنَّ عقائل وهُمُ قروم
على سرر ترى متقابلات ... ألا ، ثمَّ النضارةُ والنعيمُ
عليهم سندس وجياد ريَط ... وديباج يُرى فيها قتوم
وحُلّوا من أساور من لُجينٍ ... ومن ذهب . وعسجده كريم
ولا لَغْوٌ ولا تأثيم فيها ... ولا غولٌ ولا فيها مُليمُ

وكأس لا تصدع شاربيها   يلذُّ بحسن رؤيتها النديم
تصفّق في صحاف من لجين   ومن ذهب مباركة رذوم[1]

ثم احكم بعد ذلك على صاحب هذه الأبيات. لقد حاول ناظمها ادخال بعض الكلمات الجاهلية فيها، لإلباسها ثوباً جاهلياً، ولاظهارها بمظهر الشعر الجاهلي الأصيل، ولكنه لم يتمكن من ذلك، بل صيرها في الواقع نظماً لوصف الجنة والنار في الاسلام. وما بي حاجة الى ان أحيلك على الآيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه من القرآن الكريم.

ومن الغريب ان بعض الأخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لتبيان عقائد الجاهليين، فذكر مثلاً ان العرب في جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء، وان منهم من نظر في الكتب وكان مقراً بالجنة والنار. وحجته في ذلك هذه المنظومة المنسوبة الى أمية[2]. وقد نسي ان ما قاله على سبيل التعميم او التغليب، يناقض ما جاء في القرآن الكريم وما أورده الأخباريون عن الجاهليين.

ثم خذ قصيدته في عيسى بن مريم وحمل أمه به[3]، وسائر قصائده الأخرى، تجد عليها هذه المسحة الاسلامية بارزة ظاهرة، ولكن هذا لا يمنع مع ذلك من القول بوجود أبيات قد تكون من نظم أمية حقاً، في هذا المنظوم الديني، غير ان هذا الموجود، هو على كل حال مما لا يتعارض مع عقائد الاسلام. ومن الممكن ادراكه بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفكاره، وبهذه الطريقة نتمكن من استخلاص الأصيل من شعره من الهجين.

ولأمية بن أبي الصلت أخت، اسمها (فارعة)[4]. قدمت على النبي بعد فتح الطائف. وكانت ذات لب وعفاف وجمال، وكان يعجب بها. وقال لها يوماً: هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً؟ فأخبرته خبره وقصت قصته في شق جوفه

---

١ تجد اختلافا في كلمات هذه القصيدة وأبياتها، وكذلك في قصائد هذا الشاعر الأخرى، فارجع في ذلك الى طبعات ديوانه والى كتب الادب لمعرفة مواضع الاختلاف: كتاب البدء والتاريخ (١/٢٠٢ وما بعدها)، ديوان أمية «طبعة بشير يموت»، (ص ٥٣)، ديوان أمية (ص ٥١ وما بعدها)، «طبعة فريدرش شولثيس».

٢ كتاب البدء والتأريخ (١/٢٠٢)، (طبعة كليمان هوار)، «النص العربي».

٣ ديوان أمية (ص ٥٨)، «طبعة بشير يموت».

٤ اللسان (١/٧٩٢)، (وثب).

واخراج قلبه وردّه مكانه وهو نائم وأنشدته شعره[1] ، على ما يزعمه أهل الأخبار.

وذكر أهل الأخبار أسماء أربعة بنين لأمية ، هم : القاسم ، ووهب ، وعمرو (عمر) ، وربيعة . فأما (القاسم) ، فكان شاعراً ، وله مرثية في عثمان بن عفّان[2] . وأسلم (وهب بن أمية) كذلك . وذكر أن رجلاً من ثقيف مات في عهد النبي عن غير ولد ، فاختصموا في ميراثه ، فأعطى النبي ميراثه لوهب[3]. وأما (ربيعة) ، فأسلم كذلك ، وله شعر[4] . وقد ذكر أهل الأخبار أن (حقة) بنت (وهب بن أمية بن أبي الصلت) ، تزوجت (عبدالله بن صفوان الأكبر) ، فولدت له صفوان بن عبدالله بن صفوان[5] . وذكر أن (ربيعة) ، قد ولي بعض الوظائف في الإسلام . وأنه صاحب (ربيعتان) ، نهر بقرب الابلة . وأن من ولده (كلدة بن ربيعة) ، وكان شريفاً شاعراً . وقد ذكر أن بغلاً قتل (ربيعة) على باب دار (عبدالله بن عباس)[6] .

وكل ما يعرف عن سويد بن عامر المصطلقي أنه كان على دين الحنيفية وملة ابراهيم ، وأنه قال شعراً ، وصلت منه بضعة أبيات في (المنايا) وفي المقدر على الإنسان ، وان المنايا محتومة لا مفرّ منها ، وأن الخير والشر مكتوبان على النواصي ،وليس لامرىء يدٌ فيما يصيبه من مقدور . فهي في هذه المشكلة المعضلة التي شغلت بال الإنسان ولا تزال تشغله مشكلة : (الجبر والاختيار) ، أو (القدر) ، المشكلة التي احتلت منزلة الصدارة في (علم الكلام) . والتي صارت من أهم موضوعات الجدل في الاسلام . ويقال انها أنشدت للرسول ، فلما سمعها، قال : « لو أدركته لأسلم »[7] .

وأما ورقة بن نوفل ، فهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، يلتحم نسبه بنسب الرسول في جد جده . ذكروا انه ساح على شاكلة من شك في

---

١ الاصابة (٣٦٣/٤) ، (رقم ٨٢٤) .
٢ الاصابة (٢١٣/٣) ، (رقم ٧٠٥٢) .
٣ الاصابة (٦٠٤/٣) ، (رقم ٩١٥٧) .
٤ الاصابة (٤٩٣/١) ، (رقم ٢٥٩٠) .
٥ الاصابة (٦٠٤/٣) ، (رقم ٩١٥٧) .
٦ كتاب البغال، للجاحظ (٢٥٨/٢) ، (من رسائل الجاحظ) ، الاغاني (١٧٩/٣)، الاشتقاق (٣٠٤ وما بعدها) ، (١٢٠/٤) ، الشعر والشعراء (٣٦٩/١) ، الاصابة (١٩٧/٢) أنساب العرب (٢٦٩) .
٧ بلوغ الارب (٢٥٩/٢) .

دين قومه ، وتتبع اليهود والنصارى ، وقرأ الكتب ، وعـدّ في جملة المتنصرين في أغلب الروايات ، فقد ذكر انه « تنصر واستحكم في النصرانية ، وقرأ الكتب ومات عليها »[1] . وهذا هو رأي اكثر اهل الأخبار .

ونسب اليه شعر ذكر انه قاله في رثاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وفيه إشارة الى النار والى الثواب والعقاب بعد الموت والى فكرة التوحيد والايمان برب ليس رب كمثله والى التنديد بالأوثان[2] .

وله أبيات من الشعر يحث فيها على مساعدة الضعيف ونصر المظلوم ، وعلى فعل الخير للناس[3] .

ولا نعلم عن حياة ورقة في ايام شبابه شيئاً ، ولعله كان يعين اهله او اقربائه في اتجارهم مع بلاد الشأم او اليمن شأن اكثر شبان أسر مكـة المعروفة في ذلك الوقت . فتعلم بذلك سلوك الطرق الموصلة الى العراق او بـلاد الشأم ، ومن هنا اندفع نحو خارج الجزيرة يلتمس الحكمة والوصول الى رأي يقنعه في الحيـاة . ويظهر انه لم يكن في شبابه من اولئك الشباب الخاملين الذين كانوا يصرفون وقتهم في فراغ دائم ، دون عمل ولا تفكـير ، متوسدين الأرض يقتلون فراغهم في ترهات الكلام ، كما انه لم يكن من اولئك الطائشين النزقين الذين يقضون وقتهم في النزاع والخصومة وشرب الخمر والاعتداء على الناس ، والحصول على المـال للانفاق على اللهو بأية طريقة كانت ، بل كان شاباً متأملاً مفكـراً منكمشاً على نفسه ، مكنه علمه بالكتابة والقراءة من قراءة الكتب والاطلاع على آراء الماضين والحاضرين ، حتى جاء يوم ، دفعه اجتهاده الذي وصل اليـه على الخروج على تقاليد قومه وانتقاد الأوضاع التي كانوا عليها ، مما حمله على ترك مكة طوعاً او قهراً ، والتجول للبحث او فراراً من غضب قومه عليه .

وهو ابن عم خديجة الكبرى زوج الرسول . وقد أشير اليه في خبر « مجيء جبريل الى النبي في حراء » ،وله كلام مع الرسول على ما ورد في بعض الروايات.

---

١ اليعقوبي (٢٩٨/١) « ٢٢/٢ » « ليدن » ، البداية ، لابن كثير (٢٣٨/٢) .

٢ المحبر (١٧١) ، ابن هشام (٢٤٣/١ ، ٢٥٦) ، الاغاني (١١٣/٣ وما بعدها) ، شيخو ، النصرانية (١١٨/١) ، خزانة الادب (٣٩/٢ وما بعدها) ، مـروج (٧٣/١) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام (٦٨/١) .

٣ خزانة الادب (٣٩/٢ وما بعدها) .

يقال إنه قال للرسول وكان قد ذهب اليه مع زوجته خديجة ليسأله رأيه فيما رآه من الرؤيا : « ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ! » وان الرسول قال له : أمخرجي هم ؟ قال : نعم ، إنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلا عودي ، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً »[1] . وأشير اليه في خبر آخر ، حيث ورد أن (خديجة) ذهبت وحدها الى ابن عمها لتسأله عن الرؤيا التي رآها الرسول وعن هذا (الناموس الأكبر) الذي تجلى له . فلما قصت عليه القصة قال : «لئن كنت صادقة ، إنّ زوجك لنبي ، وليلقين من أمته شدة ، ولئن أدركته لأومننَ به »[2] .

وذكر في خبر آخر أن الرسول قد رأى (ورقة) في منامه ، وكان لابساً ثياباً بيضاً . وان الرسول ذكر ذلك لمن سأله عنه ، وبين لهم أنه لو كان من أهل النار لما ظهر له في منامه وهو بهذه الملابس . لأن أهل النار لا يلبسون ثياباً بيضاً[3] . ويروى أن الرسول قال : « لا تسبّوا ورقة بن نوفل ، فإني رأيته في ثياب بيض »[4] . قيل إن شخصاً تساب مع أخ لورقة بن نوفل ، فسب ورقة ليحرق قلب أخيه ، فبلغ ذلك الرسول ، فنهى عن سبّه[5] .

وجاء في خبر ان (ورقة) كان يمر بمكة فيرى بلالاً وهو يعذّب ، يعذبه المشركون برمضاء مكة ، يلصقون ظهره بالرمضاء ، ويضربونه يريدون منه ان يشرك بالله ، فلا يشرك به . ويأبى إلا ان يقول : أحد أحد،فيرثي ورقة لحاله ويقول : أحد أحد والله يا بلال . والله لئن قتلتموه فأنتم من الخاسرين[6] . او « والله لئن قتلتموه ، لاتخذن قبره حناناً »[7] .

---

١ الطبري (٢/٢٩٩) « دار المعارف » ، ابن هشام (١/٢٥٤ وما بعدها) ، المسعودي مروج (٢/٥٩) ، (١/٧٣) « محمد محيي الدين عبد الحميد » « ١٩٥٨ م » ، الكامل ، لابن الاثير (٢/٣١) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام (١/٧٥) ، القسطلاني ، شرح صحيح (١/٦٦) ، الاصابة (٣/٦٣٣) .

٢ الطبري (٢/٣٠٠) « دار المعارف » ، ابن سعد ، الطبقات (١/١٩٤) « بيروت ١٩٥٧ م » ، شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني (١/٦٦ وما بعدها) .

٣ الاغاني (٣/١١٣ وما بعدها) « بيروت ١٩٥٥ م » .

٤ كتاب نسب قريش (ص ٢٠٧) ، الترمذي (٣/٢٥١) ، الاصابة (٦/٣١٨ وما بعدها) ، مجمع الزوائد (٩/٤١٦) .

٥ الاصابة (٣/٦٣٣) .

٦ الاغاني (٣/١١٣ وما بعدها) .

٧ النهاية ، لابن الاثير (١/٢٢٦) ، الاصابة (٦/٣١٨) ، كتاب نسب قريش (٢٠٨) .

ويظهر من الأخبار المتقدمة ان (ورقة بن نوفل) ، كان قد أدرك ايام الرسول وعاش الى يوم نزول الوحي عليه . بل يظهر من خبر رؤيته لبلال وهو في حالة تعذيبه ، انه عاش مدة بعد نزول الوحي . غير ان الأخبار المذكورة لا تنص على اسلامه ، ولم نجد أحداً قد نص على ذلك . أما خبر رؤيا الرسول له في منامه ، فانه يدل على عدم إسلامه ، وعلى انه كان قد توفي قبل نزول الوحي على الرسول . وهو الرأي الراجح. وهذا ما حمل أحد المؤرخين على القول: وقد اختلف فيه ، فمنهم من زعم انه مات نصرانياً ولم يدرك ظهور النبي. ومنهم من رأى انه مات مسلماً وانه مدح النبي[1] . وقد ورد في بعض الأخبار ان الرسول قال لما توفي ورقة : « لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير ، لأنه آمن بي وصدقني »[2] . وورد مثل ذلك من أحاديث زعم ان الرسول قالها في حق ورقة ، وهي كلها تشير الى وفاة ورقة قبل المبعث ، وعلى دينه ، إذ لم يدرك الاسلام .

وورد في بعض الروايات أنه « كان يكتب الكتاب العربي ، فكتب بالعربية من الانجيل ما شاء أن يكتب »[3] . وورد في رواية أخرى أنه « كان يكتب الكتاب العبراني ، فكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب »[4] . والخبران هما خبر واحد ، كما يظهر من وحدة النص ، غير إن اسم اللغة التي زعم أنه كان يكتب بها قد حرّف ، فقرأه بعضهم العربي ، وقرأه بعض آخر العبراني . ولما كان الانجيل باليونانية وبلغة بني إرم ، فقد أخطأ الرواة بجعل لغة الانجيل هي العبرانية ، وهم يتوهمون كثيراً فيخلطون بين العبرانية والسريانية . والغالب أنهم كانوا يريدون بالعبرانية لغة بني إرم التي كانت لغة العلم والأدب والدين في العراق وفي بلاد الشأم ، بل وبين مثقفي اليهود ورجال دينهم في ذلك الوقت .

وذكر أهل الأخبار أنه لم يعقب[5] . ولم يذكروا سبب ذلك ، هل كان قد

---

١ المسعودي ، مروج (٢/٥٩) .
٢ القسطلاني ، شرح صحيح (١/٦٥) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام (١/٦٨) ، الذهبي ، سير النبلاء (٨٠) ، خزانة الادب (٢/٤١) .
٣ النصرانية (١/١١٩) .
٤ الاغاني (٣/١١٣) ، الاشتقاق (١٦٤) .
٥ كتاب نسب قريش (ص ٢٠٧) .

تزوج ، ولكنه كان عقيماً ، فلم يعقب ؟ أو أنه عاش أعزب ولم يتزوّج طول حياته ؟

وكان (أبو قيس صرمة بن أبي أنس) (صرمة بن أنس) وهو من بني النجار ، قد ترهب ولبس المسوح ، وهجر الأوثان ، ودخل بيتاً واتخذه مسجداً لا تدخله طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب ابراهيم ، فلما قدم النبي المدينة أسلم وهو شيخ كبير ، وحسن إسلامه . وفيه نزلت الآية : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »[1].ورووا له شعراً[2]. وزعم أنه اغتسل من الجنابة ، وهمّ بالنصرانية ، ثم أمسك عنها . وذكر أن (ابن عباس) كان يختلف اليه يأخذ عنه الشعر[3] .

وأما (وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي)،فهو من إياد ، زعم(ابن الكلبي) انه ولي البيت بعد جرهم ، فبنى صرحاً بأسفل مكة ، وجعل فيه أمة يقال لها (حزورة) ، وبها سميت (حزورة مكة) ، وجعل في الصرح سلّماً ، فكان يرقاه ويزعم انه يناجي الله . وكان ينطق بكثير من الخبر ، ويزعم الناس انه صدّيق من الصدّيقين ، وقالوا كان كاهناً[4] . وذكروا له كلمات مسجعة ، ليس فيها ما يشرح لنا معتقده الديني ويوضحه وضوحاً تاماً[5] .

والصرح كما يقول علماء اللغة ، بيت يبنى منفرداً ضخماً طويلاً في السماء

---

١ البقرة ، الآية ١٨٧ ، مروج ، (١/٥٢ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٢/٩٧) « بولاق » .

٢ بلوغ الارب (٢/٢٦٦) .

٣ بلوغ الارب (٢/٢٦٦) ، أسد الغابة (٣/١٨) ، الاصابة (٢/١٧٦) ، (رقم ٤٠٦١) ، الاستيعاب (٢/١٩٤) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ المحبر (١٣٦) ، بلوغ الارب (٢/٢٦٠) .

٥ (وقال الايادي صاحب الصرح ، الذي اتخذ سلما لمناجاة الرب ، وهو القائل : مرضعة وفاطمة ، القطيعة والفجيعة ، وصلة الرحم وحسن الكلم ، زعم ربكم ليجزين بالخير ثوابا ، وبالشر عقابا، وان من في الارض عبيد لمن في السماء. هلكت جرهم وربلت اياد ، وكذلك الصلاح والفساد . من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه . كل شاة معلقة برجلها .
واياه عنى الشاعر بقوله :
ونحن اياد عبيد الاله ورهط مناجيه في السلم
ونحن ولاة حجاب العتيق زمان الرعاف على جرهم
البيان والتبيين (٢/١٠٩) ، الامال ، للميداني (٢/٨١) .

وكل بناء عالٍ مرتفع[1] . والحزورة الرابية الصغيرة والتل الصغير[2] . ويظهر انه كان بنى صرحه فوق تل في محل منفرد ، ليختلي هناك على طريقة الرهبان والنساك .

وكل ما عرفه أهل الأخبار عن (عمير بن جندب) الجُهَني ، انه كان من جهينة ، وانه كان موحداً لم يشرك بربه أحداً ، وانه مات قبيل الاسلام[3] .

وكان عامر بن الظرب العَدواني من الحكماء ، نسبت اليه أقوال في الحكم والدين . منها: « إني ما رأيت شيئاً خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء ، لأحياهم الدواء » . ثم قال: « إني أرى أموراً شتّى وحتّى . قيل له : وما حتّى ؟ قال : حتّى يرجع الميت حياً ، ويعود اللاشيء شيئاً ، ولذلك خلقت السماوات والأرض ، فتولوا عنه ذاهبين »[4] .

وقد نسبوا اليه جملة أحكام ، منها حكمه في (الخنثى) ، وقد ذكروا أن حكمه هذا قد أقرّه الاسلام . وقالوا إن العرب كانت إذا أشكل عليها أمر في قضاء ، أو حارت في أمر معضل ترى وجوب الحكم فيه برأي صائب وعقل وتدبير ، ذهبت اليه ، فإذا حكم كان حكمه الحكم الفصل ، فلا رادّ له[5] .

ونسبت الى كل من عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة وعلاف بن شهاب التميمي أبيات ، فيها اقرار بوجود إلّه واحد خالق لهذا الكون ، وبوجود الحساب والثواب والعقاب[6] .

وأما (المتلمس بن أمية) الكناني ، فذكروا انه كان قد اتخذ من فناء الكعبة موضعاً يخطب فيه ، ويعظ قومه عظات دينية ، فكان في جملة ما قاله لهم :

---

١ تاج العروس (٢/١٧٨ وما بعدها) ، (صرح) .
٢ تاج العروس (٣/١٣٨) ، (حزر) .
٣ بلوغ الارب (٢/٢٦١ وما بعدها) .
٤ المحبر (١٣٥ ، ١٨١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩) ، بلوغ الارب (٢/٢٧٥ وما بعدها) .
٥ الروض الانف (١/٨٦) ، ابن هشام (١/١٣٤) ، (محمد محيي الدبن عبد الحميد) ، المعمرون (٤٤ وما بعدها) ، عيون الاخبار (١/٢٦٦) ، البيان والتبيين (١/٢٦٤ ، ٣٦٥ ، ٤٠١) ، (٢/٧٢ ، ١٩٩) ، (٣/٣٨ ، ٣٩ ، ٢٩٩ ، ٣٦٩) .
٦ الاغاني (٣/١١٣) ، (طبعة بيروت) ، مروج (٢/٦٠) .

« انكم قد تفردتم بآلهة شتى ، واني لأعلم ما الله راض به . وإن الله تعالى رب هذه الآلهة ، وانه ليحب ان يعبد وحده » . فنفرت كلماته هذه وأمثالها القوم منه وتجنبته ، وقالوا عنه انه على دين بني تميم[1] .

وفي أبيات منسوبة الى زهير بن أبي سُلمى الشاعر المعروف إقرار بوجود إلـه عالم بكل ما في النفوس ، هو (الله) ، لا تخفى عليه خافيـة ، فلا يجوز كتمان شيء عنه ، وبوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال ، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة ، فلا مخلص له[2] .

ونسب الايمان بالله واليوم الآخر الى أشخاص آخرين ، منهم : عبدالله القضاعي والشاعر عَبيد بن الأبرص الأسدي ، وكعب بن لؤي بن غالب ، والأول منهم هو ابن تغلب بن وبرة بن قضاعة ، كان من الحكماء الخطباء ، يتبع الحنيفية ، وينهج على نهجها مثل الحنفاء[3] .

وأما الثاني ، وهو عَبيد بن الأبرص ، فشاعر جاهلي شهير ،له في قتله قصة ، هي من ذيول قصة (الغريـّين) للمنذر بن ماء السماء . نجد في الشعر المنسوب اليه اسم (الله) يتردد في كثير من المواضع ، ونراه من المتشائمين المؤمنـين بالمنايا وبالمحتّم المكتوب ، ونراه في القصيدة البائية يتوكـل على الله ، ويدعو الناس الى الاعتماد عليه فيقول :

من يسأل الناس يحرموه وسائـل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس لـه شريك علاّمُ ما أخفت القلوب[4]

---

1 بلوغ الارب (٢/٢٧٧) .

2 فلا تكتمن الله ما في صدوركـم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتـاب فيدخـر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، للامام ثعلب (ص ١٢) ، (طبعة دار الكتـب المصرية) ، شعراء النصرانية ، (القسم الرابع ص ٥١٨) ، بلوغ الارب (٢/٢٧٧ وما بعدها) .

3 بلوغ الارب (٢/٢٨٠) .

4 البيان والتبيين (١/٢٢٦) ، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٦٠٧ ومـا بعدها) ، أسماء المغتالين (٢١١) ، (نوادر المخطوطات) .

ونراه يقول في المنايا :

فأبلـغ بنيَّ وأعمامهم بأن المنايا هـي الوارده
لها مدة فنفوس العبـاد اليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنا فللموتِ ما تلد الوالده[1]

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويتذكر الموت ، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاة الشدائد والأهوال ، وينصح النـاس بالسير على هذا المنوال . والذي يقرأ شعره ، يشعر أنه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس ميالة الى التقشف والتصوّف ، مؤمن بالعدل ، كاره للظلم ، فهل كان عبيد على هذه الشاكلة ؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه ؟ أو هو من نظم من عاش بعده في الاسلام ؟

وأما (كعب بن لؤي بن غالب) . فهو من أجداد النبي . وقد كان على الحنيفية ،واليه كانت تجتمع قريش في كل جمعة،فكان يعظهم ويوجههم ويرشدهم يأمرهم بالطاعة والتفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتقلب الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخرين ، ويحثهم على صلة الأرحام وإفشاء السلام وحفظ العهد ومراعاة حق القربة والتصدق على الفقراء والأيتام[2] .

هذه خلاصة موجزة لسير من حشرهم أهل الأخبار في زمرة الحنفاء ، تريك آراء الجماعة تكاد تكون واحدة : كفر بالأصنام وبالشرك كله ، وإعراض عن عادات قومهم ، وثورة على عقائدهم ، وترقب لحدوث تطورٍ واصلاح يقضي على الجهالة ، وقد مهدوا له بدعوتهم تلك التي أشاعوها بين بنِي قومهم فجلبت عليهم السخط والغضب الشديد ، مما حمل أكثرهم ، وهم في الغالب من مكـة وأطرافها ، على الفرار من بلدتهم الى أطرافها المنعزلة الآمنة وغيرها من الأماكن الخالية ، ليكونوا في أمان من ايذاء قومهم لهم ، وفي وسط يفكرون فيـه في خلق السماوات والأرض تفكيراً هادئاً ، فلا يزعجهم مزعج ، ولا ينغص حياتهم هناك منغص .

---

١ شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٦٠٤ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (الجزء الاول ، القسم الاول ص ٣٩) ، بلـوغ الارب (٢/ ٢٨٢) .

لقد جعل أهل الأخبار معظم من تحدثنا عنهم إن لم نقــل كلهم من القارئين الكاتبين ، ونسبوا الى بعضهم قراءة الكتب والصحف والزبور ومجلة لقمان . يريدون بذلك الكتب المقدسة . ويفهم من كلامهم في بعض الأحيــان ان منهم من كان يحسن فهم العبرانية أو لغة بني إرم . ولكن الأخباريين عفا الله عنهم لم يتبسطوا لنا في الحديث عن ماهيــة تلك الصحف وعن محتويات مجلــة لقمان وعن الكتب المُنزلة ، ولم يأتوا بنماذج مفصلة طويلة أو قطع ترشد إلى المظانّ التي نقلت منها. فأضاعوا علينا ، باهمالهم الاشارة الى هذه الأمور ، أشياء كثيرة مهمة ، بنا حاجة ماسة إلى معرفتها ، للوقوف على الحالة الدينية في جزيرة العرب قبيل الاسلام وابان ظهوره .

ويؤكد أهل الأخبار ان بعض أولئك الحنفاء كانوا يسيرون على سنّة ابراهيم وشريعته ، وان بعضاً آخر منهم كان يلتمس كلماته ويسأل عنها ، وانهم في سبيل ذلك تحملوا المشاق والأسفار والصعاب . وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز وبلاد الشأم وأعالي العراق . أي المواضع التي كانت غالبية أهلهــا على النصرانية يومئذ ، وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان . وقد أضافوا اليهم الأحبار أحياناً ، وذكروا ان الرهبان والأحبار أشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمــل ، فليس عندهم ما يأملونه ويرجونه من دين ابراهيم واسماعيل ، ولذلك لم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية ، بل ظلوا ينتظرون الوعد الحــق ، ومنهم من مات وهو على هذه العقيدة . مات معتقداً بدين ابراهيم حنيفاً ، غير مشركٍ بربه أحداً .

أما كيف كانت شريعة ابراهيم ، وعلى أي نهج سار الحنفاء ، وهل كان لهم كتــاب أو كتب أو نحو ذلك ؟ فأسئلة لم يجب عنها أهل الأخبار إجابة صريحة واضحة . لذلك صرنا في جهــل بأمر تلك الشريعة : شريعة ابراهيم ، شريعة التوحيد الحق .

ويذكر أهل الأخبار أنه كان لأتباع ابراهيم من العرب علامات وعادات ميزوا أنفسهم بها عن غيرهم ، منها : الختان ، وحلق العانة ، وقص الشارب . وهي علامــات جعلها بعض المفسرين مــن (كلمات ابراهيم) التي ذكرت في القرآن الكريم ، في الآية : « وإذ ابتلى ابراهيم ربّه بكلمات فأتمهن »[1] . ذهب القائلون

---

[1] البقرة ، الآية ١٢٤ .

بهذا الرأي الى أن تلك الكلمات هي عشر : « خمس في الرأس ، وخمس في الجسد. فأما التي في الرأس ، فالمضمضة والاستنشاق وقص الشارب وفرق الرأس والسواك. وأما التي في الجسد ، فالاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان»[1].

ومن سنن شريعة ابراهيم الاختتان . وهو من العادات القديمة الشائعة بين العرب الجاهليين الوثنيين . أما العرب النصارى ، فلم يكونوا يختتنون . فالحنفاء في هذه العادة والوثنيون سواء . وفي أخبار معركة (حنين) أن الأنصار حينما أجهزوا على قتلى ثقيف ممن سقط في هذه المعركة مع هوازن وجدوا عبداً ، عندما كشف ليستلب ما عليه وجد أغرل . فلما تبين ذلك للأنصار ، نادى أحدهم بأعلى صوته: يعلم الله أن ثقيفاً غُرْل ما تختتن . فقام اليه المغيرة بن شعبة ، وهو من ثقيف ، فأخذ بيده ، وخشي أن يذهب ذلك عن قومه في العرب ، فقال له : لا تقل ذلك فداك أبي وأمي ، إنما هو غلام لنا نصراني ، ثم جعل يكشف له قتلى قومه ويقول له : ألا تراهم مختتنين[2] ؟

ويتبين من هذا الخبر أن العرب كانوا يعدون الغرل شيئاً معيباً ، ومنقصة تكون حديث الناس . وهناك خبر آخر يفيد أن العرب جميعاً كانوا يختتنون ، وأن الاختتان كان من السمات التي تميزهم عن غيرهم ، وأنهم في ذلك كاليهود[3] . وقد ورد في الموارد اليهودية ما يفيد اختتان العرب . ولعل التوراة التي ذكرت قصة اختتان اسماعيل ، أخذت خبرها هذا من تقاليد العرب الشماليين التي كانت شائعة بينهم في ذلك العهد[4] .

الاعتكاف :

وقد نسب الاعتكاف في الكهوف وفي البراري وفي الجبال الى عدد من هؤلاء الحنفاء . فقد ذكر أهل الأخبار أنهم كانوا قد اعتكفوا في المواضع الخالية البعيدة

---

١ تفسير الطبري (١/٤١٤ وما بعدها) ، روح المعاني (١/٣٧٤) ، بلوغ الارب (٢/٢٨٧) ، المحبر (٣٢٩) .

٢ الطبري (٣/١٣٠) ، « ذكر الخبر عن غزوة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، هوازن بحنين » .

٣ الاغاني (٦/٩١) ، « ذكر أبي سفيان وأخباره ونسبه » .

٤ Reste, S. 175.

عن الناس ، وحبسوا أنفسهم فيها ، فلا يخرجون منها إلا لحاجة شديدة وضرورة ماسة[1] . يتحنثون فيها ويتأملون في الكون ، يلتمسون الصدق والحق . والتحنث التعبد . فكانوا يتعبدون في تلك المواضع الهادئة الساكنة ، مثل غار (حراء) . وقد ذكر أن الرسول كان يتحنث فيه الليالي ، يقضيها في ذلك الغار[2] .

ويعبر عن التعبد ليلاً بـ (التهجد) أيضاً . وذكر ان التهجد الصلاة ليلاً . وقد كان الرسول يتهجد[3] . والتهجد التيقظ والسهر بعد نومة من الليل . والهجود النوم عند العرب . ويظهر ان تفسير التهجد بالتعبد ليلاً ، انما ورد من تفسيرهم لما ورد في القرآن الكريم : « ومن الليل فتهجد به نافلة ، عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً »[4] . فخص العلماء التهجد بالتعبد ليلاً .

ويعبر عن التعبد بالنسك ، والنسك : العبادة والطاعة وكل ما يتقرب به الى الآلهة . والنسّاك : المتعبدون . وقد كان الحنفاء من النساك أي المتعبدين. وعدّوا الذبائح من النسك . وجعلوا النسيكة : الذبيحة[5] . والذبائح ، أي النسائك ، هي من أهم مظاهر التعبد والزهد عند الجاهليين .

وممن نسب الى النسك والرهبنة من الجاهليين (أبو عامر عبد عمرو بن صيفي ابن مالك بن النعمان) ، أحد (بني ضبيعة بن زيد) . وكان في الجاهلية يسمى (الراهب) ، لأنه كان مترهباً ، وقد كان من المقدمين بيثرب ، إذ كان رأس الأوس فيها ، فلما جاء رسول الله الى المدينة ، خاصمه ، ثم خرج الى مكة مباعداً له ، ومعه خمسون غلاماً من الأوس ، واشترك مع قريش يوم أحد[6] .

---

١ تاج العروس (٦/٢٠٣) ، (عكف) .
٢ تاج العروس (١/٦١٦) ، (حنث) .
٣ تاج العروس (٢/٥٤٣) ، (هجد) .
٤ الاسراء ، الآية ٧٩ ، تفسير الطبري (١٥/٩٥) ، روح المعاني (١٥/١٢٧) .
٥ اللسان (١٠/٤٩٨ وما بعدها) ، (نسك) .
٦ نهاية الارب (١٧/٨٩) ، (ذكر غزوة أحد) ، امتاع الاسماع (١/١١٥) ، « غزوة أحد » .

الفصل السادس والسبعون

اليهودية بين العرب

والحديث عن اليهودية بين العرب ، وعن وجود يهود في أنحاء من جزيرتهم ، لا يمكن ان يكون حديثاً تأريخياً مبنياً على العلم اذا ارتفعنا به الى الميلاد والى ما قبل الميلاد . ولا يعني كلامي هذا عدم وصول يهود الى جزيرة العرب ، وعدم إقامتهم في أماكن منها . فهذا كلام لا يمكن أن يقال ، ولا يمكن قبوله . انما أريد ان أقول اننا لا نملك نصوصاً تأريخية تخولنا ان نتحدث عن اليهود في جزيرة العرب قبل الميلاد حديثاً علمياً ، بأن نعين المواضع التي نزلوا فيها ، والأماكن التي وصلوا اليها ، وما فعلوه هناك ، وفي أي عهد كان ذلك ، ومن قادهم الى تلك الأنحاء ، ومن استقبلهم استقبالاً حسناً ، أو استقبلهم استقبالاً سيئاً من الجاهليين ؟

وقد عرف اليهود عند الجاهليين ، وورد ذكرهم في الشعر الجاهلي . ولا بد من وقوف الجاهليين على أحوالهم ، لأنهم كانوا كما سنرى يسكنون في مواضع عديدة معروفة تقع ما بين فلسطين ويثرب ، كما سكنوا في اليمن وفي اليمامة وفي العروض . وكان تجار منهم يقيمون في مكة وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب للاتجار واقراض المال بربا فاحش للمحتاجين اليه .

ومعارفنا عن يهود جزيرة العرب مستمدة من الموارد الإسلامية . والسبب في ورود خبرهم في هذه الموارد ، هو اصطدامهم بالإسلام ، ومقاومتهم له حينما دعاهم الرسول الى الدخول فيه ، فنزل فيهم الوحي ، وأشير اليهم في الحديث ،

وذكروا في كتب التفسير والسير والتواريخ والأدب . ومن هنا تجمعت معارفنا عن يهود الجاهلية . ولهذا تجد الحديث عن يهود الجاهلية لا يرتقي كثيراً عن عصر النبوة ، ولا يبتعد عنه ولكني لا استبعد احتمال تغير الحال ، إذا ما عثر المنقبون في المستقبل على كتابات جاهلية قد تكون مطمورة في الوقت الحاضر في باطن التربة ، يكون لها صلة بيهود جزيرة العرب ، أو إذا ما عثر على مؤلفات ووثائق مكتوبة عبرانية أو غير عبرانية قد تكون مجهولة عن ذوي العلم في الوقت الحاضر، تكون لها صلة وعلاقة بأمر يهود جزيرة العرب قبل الإسلام .

وقد وردت لفظة (يهود) معرفة في القرآن الكريم . أي على هذا الشكل : (اليهود) . وردت في مواضع من سورة البقرة [1] ومن سورة المائدة [2] ومن سورة التوبة [3] . وكلها سور مدنية . ولم ترد في سورة من السور المكية . كما وردت لفظة (يهودياً) في سورة آل عمران ، وردت في شرح ديانة (ابراهيم) : « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً » [4]. وهي من السور المدنية كذلك .

وعبر القرآن الكريم عن اليهود وعن معتنقي اليهودية بـ « الذين هادوا » [5] ، وبـ « من كان هوداً » [6] و « كونوا هوداً » [7] و « كانوا هوداً » [8] . وسورتي الأنعام والنحل من السور المكية . وبناء على ذلك تكون جملة « الذين هادوا » قد نزلت قبل نزول لفظة (اليهود) في القرآن الكريم .

وقد عبر عن العبرانيين عامة بـ (بني اسرائل) في القرآن الكريم . عبر عنهم في سور مكية وفي سور مدنية . ويلاحظ ان ورود هذا التعبير في القرآن الكريم ، هو أكثر بكثير من ورود لفظة (اليهود) فيه .

---

١ البقرة ، الآية ١١٣ ، ١٢٠ .
٢ المائدة ، الآية ١٨ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٨٢ .
٣ التوبة ، الآية ٣٠ .
٤ آل عمران ، الآية ٦٧ .
٥ البقرة ، الآية ٦٢ ، النساء ، الآية ٤٦ ، ١٦٠ ، المائدة ، الاية ٤١ ، ٤٤ ، ٦٩ ، الانعام ، الاية ١٤٦ ، النحل ، الاية ١٨٨ ، الحج ، الاية ١٧ ، الجمعة ، الاية ٩ .
٦ البقرة ، الآية ١١١ .
٧ البقرة ، الآية ١٣٥ .
٨ البقرة ، الآية ١٤٠ .

ولما كانت فلسطين امتداداً طبيعياً للحجاز ، كان من الطبيعي اتصال سكانها بالحجاز ، واتصال سكان الحجاز بفلسطين ، وذهاب جاليات يهودية الى العربية الغربية، للاتجار وللاقامة هناك ، خاصة بعد فتوح الدول الكبرى لفلسطين واستيلائها عليها ، وهجرة اليهود الى الخارج . فكانت العربية الغربية لاتصالها بفلسطين من الأماكن الملائمة المناسبة لهجرة اليهود اليها ، واقامتهم فيها ، ولا سيا عند مواضع المياه وفي الأرضين الخصبة العامرة . غير اننا لا نستطيع ، كما قلت ، التحدث عن هجرة اليهود هذه الى هذه الأنحاء حديثاً علمياً معززاً بالكتابات وبالتواريخ .

ولم يترك يهود جزيرة العرب لهم أثراً مكتوباً يتحدث عن ماضيهم فيها. وكل ما عثر عليه منهم ، نصوص معدودة ، وجدت في اليمـــن ، لا تفصح بشيء ذي بال عن اليهود واليهودية . كذلك لم يصل الينا ان أحداً من المؤلفين والكتبة العبرانيين ذكر شيئاً عن يهود الجاهلية . وليس لنا من تأريـــخ اليهود في جزيرة العرب إلا ما جاء في القرآن الكريم وفي الحديث وكتب التفسير والأخبار والسير . فمادتنا عن تأريخ اليهودية في العربية ، لا ترتقي إلى عهد بعيد عن الاسلام .

لقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن اليهود كانوا في جملة من كان في جيش (نبو نيد) يوم جاء الى تيماء . فأقاموا بها وبمواضع أخرى من الحجـــاز بلغت (يثرب) . وأن هؤلاء اليهود أقاموا منـــذ ذلك الحين في تلك الأماكن واستوطنوا وادي القرى وأماكن أخرى الى مجيء الإسلام . غير أن (نبونيـــد) لم يشر في أخبـــاره المدونة الى وجود اليهود في جيشه والى اسكانه لهم في هذه الأرضين كما أننا لم نعثر على كتابات تتحدث عن هذا العهد أو عن العهـد الذي سبقه أو الذي جاء من بعده . لذلك فإننا لا نستطيع أن نعزز هذا الكلام بنصوص وكتابات . وان كنا لا نريد نفي احتمال مجيء اليهود الى هذه الديار في عهـــد (نبو نيد) ، أو في عهد (بخت نصر) ، أو قبل العهدين .

نعم ، لقد عثر على عدد من الكتابات النبطية في الحجر وفي مواضع أخرى من أرض النبط وردت فيها أسماء عبرانية تشير الى أن أصحابها من يهود ، ويعود بعضها الى القرن الأول للميلاد ، ويعود بعض آخر الى ما بعد ذلك مثل الكتابة التي يعود عهدها الى سنة ٣٠٧ ميلادية ، وصاحبها رجل اسمه (يحي بر شمعون) أي (يحي بن شمعون)[١] . غير أن هذه الكتابات شخصية ، ولا تفصح بشيء

١ Islamic culture, vol., III, No. 2, April 1929, Judaeo — Arabic Relations in Pre-Islames Times, by Josef Horovitz, p. 170.

ذي بال عن عقيدة أصحابها ، ولا عن تأريخهم في هذين الأرضين .

وقد ذهب اليهود الى العربية الشرقية ، ذهبوا اليها من العراق ، فسكنوا في مواضع من سواحل الخليج ، وتاجروا مع أهل هذه البلاد ومع باطن الجزيرة . وقد ساعدتهم بعض الحكومات على الذهاب اليها . وقد كانت ليهود العراق تجارات مع أهل الخليج ، كما يفهم ذلك من مواضع من التلمود .

ويتبين من روايات المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) Iosephos Flavius ان اليهودية كانت قد وجدت لها سبيلاً بين العرب . وان بعض ملوك مملكة (حدياب) Adiabene كانوا قد دخلوا فيها[1] . ويذكر المؤرخ (سوزومين) Souzomenos ان اليهود كانوا ينظرون الى العرب الساكنين شرق الحد العربي Limes Arabicus على انهم من نسل اسماعيل ، وانهم كانوا يرون انهم من نسل اسماعيل وابراهيم ، فهم من ذوي رحمهم ، ولهم بهم صلة قربى . وكانوا يرجون لذلك دخولهم في دينهم ، واعتناقهم دين ابراهيم جد اليهود والعرب . وقد عملوا على تهويد أولئك العرب[2] .

ويظهر من مواضع من التلمود ان نفراً من العرب دخلوا في اليهودية ، وانهم جاءوا إلى الأحبار ، فتهودوا أمامهم[3] . وفي هذه المرويات (التلمودية) ، تأييد لروايات أهل الأخبار التي تذكر ان اليهودية كانت في حمير ، وبني كنانة ، وبني الحارث بن كعب ، وكندة[4] ، وغسان[5] . وذكر (اليعقوبي) ان ممن تهود من العرب « اليمن بأسرها . كان تُبّع حمل حبرين من أحبار يهود الى اليمن ، فأبطل الأوثان ، وتهود من باليمن ، وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير . وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام »[6] .

وقد ذكر علماء التفسير في تفسيرهم الآية : « لا اكراه في الدين . قد تبين

---

١ Die Araber, II, S. 65. ff.
٢ Sozomenos, 6, 38, 10-13, 299, 17, Die Araber, II, S. 74.
٣ Y 'bamot, 16 b, 'Aboda Zara 27a, Die Araber, II, S. 74.
٤ المعارف (٦٢١) ، الاعلاق النفيسة (٢١٧) .
٥ البدء والتأريخ (٤/٣١) .
٦ اليعقوبي (١/٢٢٦ وما بعدها) .

الرشد من الغي »[1]، أنها نزلت في الأنصار . كانت المرأة المقلات في الجاهلية تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده ، فتهود قوم منهم . فلما جاء الله بالاسلام أرادوا اكراههم عليه ، فنهاهم الله عـن ذلك ، حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام . أو أنهم لما بقوا على يهوديتهم ، وأمر اليهود بالجلاء ، وفيهم منهم ، شق على آبائهم ترك أبنائهم يذهبون مع اليهود ، فقالوا : « يا رسول الله أبناؤنا واخواننا فيهم .. فسكت عنهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فـأنزل الله تعالى ذكره : لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ... فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد خيّر أصحابكم ، فإن اختاروكم فهم منكم ، وإن اختاروهم فهم منهم »[2] . وذكر العلماء أيضاً ان ناساً من الأنصار كانوا مسترضعين في بني قريظة وغيرهم من يهود ، فتهودوا ، وأن من الأنصار من رأى في الجاهلية أن اليهودية أفضل الأديان ، فهودوا أولادهم ، فلما جاء الاسلام ودخلوا فيه ، أرادوا اكراه أبنائهم الذين تهودوا على الدخول فيه ، فنزل الوحي بالآيـة المذكورة[3] . فقد كان اذن بين يهود جزيرة العرب ، عرب دخلوا في دين يهود .

وذكر أهـل الأخبار أن (جبل بن جوال بن صفوان) الثعلبي ، من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، كان يهودياً فأسلم . فهو عربي ، يظهر أنه أو أهلـه قبله قـد تهودوا ، فكان على دين يهود ، وعاش مع (بني قريظة) ، حتى اعتنق الإسلام[4] . وذكروا أسماء آخرين كانوا من متهودة الجاهليين .

ويرى بعض المؤرخين اليهود أن يهود جزيرة العرب كانوا في معزل عن بقية أبناء دينهم وانفصال ، وأن اليهود الآخرين لم يكونوا يرون أن يهود العربية مثلهم في العقيدة، بل رأوا أنهم لم يكونوا يهوداً ؛ لأنهم لم يحافظوا على الشرائع الموسوية ولم يخضعوا لأحكام التامود[5] . ولهذا لم يرد عن يهود جزيرة العرب شيء في أخبار المؤلفين العبرانيين .

وعندي ان عدم ورود شيء عن يهود الحجاز في أخبـار المؤلفين العبرانيين

---

١ البقرة ، رقم ٢ ، آية ٢٥٦ .
٢ تفسير الطبري (٣/١٠ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (٣/١٠ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٣/٢٨٠ وما بعدها) .
٤ الاصابة (١/٢٢٣ وما بعدها) ، (رقم ١٠٧١) .
٥ اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب (ص ١٣) ، (القاهرة ١٩٢٧) .

لا يمكن ان يكون دليلاً على عزلة يهود الحجاز عن بقية اليهود . فقد أهمل غيرهم أيضاً ولم يشر اليهم ، لأن التأليف والنشاط الفكري عند العبرانيين كانا قد تركزا في هذه العهود على المستوطنات اليهودية في العراق وعلى فلسطين ، وعلى (طبريا) بصورة خاصة ، ولم تشتهر الجاليات اليهودية التي انتشرت في مواضع أخرى بالتأليف ، فكان من الطبيعي ان تنحصر أخبار اليهود في هذا العهد في هذين القطرين . ولهذا لم يشر الى يهود الحجاز والى يهود بقية جزيرة العرب . ثم إن الحجاز على اتصال بفلسطين ، وفلسطين جزء من الحجاز متمم له جغرافياً، وهو متصل بفلسطين منذ القدم ، وفلسطين منفذه التجاري ، وميناء (غزة) من المواضع التي كان يقصدها تجار الحجاز للاتجار ،والحركة مستمرة دوماً بين فلسطين والحجاز ، وقد كان تجار اليهود من أهل الحجاز يتاجرون مع بلاد الشأم وفي جملتها أرض فلسطين ، فلا يعقل بالطبع ان يصير يهود الحجاز في عزلة عن يهود فلسطين،والا يكون بين اليهودين اتصال . أما من ناحية الآراء الدينية والاعتقادية، فقد يكون بين اليهودين بعض الاختلاف ، فقد وقع اختلاف في الآراء بين أحبار يهود العراق وبين أحبار يهود فلسطين ، فلا يستبعد اذن رأي من يقول بوجود اختلاف في وجهة نظر يهود فلسطين بالنسبة ليهود الحجاز ، إذ قد يكون يهود الحجاز ويهود جزيرة العرب قد تأثروا بالعرب الذين نزلوا بينهم فاضطروا الى التخفيف من التمسك بشعائر دينهم ، لا سيما وان من بين يهود جزيرة العرب يهود متهودون ، كانوا في الأصل من أدوم ومن النبط ومن العرب ، دخلوا في اليهودية لعوامل متعددة ، فلم يكونوا لذلك على سنّة اليهود الأصليين في المحافظة على شريعتهم محافظة شديدة تامة .

وقد انتشر اليهود جماعات جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرى وتيماء وخيبر الى يثرب ، فبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم . وقد أمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة في جوارهم على دفع إتاوة لهم ، وعلى تقديم الهدايا اليهم لاسترضائهم . وكان من شأنهم أيضاً التفريق بين الرؤساء وإثارة الشحناء بين القبائل حتى لا تصفو الأحوال فيما بينها وتلتئم ولئلا يكون اتفاقها والتئامها خطراً يتهدد اليهود .

وليس الذي يرويه أهل الأخبار عن إرسال موسى جيشاً الى الحجاز،واستقرار ذلك الجيش في يثرب بعد فتكه بالعماليق وبعد وفاة موسى ، ثم ما يذكرونه عن

هجرة داوود مع سبط يهوذا الى خيبر وتملكه هناك ثم عودته الى اسرائيل[١] وأمثال هذا إلا قصصاً من هذا النوع الذي ألفنا قراءته في كتب أهل الأخبار، لا أستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة أو من أسلم منهم ، لإثبات أنهم ذوو نسب وحسب في هذه الأرضين قديم ، وأنهم كانوا ذوي بأس شديد ، وأن تأريخهم في هذه البقعة يمتد الى أيام الانبياء وابتداء اسرائيل ، وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين .

وقد زعم أهل الأخبار ، ان العمالقة كانوا أصحاب عز وبقي شديد ، وكانوا ينزلون الحجاز في جملة ما نزلوا من أماكن في ايام موسى . وكان منهم : بنو هف وبنو سعد وبنو الأزرق وبنو مطروق . وملكهم إذ ذاك رجل منهم اسمه (الأرقم) ، ينزل ما بين تيماء وفدك . وكان سكان يثرب من العمالقة وكذلك سكان بقية القرى . فلما تغلب عليهم العبرانيون انتزعوا منهم مساكنهم ، وأقاموا في مواطنهم في الحجاز[٢] .

وقد أخذ أهل الأخبار ما رووه عن دخول اليهود إلى يثرب في ايام موسى ، وما ذكروه عن إرساله جيشاً إلى هذه المنطقة ، ثم ما رووه عن سكنهم القديم في أطراف المدينة وفي أعالي الحجاز ، من سفر (صموئيل الأول) من التوراة[٣] . وقد حسب أهل الأخبار العمالقة من سكان يثرب القدماء ، ومن سكان أعالي الحجاز ، فزعموا ان تلك الحروب قد وقعت في هذه المنطقة ، وان اليهود قد سكنوها لذلك منذ ايام موسى . وقد أخذ الأخباريون رواياتهم هذه من اليهود ، وممن دخل منهم في الاسلام[٤] .

ويرى بعض الأخباريين أن ابتداء أمر اليهود في الحجاز ونزولهم وادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب إنما كان في أيام (بخت نصر) ، فلما جاء (بخت نصر)

---

١ الاغاني (٩٤/١٩ وما بعدها) ، « اخبار أوس ونسب اليهود بيثرب وأخبارهم » ، ابن خلدون (٨٨/٢) ، (٥٩٤/٢) ، « دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٥٦ » ، أبو الفداء (١٢٣/١) ، ابن الأثير ، الكامل (٤٠١/١ وما بعدها) ، ابن خلدون (٥٩٤/٢) «بيروت ١٩٥٦ » ، ابن هشام (١٧/٢) .

٢ الاغاني (٩٤/١٩) ، ابن هشام (١٧/٢) .

٣ صموئيل الاول : الاصحاح الخامس عشر ، الآية ٥ وما بعد .

٤ Nöldeke, Beiträge, S. 52.

الى فلسطين ، هرب قسم منهم الى هذه المواضع واستقروا بها الى مجيء الإسلام[1]. وليس في هذا الخبر ما يحملنا على استبعاده ، فهروب اليهود الى أعالي الحجاز ودخولهم الحجاز أمر سهل يسير ، فالأرض واحدة وهي متصلة والطرق مفتوحة مطروقة ، ولا يوجد أي مانع يمنع اليهود أو غير اليهود من دخول الحجاز . لا سيما وأن اليهود كانوا خائفين فارين بأنفسهم من الرعب ، فهم يبحثون عن أقرب ملجأ اليهم يحميهم من فتك ملك بابل بهم . وأقرب مكان مأمون اليهم هو الحجاز .

أما ما ورد في روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود الى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشأم وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم مما اضطر ذلك بعضهم الى الفرار الى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم ، فإنه يستند الى أساس تأريخي صحيح[2] . فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدّى الى هجرة عدد كبير من اليهود الى الخارج ، فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين .

وكان يقيم بـ (مقنا) عند ظهور الإسلام قوم من اليهود اسمهم (بنو جنبة) ، وقد كتب اليهم الرسول والى أهل (مقنا) يدعوهم الى الاسلام ، أو الى دفع الجزية[3] . وكتب الى قوم من يهود اسمهم (بنو غاديا)[4] ، والى قوم آخرين اسمهم (بنو عريض)[5] .

ومن هؤلاء المهاجرين على رأي الأخباريين بنو قريظة وبنو النضير وبنو بهدل . ساروا إلى الجنوب في اتجاه يثرب ، فلما بلغوا موضع الغابة ، وجدوه وبيّاً ، فكرهوا الاقامة فيه ، وبعثوا رائداً أمروه ان يلتمس لهم منزلاً طيباً ، وأرضاً عذبة ، حتى إذا بلغ (العالية) ، وهي بطحان ومهزور واديان من حرة على تلاع أرض عذبة . بها مياه وعيون غزيرة ، رجع اليهم بأمرها ، وأخبرهم بما

---

١ الاغاني (١٩/٩٤) ، ابن خلدون (٢/٥٩٤) «دار الكتاب» ، أبو الفداء (١/١٢٣) ، الكامل (١/٤٠١) ، R. Donyy, Die Israeliten zu Mekka, S. 136.

٢ ابن خلدون (٢/٥٩٤) « بيروت ١٩٥٦ » .

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٦) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٩) .

٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٩) .

رآه منها ، فقــرّ رأيهم على الاقامة فيها . فنزل بنو النضير ومن معهم عــلى بطحان ، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور ، فكانت لهم تلاعه وما سقى من بعاث وسموات[1] .

وسكن اليهود يثرب . سكنها منهم بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص وبنو ماسلة ، سكن هؤلاء المدينة وأطرافها ، وكان يسكن معهم من غــير بني اسرائيل بطون من العرب ، منهم : بنو الحرمان حــي من اليمن ، وبنو مرثد حي من بَلي ، وبنو نيف وهم من بلي أيضاً ، وبنو معاوية حي من بني سُليم ثم من بني الحرث بن بهثة ، وبنو الشطيّة حي من غسان . وظل اليهود أصحاب يثرب وسادتها ، حتى جاء الأوس والخزرج ، فنزلوها واستغلوا الخلافات التي كانت قد وقعت بين اليهود ، فتغلبوا عليهم ، وسيطروا على المدينة ، وقسموها فيما بينهم ، فلم يبق من يومئذ عليها سلطان[2] .

وتذكر روايات أهل الأخبار أن مجيء الأوس والخزرج الى يثرب كان بعــد حادث سيل العرم . جاؤوا اليها لفقر حالهم ، والتماساً لوطن صالح جديد، وأنهم حينما نزلوها لم يكن لهم حــول ولا قوة . ولذلك قنعوا بالذي حصلوا عليه من أرض ضعيفــة موات ، ومن رزق شحيح . أما المال والثروة والملك والجاه ، فلليهود . بقوا على ذلك أمداً حتى إذا ما ذهب مالك بن العجلان ، وهو منهم، الى أبي جبيلة الغساني رئيس غسان يومئــذ ، ونزل عنده ، شكا لأمير غسان سوء حال قومه وما هم عليه من بؤس وضنك . فوعده أبو جبيلة أن يأتي عــلى رأس جيش من قومه لمساعدته ، على أن يقوم بعد عودته ببناء حائر عظيم، يعلن أنه بناه لاستقبال الأمير فيه ، وأن يطلب من اليهود الخروج لاستقبالــه والتشرف بزيارته في ذلك الحائر ، فإن فعلوه ، فتك بهم وأبادهم . فلما تمّ البناء ، ووصل الأمير في الأجل الموقوت ، ودخل المدعوون رؤساء اليهود الحائر ، فتكت عساكر أبي جبيلة بهم وأهلكتهم . وتمت الغلبــة من يومئذ للأوس والخزرج ، وعاد

---

١ الاغاني (١٩/٩٤ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٥٩٤) ، تاريخ أبو الفداء (١/١٢٣) « مطبعة التقدم » .

٢ الاغاني (١٩/٩٥) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٤٠١) .

أبو جبيلة الى مقر ملكه[1] .

غير ان اليهود ظلوا مع هذه الغلبة يتهاترون مع الأوس والخزرج ويعترضونهم ويتناوبونهم ، فعمد مالك بن العجلان إلى الحيلة ، فتظاهر انه يريد الصلح معهم، وانه عزم على تسوية العداوات وطمس الحزازات ، وانه لذلك يدعو رؤساءهم الى طعام ، ليتفاوضوا مع سادات قومه في أمر الصلح . فلما حضر رؤساء يهود، فتك بعشرات منهم ممن استجاب لدعوته ، وفرّ أحدهم ليخبر قومه بما حدث ، وحذر أصحابه الذين بقوا ، فلم يأت منهم أحد .

« فلما قتل مالك من يهود من قتل ، ذلّوا ، وقلّ امتناعهم ، وخافوا خوفاً شديداً ، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم لبعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ، ولكـــن يذهب اليهودي الى جيرانه الذين هو بين أظهرهم ، فيقول : انما نحن جيرانكم ومواليكم ، فكان كل قوم من يهود لجأوا الى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم » ومنذ ذلك الزمن لم يبق لليهود على هذه الأرضين سلطان[2] .

وورد في رواية أخرى ان (مالك بن عجلان) ، كان من الخزرج ، وكان سيد قومه يومئذ ، وكان على اليهود رجل منهم اسمه (الفَطْيون) ملك عليهم ، واستبد بأمر الناس ، وكان يهودياً ومن بني ثعلبة ، وكان امرأ سوء فاجراً ، قرر ألا تدخل امرأة على زوجها إلا بعد دخولها عليه . فاغتاظ مالك من فعــل الفَطْيون ومن استذلاله للعرب ، ولما كان زفاف اخته لزوجها ، وكان لا بد من ادخالها على (الفطيون) أولاً ليستمتع بها ، كبر ذلك عليه ، فدخل معها في زي امرأة ، فلما أراد (الفطيون) الخلو بها ، وثب مالك عليه وعلاه بسيفه وقتله ، وخلّص قومه منه ، وفرّ عندئذ الى أبي جبيلة ملك غسان[3] .

وتذكر هذه الرواية أن (أبا جبيلة) لم يكن من غسان، بل كان من الخزرج، وكان عظيماً ذا منزلة كبيرة في الناس ، حتى صار ملكاً على الغساسنة ، ويرجح

---

١ الاغاني (١٩/٩٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٥٩٦) ، ابو الفداء (١/١٢٣) ، الكامل (١/٤٠١) .

٢ الاغاني (١٩/٩٥ وما بعدها) ، ابن الاثير ، الكامل (١/٤٠١ وما بعدها) .

٣ ابن الأثير ، الكامل (١/٤٠١) ، وفي بعض الكتب « القطيون » ، بحرف القاف ، وهو تحريف ، المحبر (١١٢) ، جمهرة أشعار العرب (٢٤٣) ، (القاهرة ١٩٢٦ م) .

رواتها أنه لم يكن ملكاً على آل غسان ، بل كان مقرباً عند ملكهم ، عظيم الحظوة لديه . ودليلهم على ذلك عدم اعتراف الغساسنة بوجود ملك عليهم اسمه (عبيد بن سالم بن مالك بن سالم)،وهو اسم (أبو جبيلة) المذكور . ويذكرون أن (الرمق بن زيد الخزرجي) مدحه بشعر قاله فيه[1] .

وتذكر رواية ان الفطيون اسم عبراني ، واسمه (عامر بن عامر بن ثعلبة بن حارثة) ، وكان تملك بيثرب . فلما قتل خرج مالك بن العجلان ، حتى قدم على (أبي جبيلة) ملك غسان ، فأعلمه غلبة يهود على يثرب وفعله بهم، فقدم (أبو جبيلة) يثرب ، ثم صنع طعاماً ، ومكن الأوس والخزرج ممن دعاهم الى الطعام من قتل مائة من أشراف اليهود ، فقويت الأوس والخزرج عليهم[2] .

وجاء في رواية أخرى ، أن (مالك بن العجلان) ، إنما فرّ الى (تبع) ، بعد قتله (الفطيون) فاستصرخه على اليهود ، فجاء حتى قتل ثلثمائة وخمسين رجلاً غيلة من سادات يهود بـ (ذى حرض) ، ولما أدبهم رجع الى أرضه اليمن[3] .

أما مالك بن العجلان ، فقد صوره اليهود شيطاناً ملعوناً ، وصوروه في بيعهم وكنائسهم ليلعنوه كلما دخلوا ورأوه ، وذكروه في شعرهم في أقبح هجاء قالوه[4].

وقد كان بين يهود يثرب قوم يقال لهم (بني الفطيون) بقوا حتى جاء الرسول الى يثرب . فأجلاهم في السنة الثالثة من الهجرة[5] . وذكر (ابن دريد) أن بعضاً من (بني القطيون) الذين هم من نسل (الفطيون) ملك يثرب ، قد شهد (بدراً) واستشهد بعضهم يوم اليمامة . وذكر أن نسب (الفطيون) في غسان . وان من ولد الغطيون : (أبو المقشعر) واسمه (أسيد بن عبدالله)[6] .

---

١ ابن الاثير ، الكامل (١/٤٠١ وما بعدها) .

٢ نوادر المخطوطات ، أسماء المغتالين (١٣٦ وما بعدها) .

٣ البدء والتأريخ (٣/١٧٩) .

٤ الاغاني (١٩/٦٩) ، الاشتقاق (ص ٢٧٠) ،
Graetz, Geschichte der Juden, V, S. 431, Hirschfeld, Essai de l'histoire des Juives de Medine, in Revue Etudes Juives, VII, 1883, p. 173, Caussin de Perceval, Essai, II, p. 652, Wellhausen, Skizze, IV, S. 33, Nallino, Raccolta, III, p. 111.

٥ المحبر (١١٢) .

٦ الاشتقاق (٢/٢٤٩) ، « وستنفلد » .

وقد فسّر أهل الأخبار كلمة (الفطيون) بـ (مالك) ، وقالوا إنها تقابل (النجاشي) عند الحبشة ، و (خاقان) عند الترك . وذكروا أسماء نفر ممن كانوا يلقبون بالفطيون [1] .

ويفهم من روايات الأخباريين ان يهود الحجاز كانوا قبائل وعشائر وبطوناً ، منهم : بنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وبنو عكرمة ، وبنو محمر ، وبنو زعورا ، وبنو زيد ، وبنو الشطية ، وبنو جشم ، وبنو بهدل، وبنو عوف ، وبنو القصيص (العصيص) ، وبنو ثعلبة [2] . غير انهم لم يكونوا أعراباً ، أي بدواً يتنقلون من مكان الى مكان ، بل كانوا حضراً استقروا في الأماكن التي نزلوا فيها ، ومارسوا مهن أهل المدر ، كل جماعة مستقلة تحمل اسماً من تلك الأسماء التي ذكرها الأخباريون .

وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود بـ (الكاهنين) ، نسبوا ذلك الى جدهم الذي يقال له (الكاهن) . و (الكاهن) هو الكاهن بن هارون بن عمران على زعم بعض أهل الأخبار [3] . فهم على هذه النسبة من أصل رفيع ومن نسب حسيب ، يميزهم عن بقية طوائف يهود. ولهذا كانوا يفتخرون بنسبهم هذا ، ويرون لهم السيادة والشرف على من سواهم من اخوانهم في الدين.

ويرى (نولدكه) احتمال كون بني النضير وبني قريظة من طبقة الكهّان في الأصل : هاجروا من فلسطين على أثر الحوادث التي وقعت فيها ، فسكنوا في هذه الديار . وهناك جملة عشائر وأسر يهودية تفتخر بإلحاق نسبها بالكاهن هارون شقيق موسى النبي [4] .

كذلك يرجع (أوليري) كأمثاله من المستشرقين أصل بني قريظة وبني النضير الى اليهود ، ويرى انهم غادروا ديارهم وجاءوا الى هذه المنطقة في الفترة الواقعة ما بين خراب الهيكل في عام ٧٠ للميلاد وتنكيل (هدريان) باليهود في عام ١٣٢ للميلاد [5] .

---

١ الاشتقاق (٢٥٩/٢) .

٢ الاغاني (٩٥/١٩ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (١٤٧/٢ وما بعدها) ، Nöldeke, Beitage, S. 54.

٣ الاغاني (٩٥/١٩) ، تاج العروس (٢٥٩/٥) ، (قرظ) ، Margoliouth, p. 59, Graetz, History of the Jews, III, p. 56.

٤ Nöldeke, Beiträge, S. 55.

٥ O'beary, p. 173.

ويرجع بعض بقية يهود جزيرة العرب نسبهم الى الكاهنين والى الأسباط العشرة كذلك، فيدعون انهم من تلك الأسباط المفقودة ، وانهم من نسل قدماء اليهود[1] .

وقد كانت منازل بني النضير حينما غزاهم الرسول في وادي بطحان وبموضع البُويرة[2] . ووادي بطحان ، هو أحـد أودية يثرب الثلاثة ، وهي : العقيق وبطحان وقنـاة . وهو وادٍ فيه مياه غزيرة وعيون ، اتخـذ به اليهود الحدائق والآطام . وقـد كان موضعُ البُويرة عامراً كذلك ، وهو من تيماء ، فيه نخل وزرع وأشجار . وقد غزاهم الرسول بعـد ستة أشهر من غزوة أُحد ، فأحرق نخلهم وقطع زرعهم وشجرهم لتطاولهم على المسلمين . ومن ساداتهم : حيي بن أخطب ، وأخوه ياسر بن اخطب ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع، وهو ابو رافع الأعور ، والربيع بن أبي الحقيق[3] . وعمرو بن جحاش .

ومن بني النضير ، كعب بن الأشرف ، وكان معـاصراً للرسول ، وكان صاحب لسان ونفوذ . أبوه من طيء على رواية ، ومن بني النضير على رواية أخرى . أما أمه فهي من بني النضير بإجماع الرواة . توفي أبوه – على رأي من يقول إنه من طيء – وهو صغير ، فحملته أمه الى أخواله ، فنشأ فيهم ، وقال الشعر عندهم ، وساد . ولما جاء الرسول الى يثرب ، كان كعب فيمن ناصب الرسول العداء فعلاً وقولاً ، فهجا الرسول ، وهجا أصحابه ، وظل هذا شأنه بالرغم من محاولة المسلمين استصلاحه واسترضاءه . حتى جنى عليه لسانه ، فأهدر النبي دمه ، فذهب اليه نفر من المسلمين ، فاقتحموا داره وقتلوه . وقد كانت له مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج[4] .

---

١ Nallino, Raccolta, III, p. 99, Friedlander, The Jews of Arabia and the Rechabites, in Jews quarterly Review, 1910-1911, p. 254.

٢ بالضم ثم السكون ، وقيل بفتح أوله وكسر ثانيه وبفتح أوله وسـكون ثانية ، البلدان (٢/٢١٦) ، (١/٥١٢ وما بعدها) ، (السعادة) .

٣ البلدان (٢/٣١٠ وما بعدها) ، البكري ، معجم (١/٢٨٥) « طبعة مصطفى السقا » « بويرة » ، شرح ديوان حسان ، للبرقوقي (ص ١٩٣ وما بعدها) ، الطبـري (٢/٢٢٤) ، (الاستقامة) ، فتوح البلدان ، للبـلاذري (١/٣٢) ، (١٩٣٢ م) ، (القاهرة) .

٤ الاغاني (١٩/١٠٦ وما بعدها) ، المحبر (ص ١١٧ ، ٢٨٢ ، ٣٩٠) ، ديوان حسان (ص ٤٦) «طبعة هرشفلد» ، شرح ديوان حسان (ص ٢٧٢ وما بعدها) «للبرقوقي» ، الكامل ، لابن الاثير (٢/٩٩) ، الطبري (٢/١٧٧) ، معجم الشعراء ، للمرزباني (٣٤٣) ، ابن خلدون (٢/٧٥٧) ، ابن هشام (٢/٥٤٨) ، البداية والنهاية (٤/٧٤) .

وكان قد ذهب الى مكة ، فحرض قريشاً على الرسول ، ولما عاد الى موضعه ، ألب المشركين من أهـــل يثرب عليه . ورثا قتلى القليب ، فقتله المسلمون كما ذكرت[١] .

وكانت لبني قريظة حصون ، يتحصنون بها وقت الخطر ، ولهم آبار ، ومنهم (محمد بن كعب القرظي)[٢] . والزبير بن باطان بن وهب ، وعزال بن شمويل ، وكعب بن أسد ، وشمويل بن زيد ، وجبل بن عمرو بن سكينة .

وكان بنو قينقاع أول اليهود الذين ناصبوا الرسول العداء ، وكانوا يسكنون في أحياء يثرب ، وكانوا أغنياء على غير وفاق ووئام مع بقية أبنـــاء قومهم بني قريظة وبني النضير . وقـــد اشتركوا في يوم بُعاث . ووقعت بينهم وبين بني النضير وبني قريظة معارك فتك فيها ببني قينقاع ، وأصيبوا بخسائر كبيرة اضطرتهم على ما يظهر الى الالتجاء الى يثرب والإقامة فيها في حي واحد من المدينة[٣] .

ويرى (أوليري) احتمال كون بني قينقاع من أصل عربي متهود ، أو من بني أدوم[٤] .

وقد تكون بعض القبائل اليهودية التي ذكر أسماءها الأخباريون قبائل يهوديـــة حقـــاً ، أي من الجماعات اليهودية التي هاجرت من فلســـطين في ايام القيصر (طيطوس) Titus ، أو (هدريان) Hadrian ، او قبل ايامها ، او بعدها . ولكن بعضاً آخر منها ، لم يكـــن من أصل يهودي ، انما كانت قبائـــل عربية دخلت في دين يهود ، ولا سيا القبائل المسماة بأسماء عربية أصيلة . ولبعض هذه

---

١ التنبيه (٢٤٣) ، والمصادر المذكورة ، السيرة الحلبية (٢/٩٤ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٤٠١ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٦٠٨) ، ابن عساكر (١/٤٠) ، البداية والنهاية (٤/٧٤ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٥/٢٥٩) ، (قرظ) ، البداية والنهاية (٤/١١٦) ، الاغاني (١٩/٩٤) ، فتوح البلدان ، للبلاذري (١/٢٣ ، ٣٥) ، الطبري (٢/٢٤٥) ، (الاستقامة) ، السيرة الحلبية (٢/١٤٥ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٧٧٧) .

٣ البداية والنهاية (٤/٣) ، الطبـــري (٢/١٧٢) ، (الاستقامة) ، البـــدء والتاريخ (٤/١٩٥) ، البلدان (٧/١٩٩) ، ولفنسون (١٢٨ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (٢/٢ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٦٠٨) .

٤ O'beary, p. 173. f.

الأسماء ، صلة بالوثنية تشعر انها كانت على الوثنية قبل دخولها في دين يهود[1] . والظاهر انها تهودت إما بتأثير التبشير ، وإما باختلاطها ودخولها في عشائر يهودية جاورتها فتأثرت بديانتها . وقد ذكر البكري ان (بنى حشنة بن عكارمة) ، وهم من بليّ قتلوا نفراً من بني الربعة ، ثم لحقوا بتيماء « فأبت يهود ان يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم ، فتهودوا ، فأدخلوهم المدينة . فكانوا معهم زماناً ، ثم خرج نفر الى المدينة ، فأظهر الله الاسلام ، وبقية من أولادهم بها »[2]. وهنالك بطون أخرى عربية الأصل كانت على دين يهود[3] .

وقد اشتهر يهود خيبر من بين سائر يهود الحجاز بشجاعتهم . وخيبر موضع غزير المياه كثيره ، وقد عرف واشتهر بزراعته وبكثرة ما به من نخيل . وعند اجلاء اليهود عن خيبر ، تفرقوا فذهب بعض منهم الى العراق ، وبعض آخر الى الشأم ، وبعض منهم الى مصر . وقد بقوا في كل هذه المواضع متعصبين لوطنهم القديم خيبر ، ينادون بشعارهم الذي كانوا ينادون به قبل الاسلام ، وهو : (يا آل خيبر)[4] .

وقد اشتهرت (خيبر) وعرفت بالحمى . حتى نسبت اليها ، فقيل لها (حمى خيبرية) . وكان من أساطيرهم إذ ذاك ، أن من أراد دخولها فعليه بالتعشير ليتخلص منها . وكان من أوابدهم فيما يزعمون أن الرجل إذا ورد أرض وباء ووضع يده خلف اذنه ، فنهق عشر نهقات نهيق الحمار ، ثم دخلها أمن من الوباء[5] .

وزعم أن يهود خيبر هم من نسل (ركاب) المذكور في التوراة[6] ، وأن (يوناداب) Jonadab (جندب) ابنه : تبدى مع أبنائه ومن اتبعه ، وعاش

---

١ Margoliouth, p. 60, Nöldeke, Beiträge, S. 52, Wüstenfeld, Geschichte von Medina, S. 28.

٢ البكري (١/٢٩) «طبعة السقاء» ، Islamic Culture, III, Vol., 2, p. 177.

٣ Nöldeke, Beiträge, S. 55.

٤ المشرق : السنة السادسة والثلاثون ، ١٩٣٨ (ص ١٥٢ وما بعدها) .

٥ قال عروة بن الورد :

واني وان عشرت من خشية الردى ... نهاق حمار انني لجزوع

تاج العروس (٣/٤٠٢) ، (عشر) .

٦ الملوك الثاني : الاصحاح العاشر ، الآية ١٥ ـ ٢٨ ، Hastings, p. 784.

عيشة تقشف وزهد وخشونة ، وأن نسلهم هاجر بعد خراب الهيكل الأول الى الحجاز حتى بلغوا خيبر ، فاستقروا بها ، واشتغلوا بزراعة النخيل والحبوب ، وأنهم أقاموا فيها قلاعاً وحصوناً تحميهم من غارات الأعراب عليهم . ذكر بعض الأخباريين أنها ولاية من سبعة حصون ، منها : حصن ناعم ، والقموص حصن ابن أبي الحقيق وهو أقواها وأعزها وقد أقيم على مرتفع من الأرض حماه وعزز دفاعه ، وحصن الشق ، وحصن النطاة ، وحصن السلالم ، وحصن وجده ، وحصن الوطيح ، وحصن الكتيبة (الكثيبة) . وقد أخرجوا منها وأجلوا عنها زمان عمر بن الخطاب [1] .

وقد زعم بعض الأخباريين ان خيبر لفظة عبرانية ، وان معناها الحصن في عربيتنا [2] . وزعم بعض آخر انها نسبة الى رجل اسمه (خيبر بن فاتيه بن مهلاييل) ، سميت خيبر باسمه ، لأنه كان أول من نزلها [3] . وذهب (وايل) Weil ، الى ان اللفظة لفظة عبرانية ، وهي بمعنى مجموعة مستوطنات [4] . أما (دوزي) ، فقد أخذ بالرواية العربية ، فزعم ان (خيبر) ، كناية عن جماعة من اليهود هاجرت في أيام السبي من فلسطين الى هذا الموضع ، وهي من نسل (شفطيا بن مهللئيل) من (بني فارص) [5] . وان (فاتيه) ، هو تحريف (شفطيا) Shaftja المذكور في سفر (نحميا) من أسفار التوراة ، وهو ابن (مهللئيل) ، الذي هو (مهلاييل) عند أهل الأخبار . وزعم ان زمان هجرة هذه الجماعة يتناسب تماماً مع الرواية القائلة ان هجرة اليهود الى جزيرة العرب كانت في ايام (بخت نصر) [6] .

وذهب المستشرقون ان كلمة (خيبر) ، كلمة عبرانية الأصل (خيبر) Kheber

---

١ البلدان (٣/٤٩٥ وما بعدها) ، البكري ، معجم (١/٥٢١) ، تاج العروس (٣/١٦٨) ، (خبر) ، زاد المعاد (٢/١٣٣) ، تاريخ الاسلام (١/٢٩٤ وما بعدها) ، Graetz, III, p. 56, Ency., II, p. 869, Caetani, Annali., II, I, 8-33.

٢ ابو الفداء ، (ص ٨٩) ، البلدان (٣/٤٩٥) ، البكري ، معجم (٢/٥٢١ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/١٦٨) ، (خبر) .

٣ R. Dozy, Mekka, S. 136.

٤ Mohammed der Prophet, S. 185.

٥ نحميا ، الاصحاح الحادي عشر ، الآية ٤ وما بعدها .

٦ R. Dozy, Mekka, S. 136. f.

ومعناها الطائفة والجماعة[1] . وذهب بعضهم الى ان معناها الحصن والمعسكر[2]. وهي من أقدم المواضع التي لجأ اليها اليهود في الحجاز .

ومن الصعب تعيين الزمن الذي هاجر فيه اليهود الى هذا الموضع . لقد رجع بعضهم ذلك الى ايام هجوم الرومان على فلسطين . غير ان من الجائز ان تكون هجرتهم اليها قد وقعت قبل ذلك ، ومن الجائز ان تكون في اثناء السبي واستيلاء البابليين على القدس ، وقد يجوز ان يكون قوم منهم قد جاءوا مع (نبونيد) ملك بابل الى تيماء حين اتخذ (تيماء) عاصمة له . فهاجر قسم منهم الى خيبر والى نواح أخرى من الحجاز[3] .

وأقدم إشارة كتابية ورد فيها اسم خيبر ، نص : حرّان اللجاة ، ويرجع تأريخه الى سنة أربع مئة وثلاث وستين من الأندقطية الأولى ، وتقابل سنة ٥٦٨ للميلاد . وقد ورد فيه : « بعد مفسد خيبر بعم »[4] . أي بعد خرب خيبر بعام . وهو يشير الى غزو لهذا الموضع أنزل به خسائر كبيرة ، ولأهميته وفداحته في نفوس أهله أرخوا بوقوعه . ويعود النص المذكور المدون باليونانية والعربية الى (شرحيل بن ظلمو) (شراحيل بن ظالم) ، وقد دوّنه لمناسبة بنائه (مرطولاً) ، فأرخ بتاريخ خيبر المذكور . وهو يشير الى غزوة قام بها أحد أمراء غسان على خيبر[5] .

وقد وجدت كتابات بحروف المسند وكتابات نبطية في خيبر ، هي أقدم عهداً من نص (حرّان اللجاة) ، يفهم منهـا بوجود سكن في هذه الأرضين يعود بعضه الى ما قبل الميلاد . ولم تكتشف تربة خيبر حتى الآن ، وكل ما عثر عليه من عاديات فيهـا هو من النوع الذي وجد ظاهراً على سطح الأرض ، وليس بمستبعد أن يعثر فيها على كتابات قد تكشف عن تأريخ هذه البقعة .

ولما بلغ أهل تيماء ما حدث لإخوانهم في خيبر ووادي القرى ، وفدك ، قبلوا

---

١ Charles Cutler Torrey, The Jewish Foundations of Islam, New York, 1933, p. 13.

٢ Ency., II, p. 870.

٣ Torrey, p. 17, A. Müller, Der Islam, Bd., I, S. 36. ff.

٤ جواد علي ، العرب قبل الاسلام (١/١٩٥ وما بعدها) .

٥ المصدر المتقدم ، المعارف (٣١٣) ، ولفنسون ، السامية (١٩٢) .

الجزية ، وصالحوا الرسول في سنة تسع للهجرة ، فضمن بذلك لهم حرية بقائهم في دينهم . وعلى تيماء كان يشرف حصن السموأل (الأبلق الفرد) . وقد نعتت تيماء في بعض الأشعار بتيماء اليهود[1] .

وتيماء من المواضع القديمة. وقد مرّ الحديث عنها في أماكن من هذا الكتاب. وقد سبق أن قلت بأن الملك (نبو نيد) قد أقام زماناً فيها ، حيث اتخذها عصمة له . وهي في موقع حسن ، وملتقى طرق هامة يسلكها التجّار . وقد استبد بها اليهود فأقاموا بهــا وجعلوها من أهم مستوطناتهم في الحجاز . استغلوا أرضهــا فزرعوها ، واستنبطوا الماء من الآبار بالإضافة الى واحتها ذات المياه العذبة الغزيرة التي كان لها الفضل في تكوين هذا الموضع واعماره . وقد ذكرت في شعر (امرىء القيس) ، وفيهــا كان حصن السموأل بن عــادياء المذكور في قصص امرىء القيس الشاعر .

ويرى بعض المستشرقين ان (شمعون التيماني) Simeon of Temanite المذكور في التلمود والمدراش ، هو من أهل (تيماء)[2] . ولا يستبعد ان يكون من بين أهل هذه المدينة من حصل على شهرة في العلم بفقه اليهود وبأحوال دينهم . فان مركزها وموقعها يجعل من السهل على سكانها الوصول الى فلسطين وبقية بلاد الشأم وأخذ العلم من علماء تلك البلاد .

وقد عثر الرحّالة (أويتنك) Euting على كتابة مدونة بقلم بني إرم تعود الى عهد كان الفرس قد استولوا فيه على هذا المكان ، تتحدث عن أهميــة تيماء ورقيها في هذا العهد[3] . ولا يستبعد العثور على كتابات عديدة اذا ما قام العلماء بالتنقيب عنها في باطن الأرض ، فإن موضعاً مثل هــذا الموضع لا بد ان يكون غنياً بالكتابات والآثار . وقد وجد (أويتنك) آثار معبد قديم ، وآثار مواضع عتيقة أخرى ترجع الى ما قبل الاسلام[4] . ووجد (جوسن) Jaussen و (سافينه) Savignac آثار مقابر عــلى تلال من النوع الذي يطلق عليــه الآثاريون اسم

---

١ البلدان (٢/٤٤٢) « تيماء » ، فتوح البلدان (١/٢٩) .

٢ Mishna Yadayim, I, 3, Yebamoth, 4, 13, Tosephta Berachoth, 4, 24, Sanhedr, 12, 3, Besa, 2, 19, Bab. Talmud, Zebachim, 32 b. Baba gamma, 90 b., Besa, 21a Tarrey, pp. 26 Margoliouth, p. 68.

٣ Ency., IV, p. 622.

٤ Euting, Tagebuch einer Reise in innerarabien, II, 148, 199.

(تمولي) Tumuli ، ومرقاة مدرجة تؤدي الى بناء مربع لعله معبد من معابد القوم بُني على هذا التل[1] .

ولا توجد اليوم بقية للأبلق الفرد ، الذي افتخر السموأل وآل السموأل به ، وكذلك يهود تيماء . وليس بمستبعد ان يكون ذلك الحصن من بقايا قصر (نبونيد) أو من بقايا قصور رجاله ، أو من بقايا أبنية غيره ممن نزل هذا المكان . وقد يكون بناء أقامه السموأل وبناه بحجر تلك الأبنية القديمة. وقد اكسب قصر السموأل هذا الموضع شهرة ، وأكسبه خبر وفاء السموأل شهرة كذلك على النحو المذكور في كتب الأدب والأخبار[2] .

وفدك موضع آخر من المواضع الذي غلب عليه اليهود . وسكانه مثل أغلب يهود الحجاز مزارعون عاشوا على الزراعة كما اشتغلوا بالتجارة وببعض الحرف التي تخصص فيها اليهود مثل الصياغة والحدادة والنجارة[3] . والموضع من المواضع القديمة التي يعود عهدها الى ما قبل الإسلام ، وقد ذكره الملك (نبونيد) في جملة المواضع التي زارها والتي خضعت لحكمه في الحجاز . وكان رئيس فدك عند ظهور الإسلام وهجرة الرسول الى يثرب يوشع بن نون[4] .

ووادي القرى ، هو من المواضع التي غصت باليهود ، فكان أكثر أهله منهم. وقد كان يهوده من المزارعين[5] ، وقد حفروا به الآبار ، وتحالفوا مع الأعراب، وعاشوا معهم متحالفين . يعملون بالزرع . وقد غزاهم الرسول مرجعه من خيبر سنة سبع للهجرة ، على أثر اصابة (مدعم الأسود) مولى الرسول بسهم غارب قتله . وهو مولى مولد من (حسمى) ، كان أهداه (رفاعة بن زيد الجذامي) أو (فروة بن عمرو الجذامي) الى الرسول[6] .

---

١ Jaussen and Savignac, Mission Archéologique, II, pp. 133, 163,

٢ أبو الفداء ، تقويم البلدان (٨٦) ، البكري ، معجم (٣٢٩/١) ، البلدان (٦٧/٢) ، اللسان (٧٦/١٢) « صادر » ، ابن حوقل ، صورة الارض (٣٠) ، ابن خلدون (٥٧٤/٢) ، دائرة المعارف الاسلامية « الترجمة العربية » (١٣٠/٦) .

٣ البكري ، معجم (٣٢٧/١) ، تقويم البلدان (٧٨) ،

٤ الطبري (٩٨/٣) « حوادث السنة السابعة » ابن الاثير (٩٣/٢) ، « ذكر فدك » ، البلاذري ، فتوح (٣٦ وما بعدها) ، Nallino, Raccolta, I, 198, III, 97.

٥ زاد المعاد (١٤٦/٢) .

٦ الطبري (١٦/٣) ، (ذكر غزوة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وادي القرى) ، الاصابة (٣٧٤/٣) ، (رقم ٧٨٥٨) .

وكان بين أهل مقنا وأيلة في ايام الرسول قوم من اليهود كذلك ، وكذلك أهل بقية القرى الواقعة في أعالي الحجاز وعلى ساحل البحر ، وقد صالحوا الرسول على الجزية ، وبذلك ضمنوا لهم البقاء في هذه الأنحاء[1] . ومن هؤلاء اليهود (بنو جنبة) ، وهم يهود بـ (مقنا)[2]،و (بنو غاديا)[3] ، و(بنو عريض)[4].

وكان بالطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب ، فجاءوا اليها ، ولم تكن قد أسلمت بعد ، فأقاموا بها للتجارة . فلما صالح أهل الطائف الرسول — على ان يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من أموالهم وركازهم ، واشترط عليهم ألا يربوا ولا يشربوا الخمر وكانوا أصحاب ربا — وضعت الجزية على يهودها ، وبقوا فيها ، ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف[5] .

ويظهر انه لم تكن لليهود جاليات كبيرة في جنوب المدينة حتى اليمن ، لعدم إشارة أهل الأخبار اليهم ، وان كنت لا أستبعد وجود أفراد وأسر منهم في مكة وفي عدن وفي المدن التي اشتهرت بالتجارة كبعض موانىء البحر الأحمر وموانىء سواحل العربية الجنوبية . غير ان وجودهم في هذه المواضع ، لم يكن له أثر واضح مهم ، فلم يتجاوز محيط التجارة والاتجار .

وقد ذهب بعض المستشرقين ، استناداً الى دراسة أسماء يهود الحجاز عند ظهور الاسلام ، الى ان اولئك اليهود لم يكونوا يهوداً حقاً ، بل كانوا عرباً متهودين، تهودوا بتأثير الدعاة اليهود[6] . ولكن الاستدلال من دراسة الأسماء على أصول الناس ، لا يمكن ان يكون حجة للحكم على أصولهم وأجناسهم . فالفرس والروم والهنود وغيرهم ممن دخل في الاسلام ، تسمّوا بأسماء عربية ، وبعضها أسماء عربية خالصة . وتسمياتهم هذه لا تعني ان من تسمى بها كان عربي الأصل . ثم إن كثيراً من اليهود في الغرب وفي أمريكة وفي البلاد العربية والاسلامية ، سمّوا أنفسهم بأسماء غير عبرانية ، ولكنهم كانوا وما زالوا على دين يهود .

---

١ البلدان (١٢٨/٨) « مقنا » ، البلاذري ، فتوح (٦٦) ، زاد المعاد (١١٧/٢) ، الطبري (٢٣٢/٢ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٧٦/١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .
٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .
٥ البلاذري ، فتوح (٦٣) .
٦ W. Caskel, Das attarabische köningreich Lihyan, S. 19.

فالأسماء وحدها لا تكفي في اعطاء رأي علمي في تعيين الأصول والأجناس ، ولا سيما في المواضع الكائنة على طرق التجارة والمواصلات وفي الأماكن التي يكثر فيها الاختلاط .

وللمستشرق (ونكلر) رأي في هذا الموضوع ، خلاصته : ان اولئك اليهود لو كانوا يهوداً حقاً هاجروا من فلسطين الى هذه المواضع ، لكانت حالتهم وأوضاعهم ومستواهم الاجتماعي على خلاف ما كان عليه هؤلاء اليهود . كانت حالتهم أرقى وأرفع من الحالة التي كانوا عليها ، إذ لا يعقل ، على رأيه ، وصول جماعة الى ذلك المستوى الاجتماعي الذي كان عليه يهود جزيرة العرب لو كانوا من بلاد مستواها الثقافي والمدني أرقى من مستوى من هو دونهم كثيراً في شؤون الحياة . ومستوى الحياة في جميع نواحيها ، في فلسطين ، أرقى وأرفع من مستواها في الأماكن التي وجد فيها اليهود من بلاد العرب . فهم على رأيه عرب متهودون ، لا يهود مهاجرون[1] .

غير أن هنالك من يؤاخذ ونكلر على هذا الرأي ، لأن رأيه لا يمكن ان ينطبق على من ترك دياره وهاجر ، واستقر في موطن جديد لأمد طويل ، لأن الأوضاع المحيطة بالوطن الجديد سرعان ما تؤثر في المهاجرين ، ولا سيما إذا كانوا جماعات صغيرة أو جماعات ليست ذات بأس شديد ، فتجعلها تنصاع للمحيط الذي نزلت به بعض الإنصياع ، فتفقد بعض خصائصها ، لتكتسب خصائص المجتمع الجديد. ثم إن اليهود الذين نزلوا في الحجاز، كانوا يختلفون مع ذلك عمن كان في جوارهم أو بينهم ، إذ كانوا يشتغلون بالزراعة ويمتهنون بعض المهن التي يأنفها العربي الأصيل ، كما أنهم كانوا لا يرغبون في القتال ، ولا يميلون الى الغزو والحروب، ولم يشتركوا إلا اضطراراً وإلا بإلحاح المصالح الضرورية فيها ، وهم يختلفون في هذه الناحية من الأعراب[2] .

ويلاحظ أن يهود الجاهلية لم يحافظوا على يهوديتهم وعلى خصائصهم التي يمتازون بها ويحافظون عليها محافظة شديدة ، كما حافظوا عليها في الأقطار الأخرى . فأكثر أسماء القبائل والبطون والأشخاص ، هي أسماء عربية ، والشعر المنسوب الى شعراء منهم ، يحمل الطابع العربي ، والفكر العربي . وفي حياتهم الاجتماعية والسياسية

---

١ Winkler, Mett. Var. Asal. Ges., VI, S. 222.

٢ Margoliouth, p. 62.

لم يكونوا يختلفون اختلافاً كبيراً عن العرب ، فهم في أكثر أمورهم كالعرب فيما سوى الدين[1] . ولعل هذا بسبب تأثير العرب المتهودة عليهم ، وكثرتهم بالنسبة الى من كان من أصل يهودي ، مما سبب تأثيرهم،وهم ذوو أكثرية ، في اليهود الأصليين الذين أثروا فيهم فأدخلوهم في دينهم ، فأثروا هم فيهم ، وطبعوهم بطابع عربي .

وقد عاش اليهود في جزيرة العرب معيشة أهلها ، فلبسوا لباسهم ، وتصاهروا معهم ، فتزوج اليهود عربيات ، وتزوّج العرب يهوديات ، ولعلّ كون بعض يهود من أصل عربي ، هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس . والفرق الوحيد الذي كان بين العرب واليهود عند ظهور الاسلام هو الاختلاف في الدين . وقد تمتع اليهود بحرية واسعة لم يحصلوا عليها في أي بلد آخر من البلاد التي كانوا بها في ذلك العهد[2] .

ومن الأسماء التي قد تكون من أصل عبراني (زعورا) ، وهو اسم عبراني متأثر بلهجة بني إرم ، و (يساف) ، وقد يكون من (يوسف) ، و (نبتل) وقد يكون من (نفتالي) Naftali ، وأسماء أخرى لم تتمكن من المحافظة على أصلها العبراني ، فتأثرت بخواص اللسان العربي . وليس بين أسماء البطون اليهودية الأحد عشر ، التي كانت في الحجاز في أيام ظهور الإسلام ، اسم تظهر عليه الملامح العبرانية غير الاسم الذي ذكرته وهو (زعوراء)[3] .

وكانت يثرب عند هجرة الرسول اليها ، في أيدي أصحابها الأوس والخزرج، لهم السيطرة والسلطان ، ولليهود آطامهم وقلاعهم في خيبر وفي تيماء وفي بعض قرى وادي القرى وفي أعالي الحجاز ، يتاجرون ، ويزرعون ،ويقرضون الأموال بالربا الفاحش للأعراب ، ويحترفون بعض الحرف مثل الصياغة ، وهي حرفة اشتهروا بها منذ القديم ، ويعقدون الأسواق ليقصدها الأعراب للامتيار .

ولكن اليهود مع ما كان لهم من قلاع وآطام وقرى عاشوا فيها متكتلين مستقلين لم يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأرضين التي أنشأوا مستوطناتهم

---

١ Nöldeke, Beiträge, S. 55. f.

٢ Graetz, III, p. 58, f., 60.

٣ Margoliouth, p. 60, Nallino, Raccolta, III, p. 104, H. Hirschfeld, Essai sur l'histoire des Juifs de Medine, in Revue des Etudes Juifs, X, 1885, p. 11. f.

فيها ، ولم يتمكنوا من انشاء ممالك وحكومات يحكمها حكام يهود ، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل ، يؤدون لهم إتاوة في كل عام مقابل حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم ومنع الأعراب من التعدي عليهم . وقد لجأوا الى عقد المحالفات معهم ، فكان لكل زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب المتحضرين .

وقد كان اليهود يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وساداتهم ، يدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداؤه في كل سنة . وهؤلاء السادة هم أصحاب الآطام والحصون والأرض . ولمن يشتغل في الأرض تسديد ما عليه لصاحبها في مقابل استغلاله لها . وقد اعتنوا عناية خاصة بزراعة النخيل . وعرفت القطعة من الأرض المزروعة نخلاً عندهم بـ (الصورين) (الصور)[1] . ولما كانت الأرضون المزروعة واسعة ، كانت خارج الآطام والحصون ، يحميها حراسها والمشتغلون بها أيام ثمرتها . وأما في أيام الغزو والحروب ، فقد كانت معرضة لهجوم المهاجمين. وهذا ما كان يعرض أعظم غلة لليهود للخطر ، ولهذا شق عليهم كثيراً،وانهارت مقاومتهم حين أمر الرسول بقطع النخل وتحريقه،وأخذوا يلتمسون منه وقف ذلك .

ويتولى الأحبار الأمور الدينية وتنفيذ الأحكام والنظر فيما يحدث بين الناس من خصومات . يقيمون لهم الصلوات وبقية شعائر دينهم ، ويعلمونهم في بيوت المدارس .

وقد أدى التنافس بين سادات يهود الى نشوب معارك بينهم في الجاهلية . وقد أشار اليها القرآن الكريم وأنبهم على ذلك . واضطرت بنو قينقاع بسبب ذلك وبضغط بني النضير وبني قريظة الى الالتجاء الى أحياء يثرب والى محالفة الخزرج، وفي مقابل ذلك تحالفت بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس ، فصاروا فرقتين : فرقة مع الخزرج ، وفرقة مع الأوس .

وفي تأنيب يهود ، لتخاصمهم وتنابذهم واخراجهم بعضهم بعضاً من ديارهم وأسر بعضهم بعضاً وافتداء الأسرى كالذي وقع بين بني قينقاع وبني النضير ، نزل الوحي : « وإذ أخذنا ميثاقكم ، لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم

---

١ الروض الانف (١٩٤/٢) ، ابن هشام (١٩٥/٢) ، (حاشية على الروض) ، (الصور: أصل النخل) ، (الصور : النخلة) ، تاج العروس (٣٤٣/٣) ، (صور) .

من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان . وإن يأتوكم أسرى ، تفتدوهم وهو محرم عليكم اخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردّون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافلٍ عما تعملون »[1] . أنّبهم لأنهم فعلوا فعل المشركين والأعراب ، مع انهم أهل دين واحد وكتاب . أما المشركون فلا اوم عليهم ، لأنهم لم يكونوا على دين ، وليس لهم كتاب يأمرهم وينهاهم .

وفي المعارك والخصومات التي تقع بين يهود ، كانوا يؤدون الدية . وهي على ما يظهر من روايات أهل الأخبار مختلفة ، وغير متكافئة . فكان بنو النضير يؤدون الدية كاملة لشرفهم في يهود ، أما بنو قريظة ، فكانوا يؤدون نصف الدية . وفي خلاف في أداء الدية وقع بينهم ، التجأوا الى الرسول للحكم بينهم ، فذكروا له هذا الاختلاف ، فحكم بالدية متساوية . وفي هذا الحكم نزلت الآية : « سماعون للكذب ، أكّالون للسحت ، فإن جاؤوك فاحكم بينهم او أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين »[2] . ذكر علماء التفسير عن (ابن عباس) أنه قال : « كانت قريظة والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به ، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة ودى مائة وسق من تمر ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا : ادفعوه الينا لنقتله ، فقالوا : بيننا وبينكم النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط . النفس بالنفس ، ونزلت أفحكم الجاهلية يبغون »[3] .

وذكر علماء التفسير في تفسيرهم للآيات المتقدمة ، ان أحبار اليهود لم يكونوا يحكمون بالحق فيما بين الناس ، كانوا يحابون ويتحزبون ويحكمون بالباطل ويأكلون (السحت) أي الرشا ، جزاء حكمهم بالباطل . وكانوا يتساهلون في تطبيق أحكام

---

١ البقرة ، الآية ٨٤ وما بعدها ، روح المعاني (٣٠٩/١) ، ابن هشام (٢٣/٢) ، (حاشية على الروض) .
٢ المائدة ، الآية ٤٢ .
٣ تفسير القرطبي ، الجامع (١٨٧/٦) ، تفسير الطبري (١٥٧/٦) .

الشريعة مع الشريف لشرفه ، ويتشددون مع الدنــيء لدناءته وفقر حاله ، ولا يراعون التساوي في أخذ الديّات . « كان الشريف إذا زنى بالدنيئة رجموها هي وحموا وجه الشريف وحملوه على البعير ، أو جعلوا وجهه من قبل ذنب البعير . وإذا زنى الدنيء بالشريفة ، رجموه » . وكان هذا شأنهم « الى ان زنى شاب منهم ذو شرف ، فقال بعضهم لبعض لا يدعكم قومه ترجمونه ، ولكن اجلدوه ومثّلوا به ، فجلدوه وحملوه على حمار أكاف وجعلوا وجهه مستقبل ذنب الحمار . الى ان زنى آخر وضيع ليس لــه شرف ، فقالوا ارجموه . ثم قالوا فكيف لم ترجموا الذي قبله ، ولكن مثل ما صنعتم به فاصنعوا بهذا » ، واختلفوا فذهب فريق منهم الى الرسول ، فحكم بينهم بما جاء بحكم التوراة[1] .

وذكر ان (حيي بن أخطب) كان قد حكم ان للنضري ديتان وللقرظي دية، لأنه كان من النضير[2] .

وذكر أهل الأخبار انه كان لليهود حكام يحكمون بينهم ، ويقيمون حدودهم عليهم . فلما جاء الرسول الى يثرب ، صار اليهود يعترضون على عدالة حكم بعضهم ، ولا يرضون بتنفيذ أحكامهم عليهم . فكان الحكام او هم يذهبون الى الرسول لكي يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون وفق شريعتهم[3] .

وكان جلّ اعتماد اليهود في هذه المنطقة عند ظهور الاسلام على التجــارة ، ومعاطــاة الربا والزرع ، وبعض أنواع الصناعة : كالصياغة ، وتربية الماشيــة والدجاج ، وصيد الأسماك في أعالي الحجاز على ساحل البحر الأحمر . واشتهروا بالاتجار بالبلح وبالبر والشعير والخمر ، وكانوا يجلبون الخمــر من بلاد الشأم . وكانوا يبيعون بالرهن ، يرهن المشترون بعض أمتعتهم عندهم ليستدينوا منهــم ما يحتاجون اليه . وقد ورد ان الرسول رهن درعاً له عند يهودي من أهل يثرب في مقابل شعير كان به حاجة شديدة اليه[4] .

ومن الصناعات التي اشتغل بها اليهود، النسيج وهو من اختصاص نسائهم على

---

١ تفسير الطبري (١٥٧/٦) .
٢ تفسير الطبري (١٥٧/٦) .
٣ تفسير القرطبي ، الجامع (١٨٧/٦) .
٤ البخاري (١٦/٢ ، ٤٥) ، فتوح البلدان (٦٠) ، ولفنسون (ص ١٨) ، Islamic Culture, 1929, III, No., 2, p. 187.

الأكثر ، والصياغة وقد اختص بها بنو قينقاع ، والحدادة ، وهي صناعة يأنف منها العرب ويزدرونها ويرونها من الحرف الممقوتة الحقيرة .

ولم يكن من مصلحة اليهود ، وهم أهل زرع وضرع ومال وتجارة وأرض ثابتة وقصور وآطام ، أن يشتركوا في الحروب أو يشجعوا وقوعها في ديارهم وفي جوارهم ، بل كان من مصلحتهم أن يعمّ الاستقرار البلاد التي يقيمون فيها ، ليعيشوا عيشة هنيئة ، وليبيعوا ما عندهم من الأعراب وليشتروا منهم ما عندهم من سلع وليقبضوا أموالهم منهم والأرباح التي استحقت على تلك الأموال .

وفي النزاع الذي يقع بين القبائل ، لم يكن من مصلحتهم تأييد حزب على حزب ، خوفاً من الوقوع في أخطاء تجر عليهم أخطاراً ومهالك هم في غنى عنها وفي مأمن من شرّها . ثم إنهم بتحزبهم لطرف يغضبون الطرف الآخر ، فيضمر عندئذ شراً لهم ، فيخسرون بذلك مشترياً وبائعاً . وهم أناس اصحاب سوق وتجارة . غير ان الظروف كانت تكرههم في بعض الأحيان على الاشتراك في الحرب ، وعلى إثارة الحرب أيضاً متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ومصلحة ترتجى كأن ينهكوا العدوّ بحرب مع عدو آخر بإيقاع الفتنة وإشعال النيران ، كما أوقعوا بين الأوس والخزرج ، لإضعاف الطرفين معاً ، حتى لا تبقى لهم قوة تهددهم وتكون خطراً عليهم .

وفي يوم بعاث استعان الأوس ببني قريظة والنضير، فبلغ ذلك الخزرج فأرسلوا اليهم يحذرونهم من سوء عاقبة الاشتراك في هذا النزاع، فتوقفوا ، غير أنهم عادوا فعاونوا الأوس ، وانضم اليهم بنو النبيت . فلما كسب الأوس الحرب ، كسب بنو قريظة والنضير والنبيت غنائم من الخزرج ، وخرجوا في هذا اليوم منتصرين بانتصار الأوس[1] .

ويذكر أهل السير والأخبار : ان يهود يثرب كانوا اذا تضايقوا من الأوس والخزرج هددوهم بقرب ظهور نبي يستعلون به عليهم . ففي رواية عن بعض الصحابة انهم قالوا : « كنا قد علوناهم في الجاهلية ؛ ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون لنا : إن نبياً يبعث الآن نتبعه ، قد أطل زمانه ،

---

١ ابن هشام (٣/٩٤) ، اليهود (ص ٦٢ وما بعدها) .

نقتلكم معه قتل عاد وإرم »[1] . ولما ذكّرهم معاذ بن جبل وبشر بن البرّاء بن معرور ونفر آخرون بدعواهم تلك ، وبظهور النبي العربي بقولهم لهم : «يا معشر يهود ، اتقوا الله ، واسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ، ونحن أهل شرك ، وتخبروننا انه مبعوث وتصفونه لنا بصفته » ، فكان جواب يهود لهم ما جاء على لسان سلام بن مشكم أحد بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكره لكم. وقد أشير إلى ذلك في القرآن الكريم: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . فلما جاءهم ما عرفوا ، كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين »[2] .

واستفتاح اليهود على المشركين ، هو للتفريج عن أنفسهم ولتخويف الأوس والخزرج ولاعتقادهم حقاً بظهور مسيح منهم ، أي من بني اسرائيل. ولهذا أنكروا نبوة الرسول ، وأبوا التسليم بها ، لأنه لم يكن منهم ، ولأن النبوة لا تكون – على رأيهم – إلا في بني اسرائيل.فكيف يصدقون بنبي عربي من الأميين (نبي امّوت ها عولام) Nebi'e Ummot ha-'Olam .

يهود اليمن :

والموضع الثاني الذي عششت فيه اليهودية وباضت ، هو اليمن . ففي هذه الأرض من جزيرة العرب ظهر التهود فيها ظهوراً واضحاً ، وصارت اليهودية ديانة البلاد الرسمية . أما كيفية مجيئها وانتشارها هناك ، ومتى كان ذلك ، فليس لدينا علم واضح دقيق عن ذلك . ويزعم أهل الأخبار ان تبعاً ، وهو التبع (تبّان اسعد ابو كرب) ، اهتدى الى هذه الديانة عند اجتيازه بيثرب وهو عائد الى اليمن من حرب قام بها في الشمال وفي ايران ، وذلك بتأثير بعض الأحبار عليه، ومنذ ذلك الحين صارت هذه الديانة ديانة رسمية للبلاد[3] .

وتجعل بعض روايات الأخباريين اسم هذا التبع (تبع بن حسان) أو (حسان)،

---

١ ابن هشام (٢/١٦٦) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ، تفسير الطبري (١/٣٢٤) .
٢ البقرة ، الآية ٨٩ ، تفسير الطبري (١/٣٢٤) ، روح المعاني (١/٢٨٩) .
٣ الطبري (٢/١٠٥ وما بعدها) ، «طبعة دار المعارف بمصر» .

وهو (تبع الأصغر) ، او (أبو كرب بن حسان بن اسعد الحميري) أو غير ذلك . وتزعم ان حبرين من أحبـــار اليهود من بني قريظة عالمين راسخين في العلم ، هما اللذان هديا التبع الى اليهودية ، وأبعداه عن عبادة الأوثان[1] .

وقد يكون لهذه الروايات شيء من الصحة ، غير أني أرى ان دخول اليهودية الى اليمن مردّه ايضاً الى اتصال اليمن من عهد قديم بطرق القوافل التجارية البحرية والبرية ببلاد الشأم . وفي قصة سليمان وملكة سبأ إشارة الى تلك الصلات ، والى هجرة جماعات من اليهود الى هذا القطر عن طريق الحجاز ، بعوامـل متعددة ، منها : التجارة والهجرة الى الخارج ، وهروبهم من اضطهاد الرومان لهم ،وعوامل أخرى جعلتهم يتجهون من الحجاز الى اليمن ، فأقاموا هناك .

وأما يهود اليمن المحدثون فإن أحبارهم ورجـــال العلم والفهم منهم يرجعون وجودهم في اليمن الى أيام السبي ، أي الى ايام (بخت نصر) ، وهم يزعمون أنهم بقوا في اليمن منذ ذلك الحين ولم يعودوا الى فلسطين[2] . وقد غادروا اليمن بعد التقسيم .

وقد أشار حبر يسمى (ربي عاقبة) (رباي عقيبة) Rabbi ʻAqiba ، في حوالى سنة (١٣٠ م) ، الى زيارته لملك عربي كوشي (مليخ عرابيم) كانت زوجته كوشية كذلك ، وإلى تحدثه معه . ويراد بـ (كوش) الأحباش غير ان بعضهم كان يقصد بها العربية الجنوبية كذلك . ولا يستبعد ان يكون مراد الحبر بذلك اليمن ،أو منطقة أخرى من العربية الجنوبية كان الحبش قد استولوا عليها[3] . وربما قصد منطقة افريقية ساحلية كان يحكمها ملك عربي في ذلك الوقت .

وتدل رحلة (ربـي عقيبة) R. ʻAqiba هذه إلى اليمن على وجود يهود فيها ، إذ لا يعقل سفره هذا إلى تلك البقعة النائية وتجشمه مشقته ، لو لم تكن هنـاك

---

١ الاغاني (١/١٠٩ وما بعدها) ، (١٣/١٢٠ وما بعدها) ، Caussin de Perceval, Essai, I, 91, Nallino, Raccolta, III, p. 88.

٢ Travels and adventure of the Rev. Poseph Walf, London, 1861, p. 509, R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka von David Zeit bis in's fünfte Jakrhundert unsrer Zeitrechung, 1864, S. 135.

٣ Islamic Culture, III, 2, p. 190 (1929), Josephus, Antiquitate, XV, 3, 29, Die Araber, III, S., 22. Talmud Babli, in Rosh Hashnah, 26a, Kraus, in ZDMG., S. 331, 1916.

جالية يهودية فيها . وقد يجوز ان تكون سفرته الى اليمن مجرد سفـرة استطراق وعبور ، لغاية الذهاب من اليمن إلى الحبشة ، ولكني لا أستبعد مع ذلك وجود اليهود في اليمن في هذا العهد ، إذ كان (أوليوس غالوس) قد جاء بجمع منهم معه في حملته على اليمن ، فيجوز ان يكون بعضهم قد فضّل البقـاء في اليمن والسكن فيها لطيبها ولخصب أرضها وتعبهم من السفر ، ففضلوا لذلك البقاء على الرجوع وتحمّل المشقات والجوع والعطش والهلاك. وقد هلك بالفعل القسم الأكبر من رجال الحملة بسبب صعوبة الطريق والحر الشديد والجوع والعطش[١] .

وقد عثر على كتابة من كتابات القبور في (بيت شعا ريم) Beth She'arim في جنوب شرقي حيفا ، ورد فيها :(منحم قولن حمرن) Mnhm Kwln hmyrn أي (مناحيم قيل حمير) . والموضع الذي وجدت هذه الكتابة فيه ، هو مقبرة من مقابر كبّار الأحبار ، وقد وجدت معها كتابات أخرى ، تشير الى أسمـاء أحبار معروفين قبروا فيها . لذلك فإن (مناحيم) (قيل حمير) هو يهـودي ، قد كان جاء الى فلسطين للزيارة أو للاتصال بعلماء اليهود الذين كانوا قد تجمعوا في (بيت شيعا ريم) ، فمرض ومات هناك . ودفن في مقبرة هـذا الموضع . ويرجع الباحثون تأريخ الكتابة المذكورة الى حوالى سنة (٢٠٠ م)[٢] .

واستدل بعض المستشرقين بنص دوّنه (شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد) على سد مأرب ، وردت فيه جملة (بعـل سمن وارضن) ، أي (رب السماء والأرض) على تهوده بحجة ان هذه العبارة تشير الى التوحيد الخالص ، والتوحيد الخالص هو عقيدة يهود[٣] .

وقد ذكر المؤرخ النصرانـي (فيلوستورجيوس) Philostorgius في حوالى سنة ٤٢٥ م ، ان أهل سبأ كانوا يتبعون في (السبت) سنة (ابراهيم) ، ولكنه ذكر أيضاً انهم كانوا يعبدون الشمس والقمر ومعبودات أخرى ، وان بعضاً منهم كان على دين يهود ،وانه قاوم رسالة (ثيوفيلس) Théophilus الذي أرسله القيصر

---

١ Ullendorff, in Journ. of Sem. Stud., Vol., I, Num. 3, July 1956, p. 221.

٢ S. D. Goitein, Jews and Arabes, New York, 1955, p. 47, Die Araber, III, S., 16. ff., Corp. Inscript. Iudaic., 2, 1952, 207, Nr. 1137, Driver, in Hebrew and Semitic Studies, 1963, 151. f.

٣ Islamic Culture, 1929, III, 2, p. 191, Margoliouth, Relations, p. 68.

قسطنطين (٣٤٠ – ٣٦١ م) للتبشير بين الحميريين . وذكر المؤرخ (ثيودور لكتور) Theodorus Lector ، وهو من رجال النصف الأول للقرن السادس للميلاد ، ان الحميريين كانوا في بادىء أمرهم على دين يهود ، دخلوا فيه في ايام ملكة سبأ المعروفة بقصتها مع سليمان ، بدعوتها اياهم الى هذا الدين. ولكنهم كما يقول هذا المؤرخ عادوا فارتدوا الى الوثنية ، ثم دخلوا بعدئذ في النصرانية في ايام القيصر (أنسطاس) Anastasius (٤٩١ – ٥١٨ م) . ولم يشر هذا المؤرخ الى وجود اليهودية بين الحميريين ، كما انه لم يشر ولا المؤرخ الآخر الى تهود أحد من ملوك حمير[1] .

ويفهم من الجمل : « وان اليهود الكائنين في طبرية يرسلون سنة فسنة ووقتاً فآخر كهنة منهم الى هناك لإثارة السجس بين نصارى الحميريين. فلو كان الأساقفة نصارى وليسوا بشركاء لليهود ، ويودّون ان تستقيم النصرانية ، لرغبوا الى الملك وعظمائه ، ليلقوا القبض على رؤساء كهنة طبرية وبقية المدن،ويلقوهم في السجن . ولا نقول هذا لنجازي سيئة بسيئة ، بل ليتوثقوا منهم بكفلاء حتى لا يعودوا يرسلون رسائل وأشخاصاً وجيهين الى ملك الحميريين ، فيصب صاعقة الأرزاء على شعب المسيح في حمير ... » ،وهي جمل اقتبسها من رسالة (شمعون) عن تعذيب نصارى نجران ، ان يهود اليمن لم يكونوا بمعزل عن يهود فلسطين ، بل كانوا على اتصال بهم ، وان أحبار طبرية كانوا يرسلون رجالاً منهم الى اليمن ومعهم أموال ووجوه الى يهودها وملكها وكبارها للتأثير فيهم ولتوثيق صلاتهم وروابطهم بهم . وقد نسب شمعون الى أحبار طبرية ، انهم كانوا يحرضون ملك حمير ويهود حمير على الضغط على نصارى اليمن وعلى اضطهادهم انتقاماً منهم،فطالب الحكومة والنصارى على الضغط على يهود فلسطين وعلى أحبار طبرية بصورة خاصة ، ليكتبوا الى يهود حمير بالكف عن التحرش بنصارى اليمن، وعن تهديدهم بانزال العقوبات بهم انتقاماً منهم إن لم يسدوا لهم النصح .

وورد في أخبار الشهداء الحميريين : أن أحباراً من فلسطين من (طبريا) Tiberias ،كانوا قد جاؤوا إخوانهم في الدين يهود اليمن وسكنوا معهم[2] . ومعنى

---

١ Margoliouth, p. 62 f., Migne, Patrologia Graeca, XXXV, p. 211, Islamic culture, 1929, III, 2, p. 190, Philostorgius, Hist. Eccl., III, 5.

٢ Margoliouth, p. 68.

هذا أن الصلات بين يهود اليمن ويهود فلسطين كانت موجودة ، وأن يهود اليمن لم يكونوا بمعزل عن يهود فلسطين ، ويجب أن يقال مثل ذلك عن يهود الحجاز ، اذ لا بد وأن يكون ليهود الحجاز اتصال بيهود فلسطين وبيهود اليمن . وكيف لا يكون لهم اتصال بهم ، وهم جيران فلسطين ولهم تجارات معهم ، ثم إنهم على طريق اليمن وفلسطين ، فإذا أراد يهود فلسطين الذهاب الى اليمن ، أو يهود اليمن الذهاب الى فلسطين فلا بد من المرور بأرض يهود الحجاز والنزول بهم .

وقد عثر في اليمن على نص مكتوب بالمسند ، وردت فيه كلمة (يسرائيل) و (رب يهود) . ويدل هذا على أن صاحبه كان على دين يهود . عثر عليه المستشرق (كلاسر) ونشره المستشرق (ونكلر) ، وهذا هو : « تبرك سم رحمنن ذ بسمين (سمن) ويسر ال والهمو رب يهود . ذ هرد عبدهمو وشحرم وامهوبم (؟) وحشكهتو شمسم واولدهمو ذمم (؟) وابشعر ومار وكل ابهه »[1] .

وأما كتابته بلهجتنا ، فعلى هذا المنوال : « تبارك اسم الرحمان الذي في السماء واسرائيل وإلهه رب يهود الذي ساعد عبده شحراً وأمه بم (؟) وزوجته شمساً وأولاده ذمم (؟) وأبشعر ومثاراً وكل أهله (بيته) .

غير أن من الباحثين من يشك في صحة نقل هذا النص نقلاً صحيحاً تاماً ، ولم يتأكد من صحة نقل كلمة (اسرائيل)[2] .

واليهودية وإن ضعفت في اليمن بدخول الحبشة فيها ، بقيت مع ذلك محافظة على كيانها ، فلم تنهزم ، ولم تجتث من أصولها ، وبقيت قائمة في هذه البلاد في الاسلام كذلك فلم يجل أهلها عنها كما أجلي أهل خيبر ، وظلت بقيتهم هناك الى سُنَيّات قريبة حيث غادروها على أثر حوادث فلسطين .

وقد كانت (نجران) من المستوطنات المهمة التي نزل بها اليهود في اليمن[3] . وهي مكان خصب ، وقد عاش اليهود فيها مع غيرهم من العرب من نصارى وعبدة أصنام .

ووجد اليهود في مواضع أخرى من جزيرة العرب . وجدوا في العربية الشرقية

---

١ Glaser 394-395, Revue des Etudes Juives, 1891, vol., 23, p. 122, Winckler, AOF, I, S. 337.

٢ Margoliouth, p. 68.

٣ معجم (٣٢٧/١) .

وفي نجد وفي مواضع من العربية الجنوبية . ولما ارتد (بنو وليعة) والأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية الكندي ، وتحصن (الأشعث) في النجير) ، وهو حصن لهم ، كانت فيه امرأة من يهود ، عرفت بشماتتها بوفاة الرسول ، اسمها (هند بنت يامين) اليهودية [1] . مما يدل على وجود اليهود في هذا المكان . وكان بالبحرين قوم من اليهود ، صالحوا المسلمين مثـــل النصارى على دفع الجزية عن رؤوسهم [2] . وقد كتب (المنذر بن ساوى) العبدي ، يخبر الرسول أن بأرضه يهود ومجوس ، فكتب اليه الرسول : « من أقام على يهودية ، أو مجوسية فعليه الجزية » [3] .

١ البلاذري ، فتوح (١١١) ، « ردة وليعة والأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية الكندي » .

٢ البلاذري ، فتوح (٨٩ ، ٩١) ، (البحرين) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٦٣/١) .

الفصل السابع والسبعون

اليهود والاسلام

ويتبين من القرآن الكريم ، أن اتصال الرسول باليهود اتصالاً مباشراً إنما كان في يثرب . أما في مكة ، فلم يكن لليهود فيها شأن يذكر ، لذلك لا نجد في الآيات المكّية ما نجده في الآيات المدنية،ولا سيما المتأخر منها ، من تقريع لليهود وتوبيخ لهم ، لوقوفهم موقفاً معادياً من الاسلام ، واتفاقهم مع المشركين في معارضة الرسول ومقاومته . وقد بدأ اليهود يعارضون الرسول والإسلام ، حينما طلب اليهم الدخول في الاسلام والإيمان برسول الله ، وحينما تبين لهم أن الأمر سيفلت من أيديهم ، وأن الرسول ليس كبقية رجال قريش أو غير قريش سهل الانقياد مطواعاً لهم ، وأن تعاليم الإسلام ستفسد العرب عليهم ، ولا سيما بعد تحريم الربا . والربا مورد مهم كان يدرّ ربحاً عظيماً على يهود ، لهذا وجدوا مصلحتهم في معارضته ومقاومته وفي الاتفاق مع المشركين عليه .

ويظهر أنه لم يكن لليهود نفوذ كبير ولا جاليات كبيرة في مكة . فلو كان لهم نفوذ فيها أو رأي مسموع ، لسمعنا به كما سمعنا بخبرهم في يثرب ، ولكان لهم حيّ خاص بهم ، ومكانة بين رجال قريش ، كالذي كان عليه يهود يثرب في اتصالهم بالأوس والخزرج . ولأشير اليهم في السور المكّية ، على نحو ما أشير اليهم في السور المدنية ، ثم لما اضطر رجال قريش للذهاب الى يثرب مراراً، لاستشارتهم في أمر سلوكهم مع المسلمين، ولما جاء سادات يهود يثرب الى مكة ، لتحريض أهلها على مقاومة الرسول ، ولعقد حلف معهم عليه .

وقد أمل المسلمون ان يساعد اليهود الاسلام على الوثنية وان يقفوا منه موقف ود أو حياد ، ذلك بأنهم أصحاب كتب مُنزلة ودين توحيد ، والاسلام قريب منهم ، وقد اعترف بالأديان السابقة له ، ونزه الأنبيـــاء والمرسلين ، وهو دين توحيد كذلك . ثم إن الرسول تودد اليهم حين دخوله يثرب،وأمنهم على أموالهم وأنفسهم ، وزارهم وطمأنهم ، ثم تعاهد معهم في صحائف كتبت لهم ، فيهـا العهد بالوفاء لمـا اشترط لهم ، ما داموا موفين بالوعد وبالعهد . وقد طلب الى جميع المسلمين الوفاء بما جاء فيها ، ومنعوا من التجـــاوز والتطاول على من في يثرب من يهود[1] . وجعل لليهود نصيباً في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم النفقة معهم في الحروب .

ولم تكن علاقات اليهود مع المسلمين سيئة في الأيام الأولى من مجيء الرسول الى يثرب . رأت جمهرة يهود ان الاسلام دين اعترف بالأنبياء ، وانه دين توحيد وانه في جملة أحكامه قريب من أحكام ديانتهم وقواعدهم،وانه يناهض الأوثان ، وقد أشاد بفضل بني اسرائيل وبتفوقهم على غيرهم بظهور الأنبياء من بينهم ، ثم إن قبلته الى القدس ، وقد تسامح معهم فأباح للمسلمين طعام أهـــل الكتاب[2] . وهو دين اعترف بأبوة ابراهيم للعرب ، وجعل سنته سنّة له . وقد تسامح معهم وحفظ ذممهم ، فلم ترَ في انتشاره بين أهل يثرب ما يضيرهم شيئاً أو يلحق بهم أذى ، ولذلك أظهرت استعدادها لعقد حلف سياسي معه ووقوفها موقف ود منه او موقف حياد على الأقل ، على ألا يطلب منها تغيير دينها وتبديله والدخول في الاسلام .

ولما دخل أهل يثرب في الإسلام أفواجاً ، وتوجه المسلمون الى اليهود يدعونهم الى الدخول فيه والى مشاركتهم لهم في عقيدتهم باعتبار أنهم أهل دين يقول بالوحي ويؤمن بالتوراة ، وبرسالة الرسل،فهم لذلك أولى بقبول هذه الدعوة من الوثنيين ، أدركت جمهرتهم ان الإسلام إذا ما استمر على هذا المنوال في المدينة من التوسع والانتشار ومن توجيه دعوته الى اليهود أيضاً ، فسيقضي على عقيدتهم التي ورثوها وهي عقيدة لا تعـــترف بقيام نبيّ من غير بني اسرائيل ولا بكتب غير التوراة

---

١ ابن هشام (٧٤/٣ ، ١٩٧) ، الروض الانف (١٦/٢) ، (كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينه وبين اليهود) .

٢ المائدة ، الآية ٤٨ .

والكتب التي دونها علماؤهم ، ثم هم يرون ان النبوة قد ختمت ولن يكون المسيح إلا منهم ، فكيف يعتقدون بنبي عربي وهو من الأميين ؟

وقد رفض اليهود الدخـــول في الإسلام ، وأبوا تغيير دينهم ، ودافعوا عن عقيدتهم وتمسكوا بها ، ورفضوا التسليم بما جاء في رسالة الرسول من أن الرسول نبي أرسل للعالمين كافة وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن القرآن كتاب مصدق من الله ، وأن أحكامه مؤيدة لما جاء في التوراة ناسخة لبعضها . وقد جادلوا في ذلك ، وانبرى أحبارهم للدفاع عن عقيدتهم ولمجادلة من يأتي اليهم من المسلمين لاقناعهم في الدخول في الإسلام . وفي القـــرآن الكريم صور من جدلهم هـــذا ومن محاجتهم الرسول في دعوتـــه ، كما نجد مثل ذلك في الحديث النبوي وفي كتب السير .

ويتبين من نتائج دراسة صور هـــذا الجدل والخصام الذي وقع بـــين اليهود والمسلمين ، وهـــو خصام مهم خطير ، أن الخصومة كانت في مرحلتها الأولى رفضاً لدعوة الرسول إياهم للدخول في الإسلام ، وتمسكاً شديداً بعقيدتهم وبدينهم وبما ورد عندهم من أن النبوة قد بدأت وانتهت في بني اسرائيـل ، ثم تطورت واشتدت عنفاً وقوة لما تبين لهم أن الإسلام يرفض نظريتهم هذه ، وأنه قد حرم أموراً ستؤثر في مستقبلهم ، وقد ألف بين قلوب أهل يثرب وأوجد منهم كتلة واحدة ، وأنه سيحـــد من سلطانهم لا محالة ، وأن ملكهم سيزول ، فوسعوا مقاومتهم له ، واتصلوا بمن وجدوا فيه حقداً وبغضاً للرسول ، وبمن تأثر سلطانه بدخول الاسلام في يثرب من أهلها ، ثم لما وجدوا أن كل ذلك غـير كاف ، تراسلوا مع أعداء الرسول في خارج يثرب من قريش ، لتوحيد خططهم معهم، ولحملهم على مهاجمة المسلمين في مدينتهم ومعقلهم قبل أن يستفحل أمرهم ويقوى مركزهم،فيعجزون جميعاً هم وأهل مكة عن التغلب عليهم والقضاء على الاسلام .

وهكذا بدأت خصومة اليهود للاسلام خصومة فكرية ، هم يرفضون الاعتراف بنبوة الرسول ، وبأن دعوته موجهة اليهم ، ويرفضون نبوة في غير بني اسرائيل، والرسول يدعوهم الى الايمان بالله والى الدخول في دعوته المبنية على الايمان بالله رب العالمين ، رب العرب وبني اسرائيل والعجم ، وعلى الايمـــان بنبوته وبنبوة الأنبياء السابقين ، ثم تطورت هذه الخصومة الى معارك وحروب ، والحروب كما نعلم تبدأ نزاعاً في الآراء والأفكار ثم تتحول الى صراع ونزاع وقتال .

ومن أشهر سادات يهود الذيـن وقفوا موقفاً معادياً من الرسول ، وعارضوه معارضة شديدة ، وصمموا على الايقاع به ، حيي بن أخطب ، وأخواه ياسر بن أخطب وجُدَيّ بن أخطب[1] ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيـع بن أبي الحقيق ، وسلام بن الربيع بن أبي الحقيق ، وهو أبو رافـع الأعور الذي قتله أصحاب الرسول بخيبر ، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق ، وعمرو بن جحاش ، وكعب بن الأشرف ، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف ، وكردم بن قيس حليف كعب بن الأشرف ، وكـل هؤلاء من بني النضير ، وعبدالله بن صوري الأعور[2] ، وابن صلوبا ، وهما من بني (ثعلبة بن الفطيون) ، وزيد ابن اللعيث (اللعيب)[3] ، وسعد بن حنيف ، ومحمود بن سيحان (سبحان) ، وعزير بن أبي عزير ، وعبدالله بن صيف (ضيف) ، وسويد بن الحارث ، ورفاعة بن قيس ، وفنحاص ، وأشيع ، ونعمان بن أضنا (أمنا ؟) ، وبحري ابن عمرو ، وشاس بن عدي ، وشاس بن قيس ، وزيد بن الحارث ، ونعمان ابن عمرو ، وسكين بن أبي سكين ، وعـدي بن زيد ، ونعمان بن أبي أوفى أبو أنس ، ومحمود بن دحية ، ومالك بن الصيف (الضيف) ، وكعب بن راشد ، وعازر ، ورافع بن أبي رافع ، وخالد ، وإزار بن أبي إزار (آزر بن أبي آزر) ، ورافع بن حارثة ، ورافع بن حريملة ، ورافع بن خارجة ، ومالك بن عوف ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وكل هؤلاء من يهود بني قينقاع[4] .

أما الذين حاربوا الاسلام من بني قريظة ، فكانوا : الزبير بن باطا بن وهب ، وعزّال بن شَمْويل (سموال) ، وكعب بن أسد ، وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب ، وشمويل بن زيد ، ونافع بن أبي نافع ، وأبو نافع ، وعدي بن زيد ، والحارث بن عوف ، وكردم بن زيد ، وأسامة بن حبيب ، ورافع بن رميلة (زميلة) ، وجبل بن أبي قشير ، ووهب بن يهوذا .

أما من بقية بطون يهود ، فكانوا : لبيد بن أعصم ، وهو من يهود بني زريق ،

---

1 (جد بن أخطب) ، (جدي بن أخطب) ، (حدى بن أخطب) ، الروض الانف (٢٤/٢) .
2 الروض الانف (٢٤/٢) .
3 (ابن اللعيب) ، ابن هشام (١٣٦/٢) .
4 ابن هشام (١٣٦/٢ وما بعدها) ، الروض الانف (٢٤/٢) ، (تسمية اليهود الذين نزل فيهم القرآن) .

وكنانة بن صورياء (صوريا) ، وهو من بني حارثة ، وفردم (قردم) بن عمرو ، وهو من يهود بني عمرو بن عوف ، وسلسلة بن برهام ، وهو من يهود بني النجار[1] .

ويظهر من أقوال علماء التفسير في تفسير لفظة (الطاغوت) الواردة في القرآن الكريم ، أن (كعب بن الأشرف) ، كان من أبرز سادات اليهـود في أيام الرسول[2] . فقد كانوا يتحاكمون اليه ويأخذون برأيه ، وكان المقدم عندهم وعند الأوس والخزرج ، حتى أن الأنصار كانوا يتحاكمون اليه .

ونجد في القرآن أمثلة من أسئلة وجهها اليهود الى الرسول لاحراجـه ولإظهار فساد دعوته بزعمهم . سألوه أن يأتي لهم بمعجزة ، إذ قالوا له : « إن الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يؤتينا بقربان تأكله النار »[3] ، فنـزل الرد عليهم : « قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم ، فلِمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين »[4] . « نزلت في كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، ووهب بن يهوذا ، وفنحاص بن عازورا ، وجماعة أتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا: له : أتزعم أن الله أرسلك الينا ، وأنه أنزل علينا كتاباً عهد الينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار،فإذا جئتنا به صدقناك، فأنزل الله هذه الآية »[5] . وسألوه « أن يصعد الى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدعيه على صدقه دفعة واحـدة ، كما أتى موسى بالتوراة »[6] . وسألوه أسئلة عن أشيـاء مذكورة في التوراة ، وسألوه عن أشياء أخرى محرجة عديدة،وأوحوا الى غيرهم من المشركين بأسئلة مماثلة ليلقوها على الرسول لامتحانه وإحراجه ، وقد نزل الوحي بالردّ عليهم ، وبتأنيبهم على أقوالهم هذه،وبتذكيرهم

---

١ وتختلف الموارد في ضبط هذه الاسماء ، ابن هشام (١٣٧/٢ وما بعدها) ، الروض الانف (٢٤/٢) .

٢ تفسير الطبري (٩٧/٥ وما بعدها) .

٣ سورة آل عمران ، الآية ١٨٣ .

٤ الآية نفسها .

٥ تفسير القرطبي (٢٩٥/٤) ، روح المعاني (١٢٨/٤ وما بعدها) ، تفسير الطبـري (١٣١/٤ وما بعدها) .

٦ سورة النساء ، الآية ١٥٣ ، تفسير القرطبي (٦/٦) ، تفسير الطبري (٦/٦ وما بعدها) ، روح المعاني (٥/٦) ، ابن هشام (١٩٨/٢) .

بما قام به أجدادهم وأسلافهم في مقام أنبيائهم من عـــدم التصديق برسالتهم ومن الطعن بهم ومن إصرارهم على عبادة الأوثان والكفر بالتوحيد[1] .

ووقع جدل بين المسلمين وبين سادات يهود ، أثار نزاعاً بين الطرفين . دخل أبو بكر « بيت المدراس ، فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمع الى رجل منهم يقال له (فنحاص) كان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له : أشيع . فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فوالله انك لتعلم ان محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبـــاً عندكم في التوراة والانجيل . قال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فقر وانه الينا لفقير ، وما نتضرع اليه،كما يتضرع الينا وإنا عنه لأغنياء . ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا ، كما يزعم صاحبكم. ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضربـــة شديدة وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك »[2] . ووقع مثل ذلك في مناسبات أخرى ، جعل اليهود يحقدون على المسلمين .

وعمد اليهود إلى استغلال الأحقاد والبغضاء الكمينة التي كانت كامنة في نفوس اهل يثرب من الأوس والخزرج من ايام الجاهلية ، فأثاروها ، كما استفادوا مما كان بينهم وبين رجال من المسلمين من الحلف والجوار في الجاهلية للاحتماء بهم وللاتقاء بهم مما قد يلحق بهم من أذى في اثارة الفتنة .

وفي عهد (عمر) أمر بإجلاء اليهود ممن لم يكن لديهم عهد من رسول الله . أما من كان له عهد منه ، فقد بقي في وطنه وعلى دينه بالشروط التي ذكرت في الصحف . وقـــد كان في يثرب نفر من اليهود عاشوا فيها في زمن الرسول حتى بعد اجلاء بني النضير وبني قريظة وبعد غزوة خيبر . وقد ورد في روايـة أن النبي لما أمر أصحابه بالتهيؤ لغزوة خيبر ، شق ذلك على من بقي بالمدينـــة من يهود[3] . ولما مرض عبدالله بن أبـي ، كان اليهود في جملة من التف حول سريره في مرضه الذي هلك فيه ، ثم كانوا في جملة من شيعـــه الى قبره ومن

---

١ سورة البقرة ، الآية ١٠١ ، ابن هسام (٢/١٦٧ ، ١٧١ ، ٢٠١) .

٢ آل عمران ، الآية ١٨١ ، تفسير الطبرى (٤/١٢٩ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (١/٥٤٨) ، (طهران) .

٣ الطبقات ، لابن سعد (الجزء الثانى من القسم الاول (ص ٧٧) .

نثر التراب على رأسه حزناً على فراقه [1] . وقد بقيت أسر يهودية في وادي القرى وفي تيماء قروناً عديدة بعد صدور أمر عمر بالإجلاء ، بل ورد أن عــدداً منهم عاش في المدينة أيضاً .

وقد كانت اليهودية قانعة بما أوتيت ، وبما كسبته من مواطن وتجارة ، إن وجدت سبيلاً الى اقناع سادات القبـائل والأمراء والملوك بالتهود وبالدخول في دعوتها ، فذلك خير وتوفيق . وإن لم تجد في هؤلاء ميلاً الى اليهودية ، رضيت منهم باكتساب العطف والحماية ورعايتهم في تحصيل ديونهم والأرباح التي يحصلون عليها من الربا ، وبالسماح لهم بالتجارة والبيع والشراء ، وهو ما يصبو اليه كل يهودي .

لذلك نستطيع ان نقول ان اليهودية كانت من ناحية التبشير عند ظهور الاسلام جامدة خامدة ، لا يهمها نشر الدين بقدر ما تهمها المحافظة على الحيـاة وعلى المركز الذي توصلت اليه وعلى تجارتها التي تعود عليها بمال غزير . فكانت لهذا لا تهتم بحركة إلا إذا وجدت فيها فائدة لها ، ومنفعة ترتجى منها ، ولا تحارب رأياً إلا إذا وجدت انه سيكون خطراً عليها ، فحاربت النصرانية في اليمن لمّـا وجدت الروم يسيرون على سياسة معادية لليهود، وان النصرانية مهما كانت كنيستها هي فرع من شجرة واحدة هي الشجرة التي يقدسها الروم، فامتداد اي فرع منها الى اليمن ، كفيل بالحاق الأذى الذي لاقاه اخوانهم من البيزنطيين بهم. وحاربت الاسلام بعد هجرة الرسول الى المدينة ، لمّا تبين لها انه يدعو الى رب العالمين ، وانه لم يكن على ما ظنته حينما سمعت بدعوة الرسول وهو في مكـة ، من انـه سيخضع لها ، او سيميل اليها ، فتستفيد منه على الأقل ، فلما وجدت الأمر غير ما ظنت ، عندئذ خاصمته وانضمت الى المشركين في محاربة الاسلام .

ولسنا نجد بين القبائل العربية يهوداً وفدوا اليها وأحبـاراً سكنوا بينها لاقناعها بمختلف الوسائل والطرق للدخول في دين يهود . نعم لم يفعل اليهود هذا كما فعله النصارى ، ولهـذا انحصرت سكنى اليهود عـنـد ظهور الاسلام في هذه المواضع الخصبة وطرق المواصلات والتجارة البرية والبحرية من جزيرة العرب ، وانحصر عملهم في التجارة وفي الربا وفي الزراعة وفي بعض الصناعات التي تخصصوا بها . وهي أمور جعلت لهم نفوذاً عند سادات القبائل والأمراء والملوك .

---

[1] الواقدي (٤١٥) ، السهود (١٧٧) .

وقد كانت لليهود مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم، وأيامهم الماضية ، وأخبار الرسل والأنبياء ، وما جاء في التوراة والمشنـــا ، وغير ذلك . عرفت بين الجاهليين بـ (المدراس) و (بيت المدراس) (والمدراش) . وأطلق الجاهليون على الموضع الذي يتعبـــد اليهود فيه (الكنيس) و (كنيسة اليهود) تمييزاً لهذه الكنيسة عن (الكنيسة) التي هي لفظة خاصة بموضع عبادة النصارى[1] .

وقـــد ذكر بعض علماء اللغة أن الكنيسة كلمة معربة من (كنشت) وهي لليهود ، والبيعة للنصارى . وذهب بعض آخر الى أنها متعبد الكفّار مطلقاً[2] .

وقد أخذ الجاهليون مصطلح (المدراس) من العبرانيين ، من لفظة (مدراش) Midrash التي هي من أصل (درش) Darash التي تقابل (درس) في العربية ، وتؤدي هذه الكلمة المعنى المفهوم من لفظة (درس) العربية تمام الأداء . ويقصد بالمدراش درس نصوص التوراة وشرحها وتفسيرها وإيضاح الغامض منها وأسرارها وأمثـــال ذلك ، وينهض بذلك المفسر الشارح (درشن) Darshan ، ولكل طريقة واسلوب . وقد نجمت عن هذه الدراسة ثروة أدبية ودينية طائلة للعبرانيين . نتجت من اتبـــاع جملة طرق في الشرح والتفسير ، منها (مدراش هـــلاخه) Midrash Halachah و (مدراش هاكاده) Midrash Haggadah ، وتختلف هذه في كيفية اتباع طرق العرض والشرح والتفسير[3] .

ولم يكن المدراس (المدراش) موضع عبادة وصلوات حسب ، بل كان الى ذلك دار ندوة ليهود يجتمعون فيـــه في أوقات فراغهم لاستئناس بعضهم ببعض وللبحث في شؤونهم ، وللبت في القضايا الجسيمة الخطيرة على اختلاف درجاتها . فهو اذن مجمع الأحبار ومجمع الرؤساء والسادات وأصحاب الشرف فيهم ، واليه كان يقصد الجاهليون حين يريدون أمراً من الأمور او الاستفهام عن شيء يريدون الوقوف عليه ، واليه ذهب الرسول وكبّار المسلمين لمحادثة يهود ومجادلتهم فـــيما

---

١ اللسان (٣٨٢/٧) ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (١٢٠/٢) ، صحيح مسلم (١٢٢/٥) ، البخاري « كتاب الجزية والموادعة من أهل الذمة والحرب » ، الحديث ٦ ، عرائب اللغة (ص ٢١٣) ، النهاية (٢٠/٢) ، محيط المحيط (٦٤٣/١)، القاموس (٢١٥/٢) .

٢ اللسان (٨٣/٨) ، المعرب (٨١) ، النصـــرانية ، القسم الـــثاني ، الجزء الاول (ص ٢٠١) .

٣ Ency-Brita., 15, p. 458, Moore, Judaism, I, 125, Jew. Ency., VII, p. 538. f.

كان يحدث بينهم من خلاف او من أمر يريدون البت فيه . ويقال انهم عرضوا أمام الرسول كتبهم ، فكان يقرأها له بعضهم ممن دخل في الاسلام كعبدالله بن سلام او بعض المسلمين ممن كان له علم وفهم في العبرانية لغة يهود .

قال (ابن عباس) : « دخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بيت المدراس على جماعة من يهود ، فدعاهم الى الله ، فقال له نعيم بن عمرو ، والحارث بن زيد : على أي دين أنت يا محمد ؟ فقال : على ملة ابراهيم ودينه . فقالا : فإن ابراهيم كان يهودياً . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلموا الى التوراة ، فهي بيننا وبينكم ، فأبوا عليه »[1] . ويظهر ان هذا المدراس كان من بيوت مدراسهم بيثرب .

وعرفت مساجد اليهود ، أي المواضع التي كان يصلّون بها ، بالمحاريب جمع محراب . وقد جاءت الاشارة اليها في بيت شعر منسوب الى (قيس بن الخطيم)[2] . أما في النصرانية ، فقد خصصت الكلمة بصدر الكنائس ، وذلك على ما يفهم من الكلمة في الاسلام[3] .

وعرف علماء اليهود ورجال دينهم بـ (الأحبار) جمع (الحبر) وبـ (الربانيين) وقد وردت الكلمتان في القرآن الكريم[4] . وللإسلاميين آراء في أصل (الحبر) ، وهم يذكرون أن من معانيها العالم ، والرجل الصالح[5] . واللفظة من الألفاظ المعربة عن العبرانية أصلها (حبر) Haber وجمعها حبريم Habarim ، ومعناها (الرفيق) camrade و associate ، وكانت ذات مدلول خاص ومعنى معين . وقد أطلقت في العهد التلمودي على العضوية في جمعية معينة ، فأطلقت في العصر الأول والثاني للميلاد على من كان من (الفروشيم) ، وهم شيعة يهودية أقسمت على نفسها بمراعاة النصوص الدينية (اللاوية) على نحو ما نزلت وعلى نحو ما يفعله اللاويون .

---

١ الطبري (١٤٥/٧) .

٢ Margoliouth, p. 73.

٣ النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ١٧٤) .

٤ حبر بالضم وبالكسر ، المائدة ، الآية ٤٤ ، ٦٣ ، التوبة ، الآية ٣١ ، ٣٤ .

٥ تاج العروس (١٢٠/٣) ، (حبر) ، اللسان (٢٢٨/٥) ، المفردات ، للاصفهاني (ص ١٠٤) .

وللفظة (حبر) أهمية كبيرة عند اليهود ، فإنها تشير الى العلم والمعرفة ، وان كانت لا تصل الى درجـــة (رابي) (ربـي) Rabbi . ولا تزال مستعملة عندهم فيمن درس الشريعة اليهودية والعلوم الشرعية وتقدم فيها وأتقن الأحكام ، وقضى بين الناس ، غير أنها دون درجة Rabbi [1] . فهي في العبرانية بمعنى عالم ولكن دون المعنى المفهوم في العربية عند علماء اللغة الاسلاميين ، فهـذا المعنى هو في مقابل لفظة Rabbi أي (ربّان) لا (حبر) .

وقد وردت لفظة (حبر) في شعر للشماخ :

كما خطّ عبرانيـــة بيمينه بتيماء حبر ثم عرض أسطرا[2]

أما (الربّانيون) ، فهم العلماء بالحلال والحرام والأمر والنهي ، على رأي بعض العلماء الاسلاميين . وقال بعض آخر : الربّان العالم الراسخ في العلم والدين ، او العالم العامل المعلّم ، او العالي الدرجة في العلم . وفرّق بعضهم بين الربّانيين وبين الأحبار بأن جعل الأحبار أهل المعرفة بأنباء الأمم وبما كان ويكون ، وذهبوا الى انها من الألفاظ المعربة العبرانية او السريانية [3] . وهي من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم في اثناء الكلام على علماء يهود[4] .

ويتبين من القرآن الكريم انه قد كان للأحبار والربّانيين نفوذ عظيم على اليهود ، فكانوا يطيعون أوامرهم ويفعلون ما يأمرونهم به ، وان غالبيتهم لم تكن تفقه شيئاً ولا تعرف من أحكام دينها إلا ما يقوله لهم اولئك الأحبـــار[5] . وبعض هؤلاء الأحبار هم من المقيمين في جزيرة العرب في المواطن التي أقامت فيهـــا يهود ، وبعض منهم كان يأتي الى يهود العرب من فلسطين : ولا سيما من (طبرية) التي اكتسبت شهرة عظيمة بعد خراب القدس (اورشليم) حيث استقر فيها (السنهدريم) وغدت مركزاً عظيماً للعلوم عند اليهود ، وفيها جمعت (المشنه) (المشنا) Mishna و (الماسورة) الكتاب الذي يبين كيفية تحريك كلمات التوراة[6] .

---

١ اليهود (ص ٢٠) ، The Universal Jewish Ency., Vol.. V, p. 145.

٢ تاج العروس (١١٧/٣) ، (حبر) .

٣ تاج العروس (٢٦٠/١) ، (٢١١/٩) ، المعرب ، للجواليقي (ص ١٦١) ، سيرة ابن هشام (٣٩٥/١) .

٤ المائدة : الآية ٤٤ ، ٦٣ ، آل عمران ، الآية ٧٩ ، تفسير الطبري (٢٥١/٦) .

٥ التوبة ، الآية ٣١ .

٦ قاموس الكتاب المقدس (٤٦/٢) .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من رجال يهود ممن أدركوا الاسلام، ذكر عنهم انهم كانوا أحباراً ، وانهم كانوا أصحاب علم بالتوراة وبكتب الأنبياء . وفي مقدمة من ذكروا ، عبدالله بن صوري الأعور ، قالوا : انه لم يكن بالحجاز في زمانه من كان أعلم بالتوراة منه ، وانه كان من بني ثعلبة بن الفطيون . ويقولون : إن الفطيون كلمة تقال لمن يلي أمر اليهود وملكهم ، كما ان النجاشي تقال لمن يلي ملك الحبشة[1] .

وذكر (القلقشندي) أن المشهور من ألقاب أرباب الوظائف عند اليهود ثلاثة ألقاب : الأول الرئيس ، وهو القائم فيهم مقام البطرك في النصارى ، والثاني الحزّان ، وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبر ويعظهم ، والثالث الشّلحصبور ، وهو الإمام الذي يصلي بهم[2] .

وقد أطلق القرآن الكريم على أسفار اليهود ، أي كتبهم المقدسة (التوراة)[3] . وعرفت بهذه التسمية في الحديث وفي كتب التفسير ، وصارت علماً لها في الاسلام . كذلك أطلقت هذه اللفظة على معابد اليهود ، ولم يعرف ورودها في الشعر الجاهلي خلا بيتاً ينسب الى شاعر جاهلي يهودي اسمه (سماك)[4] .

ولعلماء اللغة الإسلاميين آراء في أصل كلمة (التوراة) ، حتى ذهب بعضهم الى أنها عربية . ولكن ذوي أكثريتهم ترى أنها عبرانية ، لأن لغة موسى كانت العبرانية ، وبهذه اللغة نزلت التوراة[5] . ثم هم يختلفون في تعيين حدود التوراة ، فيرى بعضهم أنها خمسة أسفار ، ويرى بعض آخر أنها أكثر من ذلك ، وأنها تشمل الزبور ونبوة أشعيا وسائر النبوات ، لا يستثنى إلاّ الأناجيل[6] .

---

١ ابن هشام (١٣٦/٢) « محمد محيى الدين عبد الحميد » .

٢ صبح الاعشى (٤٧٤/٥) .

٣ آل عمران ، الآية ٣ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٥ ، ٩٣ ، المائدة ، ٤٦ وما بعدها ، ٤٩ ، الصف ، الآية ٦ ، الفتح ، الآية ٢٩ ، الجمعة ، الآية ٥ .

٤ Ency., IV, p. 706.

٥ اللسان (٢٦٥/٢٠ وما بعدها) ، « ورى » ، تاج العروس (٣٨٩/١٠) ، القراؤون والربانون (١٧٩) ، المفردات ، للاصفهاني ، (ص ٧٤) ، Uni. Jew. Ency., 10, p. 267, Katsh, p. 191.

٦ صبح الاعشى (٢٥٤/١٣ وما بعدها) ، Katsh, p. 191.

وليس في القرآن الكريم تحديد لأسفار التوراة ، ولكن اقتران اسم موسى بها في بعض الموارد منه يشير الى ان المراد بها ما يقال له بـ (الأسفار الخمسة) Pentateuch عند الغربيين . وهذه الأسفار الخمسة هي الأسفار المُنزلة المكتوبة التي نزلت على موسى على رأي قدماء العبرانيين . ثم توسعوا في مدلول اللفظة فيا بعد ، فأطلقوها على جميع الأسفار التي يقال لها العهد القديم . وأطلقتها بعض الفرق على غيرها من الأسفار مثل الأنبياء (نبيم) Nebiim ، والكتب (كتوبيم) Kettubim [1] .

وقد أورد القرآن في مخاطبة يهود وتقريعهم قصصاً عن الأنبياء والمرسلين والأمم القديمة ، منه ما هو مذكور عندهم في الأسفار الخمسة،ومنه ما هو وارد عندهم في (الهكاده) وفي (المشنه) . ولما كان في احتكاك الاسلام بيهود كان لأول مرة في منطقة يثرب ، صارت معظم الاشارات الواردة في القرآن الكريم الى التوراة في السور المدنية لمخاطبة الوحي لهم ، وتوجيه الكلام مباشرة اليهم ، ولم ترد تلك التسمية في الآيات المكية إلا في موضع واحد هو في سورة الأعراف[2].

والمراد من (الكتاب) الذي أنزل على موسى ، والمذكور في مواضع من القرآن الكريم التوراة ، أي هذه الأسفار الخمسة التي نتحدث عنها [3] . وهو تعبير قرآني لا نستطيع أن نقول إنه كان من مصطلحات الجاهليين ، كما أننا لا نستطيع نفي ذلك ، إذ يجوز أن يكون الجاهليون قد أطلقوه على تلك الأسفار ، أو على العهد القديم كله ، بمعنى هذه الأسفار وبقية ما ورد فيها من أخبار الأيام والملوك والأنبياء .

وقد ورد في الأخبار عن (أبي هريرة) ، أنه « كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله »[4] .

---

١ Uni-Jew. Ency., 10, p. 268, Katsh., p. 191. f.

٢ الاعراف : الآية ١٥٧ ، Ency., IV, p. 706.

٣ « ولقد آتينا موسى الكتاب » ، البقرة ، الآية ٧٨ ، روح المعاني (٣١٦/١) ، تفسير الطبرسي (١٥٥/١) ، المفردات ، للاصفهاني (ص ٤٣٧) .

٤ « كتاب تفسير القرآن » ، سورة البقرة : ٢ رقم ١١ ، البخاري (١٩٨/٣) ، « طبعة ليدن » .

وقصد بعبارة أهل الكتاب ، اليهود ، لأنهم أصحاب كتاب موسى ، وبينهم كان نزوله ، ولذلك عرفوا به . ويظهر من خبر أبي هريرة هذا ومن أخبار أخرى في هذا المعنى ان اليهود كانوا يقرؤون على المسلمين كتبهم وهي بالعبرانية ، ثم يفسرونها لهم بالعربية ، وذلك في أيام حياة الرسول .

أما الزبور والزبر ، فقد وردتا في القرآن الكريم . ويراد بـ (الزبر) في بعض الآيات مثل : « وانه لفي زُبر الأولين » الكتب المُنزلة القديمة[1] . وقد وردت الكلمتان في بعض الشعر المنسوب الى الجاهليين كامرىء القيس[2] والمرقش الأكبر[3] وأمية بن أبي الصلت[4] . وذكر علماء اللغة ان معنى زبر كتب ونقش . ويرى بعض المستشرقين احتمال كونها من الكلمات العربية الجنوبية . ويرى بعض آخر انها من أصل (مزمور) Mazmor العبراني . و (مزمور) Mazmör في اللهجة السريانية ، و (مزمور) Mazmur في الحبشية . أخذت الكلمة وأجري عليها بعض التغيير حتى صارت على هذا الشكل[5] .

وقد وردت لفظة (الزبور) مفردة في موضعين من القرآن الكريم ، في سورة النساء[6] وفي سورة الأنبياء[7] . أما في الموضع الأول ، فقد ورد فيه : « وآتينا داوود زبوراً » ، ومعنى هذا أن زبوراً أو كتاباً من الكتب المنزلة نزل على داوود . أما الموضع الثاني ، فقد أشير فيه الى (زبور) معرف بأداة التعريف

---

١ الشعراء : الآية ١٩٦ .

٢ أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

وينسب اليه أيضا هذا البيت :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يماني

شرح ديوان امريء القيس ، تأليف السندوبي (ص ١٨٤) ، قصيدة رقم ٨٦ ، النصرانية : القسم التاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٨٤) .

٣ وكذاك لا خير ولا شي على أحد بدائم

قد خط ذلك في الزبو ر الأوليات القدائم

اللسان (١٦/٣) ، النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٨٤) .

٤ وأبرزوا بصعيد مسنوى جرز وأنزل العرش والميزان والزبر

كتاب البدء (١٤٦/٢) ، النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ١٨٤) .

٥ اللسان (٣١٤/٤ وما بعدها) ، Ency., IV, p. 1184.

٦ الآية ١٦٣ .

٧ الآية ١٠٥ .

(ال) : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون » . ولكن لم يضف الى اسم نبي من الأنبياء ، كما رأينا في الموضع السابق . وقد فسر بعض المفسرين كلمة (الزبور) في هذا الموضع بمعنى الكتاب وكتب الله المنزلة ، أي على التعميم لا التخصيص[1] .

ويراد بالزبور ما يقال له (المزامير) في الترجمات العربية للتوراة ، و Psalms في الانكليزية ، من أصل Psalmos اليونانية التي هي ترجمة لفظة (مزمور) Mizmor العبرانية ، ومعناها المدائح والأناشيد . وهي أناشيد شعرية تُرتَّم في حمد الإلَه وتمجيده ، ولذلك قيل لهذه المزامير (تحلّيم) tehillim في العبرانية . و tillim على سبيل الاختصار ، و tillin في لهجة بني إرم[2] .

وقد « قال أبو هريرة : الزبور ما أنزل على داوود ، من بعد الذكر من بعد التوراة »[3] . وذكر بعض العلماء ان الزبور خص بالكتاب المنزل على داوود[4] . وقد ذهب الشعبي الى ان الربور ، الكتاب المنزل على داوود ، أما الذكر فما نزل على موسى. وذهب آخرون مذاهب أخرى في تفسير المراد من الزبور ومن الذكر . ولكن الرأي الغالب ان المراد من الزبور ، مزامير داوود . وذلك لنص القرآن على ذلك .

وقد أشار القرآن الكريم الى وجود اختلاف بين بني اسرائيل في فهم كتاب الله وتفسيره ، وأنهم انقسموا لذلك شيعاً وأحزاباً . ولا يستبعد أن يكون هذا الاختلاف شاملاً ليهود الحجاز أيضاً ، كأن يكون أحبارهم قد ساروا في اتجاهات مختلفة في التفاسير وفي شرح الأحكام وكان أصحابهم يتعصبون لهم ويتحزبون ، على نمط الأعراب في عصبيتهم لقبائلهم ، وفي اتباع أقوال ساداتهم دون تعقل وتفكير . أمـا مواضع الاختلاف ومواطن الفرقة التي كانت تفرق فيما بينهم ، فلا نعرف اليوم من أمرها شيئاً ، لأنها لم تدون ولم تذكر ، ولم يشر القرآن اليها ، ولكنها على كل لا تخرج ولا شك عما نعرفه من خلاف في أوجه النظر في المسائل المعروفة حتى اليوم في أمور الفروع .

---

١ تفسير الجلالين (٢/٣٣) .
٢ Uni-Jew. Ency., Vol., 9, p. 13.
٣ اللسان (٤/٣١٥) « صادر » .
٤ المفردات (ص ٢١٠) .

ونحن لا نستطيع أن نتصور أن سواد يهود الجاهلية كانوا على علم بالكتابة وبالقراءة ثم بأحوال دينهم وأموره. وفي القرآن الكريم أن هذا السواد كان جاهلاً ليس له علم ولا خبر بأمور دينه وشريعته، وأنه مقلد تابع لما يقوله له أحباره وربّانيوه. فكل ما كانوا يقولونه له، كانوا يرونه حقاً وعلماً[1]. مع ان من بين أولئك من كان دجّالاً ليس على درجة من دراية وعلم، ومن كان ينطق بالباطل ولا يخشى الكذب، لينال بذلك كسباً ومالاً، وأنه كان لهؤلاء على أتباعهم ومقلّديهم سلطان عظيم.

وقد تعرض (ابن خلدون) لموضوع علم اليهود العرب وثقافتهم، فقال: « إذا تشوقت العرب الى معرفة شيء مما تتشوق اليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم. وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك »[2]. فغالبية يهود جزيرة العرب في الجاهلية، هم في مستوى، يعد، دون مستوى يهود البلاد الأخرى، بسبب تبدّيهم وانقطاعهم عن غيرهم من اليهود.

وقد كانت لليهود مدارس تدارسوا فيها أحكام شريعتهم، وكان لهم أحبار وحاخامون علّموهم أمور دينهم. ذكر أهل الأخبار انهم كانوا يكتبون بالعبرانية او بالسريانية، وذلك لاختلاف أهل الأخبار في تعيين تلك اللغة، وعدم تمكنهم من التمييز بينهما. وفي كتب الأخبار والتواريخ اشارات الى اتصال بعض رجال مكة ويثرب باليهود والاستفسار منهم عن أمور الرسل والأنبياء والماضين وعن بعض الأحكام. وفيها قصص اسرائيلي وجد له سبيلاً الى العربية، يرويه القصاصون عن الرسل والأنبياء، وأساطير لا يشك في كونها اسرائيلية الأصل. كما نجد ألفاظاً

---

١ « ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا أماني . وان هم الا يظنون »، البقرة، الآية ٨٧، تفسير القرطبي، الجامع (٢٩٦/١ وما بعدها).

٢ ابن خلدون (٤٣٩/١).

عبرانية لا شك في أصلها وجدت لها سبيلاً الى عربية الجاهليين بسبب اتصال اليهود بهم ، واستعمالهم اياها ، فتأثر بهم الجاهليون وأخذوها منهم واستعملوها أيضاً فصارت من المعربات .

وينسب الى الشاعر (الأسود بن يعفر) بيت شعر هو :

سُطورُ يهوديين في مهرقيهما ... مُجيدين من تيماء أو أهل مدين[1]

واذا صحت نسبة هذا البيت اليه ، يكون قد تعرّف على يهوديين اثنين ، وجدهما يجيدان الكتابة ، وقد كتبا على المهارق . ولم يكن الشاعر على علم أكيد بموطنهما ، فلم يدرِ اذا كانا من أهل تيماء او من أهل مدين .

ولتعبير (مجيدين) أهمية خاصة ، إذ يشير الى تمييزه بين الكتابة الجيدة والكتابة الرديئة ، والى وجود مصطلح (مجيد) عند الجاهليين ، يطلقونه كما نطلقه اليوم على من يجيد الكتابة ويتقنها .

ولما كانت اللغة العبرانية لغة الدين عند العبرانيين ،وبها نزل الوحي على موسى ، فلا بد أن يكون لعلمائهم ورجال دينهم في جزيرة العرب علم بتلك اللغة وفقه بها. ولكن هذا لا يعني ضرورة كونهم كعلماء طبرية أو قيصرية في فلسطين أو بعض المواضع التي اشتهرت بعلمائها في التلمود بالعراق ، ولست أستبعد أن يكون لهم علم بلغة بني إرم أيضاً ، لأن هذه اللغة كما نعلم كانت لغة العلم والثقافة قبل الميلاد وبعده ، وبها كتبت كتب عدة من التلمودين ، ثم إنها انتشرت بين سواد الناس حتى صارت لغة سواد يهود يتكلمون بها ولو برطانة وبلهجة خاصة هي اللهجة التي يمتاز بها سواد اليهود في كل قطر يعيشون فيه .

أما سواد يهود جزيرة العرب في الجاهلية : فلا أظن أنهم كانوا يتكلمون العبرانية أو لغة بني إرم ، إنما أرى أنهم كانوا يتكلمون لهجة من هذه اللهجات العربية . أعني لهجة العرب الذين كانوا يعيشون بينهم وينزلون بين أظهرهم ، ولم يرد في الأخبار ما يفيد أنهم كانوا يتحادثون بالعبرانية ، بل الذي ورد أن عامتهم لم تكن تعرف تلك اللغة . وأن الخاصة منهم والمزاولين لحرفة الكتابة

---

١ ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، (ص ٨٢) .

والسحر كانوا يعرفونها ويكتبون بها ، وبها يعوذون أنفسهم وغيرهم من الناس . وكانوا يفسرون التوراة والتلمود والكتب المقدسة لسواد النـــاس من العبرانية الى العربية،لأنهم لم يكونوا يعرفون العبرانية ، لا سيا وقد كان بينهم عرب متهودة .

ولم يظهر في يهود جزيرة العرب من حاز على شهرة في العلم والفقه والتأليف والخطابة على نحو ما ظهر بين يهود العراق او فلسطين او مصر ، وإلا لاشتهر أمره وذاع خبره ، كما ذاع خبر علماء يهود بابل وفلسطين ومصر . ولا يمكن ان تكون عزلتهم عن بقية يهود الأقطار المذكورة سبباً كافياً في تعليل عدم شيوع اسم أحد من هؤلاء ، إن قضية عزلتهم عن بقية اخوانهم في الدين ، هي نفسها تحتاج الى سند يثبت وجود تلك العزلة . فمواضعهم في أعالي الحجاز ، على اتصال ببلاد الشأم ، وهي لا تبعد كثيراً عن مساكن اخوانهم في فلسطين . ثم انهم كانوا على اتصال مستمر بهم بالتجارة ، وقد كانوا يشترون حاصل بلاد الشأم من خمور وحبوب وما شاكل ذلك ، وينقلونه الى يثرب ، يذهبون اليها للتعامل والاتجار ، فكيف يكون يهود جزيرة العرب في معزل عن غيرهم مع وجود الأسفار والتجارة لا سيا ان احبار (طبرية) كانوا يأتون الى يهود اليمن ليلقنوهـــم أمور الدين ، ولا يستبعد ان يكون من بين اولئك الأحبار من ذهب الى يهود يثرب او خيبر او تيماء .

فالقضية على ما يظهر ، ليست قضية عزلة يهود جزيرة العرب عن بقية يهود وانفصالهم بذلك ثقافياً وعلمياً عن بني دينهـــم انفصالاً يؤثر في مستواهم الثقافي والعلمي ، فيجعلهم دون غيرهم من اخوانهم في العلم والثقافة، انما يظهر ان هنالك جملة عوامل حالت دون نبوغ أحد فيهم . فيهود جزيرة العرب مهما قيل عنهم وعن رقيهم وارتفاع مستواهم عن مستوى من كان في جوارهم ، لم يكونوا في ثقافتهم وفي مستواهم الاجتماعي أرقى من الفلاحين وسكان القرى ومـــا اليها في العراق او فلسطين او مصر ، كما ان حالتهم المادية لم تكن عـــلى مستوى عال بحيث يمكن ان تقاس بالأحوال المادية التي كان عليها اليهود الآخرين في الأرضين المشار اليها ، او أصحاب تلك الأرضين من غير يهود . ثم ان عددهم مهما قيل فيه ، لم يكن كبيراً . وقد رأينا ان رجالهم المحاربين لم يكونوا يتجاوزون كلهم في الحجاز كله بضعة آلاف ، وفي مثل هذا العدد والظروف والأحوال لا يمكن بالطبع ان تتوفر الامكانيات المساعدة على البحث والتتبع والتعمق في العلم .

وقد عرف يهود يثرب بمعرفتهم السحر والاتقاء منه ، وبعلمهم بالتعاويذ ، فكان المشركون يلجؤون اليهم إذا احتاجوا الى السحر أو اذا اعترضتهم مشكلات يرون أنها لا تحل إلا بقراءة التعاويذ عليها . وقد ذكر المفسرون أن اليهود عملوا السحر للنبي ، عمله رجل اسمه (لبيد بن الأعصم) أو بناته وهو من يهود يثرب[1]. وقد أشير الى سحر اليهود في الحديث[2] .

وقد لجأ العرب الى اليهود يأخذون منهم الرقى والتعاويذ . فقد ورد في الأخبار « أن أبا بكر دخل على عائشة وهي تشتكي ويهودية ترقيها ، فقال أبو بكر : أرقيها بكتاب الله . يعني : بالتوراة والانجيل ... »[3] .

وقد حافظ يهود جزيرة العرب على حرمة السبت ، ويوم السبت من الأيام المقدسة التي يجب مراعاة حرمتها مراعاة تامة ، فلا يجوز ليهودي الاشتغال فيه ، والقيام ببعض الأعمال . ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنّسه بالاشتغال فيه يكون قد ارتكب جرماً عظيماً .

وقد وردت إشارات الى يوم السبت في مواضع من القرآن الكريم ، في معرض الكلام على بني اسرائيل ، وأشير في بعضها الى أخذ موسى العهد منهم بوجوب مراعاة حرمة هذا اليوم ، والى نقضهم له وعدم مراعاتهم جميعاً لهذا العهد، والى أنهم اعتدوا فيه[4] . وفي هذه الإشارات دلالة على أن من اليهود عامة من خالف حرمة هذا اليوم ، فلم ينفذ ما ورد في أحكام شريعته عنه . ولكن هذا عام غير خاص بيهود العرب الجاهليين ، وإنما يشير الى خروج بعض بني اسرائيل على أحكام دينهم وعدم مراعاتهم لها ، وهذا اليوم من أقدس الأيام في نظرهم .

---

١ تفسير الطبري (٣١/٢٢٦)، تفسير الطبرسي (٥/٥٦٨)، روح المعاني (٣٠/٢٨٢).

٢ البخاري : باب السحر ، عمدة القاريء (٢١/٢٧٩ وما بعدها) ، « الحديث رقم ٧٧ وما بعده » .

٣ عمدة القاريء (٢١/٢٦٢) .

٤ الأعراف : الآية ١٦٢ ، النحل : الآية ١٢٤ ، البقرة : الآية ٦٥ ، النساء : الآية ٤٦، ١٥٣ ، أبو الثناء الألوسي ، روح المعاني (١/٢٥٦ وما بعدها) ، اللسان (٢/٣٧) « صادر » ، محيط المحيط (٣/٩١١ وما بعدها) ، الطبري ، تفسير (٩/٦٥) ، الطبرسي ، مجمع البيان (١/١٢٩ وما بعدها) ، الزمخشري ، الكشاف (١/٢١٨) ، الطبرسي (٥/٣٩١) « طهران » ، الطبري ، تفسير (١٤/١٢٤) ، الكشاف (٢/١٧٨) .

وقد وقف العرب الذين كانوا على اتصال باليهود على بعض أحكام دينهم مثل : الرجم بالنسبة للزنا ، واعتزال النساء في المحيض . فذكر العلماء ان حكم الاسلام في الحيض « اقتصاد بين افراط اليهود الآخذين في ذلك باخراجهن من البيوت ، وتفريط النصارى . فانهم كانوا يجامعوهن ولا يبالون بالحيض »[1] ، ومثل الدعاء الى الصلاة عند اليهود بالنفخ في (الشبور)[2] ، وذلك كما تحدثت عنه في موضع آخر ، ومثل صوم (عاشوراء) وأعيادهم ، ومثل الصلاة وأوقاتها عندهم .

واستعمل يهود يثرب (القرن) في معابدهم ، لاعلان صلواتهم وأعيادهم واعلان احتفالاتهم والحوادث المهمة التي قد تقع لهم . وقد كانوا يستعملون آلتين ، يقال لاحداهما الـ (شوفار) Shophar ومعناها القرن ، ويقال للأخرى القرن، وتصنع من القرون كذلك . ولذلك اختلط الأمر بينهما . والظاهر انهما كانتا تختلفان في نوع قرون الحيوانات التي تتخذان منها[3] .

وقد اختلف يهود جزيرة العرب عن الجاهليين في الأمور التي حرمتها شريعتهم عليهم في مثل المأكولات ، كما اختلفوا عنهم في عبادتهم وفي اعتقادهم بوجود إله واحد ، هو (إله اسرائيل) ، وفي أمور عقائدية أخرى ، واختلفوا عنهم في بعض العادات والمظاهر الخارجية ، فكان اليهود مثلاً يسدلون شعورهم ، أما المشركون فكانوا يفرقون رؤوسهم . ورد عن ابن عباس : « أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، كان يسدل شعره وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم ، وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ، ثم فرق النبي،صلى الله عليه وسلم،رأسه»[4] . ولا يستبعد اختلافهم عنهم في لبس بعض الملابس التي لم تكن مألوفة عند الجاهليين.

وقد ظهر بين اليهود شعراء ، نظموا الشعر بالعربية وعلى طريقة العرب في نظم الشعر . منهم السموأل المشهور ، و (كعب بن الأشرف) وسماك اليهودي، وسأتكلم عنهم في أثناء حديثي عن الشعر .

---

١ ارشاد الساري (١/٣٤٠) ، (كتاب الحيض) .
٢ ارشاد الساري (٢/٣ وما بعدها) ، (كتاب الآذان) .
٣ A Relig., Ency., Vol., III, p. 1599.
٤ عمدة القارىء (١٧/٧١) .

لم يسلم من يهود في ايام الرسول غير عدد قليل من المتبينين منهم . مثل : عبدالله بن سلام ، ولم يتعاون معه غير عدد قليـــل منهم مثل يامين بن عمير بن كعب النضري ، ويامين بن يامين الاسرائيلي ، ومخيريق ، وكان رجـــلاً غنياً صاحب نخيل ، وهو أحد بني ثعلبة بن الفطيون ، حث قومه علي مساعدة الرسول ومعاونته في غزوة أحد . وكان الرسول قد طلب مساعدتهم لوجود صحيفة بينه وبينهم . فلما اعتذروا له بالسبت ، خالفهم مخيريق قائلاً لهم : لا سبت لكم ، وقاتل معه حتى قتل ، فقال الرسول : مخيريق خير اليهود . وقد وصف بالعلم ، وذكر انه كان حبراً عالماً فيهم[1] . آمـــن بالرسول وجعل ما له له ، وهو سبعة حوائط فجعلها الرسول صدقة[2] .

أما عبدالله بن سلام ، فكان يدعى ، وهو في يهوديته ، الحصين بن سلام بن الحارث . وسلام اسم والده . فلما أسلم سمّاه رسول الله (عبدالله) ، وهو من بني قينقاع ، أسلم والرسول في مكة لم يهاجر بعد ، وذلك في رواية من الروايات . وأسلم بعد الهجرة على أكثر الروايات . ذكر انه كان شريفاً في قومه ، سيداً ، صاحب نسب وحسب ، وانه كان حبراً عالماً . فلما أسلم ، نبذه قومه ، وتحدثوا فيه[3] . وقد نزلت فيه بضع آيات[4] .

أما أنه كان حبراً من الأحبار ، عالماً في شريعتهم ، فلا يمكن البت فيه ، فقد جرت عادة أهل الأخبار على إطلاق كلمة (الحبر) على نفر ممن أسلم من يهود في أيام الرسول ، كما أطلقت على نفر ممن أسلم بعده ، مثـــل كعب الذي عرف بكعب الأحبار . ولا يمكن في نظري البت في درجات عـــلم أمثال هؤلاء وفي مقدار فهمهم للتوراة ولكتب يهود إلا بجمع ما نسب اليهم من قول، ودراسته. عندئذ نستطيع أن نحكم عـــلى علمهم إن كان لهم علم بأحكام ديانة يهود وبالعالم وبما كان يتدارسه علماء ذلك العهد . ورأيي أن هذه الدرجات إنما منحهـــا لهم

---

١ ابن هشام (١٤٠/٢) ، (٣٨/٣) ، (محمد محيى الدين عبد الحميد) ،
Graetz, Vol., III, p. 75.

٢ البلاذري ، فتوح (٢٤) ، الاصابة (٣٧٣/٣) ، (رقم ٧٨٥٢) ، (من بني النضر ... ويقال انه من بني قينقاع ، ويقال من بني الفطيون) .

٣ ابن هشام ، سيرة (١٣٧/٢) ، أسد الغابة (١٧٦/٣) ، تهذيب الأسماء واللغات (٢٧٠/١ وما بعدها) ، الروض الانف (٢٥/٢) .

٤ تهذيب الاسماء (٢٧١/١) ، الاصابة (١١٦/٣) ، (٢١٢/٢) ، (رقم ٤٧٢٥) ، (١٩٣٩ م) .

بعض ذوي القلوب الطيبة من المسلمين الأولين ، لما رأوه فيهم ، ولما سمعوه منهم من أقوال نسبوها الى الأنبياء والعلماء والى كتب الله القديمة ، ولم يكن لهم بطبيعة الحال علم بها ، لعدم وقوفهم على ما كان يتداوله الأحبار ، فعجبوا من علمهم هذا ، ومن إحاطتهم بأحوال الماضين ، فعدّوهم أحباراً لهم في قومهم علم ورأي. وقد تساهل بعضهم في ذلك لظنه أن في منح هؤلاء أمثال هذه النعوت مما يفيد الاسلام ، إذ يعني هذا تقدير أولئك الأحبار أصحاب العلم الأول له ، وان تقديرهم هذا شهادة مزكّية له . وقد يكون لهم نصيب أيضاً في منحهم هذه الدرجة لأنفسهم للتباهي وللتصدر بذلك بين المسلمين .

وقد نسب أهل الأخبار أقوالاً لابن سلام ، تجد بعضها في كتب التفسير والحديث ، وتجد بعضها في كتب السير والأخبار . لبعضها طابع إسرائيلي ، فهو من القصص المعروفة بالإسرائيليات ، ولبعضها طابع الأقاصيص . قد يكون (ابن سلام) صاحبها ومرجعها ، وقد يكون غيره قد نسبها اليه [١] .

وقد كان له ابنان ، هما يوسف ومحمد ، رويا عنه الحديث [٢] . وقد كنّي باسم ولده يوسف ، فعرف بأبي يوسف [٣] . ويعد يوسف من الصحابة ، وله حديث عن الرسول ، ويقال إن الرسول هو الذي سمّاه يوسف ، وقيل ليست له صحبة . وقد روى عن جماعة من الصحابة [٤] .

وقد أسلم يامين بن يامين الاسرائيلي ، على أثر إسلام عبدالله بن سلام [٥] .

وأما يامين بن عمير بن كعب ، أبو كعب النضري ، فهو من بني النضير . وقد ساعد اثنين من فقراء أصحاب رسول الله على تجهيزهما بشيء من التمر ليتمكنا بذلك من الالتحاق بالجيش الذي سار في السنة التاسعة من الهجرة لغزوة تبوك [٦] . أسلم فأحرز ماله من بني النضير ، ولم يحرز ماله من بني النضير غيره وغير أبي سعيد بن عمرو بن وهب ، فأحرزا أموالهما . وذكر أن النبي قال

---

١ Ency., I, p. 30-31, Caetani, Annali, I, p. 413, Harovitz, in ZDMG., IV, 524.

٢ أسد الغابة (١٧٦/٣) .

٣ تهذيب الاسماء واللغات (٢٧١/١) .

٤ تهذيب الاسماء (١٦٦/٢) .

٥ الاصابة (٣٣٣/٦) ، (٦١٢/٣) ، (رقم ٩٢١٤) .

٦ الطبري (١٤٣/٣) ، (حوادث السنة التاسعة) ، الاصابة (٣٣٣/٦) ، (القاهرة ١٩٠٧م) ، (٦١١/٣) ، (رقم ٩٢١٣) .

ليامين : ألم ترَ الى ابن عمك عمرو بن جحاش وما همّ به من قتلي ؟ وكان أراد أن يلقي على النبي رحى فيقتله . فجعل يامين لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله .

وكان فيمن أسلم من بني قريظة (كعب بن سليم القرظي) ، وهو من سبيهم في الاسلام ، ويعد في الصحابة ، ولكن لا تعرف له رواية . وهو والد محمد بن كعب القرظي المعروف بروايته عن أحداث يهود مع النبي ، وعن بعض أخبار بني اسرائيل[1] . وله روايات في حديث الرسول عن بعض الصحابة ، ويعد من التابعين . يقال : انه ولد في حياة الرسول ، وتوفي ما بين سنة ثمان ومئة وسنة عشرين ومئة . وقد عدّه علماء الحديث في طبقة الثقات الورعين[2].

وفيمن أسلم من يهود بني قريظة رفاعة القرظي،وهو رفاعة بن سموأل(سموال) ، وقيل : رفاعة بن رفاعة القرظي من بني قريظة ، وهو خال صفية زوجة النبي ، لأن أمها برة بنت سموأل (سموال) ، أما أبوها ، فهو (حيي بن أخطب) من رؤساء يهود ، وكان من كبار المعارضين له ، وهو من بني النضير[3] .

ويعدّ (زيد بن سَعْية) (سعنة) في طبقة الصحابة ، ويقال انه كان أحد أحبار اليهود الذين أسلموا ، وانه كان أكثرهم علماً ومالاً ، وقد شهد مع النبي مشاهد كثيرة ، وتوفي في غزوة تبوك مقبلاً الى المدينة[4] .

ويعدّ (عطية القرظي) من الصحابة كذلك ، كان صغيراً حين غزا النبي بني قريظة ، ولذلك لم يقتل ، فأسلم ، وصحب النبي[5] .

ولم يظهر من يهود اليمن في الإسلام ممن عرفوا برواية الإسرائيليات سوى رجلين ، هما : كعب الأحبار ، ووهب بن منبه . فأما كعب الأحبار ، فقد أدرك زمن الرسول،غير أنه لم يره ، ولم يدخل في الاسلام إلا في أيام أبي بكر أو عمر . وهو أبو اسحاق كعب بن ماتع بن هينوع (هيسوع) ، وقد عرف

---

١ تهذيب الاسماء (٦٧/٢) ، أسد الغابة (٢٤٢/٤) .
٢ الطبري (٤٤/٣) ، (السنة الخامسة) ، تهذيب الاسماء (٩٠/١) .
٣ الاصابة (٥٠٤/١) ، (رقم ٢٦٦٨) ، تهذيب الاسماء (١٧١/١ وما بعدها ، ١٩١) ، (٣٤٨/٢ وما بعدها) .
٤ تهذيب الاسماء (٢٠٤/١) ، الاصابة (٢٨/٣) ، (٥٤٨/١) ، (رقم ٢٩٠٤) ، (التجارية ١٩٣٩م) ، (واستشهد في غزوة تبوك مقبلا غير مدبر) .
٥ تهذيب الاسماء (٢٣٥/١) ، الاصابة (٤٧٩/٢) ، (رقم ٥٥٨١) .

بين المسلمين بكعب الأحبار وبكعب الحبر من باب التعظيم والتقدير لعلمه . وقد أتاه هـذا اللقب من علمه بالشريعة وبكتب الأنبياء وبأخبار الماضين ، وهو علم لا نستطيع أن نحكم على درجته ومقدار بعده أو قربه من العلم الذي كان منتشراً بين أحبار ذلك العهد ما لم نقف على الأقوال الصحيحة التي صدرت عن ذلك الحبر . أما هذا المروي عنه والمذكور في تفسير الطبري وفي تأريخه وفي كتب من كان يعنى بجمع القصص ولا سيما قصص الرسل والأنبياء، فليس في استطاعتنا التصديق بأنه كله صادر من فم كعب ، إذ يجوز أن يكون من روايـة أناس آخرين ثم حمل على كعب .

ولم ينسب أحد الى كعب مؤلفاً، وكل ما نسب اليه فهو مما ورد عنه بالمشافهة والسماع . وهـو بين صحيح يمكن أن يكون قد صدر منه ، وبين مشكوك في أمره وضع عليه ، وفيه ما هو اسرائيلي صحيح ، أي انه مما هو وارد في التوراة أو في التلمود أو في الكتب الاسرائيلية الأخرى وفيه ما هو قصص اسرائيلي نصراني، وما هو محض افتعال وخلط . وبالجملة ، إن هذا الوارد عنـه يصلح أن يكون موضوعاً للدراسة ، لمعرفة أصوله وموارده والمنابع التي أخذت منه . وعندئذ يمكن الحكم على درجة أصله ونسبه في علم بني اسرائيل ، وامكان صـدوره من كعب أو من غيره ، ومقدار علم كعب ووقوفه على الإسرائيليات .

وأما وهب بن منبه ، فيعدّ من التابعين ، ويعـد مرجعاً مهماً في القصص الاسرائيلي . ويقال انه حصل على علمه من كتب الأولين ، وإن أخاً له كان يذهب الى الشأم للتجارة فيشتري له الكتب ليطالعها ، وانه كان على عـلم غزير بأحوال الماضين ، وكان ملماً بجملة لغات[1] . وإذ كان وهب من المتأخرين وكان نشاطه في الحركة الفكرية في الاسلام لا في الجاهلية ، لم نجعل له في هذا الموضع مكاناً ، انما مكانه في الأجزاء المتعلقة بتأريخ الاسلام .

هذه قصة يهود جزيرة العرب قبل الاسلام ، قصة لا تستند الى مؤلفات تأريخية كتبت في تلك الأيام ، ولا إلى نصوص جاهلية عربية أو أعجمية لها علاقة بيهود كتبت في ذلك العهد ، ولكن تستند ، في أكثر ما حكيناه، الى موارد اسلامية ، ذكرتهم وأشارت اليهم لمناسبة ما وقع بينهم وبين الرسول من خلاف . وقد ورد

---

[1] لي مقال عنه في مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الاول والثاني منها .

شيء كثير بحقهم في القرآن الكريم وفي الحديث وفي الأخبار ولا سيما أخبار الغزوات ، يتعلق معظمه بأمر الخصومة التي وقعت بينهم وبين النبي عند قدومه يثرب ، فهو لا صلة له لذلك إلا بما له علاقة بهذه الناحية . وما ورد عنهم إذن هو من مورد واحد وطرف واحد . أما الطرف الثاني من أصحاب العلاقة بهذا التأريخ والشأن ، وأعني بهم اليهود ، فلا صوت لهم فيه ، ولا رأي . فلم تصل الينا منهم كتابة ما عنهم في علاقتهم بالاسلام . كذلك لم تصل الينا كتابة أو رواية أو خبر عن أولئك اليهود في الموارد التأريخية التي دوّنها غيرهم من مؤرخي يهود وكتّابهم عن علاقة يهود جزيرة العرب بالاسلام ، وعن اجلاء يهود الحجاز من مواضعهم الى بلاد الشأم ، لا في العربية ولا في العبرانية ولا في بقية اللغات ، مع ما لهذا الحادث من خطر في تأريخ اليهود في جزيرة العرب . ولعل الأيام تكشف لنا عن موارد في العبرانية أو في لغة بني إرم تذكر أحوال يهود جزيرة العرب قبيل الاسلام وعند ظهوره ، وتكشف عن آثار يهود في المواضع التي كانوا يسكنونها في الحجاز ، فتبتّ في أمور كثيرة عن حياة هؤلاء . وليس احتمال عثورنا على مثل هذه الآثار ببعيد ، فلا بد ان يعثر على حجر من الحجارة المكتوبة التي توضع فوق القبور ، فنعرف منه ما لغة الكتابة التي كان يستعملها أولئك اليهود ، أهي العبرانية ، أو العربية ، أو لغة بني إرم ، أو أبجدية من الأبجديات المشتقة من القلم المسند ؟ وقد يعثر على نصوص أطول من هذه النصوص التي توضع على القبور ، تكشف النقاب عن أمور أخرى مهمة تفيدنا في معرفة أحول اليهود ببلاد العرب قبل الاسلام .

وما دمنا لا نملك نصوصاً يهودية جاهلية ، ولا نصوصاً عربية جاهلية تتعرض ليهود ، فليس في وسعنا إذن أن نتحدث باطمئنان عن أثر اليهود في الجاهليين أو أثر الجاهليين في اليهود . لقد تحدث عدد من المستشرقين عن أثر اليهود في الجاهليين ، فزعموا أن لليهود أثراً عميقاً فيهم ، فالختان مثلاً هو أثر من آثار يهود في العرب ؛ وشعائر الحج عند الوثنيين أكثرها هي من اسرائيل ، فالطواف حول البيت يرجع أصله الى بني اسرائيل ، ذلك أن قدماءهم كانوا يطوفون حول خيمة الإله (يهوه) إله اسرائيل ؛ ومنهم تعلمه الجاهليون واتبعوه في طوافهم بالبيت . والاجازة بعرفة يهودية كذلك ، لأن الذي كان يجيز الحجاج بعرفة فيأمر الحج بالرمي بعد أن يلاحظ الشمس وقت الغروب يعرف بـ (صوفة) ، وصوفة

تسمية عبرانية لها علاقة وصلة بهذه الوظيفة وظيفة مراقبة غروب الشمس وتثبيت وقته ، فالإجازة اذن عبرانية الأصل . و (منى) صنم من أصنام اسرائيل، ووادي منى على اسم هذا الصنم الإسرائيلي ، وأسماء أيام الاسبوع هي تسميات أخذت من يهود ، ولفظة (المدينة) التي تطلق على يثرب ، أطلقها اليهود على هذا الموضع قبل الاسلام ، وقد أخذوها من الإرمية ، لتميز هذا المكان عن (وادي القرى). وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل[1] .

وقد غالى بعض اليهود في تقدير يهود جزيرة العرب ، فذهب الى أن أولئك اليهود جلهم إن لم يكونوا كلهم كانوا يحسنون قراءة الكتاب المقدس ، بدليل اطلاق القرآن الكريم عليهم (أهل الكتاب) . وقد فاته أن عبارة (أهل الكتاب) لا تعني أهل الكتابة ، بمعنى أنهم كانوا أصحاب علم بالكتابة ، وإنما المراد من ذلك أهل كتاب منزل سماوي . ويدخل في ذلك النصارى أيضاً لوجود كتاب سماوي لديهم كذلك هو الانجيل . وقد رأيت أن القرآن الكريم قد وصف بعض الأحبار بالعلم ، كما رمى أكثرهم بالجهل. أما السواد الأعظم منهم ، فقد جعلهم عامة تتبع أقوال رجالها ، فلا علم لها ولا معرفة بأمور الماضين أو الحاضرين .

وأنا لا أريد هنا أن أجادل في نفي هذه الأمور ، أو اثباتها ، فأخذ الشعوب واقتباسها بعضها عن بعض ، من القضايا التي لا يمكن أن ينكرها إلا المعاندون الجاهلون المتعصبون . وقد رأيت ان ابن الكلبي وغيره من قدامى الأخباريين قد أشاروا الى أن أصل بعض الأصنام عند العرب هو من الشمال،استورد في مناسبات أشاروا اليها ، كما أن التنقيبات الأثرية قد أثبتت وجود صلات فكرية بين جزيرة العرب وبين العالم الخارجي ، وأن ما يزعمه القائلون بعزلة الجاهليين عن بقية العالم هو هراء لا يستند الى دليل . ولكني في هذه الأمور من الحذرين . أكره الجزم بشيء من غير برهان قاطع ودليل محسوس . فكلام أهل الأخبار ، أكثره مما لا يمكن الاعتماد عليه ، وقد رأينا طبيعة أكثره ونوعه . ثم إن الكثير مما له علاقة بيهود وبالدين هو مما أخذ من أهل الكتاب في الاسلام أو من أفواه مسلمة أهل الكتاب . فهو متأخر عن الجاهلية ، فلا يمكن أن يشمل الجاهليين من اهل الكتاب ومن وثنيين . وعلينا الآن التمييز بين هذا الذي أدخل بين العرب بعد أيام الجاهلية

---

١ اليهود (٧٨ وما بعدها) ، Graetz, Vol., III, p. 60.

وبين ذلك الذي كان معروفاً عند الجاهليين وقد ورد عنهم ، وذلك لنتمكن من ابداء رأي في هذه القضايا المعقدة .

ثم إن العرب كانوا شعباً سامياً ، كاليهود في اصطلاح العلماء، وتشترك البطون السامية في كثير من أصول التفكير والعقيدة ، ومعنى هذا ان ما نجده عند يهود قد يكون عند العرب وعند غيرهم ممن يدخلهم المستشرقون في هذه الزمرة . فلمَ كل شيء ليهود ، ونحكم على ان الجاهليين قد أخذوه منهم ، ولا نقول إن هذا من ذلك التراث القديم الموروث ؟ أنا لا أقول ذلك متأثراً بدافع من العصبية ، انما أقول ذلك لأني أدين بفكرة هي ان الاستعجال في اصدار الأحكام بغير دليل خطأ فاحش لا يجوز لانسان يشعر بانسانيته أن يوقع نفسه فيه .

هذا ولا بد بالطبع من ان يتأثر الجاهليون المجاورون لليهود بعض التأثر بهم ، بأن يأخذوا منهم بعض الأشياء ويتعلموا منهم بعض الأشياء التي تنقصهم والتي هم في حاجة ماسة اليها . فذلك أمر لا بد منه . كما ولا بد وان يكون اليهود قد اقتبسوا أشياء من جيرانهم العرب ، وعملوا على محاكاتهم في حياتهم الاجتماعية ، لا سيما وبينهم يهود من أصول عربية .

الفصل الثامن والسبعون

شعر اليهود

واللغة التي كان يتكلم بها اليهود ، هي اللهجات العربية التي كان يتكلم بها أهل المناطق التي ينزلونها . ولتكلم اليهود في كل قطر يحلّون فيه بشيء من الرطانة ، لا يستبعد أن تكون لغتهم العربية التي كانوا يتكلمون بها عربية تشوبها الرطانة العبرانية . ولكن هذا لا يمنع من وجود أناس فيما بينهم كانوا يتكلمون ويكتبون بالعبرانية ، ولا سيما أنهم كانوا يستعملون العبرانية في دراسة أمورهم الدينية وفي كتابة النشرات والتعاويذ ، كما كانوا يستعملونها في السحر . وقد وردت إشارات الى ذلك في كتب الحديث . وقد ورد أيضاً أنهم كانوا يعلمون أطفالهم العبرانية في الكتاب .

ويروي رواة الشعر شعراً جاهلياً زعموا ان قائليه هم من يهود . وأكثره أبيات لشعراء لا نعرف من أمرهم شيئاً ، لعلها بقايا قصائد . أما القصائد ، فينسب أكثرها الى السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق في تيماء ، وصاحب قصة الوفاء المشهورة [1] . وهذا الشعر المنسوب الى اليهود ، لا يختلف في طريقة نظمه وفي تراكيبه ونسقه عن شعر الشعراء الجاهليين ، ولا نكاد نلمس فيه أثراً لليهودية ولا للعبرانية . فألفاظه عربية صافية نقية مثل ألفاظ أهل الجاهلية ، وأفكاره على

---

١ تأريخ الادب العربي ، لكارل بروكلمان (١/١٢١) ، (طبعة دار المعارف بمصر) ، (طبعة ثانية) ، (تعريب الدكتور عبد الحليم النجار) .

نمط أفكار الجاهليين . ويصعب ان تجد فيه أثراً للتوراة والتلمود ، مما يحملنا على التفكير في صحة هذا الشعر وفي درجة تعمق صاحبه وتفهمه لدين يهود .

ومن الشعراء الذين روى الأخباريون شيئاً من شعرهم بعد السموأل : (أوس ابن دنن) ، وهو من بني قريظة ، و (كعب بن سعد القرظي) ، و (سارة القريظية) ، و (سعية بن غريض بن عادياء) (شعية بن غريض بن عادياء) ، و (الربيع بن أبي الحقيق) ، و (أبو الديال) (أبو الزناد) ، وله شعر في رثاء يهود تيماء الذين أجلاهم الرسول ، و (شريح بن عمران) ، و (كعب ابن الأشرف) ، و (أبو رافع اليهودي)[١] .

وروى ان (جعفر بن محمد الطيلسي) جمع أشعار اليهود في ديوان ، ويظهر انه أخذ ذلك من كتاب للسكري. ويقال إن الموفق بالله أخا الخليفة المعتمد العباسي طلب من الوزير (اسماعيل بن بلبل) ان يقدم اليه ديواناً في شعر اليهود ، فطلب الوزير من العالم اللغوي الأديب (المبرّد) ان يقدم اليه ديواناً في شعر يهود ، فأخبره المبرد انه لا يعرف شعراً لليهود . فطلب الوزير من العالم (ثعلب) ان يقدم اليه ما عنده من شعر لليهود ، فأجابه ان لديه ديواناً من شعرهم ، فقدمه اليه[٢] .

وقد كانت بين المبرّد وثعلب خصومة شديدة ومنافسة عنيفة ، فلعل هذا الخبر هو من مرويات الجماعة المتعصبة لأحد الطرفين في الطعن في أحدهما والحط من شأنه ، فقد تحزّب طلاب العلم وانقسموا جماعتين ، كل جماعة كانت تنتصر لصاحبها ، إذ لا يعقل ألا يكون للمبرد علم بشعر لليهود ، وقد ذكر من سبقه مثل أبي تمام في حماسته والجمحي في طبقات الشعراء كما ورد في الأصمعيات شعراً لهم[٣] ، كما ان في كتابه الكامل نتفاً من شعرهم ، أو لعل إنكاره لشعرهم بمعنى ان أكثر ما نسب اليهم من شعر هو في نظره مزيف مصنوع ، ولهذا لم يُعنَ بجمع ما ورد عنهم ، ولا يمكن ان يكون ديواناً في شعر يهود[٤] .

---

١ الاعاني (١٩/٩٤ وما بعدها) ، الميداني ، (٢/٢٧٦) ، المشرق ، السنة الثانية عشره (١٩٠٩) ، (١٦٢) ، Margoliouth, p. 76.

٢ Margoliouth, p. 75.

٣ طبقات الشعراء للجمحي (٧٠/ وما بعدها) .

٤ Margoliouth, p. 74.

والشعراء اليهود الذين ذكرهم الجمحي في كتابه (طبقات الشعراء) ، هم: السموأل بن عادياء ، والربيع بن أبي الحقيق ، وهو من (بني النضير) ، وكعب بن الأشرف ، وشريح بن عمران ، وشعبة بن غريض (شعية بن غريض) وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الذيّال ، ودرهم بن زيد . وقد ذكر لهم أبياتاً مما قالوه من الشعر[1] .

والسموأل ، وهو من سادات يهود الحجاز ومن أثريائهم وملاكهم ، أحسن الشعراء اليهود حظاً في الخلود . بقيت أشعاره ، وحفظت قصائده ، ولم يبخل علماء الشعر عليه ، فجمعوا شعره في ديوان . ولم يشأ الزمان أن يبخل عليه ، فهيأ له من طبعه . ولا تزال تلك القصة : قصته مع مخلفات امرىء القيس مضرب الأمثال . وصير هذا الشاعر الملاك المرابي مثلاً وقدوة للأوفياء ، فضرب به المثل وقيل : أوفى من السموأل ، ولعل القصيدة المبتدئة بهذه الأبيات :

وفيت بأدرع الكندي ، إنني   إذا ما ذمّ أقوام وفيت
وأوصى عادياً يوماً بألاّ   تهدمّ يا سموأل ما بنيت
بنى لي عادياً حصناً حصيناً   وماء كلما شئت استقيت

هي التي خلدت هذه القصة ، وصيرت لها فروعاً وذيولاً ، وهي قصة تجعل الكندي المقصود بها هو الشاعر الشهير امرأ القيس ، وهي التي خلدت اسم صاحب ذلك الحصن .

ونجد هذه القصة في قصيدة للأعشى ، يقال إنه قالها مستجيراً بابن السموأل شريح ، ليفكه من أسره ، وكان قد وقع أسيراً في يد رجل كلبي كان الأعشى قد هجاه ، ثم ظفر به الكلبي ، فأسره وهو لا يعرفه ، فنزل بشريح بن السموأل وأحسن ضيافته ، فلما مرّ بالأسرى ، قال الأعشى أبياتاً يمدحه فيها ، ويمدح أباه ، ويذكر كيف أن أباه اختار أدراع الكندي ، وأبى إلا أن يسلمها إلى آله وذويه ، على أن يسلمها الى آسري ابنه إذا أطلقوه . وهي أبيات نجته من أسر الكلبي ، ففرّ منه بعد أن وهبه لشريح وهو لا يعرف به . فلما عرف به ، ندم . ولكن ندمه هذا لم يفده شيئاً لأنه جاء بعد فوات الوقت[2] .

---

١ (ص ٧٠ وما بعدها) .
٢ الاغانى (٩٩/١٩ وما بعدها) .

ويروي الأخباريون ورواة الشعر أشعاراً أخرى للأعشى قالها في مدح السموأل وفي وصف حصنه وفي سرد قصة وفائه ، نجد فيها مصطلحات وجمـلاً وكلمات ترد أيضاً في الشعر المنسوب الى السموأل . وهذا ما يحملنا على التفكير في كيفية حدوث ذلك ووقوعه . هل حدث ذلك لوقوف الأعشى على شعر السموأل واقتباسه منه ، باعتبار أن السموأل أقدم عهداً منه ، أم حدث بتوارد الخـواطر والمعاني فهو من قبيل المصادفة ليس غير ، ام صنع فيما بعد على لسان السموأل بعد شيوع هذا الشعر المنسوب الى الأعشى صاحب الأبلق الفرد ، ام الشعران مصنوعان صنعاً في الإسلام ووضعا على لسان الرجلين ؟ وبالجملة ان أكثر ما ينسب الى السموأل، هو من النوع المصنوع الذي شك فيه ، وبعضه مما نسب الى غيره من الشعراء .

أما جامع شعر السمـوأل في ديوان ، فهو ابراهيم بن عرفـة الملقب بنفطويه (٣٢٣ — ٣٢٤ ﻫ) ، من مشاهير علماء العربية . وبعض ما هو مذكور في هذا الديوان[1] ، مثل قصيدته الشهيرة :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

مذكـور في حماسة أبي تمام ، وبعضه من مرويات الأصمعي . ولم يذكر نفطويه جامع الديوان سنده في رواية هذا الشعر . وهـذا السند مهم جـداً عند المؤرخ للوقوف على كيفية حصول هذا العالم على شعر السموأل ، ولمعرفة صحة نسبته اليه.

وفي الشعر المنسوب الى السموأل جزء منحول مصنوع ، وُضع عليه ، وجزء منسوب الى غيره ، وقد أشار اليه العلماء . ونحن اذا قمنا بغربلته وتنقيته نجد أقله له وأكثره لغيره ، قد يكون من صنعة شاعر آخر ، وقد يكون من وضع وضَعَة الشعر ومفتعليه . ثم اذا فحصنا هذا القليل الذي يتفق أهل الأخبار على انه له ، لا نجد فيه ما يشير الى وجود أثر لدين يهود في هذا الشعر .

وقد استدل الأب (شيخو) على نصرانية ذلك الشاعر ، من قصيدة نسبت الى السموأل ، ورد فيها شيء من القصص الديني ، والأب شيخو لا يكتفي بنصرانية

---

١ طبع هذا الديوان في بيروت (سنة ١٩٠٩ م) في مجلة المشرق للسنة المذكورة (ص ١٦١ وما بعدها) ، كما نشره عيسى سابا بعنوان شعر السموأل ببيروت كذلك . وأعاد نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين بعنوان : « ديوان السموأل » صنعة أبي عبدالله نفطويه وطبع ببغداد سنة ١٩٥٥ م .

السموأل وحده ، بل يرى ان النصرانية هي ديانة جميع الشعراء الجاهليين ، ولهذا ألّف فيهم كتابه (شعراء النصرانية) وتحدث فيه عنهم على انهم نصارى مؤمنون بدين المسيح[1] . وقد فاته شيء واحد لا أدري كيف عـزب عن باله ، عفا الله عنه ، هو : تعيينه مذهبهم في النصرانية ، ونصه على ترهبهم وتنسكهم ولبسهم المسوح على طريقة الرهبان .

ومن القصائد المنسوبة الى السموأل ، قصيدة مطلعها :

ألا أيها الضيف الذي عاب سادتي   ألا اسمع جوابي لست عنك بغافل

ختمها بهذا البيت :

وفي آخر الأيام جاء مسيحنا   فأهدى بني الدنيا سلامَ التكامل[2]

وهي قصيدة تختلف في أسلوب نظمها وفي العرض العام عن طرق النظم المألوفة في الشعر قبل الاسلام ، والشعر المنسوب الى السموأل . وقد وردت فيه كلمـة (رحمانهم) وأشير فيها الى قصة ابراهيم الخليـل ، والذبيح ابنه ، والى تسميته باسرائيل ، ثم الى الأسباط . وقصة بني اسرائيل مع فرعون مصر . وقد أغرق الله فرعون في البحر . والى القدس والطور ، وأمثال ذلك .

وهذه القصيدة هي ردّ لأقوال رجل يظهر أنه عـاب بني اسرائيل ، وتهجم عليهم ، فأثار هـذا التطاول صاحب هذه الأبيات فنظمها في الردّ عليـه ، وفي الفخر بقومـه ، مستشهداً على ذلك بالقصص الوارد في التوراة عن بني اسرائيل وعن الأنبياء : ابراهيم وإسحاق ويوسف ، وختمها بالبيت الذي رويته منها عن مجيء المسيح ، وقد دعاه بـ (مسيحنا) ؛ لأن المسيح من اليهود . ذكر المسيح فيها بعد حديثه عن موسى وتكليم الربّ له على جبل الطور ، وهو انتقال فجائي غريب ليست له صلةٌ ما بالأبيات المتقدمة .

---

١ Nallino, Raccolta, III, p. 105, Nöldeke, Sammaual, in Zeitschrift für Assyriologie, XXVII, 1912, S. 177, Welhausen, Zum Koran in ZDMG, LXVII, 1913, S. 630, Eisenburg, Zu Samaw'al, in ZDMG., LXVIII, 1914, S. 644, Al-Samaw'al ibn Adiya, in Zeitschrift für Assyriologie, XXVI, 1912, S. 318.

٢ شعر السموأل (ص ٥٣) ، (عيسى سابا) ، « بيروت ١٩٥١م » .

والحوادث المذكورة في هذه القصيدة ، والاستشهادات التي استشهد بها الشاعر ، وإن كانت مما هو مذكور في (الكتاب المقدس) بجزءيه ، تدل على أن ناظمها قد استعان في نظم المصطلحات التي استعملها وطريقة تعبيره عن الحوادث بالقرآن الكريم ، وبالقصص الوارد في كتب سير الرسل والأنبياء ، وأن الغاية من نظمها هو إثبات مجيء المسيح ، وقد جاء . وشهادة شاعر يهودي مفيـــدة ولا شك في هذا الباب .

ولم ترد هذه القصة في ديوان السموأل ولا في كتب الأدب القديمـــة . وعدم ورودها في تلك الموارد ، دليل بالطبع على أنها مما وضع بعد تدوين شعر السموأل في الديوان المنسوب اليه وفي كتب الأدب القديمة ، وأن هـــذه القصيدة هي من الشعر المصنوع المتأخر بالنسبة الى بقية ما نسب اليه .

وللسموأل آراء دينية تراها في هذا الشعر المنسوب اليه ، في بعضه إقرار بالبعث والحساب ، وأن المليك وهـــو الرب يجازي الانسان على ما قام به وما فعله من خير أو شرّ[1] ، وأن الله قد قـــدّر كل شيء وقضى به ، وان كل ما قدّره كائن ولكل رزقه[2] ، وان الانسان ميت من يوم يولد ، وفيه جرثومة الموت ، ولد من ميت ، ثم يموت ، ثم يبعث تارة أخرى للحساب والكتاب ، ولكل أجل[3] .

وفي قصيدة ثانية :

نطفة ما منيت يوم منيت   أمرت أمرها وفيها بريت
كنّها الله في مكانٍ خفيٍّ   وخفيٌّ مكانها لو خفيت

وهي في كيفية نشوء الانسان من مَني يُمنى . وهي فكرة يظهر ان صاحب هذا الشعر اقتبسها من القرآن الكريم ، نظراً لمظهر التأثر به في تعبيره عن كيفية خلق الانسان . وقد تطرق في هذه القصيدة الى ما ذكرته من اعتقـــاده بالموت وبالبعث بعده وبالحساب والثواب والعقـــاب ، والى سليمان والحواريّ يحيى وبقايا

---

١ شعر السموأل (بيروت ١٩٥١) ، « عيسى سابا » (ص ٢٦) .

٢ ليس يعطى القوي فضلا من الرز   ق ولا يحـــرم الضعيف السحيب
بل لـــكل من رزقه ما قضى اللــ   ـــه وان حـــز آنفـــه المسميت
شعر السموأل (٢٨) .

٣ شعر السموأل (ص ٢٩ وما بعدها) .

الأسباط أسباط يعقوب دارس التوراة والتابوت[1] . والى انفلاق البحر لموسى وأشار الى طالوت وجالوت . والاشارات الموجزة هذه ، وإن كانت لقصص موجود في التوراة ، لم يعتمد الشاعر عليها ، بل اعتمد على القرآن الكريم[2] . فـ (طالوت) مثلاً غير مذكور في التوراة ، انما ذكـر في القرآن الكـريم . وهو اسم الملك (شاؤول) في التوراة[3] . وفي أخذ الشاعر لهذه التسمية القرآنيـة التي لا وجود لها في التوراة دليل على انه وضع شعره بعد نزول القرآن ، أي في الاسلام . وأما (جالوت) فلفظة وردت في كتاب الله كذلك ، وهي تقابل Goliath في العهد القديم[4] . ويلاحظ ان صاحب القصيدة قد أخـذ مصاب (جالوت) من القرآن الكريم ، كما انه سار على نهجه في ذكر طالوت جالوت ، وهو ينفرد بذلك عن التوراة .

وشعر فيه هذه المصطلحات وهذه المعاني ، لا يمكن أن يكـون شعراً يهودياً جاهلياً ، بل لا بد أن يكون من الشعر المصنوع المنظوم في الاسلام .

فليس في شعر السموأل إذن شيء خاص من الأشياء التي انفردت بها يهود ، وهذا الفخر الذي نراه في اسرائيل وفي الأسباط هـو فخر يقوم على نمط فخر القبائل بقبائلهم ، وليس شيئاً من دين . ثم إن بنا حاجةً الى اثبات أنه من نظم السموأل حقاً ، وأنه ليس من نظم إنسان آخر قاله على لسان السموأل في مدح اليهود وفي الفخر بهم . ولا عجب أن يقوم إنسان بوضع شعر على لسال السموأل أو غيره من الشعراء الجاهليين ، فكتب الأدب مليئة بشواهد تذكر أسماء قصائد منتحلة ، وضعت عـلى ألسنة شعراء جاهليين ، وأسماء من انتحل ذلك الشعر . ولم يكن انتحال ذلك الشعر عملاً سهلاً ، إذ لا بد له من قدرة وعـلم ومعرفة بأساليب شعر الماضين . وقد كان حمّاد الراوية ، وهو أديب كبير وراوية شهير ، على رأس طبقة المنتحلين الوضّاعين للشعر .

---

١ وبقايا الاسباط أسـباط يعقو ب دارس التـوراة والتـابوت
وانفلاق الأمواج طورين عن مو سى وبعـد الملـك الطالـوت
ومصاب الادريس حين عصى اللـ ـه واذ صاب حينـه الجـالوت
شعر السموأل (ص ٢٧) ، ديوان السموأل (ص ٢٥) .

٢ سورة البقرة ، الآية ٢٤٦ وما بعدها .

٣ Ency., IV, p. 642.

٤ Ency., I, p. 1008, Hastings, p. 303.

وأشهر القصائد والأشعار المنسوبة الى السموأل ، القصيدة المقولة في الفخر التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداءٍ يرتديـه جميل

وهي قصيدة شهيرة معروفة تعد نموذجاً في الفخر والحماسة وفي حسن النظم ، ولذلك تحفظ في المدارس حتى اليوم ، ويضيف اليها بعض العلماء هذا البيت :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره   يعزّ عـلى من رامـه ويطول

وبعض العلماء يزيد عليها وينقص منها أبياتاً أخرى . وهي مع ذلك مما يعزوه بعض العلماء الى شعراء آخرين ، فعزاهـا بعضهم الى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، أو عبدالله بن عبد الرحمان ، وقيل ابن عبد الرحيم الأزدي ، وهـو شاعر شامي إسلامي[1] .

وينسب بعض الرواة القصيدة المذكورة الى شاعر إسلامي آخر يسمى (دكين) الراجز[2] . فترى من هذا مبلغ الاختلاف في صحة نسبة هذه القصيدة الى السموأل .

ولم يرد في ديوان السموأل ولا في بعض الكتب الأخرى البيت المتقدم، وأعني به قوله :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره   يعزّ عـلى من رامه ويطول

ولعدم وروده في ديوانه أهمية بالطبع ، إذ يجوز ان تكون هذه الزيادة متعمدة لاثبات انها من شعر السموأل حقاً ، وآية ذلك ورود (الأبلق الفرد) في هذه القصيدة ، وليس هناك حصن اشتهر وعرف بهذه التسمية غير هذا الحصن .

وينسب الى السموأل قوله معتذراً لرجل من ملوك كندة :

وإن كنت ما بُلّغت عني فلامني   صديقي وحزت من يدي الأنامل

---

١ ديوان السموأل (ص ١٠ وما بعدها) ، الحماسـة (ص ٤٩) ، العيني (٢/ ٧٧) ، الأمالي (١/ ٢٧٢) .

٢ الاغاني (٩/ ٢٦٢) ، (طبعة دار الكتب المصرية) .

وقد ذكر هذا البيت ، وكذلك بيت آخر معه في ديوانه . غير ان بعض العلماء ينسبها الى معدان بن جواس بن فروة السكوني[1] .

وللأخباريين روايات تختلف بعض الاختلاف في اسم والد السموأل ، فمنهم من جعله عادياء ، ومنهم من دعاه أوفى ، ومنهم من سمّاه حيّان ، (حسان) ، ومنهم من قال له (السموأل بن غريض بن عاديا)[2] . وهم يقولون انه يهودي، ويقولون أحياناً انه من غسان ، وغسان بالطبع ليست من يهود . ومنهم من قال ان والده من يهود ، أما أمه فكانت من غسان[3]. فهو اذن ذو نصفين — اذا صح التعبير — نصف يهودي ، ونصف آخر عربي . ثم هم يذكرون انه كانت له صلات وثيقة بأمراء غسان ، ولصلته هذه بهم قصده امرؤ القيس ، طالباً وساطته له عند الحارث بن أبي شمر الغساني ، ليوصله الى قيصر ، فينال بمساعدته حقه من خصومه[4] . أما نحن ، فلا يهمنا من أمر السموأل في هذا المكان شيء ، وكل ما يهمنا هو ما له صلة بدين اليهود ، وعقيدة يهود الجاهلية في الحجاز .

ويستشهد الذين يذكرون ان اسم والد السموأل هو (عاديا) ببيت شعر نسبوه الى السموأل هو :

بني لي عاديا حصناً حصيناً وعيناً كلما شئت استقيت

فقالوا أن أباه (عاديا) اليهودي ، وهو باني ذلك الحصن[5] .

وقد جعل (ابن دريد) نسب (السموأل) في (بني غسان) ، وجعل عمود نسبه على هذا النحو : (السموأل بن حيّا بن عادياء بن رفاعه بن الحارث ابن ثعلبه بن كعب)[6] .

---

١ ديوان السموأل (ص ٤٣ وما بعدها) ، سمط اللآلىء (٤٥٧) .

٢ الاغاني (١٢/٣) ، (٩٨/١٩) ، الميداني (٢٧٦/٢) ، تاج العروس (٣٨٢/٧) ، (السموأل بن أوفى بن عادياء بن رفاعة بن جفنة) ، التاج (٣٨٢/٧) ، المشرق ، السنة الثانية عشرة (١٩٠٩) ، (ص ١٦٢) ، اليهود (ص ٢٧) ، معاهد التنصيص (١٣١/١) ، مروج (١٧٦/٢) ، (دار الاندلس) .

٣ الاغاني (٩٨/١٩) ، المشرق ، العدد المذكور .

٤ الاغاني (٩٨/١٩) .

٥ تاج العروس (٢٩٨/٦) .

٦ الاشتقاق (٢٥٩/٢) «وستنفلد» .

ولا يستبعد بعض المستشرقين احتمال كون السموأل من أصل عربي ، هو من غسان . تهود في جملة من تهود من العرب ، لا سيما أن في منطقة يثرب أحياء نص على أصلها العربي ، دخلت في هذا الدين . وقد ذهب بعضهم الى احتمال وجود رجلين بهذا الاسم : رجل غساني عربي ، وآخر يهودي[1] .

وفي هذا البيت المنسوب الى الأعشى :

أرى عاديا لم يمنع الموت ما له وفرد بتيماء اليهودي أبلق

ما يشير الى يهودية السموأل ، وهو يشير أيضاً الى غنى عادياء وكثرة ماله .

وقد عرف حصن السموأل بالأبلق ، وبالأبلق الفرد ، وهو حصن مشرف على تيماء ، وقد ذكر الأخباريون أنه إنما دعي بالأبلق ، لأنه كان في بنائه بياض وحمرة . وكان أول من بناه عادياء أبو السموأل . وقد ذكر ياقوت الحموي أن موضعه على رابية فيها آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنه من العظمة والحصانة ، وهو خراب[2] ولست أرى أن الأبلق أو الأبلق الفرد هي تسمية ذلك الحصن ، إنما هي صفة له ، أخذت من البيت :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره يعزّ على من رامه ويطول

وهو بيت ينسب قوله الى السموأل . ومن أبيات أخرى تنسب الى الأعشى .

وورد في أبيات منسوبة الى الأعشى ان باني الأبلق هو (سليمان) ، قال :

ولا عاديا لم يمنع الموت ما له وحصن بتيماء اليهودي أبلق
بناه سليمان بن داوود حقبة له أزجٌ عالٍ وطيء موثق
يوازي كبيدات السماء ودونه بلاطٌ ودارات وكلس وخندق[3]

ولكن هذا البيت يناقض ما ينسب الى السموأل من شعر فيه ان باني ذلك

---

١ Zeitschrift für Assyriologie, 1912, S. 174.

٢ البلدان (١/٨٦) ، القزويني ، آثار البلاد (٤٨) ، المشرق (١٩٠٩) ، (١٦٣) ، تاج العروس (٦/٢٩٨) ، (بلق) .

٣ البلدان (١/٨٧) ، تاج العروس (٦/٢٩٨) .

الحصن ، هو أبوه (عاديا) (عادياء) . ولست أستبعد ان يكون أكثر هذا الشعر من الشعر المصنوع في الاسلام . وأما نسبة بناء الحصن الى سليمان ، فهي من الأمور المألوفة التي رواها أهل الأخبار عن أبنية سليمان في جزيرة العرب . وردت من أساطير روّجها اليهود بين العرب في الجاهلية وفي الاسلام عن عظمة سليمان وبنائه الأبنية العظيمة . وقد خصصوا سليمان دون سائر رجال اليهود بالبناء ، لبنائه الهيكل الذي أدهش العبرانيين ولا شك ، ولم يكن لهم عهد بمثل هذا العهد من قبل . ومن يدري ، فلعل هذه الأبيات المنسوبة الى الأعشى هي من عمل أناس في الاسلام كلفهم اليهود صنعها ، للتفاخر والتباهي بمآثرهم الماضية ، أو انها حقاً من قول الأعشى ، صنعها لليهود بعد ان فك شريح أسره وأعطاه شيئاً من المال ، والمال مالك لكل لسان .

وزعم أهل الأخبار ان الملكة (الزبّاء) قصدت هذا الحصن ، وحصن مارد ، فعجزت عنها ، فقالت : « تمرد مارد وعزّ الأبلق » ، فسيرته العرب مثلاً لكل عزيز ممتنع[1] . و (مارد) حصن بدومة الجندل[2] .

ونحن إذا تتبعنا الشعر المنسوب الى السموأل ، نجد معظمه كما قلت منتحلاً موضوعاً ، صنع فيما بعد . وإذا تتبعنا سيرة هذا الشخص وما قيل فيه ، نجد أكثره مما لا يستطيع الثبات للنقد . ولعل هذا هو الذي حمل بعض المستشرقين على الشك لا في شعر السموأل وحده ، بل في شخصية السموأل نفسها ، فذهبوا الى أنها من اختراع أهل الأخبار ، اخترعوها لما سمعوه من قصص مذكور في التوراة عن (صموئيل)[3] .

وقد نسب بعض المستشرقين بقاء شعر السموأل وعدم ذهابه في الاسلام الى أهله الذين دخلوا في الإسلام ، وبقوا في أماكنهم من تيماء ، فلم يكن من الهين عليهم نبذ شعره وتركه ، ولهذا حافظوا عليه ، فكانت محافظتهم هذه عليه سبب بقائه حتى اليوم[4] .

---

١ تاج العروس (٦/٢٩٨) ، (بلق) .

٢ تاج العروس (٢/٥٠٠) ، (مرد) .

٣ Margoliouth, p. 72, Winckler, in MVAG., Bd., VI, S. 262.

٤ Islamic Culture, III, 2, p. 190, (1939).

وقد ذكر الأخباريون أسماء ثلاثة أولاد للسموأل . أولهم شريح الذي مرّ ذكره. وثانيها حـوط ، وثالثها منذر . ولا نعرف من أمرهما غير الاسم . ويظن أن حوطاً هو الذي وقع في الأسر فذبح [1] .

أما (سعية بن غريض) (شعية بن غريض بن السموأل) (شعبة) ، فهو أخو السموأل على رواية لأبي الفرج الاصبهاني ، جعلت اسم والد السموأل : (غريض بن عادياء) [2]،وهو حفيده على رواية أخرى . وقد أورد له الاصبهاني جملة أبيات في أثناء كلامه على السموأل [3] . ويذكر أنه كان غنياً صاحب أملاك وأموال ، يعقد المجالس ، وينادمه قوم من الأوس والخزرج ، وأن بعض ملوك اليمن أغار عليه فانتسف من ماله حتّى افتقر ولم يبق له مال ، ثم عاد اليه حاله، وأنه عـاش طويلاً الى أيام معاوية ، وانه دخل في الاسلام ، وأن معاوية رآه يصلي في المسجد الحرام ، فطلب حضوره ، وسأله عن شعر أبيه الذي يرثي به نفسه ، فأنشده قصيدته :

يا ليت شعري حين أندب هالكاً ماذا تؤبنني به أنواحي

ويذكر رواة هذا الخبر ان (سعية) كان شيخاً طاعناً في السن يومئذ . وانه لم يكن يرى حقاً لمعاوية في الخلافة ، ولذلك لم يقبل ان يسلم عليه بالخلافة ، وانه أجاب أجوبة فيها خشونة وجفاء ، وان الخليفة كف أصحابه من الإساءة اليه قائلاً لهم : قد خرف الشيخ ، فأقيموه . فأخذ بيده فأقيم .

والقصيدة المذكورة ينسبها بعض الرواة الى السموأل،وهذه النسبة تجعل السموأل أبا لسعية لا أخاً له . أما اذا جعلناها من شعر غريض (عريض) ، والد سعية ، فلا يكون هناك إشكال ما من ناحية نسبة القصيدة ، غير ان علينا حينئذ جعل (سعية) (شعية) حفيداً للسموأل ، في رواية من جعله (شعية بن غريض بن السموأل) . باضافة ولد آخر على أولاد السموأل ، اسمه (غريض) (الغريض) .

---

1 المشرق ، السنة (١٩٠٩) ، (ص ١٦٣) .
2 الاغاني (١٩/١٠٠) ، طبقات الشعراء ، لابن سلام (١١١) ، اليهود (٣١) .
3 Nöldeke, Beitrage, S. 64.

وذكر البحتري في (حماسته) اسم شاعر يهودي آخر ، هو : عريض بن شعبة، ونسب اليه هذا الشعر :

ليس يعطى القوي فضلاً من الرز ق ولا يحرم الضعيف الخبيث
بل لكلٍ رزقه مـا قضى اللـ ـه ولو كدّ نفسه المستميت[1]

وهو من شعر السموأل نفسه على رواية بعض الأخباريين، يروونه له مع شيء من الاختلاف[2] .

أما (الربيع بن أبي الحقيق) ، فهو من بني قريظة عـلى رواية ، أو من بني النضير على رواية أخرى . وقد اشترك في يوم بعاث ، وعاصر النابغة الشاعر الشهير ، وخلف جملة أولاد ناصبوا الرسول العداء[3] .

ومن بقية شعراء يهود : (أوس بن دنى) من قريظة[4] ، و (كعب بن الأشرف)[5] ، و (سمّاك اليهودي) . وهـو شاعر قوي في رده على المسلمين عنيف[6] .

وكان (كعب بن الأشرف) رجلاً شاعراً يهجو النبي وأصحابـه ويحرض عليه ويؤذيهم . خرج الى مكة ونزل على (المطلب بن أبي وداعة السهمي) ، بعد معركة (بدر) وجعل يحرض على رسول الله وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القليب . فكان حاصل هجائه القتل[7] .

وكان (أبو عفك) اليهـودي ممن يحرض على رسول الله ويقول الشعر ، وكان شيخاً كبيراً . فقتل لتحريضه على رسول الله وقوله الشعر فيه[8] .

---

١ Nöldeke, Beitrage, S. 71.

٢ ليس يعطى القوي فضلا من الرز ق ولا يحـرم الضعيف الشخيت
بل لـكل من رزقه ما قضى اللـ ـه وان حـز أنفـه المستميت
شعر السموأل (٢٧ وما بعدها) .

٣ الاغاني (٢١/٦١) ، Nöldeke, Beiträge, S. 72.

٤ الاغاني (١٩/٩٤) .

٥ الاغاني (١٩/١٠٦) ، ابن هشام (٢/١٢٣) ، « حاشية على الروض » .

٦ ابن هشام (٢/١٧٩) ، « حاشية على الروض » .

٧ نهاية الارب (١٧/٧٢ وما بعده) .

٨ نهاية الارب (١٧/٦٦ وما بعدها) .

الفصل التاسع والسبعون

النصرانية بين الجاهليين

ولم تكن اليهودية ، الديانة السماوية الوحيدة التي وجدت لها سبيلاً الى جزيرة العرب ، بل وجدت ديانة سماوية أخرى طريقاً لها الى العرب ، هي الديانة النصرانية . وهي ديانة أحدث عهداً من الديانة الأولى ، لأنها قامت بعدها ، ونشأت على أسسها ومبادئها ، ولكنها كانت أوسع أفقاً وتفكيراً من الأولى . فبينما حبست اليهودية نفسها في بني اسرائيل ، وجعلت إلهها إلـه بني اسرائيل شعب الله المختار ، جعلت النصرانية ديانتها ديانة عالمية جاءت لجميع البشر . وبينما قيّدت اليهودية أبناءها بقيود تكاد تضبط حركاتهم وسكناتهم ، وفرضت عليهم فروضاً ثقيلة ، نجد النصرانية أكثر تساهلاً وتسامحاً ، فلم تقيد أبناءها بقيود شديدة ، ولم تفرض عليهم أحكاماً اشترطت عليهم وجوب تنفيذها . وقد قام رجال الدين النصارى منذ أول نشأتها بالتبشير بها ، وبنشرها بين الشعوب ، وبذلك تميزت عن اليهودية التي جمدت ، واقتصرت على بني اسرائيل .

ولفظة (النصرانية) و (نصارى) التي تطلق في العربية على أتباع المسيح ، من الألفاظ المعربة . يرى بعض المستشرقين أنها من أصل سرياني هو : (نصرويو) Nosroyo ، (نصرايا) Nasraya [1]،ويرى بعض آخر أنها من Nazerenes التسمية العبرانية التي أطلقها اليهود على من اتبع ديانة المسيح . وقد وردت في

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٠٧) ، Ency., III, p. 848.

العهد الجديد في (أعمال الرسل) حكاية على لسان يهود[1] . ويرى بعض المؤرخين أن لها صلة (بالناصرة) التي كان منها (يسوع) حيث يقال : (يسوع الناصري) أو أن لها صلة بـ (الناصريين) Nasarenes = Nazarenes احدى الفرق القديمة اليهودية المتنصرة . وقد بقي اليهود يطلقون على من اتبع ديانة المسيح (النصارى) ، وبهذا المعنى وردت الكلمة في القرآن الكريم ، ومن هنا صارت النصرانية علماً لديانة المسيح عند المسلمين .

ولعلماء اللغة الاسلاميين آراء في معنى هذه الكلمة وفي أصلها ، هي من قبيل التفسيرات المألوفة المعروفة عنهم في الكلمات الغريبة التي لا يعرفون لها أصلاً . وقد ذهب بعضهم إلى أنها نسبة الى الناصرة التي نسب اليها المسيح[2] . وزعم بعض منهم أنها نسبة الى قرية يقال لها (نصران) ، فقيل نصراني وجمعه نصارى[3] . وذكر أن (النصرانة) هي مؤنث النصراني[4] .

ولم أعثر حتى الآن على نص جاهلي منشور وردت فيه هذه التسمية . أما في الشعر الجاهلي ، وفي شعر المخضرمين، فقد ذُكر ان أمية بن أبي الصلت ذكرهم في هذا البيت :

أيام يلقى نصاراهم مسيحهم والكائنين له وداً وقربانا[5]

وذكر ان شاعراً جاهلياً ذكر النصارى في شعر له ، هو :

اليكَ تعدو قلقا وضينها معترضاً في بطنها جنينها
مخالفاً دين النصارى دينها

١ أعمال الرسل : الاصحاح ٢٤ ، الآية ٥ « فاننا اذ وجدنا هذا الرجل مفسدا ، ومهيج فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة ومقدام شيعة الناصريين » . Ency. Relig. Ethic., III, p. 574.

٢ اللسان (٦٨/٧) ، تاج العروس (٥٦٨/٣) ، (نصر) .

٣ المفردات ، للاصفهاني (ص ٥١٤) .

٤ فكلتاهما خرت وأسجد رأسها كما أسجدت نصرانة لم تحنف
اللسان (٦٨/٧) ، (نصر) ، « والنصرانية واحدة النصارى » ، تاج العروس (٣/ ٥٦٩) ، (نصر) .

٥ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٨٧) .

وذكر ان جابر بن حُنّي قال :

وقد زعمت بهراء ان رماحنا   رماح نصارى لا تخوض الى دم[1]

وان حاتماً الطائي قال في شعر له :

وما زلت أسعى بين نابٍ ودارة   بلحيانَ حتى خفت أن أتنصرا[2]

وان (طخيم بن أبي الطخماء) قال في شعر له في مدح بني تميم :

وإني وإن كانوا نصارى أحبّهم   ويرتاح قلبي نحوهم ويُتَوّق[3]

وان حسان بن ثابت قال :

فرحت نصارى يثرب ويهودها   لما توارى في الضريح الملحد[4]

غير ان هذه الأبيات وأمثالها إن صح انها لشعراء جاهليين حقاً، هي من الشعر المتأخر الذي قيل قبيل الاسلام . أما قبل ذلك ، فليس لنا علم بما كان العرب يسمّون به النصارى من تسميات .

والذي نعرفه أن قدماء النصارى حينما كانوا يتحدثون عن أنفسهم كانوا يقولون: (تلاميذ) Disciples ، و (تلاميذ المسيح) ، ذلك أنهم كانوا ينظرون الى المسيح نظرتهم الى معلم يعلمهم[5] وكذلك نظروا الى حوارييه ، فورد (تلاميذ يوحنا) وقصدوا بذلك النصارى[6] . وهذه التعابير من أقدم التعابير التي استعملها النصارى للتعبير عن أنفسهم .

كذلك دعا قدماء النصارى جماعتهم بـ (الاخوة) وبـ (الاخوة في الله) Brethren in Lord للدلالة على الجماعة ، وبـ (الأخ) للتعبير عن المفرد ،

---

١ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٧١ ، ٢٢٥) ، شعراء النصرانية (١٩٠) ، المشرق ، السنة السابعة ١٩٠٤ ، (٦٢٠ وما بعدها) .

٢ الاغاني (١٦/١٠٤) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٧١،٢٢٥) .

٣ المشرق ، السنة السابعه ١٩٠٤ (٦٢٠ وما بعدها) .

٤ ديوان حسان (٢٤) .

٥ Hastings, p. 192.

٦ انجيل مرقس : الاصحاح الثانى ، الآية ١٨ .

ذلك لأن العقيدة قد آخت بينهم ، فصار النصارى كلهم اخوة في الله وفي الدين[1]. ثم تخصصت كلمة (الأخ) برجل الدين[2] . ودعوا أنفسهم (القديسين) Saints[3] والمؤمنين[4] والمختارين الأصفياء والمدعوّين ، ويظهر أنها لم تكن علمية ، وإنما وردت للإشارة الى التسمية التي تليها .

وقد كنى عن مجتمع النصارى بـ (الكنيسة) Ecclesia ، وتعني (المجمع) في الاغريقية ، بمعنى المحل الذي يجتمع فيه المواطنون . فكنى بها عن المؤمنين وعن الجماعة التابعة للمسيح . كما عبر عن النصارى بـ (الفقراء) وبـ (الأصدقاء)[5].

وقد عرف النصارى بـ Christians نسبة الى Christos اليونانية التي تعني (المسيح) Messiah ، أي المنتظر المخلص الذي على يديه يتم خلاص الشعب المختار . ويسوع هو المسيح ، أي المنتظر المخلص الذي جاء للخلاص كما جاء في عقيدة أتباعه ، ولذلك قيل لهم أتباع المسيح . فأطلقت عليهم اللفظة اليونانية، وعرفوا بها ، تمييزاً لهم عن اليهود . وقد وردت الكلمة في أعمال الرسل وفي رسالة بولس الأولى الى أهل كورنتوس[6] .

أما في القرآن الكريم وفي الأخبار ، فلم ترد هذه اللفظة اليونانية الأصل. ولهذا نجد ان العربية اقتصرت على إطلاق (نصارى) و (نصراني) و (نصرانية) على النصارى تمييزاً لهم عن أهل الأديان الأخرى . أما مصطلح (عيسوي) و (مسيحي) ، فلم يعرفا في المؤلفات العربية القديمة وفي الشعر الجاهلي ، فهما

---

١ Hastings, p. 104.

٢ أعمال الرسل ، الاصحاح الاول ، الآية ١٥ وما بعدها ،
Ency. Reli. Ethic., 3, p. 573.

٣ رسالة بولس الرسول ، الرسالة الاولى الى أهل كورنتوس ، الاصحاح الاول ، الآية الاولى وما بعدها .

٤ أعمال الرسل : الاصحاح الخامس ، الآية ١٤ ، رسالة بولس الرسول الى أهل أفسس ، الاصحاح الاول : الآية الاولى وما بعدها .

٥ Ency. Reli. Ethic., 3, p. 574.

٦ أعمال الرسل : الاصحاح الحادي عشر : الآية ٢٦ ، الاصحاح ٢٦ ، الآية ٢٨ ، رسالة بولس الاولى الى أهل كورنثوس : الاصحاح الرابع ، الآية ١٦ ،
Hastings, p. 127.

من المصطلحات المتأخرة التي أطلقت على النصارى[1] . وقد قصد في القرآن الكريم بـ (أهل الانجيل)[2] النصارى ، إذ لا يعترف اليهود بالانجيل . وقد أدخل علماء اللغة اللفظة في المعربات[3] .

وأهم علامة فارقة ميزت نصارى عرب الجاهلية عن العرب الوثنيين ، هي أكل النصارى للخنازير ، وحملهم للصليب وتقديسه . ورد ان الرسول قال لراهبين أتياه من نجران ليبحثا فيما عنده : « يمنعكما عن الاسلام ثلاث : أكلكما الخنزير ، وعبادتكما الصليب ، وقولكما لله ولد »[4] . وورد انه رأى (عدي بن حاتم الطائي) وفي عنقه صليب من ذهب ، لأنه كان على النصرانية[5] .

وورد في شعر ذي الرمة :

ولكنّ أصل امرىء القيس معشرٌ يحل لهم أكل الخنازير والخمر[6]

يريد انهم نصارى في الأصل،فهم يختلفون عن المسلمين في أكلهم لحم الخنزير وفي شربهم للخمر .

وقد أقسم النصارى بالصليب . هذا (عدي بن زيد) يحلف به في شعر ينسب اليه ، فيقول :

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب[7]

ليس في استطاعتنا تعيين الزمن الذي دخلت فيه النصرانية الى جزيرة العرب . وتحاول مؤلفات رجال الكنائس رد ذلك التاريخ الى الأيام الأولى من التاريخ النصراني[8] ، غير اننا لا نستطيع اقرارهم على ذلك ، لأن حججهم في ذلك غير

---

١ Hughes, Dictionary of Islam, p. 431.
٢ المائدة ، الآية ٤٧ .
٣ النهاية في غريب الحديث (٤/١٣٦) ، المعرب ، للجوالقي (٢٣) .
٤ البلاذري (٧١) .
٥ اللسان (١٣/٤٤٣) ، (وثن) ، السيوطي ، الدر المنثور (١٠/٧٥) .
٦ النصرانية (٧٥) .
٧ شيخو ، شعراء النصرانية (٤٥١) .
٨ النصرانية وآدابها ، القسم الاول ، تاليف لويس شيخو ، بيروت ١٩١٢ م .

كافية للاقناع . ولذلك ، فليس من الممكن تثبيت تأريخ لانتشارها في هذه الأماكن في الزمن الحاضر ، وليس لنا إلا التفتيش عن أقدم الوثائق المكتوبة للوقوف عليها بوجه لا يقبل الشك ولا التأويل . ونحن أمام بحث علمي، يجب ان تكون العاطفة بعيدة عنه كل البعد .

واذا كانت اليهودية قد دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتجارة ، فإن دخول النصرانية اليها كان بالتبشير وبدخول بعض النساك والرهبان اليها للعيش فيها بعيدين عن ملذات الدنيا ، وبالتجارة،وبالرقيق ولا سيما الرقيق الأبيض المستورد من أقطار كانت ذات ثقافة وحضارة . أما هجرة نصرانية كهجرة يهود الى الحجاز أو اليمن أو البحرين ، فلم تحدث ، ذلك لأن النصرانية انتشرت في انبراطورية الروم والساسانيين بالتدريج، ثم صارت ديانة رسمية للقياصرة والروم وللشعوب التي خضعت لهم . فلم تظل النصرانية أقلية هناك ، لتضطر الى الهجرة جماعة وكتلة الى بلد غريب . لذلك كان حديثنا عن نصارى العرب من حيث الأصل والأرومة، يختلف عن حديثنا عن أصل يهود اليمن أو الحجاز .

وبفضل ما كان لكثير من المبشرين من علم ومن وقوف على الطب والمنطق ووسائل الإقناع وكيفية التأثير في النفوس ، تمكنوا من اكتساب بعض سادات القبائل فأدخلوهم في دينهم ، أو حصلوا منهم على مساعدتهم وحمايتهم . فنسب دخول بعض سادات القبائل ممن تنصر الى مداواة الرهبان لهم ومعالجتهم حتى تمكنوا من شفائهم مما كانوا يشكون منه من أمراض . وقد نسبوا ذلك الى فعل المعجزات والبركات الإلهية ، وذكر بعض مؤرخي الكنيسة أن بعض أولئك الرهبان القديسين شفوا بدعواتهم وببركات الرب النساء العقيمات من مرض العقم فأولدن أولاداً . ومنهم من توسل الى الله أن يهب لهن ولداً ذكراً ، فاستجاب دعوتهم، فوهب لهم ولداً ذكراً ، كما حدث ذلك لضجعم سيد الضجاعمة ، اذ توسل أحد الرهبان الى الله أن يهب له ولداً ذكراً ، فاستجاب له . فلما رأى ضجعم ذلك ، دخل في دينه وتعمد هو وأفراد قبيلته[1] . ومنهم من شفى بعض الملوك العرب من أمراض كانت به مثل (ماريشو عزخا) الراهب . ذكروا أنه شفى النعمان ملك الحيرة من مرض عصبي ألم به ، وذلك بإخراجه الشيطان

---

١ النصرانية وآدابها (١/٣٥) ، Sozomene, Hist. Eccl., VI, 38.

من جسده[1] .

وفي تواريخ الكنيسة قصص عن أمثال هذه المعجزات المنسوبة الى القديسين ، كالتي نسبوها الى القديس (سمعان العمودي) (المولود نحو سنة ٣٦٠ م) يذكرونها على انها كانت سبباً في هداية عدد من الأمراء وسادات القبائل الى النصرانية،وبفضل تنصرهم دخل كثير من أتباعهم في هذا الدين[2] . وكالتي نسبوها الى القديس (أفتميوس) الذي نصر بفضل هذه المعجزات جمعاً من الأعراب وأسكنهم في أماكن خاصة أنشأ فيها كنائس أطلق عليها في اليونانية ما معناه(المحلة) أو (المعسكر)[3] .

ولم يعبأ المبشرون بالمصاعب والمشقات التي كانوا يتعرضون لها ، فدخلوا مواضع نائية في جزيرة العرب ، ومنهم من رافقوا الأعراب ، وعاشوا عيشتهم ،وجاروهم في طراز حياتهم ، فسكنوا معهم الخيام ، حتى عرفوا بـ (أساقفة الخيام) وبـ (أساقفة أهل الوبر) ، وبأساقفة القبائل الشرقية المتحالفة وبأساقفة العرب البادية . وقد ذكر ان مطران (بصرى) كان يشرف على نحو عشرين أسقفاً انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان وقد نعتوا بالنعوت المذكورة ، لأنهم كانوا يعيشون في البادية مع القبائل عيشة أهل الوبر[4] .

وقد دخل أناس من العرب بالنصرانية باتصالهم بالتجار النصارى وبمجالستهم لهم . روي ان رجلاً من الأنصار ، يقال له (أبو الحصين) ، كان له ابنان، فقدم تجار من الشأم الى المدينة يحملون الزيت ، فلما باعوا وأرادوا ان يرجعوا ، أتاهم ابنا أبي الحصين ، فدعوهما الى النصرانية،فتنصرا فرجعا الى الشأم معهم[5] .

ودخلت النصرانية جزيرة العرب مع بضاعة مستوردة من الخارج ، هي تجارة الرقيق من الجنسين ، فقد كان تجار هذه المادة المهمة الرائجة يستوردون بضاعتهم من أسواق عالمية مختلفة ، ولكن أثمن هذه البضاعة وأغلاها هي البضاعة المستوردة من انبراطوريتي الروم والفرس ، لمميزات كثيرة امتازت بها عن الأنواع المستوردة

---

١ الديورة في مملكتي الفرس والعرب ، للقس بولس شيخو (ص ٣٢ ، ٤٧) .
٢ النصرانية وآدابها (١/ ٨١ وما بعدها) .
٣ المشرق : السنة الثانية عسرة ، الجزء ٥ ، آذار (١٩٠٩ م) ، (ص ٣٤٤ وما بعدها) .
٤ النصرانية (١/ ٣٧) .
٥ تفسير الطبري (٣/ ١٠) ، تفسير القرطبي (٣/ ٢٨٠ وما بعدها) .

من إفريقية مثلاً . فقد كان صنفها من النوع الغالي الممتاز بالجمال والحسن والاتقان ثم بالابتكار وبالقيام بأعمال لا يعرفها من هم من أهل إفريقية . ومن الروميات والصقلبيات والجرمانيات من صرن أمهات لأولاد عدوا من صميم العرب . وقد كان أكثرهن ، ولا سيما قبيل ظهور الاسلام ، على النصرانية . ومن بينهن من خلدت أسماؤهن لتتحدث للقادمين من بعدهم من الأجيال عن أصولهن في العجم وعن الدين الذي كن عليه .

وقد كان في مكة وفي الطائف وفي يثرب وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب رقيق نصراني كان يقرأ ويكتب ويفسر للناس ما جاء في التوراة والأناجيل، ويقص عليهم قصصاً نصرانياً ويتحدث اليهم عن النصرانية ، ومنهم من تمكن من اقناع بعض العرب في الدخول في النصرانية ، ومنهم من أثر على بعضهم ، فأبعده عن الوثنية ، وسفه رأيها عندهم ، لكنهم لم يفلحوا في ادخالهم في دينهم ، فبقوا في شك من أمر الديانتين ، يرون أن الحق في توحيد الله وفي اجتناب الأوثان ، لكنهم لم يدخلوا في نصرانية ، لأنها لم تكن على نحو ما كانوا يريدون من التوحيد وتحريم الخمر وغير ذلك مما كانوا يبتغون ويشترطون .

وقد أثرت الأديرة تأثيراً مهماً في تعريف التجار العرب والأعراب بالنصرانية . فقد وجد التجار في أكثر هذه الأديرة ملاجىء يرتاحون فيها ومحلات يتجهزون منها بالماء ، كما وجدوا فيها أماكن للهو والشرب : يأنسون بأزهارها وبخضرة مزارعها التي أنشأها الرهبان ، ويطربون بشرب ما فيها من خمور ونبيذ معتق امتاز بصنعه الرهبان . وقد بقيت شهرة تلك الأديرة بالخمور والنبيذ قائمة حتى في ايام الاسلام . ومن هؤلاء الرهبان ومن قيامهم بشعائرهم الدينية، عرف هؤلاء الضيوف شيئاً عن ديانتهم وعما كانوا يؤدونه من شعائر . وقد أشير الى هؤلاء الرهبان الناسكين في الشعر الجاهلي ، وذكر عنهم انهم كانوا يأخذون المصابيح بأيديهم لهداية القوافل في ظلمات الليل[1] .

وقد كانت هذه الأديرة ، وهي بيوت خلوة وعبادة وانقطاع الى عبادة الله والتفكير فيه ، مواطن تبشير ونشر دعوة . وقد انتشرت حتى في المواضع القصية من البوادي. واذا طالعنا ما كتب فيها وما سجله أهل الأخبار أو مؤرخو الكنائس

[1] Wellhausen, Reste, S. 232.

عن أسمائها ، نعجب من هذا النشاط الذي عرف به الرهبان في نشر الدعوة وفي اقامة الأديرة للاقامة فيها في مواضع لا تستهوي أحداً . وهي متقاربة عديدة في بلاد العراق وفي بلاد الشأم . بل نجد لها ذكراً حتى في الحجاز ونجد وفي جنوبي جزيرة العرب وشرقيها : تتلقى الاعانات من كنائس العراق والشأم ومن الروم ، حتى تمكنت من التبشير بين أكثر القبائل . ولولا ظهور الاسلام ونزول الوحي على الرسول في الحرمين ، لكان وجه العالم العربي ولا شك غير ما نراه الآن . كان العرب على دين النصرانية وتحت مؤثرات ثقافية أجنبية ، هي الثقافة التي اتسمت بها هذه الشيع النصرانية المعروفة حتى اليوم .

وقد ذكر (ابن قتيبة الدينوري) : ان النصرانية كانت في ربيعة ، وغسان ، وبعض قضاعة [1] . وقال (اليعقوبي) : « وأما من تنصر من أحياء العرب ، فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى ، منهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وورقة بن نوفل بن أسد . ومن بني تميم : بنو امرىء القيس بن زيد مناة ، ومن ربيعة : بنو تغلب ، ومن اليمن : طيء ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم »[2] .

وطبيعي أن يكون انتشار النصرانية في العرب ببلاد الشأم واضحاً ظاهراً أكثر منه في أي مكان آخر . وأقصد ببلاد الشأم ما يقصده علماء الجغرافيا العرب من هذا المصطلح . فقد كان لعرب هذه الديار علاقة مباشرة واتصال ثقافي بغيرهم من سكان هذه الأرضين الذين دخل أكثرهم في الديانة النصرانية ، والذين صارت هذه الديانة ديانة بلادهم الرسمية بعد دخول الروم فيها واتخاذهم النصرانية ديناً رسمياً للدولة منذ تنصر أول قيصر من القياصرة . فكان من أول واجبات الروم السعي في تنصير الشعوب الخاضعة لهم ، لا تقرباً الى الله وحده ، بل لتمكين سلطانهم عليهم . واخضاعهم روحياً لهم . ولهذا كان من سياسة البيزنطيين نشر النصرانية بين أتباعها وفي الخارج وارسال المبشرين والاغداق عليهم ومدهم بالأموال لنشر الدعوة وتأسيس مكاتب للتبشير ، وبالفعلة لبناء الكنائس الفخمة الجميلة على طراز فني أنيق جميل غير معروف بين من سيبشر بهذا الدين بينهم . وبذلك تبهر عقولهم ، فتشعر أن للدين الجديد مزايا ليست في دينهم ، وأن معابده أفخم من

---

١ المعارف (٦٢١) ، البدء والتاريخ (٤/٣١) ، الاعلاق النفيسة (٢١٧) .
٢ اليعقوبي (١/٢٢٧) .

معابدهم ، ورجال دينه أرقى من رجال دينهم . وبذلك يأتون اليها . وللبهرجة والفخفخة أثر عظيم في كثير من الناس ، فالعين عند أكثر البشر ، تقوم مقام العقل . وقد يكون ما قام به الأحباش في اليمن من انشاء الكنائس العظيمة فيها وتفننهم في تزويقها وتجميلها وفي فرشها بأفخر الرياش والفراش لصرف الناس عن الكعبة كما يزعم أهل الأخبار دليلاً على ما أقول .

وقد وجدت النصرانية لها سبيلاً بين عرب بلاد الشأم وعرب بادية الشأم والعراق . فدخلت بين (سليح) ، و (الغساسنة) ، و (تغلب) ، و (تنوخ) ، و (لخم) ، و (إياد)[1] . وقد انتشرت بين عرب بلاد الشأم بنسبة تزيد على نسبة انتشارها بين عرب بلاد العراق ، وهو شيء طبيعي ، فقد كانت بلاد الشأم تحت حكم البيزنطيين ، وديانتهم الرسمية ، هي الديانة النصرانية ، وكانوا يعملون على نشرها وترويجها بين شعوب (انبراطوريتهم) ، وبين الشعوب الأخرى ، لا سيما الشعوب التي لهم مصالح اقتصادية معها . ففي نشر النصرانية بينهم وادخالهم فيها ، تقريب لتلك الشعوب منهم ، وتوسيع لنفوذهم السياسي بينهم ، وتقوية لمعسكرهم المناهض لخصومهم الفرس ، أقوى دولة معادية لهم في ذلك الوقت . ولهذا سعت القسطنطينية لادخال عربهم في النصرانية ، وعملت كل ما أمكنها عمله للتأثير على سادات القبائل لادخالهم في دينهم ، بدعوتهم لزيارة كنائسهم وبارسال المبشرين اللبقين اليهم ، لاقناعهم بالدخول فيها ، وبارسال الأطباء الحاذقين اليهم لمعالجتهم ، وللتأثير عليهم بذلك في اعتناق النصرانية . كما دعوهم لزيارة العاصمة ، لمشاهدة معالمها ولابهار عقولهم بمشاهدة كنائسها ، والاتصال بكبار رجال الدين فيها ، لتعليمهم أصول النصرانية . وأظهروا لهم مختلف وسائل المعونة والمساعدة إن دخلوا في ديانتهم ، وبذلك أدخلوهم في النصرانية فصاروا اخواناً للروم في الدين .

نعم ، دخل سادات القبائل والحكام العرب التابعون لهم في هذه الديانة ، فصاروا نصارى ، ولكنهم لم يأخذوا نصرانية الروم ، بل أخذوا نصرانية شرقية مخالفة لكنيسة (القسطنطنية) . فاعتنقوها مذهباً لهم . وهي نصرانية عدت (هرطقة) وخروجاً على النصرانية الصحيحة (الأرثوذكسية) في نظر الروم . نصرانية متأثرة

---

[1] اليعقوبي (١/٢٢٧) ، (أديان العرب) .

بالتربة الشرقية ، وبعقليــة شعوب الشرق الأدنى ، نبتت من التفكير الشرقي في الدين ، ولهذا تأثرت بها عقلية هذه الشعوب فانتشرت بينها ، ولم تجد لها اقبالاً عند الروم وعنــد شعوب أوروبة . وكان من جملة مميزاتها عكوفها على دراسة العهد القديم ، أي التوراة ، أكثر من عكوفها على دراسة الأناجيل [١] .

والنصرانية التي شاعت بين عرب بلاد الشأم ، هي النصرانيــة اليعقوبية ، أو المذهب اليعقوبي بتعبير أصح . وهو مذهب اعتنقه أمراء الغساسنة وتعصبوا له ، ودافعوا عنه ، وجادوا رجال الدين في القسطنطنية وفي بلاد الشأم في الذب عنه . فزعم مثلاً أن (الحارث بن جبلة) (ملك العرب النصارى) تغلب في مناظرة جرت له مع (البطريرك افرام) (٥٢٦ — ٥٤٥ م) على (البطريرك) وأفحمه في جوابه . وكان افرام ، وهو على مذهب (الملكيــين) ، قد قصده لاقناعه بترك المذهب (المنوفيزيتي) والدخول في مذهبه [٢] . ونسبوا الى (المنذر بن الحارث) دفاعاً شديداً عن (المنوفيزيتية)،أي المذهب الذي كان عليه الغساسنة من مذاهب النصرانية ، وذكروا أنه أنب (البطريرك دوميان) وهو في القسطنطنية على تهجمه على (المنوفيزيتين) ، وعمل جهده في التقريب بـين مذهبه ومذهب القيصر ، واتصل بالقيصر (طيباريوس) (٥٧٨ — ٥٨٢ م) ليعمل على بث روح التسامح بين المذاهب النصرانية وترك الحرية للأفراد في دخول المذهب الذي يريدونه والصلاة في أية كنيسة يريدها النصراني [٢] .

ويظهر ان بعض الضجاعمة الذين كانوا يتولون حكم عرب الشأم قبل الغساسنة كانوا على دين النصرانية . غير انا لا نستطيع ان نحكم على أي مذهب من مذاهب النصرانية كانوا . فذكروا ان (زوكوموس) ، وهو (ضجعم) جد الضجاعمة تنصر على يد أحد الرهبان ، وذلك ان هذا الرئيس كان متلهفاً الى مولود ذكر ، فجاءه هذا الراهب ، وتضرع الى الله ان يهبه ولداً ذكراً ، فلما استجاب الله له تعمّد وتبعته قبيلته [٣] .

---

١ Nöldeke, Geschichte des goraus, I, S. 7.

٢ المشرق ، السنة الرابعة والثلاثون ، كانون الثاني — آذار ، ١٩٣٦ (ص ٦١ وما بعدها) .

٣ النصرانية (١/٣٥) .

وقد كان مشهد القديس (سرجيوس) في (الرصافة) ، من أهم المزارات التي تقصدها المتنصرة من عرب الشأم ، مثل الغساسنة وتغلب . وقد تقرب اليه بعض ملوك الغساسنة بتقديم الهدايا والنذور اليه وبتزيينه وبزيارته، وبالاعتناء بالمدينة وبصهاريجها تكريماً له ، وتقرباً اليه ، وظل هذا المزار مقصوداً مدة في الاسلام. وقد عدّ التغلبيون هذا القديس شفيعهم،جعلوا له راية حملوها معهم في الحروب ، وكانوا يحملونها مع الصليب تبركاً وتيمناً بالنصر[1] .

وكان حاضر (قنّسرين) لتنوخ . أقاموا في طرفها هذا منذ زمن قديم ، مذ أول نزولهم بالشأم . نزلوا في طرفها وتنصروا . فلما حاصر (أبو عبيدة) المدينة ، دعاهم الى الاسلام ، فأسلم بعضهم ، وأقام على النصرانية بنو سليح . كذلك كان في طرف قنسرين عشائر من طيء ، نزلوا بها في الجاهلية على أثر الحروب التي وقعت فيما بينهم ، واستدعت تفرقهم ، فأقاموا عند قنسرين مع القبائل العربية الأخرى التي جاءت الى هذا المكان[2] .

وكان بقرب مدينة (حلب) حاضر يدعى (حاضر حلب) يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم . فلما جاء (أبو عبيدة) الى المدينة ، صالح من فضّل البقاء منهم على دينه على الجزية ، ثم أسلم الكثير منهم فيما بعد[3] .

وتعد بهراء في جملة القبائل العربية المتنصرة عند ظهور الاسلام . تنصرت كما تنصرت غسان وسليح وتنوخ وقوم من كندة ، وذلك لنزولها في بلاد الشأم ولاتصالها بالروم[4] .

---

١ قال الاخطل :

لما رأونا ، والصليب طالعا ، ومار سرجيس ، وسما ناقعا
وأبصروا راياتنا لوامعا خلوا لنا راذان والمزارعا

فأجابه جرير :

أفبالصليب ومار سرجيس تتقي شهباء ذات مناكب جمهورا

وقال :

يستنصرون بمار سرجيس وابنه بعد الصليب ومالهم من ناصر

المشرق ، السنة الرابعة والثلاثون ، نيسان ــ حزيران ، ١٩٣٦ ، (ص ٢٤٦ وما بعدها) .

٢ البلاذري، فتوح (١٥٠ وما بعدها)، (أمر جند قنسرين والمدن التي تدعى العواصم).

٣ البلاذري ، فتوح (١٥١) .

٤ اليعقوبي (٢٩٨/١) ، الخراج (١٤٦) ، النصرانية (١٢٥) .

وقد سكن قوم من (إياد) السواد والجزيرة ، وسكن قوم منهم بلاد الشأم، فخضعوا للغساسنة وللروم وتنصروا . وهم في جملة القبائل التي لم يأخذ علماء العربية اللسان عنها لمجاورتها أهل الشأم ، ولتأثرها بهم.وهم قوم يقرؤون ويكتبون بالسريانية ، فتأثروا بهم ، لروابط الاحتكاك والثقافة والدين[1] .

وقد ترك لنا رجل من نصارى الشأم نصاً قصيراً مؤرخاً بسنة (٤٦٣) المقابلة لسنة (٥٦٨) للميلاد ، وهي غير بعيدة عن ميلاد الرسول جاء فيها : « نا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم) ، أي (أنا شراحيل بن ظالم بنت ذا المرطول بعد مفسد (خيبر) بعام) . هو على قصره ذو أهمية عظيمة من الناحية اللغوية ، إذ هو النص الجاهلي الوحيد الذي وصل الينا مكتوباً باللهجة التي نزل بها القرآن الكريم . وهو على ما أعلم النص الجاهلي الوحيد أيضاً الذي وصل الينا مكتوباً بصيغة المتكلم،فالنصوص الأخرى التي وصلت الينا والمكتوبة بمختلف اللهجات العربية مدوّنة كلها بضمير الغائب . وهو أيضاً من النصوص العربية القليلة التي تركها النصارى العرب لمن بعدهم في بلاد الشأم.

وقد استغل الروم العربَ المتنصرة بأن أثاروا في نفوسهم العواطف الدينية على المسلمين ، حينما عزم المسلمون على فتح بلاد الشأم وطرد البيزنطيين منها، وأغروا سادات القبائل بالمال وبالهدايا وبالوعود حتى اشتروهم فصاروا الى جانبهم . والمصالح الشخصية هي فوق كل مصلحة عند سادات القبائل ، لا تعلوها عندهم مصلحة ، فانضموا اليهم ، وجاءوا بقبائلهم لتحارب معهم . ومن هذه القبائل العربية التي حاربت مع الروم ، غسان . حاربوا معهم في معارك عديدة . ففي يوم اليرموك كانوا في صفوف الروم ، وكان رئيسهم (جبلة بن الأيهم الغساني) في مقدمة الجيش الذي أرسله هرقل لمحاربة المسلمين . كان على رأس مستعربة الشأم من غسان ولخم وجذام[2] . وقد اشترك مع الروم في حروب أخرى ضد المسلمين.

وكانت (سليح) في جملة القبائل العربية المتنصرة التي حاربت المسلمين . ولما تقهقر الروم وانهزموا ، دفعوا الجزية لاحتفاظهم بدينهم . وكذلك كانت عاملة ولخم وجذام في جملة القبائل المتنصرة التي ساعدت الروم ، وآزرتهم . كانوا مع

---

١ المزهر (١/١٠٥) ، النصرانية (١٢٤) .
٢ البلاذري ، فتوح (١٤٠) ، (يوم اليرموك) .

الروم مثلاً حين مجيء الرسول الى (تبــوك)[1] . وظلوا الى جانبهم يؤيدونهم ، حتى تبين لهم أن النصر قد تحول للمسلمين ، وأن الهزائم قــد حالفت الروم ، عندئذ انضمت في جملة من انضم من متنصرة العرب الى المسلمين لمحاربة الروم[2].

وكادت قبيلة (تغلب) الساكنة غرب الفرات ، أن تفر الى بلاد الروم وتلحق بأرض الروم ، لما غلب البيزنطيون على أمرهم وفتحت بــلاد الشأم والعراق أمام المسلمين . ولما خيرت بين البقاء على دينها ودفع الجزية وبين الدخول في الاسلام، أنفت من دفع الجزية ، ورضيت بدفع ضعف الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وأرض[3] .

وقد نزحت (إياد) الى بلاد الروم وبقيت بها ، ثم عاد جمع منها لاخراج القيصر إياهم ، فنزلوا بلاد الشأم والجزيرة وانضموا الى اخوانهم في الجنس[4] .

ويلي هؤلاء عربُ العراق ، لاحتكاكهم بالنصارى ولانتشار النصرانية في العراق بالرغم من ان ديانة الحاكمين لهذا القطر كانت ديانة أخرى ، وان النصرانية لم تكن في مصلحة الفرس . غير ان الفرس لم يكونوا يبشرون بدينهم ، ولم يكن يهمهم دخول الناس فيه ، إذ عدت المجوسية ديانة خاصة بهم ، وهذا مما صرف الحكومة عن الاهتمام بأمر أديان الخاضعين لها من غير أبناء جنسها، إلا اذا وجدتها تتعارض مع سياستها ، وتدعو الى الابتعاد عنها . ثم إن النصرانيــة التي انتشرت فيها لم تكن من النصرانية المتشيعة للروم ، ولهذا لم تجد الدولة الساسانية من هذه الناحية ما يهدد سياستها بالأخطار ، فغضت النظـر عنها ، وان قاومتهــا مراراً واضطهدتها ، وفتك ملوكها بعدد من الداخلين فيها ، أشارت اليهم كتب مؤرخو الكنيسة في تواريخهم عن الشهداء القديسين[5] .

وقد أشار أهل الأخبار الى تنصر بعض ملوك الحيرة،ونسبوا اليهم بناء الأديرة

---

١ البلاذري (٧١) ، (تبوك وايلة وأذرح ومقنا والجرباء) .
٢ الخراج (١٣٨) ، (فصل في الكنائس والبيع والصلبان) .
٣ البلاذري (١٨٥) ، (أمر نصارى بني تغلب بن وائل) ، السنن الكبرى (٩/٢١٦) ، الخراج (١٢٠ وما بعدها) .
٤ الطبري (٤/١٩٧ وما بعدها) ، «الجزيرة» .
٥ هنالك عدة مؤلفات في هذا الموضوع ، راجع منها .
Georg Hoffmann, Auszüge aus Syrischen akten Persicher Märtyrer, Leipzig, 1880.

والكنائس ، كما أشار إلى ذلك بعض مؤرخي الكنيسة . كالذي ذكروه عن (المنذر) وعن (النعمان بن المنذر) . غير اننا لا نستطيع اقرار ذلك بوجه عام ، ولا بد من التريث ، إذ يظهر ان أكثر ملوك الحيرة كانوا على الوثنية . وإذا كان كثير من ملوك الغساسنة قد دخلوا في النصرانية فان ظروفهم تختلف عن ظروف ملوك الحيرة . فقد كان الروم ، وهم سادة بلاد الشأم ، على هذه الديانة ، وكانوا يشجعون انتشار النصرانية ويسعون لها ، ولهذا كان لهذه السياسة أثر في الغساسنة أصحاب الروم ، وهم على اتصال دائم بهم بطبيعة حكمهم لبلاد الشأم . أما في العراق ، فلم تكن هذه الديانة ديانة رسمية للحكومة ، انما انتشرت بفضل المبشرين، ولهذا انتشرت بين سواد الشعب،ولم تنتشر بين الملوك. ولم تضغط الحكومة الساسانية على ملوك الحيرة للدخول في هذه الديانة التي لم يكونوا أنفسهم داخلين فيها ، فهي بالاضافة اليهم ديانة غريبة ، لا يعنيهم موضوع انتشارها،ولا يهمهم موضوع انتشارها ، ولا يهمهم شأنها ما دامت لا تتعارض وحكمهم في العراق .

وقد كان (هانىء بن قبيصة الشيباني) ممن كان على النصرانية ، وهو من سادات (بني شيبان) ، ومات وهو على هذا الدين . وكان في جملة من فاوض (خالد بن الوليد) باسم قومه على دفع الجزية للمسلمين .

ومن متنصرة العراق بنو عجل بن لُجيم من قبائل بكر بن وائل . وقد عرف منهم (حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العجلي) الذي سادهم في معركة ذي قار . وقد حاربت (خالد بن الوليد) ، وكان قائدها جابر بن بجير وعبد الأسود . وكان منها في أيام بني أمية أبجر بن جابر . وهو والد حجّار . وقد بقي على نصرانيته في الاسلام[1] .

وكان في الحيرة سراة نصارى اشتركوا مع سراة قريش في الأعمال التجارية مثل (كعب بن عدي التنوخي) ، وهو من سراة نصارى الحيرة ، وكان أبوه اسقفاً على المدينة ، وكان هو يتعاطى التجارة ، وله شركة في التجارة في الجاهلية مع (عمر بن الخطّاب) في تجارة البز ، وكان (عقيداً) له . قدم المدينة في وفد من أهل الحيرة إلى النبي ورأى الرسول ، فأسلم في رواية، ولم يسلم في رواية أخرى . ولما توفي الرسول ، ثبت على الإسلام على رواية من صيّره مسلماً في

---

[1] الاغاني (٤٦/١٣ وما بعدها) ، النصرانية (١٣٦) .

أيام الرسول . واشترك في جيش اليمامة الذي أرسله (أبو بكر)،ووجهه (أبو بكر) في رسالة الى (المقوقس) ، ثم وجهه (عمر) برسالة اليه في أيامه . وشهد فتح مصر [1] .

وقد أخرجت مدينة الحيرة عدداً من رجال الدين ، مثل مار إيليا وأصله من الحيرة ، والقديس حنانيشوع ، وهو من عرب الحيرة ومن عشيرة الملك النعمان[2] ، والقديس مار يوحنا [3] ، و (هوشاع) الذي حضر مجمع اسحاق الجاثليق عام ٤١٠ م ، وشمعون الذي أمضى أعمال مجمع (يهبالا) الذي انعقد سنة ٤٨٦ م، وشمعون الذي حضر مجمع (أقاق) ، و (ايليا) المنعقد سنة ٤٨٦ م وأمضى في سنة ٤٩٧ م مجمع (اباي) ، و (ترساي) الذي تحزب سنة ٥٢٤ م لترساي الجاثليق ضد (اليشاع) و (افرام) و (يوسف) ، وقد حضر مجمع (أيشوعياب الأرزني) الذي انعقد سنة ٥٨٥ م ، وشمعون بن جابر الذي نصّر الملك النعمان الرابع في سنة ٥٩٤ على ما يذكره مؤرخو الكنيسة [4] .

وقد كان (مار يشوعياب الأرزوني) Jesujab I. Arzunita المتوفى سنة ٥٩٦ م من أصل عربي . درس الديانة في (نصيبين) Nisibis ، ثم تقدم فصار أسقفاً على (أرزون) Arzun ، ثم ترقى حتى صار (بطريكاً) (بطريقاً) على النساطرة سنة ٥٨٠ م . وقد زار الملك (النعمان) . وتوسط عند الروم لمساعدة (خسرو ابرويز) Chosroes Abruizus ضد (بهرام) Beheram — Varames . وقد توفي في خيم (بني معدّ) (المعديين) Maadenes ، ونقل الى الحيرة فدفن في دير (هند) ابنة النعمان[5] .

وقد عثر على آثار كنائس في خرائب الحيرة ، وأشار أهل الأخبار الى وجود الكنائس والبيع والأديرة في الحيرة . وذكر (ياقوت الحموي) أسماء عدد من الأديرة كانت بالحيرة أو بأطرافها وبالبادية ، منها : « دير ابن برّاق » بظاهر الحيرة ، و « دير ابن وضّاح » بنواحي الحيرة ، وديارات الأساقف ، وهي

---

١ الاصابة (٣/٢٨٢) ، (رقم ٧٤٢٢) .
٢ الديورة في مملكتي الفرس والعرب (٣٢ وما بعدها) .
٣ الديورة (٤٧) .
٤ أدى شير (٢/٢٠٨) .
٥ W. Smith, A Dictionary, II, p. 370, John of Ephesus, Eccl. Histo., II, 40 ff.

جملة أديرة كانت بالنجف ظاهر الكوفة بحضرتها نهر الغدير ، ودير الأسكون « وهو بالحيرة راكب على النجف وفيه قلالي وهياكل وفيه رهبان يضيفون من ورد عليهم » . ودير الأعور ، بظاهر الكوفة بناه رجل من إياد يقال له الأعور من بني حذافة بن زهر بن إياد ، ودير بني مرينا ، بظاهر الحيرة عند موضع جفر الأملاك ، ودير حنظلة ، منسوب الى حنظلة بن أبي عفراء بن النعمان ، وهم عم إياس بن قبيصة ، وكان من رهط (أبي زبيد) الطائي ، وكان من شعراء الجاهلية ، ثم تنصر وفارق قومه ، ونزل الجزيرة مع النصارى حتى فقه دينهم وبلغ نهايته ، وبنى ديراً عرف باسمه ، هو هذا الدير ، وترهب حتى مات [1] . ودير حنظلة بالحيرة ،وهو منسوب الى حنظلة بن عبد المسيح بن علقمة، ودير حنة ، وهو بالحيرة كذلك بناه المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم بنو ساطع، تقابله منارة عالية كالمرقب تسمى القائم ، لبني أوس بن عمرو بن عامر ، ودير السوا بظاهر الحيرة يتحالفون عنده ، ودير الشاء ، ودير عبد المسيح وهو بظاهر الحيرة بموضع الجرعة بناه عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة ، ودير علقمة بالحيرة منسوب الى علقمة بن عدي بن الرميك بن توب بن أسس بن دبي بن نمارة بن لخم ، ودير قرة وهو دير بإزاء دير الجماجم بناه رجل اسمه قرة من بني حذافة ابن زهر بن إياد في أيام المنذر بن ماء السماء ، ودير اللُجّ وهو بالحيرة بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس ، و « كان يركب في كل أحد اليه ، وفي كل عيد ، ومعه أهل بيته ، خاصة من آل المنذر ، عليهم حلل الديباج المذهبة ، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب ، وفي أوساطهم الزنانير المفصصة بالجوهر ، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان ، وإذا قضوا صلاتهم ، انصرفوا الى مستشرفه على النجف ، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقيّة يومه ، وخلع ووهب ، وحمل ووصل ه وكان ذلك أحسن منظر وأجمله » [2] .

ودير مارت (مارة) مريم . وهو دير قديم من أبنية آل المنذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير وبين قصر أبي الخصيب مشرف على النجف ، ودير مار فايثون بالحيرة أسفل النجف ، ودير مر عبدا بذات الأكيراح من نواحي الحيرة منسوب الى مر عبدا بن حنيف بن وضاح اللحياني كان مع ملوك الحيرة،

---

١ البكري ، معجم (٢/٥٦٧) ، (دير حنظلة) .
٢ البكري ، معجم (٥/٥٩٦) ، (دير اللج) .

ودير ابن المزعوق ، وهو دير قديم بظاهر الحيرة ، ودير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر المعروفة بالحرّقة ، وكانت به قبور أهلها ، بنته هند في ايام (خسرو أنو شروان) في زمن مار افريم الأسقف . وأما الدير المعروف بدير هند الأقدم ، فنسب بناؤه الى هند الكبرى ، أم عمرو بن هند[1] .

هذه أسماء اخترتها من بين أسماء أديرة أخرى كثيرة ذكرها (الشابشتي)[2] ، وياقوت الحموي والبكري ، لأن لها صلة بالحيرة وبما جاورها وبالعرب سكان هذه الأرضين . ونجد في بلاد الشأم أديرة أخرى بناها عربها في تلك الديار قبل الاسلام . ونجد على تسميات بعضها الصبغة الإرمية كما في تسمية (مار افريم) (مار افرايم) و (مار عبدا) و (مار فايثون) ، وغيرها . وكلمة (مار) من كلمات بني إرم ، كما نجد الصبغة النصرانية للأعلام واضحة على بعضها كما في عبد المسيح وحنة ومارت مريم وأمثال ذلك ، وهي من الأعلام التي اختصت بالنصارى . وذلك بسبب ان النصرانية كانت متأثرة بثقافة بني إرم ، وكانت تستعمل اللغة الإرمية في الصلوات وفي تأدية الشعائر الدينية الأخري . ولغة بني إرم هي لغة العلم عند النصارى الشرقيين ، فكان من الطبيعي استعمال نصارى العرب لهذه اللغة في كنائسهم وبيعهم وأديرتهم وفي دراستهم للدين وما يتصل باللاهوت من علوم . ومن هنا استعمل كتّابهم قلم بني إرم في كتاباتهم ، ومن هذا القلم تولد القلم النبطي المتأخر الذي تفرع منه القلم العربي الذي كتب به أهل الحجاز عند ظهور الاسلام ، فصار القلم الرسمي للمسلمين .

وقد نعت الرواة وأهل الأخبار العرب التي دانت بالنصرانية بـ (العرب المتنصرة) ، تمييزاً لها عن العرب الآخرين الذين لم يدخلوا في هذه الديانة ، بل بقيت على اخلاصها ووفائها لديانة آبائها وأجدادها ، وهي عبادة الأوثان . ومن القبائل التي يحشرها أهل الأخبار في جملة (العرب المتنصرة) غسان وتغلب وتنوخ ولخم وجذام وسليح وعاملة . ويلاحظ أن الأخباريين يطلقون على هذه القبائل أو على أكثرها (العرب المستعربة) ، وهم لا يقصدون بذلك نسبها ، لأن من بينها كما نعلم من هو من أصل قحطاني على حسب مذهب أهل الأنساب في نسب

---

١ البكري (٦٠٦/٢) ، البلدان (١١٩/٤ وما بعدها) ، « القول في ذكر الاديرة » .
٢ مطبعة المعارف ، بغداد ، تأريخ كلدو وآثور (٢٩/٢) ، ذخيمة الاذهان (٣١٧) .

القبائل . وإنما يريدون من هذا المصطلح القبائل التي كانت قد سكنت ببلاد الشأم والساكنة في أطراف الانبراطورية البيزنطية وفي سيف العراق من حدود نهر الفرات الى بادية الشأم ، فهو يشمل إذن القبائل النازلة على طرفي الهلال الخصيب وفي طرفي القوس التي تحيط بحدود الانبراطوريتين . وخاصة تلك القبائل التي دانت بالنصرانية وتأثرت بثقافة بني إرم وبلهجتها ، وذلك لظهور هذا الأثر فيها، وعلى لهجتها خاصة ، مما حدا بعلماء اللغة أن يتحرجوا في الاستشهاد بشعرها في قواعد اللغة . والاستشهاد بشعر قبيلة لاثبات القواعد هو أوثق شاهد في نظر العلماء على التسليم بنقاوة لغة القبيلة التي يستشهد بشعرها وأصالتها .

ووجدت النصرانية بعد بلاد الشأم والعراق لها مواضع أخرى دخلت اليها، هي أطراف جزيرة العرب ، كالعربية الغربية والجنوبية والشرقية . وتفسير دخولها الى هذه الأرضين واضح ، هو اتصالها بطرق القوافل البرية والبحرية في البلاد التي انتشرت فيها النصرانية ، ومجيء التجار النصارى والمبشرين مع القوافل اليها. وتجار النصارى ، لم يكونوا على شاكلة تجار يهود : كانوا يرون أن التجارة هي كسب مادي ، ولكن التبشير مع التجارة ربح مضاعف ، هو ربح في الدارين : الدنيا والآخرة ، فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم في البلاد التي ينزلونها لنشر دينهم فيها. ثم إن في انتشار دينهم بين سكان هذه المواضع التي يطرقونها كسباً لهم ولبلادهم، وأكثرهم من الروم . فإنهم يجدون بتنصر الغرباء ، إخواناً لهم يرون رأيهم ، ويعطفون عليهم. ثم إنهم سيفضلونهم في تعاملهم معهم على غيرهم ، وسيتساهلون معهم ولا شك . ثم إنهم سيقربونهم بتنصيرهم من العالم النصراني ، وممثل هذا العالم وحماته هم الروم .

وكان أهل دومة الجندل خليط ، فيهم نصارى ، قال عنهم أهل الأخبار انهم (من عباد الكوفة)[1] . ويظهر من خبر أسر خالد للأكيدر ومجيئه به على رسول الله ، ومن مصالحة الرسول له على الجزية ، انه كان على النصرانية ، إذ لا تؤخذ الجزية من مشرك[2] .

---

١ البلاذري ، فتوح البلدان (٧٤) . «دومة الجندل» .

٢ « ثم ان خالدا قدم بأكيدر على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فحقن له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله ، فرجع الى قريته » ، الطبري (١٠٩/٣) ، (دار المعارف) ، (ذكر الخبر عن غزوة تبوك) .

أما (أيلة) ، فكان اسم صاحبها في ايام الرسول (يحنة بن رؤبة) (يوحنا بن رؤبة) . وهو نصراني كما يدل اسمه عليه ، جاء الى تبوك في السنة التاسعة من الهجرة ، وكان الرسول بها ، فصالحه على الجزية وبقي في محله[1] . وقد دعاه المسعودي (أسقف أيلة)[2] . وورد في محاضر بعض المجامع الدينية (أسقف أيلة والشراة)[3] .

وكان في وادي القرى نفر من الرهبان، كما ورد ذلك في شعر جعفر بن سراقة أحد بني قرة ، وهو :

فريقان : رهبان بأسفل ذي القرى   وبالشأم عرافون فيمن تنصرا[4]

وتعد طيء من القبائل التي وجدت النصرانية سبيلاً اليها . وقد ورد ان (أحودما) (المغريان) تنقل بين طيء في سنة (٨٧٠) لليونان المقابلة لسنة (٥٥٩) للميلاد[5] . وقد كان عدي بن حاتم الطائي في جملة الداخلين في النصرانية من طيء. ويذكر انه كان (ركوسياً) ، وفد على الرسول ، وأعلن إسلامه[6] . غير ان هذا لا يعني ان النصرانية كانت هي الغالبة على هذه القبيلة ، فقد كان قوم منها يتعبدون للصنم (الفلس) ، أي على الشرك .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً يستحق الذكر عن النصرانية في يثرب . وقد أشار القرآن الكريم في مواضع عديدة من الآيات المدنية الى النصارى ، غير ان تلك الاشارات عامة في طبيعة المسيح وفي النصرانية نفسها لا في نصارى يثرب وفي صلاتهم بالاسلام . ثم إن أهل السير لم يشيروا الى تصادم وقع بين النصارى والمسلمين ولا الى مقاومة نصارى يثرب للرسول كالذي وقع بين يهود يثرب والرسول ، مما يدل على ان النصرانية لم تكن قوية في المدينة،وان جاليتها لم تكن

---

١ البلاذري (٦٦) ، السنن الكبرى (٩/١٨٥ وما بعدها) .
٢ التنبيه (٢٧٢) ، النصرانية (٤٤٨) .
٣ النصرانية (٤٤٨) .
٤ الاغاني (٧/٩٦) « نسب جميل وأخباره » .
٥ النصرانية وآدابها ، القسم الاول (١٣٢ وما بعدها) ، Barhebrael, Chronicon Eccl., III, 100.
٦ الاصابة (٢/٤٦١) ، (رقم ٥٤٧٧) ، المشرق ، السنة الثامنة ، العدد ١١ ، (١٩٠٥)، (٥٠٧) ، النصرانية (١٣٣) .

كثيرة العدد فيها . غير ان هذا لا يعني عدم وجود النصارى في هـذا الموضع الزراعي المهم[1] . فكما كان في مكة رقيق وموالي يقومون بخدمة ساداتهم ، كذلك كان في المدينة نفر منهم أيضاً يقومون بمختلف الأعمال التي يعهد أصحابهم اليهم القيام بها . ولا بد ان تكون لهذه الطبقة من البشر مكانة في هذه المدينة وفي أي موضع آخر من جزيرة العرب . فقد كانت هذه الطبقة عموداً خطيراً من الأعمدة التي يقوم عليها بنيان الاقتصاد في ذلك العهد ، فهي بالنسبة لذلك العهد الآلات المنتجة والمعامل المهمة لأصحاب الأموال وللسادة الأثرياء ، تؤدي ما يطلب منها القيام به وما يراد منها انتاجه بأجور زهيدة وبدقة ومهارة لا تتوفر عند الأحرار من العرب . ثم إن الأحرار مهما بلغ حالهم من الفقـر والفاقة كانوا يأنفون من الأعمال الحرفية ونحوها مما يوكل الى هذه الطبقة القيام به ، لأنها في نظرهم من المهن المنحطة التي لا تليق بالرجل الحر مهما كان عليه من فقر وبؤس ، ولهـذا كان لا بد من الاستعانة بالموالي والرقيق للقيام بأكثر متطلبات حياة الانسان .

ويفهم من بيت للشاعر حسان بن ثابت في قصيدة رثى بها النبي ، وهو :

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد[2]

أنه كان في يثرب نفر من النصارى كما كان بها قوم من يهـود . وذكر أن النصارى كانوا يسكنون في يثرب في موضع يقال له : سوق النبط[3] .

ولعل هـذه السوق هي الموضع الذي كان ينزل فيه نبط الشأم الـذين كانوا يقصدون المدينة للاتجار في الحبوب ، فصارت موضعاً لسكنى هـؤلاء النصارى ، ونسب اليهم[4] . وقد ورد أن عمر بن الخطاب استعمل أبا زبيد الشاعر النصراني على صدقات قومه ، وأن أبا زبيد هذا كان مقرباً من الخليفـة عثمان بن عفان من بعده[5] .

وقد كان (أبو عامر) الراهب الذي تحدثت عنه أثناء حديثي عن الأحناف ،

---

١ السنن الكبرى (٩/١٨٢ وما بعدها) .
٢ ديوان حسان (٥٩) « تحقيق هرشفلد » .
٣ Nallino, Raccolta, III, p. 140.
٤ البخاري (٣/٤١ وما بعدها) ، النصرانية (٤٤٩) .
٥ النصرانية (٤٤٩) .

ممن اعتنق النصرانيـــة ، ومن أهل يثرب . ويظهر أنه كان قد تمكن من إقناع بعض شباب الأوس من اعتناق دينه ، بدليل ما ذكره علماء التفسير من أنه لما خرج من يثرب مغاضباً للرسول ، وذهب الى مكة ، مؤيداً إياهم ومحرضاً لهم على محاربة الرسول أخذ معه خمسين أو خمسة عشر رجلاً من الأوس ، على ما ذكره علماء التفسير ، فلما أيس من نجاح أهل مكة في القضاء عـلى الرسول فر الى بلاد الشأم على نحو ما ذكرت ، ليطلب مدداً من الروم يعينه في زحفه على المدينة . وأنا لا استبعد احتمال وجود أناس آخرين من أهل يثرب كانوا قد دخلوا في النصرانية ودعوا اليها ، واحتمال وجود مبشرين فيها ، كانوا يسعون لادخال أهلها في دين عيسى ، يؤيدهم ويمدّهم بالمال والمعونة الروم حكام بلاد الشأم .

وكان بين سكّان مكة عند ظهور الإسلام جماعة من النصارى هم من الغرباء النازحين اليها ، لأسباب ، منهـا : الرق ، والاتجار ، والتبشير ، والحرفة . فأما الرقيق ، فمنهم الأسود والأبيض: الأسود من إفريقية ، والأبيض من أوروبة ، أو من أقطار الشرق الأدنى ، وهم أعلى في المنزلة وفي السعر من النوع الأول ، وهم بحكم قانون ذلك العهد وعرفه تبع لسادتهم وفي ملك يمينهم ، يقومون بالأعمال التي توكل اليهم ، ليس لهم التصرف إلا بأمرهم ، فهم في الواقع بضاعة يتصرف بها صاحبها كيف يشاء ، ليس لها صوت ولا رأي ، إن أبق المملوك قتـل ، أو أنزل به العقاب الذي يراه ويختاره صاحبه ومالكه .

وبين الرقيق الأبيض خاصة نفر كانوا على درجة من الفهم والمعرفة ، يعرفون القراءة والكتابة ، ولهم اطلاع في شؤون دينهم ومعارف ذلك العهد . ولهذا أوكل اليهم القيام بالأعمال التي تحتاج الى مهارة وخبرة وذكاء . وقد كان حالهم لذلك أحسن من حال غيرهم من الأرقاء . ومنهم من كان يشرح لسادتهم أمور دينهم وأحوال بلادهم ، ويقصون عليهم ما حفظوه ووعوه من أخبار الماضين وقصص الراحلين ، وأكثرهم ممن كانت ألسنتهم لم تتروض بعـد على النطق بالعربية ، فكانوا يرطنون بها ، أو يتلعثمون ، ومنهم من كان لا يعرف شيئاً منهـا ، أو لا يعرف منها إلا القليل من الكلمات .

ومن هؤلاء رجل نصراني كان بمكة قيل إن اسمه : سلمان ، أو يسار ، أو جبر ، أو يعيش ، أو بلعام ، ادعى أهل مكة أنه كان هو الذي يلقن الرسول

ما كان يقوله للناس من رسالته ، وأنه هو الذي كان يعلمه . وقد أشير الى قول قريش هذا في الآية : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجميّ ، وهذا لسان عربي مبين »[1] . ومن روى من المفسرين أن اسمه جبر ، قال : إنه كان غلاماً لعامر بن الحضرمي ، وأنه كان قد قرأ التوراة والأنجيل[2] ، وكان الرسول يجلس اليه عند المروة الى مبيعته ، « فكانوا : والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني ، غلام الحضرمي »[3] .

ومن هؤلاء من زعم انه كان قيناً لبني الحضرمي ، وانه كان قد جمع الكتب ، وهو رومي ، فكان رسول الله يأتي اليه ويجتمع به ، فكان المشركون يقولون : انه يتعلم من هذا الرومي ! وذكر بعض الرواة ان (آل الحضرمي) كانوا يملكون عبدين ، هما : جبر ويسار ، فكانا يقرآن التوراة والكتب بلسانهما ، فكان الرسول يمر عليهما فيقوم يستمع منهما . وقيل انهما كانا من أهل (عين التمر) ، وانهما كانا يصنعان السيوف بمكة ، وكانا يقرآن التوراة والانجيل ، فربما مر بهما النبي ، وهما يقرآن فيقف ويستمع . وأما من قال ان اسمه (يعيش) ، فذكر انه كان مولى لحويطب بن عبد العزى . وأما من ذكر ان اسمه (بلعام) ، فقال انه كان قيناً رومياً بمكة وكان نصرانياً أعجمي اللسان ، « فكان المشركون يرون رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين يدخل عليه وحين يخرج من عنده ، فقالوا انما يعلمه بلعام »[4] . ومهما اختلف المفسرون في اسم هذا الرجل فإنهم اتفقوا على انه كان أعجمي الأصل ، نصرانياً ، يقرأ الكتب ، وانه كان بمكة نفر من الموالي كانوا على دين النصرانية يقرأون ويكتبون .

والى هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص ، أعني : يعيش ويقال عائش أو عدّاس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وجبر مولى عامر ، أشير في القرآن الكريم ، في الآية : « وقال الذين كفروا : إن هذا إلا

---

١ سورة النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٢ تفسير الطبري (١٤/١١٩) ، « وكانوا يقولون : والله ما يعلم محمدا كثيرا مما يأتي به الا جبر النصراني ، غلام ابن الحضرمي » ، روح المعاني (١٤/٢١٢ وما بعدها) ، ابن هشام (١/٤٢٠) .
٣ تفسير الطبري (١٤/١٢٠) ، روح المعاني (١٤/٢١٢) ، ابن هشام (٢٦٠) .
٤ تفسير الطبري (١٤/١١٩) ، روح المعاني (١٤/٢٣٣) ، تفسير الطبرسي (المجلد الثالث ٣٨٦) .

إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون »[1] . وقد ذكر المفسرون ان هؤلاء « كانوا كتابيين يقـرأون التوراة ، أسلموا ، وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يتعهدهم ، فقيل ما قيل »[2] .

وعرفت أسماء جملة رجال ونساء من هذا الرقيق الذي جيء به الى مكة والى مواضع أخرى من جزيرة العرب . من هؤلاء نسطاس ، ويقصد بذلك أنستاس ، وكان من موالي صفوان بن أمية . و (مينا) (ميناس) ، و (يوحنا) عبد (صهيب الرومي) ، و (صهيب) نفسه لم يكن عربياً ، انما كان من بلاد الشأم في الأصل ، وهو رومي الأصل ولذلك قيل له (مهيب الرومي) . وكان قد جاء مكة فقيراً لا يملك شيئاً ، فأقام بها ، ثم اتصل بعبدالله بن جُدعان الثري المعروف ، وصار في خدمته ، ولذلك قيل انه كان مولى من موالي عبدالله بن جدعان . وفي رواية انه كان من (النمر بن قاسط) ، سقط أسيراً في الروم فباعوه ، فاشترى منهم . وقد ورد في حديث : « صهيب سابق الروم » ، فهذا يدل على انه من أصل رومي . وهو من أوائل المسلمين ، يذكر انه حينما همّ بترك مكة والذهاب الى المدينة بعد هجرة الرسول اليها « قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد ان تخرج بمالك ونفسك !! والله ، لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني جعلت لكم مالي »[3]،وترك قريشاً ليذهب الى الرسول .

وكان لبني مخزوم الأثرياء جملة جوارٍ يونانيّات ، كما كان لدى العبّاس عم النبي جوار يونانيات،وأشير الى وجود جوارٍ فارسيات . وكان هذا الرقيق الأبيض ذكوراً وإناثاً من جنسيات متعددة ، منهم من كان من أصـل رومي ، ومنهم من كـان من عنصر أوروبي آخر ، ومنهم من كان من الفرس أو من أهل العراق مثـل نينوى وعين التمر ، ومنهم من كان من بلاد الشأم أو من أقباط مصر ، وهم على النصرانية في الغالب[4] .

---

١ الفرقان ، الرقم ٢٥ ، الآية ٤ .
٢ تفسير الطبري (١٨/١٣٧ وما بعدها) ، روح المعاني (١٨/٢٣٤ وما بعدها) ، مجمع البيان (٧/١٦١) ، (طهران) ، (الجزء الثامن عشر) ، (سورة الفرقان) .
٣ ابن هشام (٢/٨٩) ، الاصابة (٢/١٨٨) ، (الرقم ٤١٠٤) .
٤ المشرق ، السنة الخامسة والثلاثون ١٩٣٧ (ص ٨٨ وما بعدها) .

وقد كانت في مكة عند ظهور الإسلام جالية كبيرة كثيرة العدد من العبيد ، عرفوا بـ (الأحابيش) . وبين هؤلاء عدد كبير من النصارى ، استوردوا للخدمة وللقيام بالأعمال اللازمة لسراة مكة . وقد ترك هؤلاء الأحابيش أثراً في لغة أهل مكة ، يظهر في وجود عدد من الكلمات الحبشية فيها في مثل المصطلحات الدينية والأدوات التي يحتاج اليها في الصناعات وفي الأعمال اليدوية التي يقوم بأدائها العبيد . وقد أشار العلماء الى عدد من هذه الكلمات ذكروا أنها تعربت ، فصارت من الكلام العربي . وقد أشاروا الى ورود بعضها في القرآن الكريم وفي الحديث[1] .

ويشير أهل الأخبار الى ورود بعض الرهبان والشمامسة الى مكة . وقد كان من بينهم من يقوم بالتطبيب . وقد ذكر الأخباريون أن شماساً كان قد قصد مكة ، فعجب الناس به ، وقد سمّوا أحدهم به ، هو عثمان بن الشّريد بن سويد ابن هرمي بن عامر بن مخزوم ، فقالوا له : (شماس)[2] .

وذكر (اليعقوبي) ، ان ممن تنصر من أحياء العرب ، قوم من قريش من بني (أسد بن عبد العزى) ، منهم (عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى)[3]. وقد ورد في بعض الأخبار انه قدم على قيصر ، فتنصر ، وحسنت منزلته عنده . وان قيصر ملكه على مكة . ومنحه براءة بذلك ، واعترف بـه . وقد سبق ان تحدثت عنه في اثناء كلامي على مكة . وقد ذكرت ان من الصعب تصور بلوغ نفوذ القيصر هذا الحد من جزيرة العرب، فلم يتجاوز نفوذ الروم الفعلي في وقت ما من الأوقات أعالي الحجاز . ولكن ذلك لا يمنع من تقرب السادات وتزلفهم الى عمال الروم وموظفيهم في بلاد الشأم ، باظهار انهم من المخلصين لهم المحبين للروم ، وانهم من كبار السادات ذوي المكانة والنفوذ ، للحصول على مكاسب مادية ومعنوية منهم ، تجعل لهم مكانة عند أتباعهم وجاهاً ومنزلة ونفوذاً على القبائل الأخرى . وقد كان الروم يعرفون ذلك معرفة جيدة ، بفضل دراستهم لنفسية الأعراب ، ووقوفهم على طبائع سادات القبائل ، فكانوا يشجعون هذا النوع من التودد السياسي لكسب العرب وجرهم الى جانبهم .

---

١ « فقال : يا أم خالد ، هذا سناه ، وسناه بالحبشية حسنة » ، أسد الغابة (٥/ ٥٧٩) ، المعرب (٢٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٥٢) ، صحيح مسلم (١٨٩/٢) .

٢ ابن هشام (٣٢٩/٢) ، « من حضر بدرا من بني مخزوم » ، المشرق ، السنة الخامسة والثلاثون ، ١٩٣٧ (ص ٩٠ وما بعدها) ، كتاب نسب قريش (٣٤٢) .

٣ اليعقوبي (٢٢٧/١) ، (أديان العرب) .

وعدّ (ورقة بن نوفل) في جملة المتنصرين في بعض الروايات ، فقد ذكر انه « تنصر واستحكم في النصرانية ، وقرأ الكتب ، ومات عليها »[1] .

وقد استدل (شيخو) من الخبر المروى عن الصور التي قيل إنها صور الرسل والأنبياء وبينها صورة المسيح ومريم ، والتي ذكر أنها كانت مرسومة على جدران الكعبة ، على أنها هي الدليل على أثر النصرانية بمكة . استدل على فكرته هذه بخبر خلاصته أن الرسول حينما أمر فطمست تلك الصور ، استثنى منها صورة عيسى وأمه مريم ، وبخبر ثان ورد عن تمثال لمريم مزوّق بالحلي وفي حجرها عيسى ، باد في الحريق الذي شب في عصر (ابن الزبير) ، وبخبر ثالث عن امرأة من غسان قيل إنها (حجت في حاج العرب ، فلما رأت صورة مريم في الكعبة ، قالت : بأبي أنتِ وأمي : إنك لعربية . فأمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمحو تلك الصور ، إلا ما كان من صورة عيسى ومريم »[2] .

وكان في الطائف نفر من الموالي كانوا على دين النصرانية ، لم يتعرض سادتهم كسائر رجال الأماكن الأخرى من الحجاز لدينهم ، فتركوهم على دينهم يقيمون شعائرهم الدينية على نحو ما يشاؤون . من هؤلاء (عدّاس) ، وكان من أهل نينوى ، أوقعه حظه في الأسر ، فبيع في سوق الرقيق ، وجي به الى الطائف فصار مملوكاً لعتبة وشيبة ابني ربيعة . وعند مجيء الرسول الى الطائف عارضاً نفسه على ثقيف أهلها ، كان هو في جملة من تكلم اليه[3] . ومنهم الأزرق ، ذكر أنه كان عبداً رومياً حداداً،وانه هو أبو نافع الأزرق الخارجي الذي ينتمي اليه الأزارقة . وهناك روايات تنفي وجود صلة لهذا الأزرق بالأزرق والد نافع المذكور[4] .

وأما الحديث عن النصرانية في اليمن،فهو حديث غامض أوله ، مبهم أصله ، لا نعرف متى نبدأ به على وجه التحقيق . فليس لدينا نص بالمسند يشير الى مبدأ

---

١ اليعقوبي (١/٢٩٨) ، (ليدن) ، المحبر (١٧١) ، ابن هشام (١/٢٤٣ ، ٢٥٠ وما بعدها) ، النصرانية (١/١١٩) ، المشرق ، السنة الخامسة والثلاثون ، ١٩٣٧ (ص ٢٧٢) .

٢ النصرانية (ص ١١٧) .

٣ ابن هشام (٢/ ٣٠) ، أسد الغابة (٣/٢٨٩) ، الاصابة (٢/٤٥٩) ، (الرقم ٥٤٧٠) ، النصرانية (٤٥٢) .

٤ البلاذري (٦٢) .

دخول النصرانية العربية الجنوبية.وما لدينا من كتابات مما له بعض العلاقة بالنصرانية انما دوّن في الحقبة المتأخرة من تأريخ اليمن ، وفي أيام الحبشة في اليمن ، وهو ساكت في الجملة عن المبدأ وعن المبشرين بالنصرانية في العربية الجنوبية . فليس لدينا من بين نصوص المسند في هذا الباب عون ولا سند .

وليس لنا اذن إلاّ أن نفعل ما فعلناه بالنسبة الى اليهودية ، فنرجع الى الموارد الاسلامية والنصرانية لنرى رأيها في هذا الباب .

وتزعم الموارد الاسلامية ان الذي نشر النصرانية في اليمن رجل صالح من بقايا أهل دين عيسى اسمه (فيميون) Faymiyon = Phemion [1] ، وكان رجلاً زاهداً في الدنيا مجاب الدعوة سائحاً ينزل القرى لا يعرف بقريـــة إلا خرج منها إلى قرية لا يعرف فيها ، وكان لا يأكل إلا من كسب يده ، وكان بنّاءً يعمل الطين وكان يعظم الأحد : إذا كان الأحد لم يعمل فيه شيئــاً . ففطن لشأنه في قرية من قرى الشأم رجل من أهلها اسمــه (صالح) ، فأحبه واتبعه على دينه ورافقه . وانصرف ومعه صالح من ضواحي الشأم حتّى وطئا بعض أرض العرب، فعـدا عليهما ، فاختطفتهما سيارة من بعض العـرب ، فخرجوا بهما حتّى باعوهما بنجران . وأهلها من بني الحارث بن كعب من بني كهـلان . وكانوا يعبدون العزى على صورة نخلة طويلة بين أظهرهم . فابتاع رجل من أشرافهم (فيميون)، وابتاع رجل آخر صالحاً ، وقد أعجب صاحب فيميون بــه ، لما رآه فيه من صلاح وورع ، فـآمن بدينه ، وآمن أهل نجران منذ ذلك الحين بالنصرانية لمعجزة قام بها (فيميون) ، حينما دعا الله يوم عيد العزى ان يرسل عليها ريحاً صرصراً عاتية تُخني عليها . فأتت الريح عليها فجعفتها من أصلها فألقتها ، فـآمن بدينه أهل نجران . فمن هنالك كانت النصرانية بنجران[2] . ويذكر الطبري ان أهل نجران كانوا يعيدون كل سنة ، « اذا كان ذلك العيد علقوا عليها كـل ثوب حسن وجدوه ، وحليّ النساء . ثم خرجوا ، فعكفوا عليها يوماً »[3] .

ويظن أن (فيميون) كلمة يونانية في الأصل حرفت من أصل Euphemion .

---

١ « فيميون » « قميون » « ميمون » .

٢ الطبري (٢/١٠٣ وما بعدها) ، ابن هشام (٢٠ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (١/١٧١) ، البيضاوي (٢/٣٩٥) ، ابن خلدون (٢/٥٩) .

٣ الطبري (٢/١٢٠ وما بعدها) « دار المعارف » .

وزعم أن (فيميون) عين أحد النجرانيين واسمه (عبدالله بن الثامر) رئيساً عليهم ، وجعلهم تحت رعاية أسقف اسمه (بولس)[1] .

وقد ذكر (الأزرقي) أن أهل نجران كانوا من أشلاء سبأ « وكانوا على دين النصرانية على أصل حكم الانجيل ، وبقايا من دين الحواريين ، ولهم رأس يقال له : عبدالله بن ثامر »[2] .

وتذكر رواية اسلامية أخرى أن أهل نجران كانوا أهل شرك، يعبدون الأوثان وكان في قرية من قراها قريباً من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، وكان أحد رجال نجران واسمه (الثامر) يرسل ابنه (عبدالله) مع غلمان أهل نجران الى ذلك الساحر يعلمهم السحر ، فكان يمر على صاحب خيمة بين نجران وتلك القرية ، وقد أعجبه ما رآه من صلاته وعبادته وتقواه ، فجعل يجلس اليه ويسمع منه حتى دخل في دينه ، وصار يدعو اليه بين أهل بلده . فمن ثم انتشرت النصرانية في نجران ، وظهرت على الوثنية[3] .

وتذكر هذه الرواية ، ان (عبداللهبنالثامر) ، أخذ من ثم يبشر بالنصرانية ، ويأتي بالمعجزات إذ يشفي المرضى « حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلا أتاه فاتبعه على أمره ، ودعا له فعوفي ، حتى رفع شأنه الى ملك نجران . فدعاه فقال له : أفسدت عليّ أهل قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمثلن بك ! قال : لا تقدر علي ذلك . فجعل يرسل به الى الجبل الطويل فيطرح عن رأسه فيقع على الأرض ، ليس به بأس ، وجعل يبعث به الى مياه بنجران ، بحور لا يقع فيها شيء إلا هلك . فيُلقى فيها فيخرج ليس به بأس ، فلما غلبه ، قال عبدالله بن الثامر : انك والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به . فإنك إن فعلت ذلك سلطت علي فقتلتني ، فوحد الله دلك الملك ، وشهد بشهادة عبدالله بن الثامر . ثم ضربه بعصاً في يده فشجّه شجة غير كبيرة ، فقتله . وهلك الملك مكانه . واستجمع أهل نجران على دين عبدالله بن الثامر »[4] .

ولم تصرح هذه الرواية التي يرجع سندها الى (محمد بن كعب بن القرظي)

---

١ Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 31, anm., I, O'leary, p. 143.

٢ أخبار مكة (١/٨١) .

٣ الطبري (٢/١٢١ وما بعدها) « دار المعارف » ـ

٤ الطبري (٢/١٢٢) « دار المعارف » .

وبعض أهل نجران ، باسم الرجل الصالح الـذي أخذ منه (عبدالله بن الثامر) نصرانيته . وقد نبّه الى ذلك الطبري ، في اثناء سرده لها ، فقال : «ولم يسموه باسمه الذي سمّاه به وهب بن منبه »[1] .

وقد صيرت بعض الروايات (عبدالله بن الثامر) في جملة من قتلهم (ذو نواس) من النصارى ، غـير ان (الطبري) ، نبه الى خطل هذا البعض ، وبيّن ان (عبدالله) كان قد قتل قبل ذلك ، قتله ملك كان قبله ، هو كان أصل ذلك الدين[2] .

وهناك قصة ذكرها (ابن اسحاق) ، تزعم أن رجلاً حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجاته ، فوجد عبدالله بن الثامر تحت دفن منها قاعـداً واضعاً يده على ضربة في رأسه ممسكاً عليها بيده ، فإذا أخرت يده عنها انثعبت دماً ، واذا أرسلت يده ردّها عليها ، فأمسك دمها ،وفي يده خاتم ، فأقر على حاله وردّوا عليه الدفن الذي كان عليه ، وكان ذلك بأمر عمر بن الخطاب[3] .

والظاهر أن النجرانيين ، لم ينسوا رئيسهم (عبدالله بن الثامر) حتى بعـد اسلامهم ، فرووا عنه هذا القصص وصيروه على هذه الصورة التي روتها القصة . ويظهر أنه قتل ، فصير شهيداً من الشهداء ، لأنه قتل في سبيل دينه وفي سبيـل نشره بين النجرانيين .

وزعم بعض الأخباريين أن الذي أدخل النصرانية ونشرها في الحميريين ، هو التبع عبـد كلال بن مثوب : أخذ التبع نصرانيته بزعمهم من رجل من غسان ذكروا أنه كان قد قدم عليه من الشام . فلما علمت حمير بتنصر التبع وبتغيير دينه وإعراضه عن عبادتها ، وثبت بالغساني فقتلته[4] . وقد أشير الى تنصره في القصيدة الحميرية[5] .

---

١ الطبري (٢/١٢١ وما بعدها) « دار المعارف » .

٢ الطبري (٢/١٢٣) « دار المعارف » .

٣ الطبري (٢/١٢٤) .

٤ الطبري (٢/٨٦) : « ذكر ما كان من الاحداث في أيام يزدجرد بن بهرام وفيروز بين عمالها على العرب وأهل اليمن » ، النصرانية (١/٥٥ وما بعدها) ، Nallino, Raccolta, III, p. 124.

٥ أم أين عبد كلال الماضي على ... دين المسيح الطاهر المساح
النصرانية (١/٥٥) .

أما الرواية الأولى فتنسب الى (وهب بن منبه) . وأما الرواية الثانية فتنسب الى (محمد بن كعب القرصي) والى بعض أهل نجران لم يصرح (ابن اسحاق) بذكر أسمائهم ، فالروايتان اذن من مورد واحد هو أهل الكتاب[1] . فوهب بن منبه من مسلمة يهود . وأما محمد بن كعب بن أسد القرظي المتوفى بين سنة ١١٨ – ١٢٠ للهجرة ، فهو من أصل يهودي كذلك ، من قريظة حلفاء الأوس ، وقريظة يهود . وكان مثل وهب قاصاً من القصاص يقص في المسجد . وقد جرّ قصصه هذا عليه البلايا ، فكان يقص في المسجد فسقط عليه السقف فمات[2] .

وجدت أقوال محمد بن كعب القرظي سبيلها الى تأريخ الطبري عن طريق سيرة ابن اسحاق ، وهو طريق ابن حميد عن سلمة بن الفضل عن ابن اسحاق صاحب السيرة الذي أخذ منه بلا واسطة كما أخذ منه بالواسطة . أما الأخبار المروية عنه ، فهي في سير الرسل والأنبياء ، وفي انتشار اليهودية والنصرانية في اليمن ، وفي الأمور التي تخص اليهود في الحجاز[3] . وكان من المقربين الى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، لأنه كانت له به معرفة سابقة قبل توليه الخلافة . فلما ولي الخلافة ، كان يذهب اليه ويتحدث معه في الزهد وفي القصص الذي يحمل طابع الاسرائيليات وفي التفسير الذي اشتهر به[4] .

فناقل النصرانية الى نجران اذن رجل غريب جاء الى البلد من ديار الشأم على رواية (وهب بن منبه) . ويرجع (أوليري) هذه الرواية الى أصل يرى جذوره في السريانية[5] . واسم هذا الرجل الصالح غير عربي بالطبع . فلعله من المبشرين الذين كانوا يطوفون بين ديار العرب للتبشير .

ولا يستبعد أن يكون المبشرون قد أدخلوا النصرانية الى اليمن عن طريق الحجاز ،

---

١ الطبري (١٠٤/٢) ، تفسير الطبري (٨٥/٣٠) ،
Nallino, Raccolta, Di Scritti, III, 1941, p. 124.

٢ راجع ما كتبته عنه في مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الاول ، ١٩٥٠ ، (ص ١٩٨) ، وتهذيب التهذيب (٤٢٠/٩) ، عيون الاخبار (٢٠١/١ ، ٢٦٤) (١٤/٢ ، ٣٤٣) ، (٤/٣) .

٣ الطبري (١٣٨/١) ، (١٠٤/٢) ، ورد اسمه في «٢٩» موضعا من تأريخ الطبري .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٢/٥ فما بعدها) ، مجلد ٧ قسم ٢ ص ١٩٤ ، عيون الاخبار (٣٤٣/٢) ، (٤/٣) .

٥ O'leary, p. 143.

فقد كانوا يتنقلون بين العرب لنشر هذا الدين . وليس بمستبعد أيضاً أن يكون قد دخل عن طريق الساحل أيضاً مع السفن . فقد كان المبشرون يتنقلون مع البحارة والتجار لنشر النصرانية ، وقد تمكنوا بمعونة الحكومة البيزنطية من تأسيس جملة كنائس على سواحل جزيرة العرب وفي سقطري والهند . كما لا يستبعد أن يكون للمبشرين الذين جاؤوا من العراق كما تذكر بعض الموارد النصرانية السريانية دخل في نشر النصرانية في اليمن . ولا سيما نشر النسطورية في تلك البلاد .

وأما الموارد النصرانية ، فإنها مختلفة فيما بينها في أول من أدخل النصرانية الى اليمن ، فالموارد اليونانية ترى رأياً ، والموارد السريانية ترى رأياً ، والموارد الحبشية ترى رأياً آخر ، يختلف عن الرأيين . وكل رأي من هذه الآراء الثلاثة يرجع شرف نشر النصرانية في اليمن اليه .

يحدثنا كتبة التواريخ الكنسية من اليونان أن القيصر (قسطنطين) الثاني أرسل في عام (٣٥٤) للميلاد (ثيوفيلوس اندس Theophilus Indus) ، أي (ثيوفيلوس الهندي) ، من جزيرة سرنديب أي سيلان الى العربية الجنوبية للتبشير بالنصرانية بين الناس . وقد تمكن من انشاء كنيسة في عدن وأخرى في ظفار وثالثة في هرمز ،وعين للمتنصرين رئيساً ثم رحل . وصارت ظفار في سنة ٣٥٦م مقراً لرئيس أساقفة يشرف على شؤون نصارى نجران وهرمز وسقطرى[١] . وقد عثر على مقربة من خرائب ظفار على أعمدة من الطراز (الكورنثي) وعلى بقايا تيجانها وعليها نقوش صلبان يظهر أنها من مخلفات تلك الكنائس القديمة التي شيدت بمساعدة البعثات التبشيرية وفي أيام الحبشة في اليمن[٢] .

وزعم (فيلوستورجيوس Philostorgius) ان هذا الشعب الذي بشر (ثيوفيلوس) بين أفراده بالنصرانية : شعب هندي ، وكان يدعى سابقاً باسم شعب (سبأ) نسبة الى عاصمته سبأ ويعرف اليوم باسم حمير Homeritae [٣] . وقد توهم

---

١ « تاوفيل الهندي » النصرانية (١/٥٦) ،
Alt kult., S. 148, Philostorgius, Historia Ecclesiastica, III, 46, Hugh Scott, in the High Yemen, 1947, p. 211, Mordtmann, Miscellen zur himjarischen Alterthumskunde, in ZDMG., 1877, XXXI, S. 64. ff., Migne, Petr. Grea., LXV, Col, 459-637, Conti Rossini, un documento, p. 710.

٢ Alt. Kult., S. 148, Nallino, Raccolta, III, p. 133, Bury, History of the Roman Empire, II, p. 322.

٣ Philostorgius, I, II, 6, ZDMG., 31, 1877, S. 65.

عدد من الكتبة (الكلاسيكيين) فحسبوا الحميريين من الهنود ، كما ان بعضاً منهم ظنوا ان السبئيين من (الكوشيين) الحبش ، والذي أوقعهم في هذا الوهم هو صلات هؤلاء بافريقية وبالهند ، ولوقوع بلادهم على المحيط الهندي وعلى مقربة من افريقية [1] .

وجاء في رواية أخرى ان القيصر (قسطنطين) الثاني أرسل (ثيوفيلوس) الى ملك حمير Homeritae ونجاشي الحبشة Axume وذلك في عام (٣٥٦) للميلاد. برسائل كتبها القيصر الى الملكين . فلما أنهى مهمته لدى ملك حمير ، انتهز هذه الفرصة فزار وطنه الهند ، ثم عاد فذهب إلى الحبشة . وعاد منها فذهب الى أنطاكية Antiochia ومنها الى القسطنطنية [2] . ويظهر من هذه الرواية ان مهمته هذه لم تكن مهمة دينية ، انما كانت ذات طابع سياسي ، الغاية منها ضم حمير والأحباش إلى معسكر البيزنطيين .

وقد كان من مصلحة الحكومة البيزنطية بعد دخول القيصر (قسطنطين) في النصرانية عام (٣١٣) للميلاد واتخاذها ديانة رسمية للدولة ، ان ينشر هذا الدين ويكثر أتباعه ، لما في ذلك من فوائد سياسية ومصالح اقتصادية :فضلاً عن الأثر العميق الذي يتركه هذا العمل في نفوس أتباعه المؤمنين مما يرفع من مكانة القياصرة في نفوس الشعب ويقوي من مراكزهم ونفوذهم على الكنيسة والرعية . وبمساعدة هؤلاء القياصرة تمكن المبشرون من انشاء ثلاث كنائس في (ظفار) و (عدن) و (هرمز) [3] .

ولم يكن يقصد (قسطنطين) كما يرى المستشرق (روسيني) من إرسال الوفد الذي ترأسه (ثيوفيلوس) الى ملك حمير ، هدفاً دينياً محضاً ، وإنما أراد أن يعقد معاهدة تجارية مع الحميريين ويحقق له منافع اقتصادية وسياسية . بأن يحقق له التجارة البحرية ، ويحرض اليمانيين على الفرس ويدخلهم في معسكره بدخولهم

---

١ النصرانية (١/٥٣ وما بعدها) .

٢ Paulys — Wissowa, Zweite Reike, Zehuter Halbband, S. 2167, Philostorgius, Hist. Eccli., II, 6, Kidd, A History of the Church, II, 161, III, 429, Bury, History of the later Roman Empire, II, p. 322.

٣ Ency. of Relig. and Ethi., III, p. 589, Franz Stuhlmann, Der Kampf um Arabien, S. 12.

في النصرانية التي تجمع عندئذ بينهم وبين الروم[1] .

وورد في رواية أخرى أن الحميريين Homeritae دخلوا في عهد (انسطاس) (انسطاسيوس) (٤٩١ – ٥١٨ م) في النصرانية . وذكر أيضاً أنه كان في جملة من قصدوا القديس (سمعان العمودي) رجال من عرب حمير ، وقد رآهم (تاودوريطس) في القرن الخامس للميلاد[2] .

وأما الموارد السريانية ، ومنها الموارد النسطورية ، فتزعم أن تاجراً من أهل نجران اسمه (حنان) أو (حيّان) ، قام في أيام (يزدجرد) الأول (٣٩٩ – ٤٢٠ للميلاد) بسفرة تجارية الى القسطنطنية ، ثم ذهب منها الى الحيرة ،وفيها تلقن مبادىء النصرانية ودخل فيها . فلما عاد منها الى نجران ، بشر فيها بالنصرانية حتى تمكن من نشرها بين حمير . وترجع تواريخ البطارقة هذه الحادثة الى أيام بطرقة (معنى) Ma'na الموافقة لحوالى سنة (٤٢٠) بعد الميلاد[3] . وذكر أنه في عهد البطريق (سيلاس) Silas (٥٠٥ – ٥٢٣ م) ، هرب لاجئون من اليعاقبة Jakobiten الى الحيرة ، غير أن النساطرة أجلوهم عنها ،فذهب قسم منهم الى نجران ، فنشروا مذهبهم بين السكان[4] .

وتشير الأخبار الكنسية أيضاً الى أن رسولي الكلدان الأولين: (ادي) و (ماري) كانا قد سارا الى بلاد العرب سكان الخيام ، والى نجران وجزائر بحر اليمن . وجاء في المصحف الناموسي : « وبشر الجزيرة والموصل وأرض السواد كلها وما يليها من أرض التيمن كلها وبلاد العرب،سكان الخيام والى ناحية نجران والجزائر التي في بحر اليمن مارى الذي من السبعين »[5] .

وللحبش قصص عن انتشار النصرانية في نجران ، خلاصتها : ان قديساً اسمه

---

١ النصرانيه (٥٩/١) ،
Conti Rossini, un documento sul Cristianesimo nello Iemen, p. 710.

٢ النصرانية (٥٧/١ وما بعدها) ،
Mordtmann, in ZDMG., XXXI, 1877, S. 65, Theodorus, Lector, Histo. Eccl., I, II, p. 567, (ed. Valesius and Nicephorus Callistus).

٣ Chronik von Séert, II, 149, ABM, 22, Eduard Sachau, zur ausbreitung des Christentums in Asien, Berlin, 1919, S. 68.

٤ Chronik von Séert, II, 144.

٥ النصرانية (٥٨/١) .

(ازقير) Azkir ، أقام كنيسة ورفع الصليب وبشّر بالنصرانية في نجران ، وذلك في ايام الملك (شرحبيل ينكف) ملك حمير ، فاستاء من ذلك (ذو ثعلبان) و (ذو قيفان) ، وأرسلا رجالهما إلى المدينة لهدم الكنيسة وانزال الصليب والقبض على القديس ، ففعلوا وألقوا به في غياهب السجن . وفي اثنـاء اقامته فيه هدى قوماً من السجنـاء إلى النصرانية بفعـل المعجزات التي قام بها ، فغضب الملك (شرحبيل) عليه ، وأرسل الى القيلين اللذين كانا في نجران ان يرسلا اليه هذا الرجل الذي فتن الناس ، فأرسل مخفوراً اليه . وفي اثناء اجتيازه الطريق إلى عاصمة الملك ظهرت منه معجزات خارقة ، آمن بها عدد ممن رافقوه أو وقفوا على أحواله وتعمّدوا على يديه . فلما وصل إلى (ظفار) عاصمة (شرحبيل) ، انتهره الملك وحاجه في دينه وعرض عليه كتب (يهود) ، ثم أغراه بالذهب والمال ، فقال له القديس : « الذهب والفضة فانيان ، أما كرستس ساكن السماء فباق » . وقد حرضه عليه أحد الأحبار ، فأمر الملك عندئذ بارساله إلى نجران لقتله . فلما بلـغ المدينة ، قتله اليهود ، فمات شهيداً في سبيل دينه[1] .

وتزعم الرواية الحبشية ان نصارى اليمن كانوا يرسلون بهداياهم إلى النجاشي وبالضرائب يدفعونها اليه[2] .

وذكر ان أحد الأساقفة ممن كان في اليمن ، كان قد اشترك في أعمال مجمع (نيقية) الذي انعقد سنة ٣٢٥ للميلاد[3] . وإذا صح هذا الخبر ، فإنه يعني ان النصرانية كانت قد وجدت لها سبيلاً إلى اليمن في القرن الرابع للميلاد .

يتبين من هذه الأخبار أن النصرانية لم تدخل العربية الجنوبية من طريق واحد، وإنما دخلتها من الـبر ومن البحر ، دخلتها من البر من ديار الشأم الى الحجاز فاليمن ، ومن العراق أيضاً مع القوافل التجارية المستمرة التي كانت بـين اليمن والعراق . ودخلتها من البحر بواسطة السفن اليونانية ودخلتهـا مع الحبشة كذلك الذين كانوا على اتصال دائم باليمن وببقية العربية الجنوبية منذ أيام ما قبل الميلاد .

---

١ Winckler, AOF., IV, 1896, S. 329. ff., British Museum Orient., 686, 687, 688, 689.

٢ Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 50.

٣ النصرانية (٥٧/١) ، Nallino, Raccolta, III, p. 122, Caetani, Annali, I, p. 125.

وقد كانت نجران أهم موطن للنصرانية في اليمن ، ولعلها الموطن الوحيد الذي رسخت هذه الديانة فيه في هذه البلاد . وقد اشتهرت نجران بالحادثة التي وقعت فيها ، حادثة تعذيب النصارى ، وبما ذكره أهل الأخبار عن الكنيسة التي أنشأها الأحباش فيها وعرفت بـ (كعبة نجران) عند الأخباريين كما عرفت بـ (بيعة نجران) أيضاً . وفي رواية تنسب الى ابن الكلبي (أنها كانت قبّة من أدم من ثلاث مئة جلد ، كان اذا جاءها الخائف أمن ، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترفد أرفد . وكانت لعظمتها عندهم يسمونها كعبة نجران ، وكانت على نهر نجران ، وكانت لعبد المسيح بن دارس بن عدي بن معقل ، وكان يستغل من ذلك النهر عشرة آلاف دينار ، وكانت القبّة تستغرقها »[1] . وكان ينفق عليها من غلّة ذلك النهر .

وورد في رواية أخرى أنها كانت بناء بني على بناء الكعبة . وقد بناها بنو عبد المدّان بن الديّان الحارثي ، بنوها على بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاة لها . وكان فيها أساقفة معتمون ، وهم الذين جاؤوا الى النبي ، ودعاهم الى المباهلة[2] .

وتذكرنا قصة (ابن الكلبي) عن أصل كعبة نجران ، وأنها كانت من أدم ، بما نعرفه عن خيمة (يهوه) إله العبرانيين ، وتعبد الاسرائيليين له فيها قبل بناء الهيكل ، واعتقادهم أنها خيمة مقدسة ، وبما نعرفه من خيم القبائل المقدسة ، وذلك لأنها كانت بيوتاً توضع فيها الأصنام ويتعبد أفراد القبيلة بها ، فإذا ارتحلوا الى مكان جديد نقلوا خيمتهم معهم. والظاهر ان كعبة نجران المذكورة، إن صحت رواية ابن الكلبي ، كانت من هذا النوع ، خيمة مقدسة في الأصل وذلك قبل دخول أهل نجران في النصرانية ، فلما دخلوها ، لم تذهب عنها قدسيتها ، بل حوّلوها الى كنيسة ، ثم بنوا بيعة في موضعها فيما بعد .

وفي رواية ان قُس بن ساعدة الايادي كان أسقفاً على نجران[3] ، وهي رواية تحتاج الى سند موثوق به ، وقد أخذ بها (شيخو) وأمثاله ممن يرجع كل شيء

---

١ البلدان (٨/١٩٣) ، تاج العروس (١/٤٥٧) ، (٣/٥٥٦) ، ديوان الاعشى (١٢٢) ، (طبعة كاير) « Geyer) ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (٢٨٣) .
Raccolta, III, p. 127.

٢ البلدان (٨/٦٢٣) « نجران » ، تاج العروس (٣/٥٥٦) .

٣ Raccolta, III, p. 128, Lammens, Califat, p. 332.

من هذا القبيل في الجاهلية إلى النصرانية .

وقد كانت نجران المركز الرئيسي للنصرانية في اليمن عند ظهور الاسلام ، لها نظام سياسي واداري خاص تخضع له ، وعليها : (العاقب) ، وهو كما يقول أهل السير : « أمير القوم ، وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم ،والذي لا يصدرون إلا عن رأيه » ، و (السيد) ، وهو « ثمالهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم » ، و (الأسقف) ، وهو « حبرهم ، وإمامهم، وصاحب مدراسهم »[1] . ويقصدون به رئيس نجران الديني الذي اليه يرجعون في أمور الدين . أما العاقب والسيد ، فإليهما ادارة الجماعة ، والإشراف على شؤونهم السياسية والمالية ، وتدبير ما يحتاج المجتمع اليه من بقية الشؤون[2] .

وقد صالح أهل نجران خالد بن الوليد ، في زمن النبي ، في السنة العاشرة من الهجرة ، وبذلك دخل أكثر سكان المدينة في الاسلام . أما من بقي على دينه من النصارى ، فقد فرضت عليه الجزية[3] .

ويذكر أهل السير ان اسم عاقب نجران في ايام النبي ، هو (عبد المسيح) رجل من كندة . وقد قدم على رأس وفد من أهـل نجران إلى يثرب ، فقابل الرسول ، وتحدث معـه . وكان معه (الأيهـم) وهو سيد نجران يومئذ ، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل ، وكان أسقفهم وحبرهم وإمامهم يومئذ ، وله مقام عظيم عندهم ، « وقد شرف فيهـم ، ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه ، وأخدموه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه »[4] .

وإذا صح ما رواه أهل الأخبار من أن عاقب نجران كان كندياً ، وأن أسقفها كان من (بكر بن وائل) ،فإن ذلك يدل على أن الرئاسة عند النصارى العرب ،

---

١ ابن هشام (٢٠٤/٢) ، تاج العروس (٣٨٩/١) ، (عقب) ، (١٤١/٦) ، (سقف) ، اللسان (٥٧/١١) ، « وصاحب مدارسهم » ، ابن سعد (٣٥٧/١) .

٢ Raccolta, III, p. 128.

٣ الطبري (١٥٧/٣) ، « حوادث السنة العاشرة » ، البلدان (٢٦١/٨ وما بعدها) .

٤ ابن هشام (٢٠٤/٣) ، تاج العروس (٣٨٩/١) ، اللسان (١٠٥/٢) ، ابن سعد (٣٥٨/١) ، نهاية الارب (١٢١/١٨) .

لم تكن تتبع العرف القبلي في الزعامة ، وإنما كانت عن تنسيب واختيار ، وأنا لا استبعد احتمال وجود مراجع دينية عليا ، كانت هي التي تتولى النظر في ادارة الكنائس وفي تعيين رجال الدين وفي النظر في المشكلات التي تقع بين النصارى ، أو بين النصارى وغيرهم ، وفي أمر مساهمة النصارى العرب في المجامع الكنسية التي تنظر في المسائل العامة للطوائف .

ويرى بعض أهل الأخبار أن « السيد والعاقب أسقفي نجران اللذين أرادا مباهلة رسول الله » هما من ولد الأفعى بن الحصين بن غنم بن رهم بن الحارث الجرهمي، الذي حكم بين بني نزار بن معد في ميراثهم ، وكان منزله بنجران [1] .

ويذكر علماء اللغة ، أن (العاقب) من كل شيء آخره ، والعاقب السيد ، وقيل الذي دون السيد ، وقيل الذي يخلف السيد ، وقيل : الذي يخلف من كان قبله في الخير كالعقوب [2] . والذي أوحى اليهم بهذا التأويل والتفسير ، ظاهر لفظة (عقب) في عربيتنا التي منها اشتقت لفظة (العاقب) على رأيهم . والصحيح أنها لفظة عربية جنوبية وردت في المسند، بمعنى (رئيس) وممثل قوم ، أي رسول قوم ، فورد (عقبت نشقم) ، أي (رئيس) مدينة (نشق) [3] ، وبمعنى ممثل مدينة (نشق) [4] .

وذكر ان نصارى نجران ، أرسلوا العاقب والسيد في نفر لمحاججة رسول الله فيما نزل عليه في المسيح ، من انه عبدالله ، حيث كبر ذلك عليهم سماعه، فأخذوا يخاصمونه ويجادلونه فيه ، وألحوا عليه بالجدل والخصومة ، فدعاهم الى الملاعنة ، فامتنعوا ودعوا الى المصالحة ، فصالحهم [5] . وانه الى ذلك أشير في القرآن الكريم : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم . فقل : تعالوا : ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» [6] .

---

١ المحبر (١٣١) .

٢ تاج العروس (١/٣٨٩) ، (عقب) .

٣ Jamme 619, Ma Mb 178, Mahram, p. 120.

٤ Jamme, South Arabian Inscription, p. 445.

٥ ارشاد الساري (٦/٤٣٧) .

٦ ال عمران ، الابه رقم ٦١ ، تفسير الطبري (٣/٢٠٩ وما بعدها) ، روح المعاني (٣/١٦٥) ، أمتاع الاسماع (١/٥٠٢) ، الواحدي ، أسباب (٧٤) ، ابن سعد (١ قسم ٢ ص ٨٤) ، ارشاد الساري (٦/٤٣٧) .

وورد أيضاً انه لما بعث رسول الله وسمع به أهل نجران أتاه منهم أربعة نفر من خيارهم منهم العاقب والسيد ، و (مار سرجس) ، و (مار يحز) ، «فسألوه ما يقول في عيسى . فقال : هو عبدالله وروحه وكلمته . قالوا هم : لا،ولكنه هو الله نزل من ملكه ، فدخل في جوف مريم ، ثم خرج منها ، فأرانا قدرته وأمره ، فهل رأيت قط انساناً خلق من غير أب ؟ فأنزل الله ، عز وجل ، إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون »[1].

وقد كان لنصارى اليمن كنائس أخرى غير كنيسة (نجران) : فقد كانت لهم كنيسة عظيمة في (صنعاء) ، هي (القليس) التي اكتسبت شهرة عظيمة في كتب الأخبار والتواريخ. وهي كنيسة (أبرهة) ، من أصل (اكلسيا) Ecclysia اليوناني بمعنى الكنيسة ، وموضعها الآن جامع (صنعاء) على ما يظن . وقد أبدع الأحباش في تزيينها وتجميلها ، وأنفقوا عليها مبالغ طائلة .

كما كانت لهم كنائس في (مأرب) و (ظفار) . وقد عهد الأحباش بتدبير شؤون كنيسة (ظفار) الى أسقف شهير يقال له (جرجنسيوس) (جورجيسيوس) (جرجيسيوس) . وهو مؤلف كتاب شرائع الحميريين . وله مناظرات مع اليهود[2] .

وقد بقيت النصرانية قائمة في اليمن في أيام الاسلام ، ففي الأخبار الكنسية أن رئيس البطارقة النساطرة (طيموثاوس) ، نصب في أواخر القرن الثامن للميلاد أسقفاً لنجران وصنعاء ، اسمه (بطرس)[3] . وفي (الفهرست) لابن النديم ، أنه التقى براهب من نجران يدعى حسّان ، كان قد أنفذه الجاثليق الى الصين ، ليتفقد مع خمسة أناسي من النصارى أحوال نصاراها ، فعاد منها سنة (٣٧٧) للهجرة ، وأخبره بعجائب تلك البلاد[4] . وذكر أنه في حوالي سنة ١٢١٠ للميلاد كان في منطقة صنعاء خمسة أساقفة ، وأسقف في مدينة زبيد وأسقف في نجران ، وأنه كان في حوالى سنة ١٢٥٠ للميلاد أسقف في عدن[5] .

---

١ تفسير الطبري (٣/ ١٩ وما بعدها) .
٢ النصرانية (١/ ٦٤) . Migne, Patr. Grae., 86, 567-620.
٣ النصرانية (١/ ٦٧) .
٤ الفهرست (٥٠٤) « مطبعة الاسقامة » .
٥ النصرانية (١/ ٦٧) .

إن بقاء النصرانية في نجران وفي مواضع من اليمن وأنحاء أخرى من جزيرة العرب ، وبقاء اليهود في اليمن الى زمن غير بعيد ، يشير الى أن ما ذهب اليه كثير من المؤرخين من إجلاء أهل الكتاب بأمر الخليفة (عمر) عن جزيرة العرب ثم بقية الخلفاء الذين ساروا على حكم : «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» فيه مبالغة[1] . والظاهر أن الاجلاء كان قاصراً على المواضع التي تعرضت فيها جاليات أهل الكتاب فيها للإسلام بسوء . فطبق على جاليات يهود يثرب ومن كان يسكن الى الشمال منهم ، لوقوفهم موقفاً معادياً شديداً من الاسلام ، ولعملهم في إثارة الفتن على المسلمين . ومن يدري فلعلهم ولعل أهل الكتاب عموماً ساعدوا في قيام الردة وتشجيع المتنبين والمرتدين للقضاء على الخطر الذي زعموه ، خطر ظهور الاسلام وانتشاره في جزيرة العرب وفي خارجها ، وقيام دولة موحدة كبيرة فيها. ومن يدري أيضاً ، فلعل الروم والأحباش كانوا أيضاً في جملة من كان يحرض أهل الكتاب على الدس للإسلام،وأن بعض من أعلن الردة مثل (النعمان الغرور) وهو نصراني ، وغيره ممن ارتد معه من النصارى ، كانوا قد تلقوا عوناً من الخارج ، وهذا ما حمل الخليفة على اتباع قاعدة إجلاء الدساسين من أهل الكتاب مهما كان نوعهم عن جزيرة العرب لحماية الاسلام من خطر الفتنة ومن الردة ، ولم تكن قواعده قد تركزت واستقرت استقراراً تاماً بعد .

إن الذي افهمه من سياسة إجلاء (عمر) لأهل الكتاب ، هو ان ذلك الإجلاء كان خاصاً بالجاليات اليهودية التي كانت تقيم فيما بين فلسطين ويثرب ، وقاصراً عليها ، بسبب وقوفها موقفاً معادياً من الاسلام ، أما النصارى فلم تكن لهم جاليات هناك ، فلم يقع إجلاء لهم فيها . ولكن (عمر) ومن جاء بعده لم يطبقوا الإجلاء على الأسر والأفراد ، بدليل ما نجده في أخبار أهل الأخبار من وجود أسر وأفراد من يهود ونصارى في يثرب وفي مكة وفي الطائف بعد وفاة عمر .

أما في غير الحجاز من بقية أنحاء جزيرة العرب ، فلم يطبق قانون (عمر) على أهل الكتاب ، بدليل دفع جالياتهم (الجزية) عن رؤوسهم في ايامه الى وفاته ، ثم في ايام من جاء بعده من الخلفاء . فكأن الخليفة ، قد طبق أمر الإجلاء على

---

[1] « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاخرجن اليهود والنصارى عن جزيرة العرب حتى لا أدع فيها الا مسلما » ، البلدان (٢٦٣/٨) .

يهود الحجاز لخوفه من خطر بقائهم في مقر الاسلام وفي مدينة الرسول ومن احتمال عودة من هاجر منهم الى أرضهم وتكتلهم من جديد ، وإثارتهم من لم يكن قد تمكن الاسلام من قلبه بعد ، فيقع للاسلام ما وقع في ايام الرسول من اتصالهم سراً بكفار قريش ، ومن حدوث ردة جديدة ، فقرر إجلاءهم جماعة عن تلك الديار .

النصرانية في بقية مواضع جزيرة العرب :

وكان التجار الروم ينزلون سواحل العربية الجنوبية للتزود منها بالماء وبالطعام وللاتجار مع سكانها ، ومنهم من أقام بها وقضى حياته فيها ، وتعرب . وكان منهم من بشّر بالنصرانية وعمل على نشرها بين السكان . ولعل الحكومة البيزنطية كانت ترسل المبشرين إلى هـــذه المواضع للتبشير ، كذلك أرسل نصارى الحيرة المبشرين لنشر نصرانيتهم في العربية الجنوبية[1] . وبعد دخول هذه البلاد في الاسلام احتفظ قوم من النصارى بدينهم ، مقابل دفع الجزية للمسلمين[2] .

وأما اليمامة ، فكانت النصرانية قد وجدت لها سبيلاً بين قراها وقبائلها. ويظهر من شعر للأعشى مدح به (هوذة بن على) حاكمها عند مبعث الرسول ، انه كان نصرانياً منّ على قوم من (تميم) ففك وثاقهم يوم أسروا ، ويوم قتلوا وسط (المشقر) ، ومنّ عليهم (يوم الفصح) ، يرجو الإلـه بما سدى وما صنعا[3] .

وأما العربية الشرقية ، فقد دخلت النصرانية اليها من الشمال ، من العراق في الغالب . ولكن بعض الروم كانوا قد وجدوا سبيلهم اليها ، فدخلوها من البحر أيضاً . فعششت في مواضع منهـا مثل البحرين ، وقطر ، وهجر ، وبعض جزر الخليج . وكانت غالبيـــة نصارى هذه الأرضين على مذهب نسطور آخذين هذا المذهب من نصارى الحيرة الذين كانوا على اتصال وثيق بهم ، كما كـان رجال دينهم يسافرون الى هذه المنطقة للتبشير بها ، فزرعوا فيها بذور مذهبهم، ونشروه بين من أقبل على النصرانية من العرب .

---

١ النصرانية (٧٠) ·
٢ البلاذري (٨٤) ·
٣ ديوان الاعشى (٨٦) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٥/٢١١) ·

ومن رجال البحرين النصارى (الجارود بن عمرو بن حنش المعلى)[1] ، قدم على النبي بالمدينة ، فأسلم وأسلم معه أصحابه. وكان حسن الاسلام صلباً حتى هلك ، وقد لام قومه ممن انضم الى (المنذر بن النعمان بن المنذر) الغرور ، فارتد عن الإسلام وعاد الى دينه الأول[2] . وقد بقي إلى أيام (عمر) في أغلب الروايات والى خلافة عثمان في رواية . واشترك في حروب فارس ، فقتل بها بـ (عقبة الطين) ، التي عرفت باسمه ، فقيل لها عقبة الجارود ، وذلك سنة احدى وعشرين في خلافة عمر ، وقيل قتل بنهاوند مع النعمان بن مقرن . وقد رووا له شعراً . وكان ولده (المنذر بن الجارود) من رؤساء (عبد القيس) بالبصرة . وحفيده (الحكم بن المنذر) الذي مدحه (الأعشى الحرمازي) بشعر حسده الحجاج عليه[3] .

---

١ **ويقال ابن عمرو بن المعلي ، وقيل الجارود بن العلاء ، وورد الجارود بن عمرو بن** حنش ، « والجارود لقب بشر بن عمرو بن حنش بن المعلي من بني عبد القيس العبدى الصحابي ، رضي الله عنه · كنيته أبو المنذر ، وقيل أبو غياث ، وهو أصح) ، تاج العروس (٢/٣١٨) ، (جرد) ·

٢ الطبري (٣/١٣٦ وما بعدها) ، « قدوم الجارود في وفد عبد القيس » ·

٣ الاصابة (١/٢١٧) ، (رقم ١٠٤٢) ·

الفصل الثمانون

المذاهب النصرانية

لقد أصيبت النصرانية بما أصيبت به أكثر الأديان من تشقق وتصدع وانفصام، فظهرت فيها شيع وفرق ، تخاصمت فيما بينها وتجادلت . وكان أكثر جدالها في موضوع طبيعة المسيح وعلاقة الأم بالابن ، وفي موضوع النفس ، وقد عقدت لذلك جملة مجامع كنسية للنظر في هذه الآراء والحكم على صحتها أو فسادها ، وفي أمر أصحابها ، اجتمع فيها مندوبون من مختلف الأماكن وبينهم بعض الأساقفة العرب . غير انها لم تتمكن من القضاء على النزعات المختلفة ، فظهرت فيها جملة مذاهب ، حرمت المجامع أصحابها ، وحكمت ببدعتهم وبخروجهم على التعاليم الصحيحة ، وطلبت من بعضهم الرجوع إلى الدين الصحيح ، غير ان منهم من أصر على رأيه ، وتحزب له ، وبشّر به ، فوجد أنصاراً وأعواناً انتموا اليه وتسمّوا به .

والواقع انه لم يكن من السهل على الداخلين في النصرانية فهم قضية معقدة كهذه القضية ، وهي قضية فلسفية جدلية أكثر منها عقيدة دينية . ولذلك كان من الطبيعي وقوع الاختلاف فيها ، وتشتت آراء النصرانية بالقياس اليها ، خاصة وهي حديثة عهد ، وأكثر الداخلين فيها هم ممن دخلوا حديثاً في هذا الدين ، وليس لهم الإدراك العميق والخيال الواسع لفهم موضوع كهذا الموضوع . ثم إن النصرانية ديانة عالمية ، لم توجه لأمة خاصة من الأمم ، وقد جاءت ككل الأديان بأحكام لا بد وان يختلف الناس في فهمها ، لاختلاف المدارك والثقافات ، وهذا

الاختلاف في الفهم ، يؤدي الى ظهور المذاهب والشيع ،والى تناحر هذه المذاهب، وادعاء كل واحد منها انه وحده على الحق ، وان ما دونه على الباطل والهرطقة والكفر .

لقد فتح (بولس الرسول) وأتباع المسيح الآخرون ميداناً واسعاً من الجدل في موضوع المسيح : هل المسيح إنسان ، أو هو ربّ ، أو هو من خلق الرب؟ وهل هو والربّ سواء ، أو هو منفصل عن الربّ ؟ هذه الأسئلة وأمثالها مما يتصل بطبيعة المسيح شغلت رجال الكنيسة ، وكتّلتهم كتلاً : كل كتلة ترى أن رأيها في الطبيعة هو الرأي الصواب ، وأنه هو الدين الحق القويم ، وأن ما دونه ضلال وباطل . فظهرت المذاهب : شرقية وغربية ، وانقسمت الكنيسة على نفسها ، فظهرت من الكنيسة الواحدة كنائس . ولا تزال تنشق ، ويزيد عددها وتظهر أسماء جديدة لمذاهب لم تكن معروفة في النصرانية القديمة .

لقد كان الناصريون الأولون ، وهي التسمية القديمة التي عرف بها النصارى ، في فوضى فكرية . فلم تكن تعاليم المسيح مفهومة عندهم ولا مهضومة ، وكانت تفاسير تلاميذه غير منسقة ولا مركزة تركيزاً يكفي لتوجيه الناصريين وجهة معينة واحدة . ثم إن تعقب اليهود والرومان للنصارى وتنكيلهم بهم ، وخوف الناصري على حياته وعلى ماله إذا تظاهر بدينه : كل هذه كان لها أثر خطير في المجتمع النصراني الأول . ولولا جلد بعض التلاميذ وتفانيهم في الدعوة ، وتركيزهم لتعاليمها وتبويبها وصقلها ، لما كان للنصرانية ذكر باق حتى الآن .

وليس في استطاعة أحد الزعمُ بأن هذه النصرانية التي تركّزت وتثبتت على هذه الصورة التي نشهدها،هي النصرانية التي جاء بها المسيح وكان عليها الناصريون، أي أقدم أتباع عيسى . فالنصرانية هي سلسلة تطورات وأفكار وآراء وضعها البارزون من الآباء ، ثم إنها كأكثر الأديان تأثرت بمؤثرات عديدة لم يكن من الممكن على الداخلين فيها التخلص منها . فدخلت فيها وصارت جزءاً منها ، مع أن بعضها مناهض ومناقض لمبادىء هذا الدين .

وتولد عن هذا الجدل ظهور (الآريوسية) أتباع (آريوس) و (السبيلية) Sabellians وأتباع (الثالوث) Trinitarians ومذاهب أخرى نبعت من تلك البلبلة الفكرية التي أظهرها الاختلاف في طبيعة المسيح . ونظراً الى ما أحدثته هذه الآراء

اللاهوتية من انقسام وتفرق في صفوف النصارى ، وما تركته من أثر خطير في الأحوال الداخلية للانبراطورية . عزم الانبراطور (قسطنطين) باني القسطنطنية على عقد مؤتمر للتوفيق بين هذه الآراء وتنسيقها ، فعقد مجمع (نيقية) Nicaea حضره (آريوس) للدفاع عن نفسه وحضره جمع من الأساقفة المخالفين له لمحاكمته ولاثبات هرطقته وخروجه علي الايمان الصحيح. وكانت النتيجة الوحيدة لهذا المؤتمر وضع بيان دقيق عن الثالوث ، والحكم بفساد رأي آريوس وبخروجه على عقيدة النصرانية الصحيحة ، ووضع تعريف للايمان الصحيح[1] .

وعقب هذا المجمع الذي انعقد في سنة (٣٢٥) للميلاد وحدد معنى النصرانية وأصولها ، عدة مجامع عقدت للنظر في أمثال هذه المشكلات الخطيرة التي جابهت الكنيسة ، عقد بعضها في القسطنطنية فعرفت بها ، وعقد بعض آخر في (أفسوس) (٤٣١ م) وفي (خلقدونيا) Chalcedon (٤٥١ م) ، ولكنها لم تستطع ان تعيد الوحدة الى الكنيسة ، فانقسمت الى عدة كنائس ، وحدث الانفصال الأكبر في سنة (١٠٥٤م) حيث تجزأت الكنيسة الكبرى للانبراطورية الى كنيستين: كنيسة غربية استعملت اللغة اللاتينية لغة رسمية لها ، وكنيسة أرثوذكسية هي الكنيسة الإغريقية الأصلية ، وذلك بسبب خلافات بسيطة ليس لها أثر خطير في جوهر العقيدة . أما الشرق ، أي آسية وافريقية ، فقد سبق نصاراه نصارى الغرب في تحطيم وحدة الكنيسة ، فظهرت عندهم الكنيسة النسطورية والكنيسة اليعقوبية ، في زمان مبكر سبق انفصال الكنيسة اللاتينية عن الإغريقية بزمان طويل .

وقد وصلت الينا أسماء من حضر بعض تلك المجامع الكنيسية ، واشترك في جدالها ومناقشاتها ووقع على قراراتها ومحاضرها ، وبينها أسماء أساقفة بشروا بين العرب ، وأساقفة يظهر أنهم كانوا من أصل عربي بدليل أسمائهم العربية الخالصة أو المنقولة الى اليونانية والسريانية . وقد عرف بعضهم بأساقفة الخيام ، لمرافقتهم للأعراب ومعيشتهم بينهم في الخيام معيشة الأعراب[2] .

---

١ مجلة المشرق ، السنة الثالثة والعشرون (١٩٢٥) ، العدد ٧ ، (٤٨١ وما بعدها) ، خلاصة تاريخ الكنيسة ، لـ « لومند » ، ترجمة الخوري يوسف السمناني ، مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين ، بيروت ١٨٨١ ، في جزءين (١٧٤/١ وما بعدها) ، Ency. Religi. and Ethic, I, pp. 775, (Arianism)

٢ النصرانية (٣٣/١ وما بعدها) .

ومن أساقفة الأعراب أسقف عرف باسم (بطرس) ، وقد وقع على أعمال مجمع (أفسوس) بصفة كونه (أسقف محلة العرب) ، والأسقف (تاوتيموس أسقف العرب) الذي وقع على أعمال مجمع انطاكية الذي انعقد عام ٣٦٣ للميلاد[١].

وقد كان بين أساقفة القدس في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس للميلاد ، أسقف من أصل عربي ، اسمه الياس (٤٩٤ – ٥١٣ م)[٢] .

فالأساقفة الذين كانوا يديرون أمور النصارى العرب ويبشرون بين القبائل الوثنية ، أسهموا في الجدل الديني الذي قام أكثره على بحث موضوع طبيعة المسيح واشتركوا فيه ، وبذلك نقلوا الى العرب هذه الأبحاث اللاهوتية التي شغلت بال العالم المتمدن منذ القرن الأول للميلاد فما بعده ، وكانت أهم مشكلات النصرانية يومئذ مشكلة شغلت بال المؤمنين ، ثم بال الحكومة البيزنطية بعد تنصرها وبال أتباعها المؤمنين ، وشغلت العالم الغربي حتى بعد عصر النهضة ، مشكلة أطاحت برؤوس الآلاف من الناس باسم الكفر والايمان ، البدعة والحق . وكان في جملة ما أسهم فيه رؤساء أديرة اقليم العربية وضع رسالة مضمونها دستور الايمان، كتبها أولئك الرؤساء ، ووجهوها الى يعقوب البرادعي ، ردّوا فيها على رأي يحيى النحوي في تثليث الجوهر الفرد ، وذلك بين السنتين ٥٧٠ و ٥٧٨ للميلاد . وقد وقعها ١٣٧ رئيساً لـ ١٣٧ ديراً في اقليم العربية الممتد من شرقي بلاد الشأم الى الفرات[٣] .

ومن المذاهب النصرانية التي تدخل في حدود موضوعنا : المذهب النسطوري والمذهب اليعقوبي ، وهما من المذاهب الشرقية ، أي من المذاهب النصرانية التي ظهرت وانتشرت في الشرق ، ووجدت لها مجالاً وانتشاراً في العراق وفي بلاد الشأم ومصر والحبشة وجزيرة العرب .

أما المذهب النسطوري ، فينسب الى البطريق (نسطوريوس) (نسطور) Nestorius من (جرمانيقية) Germanicia ، وهي (مرعش) المتوفى سنة (٤٥٠ م) ، وله رأي ومقالة في طبيعة المسيح . فجعل للمسيح طبيعتين

---

١ المسرق ، العدد ١٢ ، الجزء الخامس (٣٥٣) ، النصرانيه (١/ ٣٤) .

٢ W. Smith, A Dictionary of the Bible, II, p. 84.

٣ النصرانيه (١/ ١٠٥ وما بعدها) .

(اقنومين) : أقنوم الانسان يسوع ، وأقنوم الله الكلمة ، وذكر ان مريم هي بشر ولدت بشراً هو المسيح الذي هو إلـه من ناحية الأب الإلـه فقط[1] .

وتستند تعـاليم نسطور وآراؤه الى الجدل الذي أثاره من تقدمه من الآباء في موضوع طبيعة المسيح ، والانشقاق الذي حدث نتيجة لهـذا الجدل . وأكثر من أثر فيه وكوّن له رأياً في المسيح هو (ديودورس) Diodorus أسقف (طرسوس) Tarsus و (ثيودور المصيصي) (٣٩٣ – ٤٢٨ م) تلميذ (ديودورس) . وفي انطاكية وقف (نسطور) على آراء هذين العالمين ، وكان قد ترهب وسكن هذه المدينة في عام (٤٢٨ م) وتحمس لها وبشر بها بين الناس ، فأثار عليـه غضب رجال الكنيسة المعارضين لتلك الآراء ، فصاروا يندودون به . وبما يقولـه ويبشر به ، وعدّوه ملحداً خارجاً على تعاليم الكنيسة الصحيحة وعلى مبادىء الدين القويم .

ولنشاط (نسطور) في بث هذه الأفكار وعدم تراجعه عنها ، طلب اليـه المثول أمام مجلس اجتمع فيه كبار رجال الدين لمحاكمته عرف بـ (مجمع أفسوس) انعقد في عيد العنصرة من عام (٤٣١ م)،وبعد محاكمات ومناظرات قرر المجتمعون الحكم بهرطقة هذه الآراء وبمخالفتها للمبادىء العامة التي تدين بها الكنيسة ، وبذلك كان الحكم عـلى نسطور وأتباعه بالضلال والإلحاد وبعزله من أسقفية القسطنطنية حكماً رسمياً . ومعنى ذلك مقاومة القائلين بهذه الآراء واضطهادهم والتضييق عليهم في حكومة لها كنيسة خاصة ترى أنها على الحق وأن ما دونها على عمى وضلال .

وكانت(الرها) Edessa أهم مركز ثقافي للنساطرة ، ومن أهم معاقل الأدب السرياني . أمّها كثير من طلبـة العلم السريان للتثقف بها ، ولا سيما في عهـد الأسقف (ايباس) Ibas (٤٣٦ – ٤٥٧ م) الذي انتخب أسقفاً لهذه المدينة بعد وفاة أسقفها (ربولا) Rabbula في عام (٤٣٦ م) . ثم نالت (نصيبين) Nisibis مكانة كبيرة في النسطوريـة ، خاصة بعـد وفاة ايباس ، وانتخاب

---

١ المشرق : السنة ١٩٣١ (٦١٥) ، « لا يدع أحد مريم أم الله لانها كانت امرأة ، ومن المستحيل أن يولد الله من امرأة » ، علوم اليونان وسـبل انتقالها الى العرب ، أوليري ، تعريب الدكتور وهيب كامل (ص ٢٥٤) ، شرح الاصول الخمسة ، لقاضي القضاة ، عبد الجبار بن أحمد ، « تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمـان » ، القاهرة ١٩٦٥ ، (ص ٢٩٢ ، ٣٩٥ وما بعدها) .

(نونوس) Nounus أسقفاً للمدينة ، وكان هذا متأثراً بالآراء البيزنطية كارهاً للنسطورية ، لذلك رأى النساطرة الانتقال عن (الرها) الى أماكن أخرى لا أثر لنفوذ هذا الأسقف عليها ، فكانت (نصيبين) الموقع المختار من بين هذه الأماكن، ونالت الحظوة عند رجالهم ، واحتلت مكانة (الرها) في العلم[1] .

ولكن الأسقف (نونوس) كان أسقفاً واحداً من عدد عديد من رجال الدين الرسميين الذين يمثلون كنيسة الروم ، الكنيسة التي حكمت حكماً رسمياً بهرطقة (نسطور) ، لذلك كان على النسطورية مواجهة الاضطهاد والمقاومة في أي مكان من الأماكن الخاضعة للروم ، أو التابعة لكنيستهم ، وللكنائس المعارضة لآراء نسطور . لذلك فكر النساطرة في حمل آرائهم ومعتقداتهم الى بلد أملوا ان يتمتعوا فيه بحريتهم في ممارسة شعائرهم الدينية ، لمعارضته للانبراطورية البيزنطية وتشجيعه كل حركة مناوئة لها ، ثم لأن له حكومة ذات دين آخر بعيد عن النصرانية ، فهي اذن لا تتدخل في أمور المذاهب النصرانية إلا إذا كانت مشايعة للروم ، وليست النسطورية من هذه المذاهب .

وقد أظهر (الشاهنشاه) ملك الملوك ، استعداده لحماية النساطرة ومنحهم الحرية الدينية وحرية التبشير بمذهبهم بين رعاياه ، كما أظهر رغبته في الاستفادة من علمهم ودرايتهم ، فاختارهم للأعمال التي لم يكن فيها متخصصون من أتباعه ، وسمح لهم بالتدريس وبتهذيب الناس وبتعليمهم الفلسفة اليونانية ، ولا سيما فلسفة أرسطو والطب،وغدت (سلوقية) Seleucia على نهر دجلة قبالة العاصمة (طيسفون) مركزاً ثقافياً خطيراً ينافس (الرها) و (نصيبين) ، وصار هذا المركز من أهم معاقل النسطورية والتبشير في العراق وفي سائر أنحاء انبراطورية الفرس .

ومن هؤلاء النساطرة تعلم عرب بلاد العراق وعلى رأسهم أهل الحيرة النسطورية، ومن أهل الحيرة انتقلت الى جزيرة العرب . ولما كانت السريانية هي اللغة الرسمية لهذه الكنيسة ، صارت هذه اللغة بهذه الصفة لغة نصارى العرب ، بها يرتلون صلواتهم في الكنيسة وبها يكتبون ، وإن كانت بعيدة عنهم غير مفهومة لدى

---

[1] أدي شير (٢/١٣٠) ، المسرق ، ١٩١٠ م (ص ٣٩٠) ،
Socrates Scholasticus, Hist. Eccl., VII, 29-35, O'leary, p. 133, Ency. Relig. Ethi., p. 323.

الأكثرية منهم . لقد كانت على كل حال لغة رجال الدين . وجلّهم من رجال العلم في ذلك الزمن . فهي عندهم لغة للدين وللعلم ، كما كانت اللاتينية لغة للدين والعلم عند الرومان ، والإغريقية لغة للدين والعلم عند اليونان ، والعربية عند المسلمين .

وأنا حين أقول ان النسطورية كانت قد وجدت لها سبيلاً الى أهل الحيرة ، فدخلت بينهم ، فأنا لا أقصد بقولي هذا ان أهل الحيرة كانوا جميعاً على هذا المذهب ، أو انهم كانوا كلهم نصارى . فقد كان جلّ أهل الحيرة على دين أكثر ملوكهم ، أي على الوثنية ، أما الذين اعتنقوا النصرانية ، فهم العباديون ، وبينهم قوم كانوا على مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة ، أي مذهب اليعاقبة ، وبينهم من كان على مذهب آخر .

وقد تسربت النسطورية الى العربية الشرقية من العراق وايران ، فدخلت الى (قطر) والى جزر البحرين وعمان واليمامة ومواضع أخرى . وورد في أسماء من حضر المجامع النسطورية اسم اسقف يدعى (اسحاق) اشترك في مجمع النساطرة الذي عقد سنة ٥٧٦ م ، كما ذكر اسم أسقف آخر يدعى (قوسي) اشترك في مجمع سنة ٦٧٦ م . وقد كانا أسقفين على (هجر)[1] . كذلك وردت أسماء أساقفة من النساطرة تولّوا رعاية شؤون أبناء طائفتهم في جزيرة (دارين) وفي جزيرة (سماهيج) وفي مواضع أخرى من الخليج ، تولى بعضهم أعماله قبيل الإسلام وعند ظهوره ، وتولى بعضهم رعاية شؤون أتباعه في أوائل عهد الإسلام[2] .

ومن الحيرة انتقلت النسطورية الى اليمامة فالأفلاج فوادي الدواسر الى نجران واليمن ، وصلت اليها بالتبشير وبواسطة القوافل التجارية ، فقد كانت بين اليمن والحيرة علاقات تجارية وثيقة ، وكانت القوافل التجارية تسلك جملة طرق في تنمية هذه العلاقات وتوثيقها . وقد قوي هذا المذهب ولا شك بعد دخول الفرس الى اليمن ، لما عرف من موقف رجاله من كنيسة الروم ، ولما كان لأصحابه من نفوذ في بلاط (الشاهنشاه) ومن صداقته لهم[3] .

---

١ النصرانية (٧١) .

٢ النصرانية (٧١) .

٣ النصرانية (٥٩/١ وما بعدها) ،
Assemani, Bibl. Orient , 3, 603, Philiby, Arabian Highlands, p. 261.

وتعزو التواريخ النسطورية انتشار النصرانية في نجران الى رجل اسمه (حسّان) أو (حنّان) أو (حيّان) ، ذكرت أنه ذهب في أيام (يزدجرد) (٣٩٩ — ٤٢٠ م) الى القسطنطنية للاتجار . فلما أنجز ما ذهب اليه ، عاد الى وطنه سالكاً اليه طريق (الحيرة) ، وهناك اتصل بنصاراها ، ودخل في النصرانية التي استهوته، فلما بلغ نجران مدينته ، نشط فيها بنشر الدعوة بين الناس حتى دخل فيها كثير منها ومن بقية حمير[١] .

وقد ورد ان البطريق (تيموثيوس) Timotheos الأول (٧٨٠ — ٨٢٣ م) كان قد نصّب أسقفاً نسطورياً على اليمن[٢]. وقد سعى الفرس لنشر مذهب النساطرة بين أهل نجران ، كما سعوا في تقوية الصلات بين الحيرة ونجران . واذا علمنا ان الفرس أنفسهم لم يكونوا على دين المسيح ، عرفنا الأهداف السياسية البعيدة التي كانوا يبتغونها من هذا التقارب ومن نشر المذهب النسطوري في اليمن .

وقد بقيت النسطورية قائمة في اليمن في ايام الاسلام ، ففي الأخبار الكنسية ان رئيس البطارقة النساطرة (طيموثاوس) ، نصّب في أواخر القرن الثامن للميلاد أسقفاً لنجران وصنعاء ، اسمه (مار بطرس) . وان أساقفة من النساطرة كانوا في مواضع متعددة من اليمن وفي عدن ، وذلك في القرن الثالث عشر للميلاد[٣] .

أما اليعاقبة ، فقد انتشر مذهبهم بين عرب بلاد الشأم والبادية ، وقد اصطدم هذا المذهب بالكنيسة الرسمية للبيزنطيين ، واعتبرته من المذاهب المنشقة الباطلة ، لذلك حاربته الحكومة ، وقاومت رجاله . كما عارضه النساطرة ، لاختلافه معهم في القول بطبيعة المسيح ، وفي أمور أخرى ، وهذا ما حمل النساطرة على الحكم بهرطقة اليعاقبة ، كما حمل هذا الاختلاف اليعاقبة على الحكم بهرطقة النساطرة ، حتى صار اختلاف الرأي هذا سبباً في وقوع معارك كلامية وجدل طويل عريض بين رجال المذهبين[٤] .

واليعاقبة Jacobite church ، ويدعون بـ (المنوفسيتين) Monophysite = Monophystte أيضاً ، أي القائلين بالطبيعة الواحدة ، لقولهم إن للمسيح طبيعة

---

١ E. Sachau, S. 68, Chro. Seert., I, II, p. 330, Nallino, Raccolta, III, p. 123.

٢ O'leary, p. 141, Sachau, S. 68. f.

٣ النصرانية (١/٦٧) .

٤ شرح الاصول الخمسة ، للقاضي عبد الجبار بن احمد (ص ٢٩٢ وما بعدها) .

واحدة وأقنوماً واحداً ، فقيل لهم من أجل ذلك (أصحاب الطبيعة الواحدة) ، هم مذهب من مـــذاهب الكنيسة الشرقية ، نسبوا الى (يعقـــوب البرادعي) Jacabus Baradaeus ويسمى بـ (جيمس) James أيضاً ، المولود في حوالى سنة (٥٠٠) للميلاد في مدينة (الأجمة) Tela = Tella من أعمال (نصيبين) في شرقي (الرها) Edessa والمتوفى سنة ٥٧٨ للميلاد . ولد في أسرة كهنوتية، وتتلمذ لـ (ساويرس) الذي صار رئيساً على بطريركية أنطاكية في عـــام ٥١٤ للميلاد . ثم اضطر الى مغـــادرة انطاكية الى مصر لاختلافه مع رجال الدين في هذه المدينة في طبيعة المسيح ، إذ كان يقول بوجود طبيعة واحدة فيه ، ومنـــه أخذ يعقوب رأيه هذا في المسيح .

وذهب (يعقوب) في حوالى سنة ٥٢٨ للميلاد الى القسطنطنية ، لحمل القيصرة (ثيودورة) Theodora على التأثير في الكنيسة وحملهـــا على الكف عن اضطهاد القائلين برأيه في طبيعة المسيح. وقد مكث في القسطنطنية خمسة عشر عاماً ، وسعى سعياً حثيثاً في نشر مذهبه والتبشير به ، وهذا ما أوقعه في نزاع مع بقيـة رجال الدين هناك لخروجه على تعاليم المجمع الخلقيدوني الذي عين التعاليم الثابتة في طبيعة المسيح .

وكان (يعقوب) أسقفاً على (الرها) Edessa في حوالى سنة (٥٤١ م) . وكان (الحارث بن جبلة) من المقدرين له ، والمحبوبين عنـــده ، لذلك كان ممن توسطوا لدى بلاط (القسطنطنية) للسماح له بالخروج منها ، وللتوفيق بين آرائه وآراء الكنيسة البيزنطية ، كما توسط (المنذر) لدى البيزنطيين للغرض نفسه[1] .

وكان من جملة تلاميذ (يعقوب) والمبشرين بتعاليمه (أحودمة) (أحودمى) الذي اغتيل بأمر كسرى أنو شروان في ٢ آب من سنـــة ٥٧٥ م . وكان من المبشرين النشيطين ، ذهب الى بني تغلب وبشّر بينهم ، وقد عرف هؤلاء عند السريانيين بالأعراب سكنة الخيام ، وأقام بينهم كهاناً ورهباناً ، وبنى لهم ديراً عرف في السريانية بـ (عين قنا) أي (عين الوكر) وديراً آخر بتكريت سمي (دير جلتاني) . وكانت في ايامه أسقفيتان على العرب : أسقفية عرفت بأسقفية

---

١ W Smith, A Dictionary of the Bible, II, p. 328, Devreesse, Patr. d'Antioche, 75, 88, 96, Bury, Later Roman Empire., II, 391.

العرب ، وأسقفية التغلبيين أو (السن) وكرسيها بـ (عاقولا) (عاقول) . وعاقولا هي موضع الكوفة . أما كرسي أسقفية العرب ، فكان في الحيرة [1] .

كذلك كان من تلاميـذه (جيورجيوس) (جرجيس) و (غريغور) ، وقد تمكنا بنشاطها وتبشيرهما من نشر هذا المذهب في بلاد الشأم وبين الأقباط والأرمن [2] .

وقد بذل (شمعون الأرشامي) Shem'on of Beth Arsham و (مراثا) Muratha جهداً كبيراً في نشر هذا المذهب بين أهل العراق، وصارت (تكريت) القاعدة الكبرى للمذهب اليعقوبي في العراق . بقيت محافظة على هذا المركز في الاسلام [3] .

وقد دخل أكثر الغساسنة في هذا المذهب ، وتعصبوا له ، وطالما توسطوا لدى الروم في سبيل حملهم على الكف عن اضطهادهم والتنكيل بهم . ظلوا مخلصين لهذا المذهب إلى ظهور الاسلام . وقد نعت بعض ملوكهم بنعوت تدل على تنصرهم وتدينهم ، مثل : المحبين للمسيح والمؤمنين . وقد وردت في بعض المخطوطات اشارة إلى كاهن نعت بـ (كاهن ذي العزة والمحب للمسيح البطريق المنذر بن الحارث) ، كما أنعم القياصرة على بعض ملوك الغساسنة بألقاب لا تمنح في العادة إلا لمن كان على دين النصرانية [4] .

وتذكر تواريخ اليعاقبة قصصاً عن بعض هؤلاء الملوك يشير الى ذكائهم وتمسكهم في قواعد هذا المذهب وتعلقهم به ، ودفاعهم عنه ، وافحامهم بذكائهم وبعلمهم أيضاً لخصوم هذا المذهب من أصحاب المذاهب الأخرى ممن أرادوا اقناعهم بالخروج

---

١ ذخيرة الاذهان (١/٣٠٣) .

٢ وللقائلين بالطبيعة الواحدة جملة أسماء ، منها المنوفيستيون والاوطاخيون ، نسبة الى أوطاخي من القائلين بالطبيعة الواحدة ، والديوسقوريين . راجع : أدى شير : تاريخ كلدو وآشور (٢/١٣٢) ، ذخيرة الاذهان (١/٢٠٨) ، النصرانيـــه (١/٢٨ وما بعدها) ، المشرق ، السنة الاولى ، الجزء السادس (٢٤٩) ، خلاصه تاريخ الكنيسة (١/٢٨٨ وما بعدها) ، Ency. Relig. and Ethics, XII, p. 172, Ency. Brita., 12, p. 860, Burkitt, early Lastern Christianity, 1904.

٣ Araber, I, S. 10

٤ ذخيرة الاذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان ، تاليف القس بطرس نصري الكلداني (١/١٣٢) ، النصرانية (١/٣٦) ، O'leary, p. 192.

من المذهب اليعقوبي ونبذه ، مع ميلهم الى التوفيق بين المذاهب ومنع الفرقة بين النصارى ، كالذي ذكروه من مناظرة وقعت بين البطريرك (البطريق) افرام (٥٢٦ — ٥٤٥ م) ، وهو من بطاركة الملكين والحارث بن جبلة ملك الغساسنة وهو على اليعقوبية ، وقد أفحم فيها الملك الحارث خصمه على ما يدعيه اليعاقبة بذكائه وبقوة بديهته وحجته،وكالذي رووه عن تعنيف المنذر بن الحارث للبطريرك (دوميان) في أثناء زيارته للقسطنطنية ، لتهجمه على اليعاقبة واثارته بهذا الهجوم الفرقة بين النصارى ، وطلبه منه الاتفاق مع (فولا) بطريرك اليعاقبة على التآخي وتوحيد المساعي ، وكالذي ذكروه عن هذا المنذر أيضاً من كتابته الى القيصر (طيباريوس) للتدخل في حمل البطريرك والأساقفة على ايقاف حملاتهم على اليعاقبة ، ولكي يسعى في اطلاق الحرية لجميع النصارى ، وأن يصلي كل واحد منهم أينما شاء وحيثما شاء [1] .

وكان لليعاقبة مشهد مقدس يحجون اليه للتبرك به والنذر له ، هو مشهد القديس (سرجيوس) (سرجيس) في مدينة (سرجيوبوليس) Sergiopolis ، وهي الرصافة . وكان عرب بلاد الشأم اليعاقبة يتيمنون به ، ويضعون صورته مع الصليب على راياتهم أملاً في الفوز في المعارك . والى هذا القديس أشار الشاعر الأخطل بقوله :

لما رأونا والصليب طالعاً ومار سرجيس وموتاً ناقعا
وأبصروا راياتنا لوامعاً خلّوا لنا راذان والمزارعا [2]

مما يدل على أن شهرة هذا القديس ظلت بين النصارى حتى في أيام الاسلام .
وطالما قصد الأعراب كنيسة هذا القديس لتعميد أبنائهم هناك . وقد كانوا يعقدون العقود عند قبره،ويقسمون الايمان عنده ، دلالة على التشديد فيها وصدقهم في الوفاء . وكان أمراء الغساسنة يبالغون في تعظيمه والاحتفاء به ، ويقصدونه للتبرك به ، على عكس نصارى الحيرة الذين امتهنوا القبر في حروبهم مع الغساسنة ، واعتدوا على المدينة . وقد كان نصارى الحيرة على مذهب (نسطور) في الأغلب ،

---

١ المشرق ، السنة الرابعة والثلاثون (١٩٣٦) (٦١ وما بعدها) .
٢ ديوان الاخطل (٣٠٩) ، المشرق ، السنة الرابعة والثلاثون ، (١٩٣٦) ، كانون الثاني ، ٢ (٢٤٧) ، النصرانية (١/٩٩) .

كما كانوا من الوثنيين ، ولذلك لم تكن لسرجيوس في نفوسهم منزلة ومكانة .

وقد أشار المؤرخ (يوسبيوس القيصري) (أويسبيوس) ، الى رأي كان عند بعض نصارى العرب ، خالفوا بـه مذهب الكنيسة إذ قال : « ونحو هذا الوقت قام آخرون في بلاد العرب منادين بتعليم غريب عن الحق . إذ قالوا إن النفس البشرية في الوقت الحاضر تموت وتبيد مع الجسد . ولكنهما يتجددان معاً يوم وقت القيامة »[1] . وليس في هذا الكلام كما نرى ، أية اشارة الى أولئك النصارى العرب ، ولا الى مواضع سكنهم . وكل ما يفهم منه ان خلافهم وقع في زمن قريب من زمنه ، وانه كان في موضوع الروح .

وقد جودل القائلون بهذا الرأي ، ونوقشوا في مجمع انعقد سنة (٢٤٦ م) ، عرف بـ (مجمع العربية) Council of Arabia [2] .

وقد كان لـ (بولس السميساطي) Paul of Samosata ، رأي في المسيح ، حتى قيل انه رأى نفسه في منزلة المسيح ، وقد حكمت الكنيسة عليه بالهرطقة ، وحرمته ، وأعلنت خلعه عن أسقفية (أنطاكية) ، وكان من المقربين الى الملكة (الزبّاء) ، لهذا لم تنفذ ما جاء في حكم الكنيسة عليه[3] .

وذكر أهل الأخبار أن من بين فرق النصرانية ، أو الفرق التي هي بين بين : بين النصرانية والصابئة دين يقال له (الركوسية) ، وذكروا أن الرسول قال لحاتم الطائي : إنك من أهل دين يقال لهم الركوسية[4] . ولكني أشك في صحة هذا الحديث ، إذ كانت وفاة حاتم قبل مبعث الرسول ، ولم يثبت أنه التقى به .

وهناك شيع عقائدها مزيج من اليهودية والنصرانية . وجدت سبيلها في جزيرة العرب ، مثل (الابيونيين) Ebionites و (الناصريين) Zazarenes و (الكسائيين) Elkesaites [5] .

---

١ تاريخ الكنيسة ، ليوسابيوس القيصري ، ترجمة القس مرقس داوود (ص ٢٩٢ وما بعدها) . Eusebius, 6, 37.

٢ A Religious Encyclopaedia, Vol., I, p. 122.

٣ Runciman, The Mediaeval Maniche, 19. ff.

٤ أسد الغابة (٣٩٢/٣) ، المشرق ، السنة ١٩٠٣ (ص ٥٧٤ ، ٧٧٧ ، ٩٢٨) ، ١٩٠٥ ، (ص ٥٠٤) ، ١٩٠٧ م (ص ١١٢٠) ، ١٩٠٨ م ، (ص ٤٨٠) ، ١٩٣٧ (ص ٧٣ وما بعدها) ، اللسان (٤٠٥/٧) ، تاج العروس (١٦٣/٤) ، (ركس)

٥ النصرانية (١١١/١ وما بعدها) .

أما (الأبيونيون) Ebionites ، فجماعة من قدماء اليهود المتنصرين عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل التي تعني (الفقراء) ، لا يعرف عن كيفية ظهورهم ونشوء عقيدتهم على وجه صحيح أكيد . وكل ما يمكن أن يقال عن معتقداتها إنها مزيج من اليهودية والنصرانية ، وإنها نصرانية بنيت على أسس ودعائم يهودية، فهي نصرانية يهودية في وقت واحد .

وقد ذهب بعض قدماء المؤرخين الى انهم انما دعوا بهذه التسمية نسبة الى مؤسس هذا المذهب المسمى (ابيون) Ebion . غير ان من الصعب اثبات صحة هذا الرأي . وهم يعتقدون بوجود الله الواحد خالق الكون ، وينكرون رأي (بولس) الرسول في المسيح ، ويحافظون على حرمة يوم السبت Sabbath وحرمة يوم الرب . وقد ذهب بعض قدماء من تحدث عنهم الى انهم فرقتان بالقياس الى مولد الابن المسيح من الأم العذراء[1] . ويعتقد أكثرهم ان المسيح بشر مثلنا، امتاز على غيره بالنبوة ، وبأنه رسول الله ، أرسله الى الناس أجمعين . فهو رسوله ولسانه الناطق برسالته للعالمين . وهو نبي كبقية من سبقه من الأنبياء المرسلين . وقد آمن بعض منهم بعقيدة (العذراء) وولادتها للمسيح من غير اتصال ببشر ، غير ان بعضاً آخر منهم ، آمن بأن المسيح ابن مريم من (يوسف) فهو بشر تماماً ، وأنكر الصلب المعروف ، وذهب الى ان من صلب ، كان غير المسيح، وقد شبّه على من صلبه ، فظن انه المسيح حقاً. ورجعوا الى انجيل متّى بالعبرانية (The Gospel of Mathew) وأنكروا رسالة (باولس) Paul على النحو المعروف عند بقية النصارى[2] .

وأما (الناصريين) (Nazarenes) ، فهم فرقة معارفنا عن أصلها وعن كيفية ظهورها قليلة كذلك . وأكثر ما نعرفه عنها مستمد مما كتبه عنها (أفيفانيوس) (Epiphanius) و (جيروم) (Jerome) . وقد أدخلهم (أفيفانيوس) في جملة (الهراطقة) (Heratics) ، وذكر انهم كانوا يقرأون النسخة العبرانية لانجيل متّى ، the Gospel of Mathew وانهم ظهروا في غور الأردن .

وقد اعترفوا بألوهية المسيح (ابن الله) ، قائلين انه ولد من العذراء مريم،

---

١ Ency. Brita., Vol., 7, p. 881, (Ebionites), Hastings, Ency. Reli. Ethic., 3, p. 574.

٢ Kenneth Scott Latourette, A History of Christianity, p. 122.

واعترفوا برسالة القديس (بولس) ؛ كما حافظوا على ناموس موسى (Mosaic Law) (شريعة موسى) ، وهم يرون ان ميلاد المسيح شيء خارق للعادة ، وانه (المولود الأول من الروح القدس)[1] ، وان تعاليمه ، هي متممة للرسالات السابقة ومكملة لها . وقد راعوا حرمة السبت ، وما يختص بالأكل وبالختان[2] .

وأما (الكسائيون) (Elkesaites) ، ففرقة يظهر أنها ظهرت في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للميلاد في وادي الأردن ، ومعناها اللغوي (القوى الخفية) ، في لغة بني إرم ، و (المتخفون) ، أو المتسترون تحت الكساء في لغتنا . وقد نبعت من اليهودية . وهي تنسب الى رجل اسمه (Elkesai) (الكسائي) صاحب كتاب نسب اليه ، ويحافظ الكسائيون على الختان وعلى حرمة السبت وعلى سائر أحكام الشريعة الموسوية ، وينسب اليه أنه كان يرى تحريم أكل اللحوم . والظاهر أن ذلك من وضع المستخفين بتعاليمه . وإنما كان يحرم أكل ذبائح الوثنيين وما أهلّ للأوثان . وقد حتم على أتباعه التوجه الى بيت المقدس في صلواتهم ، ومنع التوجه الى الشرق . وهو يعتقد بوجود إله واحد ، وباليوم الآخر ، وبملائكته. ويرى أن الشياطين هي النجوم الكائنة في المناطق الشمالية من السماء[3] .

ومن أهم تعاليم (الكسائيين) الإغتسال ، أو ما يقال له (التعميد) (Babtism) وذلك بالاغتسال في النهر أو في البئر لغسل الأدران من الأجسام وتطهيرها . ويسمي المغتسلُ (باسم الله العلي العظيم) (بسم الله الرحمن الرحيم) ، ويستعمل الغسل في الشفاء من الآفات كذلك ، مثل عض الكلب المكلوب أو الحيوانات المؤذية واخراج الأرواح الشريرة من الجسم . ولذلك يمكن تسمية هذه الفرقة بالمغتسلة ، لجعلها الغسل من أهم أركان الدين .

وللخبز والملح أهمية خاصة لدى أصحاب هذا المذهب ، فهما بمثابة العهد عندهم. وهم في ذلك على شاكلة يهود ، حيث يتمثل العهد (Convenant) عندهم بالملح والخبز[4] . ويقسمون بهما الايمان . وللأيمان عندهم قدسية كبيرة ، فلا يجوز لأي

---

١ Hastings, Ency. Relig. Eathl., 5, p. 141, Ency. Brit., 16, p. 178.

٢ History of Christianity, by, Latoure, p. 121.

٣ Hastings, 5, p. 263.

٤ اللاويون ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٣ ، العدد ، الاصحاح الثامن عشر ، الاية ١٢ ، أخبار الايام الثاني ، الاصحاح ١٣ ، الاية ٦ .

إنسان كان أن يحنث بيمينه ، وأن يخالف ما أقسم عليه ، وإلا كان عقابه عند الله عظيماً .

والعرب من الذين يقيمون للقسم بالخبز والملح وزناً عظيماً عندهم . فكانوا يحلفون بهما كما يحلفون بالله وبأصنامهم . ولا يجوز الحلف كذباً بهما . ولا زال الناس يقسمون بالخبز والملح قسمهم بالمقدسات .

وقريب من مذهب (الكسائيين) في الاغتسال ما يذهب اليه الصابئون فيه . فللغسل لتطهير الجسم من الآثام الظاهرة والباطنة ومن الأرواح الشريرة مقام كبير عند الصابئة ، ولهذا نراهم يختارون السكنى عند الآبار والأنهار .

ووجدت فرقة عرفت بـ (الفطائريين) (Collyridiens) بالغ أصحابها في عبادة مريم وفي تأليهها ، وكانوا يقدمون لها نوعاً من القرابين أخصها أقراص العجين والفطائر ، لذلك عرفوا بالفطائريين . وقد ذكرهم (أفيفانيوس) في كتاب الهرطقات[1] .

وعلى عكس هؤلاء كان من دعوا بـ (Antidicomariantes) ، وهم الذين أنكروا على مريم دوامها في التبتل ، فسمّوا لذلك بالمعادين لمريم[2] .

وذكر أن فرعاً كان من الأريوسية ، أي من أتباع (أريوس) ، كان معروفاً بين العرب أطلق عليهم القديس (ايلاريوس) اسم (أقاقيين) نسبة الى (أقاقيوس) . كانوا يقولون إن المسيح ليس هو ابن الله ، لأن من قال ذلك جعل لله زوجة[3] .

وقد تحدث أهل الأخبار عن قوم قالوا لهم (الأريسيون) . ذكروا أنهم « فلاحو السواد الذين لا كتاب لهم . وقيل الاريسيون : قوم من المجوس ، لا يعبدون النار ، ويزعمون أنهم على دين ابراهيم ... وقيل إنهم أتباع عبدالله ابن أريس رجل كان في الزمان الأول قتلوا نبياً بعثه الله اليهم » ، « وقال بعضهم في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية »[4] .

---

١ النصرانية (١/١١٣) .
٢ النصرانية (١/١١٣) .
٣ النصرانية (١/١١٣) .
٤ تاج العروس (٤/٩٦) ، (ارس) .

الفصل الحادي والثمانون

التنظيم الديني

وكان لنصارى العرب تنظيمهم الخاص بدور العبادة وبالتعليم والإرشاد ، وهو تنظيم أخذ من تنظيم الكنيسة العام ، ومن التقاليد التي سار عليها آباء الكنيسة منذ أوائل ايام النصرانية حتى صارت قوانين عامة. فللكنيسة درجات ورتب، وللمشرفين عليها منازل وسلالم ، وقد اقتبست هذه التنظيمات من الأوضاع السياسية والاجتماعية التي عاشت فيها النصرانية منذ يوم ولادتها ، والتي وضعها رؤساؤها لنشر الديانة ولتنظيم شؤون الرعية ، حتى صارت الكنيسة وكأنها حكومة من الحكومات الزمنية، لها رئيس أعلى ، وتحته جماعة من الموظفين ، لها ملابس خاصة تتناسب مع درجاتهم ومنازلهم في مراتب الحكومة ، ولهم معابد وبيوت وأوقاف وسيطرة على أتباعهم، جاوزت أحياناً سيطرة الحكومات .

ومن الألفاظ التي لها علاقة بالدرجات والرتب الدينية عند النصارى لفظة (البَطْرك) و (البطريق) . وقد وردت لفظة (البطريق) في شعر ينسب إلى (أمية بن أبي الصلت)[1] .

---

١ من كل بطريق لبطريق نقي الوجه واضح ـ تاج العروس (٢٩٦/٦) ، النصرانية وادابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩١) ، تاج العروس (١١١/٧) (الطبعة الاولى بمصر ، مطبعة مصر) ، اللسان (٢١٢/١٠ ، ٤٠١) ، (دار صادر) « بيروت ١٩٥٦ » ، البستان (١٥٧/١١) ، « بيروت ١٩٢٧ » ، محيط المحيط (١٠٢/١) « بيروت ١٨٦٧ م » ، مروج (١٩٩/٢) ، صبح الاعشى (٤٧٢/٥) ، (القاهرة ١٩١٥ م) « المطبعة الاميرية » .

وقد ذهب علماء اللغة الى ان (البطرك) ، هو مقدم النصارى ، وهو في معنى (البطريق) أيضاً . وقالوا أيضاً إن البطريق مقدم جيش الروم . و (البطرك) من أصل يوناني هو «Patriarkhis» (بثرياركيس) ، ومعناه (أبو الآباء) ، وذلك لأنه الأب الأول والأعلى للرعية ، فهو أب الآباء ورئيس رجال الدين . أما لفظة البطريق ، فإنها من أصل لاتيني ، هو Patrikios ، وهو يعني وظيفة حكومية وتعني درجة (قائد) في المملكة البيزنطية [1] . فلا علاقة لها اذن بالتنظيم الديني للنصرانية .

وبين البطريق (البطرك) والأسقف منزلة يقال لشاغلها (المطران) ، وقد عرف بأنه دون البطرك وفوق الأسقف . وقد وسمه (القلقشندي) ، بأنه القاضي الذي يفصل الخصومات بين النصارى [2] . واللفظة من الألفاظ المعربة عن اليونانية ، أخذت من (مترو بوليتيس) « Mitropolitis » أي مختص بالعاصمة ، أو المدينة [3] . وقد ذكر علماء اللغة ان لفظة (المطران) ، ليست بعربية محضة [4] .

والأسقف من الألفاظ التي تدل على منزلة دينية عند النصارى ، وقد وردت في كتب الحديث . وقد ذكر بعض علماء اللغة انه انما سمي أسقف النصارى أسقفاً لأنه يتخاشع [5] . واللفظة من الألفاظ المعربة المأخوذة عن اليونانية،فهي(ابسكوبوس) « Episkopos » في الإغريقية ، وقد نقلت منها إلى السريانية ، ثم نقلت منها الى العربية [6] . وقد وردت في كتب التواريخ والسير ، حيث ورد في شروط الصلح التي عقدها الرسول مع أهل نجران ، شرط هو : « لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته » .

---

١ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩٠ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢٥٥) .

٢ صبح الاعشى (٤٧٢/٥) .

٣ محيط المحيط (١٩٨٧/٢) ، غرائب اللغة (ص ٢٦٩) .

٤ تاج العروس (٥٤٦/٣) ، « مطر » ، النصرانية (١٩١) ، البلدان (١٢٢/٤) ، « ديارات الاساقفة » .

٥ اللسان (٥٦/١١) ، البلدان (١٢٢/٤) ، تاج العروس (١٤١/٦) ، صبح الاعشى (٤٧٢/٥) ، مقدمة ابن خلدون (٢٣٤) ، تاريخ ابن خلدون (٢٧ ، القسم الاول ص ٢٩٧) ، اللسان (١٥٦/٩) « صادر » .

٦ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩١) ، غرائب اللغه (ص ٢٥٢) ، محيط المحيط (٩٧٠/١) ، البستان (١١١/١) ، النهاية في غريب الحديث (٢٣٧/٤) .

والقس من الألفاظ الشائعة بين النصارى ، ولا تزال مستعملة حتى الآن . ويقال لها (قسيس) في الوقت الحاضر أيضاً. وهي من أصل آرامي هو « Gachicho » ومعناه ، كاهن وشيخ[1] . وقد جمعها (أمية بن أبي الصلت) على (قساقسة)[2]. وذكر بعض علماء اللغة أن « القس والقسيس العالم العابد من رؤوس النصارى » وأن « أصل القس تتبع الشي وطلبه بالليل . يقال تقسست أصواتهم بالليل ، أي تتبعتها »[3] . وقد وردت لفظة (قسيسين) في القرآن الكريم : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون »[4] . ويدل ذلك على أن موقف النصارى تجاه الاسلام كان أكثر مودة من موقف يهود . وقد نسب ذلك الى القسيسين والرهبان .

وترد لفظة (شماس) في جملة الألفاظ التي لها معان دينية عند نصارى الجاهلية. وهي من الألفاظ الحيّة التي لا تزال تستعمل في هذا اليوم أيضاً. وتعد من الألفاظ المعربة عن السريانية . وهي « Chamocho » في الأصل ، وتعني خادم ، ومنها البيعة . فهي اذن ليست من الوظائف الدينية الكبيرة ، وإنما هي من المراتب الثانوية في الكنيسة[5] . وقد ذكر بعض العلماء بأن الشماس يحلق وسط رأسه ويجعل شعره من جوانب رأسه على شكل دائرة ، وهو الذي يكون مسؤولاً عن الكنيسة ، ويكون مساعداً للقسيس في أداء واجباته الدينية ، وفي تقديس القداس أيام الآحاد والأعياد . يعمل كل ذلك للتعبد ، وليس لأخذ المال والتكسب[6] .

---

١ غرائب اللغه (ص ٢٠١) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩٢) .

٢ لو كان منفلت كانت قساقسة   يحييهم الله في أيديهم الزبر
تاج (٢٠٧/٤) .

٣ تاج العروس (٢١٦/٤) ، محيط المحيط (١٢٢١/١) ، تاريخ ابن خلدون (ح ٢ قسم ١ ص ٢٩٧) .
المفردات ، للاصفهاني (ص ٤١٢) ، اللسان (١٧٤/٦) « صادر » صبح الاعشى (٤٧٢/٥) ، مقدمة ابن خلدون (ص ٢٣٣) .

٤ المائدة ، الاية ٨٥ ، أسباب النزول (١٥٢) ، تفسير الطبري (٢/٧) .

٥ النصرانية وادابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩٣) ، غرائب اللغة (ص ١٩١) .

٦ اللسان (١١٤/٦) « صادر » محيط المحيط (١٢٢١/١) ، صبح الاعشى (٥/ ٤٧٢) ، ابن خلدون (٢٩ ، القسم الاول ، ص ٢٩٧) ، البستان (١٢٥٩/١) .

وورد في كتاب رسول الله الى سادة نجران : « لا يغير أسقف عن سقيفاه، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا واقف عن وقفانيته »[1] . ويظهر من هذا الكتاب ان الواقف منزلة من المنازل الدينية التي كانت في مدينة نجران. والظاهر انها تعني الواقف على أمور الكنيسة ، أي الأمور الادارية والمالية والمشرف على أوقافها وأملاكها . فهو في الواقع مسؤول اداري ، اختصاصه الاشراف على الأمور المتعلقة بسير ادارة الكنيسة وأموالها . إذ لا يعقل ان يكون الواقف بمعنى خادم البيعة الذي يقوم بالخدمة بمعنى التنظيف والأعمال البسيطة الأخرى ، إذ لا يعقل النص على مثل هذه الدرجة في كتاب صلح الرسول مع سادة نجران . وقد ذكر بعض علماء اللغة : « الواقف خادم البيعة ، لأنه وقف نفسه على خدمتها »[2] . ولا يعني هذا التفسير بالضرورة الخدمة على النحو المفهوم من الخدمة في الاصطلاح المتعارف. فقد كان الملوك والسادات يلقبون أنفسهم بـ (خادم الكنيسة) و (خادم المعبد)، أي بالمعنى المجازي . ولا يكون خادماً صارفاً وقتـه كله في تنظيف الكنيسة وفي القيام بالأعمال التي يقوم بها الخادم الاعتيادي .

وهناك لفظة أخرى لها علاقة بالكنيسة وبالبيعة وبالنواحي الادارية منها ، هي لفظة (الوافه) و (الواقه) . وقد عرفوا صاحبها بـ (قيم البيعة التي فيها صليب النصارى) ، وفي هذا المعنى أيضاً لفظة (الواهف) ، حيث قالوا : « الواهف سادن البيعة التي فيها صليبهم وقيمها ، كالوافه وعمَلُها الوهافة » ، والوهفية والهُفّية . والظاهر انها كلها في الأصل شيء واحد ، وانما اختلف علماء اللغة في ضبط الكلمة ، فوقع من ثم هذا الاختلاف بينهم[3] . فالوظيفة اذن ، هي بمنزلة الخازن القيم على شؤون الصليب ، يحفظه من السرقة ، ويضعه في خزانة أمينة ، فإذا حانت أوقات العبادة وضعه في موضعه . فالصليب ثمين، وفيه ذهب

---

١ ابن سعد ، الطبقات (٣٥٨/١) « طبعة صادر » ، « لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا وافه من وفاهيته » ، النهاية في غريب الحديث (٢٣٧/٤) ، « واقه من وفاهينه » ، البلاذري ، فتوح (٧٢) ، (صلح نجران) ، اللسان (٤٥٩/١٧) ، تاج العروس (٤٢١/٩) ، الفائق (٣١٧/٢) ، النهايه (٢٤٠/٤) .

٢ تاج (٢٦٩/٦) ، النصرانية وادابها ، القسم الثانى ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩٣) اللسان (٣٦٠/٩) ، « صادر » .

٣ تاج (٣٧٣/٦) ، (٤٢١/٩) ، المخصص (١٠٠/١٣) ، اللسان (٥٦١/١٣) « صادر » ،

في الغالب ، لذلك يكون هدفاً للسراق[1] .

ويلاحظ أن علماء الحديث والتأريخ والسير ، ليسوا عـلى اتفاق فيما بينهم في تدوين نص كتاب الصلح الذي أعطاه الرسول لأهـل نجران ، إذ تراهم يختلفون في ضبط نصه : وفي جملة ما اختلفوا فيه جملة : « ولا واقه من وقاهيته » ، فقد كتبوها بصور شتّى كما رأيت ، كما كتبوا النص بأشكال متباينة ، مما يدل على أن الرواة قد اعتمدوا على نسخ متعددة للكتاب ، وعلى أن أهل نجران كانوا قد نسخوا منـه نسخاً ، تحرفت نصوصها بالاستنساخ ، لعدم تمكن الناسخ من ضبط العبارات ضبطاً صحيحاً . فلما دوّن العلماء صورة النص تباينوا في تـدوينه ، وأوجدوا لهم تفاسير للفظة (واقف) و (وافه) و (واقه) ، وهي لفظـة واحدة في الأصل ، قرأها النساخ ثلاث قراءات ، فظهرت وكأنها ألفاظ مختلفة . وحاروا في تعليل المعنى ، فقال بعضهم الوافه : قيم البيعة بلغـة أهل الجزيرة ، وقال بعض آخر بلغة أهل الحيرة ، وقال بعض : كلها في معنى واحد[2] .

وهناك مصطلحات دينية أخرى استعملها النصارى للدلالة على درجات رجال دينهم ، مثل (بابا)،وهي كلمة (رومية) وهو أعلى مرجع في نظر النصارى (الكاثوليك)[3] ، و (والجاثليق) ، وهو رئيس أساقفة بلد ما ، والأعـلى مقاماً بينهم ، وقد أطلقت اللفظة على رئيس نصارى بغداد في العهد العباسي[4] ، وهي من أصل يوناني هو (كاثوليكوس) Katholikos ، ومعناه عام[5] .

والساعي من الألفاظ التي تتناول المنازل والدرجات عنـد النصارى ، وتشمل اليهود أيضاً . ويقصد بها الرئيس المتولي لشؤون اليهود أو النصارى، فلا يصدرون رأياً إلا بعد استشارته ، ولا يقضون أمراً دونه . وقد ورد في حديث حذيفـة في الأمانة : « إن كان يهودياً او نصرانياً ليردنه على ساعيه »[6].

---

١ النصرانية وادابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩٤) .
٢ اللسان (١٧/٤٥٩) ، تاج العروس (٩/٤٢١) . النهاية (٤/٢٤٠) .
٣ صبح الاعشى (٥/٤٧٢) ، تاريخ ابن خلدون (ج ٢ القسم الاول ، ص ٢٩٧) ، مقدمة ابن خلدون (ص ٢٣٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٧) .
٤ تاج العروس (٦/٣٠٥) ، صبح الاعشى (٥/٤٧٢) ، محيط المحيط (١/٢١٤)، البستان (١/٣٠٩) .
٥ غرائب اللغة (ص ٢٥٦) .
٦ تاج العروس (١٠/١٧٨) « سعى » ، اللسان (١٤/٣٨٧) ، محيـط المحيط (١/٩٦٠) ، النصرانية (١٩٢) .

ولفظة (بابا) وما بعدها ، هي من الألفاظ التي شاع استعمالها في العربية في الاسلام ، وليس لدينا ما يفيد استعمالها بين الجاهليين .

وذكر علماء اللغة أن من الألفاظ المعروفة بين النصارى لفظة (العسطوس) ، ويراد بها القائم بأمور الدين ، وهو رئيس النصارى[1] .

أما (الراهب) ، فهو المتبتل المنقطع الى العبادة . وعمله هو الرهبانية . وقد ذكر بعض علماء اللغة ان الرهبانية غلوٌّ في تحمّل التعبد من فرط الرهبة[2] . وقد ذكرت الرهبانية في القرآن الكريم[3] ، وذكرت في الحديث . وقد نهى عنها الاسلام : « لا رهبانية في الاسلام » . وقد ندد القرآن الكريم في كثير من الأحبار والرهبان ، فورد : « إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل »[4] . ويظهر من ذلك ان جماعة منهم كانت تتصرف بأموال الناس التي تقدم إلى الأديرة والبيع ، فيعيشون منها عيشة مترفة ، لا تتفق مع ما ينادون به من التقشف والزهد والعبادة . كما ان منهم من عاش عيشة رفيهة وبطر ، فتكبر عن الناس وترفع ، حتى جعلوا أتباعهم يحيطونهم بهالة من التقديس والتعظيم ، الى درجة صيرتهم أرباباً على هذه الأرض . فتقربوا اليهم وقدّسوهم قدسية لا تليق إلا للخالق . « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله »[5] . ذلك انهم كانوا يحلّون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرّمون ما أحل الله لهم فيحرمونه . « أما انهم لم يكونوا يصومون لهم ولا يصلون لهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلوه واذا حرموا عليهم شيئاً أحله الله لهم حرموه ، فتلك

---

١ تاج العروس (٤/١٩٢) ، اللسان (٦/١٤١) ، محيط المحيط (١/١٣٩٦) .

٢ المفردات ، للاصفهاني (ص ٢٠٣) ، اللسان (ج ١/٤٣٧) « صادر » القاموس (١/٧٦) ، تاج العروس (١/٢٨١) ، الصحاح ، للجوهري (١/١٤٠) .

٣ المائدة ، الاية ٨٢ ، التوبة ، الاية ٣١ ، ٣٤ ، سورة الحديد ، الرقم ٥٧ ، الاية ٢٧ ، مجمع البيان (٧/١٥٨) ، تفسير الفخر الرازي (١٢/٦٦ وما بعدها) ، روح المعاني (٦/٨ وما بعدها) ، النهاية ، لابن الاثير (٢/١٢٠) .

٤ التوبة ، الرقم ٩ ، الاية ٣٤ ، مجمع البيان (١٠/٤٨) . تفسير الطبري (٧/٨ وما بعدها) ، تفسير الخازن (٧/٢٣٣ وما بعدها) ، تفسير أبي السعود (٤/١٤١ وما بعدها) ، المقريزي ، السلوك من معرفة سير الملوك (١/١٨٢) ، (دار الكتب المصرية ١٩٣٦) ، السيوطي ، الدر المنثور (١٠/٧٥) .

٥ التوبة ، الرقم ٩ ، الاية ٣١ ، جامع البيان (١٠/٨٠) ، الكشاف (٢/٣١) ، روح المعاني (١٠/٧٥) ، تفسير الخازن (٢/٢١٦) .

كانت ربوبيتهم »[1] . وكانوا يطيعونهم طاعة عمياء ، ويأخذون عنهم، ويقدسونهم، ويقبّلون أيديهم ولا يعصون أمراً لهم . وذكر ان (عدي بن حاتم) الطائي ، قال لرسول الله لما سمعه يقرأ : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» ، « يا رسول الله ! إنا لسنا نعبدهم . فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله ، فتحلونه ! قال : قلت بلى . قال فتلك عبادتهم »[2] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أن من الرهبان من بالغ في الترهب وفي التزهد ، فخصى نفسه ووضع السلاسل في عنقه أو في يديه أو رجليه ليحبس نفسه ، وامتنع عن المآكل والأطايب ، مكتفياً بقليل من الماء وبشيء من الخبز الخشن ، وأن منهم من امتنع عن الكلام وصام معظم أوقاته ، وابتعد عن الناس متخذاً من الكهوف والجبال والمواضع النائية الخالية أماكن للتأمل والتعبد . وذلك كما يظهر من نهي الرسول عن الرهبنة والرهبانية ، وحمل الاسلام عليها . لأنها تبعد الناس عما أحل الله وقد عوض الاسلام عنها بالجهاد في سبيل الله[3] .

ومن عادات الرهبان وتقاليدهم التي وقف عليها أهل الجاهلية ، الامتناع عن أكل اللحوم والودك ، أبداً أو أمداً ، وحبس النفس في الأديرة والصوامع ، والكهوف ، والاقتصاد على أكل الصعب من الطعام والخشن من الملبس ، ولبس السواد والمسوح . وهي عادة انتقلت الى الأحناف أيضاً والى الزهّاد من الجاهليين الذين نظروا نظرة زهد وتقشف الى هذه الحياة[4] . كما كانوا لا يهتمون بشعورهم فكانوا يطلقونها ولا يعتنون بها ولذلك كانت شعورهم شعثاً ، وعبّر عن الراهب

---

١ تفسير الطبري (١٠/ ٨٠ وما بعدها) ، تفسير أبى السعود (٥/ ١٤٢) ، تفسير الطبرسي (٥/ ٢٢) .

٢ تفسير الطبري (١٠/ ٨٠ وما بعدها) ، « بولاق » .

٣ النهاية في غريب الحديث ، لابن الاثير (ص ١٦٣) (٢/ ١٢٠) « المطبعة الخيرية »، اللسان (١/ ٤٣٧ وما بعدها) ، تاج العروس (١/ ٢٨٠ وما بعدها) ، القاموس المحيط (١/ ٧٦) ، محيط المحيط (١/ ٨٠٦) ، مجمع البيان (٧/ ١٥٨) ، (٦/ ١٧٦) ، جامع البيان (٢٧/ ٢٣٨) ، (١٠/ ١١٤ ، ١١٧) ، الكشاف ، للزمخشري (٤/ ٦٩) . (٢/ ٣١) ، (١/ ٤٣) ، روح المعاني (٢٧/ ١٦٥) ، (١٠/ ٧٥) ، (٧/ ٣) ، الدر المنثور (١٠/ ٧٥) ، صحيح مسلم (٨/ ٢٢٩) « كتاب الزهد » ، اللسان (١/ ٤٣٧) « صادر » .

٤ تفسير الطبري (٧/ ٨) « الطبعة الثانية ١٩٥٦ م » ، تفسير أبي السعود ، (٤/ ١٤١ وما بعدها) ، تفسير الرازي (١٢/ ٦٧ وما بعدها) .

بالأشعث ، لأنه كان يطلق شعر رأسه ولا يحلقه ولا يعتني به[1] .

ومن الرهبان من ساح في الأرض ، فطاف بلاد العرب وأماكن أخرى ، وهام على وجهه في البوادي وبين القبائل ، لا يهمه ما سيلاقيه من أخطار ومكاره ، ومنهم من ابتنى له بناءً في الفيافي وفي الأماكن النائية ، واحتفر الآبار وحرث البقول ، وعاش عيشة جماعية ، حيث يعاون بعضهم بعضاً في تمشية أمور الدير الذي يعيشون فيه[2] . ومنهم من عاش في قلل الجبال ، بعيداً عن المارة والناس . قال الشاعر :

لو عاينت رهبان دير في القلل لانحدر الرهبان يمشي ونزل[3]

وقد وقف بعض أهل الجاهلية على أخبار هؤلاء الرهبان وعرفوا بعض الشيء عنهم ، وبهم تأثر بعض الحنفاء على ما يظهر فأخذوا عنهم عادة التحنث والتعبد والانزواء والانطواء في الكهوف والمغاور والأماكن النائية البعيدة للتنسك والتعبد مبتعدين بذلك عن الناس منصرفين الى التأمل والتفكر في خلق هذا الكون دون أن يدخلوا النصرانية .

وقد نهى الرسول بعض الصحابة مثل (عثمان بن مظعون)،وهو من النصارى في الأصل من تقليد الرهبان في الإخصاء وفي الامتناع عن الزواج ومن التشدد في أمور أحلها الله للناس[4] . ويظهر أن هذا التشدد إنما جاء اليه وإلى أمثاله من وقوفهم على حياة الرهبان وعلى رأيهم وفلسفتهم بالنسبة لهذه الحياة . وفي حق هؤلاء نزلت الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم .

---

١ تاج العروس (٦٣٨/١) .

٢ تفسير الطبري (١٢٤/٢٧) ، روح المعاني (٨/٦ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٨/٧ وما بعدها) ، تفسير الخازن (٢٣٣/٧ وما بعدها) ، تفسير أبي السعود (١٤١/٤ وما بعدها) .

٣ تفسير الطبري (٤/٧) .
لو أبصرت رهبان دير في الجبل لانحدر الرهبان يسعى ويصل
تفسير القرطبي ، الجامع (٢٥٨/٦) .

٤ الدر المنثور (٣٠٧/٢) ، مجمع البيان في تفسير القرآن (٦/٧ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٢٦٠/٦ وما بعدها) ، مجمع البيان (١٥٨/٢٧) ، (طبعة دار الفكر . بيروت) ، الدر المنثور ، للسيوطي (٣٠٧/٢) ، روح المعاني (٣/٧) ، (١٦٥/٢٧) .

ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[1] . وذكر أن الرسول لما سمع بابتعاد (عثمان) من أهله ، دعاه ، فنهاه عن ذلك . ثم قال : « ما بال أقـوام حرموا النساء والطعام والنـوم ! ألا اني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء ، فمن رغب عن سنتي ، فليس مني . فنزلة الآيـة : يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا . يقول لعثمان لا تجب نفسك. فإن هذا هو الاعتداء»[2].

وورد في الحـديث : « لا صرورة في الإسلام » ، والصرورة التبتل وترك النكاح ، أي ليس ينبغي لأحد أن يقول لا أتزوج ، لأن هذا ليس من أخلاق المسلمين ، بل هو من فعل الرهبان . وهو معروف في كلام العرب . ومنه قول النابغة :

لو أنها عرضت لأشمط راهب عبـد الإله صرورة متعبد

يعني الراهب الذي ترك النساء[3] .

وقد أشير الى الرهبان في شعر امرىء القيس ، إذ أشار فيه الى منارة الراهب التي يمسي بها يتبتل فيها الى الله ، وعنده مصباح يستنير بنوره[4] . كما أشار فيه اليه وهو في صومعته يتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعا[5] ، دلالة على تهجده وتعبده في وقت يكون الناس فيه نياماً . كما أشير اليهم في شعر شعراء جاهليين آخرين مثل (النابغة الذبياني) ، الذي أشار الى ركوع الراهب يدعو ربه فيه ويتوسل اليه[6] . كما أشار الى موقف الراهب من رؤية امرأة جميلة ، وكيف سيرنو اليها

---

١ المائدة ، الاية ٨٧ .

٢ تفسير الطبري (٦/٧) ، روح المعاني (٧/٧) .

٣ تاج العروس (٣٣١/٣) ، (صرر) .

٤ تضيء الظـلام بالعشاء كأنها منارة ممس راهـب متبتـل
النصرانية (الجزء الثاني ، القسم الاول ، ص ١٧٥) .

٥ كأنـه راهب في رأس صومعـة يتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعا
النصرانية (حـ ٢ ، قسم ٢ ، ص ٣٩٢) .

٦ سيبلغ عذرا أو نجاحا من امرىء الى ربـه رب البريـة راكع
دائرة المعارف الاسلامية « الترجمة العربية » (٩/١٠) ، النصرانية ، الجـزء الثاني ، القسم الثاني (ص ٣٩٤) .

حتّى وان كان راهباً اشمط[1] . وقد أشار الى (ثوبـي راهب الدير) والى الحلف بثوبيه[2] .

وورد في الشعر ما يفيد بانقطاع الرهبان في الأماكن الصعبة القصيّة مثل قلل الجبال وذراها ، حيث لا يأتيهم الناس ، فيعيشون في خلوة وانقطاع عن البشر[3]. ومن الأماكن التي اشتهرت بوجود الرهبان فيهـــا أرض مدين[4] . ووادي القرى ومنازل تنوخ وصوران وزبد[5] .

وقد سبح الرهبان ورجال الدين ، الله ، في الكنائس وفي الأديرة بألحان عذبة جميلة ، ورتلوا الزبور والأسفار المقدسة الأخرى . وقـــد عرف الجاهليون ذلك عنهم ، وأشاروا الى ذلك في شعرهم ، وربما كان بعضهم يحضر تلك التراتيـــل ويستأنس بها على الرغم من وثنيته وعدم اعتقاده بالنصرانية .

ويقال للراهب الزاهد ، الذي ربط نفسه عن الدنيا : الربيط . وقيـل له : الحبيس . وذكر أن الربيط ، هو المتقشف الحكيم[6] ، وأن الحبيس هو الذي حبس نفسه في سبيل الله ، فقبعوا في الأديرة وابتعدوا عن الناس . فصاروا كالحبساء[7].

---

١ تفسير القرطبي ، (٢٥٨/٦) ٠

لو أنها عرضت لاشمط راهب عبـد الالـــه صرورة منعبـــد
كرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولخالـــه رشـــدا وان لم يرشد

٢ تاج العروس (٢٨١/١) ٠

٣ لو كلمت رهبان دير في القلل لانحدر الراهب يسعى فنـزل

اللسان (٤٣٧/١) « صادر » ، تاج العروس (٢٨١/١) ، المقريزي ، السلوك في معرفة سير الملوك (١٨٢/١) ، تفسير الطبري (١٥٨/٢٧) ، « البابـي » ، الكشاف (٣١/٢) ، الدر المنـــور (١٧٧/٦) ، تفسير الخازن (٢١٦/٢) ، (٢٣٢/٤) ٠

لو أنهـا عرضت لاشمط راهب في رأس مسرفة الذرى متبتل

الاغاني (٩٢/١٩) « دار الثقافة بيروت » ٠ وقد نسب هذا الشعر الى ربيعة بـن مقروم الضبي ٠ وقد مر النصف الاول من هذا البيت من شعر نسب الى النابغـة الذبياني في تفسير القرطبي (٢٥٨/٦) ٠

٤ قال جرير :

رهبان مدين ، لو رأوك تنزلوا والعصم ، من سعف العقول ، الفادر

اللسان (٤٣٧/١) « صادر » ، تفسير الطبري (٤/٧) ٠

٥ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٩٦ وما بعدها) ٠

٦ تاج العروس (١٤٣/٥) ، القامـــوس المحيـــط (٣٦١/٢) ، المقريزي ، سير (١٨٢/١) ، البلدان (٢١٣/٢) « صادر » ٠

٧ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٩٧) ، البلدان (٢١٣/٢) ٠

ويقال للراهب : المقدسي . والمقدس الراهب . وصبيان النصارى يتبركون به، ويتمسحون بملابسه تبركاً[1] . كما قيل له : المتعبد ، والأعابد[2] ونسب الى (امرىء القيس) هذا البيت :

فأدركنه يأخــذن بالساق والنسا   كما شبرق الولدان ثوب المقدسي

ويروى المقدس ، وهو الراهب ينزل من صومعته الى بيت المقدس ، فيمزق الصبيان ثيابه تبركاً به[3] .

وأما (النهامي) ، فهو صاحب الدير ، أو الراهب في الدير[4] .

ومن الألفاظ التي شاعت بين النصارى ووصل خبرها إلى الجاهليين ، لفظة : (الأبيل) ، وقد اتخذوها للدلالة على رئيس النصارى . وذكر بعض أهل الأخبار انها تعني أيضاً (المسيح) . وقد كانوا يعظمون الأبيل فيحلفون به كما يحلفون بالله . وهي من الألفاظ المعربة عن السريانيــة (ابيلو) Abilo ، ومعناها في السريانية الزاهد والناسك والراهب . وكانوا يتخذون عادة رؤساءهم من الرهبان المتبتلين[5] . وقد وردت لفظة (الأبيل) في الشعر الجاهلي ، في شعر : الأعشى وفي شعر عدي بن زيد . وورد (أبيل الأبيلين) ، وأريد بذلك المسيح[6]. وذكر ان (الأبيل) هو صاحب النــاقوس ، والراهب أيضاً[7] . وان (الأيبلي) ، هو ضارب الناقوس . و (الأيبل) ، العصا التي يدق بها الناقوس[8] . قال الأعشى:

---

١ اللسان (٦/١٦٩) « صادر » .
٢ اللسان (٣/٢٧٢) .
٣ تاج العروس (٦/٣٩٠) ، (شبرق) .
٤ تاج العروس (٩/٨٨) ، نهم) ، المخصص (١٣/١٠٠) .
٥ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٩٠) ، غرائب اللغة (١٧٢) .
٦ قال ابن عبد الجن ، وقيل عمرو بن عبد الحق :

أمـا ودمــاء مائرات تخالهــا   على قنة العــزى أو النســر عندما
وما قدس الرهبان في كل هيكل   أبيل الأبيلين ، المسيح بن مريــما
لقد ذاق منا عامــر يوم لعــلع   حساماً، اذا ما هــز بالكف صمما

اللسان (١١/٦ وما بعدها) ، (أبل) ، (صادر) .
٧ اللسان (١١/٦ وما بعدها) ، تاج العروس (٧/١٩٩) . الآب مرمرجي ، معجميات عربية سامية (١٣١ وما بعدها) ، شعراء النصرانية ، لشيخو (٤٥٣) ، المخصص (١٣/١٠٠) .
٨ ديوان الأعشى (٥٣) « المطبعة النموذجية ، ١٩٥٠ م » .

وما أيبليّ على هيكل بناه وصلب فيه وصارا
يراوح من صلوات المليك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا

يعني بالجؤار الصياح . إما بالدعاء وإما بالقراءة [1] .

والساعور من أسماء المسيح وهو من أصل (سوعورو) So'ouro ، بمعنى زائر . وتطلق اللفظة على من يزور القرى ويطلع على أحوالها وذلك بأمر من الأسقف[2] . وذكر علماء اللغة أن اللفظة من الألفاظ المعربة عن السريانية، وأن الأصل (ساعورا)، ومعناه متفقد المرضى ، وتطلق اللفظة على مقدم النصارى في معرفة علم الطب[3] .

ويقال لخادم البيعة: الجلاذي[4] . وذكر أن (الجلذي) الراهب والصانع والخادم في الكنيسة . قال ابن مقبل :

صوت النواقيس فيه ما يفرطه أيدي الجلاذيّ جون ما يغضبنا[5]

و (الكنيس) و (الكنيسة) موضع عبادة اليهود والنصارى ، فهما في مقابل (المسجد والجامع) عند المسلمين . والكلمة من الألفاظ المعربة عن الآرامية ، وتعني لفظة « Knouchto » (كنشتو) (كنشت) في السريانية ، اجتماع ، ومجمع وأطلقت بصورة خاصة على كنيس اليهود[6] . ولهذا نجد العرب يطلقونها على معبد اليهود كذلك. ويقال في العبرانية للكنيس (كنيستا)، بمعنى محل الصلاة . ونجد الكتب العربية تفرق بين موضع عبادة اليهود وموضع عبادة النصارى ، فتطلق (الكنيس) على موضع عبادة اليهود و(الكنيسة) على موضع عبادة النصارى. وقد ذهب بعض علماء اللغة ، الى أن الكنيسة ، هي متعبد اليهود ، وأما (البيعة) ،

---

١ تفسير الطبري (١٤/ ٨٢) .
٢ غرائب اللغة (١٨٧) .
٣ تاج العروس (٣/ ٤٦٨) « الخيرية » ، النصرانية ، القسم الاول (١٩٤) ، القاموس (٢/ ٤٨) .
٤ اللسان (٥/ ١٤) « المطبعة الأميرية » ، (٣/ ٤٨٢) « صادر » ، تاج العروس (٢/ ٥٥٧) .
٥ تاج العروس (٢/ ٥٥٧) ، (ما يعفينا) ، اللسان (٣/ ٤٨٢) ، (صادر) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢٠٤) ، النصرانية وآدابها ، شيخو (٢/ ٢٠١ وما بعدها) ، « الطبعة الثانية بيروت ١٩٣٣ » .

فهي متعبد النصارى[1] . وقد عرف علماء اللغة العرب ، أنها من الألفاظ المعربة ، فقالوا : وهي معربة ، أصلها كنست[2] .

وقد زوّق النصارى كنائسهم ، وجمّلوها ، وزيّنوها بالصور وبالتماثيل ، ووضعوا الصلبان على أبوابها وفي داخلها . ووضعوا بها المصابيح لإنارتها في الليل، وكانوا يسرجون فيها السرج ، وجعلوا بها النواقيس ، لتقرع ، فترشد المؤمنين بأوقات الصلوات ، ولتشير اليهم بوجود مناسبات دينية ، كوفاة ، أو ميلاد مولود ، أو عرس وأمثال ذلك . ومن الكنائس التي اكتسبت حرمة كبيرة عند النصارى العرب : كنيسة القيامة ، وكنيسة نجران ، وكنيسة الرصافة . وقد أشير في شعر للنابغة الى (صليب على الزوراء منصوب) ، أي على كنيسة .

والتمثال الشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله ، أي من انسان أو حيوان أو جماد[3] . وأدخل العلماء الصور في التماثيل . وقد كانت الكنائس مزينة بالتماثيل والصور ، تمثل حوادث الكتاب المقدس وحياة المسيح . ونظراً الى محاربة الاسلام للأصنام ، والى كل ما يعيد الى ذاكرة الانسان عبادة الأصنام والصور ، ورد النهي عنها في الاسلام . جاء في الحديث : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون »[4] .

وقد كان الروم يمدّون الكنائس والمبشرين بالمال وبالفعلة وبالمساعدات المادية لبناء الكنائس والأديرة . والكنائس والأديرة وإن كانت بيوت تقوى وعبادة ، كانت بيوت سياسة ودعوة وتوجيه . ونشر النصرانية مهما كان مذهبها ولونها ، مفيد للروم ، فالنصراني مهما كان مذهبه لا بد ان يميل الى اخوانه في العقيدة والدين . ففي انتشار النصرانية فائدة من هذه الناحية كبيرة للبيزنطيين .

وفي العربية لفظة أخرى للكنيسة ، إلا أنها لفظة خصصت بكنيسة معينة ، هي الكنيسة التي بناها أبرهة بمدينة صنعاء ، واللفظة هي : (القُلّيس) . وللأخباريين آراء في معناها وفي أصلها ، بنيت على طريقتهم الخاصة في ايجاد التفاسير للكلمات القديمة من عربية ومن معربة ، التي لا يعرفون من أمرها شيئاً . وهي لذلك

---

١ تاج العروس (٤/٢٣٥) .
٢ اللسان (٦/١٩٩) ، تاج العروس (٤/٢٣٥) .
٣ تاج العروس (٨/١١١) ، (مثل) .
٤ تفسير الطبري (٢٢/٤٩) ، تفسير القرطبي (٤/٢٧٣ وما بعدها) .

لا تفيدنا شيئاً . والكلمة أعجمية الأصل ، عربت ، وشاع استعمالها ، حتى ظن أنهـــا اسم تلك الكنيسة . أخذت هذه اللفظة من أصل يوناني هـــو (أكليسيا) « Ekklesia » ، ومعنـــاه في اليونانية المجمع ، أي الكنيسة . والظاهر أن أهل صنعاء سمعوا اللفظة من الحبش ، حينما كانوا يذهبون الى الكنيسة ، فصيّروهـــا اسم علم على هذه الكنيسة ، ولم يدروا أنها تعني الكنيسة ، أي موضع عبادة[1] .

والصوامع والبيع هما من الألفاظ التي استعملها الجاهليون للدلالة عـــلى مواضع العبادة عند النصارى . وقد ذهب العلماء الى أن البيعة من الألفاظ المعربة[2]. أخذت من السريانية . وأصل اللفظة في السريانية ، هو (بعتو) بمعنى بيضة ، وقبة ، لأنها كانت قبة في كثير من الكنائس القديمة[3] . وقد استعملت في الحبشية كذلك ولذلك ذهب بعضهم الى أنها من الحبشية[4] . وقال علماء اللغة العرب : الصومعة كل بناء متصمع الرأس ، أي متلاصقه ، والأصمع اللاصقة اذنه برأسه[5] . وقـــد أشير الى (البيع) في القرآن : « ولـــولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع »[6] . وقد ذهب بعض علماء اللغة ، الى أن البيعة متعبد اليهود[7] . ولكن أغلبهم على انها متعبد النصارى .

وقد وردت لفظة (بيعـة) في نص (أبرهة) الشهير الذي دوّنه على سد مأرب . ففي هذا النص جملة : (وقدس بعتن) ، أي (وقدس البيعة)[8] .

وذكر ان لفظة (البيعة) قد وردت في شعر ينسب الى ورقة بن نوفل ، حيث زعم انه قال :

أقول إذا صليت في كل بيعة تباركتَ قد أكثرتَ باسمك داعياً[9]

---

١ (الفَلَـيْس) ، (الفليسة) ، اللسان (٦/١٨٠) ، (فلس) ، Ency., II, p. 144, Raccolta, III, p. 127.

٢ المعرب (ص ٨١) .

٣ معجميات (ص ١٠٩ وما بعدها) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني، القسم الاول (ص ٢١٣) ، غرائب اللغة (١٧٥) .

٤ النصرانية (الثاني) ، القسم الاول (٢١٣) « طبعة ثانية » .

٥ المفردات (٢٨٨) ، اللسان (٢٠٨/٨) ، تاج العروس (٤١١/٧)

٦ الحج ، الآية ٤٠ .

٧ تفسير الطبري (١٧٥/١٥) « البابي » ، اللسان (٢٦/٨) «صادر» .

٨ راجع النص في مجلة المجمع العلمي العراقي (٢١٥/٤) .

٩ الاغاني (١٦/٣) .

كما ذكر انها وردت في كلام أناس من الجاهليين والمخضرمين[1] .

وقد أشير الى ورودها في الشعر الجاهلي وفي بعض الأخبار المنسوبة الى الجاهليين. وردت في شعر منسوب الى (عبد المسيح بن بقيلة) ، وهو كما يظهر من اسمه من النصارى[2] . ووردت في بيت منسوب الى لقيط بن معبد[3] ، وفي شعر ينسب الى الزبرقان بن بدر التميمي[4] . ولا بد ان تكون هذه الكلمة من الكلمات المألوفة عند الجاهليين المتنصرين ، وعند غيرهم ممن كانوا على الوثنية ، غير انهم كانوا على اتصال بالنصارى ، ذلك لأنها من الألفاظ الشائعة المعروفة عند النصارى . وقد كانت البيع منتشرة في المدن وفي القرى والبوادي ، وطالما قصدها الأعراب للاحتماء بها من الحر والبرد وللاستعانة برجالها لتزويدهم بما عندهم من ماء أو زاد أو للتنزه بها واحتساء الشراب .

والصومعة من أصل حبشي هو (صومعت) على رأي بعض المستشرقين . وقد خصصت بـ (قلاية) الراهب[5] . أي مسكن الرهبان . وبهذا المعنى وردت في القرآن . ويقول علماء اللغة ، أنها على وزن فوعلة ، سميت صومعة ، لأنها دقيقة الرأس . وهي صومعة النصارى[6] . وذكر بعض منهم أن الصومعة كل بناء متصمع الرأس ، أي متلاصقة[7] . وقد سميت صومعة لتلطيف أعلاها[8] . ويدل ورود هذه اللفظة بصورة الجمع في القرآن الكريم ، على وقوف الجاهليين على

---

١ ابن هشام (٩٣٥) « طبعة ليدن » ، تاج العروس (٥/٢٨٥) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢٠١ وما بعدها) .

٢ كم تجرعت بدير الجرعة غصصا كبدي بها منصدعه
من بدور فوق أغصان على كثب زرن احتسابا بيعه
البلدان (٤/١٣٠) « دير الجرعة » ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (٢٠٢ وما بعدها) .

٣ تامت فؤادي بذات الخال خرعبة مرت تريد بذات العذبة البيعا
تاج العروس (٥/٢٨٥) ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (٢٠٢) .

٤ نحن الكرام ، فلاحي يعادلنا منا الكرام ، وفينا تنصب البيع
ابن هشام (١/٩٣٥) ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (٢٠١) .

٥ معجميات (ص ١٠٩ وما بعدها) ، Raccolta, III, p. 127.

٦ اللسان (١٠/٧٦) ، معجميات (ص ١٥٣) ، تاج العروس (٧/٤١١) ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (١٧٤ ، ٢١٣) .

٧ مفردات ، الاصفهاني (ص ٢٨٨) .

٨ اللسان (٨/٢٠٨) « صادر » .

الصوامع ووجودها بينهم[1] . وقد كان الرهبان قد ابتنوا الصوامع وأقاموا بها للعبادة بعيدين في مختلف أنحاء جزيرة العرب ، ومنها الحجاز . وقد وقف الجاهليون عليها ، ودخلوا فيها . أما تجارهم ممن قصد بلاد الشأم والعراق ، فقد رأوا في طريقهم الى تلك الأرضين ، وفي تلك الأرضين بالذات ، حيث انتشرت فيها النصرانية صوامع كثيرة . ونجد في كتب الأخبار أمثلة عديدة تشير الى دخول تجار مكة الصوامع في بلاد الشأم وفي وادي القرى ، للحصول على ملجأ أو عون .

والقُلاّية ، وهي كالصومعة ، يتعبد فيها الرهبان ، وهي من الألفاظ المعربة، عربت من أصل يوناني هو « Kelliyon » ، ومعناه غرفة راهب أو ناسك[2] . ومن هذا الأصل انتقلت اللفظة الى السريانية فصارت (قلّيتا) ، فانتشرت بين نصارى بلاد الشأم بصورة خاصة ثم بقية النصارى ، منها دخلت العربية . وقد عرف علماء العربية انها من الألفاظ المعربة ، فقالوا : هي تعريب كلاذة ، وهي من بيوت عباداتهم ، أي عبادات النصارى . وقد وردت في الحديث ، كما ورد ذكرها في صلح عمر مع نصارى الشام ، حيث كتبوا له كتاباً : إنا لا نحدث في مدينتنا كنيسة ولا قلية[3] . والظاهر ان النصارى توسعوا في المعنى ، فأطلقوها على المنازل التي يسكنها الرهبان ، ثم توسعوا فيها فأطلقوها على دور المطارنة والبطارقة، وأصلها بمعنى الأكواخ[4] .

ولفظة (الدير) هي من الألفاظ النصرانية الشهيرة المعروفة بين العرب . وهي أكثر اشتهاراً من الألفاظ الأخرى التي لها علاقة بمواضع العبادة أو السكن عند النصارى ، وذلك لانتشارها ووجودها في مواضع كثيرة من العراق وبلاد الشأم وجزيرة العرب . ولمرور التجار وأصحاب القوافل والمارة بها ، واضطرارهم الى الاستعانة بأصحابها وباللجوء اليها في بعض الأحيان . كما كانت محلاً ممتازاً للشعراء ولأصحاب الذوق والكيف، حيث كانوا يجدون فيها لذة ومتعة تسر العين والقلب ، من خضرة ومن ماء بارد عذب ومن خمر يبعث فيهم الطرب والخيال ، ولذلك

---

١ سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الآية ٤٠ ، النهاية ، لابن الاثير (٢/١٢٠) ، تفسير الطبري (١٥/١٧٥) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢٦٥) ، النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٣) .
٣ النهاية (٣/٣٠٩) ، البكري ، معجم (٢/٥٨٣) ، اللسان (٢٠/٦٣) ، تاج العروس (٨/٨٦) ، (قلل) .
٤ معجميات (ص ١٨٠ وما بعدها) .

أكثر الشعراء في الجاهلية والاسلام من ذكـر الأديرة في شعرهم . حتى الشعراء النصارى مثل (عدي بن زيد العبادي) ، يترنم في شعره بذكـر الدير ، لأنه نادم فيه (بني علقما) ، وعاطاهم الخمر ممزوجة بماء السماء[1] .

ولفظة (الدير) هي مثل أكثر الألفاظ النصرانية من الألفاظ المعربة . عربت من أصل سرياني ، هو (دير) Dayr ، بمعنى دار ، أي بيت الراهب[2] . ومسكنه ، ولا سيما المحصّن ، ثم خصوا بها مسكن الرهبان[3] . وقد عرف علماء العربية أن الدير هو مسكن النصارى ، يتعبد فيه الرهبان ويسكنون به ، وقد ذكر (ياقوت الحموي) أن الدير بيت يتعبد فيه الرهبان ، ولا يكاد يكون في المصر الأعظم ، وإنما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال ، فإن كان في المصر الأعظم فإنه كنيسة أو بيعة[4] غير أن الأديرة تكون في كل مكان ، تكون في القرى وتكون في المدن كما تكون في البوادي وفي رؤوس الجبال[5] .

و (الديراني) ، صاحب الدير ، وقد ذكر بعض العلماء أن الديراني صاحب الدير الذي يسكنه ويعمره . نسب على غير قياس . ويقال للرجل اذا رأس أصحابه هو رأس الدير[6] .

ولا تقتصر الأديرة على الرجال ، فللراهبات أديرة أيضاً . ويقضي أصحاب الأديرة وقتهم في الزهد والتقشف والعبادة . والقيام بالأعمال اليدوية التي يوكلها رئيس الدير اليهم[7] . وقد عرف الراهب المعتكف بالدير بـ (الديراني) و (الديرانية) ، هي الراهبة[8] . وقد عرفت أديرة الراهبات بـ (أديرة العذارى) كذلك .

---

١ نادمت في الـدير بني علقما عاطيتهم مشمولة عندما
كأن ريح المسك من كأسها اذا مزجناها بماء السما
البلدان (٢/٦٣٩ ، ٦٨٠) ، (٢/٤٤٩) « بيروت » ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٢) ، المخصص (١٣/١٠٠ وما بعدها) .

٢ غرائب اللغة (ص ١٨٢) .

٣ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٢) .

٤ معجم البلدان (٢/٦٣٩) ، (٦/٦٣٩) .

٥ اللسان (٥/٢٨٧) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٢) .

٦ اللسان (٥/٣٨٧) ، تاج العروس (٣/٢٣١) .

٧ البلدان (٢/٦٣٩) ، (٤/٤٥١) .

٨ النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٢) ، الشعر ، لابن قتيبة (٢٢٩) .

واذ كان لهذه الأديرة حرمة في نفوسهم، فقد كانوا يعقدون فيها عقودهم ويحلفون بها على نحو ما كان يفعلـه الوثنيون في معابدهم حيث كانوا يقسمون الايمان ويتعاقدون أمام الأوثان ، فكان للنصارى في الحيرة دير السوا ، وفي هذا الدير كانوا يتناصفون ويحلفون بعضهم لبعض على الحقوق[1] .

وفي الآرامية لفظة هي (عمرو) Oumro ، وقد صارت (العمر) في العربية . ويراد بها البيعة والكنيسة والدير ودار[2] . وقـد وردت في شعر (المتلمس) ، حيث جاء :

ألك السدير وبارق ومبايض ولك الخورنق
والعُمر ذو الأحساء واللذات من صاع وديسق[3]

وعرفت العربية لفظة (الكرح) ، و (الأكيراح) ، وقد عرفها علـماء العربية بقولهم : « الأكيراح : بيوت ومواضع تخـرج اليها النصارى في بعض أعيادهم »[4] . واللفظة من أصل سرياني هو (كرحو) « Kourho » ، بمعنى كوخ ، ومسكن حبيس ، وبيت ناسك وراهب[5] . وذكر ياقوت الحموي : ان « الأكيراح بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلالي لهم »[6] . وهناك دير اسمه (الأكيراح) ، ورد في شعر لأبي نؤاس ، ويقع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياحين ، وبالقرب منه ديران ، يقال لأحدهما دير عبد ، وللآخر دير هند[7] .

والمحراب من الألفاظ التي استعملهـا النصارى في أمور دينهم كذلك ، إذ أطلقوها على صدر كنائسهم . وقد استعملت في الاسلام أيضاً ، حيث يشير الى القبلة ، ويؤم الإمام فيه المصلّين . وقد ذكر بعض علـماء اللغة ، ان محاريب

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٩٢) .
٢ غرائب اللغة (ص ١٩٦) .
٣ البكري ، معجم (٦٩٦) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٣) ، تاج العروس (٣/٣٢٠) .
٤ يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصح عنك فاني لست بالصاح
اللسان (٣/٤٠٥) ، البكرى ، معجم (٤/٥٧٥) ، المخصص (١٣/١٠٢) .
٥ غرائب اللغة (ص ٢٠٣) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٢ ، ٢١٤) .
٦ البلدان (١/٣٤٥) .
٧ البلدان (١/٣٤٥) .

بني اسرائيل مساجدهم التي كانوا يصلّون فيها [١] . وقد وردت لفظة المحراب في أشعار بعض الجاهليين [٢] . كما وردت في القرآن الكريم [٣] ، وفي الشعر الجاهلي [٤] .

وذكر علماء التفسير أن المحراب كل موضع مرتفع . وقيل للذي يصلي فيه : محراب ، وذكروا أنّ المحاريب دون القصور ، وأشرف بيوت الدار . قال عدي ابن زيد العبادي :

كدمى العاج في المحاريب أو كالبيض في الروض زهره مستنير [٥]

وذكر علماء العربية لفظة (التامور) (التأمور) ، في جملة الألفاظ المتعلقة بالرهبان والرهبنة . وقد عرفها بعضهم بأنها صومعة الراهب وناموسه [٦] .

وذكر أن (القوس) ، بمعنى الدير والصومعة أو موضع الراهب . أو معبد الراهب [٧] . وذكر أن أصل الكلمة من الفارسية [٨] .

وذكر أن (الغربال) ، هو مكان أيضاً من أمكنة الرهبان ، وأنه كهيئة الصومعة في هندسة بنائه وارتفاعه . وأنه كل بناء مرتفع . ويظهر أنها من الألفاظ المعربة [٩] .

والاسطوانة ، وهي السارية من الألفاظ النصرانية التي وقف عليها الجاهليون . وقد اتخذها العرب بمعنى العمود الذي كان يتعبد فوقه بعض الرهبان المعروفين بالعموديين Stylites . وقد أشير الى (اسطوان) في شعر نسبوه الى (ذي الجدن) . وفسرت لفظة (الاسطوان) ، و (الاسطوانة) ، بأنها موضع الراهب المرتفع [١٠] .

---

١ النصرانية ، الجزء الثاني القسم الاول (١٧٤) .
٢ اللسان (١/٣٠٥) ، النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٧٤) ، اللسان (١٧/٧) .
٣ آل عمران ، الآية ٣٧ ، ٣٩ ، مريم ، الآية ١١ ، ص ، الآية ٢١ .
٤ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٧٤) .
٥ تفسير الطبري (٤٨/٢٢) ، تفسير القرطبي (٢٧١/١٤) .
٦ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٢) ، تاج العروس (٢٠/٣) ، (أمر) .
٧ اللسان (٦٩/٨) ، معجم البلدان (٢٠٠/٤) .
٨ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول ، (ص ٢١٤) .
٩ تاج العروس (٤١٦/٧) ، البلدان (٥٢٥/٣) ، النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢١٣) .
١٠ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢١١) ، البلدان (٣٤٥/١) ، المخصص (١٠٠/١٣ وما بعدها) .

و (المنهمة) مسكن النهّام ، والنهامي ، هو الراهب . وأمـا المنهمة فموضع الراهب [1] .

ووردت في شعر للأعشى لفظة (الهيكل) . إذ قال :

وما أيبلي على هيكل بناه وصلّب فيه وصارا [2]

ويذكر علماء اللغة ، ان الهيكل : بيت النصارى فيـه صورة مريم وعيسى ، وربما سُمّي به ديرهم . وان الهيكل:العظيم واستعمل للبناء العظيم ، ولكل كبير ، ومنه سمي بيت النصارى الهيكل [3] . واللفظة من الألفاظ المعربـة ، وهي ترد في العبرانية (هيكل) وفي الآرامية (هيكلو) . وتعني في اللغتين المعبد الكبير ومعبد الوثنيين [4] .

وقد كان الرهبـان وبقيـة رجال الدين وكذلك الأديرة والكنائس يستعملون المصابيح والقنادل للاستضاءة بها . ويعبر عن المصباح بالسراج كذلك [5] . وقـد تركت مصابيحهم وقناديلهم أثراً ملحوظاً في مخيلـة الشعراء فأشير اليها في شعر (مزرد بن ضرار الذبياني) حيث قيل انه قال :

كأن شعاع الشمس في حجراتها مصابيح رهبان زهتها القنادل [6]

وذكر علماء اللغة ان الزيت الذي له دخان صالـح ويوقد في الكنائس ، هو (السليط) [7] .

ولفظة : قنديل من الألفاظ المعربة ، أصلها يوناني هو : « Candela » ،أي شمعة [8] . وقد دخلت الى العربية قبل الاسلام ، عن طريق الاتصال التجاري بين جزيرة العرب وبلاد الشأم .

---

١ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢١٤) .
٢ اللسان (١٤٤/٦) ، الأضداد (٢٤) ، النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢٠٣) .
٣ المخصص (١٠٠/١٣ وما بعدها) ، اللسان (٢٢٥/١٤) ، العقد الثمين (١٨) ، النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢٠٢) .
٤ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢٠٢) ، غرائب اللغة (٢٠٩) .
٥ المفردات ، للاصفهاني (ص ٦٧٤) .
٦ المفضليات (٣٦) « طبعة السندوبي » .
٧ تاج العروس (١٥٨/٥) ، اللسان (٣٢٠/٧) ، (سلط) .
٨ غرائب اللغة (٢٧٩) .

وكان النصارى العرب يتقربون الى رجال دينهم ويتبركون بهم ويحترمونهم حتى قيل إن الصبيان منهم كانوا إذا رأوا الراهب ينزل ليذهب الى بيت المقدس أو غيره خرجوا له فتمسحوا به ولثموا ثيابه ، حتى يمزقوا أثيابه . والى ذلك أشير كما يقول أهل الأخبار – في شعر امرىء القيس :

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس[1]

ولبس رجال الدين ملابس خاصة لتميزهم عن غيرهم ، غلب عليها السواد . وقد اختصت لفظة (المسح) و (المسوح) بالملابس التي كان يلبسها الزهّاد والرهبان .

ومن أهم العلامات الفارقة التي ميزت معابد النصارى عن معابد اليهود والوثنيين : (الناقوس) ، الذي ينصب فوق سطوح الكنائس وفي منائرها ، للاعلان عن أوقات العبادات ولأداء الفروض الدينية ، وهو عند الجاهليين خشبة طويلة يقرع عليها بخشبة أخرى قصيرة يطلقون عليها لفظة (الوبيلة) و (الوبيل) . وهو في مقابل البوق عند يهود يثرب ، اذا أرادوا الاعلان عن موعد العبادة . وقد عرف هذا البوق بين عرب يثرب بـ (القنع) أيضاً[2] ، وبـ (الشبور)[3] . وقد ذكر علماء اللغة ان الشبور « شيء يتعاطاه النصارى بعضهم لبعض كالقربان يتقربون به» . وقال بعضهم : هو القربان بعينه . وذكروا ان الشبور شيء ينفخ فيه ، فهو البوق عند اليهود ، وهو معرّب وأصله عبراني[4] .

وقد وردت كلمة (الناقوس) في الشعر الجاهلي : وردت في بيت للشاعر المتلمس[5] ،

---

١ المعاني الكبير (٢/٧٦٤) .

٢ القنع ، وورد القبع والفنع والفمع ، اللسان (١٠/١٣١) .

٣ عمدة القارىء (٥/١٠٢ وما بعدها) ، اللسان (٨/١٢٦) .

٤ اللسان (٦/٥٩) ، تاج العروس (٣/٢٨٩) ، (شبر) ، « وقد نفس بالوبيل النافوس » ، تاج العروس (٤/٢٦٢ وما بعدها) .

٥ حنت قلوصي بها والليل مطرق بعد الهدو وشاقتها النواقيس
ديوان المتلمس (١٧٨) ، (طبعة فولرس) ، (لايبزك ١٩٠٣) .

وفي شعر للمرقش الأكبر[1] ، وللأعشى[2] ، وللأسود بن يعفر[3] . وقد أشير في هذه الأبيات الى قرع النواقيس بعد الهدوء إيذاناً بدنو الفجر وحلول وقت الصلاة . وقد كانت هذه النواقيس في القرى وفي الأديرة ، يقرعها الرهبان والراهبات والقسيسون[4] . وقد أدخل بعض علماء اللغة هذه الكلمة في جملة الألفاظ المعربة التي دخلت العربية من أصول أعجمية[5] . واللفظة من أصل (سرياني) هو (ناقوشا)[6] .

أعياد النصارى :

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء أعياد نصرانية ترجع أصول تسميتها في الأكثر الى لغة بني إرم، ويظهر أن أولئك الأخباريين تعرفوا عليها في الاسلام باختلاطهم وباتصالهم بالنصارى ، إذ لم يشيروا الى ورود أكثرها في الشعر الجاهلي ، ومن عادتهم أنهم إذا عرفوا شيئاً كان معروفاً عند الجاهليين جاؤوا ببيت أو أبيات يستشهدون بها على ورودها عند الجاهليين .

ومن الأعياد التي ورد فيها شاهد في الشعر الجاهلي ، (السباسب) ، وهو (يوم السعانين) و (الشعانين) . وقد وردت كلمة السباسب في بيت للنابغة قاله في عيد السعانين عند بني غسان ، هو :

---

١ وتسمع تزقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقس
المفضليات (٤٦٥) ، النصرانية (٢٠٧) .

٢ وكأس كعين الديك باكرت حدها بفتيان صدق والنوافيس تضرب
تاج العروس (٢/٣٣١) ، (حد) ، ويروى لعنترة ، العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين (١٧٩) ، (طبعة الوردت) ، (Ahlwardt) ، (باريس ١٩١٣)، النصرانية (٢٠٧) .

٣ وقد سبأت لفتيان ذوي كرم قبل الصباح ولما تفرع النقس
اللسان (٨/١٢٦) ، (نقس) ، تاج العروس (٤/٢٦٣) .

٤ النصرانيه (٢٠٧) .

٥ عمدة القارىء (٥/١٠٣) ، المعرب (٣٣٩)) .

٦ Shorter Ency., p. 437.

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب[1]

و (السعانين) و (الشعانين) من أصل عبراني (هو شعنا) . وقد وردت هذه الكلمة في صحيفة صلح (عمر) مع نصارى الشأم ، وردت معها لفظة أخرى من الألفاظ النصرانية كذلك هي (الباعوث)[2] ، وهي رتبة تقام في اليوم الثاني من عيد الفصح[3] ، وصلاة لثاني عيد الفصح في بعض الطوائف[4] . وقد ذكرها علماء اللغة في جملة الألفاظ المعربة ، والإرمية الأصل ، وجعلها بعضهم (الباغوث). وذكروا انها (استسقاء النصارى) ، وان (عمر) لما صالح نصارى الشام ، كتبوا له ان لا نحدث كنيسة ولا قلية ولا نخرج سعانين ولا باعوثاً[5] .

و (خميس الفصح) من أعياد النصارى كذلك . وهو بعد السعانين بثلاثة أيام ، وكانوا يتقربون فيه بالذهاب الى الكنائس والبيع[6] .

وقد أشير الى عيد (الفصح) في بيت للأعشى يمدح فيه (هوذة بن علي) لتوسطه لدى الفرس بالافراج عن مئة أسير من أسرى بني تميم همّ الفرس بقتلهم ، وذلك لمناسبة يوم الفصح . وقد كان نصارى الجاهلية يحتفلون به ، فيوقدون المشاعل ، ويعمرون القناديل ، ويضيئون الكنائس بالمسارج ويقصدونها للاحتفال بها ، حتى قيل للقنديل الذي يعمر لهذا اليوم (قنديل الفصح)[7] .

---

١ « والسباسب أيام السعانين • وفي الحديث ان الله تعالى أبدلكم بيوم السباسب يوم العيد • يوم السباسب عيد للنصارى ، ويسمونه يوم السعانين » ، تاج العروس (١/٢٩٣) ، النصرانية (٢١٥) ، غرائب اللغة (٢١٢) ، عن « أحد الشعانين » راجع المشرق : السنة الثامنة ، الجزء ٨ ، السنة ١٩٠٥ م ، (ص ٣٣٧ وما بعدها) •

٢ « أن لا يحدثوا كنيسة ولا قلية ، ولا يخرجوا سعانين ولا باعوثا » ، « ويوم السعانين عيد للنصارى • وفي حديث : شرط النصارى ولا يخرجوا سعانين • قال ابن الأثير: هو عيد لهم معروف • قبل عيدهم الكبير باسبوع • وهو سرياني معرب • وقيل : هو جمع واحده سعنون » ، اللسان (١٧/٧١) ، (سعن) ، (١٣/٢٠٩) ، (صادر) •

٣ النصرانية (٢١٧) •

٤ غرائب اللغة (١٧٣) •

٥ اللسان (١٣/٢٠٩) ، تاج العروس (١/٩٠٣) ، (بعث) ، اللسان (٢/١١٨) ، (بعث) •

٦ الاغاني (٣/٣٢) ، النصرانية (٢١٦) •

٧ قال عدي بن زيد العبادي :

بكروا علي بسحرة فصحبتهم باناة ذي كرم كعقب الحالب
بزجاجة ملء اليدين كأنها قنديل فصح في كنيسة راهب

الاغاني (٩/٥٣) ، اللسان (٣/٣٧٨) ، النصرانية (٢١٦) • وورد في شعر لأوس بن حجر :

عليه كمصباح العزيز يشبه لفصح ويحشوه الذبال المفتلا

شعراء النصرانية (٤٩٤) ، النصرانية (٢١٦) •

وقيل لاجتماع النصارى واحتفالهم (الهنزمن) ، وذكر أن هذه اللفظة من أصل فارسي هو (هنجمن) أو (أنجمن) ، ومنها دخلت الى السريانيـة فأطلقت على اجتماع النصارى واحتفالهم وتعييدهم[1] .

وقد أشار امرؤ القيس في بعض شعره الى عيد النصارى ، ولبس الرهبان فيه ملابس طويلة ذات أذيال[2] .

وكانت الكنائس والأديرة والأضرحة والمقابر الأماكن التي يقصدهـا النصارى في أعيادهم . فتكـون موضع تجمع ولقاء . كانوا يقصدونها للتقرب الى الرب وللصلوات له . وللتوسل اليه بأن يمن عليهم ويبارك فيهم . وكانوا يقصدون المقابر اظهاراً لشعورهم بأن موتاهم وان فارقوهم وابتعدوا عنهم ، غـير أنهم لا زالوا في قلوبهم . وأيام الأعياد من أعز الأيام على الانسان ، لذلك فهي أجدر الأيام بأن تخصص لزيارة بيوت الأرباب وبيوت الموتى : القبور .

---

١ قال الاعشى :
اذا كان هنزمن ورحت مخشـما
اللسان (١٧/٣٢٩) ، تاج العروس (٩/٣٦٨) ، النصرانية (٢١٧) .

٢ فآنست سـربا من بعيد كأنه رواهب عيـد في مـلاء مهدب
النصرانية (١٧٣) .

الفصل الثاني والثمانون

أثر النصرانية في الجاهليين

وإذا كنا قد حُرمنا من الموارد الأصلية التي يجب أن نستعين بها في معرفة أثر النصرانية عند نصارى الجاهلية والجاهليين ، فإن في الشعر المنسوب إلى بعض نصارى الجاهلية مثل عدي بن زيد العبادي والى بعض الشعراء ممن كان لهم اتصال بالنصارى مثل الأعشى ، فائدة في تكوين صورة يتوقف صفاؤها ووضوحها وقربها أو بعدها من الواقع والحق على مقدار قرب ذلك الشاعر من الصدق والصواب والواقع والافتعال .

وعدي بن زيد هو أشهر من وصل الينا خبره من شعراء النصارى الجاهليين . هو من العباديين ، أي من نصارى الحيرة ، ولذلك عرف بالعبادي . كان من أسرة اكتسبت نفوذاً واسعاً ونالت حظاً كبيراً عند الفرس وعند ملوك الحيرة ، فكان لها أثر خطير في سياسة عرب العراق في ذلك الزمن . ولما كانت السياسة ارتفاعاً وهبوطاً ، سعادة وشقاء ، لاقى عدي منها الاثنين : ارتفع حتى بلغ أعلى المنازل ، ثم انخفض حتى تلقاه قابض الأرواح وهو في سجنه فقضى عليه بعد أن ترك أثراً خطيراً في سياسة الحيرة وفي تقرير مصير الملك فيها . وعدي ، على ما يذكر أهل الأخبار ، من أهل اليمامة في الأصل : هاجر أحد أجداده من اليمامة الى الحيرة بسبب دم أهرقه هناك ، فخاف على نفسه من الثأر ، ولم يجد محلاً أصلح له وآمن مقاماً من الحيرة ، لوجود (أوس بن قلام) أحد رؤساء بني الحارث بن كعب فيها ، وهو من أصحاب الجاه والنفوذ ، وبينه وبين أوس

نسب من النساء ، وهو نسب يضمن له الحماية والعيش بسلام ، فجاء الى الحيرة وأقام بها حيث أكرمه أوس وقربه الى آل لخم ، واكتسب منزلة عالية عند ملوك الحيرة ، انتقلت من بعده الى أبنائه الذين كوّنوا لهم صلات وثيقة مع آل لخم ومع ملوك الفرس ، بما كان لهم من علم وذكاء وحسن سياسة . ويذكر الأخباريون أن جدّ عدي قد تعلم الكتابة في الحيرة ، فصار من أكتب الناس فيها ، وأنه لذلك انتخب كاتباً لملك الحيرة ، واتصل بحكم وظيفته المهمة هذه بدهاقين الفرس ، وأنه لما توفي أوصى بابنه زيد والد عدي الى واحد منهم يعرف بـ (فروخ ماهان) فأخذه هذا الى بيته ، ورباه مع ولده . فتعلم عندهم الفارسية ، وحذقها وكتب بها وبرّز ، وكان قد حذق الكتابة بالعربية كذلك ، فأوصله الدهقان الى كسرى ، لعلمه هذا باللغتين ولذكائه ، فعينه في وظيفة مهمة لم يكن الفرس يعينون لها أحداً من غيرهم هي وظيفة البريد . وقد مكث في هذه الوظيفة زماناً جعلته يكتسب منزلة محترمة عند عرب الحيرة والفرس .

وعُني زيد بتربية ولده عدياً : أرسله الى الكتّاب ليتعلم به العربية . فلما برع فيها ، أرسله الى كتاب الفارسية حيث تعلم مع أبناء المرازبة فنون القول والكتابة ، ثم تعلم الرماية ولعب الفرس حتى صار من المبرزين فيها . وقد قربه علمه وعقله من آل لخم ومن الفرس حتى وصل الى مناصب عالية جعلت لقوله أهمية كبيرة حتى في تثبيت ملك ملوك الحيرة .

وقد أرسله (هرمز بن أنو شروان) في سفارة مهمة إلى القيصر (طيباريوس) فأدّاها على خير وجه . وعاد فأقام أمداً بالشأم ، ووقف على ما كان فيها من علم ومعالم . وقد زادت هذه الأسفار بالطبع في سعة أفقه وفي ثقافته . ثم عاد الى الحيرة ، فوجد والده قد توفي بعد ان صار المهيمن الحقيقي على البلاد . وزار كسرى ليقدم اليه هدايا قيصر . وارتفع نجمه في البلاطين . وتزوج هنداً بنت الملك النعمان . غير ان تقدمه هذا أوجد له خصومة شديدة من منافسيه (بني مرينا) وهم نصارى مثله ومن أهل الجاه والحسب ، فأغرى خصمه ومنافسه العنيد (عدي بن مرينا) قلب النعمان عليه . وكان عدي بن زيد صاحب الفضل في حصول النعمان على تاج . وظل (ابن مرينا) يعمل في الخفاء للقضاء على عدي ،

حتى تمكن من ذلك ، إذ سجنه النعمان ، ثم أمر فاغتيل وهو في السجن[1] .

وذكر ان (كسرى) جعله كاتباً على ما يجتبى من الغور ، وكان هو سبب ملك النعمان بن المنذر[2] .

والذي يهمنا في هذا الموضع من أمر عدي هو مدى وقوف عدي على النصرانية ومبلغ تسربها في نفسه وفي نفوس أهل الحيرة . أما النواحي الأخرى من حياته ، فليس لها محل في هذا المكان . وشعر عدي وأضرابه من العباديين هو سندنا الوحيد الذي نستخرج منه رأينا في النصرانية عند عدي وعند اخوانه العباديين .

والشعر المنسوب الى عدي أقرب إلى نفوسنا وأسهل علينا فهماً من الشعر المنسوب إلى بقية الجاهليين ، معانيه وألفاظه حضرية متحررة من الأساليب البدوية التي تميل إلى استعمال الجزل من الكلمات ، وهو يخالف مذاهب أولئك الشعراء في كثير من الأمور . ولهذا « كانت الرواة لا تروي شعر أبي دؤاد ولا عدي بن زيد لمخالفتها مذاهب الشعراء »[3] ، و « لأن ألفاظه ليست بنجدية »[4] . وقد ورد في شعره بعض المعربات مما يدل على أثر الفارسية والإرمية فيه[5] . وكثير من شعره هو في الزهد ، وفي التذمر من هذه الدنيا التي لا تدوم حالها على حال ، وفي تذكير الأحياء بنهاية الأموات بالرغم مما أقاموه وشيّدوه من أبنية ضخمة وقصور شاهقة . وهذا الشعر يتناسب مع ما يذكره أهل الأخبار عن حياة هذا الشاعر وتألق نجمه وبلوغه أعلى المراتب ثم سقوطه فجأة ودخوله السجن واغتياله فيه . وفي شعره قصائد في القيان وفي الخمر تتحدث عن الحياة التي قضاها قائلها، وهي حياة لذيذة ولكنها لا تدوم بالطبع إلى الأبد ، ولا بد لها ان تزول ثم تنتهي بما

---

١ المشرق ، الجزء الاول ، كانون الاول ١٩٤٤ ، (ص ٢٩ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (٤٢٦ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية في الجاهلية حتى عصر بني امية (ص ٧٢) ، (القاهرة ١٦٥٤) ،
Ency., I, p. 137, Brockelmann, I, S. 29, Rothstein, S. 109, Nöldeke, Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden, S. 512, Islamic Culture, IV, p. 31. ff.

٢ نوادر المخطوطات ، أسماء المغتالين (١٤٠) .

٣ الاغاني (١٥/٩٣) ، (مطبعة التقدم) ، (ذكر اخبار أبى دؤاد الايادي ونسبه) ، نالينو (٧٤) .

٤ ابن قتيبة ، الشعر (١١٥) .

٥ نالينو (٧٤) .

يوجب الأسف عليها والألم والتوجع من فنائها ومن ذهاب تلك الأيام .

أما صميم الديانة والآراء النصرانية الخاصة ، وهي ضالتنا في هذا الفصل وهدفنا الذي نقصده ، فلا تجد منها في شعره الموثوق بصحته شيئاً كثيراً . ونحن لا نستطيع بالطبع ان نلوم عدياً على ذلك ، فعدي كما نعلم رجل شعر وسياسة، وليس برجل دين ولا كهانة فيتعمق في شعره بإيراد تواريخ الأنبياء والأوامر والنواهي الإلهية الواردة في التوراة والانجيل . ولم يذكر أحد من الأخباريين عنه انه كان كاهناً أو قسيساً فنأمل منه التطرق في شعره الى موضوعات اللاهوت والكهنوت . فما نجده في شعره عن النصرانية هو من حاصل المناسبات والظروف ، وليس من حاصل بحث متعمد قصد به البحث في الدين من أجل الدين .

ولو كان عديّ قد تعرض للنصرانية عنده وبين قومه لأفادنا ولا شك كثيراً . وما زلنا في الواقع فقراء في ناحية علمنا بمبلغ فهم أهل الحيرة وغير أهل الحيرة من نصارى العرب في الجاهلية لأحكام النصرانية وقواعدها ، ومقدار رسوخها في نفوس أولئك النصارى ولا سيما الأعراب منهم . ولكن عذره كما قلت بيّن واضح ، وليس لنا أن نلومه . وما جاء به عن النصرانية في شعره على كل حال مفيد ، أفادنا ولا شك . فلنكن قنوعين غير طامعين ، مكتفين بما أورده عدي عنها في شعره ، ولننظر الى المستقبل ، فهو أملنا الوحيد ، فلعلّه يكشف عن مصادر كتابية مطمورة ، يبعثها من قبورها المغمورة بالأتربة المتراكمة ، وعندئذ تكون أمام المؤرخ ثروة تغنيه، يستطيع أن يظهرها العشاق للمولعين بمعرفة أحوال الماضين .

وقد ورد في قصيدة قيل انه نظمها في معاتبة النعمان على حبسه بيت فيه قسم برب مكة والصليب :

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب[1]

وهذا البيت يدعو الى التأمل والتفكير ، فرجل نصراني يؤمن بعيسى وبالصليب ، لا يمكن أن يقسم برب مكة . فمكة كما نعلم مجمع الأصنام والأوثان وكعبة الوثنية في الجاهلية ، فكيف يقسم بربها رجل نصراني يرى الأوثان والوثنية رجساً من عمل الشيطان وكفراً . بل لو فرضنا أنه أقسم بمكة وبرب مكة على سبيل مجاراة

---

١ شيخو ، شعراء النصرانية (٤٥١) .

العرب الوثنيين وتقرباً الى الملك النعمان ، فليس لدينا دليل مقنع يفيد أن وثني الحيرة كانوا يؤمنون برب مكة . ولم يذكر أحد من أهل الأخبار ان أصنام أولئك الوثنيين كانت بمكة ، وأن أهل الحيرة كانوا يزورون مكة ويحجون الى (رب البيت) في جملة من كان يحج اليه من العرب . ولم يرد في روايات أهل الأخبار ان الملك (النعمان) كان وثنياً مؤمناً بقدسية مكة وأنه حج اليها حتى نذهب الى الفرض بأن عدياً ، إنما أقسم بمكة ، مجاراة لهذا الملك ، بل الوارد فيها أنه كان على دين النصرانية ، وانه كان مؤمناً بهذا الدين ، يزور الأديرة ويحضر الصلوات ورجل على هذا النحو من التدين لا يمكن بالطبع أن يحفل بقسم ببيت من بيوت الأصنام . ثم ان مصطلح (رب مكة) ، هو مصطلح اسلامي ، أخذ من عقيدة التوحيد في الإسلام ، فقيل : (رب البيت) و (رب هذا البيت)[1] .

لقد اتخذ الأب (شيخو) هذا البيت دليلاً على انتشار النصرانية في مكة وعلى تنصر أحياء منها ، وعلى ان النصرانية قديمة فيها ، بل يكاد يفهم من قوله ان البيت هو في الأصل كنيسة بنيت بعد المسيح بعهد قليل : بناها النصارى الذين جاءوا إلى هذه المدينة وسكنوها ، وان صور الأنبياء وصورة عيسى وأمه مريم التي ذكر الأخباريون انها كانت مرسومة على جدار الكعبة والتي أمر الرسول بطمسها ومحو معالمها هي دليل على أثر النصرانية في مكة ، ولهذا كان النصارى الجاهليون يحجون اليها ويقدسونها ، ولهذا السبب أقسم[2] عدي بها ، وأقسم الأعشى بها كذلك حيث قال :

حلفت بثوبي راهب الدير والتي   بناها قصيٌّ والمضاض بن جرهم

وذكر ان من شعر (عدي) هذا البيت :

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت   فيكم وقابل قبر الماجد الزارا [3]

وقد اختلف العلماء في مراده بـ (ذات الودع) ، فذهب بعض منهم الى

---

١ « فليعبدوا رب هذا البيت » ، سورة قريش ، الآية ٣ .

٢ النصرانية (ص ١١٨) ، وفي الديوان :

فاني وثوبي راهب اللج والتى   بناها قصى وحده وابن جرهم

ديوان الأعشى (ص ٩٥) .

٣ تاج العروس (٥/٥٣٤) ، (ودع) .

ان (ذات الودع) الأوثان ، أو وثن بعينه ، وقيل سفينة نوح ، وكان يحلف بها ، وكانت العرب تقسم بها ، وتقول : بذات الودع . وقيل الكعبة ، لأنه كان يعلق الودع في ستورها[1] .

ولم يرد في شعر عدي شيء ما يتحدث عن عقيدة التثليث ، أي الايمان بالثالوث. وكل ما ورد فيه هو الاشارة الى عقيدة بوجود رب واحد هو (الله) . وهو رب مستجيب مسبّح خلاق[2] . وهذا الرأي اسلامي كما هو معلوم ، وقريب من عقيدة الحنفاء .

ووردت في بيت شعر وجهه الى النعمان كلمة (أبيل)[3] ، وأبيل اسم للمسيح، ويطلق على حبر النصارى أيضاً،ومعناها الناسك والزاهد . وهي من أصل سرياني، من فعل (ابل) بمعنى ناح وبكى على خطاياه،ولذلك قصد بها الناسك والراهب[4]. وقد دعا الأعشى ضارب الناقوس : الأبيل[5] .

ونسب لعدي هذا البيت :

وأهبط اللهُ إبليساً وأوعده ناراً تلهب بالأسعار والشرر[6]

---

١ المصدر نفسه .

٢ فانـي قد وكلت اليـوم أمري الى رب قـريب مسـتجيب

...

أجـل ان اللـه قد فضـلكم فوق من أحـكأ صلبـا بـازار

...

واذهبـي يا أميـم ان يشأ اللـ ـه بنفسي من أزم هـذا الخناق

أو تكن وجهه فتلك سبيل النـ ـاس لا تمنع الحتـوف الرواقي

...

ليس شـيء على المنون بباق غـير وجـه المسيـح الخـلاق

شعراء النصرانية (٤٥٢ ، ٤٥٤) ، النصرانية (١٦٢) .

٣ انني واللـه فابـل حلفـي لأبيـل كلمـا صـلى جـار

وروي:

انني والله فاقبـل حلفتـي بأبيـل كلمـا صـلى جـار

شعراء النصرانية (٤٥٣) ، النصرانية (١٩٤) .

٤ تاج العروس (١٩٩/٧) ، (ابل) ، اللسان (٦/١٣) ، مرمرجي ، معجميـات عربية سامية (١٣١ وما بعدها) .

٥ فانى ورب السـاجدين عشيـة وما صك ناقوس الصـلاة أبيلها

النصرانيه (٢٠٨) .

٦ النصرانية (١٦٨) .

ولم ترد كلمة (ابليس) في شعر منسوب لشاعر جاهلي آخر ، إنما وردت كلمة (شيطان) في شعر منسوب الى أميّة بن أبي الصلت .

ونسب الى عدي هذا البيت :

ناشدتنا بكتاب الله حرمتنا ولم تكن بكتاب الله تقتنع[1]

ويظهر من دراسة الشعر المنسوب لعديّ أنه كان على مذهب القائلين بالقضاء والقدر . فكل كائن خاضع لحكم القدر ، يفعل به ما يشاء ، ليس في إمكانه ردّ شيء مقدر كائن عليه . وقد رسخت هذه العقيدة في نفس عدي ولا شك بعد أن زجّ به في السجن ، وأصبح وحيداً لا يدري ما الذي سيصنع به . وهي عقيدة يسلم بها أكثر من يقع في مثل هذه الظروف ، لأنها تفرج عن النفس ، وتخفف بعض التخفيف عما ينتاب المرء وهو في هذه الحالة من هموم وأحزان . والإيمان بالقدر وبأن الانسان مسير مجبر ، عقيدة لها صلة كبيرة بالظروف الاجتماعية وبالأحوال التي تحيط بالانسان ، وهي ليست من الآراء الدينية الخالصة .

ونسبت لعدي أبيات فيها حكايات من العهد العتيق ، مثل هذه الأبيات وهي في مبدأ الخلق :

اسمع حديثاً لكي يوماً تجاوبه عن ظهر غيب إذا ما سائل سألا
أن كيف أبدى إلـه الخلق نعمته فينا وعرّفنا آياته الأولا
كانت رياحاً وماءً ذا عُراثية وظلمة لم يدع فتقاً ولا خللا
فأمر الظلمة السوداء فانكشفت وعزّل الماء عما كان قد شغلا
وبسط الأرض بسطاً ثم قدرها تحت السماء سواء مثل ما فعلا
وجعل الشمس مصراً لا خفاء به بين النهار وبين الليل قد فصلا
قضى لستة ايام خلائقه وكان آخر شيء صوّر الرجلا[2]
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا[3]

---

١ شعراء النصرانية (٤٧٣) .

٢ وقضى لستة أيام خليقته وكان آخرها أن صور الرجلا
الحيوان (١٩٨/٤) ، (عبد السلام محمد هارون) .

٣ البدء والتأريخ (١٥٠/١ وما بعدها) ، النصرانية (٢٥٤) ، وتجد في النص بعض الاختلاف عن النص الذي تجد في كتاب النصرانية ، وفي المراجع الاخرى .

وطابع هذا النظـم وأسلوبه يفصحان انه نظم من النوع التعليمـي الديني ، لا أدري أكان شاعرنا يعترف به وينسب إلى نفسه؟ أما أنا ، فلا أرى انه لشاعر عربي عاش قبل الاسلام .

ونجد في شعر (عدي) نزعة من نزعات التصوف والتأمل ، جاءت اليه من الأوضاع التي أحاطت به ، من وشايات ، ومن غضب الملك عليه ومن سجن ، بعد ان كان السيد المهيمن . حتى صار الدهر عنده حالاً بعـد حال . لا يدوم صفاؤه لأحد ، فلا يركن أحد اليه ، ولا يغتر إن وجد نفسه في أعلى عليين ، فقد يسقط غداً إلى أسفل سافلين[1] .

وهناك شاعر آخر اسمه (الملمس بن عبد المسيح) يدل اسم أبيه على أنه كان نصرانياً ، غير أن هناك رواية أخرى تذكر ان اسم والده (عبـد العُزى)[2] . وعبد العُزى من أسماء الوثنيين كما هو معروف . ثم اننا لا نجد في شعره ما يشير الى آراء وعقائد نصرانية يمكن أن يستنبط منها أنه كان نصرانيـاً . ورجل يحلف في شعره باللات والأنصاب لا يعقل أن يكون نصرانياً[3] .

أما الأعشى ، فهو شاعر عاش في الجاهلية ، وأدرك أيام الرسول . ومـدحه بقصيدة جميلة مشهورة ، جعلت أبا سفيان يحرض قومه على ارضائه خوفاً من ان يسلم ومن أن ينظم شعراً آخر في مدح الرسول وفي ذم قريش ، فجعـل له مائة من الإبل جمعها من قومه على أن يرجع ويؤجل أمر إسلامه عامـاً . فرجع الى بلدته (منفوحة) باليمامة ، وكان قد ولد بها ، فمات بها بعد حين وعرف قبره بين الناس أمداً .

وكان الأعشى كما يروي أهل الأخبار جواباً في الآفاق ، عرف الحيرة ونادم ملوكها ، وزار النجاشي في أرضه ، وتجول في أرض النبيـط وأرض العجم . وتنقل في أرجاء اليمن وفي حضرموت وعمان وبلاد العراق وبلاد الشأم ومتع نظره

---

١ العمدة (١/٢٢٣) .

٢ Vollers, Die Gedichte des Mutalammis, Leipzig, 1903, S. 149.

٣ أطردتني حـذر الهجـاء ولا والـلات والأنصـاب لا تئـل
ديوان المتلمس (١٧١) ، (طبعة فولرس) ، النصرانية (٤٠٤) .

بالآثار القديمة واتخذهـا عبرة للمعتبرين[1] . وقد وسعت هذه الأسفار آفاق نظره وعرفته على شعوب متعددة وعلى آراء ومعتقدات متنوعة . ومنها هذه النصرانيـة التي نبحث فيها .

وقد حمله اختلاطه بالنصارى العرب على الاشارة الى بعض طقوسهم وأحوال عباداتهم في شعره . وإلى ان يشير إلى قصص معروف بين أهل الكتاب ، وارد بينهم ، فذكره في شعره . فتراه يتحدث عن حمامة نوح وعن أخبار سليمان وعن جن سليمان وعن المباني القديمـة العادية المنسوبة اليه ، كـما تراه يشير إلى عادة النصارى في الطواف حول الصليب أو تمثال المسيح[2] . ثم تراه يشير إلى الصليب نصبه الراهب في الهيكل بعد ان زينه بالصور[3] .

وفي الشعر المنسوب اليه إقرار بإله واحد كريم[4] ، ونهي عن عبادة الأوثان ومن التقرب منها[5] ،وفيه ان الرب يكفي الانسان ويرعاه ويساعده في حله وفي ترحاله[6] ،

---

١ وقـد طفـت للمـال آفاقـه — عمـان فحمـص فأوري شـلم
أتيت النجاشـي في أرضـه — وأرض النبيـط وارض العجـم
فنجران فالسـرو من حمـير — فـأي مـرام لـه لـم أرم
ومن بعـد ذاك الى حضرمـوت — فأوفيـت همي وحينـا أهـم
ألم تـرى الحضـر الا أهلـه — بنعمـى ، وهـل خالد من نعم ؟
أقـام به سـابور الجنـود — حولـين يضرب فيـه القـدم
فمـا زاده ربـه قـوة — ومثـل مجـاورة لم يقـم
ديوان الاعشى « طبعة رودولف كاير » ، (ص ٣٣ وما بعدها) .
قد طفت ما بين بانقيـا الى عدن — وطال في العجم ترحالي وتسياري
ديوان الاعشى (١٢٦) .

٢ قال في مدحه « قيس بن معديكرب الكندي » :
تطـوف العفـاة بأبـوابه — كطوف النصـارى ببيت الوثن
ديوان الاعشى (١٩) ، اللسان (١٧/٣٣٤) ، (ونن) .

٣ ومـا أيبـلي عـلى هيـكل — بنـاه وصلب فيـه وصـارا
ديوان الاعشى (٤٠) ، النصرانية (٢٠٤) ، بروكلمان ، تاريـخ الادب العـربى (١/١٤٧ وما بعدها) .

٤ ربـي كريـم لا يـكدر نعمـة — فاذا تنوشد في المهـارق أنشدا
النصرانية (١٦٢) .

٥ وذا النصب المنصوب لا تسكننه — ولا تعبـد الأوثان ، والله فاعبدا
النصرانية (١٥٩) .

٦ ولـكن ربي كفـى غربتـي — بحمـد الاله فقـد بلغـن
ديوان الأعسى (١٧) .

وان الانسان عبده[1] . وان الفناء واقع على كل امرىء ، وليس أحد في هذه الدنيا بخالد ، ولو كان الخلود لأحد لكان لسليمان[2] . وفيه حديث عن البعث والحساب يوم الدين .

ونجد في شعره معرفة بنوح وبسفينته ، أشار الى نوحٍ في مدحه إياساً حيث خاطبه بقوله :

جزى الإلـه إياساً خـير نعمته   كما جزى المرء نوحاً بعدما شابا
في فلكه إذْ تبداها ليصنعهـا   وظلّ يجمع ألواحـاً وأبوابا [3]

فهل أخذ الأعشى رأيه هذا عن نوح من أهل الحيرة ؟ وهل كان في ذلك قاصداً متحدثاً مخاطباً رجلاً نصرانياً يعرف الحكاية والموضوع ؟ أو كان متحدثاً عن نوح حديث من يـدين به ويعتقد ، فهو رأيه ودينه . الواقع أن البت في ذلك أمر لا أراه ممكناً ما لم تتجمع لنا موارد تأريخية كثيرة ، ليتمكن المرء من استنتاج رأي واضح في أمثال هذه الموضوعات المعقدة ، التي لم تدرس مظانهـا المدوّنة ، ولم تنتقد حتى الآن .

وقد ذهب (كاسكل) « Caskel » إلى ان (الأعشى) كان نصرانياً . وذهب الأب (شيخو) هذا المذهب أيضاً ، وجوّز (بروكلمن) تنصره ، لكنه ذهب إلى انه لم يكن متعمقاً في النصرانية [4] . وقد استدل (كاسكل) على نصرانيته من بيتين في ديوانه ، ومن بيت آخر ورد في قصيدة أخرى ، لا يمكن في الواقع ان يكون دليلاً على نصرانية قائله[5] .

وذكر انه كان قدرياً ، روى روايته (يحيى بن متى) وهو من عباد الحيرة،

---

١ فأقسم بالـذي أنا أعبـده   لتصطفقن يومـا عليـك المآتم
ديوان الأعشى (٥٨) .

٢ ولو كان شيء خـالدا ومعمرا   لكان سـليمان البريء من الدهر
رآه الهـي فاصـطفاه عبادة   وملـكه ما بين ثـريا الى مصـر
وسخر من جـن الملائـكة تسعة   قياما لديـه يعمـلون بلا أجـر
ديوان الأعشى (٢٤٣) .

٣ شعراء النصرانية (٣٨٩) ، النصرانية (٢٦١) .

٤ تأريخ الادب العربي لبروكلمن (١٤٧/١ وما بعدها) .

٥ انظر البيتين ١٢ ـ ١٣ من القصيدة رقم ٣٤ بديوانه ، والبيت ٩ من القصيدة ١٣ بالديوان ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١٤٧/١) ، الترجمة العربية) .

انه أخذ مذهبه هذا في القدر من العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك . وقد استشهدوا على قوله هذا في القدر بهذا البيت:

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولى الملامة الرجلا [1]

وقد راجعت شعر (الأعشى) ، فلم أتمكن من استنباط شيء منه يدلني على مقدار علمه بالنصرانية وعلى مدى تعمقه أو تعمق غيره من النصارى بدينهم . فما ذكره مما له علاقة بالنصرانية ، هو شيء عام ، يأتي بخاطر كل شاعر ذكي جوّاب في الآفاق ، له احتكاك واتصال بالنصارى أو بغيرهم ، وهو لا يصلح ان يكون دليلاً على عقيدة ودين وفهم لذلك الدين .

وفي شعر (الجعدي) كلام عن سفينة نوح ، ذكر أنه قال :

يَرْفعُ ، بالقار والحديد من الـ جوز ، طوالاً جذوعها، عُمما [2]

والنابغة الجعدي ، مخضرم ، يقال إنه كان مثل الحنفاء ، أنكر الخمر والميسر ، وهجر الأزلام والأوثان . وكان ممن فكر في الجاهلية ، وأنكر الخمر والسكر ، وهجر الأزلام واجتنب الأوثان ، وذكر دين ابراهيم . وقد لقي الرسول ، وأسلم وأنشده من شعره . وذكر أنه هو القائل القصيدة التي فيها :

الحمد لله ربي لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

على نحو شعر أمية بن أبي الصلت ، وقد قيل إنها لأميّة ، لكن صححها حمّاد الراوية [3] .

ونجد في شعر آخرين من غير من ذكرت ألفاظاً وكلمات كانت معروفة عند النصارى وإشارات إلى عباداتهم وعاداتهم ، وردت في شعر (النابغة الذبياني) ولبيد ، وامرىء القيس ، وأوس بن حجر وآخرين غيرهم ممن طافوا في الأرضين وارتحلوا فوقفوا على بعض أحوال النصارى فأشاروا اليها في شعرهم .

---

١ الأغاني (٧٩/٨) ، باليسو (١٧) .
٢ اللسان (٤٢٥/١٢) ، (عمم) .
٣ الاصابة ٥٠٨/٣) ، (رقم ٨٦٤١) ، أمالي المرتضى (٢٦٣/١ وما بعدها) ، المرزباني (٣٢١) .

ونجد في شعر (الأفوه الأودي) ، وهو صلاءة بن عمرو ، تسجيلاً لأبناء نوح . سجلهم مع من سجل أسماءهم من ملوك التبابعة ممن دانت لهم الأنام ، فنجده يقول :

ولما يعصها سام وحام ويافث حيثما حلت ولام[1]

ولا أدري إذا كان هذا البيت من نظم شاعر جاهلي ، هو الأودي ، أو من نظم شخص آخر نظمه على لسانه في الاسلام . ولكني لا أستبعد بالطبع أن يكون خبر أولاد نوح الثلاثة . وهم : سام ويافث وحام ، قد عرف عند العرب النصارى وعند من كان على احتكاك واتصال بهم .

ونجد في بيت شعر ينسب لأفنون التغلبي ذكراً لولد آدم[2] . وورود آدم في هذا البيت ، إن صح انه من شعر ذلك الشاعر الجاهلي ، دليل على وقوف هذا الشاعر على قصة آدم وانحدار البشر من نسله . ولا يستبعد ان يكون اذن قد وقف عليها باختلاطه ببني قومه تغلب ، وقد كان قسم كبير منهم قد دخلوا في النصرانية. ولا يستبعد أيضاً ان يكون بعض الوثنيين قد وقفوا أيضاً على قصة الخلق كما وردت في الديانتين من اختلاطهم بأهل الكتاب واتصال بهم .

وقد وردت ، في بيت آخر من قصيدة يقال انه قالها في رثاء نفسه ، لفظة (الله) في شكل يفهم منه انه كان يدين بالتوحيد ، وان الآجال كلها بيد الله[3] ، وأشار في بيت آخر إلى عاد وإرم ولقمان وجدن[4] .

وأشير في أشعار بعض الجاهليين الى تعبد النصارى وصلواتهم سجداً وقياماً، وهؤلاء الذين أشير اليهم من الرهبان والناسكين الذين كانوا قد اعتكفوا في الصوامع وفي

---

١ النصرانية (٢٦٦) ، عن الافوه الأودي راجع الاغاني (٤١/١١ وما بعدها) ، ابن قتيبة ، الشعر (١١٠) ، ديوان الأفوه ، (القاهرة ١٩٣٧) ، (تحقيق عبد العزيز الميمني) .

٢ قد كنت أسبق من جاروا على مهل من ولد آدم ما لم يخلعوا رسني
المفضليات (٥٢٤) ، النصرانية (٢٦١) ، شعراء النصرانية (١٩٣) .

٣ لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي اذا هو لم يجعل له الله واقيا
شعراء النصرانية (١٩٣) .

٤ لو أنني كنت من عاد ومن ارم ربيت فيهم ومن لقمان أو جدن
شعراء النصرانية (١٩٣) .

البيع والأديرة النائية يعبدون الله ، ويدعون إلى الرب تقرباً وخشية[1] ، ومنهم من ترك السجود أثراً في جباههم . وقد أطلقوا على صلواتهم هذه اسم (الصلاة). وهي من الألفاظ التي أخذها أولئك النصارى من (بني إرم) ؛ وعرفت المواضع التي كانوا يسجدون فيها بالمساجد ، والمسجد هو الموضع الذي يتعبد فيه[2] .

وقد كان الركوع من العادات المعروفة عند الأحناف والنصارى[3] ، و «كانت العرب في الجاهلية تسمى الحنيف راكعاً إذا لم يعبد الأوثان ، ويقولون : ركع الى الله »[4] . وأما إحناء الرؤوس ، فكان للتعظيم ، ولذلك حنوا رؤوسهم في الكنائس ولرؤسائهم على سبيل الاحترام والتعظيم[5] . وقد كانوا يبجلون رؤوسهم وسادتهم كثيراً ، ولذلك نزل الوحي بتأنيبهم وتقريعهم ، إذ جعلهم هذا الاحترام في مصاف الآلهة والأرباب .

وتلحق بالصلاة التسابيح ، أي ذكر الله وتقديس اسمه ، وقد كان من عادة الرهبان التسبيح بعد الصلاة ، ولا سيا في الضحى والعشي[6] .

---

١ قال منظور الأسدي :

كأن مهواه على الكلكل موفع كفي راحب يصلي
في غبش الصبح أو التجلي

الألفاظ ، لابن السكيت (٤١٢) ، النصرانية (١٧٧) .

وقال البعيث :

على ظهر عادي كأن أرومه رجال يتلون الصلاة قيام

تاج العروس (١٠/٥٣) ، اللسان (١٨/١١١) ، وقال الأعشى :

لها حارس لا يبرح الدهر بينها وان ذبحت صلى عليها وزمزما
ببابل لم تعصر فسالت سلافة تخالط قنديدا ومسكا مختما

وقال المضرس الأسدي :

وسخال ساجية العيون خواذل بجماد لبنة كالنصارى السجد

النصرانية (١٧٧) .

٢ اللسان (٥/١٨٧) ، (سجد) .

٣ النصرانية (١٧٨) .

٤ تاج العروس (٥/٣٦٣) .

٥ قال النابغة الذبياني :

سيبلغ عذرا أو نجاحا من امرىء الى ربه رب البرية راكع

النصرانية (١٧٨) .

٦ قال أمية بن أبي الصلت :

سبحانه ثم سبحانا يعود له وقبلنا سبح الجودي والجمد

وقال الأعشى :

وسبح على حين العشيات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

تاج العروس (٢/١٥٧) ، (سبح) ، اللسان (٣/٢١٠) ، النصرانية (١٧٨) .

وقد كان رجال الدين ، ولا سيما الرهبان منهم ، يقومون بالفروض الدينية فرادى وجماعة ، فيرتلون المزامير والأدعية بنغمات وألحان شجية . وقد عرف ترتيل القسيسين (الهينم) ، وذلك في حالة النغم بخفوت الصوت[1] . وإذا طرّب القس في صوته خفياً قيل لذلك (الزمزمة)[2] . أما إذا تغنى ، فيقال لذلك الشمعلة . وقد قيل للمتغنين في تلادة الزبور (المتشمعل) . وورد : « شمعلة اليهود : قراءتهم ، إذا اجتمعوا في فهرهم »[3] . وأما إذا أطلق صوته بالدعاء فيقال لذلك الجأر[4] . واللحون من الكلمات التي أطلقت على ترتيل أهل الكتاب لكتبهم المقدسة. فقد كانوا يقرؤون التوراة والانجيل في المحافل باللحن . وقد أشير الى ذلك في بعض الأحاديث[5] . أما إذا ردد الشخص نغمات الانجيل في حلقه ، فكانوا يقولون له الترجيع ، ومنه قولهم : رجع الانجيل[6] .

و (التصبيغ) من الألفاظ التي كانت تدل على معنى خاص عند النصارى ، هو التعميد . وقد عرفه الجاهليون . وذكر علماء اللغة ان الصبغة الدين والملة والشريعة والفطرة والختانة . « اختتن ابراهيم ، صلوات الله عليه ، فهي الصبغة .

---

١ « الهينمة : الصوت . وهو شبه قراءة غير بينة » . وأنشد لرؤبة :

لم يسمع الركب بها رجع الكلم الا وساويس هيانيم الهنم

وفي حديث اسلام عمر ، رضي الله عنه . قال : ما هذه الهينمة ؟ قال أبو عبيدة : الهينمة : الكلام الخفي لا يفهم ... وفي حديث الطفيل بن عمرو : هينم في المقام . أي قرأ فيه قراءة خفية . وقال الليث :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم

أي فادع الله » ، اللسان (١٦/١٠٨) ، تاج العروس (٩/١١١) .

٢ « قال الجوهري : الزمزمة كلام المجوس عند أكلهم . وفي حديث عمر ، رضي الله عنه ، كتب الى أحد عماله في أمر المجوس : وانههم عن الزمزمة . قال : هو كلام يقولونه عند أكلهم بصوت خفي . وفي حديث قباث بن أشيم : والذي بعثك بالحق ما تحرك به لساني ولا تزمزمت به شفتاي . الزمزمة : صوت خفي لا يكاد يفهم »، اللسان (١٥/١٦٥) .

٣ تاج العروس (٧/٣٩٩) ، (اشمل) .

٤ « جأر يجأر جأرا وجؤارا : رفع صوته مع تضرع واستغاثة ... وقال ثعلب : هو رفع الصوت اليه بالدعاء . وجأر الرجل الى الله عز وجل اذا تضرع بالدعاء . وفي الحديث : كأني أنظر الى موسى له جؤار الى ربه بالتلبية . ومنه الحديث الآخر : لخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله » ، اللسان (٥/١٨١) .

٥ النهاية في غريب الحديث (٤/٥٧) ، معجمات (٤٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/٣٣٠) ، اللسان (١٧/٢٦٣) .

٦ اللسان (٩/١٧٢) ، النصرانية (٣٥٦) .

فجرت الصبغة على الختانة . وصبــغ الذمي ولده في اليهودية أو النصرانية صبغة قبيحة ، أدخله فيها »[1] . و « كانت النصارى تغمس أبناءها في ماء المعموديــة ينصرونهم »[2] . وقد صالح عمرُ بني تغلبَ بعدما قطعوا الفرات قاصدين اللحاق بأرض الروم ، على ألا يصبغوا صبياً ولا يكرهوه على دينهم ، وعلى ان عليهم الصدقة مضعفة[3] . وعرفوا (المعمودية) بقولهم : « لفظ معمودية معرب معموذيت بالذال المعجمة ، ومعناها الطهارة . وهو ماء أصفر للنصارى يقدس بما يتلى عليه من الانجيل ، يغمسون فيه ولدهم معتقدين انه تطهير له كالختان لغيرهم »[4] .

وقد كان نصارى الجاهلية يعمّدون أولادهم ، يأخذونهم أطفالاً الى الكنائس لتعميدهم على نحو ما يفعل سائر النصارى . وقد قيل له : التغميس والتصبيغ[5] .

والصوم من الأحكام الدينية المعروفة عند اليهود والنصارى ، وقد أشير اليــه في شعر لأمية بن أبي الصلت وفي بيت ينسب الى النمر بن تولب[6] . وقد عرف أهل الجاهلية ان اليهود كانوا يصومون . وقد أشير الى صومهم في عاشوراء في اثناء الكلام على فرض الصوم على المسلمين بصيامهم شهر رمضان . ولا بد ان يكون للجاهليين علم بصوم النصارى كذلك ، وذلك نتيجة لاتصالهم بهم واختلاطهم معهم .

ومن المصطلحات النصرانية (الحواريون) ، وقصد بها رسل المسيح . وقــد وردت اللفظة في مواضع من القرآن الكريم[7] . ووردت لفظة (الحواري) في بيت ينسب الى (ضابىء بن الحارث بن أرطاة البرجمي)[8] . وقد رجّع بعض الباحثين

---

١ تاج العروس (١٩/٦) ، (صبغ) .
٢ المصدر المذكور .
٣ « قال الأزهري : وسمعت النصارى عمسهم أولادهم في الماء صبغا ، لعمسهم اياهم فيه » ، اللسان (٣١٩/١٠) ، فتوح البلدان (١٩٠) .
٤ تاج العروس (٤٣٢/٢) ، (عمد) .
٥ السنن الكبرى (٢١٦/٩) ، « ومنه صبغ النصارى أولادهم في ماء لهم . قال الفراء : انما قيل صبغة لأن بعض النصارى كانوا اذا ولد المولود جعلوه في ماء لهم كالتطهير . فيقولون هذا تطهير له كالخانة » ، اللسان (٣٢٠/١٠) .
٦ صدت كما صد عما لا يحــل له ساقي نصاري قبيل الصبح صوام
النصرانية (١٧٩) .
٧ آل عمران ، الآية ٥٢ ، المائدة الآية ١١٤ وما بعدها ، الصف ، الآية ١٤ .
٨ وكر كما كر الحــواري يبتغــي الى الله زلفــى أن يــكر فيقتلا
المسرق ، المجلد ١٩٢٩ (ص ٥٧٥ وما بعدها) ، النصرانية (١٨٩) .

أصل هذه اللفظة الى لغة بني إرم ورجعها اللغويون الى أصل عربي هو (حور)، وذهب آخرون الى أنها من أصل حبشي[1] .

والصليب ، من أهم المصطلحات المعروفة عند النصارى ، لاعتقادهم بصلب المسيح عليه ، حتى صار رمزاً للنصرانية . وصاروا يعلقونه على أعناقهم تبركاً وتيمناً به ، وينصبونه فوق منائر كنائسهم وقبابها ، ليكون علامة على متعبد النصارى . وقد أقسموا به . وقد عرف المسلمون تمسك النصارى به ، واتخاذهم له شعاراً ، حتى كان بعضهم يرسمه على جبهته ، وكانوا يلثمونه ويتمسحون به تبركاً ، ويزينون صدورهم به[2] .

وذكر علماء اللغة (الشبر) على أنه من المصطلحات الشائعة بين النصارى . وهو على حدّ تعريفهم له : « شيء يتعاطاه النصارى بعضهم لبعض كالقربان، يتقربون به ، أو القربان بعينه » . وذكروا أيضاً أن (الشبر) الانجيل والعطية والخير . ومن ذلك قول عديّ :

لم أخنه والذي أعطى الشبر[3]

ويظهر من كتب الحديث ان أهل الكتاب كانوا يخالفون المشركين في بعض عاداتهم ، كالذي ورد عن عبدالله بن عباس من « ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعره ، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم . وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يحب موافقة أهل الكتاب

---

١ المشرق ، السنة السابعة ١٩٠٤ (٦٢٠) ، النصرانية (١٨٩) ، معجميات (١٣٩) .

٢ قال الأخطل :

لما رأونا والصليب طالعا   خلوا لنا راذان والمزارعا

ديوان الأخطل (٣٠٩) . وقال حجار بن أبجر :

هددني عجل وما خلت انني   خلاة لعجل والصليب لها بعل

الأغاني (٤٧/١٣) . وقال الأقيشر :

في فتية جعلوا الصليب الههم   حاشاي اني مسلم معذور

النصرانية (٢٠٤) .

ونسم الى عبد المطلب بن هاشم قوله :

لا يغلبن صليبهم   ومحالهم ، عدوا ، محالك

اللسان (٦١٩/١١) ، (محل) .

٣ تاج العروس (٢٨٩/٣) ، (شبر) .

فيما لم يؤمر فيه بشيء . ثم فرق النبي صلى الله عليه وسلم رأسه »[1] . وكالذي ورد من ان أهل الكتاب كانوا يخالفون الجاهليين في كيفية التحيـة عند ملاقاة أحدهم الآخر ، وان الرسول أقر المصافحة .

وقد أطلقت لفظة (المصاحف) في شعر ينسب الى امرىء القيس على أسفار النصارى ، وهو قوله : « كخطّ زبور في مصاحف رهبان »[2] . والكلمة على رأي بعض علماء الساميات والنصرانيات من أصل حبشي ، ومفردها (مصحف)[3] . وصحف بمعنى كتب . وقد وردت لفظة (صحيفة) في بيت ينسب الى (لقيط الإيادي)[4] .

والمجلة من الألفاظ المعروفة بين الجاهليين . وقد اشتهرت في العربية باقترانها باسم (لقمان) ، فقيل : « مجلة لقمان »[5] . وأطلقت عند العبرانيين على أسفار الكتاب المقدس على سبيل التخصيص أحياناً وعلى باب التعميم في بعض الأحيان[6] . وقد وردت في شعر للنابغة ، هو :

مجلتهم ذات الإلـه ودينهم قويم فما يرجون غيرَ العواقب[7]

وقصد بها كتاب النصارى ، فقد مدح به الغساسنة . وهم على دين المسيح .

وقصد بالسفر وبالأسفار الكتاب والكتب من التوراة والإنجيل ، وكلمة (سفر) بمعنى كتاب[8] . وكانت النصارى تقرأ كتبها من الصحف[9] ، وتفسر للمستمعين ما جاء فيها من مشكل .

ولفظة (جهنم) من الألفـاظ المعروفة عند اليهود والنصارى . وهي تعني

---

١ عمدة القارىء (١٧/٧١) .
٢ أتت حجج بعدي عليه فأصبحت كخط زبور في مصـاحف رهبان
العقد الثمين (١٦١) .
٣ النصرانية (١٨١) .
٤ كتاب في الصحيفـة من لقيط الى مـن بالجزيـرة من ايـاد
الأغاني (٢٠/٣٤) ، النصرانية (١٨١) .
٥ النصرانية (١٨١) .
٦ معجميات (١٦٧ وما بعدها) .
٧ « محلتهم » في بعض الروايات ، ديوان النابغة (٨) .
٨ اللسان (٦/٣٥) ، الاشتقاق (١٠٣) ، النصرانية (١٨) .
٩ النهاية (٤/١٣٦) .

الموضع الذي يكون فيه العذاب بعد الحشر ، فيخلد فيه أصحاب الآثام والمعصية. واللفظة من أصل عبراني على رأي المستشرقين وعلماء الساميّات هو (جحينوم) (جهينوم) « Gehinnom » ، أي (وادي حينوم) « Hinnom » [1] . وهو وادٍ يدور حول القدس نحو أربعة كيلومترات، ويعرف اليوم باسم (وادي الربابي) ، وقد كان اليهود الوثنيون يقربون في موضع منه يسمى (توفيث) « Topheth » ، الصبيان قرابين للإله (ملوخ) « Molech » = « Moloch » ، يقدمونها ذبائح محروقة إكراماً لـه ، ثم صار هذا الموضع محلاً ترمى فيه أقذار المدينة وجثث الحيوانات ، وتحرق هناك لئلا تنتشر منها الأوبئة ، وصار الموضع رمزاً للجحيم ، ومنه أخذت لفظة (جهنه) « Gehenna » التي هي جهنم [2] ، الموضع الذي يعاقب فيه المجرمون بعد الموت . وهو موضع يقع تحت الأرض ، واسع جداً ، وأكبر حجماً من الأرض . يلقى فيه الآثمون جزاء إثمهم في الدنيا ومخالفتهم شريعة الرب. فيبقون فيه يعذبون . وقد اختلف في موضوع أبدية التعذيب وبقاء وجهنم ، فمنهم من رأى أن جهنم خالدة ، وأن العذاب أبدي ، ومنهم من ذهب الى أنها ترفع بعد انتهاء التعذيب[3] .

وقد وردت لفظة جهنم في مواضع متعددة من شعر أمية بن أبي الصلت ، كما ورد فيه وصفها وكيفية التعذيب فيها [4] . ولمعرفة أصل هذا الشعر : هل هو

---

١ Ency., I, p. 998, Shorter Ency., p. 81.

٢ Hastings, p. 285.

٣ متى ، الاصحاح الخامس ، الآية ٢٩ ، الاصحاح العاسر ، الآية ٢٨ ،
Hastings, p. 285.

٤ « ورد في تأريخ دمشق لابن عساكر (١٢٤/٣) : قال عبدالله بن مسلم الدينوري : سئلت هل وجدتم لجهنم ذكرا في الشعر القديم ، فقلت : هذا يحتاج الى تتبع وطلب . وقد أتذكر فلم أذكر الا شيئا وجدته في شعر أمية بن أبي الصلت ، فانه قال :

فلا تدنو جهنم من بريء ... ولا عدن يطالعها أثيم
اذا شبت جهنم ثم وارت ... وأعرض عن فوانسها الجحيم

وروى البيت فى المخصص (٦/٩) :

جهنم لا تبقى بغيا ... وعدن لا يطالعها رجيم

وذكر للعديل بن الفرخ (ياقوت ١١٧/٤) قوله فى نار جهنم وجنة الخلد :

أما ترهبان الدار فى ابني أبيكما ... ولا ترجوان الله فى جنة الخلد

وقد ورد اسم جهنام في شعر الأعشى . قال (التاج ٣٧٢/٧) :

دعوت خليلي مسحلا ودعوا له ... جهنام جدعا للهجين المذمم » ،

النصرانية (٤٦٢ وما بعدها) .

من شعر أمية حقاً ، أو من شعر آخرين وضعوه على لسانه ، لا بد من دراسته ومقارنته بما جاء في الاسلام عن وصف جهنم وكيفية التعذيب فيها . وهناك رواية تنفي ورود لفظة جهنم في أي شعر جاهلي خلا هذا الشعر المنسوب الى أمية بن أبي الصلت ، ويلاحظ انه ذكر (عدن) مع جهنم .

ولم أجد في أشعار الجاهليين ذكراً للانجيل ، إلا في الشعر المنسوب الى (عدي بن زيد العبادي)[1] . وربما في شعر عدد قليل آخر من الجاهليين ، لم أقف عليه . غير ان عدم ورود اللفظة كثيراً في هذا الشعر ، لا يدل على عدم معرفة الجاهليين لها ، ودليلنا على ذلك ورودها في مواضع من القرآن الكريم . وورودها فيه دليل على وقوف الجاهليين عليها واستعمالهم اياها ، وأصلها من اليونانية ، وقد وقف العرب عليها من السريانية أو من الحبشية[2] . وقد ذكرت فيما سبق ان نفراً من أهل الكتاب كانوا قد أقاموا بمكة وكانوا يقرأون التوراة والانجيل بألسنتهم ، فلا يستبعد اذن وقوف بعض الجاهليين ، ولا سيما المثقفين منهم وأصحاب التجارات الذين كانوا يقصدون الحيرة وبلاد الشأم ونجران للتجارة وكان لهم اتصال وثيق بنصارى هذه الأرضين على الانجيل وعلى الكتب الأخرى التي كان يستعملها رجال الكنيسة لافهام الناس أمور الدين .

ويظهر من بعض روايات الأخباريين أن بعض أهل الجاهلية كانوا قد اطلعوا على التوراة والانجيل ، وأنهم وقفوا على ترجمات عربية للكتابين . أو أن هذا الفريق كان قد عرب بنفسه الكتابين كلاً أو بعضاً ، ووقف على ما كان عند أهل الكتاب من كتب في الدين . فذكروا مثلاً أن (ورقة بن نوفل) « كان يكتب الكتاب العبراني ، ويكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » : وقالوا : « وكان امرؤ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، ويكتب من الانجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب »[3] . وذكروا مثل ذلك عن (أمية بن أبي الصلت) ، فقالوا إنه كان قد قرأ الكتب المقدسة[4] ، وقالوا مثل ذلك عن عدد من الأحناف .

---

١ وأوتينا الملك والانجيل نقرؤه ... نشمي بحكمته أحلامنا عللا
الحيوان (٤/٦٤) ، النصرانية (١٨٥) .

٢ اللسان (١٣/١٧١) ، النصرانية (١٨٥) . Shorter Ency., p. 168.

٣ راجع ما كتبته عنه في فصل الأحناف ، Sprenger, Leben, I, S. 128.

٤ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (١٧٦) .

وإذا كانت هذه الروايات صحيحة ، فإنها تدل على أن الجاهليين كانوا قد وقفوا على ترجمة العهدين . ويرى بعض المستشرقين احتمال ترجمة العرب للكتاب المقدس قبل الاسلام وعند ظهوره، ترجمة من اليونانية على الأرجح . وقد استندوا في ذلك الى خبر ذكره (ابن العبري) « Barkebraeus » يفيد أن البطريق (المنوفيزيتي) المدعو (يوحنا) « Monophysite Patriarch Johannes » كان قد ترجم الكتاب المقدس الى أمير عربي اسمه (عمرو بن سعد) ، وذلك بين سنتي (٦٣١) و (٦٤٠) للميلاد ، والى أخبار أخرى تفيد أن بعض رجال الدين في العراق كانوا قد ترجموه الى العربية وذلك قبيل الاسلام وعند ظهوره[١].

ولا يستبعد وجود ترجمات للكتاب المقدس في الحيرة ، لما عرف عنها من تقدم في الثقافة وفي التعليم ، ولوجود النصارى المتعلمين فيها بكثرة . وقد وجد المسلمون فيها حينما دخلوها عدداً من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة وتدوين الأناجيل ، وقد برز نفر منهم ، وظهروا في علوم اللاهوت ، وتولوا مناصب عالية في سلك الكهنوت في مواضع أخرى من العراق ، فلا غرابة اذا ما قام هؤلاء بتفسير الأناجيل وشرحها للناس للوقوف عليها . وقد لا يستبعد تدوينهم لتفاسيرها أو لترجمتها ، لتكون في متناول الأيدي ، ولا سيما بالنسبة الى طلاب العلم المبتدئين . وقد لا يستبعد أيضاً توزيع بعض هذه الترجمات والتفاسير الى مواضع أخرى لقراءتها على الوثنيين وعلى النصارى للتبشير[٢] .

ونجد في كتب الأخباريين وفي كتب قصص الأنبياء وفي الفصول المدونة عن الماضين قصصاً وأمثلة وكلاماً يرجع أصله الى بعض أسفار التوراة او الى الأناجيل، غير اننا لا نستطيع ان نؤكد ان هذا المدون قد نقل عن الجاهليين ، وان أهل الجاهلية كانوا يعرفونه ، وانه ليس مما قصه أهل الكتاب أو مسلمة أهل الكتاب مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه على المسلمين ، فدخل بينهم . ثم إن القصص أكثره من (التلمود) و (المشنا) والكتب غير القانونية ، روي بشكل فيه بُعْدٌ في بعض الأحيان عن هذا المدون المعروف ، وهو يفيدنا من هذه الناحية كثيراً في الحكم على مدى معرفة العرب بعلم أهل الكتاب .

---

١ Sprenger, I, S. 131.
٢ Ency., II, p. 504.

وللأسماء أهمية كبيرة في تعيين مبلغ أثر اليهودية والنصرانية في الجاهليين . وإذا كانت أسماء الوثنيين قد ساعدت (ولهوزن) في الكشف عن أسماء أصنام وأوثان لم ترد في كتاب الأصنام لابن الكلبي ولا في كتب الأخباريين الأخرى، وساعدت في الكشف عن مدى تغلغل الوثنية في نفوس أهل الجاهلية ، فإن للأسماء اليهودية أو الأسماء النصرانية التي تسمى بها أهل الجاهلية والتي وصل خبرها الينا أهمية كبيرة في الافصاح عن مدى تأثر الجاهليين بالديانتين . وليس من اللازم أن تكون هذه الأسماء أسماء أناس كانوا على دين يهود ، أو على دين النصرانية ، فالأسماء وإن كان لها ارتباط في الغالب بأديان حامليها غير أنها لا تكون دائماً دليلاً على دين أصحابها ، فللبيئة ولبعض العادات والاعتقادات دخل في اختيار الأسماء . وعلى ذلك فإن ما سنذكره من أسماء لا نذكرها على أن أصحابها كانوا يهوداً أو نصارى حتماً ، وإنما نذكرها على سبيل الإشارة الى أن بعض الجاهليين كانوا يحملون أسماء هي في الغالب من اسماء اليهود والنصارى .

وفي طليعة هذه الأسماء التي يجب ان نذكرها ، الأسماء الواردة في التوراة والانجيل ، فهي أسماء عبرانية ونصرانية معروفة ، وبها تسمى كثير من اليهود والنصارى . ودخولها بين الجاهليين العرب دليل على وجود بعض تلك المسميات بينهم ، وتسمّى أهل الجاهلية بتلك الأسماء .

ومن جملة تلك الأسماء : آدم وقد دعي به آدم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . قُتل في الجاهلية ، وهو الذي وضع النبي دمه يوم فتح مكة . وقد جاء (ابن دريد) بتفسير لهذه التسمية فذكر انها من الأدمة أو بمعنى الطويل القامة ذي العنق الناصع ، ولم يشر الى وجود علاقة لها باسم آدم أبي البشر[1] . غير أني لا أستبعد احتمال أخذها من التسميات التي كانت بين اليهود أو النصارى عند الجاهليين . غير اننا لا نعرف من أمثال هذه التسميات غير عدد قليل محدود بحيث لا يمكن ان نتخذها قاعدة لبناء حكم عليها في ورود هذه التسمية عند الجاهليين .

وأكثر من هذه التسمية شيوعاً اسم (ابراهيم) ، ومن جملة من تسمى بها: ابراهيم جدّ عدي بن زيد بن حمّان بن زيد بن أيوب من بني امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم . فولد أيوب ابراهيم وسلم وثعلبة وزيد . منهم عدي بن زيد

---

١ الاشتقاق (٤٤) ، النصرانية (٢٢٨) .

ابن حمان بن زيد بن أيوب بن مجروف الشاعر . ومنهم مقاتل بن حسان بن ثعلبة ابن أوس بن ابراهيم بن أيوب ، الذي نسب اليه قصر مقاتل . وقال ابن الكلبي : لا أعرف في الجاهليـــة من العرب أيوب وابراهيم غير هذين ، وإنما سمّيا بهذين الإسمين للنصرانية [1] .

وممن سمّي بابراهيم : ابراهيم بن كُتَيف النبهاني ، وهو شاعر قديم، وابراهيم الأشهلي ، وابراهيم بن الحارث بن خالد التيمي القرشي، وأبو رافع ابراهيم القبطي، وهو من موالي الرسول ، وابراهيم بن عبّـــاد الأوسي ، وابراهيم بن قيس بن حجر بن معديكرب الكندي ،وابراهيم النجّار وهو الذي صنع المنبر لرسول الله . وأكثر هـــؤلاء هم من الذين عاصروا الرسول وكانوا من صحابته [2] . ويجب ألا ننسى أن الرسول سمّى ابنه الذي توفي صغيراً في حياته ابراهيم [3] .

وعرف من الصحابة رجل اسمه (إسحاق الغَنَوي) [4] ، وعرف ثلاثة صحابيين باسم (اسماعيل) [5] . وأما (أيوب) ، فقد عرف به (أيوب بن مجروف) جد عدي بن زيد العبادي ، وأيوب بن مكرز ، كما تكنى به أبو أيوب خالد ابن زيد الأنصاري من الصحابة ، وهو الذي نزل عليـــه الرسول يوم مقدمه الى يثرب مهاجراً من مكة [6] .

واسم (داوود) من الأسماء التي وردت في جملة أسماء ملوك بني سليح ، فذكر منهم (داوود اللثق) [7] . وأظن ان لفظة (دؤاد) التي كني بها الشاعر الجاهلي أبو دؤاد الإيادي هي من داوود [8] ، وإنْ ذهب المفسرون فيها مذهباً آخر فقالوا انهـــا من الدُود والدوادة والدودة وأمثـــال ذلك [9] . وعرف شاعر آخـــر باسم

---

١ تاج العروس (١/١٥١) ، (أوب) ، النصرانية (٢٢٩) .
٢ أسد الغابة (١/٤٠ وما بعدها) ، الاصابة (١/٢٥ وما بعدها) ، النصرانية (٣٢٩) .
٣ ابن هشام (١/٢٠٦) .
٤ أسد الغابة (١/٦٨) ، الاصابة (١/٤٧) ، (رقم ٩٤) ، النصرانية (٢٢٩) .
٥ أسد الغابة (١/٧٩) ، الاصابة (١/٥٥ وما بعدها) ، النصرانية (٢٣٠) .
٦ ابن هشام (٢/٦٦ ، ١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ٣٠٥) ، (٣/٣٤٧ ، ٣٩٢) ، الاشتقاق (٢٦٦) .
٧ الاشتقاق (٣١٩) ، النصرانية (٥٣٢) .
٨ النصرانية (٢٣٢) .
٩ الاشتقاق (١٠٤) .

داوود بن حمل الهمداني[1] ، ومن الأنصار رجل اسمه داوود بن بلال[2] وصحابي اسمه داوود بن سلمة الأنصاري[3] .

وقد عرف داوود في الشعر الجاهلي بنسجه الدروع حتى ضربت بدروعه عندهم المثل . وهي في نظرهم دروع قوية ممتازة ، صنعها من الحديد الذي كان يلين بين يديه[4] . وقد تكرر ورود ذلك في أشعار جملة شعراء ، مما يدل على انها كانت معروفة بين الجاهليين مشهورة . هذا ولا بد ان يكون لذلك أصل بعيد ظهر من قصص بني اسرائيل عن داوود وعن ملكه وحروبه وتغلبه على خصومه. هذا القصص الذي جعل من داوود رجلاً لا يستطاع التغلب عليه بفضل الحديد الذي لان بين يديه ، فصار دروعاً لا تمضي فيه سيوف المقاتلين .

---

١ النصرانية (٢٣٢) .

٢ أسد الغابة (١٢٩/٢) ، الاصابة (٤٦٣/١) ، (رقم ٢٢٨٧ و ٢٢٨٨) ، الاصابة (١٦٩/٤) ، (٩٨٨) .

٣ الاصابة (٤٦٣/١) .

٤ قال طرفة :

وهم ما هم اذا ما لبسوا نسج داوود لباس محتضر

النصرانية (٢٧٢) ، شعراء النصرانية (٣٠٩) ، ديوان طرفة (٥٨) .

وقال حصين بن الحمام المري :

صفائح بصرى أخلصتها قيونها ومطردا من نسج داوود بهما

الحماسة لأبي تمام (١٨٩) ، النصرانية (٢٧٣) .

وقال حسيل بن سجيع الضبي :

وبيضاء من نسج ابن داوود نثرة تخيرتها يوم اللقاء ملابسا

الحماسة لأبي تمام (٢٨٤) ، النصرانية (٢٧٣) .

وللبيد :

وتزعن من داوود أحسن صنعه ولقد يكون بقوة ونعيم

صنع الحديد لحفظه أسراده لينال طول العيش غير سروم

ديوان لبيد (٨٣) ، (طبعة الخالدي) ، النصرانية (٢٧٣) .

وللأعشى :

ومن نسج داوود يحدي بها على أثر العيس عيرا فعيرا

النصرانية (٢٧٣) ، شعراء النصرانية (٣٨٨) .

ولسلامة بن جندل :

مداخلة من نسج داوود شكلها كحب الجنا من أبلم منفرق

وله أيضا :

من نسج داوود وآل محرق غال غرائهن في الآفاق

النصرانية (٢٧٣) .

ولم يخل شعر الأعشى من اسم داوود ، فورد في مناسبة التحدث عن حوادث الزمان واعتداء الدهر على الانسان ، وتبدل الأيام ، كما في موضع آخر في كلامه على الدروع[1] . أما عبيد الأبرص ، فقد ذكره في أثناء كلامه على طول العمر[2] .

وعرف (سليمان) في أبيات للنابغة قالها في مدح النعمان ملك الحيرة بتسخيره الجن لبناء تدمر[3] . وعرف بمثل ذلك وببنائه الأبنية الفخمة وبسعه ملكه في شعر شعراء آخرين[4] . واذا كان ما نسب الى أولئك الشعراء صحيحاً ، كان رأيهم هذا في سليمان بتأثير ما كن يقصه أهل الكتاب على الجاهليين من قصص وارد في العهد القديم ، في سفر الملوك الثالث وأخبار الأيام الثاني عن ملكه وعجيب أبنيته[5] .

وقد ورد اسم سليمان علماً لجملة رجال عاشوا في الجاهلية وفي أيام الرسول ، فهناك حاكم من حكام العرب المعروفين في الجاهلية اسمه (سليمان بن نوفل)[6] .

---

١ ومر الليالي كل وقت وساعة ... يزعزعن ملكا أو يباعدن دانيا
وردن على داؤود حتى أبدنه ... وكان يغادي العيش أخضر صافيا
الحماسة ، للبحتري (٩٠) ، النصرانية (٢٧٢) .

٢ وطلبت ذا القرنين حتى فاتني ... ركضا وكدت أن أرى داؤودا
خزانة الأدب (١/٣٢٣) ، النصرانية (٢٧٢) .

٣ ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ... ولا أحاشي من الأقوام من أحد
الا سليمان ، اذ قال الاله له : ... قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن اني قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد
فمن أطاعك فاخضعه بطاعته ... كما أطاعك وأدلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة ... تنهى الظلوم ولا تعقد على أحد
العقد الثمين (٧) ، شعراء النصرانية (٦٦٣) ، النصرانية (٢٧٤) .

٤ قال الأعشى :
فلو كان حيا خالدا ومعمرا ... لكان سليمان البري من الدهر
براه الهي واصطفاه عبادة ... وملكه ما بين سرفي الى مصر
وسخر من جن الملائك شيعة ... قياما لديه يعملون بلا أجر
البدء والتأريخ (٣/١٠٨) ، النصرانية (٢٧٤) ، وله أيضا :
فذاك سليمان الذي سخرت له ... مع الانس والجن الرياح المراخيا
الحماسة ، للبحتري (٨٦ وما بعدها) ، النصرانية (٢٧٥) .

٥ النصرانية (٢٧٣) .

٦ اليعقوبي (١/٢٩٩) ، النصرانية (٢٣٢) .

وهناك جملة من الصحابة عرفوا بسليمان [1] . ومن هذه اللفظة نشأت الأسماء : سلمان وسلام ، وسُليم ، كما يتبين ذلك من أبيات للأسود بن يعفر [2] والحطيئة [3] والنابغة [4] . وعرف بسلمان رجل من نصارى بني عجل اسمه سلمان العجلي .

وهناك طائفة لأسماء نصرانية خالصة تسمّى بها نفر من الجاهليين قبل الاسلام، مثل : عبد المسيح ، وعبد ياسوع ، وعبد يسوع ، وعبد يشوع ، وايشوع ، وأبجر . وقد عرف بأبجر عدد من ملوك الرها ، كما عرف بها أبجر بن جابر سيد بني عجل ، وأفريم ، وبولس ، وجرجس ، وجريج ، وروبان ، وروبانوس، وسرجس ، وسمعان ، وشمعون ، ونسطاس ، وحنين ، و (حنيناء) و (يحنة) [5] . ومن أسماء النساء : مارية ، ومريم ، وحنة [6] ، ومن بين هذه الأسماء ما كانت خاصة بطبقة الموالي الذين جلبوا من الخارج ، وبيعوا في أسواق النخاسة ، فحافظوا على أسمائهم القديمة التي تشير الى أصولهم في النصرانية .

ونرى ورود (عبد المسيح) بين أسماء أهل الحيرة بصورة خاصة ، ورد علماً لأناس معروفين جداً بينهم ، وكانوا عليهم زعماء ، مثل عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيّان بن بقيلة ، وكان في جملة من خرج لملاقاة خالد بن الوليد

---

١ مثل سليمان بن الحارث ، الاشتقاق (٢/٣١٨) ، وسليمان الليثي بن أكيمة ، وسليمان بن أبي حتمة القرشي ، وسليمان بن صرد الخزاعي ، وسليمان بن عمرو ابن حديدة ، وسليمان بن مسهر ، وسليمان بن هاشم بن عتبة القرشي ، أسد الغابة (٢/٣٥٠ وما بعدها) ، الاصابة (٢/١٢٨ وما بعدها) ، النصرانية (٢٣٢) ، تاج العروس (٨/٣٤٤) .

٢ ودعا بمحكمة أمين سكها … من نسج داوود أبي سلام
تاج العروس (٨/٣٤٤) .

٣ فيه الرماح وفيه كل سابغة … جدلاء محكمة من نسج سلام
النصرانية (٢٣٢) .

٤ وكل صموت نثلة تبعية … ونسج سليم كل قضاء ذائل
ديوان النابغة (٩٩) ، النصرانية (٢٣٣) ، « أراد نسج داوود ، فجعله سليمان ثم غير الاسم ، فقال سلام وسليم . ومثل ذلك في أشعارهم كثير . قال ابن بري : وقالوا في سليمان اسم النبي ، صلى الله عليه وسلم : سليم وسلام فغيروه ضرورة »، اللسان (١٥/١٩٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/٣٤٤) .

٥ البكري ، معجم (٤/٥٨٠) ، تاج العروس (٩/١٨٦) .

٦ النصرانية (٢٣٩) ، وقد أورد قائمة بالاسماء النصرانية ، وأورد أمثلة لمن تسمى بها قبل الاسلام من الجاهليين ، البكري ، معجم (٤/٥٧٨) ، « دير حنة » .

للاتفاق معه على شروط الصلح[1] . وعادة جعل المرء نفسه عبداً لإلـه أو لشخص مقدس ، كما في هذه التسمية ، لم تكن من العادات الخاصة بالنصارى ، فقد رأينا أن أكثر الجاهلين كانوا يجعلون أنفسهم عبداً لإلـه من الآلهة ، ثم يتخذون ذلك تسمية لهم ، مثل عبد العزى ، وعبد يغوث ، وعبد ود ، وأمثال ذلك . فلما كانت النصرانية ، تبرأ من تنصر من اسم الآلهة الوثنية ، وأحلوا محلها اسم المسيح.

وكان اسم والد حنظلة صاحب دير حنظلة الذي بأرض بني علقمة بالحيرة (عبد المسيح) ، ويذكر الأخباريون أنهم وجدوا على صدر الدير كتابة مكتوبة بالرصاص على ساج محفور : « بني هذا الهيكل المقدس ، محبة لولاية الحق والأمانة ، حنظلة بن عبد المسيح ، يكون مع بقاء الدنيا تقديسه ، وكما يذكر أولياؤه بالعصمة ، يكون ذكر الخاطىء حنظلة »[2] .

غير ان هذه الأسماء اليهودية الأصل أو النصرانية قليلة الاستعمال ، فلم تكن مستعملة بنطاق واسع . وأكثر من تسمى بها ، هم من الموالي والأرقاء ، أو من العرب الذين كانوا على أطراف العراق وبلاد الشأم ، وممن تأثر بالمؤثرات الثقافية الأعجمية ، أو ممن كان على يهودية أو نصرانية ، فتسمى بأسماء محببة أو مباركة في هاتين الديانتين .

وأهل نجران ، هم الذين كانوا يجادلون الرسول في طبيعة المسيح ، فلم يكن بمكة أو بيثرب قوم منهم يستطيعون مجادلته في أمور الدين . وقد ذكر بعض المفسرين ان أهل نجران كانوا أعظم قوم من النصارى جادلوا الرسول في عيسى. جاؤوا إلى الرسول ، فقالوا له : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : من هو ؟ قالوا : عيسى . تزعم انه عبدالله . فقال : أجل انه عبدالله . قالوا : فهل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به ، ثم خرجوا من عنده غاضبين . وقالوا إن كنت صادقاً ، فأرنا عبداً يحيي الموتى ويبرىء الأكمه ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه ، فلما عادوا قال رسول الله : مثل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له : كن فيكون[3] .

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٥٢) ، المعمرون ، للسجستاني (٣٨) ، « طبعة كولدتزيهر » . المشرق ، السنة السابعة عشرة ، (١٩١٤) ، (ص ١٣٢) ، البلدان (٦٧٧/٢) .

٢ البكري ، معجم (٥٧٢/٢) ، (دير حنظلة) .

٣ تفسير الطبري (٢٠٧/٣ وما بعدها) .

وقد جادل بعض النصارى رسول الله في أمور الدين ، ثم أسلموا . ونظراً لقلة عددهم بيثرب ، لم يقاوموه هنا كما قاومه اليهود .

وطبيعي أن يتأثر نصارى الجاهلية بلغة بني إرم ، فيستعملوا المصطلحات الدينية التي كانت شائعة في الكنيسة ، وهي مصطلحات إرمية الأصل في الغالب : فقد كانت لغة بني إرم لغة العلم والدين عند النصارى الشرقيين . بها يقيمون طقوسهم الدينية ، ومنها يترجمون الأناجيل الى أتباعهم النصارى العرب ، فدخلت بذلك الى العربية ألفاظ إرمية ذات معان خاصة . ومنها الألفاظ التي تكلمنا عنها وألفاظ أخرى عديدة لم نتطرق اليها ، لعدم وجود صلة لها بهذا الموضوع ، وخشية الإطالة والخروج على صلب الموضوع . وهناك مصطلحات يونانية ولاتينية وحبشية، لها صلة بالدين وبالمجتمع دخلت العربية أيضاً عن طريق النصرانية ، ظهر أثرها في نصارى بلاد الشأم والعربية الغربية خاصة ، بتأثير الاحتكاك المباشر والتبشير .

وقد عُني بعض الباحثين بجمع المصطلحات الدينية المعروفة عند أهل الكتاب في الجاهلية والتي أقرها الاسلام على نحو ما كانت تعرف به ، أو أعطاها معنى خاصاً ، ومن بينها عدد كبير ورد في القرآن الكريم[١] . ولما كانت غالبية العرب على الوثنية ، وهي ديانة بسيطة قليلة الشعائر بالنسبة الى اليهودية والنصرانية، لذلك كانت هذه المصطلحات شائعة معروفة بين أهل الكتاب من الجاهليين ، وقد نقلوها من اللغات الدينية التي كتب بها علماء أهل الكتاب ، فهي في الغالب من أصل سرياني أو عبراني أو يوناني أو حبشي .

وقد جمع الأب (شيخو) في كتابه : (النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية) الألفاظ الخاصة بأهل الكتاب من الأبيات الواردة في دواوين شعراء الجاهلية وفي كتب الأدب ، وهي أبيات منها ما أجمع الرواة وأهل الأخبار على نسبتها الى أولئك الشعراء ، ومنها ما ورد عند بعض الرواة والأخباريين ولم يرد في دواوين أولئك الشعراء، ليجعل من تلك الألفاظ دليلاً على أثر النصرانية في الجاهليين ، وعلى مدى تغلغلها بينهم . وهو حكم لا يمكن أن يكون سليماً ، إلا بعد ثبوت صحة نسبة تلك الأبيات إلى الجاهليين .

---

١ Nöldeke, Neue Beiträge zur Semit. Sparad., S. 1. ff., J. Horovitz, Jewish Proper Names and derivatives in Koran, 145, R. Bell, The Grigin of Islam in its Christian Environment, London, 1926.

وقد كان للنصرانية أثر مهم في نشر الكتابة العربية ، المأخوذة عن الإرمية ، بين الجاهليين ، الكتابة التي تولد منها قلمنا الذي نكتب به في الوقت الحاضر . وقد وجد المسلمون في فتحهم للعراق مدارس عديدة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، كما أن تجار مكة ويثرب الذين كانوا يقصدون الشأم والعراق وجدوا الضرورة تحتم عليهم تعلم هذا الخط ، فتعلّموه . ولما نزل الوحي كتب كتابه بـه ، فصار قلم المسلمين . كما سأتحدث عن ذلك في موضوع الخط عند الجاهليين .

ولم يترك رجال الدين من النصارى العرب لنا أثراً كتابياً ينبيء عن مدى اشتغالهم في علم اللاهوت وفي العلوم الأخرى ، غير أن هذا لا يعني أن النصارى العرب لم يخرجوا علماء دين منهم ، ولم يعطوا النصرانية رجلاً منهم يخدمها ويقف حياته الروحية عليها ، ففي قوائم أسماء من حضروا المجامع الدينية التي عقدت للنظر في الأمور الجدلية وفي القضايا التي تخص مبادىء الدين أسماء رجال تنبيء أنهم كانوا عرباً ، وقد دونت في محاضر تلك المجالس أسماء المواضع التي مثلوها من بلاد العرب ، كما أن بين رجال الدين الكبار الذين نبغوا في العراق من كان أصله من الحيرة ، وإذ كانت غالبية سكان هذه المدينة من العرب ، فلا يستبعد أن يكون من بين هؤلاء العلماء النصارى الحيريين من كان من أصل عربي .

لقد كانت النصرانية عاملاً مهماً بالطبع في ادخال الآراء الإغريقية والسريانية إلى نصارى العرب، فقد كانت الكنيسة مضطرة الى دراسة الإغريقية ولغة بني إرم ، لما للغتين من قدسية خاصة نشأت من صلتها بالأناجيل . وقد كان أثر الإرمية أهم في الكنيسة الشرقية من الإغريقية ، لكونها لغة الثقافة في الهلال الخصيب في ذلك العهد . ولهذا وجدنا معظم التعابير والمصطلحات الدينية عند نصارى الشرق هي من هذه اللغة ، ومنها أخذها النصارى العرب ، فصارت عربية . وقد كان السريان قد نقلوا بعض مؤلفات اليونان واللاتين الى لغتهم . ولا أستبعد نقلهم بعض تلك المؤلفات ، ولا سيما الدينية منها ، من هذه اللغة إلى اللغة العربية ، وذلك قبل الاسلام ، أو ترجمتها ترجمة شفوية لطلاب العلم من العرب ممن كانوا لا يفقهون لغة بني إرم ، أو لا يلمّون بها إلماماً صحيحاً . وإذ كانت هذه اللغة لغة مقدسة ولغة الكنيسة الرسمية ، وكان أكثر رجال الدين من بني إرم، فقد كانت هذه اللغة اللغة المقررة في الكنيسة ، بها يدرس ويتباحث رجال الدين وإن كانوا عرباً، على نحو ما يفعله رجال الدين المسلمين الأعاجم الذين يدرسون العربية بعلومها المختلفة

ليتفقهوا بذلك في الدين ، والعربية هي لغة الدين الاسلامي. وكما يفعل رجال الدين الكاثوليك أيضاً في دراستهم اللاتينية وتبحرهم بها لأن اللاتينية هي لغة النصرانية عند الكاثوليك .

وكان للنصرانية أثر آخر في نصارى عرب الجاهلية، هو أثرها فيهم من ناحية الفن ، إذ أدخلت النصرانية بين العرب فناً جديداً في البناء . هو بناء الكنائس والأديرة والمذابح والمحاريب والزخرفة ، كما أدخلت النحت والتصوير المتأثرين بالنزعة النصرانية . ولدخول أكثر هذه الأشياء لأول مرة بين الجاهليين، استعملت مسمياتها الأصلية اليونانية أو الإرمية في اللغة العربية ، بعد ان صقلت وهذبت ، حتى اكتسبت ثوباً يلائم الذوق العربي في النطق. وستكشف الحفريات في المستقبل عن مدى تأثر النصارى العرب الجاهليين بالفن النصراني المقتبس عن الروم أو عن بني إرم والأحباش .

الفصل الثالث والثمانون

المجوس والصابئة

يقصد الأخباريون بالمجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة : الخير والشر ، فيزعمون أن الخير من فعل النور وأن الشر من فعل الظلمة [1] . وهم يعلمون أن المجوس من الفرس وأنهم عبدة النيران .

وفي القرآن الكريم ذكر للمجوس . وقد ورد ذكرهم في موضع واحد منه : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس، والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد [2] » . وفي ذكرهم في القرآن الكريم دليل كاف على معرفة أهل الحجاز بهم ، ووقوفهم عليهم . وكيف لا يكون لهم علم بهم ووقوف عليهم ، وقد كان لأهل مكة اتصال وثيق بالحيرة كما كان لأهل الحجاز اتصال باليمن ؟ وقد كان المهيمن على اليمن الفرس عند ظهور الإسلام ، حيث طردوا الأحباش وأخذوا محلهم ، وقد كان هؤلاء الفرس على المجوسية ، ثم إنه كان في حضرموت وفي العربية الشرقية أناس منهم أقاموا هناك . وقد كان وكلاء الأكاسرة على هذه الأماكن منهم ، وهم على دين

---

1 النهاية (٨٥/٤) ، اللسان (٩٨/٨) (مجس) ، تاج العروس (٣٤٥/٤) (مجس) ، الملل والنحل (٥٧/٢) ، الحيوان (١٩٠/١) ، (٩٥/٤ ، ٤٧٩ ، ٤٨١) ، المسعودي ، مروج (٢٥٢/١ ، ٢٥٣ ، ٢٧٣) ، (بيروت) ، عمدة القارىء (٧٨/١٥) .

2 الحج ، الآية ١٧ ، عمدة القارىء (٧٨/١٥ وما بعدها) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٨٨/١٣ وما بعدها) ، تفسير أبي السعود (٨/٤) ، تفسير الطبري (٢٠١/٦) ، روح المعاني (١٧٩/٦) ، تاج العروس (٢٤٥/٤) ، (مجس) .

المجوسية . وقد أشير الى وجردهم في أخبار الفتوح ، حيث دفع الجزية من أبى منهم الدخول في الإسلام . والظاهر أن هؤلاء كانوا مقيمين فيها من أمد طويل بدليل ورود جملة في أخبار الفتوح تفيد ذلك ، وهي : « وأسلم معهما جميع العرب وبعض العجم . فأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى ، فإنهم صالحوا العلاء »[1] .

ويروي أهل الحديث حديثين يذكرون ان الرسول قالهما هما : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يمجسانه » ، أي يعلمانه دين المجوسية . وحديث « القدرية مجوس هذه الأمة »[2] . وفي هذين الحديثين ذكر للمجوس . ولعلماء الحديث كلام عليهما . ولا سيما على الحديث الثاني ، وفيه تعريض بالقدرية ، أسلاف المعتزلة .

وكلمة (مجوس) من الكلمات المعربة ، عربت عن لفظة (مغوس) « Maghos » الفارسية التي تعني (عابد النار)[3] . وهي من الألفاظ التي دخلت إلى اليونانية كذلك ، حيث وردت لفظة « Magi » فيها ، وهي جمع (مجوس) « Magus »[4] . وقد دخلت الى لغة (بني إرم) أيضاً . ولا ندري اليوم على وجه صحيح من أي طريق دخلت لفظة (مجوسي) و (مجوس) الى العربية ، عن الفرس أنفسهم ، أو عن اليونانية أو عن طريق لغة (بني إرم)[5] !

وقد عرف علماء اللغة بأن لفظة (مجوس) من الألفاظ المعربة . وقد ذهبوا الى انها معربة عن الفارسية القديمة . ولكنهم اختلفوا فيما بينهم في أصل اللفظة وفي بيان معناها ، وذهبوا في ذلك مذاهب[6] ، وبعض هذه التفسيرات والتأويلات مفتعل يدل على عدم وقوف أصحابها على جلية الموضوع .

---

١ البلدان (٢/٧٤) ، « ومن أبى فعليه الجزية . فصالحهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على أن على المجوس الجزية » ، « وأخذ الجزية من المجوس » ، الطبري (٣/٢٩) .

٢ اللسان (٦/٢١٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٣٤٥) ، اللسان (٨/٩٨) «مجس» « طبعة بولاق » .

٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٩) .

٤ Hastings, p. 565.

٥ Shorter Ency. of Islam, p. 98, Ency., III, p. 97.

٦ اللسان (٨/٩٨) « طبعة بولاق » ، محيط المحيط (٢/٢٥٠) ، تاج العروس (٤/٣٤٥) «مجس» ، الحيوان ، للجاحظ (٥/٦٩) « عبد السلام هارون » ، المعرب ، للجواليقي (٣٢٠) .

ويريد الأخباريون بالمجوسية عبادة النار . واذا صح ما ورد في شطر بيت منسوب الى الشاعر الجاهلي (التوأم اليشكري) المعاصر لامرىء القيس ، هو : (كنار مجوس تستعر استعاراً)[1] ، فإن فيه دلالةً على ان هذا الشاعر هو وامرأ القيس كانا على علم بنار المجوس ، وانها كانت تستعر دائماً ، وربما كانا على علم ببعض تعاليمها أيضاً .

وفي أخبار أهل الأخبار ما يفيد بتمجس بعض العرب ، فورد أن « المزدكية والمجوسية في تميم »[2] . وورد أن (زرارة بن عدس) وابنه (حاجب بن زرارة) ، وهما من سادات تميم كانا قد اعتنقا المجوسية ، واعتنقها أيضاً (الأقرع بن حابس) و (أبو الأسود) ، جدّ (وكيع بن حسان)[3] . وقيل إن أشتاتاً من العرب عبدت النار ، سرى اليها ذلك من الفرس والمجوس[4] .

وكان مجوس اليمن ، من الفرس الذين أرسلهم كسرى لطرد الحبش من اليمن ، فهم وأبناؤهم كانوا على هذا الدين ، دين الانبراطورية الفارسية . ولما ظهر الإسلام ، نبذ هؤلاء المجوسية واعتنقوا الإسلام[5] .

وأما مجوس عُمان وبقية أنحاء العربية الجنوبية ، فقد كانوا من الفرس كذلك : من تجار ومن مقيمين من بقية الفرس الذين كانوا قد استولوا على هذه الأرضين . وعند ظهور الإسلام لم يكن لهم نفوذ سياسي ، فقد كان سادات القبائل قد كوّنوا مشيخات فيها ، واستقلت في إدارة شؤونها ، غير أن المجوس بقوا فيها ، وعند دخول أهلها في الاسلام ، ودخول البلاد في دين الله ، دفع بعض أولئك المجوس الجزية ، ودخل الباقون في الإسلام . شأنهم في ذلك شأن اليهود والنصارى المقيمين في هذه الأرضين .

وأما مجوس البحرين ، فقد كانوا أكثر عدداً وأكبر نفوذاً من اخوانهم في عُمان ، لقرب هذه الأرضين من انبراطورية الساسانيين ، ولهجرة الفرس من السواحل المقابلة ومن طريق الأبلة الساحلي . وقد عثر المنقبون على قبور عديدة

١ اللسان (٦/٢١٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٢٤٥) ، (مجس) .
٢ البدء والتأريخ (٤/٣١) .
٣ المعارف (٢٦٦) « الصاوي » ، البدء والتاريخ (٤/٣١) ، الاعلاق النفيسة (٢١٧) .
٤ بلوغ الأرب (٢/٢٣٣) .
٥ Ency., Vol., III, p. 99.

تعود اليهم ؛ وعلى آثار لمعابدهم في العربية الشرقية . وكان على (هجر) ، حين أبلغ الرسول دعوته اليها ، رجل من الفرس اسمه (سيبخت مرزبان) ، وقد أسلم وأسلم معه قوم من قومه ، ودفع الجزية من فضّل البقاء منهم على دينه ، شأنهم في ذلك شأن أهل الكتاب[1] . وذكر ان الرسول كتب الى (مجوس هجر يعرض عليهم الاسلام ، فإن أبوا أخذت منهم الجزية ، وبأن لا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم)[2] .

وكان باليمامة قوم من المجوس ، عاشوا في قراها ومواضعها، اشتغلوا بالزراعة وبالتعدين . وأرض اليمامة أرض غنيـــة ، وهي (ريف) أهل مكة ، وعليها اعتمادهم في الحصول على الحبوب . كما عرفت بوجود المعادن بها ، فسهّل أهلها دخول المجوس اليها ، للاستفادة منهم في استغلال الأرض وفي التعدين .

هذا ولم نسمع بدخول أحد من ملوك الحيرة ، أو الأمراء الذين عينهم الفرس على العرب في المجوسية مع علاقتهم بالفرس واتصالهم الوثيق بهم ، ووجود الفرس في أرضهم وفي عاصمتهم ، بينما نجد بعضاً منهم وقد دخل في النصرانية . ولعـــل ذلك بسبب عـــدم ميل الفرس الى ادخال أحد من الغرباء عنهم في دينهم والى عدّهم المجوسية ديانة قومية خاصة بهم ، فلا يهمهم دخول أحد من غيرهم فيها .

هذا ولا أجد صلة بين (الأسبذية) التي زُعم أنها ديانة قوم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين ، عرفوا بـ (الأسبذيين) ، وبين (بني دارم) ، وكـــونهم كانوا على هذا الدين . فقد كان أحدهم وهو (المنذر بن ساوى) أسبذياً ، ولم يكونوا كلهـــم . قيل إنه نسب الى قرية بهجر يقال لها (الأسبذ) ، وقيـــل الى الأسبذيين[3] . ولا صلة لهـــذه الأسبذية بالمجوسية ، أو الى ديانة دخلت من فارس الى البحرين . وقد تحدثت في مكان آخر عن وجود قوم من العرب قدسوا (الحصـــان) . ورأيي أن المراد من (الأسبذية) الفرسان . وأن (المنذر بن ساوى) كان (أسبذاً) أي بدرجة فارس ، وهي من درجة الشرف والرفعة في الجيش الساساني .

---

١ البلاذري (٨٥ وما بعدها) ، البلدان (٢/٧٣ وما بعدها) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٣) ، (صادر) .

٣ فتوح البلدان (٩٨) ، (٨٩) (طبعة المكتبة التجارية) ، محاضرات للدكتور صالـــح أحمد العلي (١٧١) .

ويذكر علماء اللغة في معرض كلامهم على معنى لفظة (الزمزمة) ان من عادة المجوس الزمزمة عند الابتداء بالأكل ، أي قراءة شيء من كتبهم الدينية قراءة خافتة على المأكول تقديساً وشكراً له . وقد نهى الخليفة عمر عن الزمزمة ، لأنها من علائم المجوس[1] .

وقد عرف عالم المجوس ورئيسهم الروحي عند العرب بـ (الموبذ) و (الموبذان) ، وعرف كبيرهم بـ (موبذان موبذ) ؛ وجعل بعض العلماء (الموبذان) بمنزلة قاضي القضاة للمسلمين ، والموبذ بمنزلة القاضي[2] . وتعني (موبذان موبذ) الموبذ الأعظم . وقد اكتفي أحياناً بلفظة (موبذان) للتعبير عن (موبذان موبذ) . وقد فسر المسعودي لفظة (الموبذ) بمعنى حافظ الدين . ورجع أصلها الى (مو) بمعنى (دين) في رأيه ، و (بذ) بمعنى (حافظ)[3] . ورأى (اليعقوبي) ان (الموبذان) بمعنى عالم العلماء[4] . والموبذ هي من الألفاظ المعربة عن الفهلوية، فهي من أصل فهلوي هو Magupat ، بمعنى عظيم المجوس . ويتمتع هذا الرئيس الديني الأعظم بسلطات دينية واسعة[5] . وقد أطلق السريان على الموبذ جملة (ريش مكوشي) (Resh Magushi) و ,(Resh dam'gushi) ، أي (رئيس المجوس) ، و (مكوش) تعني (المجوس)[6] .

وترد في العربية لفظة أخرى ، لها صلة بالمجوسية، هي (الهربذ)، و (الهرابذة) . ذكر علماء اللغة أن « الهرابذة : المجوس ، وهم قومة بيت النار التي للهند ... وقيل عظماء الهند أو علماؤهم » . وذكروا أن « الهربذي مشية فيها اختيال ، كمشي الهرابذة ، وهم حكام المجوس . قال امرؤ القيس :

مشى الهربذي في دفه ثم فرفرا »[7]

---

1 اللسان (١٥/١٦٥) ، تاج العروس (٨/١٦٥) ، تاج العروس (٨/٣٢٨) .
2 اللسان (٣/٥١١) ، (موبن) ، النهاية في غريب الحديث (٤/١١٩) ، تاج العروس (٢/٥١٣) .
3 مروج الذهب (١/٢٦٨) ، (ذكر ملوك الساسانية) ، Ency., III, p. 543.
4 تأريخ اليعقوبي (١/٢٠٧) .
5 Ency., III, p. 543.
6 اللسان (٣/٥١٧ وما بعدها) ، (هربن) .
7 Ency., III, p. 543.

واللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية . من أصل (هـــور) و (بت) ، بمعنى رئيس خدام النار . والموكل على خدمة النار في المعبد[1] .

وقد ذكر (الألوسي) ، أن صنفاً من العرب عبد النار ، وقـال عنهم : « وهم أشتات من العرب ، وكأن ذلك سرى اليهم من الفرس والمجوس »[2] . ولم يذكر أسماء هؤلاء الأشتات . ولم يتحدث عن طريقة تعبدهم للنار . ولكننـا نستطيع أن نجد في (نار الاستمطار) وفي (نار التحالف) وفي النيران الأخرى التي يذكر أسماءها أهل الأخبار دلالة على وجود فكرة تقديس بعض العرب للنار. وقد حبب الاسلام هذه النيران .

فقد ذكر أهل الأخبار ان العرب كانت في الجاهلية الأولى ، اذا احتبس عنهم المطر ، ويئسوا من نزوله ، يجمعون البقر ويعقدون في أذنابها وعراقيبها السلـع والعشر ويصعدون بها في الجبل الوعر ، ويشعلون فيها النار ، ويزعمون ان ذلك من أسباب المطر ، قال الشاعر (الورل) الطائي :

أجاعلٌ أنتَ بيقوراً مسلّعة ... وسيلة منك بين الله والمطر[3]

وقد أشير الى هذه النار في شعر ينسب الى أمية بن أبي الصلت[4] . ويسمونها بنار الاستسقاء وبنار الاستمطار[5] .

وذكروا ناراً أخرى قالوا لها : (نار التحالف) و (نار المهول) . وقالوا ان العرب كانوا لا يعقدون حلفاً إلا عليها ، وكـانوا اذا اختصموا في شيء ، واتفقوا على اليمين ، حلفوا على النار . ولهذا قيل لها (نار التحالف) . وطريقتهم في ذلك أن المتحالفين أو المتخاصمين يحفرون أمام نار يوقدونها ، ثم يلقون عليهـا

---

١ غرائب اللغة (٢٤٨)

٢ بلوغ الارب (٢/٢٣٣) .

٣ (الوديل الطائي) ، صبح الاعشى (١/٤٠٩) ، بلوغ الارب (٢/١٦٤) ، خزانـة الادب (٣/٢١٢) ، الحيوان (٤/٤٦٨) ،

لا در در رجـــال خاب سعيهـم ... يستمطرون لدى الازمات بالعشر
أجاعل أنـت بيقـورا مسلعـة ... ذريعة لـك بـين الله والمطـر

اللسان (٤/٧٣) ، (بقر) .

٤ نهاية الارب ، للنويري (١/١٠٩ وما بعدها) ، الحيوان (٤/٤٦٦ وما بعدها) .

٥ نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .

ملحاً وكبريتاً . وعندئذ يذكرون منافع هذه النار ويدعون بالحرمان من خيرها على من ينقض العهد ويحل العقد.وفي حالة الحلف واليمين يقول صاحب النار للحالف: « هذه النار قد تهددتك » ، فإن كان مبطلاً نكل ، وان بريئاً حلف ، ولذلك قيل لها « نار المهول »[1] . وذكروا أيضاً أن هذه النار كانت معروفة في اليمن، مستعرة دائماً ، ولها سادة سدنة وقيّمون يطرحون الملح والكبريت في النار ، أما السدنة فيقومون بأخذ اليمين . وكان سادتها إذا أتى برجل ليحلف ، هيبوه من الحلف بها ، وخوّفوه من الكذب . وقد عرفت هذه النار بـ (نار التحاليف) كذلك . وقد أشار اليها الكميت بقوله :

هم خوّفوني بالعمى هوّة الردى كما شب نار الحالفين المهوّل

كما أشار اليها شاعر آخر هو أوس ، إذ قال :

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صدّ عن نار المهوّل حالف[2]

وذكر (الجاحظ) أن العرب « يقولون في الحلف : الدّم ، الدّم ، والهدم الهدم ، لا يزيده طلوع الشمس إلا شداً ، وطول الليالي إلا مداً ، ما بل البحر صوفة ، وما أقام رضوى في مكانه ، إن كان جبلهم رضوى .

« وكل قوم يذكرون جبلهم ، والمشهور من جبالهم . وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم »[3] .

بل زعم بعض أهل الأخبار ان حمير كانت تحتكم الى نار كانت باليمن تحكم بينهم فيما كانوا يختلفون بـه . تأكل الظالم ولا تضر المظلوم . فلما اعتنق التبع (تبان أسعد) ، ديانة يهود ، وطلب من قومه الدخول فيها ، أبوا عليه ذلك، وطلبوا منه الاحتكام الى تلك النار في قصة يذكرونها في سبب تهوّد بعض حمير[4].

وللعرب نار السعالى والجن والغيلان[5] . ذكروا ان الغيلان توقد بالليل النيران

---

١ اللسان (٥/٢٤٣) ، (نور) ، نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .
٢ اللسان (٧/١٠٢) ، صبح الاعشى (١/٤٠٩) ، خزانة الادب (٣/٢١٢) ، (خوفونا)، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/١٦١ وما بعدها) ، الحيوان (٤/٤٧٠) .
٣ الحيوان (٤/٤٧٠ وما بعدها) .
٤ سيرة ابن هشام (١/٢٧) .
٥ الحيوان (٤/٤٨١) .

للعبث والتخييل واضلال السابلة . وانها ترفع للمثقفر فيتبعها فتهوى بـه الغول . وأورد أهل الأخبار شعراً في ذلك منه شعر لـ (عبيد بن أيوب) ، المعروف بـ (أبي مطراب) ، وكان يزعم انه يؤاكل الظباء والوحش ويرافق الغول والسعلاة ، ويبايت الذئاب والأفاعي[1] .

وذكر أهل الأخبار قصة عن (خالد بن سنان العبسي) النبي العربي الذي منحه بعضهم في الاسلام جملة (عليه السلام) باعتبار انه من أنبياء الله ، قد يكون لها صلة بعقيدة عبادة النار عند العرب . إذ ذكروا ان ناراً ظهرت «بالبادية بين مكة والمدينة في الفترة ، فسمتّها العرب بدأ ، وكادت طائفة منهم ان تعبدها مضاهاةً للمجوس . فقام خالد هذا ، فأخذ عصاه ، واقتحم النار يضربها بعصاه، حتى أطفأها الله تعالى . ثم قال : إني ميت ، فإذا أنا مت ، وحال الحول ، فارصدوا قبري . فإذا رأيتم حماراً عند قبري ، فارموه واقتلوه ، وانبشوا قبري، فإني أحدثكم بكل ما هو كائن . فمات . فلما حال الحول ، رأوا الحمار فقتلوه، وأرادوا نبشه ، فنعهم أولاده ، وقالوا : لا نسمى بني المنبوش »[2] . وقد عرفت تلك النار بـ (نار الحرتين)[3] . وذكر انها كانت ببلاد عبس ، فإذا كان الليل تضيء نار تسطع وفي النهار دخان مرتفع . وربما بدر منها عنق فأحرق من مرّ بها . فحضر خالد بن سنان النبي ، فدفنها ، فكانت معجزة له[4] . ويظهر ان حرة ، كانت في تلك المنطقة ، ثم خمدت فنسب الناس خمودها الى (خالد بن سنان) .

وللجاهليين استعمالات أخرى للنار ، فكانوا إذا خافوا شرّ رجل ، وتحوّل عنهم أوقدوا خلفه ناراً، ليتحوّل شرهم معه[5] . ويقولون : « أبعده الله واسحقه وأوقد ناراً في أثره » ، يقولون ذلك لكراهيتهم له ، ويتمنّون الموت له . وتعرف هذه النار بـ (نار الطرد)[6] . وذكر أن العرب تدعو على العدو فتقول:

---

١ الحيوان (٤/٤٨١ وما بعدها) ، معجم الشعراء (١٨٢) ، مروج الذهب (١/٣٢٨) ، الحيوان (٥/١٢٣) ، صبح الاعشى (١/٤١٠) .
٢ محاضرات الابرار (١/٧٧) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) ، نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .
٣ الحيوان (٤/٤٧٦ وما بعدها) .
٤ صبح الاعشى (١/٤٠٩ وما بعدها) .
٥ اللسان (٧/١٠٢) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) .
٦ خزانة الادب (٣/٢١٢) ، الحيوان (٤/٤٧٤) ، صبح الاعشى (١/٤٠٩) .

أبعد الله داره وأوقد ناراً اثره [1] .

ولا بد أن يكون للنار الموقدة على المزدلفة صلة ما بعقائد الجاهليين القديمة في النار . وينسب الأخباريون هذه النـــار الى (قُصي بن كلاب) ، يقولون إنه أوقدها على المزدلفة حتى يراها من دفع من عرفة في أيام الحج . وقد بقي الناس يوقدونها الى الاسلام [2] .

ومن نيران العرب ، نار الغدر ، وتوقد بمنى أيام الحج على أحد الأخشبين ، جبلي مكة : أبي قبيس وقُعَيْقعان ، أو أبو قبيس والأحمر . فإذا استعرت ، صاح موقدها : هذه غدرة فلان ، ليحذره الناس ، وليعلموا أن فلاناً قد غدر بجاره [3] .

وأما (نار السلامة) ، فهي التي توقد للقادم من سفر سالماً غانماً ، وقـــد عرفت لذلك بـ (نار المسافر) أيضاً [4] . و (نار السليم) ، هي النـــار التي توقد للملدوغ وللمجروح ولمن ضرب بالسياط ولمن عضه الكلب الكَلِبُ ،ويقولون إنها إنما توقد لكي لا يناموا ، فيشتد بهم الأمر ويؤدي الى الهلاك [5] .

وأما (نار الحرب) ، فهي النار التي كانوا اذا أرادوا حربـــاً ، وتوقعوا جيشاً عظيماً ، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليـــلاً على جبلهم ناراً ، ليبلـــغ الخبر أصحابهم . واذا جدوا في جمع عشائرهم اليهم أوقدوا نارين [6] .

ونار الصيد ، هي نار توقد للظباء وللحيوانات الأخرى ، فتغشاها اذا نظرت اليها [7].

---

١ قال الشاعر :

وجمـــة أقوام حملت ، ولم أكن كموقـــد نـــار أثرهـــم للتنـــدم

اللسان (٥/٢٤٣) ، (نور) .

٢ صبح الاعشى (١/٤٠٩) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) ، نهاية الارب فـــي معرفة أنساب العرب (٤٦٢) ، الكامل ، لابن الاثير (٢/١٧) ، نزهـــة الجليس (٢/٤٠٦) .

٣ بلوغ الارب (٢/١٦٢) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) ، نزهـــة الجليس (٢/٤٠٦) .

٤ الحيوان (٤/٤٧٣) ، نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .

٥ بلوغ الارب (٢/١٦١ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١/٤١٠) .

٦ الحيوان (٤/٤٧٤ وما بعدها) ، (٥/١٣٣) ، صبح الاعشى (١/٤٠٩) ، نزهـــة الجليس (٢/٤٠٦) .

٧ صبح الاعسى (١/٤١٠) ، نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .

ونار الأسد ، وهي نار توقد اذا خافوا الأسد ، لينفر عنهم ، فإن من شأنه النفار عن النار ، يقال انه اذا رأى النار حدث له فكر يصده عن قصده،ويشغله عن السابلة . ويقولون إن الضفدع اذا رأى النار تحير وترك النقيق[1] .

ونار الفداء ، وكان الملوك منهـــم ، إذا أسروا نساء قبيلة ، خرجت اليهم السادة منهم للفداء أو الاستيهاب ، فيكرهون ان يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن أو في الظلمة فيخفى قدر ما يحبسونه لأنفسهم من الصفي ، فيوقدون النار لعرضهن[2] .

ونار القرى ، هي من أعظم مفاخر العرب ، وهي النـار التي ترفع للسفر ، ولمن يلتمس القرى ، فكلما كان موضعها أرفع كان أفخر . وهـــي نار مذكورة على الحقيقة لا على المثل[3] . وعرفت عندهم بـ (نار الضيافة) وبـ (نار الأضياف) أيضاً . وقد ذكر أهل الأخبار انهم ربما يوقدونها بـ (المندلى) ، ليهتدي اليها العميان . فالمندلى خشب ذو رائحة طيبة ، تفوح منه اذا أحـــرق ، فتشم من مسافة بعيدة[4] . وذكر انهم كانوا يوقدونها في ليالي الشتاء ، خاصة لحاجة الناس إلى القرى في ذلك الوقت . وكلما كانت النار مرتفعة ضخمة،كانت أفخر لصاحبها . وقد أشير اليها في الشعر[5] .

ويطلق العرب على كل نار تراها العين لا حقيقة لها عند التماسها،نار الحباحب، ونار أبي الحباحب . وقد ذكر (الجاحظ) أنه لم يسمع في أبي حباحب شيئاً[6] . ولهم قصص عـــن شخص زعموا أنه كان يعرف بـ (أبي حباحب) ، وكان رجلاً في سالف الدهر بخيلاً لا توقد له نار بليل ، مخافة أن يقتبس منها نار ، أو يراها الضيفان فيفدون اليه ، فإن أوقدها ثم أبصرها مستضيء أطفأها، فضربت العرب به المثل في البخل ، فقالت : « أخلف من نار أبي حباحب » . وذكر

---

١ صبح الاعشى (١/٤١٠) ، بلوغ الارب (٢/١٦١ وما بعدها) ، خزانـة الادب (٣/٢١٢) ، نزهةالجليس (٢/٤٠٦) .

٢ صبح الاعشى (١/٤١٠) ، بلوغ الارب (١/١٦١ وما بعدها) ، خزانـــة الادب (٣/٢١٢) ، نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .

٣ الحيوان (٥/١٣٤) ، خزانة الادب (٣/٢١٢)، نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .

٤ بلوغ الارب (٢/١٦١ وما بعدها) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) .

٥ بلوغ الارب (٢/١٦١) ، صبح الاعشى (١/٤١٠) .

٦ الحيوان (٤/٤٨٦ وما بعدها) ، المخصص (١١/٢٨) ، بلوغ الارب (٢/١٦١ وما بعدهـــا) .

أن (أبا الحباحب) رجل كان لا ينتفع بماله لبخله فنسبوا اليه كل نار لا ينتفع بها[1].

ومن النيران الأخرى : نار البرق ، ونار البراعة ، ونار الخلعاء والهراب ، ونار الوسم ، وهي النار يسم بها الرجل منهم أبله . فيقال له : ما سمة إبلك ؟ فيقول كذا[2] .

وقد ذكر علماء اللغـــة أن العرب استعملوا النار في معنيين : معنى حقيقي ، ومعنى مجازي . وقصدوا بالنيران الحقيقة ، النيران التي كان يوقدها العرب حقاً ، وحصروها في أربعة عشر ناراً أو أكثر من ذلك ، أو أقل[3] . وقصدوا بالنيران المجازية ، استعمال الكلمة في معان مجازية ، مثل قولهم نار الحب ونار المعـدة ، ونار الحُمى ، ونار الشوق[4] .

الصابئة :

ونجد في القرآن الكريم اشارة الى الصابئين ، وقد ذكروا بعد اليهود والنصارى في موضع من سورة البقرة[5] ، وذكروا وسطاً بين اليهود والنصارى في موضع من سورة المائدة وفي سورة الحج[6] . ويظهر ان معارف أهل الأخبار عنهم نزرة ، فليس لديهم شيء مهم مفيد يفيدنا عن عقائد أولئك الصابئة وآرائهم .

وقد ربط أهل الأخبار بين هؤلاء الصابئة المذكورين في القـــرآن وبين صابئة حرّان وصابئة العراق ، وجعلوهم طائفتين في الأصل : طائفة هم صابئة حنفاء

---

١ بلوغ الارب (٢/١٦١ وما بعدها) .
٢ الحيوان (٤/٤٨٦ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١/٤١٠) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٢/١٦١ وما بعدها) ، خزانة الادب ، للبغدادي (٣/٢١٢) ، (بولاق) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) ، الحيوان (٥/١٠٧ وما بعدها) ، نزهـــه الجليس (٢/٤٠٦) .
٤ نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) .
٥ البقرة ، الاية ٦٢ .
٦ المائدة ، الاية ٦٩ ، الحج ، الاية ١٧ ، تفسير الطبري (٢/١٤٤) ، « دار المعارف » ، مجمع البيان ، للطبرسي (١/٢٧٨) ، الملل والنحل ، للسهرستاني (٢/٩٨) ، نخبه الدهر في عجائب البر والبحر ، للدمشقي (١/٤٤) « بطرسبورغ » ، ابن خلـدون (٢/٣٢) « دار الكتـاب اللبنانـــي ١٩٥٩ م » ، المسعودي ، مروج (٢/٢٤٧) ، الفهرست (٣٣٢) ، رسوم دار الخلافة (٥) .

وهم في نظرهم أصحاب ابراهيم ممن كان بحرّان وممن كان على دعوته ، وصابئة مشركون وهم من فسدوا من الصابئة فأشركوا واعتقدوا بالكواكب[1] .

ولكن الذي يفهم من القرآن الكريم ان الصابئة جماعة كانت على دين خاص ، وانها طائفة مثل اليهود والنصارى ، أي ان الكلمة مصطلح ولها مدلول معين مفهوم . فما ذهب اليه المفسرون من هذا التعريف للصابئة ومن هذا التقسيم ، انما تكوّن عندهم في الاسلام ، بعد وقوفهم على أحوال الصابئة واتصالهم بهم .

ويفهم من المواضع التي ورد فيها ذكرهم في القرآن الكريم ، ومن ورود اسمهم مع اليهود والنصارى فيه ، انهم كانوا يعبدون إلهاً ، ويتوجهون في دينهم اليه[2] .

ولا استبعد أن يكون من بين سكان مكة أناس كانوا من الصابئة ، جاءوا اليها تجاراً من العراق ، أو جاء بهم الحظ اليها ، حيث أوقعهم في سوق النخاسة ، فاشتراهم تجار مكة وجاءوا بهم الى مدينتهم ، وعرفوا منهم أنهم صابئة .

ونحن إذا ما تتبعنا ما ورد عن لفظة صبأ وصابىء في الموارد الاسلامية نرى أن هذه الموارد تفسر لفظة صبأ بمعنى خرج من شيء الى شيء ، وخرج من دين الى دين غيره . وتذكر أن قريشاً كانت تسمي النبي صابئاً ، والصحابة الصباة[3] . أي الخارجين على دين قومهم . وهي تستعمل لفظة الصابئة في كثير من الأحوال في معنى حنفاء ، كالذي نراه في ربطهم ابراهيم بهاتين الديانتين ، وعدّهم قدماء الصابئة في جملة الحنفاء ، فإن هذا يدل على أن المراد من الصابئة بين العرب عند ظهور الاسلام هم المنشقون الخارجون على ديانة قومهم ، أي على عبادة الأوثان والمنادين بالتوحيد . وأما ما نراه من إطلاق الصابئة على الصابئة المعروفين في الاسلام ، فإنما حدث في الإسلام .

واطلاق قريش لفظة الصابىء والصباة على المسلمين بدلاً من تسميتهم بمسلمين قضية مهمة جداً ، يجب الاهتمام بها ، وفي الأخبار أمثلة كثيرة على ذلك . فقد

---

١ التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون (١/٨٨٧) ، بلوغ الارب (٢/٢٢٣ وما بعدها) .

٢ Dictionary of Islam, p. 551.

٣ النهاية (٢/٣٦٩) ، اللسان (١/١٠٢) ، « وكانت العرب تسمى النبى صلى الله عليه وسلم الصابىء ، لانه خرج من دين قريش الى الاسلام ، ويسمون من يدخل في دين الاسلام مصبوا .. ويسمون المسلمين الصباة » ، تاج العروس (١/٣٠٦) ، « طبعة الكويت » ، القاموس المحيط (١/٢٠) .

ذكرت كتب الحديث والسير واللغة أن قريشاً دعت النبي صابئاً ، وفي جملة من دعاه بذلك عمر قبل اسلامه ، ثم رمي عُمر بها بعد إسلامه أيضاً . ولما أسلم أبو ذر الغفاري ، انهال عليه أهل مكة بالضرب ، لأنه صبأ وفتّن وخرج عن دينهم . ولما أرادت زوج مطعم بن عديّ خطبة ابنة أبي بكر الى ابنها ، ذكرت له أنها تخشى أن يؤثر على ولدها ، فيكون من الصباة . وقد كانت لفظة الصباة والصُبّاء بمعنى مسلمين عند المشركين،ففي معركة حنين نجد (دريد بن الصمّة) يخاطب أحد رؤوس القوم ويقول له في جملة ما قاله : « ثم ألق الصُبّاء على متون الخيل »[1] . ولما أرسل بنو عامر لبيداً الى النبي ليرى خبره وعلمه، أسلم ، وأصابه وجع هناك شديد من حمّى ، فرجع الى قومه بسبب تلك الحمّى، وجاءهم بذكر البعث والجنّة والنار ، فقال صرافة بن عوف بن الأحوص :

لَعَمْرُ لبيد إنه لابن أمه	ولكن أبوه مسه قدم العهد
دفعناك في أرض الحجاز كأنما	دفعناك فحلاً فوقه قرع اللبد
فعالجت حماه وداء ضلوعه	وترنيق عيش مسه طرف الجهد
وجئت بدين الصابئين تشوبه	بألواح نجد بعد عهدك من عهد
وإن لنا داراً زعمت ومرجعاً	وثم إياب القارضين وذي البرد

فكان عمر يقول : « وايم الله إياب القارضين وذي البرد[2] » . فقصد الشاعر بجملة « دين الصابئين » الإسلام ، فالصابئون في نظر المشركين هم المسلمون .

ولما ذهب سعد بن معاذ إلى مكة ، أنبه أبو جهل على قدومه اليها بعد ان دخل في دين الصابئين . ولما قدم خالد بن الوليد على بني جذيمة ، نادوه بأنهم صبأوا ، أي دخلوا في الاسلام[3] . ويلاحظ ان الوثنيين أطلقوا هذه التسمية على كل من أسلم ، وعلى كل من شكّوا فيه ورأوا انه ميال اليهم ، فكانوا يرمونه بهذه التهمة . أما المسلمون ، فلم يرتاحوا اليها . والظاهر انها كانت سبّة بالنسبة اليهم في ذلك العهد ، بدليل انهم كانوا يكذبون من كان يطلقها من المشركين عليهم ويردّ عليهم رداً شديداً ، فلما نادى جميل بن معمر الجمحي في قريش :

---

١ الطبري (١/١٢٦) ، « معركة حنين » .

٢ الاغاني (١٥/١٣١ وما بعدها) « خبر لبيد في مرثية أخيه » .

٣ لقد جمع « ولهوزن » أكثر المواضع التي أطلق الوثنيون فيها هذه اللفظة على المسلمين ، راجع كتابه : Reste, S. 236.

ألا ، ان ابن الخطاب قد صبأ ، وذلك حين دخل في الاسلام ، وشهد بذلك أمام النبي ، نادى عمر من خلفه : كــذب ، ولكني أسلمت ، وقالت قريش : صبأ عمر[1] . ولا بد ان يكون لتكذيب عمر وغيره الوثنيين لتسميتهم المسلمين بهذه التسمية من سبب . وهو سبب يشعر ان أهل مكة انما أطلقوها عليهم إهانة لهم وازدراء لشأنهم وعلى سبيل السبّة ، لأنها كانت سبّة عندهم وذلك قبل الاسلام. وإلا لما انزعج المسلمون منها ، وردّوا على قريش بسببها رداً قبيحاً . وقد رأيت ان المسلمين كانوا يفتخرون باطلاق الحنيفية عليهم ، وانهم كانوا يرون ان الحنفاء هم سلف المسلمين ، وان ابراهيم كان حنيفاً وكان أول المسلمين .

فالصابئون اذن هم أولئك الخارجون على عبادة قومهم المخالفون لهم في ديانتهم. شأنهم في ذلك في نظر قريش شأن من يسميهم المسلمون في ايامنــا بالملحدين أو الهدامين ، أو أي مصطلح آخر يراد به الرمي بالخروج على مثل المجتمع القائم وتقاليده ، وذلك ازدراء بهم ، وتنفيراً للناس عنهم .

---

١ ابن الاثير (٢/ ٣٤ وما بعدها) « ذكر اسلام عمر بن الحطاب » .

الفصل الرابع والثمانون

تسخير عالم الارواح

للعالم الخفي ، وأقصد به عالم الأرواح وكل ما لا تراه العين ويدركه الحس من قوى طيبة أو خبيثة ، أثر خطير في عقائد أهل الجاهلية ، وفي عقائد الشعوب القديمة ، وفي أنفس كثير من الناس حتى اليوم ، إذ يشغل ذلك العالم في الواقع جزءاً خطيراً من الدين ومن حياة الناس عامة . فهناك صلوات وشعائر وأدعية مكتوبة وغير مكتوبة تتلى وتقال وتقرأ للسيطرة على ذلك العالم ، وللانتفاع منه ، ولتسخيره في سبيل خير الانسان ومصلحته ، ولتجنب أذى النوع الخبيث منه . واذا تتبعنا هذه الاعتقادات عند الجاهليين ، وجدنا انها قد كونت الجزء الأكبر من عقيدتهم وديانتهم ، وانها والذبائح من الأصول التي ارتكزت عليها ديانات العرب قبل الاسلام .

والواقع ان الاعتقاد بالأرواح يشغل حيزاً كبيراً من فناء الدين عند الجاهليين ، وإن بدا لنا انه شيء لا علاقة له بالدين . فنحن حين البحث في موضوع العقيدة والدين عند أهل الجاهلية ، لا نتحدث بالطبع عن العقيدة والدين بالنسبة الى معتقداتنا وبالنسبة الى تفكير الانسان في القرن العشرين ، وانما نتحدث عن رأي أناس عاشوا قبل الاسلام ، وعن جماعة أدركت الاسلام ، كانت الأرواح في نظرها أكثر أثراً في حياة الفرد من أثر الآلهة فيه . فتقرب وتوسل اليها أكثر من تقربه وتوسله إلى آلهته التي كان يرى ان بيدها مفتاح سعادته وشقائه . وآية ذلك كثرة الكلمات والمصطلحات الجاهلية المتعلقة بها ، وما ورد في القرآن الكريم وفي

الحديث النبوي والأخبار من أثر الجن في نفوس القوم ، حتى تصوروهم آلهة وشركاء للأرباب في ادارة دفة هذا الكون .

هذا ، ونحن إن ذكرنا الأرواح ، فإننا لا نقصد المعنى المفهوم منها في رأينا، بل نقصد هذا المعنى وشيئاً آخر أعم وأوسع منه،معنى يشمل أيضاً بعض الأحجار والأشجار والآبار والكهوف وأمثال ذلك من أشياء تصوّر أهل الجاهلية أنها تكمن فيها قوة خارقة تستطيع التأثير في حياة الناس ، فتقربوا اليها بالزيارات والقرابين وبالتضرع والتوسل والأدعية لقدسيتها ولتلك القدرة العجيبة التي فيها ، فهي من حيث النفع أو الضرر كالأرواح : لوجود قوى خارقة غير منظورة فيها ، هي من الأرواح ، فتقرب اليها الانسان لذلك ، لغرض الاستفادة منها أو دفع أذاها.

وطبيعة الأرواح ، طبيعة غير مرئية ولا منظورة ، هي لطيفة خفيّة مستورة . إنما يجوز لبعضها الظهور في صورة أشباح ، والتجسم على هيأة الأجساد . ثم انها على طبيعتين : شريرة وخيرة ، خبيثة وصالحة . من الطبيعة الأولى الشياطين وبعض أنواع الجن ، ومن الطبيعة الثانية الملائكة والشطر الثاني من الجن . وأثر الخبيث من الأرواح أوضح وأكثر في عقلية أهل الجاهلية من أثر الفريق الصالح . وهو شيء منطقي مفهوم ، فالإنسان الى الشر أقرب منه الى الخير ، ذلك أن من طبع الخير عدم إلحاق الأذى بالغير ، فلا يخشى منه . أما الشرير ، ففي طبعه إلحاق الضرر والأذى بكل واحد ، وفي كل لحظة يراها ، لذلك التفتت اليه الأنظار حذراً منه ، وخشية من مكره ، وتقرّبت وتوددت اليه ، لا حباً له ، ولا تقرباً اليه لأنه جدير به ، بل إنما تملّقاً وتزلفاً لإبعاد شره ، وأمن جانبه على نمط ما يفعله الناس تجاه الأقوياء من الأشرار حيث يتقربون اليهم أو يبتعدون عنهم طمعاً ورهبة ، تمشية لأمور معاشهم ، لا حباً لهم واخلاصاً لاستحقاقهم ذلك الحب والاخلاص .

وقد ذكر (الجاحظ) ان الأعراب تجعل الخوافي والمستجنّات جنسين. يقولون جنّ وحنّ[1] . وقصد بـ (الخوافي) الأرواح ، لأنها لا ترى . وذكر غيره ان (الحن) ، حي من الجن ، كانوا قبل آدم ، يقال منهم الكلاب السود البهم ، يقال كلب حني ، أو سفلة الجن وضعفاؤهم أو كلابهم ، « ومنه حديث

---

١ الحيوان (٦/١٩٣) .

ابن عباس ، رضي الله تعالى عنهما ، الكلاب من الحن ، وهي ضعفة الجن ، فإن كان عندكم طعام فألقوا لهن ، فإن لهن أنفساً ، أي تصيب بأعينها »[1] . وذكر ان (الحن) خلق بين الجن والانس[2] .

وذكر (الجاحظ) أيضاً أن بعض الناس يقسم الجنّ على قسمين ، فيقول : هم جنّ و (حنّ).ويجعل (الجن) أضعفها[3] . وقد ذهب بعض أهل الأخبار الى أن (الحن) ، هم كلاب الجنّ وسفلتهم ، وشر أنواع الجـن[4] . ويجعلون الجن فوق الحن[5] .

ويقال للجنّ الجان ، و (الجنة) كذلك . و (الجان) اسم جمع للجنّ على رأي بعض علماء اللغة[6] . وقـد ورد في مقابل (الإنس) في القرآن الكريم ، « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان »[7] . وصيره اسم أبي الجن بعض العلماء ، أي في مقابل آدم أبي البشر[8] . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان كلمة (الجن) من الكلمات المعربة ، وذهب بعض آخر الى انها عربية[9] . وأرى انها من الكلمات السامية القديمة ، لأن الايمان بالجن من العقائد القديمة المعروفة عند قدماء الساميين وعند غير الساميين كذلك . والجن قوم مستترون ، وكلمـة (جنون) من هذا الأصل ، ومن معاني أصل الكلمة الاستتار .

ولم يتوصل الباحثون حتى الآن الى رأي ثابت في أصل كلمة (الجن) . فمنهم من رأى أنهم اسم صنم من أصنام العرب القديمة ، ومنهم من رأى أنها من أصل

---

١ تاج العروس (٩/١٨٥) ، (حنن) .

٢ المصدر نفسه .

٣ الحيوان (٧/١٧٧) ، (هارون) ، (٦/١٩٣) .

٤ بلوغ الارب (٢/٣٥١) .

٥ قال أعشى سليم :

فما أنا من جن اذا كنت حائفـا ولستمن النسناسفي عنصرالبشر

وقال اخر :

أبيت أهـوى في شياطـين ترن محلـف بجواهـم حن وجـس

الحيوان (٦/١٩٣) .

٦ تاج العروس (٩/١٦٥) ، (جن) ، روح المعاني (١٤/٣٤ وما بعدها) .

٧ الرحمن ، الاية ٧٤ .

٨ تاج العروس (٩/١٦٥) ، (جن) ، (والجان . أبو الجن .. كما أن آدم أبـو البشر) ، اللسان (١٣/٩٥ وما بعدها) ، (جنن) ، Reste, S. 148.

٩ Ency., I, p. 1045, Smith, p. 121, Lane, Lexicon, p. 492.

أعجمي ، ومنهم من وجد لها صلة بالحبشية [1] . أما علماء العربية ، فرأوا أن معنى الكلمة الأصلي هو الاستتار ، وأنها من الاجتنان ، ولعدم إمكان رؤية ذلك العالم أطلقت عليه كلمة (الجن) [2] . وتقابل لفظة (الجن) و (جن) لفظة (Demons) في الإنكليزية .

ويرى (نولدكه) أن فكرة (الجن) فكرة استوردها العرب من الخارج ، بدليل قولهم ان الجنة من عمل الجن ، ومن تلبس الجن بالانسان . وهي في نظره عقيدة قديمة دخلت العرب من جيرانهم الشماليين ، فقد كان الايرانيون يطلقون على المجنون لفظة (ديوانه) (Devana) ، أي الذي به (ديو) (dev) من الأصل (ديوه) (Daiva) ، ومعناه (Demon) ، أي جان . ومن هذه الفكرة دخلت العهد الجديد من الكتاب المقدس . ويأتي (نولدكه) بدليل آخر على اثبات نظريته في أن فكرة الجن فكرة مستوردة من الخارج شيوع قصص بناء جنّ سليمان مدينة (تدمر) بين الجاهليين ، وهو قصص ورد من قصة بناء (سليمان) لـ (تامار) في العهد القديم ، وتفسير (تامار) بتدمر عند المفسرين العبرانيين [3] .

ورأى (روبرتسن سمث) وجوه شبه كبير بين فكرة العرب عن الجن وبين فكرة بعض القبائل البدائية عن الحيوانات . إن رأي الجاهليين في الجن في رأيه يشبه رأي المتوحشين الطوطميين في الحيوانات الوحشية . وفي القصص الذي يرويه البدائيون عن الحيوانات الوحشية وعن أرواحها وامكان احداثها الأمراض والأذى بالانسان شبّه بهذا القصص المروي عن الحيوانات الوحشية ، مما جعله يتصور ان فكرة الجن عند الجاهليين هي تطور لهذه النظرية القديمة التي تكون عند الطوطميين. انتقلت اليهم من عقيدة سابقة تطورت من عهد عبادة الطوطم. وان الجن(طوطمية) دون ان يكون لها قوم يشعرون بوجود صلة نسب وقربى بها [4] .

ولكن من الصعب تصور ظهور فكرة الجن عند عرب الجاهلية برمتها من

---

١ Ency. Religi., I, p. 669, Nöldeke, Moallakat, I, 69, 78, Shorter Ency., p. 91, Ency., I, p. 1045.

٢ تاج العروس (٩/١٦٥) ، (جن) ، اللسان (١٣/٩٥ وما بعدها) ، (جنن) .

٣ Ency. Religi., I, p. 670.

٤ Robertson Smith, Marriage, p. 128.

الطوطمية ، لأن هناك أموراً عديدة لا يمكن تفسيرها على وفق هذه النظرية . ولكننا نستطيع ان نقول انها نوع من أنواع الـ (Animism) [1] . وقد وجدت عند العبرانيين في عهودهم القديمة ، كما كانت عند البابليين وغيرهم .

واذا سكن الجني مع الناس ، قالوا : عامر ، والجمع عمّار ، وإن كان ممن يعرض للصبيان ، فهم أرواح ، فإن خبث أحدهم وتعرّم ، فهو شيطان . فإن زاد على ذلك ، فهو مارد . فإن زاد على ذلك في القوة ، فهو عفريت . فإن طهر الجني ونظف ونقي وصار خيراً كله فهو ملك. وهم في الجملة جن وخوافي[2] .

لقد لعب الايمان بالجن عند بعض الجاهليين دوراً فاق الدور الذي لعبته الآلهة في مخيلتهم،فنسبوا اليها أعمالاً لم ينسبوها الى الأرباب ، وتقربوا اليها لاسترضائها أكثر من تقربهم الى الآلهة . إنها عناصر مخيفة راعبة . تؤذي من يؤذيها وتلحق به الأذى والأمراض ، ولذلك كان استرضاؤها لازماً لأمن تلك الآفات . وهذه العقيدة جعلت الجن في الواقع آلهة ، بل أكثر سلطة ونفوذاً منها ، وصيّرت عمل الآلهة سهلاً يسيراً تجاه الأعمال التي يقوم بها الجن . ولا زال أثر هذه العقيدة باقياً في نفوس الناس حتى الأيام ، مع تقليل أهمية عمل الجن على الإنسان في الاسلام .

وليست هذه العقيدة عقيدة أهل الجاهلية حسب ، بل هي عقيدة أكثر من اعتقد بأثر الأرواح في العالم وفي عمل الإنسان ، اذ صيرتها آلهة مقرّها الأرض ، أو آلهة من الدرجة الثانية . والغريب أننا نرى بعض الشعوب تخصص أعمال الآلهة الكبيرة بناحية معينة ، وتعتبرها آلهة رئيسية كبرى ، بينما تجعل عمل الجن عملاً واسعاً يشمل كل الأرض والانسان ، أي أن عملها أوسع جداً من عمل تلك الآلهة وأهم .

وفي القرآن الكريم ان قريشاً جعلت بين الله وبين الجنة نسباً : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقد علمت الجِنّة انهم لمحضرون »[3] ، وانها جعلت الجن شركاء له : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون »[4] . أي جعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم

---

١ المصدر نفسه .
٢ الحيوان (٦/١٩٠ وما بعدها) .
٣ الصافات ، الآية ١٥٨ .
٤ الانعام ، الآية ١٠٠ .

اياه ، وخرقوا له بنين وبنات ، وتخرصوا لله كذباً ، فافتعلوا له بنين وبنات جهلاً وكذباً[1] . وورد ان الله تزوج الجن ، وان الملائكة هم بناته من هذا الزواج . « قال كبار قريش : الملائكة بنات الله . فقال لهم أبو بكر الصديق : فمن أمهاتهم ؟ قالوا : بنات سراة الجن »[2] .

ويفهم من القرآن الكريم أيضاً ان من العرب من كان يعبد الجن : « قالوا : سبحانك ، أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون »[3] . وذكر (ابن الكلبي) ان (بني مليح) من خزاعة رهط طلحة الطلحات ، كانوا ممن تعبد للجن من الجاهليين[4] . ويزعمون ان الجن تتراءى لهم[5] . وفيهم نزلت : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم »[6] . وذكر ان قبائل من العرب عبدت الجن ، أو صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن . ويقولون هم بنات الله[7] ، فأنزل الله : « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة . أيهم أقرب . ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذوراً »[8] .

وليس لدى المفسرين أو أهل الأخبار علم واضح عن كيفية اعتقاد بعض العرب بألوهية الجن وبمصاهرتها للآلهة أو الإله . وما ورد عن ذلك في القرآن ، مجمل . والظاهر أن ذاكرة الأخباريين لم تتمكن من حفظ تفاصيل هذه العقيدة والعقائد المماثلة الأخرى ، ولا بد وأن تكون لها أسطورة قديمة ، يظهر أنها ماتت قبل الاسلام ، أو أن المسلمين تركوا روايتها لمعارضتها للإسلام ولأنها كانت في نظرهم خرافة تتعلق بأصنام ، فلم يروا الاهتمام بها ، وتركوها ، ولولا ورود ذكرها مقتضباً في القرآن ، فلربما صرنا في جهل تام بأمر تلك العبادة .

ويرى (نولدكه) أن الجاهليين لم يتعبدوا للجن ، ولم يتخذوها آلهة على نحو

---

١ تفسير الطبري (٧/١٩٧) .
٢ لباب النقول في أسباب النزول ، للسيوطي (٢/٨١ وما بعدها) ، حاشية على تفسير الجلالين .
٣ سبأ ، الآية ٤١ .
٤ الاصنام (٣٤) ، الاشتقاق (٢٧٦) .
٥ تفسير القرطبي (١٤/٣٠٩) .
٦ الاعراف ، الآية ١٩٣ .
٧ تفسير الطبري (١٥/٧٢) .
٨ الاسراء ، الرقم ١٧ ، الآية ٥٧ .

ما نفهم من معنى الآلهة ، وأن (عبد الجن) ، وإن دل على التعبد للجن ، إلا أن هذه التسمية لا تدل حتماً على عبادة للجن[1] .

وتتألف الجن من عشائر وقبائل ، تربط بينها رابطة القربى وصلة الرحم . وهي كعشائر وقبائل جزيرة العرب ، تتقاتل فيما بينها ، ويغزو بعضها بعضاً . ولها أسماء ذكر بعضاً منها أهل الأخبار ، كما أن لها ملوكاً وحكاماً وسادات قبائل . فهي في حياتها تحيا على شكل نظام حياة الجاهليين . واذا اعتدى معتد على جان انقمت قبيلته كلها من المعتدي أو المعتدين . وبين قبائل الجن عصبية شديدة ، كعصبية القبيلة عند الجاهليين ، وهي تراعي حرمة الجوار ، وتحفظ الذمم والعقود وتعقد الأحلاف. فنحن إذن أمام حياة جاهلية مستترة غير منظورة، هي حياة جن جاهليين . ومن الجن (بنو غزوان)[2] ، (بنو عزوان)[3] .

وقد تتقاتل طوائف من الجن ، فيثير قتالها عواصف الغبار ، ولذلك فسر الجاهليون حدوث العواصف والزوابع بفعل الجن . ونجد هذه الفكرة فكرة إحداث الجن للرياح والعواصف في المزامير من أسفار التوراة[4] .

وهم مثل البشر ، فيهم الحضر ، أهل القرار ، وفيهم المتنقلة وهم أعراب الجن ، وفيهم من يسير بالنهار ، وفيهم من يسير بالليل ، وهم (سراة الجن) ، و (السراة) . قال الشاعر :

أتوا ناري فقلت منون قالوا : سراة الجن ، قلت : عموا ظلاما[5]

وللجن كما للانس سادة ورؤساء وعظماء ، نذكر منهم : الشنقناق والشيصبان . وقد ذكر الأول في شعر (بشار بن برد) وفي شعر لأبي النجم ، وفي شعر حسان بن ثابت[6] . و (دحرش) أبو قبيلة من الجن[7] .

وعقد الجاهليون أحلافاً مع الجن على التعاون والتعاضد ، فقد ذكر ان قوماً

---

١ Ency. Religi., I, p. 670.
٢ اللسان (٥/٨٩) ، (وبنو غزوان ، حي من الجن) ، (هرر) .
٣ تاج العروس (١٠/٢٤١) ، (عزا) .
٤ المزمور ١٠٤ ، الآية الرابعة ، Reste, S. 151.
٥ تاج العروس (١٠/١٧٤) ، (سرى) .
٦ الحيوان (١/٣٠٨) ، (٦/٢٢٨ ، ٢٣١) ، ثمار القلوب (٥٥) .
٧ تاج العروس (٤/٣١٠) ، (دحرش) .

من العرب ، كانوا قد تحالفوا مع قوم من الجن من (بني مالك بن أقيش)[1].

ويذكر الرواة قصصاً عن الجن مع الإنسان . يذكرون أن (تأبط شراً) رفع كبشاً تحت إبطه ، وأخذه معه الى الحي ، فصار يبول عليه في الطريق ، حتى إذا قرب من مكانه ، ثقل عليه ، فرمى به ، فإذا هو الغول[2] . ويذكرون أن ابن امرأة من الجن أراد الحج في الجاهلية ، فخافت عليه أمه من سفهاء قريش، ولكنه ألحّ عليها بأن تسمح له بالذهاب . فلما أكمل الطواف ، وصار ببعض دور بني سهم ، عرض له شاب منهم فقتله ، فثارت غبرة شديدة بمكة، ومات من بني سهم خلق كثير قتلهم الجنّ انتقاماً منهم لمقتل الجان ، فنهضت بنو سهم وحلفاؤها ومواليها وعبيدها ، فركبوا الجبال والشعاب بالثنيّة ، فما تركوا حيّة ولا عقرباً ولا عظاية ولا خنفساء ولا شيئاً من الهوام يدب على وجه الأرض إلا قتلوه ، حتى ضجت الجن ، فصاح صائحهم من على أبي قبيس يطلب وساطة قريش بينهم وبين بني سهم الذين قتلوا منهم أضعاف ما قتله الجن من بني سهم، فتوسطت قريش ، وأنهي النزاع ، وتغلب بنو سهم على الجن[3] .

والجن مثل البشر ، يعتدون كذلك ، ولا يردعهم من اعتدائهم إلا القوة . هذا رجل من (بني سهم) يقص علينا في الاسلام انه كان بـ (تبالة) يراجع نخلاً له ، وبين يديه جارية له ، فصرعت، فأدرك ان الجن هم الذين صرعوها، فوقف عليها قائلاً : يا معشر الجن ! أنا رجل من بني سهم،وقد علمتم ما كان بيننا وبينكم في الجاهلية من الحرب وما صرنا اليه من الصلح والعهد والميثاق ان لا يغدر بعضنا ببعض ، ولا يعود إلى مكروه صاحبه ، فإن وفيتم وفينا ، وإن غدرتم عدنا الى ما تعرفون . فخافت الجن من هذا التهديد ، وأفاقت الجارية ، ولم يصبها بعد ذلك مكروه[4] .

وذهب الجاهليون الى جواز قتل الجن للانسان . وقد بقي هذا الاعتقاد

---

١ الطبري (٢/٣٤٩) ، (دار المعارف) .
٢ الاغاني (١٨/٢١٠ وما بعدها) .
٣ الازرقي (٢/١١ وما بعدها) ، « المطبعة الماجدية بمكة » .
٤ الازرقي (٢/١٢ وما بعدها) .

في الإسلام . فلما قتل (سعد بن عبادة بن دليم) ، زعم أن الجن قتلته [1] . ولما قتل المغني المعروف (الغريض) ، وهو من الموالي ، وكان نشأ خيّاطاً ثم أخذ الغناء بمكة عن (ابن سريج)،زعم أن الجن نهته أن يغني لحنه الذي يقول فيه :

تشرب لـــون الرازقي بياضــه   أو الزعفران خالط المسك رادعه

فلما لم ينته قتلته الجن في ذلك خنقاً [2] .

وزعم أن الجن خنقت (حرب بن أمية) ، وقالت الجن في ذلك شعراً [3] . وقتلت (مِرْداس بن أبي عامر) ، أبا (عباس بن مرداس) ، واستهوت (سنان بن حارثة)،ليستفحلوه،فمات فيهم . واستهووا (طالب بن أبي طالب)، فلم يعثر أهله له على أثر ، واستهووا (عمرو بن عـــدي) اللّخمي الملك ، ثم ردّوه على خاله (جذيمة بن الأبرش) ، بعد سنين وسنين . واستهووا (عمارة ابن الوليد بن المغيرة) ، ونفخوا في أحليله ، فصار مع الوحش [4] .

ويروي أهل الأخبار ان الجن تتصادق مع الانسان وتتباغض معه ، وقد تقتله، ورووا في ذلك قصصاً ، وذكروا أنها قد تتألم لوفاة رجل طيب أو شهير محبوب . وقد تعطف على المحتاجين والمعوزين . وفي جملة ما قالوه عن الجن ان (أبا هالة) كان قد خرج في الجاهلية في عِير لقريش يريد الشأم ، فنزل وادياً يقال له : (عز) ، وانتبه آخر الليل فاذا شيخ قائم على صخرة ، وهـــو ينشد شعراً في رثاء عبدالله بن جُدعان ، وكان ذلك الشيخ جان من الجن . وقد ذكر أهـــل الأخبار محاورة من الشعر قالوا انها جرت بين (أبي هالة) ، وبين ذلك الشيخ

---

1 كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/٣٧٣) ، المعارف ١١٢ ، الحيوان (٦/٢٠٩) ، الاشتقاق (٤٥٦) . وسمعوا الهاتف يقول :

قـد قتلنـا سيد الخـزر   ج سعـد بـن عبـاده
ورمينـاه بسهميـن   فلـم نخـط فـؤاده

الحيوان (٦/٢٠٩) ، (هارون) ، (١/٣٠٨) .

2 كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/٣٧٣) ، الاغاني (٢/١٣٦ ، ١٤٣) ، الحيوان (٦/٢٠٨) ، (هارون) ، الحيوان (١/٣٠٧) .

3 الحيوان (١/٣٠٢) ، (هارون) . وقالت الجن :

وقبـر حـرب بمكـان قفـر   وليس قـرب قبـر حـرب قبـر

الحيوان (٦/٢٠٧) ، (هارون) .

4 الحيوان (٦/٢٠٩ وما بعدها) ، (هارون) .

الجني الذي عين وقت وفـاة (عبدالله بن جدعان) ، وثبته بالضبط ، فكان كما قال[1] .

وقد يقع الحب بين الجن والإنس . فقد ذكر ان الجنية قد تتبع الرجل تحبه، ويقال لها : تابعة . ومن ذلك قولهم : معه تابعة ، أي من الجن . والتابعة جنّية تتبع الانسان . كما يكون للمرأة تابع من الجن ، يتبع المرأة يحبها[2] . وقد يعشق الجني امرأة ويتصادق معها . هذا (منظور) الجني ، عشق امرأة اسمها (حبّة)، وتصادق معها ، فكانت (حبة) تتطبب بما يعلمها منظور[3] .

وقد يسرق الجن الأطفال والرجـال والنساء ، وللأخباريين قصص يروونه في ذلك . وينسب فقدان الأشخاص في البوادي إلى الجن في الغالب . غير انهـا قد تنفع الناس أيضاً ، لأن من الجن من هو طيب النفس ، مفيد نافع ، ولا سيما اذا ما تقرب اليها الانسان وأحسن اليها . رأى الشاعر عبيد بن الأبرص حية،فسقاها . فلما ضل جمل له وتاه ، نادى هاتف بصوت مسموع سمعـه عبيد بن الأبرص مشيراً إلى الموضع الذي ذهب الجمل اليه . فذهب عبيد إلى المكان،وجاء بجمله[4] . وكان هذا الهاتف هو صوت الحية التي هي جان من الجن .

وقد يتصاهر الإنسان مع الجن ، فقد كان لعمرو بن يربوع بن حنظلة التميمي زوج من الجن : ولكنها لم تبق معه ، بل اختفت بعد ذلك عند ظهور البرق[5] . ونسبت بعض الأسر والقبائل مثل (بني مالك) ، و (بني شيصبان) ، و(بني يربوع بن حنظلة) وعرفوا ببني السعلاة الى الجـن[6] . ونسب بعض الأخباريين نسب بلقيس وذي القرنين الى الجن[7] . وذكر أيضاً أن زوج (عمرو بن يربوع التميمي) كانت سعلاة ، أقامت مع زوجها في (بني تميم) : فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالى ، حنت وطارت اليهم ، فقال شاعرهم :

---

١ الاشتقاق (ص ٨٨ وما بعدها) .
٢ اللسان (٨/٢٩) ، (نبع) .
٣ تاج العروس (١/١٩٨) ، (حب) .
٤ الاساطير العربية (٧٩) ، Reste, 154. ff.
٥ الحماسة (١/٥٦١) ، (طبعة فرايتاغ) ، بلوغ الارب (٢/٣٤٠) ، الحيوان (١/ ١٨٥ وما بعدها ، ١٨٨) ، (هارون) . Reste, S. 154.
٦ الاساطير العربية (٧٥) .
٧ بلوغ الارب (٢/٣٤٩) ، الحيوان (١/١٨٧ وما بعدها) .

رأى برقاً فأوضع فوق بكر فلا بك ما أسأل وما أغاما[1]

وفي ذلك قال (علباء بن أرقم) :

يا قاتل الله بني السعلاة عمرو بن يربوع شرار النات[2]

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع زواج الانس بالجن وبالعكس ، أي زواج الجن بالانس . وتعرض لقول من قال إن (بلقيس) كانت من امرأة جنّية . وذكر آراء النـــاس في هذا الزواج المختلط ، الذي شك في امكان انجاب نسل منه . وقال : « وقد يكون هذا الذي نسمعه من اليمانية والقحطانية ، ونقرؤه في كتب السيرة ، قص به القصاص ، وسمروا به عند الملوك »[3] . وقد كان لأهل اليمن قصص وأساطير ، بدليل مـــا نلاحظه من أن معظم رواة القصص القديم كانوا من أهل اليمن في صدر الإسلام . ويظهر أنهم حذقوا به وتفوقوا به على بقية العرب الذين نسميهم العدنانيين بسبب دخول كثير منهم في اليهوديـــة وفي النصرانية وشرائهم الكتب،وفيها قصص من قصص أهل الكتاب والأساطير القديمة، فمزجوه مع ما كان لهم من قصص وثني قديم .

وقد أطلق (الجاحظ) على قول الناس بزواج الانس بالجن وبالعكس (الزواج المركب) ، وأشار إلى قول الشاعر علباء بن أرقم :

يا قاتلَ اللهُ بني السعـــلاة عمراً وقابوساً شرار النات

انه الدليل على ان السعلاة تلد الناس . هذا سوى ما قالوا في الشق وواق واق ودُوال باي وفي الناس والنسناس[4] .

وذكر أيضاً ان أعراب بني مرة تزعم ان الجن استهوت سناناً بن أبي حارثة المريّ ، وهو والد هرم بن سنان ، لتستفحله إذ كان منجباً ، وكان سنان قد

---

١ الحيوان (١/١٨٦) ، (هارون) ، (٦/١٩٧) .

٢ الحيوان (٦/١٦١) ، اللسان (٢/٤٠٧) ، نوادر أبي زيد (١٠٤ ، ١٤٧) ، المخصص (٣/٢٦) (١٣/٢٨٣) ، الامالي ، للقالي (٢/٦٨) ، محاضرات الراغب (٢/٢٨١) ، الخصائص (٤٥١) ، الفصول والغايات (٢١٠) .

٣ كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/٣٧١) .

٤ كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/٣٧٤) ، الحيوان (١/١٨٩) ، (هارون) .

هام على وجهه[1] .

وقد وجه الانسان جميع مواهبه منذ أقدم ايامه لتسخير عالم الأرواح ، وجعله في خدمته وتحت تصرفه ، أو لتحويله بحسب رغباته ، وتجنب ضرره وأذاه . قام بذلك رجال الدين خاصة ، ورجال الدين بحكم اتصالهم بالآلهة وبالعالم غير المنظور ، هم خلفاء الآلهة على وجه الأرض ، وألسنة الأرواح الناطقة بين الناس . فكانوا حكاماً ورجال دين وسحرة وأطباء وعلماء ، كما قام بذلك المنجمون والسحرة والكهّان وغيرهم ممن تكهن وتحدث عن الغيب ، وأظهر ان في قدرته التأثير على حياة الانسان ونفعه وضره بالاستعانة بعالم الأرواح وبما عنده من قدرات خارقة في امكانها اختراق حجب الأسرار والتحكم في العالم الخفي لتحويله إلى صالح انسان أو إلى الاضرار به .

وليس الجاهليون بدعاً في هذه الأمور،بل كان غيرهم من الشعوب كالعبرانيين والبابليين والاغريق والرومان والمصريين والهنود وكل الشعوب الأخرى تعتقد بذلك . ولها رجال ادعوا العلم .

وقد كان الجاهليون يعلقون الحلي والجلاجل على (اللديغ) ، يفعلون ذلك لاعتقادهم انه يفيق بذلك ، فلا ينام ، ولو نام ، سرى السم في جسمه ، فمات . وذهب بعضهم إلى ان تعليق الحلي على اللديغ يبرئه من ألمه . أما إذا علق الرصاص عليه ، أو حلي به ، فانه يموت[2] .

وتقوم الجن بأعمالها بشكل غير منظور في الغالب ، لأنها أرواح . وهي قد تحذّر الانسان أو ترشده الى شيء يريده بصوت جهوري مسموع ، يقال له : الهاتف ، دون أن يرى الشخص أو الأشخاص صاحب ذلك الصوت . وهي تنبيء عن المستقبل كما تتحدث عن الماضي[3] . وقد ذكر (الجاحظ) أن « الأعراب وأشباه الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف ، بل يتعجبون ممن ردّ ذلك » . ثم قال : « قالوا:ولنقل الجن الأخبار علمَ الناس بوفاة الملوك ، والأمور المهمة ، كما تسامعوا بموت المنصور بالبصرة وفي اليوم الذي توفي فيه بقرب مكة . وهذا الباب أيضاً كثير »[4] .

---

١ المصدر نفسه (ص ٣٧٥) ، الحيوان (٧/٢٤) ، الميداني (١/٢٠٢) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٠٤) .
٣ الحيوان (٦/٢٠٢) .
٤ الحيوان (٦/٢٠٢ وما بعدها) .

والجن وان كانت من الأرواح ، أي أنها غير منظورة ، إلاّ أن في استطاعتها أن تتجسم متى شاءت . فتظهر على هيئة جسم من الأجسام . إذ أن للجن قدرة على التشكل بالشكل الذي تريده ، تظهر في صورة حيوان أو في صـــورة إنسان أو غير ذلك . ومن هنا نجد قصص مصاهرة الانسان للجن ، وظهور نسل وأسر من هذا الزواج . وفي استطاعتها أيضاً تغيير الشكل الذي ظهرت بـه بشكل آخر حيث تشاء[1] . كما ورد ذلك في قصة الشاعر (تأبط شراً) والكبش الذي حمله، بينما هو جني . ومن هنا تختلف طبيعتها عن طبيعة البشر والحيوان .

وقد تتمثل الجن في صور حيوانات مشعرة ، أي ذات شعر كثيف . فالجن عند الشعوب السامية ذات شعر كثيف ، لذلك قيل لها (سعريم) (Sa'irim) في العبرانية . وهي تختـــار الأماكن الموحشة المقفرة في الظلام ، مثل رهبان الليـــل (ليليت) (Lilith) ، وتذهب مع الحيوانات التي تنفر من الانسان مثل النعامة[2] .

وفي الأساطير الجاهلية ان البقر اذا أوردت « فلم ترد ، ضربوا الثور ليقتحم الماء ، فتقتحم البقر بعده ، ويقولون إن الجن تصدّ البقر عن الماء ، وان الشيطان يركب قرني الثور »[3] . وقد ذكرت هذه الأسطورة في أشعار جاهلية ، يظهر من نقدها ودراستها انها من آثار العقائد الجاهلية في الجن . وقد اتخذت مثلاً لمـــن ينزل عليه مكروه في سبيل إخافة غيره ، فيكون بذلك كبش الفداء . واعتقادهم ان الشيطان يركب قرني الثور ، هو الذي جعلهم يتصورون ان الثور يتقدم البقر في شرب الماء ، ذلك لأن الشيطان ركب قرنيه ، فلا تخشى الثور اذن من الجن، والشيطان أخبث أنواع الجن وأذكاها . فتخافه الجن ، وتفسح المجال للبقـــر في ورود الماء . أما ضرب الثور لتوجيهه إلى الماء ، فلأجل ان الشيطان ركب قرنيه، فبضربه وبتقدمه يتقدم الشيطان نحو الماء فتخافه الجن وتفـزع منه ، وتسمح للبقر بورود الماء ، ولهذا ضرب ، ليستفيد بذلك غيره[4] .

---

1 Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semite, p. 120.

2 Robertson, p. 120, B.C. Thompson, Semitic Magic, London, 1908, p. 57.

3 قال الاعشى :

لكالثور والجنـي يضرب وجهه	وما ذنبـه ان عافت الماء باقـــر

ولغـــيره :

انى وقتلي سليكا حـين أعقلـه	كالثور يضـــرب لما عـافت البقر

4 بلوغ الارب (٢/٣٠٣ وما بعدها) .

وأهم مواطن الجن في نظر الجاهليين ، هي المواضع الموحشة ، والأماكن المقفرة التي لا تطرق إلا نادراً والمحلات التي لا تلائم الصحة، والمقابر والأماكن المظلمة والمهجورة . ففي مثل هـذه المواطن تنزل الجن ، وتفضل الاقامة بها ، وسبب ذلك ، هو أن الانسان يخشى هذه المواضع ، ويحس بشيء من الخوف والوحشة من الدخول اليها ، فقد يتعرض فيها الى التهلكة ، فأوحى هذا الاحساس اليه أنها (مسكونة) ، وأن سكانها هم الجن . وأنهم قد يتعرضون له بسوء إن لم يعرف كيف يسلك سلوكاً طيباً معها،ولذلك صار يتحاشى ولوج هذه المواضع، لا سيما في الليالي المظلمة . واذا دخلها مضطراً ، تخيل الأشباح والأرواح وهي تلعب به كيف تشاء ، وتحوم حوله . ومن هنا ظهر عنده القصص المروي عن مواطن الجن .

وسكنت الجن المواضع المظلمة والفجوات العميقة فيها وباطن الأرض ، ولذلك قيل لها : ساكنو الأرض . كما سكنت المقابر[1] . والمقابر هي من المواضع الرئيسية المهمة المأهولة بالجن ، ولذلك يخشى كثير من الناس ارتيادها ليلاً . وهي لا بد أن تكون على هذه الصفة ، فهي مواطن الموتى ، وأرواح الموتى تطوف على القبور ، والموت نفسه شيء مخيف ، والجن أنفسها أرواح مخيفة ، فهل يوجد موضع أنسب من هذا الوضع لسكن الجن ؟

وتزعم الأعراب أن الجن سكنت (وبار) . وحمتها من كل من أرادها ؛ وهي بلاد من أخصب بلاد العرب ، وأكثرها شجراً ، وأطيبها ثمراً ، وأكثرها حباً وعنباً . فإن دنا إنسان من تلك البلاد ، متعمداً أو غالطاً ، حثوا في وجهه التراب ، فإن أبى الرجوع خبلوه ، وربما قتلوه . فليس في تلك البلاد إلا الجن، والإبل الحوشية[2] .

وقد زعم ان (يبرين) من مواطن الجن . وكانت في الأصل مواضع عاد . فلما هلكت ، سكنتها قبائل الجن . وقد روى أهل الأخبار قصصاً عنها وعن اتصالها بالانسان . وزعم بعض منهم ان (النسناس) ، هم قوم من الجن[3] .

---

١ Reste, S. 151.

٢ الحيوان (٦/٢١٥ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٤/٢٥٧) ، (نس) .

وقد ورد مثل هذه الأقوال عن مواضع أخرى كانت عامرة آهلة، ثم أقفرت، مثل الحجر موضع ديار ثمود[1] ، مما يدل على ان من اعتقادات العرب قبل الاسلام هو ان المواضع التي تصيبها الكوارث تكون بعد هلاك أصحابها مواطن للجن . ونجد مثل هذه الأساطير عند العبرانيين وعند غيرهم من الشعوب[2] .

وأشير في شعر (لبيد) الى (جن البدي) . قيل : « والبدي : البادية ، أو موضع بعينه » وقيل واد لبني عامر[3] . وأشار (النابغة) الى (جنة البقار) . وذكر ان البقار واد ، أو رملة ، أو جبل ، سكنته الجن ، فنسبت اليه[4] . وأشير إلى (جنة عبقر) في شعر (زهير) و (لبيد) و (حاتم)[5] . وعبقر أرض بالبادية كثيرة الجن ، وذكر بعضهم انها باليمن[6] ، قال لبيد :

ومن فاد من اخوانهم وبنيهم   كهول وشبان كجنة عبقر

وقال بعض العلماء : عبقر قرية يسكنها الجن فيما زعموا ، فكلما رأوا شيئاً فائقاً غريباً مما يصعب عمله ويدق أو شيئاً عظيماً في نفسه نسبوه اليها . ولهذا قالوا : العبقري للسيد الكامل من كل شيء ، وللذكي الممتاز[7] .

والمواضع المذكورة هي المواضع المفضلة المختارة لسكنى الجن . غير أن مواطن الجن غير محدودة ولا معينة ، إنها تسكن كل موضع ومكان ، حتى بيوت الناس لا تخلو منها ، بل حتى البحار والسماء لا تخلو منها كذلك ، فدولتها إذن على هذا الوصف أوسع من دولة الإنسان . وعلى من سكنت الجن بيته ألا يمسها بأذى ولا يلحق بها أي سوء ، وأن يقوم بترضيتها بالبخور وبما شاكل ذلك مما تحبه الجن ، وإلا أساءت اليه ، وجعلت بيته مؤذياً شؤماً ، لا يرى من يسكن فيه أي خير .

---

١ Reste, S. 150.
٢ Robertson, p. 120.
٣ الحيوان (١٨٩/٦) ، (هارون) .
٤ الحيوان (١٨٩/٦) ، اللسان (٤٧/٦) ، (٣٣٠/١٢) .
٥ الحيوان (١٨٩/٦) ، اللسان (٢٠٩/٦) ، البلدان (١١٣/٦) ، ثمار القلوب (١٨٨) .
٦ تاج العروس (٣٧٩/٣) ، (عبقر) ، اللسان (٥٣٤/٤) .
٧ تاج العروس (/٣٧٩) ، (عبقر) .

وكان الرجل في الجاهلية إذا اطّرف داراً ذبح فيها ذبيحة ، يتقي بهـا أذى الجن ، لاعتقادهم ان في كل دار جنّاً يقيمون بها فلترضيتهم وللتقرب اليهـم ، يذبحون ذبيحة عرفت عندهم بـ (ذبائح الجن)[1] . ولا تزال عادة الناس ذبح ذبيحة عند الابتداء ببناء دار ، وعند الانتقال اليها . وكانوا أيضاً يذبحون ذبيحة عند استخراجهم عيناً ، أو شرائهم داراً ، أو بنيانهم بنياناً ، مخافة أن تصيبهم الجن ، فأضيفت الذبائح اليهم لذلك . وقد نهى النبي عن ذبائح الجن[2] .

وكان في اعتقادهم ان الأماكن المذكورة مليئة بالجن ، لذلك كانوا يستجيرون برجال من الجن في أسفارهم ، اذا نزلوا منازلهم ، يقولون : نعوذ بأعز أهـل هذا المكان ، أو اني أعوذ بكبير هذا الوادي . والى ذلك أشير في القرآن الكريم : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً »[3]. روي عن (حجاج بن علاط السلمي) ، « انه قدم مكـة في ركب فأجنهم الليـل بواد مخوف موحش ، فقال له الركب : قم خذ لنفسك أماناً ولأصحابك، فجعل يطوف بالركب ويقول :

أعيـذ نفسي وأعيذ صحبي من كل جني بهـذا النقب
حتى أأوب سالماً وركبي »[4]

فوصل وركبه سالمـاً الى مكة دون أن يمسه أو أن يمس من كان معه من الركب أحد بسوء[5] .

وروي أن الرجل منهم كان إذا ركب مفازة وخاف عـلى نفسه من طوارق الليل عمد الى واد ذي شجر فأناخ راحلته في قرارته وهي القاع المستديرة وعقلها وخطّ عليهـا خطاً ثم قال : « أعوذ بصاحب هذا الوادي . وربما قال بعظيم هذا الوادي »[6] . قال أحدهم :

---

١ اللسان (٢١٣/١٣) ، (سكن) .
٢ اللسان (٤٣٧/٢) ، (ذبح) .
٣ سورة الجن ، رقم ٧٢ ، الآية ٦ ، تفسير الطبري (٦٧/٢٩ وما بعدها) .
٤ الروض الانف (١٣٦/١) .
٥ الروض الانف (١٣٦/١) ، الاصابة (٣١٢/١) ، (١٦٢٢) .
٦ بلوغ الارب (٣٢٥/٢) .

قد بتُّ ضيفاً لعظيم الوادي المـانعي من سطوة الأعادي
راحلتي في جاره وزادي[1]

وقالوا إنهم كانوا في الجاهلية إذا نزلوا منزلاً يقولون : نعوذ بأعز أهل هذا المكان . يقولون ذلك عند نزولهم وادياً في الغالب،إذ نجد الرواة يكررون عبارة: « كانوا إذا نزلوا الوادي ، قالوا : نعوذ بسيد هـذا الوادي » ، أو « بعزيز هذا الوادي »[2] . ويظهر أنهم تخوفوا من الوديان خاصة ، لما قـد يقع فيها من مهالك ، فنسبوا ذلك الى فعل الجن .

وقال آخر يستجير بجن (عالج) ويتوسل اليهـم ألا يرهقوه بغويّ هائج ، إذ يقول :

يا جن أجزاء اللوى من عالج عاذ بكم ساري الظلام الدالج
لا ترهقوه بغويّ هائج

وقال آخر :

أعوذ من شر البلاد البيد بسيّـد معظـم مجيـد
أصبـح يأوي بلوى زرود ذي عـزة وكاهـل شديد

وقد استعاذ رجل منهم ومعه ولد ، فأكله الأسد فقال :

قـد استعذنا بعظيم الوادي من شر ما فيه من الأعادي
فلم يجرنا من هزبر عادي[3]

وذكر أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يرون أن الجن تعزف في المفاوز بالليل. والعزف والعزيف صوت الجن ، وهو جرس يسمع بالمفاوز . وهو صوت يسمع بالليل كالطبل . وروي عن (ابن عباس) قوله : « كانت الجن تعزف بالليـل كله بين الصفا والمروة »[4] . وقد اشتهر موضع (العزاف) ، وقيـل (ابرق

---

١ بلوغ الارب (٢/٣٢٦) .
٢ تفسير الطبري (٢٩/٦٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٢٦) .
٤ تاج العروس (٦/١٩٧) ، (عزف) .

العزاف) بأنه موضع يسمع به عزيف الجن[1] .

وقد موّن القصص الاسرائيلي أهل الجاهلية بشيء مما كان ينقصهم من أساطير الجن ، وتوسع وزاد هذا القصص في الاسلام ، حتّى تولد منه هـذا الذي نجده مدوناً عن أخبار الجن في المؤلفات الاسلامية .

وتخبر الجن الانسانَ بحوادث تقع في مواضع بعيدة ، وهو لا يعلم عنها شيئاً . فلما هبط (نباش بن زرارة بن وقدان) ، زوج (خديجة بنت خويلد) قبل النبي ، وادياً يقال له (عز) ، انتبه في آخر الليل ، فاذا شيخ قائم على صخرة ، وهو يقول :

ألا هلك السيّال غيث بني فهر   وذو العز والباع القديم وذو الفخر

فقال له نباش :

ألا أيها الناعي أخا الجود والفخر   من المرء تنعاه لنا من بني فهر

وبقيا يقولان الأبيات ، حتّى أخبره الشيـــخ بوفاة (عبدالله بن جدعان) في وقت حدده وضبطه له . فلما وصل مكة ، علم بوفاته على نحو ما أخبره به ذلك الشيخ . وهو جني من الجن ، ينظم الشعر ، وقد رثى (ابن جدعان)[2] .

ونجد في شعر الشعراء الجاهليين أمثال (أمية بن أبي الصلت) و (الأعشى) إشارات الى الجن . وهم من أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال بأهـــل الكتاب وبكتبهم ، وقد زعم أن بعضاً منهم كان قد قرأ تلك الكتب ووقف على العبرانية أو السريانية . ولهذا ورد في شعرهم شيء من قصص أهل الكتاب . وفي جملته ما ذكرته من اشاراتهم الى الجن . وتراهم يربطون بينها وبين (سليمان) . أخذوا ذلك ولا شك من الأساطير العبرانية ، التي صيّرت الجن في خدمة (سليمان) . نجد الأعشى يقول :

وسخّر من جن الملائك تسعة   قياماً لديه يعملون محـــاربا

---

١ تاج العروس (١٩٧/٦ ، ٢٨٧) ، (برق) .
٢ الاشتقاق (٨٨ وما بعدها) .

قصد بذلك (سليمان)[1] . ونجد أن في جملة ما نسب عمله الى جن سليمان بعض المواضع مثل تدمر وقصر غمدان .

وقال النابغة الذبياني :

إلا سليمان إذ قال الإلَه له قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيِّس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد
فمن عصاك فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد[2]

وفي هذا الشعر إن صح أنه من نظم النابغة حقاً ، دلالة على تأثر الشاعر بالأسطورة اليهودية عن (تامار) ، وعن جن سليمان .

ونسبوا السيوف المأثورة الى جن وشياطين (سليمان) . ونسبوا اليه واليهم أشياء عديدة أخرى[3] .

وقد ادعى اناس من الجاهليين انهم كانوا يرون الغيلان والجن ، ويسمعون عزيف الجان ، أي صوت الجن . وقد بالغ الأعراب في ذلك ، وأغربوا في قصص الجان ، لما كانوا يتوهمونه من ظهور الأشباح لهم في تجوالهم بالفيافي المقفرة الخالية ، فتصوروه جناً وغولاً وسعالى ، وبالغوا في ذلك أيضاً ، لما وجدوه في أهل الحضر ولا سيما في الاسلام من ميل إلى سماع قصص الجان والسعالى والغول[4] . وقالوا انهم ربما نزلوا بجمع كثير ، ورأوا خياماً ، وقباباً ، وناساً ، ثم اذا بهم يفقدونهم من ساعتهم ، وذلك لأنهم من الجن[5] .

ونسبوا إلى الجن إحداث كثير من الأمور غير الطبيعية ، مثل الأمراض والأوبئة والصرع والاستهواء والجنون خاصة . فالجنون هو تلبس الجن بالانسان ودخولهم جسمه . لذلك ربطوا بين الجن والجنون . ويرى (نولدكه) ان فكرة أن الجنون من عمل الجن ، عقيدة قديمة وجدت عند غير العرب كذلك . فقد كان الايرانيون

---

١ تاج العروس (١٦٥/٩) ، (جن) .
وسخر من جن الملائك تسعة قياما لديه يعملون بلا أجر
اللسان (٩٧/١٣) ، (جن) .
٢ الحيوان (٢٢٣/٦) .
٣ الحيوان (١٨٧/٦) .
٤ الحيوان (١٧٢/٦ وما بعدها ، ١٨٢) .
٥ الحيوان (٢٠٠/٦) ، (هارون) .

يطلقون على المجنون لفظة (ديوانه) (Devana) ، أي الذي به (ديو) (Dev) من الأصل (ديوه) (Daiva) ، ومعناها (Demon) أي جان . ومن هذه الفكرة دخلت في العهد الجديد من الكتاب المقدس . ومن الفارسية دخلت (ديوان) (Daiwan) في الإرمية بينما دخلت إلى الفارسية كلمة (شدها) (Shedha) من أصل (شدهان) (Shedhan) الإرمي واستعملت في مقابل (Deo) أي جان . و (شيده) (Shedh) في الإرمية الجان[1] .

وهم يزعمون أن الجن اذا عشقت انساناً صرعته ، ويكون ذلك على طريق العشق والهوى ، وشهوة النكاح . وأن الشيطان يعشق المرآة ، وان نظرته اليها من طريق العجب بها أشد عليها من حُمى أيام ، وان عين الجان أشد من عين الانسان[2] .

والعرب تزعم أن الطاعون من الجن ، ويسمون الطاعون رماح الجن . قال الأسدي للحارث الملك الغساني :

لعمرك ما خشيت على أُبيٍّ رِماح بني مقيّدة الحمار
ولكني خشيت على أُبيٍّ رِماح الجن أو إياك حار[3]

وللجنّ حوار مع الإنس وكلام نجده منثوراً كما نجده منظوماً في شعر ينسب الى الشعراء الجاهليين . ويروي الأخباريون شعراً ينسبونه الى (جذع بن سنان) ورد فيه وصف ملاقاته للجن ومحاورته معها ودعوته إياها الى الطعام وامتناعها عن الأكل ، كما رووا شعراً لغيره يصف ملاقاة بين الجن وبين أصحاب هذا الشعر[4] . وهو قصص لم يبخل على الجن فأعطاها شعراً من هذا الشعر الجاهلي الفصيح ! وقد سخر (الحيتعور) أحد (بني الشيصبان) من الجن من الأشعار التي جمعها (المرزباني) (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) ، من شعر الشعراء الجن ، فما هذا الذي جمعه إلا قطعة من شعرهم ، وهل يعرف البشر من النظم كما يعرف الجن .

---

١ Ency. Relig., I, p. 670.

٢ الحيوان (٦/٢١٧ وما بعدها) .

٣ الحيوان (٦/٢١٩) .

٤ بلوغ الارب (٢/٣٥٠ وما بعدها) .

وانما للبشر خمسة عشر جنساً من الموزون ، قل ما يعدّوها القائلون ، وإن للجن آلاف الأوزان ما سمع بها الإنس[1] .

طعام الجن :

وطعام الجن مثل طعام الانسان ، وهم يشاركونه أكلــه في بعض الأحيان . « رووا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، انه سأل المفقود الـــذي استهوته الجن : ما كان طعامهم ؟ قال : الفول . قال : فمـــا كان شرابهم ؟ قال : الجدف . ورووا ان طعامهم الرمة وما لم يذكر اسم الله عليه »[2] . وقد جاء قوم من الجن الى نار (شمر بن الحارث الضبّي) ، فدعاهم الى الطعام بقوله :

أتوا ناري فقلت منون قالوا   سراة الجن قلت عموا ظلاما
فقلت إلى الطعام فقال منهم   زعيم نحسد الإنس الطعاما[3]

والحوشي من الإبل هي التي قد ضربت فيها فحول إبل الجن . فالحوشية من نسل إبل الجن[4] . ويقال انها منسوبـة إلى (الحوش) بلاد الجن من وراء رمل يبرين ، لا يمر بها أحد من الناس ، وقيـل هم من بلاد الجن . وقيل الحوشية إبل الجن ، أو منسوبة الى الحوش وهي فحول جن ، تزعم العرب انها ضربت في نعم (بني مهرة بن حيدان) فنتجت النجائب المهرية من تلك الفحول الوحشية ، فنسبت اليها ، فهي لا يكاد يدركها التعب[5] .

الحية :

والحية ، من أكثر الحيوانات وروداً في القصص الـذي يرويه الأخباريون عن الجن . وقد جعلوها فصيلة مهمة من فصائلها ، ونوعاً بارزاً من أنواعهـا . قال

---

١ رسالة الغفران (٢٩١) ، (بنت الشاطىء) .
٢ الحيوان (٦/ ٢١٠ وما بعدها) .
٣ الحيوان (٦/١٩٧) .
٤ الحيوان (٦/٢١٦) .
٥ الحيوان (٤/٣٠٢) ، (حاش) .

بعض العلماء : الجان ، حيّة بيضاء ، وقال بعض آخر : الجان حيّة ، أو ضرب من الحيّات[1] . ولما قام (حرب بن أمية) جد معاوية بن أبي سفيان مع (مرداس ابن أبي عمرو) باصلاح (القرية) ، وهي إذ ذاك غيضة شجر ملتف لا يرام، فأضرما النار في الغيضة ، فلما استطارت وعلا لهيبها سمع من الغيضة أنين وضجيج كبير ، ثم ظهرت منها حيات بيض تطير حتى قطعتها وخرجت منها ، فما لبث أن مات الرجلان ، أماتهما الجن على ما يزعمه رواة هذا الخبر[2] . ولعلهما ماتا بعضة حية من تلك الحيات التي كانت ساكنة بين تلك الأعشاب وقد هاجتها تلك النيران . ومثل هذه المواضع تكون موئلاً للحيات والحشرات ، فابتدعت مخيلة القصاصين هذه القصة عن فزع الجن وطيرانها في صورة ثعابين بيض . ويعلل (نولدكه) وفاتهما بفعل الاختناق من الغاز الذي تصاعد من الاحتراق[3].

وذكروا أن الحيّة لا تموت حتف أنفها ، وإنما تموت بعرض يعرض لها . وانها تصبر على الجوع حتى ضرب بها المثل في ذلك . وانها اذا هرمت صغرت في بدنها . ولم تشته الطعام[4] . وانها تنطق وتسمع . وقد أورد أهل الأخبار شعراً في ذلك ، ذكروا أنه للنابغة . ومذهب النابغة في الحيات مذهب أمية بن أبي الصلت ، وعدي بن زيد وغيرهما من الشعراء[5] ، الذين تأثروا برأي أهل الكتاب فيما جاء عن الحية في العهدين وفي كتب الشروح والتفاسير والقصص الاسرائيلي القديم .

ولم تنفرد مخيلة الجاهليين وحدها باختراع اسطورة ان الحيات هي من الجن ، وانها جنس منها ، فان غير العرب من الساميين مثل العبرانيين كانوا يقولون أيضاً بهذا القول . وكذلك قال بهذه الأسطورة غير الساميين ، مما يدل على انه من الأساطير القديمة جداً التي انتشرت عند البشر ، بسبب ما قاسوه في ايام بداوتهم من هذا الحيوان[6] . ونجد قصة الحية في سفر التكوين . وهي في هذا السفر أشد

---

١ تاج العروس (١٦٥/٩) ، (جن) .

٢ الحيوان (١٤٣/٢) ، (حاشية) ، Robertson, p. 233.

٣ Ency. Religi., I, p. 670.

٤ الحيوان (١١٨/٤ وما بعدها) ، (موت الحية) .

٥ الحيوان (٢٠٣/٤ وما بعدها) .

٦ Ency. Religi., I, p. 669.

الحيوانات حيلة ، فهي التي خدعت حواء خدعتها الشهيرة ، وسببت طردها وطرد زوجها آدم من الجنة الى الأرض[1] .

ولعقيدتهم هذه في (الحية) ، كانوا اذا وجدوا حية ميتة كفنوها ودفنوها ، فعلوا ذلك في الاسلام أيضاً . جاء انه بينما كان (عمر بن عبد العزيز) يمشي في أرض فلاة ، فاذا حية ميتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها . وورد انه كان جمع من أصحاب رسول الله « يمشون فرفع لهم اعصار ، ثم جاء اعصار أعظم منه ، ثم انقشع ، فاذا حية قتيل ، فعمد رجل منا الى ردائه وكفن الحية ببعضه ودفنها . فلما جن الليل اذا امرأتان تتساءلان أيكم دفن عمرو بن جابر ؟ فقلنا ما ندري ما عمرو بن جابر ! فقالتا إن كنتم ابتغيتم الأجر ، فقد وجدتموه . إن فسقة الجن اقتتلوا مع المؤمنين منهم . فقتل عمرو ، وهو الحية التي رأيتم »[2] .

« وفي الحديث : انه نهى عن قتل الجنان . هي الحيات التي تكون في البيوت ، واحدها جان ، وهو الدقيق الخفيف »[3] . والجان الشيطان أيضاً . وورد في الحديث : ذكر الحيات ، فقال : من خشي خبثهن وشرهن وارَبهن ، فليس منا . أي من توقى قتلهن خشية شرهن فليس ذلك من سنتنا . وكانت الجاهلية تقول انها تؤذي قاتلها أو تصيبه بخبل[4] .

وذكر العلماء أن (اللاهة) الحية ، أو الحية العظيمة . وأن (اللات) ، الصنم المعروف أصله (لاهة) كأنه سمي بها . وان اسم الجلالة منها[5] . وفي الأساطير الجاهلية ما يفيد تعبد الجاهليين للحية ، وفي هذا التفسير ما يؤيد هذا الرأي .

ويقال للحية : (بنت طبق) . و (بنات طبق) الحيات ، والحية (أم طبق) وبنت طبق . وهي (الدواهي) . ومن أساطيرهم أن بنت طبق سلحفاة تبيض تسعاً وتسعين بيضة كلها سلاحف ، وتبيض بيضة تنقف عن حية[6] .

والحيات شياطين ، وللعرب شجر يطلقون عليه (الصوم) ، كريه المنظر

---

١ السفر الثالث من التكوين ، الآية ١ وما بعدها .
٢ الروض الانف (١/١٣٦) .
٣ اللسان (١٣/٩٥) ، (جنن) .
٤ تاج العروس (١/١٤٥) ، (أدب) .
٥ تاج العروس (٩/٤١٠) ، (لاه) .
٦ تاج العروس (٦/٤١٥) ، (طبق) .

جداً ، يقال لثمره (رؤوس الشياطين) أي الحيات . وليس له ورق[1]

الغول :

وقصص الغول هي من أشهر القصص الجاهلي المذكور عن الجن ، ومع خطر الغول وشراسته في رأي الجاهليين ، ورد في قصصهم تزوج رجال من الإنس منهم . وورد ان الشاعر (تأبط شراً) تعرض بغيلة . فلما امتنعت عليه ، جللها بالسيف فقتلها . وهم يروون ان من الممكن قتل الغول بضربة سيف . أما اذا ضربت مرة ثانية ، فانها تعيش ولو من ألف ضربة. وهكذا ترى قصصهم يروي تغلب الانسان على الغيلة في بعض الأحيان . وأكثر قصص الغول منسوب الى (تأبط شراً)[2] . وللقب الذي يحمله هذا الشاعر أو حمل عليه دخل ، ولا شك، في ظهور هذا القصص .

ويرى علماء اللغة أن من معاني (الغول) التلون ، والظهور بصور مختلفة ، والاغتيال . ويرون أن الغول أنثى ، وأما ذكرها فيسمى (قطرباً)[3] . ولصفة التلون والظهور بصور مختلفة سموا الغول (حيتموراً) ، وهو كل شيء لا يدوم على حالة واحدة ، ويضمحل كالسراب[4] . وذكر في وصف غدرها بالإنسان أنها اذا أرادت أن تضل إنساناً أوقدت له ناراً ، فيقصدها ، فتدنوا منه، وتتمثل له في صور مختلفة ، فتهلكه روعاً ، وان خلقتها خلقة إنسان ، ورجلاها رجلا حمار[5] .

وذكروا ان الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسُفّار ، ويتلون في ضروب الصور والثياب ، ذكراً كان أو أنثى . وقد قال (كعب بن زهير) الشاعر الصحابي ، الذي مدح الرسول ، في وصف تلون الغول :

---

١ تاج العروس (٣٧٢/٨) ، (صام) .
٢ بلوغ الارب (٣٤١/٢ وما بعدها) ، الاغاني (٢٠٩/١٨ وما بعدها) ، الحيوان (٢٣٣/٦ ، ٢٣٥) .
٣ بلوغ الارب (٣٤٦/٢ وما بعدها) ، الحيوان (٤٨/٦) ، تاج العروس (٥١/٨) ، (غال) .
٤ بلوغ الارب (٣٤٧/٢) .
٥ بلوغ الارب (٣٤٨/٢) ، الحيوان (٢١٤/٦) .

فما تدوم على حالٍ تكون بها   كما تلوّن في أثوابها الغول[1]

وفي تلوّن الغول يقول (عباس بن مرداس السلمي) :

أصابت العامَ رِعْلاً غول قومهم   وسط البيوت ولون الغول ألوان[2]

فالغول تتحول في أي صورة شاءت ، وتتمثل في صور مختلفة ، إلا رجليها ، فلا بد من ان تكونا رجلي حمار[3] .

وذكر ان (الغول) (السعلاة) ، وهما مترادفان ، وذكر ان الغيلان جنس من الجن والشياطين ، والعرب تسمي الحية الغول . وقيل ان (أنياب أغوال) الواردة في شعر لامرىء القيس ، الحيات ، وقيل : الشياطين[4] .

وإلى الشاعر (عبيد بن أيوب) شاعر (بني العنبر) ، يعود قسط كبير من القصص الوارد عن (الغول) و (السعلاة) . فقد كان يخبر في شعره انه يرافق الغول والسعلاة ، ويبايت الذئاب والأفاعي ، ويؤاكل الظباء والوحش. وقد أورد أهل الأخبار شيئاً من شعره في هذا الباب[5] . وذكر بعض علماء اللغة ، ان الغول الذكر من الجن ، والسعلاة الأنثى. والغول ساحرة الجن ، وتقول إن الغول يتراءى في الفلاة للناس فتضلهم عن الطريق[6] .

واما (السعالي) ، وواحدتها السعلاة ، فذكر أنها سَحَرَة الجن ، وقيل : إن الغيلان جنس منها ، وان الغيلان هي إناث الشياطين ، وأنها – أي السعالي – أخبث الغيلان ، وأكثر وجودها في الغياض ، وانها إذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر ،وان الذئب يأكل السعلاة[7] . وذكر ان (السعلاة) اسم الواحدة من نساء الجن إذا لم تتغول لتفتن السفّار . وهم إذا رأوا المرأة

---

١ الحيوان (١٥٨/٦ وما بعدها) .
٢ الحيوان (١٦١/٦) .
٣ الحيوان (٢٢٠/٦) .
٤ تاج (٥١/٨) ، (غال) .
٥ الحيوان (٤٨٢/٤) ، (هارون) ، (١٢٣/٥ ، ١٣٨ ، ٢٤١) ، (١٢٨/٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٣٥ ، ٢٥١ ، ٣٩٥) .
٦ تاج العروس (٥١/٨) ، (غال) .
٧ بلوغ الارب (٣٤٦/٢ وما بعدها) .

حديدة الطرف والذهن ، سريعة الحركة ممشوقة ممحصة ، قالوا : سعلاة . وقال الأعشى :

ورجالٍ قتلى بجنبي أريك ونساءٍ كأنهـن السعالى [1]

وذكر أن في الجن سحرة كسحرة الانس لهم تلبيس وتخييل ، وهم السعالى . وهم أقدر من الغيلان في هذا الباب [2] .

الشيطان :

والشيطان هو (Satan) في الانكليزية ، و (Diabolos) في الإغريقية . ويرجع علماء اللغة كلمة (الشيطان) الى أصل (شطن) ، ويقولون إن من معاني هذه الكلمة الخبث ، ولما كان الشيطان خبيثاً قيل له (شيطان) ومعنى ذلك ان فكرة خبث الشيطان كانت معروفة لصاحبها قبل التسمية [3] . فلما بحث عن لفظة مناسبة لها ، اختاروا هذه الكلمة التي تدل على الخبث . وهو تعليل مـن تلك التعليلات المعروفة المألوفة الـتي كان يرجع اليها علماء اللغة كلما أعياهم الوصول الى أصول الأشياء .

و (الشيطان) (ساطان) (سطن) في العبرانية ، ومعناه : عدو ومشتك في هذه اللغة [4] . ومن هذه اللغة جاءت لفظة (Satan) في الانكليزية .

وذكر (الطبري) : « والشيطان في كلام العرب كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء »[5] . ثم قال : « وانما سمي المتمرد من كـل شيء شيطاناً لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله وبعده من الخير . وقد قيل انه أخذ من قول القائل شطنت داري من دارك ، يريد بذلك بعـدت . ومن ذلك قول نابغة بني ذبيان :

نأت بسعادٍ عنك نوى شطون فبانت والفؤاد بها رهين

---

١ الحيوان (١٥٨/٦ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣٧٥/٧ وما بعدها) ، (سعل) .
٣ اللسان (١٠٤/١٧) ، (سطن) ، الحيوان (١٥٣/١ ، ٢٩١) .
٤ غرائب اللغة (٢١٢) .
٥ تفسير الطبري (٣٧/١ وما بعدها) .

والنوى الوجه الذي نوته وقصدته ، والشطون البعيد . فكأن الشيطان على هذا التأويل شطن . ومما يدل على ذلك كذلك ، قول أمية بن أبي الصلت :

أيما شاطن عصاه عكاه ثم يلقى في السجن والأكبال

ولم ترد لفظة (الشيطان) في شعر الشعراء الجاهليين ، خلا شعر (أمية بن أبي الصلت) و (عدي بن زيد العبادي) . والأول شاعر وقف،على ما يظهر من شعره ، علي شيء من اليهودية والنصرانية . وأما الثاني ، فهو نصراني ، لذلك يجوز لنا ان نرجع علمها بالشيطان الى ما جاء في اليهودية والنصرانية عنه ، ولذلك نستطيع ان نقول ان هذه اللفظة جاءت العرب عن طريق أهل الكتاب .

وذكر علماء اللغة ، أن (الأزب) اسم من أسماء الشياطين ، وذكروا أن (الأزب) شيطان اسمه أزب العقبة ، وقيل هو حية [1] . وأن من أسماء الشيطان: (الحُباب) . ويقع على الحية أيضاً ، لأن الحية يقال لها شيطان ، وفي حديث : « الحباب شيطان » [2] . وذكروا أن من أسماء الشيطان (الطاغوت) [3] .

ومن الشياطين ، شيطان اسمه (زوبعة) ، وقيل هو رئيس للجن . ومنه سمي الإعصار زوبعة ، ويقال أم زوبعة وأبو زوبعة وهو الذي يثير الاعصار ، حين يدور على نفسه ، ثم يرتفع في السماء ساطعاً كأنه عمود [4] .

وأما ما ورد في القصص عن الشياطين عند الجاهليين ، فهو يختلف عما جاء عن الشيطان في الكتب اليهودية والنصرانية ، مما يدل على أن منبعه منبع آخر ، وان (الشيطان) عند الجاهليين ، هو غير الشيطان المعروف عند اليهود والنصارى، الذي دخل الى العرب قبيل الإسلام وفي الإسلام .

ومن القصص المذكورة ، استمد بعض الجاهليين قصصهم عن ذكاء الشيطان وعن حيله . ومن هذا القصص ولا شك استعمل الناس مصطلح (تشيطن) و (الشيطنة) بمعنى الذكاء والحيلة ، لما رسخ في ذهنهم من ذلك القصص عن ذكاء الشيطان وسعة حيله وتلاعبه بأذكى البشر . وهو في التوراة ذو طبع شرير،

---

١ تاج العروس (١/١٤٧) ، (أزب) ، (١/٢٨٤) ، (زبب) .
٢ اللسان (١/٢٩٥) ، (حبب) .
٣ تفسير الطبري (١٤/٧١) ، (٢٣/١٣١ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٥/٣٦٧) ، (تزبع) .

وزعيم العصاة لأوامر الله ، يضل الناس ويسلك بهم سبل الخطيئة ، ولذلك تعوذوا منه [1] .

ومن القصص المذكور استمد أيضاً علماء اللغة ما ذكروه من ان كلمة (الشيطان) تعني الحية [2] ، ففي ذلك القصص ظهور الشيطان على صورة (حية) خدعت أبوينا آدم وحواء في الجنة . وتمثّل هذا القصص في الأدبين العبراني والنصراني . وسبب ذلك هو ما علق بأذهان العبرانيين من مكر الحيات ودهائها وخبثها وميلها الى الشر ، وما علق بذهنهم عن هذه الصورة في الشيطان . والحية هي عند أكثر الشرقيين رمز يشير الى الثورة والعصيان والشر . وهذه الفكرة هي من أسطورة شرقية قديمة عن سقوط البشرية في الشر ، وتتمثل في سقوط آدم وحواء وطردهما لذلك من الجنة ، وفي تعاليم زرادشت من ان الشرير ظهر في هيأة حية ، وأخذ يعلم الناس الشر [3] .

وزعم ان (شيطان الحماطة) الحية [4] . وورد (شيطان حماط) . ولعل ذلك بسبب لجوء الحيات الى الحماط ، والحماطة شجرة شبيهة بالتين ، وهي أحب الشجر الى الحيات ، إذ تألفها كثيراً [5] . وفي هذا المعنى ورد في قول الشاعر :

تلاعِبُ مثنى حضرمي كأنه   تعمج شيطان بذي خروع قفر [6]

والتعمج التلوي . والمراد هنا تلوي شيطان بمكان قفر نبت فيه الخروع. وقصد بالشيطان الحية .

وقد وصف الشيطان بالقبح ، فإذا أريد تعنيف شخص وتقبيحه ، قيل له : « يا وجه الشيطان » وما هو إلا شيطان ، يريدون بذلك القبح ، وذلك على سبيل تمثيل قبحه بقبح الشيطان . وقيل : الشيطان حية ذو عرف قبيح الخلقة [7] .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١/٦٥١) .

٢ اللسان (١٧/١٠٤) ، تاج العروس (٩/٢٥٣) ، (شطن) ، (والعرب تسمى كل حية شيطانا) ، الحيوان (١/٣٠٠) .

٣ قاموس الكتاب المقدس (١/٤٠٠) ، Hastings, p. 829.

٤ الحيوان (٦/١٩٢) .

٥ تاج العروس (٥/١٢١) ، (حمط) .

٦ الحيوان (١/١٥٣) ، (٦/١٩٢) .

٧ الفاخر (ص ٢٣٨) ، الحيوان (١/٣٠٠) ، تاج العروس (٩/٢٥٣) ، (شطن) .

وقيل إنه كان حية زعم أنها تأتي حول البيت ، فلا يطوف أحد . ولما شرعوا ببناء الكعبة في أيام شباب الرسول، جاء طير فالتقط الحية[1] . ولقبح وجه الشيطان، قالوا للذي به لقوة أو شتر ، إذا سب : يا لطيم الشيطان . وقالوا للمتكبر الضخم : ظل الشيطان[2] . وكانوا إذا أرادوا ضرب مثل بقبح انسان قالوا : لهو أقبح من الشيطان[3] . وقالوا لشجرة تكون ببلاد اليمن، لها مظهر كريه (رؤوس الشياطين)[4] . وبهذا المعنى فسرت (رؤوس الشياطين) في الآية : « إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم : طلعها كأنه رؤوس الشياطين »[5] . « يقول تعالى ذكره كأن طلع هذه الشجرة ، يعني شجرة الزقوم في قبحه وسماجته رؤوس الشياطين في قبحها » ، « وذلك أن استعمال الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغة في تقبيح الشيء ، قال : كأنه شيطان ، فذلك أحد الأقوال . والثاني أن يكون مثل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطاناً . وهي حية له عرف فيما ذكر ، قبيح الوجه والمنظر ، وإياه عنى الراجز ، بقوله :

عنجرد تحلف حين أحلف كمثل شيطان الحماط أعرف

ويروي عجيز : « والثالث ان يكون مثل نبت معروف برؤوس الشياطين ، ذكر انه قبيح الرأس »[6] . ويظهر ان العرب في الجاهلية ، كانوا يطلقون (رؤوس الشياطين) على شجر كريه المنظر جداً ، قال علماء اللغة : « والصوم : شجر على شكل شخص الانسان كريه المنظر جداً ، يقال لثمره رؤوس الشياطين ، يعني بالشياطين الحيات ، وليس له ورق »[7] . وقد جمع هذا التفسير بين الشياطين والحيات والقبح . ويمثل الصورة التي رسمها الناس في مخيلتهم للشياطين .

وكانت الشعراء تزعم ان الشياطين تلقى على أفواهها الشعر ، وتلقنها اياه

---

١ الفاخر (ص ٢٣٨) .
٢ الحيوان (١٧٨/٦) .
٣ الحيوان (٢١٣/٦) .
٤ الحيوان (٢١١/٦) ، (٣٩/٤ وما بعدها) .
٥ الصافات ، ٣٧ ، الآية ٦٣ وما بعدها .
٦ تفسير الطبري (٤٠/٢٣ وما بعدها) .
٧ اللسان (٣٥١/١٢ وما بعدها) ، (صوم) .

وتعينها عليه ، وتدعي ان الكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه ، فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود . وبلغ من تحقيقهم وتصديقهم بهذا الشأن ان ذكروا لهم أسماء شياطينهم ، فقالوا : إن اسم شيطان الأعشى مسحل ، وللأعشى أشعار فيه ، يمدحه ويثني عليه ، لأنه يعاونه ويساعده في نظم الشعر فيلقيه عليه إلقاءً . وقد زعم (حسان بن ثابت) ان شيطانه الذي يلهمه الشعر هو من (بني شيصبان) من فصائل الجن . وقد انتقلت هذه العقيدة في إلهام الشعر للشعراء إلى المسلمين كذلك . وقد دعا (جرير) شيطانه الذي يلقي عليه الشعر (ابليس الأباليس)[1] .

ويكنى عن الشيطان بالشيخ النجدي[2] . وقد أشير اليه مراراً في كتب السير والأخبار . أشير اليه في بنيان الكعبة ، حين حكموا رسول الله في أمر الركن من يرفعه، فحضر في زي شيخ نجدي بين الحاضرين ، وصاح : يا معشر قريش أرضيتم أن يليه هذا الغلام دون أشرافكم وذوي أسنانكم ، وحضر اجتماع (دار الندوة) . وأيد قرارهم في قتله . وذكر علماء الأخبار ، أنه عرف بالشيخ النجدي ، لأنه تمثل نجدياً ، وقيل لأن نجداً يطلع منها (قرن الشيطان) ورووا أحاديث تذكر ذلك ، وتذكر أن الفتن تخرج من المشرق ، والمشرق نجد بالنسبة لأهل الحجاز [3] .

و (قرن الشيطان) ، ناحية رأسه ، ومنه الحديث : تطلع الشمس بين قرني الشيطان ، فإذا طلعت قارنها ، وإذا ارتفعت فارقها [4] . وفي الأساطير أن للشيطان قرنين .

وكان الكهان يستعينون بالشياطين في الإخبار عن المعيبات،يذكرون أن الشياطين يسترقون السمع من السماء ، فيخبرونهم عن أنباء الأرض . وكان للكاهن (صاف

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٦٩ وما بعدها) ، قال الاعشى :

دعوت خليلي مسحلا ودعوا له ... جهنام جدعا للهجين المدمم

وقال :

حباني أخي الجنى نفسى فداؤه ... بأقبح جياش العشيات مرجم

الحيوان (٦/٢٢٥ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٢/٥١٢) ، (نجد) .

٣ الروض الانف (١/٢٩١) .

٤ تاج العروس (٩/٣٠٦) ، (قرن) .

ابن صياد) شيطان يلقي اليه بما خفي من أخبـــار الأرض ، وذكر أن النجوم تقذف الشياطين،وأن الجاهليين كانوا يرون ذلك ، وهو موجود في أشعار القدماء من الجاهلية ، منهم عوف بن الجزع ، وأوس بن حجر ، وبشر بن أبي خازم وكلهم جاهلي ، وقد وصفوا الرمي بالنجوم[1] .

و (ابليس) من هذه الأفكار التي نفذت الى العرب عن طريق أهل الكتاب ، والعلماء على ان الكلمة معربة ، وهي كذلك[2] . فأصلها (ديابولس) « Diabolos » وهي كلمة يونانية استعملت في مقابل لفظة (شيطان)[3] . وقد أطلقت لفظـــة (أباليس) في مقابل (شياطين) . وقد ورد ان من أسماء ابليس (قترة) ، وان اللفظة علم للشيطان . ومن المجاز أبو قترة : ابليس . « وفي الحديث نعوذ بالله من الأعمين ومن قترة وما ولد . الأعمين الحريق والسيل ، وقترة من أسماء ابليس ، وكنيته : أبو قترة . وقترة حية صغيرة ، لا ينجو سميمها[4] ، ولعل بين التسميتين صلة .

شق :

ومن الجن جنس صورة الواحد منهم عـــلى نصف صورة الانسان ، واسمه (شق) ، وانه كثيراً ما يعرض للرجل المسافر اذا كان وحده ، فربما هلك فزعاً، وربما أهلكه ضرباً وقتلاً . ورووا في ذلك قصصاً . منه ما زعموه من ان (علقمة ابن صفوان بن أمية بن محرث الكناني) جد (مروان بن الحكم) ، خرج في الجاهلية ، وهو يريد مالاً له بمكة ، وهو على حمار ، وعليـــه إزار ورداء ، ومعه مِقرعة ، في ليلة اضحيانة ، حتى انتهى الى موضع يقال له (حائط حزمان)، فاذا هو بشق ، له يد ورجل ، وعين ، ومعه سيف ، وهو يقول :

---

١ الروض الانف (١/١٣٥) ، (فصل في الكهانة) .

٢ المعرب ، للجواليقي (٢٣) ، تاج العروس (١١١/٤) ، (البلس) .

٣ Ency. Religl., 4, p. 600, Geiger, was hat Mohammad aus der Judenthume Aufgenomen, Leipzig, 1902, S. 107, Weil, Biblische Legenden der Muselmanner, S. 12, Shorter Ency., p. 146, Grünbaum, Beiträge Zur Sem. Sagen, S. 60.

٤ اللسان (٥/٧٣) ، (ابليس) ، تاج العروس (٣/٤٨٠) ، (قتر) ، (١١١/٤) ، (البلس) .

علقم إني مقتول وإن لحمي مأكول
أضربهــم بالهذلول ضرب غلام شملول
رحب الذراع بهلول

فقال علقمة :

يا شقها مالي ولكْ اغمد عني مُنْصلك
تقتل من لا يقتلك

فقال شق :

عبيت لك عبيت لك كيما أتيح مقتلك
فاصبر لما قد حمّ لك

فضرب كل واحد منهما صاحبه ، فخرّا ميتين[1] .

الهاتف والرئي :

ويؤمن الأعراب بالهاتف،ويتعجبون ممن يرد ذلك . وهم يزعمون أنهم يسمعون الهاتف يخبرهم ببعض الخبر ، فيكون صحيحاً . فمن ذلك حديث (الأعشى بن نبّاش بن زرارة الأسدي) ، أنه سمع هاتفاً يقول :

لقد هلك الفيّاض غيثُ بني فهر وذو الباع والمجد الرفيع وذو الفخر

فقال مجيباً له :

ألا أيها الناعي أخا الجود والندى من المرء ننعاه لنــا من بني فهر

فقال :

نعيت ابن جدعان بن عمرو أخا الندى وذا الحسب القدموس والحسب القهر[2]

---

١ الحيوان (٦/٢٠٦) ، (هارون) .
٢ الحيوان (٦/٢٠٢) .

وزعموا أن لتقل الجن الأخبار ، علم بوفاة الملوك وأصحاب النباهة والجاه، وأمثال ذلك من الأمور الخطيرة[1] .

وتتردد في الأخبار كلمة (هاتف) و (الهاتف) ، بمعنى صوت صادر من مصدر غير مرئي،وردت في مواضع عديدة من القصص الجاهلي ، ووردت بعدها الجمل التي قالها الهاتف لمن وجه خطابه اليه . وهي تكهن واخبار ، عن أمر وقع وحدث ، أو لتحذير من القيام بعمل ما ، أو بإرشاد الى عمل أو جهة أو ما شابه ذلك من الأمور . وقد تستعمل بمعنى (الرئي) الذي يهتف للكاهن ، أو الصوت الذي يزعم أنه يخرج من جوف الصنم[2] .

الرئي :

وكانوا يقولون ، إذا ألف الجني انساناً وتعطف عليه ، وخبّره ببعض الأخبار وجد حسّه ورأى خياله ، فاذا كان عندهم كذلك قالوا : مع فلان رئي من الجن ، يخبره بما وقع ويقع وعن الأسرار . وممن يقولون ذلك فيه : عمرو بن لحي بن قمعة ، والمأمور الحارثي ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وهم من الرؤساء السادة ، وقد كان لكل كاهن وعرّاف رئي يخبر صاحبه بما يُسأل عنه. وذكر انه قد كان مسيلمة يدعي ان معه رئياً في أول زمانه ، ولذلك قال الشاعر حين وصفه :

ببيّضة قارورٍ وراية شادنٍ وخلة جني وتوصيل طائر[3]

الملائكة :

والملائكة هم روحانيون ، أي من أرواح في نظر أهل الجاهلية . ويدل ورود الملائكة في مواضع عديدة من القرآن الكريم ومن الآيات التي تشير الى مجادلة المشركين ومحادثتهم للرسول في الملائكة ، ان فكرة الملائكة كانت معروفة شائعة

---

١ المصدر نفسه (ص ٢٠٣) .
٢ تاج العروس (٦/٢٧٣) ، (هتف) .
٣ الحيوان (٦/٢٠٥ وما بعدها) ، (هارون) .

بينهم ، وأن بعض العرب كانوا يعبدونها ، كما يظهر ذلك من الآية : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون »[1] .

غير أن المفسرين ، لم يشيروا الى أولئك الذين تعبدوا للملائكة ، ولم يذكروا أسماءهم ، مع أنهم ذكروا اسم من تعبد للجن [2] . بل يظهر من تفسيرهم للآية المذكورة ، أنها وردت على سبيل الاستفهام « كقوله عز وجلّ لعيسى : أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله . قال النحاس : فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذبتهم كان في ذلك تبكيت لهم ، فهو استفهام توبيخ للعابدين »[3] . ولكنهم أشاروا في مواضع أخرى الى ان مشركي قريش كانوا يقولون : الملائكة بنات الله،وكانوا يعبدونها . ويقولون ان امهاتهن بنات سروات الجن ، يحسبون انهم خلقوا مما خلق منه ابليس[4] .

وقد أشير في القرآن الكريم ، الى ان من الجاهليين من زعم ان الملائكة بنات الله[5] . وتحدث المفسرون في تفسير ذلك ، غير انهم خلطوا في الغالب بين الملائكة والجن . ولم يأتوا بشيء يذكر عن رأي أهل الجاهلية في الملائكة . وما ذكروه هم عن الملائكة ، هو اسلامي ، يرجع في سنده الى أهل الكتاب ، ولا سيما القصص الاسرائيلي ، ولهذا فهو مما لا يمكن ان يقال عنه انه يعبر عن رأي الجاهليين . ويظهر ان الجاهليين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الملائكة، لأن الاعتقاد بالملائكة من عقيدة الديانة اليهودية ثم النصرانية ، وهم لا يعرفون الكتاب ، إلا من كان منهم على دين اليهودية أو النصرانية ، أو كان من الحنفاء أو على اتصال بأهل الكتاب ، كأمية بن أبي الصلت وأمثاله .

وقد أشير الى الملائك ، أي (الملائكة) في شعر ينسب الى (أمية بن أبي الصلت) ، هو :

---

١ سبأ ، الآية ٤٠ وما بعدها .
٢ راجع تفسير الطبري (٦٩/٢٢) ، روح المعاني (١٣٩/٢٢) ، القرطبي ، الجامع (٣٠٩/١٤) .
٣ القرطبي ، الجامع (٣٠٨/١٤ وما بعدها) .
٤ تفسير الطبري (٦٧/٢٣ وما بعدها) .
٥ الصافات ، الآية ١٤٩ وما بعدها ، الاسراء ، الآيه ٤٠ ، الزخرف ، الآية ١٥ وما بعدها ، تفسير الطبري (٨٣/١٤) .

وكأن بِرقعٍ ، والملائك حوله سدرٌ تواكله القوائم أجرد[1]

وورد (ملأك) في شعر رجل من عبد القيس جاهلي يمدح بعض الملوك ، قيل هو النعمان . وقيل هو لأبي وجزة يمدح به عبدالله بن الزبير :

فلست لإنسيٍّ ، ولكن لِملأك تنزل من جو السماء يصوب[2]

وقد زعم أن الملائكة تصافح الناس وتناجيهم . زعم ذلك حتى في الإسلام . ذكر (ابن دريد) ان (عمران بن الحُصين بن عُبيد بن خلف) ، وهو من الصحابة ، وعرف بـ (أبي نجيد) ، « كانت تصافحه الملائكة وتناجيه لداء كان به ، فاكتوى ، فذهب عنه ذلك . وذهب ما كان يسمع ويرى »[3] .

السحر :

والسحر من أهم الوسائل التي لجأ اليها البشر وأقدمها منذ أعتق أيامه في التأثير على الأرواح ، وقد جعله جزءاً من الدين ، لذلك كان من اختصاص رجال الدين ، يقومون به في المعابد قيامهم بالشعائر .

واذ كان معظم الناس في الزمن الحاضر يفرقون بين الدين والسحر ، ويعدّون السحر شيئاً بعيداً عن الدين ، بل هو ضد الدين ، فإن قدماء البشر لم يكونوا ينظرون اليه هــذه النظرة ، كانوا ينظرون اليه كما قلت على انه جزء مهم من الدين ، بل هو أهم جزء فيه وأعظمه ، بل ما زلنا نجد ديانات القبائل البدائيـة تعدّ السحر جزءاً من الدين[4] . وهو كذلك في كل دين بدائي .

وعمل الساحر هو السحر ، والسحر في عرف بعض علماء اللغة الإسلاميين هو

---

١ اللسان (٤٩٦/١٠) .

٢ اللسان (٤٩٦/١٠) .

٣ الاستقاق (٢٧٨/٢) ، (طبعة أوربة) ، (انه كان يرى الحفظة ، وكانت تكلمه حتى اكتوى) ، الاصابة (٢٧/٣) ، (الرقم ٦٠١٢) .

٤ R. Campell Thompson, Semitic Magic its Origins and Development, London, 1908, p. XVII, Smith, p. 90.

« عمل يقرب فيه الى الشيطان »[1] . وقد فسّر بعض العلماء كلمة (الجبْت) في القرآن الكريم بمعنى السحر ، كما ذكر أنها تعني الساحر والكاهن والصنم وكل ما عبد من دون الله . وفسر (الطاغوت) بمعنى الشيطان[2] .

وقد وردت كلمة (السحر) و (سحر) و (الساحر) و (الساحرون) و (السحرة) و (مسحوراً) و (مسحورون) في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، ويدل ورودها فيه بهذه الكثرة على مبلغ أثر السحر في عقلية الجاهليين. وقد اتهم أهل مكة الرسول أنه ساحر ، حينما أخبرهم بنزول الوحي عليه . وقالوا انه يستمد وحيه من الشياطين .

وقد جمع البخاري بين الكهانة والسحر بأن قدّم الكهانة على السحر ، لأن مرجع الاثنين شيء واحد هو الشياطين[3] .

وقد حملت تلك المواضع من القرآن الكريم المفسرين على جمع ما علق بأذهان الناس عن السحر . أما كتب الحديث ففيها مادة مفيدة وردت ضمناً عن عقيدة أهل الجاهلية به . كما وردت في أخبار أهل الأخبار إشارات اليه ، تجمل جميعها ان الاعتقاد بالسحر بين الجاهليين كان شائعاً معروفاً . وان ممارسيه في جزيرة العرب كانوا عرباً ويهوداً ، وانهم كانوا يرون ان أصوله في بابل وعند يهود .

وقد كان أكثر السحرة في الجاهلية من يهود[4] . يقصدهم الجاهليون من أنحاء بعيدة ، لاعتقادهم بسعة علمهم وباختصاصهم فيه . وكان اليهود يسندون علمهم الى بابل،ولهذا نجد الأحاديث والأخبار العربية ترجع علم السحر الى بابل واليهود .

والفرق بين الكهانة والسحر ان الكهانة تنبؤ ، فسند الكاهن هو كلامه الذي يذكره للناس . أما السحر ، فانه عمل في الأكثر ، للتأثير في الأرواح ، كي تقوم بأداء ما يطلب منها . ولا يمكن صنع سحر ما لم يقترن بعمل . ويصحب هذا

---

١ تاج العروس (٣/٢٥٨) ، (سحر) ، اللسان (٤/٣٤٨) ، (سحر) .

٢ النساء ، الآية ٥٠ ، « وسمي الساحر والكاهن جبتا » ، المفردات (٨٣) ، تاج العروس (١/٥٣٥) ، شمس العلوم (ح ١ ، ق ٢ ، ص ٢٤٤) .

٣ عمدة القارىء (٢١/٢٧٣ ، ٢٨٢) ، « باب السحر » ، ارشاد الساري (٨/٤٠١) ، الطبري (٢/٤٢١ ، ٤٤٥) ، الطبرسي ، (١-٢) ، (٣٨٤) .

٤ عمدة القارىء (٢١/٢١٣) ، الطبري (٢/٤٣٩) ، العقد الفريد (٦/٢٧٦) ، تفسير الرازي ، (١٧-١٨) (ص ٩) ، سنن ابن ماجة (٢/١١٧٣) ، روح المعاني (٣٠/٢٨٢) .

العمل كلام مفهوم أو غير مفهوم ، وإشارات ، يدعي الساحر انه انما يقوم به وبالإشارات لتسخير الأرواح ، وان مـــا يفعله مفهوم عند جنوده ، وهم الجن والشياطين .

وفن مثل هذا مغر جداً ، فن من الناس من لا يريـد تسخير القوى الخفية لخيره ولصالحه ، وإلحاق الأذى بأعدائه ومبغضيه . ولذلك كان للسحـر وللسحرة أثر خطير في التأريخ ، بالرغم من مقاومة بعض الأديان له . فما يقوم به السحرة من أعمال وخفة ، وما لشخصيات بعض السحرة من تأثير نفسي كبير ، تجعل من الصعب على بعض الناس ان يكذّبوا أقوالهم وأفعالهم ، ولذلك يتأثرون بهم ، ويأخذون بما يقولونه لهم ، حتى تكون للساحر مكانة كبيرة في نفس ذلك الشخص.

وللسحر أغراض عديدة ، وقد استخدم في معالجة أمور كثيرة ، حتى ادارة الملك والقضاء على الأعداء،للسحر وللسحرة فيها صولات وجولات . ومن الطبيعي أن يكون للحب المكانة البارزة فيه ، حتى ليكاد يتخصص بهذا الجانب من حياة الإنسان . ولما كانت العادة أن يتزوج الرجل من جملة نساء صار السحر من أهم الوسائل التي استعانت بها الزوجات للتأثير في قلب الرجل ، ولكسب المكانة الأولى عنده ، وللتفريق بين الرجل وبين بقية أزواجه . ومصداق ذلك ما ورد في القرآن الكريم عن السحرة في هذه الآية : « ولكن الشياطين كفروا ، يعلّمون النـاس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلّمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة ،فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه»[1] . فالتفريق بين المرء وزوجه ؛ كان ولا يزال من أهم أعمال السحرة . ونجـد في الحديث تقريعاً ولوماً للسحرة لاستخدامهم السحر في هذا الغرض الفاسد .

والساحر في معالجة الحب على طريقين : اشعال جذوة نار الحب في قلب من يقصد إثارته عنده ، أو اطفاء نارها وإخمادها واماتتهـا في قلب المسحور . ولكل من الطريقين قواعد وأحكام وأصول يجب تطبيقها بعناية ؛ وإلا بطل فعل السحر.

أما إشعال نيران الحب ، فيكون بطرق متعددة يتبعهـا الساحر ، فقد يستعين بالنباتات والأعشاب ، يستخرج أدوية منها يقدمها الى المرأة لتُوجر الرجل اياها سراً . وقد يستعين بالجمر يقرأ عليه ، ثم يرمى في الممرات التي يمـر الرجل ،

---

١ البقرة : الآية ١٠٢ ، عمدة القارىء (٢٠/٢٧٨ وما بعدها) .

أو الشخص المراد سحره منها . وقد يدفن السحر في موضع كمقبرة أو محل آخر ليؤثر من ذلك الموضع على المسحور . وقد يستعين بالخرز يسحر عليها ، فتحبب المرأة الى زوجها ، وتسمى (التِوْلة)[1] .

وكما يستعمل السحر لاشعال نيران الحب في القلب ، كذلك يستعمل لايقاد البغض والكراهية في النفوس . ففي استطاعة الساحر بما عنده من جنود مجندة ان يلقي البغضاء والكراهية والحقد في نفس أي شخص يود انساناً آخر ، فينقلب مبغضاً حاقداً كارهاً لمن كان يحبه ويعشقه . ومجال هذا الباب واسع جداً للنساء خاصة .

وفي استطاعة الساحر مداواة العاشق وإماتة عشقه بوصفة يعطيها اليه تقضي على حبّه الجامح قضاءً تاماً يسمونها (السلوانة) و (السلوان) . وما هذه الوصفة إلا مادة ذات سحر عجيب يغتسل بها الانسان أو يشربها ، فتطفىء في الحال أو بعد أمد كل نيران للحب مؤججة في قلب العاشق . والسلوانة هي شيء من تراب قبر ، أو خرزة تسحق ويشرب ماؤها ؛ فيورث شاربها سلوة . وتكون الخرزة شفافة ، تدفن في الرمل فتسودّ ، ثم تستخرج لسحقها وشربها ، وقد يكتفى بصب ماء المطر على تلك الخرزة لسقي العاشق ذلك الماء الذي يسمونه (السلوان)، ليشفى من العشق[2] . ولا بد أن يكون لاختيار الماء وتراب القبر أو مسحوق الخرزة في معالجة العشق ، سبب يمكن تفسيره بأنه لغسل قلب المحب،وإماتة الحب فيه .

ومن أهم الأعمال التي يعالجها السحرة ، اخراج الجن من المجانين . فالجنون هو من عمل الجن . تحل الجنة بالإنسان فتأخذ عقله . ومن هنا قيل لهذا المرض (جنة) و (جنون)[3] . ومن واجب الساحر اخراج الجن من هؤلاء المرضى، وهو عمل يقوم به الساحر حتى اليوم،ويكون ذلك بضرب المريض بالعصا لإخراج

---

١ بالكسر وبالضم ، « وقيل هى معاذة تعلق على الانسان » ، اللسان (١٣/٨٥) .

٢ يا ليت أن لقلبي من يعلله أو سافيا فسقاني عنك سلوانا

وورد :

شربت على سلوانة ماء مزنة فلا وجديد العيش يا مي ما أسلو

وجاء :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد ان هما شفيانى

فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة الا بها سقيانى

اللسان (١٩/١١٨ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٩/١٦٤ وما بعدها) ، « جنن » .

الجنة منه . أو بسقيه بعض الأشربة السحرية ، أو بتدليك جسمه وغسله،وبإدخاله محلاً مظلماً هادئاً يحرق فيه البخور ، وبتعليق بعض العزائم والحجب وما شاكل ذلك لإبعاد الجن عن المجنون وإعادة عقله اليه .

ويداوي الساحر أمراضاً عديدة أخرى ، بل كل أنواع الأمراض ، وما المرض في نظر القدماء إلا أرواح شريرة حلت في الأجساد أو بجزء منها ، فألحقت بها الأمراض. ولن يشفى الجسد أو الجزء المصاب منه إلا بطرد تلك الأرواح. وطرد الأرواح من أعمال السحر . والساحر هو سلف من أسلاف الأطباء . وكلمة (طبيب) العربية هي من هذا الأصل . فالطب في اللغة السحر ، و (المطبوب) هو المسحور ، والطابّ هو الساحر يستخدم طبه في الشفاء[1] . وقد أدخلت كتب الحديث السحر في (كتاب الطب)[2] . فالساحر هو طبيب يعالج أشياء عديدة ، ثم تخصص الأطباء بالطب ، غير ان الأطباء ظلوا يمارسون حتى في أوروبة السحر في معالجة مرضاهم مدة طويلة ، الى ان تطور العلم ، وظهر البحث الحديث .

ويقوم أكثر مداواة المرضى بواسطة السحر بالنفث على المريض أو في فمه وبامساك الرأس أو الجزء المريض ، لقراءة شيء عليه يضمن شفاءه ، أو بتدليك ذلك الجزء منه . وقد يعطى حجباً وتمائم تشفي المريض من مرضه . والنفث في الفم من العادات الجاهلية القديمة ، يقوم به الكاهن والساحر والأب في بعض الأحيان ، لاعتقادهم ان ذلك سيلهم الطفل فيعلمه العلم والحكمة والذكاء ويمنحه الصحة الجيدة .

ومن طرق السحر عند الجاهليين ، النفثُ في العُقد ، وقد دلّت عليه هذه الآية الكريمة : « ومن شرّ النفّاثات في العقد »[3] . ويكون ذلك بعقد عقد والنفث عليها[4] . ويذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن (لبيد بن أعصم

---

١ صحيح مسلم (١٤/٧) ، اللسان (٤٢/٢) ، تاج العروس (٣٥١/١) ، عمدة القارىء (٢٢٩/٢١) .

٢ راجع كتب الحديث : (كتاب الطب) ، ارشاد الساري (٣٦٠/٨ وما بعدها) ، عمدة القارىء (٢٧٧/٢١ وما بعدها) .

٣ الفلق : الآية ٤ .

٤ الكشاف (٢٤٤/٤) ، تاج العروس (٦٥٠/١) « نفث » ، صحيح مسلم (١٤/٧) ، « باب السحر » ، عمدة القارىء (٢٨٠/٢١ وما بعدها) ، أسباب النزول (٣٤٦ وما بعدها) .

اليهودي) سحر الرسول ، ودس ذلك السحر في بئر (لبني زريق) تسمى (بئر ذروان) (بئر ذي أروان) ، وأنه وضع ذلك السحر في جف طلعة تحت راعوفة ، أي في قشر الطلع وتحت حجر في أسفل البئر . فلما استخرج السحر ، وجدوه مشاطة رأس وأسنان مشطه، وإذا فيه معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر [1] . ويقوم بهذا السحر الرجال والنساء . غير أن المفسرين وأهل الأخبار واللغة حينما يذكرون هذا النوع من السحر يذكرون أن النساء النفاثات هن اللواتي كنّ يقمن بذلك . أخذوا رأيهم هذا من الآية المذكورة التي تشير الى بنات لبيد وكنّ ساحرات، والاشارة في هذه الآية عن حادث معين ، ولم يقصد بها الاطلاق.

والنفث في العقد، وعقد سبع عقد توضع فيها مادة السحر ، من طرق السحر القديمة المعروفة عند العبرانيين والآشوريين وغيرهم . وقد عثر في الكتابات المسمارية على تعليمات في كيفية اتقاء شر الأرواح الخبيثة وأرواح الأموات الشريرة التي تسحر الناس ، فكان مما جاء فيها عقد سبع عقد ووضع مادة سحرية فصلت في تلك التعليمات لاتقاء شر سحر تلك الأرواح [2] .

ويذكر المفسرون وأهل الحديث ان الرسول لما سحره (لبيد بن الأعصم) من (بني زريق) ، كان « يخيل اليه انه كان يفعل شيئاً وما فعله » [3] ، حتى علم بسحر (لبيد) ، فلما استخلصه من البئر ، ذهب أثر ذلك السحر عنه .

وقد كان السحرة اليهود يقرأون شيئاً ويهمهمون عند عقدهم كل عقدة من هذه العقد ، ويقال لذلك Ghabar [4] . ومن هؤلاء اقتبس السحرة العرب طريقتهم في النفث على العقد .

والمواد التي يستعين بها الساحر لعمل السحر عديدة . أوراق بعض النباتات والملح والبخور والدماء والعظام وقرون الحيوانات يدفنها أو يحرقها أو يذيبها في الماء . وفي كل سحر لا بد أن يشفع الساحر سحره بطقوس أو بحركات خاصة، وبتمتمة تلقي في الروع ان الساحر يقول شيئاً ويخاطب أشخاصاً هم الجن. والتمتمة

---

١ الطبرسي ، الجزء التاسع ، المجلد الخامس (٥٦٨) ، ارشاد الساري (٤٠٣/٨ وما بعدها ، ٤٠٧) .

٢ Semitic Magic, p. 33.

٣ ارشاد الساري (٤٠٣/٨ وما بعدها) ، شرح صحيح مسلم ، للنووي (١٥/٩) « حاشية على ارشاد الساري » ، الطبري (٤٣٩/٢) . سنن ابن ماجه (١١٧٣/٢) .

٤ Hastings, p. 569.

هي في الغالب كلام غير مفهوم عند الناس ، ولكنه عنـــد الساحر وجنوده الجن والشياطين كلام واضح بليغ .

ويعمد السحرة الى الصور والرموز في سحرهم ، ومنهم من كانوا لا يعرفون الكتابة ولا القراءة فيرمزون الى من يريدون سحره ، أو إلحاق الأذى به ، أو يصورونه . وقد يشيرون بالصور والرموز الى الجن والشياطين . وهم في الغـالب يدفنون تلك الصور والرموز في المقابر ، لأنها من أنسب الأماكن للسحر . وقد عثر على عدد من هذه الاشارات والصور السحرية . ومنها ما هو مكتوب بكتابات لها صور بالسحر[1] .

إبطال أثر القوى الخفية :

وقد حمل اعتقاد الجاهليين بوجود قوى خفية تؤثر في الانسان ، أهل الجاهلية على العمل على التغلب على تلك القوى أو الحد منها وايقاف فعلها وذلك بابتداعه طرقاً عديدة لذلك ، مثل استعماله (النفرات) أو السحر ، أو (الرقي) ، أو التمائم ، والتعاويذ وما شابه ذلك من أمور .

و (النفرة) شيء يعلق على الصبي لخوف النظرة[2] . و (التنفير) الطرق التي يستعملها الانسان لتنفير القوى الخفية وابعادها عنه . وطريقتهم في ذلك شبيهة بطرقهم في تنفير الثقلاء وغير المرغوب فيهم من الناس وابعادهم ، وذلك باتخاذ كل ما ينفر ويقزز ، لتعاف تلك الأرواح المواضع التي اختارتها والأشخاص الذين نزلت بساحتهم وحلت في أجسامهم ، ومنها طريقة (التنجيس) . وطريقتهم في ذلك تعاليق الأقذار من خرق المحيض وعظام الموتى وأمثال ذلك على الصبي ومن يُخاف عليه عيون الجن،لاعتقادهم ان الجن سوف تبتعد عن هؤلاء وتهرب منهم . ويقال للمعوذ (المُنَجَّس) ، وللشخص الذي عوّذ له (المُنَجَّس) . والتنجيس يشفي إلا من العشق[3] .

---

١ Hastings, p. 569.

٢ تاج العروس (٥٧٩/٣) ، (نفر) .

٣ ورد : « وعلق انجاسا على المنجس » ، اللسان (١١١/٨) ، (نجس) ، بلـــوغ الارب (٣١٩/٢) .

واتخذ الجاهليون طرقاً عدة للتخلص من الجن ، ولا سيما من الخطفة والنظرة . أي من خطف الجن للأطفال ومن حسدها لهم . فهداهم تفكيرهم الى تعليق بعض الأشياء على الصبي[1] ، مثل سنّ ثعلب ، أو سن هرة ، وتقطير شيء من السوائل في عينيه عند الولادة لتنفير الجن منه . وتسمى هذه الأمور المنفرة للجن النفرات[2] .

ومن النفرات التحايل على الجن بتغيير الأسماء ، بتغريبها ، كأن يسمى الصبي بأسماء بعض الحيوانات الصغيرة أو الأشياء التافهة الحقيرة ، وبذلك تنفر الجن منه ، فلا تقترب منه ، ولا تمسه بسوء[3] . « قال أعرابي لما ولدت قيل لأبي نفر عنه ، فسماني قنفذاً وكنّاني أبا العدّاء »[4] .

التحصن من الجن :

والاستعاذة بالجن تفيد أيضاً في نظر الجاهليين في حماية الشخص من أذاهم . فإذا استعيذ بعظيم الجن ، استجاب العظيم نداء المستعيذ . فكان المسافرون إذا خافوا من طوارق الليل ، عمدوا الى واد ذي شجر ، فأناخوا رواحلهم ، وعقلوها وخطّوا عليها خطاً ثم نادوا : نعوذ بعظيم هذا الوادي ، أو نعوذ بصاحب هذا الوادي . فيستجيب عندئذ عظيم الوادي لنداء المستعيذ ، فلا يسمح لأحد أن يلحق به أذى . . وقد أشير الى ذلك في القرآن : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ، فزادوهم رهقاً »[5] . وذكر ان العرب كانوا إذا صاروا في تيه من الأرض ، وتوسطوا بلاد الحوش ، خافوا عبث الجنان والسعالى والغيلان والشياطين ، فيقوم أحدهم فيرفع صوته : إنا عائذون بسيد هذا الوادي! فلا يؤذيهم أحد ، وتصير لهم بذلك خفارة[6] .

---

١ بلوغ الارب (٢/٣١٩) .

٢ بلوغ الارب (٢/٣٢٥) ، التاج (٣/٥٧٩) .

٣ بلوغ الارب (٢/٣٢٥) .

٤ اللسان (٧/٨٥) ، التاج (٣/٥٧٩) ، (نفر) .

٥ سورة الجن ، الآية ٦ .

٦ الحيوان (٦/٢١٧) .

ذبائح الجن :

ولارضاء الجن واسكاتها ، وتجنب أذاها ، قام الجاهليون بتقديم الذبائح لها . فاذا أراد انسان السكن في بيت جديد ، أو استخراج الماء من بئر احتفرها أو من عين ماء ، أو ما شاكل ذلك وخاف من وجود الجن فيها ذبح ذبيحة ، يرضى بها الجن ، فلا تتحرش عندئذ به ولا تصيبه بأذى،لأنه قد تقرب بالذبيحة اليها وبيّن لها انه صديق لها ، فيعيش عندئذ قرير العين في بيته الجديد ، لا يمس عماره بسوء . ويقال لهذه الذبائح : (ذبائح الجن) . وقد نهى الاسلام عن ذبائح الجن . ورد انهم « كانوا اذا اشتروا داراً أو استخرجوا عيناً أو بنوا بنياناً ، ذبحوا ذبيحة مخافة ان تصيبهم الجن ، فأضيفت الذبائح اليهم لذلك »[1] .

و (النُشرة) سلاح مفيد جداً لحل عقد الرجل عن مباشرة أهله . وقد كانت مشهورة في أيام الرسول . وقد أباح العلماء (النشرة العربية الّتي لا تضر إذا وطئت ، وهي أن يخرج الإنسان في موضع عضاه ، فيأخذ عن يمينه وشماله من كل ، ثم يذيبه ويقرأ فيه ، ثم يغتسل به »[2] . ويدل نعت هذه النشرة بالنشرة العربية على وجود نشرات غير عربية ، وهي النشرات الّتي كان يعملها اليهود . وقد كانوا يستعملون الأدعية العبرانية ، لذلك نهى الاسلام عن استعمال تلك النشرات .

و (النُشرة) في تعريف علماء اللغة : رقية يعالج بها المجنون والمريض ومن كان يظن أن به مساً من الجن . وإذا نشر المسفوع كان كأنما أنشط من عقال، أي يذهب عنه سريعاً . وفي الحديث أنه سئل عن النشرة ، فقال هي من عمل الشيطان . وقد أدخلها بعضهم في السحر[3] .

و (العوذة) ، ويقال لها (المعاذة) و (المعاذات) . تستعمل في التعويذ

---

١ اللسان (٣/٢٦٢) ، تاج العروس (٢/١٣٨) ، (ذبح) ، اللسان (٢/٤٣٧) ، (ذبح) ، (صادر) .

٢ عمدة القاريء (٢١/٢٨٤) ، تاج العروس (٣/٥٦٦) ، سنن أبي داوود (٤/٦) .

٣ تاج العروس (٣/٥٦٦) ، (نشر) ، الحيوان (٤/١٨٥) ، اللسان (٥/٢٠٩) ، (نشر) ، (صادر) .

من الفزع والجنون[1] . وتبعث تسميتها على الظن بأنها من المصطلحات الاسلامية ، وانها أخذت تسميتها من المعوذتين. غير ان ورودها في مواضع عديدة من الحديث، واستعمالها في القرآن الكريم للتعبير عن فكـــرة معينة معلومة ، يدلان على انها من المصطلحات التي كانت معروفة بين أهل (يثرب) حتى إن بعض الصحابة ذكروا انها نزلت للتعويذ . ومعنى (أعوذ) أعتصم وألتجيء ، فلا يستبعد ان يكون أهل يثرب على الأقل قد تعلموا ذلك من اليهود الذين كانوا يقرأون بعض التعاويذ من التوراة لحماية أنفسهم من شر الأمراض .

وتستعمل (الرقية) في مداواة الآفات ، مثل الحمى والصرع والنظرة ولدغات العقارب والحيات وأمثال ذلك ، وتكون بقراءة شيء على المريض أو على موضع المرض ثم النفث عليه ، أو بحمل شيء مكتوب . وقد جاء في بعض الأحاديث جوازها في الاسلام ، وفي بعضها النهي عنها . وقد ذكر علماء الحديث ان الاسلام قد نهى عن الرقية التي تكون بلسان غير عربي ، ويدل هذا على ان الجاهليين كانوا يذهبون الى أهـل الكتاب ولا سيما اليهود منهـــم ، فيرقونهم بالعبرانية أو السريانية ، ولذلك نهوا عنه . وقد عرضت بعض أنواع الرقية التي كان يستعملها أهل الجاهلية على الرسول لأخذ رأيه فيها ، فأباحهـا لهم ، وأباح لهم كل رقية ليس فيها شيء من ألفاظ الجاهلية[2] .

وقـــد حفظت الكتب لنا أنموذجات من بعض الرقى ، منها هذه الرقية التي استعملت في اشعال نيران الحب : « هوا به هوا به ، البرق والسحابة ، أخذته بمركن ، فحبه تمكن . أخذته بإبره ، فلا يزل في عبره ، جلبته بإشفى ، فقلبه لا يهدا . جلبتــــه بمبرد ، فقلبه لا يبرد »[3] . فهذه الرقية تلهب قلب الرجل ، وتهيجه ، وتجعله كأنه في إجانة غسل الثياب . يعمل على وفـق ارادة المرأة التي استعملت تلك الرقية .

---

١ اللسان (٥/ ٣٤) ، سنن ابن ماجة (١١٦٣/٢) ، اللسان (٤٩٩/٣) ، العقد الفريد (٢٧٤/٦) .

٢ شرح الامام النووي على متن مسلم (٣٩/٩) ، ارشاد الساري (٣٩١/٨) ، سنن أبي داود (٤/ ١٠ وما بعدها) ، اللسان (٣٣٢/١٤) ، (صادر) ، (٤٩/١٩) ، تاج العروس (١٥٤/١٠) ، اللسان (٤٩٩/٣) ، (٣٣٢/٤) ، صحيـــح مسلـم (١٨/٧) ، سنن ابن ماجة (١١٦٦/٢) ، (كتاب الطب ٣٨) .

٣ بلوغ الارب (٧/٣) .

أما إذا سئمت المرأة زوجها ، وأرادت الابتعاد عنه ، وطرده عنها ، فسبيلها في ذلك رقية تبعد الرجل ، وتنفره منها ، وذلك بأن تقول : « بأفول القمر ، وظل الشجر ، شمال تشمله ، ودبور تدبره ، ونكباء تنكبه ، شيك فلا انتقش » . فاذا أتمت ذلك ، رمت في أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة . ثم تقول : « حصاة حصت أثره ، ونواة نأت داره ، وروثة راثت خبره ، لفعته ببعرة »[1] .

و (العزائم) الرقيّ ، أو ضروب منها . يقال عزم الراقي ، كأنه أقسم على الداء ، وعزم الحوّاء ، إذا استخرج الحية . كأنه يقسم عليها . والعزيمة من الرقيّ التي يعزم بها على الجن والأرواح[2] . ومن اعتقادات الأعراب أن الجن لا تجيب صاحب العزيمة ، حتى يكون المعزّم مشاكلاً لها في الطباع[3] . وأن للمعزمين جنوداً من الشياطين والجن تتبع أوامرهم وتطيعهم وتخدمهم وتتصرف بين أمرهم ونهيهم[4] .

ومن ضروب الرقية ، ما يدعيه الحوّاء من اخراج الحية من جحرها ، بعزيمة يقوم بها ، تجبرها على الخروج منه . وقد قالت بذلك الشعراء في الجاهلية والاسلام . وكانوا يؤمنون بذلك ويصدقون به . وقد أشير في شعر لأمية بن أبي الصلت ، الى اخراج الحية من جحرها . وقد تحدث (الجاحظ) عن ذلك ، وعلل سبب خروجها وجاء بأبيات شعر في ذلك ، وتحدث عن تمويه الحواء والراقي[5] .

و (التمائم) ومفردها (التميمة) ، هي عوذة على هيأة قلادة من سيور تضم خرزاً ، وقد تكون من خرزة واحدة تستعمل للصبيان والنساء في الغالب اتقاء النفس والعين . فاذا كبر الطفل ، انتزعت التميمة منه . وقيل : التمائم «خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم ينفون بها النفس والعين بزعمهم ، فأبطله الاسلام » . وذكر ان التميمة خرزة رقطاء تنظم في السير ثم يعقد في العنق . وكانوا يعتقدون انها تمام الدواء والشفاء[6] . وقد أشير اليها في الشعر الجاهلي .

---

١ بلوغ الارب (٣/٧) .
٢ اللسان (١٢/٤٠٠) ، (عزم) ، الحيوان (٤/١٨٤) .
٣ الحيوان (٤/١٨٥ وما بعدها) .
٤ الحيوان (٤/١٨٤ وما بعدها) ، الفهرست ، (الفن الثاني من المقالة الثامنة) .
٥ الحيوان (٤/١٨٤ وما بعدها) .
٦ اللسان (١٢/٦٩ وما بعدها) ، (تمم) .

وكانوا يستعملونها بكثرة ، يتعوذون بها ، لذلك عدها بعض الصحابة من الشرك، لأنهم جعلوها واقية من المقادير والموت وأرادوا دفع ذلك بها ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله[1] .

وللخرز عند الجاهليين وعند الأعراب حتى اليوم ، أهمية كبيرة في السحر ، وفي دفع أذى الأرواح والعين ، وفي النفع والحب ، وأمثال ذلك . ولما كانت الخرز فصائل وأنواعاً ، فقد خصوا كل فصيلة باسم معين ، وجعلوا لكل قسم وصنف أثراً خاصاً يمتاز به عن بقية الأصناف الأخرى . فالتولة مثلاً الخرزة التي تحبب المرأة الى زوجها[2] ، و (العُقرة) (خرزة العقر) خرزة تشدّها المرأة على حقوها لئلا تلد . يزعم الأعراب انها إذا علقت على حقو المرأة لم تحمل إذا وطئت . وقيل العكس : العقرة خرزة تعلق على العاقر لتلد[3] . و (الينجلب) خرزة للتأخيذ ، تفيد في رجوع الرجل بعد الفرار وفي اكتساب عطفه بعد وقوع بغضه[4] . وكانوا يقولون أقوالاً في ذلك مثل : « أخذته بالينجلب ، فلا يرم ولا يغب ، ولا يزل عنـد الطنب » ، و « وأعيذه بالينجلب ، ان يقم وان يغب » . فهم يربطون الرجل بهذه الخرزة . فيجعلونه لا يفارق بيته وأهله .

و (الخَصُمة) ، وهي خرزة للدخول على السلطان والخصومة تجعل تحت الخاتم أو في زر القميص أو في حمائل السيف[5] . و (العطفة) هي خرزة تجلب العطف لصاحبها[6] . و (السلوانة) خرزة تسحق ويشرب ماؤها ، فيورث شاربه سلوة . وقيل : خرزة للتأخيذ ، يؤخذ بها النساء الرجال ، وقيل خرزة للبغض بعد المحبة ، وقيل خرزة شفافة تدفن في الرمـل . فتسود فيبحث عنها ويسقاها الانسان فتسليه ، أو يسقاه العاشق فيسليه عن المرأة . وقيل خرزة كانوا يقولون : اذا صب عليها ماء المطر ، فشربه العاشق سلا. أو هو ان يؤخذ تراب قبر ميت، فيجعل في ماء فيسقى العاشق ، فيموت حبه . أو هو دواء يسقاه الحزين

---

١ اللسان (١٢/٧٠) ، (تمم) ، سنن أبي داود (٤/٩) ، النهاية (١/١٤٣) ، تاج العروس (٧/٢٤٢) ، شحن العلوم (حـ ١ ق ١ ص ٢١٥) .

٢ تاج العروس (٧/٢٤٢) .

٣ تاج العروس (٣/٤١٤) ، (عقر) ، بلوغ الارب (٣/٧) .

٤ تاج العروس (٨/٣٧٩) ، بلوغ الارب (٣/٧) .

٥ تاج العروس (٨/٣٧٩) ، (خصم) .

٦ تاج العروس (٦/٢٠٠) ، بلوغ الارب (٣/٧) .

فيفرحه[1] . و (القرزحلة) ، وهي خرزة من خرز الضرائر[2] .

وكانوا يرقون بالخرز . فلخرزة (الهنمة) ، رقية خاصة ، هي : « أخذته بالهنمة ، بالليل زوج وبالنهار أمة »[3] . وللقبلة و (الدردبيس) ، وهي خرزة مؤثرة ذات قوة فعالة ، يتحبب بها النساء الى أزواجهن، تؤخذ من القبور العادية، أي القبور الجاهلية القديمة ، رقية خاصة ، هي : « أخذته بالدردبيس تدرّ العرق اليبيس ، وتذر الحديد كالدريس » . وقيـــل الدردبيس خرزة سوداء ، كأن سوادها لون الكبد ، اذا رفعتها واستشففتها رأيتها تشف مثل العنبة الحمراء للحب، تتحبب بها المرأة الى زوجها ، توجد في قبور عاد[4] .

ومن خرزهم : (كرار) ، خرزة تؤخذ بها نساء الأعراب . وقيـــل خرزة تؤخذ بها النساء والرجال . ورقيتها : « يا كرار كرّيه ، يا همرة اهمريه ، ان أقبل فسريه ، وان أدبر فضريه ، من فرجه الى فيـــه »[5] . ومنها (الهمرة) ، خرزة للتأخيذ . وهي خرزة الحب ، يستعطف بها الرجال ، ورقيتها : « يا همرة اهمريه ، ويا غمرة اغمريه ، ان أقبل فسرّيه ، وإن أدبر فضريه ، من استـــه الى فيه ، وماله وبنيه »[6] . ومثلها (الهصرة) ، خرزة للتأخيذ[7] .

ومن الخرز المعروفة : (الكحلة) ، خرزة من خرزات العرب للتأخيـــذ ، تؤخذ بها النساء الرجال . أو هي خرزة سوداء تجعل على الصبيان للعين والنفس من الجن والإنس ، فيها لونان بياض وسواد[8] .

اصابة العين :

كان للجاهلين رأي وعقيدة في العين وفي أثرها في الحياة ، فهم يعتقدون بأثر

---

1 تاج العروس (١٠/١٨١) ، (سلا) .
2 بلوغ الارب (٣/٦ وما بعدها) .
3 اللسان (١٦/١٠٧) ، تاج العروس (٩/١١١) ، (الهينمة) .
4 تاج العروس (٤/١٤٩) ، (الدردبيس) .
5 تاج العروس (٣/٥١٩ وما بعدها) ، (كرر) ، بلوغ الارب (٣/٧) .
6 تاج العروس (٣/٦٢٣) ، (همر) ، بلوغ الارب (٣/٧) .
7 تاج العروس (٣/٦٢١) ، (هصر) .
8 تاج العروس (٨/٩٥) ، (كحل) ، اللسان (١١/٥٨٥) ، (كحل) .

العين وإصابتها . ولخطر هذه الإصابة وأهميتها ، تفننوا في ابتداع وسائل الوقاية منها ، وحماية أنفسهم من أثرها . وقد زعموا أن عيون بعض النـــاس تصيب ، وانها ان أصابت شيئاً أهلكته ، فان (العين) لا تنتج الا شراً ، وهي لا تكاد تكون في خير مطلقاً . ولذلك تجنّبوا (العائن) وابتعدوا عنه. و (العائن) و (المعيان) و (العيون) هو من تصيب عيونه . فكان أحدهم اذا ما اتصل بإنسان، وصادف أن نظر ذلك الانسان الى شيء أعجبه ، أو رأى شيئاً لفت نظـره ، ثم صادف ان وقع مكروه لمن نظر اليه ، أو الى ما كان قد رآه (العـائن) ، نسب ذلك المكروه اليه ، ورمي باصابة العين ، وقد يحدث من ذلك الرجل مثل مـا حدث له مع من وقع المكروه عليه ، فيرمى عندئذ بإصابة معين ، وينبذه النـاس خوفاً من اصابتهم بعينيه . فيقال ان فلاناً لعيون : اذا كان يستشرف للنـاس ليصيبهم بعين . ويقال للعيون انه لنفوس ، وما أنفسه ، وقد أصابته نفس أو عين[1] .

ولا تقتصر الاصابة بالعين على اصابة عيون الانسان،فقد تصيب عيون الحيوان كذلك . وهناك حيوانات عديدة لها قدرة على الاصابة بعينيها مثل الحيات والثعلب والطاووس . وأكثر الحيوانات التي تكون لعيونها بريق أو لمعان خاص ، هي من هذا القبيل . وقد حمل هذا الاعتقاد بعض الناس على التخوف من تلك الحيوانات والابتعاد عنها ، بل بلغ الخوف ببعضهم ان امتنعوا من ذكر اسم أمثـــال تلك الحيوانات أو تهجّي حروف أسمائها خشية العين[2] . والكـــلاب من الحيوانات التي تصيب بعيونها . ورد عن (ابن عبـــاس) قوله : « الكلاب من الجن ، فان غشيتكم عند طعامكم ، فالقوا لهن ، فان لهن أنفساً . أي أعيناً »[3] . ولخوفهـــم من اصابة عيون الحيوان كرهوا الأكل بين يديها . فكانوا إمـا ان يشغلوها عن النظر اليهم بشيء يرمونه لها لتأكله ، ولو بعظم . وإما ان يطردوها ، فيتخلصوا من اصابتهم بعيونها[4] .

---

١ الحيوان (١٤٢/٢ وما بعدها) .

٢ روح المعاني (٢٨٤/٣٠) ، Ency. Religl., 5, 610.

٣ اللسان (٢٣٦/٦) ، (نفس)، « ان الكلاب من الجن ، وان الجن من ضعفة الجن ، فاذا غشيكم منها شيء ، فالقوا اليها شيئا واطردوهـــا ، فان لها أنفس سوء » ، الحيوان (١٣١/٢) .

٤ الحيوان (١٣٢/٢) .

ويعبر عن العين التي تصيب (المعين) بـ (النفس) . يقال نفسته بنفس ، أي أصبته بعين ، وأصابت فلاناً نفس ، أي عين . وفي الحديث « انه نهى عن الرقية إلا في النَّملة والحُمَة والنفس ، أي العين »[1] . و (النافس) : العائن ، والمنفوس المعيون . و (النّفوس : العيون الحسود المتعين لأموال الناس ليصيبها ، وما أنفسه ، أي ما أشد عينه)[2] .

و (السفعة) العين . ورجل مسفوع ، أي معيون أصابته سفعة ، أي عين . ويقال به سفعة من الشيطان ، أي مس، كأنه أخذ بناصيته . ويعبر عنها بـ (النظرة) كذلك . وقيل : النظرة الإصابة بالعين والسفعة العين[3] . و (النظـرة) الغشية أو الطائف من الجن ، وقد نظر، فهو منظور ، أصابته غشية أو عين . وفي الحديث أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، رأى جارية ، فقال : ان بها نظرة ، فاسترقوا لها . قيل معناه : ان بها اصابة عين من نظر الجن اليها وكذلك بهـا سفعة[4] . وقد يخصصون (النظرة) بإصابة عين الجن[5] .

وللحاسد نفس عـلى المحسود . وقد يصل نفس الحاسد الى حد الإهلاك . والعائن ربما لا يتعمد الأذى ، انما عينه هي التي تصيب بمجرد المقابلة أو وقوع النظرة على الشيء ، ولذلك كان أذاه عند المقابلة ووقوع عين العائن على المعيون. أما الحاسد ، فـإنه يصيب في الغيبة وفي الحضور ، لأن عينه تنفـذ وتصل الى المحسود ، وان كان غائباً عن الحاسد[6] . ولخطر الحسد وشدة أذاه ، اتخـذت الحمائل الخاصة بمقاومة عيون الحسود .

ولحماية النفس من العين ، استعملت الخرز والتعاويذ والرقي . ومن الخرز التي استخدمت في حماية الأطفال من اصابة العين ، (الكحلة) ، وهي خرزة سوداء

---

١ تاج العروس (٢٥٩/٤) ، (نفس) .

٢ اللسان (٢٣٦/٦) ، (نفس) .

٣ تاج العروس (٣٨١/٥) ، (سفع) .

٤ ناج العروس (٥٧٤/٣) ، (نظر) .

٥ عمدة القارىء (٢٦٤/٢١ وما بعدها) ، اللسان (١٧٦/١٧) .

٦ روح المعاني (٢٨٤/٣٠) .

تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم . و (القبلة) ، وهي خرزة بيضاء تجعل في عنق الفرس من العين[1] .

و (الودعة) ، تفيد في دفع أذى العين عن الانسان . وذكـــر انها مما يقذفه البحر ، وهي تتفاوت في الصغر والكبر ، وهي خرزة تثقب وتتخذ منها القلائد، وللحماية من العين[2] .

---

١ تاج العروس (٨/ ٧١) ، بلوغ الارب (٣/٧) .

٢ تاج العروس (٥/٥٣٤) ، (ودع) .

الفصل الخامس والثمانون

في اوابد العرب

وهي أمور كانت العرب عليها في الجاهلية ، بعضها يجري مجرى الديانات ، وبعضها يجري مجرى الاصطلاحات والعادات ، وبعضها يجري مجرى الخرافات ، وقد كانت قد هيمنت وسيطرت على عقليتهم ، ولا سيما تلك الأمور التي كانت تتصل بحياتهم . كالكهانة والحداسة والرقية والتنجيس والتنجيم ، وغير ذلك مما له علاقة بحياة الانسان حتى قيل انهم كانوا (بين متكهن وحدّاس وراق ومنجس ومتنجم)[1] .

الكهانة :

وفي طليعة بعض الناس الموهوبين ، بما لهم من قدرة خفية خارقة والهام ، الاتصال بالآلهة وبالأرواح . والاستئناس بها والأخذ منها ، والحصول على علم غزير منها يتعلق بالمستقبل عامة وبمستقبل كل إنسان خاصة ، أو التأثير عليها بصرف الخير الى شخص ودفع الأذى عنه،وبتوجيه الشر الى شخص يراد توجيهه اليه وإيذاؤه . ويقال للاتصال بالآلهة أو الأرواح لمعرفة المستقبل والتنبؤ عما سيحدث :

---

١ ارشاد الساري (٨/٤٠٠) ، صحيح مسلم (٧/٣٥ وما بعدها) ، عمدة القاري (٢١/٢٧٥) ، اللسان (١٧/٢٤٤) ، الروض الانف (١/١٣٦) ، مروج الذهب (٢/٨٢) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) .

(الكهانة) « Divination » ، ويقال لمن يقوم بذلك الكاهن . أما الذي يزعم أن في امكانه التحكم في الأرواح وتوجيهها الوجهة التي يريدها ، فيقال له (ساحر) ويقال لعمله (السحر) . وتقابل كلمة (السحر) في العربية كلمتا « Magic » و « Sorcery » في الانكليزية .

والكهانة في اللغة العربية تعاطي الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ومعرفة المغيبات والأسرار ، وتقابل بهذا التعريف في العربية كلمة « Soothsayer » في الانكليزية . وتقابل كلمة (كاهن) لفظة (كوهين) « Kohen » في العبرانية و (كهنا) « Kahna » في لغة بني إرم ، وكلها من الأصل السامي القديم [1] .

ومن مرادفات الكاهن : (الطاغوت) . وبهذا التفسير فسر العلماء قوله تعالى: « فمن يكفر بالله ويؤمن بالطاغوت » [2] . قالوا : الطاغوت : الكاهن . وهم كهان تنزل عليهم شياطين يلقون على ألسنتهم وقلوبهم . والطواغيت التي كانوا يتحاكمون اليها ، كان في جهينة واحد ، وفي أسلم واحد ، وفي كل حي واحد. وهم كهان تنزل عليهم الشياطين [3] . وذكر بعض علماء التفسير ان الطاغوت : الشيطان في صورة انسان يتحاكمون اليه . وقد وردت اللفظة في موضع آخر من القرآن الكريم بعد لفظة (الجبت) ، اذ جاء في التنزيل : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » [4] . وقد ذكروا ان الجبت السحر والساحر ، بلسان الحبشة والطاغوت الكاهن [5] . وان الجبت والطاغوت صنمان ، أو ان الجبت الأصنام والطاغوت تراجمة الأصنام ، والذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس ، أو ان الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله أو طاعة أو خضوع له ، كائناً ما كان ذلك المعظم من حجر أو انسان أو شيطان . وإذ كان ذلك كذلك . وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها كانت معظمة بالعبادة من دون الله ، فقد كانت جبوتاً وطواغيت .

---

١ ارشاد الساري ٨/٣٩٨) ، اللسان (١٣/٣٦٢ وما بعدها) ، (كهن) ، مفتاح السعادة، لطاش كبري زاده (١/٢٩٣ وما بعدها) ،
Nöldeke, Neue Beiträge Semitischen Sprachwissenschaft, S. 36.

٢ البقرة ، الرقم ٢ ، الآية ٢٥٦ .

٣ تفسير الطبري (٣/١٣ وما بعدها) .

٤ النساء ، الآية ٥١ .

٥ تفسير الطبري (٥/٨٤) .

وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله، وكذلك الساحر والكاهن اللذان كانا مقبولاً منهما ما قالا في أهل الشرك بالله ، وكذلك حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف لأنهما كانا مطاعين في أهل ملتهما من اليهود في معصية الله والكفر به وبرسوله ، فكانا جبتين وطاغوتين[1] .

وذكر علماء التفسير في قوله تعالى : « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به . ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً »[2] ، أن (الطاغوت) الكاهن الذي كان يحكم بين الناس ، ويتحاكمون اليه . وأنها نزلت في حق يهودي اختصم مع مسلم ، فكان المسلم أو المنافق يريد الاحتكام الى الكاهن ، وكان اليهودي يدعو الى النبي أو المسلمين ، لأنهم لا يقبلون الرشوة ، فاصطلحا أن يتحاكما الى كاهن من جهينة ، أو الى كاهن بالمدينة، أو الى كعب بن الأشرف، فنزل الوحي بتوبيخ ذلك المسلم أو المنافق[3] .

والتكهن عن المستقبل والتحدث عن الماضي ، موضوع له فروع عديدة . وقد عدّ علماً من العلوم عند كثير من الأمم ، وألفوا فيه . وتنبؤ الأصنام هو نوع من هذه الأنواع . ويدخل في التكهن التنبؤ بواسطة وسيط : مكالمة صنم ، أو (تابع) أي (رئي) ، وقراءة كبد الشاة وقراءة أعضائها كما كان عند البابليين وعند المصريين . والتكهن بحركات الطيور ، وتفسير الأحلام . وتفسير بعض الظواهر الطبيعية وما شابه ذلك وكل هذه كانت معروفة عند الجاهليين .

وليس من الضروري ان يكون التكهن بتكليم الصنم حتماً وفي المعبد بالضرورة، فقد كان من الكهان من يقيم في بيته ويتكهن مع ذلك للناس ، ينطق بما يوحى اليه وبما يشعر به . وقاصدوه يرون ان فيه قوة خارقة وقابلية لتلقي الوحي من تلك القوة التي يتصورونها على هيأة شخص غير منظور يلقي الى الكاهن الوحي ، فينطق بما يناسب المقام وبما يكون جواباً على الأسئلة التي توجه اليه . ويطلقون على ذلك الشخص الخفي اسم (تابع) أو (صاحب) أو (مولى) و (ولي) و (رئي) ، لأنه يكون تابعاً وصاحباً للكاهن ، يتبعه ويصاحبه ويلقي اليه

---

١ تفسير الطبرى (٨٣/٥ وما بعدها) .
٢ سورة النساء ، الآية ٦٠ .
٣ تفسير الطبري (٩٦/٥ وما بعدها) .

(الرئي) . يكشف له الحجب ويأتيه بالأسرار . فهو (حاز) و (حزّاء) و (حازية) و (الرائي) في العهد القديم[1] .

وكان من رأي الجاهليين ان هناك وحياً يوحى الى الكاهن بما يقوله ، وقد قالوا لذلك المصدر الذي يوحي اليه : (شيطان الكاهن) ، كما قالوا للمصدر الذي يوحي الى الشاعر بوحي شعره : (شيطان الشاعر) ، ذلك لأن شيطان الكاهن يسترق السمع ويلقي به الى الكهنة[2] . يسترقه من السماء ، فيأتي به الى الكاهن ويلقي ما استرقه اليه ، فيلقي الكاهن ما ألقى عليه شيطانه الى الناس ، وبذلك يتنبأ لهم[3] . « سأل رسولَ الله ، صلى الله عليه وسلم ، ناسٌ عن الكهان، فقال : ليسوا بشيء ، فقالوا : يا رسول الله ، انهم يحدثونا أحياناً بشيء ، فيكون حقاً ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : تلك الكلمة من الحق ، يخطفها من الجني فيقرها في اذن وليه ، فيخلطون معها مئة كذبة[4] » .

وقد وردت كلمة (كاهن) في القرآن الكريم في معرض الردّ على قريش الذين اتهموا الرسول بأنه (كاهن) . وبأنه يقول القرآن على نمط سجع الكهان. فجاء فيه : « فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون »[5] ، و « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »[6] . فرد عليهم بقوله : « ما هذا القرآن بقول شاعر ، لأن محمداً لا يحسن قيل الشعر ، فتقولوا هو شعر، قليلاً ما تؤمنون . يقول تصدقون قليلاً به أنتم ، وذلك خطاب من الله لمشركي قريش . ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون . يقول ولا هو بقول كاهن ، لأن محمداً ليس بكاهن ، فقولوا هو

---

١ Reste, S. 134, Shorter Ency., p. 207.

٢ تاج العروس (٩/٣٢٦ وما بعدها) ، اللسان (١٧/٢٤٤) ، الطبرسي (٥/٣٤٩ ، ٣٦٧) ، بلوغ الارب (٢/٢٦٩) ، مروج الذهب (٢/١٧٢ وما بعدها) ، مفتاح السعادة ، لطاش كبري زاده (١/١١٣ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٨/٣٩٨) ، مقدمة ابن خلدون (١/١٠١ وما بعدها) .

٣ صبح الاعشى (١/٣٩٨) .

٤ ارشاد الساري (٨/٤٠٠) ، صحيح مسلم (٧/٣٥ وما بعدها) ، عمدة القارىء (٢١/٢٧٥) ، اللسان (١٧/٢٤٤) ، الروض الانف (١/١٣٦) ، نهاية الارب (٣/١٢٨) ، (في أخبار الكهان) .

٥ سورة الطور ، الآية ٢٩ ، تفسير الطبرى (٢٧/١٨) .

٦ الحاقة ، الآية ٤٢ .

ممن سجع الكهان »[1] . فكان للكهان أسلوب خاص في كلامهم عند التنبؤ والتكهن هـو أسلوب السجع . ولذلك عرف بـ (سجع الكهان) . وقد امتاز سجعهم هذا باستعمال الكلام الغامض ، والتعابير العامة الغامضة التي يمكن تفسيرها تفاسير متناقضة ومختلفة . وهو أسلوب تقتضيه طبيعة التكهن ، لكي لا يلزم الكاهن على ما يقوله من قول ربما لا يقع ، أو قد يقع العكس . ففي مثل هـذه الحالة ، يمكن أن يكون للكاهن مخرجٌ باستعماله هذا النوع من الكلام .

وقد ورد أن الرسول نهى عن محاكاة الكهان في سجعهم ، فذكر عنه قوله: « أسجعٌ كسجع الجاهلية »[2] .

ويذكر أهل الأخبار أن (تابع) الكاهن ، وهو شيطانه وجنيّه، كان يسترق في الجاهلية الأخبار من السماء ، فيلقي بها الى الكاهن المختص به . فيخبر الكاهن من يأتي اليه للكهانة . بقوا على ذلك الى ظهور النبوة ، فلما نزل الوحي انقطعت الكهانة ، إذ وجد الشياطين الذين كانوا يسترقون السمع لهم شهاباً رصداً . وقالوا إن قوله تعالى : « وانّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً »[3] ، إنما عنى به هذا الحادث . حادث منع الشياطين من استراق السمع[4] .

ويذكر أهل الأخبار أيضاً ان « القذف بالنجوم قد كان قديماً ، وذلك موجود في أشعار القدماء من الجاهلية . منهم : عوف بن الجزع ، وأوس بن حجر ، وبشر بن أبي خازم ، وكلهم جاهلي . وقد وصفوا الرمي بالنجوم »[5] . وان من عقائد أهل الجاهلية ان في تساقط النجوم والشهب دليـل على موت عظيم أو ميلاد مولود عظيم[6] . وذكر ان الرسول كان جالساً مع قوم من الأنصار إذ رمي بنجم فظهر نوره ، فقال لهم : ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به في

---

١ تفسير الطبري (٢٩/٤٢) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٨٧) .
٣ سورة الجن ، رقم ٧٢ ، الآية ٨ وما بعدها .
٤ تفسير الطبري (٢٩/٦٩ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (٢/١٠) ، (المنيرية) ، نهاية الارب (٣/١٢٤ وما بعدها) ، مفتاح السعادة (١/٢٩٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/٣٢٦ وما بعدها) ، (كهن) ، مروج الذهب (٢/١٥٢ وما بعدها) .
٥ الروض الانف (١/١٣٥) .
٦ الروض الانف (١/١٣٦ وما بعدها) .

الجاهلية ؟ قالوا : يا رسول الله كنا نقول حين نراه يرمى به مات ملك ، ولد مولود[1] .

وقد جعل (المسعودي) حدة الأذهان مع نقصان الأجسام وتشويه الخلق ، من جملة العوامل التي دفعت على التكهن والإخبار عن الغيب . وضرب مثلاً على ذلك : شق ، وسطيح ، وسملقة ، وزوبعة ، وسديف بن هوماس ، وطريفة الكاهنة ، وعمران أخي مزيقياء ، وحارثة ، وجهينة ، وكاهنة باهلة وأشباههم من الكهان[2] .

وقد يلحق التابع من الجن أشخاصاً لم يشتهروا بالكهانة وإنما عرفوا بشدّة ذكائهم ومعرفتهم بعواقب الأمور، مثل (أحيحة بن الجُلاح) وكان من أشراف المدينة ، وقد اشتهر عندهم بكثرة صوابه وسرعة ادراكه للعواقب . فعللوا ذلك بوجود تابع له من الجن كان يعلمه المغيبات[3] .

قال (الجاحظ) : « وكانوا يقولون ، إذا ألف الجني إنساناً وتعطف عليه، وخبره ببعض الأخبار ، ووجد حسه ورأى خياله ، فإذا كان عندهم كذلك قالوا : مع فلان رئي من الجن . وممن يقولون ذلك فيه عمرو بن لحي بن قمعة، والمأمور الحارثي ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب .

فأما الكهان ، فمثل حارثة جهينة ، وكاهنة باهلة ، وعُزى سلمة ، ومثل شق وسطيح وأشباههم[4] .

والكهان يرون تابعهم ، وقد يتجلى لهم في صورة إنسان . ويظهر على صورة رجل للكواهن كذلك . فقد كان للغيطلة ، وهي على ما يزعمه أهل الأخبار كاهنة أبوها مالك بن الحارث بن عمرو بن الصعق بن شنوق بن مرّة ، وشنوق أخو مدلج ، تابع يفد اليها ، ويدخل غرفتها ، ويجلس تحتها . كما كان لفاطمة بنت النعمان النجارية ، وهي كاهنة كذلك ، تابع من الجن « كان إذا جاءها ، اقتحم عليها في بيتها . فلما كان في أول البعث، أتاها ، فقعد على حائط الدار ولم يدخل، فقالت له : لِمَ لا تدخل ؟ فقال : قد بعث نبي بتحريم الزنى »[5] .

---

١ السيرة الحلبية (١/١٤٠) .
٢ مروج (٢/١٥٤) .
٣ الاعاني (١٣/١١٥) « ذكر احيحة بن الجلاح » .
٤ الحيوان (٦/٢٠٣ وما بعدها) .
٥ الروض الانف (١/١٣٧) .

فالكاهن اذن ، هو الذي يتنبأ بواسطة تابع ، ولا يستطيع غير الكاهن رؤية التابع . وتكون الكهانة كلاماً يلقيه الكاهن نفسه ، أو تابعه ، جواباً عن أسئلة الكاهن . ولما كان التابع روحاً ، كان من الطبيعي تصور صدور ذلك الكلام من روح لا يمكن لمسها ولا رؤيتها ، ترى وتسمع وتعقل ، وتجيب ما يطلب منها الاجابة عنه .

ويكون الكاهن في أثناء تكهنه في غيبوبة أو في شبه غيبوبة في الغالب ، ذلك بأنه متصل في هذه الأثناء بعالم مجهد صعب لا يتحمله كل انسان، ولاتصال الروح فيه ، واتصال الروح بجسم الكاهن شيء جد عسير ، يتصبب العرق منه . خاصة اذا كان المتكلم الكاهن نفسه .

ويكون التكهن ، في الغالب ، في مكان هادىء تكتنفه ظلمة أو عتمة ، لأن للهدوء والظلام أثراً عظيماً في النفوس ، ويسبقه حرق بخور في الأكثر يستمر الى ما بعد انتهاء التنبؤ ، لأن البخور من الروائح الطيبة التي تؤثر في الأرواح ، فتجلبها الى المكان بسرعة . ثم إن له تأثيراً خاصاً في الأعصاب، وهو بذلك مادة صالحة في الايحاء لمن يقصد استشارة الكهان .

ويروي الأخباريون ان الناس كانوا اذا قدموا على الكهان امتحنوهم ليتأكدوا من صدق تكهنهم ومقدار علمهم . وذلك باخفاء شيء اخفاءً لا يمكن الاهتداء اليه ، أو بوضع لغز ، أو ما شابه ذلك ، فيبدؤون الكاهن بالسؤال عنه . فاذا أجاب جواباً دل على معرفة وسعة علم ، سألوه عن الأمر الذي عندهم والذي من أجله قصدوه . ويكون لهؤلاء الكهان أجر يدفع اليهم . والعرف الغالب ان الكهانة لا تكون ولا تصح إلا بتقديم شيء للكاهن ، لأن التابع لا يرضى بالتنبؤ إلا اذا رأى حلاوة التنبؤ .

ومن قبيل الامتحانات التي امتحن بها الكهان ، امتحان (عتبة بن ربيعة) الى بعض كهان اليمن ليتأكد من صدق تكهنه قبل النظر في أمر اختلاف ابنته (هند) مع زوجها (الفاكه بن المغيرة) في فرية رماها (الفاكه) زوجته بها[1]. وامتحان (عبد المطلب) للكاهن (ربيعة بن حذار الأسدي) حين اختصم مع (بني كلاب وبني رباب)[2] . وامتحان (الكاهن الخزاعي)[3] وغير ذلك .

١ نهاية الارب (٣/١٣١) ، صبح الاعشى (١/٣٩٨ وما بعدها) .
٢ نهاية الارب (٣/١٣٣) .
٣ نهاية الارب (٣/١٣٢) .

وما يعطاه الكاهن ويجعل له على كهانته ، يقال له (الحُلوان) و (حلوان الكاهن) ، وهو شيء غير معين ولا ثابت ، انما يتفق عليه ، والرأي الشائع بين العامة حتى الآن أن الكهانة لا تصدق إذا لم يعط الكاهن أو الساحر (حلوانه) ؛ لأن ما يقدم الى الكاهن لا يخصه ولا يكون له ، إنما هو للرئي ، والرئي لا يقوم بعمله ولا يحسن أداءه إلا بحلوان ، يقبله مهما كان ، وعلى الكاهن استشارة (التابع) ومراجعته فيه حتى يقنع ، ويوافق على الأجر . ولما كان الاسلام قد منع الكهانة، كان من الطبيعي نهيه عن دفع الحلوان[1] .

والكهّان إنما صاروا كهاناً ، أي متنبئين بالغيب ، لأن « الكهنة قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في الأمور ، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم اليه »[2] . وهذا هو تعليل إسلامي بالطبع لمصدر تنبؤ الكهان ، أما رأي الجاهليين عنه ، فلا علم لدينا عنه ، لعدم ورود شيء منهم الينا .

وتقدم الكهانة على القدرة الشخصية وعلى ذكاء الكاهن،لذلك لم تكن كالسدانة مثلاً إرثاً ينتقل من الآباء الى الأبناء ، بل كان في إمكان كل شخص يرى في نفسه القدرة على التنبؤ بالغيب والتحدث عما سيحدث للسائلين ان يدعي الكهانة وان يعد نفسه كاهناً يتكلم باسم الأرباب ، وينطق بالقوة الخفية التي توحي اليه بالتنبؤات ، فيتخذ له مكاناً في معبد أو في موضع آخر أو في بيته ليقصده من يريد استشارته في عظائم الأمور مهما اختلفت وتنوعت عن المستقبل وعن الأخبار وعن الأسرار والمغيّبات وعن القيام بعمل من الأعمال .

وفي الأقوال المنسوبة الى الكهان ، قسم بالكواكب كالشمس والقمر وبالنجوم وبالليل وبالنهار وبالأشجار وبالرياح والكلمات وبالجبال والأنهار وبالطيور وبما شابه ذلك أمور طبيعية ، الغرض منها التأثير في نفوس السامعين والأغراب في الكلام ، ليكون بعيداً عن الأسلوب المألوف . وقد روى الأخباريون نماذج من هذا الكلام،

---

١ « أعطيت الكاهن حلوانه ، أي كراء كهانته » ، الاشتقاق (٢/٣١٤) ، « نهى النبي صلى الله عليه وسلم ، عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن » ، ارشاد الساري (٨/٤٠٠) ، اللسان (١٨/٢١١) ، تاج العروس (١٠/٩٦) ، اللسان (١٤/١٩٤) ، (صادر) « حلو » ، النهاية (٣/٢٥٦ وما بعدها) ، مفتاح السعادة (١/٢٩٣ وما بعدها) .

٢ عمدة القارىء (٢١/٢٧٥) ، ارشاد الساري (٨/٣٩٨ وما بعدها) .

من هذا السجع المعروف بـ (سجع الكهان) ، نسبوه الى أصحابه من كهان الجاهلية . وهي نسبة مهما حاولوا اثبات صحتها وصدق روايتها ، فانهم عاجزون في رأيي عن اقناعنا بصحة ما يقولون. كيف حفظوا ذلك الكلام وتناقلوه بالحرف الواحد بوزنه وبأسلوبه وبنصه وبفصه الى أن أوصلوه الى أيدي العلماء والمدوّنين فثبتوه بالتدوين ؟ وكيف لم يخطئوا في ذلك ولم ينسوا منه حرفاً ، حتى لكأنه كلام مقدس وارد عن وحي سماوي ، فلا بد من المحافظة على نصه وروايته على نحو ما ورد وحفظ ؟ واذا كان العلماء قد تساهلوا في رواية متن حديث رسول الله فسمحوا بالتصرف فيه بشرط المحافظة على المعنى محافظة تامة ، لصعوبة التمسك برواية النص على نحو ما ورد عن الرسول . فكيف يعقل محافظة الرواة على حرفية كلام الكهان على نحو ما نسب اليهم. وكلام الكهان ليس بشيء بالقياس الى كلام الرسول ، ثم انه أقدم منه ، ولم يكن مدوناً ولا مكتوباً في كتاب على ما يفهم من روايات الأخباريين .

وقد كان للكهان على ما يتبين من قصص الأخباريين أثر كبير في حياة العرب قبل الإسلام . فقد كان الناس يستشيرونهم في إبرام مهات الأمور ، كإعلان حرب أو كشف عن جريمة أو بحث عن شيء مفقود وما شاكل ذلك . لقد كانوا يستشيرونهم في الحروب ، يتنبؤون للناس بقرب حدوث غزو أو نزول كارثة أو خبر سيقع قريباً . لقد كان هجوم بني أسد على (حجر) بمشورة الكاهن وبرأيه ، وكان تركهم تميماً وافتراقهم عنهم في يوم جبلة بتحذير من الكاهن كذلك[1] . وقد استعان النعمان أو يزيد بن عمرو الغساني بالكاهن (الخمس التغلبي) ، لاخباره عمن تجاسر على ناقته فقتلها ، كما استعان (عتبة بن ربيعة) في اثبات نسب ابنته (هند) منه[2] .

وقد اشترك الكهان أنفسهم في الغزوات وفي الحروب . كانوا يشجعون قومهم ويحثونهم على القتال ، وكان بعضهم من مشاهير الفرسان ، مثل (زهير بن جناب) ، و (جذيمة) العبسي ، وقلطف الكاهن ، والمأمور كاهن مذحج .

---

١ الاغاني (٣٦/١٠) ، مروج الذهب (١٧٣/٢ وما بعدها) ، نهاية الارب ، للنويري (١٢٤/٣) ، صبح الاعشى (٣٩٨/١) ، Reste, S. 136.

٢ الاغاني (٢٧/١٠) ، « ذكر مقتل خالد بن كلاب » ، صبح الاعشى (٣٣٨/١ وما بعدها) ، Reste, S. 136.

ولم يكن الكهان من الطبقات الدنيا عند عرب الجاهلية ، ولا من سواد الناس. لقد كان منهم من هو من سادة القبيلة ومن الأشراف . ولا بد أن يكونوا من هذه الطبقة ، ليكون حكمهم نافذاً بين الناس بما لهم من عز ومنزلة وجاه . وقد عدّ الأخباريون (زهير بن جناب) رئيس كلب في جملة الكهان[1] . وقد كان للقبائل (كهان) تلتجىء اليهم في الملمات ، لتستشيرهم وتعمل برأيهم في الغزو والحرب . يسيرون معها ، وقد يقودونها في المعارك .

وقد كان لكل قبيلة كاهن منها أو عدة كهان،تلتجىء القبيلة اليهم لاستشارتهم في كل أمر عظيم يحدث لهم . ولا يشترط ان يكون كاهن القبيلة رجلاً ، إذ يجوز ان يكون امرأة . وكان كاهن ثقيف (قريش) عند ظهور الاسلام رجل يقال له (خطر) ، وكان لجنب كاهنهم كذلك ، وكان لقريش حين ظهور الاسلام كاهنة تدعى (سوداء بنت زهرة بن كلاب) ، وهكذا كان شأن بقية القبائل . فلما ظهر الاسلام ، ودّع اولئك الكهان رئيهم وتابعهم ، وكهانتهم ، إذ نهى الاسلام عنها . وقد كان لبعضهم أثر مهم في إعداد قبائلهم للدخول في الاسلام[2] .

وقد أشار بعض الكتبة الكلاسيكين الى وجود كهان عند العرب، كما انه ورد في كتابات طور سيناء ما يدل على وجودهم عند القبائل[3] .

ولم يكن الكاهن ، كاهناً ، بمعنى المخبر عن المغيبات فقط، بل كان حاكماً يحكم بين الناس فيما يقع بينهم من خلاف . فالكاهن حاكم يفصل في الخصومات . وقد كان أكثر حكام العرب كهاناً ، يقصدهم المتخاصمون من مواضع بعيدة لما عرفوا به من إصالة الرأي ، وصحة الحكم .

وقد ذكر أن الكاهن كان لا يلبس المصبغ . أما العراف فإنه لا يدع تذييل قيصه وسحب ردائه[4] ، ويدل ذلك على أنهما كانا يميزان أنفسهما بمميزات وعلامات وأنهما كانا يتجنبان بعض الأمور .

---

١ الاغاني (٨/٦٦) ، (١٥/٧٣) ، (٢١/٩٩) .

٢ الروض الانف (١/١٣٧ وما بعدها) ، مفتاح السعادة ، (١/١١٣ وما بعدها) ، نهاية الارب (٣/١٢٤) ، صبح الاعشى (١/٣٩٨) .

٣ Ency. Religl., I, p. 667.

٤ تفسير الطبري (١٨/٥٧) ، ثمار القلوب (١٩٣) ، بلوغ الارب (٣/٤٠٧) .

وقد اشتهر في الجاهلية عدة كهّان ذكر الأخباريون أسماءهم ، منهم : شقّ ، وسَطِيح ، وأوس بن ربيعة ، والخمس التغلبي ، وعُزى سلمة الكاهن ، ونفيل ابن عبد العزي ، وخنافر بن التوأم الحميري ، وسواد بن قارب الدوسي ،وعمرو ابن الجعيد ، وابن الصياد ، والأبلق الأزدي ، والأجلح الدهري ، وعروة بن زيد الأزدي ، ورباح (رياح) بن عجلة ، وهو المعروف بعراف اليمامة ، والكاهن الخزاعي ، وهو جدّ (عمرو بن الحمق) ، وكان منزله بعسفان ، واليه احتكم هاشم وأمية [1] ، و (كهال) ، أحد الكهنة الجاهليين [2] .

وأشهر الكهان وأعرفهم : شق وسطيح ، وللأخباريين عنهما قصص أخرجهما من عالم الواقع ، وجعلها في جملة الأشخاص الخرافيين . فشق في زعمهم إنسان له يدٌ واحدة وعين واحدة ، وجعلوه من المتشيطنة صورته صورة نصف آدمي . وذكروا أنه كان معاصراً لمالك بن نصر اللخمي ، وأنه استدعاه واستدعى سطيحاً معه لتفسير رؤيا رآها أفزعته ، وأنهما أخبراه بوقوع غزو الحبشة لليمن وبظهور سيف بن ذي يزن . وقالوا : إنه من بني جليحة ، وأنه عمّر ثلاثمائة سنة [3] . وقالوا ان سطيحاً كان كتلة من لحم يدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم فيه إلا الجمجمة ، وأن وجهه في صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق ، وكان في عصره من أشهر الكهّان ، وان كسرى بعث اليه عبد المسيح بن بقيلة الغساني ليسأله في تأويل رؤيا رآها ، فأخبره بظهور أمر رسول الله وبقرب زوال ملك العجم ، فأخبر (عبد المسيح) كسرى بذلك [4] .

وزعم ان سطيحاً جسد ملقى لا جوارح له ، ولا يقدر على الجلوس ، إلا اذا غضب انتفخ فجلس . وكان شق شق انسان ، له يد واحدة ، ورِجل واحدة،وعين واحدة . وولد سطيح وشق في اليوم الذي ماتت فيه طريفة الكاهنة،

---

١ تاج العروس (٣٢٦/٩) ، بلوغ الارب (٢٦٩/٢ وما بعدها) ، مروج الذهب (١٧٥/٢ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (١٠/٢) ، البيان والتبيين (٢٨٩/١) ، نهاية الارب (١٣٢/٣) ، الثعالبى ، ثمار (١٠٥ وما بعدها) ، Reste, S. 136. f.

٢ تاج العروس (١٠٦/٨) ، (كهل) .

٣ الاشتقاق (٣٠٣) ، المستطرف (٨٠/٢ وما بعدها) ، (ربيعة بن نصر اللخمي) ، الازمنة والامكنة (١٩٣/٢) ، الاشتقاق (٢٨٦) .

٤ القزويني : عجائب المخلوقات (٣٧١/١) « طبعة وستنفلد » ، الطبري (٩٩/٢) ، نهاية الارب (١٢٨/٣ وما بعدها) ، (في أخبار الكهان) ، Ency., Vol., IV, p. 370.

ة (عمرو بن عامر) ، وهي بنت الخير الحميرية ، ودعت بسطيح قبل ان
ت ، فأتيت به ، فتفلت في فيه ، وأخبرت انه سيخلفها في علمها وكهانتها .
ن وجهه في صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق ، ودعت بشق ففعلت به
فعلت لسطيح ، ثم ماتت وقبرها بالجحفة[1] .

وقد ذكر (المسعودي) ، نسب الكاهن (شق) على هذا النحو : (شق
مصعب بن شكران بن أنرك بن قيس بن عنقر بن أنمار بن ربيعة بن نزار) .
كر نسب (سطيح) على هذه الصورة : (هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن
ن بن ذئب بن عدي بن مازن بن غسان)[2] . ودعاه بـ (سطيح الغساني) في
سع آخر . وأورد سجعاً من سجعه ، كما أورد أخباراً لشق المعاصر له[3] .
، دعاه (الجاحظ) بـ (سطيح الذئبي) ، كما دعاه (ابن اسحاق) بذلك،
ينسب الى جد اسمه (ذئب)[4] .

واذا كانت رواية أهل الأخبار عن وجود الكاهن (سطيح) صحيحة، فيجب
يكون قد عاش في القرن السادس للميلاد ، اذ هم يذكرون أنه كان معاصراً
سرى أنو شروان ، وللنعمان بن المنذر ، ويروون أنه أخبر (عبد المسيح بن
ان) ، الذي جاء اليه ليستفسر منه عن رؤيا رآها كسرى في منامه فأزعجته،
بره بمولد الرسول . وذكروا أيضاً ان كسرى كان يستعين في حكمه بالكهان،
تشيرهم ، وانه كان لديه ثلثمائة وستون كاهناً وسحرة ومنجمين ، وكان من
م كهنة من العرب ، وأشهرهم : السائب[5] .

وذكر بعض أهل الأخبار « أن خالد بن عبدالله القسري كان من ولد شق
ا . فهو خالد بن عبدالله بن أسد بن كرز . وذكر أن كرزاً كان دعياً ،
ه كان من اليهود فجنى جناية ، فهرب الى بجيلة ، فانتسب فيهم . ويقال
ن عبداً لعبد القيس ، وهو ابن عامر ذي الرقعة . وسمي بذي الرقعة ، لأنه

الروض الانف (١/١٨ وما بعدها) .
مروج الذهب (٢/١٦٠) ، « دار الاندلس » ، سيرة ابن اسحاق (٤٧) ، (طبعه أوربة) ، عجائب المخلوقات (٣١٠) ، الحيوان (٣/٢١٠) ، (٦/٢٠٤ ، ٢٠٦ وما بعدها) .
مروج الذهب (٢/١٧٥ وما بعدها) ، الحيوان (٣/٢٠٤) ، (٦/٢٠٤) .
الحيوان (٣/٢١٠) ، البيان والتبيين (١/٢٨١) ، ابن اسحاق (٤٧) ، (كوتنكن) .
تأريخ الخميس (١/٣٢٢) ، نهاية الارب (٣/١٢٨ وما بعدها) .

كان أعور يغطي عينه برقعة ابن عبد شمس بن جون بن شق الكاهن بن صعب»[1]. ويظهر أن أعداء (القسري)، قد أوجدوا له هذه القصة للحط منه، كما أوجدوا قصصاً شبيهاً بهذه القصة، حكوها عن ثقيف، نكاية بالحجاج المكروه.

والى هؤلاء تجب اضافة (الأفعى الجرهمي)، وكان منزله بنجران، واليه احتكم ولد نزار في إرث والدهم[2].

ورووا ان الكاهن (الخزاعي) كان من الكهان المعروفين واليه تحاكم (أمية بن عبد شمس) و (هاشم بن عبد مناف) في أمر مفاخرتهما، فحكم لهاشم على أمية، فخرج الى الشأم وأقام بها عشر سنين. وانه قال في حكمه كلاماً مسجعاً ختمه بقوله: «ولأمية أواخر»، فكانت أول عداوة بين بني هاشم وبني أمية[3]. وهكذا جعلوه يتنبأ بظهور ملك بني أمية. وربما كان هذا الملك هو الذي أوحى الى مفتعل القصة بابداع موضوع اختيار (أمية) الشأم لتكون داراً له أقام بها مدة نزاعه مع هاشم، فحكم ان الملك عليها كان مكتوباً لبني أمية منذ عهد الجاهلية.

وتشبه هذه القصة، قصة شك (الفاكه بن المغيرة) في سيرة زوجه (هند بنت عتبة بن ربيعة)، وتكلم الناس فيها، وذهاب والدها وزوجها بها الى كاهن من كهان اليمن، فلما امتحنه عتبة، وتبين له ان الكاهن حاذق لا يخطىء قال له: قد جئناك «في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يأتي الى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها، ويقول لها: انهضي حتى بلغ هنداً. فقال: انهضي غير رسحاء ولا زانية وستلدين ملكاً اسمه معاوية، فنهض اليها الفاكه، فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده، وقالت اليك عني، فوالله لأحرص ان يكون ذلك من غيرك! فتزوجها أبو سفيان، فولدت له أمير المؤمنين معاوية»[4]. وهي قصة تتحدث عن نفسها، ولا حاجة لي الى ابداء أي تعليق عليها.

وكان (صاف بن صيّاد) يتكهن ويدعي النبوة. وخبأ له النبي خبيئاً فعلمه.

---

١ الروض الانف (١/١٩).
٢ مجمع الامثال (١/١٧ وما بعدها).
٣ المستطرف (٢/٨١)، نهاية الارب (٣/١٢٣ وما بعدها).
٤ المستطرف (٢/٨٢)، نهاية الارب (٣/١٣١ وما بعدها)، (الباب الثالث من القسم الثاني من الفن الثاني. في أخبار الكهنة).

وكان يدعي أن شيطانه كان يأتيه بما خفي من أخبار الأرض[1] . ويذكر ان الرسول سأله : كيف يأتيك هذا الأمر ؟ قال : يأتيني صادقاً وكاذباً[2] . وأن رسول الله ذهب اليه ليرى أمره وكان (ابن صياد) في نخل ، فكلمه رسول الله . وذكر أنه انطلق مرة مع (عمر بن الخطاب) في رهط قبل ابن صياد ، فوجده عند (أطم بني مغالة)[3] .

وكان في بني لهب كاهن لهم يقال له خطر بن مالك . وكان في أيام الرسول. وكان اذ ذاك شيخاً كبيراً[4] . وكان (أبو برزة) الأسلمي من الكهان المعروفين في المدينة أيام الرسول ، وقد تحاكم اليه بنو قريظة وبنو النضير في أمر الديات التي كانت بينهما[5] .

وذكر أن (خطر بن مالك) كان من أعلم كهان (بني لهب) ، وأنهم كانوا يأتونه في الملمات،أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة ، وقد تنبأ لقومه بانقطاع الكهانة وظهور الرسول بمكة حين سألوه عن سبب تساقط النجوم في السماء[6] .

وكان في دوس كاهن اسمه سواد بن قارب الدوسي أو السدوسي . وقد وفد مع وفد من قومه على الرسول وأسلم معه أمامه . وكان له رئي يأتي اليه[7]. وذكر أهل الأخبار انه كان حاذقاً في الكهانة ، مصيباً بها ، « خرج خمسة نفر من طيء من دور الحمى ، منهم : برج بن مسهر ، أحد المعمرين،وأنيف بن حارثة، ولأم عبدالله بن سعد والد حاتم ، وعارف الشاعر ، ومرة بن عبد رضا،يريدون سواد بن قارب ، ليمتحنوا علمه . فقالوا : ليخبيء كل منا خبياً ولا يخبر أصحابه ، فان أصاب عرفنا علمه،وان أخطأ ارتحلنا عنه . ثم وصلوا اليه فأهدوا اليه إبلاً وطرفاً ، فضرب عليهم قبة ونحر لهم،فلما مضت ثلاثة أيام دعاهم، فتكلم برج ، وكان أسنهم فذكر القصة بجميع ما خبأوه ثم بمعرفته بأعيانهم وأنسابهم فقال فيه عارف الشاعر :

---

١ الروض الانف (١/١٣٧) .
٢ مقدمة ابن خلدون (١/٩٥ وما بعدها) .
٣ زاد المسلم (٢/١٠٤ وما بعدها) .
٤ الروض الانف (١/١٣٨ وما بعدها) .
٥ تفسير الطبري (٥/٩٧ وما بعدها) .
٦ السيرة الحلبية (١/١٣٩) .
٧ الروض الانف (١/١٣٩ وما بعدها) ، نزهة الجليس (١/٢٧٧) .

الله أعلم لا بجاري الى القالات في حصني سواد
كأن خبيئنا لما انتخبنا بعينه يصرح أو ينادي[1]

ومن الكهان المعروفين (الحصين بن نضلة) وقد عرف بـ (الكاهن) ، وقيل : إنه سيد أهل تهامة في أيامه[2] . و (عمرو بن الحمق) ، وقد أسلم وصحب النبي ، وشهد المشاهد مع علي[3] .

وكان (ربيعة بن حُذار الأسدي) من الكهان المعروفين ، واليه تحاكم (بنو كلاب) و (بنو رباب) لما خاصموا (عبد المطلب) في مالٍ قريب من الطائف . فحكم لـ (عبد المطلب)[4] .

وذكر (المسعودي) اسم كاهنين ، دعاهما بـ (سملقة) و (زوبعة)[5] . وقد أشار (الجاحظ) اليهما في معرض كلامه على الخرافات[6] .

وأشار (الجاحظ) الى كاهن ظهر في (بني جهينة) ، عرف بـ (حارثة جهينة)[7] ، والى (عزى سلمة) . وقد قال (الجاحظ) عن (عزى) ، أنه كان من أكهن العرب واسجعهم . ودعاه بـ (سلمة بن أبي حية)[8] .

وكان (خُنافر بن التوأم الحميري) كاهناً ، وكان قد أوتي بسطة في الجسم، وسعة في المال ، وكان عاتياً ، فلما وفدت وفود اليمن على النبي ، وظهر الاسلام أغار على إبل لمراد فاكتسحها وخرج بأهله وماله ولحق بالشحر ، فحالف (جودان ابن يحيي الفيرضمي) ، وكان سيداً منيعاً ، ونزل بواد من أودية الشحر ، ثم جاءه (شصار) رئيه ، فنصحه بالعودة الى اليمن ، والدخول في الاسلام . فأسلم على يد معاذ بن جبل بصنعاء ، فترك الكهانة وتعلم سوراً من القرآن[9] .

---

١ الاصابة (٢/٩٥) ، (رقم ٣٥٨٢) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٧٩) .
٣ الاشتقاق (٢٧٩) ، الاصابة (٢/٥٢٦) ، (رقم ٥٨٢٠) .
٤ نهاية الارب (٣/١٣٣) .
٥ مروج الذهب (٢/١٦٠ ، ١٧٦) .
٦ الحيوان (١/٣٠٩) .
٧ الحيوان (٦/٢٠٤) ، مروج الذهب (١/٣٣٧) ، ثمار القلوب (٨١) .
٨ الحيوان (٦/٢٠٤) ، البيان والتبيين (١/١٩٥) ، رسائل الجاحظ (١٣٠) .
٩ الامالي ، للقالي (١/١٣٤ وما بعدها) ، الاصابة (١/٤٥٦) ، (رقم ٢٣٤٢) ، تاج العروس (٣/١٩٢) ، (خنفر) .

ومن الكهان (المأمور) ، وهو (الحارث بن معاوية) الكاهن . وكانت مذحج في أمره تتقدم وتتأخر[1] . و (قلطف) الكاهن ، وهو من طيء[2] .

وكان (زهير بن جناب الكلبي) ، و (جذيمة) العبسي ، كهاناً[3] . وزهير من الفرسان ، فكان من فرسان كلب ، وكان شاعراً[4] .

ويعدّ (الأفكل) من الكهان الفرسان ، وله فرس اسمه هبود[5] .

ولم تحرم النساء الكهانة ، فكان لهن فيها حصة ونصيب . وقد حفظ الأخباريون أسماء عدد من الكاهنات اشتهرت كهانتهن في الجاهلية ، منهن طريفة الكاهنة ، وزبراء ، وسلمى الهمدانية ، وعفيراء الحميرية ، وفاطمة بنت مرّ الخثعمية ، وسجاح ، وغيرهن . وقد نسبوا الى طريفة إخبارها عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه وبخراب سد مأرب ، وذكروا انها سارت مع القبائل حين خافت سيل العرم[6] . ونسبوا الى بقية الكاهنات أمثال هذا القصص عن أمور ستقع قالوا انها وقعت كما تنبأن به .

وذكر (المسعودي) ، ان (طريفة) كانت كاهنة لعمرو بن عامر . وقد نعتها بـ (طريفة الخير) . وقد تنبأت له بقرب تهدم السد،وظهور سيل العرم . كما تنبأ بذلك أخ للملك اسمه (عمران) ، وكان عقيماً كاهناً ، فوقع ما تنبآ به[7] .

وكان من شهيرات الكاهنات أيضاً (الغيطلة) ، وهي (أم الغياطل) ، وهي من (بني مُرة بن عبد مناة بن كنانة)[8] . وقيل : « الغيطلة بنت مالك بن الحارث بن عمرو بن الصعق بن شنوق بن مرة . وشنوق أخو مدلج » . وقد عرف ولدها بالغياطل ، وهم من بني سهم بن عمرو بن هصيص[9] .

---

١ الاشتقاق (٢/٢٣٩) .
٢ الاشتقاق (٢/٢٣٧) .
٣ المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزءالاول) ، (ص ٧) .
٤ معجم الشعراء (١٣٠) ، الشعر والشعراء (٢٢٣) .
٥ المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الاول) ، (ص ٩) .
٦ بلوغ الارب (٢/٢٨٣ وما بعدها) ، الاغاني (١٣/١٠٥) « ذكر خبر مضاض بن عمرو » ، الطبري (٢/٢٤٤) ، مروج الذهب (٢/١٧٥) . Reste, S. 137.
٧ مروج الذهب (٢/١٦٧ وما بعدها) .
٨ الروض الانف (١/١٣٨ وما بعدها) .
٩ الروض الانف (١/١٣٧ وما بعدها) .

ويقال أيضاً أن (سُعدى بنت كريز بن ربيعة) كانت قد تكهنت ، وهي خالة عثمان بن عفان[1] .

وكان لفاطمة بنت النعمان النجارية تابع من الجن ، وكان اذا جاءهـا اقتحم عليها في بيتها ، وقد أدركت مبعث الرسول[2] .

وكانت سوداء بنت زهرة بن كلاب ، كاهنة قريش . ويذكر أن والدهـا أعطاها لحافر قبور ليحفر لها قبراً في الحجون ، فيدفنها حيّة فيه . أي يئدها ، لأنها ولدت زرقاء شيماء ، وكانوا يئدون من البنات من كان على هذه الصفة ، غير أن حافر القبر عاد بها الى والدها ، لأنه لم يشأ دفنهـا في خبر يرويه أهـل الأخبار[3] .

وكان في (خثعم) كاهنة عرفت بفاطمة[4] .

ولاستشارة الناس هؤلاء الكهان في الأمور وطلبهم منهم الفصل فيهـا صارت كلمة (حكم) مرادفة لكلمة (كاهن) في بعض الأحايين . وقد روى الأخباريون أمثلة عديدة من حكم هؤلاء الكهان بين الناس وطريقة فصلهم في الأمـور ، فهم في هذه الحالة حكام يفصلون في القضايا التي يتفق الجانبان المتخاصمان فيها عـلى احالتها عليهم . ولم تكن لنفوذ أحكامهم مناطق وحدود . لقد كان حدود أحكامهم المدى الذي وصلت شهرة الكاهن اليه ، لذلك كان الناس يقصدون الكاهن مـن مناطق بعيدة في بعض الأحيان لشهرته الواسعة التي يتمتع بها بين الناس . وتتوقف هذه الشهرة بالطبع على مبلغ ذكاء ذلك الكاهن وقدرته في فهم طبيعة المتخاصمين أو السائلين ، ليتمكن من إصدار حكم معقول مقبول . وتكون أحكامهم قطعية ، على الطرفين اطاعتها والامتثال لها ، وليس لأحد أن يعترض عليها . ولذلك يأخذ الكاهن من الطرفين المتخاصمين قبل سماعه الشكوى عهداً بوجوب الامتثال لحكمه وعدم ردّه مهما كان نوع الحكم .

---

١ نهاية الارب (٣/١٢٦) ، (٣/١٣٠) ، (طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة).

٢ الروض الانف (١/١٣٧) .

٣ الروض الانف (١/١٤١) .

٤ أنساب الاشراف (١/٧٩) .

العرّاف :

ويطلق بعض علماء اللغة على الكاهن (العرّاف) ، فهو عندهم مرادف للكاهن . غير ان من العلماء من يفرق بين الكلمتين ، ويرى بينهما فرقاً ، فالكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ، ويدعي معرفة الأسرار ، والعراف هو الذي يدعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضالّة ونحوهما ، أو الذي يزعم انه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله[1] . ومنهم من يذهب الى ان العراف من اختص بالإنباء عن الأحوال المستقبلة . أما الكاهن فهو الذي اختص بالإخبار عن الأحوال الماضية[2]. وقد فرّق بين الكاهن والعراف في حديث : « من أتى عرافاً أو كاهناً ... »[3] . وأطلق بعضهم العراف على من يدعي الغيب مطلقاً وفي ضمنهم المنجم والحازي[4] .

وذكر ان (العراف) الكاهن أو الطبيب أو المنجم أو الحازي الذي يدعي علم الغيب[5] . فللكلمة معان عديدة ، ولا تختص بمعنى واحد . وقد ذهب (المسعودي) الى ان العراف دون الكاهن[6] . ونجد هذه النظرة عند غيره أيضاً .

وخلاصة ما يفهم عن الكهانة والعرافة في روايات الأخباريين أن الكهانة هي التنبؤ بواسطة تابع . وأن العرافة تكون بالملاحظات وبالاستنتاجات وبمراقبة الأشياء لاستنتاج أمور منها ، يخبر بها السلئلون على سبيل التنبؤ . وهي على ما يظهر من تلك الروايات ، دون الكهانة في المنزلة ، ولم يكن للعرافين اتصال ببيوت العبادة والأصنام[7] ، ولم يكن لهم (رئي) أي (تابع) ، وإنما كانوا يستنبطون ما يقولونه بذكائهم وعلى القياس . فيأخذون بالمشابهة وبالارتباط بين الحوادث ، ويحكمون بما سيحدث بموجب ذلك[8] .

وقد عدّ العبرانيون العرافة من الحيل الشيطانية كالسحر والتفاؤل ، لأنها من

---

١ النهاية (٤/٤٣) .
٢ تاج العروس (٦/١٩٣) .
٣ النهاية (٣/٩٨) .
٤ تاج العروس (٦/١٩٣) .
٥ تاج العروس (٦/١٩٣) .
٦ مروج (٢/١٥٤) .
٧ (وأما العراف ، وهو دون الكاهن) ، الحيوان (٦/٢٠٤) .
٨ مفتاح السعادة (١١٣١ وما بعدها) .

رجس المشركين . وتشمل عندهم التنجيم والقرعة والزجر وما شاكل ذلك[1] . وقد نهي عنها في الإسلام .

وقد اعتمد العرّاف على الخط . فكان يخط خطوطاً ، ثم ينظر اليها. ليستنبط شيئاً منها ، يتنبأ به للناس . ومن مشاهيرهم (حليس الخطاط الأسدي) . وقد ذكر أنهم كانوا يخطون خطوطاً ، ثم ينظر العراف ويقول : « ابنا عيان،اسرعا البيان ، ثم يخبر بما يرى »[2] .

وتعتمد العرافة – كما تعتمد الكهانة – على الذكاء والتفرس في الأمور والتجارب. وقد خصصها أكثر الناس في الإسلام بالتوصل الى معرفة الأشياء المفقودة.والعراف بما عنده من الملكات والمواهب المذكورة ، يقضي ويتنبأ للناس فيما يراه ، ومن أشهر العرافين في الجاهلية : عرّاف اليمامة ، وهو (رباح بن كحلة) (رباح ابن عجلة) (رياح بن كحلة) المذكور في الشعر ، وعرّاف نجد وهو الأبلق الأسدي[3] . والأجلح الزهري ، وعروة بن زيد الأسدي[4] .

وفي عرّاف اليمامة ورد قول الشاعر :

فقلتُ لعرّاف اليمامة داوني فإنك ان داويتـني لطبيب

والأبلق الأسدي ، هو عراف نجد ، وفيه يقول عروة بن حزام :

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه وعرّاف نجد إن هما شفياني[5]

وقد كان أهـل الجاهلية يعرضون صبيانهم على (العرافين) لإخبارهم عن

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢/٩٣) .

٢ فأنتم عضاريط الخميس اذا غـزوا غناؤكم تلـك الاخاطيط في التـرب
الحيوان (١/٦٣) .

٣ بلوغ الارب (٣/٣٠٦ وما بعدها) ، قال عمرو بن حزام العذري :
وقلت لعـراف اليمامـة داوني فانـك ان أبرأتنـي لطبيـب
فما بي من سـقم ولا طيف جنة ولـكن عمى الحمـيري كذوب
تاج العروس (٦/١٩٣) ، (فقلت) ، الحيوان (٦/٢٠٥) ، مروج الذهب (٢/١٥٤)، ثمار القلوب (٨١) .

٤ الحيوان (٦/٢٠٤) ، (الازدي) ، مروج (٢/١٥٤) ، (دار الاندلس) .

٥ مروج الذهب (٢/١٥٤) ، (العرافة وبعض العرافين) ، رسائل الجاحظ (١٣٠) ، مقدمة ابن خلدون (٩٤ وما بعدها) ، الحيوان (٦/٢٠٤) . (١/٦٣) .

مستقبلهم . وكانت الأسواق مثل سوق عكاظ موئلاً لهم . فكان العراف فيها يرّ به الناس صبيانهم ، ويقول عنهم ما يجول بخاطره ، وذلك بالتفرس في وجه الصبي ، ومقارنة ذلك بما حصل عليه من تجارب في هذا الباب[1] .

وفي اللغة العربية كلمة قديمة أخرى لها صلة بموضوعنا هذا ، هي (القيافة) . ويقصد بها التنبؤ والإخبار عن شيء بتتبع الأثر والشبه[2] . وتدخل في ذلك قيافة آثار الأقدام والأخفاف والحوافر للاستدلال منها على أصحابها ، وتعيين النسب في حالة الشك فيه . وما زالت القيافة معروفة عند العرب حتى الآن . وقد اشتهرت بها (بنو مُدلج) خاصة ، حتى قيل للقائف (مدلجيّ) بسبب هذا الاختصاص[3]، وبنو لهب[4] ، وأحياء مضر[5] .

ويرى (المسعودي) ان القيافة من الأمور التي برع بها العرب واختصوا بها، وصار لهم مران وخبرة بها ، وذكر ان ممن عرف واشتهر بها (محرز المدلجي)، وقد تعجب الرسول من قيافته وصدقه[6] .

وذكر أهل الأخبار ان (الحازر) ، هو من يحزر الأشياء ، وان (الحزارة) في معنى القيافة .

وأما (الفراسة) ، فتكون بالاستدلال بهيأة الانسان وأشكاله وأقواله على صفاته وطبائعه . وقد ذهب بعض المستشرقين الى أنها من الكلمات المعربة التي أخذت من (بني إرم) ، وانها أحدث عهداً من لفظة (القيافة) التي هي من الكلمات العربية الجاهلية[7] . وقد توسع في معناها وألف فيها الكتب في الإسلام وتبحر فيها بعض أئمة الفقهاء مثل الشافعي[8] .

وأما (العيافة) فهي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور والحيوانات ودراسة أصواتها،

---

١ السيرة الحلبية (١/١١٤) .
٢ اللسان (١١/٢٠١ وما بعدها) ، مروج الذهب (٢/١٤٤) .
٣ المسطرف (٢/٨٢) ، Ency., II, p. 1048, Muh. Stud., I, S. 184.
٤ بلوغ الارب (٣/٢٦٢) .
٥ مروج (٢/١٤٩) .
٦ مروج الذهب (٢/١٥٠) .
٧ Ency., II, p. 108.
٨ النهاية (٣/٢٠٧ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٢٦٣ وما بعدها) ، نهايه الارب (٣/١٤٩) .

وقراءة بعض أحشائها ، ولذلك قيل في العبرانية للعائف (الشاق) ، لشقه الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها واستخراج الخبر مما يراه على تلك الأحشاء من ألياف يرى أن في أوضاعها معاني يذكرها للسائل على شكل نبوءة [1] . وكانت معروفة خاصة عند الكلدانيين .

وقد اشتهرت (بنو أسد) بالعيافة ، فقصدها الناس للأخذ منها ، حتى الجن سمعت بعيافتها ، وعجبت منها ، فجاءت اليها تمتحنها في هذا العلم [2] .

واشتهرت (بنو لِهْبٍ) بالعيافة كذلك، ولهب حي من الأرد . ومن هؤلاء (العائف اللهبي) ، (لهب بن أحجن بن كعب) ، وهو الذي تكهن بموت عمر بن الخطاب قبل وقوعه بعام [3] .

والزجر العيافة . وهو يزجر الطير يعافها. وأصله ان يرمى الطير بحصاة ويصيح، فان ولاه في طيرانه ميامنه تفاءل به أو مياسره تطير . وهو ضرب من التكهن . وانما سمي الكاهن زاجراً ، لأنه اذا رأى ما يظن انه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة [4] .

وتطلق لفظة (الحازي) على من يحزر الأشياء ويقدّرها بظنه ، فهي من الكلمات المستعملة في الكهانة ، ويطلق على من يشتغل بالنجوم اسم (حزّاء) ، لأنه ينظر في النجوم وأحكامها بظنه وتقديره [5]. وأطلقت أيضاً على من يزجر الطير، ولا سيما الغراب [6] .

---

١ تاج العروس (٢٠٧/١) ، قاموس الكتاب المقدس (١٢٩/٢) .

٢ « وبنو أسد يذكرون بالعيافة ويوصفون بها ، فيل عنهم ان قوما من الجن تذكروا عيافتهم ، فأتوهم ، فقالوا : ضلت لنا ناقة ، فلو أرسلتم معنا من يعيف . فقالوا : لغليم منهم : انطلق معهم ، فاستردفه أحدهم ، ثم ساروا ، فلقيهم عقاب كاسرة احدى جناحيها ، فاقشعر الغلام وبكى ، فقالوا : مالك ؟ فقال : كسرت جناحا ورفعت جناحا ، وحلفت بالله صراحا ، ما أنت بانسي ولا تبغى لقاحا » ، تاج العروس (٣٠٧/٦) ، اللسان (١٦٧/١١ وما بعدها) .

٣ الروض الانف (١١٨/١ وما بعدها) . قال عبدالرحمن الخزاعي :

تيممت لهبا أبتغي العلم عندهم   وقد رد علم العائفين الى لهب

تاج العروس (٤٧٥/١) ، (لهب) .

٤ تاج العروس (٢٣٤/٣) ، (زجر) .

٥ الروض الانف (١١٨/١ وما بعدها) .

٦ النهاية (٢٥٧/١) .

وقد أشير في كتب أهل الأخبار الى (حازي) عرف واشتهر بين الجاهليين بـ (حازي جهينة)[1] .

الراقي :

ويقال لمن يعمل الرقية ويرقي : (الراقي) . والرقية العوذة التي يرقي بها صاحب الآفة كالحمّى والصرع . قال عروة :

فما تركا من عوذة يعرفانها ولا رقية إلا بها رقياني[2]

ويقال لأجرة الراقي : (البسلة) و (بسلة الراقي) . و (البسل) الحلال ، والبسل أيضاً الحرام،فهو من الأضداد . وبسل الدعاء بمعنى آمين ، أي الاستجابة. وكان الرجل اذا دعا على صاحبه ، يقول : قطع الله مطاك . فيقول الآخر : بسلا بسلاً ، أي آمين آمين[3] .

الاستقسام بالأزلام :

ومن طرق التنبؤ الاستقسام بالأزلام ويقابل ذلك ما يقال له (كسيم) (كسم) « Gasam » في العبرانية . وهي طريقة معروفة عند البابليين كذلك[4] . وعند غيرهم من الشعوب . وقد أشير في التوراة الى أن (نبو ختنصر) (بختنصر) (نبخذ نصر) « Nebuchadnezzar » أجال السهام حين عزم على فتح (أورشليم) (القدس) . « فإن ملك بابل قد وقف عند أم الطريق في رأس الطريقين ليباشر عرافة . فأجال السهام وسأل الترافيم ونظر في الكبد »[5] . وقد خرج السهم الذي كتب عليه (أورشليم) ، فعمل به وهاجم القدس وفتحها[6] .

---

١ البيان والتبيين (١/٢٨٩) .
٢ تاج العروس (١٠/١٥٤) ، (رقى) .
٣ تاج العروس (٧/٢٢٧) ، (بسل) ، الروض الانف (١/٧٥) .
٤ Hastings, p. 567.
٥ حزقيال ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ٢١ .
٦ Hastings, p. 567.

وتعني لفظة (كوسيم) « Gosem » و « Gesem » « Kosem » العرافة في العبرانية[1]. من أصل (كسم) (كيسم) (قيسم) وهو التكهن . وهو أصل (سامي). واليه تعود كلمة (الاستقسام) ، لا الى (قسم) بمعنى تقسيم الشيء وتجزئته . وهو المعنى الذي ذهب اليه أكثر علماء اللغة . وقريب من معنى (قيسم) (كيسم) ما ذكره علماء اللغــة من أن القِسْمَ هو الحظ والنصيب . فإن للحظ والنصيب علاقة وثيقة بالتكهن ، لما فيه من معرفة المستقبل والوقوف عليه .

وقد عرف أهــل الأخبار (الأزلام) : انها السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بهـا . وعرفوا (الزلم) ، انه السهم ، وانه القدح المزلم[2] . وعرفوا القدح : انه السهم قبل ان ينصل ويراش . وان القدح : قدح السهم ، وجمعه قِداح ، وصانعه قدّاح[3] . وقد فسر بعض العلـماء الأزلام بأحجار بيض تشبه أحجار الشطرنج ، كما جعل بعض آخر تلك السهام في مقابـل (الكعاب) التي يستعملها الروم والفرس في الاستخارة[4] . وذكر بعض آخر ان « الأزلام : سهام كانت لأهل الجاهلية مكتوب على بعضها : أمرني ربـي ، وعلى بعضها : نهاني ربي ، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً ، ضرب تلك القداح ، فإن خرج السهم الذي عليه أمرني ربي مضى لحاجته ، وإن خرج الذي عليه نهاني ربي لم يمض في أمره »[5] . وذكر ان الأزلام التي كانوا يستقسمون بهـا غير قداح الميسر ، وانها قدّاح الأمر والنهي لا قداح الميسر[6] . وذكر ان أهل الجاهلية ، كانوا اذا أرادوا ان يخرجوا في سفر ، جعلوا قداحاً للجلوس والخروج ، فإن وقع الخروج خرجوا ، وإن وقع الجلوس جلسوا[7] .

وطريقة الضرب بالقداح ، ان الرجل منهم اذا أراد ان يخرج مسافراً ، كتب في قدح هذا يأمرني بالمكث ، وهذا يأمرني بالخروج،وجعل معها أزلاماً مسحة ،

---

١ العدد ، الاصحاح الثالث والعشرون ، الآية ٢٣ ، صموئيل الاول ، الاصحـاح السادس ، الآية ٢ ، اشعياء ، الاصحاح الرابع والاربعون ، الآية ٢٥ .

٢ اللسان (١٢/ ٢٧٠) .

٣ اللسان (٢/ ٥٥٦) (قدح) ، تاج العروس (٢/ ٢٠٢) ، (قدح) .

٤ تفسير الطبري (٦/ ٤٢ وما بعدها) ، روح المعاني (٦/ ٥٩ وما بعدها) .

٥ اللسان (١٢/ ٤٧٨ وما بعدها) ، (قسم) ، (صادر) .

٦ اللسان (١٢/ ٤٧٩) ، (قسم) ، تاج العروس (٦/ ٤١٧) ، (قسم) .

٧ تفسير الطبري (٦/ ٤٢ وما بعدها) .

أي لم يكتب فيها شيئاً ، ثم استقسم بها حين يريد الخروج ، فإن خرج الذي يأمر بالمكث ، مكث ، وإن خرج الذي يأمر بالخروج خرج ، وإن خرج الآخر أي المسح ، أجالها ثانية حتى يخرج أحد القدحين[1] . وهكذا يفعلون في سائر أمور الاستقسام .

وقد جمع المفسرون ما تمكنوا من جمعه عما علق في أذهان الناس من الأزلام، لورود الإشارة اليها في موضعين من سورة (المائدة)[2] . وأورد علماء الحديث والأخبار ما وصل الى علمهم أيضاً عن (الاستقسام بالأزلام) . ويظهر مما ذكروه أن أهل الجاهلية كانوا يقيمون في أيامهم وزناً كبيراً للاستقسام بالأزلام لاعتقادهم أنه يحكي ارادة الأرباب ويتحدث عن مشيئتها . لذلك كانوا لا يفعلون فعلاً ولا يعملون عملاً إلا بعد أخذ رأيها بالاستقسام . فإن جاء أمر فعلوا ، وان جاء نهي امتنعوا .

وجاء في سورة المائدة : « وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق لكم »[3]، وذلك مع أمور نهى عنها الاسلام . منها تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكي ، وما ذبح على النصب . وجاء ذكر الأزلام في موضع آخر مع ذكر الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، حيث جعلت رجساً من عمل الشيطان ، لذلك ، على المسلم اجتنابها والابتعاد عنها[4] . فالاستقسام بالأزلام من الأمور التي نزل الأمر بالنهي عنها في الاسلام . وقد جاء الأمر بالنهي عنها في شريعة يهود كذلك إذ اعتبرت (رجساً) ، ومن أعمال الوثنيين[5] .

ويكون الاستقسام عند الأصنام في الغالب لاعتقادهم ان النتيجة تمثل ارادة الصنم ومشيئته ، غير ان ذلك ليس بشرط ، فقد كان أصحاب الأزلام يحملون أزلامهم معهم ، ويستقسمون حيث يطلب ذلك منهم . فهم في ذلك مثل أصحاب

---

١ تفسير الطبري (٤٢/٦ وما بعدها) .
٢ سورة المائدة ، الآية ٣، ٩٠ ، تفسير الطبري (٤٩/٦) ، روح المعاني (٥٩/٦ وما بعدها) ، الطبري (٢٤٠/٢) .
٣ الآية ٤ ، تفسير البيضاوي (١١٨/١) ، تفسير الطبرسي (٢٣٨/٣ وما بعدها) ، (١٥٦/٣ وما بعدها) .
٤ المائدة ، الآية ٩٣ ، تفسير البيضاوي (١٣٢/١) .
٥ Hastings, p. 567.

(الفأل) والقارئون للرمل والسحرة في الوقت الحاضر ، يتنقلون بين الناس عارضين فنهم عليهم في مقابل حلوان يقدم اليهم . وهذا النوع ، من أصحاب الأزلام ، هم من الطبقة المرتزقة على شاكلة هذه الجماعة المذكورة في هذه الأيام. وقد كان منهم من يستقسم لنفسه بنفسه ، وذلك بأن يستقسم بالأزلام التي عنده في بيته ، والتي قد يحملها معه ، تماماً كما يفعل أهل (الاستخارة) في الاستخارة بالمسبحة (السبحة) أو بوسائل الاستخارة الأخرى في الوقت الحاضر .

قال أهل الأخبار : « والأزلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهي وافعل ولا تفعل ، قد زُلمت وسويت ووضعت في الكعبة ، يقوم بها سدنة البيت ، فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً أتى السادن فقال : اخرج لي زلماً، فيخرجه وينظر اليه ، فاذا خرج قدح الأمر مضى على ما عزم عليه ، وان خرج قدح النهي قعد عما أراده ، وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قرابه ، فاذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما »[1] .

و « قالوا : كانوا اذا كانت مداراة أو نكاح أو أمر يريدونه ، ولا يدرون ما الأمر فيه ولم يصح لهم أخذوا قداحاً لهم فيها : أفعل ولا أفعل لا يفعل ، نعم لا خير ، شر بطيء سريع ، فأما المداراة فإن قداحاً لهم فيها بيضاً ليس لهم فيها شيء ، فكانوا يجيلونها فمن خرج سهمه فالحق له ، وللحضر والسفر سهمان ، فيأتون السادن من سدنة الأوثان ، فيقول السادن : اللهم أيهما كان خيراً فاخرجه لفلان ، فيرضى بما يخرج له ، فإذا شكوا في نسب الرجل أجالوا له القدّاح وفيها : صريح ، وملصق ، فإن خرج الصريح ألحقوه بهم ، وان خرج الملصق نفوه ، وان كان صريحاً ، فهذه قدّاح الاستقسام »[2] . « وان كان بين اثنين اختلاف في حق سمي كل منهما له سهماً وأجالوا القداح ، فمن خرج سهمه فالحق له »[3] .

وذكر ان أقداح (هُبل) سبعة ، وضعت قدّامه . فان أراد أحدهم سفراً أو عملاً أو تجارة أو زواجاً أو بتّاً في نسب مشكوك فيه أو دفع دية أو ان

---

١ اللسان (١٢/٢٧٠ وما بعدها) .
٢ نهاية الارب (٣/١١٧ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢/٦) ، الدرالمنثور (١/٣١٩) .
٣ صبح الاعشى (١/٤٠٢) .

يخرجوا ماءً ، أتوا هُبَلَ ، ومعهم مائة درهم وبجزور فأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم ، وكانت أزلامهم سبعة قدّاح محفوظة عند سادن الكعبة وخادمها، وهي مستوية في المقدار عليها أعلام وكتابة قد كتب على واحد منها (أمرني ربي) وعلى واحد منها (نهاني ربي) وعلى واحد (منكم) وعلى واحد (من غيركم) وعلى واحد (ملصق) وعلى واحد (العقل) وواحد غفل ليس عليه شيء ، فاذا أرادوا الوقوف على مستقبل الأمر الذي تصدوا له استقسم لهم صاحب القداح بقدحي الأمر والنهي ، فان نجح قدح الأمر ائتمروا وباشروا فيما تصدوا له من حرب أو سفر أو زواج أو ختان أو بناء أو نحو ذلك مما يتفق لهم ، وإن خرج قدح النهي أخروا ذلك العمل الى سنة فاذا انقضت أعادوا الاستقسام مرة أخرى .

ويروى ان السؤال إن كان يخص اقداماً أو احجاماً ، استعمل صاحب القداح قدحي (نعم) أو (لا) فاذا ظهر للمجيل قدح (نعم) عمل به ، ومضى الى ما قصد ، وإن جاء (لا) أي النهي توقفوا سنة . أما اذا كان نزاعاً في نسب أحد منهم ، استقسم بالأزلام الموسومة بـ (منكم) و (من غيركم) و (ملصق) ، فان ظهر (منكم) ، اعتبر المتنازع على نسبه منهم ، وإن خرج (من غيركم) اجتنبوه ونفروا منه ، وان ظهر (ملصق) ، بقي أمره على ما كان عليه قبل الاستقسام ، وأما اذا كان السؤال نزاعاً في (العقل) : أي دية القتيل ، بأن اشتبه عليهم القاتل ، أحضروا من اتهم بالقتل بالقدحين الموسومين بـ (العقل) وبـ (الغفل) ، واستقسم بهما ، فمن خرج عليه العقل تحمّل الدية ، وإن خرج (الغفل) أجالوا ثانياً حتى يخرج المكتوب عليه[1] .

ولما أراد (أبو سفيان) الخروج الى (أحد) ، استخار هبل . بأن كتب على سهم نعم ، وعلى آخر لا ، وأجالها عند هبل ، فخرج سهم نعم ، فخرج بقومه الى (أحد) . وقال يقول : أعلُ هبل . وقال عمر : الله أعلى وأجل، قال أبو سفيان : أنعمت فعال عنها ، أي اترك ذكرها ، فقد صدقت في فتواها، وأنعمت ، أي أجابت بنعم[2] .

---

١ بلوغ الارب (٣/٦٦ وما بعدها) ، الاصنام (ص ٢٨) ، النهاية (٣/٢٦٨) ، تاج العروس (٨/٣٢٦) ، تفسير الطبري (٦/٤٢ وما بعدها) .

٢ اللسان (١٢/٥٨٩) .

ولصاحب الأزلام وخازنها حق يتقاضاه من الطالبين في مقابل عمله . فكان سادن (هُبل) يتقاضى مئة درهم أجراً عن الاستقسام ، كما سبق ان ذكرت، فان تكرر ذلك زيد أجره على ما يذكره الرواة . وقد كان غير العرب يدفعون حلواناً الى صاحب الأزلام ليتنبأ لهم . فلما انطلق (شيوخ مديان) (مدين) و (مؤآب) الى (بلعام) ليستقسم لهم ، حملوا حلوانهم معه ، فقدموه اليه مقابل ما قام به من عرافة اليهم[1] .

وقيل للذين يضربون بالقداح (الضرباء)[2] . والواحد الضريب والضارب . وهو الموكل بالقداح ، وقيل الذي يضرب بالقداح . يقال هو ضريب قداحٍ[3] .

وقد أشير الى الاستقسام في شعر الشعراء الجاهليين ، وقد ذكرت في قصة الشاعر (امرىء القيس) الكندي حينما جاء الى الصنم (ذي الخلصة)، ليستقسم عنده بشأن الأخذ بثأر أبيه . فلما خرج النهي عنه ثلاث مرات ، غضب على صنمه ، وكسر الأزلام ورماها في وجهه ، كما يقول الرواة قائلاً : « لو كان أبوك المقتول لما نهيتني» ، وأنشد :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا   لم تنه عن قتل العداة زورا

وأشار الحطيئة الى ذلك بقوله :

لم يزجر الطير،إن مرت به سنحاً   ولا يفيض على قسمٍ بأزلام[4]

وقال طرفة :

أخذ الأزلام مقتسماً   فأتى أغواهما زلمه[5]

وهناك طرق عدة عرفت عند الشعوب القديمة في التكهن بالسهام ، ومنها رمي السهام في الهواء لمراقبة حركاتها وكيفية سقوطها ، ومنها رمي حزمة من السهام أمام الصنم ، فالسهم الأول الذي يقع قبل بقية الأزلام ، يكون هو السهم الذي

---

١ العدد ، الاصحاح الثاني والعسرين ، (الآية ٧ وما بعدها) ، Hastings, p. 567.

٢ الاشتقاق (٢٧٨) .

٣ اللسان (١/٥٤٧ وما بعدها) .

٤ اللسان (١٢/٢٧٠) ، الاصنام (٤٧) ، نهاية الارب (٣/٦٧) .

٥ اللسان (٢/٢٧٠) .

أمر به الصنم في زعمهم ، فيعمل بموجب ما كتب عليه[1] .

ولخّص (الألوسي) الأزلام التي كانت عند العرب على ثلاثة أنحاء : أحدها : قداح الميسر العشرة ، وثانيها : لكـــل أحد ، وهي ثلاثة على أحدها مكتوب (افعل) ، أي أمر ، وعلى الثاني (لا تفعل) وعلى الثالث (غفل) . فاذا أراد أحدهم الأمر جعلها في خريطة ، وهي (الربابة) وأدخل يده فيها وأخرج واحداً ، فان طلع الآمر فعل أو الناهي ترك أو الغفل أعاد . وثالثها : للأحكام وهي التي عند الكعبة . وكانوا يتحاكمون عند (هبل) في جوف الكعبة . وكان عند كل كاهن وحاكم للعرب مثل ذلك . وكانت سبعة مكتوب عليها ما سبق[2] .

و (القُرعة) أي (السهمة) ، نوع من أنواع التنبؤ بالغيب التابعة للاستقسام بالأزلام . و (السهمة) هي رضاء بحكم (السهم) ، أي بحكم وقوع السهام على الأشياء . وهي جواب فصل يمثل ارادة الآلهة للسائل أو للمختصمين في أمر من الأمور . وقد قيل للسهم: الحظ والنصيب[3] ، لأنه يتكلم عن حظ الانسان ونصيبه .

والتنبؤ بالتفرس في الأشباح الـــتي تظهر على الماء ، أو الزيت المصبوب في الأقداح ، أو الحركات التي تظهر على سطح السائل بعد رمي شيء فيه ، لمعرفة الأسرار والمغيبات والاجرام كالسرقات والقتل ، والزنى ، ودراسة سطح المرآة : هذه وأمثالها كانت معروفة عند البابليين والعبرانيين ، وعند غيرهم من الشعوب. وعقيدتهم أن الأرواح هي التي ترشد الى اظهار المخفيات ، وان هنـاك مأمورين من بينهم واجبهم اخبار العراف والعائف والكاهن بما يطلب منهم معرفتـه ليقوله للسائل[4] .

ومن ضروب التنبؤ (الطرقُ) ، وهو الضرب بالحصى للكشف عن المستقبل، يقوم بذلك الرجال والنساء . ويقال للقائمين بذلك الطُرّاق والطوارق[5] . وورد ان الطرق : الضرب بالحصى والخط في التراب ، وهمـا ضربان من التكهن . وقيل أيضاً : الطرق : أن يخـط الرجل في الأرض بإصبعين ثم باصبع ، ويقول :

---

١ Hastings, p. 567.

٢ بلوغ الارب (٣/٦٧ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٨/٣٥٢) ، « سهم » .

٤ Ency. Religi., 4, p. 807.

٥ النهاية (٣/٤٠) .

ابني عيان اسرعا البيان،وزعم بعضهم أن الطرق ان يخلط الكاهن القطن بالصوف فيتكهن . وقد نهي عنه في الإسلام . ورد في الحديث:انه قال : الطرق والعيافة من الجبت[1] .

ويدخل في ضروب التنبؤ (الخط) « وهو الذي يخطه الحازي . يأتي صاحب الحاجة الى الحازي فيعطيه حلواناً ، فيقول له : اقعد حتى أخط لك ، وبين يدي الحازي غلام له معه ميل ، ثم يأتي الى أرض رخوة فيخط فيها خطوطاً كثيرة بالعجلة لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين،وغلامه يقول للتفاؤل : « ابني عيان ، أسرعا البيان » ، فان بقي خطان فهما علامة النجح ، وإن بقي خط واحد فهو علامة الخيبة ... وقيل : الخط هو ان يخط ثلاثة خطوط ، ثم يضرب عليهن بشعير أو نوى ، ويقول : يكون كذا وكذا . وهو ضرب من الكهانة »[2] . وكانت العرب تسمي ذلك الخط الذي يبقى من خطوط الحازي الأسحم . وكان هذا الخط عندهم مشؤوماً . وقد كان الخط من علوم العرب القديمة[3] .

وعلم الخط هو علم الرمل . وينسب الى (ابن عباس) قوله : علم قديم تركه الناس . وخط الزاجر في الأرض ، رسم خطاً باصبعه ، ثم زجر . وذكر ان (الخطيطة) الرملة التي يخط عليها الزاجر ، وان الأسحم اسم خط من خطوط الزاجر ، وهو علامة الخيبة عندهم . وذلك ان يأتي الى أرض رخوة وله غلام معه ميل ، فيخط الأستاذ خطوطاً كثيرة على عجل لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو منها خطين خطين ، فان بقي من الخطوط خطان ، فهما علامة النجح وقضاء الحاجة ، ويمحو وغلامه يقول للتفاؤل : ابني عيان أسرعا البيان ، واذا محا الخطوط ، فبقي منها خط ، فهي علامة الخيبة[4] .

---

١ اللسان (١٠/٢١٥) ، (طرق) تاج العروس (٦/٤١٧) ، (طرق) ،
لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولازاجرات الطير ما الله صانع
النهاية (٣/٤٠) ، اللسان (١٧/٨٤) ، سنن أبي داوود (٤/١٦) .

٢ النهاية (١/٣٠٣ ، ٣٣٨) « خطط » ، (٣/٤٠) « طرق » ، تاج العروس (٦/٤١٧) ، اللسان (١٧/٨٥) .

٣ اللسان (٧/٢٨٧ وما بعدها) ، (خطط) .

٤ تاج العروس (٥/١٣١) ، (خطط) .

الأحلام :

والأحلام (Dreams) و (الرؤيا) (Visions) باب من أبواب الكهانة كذلك، فهي تفسير لما سيقع في المستقبل من حوادث . وقد تخصص بذلك أناس تعاطوا تعبير الرؤيا والأحلام . وإذ كان اعتقاد الشعوب القديمة ان الأحلام حقيقة ، لا كما نتصورها نحن ، كان الاهتمام بها كبيراً ، والاعتناء بها شديداً ولا يزال يخصها كثير من الناس بالعناية .

وقد فسرت بعض الشعوب القديمة الأحلام بأنها الآلهة أو الأرواح تتجلى في الإنسان في أثناء منامه ، فتطلعه على أشياء كثيرة تتعلق بحياته وبمصيره ، وتساعده بذلك على حلّ مشكلات عديدة عويصة لديه ، أو تهديه الى أمور لم يكن يعرف عنها شيئاً ، أو تحذره بقرب حلول كارثة أو خطر به أو بغيره ، أو بحصول خير له أو لغيره . وقد ترجع به الى أيام ماضية وحوادث قديمة سالفة كان قد نسيها وذهبت من ذاكرته . ونجد في المؤلفات اليونانية واللاتينية والسريانية وفي الكتابات الهيروغليفية والمسمارية أشياء عديدة من القصص المتعلق بالأحلام . وفيها أن كثيراً من الملوك والخاصة كانوا يقيمون وزناً عظيماً لما يرونه ، أو يراه الناس من أحلام . وقد نجح كثير منهم كما خسر كثير منهم أيضاً بسبب تأثير الأحلام فيهم ، حتى إن بعضهم اتخذ له مفسراً للأحلام أو جملة مفسرين ، ليكونوا في خدمته حتى اذا ما رأى حلماً فسروه له .

ولما كانت بعض الأحلام مزعجة ، رجع الكهان المتخصصون بالأحلام أسبابها الى فعل الأرواح الشريرة . أما الأحلام المريحة الطيبة ، فقد جعلوها من إلهام الآلهة في الانسان . ولأهمية الاعتقاد بالأحلام ، وضعت قواعد وتعاليم للأشخاص الذين يريدون معرفة مستقبلهم بالرؤيا والأحلام . وقد نصح في بعضها باجتناب الأكل الثقيل ، وبشرب بعض الأشربة المعينة وبالنوم في المعابد ، للحصول على الرؤيا الصادقة ، والابتعاد عن أضغاث الأحلام . وضع تلك القواعد أناس تخصصوا بهذا الفن ، يلجأ اليهم من يرى حلماً ليجد تفسيره عندهم . فلكل شيء في الرؤيا والحلم معنى خاص ، لا يمكن ان يعرفه إلا ذوو الخبرة والعلم[1] .

وقد عثر على كتابة لحيانية في موضع (الحريبة) ، تبين منها وجود صنم في معبد هذا الموضع تخصص بتفسير الأحلام[2] .

---

١ مقدمة ابن خلدون (١/١٠٣) .

٢ Jaussen — Savignac, Mission, II, p. 417, Euting 825, Arabien, S. 89.

وفي كتب التفسير والسير والأخبار والأدب أمثلة عديدة من الرؤيا ، تشير الى ان الاعتقاد بالأحلام كان معروفاً عند الجاهليين ، وان أثره كان عميقاً في حياتهم. وقد يكون لأهل الكتاب أثر عليهم في كيفية تفسير الأحلام وتوجيه تعبير الرؤيا، غير ان الاعتقاد بالأحلام هو اعتقاد عام ، وكان يقوم به متخصصون بتفسير الأحلام . وقد عرف في الاسلام واشتهر به (ابن سيرين)[1] .

وقد عرف بعض العلماء الاسلاميين الحلم بأنه عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء المزعجة ، وخصصوا الرؤيا بما يراه الانسان في منامه من الخير والشيء الحسن[2] . وهم بذلك على طريقة القدماء في جعل الأحلام نوعين : أحلام من فعل الشيطان والأرواح الخبيثة ، وأحلام من إلهام الآلهة في الانسان ، وهي التي تنكشف من رؤية أشياء جميلة وعن أشياء يرغب صاحب الحلم في الحصول عليها وتحقيقها.

ويرجع العلماء الرؤيا الى النفس ، تطلع على الواقعات فتتذكرها ، وتوحي بها الى صاحبها . وهم يعتقدون بها ، وجعلوها جزءاً من النبوة[3] .

---

١ (كتاب التعبير) ، عمدة القاري (١٢٦/٢٤) ، الفهرست (٤٣٩) . (الكتب المؤلفة في تعبير الرؤيا) .
٢ النهاية (٢٨٩/١ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٥٥/٨) ، (حلم) .
٣ مقدمة ابن خلدون (١٠٢/١ وما بعدها) .

الفصل السادس والثمانون

الطيرة

وقد كان للطيرة شأن كبير في حياة الجاهليين.وهي معروفة عند جميع الشعوب، ويقال لها في العبرانية : طيّر « Tayyar » ، فهي من نفس الأصل الذي أخذ العرب منه التسمية [1] . ويقـال لها في الانكليزية « Augury » ، ويرى بعض الباحثين أن الطيرة انتقلت الى العبرانيين من العرب [2] . وهناك نوع آخر من التطير يقال له « Haruspicy » في الانكليزية ، ويقصد به الطيرة من الحيوانات الميتة ، أو مراقبة الحيوان في أثناء ذبحه لمعرفة المستقبل من حركاته وهو يرتجف رجفـة الموت [3] .

ويقول علماء الأخبار . إن الطـيرة من زجر الطيور ومراقبة حركاتها . فإن تيامنت دل تيامنها عـلى فأل . وان تياسرت دل على شؤم [4] . فهي اذن تشمل التيمن والتشاؤم . إلا أنها خصصت بالتشاؤم فيما بعد . فصارت تعني هذا المعنى عند الاستعمال . قال (الجاحظ) : « وأصـل التطير إنما كان من الطير ومن جهـة الطّير ، إذا مرّ بارحاً أو سانحاً ، أو رآه يتفلى وينتف ، حتى صاروا

١ Ency. Religi., 4, p. 807.

٢ Ency. Religi., 4, p. 778, 807, Hastings, p. 568.

٣ Ency. Religi., 4, p. 778.

٤ اللسان (٥١٢/٤ وما بعدها) ، مفردات ، للاصفهاني (٣١٢) ، صبح الاعشى (٣٩٩/١)

اذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم ، أو الأعضب أو الأبتر ، زجروا عند ذلك وتطيروا ، كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال . فكان زجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطيّر ، ثم استعملوا ذلك في كل شيء »[1].

قال أحدهم :

عوى الذئب فاستأنستُ للذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

كأن الذي يرى ما يكره أو يسمع يطير .

وقد عد العلماء الطيرة والزجر في معنى واحد ، لأن أصلهما انهم كانوا اذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير ، ثم يحكمون من حركاته على ما سيحدث ويقع ، فالزجر والطيرة من ثم شيء واحد[2] . وقد قيل لمن يزجر الطير (زاجر) « لأنه اذا رأى ما يظن انه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة »[3] .

والطيور هي مادة التطير ، وذلك بمراقبة حركاتها وسكناتها . وهو ما يقال له في العبرانية : (نيحوش) (نحوش) « Nihush » من أصل (نيحيش) (نحش) . وتقابل لفظة (نحش) كلمة (حنش) في العربية وتعني (الثعبان) . وقد ذهب بعض علماء التوراة ان لكلمة (نحش) ، صلة بالثعبان ، ذلك لأن الثعبان كان من الآلهة القديمة ، بينما يرى بعض آخر عدم وجود صلة ما للثعبان بهذا الموضوع ، لأن العبرانيين لم يتعبدوا البتة للثعابين ، فلا صلة للثعبان به[4] .

ويدخل في باب الزجر ، زجر الطير والوحش . ويذكر بعض العلماء ان الأصل في الطيرة ، هو زجر الطير ، ثم صار في الوحش ، وقد يجوز ان يغلب أحد الشيئين على الآخر فيذكر دونه ويرادان جميعاً[5] .

وقد يراد بالطيرة (التشاؤم) الذي هو خلاف التيامن . غير أن (التشاؤم)

---

١ الحيوان (٤٣٨/١) ، (هارون) . العمده (٢٥٩/٢ وما بعدها) .
٢ صبح الاعشى (٣٩٩/١) .
٣ تاج العروس (٣٦٤/٣) ، اللسان (٤٠٧/٥) ، (طير) .
٤ Ency. Religi., 4, p. 807, Hastings, p. 568.
٥ العمدة (٢٦٠/٢) .

هو في الواقع أوسع مجالاً وأكثر ساحة من الطيرة ، لأن التشاؤم طيرة وزيادة ، وأعني بالزيادة تشاؤم المتشائمين من أمور أخرى كثيرة مثل التشاؤم من ذوي العاهات أو القبح من البشر ، والتشاؤم من سماع الكلام السيء أو الأخبار السيئة عند الصباح أو من رؤية ميت أو سماع نياحة أو مشاهدة مخلوق مشوه أو سماع اسم موضع يدعو التشاؤم أو اسم شخص فيه معنى التشاؤم وأمثال ذلك ، فتكون كل هذه الأمور مدعاة للتشاؤم عند المتشائمين . « حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم ، أو الأعضب أو الأبتر ، زجروا عند ذلك وتطيروا عندها كما تطيروا من الطير اذا رأوها على تلك الحال »[1] .

ويقول علماء اللغة : الشؤم : خلاف اليمن . ورجل مشؤوم على قومه[2] . وأصل ذلك هو أن العرب تتفاءل بالجهة اليمنى ، وتتشاءم من الجهة اليسرى ، ولذلك كانت إذا أرادت أن تعمل عملاً عمدت الى (الزجر) وهو رمي الطير بحصاة ، ثم يصيح الرامي ، ليفزعها ويزجرها ، وعندئذ يراقب حركة طيرانها ، فإن تيامنت أي جرت يمنة تفاءل به ، وان تشاءمت أي تياسرت ، تشاءم به . فالتيمن هو بالتيامن والتشاؤم هو بالتياسر . ولذلك قيل للكاهن (زاجر) أيضاً ، « لأنه إذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة »[3] . ولاعتماد الزاجر على الطيور في الغالب في هذا النوع من التكهن قيل له : (الطيرة) . قال علماء اللغة : « وقيل للشؤم طائر وطير وطيرة ، لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها والتطير ببارحها ونعيب غرابها وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها . فسموا الشؤم طيراً وطائراً وطيرة لتشاؤمهم بها »[4] .

ولا بد ان يكون للتطير صلة بعقيدة استحالة الأرواح طيوراً بعد مفارقتها الأجساد ، فقد كان من المتعارف عليه عند كثير من الشعوب القديمة ان بعض فصائل الطيور هي أرواح الموتى بعد مفارقتها الأجساد ، وانها لذلك تعي وتفهم ، وان في استطاعة بعض الناس فهم منطقها وتكليمها . ومن هنا ظهرت فكرة

---

١ الحيوان ، للجاحظ (٣/٤٣٨) « تحقيق محمد عبدالسلام هارون » .
٢ اللسان (١٢/٣١٤) .
٣ تاج العروس (٣/٣٦٤) ، اللسان (٥/٤٠٧) ، (١٢/٣١٤) « شأم » .
٤ تاج العروس (٣/٣٦٤) ، (طير) .

(منطق الطير) . وقد كان (سليمان) يحادث الطير[1] . فاذا كانت الطير على هذه الصفة ، ففي حركاتها وسكناتها منطق لمن لا يحسن منطقها ، يشير الى ما يجب على الانسان ان يفعله أو يتركه من أعمال .

وقد كان للتطير والتفاؤل شأن كبير في حياة الجاهليين . كما كان لهما مثله في حياة شعوب أخرى عديدة : ومن بينهم اليونان والرومان والفرس . والتطير هو نظير التشاؤم في المعنى كما قلت . أما نظير التفاؤل ، فهو التيامن . وفي روايات أهل الأخبار أمثلة عديدة من أمثلة الطيرة وقعت لبعض القبائل عند إقدامها على الحرب ، فخسرت لتطيرها . ويحدث من التطير النحس ، وأما من التفاؤل فيكون السعد .

وفي الأخبار : « كانت العرب اذا خرج أحدهم من بيته غادياً في بعض الحاجة ، نظر : هل يرى طائراً يطير ، فيزجر سنوحه أو بروحه ، فاذا لم ير ذلك ، عمد الى الطير الواقع على الشجر ، فحركه ليطير ، ثم نظر الى أي جهة يأخذ ، فزجره . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « اقروا الطير على مكناتها : لا تطيروها ولا تزجروها »[2] . وذكر « انهم كانوا في الجاهلية اذا خرج أحدهم لحاجة ، فان رأى الطير طار عن يمينه تيمن به واستمر ، وإن طار عن يساره تشاءم به ورجع ، وربما كانوا يهيجون الطير ، ليطير فيعيدون ذلك »[3] .

وقد أبطل الرسول الطيرة . « وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يتفاءل ولا يتطير . وأصل الفأل الكلمة الحسنة يسمعها عليل ، فيتأول منها ما يدل على برئه، كأن سمع منادياً نادى رجلاً اسمه سالم ، وهو عليل ، فأوهمه سلامته من علته، وكذلك المضل يسمع رجلاً يقول يا واجد ، فيجد ضالته . والطيرة مضادة للفأل. وكانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد . فأثبت النبي الفأل واستحسنه وأبطل الطيرة ونهى عنها »[4] .

وروي أن أهل الجاهلية كانوا يقولون : « إن الطيرة في المرأة والدار والدابة»[5]

١ Ency. Religi., 4, p. 808

٢ جامع الأصول (٤٥٨/٨) .

٣ ارشاد الساري (٣٩٦/٨) .

٤ تاج العروس (٣٦٤/٣ وما بعدها) .

٥ أمالي المرتضى (٢٠٢/٢) .

و (الكدس) التطير ، و (الكدسة) عطسة البهائم ، وقد تستعمل للإنسان : ومنه الحديث : اذا بصق أحدكم في الصلاة ، فليبصق عن يساره أو تحت رجله، فإن غلبته كدسة أو سعلة ففي ثوبه . والكادس ما يتطير به من الفال والعطاس وغيرهما . ومنه قيل للظبي وغيره إذا نزل من الجبل وغيره كادس[1] .

ومن الألفاظ المستعملة في (الزجر) (سنح) و (برح) . وللفظة (برح) معان عديدة ، وهي من الكلمات السامية الواردة والباقية في عدد من لهجاتها . ومنها لفظة (البارح) وهي ضد (السانح) . و « السانح ما مرّ من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك الى يمينك ، والعرب تتيمن بـه ، لانه أمكن للرمي والصيد . والبارح ما مرّ من يمينك الى يسارك،والعرب تتطير به ، لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف »[2] .

وقد ذكر بعض اللغويين عكس المعنى ، كما ذكر أن أهل نجد كانوا يتشاءمون بالبوارح ويتيمنون بالسانح . أما غيرهم من العرب ، فقد كانت تتيمن بالبارح، وأن بعضاً منهم لم يكن له رأى في شيء من هذا[3] . وذكر ان أهل (العالية) يتشاءمون بالسانح ويتيمنون بالبارح[4] .

قال ذو الرمة وهو من نجد :

خليلي ، لا لاقيتما مـا حييتما   من الطير إلا السانحات وأسوأا

وقال النابغة ، وهو نجدي أيضاً ، يتشاءم بالبارح :

زعم لا لاقيتما البوارح ان رحلتنا غداً   وبذاك تنْعاب الغراب الأسود

وقد عبر (كثير)عن رأي أهل الحجاز بقوله :

أقول إذا ما الطير مرت مخيفة   سوانحها تجري ولا استثيرها[5]

وذكر أن هذيلاً كانت تتشاءم بالسنيح . أما غيرها،فكانت تتشاءم بالبارح[6] .

---

١ تاج العروس (٤/٢٣٠) ، (كدس) .
٢ النهاية (١/٨٥) ، المعاني الكبير (٣/١١٨٧) .
٣ الاغاني (٩/١٥٧) « أخبار النابغة ونسبه » ، Reste, S. 202.
٤ العمدة (٢/٢٦٣) .
٥ البرقوقي (ص ١٩ وما بعدها).
٦ المعاني (٣/١١٨٦) .

ويقال للمتطيرين من الرجال (الخثارم)[1] .

وذكر ان (بني لهب) ، « هم أعيف العرب وأزجرهم للطير »[2] . وهم بطن من العرب يعرفون بالعيافة . ولأهل الأخبار قصص عن عيافتهم وعن زجرهم للطير[3] .

ومن الطيور التي تطير منها أهل الجاهلية : الغراب وطيور الليل ، وهي البومة، والصدى ، والهامة ، والضوّع ، والوطواط ، والخفاش ، وغراب الليل[4] .

وقاعدتهم في الطيرة ، انهم يشتقون من اسم الشيء الذي يعاينون ويسمعون . من ذلك قول سوّار بن المضرب :

تغنّى الطائران ببين ليلى على غصنين من غَرْب وبان
فكان البان أن بانت سليمى وفي الغرب اغتراب غيرُ دانِ

فاشتق الاغتراب من الغرب ، والبينونة من البان .

وقال عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى بينهم الغراب الأبقع
حرِق الجناح كأن لحْيَيْ رأسه جلمان بالأخبار هُش مُولع
فزجرته ألا يفرخ بيضه أبداً ويصبح خائفاً يتفجع
إن الذين نَعَبْتَ لي بفراقهم هم أسهروا ليلي التمام فأوجعوا

فقال : وجرى بينهم الغراب ، لأنه غريب ، ولأنه غراب البين ، ولأنه أبقع . ثم قال : حرق الجناح تطيراً أيضاً من ذلك . ثم جعل لحيي رأسه جلمين ، والجلم يقطع . وجعله بالأخبار هشاً مولعاً ، وجعل نعيبه وشحيجه كالخبر المفهوم[5] .

وأشأم الطيور عند الجاهليين ، (الغراب) : « ليس في الأرض شيء يتشاءم

---

١ المعاني (١١٨٧/٣) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٨٨) ، صبح الأعسى (٣٣٩/١ وما بعدها) .
٣ صبح الأعشى (٣٩٩/١ وما بعدها) .
٤ الحيوان (٢٩٨/٢) ، (هارون) .
٥ الحيوان (٤٤٢/٣ وما بعدها) ، (هارون) .

به إلاّ والغراب أشأم منه »[1] ، ولذلك قالوا إذا نعب : خيراً خيراً ، وذلك من باب التفاؤل بالأضداد[2] . « والعامة تتطير من الغراب ، إذا صاح صيحة واحدة، فإذا ثنى ، تفاءلت به » ، « واذا صاح الغراب مرتين ، فهـو شرّ ، واذا صاح ثلاث مرات ، فهو خير »[3] . وورد (غراب البين) و (الغراب الأبقع) و (الغراب الأسود)[4] . ويراد بذلك التشاؤم بفراق الأحبـة ، ويقال للغراب الأسود (حـاتم) ، والحتمة السواد ، وهـو مشؤوم ، لأنه يحتم بالفراق[5] .

« والعرب تتشاءم من الغراب،ولذا اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب »[6].

« فالغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم ، ألا تراهم كلما ذكروا ما يتطيرون منه شيئاً ذكروا الغراب معه ؟ وقد يذكرون الغراب ولا يـذكرون غيره ، ثم إذا ذكروا كل واحد من هذا الباب لم يمكنهم أن يتطيروا منـه إلا من وجه واحد ، والغراب كثير المعاني في هذا الباب ، فهو المقدم في الشؤم»[7].

وروي أن (ابن عبـاس) كان إذا صاح الغراب ، قال : اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خـير إلا خيرك ، ولا إلّه غيرك . قال الجاحظ : « وليس في الأرض بارح ولا نطيح ، ولا قعيد ، ولا أعضب ولا شيء مما يتشاءمون به إلا والغراب عندهم أنكد منه ، يرون أن صياحه أكثر أخباراً ، وان الزجر فيه أعم. قال عنترة :

---

١ تاج العروس (٤٠٧/١) ، « عزب » ، قال رؤبة :
فازجر من الطير الغراب الغاربا
اللسان (٤٣٨/٢) ، الحيوان للجاحظ (٣١٦/٢) .

٢ الحيوان للجاحظ (٤٥٧/٣ ، ٤٥٨) « طبعة عبد السلام محمد هارون » .

٣ الحيوان ، للجاحظ (٤٥٧/٣ وما بعدها) ، حياة الحيوان ، للدميري (٢٥٥/٢) .

٤ قال عنترة :
ظعن الـذين فراقهم أتـوقع ... وجـرى بينهم الغـراب الأبقـع
خرق الجنـاح كأن لحى رأسه ... جلمان بالاخبـار هش مـولع
اللسان (٢١٠/١٦) ، القاموس (٢٠٤/٤) ، « غراب البين » ، الحيوان للجاحظ (٤٣١/٣) ، البيان والتبيين (٨٣/١) « لجنة » ، قال النابغة :
زعم البوارح أن رحلتنـا غدا ... وبذاك خبرنـا الغـراب الاسود
الحيوان ، للجاحظ (٤٤٢/٣) .

٥ اذا ما رأت عبس من الطير جاثما ... شديد سواد الزف ظلت تفـزع
الاسنقاق (١٦٦/٢) ، اللسان (٣/١٥) ، الحيوان للجاحظ (٤٣٦/٣) ، (هارون) ، بلوغ الارب (٣٣٨/٢ وما بعدها) .

٦ الحيوان للجاحظ (٣١٦/٢) ، حياة الحيوان ، للدميري (١٩٠/٢) .

٧ الحيوان للجاحظ (٣١٦/٢) ، حياة الحيوان (٢٤٤/٢) .

حَرِق الجناح كأنّ لحيَيْ رأسه جلمان ، بالأخبار هش مولع[1]

وفي الغراب وشؤمه يقول الأعشى :

ما تعيف اليوم في الطير الروح من غراب البين أو تيس برح[2]

وقد كنوا عنه بكنى عديدة ، دلالة على مقـدار اهتمامهم به . فقالوا له : أبو حاتم ، وأبو جحادف ، وأبو الجراح ، وأبو المرقال ، وأبو حذر ، وأبو زيدان ، وأبو زاجر ، وأبو الشؤم ، وأبو غياث . ووضعوا الأمثلة على لسانه وعنه . وقصوا عنه الحكايات . من ذلك ، انه أراد ان يقلد القطاة في مشيها ، فحاكاها ، لكنه لم يفلح في المشي مشيها ، فلما أراد العود الى مشيته الأولى ، أضل مشيته ، إذ نسيها ، فنسي المشيتين : فلذلك سمّوه : أبا المرقال[3]. وضربوا المثل بالغراب الأعصم ، فقالوا : أعز من الغراب الأعصم،للشيء القليل الوجود[4]. وأوردوا له قصصاً مع الديك ومع حيوانات أخرى . ورموه بالفسق والفجور[5] .

وفي الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين اشارات الى شؤم الغراب . جاء في شعر (حسان بن ثابت) :

وبيّن في صوت الغراب اغترابهم عشيةَ أو في غصن بان فطربا

فصوت الغراب ، يشير الى الغربة والاغتراب ، لذلك كره[6] .

وهو من ألأم الطير وأخبثها ، وهو من عبيد الطير ، وليس من أحرارها ، فهو دنيء النفس ، إذا صادفته جيفة ، نال منها ، وهو لا يتعاطى الصيد . فهو حيوان خبيث الفعل وخبيث المطعم ، لذلك عدّ العرب أكله عاراً يعير من يقدم

---

١ الحيوان (٣١٦/٢) ، (هارون) .

٢ العمـدة (٢٦٠/٢) ، تاج العروس (٢٠٧/٦) ، (عـاف) ، اللسان (٢٦١/٩) ، (عيف) .

٣ الحيوان ، للجاحظ (١٢٩/٣) ، حياة الحيوان ، للدميري (١٧٢/٢) .

٤ حياة الحيوان (١٧٣/٢) .

٥ الحيوان (١٣١/٣) ، حياة الحيوان (٢٧٣/٢ وما بعدها) ، (٣١٧/٣) ، (هارون) ، (فسق الغراب وتأويل رؤياه) .

٦ البرقوقي (ص ١٩) ، بلوغ الارب (٣٣٤/٢ وما بعدها) .

عليه . وكانوا يتعايرون بأكل لحمه[1] . وليس ذلك « لأنه يأكل اللحوم ولأنه سبع » ، لو كان ذلك منهم « لكانت الضواري والجوارح أحق بذلك عندهم »[2] إنما امتنعوا عن أكله ، لأنه يأكل الجيف والقاذورات ، ولذلك عدّه العبرانيون من الحيوانات النجسة ، والحيوانات النجسة، هي في الغالب الحيوانات التي لا يجوز أكل لحومها ، والظاهر أنه كان على هذه النظرة عند أغلب الساميين .

ونعت الغراب بـ (الأعور) ، قيل إنه نعت بذلك لحدة نظره[3] ، وقيل إنما سمّوه (الأعور) تفاؤلاً بالسلامة[4] . ووصف بالحذر ، فقيل : أحذر من غراب ، وقيل انه نعت بذلك على التشاؤم به ، لأن الأعور عندهم مشؤوم ، وقيل لخلاف حاله ، لأنهم يقولون : أبصر من غراب ، ويقال سمي الغراب أعور ، لأنه إذا أراد أن يصيح يغمض عينيه[5] .

ويذكر أهل الأخبار ان غراب البين نوعان : أحدهما صغار معروفة بالضعف واللؤم . أما الآخر ، فانه ينزل في دور الناس ، ويقع على مواضع اقامتهم اذا ارتحلوا عنها وبانوا منها ، ولذلك سمي بغراب البين[6] .

وللعرب عادات بالنسبة الى الغراب ، ترى انه اذا علق منقار الغراب على انسان ، حفظ من العين . أما اذا علق طحاله على انسان ، هيج الشبق. وان دمه اذا جفف وحشي به البواسير ، أبرأها . واذا أكل مشوياً ، نفع القولنج . واذا غمس الغراب الأسود بريشه في الخل ، وطُلي به الشعر ، سوّده . واذا طلي بها انسان مسحور ، بطل عنه السحر . واذا جفف لسان الغراب (الزاغ) ، ثم أكله انسان عطشان ، ذهب عطشه[7] .

---

١ فما بالعار ما عيرتمونا ... شواء الناهضات مع الخبيص
فما لحم الغراب لنا بزاد ... ولا سرطان أنهار البريص
الحيوان ، للجاحظ (٢/٣١٤ وما بعدها) ، (٢/٣١٣) ، (هارون) ، (لؤم الغراب وضعفه) .

٢ الحيوان للجاحظ (٢/٣١٧) ، (التعاير بأكل لحم الغراب) .

٣ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ٢٥٨) .

٤ الحيوان ، للجاحظ (٢/٣١٤ وما بعدها) .

٥ تاج العروس (٣/٤٢٨) ، (عور) .

٦ الحيوان ، للجاحظ (٢/٣١٥) ، حياة الحيوان ، للدميري (٢/٢٤٦) .

٧ حياة الحيوان ، للدميري (٢/٢٤٥ ، ٢٥٥) .

ونسب الى المرقش السّدوسي ، ذكر الغراب في شعره ، إذ قيل انه قال :

ولقـــد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم
واذا الأشائـــم كالأيـــا مينِ ، والأيامنُ كالأشائم[1]

ويبين هذان البيتان رأي هذا الشاعر في التيامن والتشاؤم .

وكان العرب اذا أرادوا ان يصفوا أرضاً بالخصب والسواد ، قالوا : وقعوا في أرض لا يطير غرابها ، فهذا يعني ان الأرض كلها خصبة مزروعة سوداء ، لا ترى فيها قطعة بيضاء ، ولا ترى إلا الزرع والخيرات والثمر . واذا أرادوا التعبير عن انتقال مرحلة الشباب إلى مرحلة الشيخوخة ، وعن التهام الشيب لسواد الرأس : قيل : طار غراب البين[2] .

وقد يكون في جملة أسباب تشاؤم العرب من الغراب، انه كان يضر بإبلهم . فهم يذكرون انه اذا وجد دبرة في ظهر البعير ، أو قرحة في عنقه ، سقط عليها ونقره وعقره . ولذلك كانوا اذا رأوا دبرة بظهـر البعير ، غرزوا في سنامه إما قوادم ريش أسود ، وإما خرقاً سوداً ، لتفزع الغربان فلا تتقرب منه ولا تسقط عليه . وقد يضعون الريش في اسنمتها وتغرز فيها[3] . والعرب تسمي الغراب لذلك (ابن دأية) ، لأنه ينقر دبرة البعير أو قرحة عنقه ، حتى يبلغ الى دايات العنق وما اتصل بها من خرزات الصُّلب ، وفقار الظهر[4] .

والغراب من الطيور التي ورد ذكرها في التوراة . والعبرانيون مثـــل العرب اعتقدوا بالطيرة منه ، أي بتأثير حركاته وسكناته في احداث الفأل والشؤم[5] .

وقد ذكر (الجاحظ) جريدة بأسماء الجهات التي يقف عليهـــا (الغراب) فينعب ، وما سيقع من وقفته تلك ومن نعيبه ، وما يجب أن يفعله أو يتجنبـــه

---

١ المعاني (١١٨٧/٣) .
٢ تاج العروس (٤٠٧/١) .
٣ الحيوان ، للجاحظ (٤١٦/٣ وما بعدها) ، (هارون) .
٤ الحيوان (٤١٥/٣ ، ٤٣٩) ، (هارون) .
٥ الملـوك الاول ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ٦ ، التـكوين ، الاصحاح الثامن ، الآية ٧ ، Ency. Religi., 4, p. 808.

الانسان في هـــذه الحالات . كما ذكر أموراً أخرى تخص التطير أو التفاؤل من أصوات الحيوانات أو من رؤيتها [1] .

وكان (أمية بن أبـي الصلت) ممن يتطير من الغراب ، ويذكر أهل الأخبار أنه بينا كان يشرب مع اخوان له في قصر (عيلان) بالطائف ، إذ سقط غراب على شرفة القصر ، فنعب نعبة ، فقال أمية : « بفيك الكثكث » ، أي التراب وتشاءم منه ، وقد مات فعلاً في مكانه بعد نعيبه للمرة الثالثة [2] .

وفي شعر أمية قوله :

بآية قام ينطق كـــل شيء   وخان أمانة الديك الغرابُ

وذلك أن من أحاديث العرب ، أن الديك كان نديماً للغراب ، وأنهما شربا الخمر عند خمّار ولم يعطياه شيئـاً ، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب ، ورهن الديك ، فخاس به ، فبقي محبوساً . وأن نوحاً حين بقي في اللجـة أياماً بعث الغراب ، فوقع على جيفة ولم يرجع ، ثم بعث الحمامة لتنظر هـل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مرفأ ، واستجعلت على نوح الطوق الذي في عنقها، فرشاها بذلك . وفي جميع ذلك وغيره قال (أمية) ذلك البيت وأبياتاً أخرى ، تطرق فيها الى قصص اسرائيلي آخر ، أخذ علمه به من أهل الكتاب . « فقـد كان داهية من دواهي ثقيف ، وثقيف من دهاة العرب ، وقد بلغ من اقتداره في نفسه أنه قد كان همّ بادعاء النبوة، وهو يعلم كيف الخصال التي يكون الرجل بها نبياً أو متنبياً اذا اجتمعت له ، نعم وحتى ترشح لـــذلك بطلب الروايات ، ودرس الكتب ، وقد بان عند العرب علاّمة ، ومعروفاً بالجولان في البـــلاد ، رواية » [3] .

ومن رأي العرب ان الغراب لا يشيب ، وضربوا به المثل في ذلك ، فقالوا : « حتى يشيب الغراب ويبيضّ القار » ، ضربوا به مثلاً في الاستمرار على العمل

---

١ نهاية الارب (٣/١٣٤ وما بعدها) .

٢ نهاية الارب (٣/١٣٩) ، حياة الحيوان (٢/١٧٣) ، الحيوان (٣/١٣١) .

٣ الحيوان (٢/٣٢٠) .

وعدم الملل من شيء[1] . ويقولون : ذهب الغراب يتعلم مشي العصفور أو القطاة، فلم يتعلمها ، ونسي مشيته . فلذلك صار يحجل ولا يقفز قفزان العصفور ، أو مشية القطاة[2] .

والبوم من الطيور التي يتشاءم منها بعض الناس ، ولعل ذلك بسبب منظرها الكئيب ولصوتها الحزين وظهورها في الليل ، والليل هو رمز الشر . ويدل وصفها بـ (أم الخراب) و (أم الصبيان) على النظرة السيئة التي كان يراها العرب لها[3] . ويقال إن من أنواعها الصدى والهامة . ولعل اعتقادهم ان الصدى والهامة أو ذكر البوم منها ، هي روح الميت المرفرفة على القبر هو الذي حمل أولئك المتشائمين على التشاؤم منها .

والعاطوس ، وهي سمكة في البحر أو دابة من الحيوانات التي كان العرب يتشاءمون منها[4] . وكذلك (الأخيل) وهو (الشقراق) ، « يتطيرون منه ، ويسمونه مقطع الظهور : يقال اذا وقع على بعير ، وان كان سالماً يئسوا منه ، واذا لقي المسافر الأخيل تطير وأيقن بالعقر إن لم يكن موت في الظهر »[5] . وهم يتشاءمون من الثور الأعضب أي المكسور القرن[6] . ويتشاءمون من (العراقيب) ، الشقراق . وتقول العرب : اذا وقع الأخيل على البعير ليكشفن عرقوباه . وقيل: كل طائر يتطير منه للإبل ، فهو طير عرقوب لأنه يعرقبها[7] .

ويتطيرون بالصرد ، ومن أسمائه الأخطب،ويقال (الأخيل) كذلك . و(الواق) أيضاً الصرد[8] . ويتشاءمون من (الأفكل) ، وهو الشقران ، فإذا عرض لهم كرهوه وفزعوا منه وارتعدوا[9] .

---

١ اللسان (٦٢٩/١١) ، الحيوان (١٣١/٣) ، حياة الحيوان (١٧٧/٢) .

٢ الحيوان (٣٢٥/٤) .

٣ حياة الحيوان (١٨١/١ وما بعدها) .

٤ قال طرفة بن العبد :

لعمري لقد مرت عواطيس جمة ومر قبيل الصبح ظبي مصمع

تاج العروس (١٩٢/٤) ، حياة الحيوان ، للدميرى (١٢١/٢ ، ٢٢١) ، العمدة (٢٦٠/٢) ، اللسان (١٤٢/٦) .

٥ بلوغ الارب (٣٣٧/٢) ، البرقوقي (٣٤٨) ، ديوان حسان (ص 22) «هرشفلد» .

٦ بلوغ الارب (٣٣٨/٢) ، العمدة (٢٦٢/٢) .

٧ تاج العروس (٣٧٨/١) ، (عرقب) .

٨ العمدة (٢٦١/٢) .

٩ تاج العروس (٦٥/٨) ، (افتكل) .

والثعلب والأرنب من الحيوانات التي استعان بها الزاجر ، في الزجر[1] . والواقع أن أهل الزجر قد توسعوا في علمهم حتى شمل كل المخلوقات ، فحركات الإبل والخيل وسكناتها كلها ذات معان ومفاهيم يعرفها المشتغلون بالطيرة ،وكانوا يستعينون بغيرها من الحيوانات .

وقد ذكر بعض الأخباريين أن العرب تتشاءم من الأفراس بالأشقر[2] . وذكروا أيضاً أنها تطيرت من : « المرأة ، والدار ، والفرس » . وفي الحديث : « إن كان الشؤم ، ففي الدار والمرأة والفرس »[3] . وورد : « إنما الشؤم في ثلاثة : في الفرس والمرأة والدار » . وذكر أن (عائشة) ، قالت : « وإنما قال : ان أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك » ، أي ان الرسول انما قال ذلك حكاية عن أهل الجاهلية فقط[4] .

وكما يتغلب الانسان على الأمراض بالأدوية والعلاج ، كذلك يمكن التغلب على النحس وشؤم ناصية المرأة وعتبة الدار بالذبائح في بعض الأحيان ، ولهذا جرت العادة بذبح ذبيحة أو عدة ذبائح عند زفاف العروس إلى بعلها ووصولها عتبة بيته طرداً للأرواح الشريرة وإرضاء لها ، كما جرت العادة بذبح الذبائح حين الانتقال إلى دار جديدة ، أو حين الشعور بوجود أرواح فيها،ويقال لهذه الذبائح (ذبائح الجان)[5] .

وقد ابتدع الجاهليون طرقاً لإبعاد الطيرة من تفكيرهم ، من ذلك انهم تجاهلوا بقدر إمكانهم ، المسميات التي تبعث على التشاؤم بتسميتها بضدها من الكلمات التي لا يتشاءم منها ، فسموا اللديغ بالسليم ، والبرية بالمفازة ، وكنوا الأعمى أبا بصير والأعور ممتعاً ، والأسود أبا البيضاء ، وسموا الغرب بحاتم ، وذلك لتشاؤمهم من الغراب[6] . والتسمية بالأضداد لدفع الطيرة عن الأذهان ، ليست عادة جاهلية حسب ، انما هي معروفة في الاسلام كذلك . كما انها معروفة عند غير العرب من الأمم قديماً وحديثاً .

---

١ Reste, S. 202.

٢ مجمع الامثال (٢/٨٦) .

٣ « لا عدوى ولا طيرة ، انما الشؤم في ثلاث في الفرس والمرأة والدار » ، جامع الاصول (٨/٣٩٦) ، عمدة القارىء (٢١/٢٨٩) .

٤ القسطلاني ، ارشاد (٥/٧٣ وما بعدها) .

٥ تاج العروس (٢/١٣٨) .

٦ الحيوان (٣/٤٣٩) ، « عبد السلام هارون » ، بلوغ الارب (٢/٣٣٨ وما بعدها) .

التثاؤب والعطاس :

ويدخل في الطيرة بعض ما يصدر من الانسان والحيوان من حركات ، مثل التثاؤب والعطاس . والتثاؤب عمل من أعمال الشيطان . وأما العطاس ، فقد كان أثره في ايجاد الشؤم شديداً ، وهو من العادات الجاهلية المذكورة في الشعر المنسوب الى الجاهليين . ذكر ان امرأ القيس قال :

وقد اغتدي قبل العطاس بهيكل شديد منيع الجَنب نعم المنطّق

وانه أراد بذلك انه كان يتنبه للصيد قبل ان يتنبه الناس من نومهم، لئلا يسمع عطاساً فيتشاءم بعطاسه[1] .

وقيل ان العرب كانت تتطير منه ، فإذا عطس العاطس ، قالوا : قد ألجمه، كأنها قد تلجمه عن حاجته[2] .

ويقال الكدسة لعطسة البهائم . وقد تقال لعطسة الإنسان . والكادس ما يتطير به من الفال والعطاس وغيرهما . وقيل الكادس : القعيد من الظباء ، وهو الذي يجيء من خلفك ، ويتشاءم به ، كما يتشاءم بالبارح[3] .

والعطاس فضلاً عن ذلك دواء في نظر أهل الجاهلية ، لذلك كانوا يتجنبونه بقدر إمكانهم ، ويحاولون جهدهم حبسه وكتمه . فإذا عطس أحدهم وكان وضيعاً مغموراً أسمعوه كلاماً مراً فيه رد للشؤم على صاحب العطاس ، كأن يقولوا له : « ورياً وقحاباً » . والوري هو داء يصيب الكبد فيفسدها ، والقحاب هو السعال ، أو : « بك لا بي : أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لا بي ». أما إذا كان العاطس معروفاً محبوباً شريفاً ، قالوا له : « عمراً وشباباً » . وكلما كانت العطسة شديدة كان التشاؤم منها أشد[4]. ويقال للدعاء على العاطس (التشميت) و (التسميت)[5] .

---

١ العمده (٢/٢٦٠) ، ارشاد الساري (٩/١٢٥ وما بعدها) .
٢ المعاني الكبير (٣/١١٨٥) .
٣ تاج العروس (٤/٢٣٠) ، (كدس) .
٤ المعاني الكبير (٢/١٠١٥) ، بلوغ الأرب (٢/٣٣٢) .
٥ اللسان (٢/٣٥٧) ، تاج العروس (١/٥٥٩) ، « شمت » .

وقد نهى الإسلام عن التشاؤم بالعطاس ، وعكسه ، فجعله محبوباً ، بحديث: « إن الله يحب العطاس ، ويكره التثاؤب »[1] .

وإذا مات رجل قالوا : عطس الرجل ، و (عطست به اللُّجم)، واللجمة ما تطيرت منه ، ويقال للموت : لجم عطوس[2] .

بعض من أنكر الطيرة :

وكان بين الجاهليين أناس أنكروا الطيرة ، ولم يحفلوا بها . منهم المرقش من بني سدوس ، حيث قال :

إني غدوت وكنت لا أغدو على واقٍ وحاتم
فـاذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم
فكذاك لا خـيـر ولا شرّ على أحد بدائم[3]

وممن كان ينكر الطيرة ويوصي بذلك ، سلامة بن جندل ، والحارث بن حلزة . ونجد الشاعر (الخُثيم بن عدي) يمدح (مسعود بن بحر الزهري) ، بقوله :

وليس بهيّاب اذا شد رحْله يقول عداني اليومَ واق وحاتم
ولكنه يمضي عـلى ذاك مقدماً إذا صدّ عن تلك الهنات الخثارم

فهو يمدحه ، ويقول إن ممدوحه لم يكن من الخثارم ، أي المتطيرين ، بل كان اذا أراد أن يمضي أمراً ، صد عن تلك الهنات ، فلا يحفل بواق وحاتم[4] .

وكان النابغة من المتطيرين ، خرج مع (زبّان بن سيار) يريدان الغزو ، فبينما هما يريدان الرحلة ، إذ نظر النابغة واذا على ثوبه جرادة تجرد ذات ألوان، فتطيّر وقال : غيري الذي خرج في هذا الوجه ! فلما رجع زبّان من تلك الغزوة سالماً . أنشأ يذكر شأن النابغة ، فقال :

---

١ جامع الاصول (٣٩٦/٧ وما بعدها) .
٢ اللسان (١٤٢/٦) .
٣ الحيوان (٤٣٦/٣ ، ٤٤٩) ، (هارون) .
٤ الحيوان (٤٣٧/٣) ، (هارون) .

تخبّر طيره فيها زيادٌ لتخبره وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عاد أشار له بحكمته مُشير
تعلم أنه لا طير إلا على متطيّر وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطله كثير[1]

واسم النابغة زياد[2] .

وهناك نوع آخر من التنبؤ يقال له في الانكليزية « Hepatscopy » ، ويراد به استخراج الغيب من دراسة كبد الأضاحي التي تقدم الى الآلهة . وقد اشتهر به الكلدانيون على الأخص،وتوسعوا فيه فشمل أيضاً قراءة الرئة أو بقية الأحشاء . وكان معروفاً أيضاً عند العبرانيين واليونان والرومان والمصريين وغيرهم[3] . وللكبد أهمية خاصة عند العرب ، وهو في نظرهم معدن العداوة ومقر الحقد ، لذلك يقال للأعداء : سود الأكباد ، لأن الحقد قد أحرق أكبادهم حتى اسودت[4] .

وقد تشاءموا من بعض الأيام ، مثل (الأيام النحسات) . وهي كل أربعاء يوافق أربعاً من الشهر ، مثل أربع خلون ، وأربع وعشرين ، وأربع بقين . كما تشاءموا من بعض الشهور ، مثل شهر شوّال ، ولذلك كرهت التزوج فيه[5] . وورد يوم نحس و (أيام نحسات) ، وهي المشؤومات . والعرب تسمي الريح الباردة إذا دَبرت نحساً . والنحس : الجهد والضر ، وخلاف السعد من النجوم وغيرها[6] . وقد كان أهل نجد يتيمنون بالسانح ، ويتشاءمون بالبارح ، ويخالفهم أهل العالية ، فيتشاءمون بالسانح ، ويتيمنون بالبارح[7] .

ويدخل في هذه الأيام تشاؤم بعض الجاهليين من يوم معين وتفاؤلهم من يوم آخر . فيكون يوم التشاؤم يوم بؤس ، يغضب فيه من يتشاءم منه على كل من يراه أول مرة أو في ذلك النهار ، وقد يلحق به سوءاً كالذي روي من قصة

---

١ الحيوان (٤٤٧/٣) ، (هارون) .
٢ الحيوان (٥٥٥/٥) ، (هارون) .
٣ Ency. Religi., 4, p. 808, Hastings, p. 568, Diodorus Sici., II, p. 29.
٤ اللسان (٣٧٨/٤) .
٥ مروج الذهب (١٠٨/٢ وما بعدها) .
٦ اللسان (٢٢٧/٦) .
٧ العمدة (٢٦٣/٢) .

(يومي البؤس والنعيم) عند (المنذر بن ماء السماء) أو (النعمان بن المنذر)[1] .
ويكون يوم التفاؤل (يوم نعيم) يفرح فيه صاحبه ويهش لكل من يراه ولا سيما لأول قادم عليه . وعبر عنهما بـ (يوم بؤس) و (يوم نُعم)[2] .
وكانت العرب تتشاءم من كلبة يقال لها (براقش)[3] .

الفأل :

والفأل ضد التشاؤم والطيرة . ويكون برؤية شيء أو سماع أمر أو قول أو غير ذلك يُتفاءلُ منه ، كأن يسمع مريض رجلاً يقول يا سالم فيقع في ظنه انه يبرأ من مرضه ، أو يسمع طالب حاجة رجلاً يقول يا واجد فيخال انه يجد ضالته ، فيتوقع صحة هذه البشرى ، ويقال لذلك في الانكليزية Omen . وهو معروف عند العبرانيين وقد ذكر في التوراة[4] .

وأصل كلمة (الفأل) على ما يظهر للتشاؤم والتفاؤل ، أي انها كالطيرة أريد بها الحالتان ، ثم تخصصت بالحسن ، كما تخصصت الطيرة بالشؤم[5] . وقد نهي في الحديث عن الطيرة . أما الفأل ، فقد ورد ان الرسول كان يتفاءل ولا يتطير لما في التفاؤل من أثر طيب في أعمال الانسان[6] .

وضد (الشؤم) (اليمن) ، ومن معاني اليمن (البركة) ، و (الميامين) على نقيض (المشائيم) ، و (الميمون) ضد (المشؤوم)[7] . وورد (ميمون النقيبة)[8] و (ميمون الناصية) . ويلاحظ ان للناصية علاقة متينة بالشؤم والتيمن ، فكما يقال (ميمون الناصية) قيل (شؤم الناصية) كذلك ، وهي كناية عن الانسان . فقد كان في رأيهم ان من الناس من هم شؤم ، ويجلبون الشؤم على من يراهم،

---

١ البلدان (٦/٢٨٣ وما بعدها) ، الأغاني (٥/٢١٣) ، ابن قتيبة : الشعر (١٤٤) ، القالي ، الامالي (٣/١٩٥) .
٢ اللسان (١٢/٥٧٩) .
٣ الحيوان (٥/٤٥٤) ، (هارون) .
٤ جامع الاصول (٨/٤٦٧) ، « كتاب الطيرة » ، اللسان (١٤/٢٧) ، ارشاد الساري (٨/٣٩٧) ، Ency., II, p. 46, Reste, S. 203. ff.
٥ في الحديث « أصدق الطيرة الفأل » ، النهاية (٣/١٩٥) .
٦ النهاية (٣/١٩٥) ، جامع الاصول (٨/٤٦٧) .
٧ تاج العروس (٩/٣٧١) .
٨ تاج العروس (١٠/٤٩١) .

وان منهم من تجلب رؤيته الخير لمن يراه . ويكون للحسن والقبح ولسيماء الوجه والجسم دخل كبير في تكوين رأي عن الشخص الذي يُتشاءم أو يُتفاءل منه . وقد قلت إن بعض العاهات التي تكون في بعض الناس ، تجعل غيرهم يتشاءمون منهم عند وقوع نظرهم عليهم في الصباح .

وهناك كلمات عديدة في التشاؤم و (الشؤم) ، مثل (شائم) و (شؤم) و (مشؤوم) و (مشوم) و (مشائيم) و (تشاءموا) ، و (الأشأم) وأمثال ذلك[1] .

ولا يقتصر استعمال هذه الألفاظ على جنسٍ معين ، بل تقال لكل ما يجلب الشؤم على الانسان . فمن البشر — كما قلت — من هم شؤم على غيرهم ، يجلبون الشرّ لمن يتشاءم منهم ، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال . ولما كان التشاؤم قضية اعتبارية تتعلق بالنفس والمزاج ، كان بعض الأشخاص أو الحيوانات أو الأشياء شؤماً عند ناس ، بينما هم ليسوا كذلك عند جماعة آخرين . ولكن الغالب أن التشاؤم من الأشياء القبيحة أو الناقصة أو الراعبة وما شابه ذلك ، فهذه المزعجات تؤثر على النفس ، فتجعلها تتشاءم منها ، وتتوقع حدوث النحس من رؤيتها ، ولا سيما في الصباح ، وعند الهمّ بالشروع في عمل مهم .

وكانوا يحبون أن يأتوا أعداءهم من شق اليمين[2] . يتفاءلون بذلك . لأن في اليمين اليمن ، وفي اليسار العسر .

وللأسماء والكلمات أثرها في الفأل وفي الطيرة ، فالأسماء الحسنة الجميلة تبعث على التفاؤل ، أما الأسماء الخبيثة والرديئة فإنها تولّد التشاؤم . وقد عرف هذا النوع من التفاؤل في الإسلام ، ولم ينه عنه . بل قيل ان الرسول كان يتأثر من الأسماء ، وكان يقول إذا أعجبته كلمة : « أخذنا فألك من فيك » ، وانه يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع : يا راشد ، يا نجيح ، وأنه قال : « لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل »[3] .

وللطيرة سمت العربُ المنهوش السليم ، والبرّية المفازة ، وكنّوا الأعمى أبا بصير ،

---

١ تاج العروس (٨/٣٥٤) .
٢ الحيوان (٥/٥١٦) ، (هارون) .
٣ جامع الاصول (٨/٣٩٤) .

والأسود أبا البيضاء ، وسمّوا الغراب بحاتم ، إذ كان يحتم الزجر به على الأمور[1] .

وورد ان العرب اذا تطيروا من الانسان وغيره قالوا : صباح الله لا صباحك[2] .

ولإيمان العرب بباب الطيرة والفأل عقدوا الرتائم ، وعشروا اذا دخلوا القرى تعشير الحمار ، واستعملوا في القداح الآمر ، والناهي ، والمتربص ، وهن غير قداح الأيسار[3] .

ومن أبواب الفراسة النظر إلى خطوط الكف للاستدلال بها على طبيعة صاحب الكف وعلى ما سيحدث له من أحداث . وقد أشار الى الكف والى أسرارها الأعشى في قوله :

أنظر الى كفٍ وأسرارها   هل أنت ، إن أوعدتني ، ضائري[4] ؟

ولمراقبة الكلف الذي يظهر على وجه القمر ودراسة النجوم والظواهر الطبيعية التي تحدث للأجرام السماوية كالكسوف والخسوف ، أهمية كبيرة في التكهن . وقد كان الجاهليون يعتقدون ان للكسوف والخسوف أثراً في حياة الانسان ، فاذا وقعا دلا على موت انسان عظيم أو حياته ، أو ولادة مولود صاحب حظ كبير[5] . وكذلك كان رأيهم في تساقط النجوم . وقد أشير اليه في أشعار القدماء من الجاهلية ، منهم عوف بن الجزع وأوس بن حجر وبشر بن أبي خازم[6] .

وقد كان في زعم الكهان من صنف المنجمين أن في استطاعتهم التأثير في الأجرام السماوية وفي احداث الضباب والأمطار والعواصف والرياح ، وقد نهي عن التصديق بها في الاسلام ، لتعارضها مع الايمان بسيطرة الله وهيمنته وحده على الكون .

وكان للجاهليين اعتقاد بأثر فعل النجوم في الانسان ، ولهذا كانوا يراقبون السماء لتفسير ما يرون فيه من تساقط نجوم ، ومن أخبار الشياطين عما يستمعون اليه من وحي السماء . وذكر أنهم كانوا يفزعون إذا تساقطت الشهب بكثرة غير

١ الحيوان ٣(٤٣٩/٣) ، (هارون) ، (٢٥٣/٤) .
٢ اللسان (٥٠٢/٢) .
٣ الحيوان (٤٤٠/٣) ، (هارون) .
٤ المعاني الكبير (١١٨٥/٣) .
٥ اللسان (٢٠٨/١١) ، الروض الانف ١٣٥/١) .
٦ الروض الانف(١٣٥/١) .

معهودة . وقد حدث أن تساقطت النجوم بكثرة ففزعوا وجزعوا وقالوا : « هلك من في السماء . فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيراً ، وصاحب البقر يذبح كل يوم بقرة ، وصاحب الغنم كل يوم شاة حتى أسرعوا في اتلاف أموالهم . فقالت ثقيف بعد سؤال كاهنهم .. امسكوا عن أموالكم ، فإنه لم يمت من في السماء . ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هي . والشمس والقمر كذلك »[1] . فكأنهم تصوروا أن تساقط النجوم هذا بكثرة معناه اختلال نظام السماء وموت من فيه ، واحتمال فناء العالم تبعاً لذلك .

وكانوا إذا خافوا من شيء وأرادوا الاستعاذة ، كأن يكون الانسان مسافراً فرأى من يخافه قال : حجراً محجوراً ، أي حرام عليك التعرض بي . وقد ترك هذا الاستعمال في الاسلام[2] .

وقد ورد الحديث في النهي عن التطير . جاء : « الطيرة شرك . ولكن الله يذهبه بالتوكل »[3] .

---

١ السيرة الحلبية (١/١٤١ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (٩٣) .
٣ جامع الاصول (٨/٤٦٧) . « كتاب الطيرة » ، سنن أبي داوود (٤/١٧ وما بعدها) ، « باب في الطيرة » ، عمدة القارىء (٢١/٢٧٣) ، « باب الطيرة » ، اللسان (١٠/٤٥٠) ، (شرك) .

الفصل السابع والثمانون

من عادات وأساطير الجاهليين

ولأهل الجاهلية عادات وأساطير كثيرة ، وقد اختص العرب بقسم منها ، أما القسم الثاني فهو عام معروف ، عرف عند الساميين والعجم ، وهي مما يقال له (الشعبيات) أو (الفولكلوريات) في مصطلح الافرنج لهذا العهد .

فمن ذلك ما كانوا يفعلونه في أسفارهم إذ كان أحدهم اذا خرج الى سفر عمد الى شجرة من (الرتم) ، فعقد غصناً منها ، فاذا عاد من سفره ووجده قد انحلّ ، قال : قد خانتني امرأتي ، وإن وجده على حالته قال لم تخني[1] . ويقال لذلك العقد (الرتم) و (الرتمة) . وذكر ان الرجل منهم كان اذا سافر عمد الى خيط فعقده في غصن شجرة أو في ساقها ، فاذا عاد نظر الى ذلك الخيط ، فان وجده بحاله علم ان زوجته لم تخنه ، وإن لم يجده أو وجده محلولاً قال : قد خانتني . ويقال : بل كانوا يعقدون طرفاً من غصن الشجر بطرف غصن آخر[2] .

وتستعمل (الرتمة) لتذكير الانسان بشيء ، يستعملها من يكثر نسيانه . وهي خيط يعقد في الاصبع للتذكير . وقد يعقد على الخاتم[3] .

ومن اعتقادهم في السفر ان من خرج في سفر والتفت وراءه لم يتم سفره .

١ المستطرف (٢/٧٨) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣١٦ وما بعدها) ، نهاية الارب (٣/١٢٥) ، اللسان (١٥/١١٦) ، صبح الاعشى (١/٤٠٨) .
٣ تاج العروس (٨/٣٠٣) ، (رتم) .

فان التفت تطير ، وفسره بالعودة . فلذلك لا يلتفت إلا العاشق الذي يريد العود[1].

ومنها التصفيق : كانوا اذا ضل الرجل منهم في الفلاة ، قلب ثيابه ، وحبس ناقته ، وصاح في أذنها كأنه يومىء الى انسان ، وصفق بيديه : الوحا الوحا ، النجا النجا ، هيكل ، الساعة الساعة ، إليّ إليّ ، عجّل ، ثم يحرك الناقة فيهتدي . قال الشاعر :

وأذن بالتصفيق من ساء ظنه　　فلم يدرِ من أي اليدين جوابها[2]

وذكر انه كان يقلب قميصه ويصفق بيديه كأنه يومىء بهما الى انسان فيهتدي[3].

وكان أحدهم اذا أراد دخول قرية ، فخاف وباءها أو جنّها ، وقف على بابها قبل ان يدخلها ، فنهق نهيق الحمار ، ثم علق عليه كعب أرنب ، كأن ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن . ويسمون هذا النهيق التعشير .

وروي ان (عروة بن الورد) خرج الى (خيبر) ليمتار ، فلما قربوا منها ، عَشّرَ من معه ، وعاف (عروة) أن يفعل فعلهم . فيقال : إن رفقته مرضوا ، ومات بعضهم ، ونجا (عروة) من الموت والمرض[4] .

وكان مسافرهم إذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل ، عمد الى واد ذي شجر ، فأناخ راحلته في قرارته ، وهي القاع المستديرة ، وعقلها ، وخط عليها خطاً ، ثم قال : أعوذ بصاحب هذا الوادي[5] . والى ذلك أشار القرآن « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً »[6]. وذكر أنهم كانوا إذا نزلوا الوادي ، قالوا : نعوذ بسيّد هذا الوادي من شر ما فيه ، فتقول الجن : ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضراً ولا نفعاً[7] .

ومن عادات بعض العرب أنهم إذا خافوا شر إنسان وأرادوا عدم عودته اليهم ، أوقدوا خلفه ناراً ، إذا تحول عنهم ، ليتحول ضبعه معه ، أي شره . وكانوا يقولون : أبعد الله دار فلان وأوقد ناراً اثره ، والمعنى لارجعه الله ولارده[8] .

---

١ المسنطرف (٢/٨٠) ، بلوغ الارب (٢/٣٢٨) .
٢ نهاية الارب (٣/١٢٢) ، صبح الاعشى ١/٤٠٥ .
٣ المسنطرف (٢/٨٠) ، بلوغ الارب (٢/٣١٦) .
٤ بلوغ الارب (٢/٣١٥ وما بعدها) .
٥ بلوغ الارب (٢/٣٢٥) .
٦ الجن ، الآية ٦ .
٧ تفسير الطبري (٢٩/٦٨) .
٨ اللسان (٣/٤٦٦) ، (وقد) .

وإذا غاب انسان ، فلم يقفوا على أثره ، ففي الوسع الاهتداء اليه، وذلك بأن يذهبوا الى بئر قديمة أو حفر قديم ، ثم ينادوا في البئر أو الحفر اسم الغائب ثلاث مرات ، فإن سمعوا صوتاً علموا أنه حي معافى ، وإن لم يسمعوا شيئاً علموا أنه قد مات [1] .

وإذا أرادوا ضمان عدم رجوع الثقلاء ومن لا يرغب في عودتهم ، فإن الثقيل اذا غادر المحل ، عمد صاحب البيت والمكان الى كسر شيء من الأواني أو رمى حجراً خلفه ، وفي ذلك ضمان بألا يعود[2] .

ومن خرافاتهم أن أحدهم كان إذا اشترى داراً أو استخرج ماء عين أو بنى بنياناً وما أشبهه ، ذبح ذبيحة للطيرة . وقد عرفت عندهم بـ (ذبائح الجن) . وكانوا يفعلون ذلك مخافة أن تصيبهم الجن وتؤذيهم . وقد نهي في الإسلام عن ذبائح الجن[3] .

وأوجدوا لدوام الحب علاجاً ، هو شق الرداء والبرقع . زعموا أن المرأة إذا أحبت رجلاً أو أحبها ثم لم تشق عليه رداءه ، ويشق عليها برقعها ، فسد حبهما، فإذا فُعل ذلك دام حبهما [4] .

وإذا صعب على المرأة العثور على خاطب لها ، فإن في الإمكان تيسير ذلك بنشر جانب من شعرها ، وتكحيل إحدى عينيها ، وتحجيل احدى رجليها، ويكون ذلك ليلاً ، ثم تقول : « يا لكاح ، أبغي النكاح ، قبل الصباح » ، فيسهل أمرها ، وتتزوج عن قريب[5] .

ومن آرائهم أن الرجل منهم اذا عشق ولم يسل وأفرط عليه العشق ، حمله رجل على ظهره كما يحمل الصبي ؛ وقام آخر فأحمى حديدة أو ميلاً وكوى به بين إليتيه فيذهب عشقه[6] .

ولدوام الحب بين الرجل والمرأة ، يشق الرجل برقع من يحبّها وتشق المرأة رداءه ، فيصلح حبهما ويدوم ، فإن لم يفعلا ذلك فسد حبّهما [7] .

---

١ بلوغ الارب (٣/٣ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٣٠) .
٣ اللسان (٢/٤٣٧) ، (ذبح) ، ثمار القلوب (ص ٦٩) .
٤ نهاية الارب (٣/١٢٦) .
٥ بلوغ الارب (٢/٣٣٠) .
٦ بلوغ الارب (٢/٣٢١) .
٧ بلوغ الارب (٢/٣٢٢) .

واذا غاب عن النساء من يحببنه أخذن تراباً ،
ليرجع سريعاً[1] .

واذا أرادت المقـلاة ان يعيش ولدها ، ففي
الشريف سبع مرات ، وعندئذ يعيش ولدها . وا:
يقتل غدراً . وقد ذكر ذلك في شعر لبشر بن أبـي

ومن عقائدهم ان صاحب الفرس المهقوع اذا ركبه
وطمحت الى غيره . والهقعة : دائرة تكون بالفرس .
في الأكثر[3] .

وكان الصبي اذا بثرت شفته ، حمل منخلاً على رأسه ونادى بـ
« الحلاء الحلاء ، الطعام الطعام » فتلقي له النساء كسر الخبز والتمر واللحم في المنخل ، ثم يلقى ذلك للكلاب ، فتأكله فيبرأ من المـرض فان أكل صبي من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب تمرة أو لقمة ، بثرت شفته[4] .

وتعالج (الخطفة) و (النظرة) عند الصبيان بتعليق سن ثعلب ، أو سن هرة على الصبي ، فان تلك الأسنان تهرّب الجن . ويهربها كذلك تنقيط شيء من صمغ (السمرة) (حيض السمرة) ، وهي شجرة من شجر الطلع ، بين عيني النُفَساء، وخط شيء منه على وجه الصبي خطاً ، فلا تجرؤ الجنية على التقرب من الصبي ، ويقال لذلك (النفرات) . فاذا قال لها صواحباتها في ذلك ، قالت :

كانت عليه نفره ثعالب وهرره
والحيض حيض السمره[5]

ومن عاداتهم في إبعاد الجن عن الصبيـان ، تنفير المولود ، وذلك ان يسميه باسم غريب منفر ، فينفر الجن منه ، ولا يتقربون منه[6] .

---

١ بلوغ الارب (٢/٣٣٩ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣١٧ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٢٣) .
٤ بلوغ الارب (٢/٣٢٨) .
٥ نهاية الارب (٣/١٢٤) ، بلـوغ الارب (٢/٣٢٥) ، تـاج العروس (٣/٥٧٨ وما بعدها) .
٦ بلوغ الارب (٢/٣٢٥) .

وعادة أخذ الغلام اذا ثغر ، السن الساقط ووضعه اياه بين السبابة والإبهام ، واستقبال الشمس ، وقذف السن في عينها ، لا تزال معروفة حتى الآن ، وهم يقولون في ذلك : « ابدليني بسن أحسن منها ، ولتجر في ظلمها إياتك »[1] ، أو « أبدليني أحسن منها ، أمن على أسنانه العوج ، والفلج ، والشَّعَل » . قال طرفة :

بدلته الشمس من منبته بردا أبيضَ مصقولَ الأُشَر[2]

واعتقد قوم منهم ان من ولد في القمراء ، تقلصت غرلته ، فكان كالمختون[3] . واعتقدوا ان طول الغرلة من تمام الخلقة وأقرب ما يكون الى السؤدد[4] .

ومن عقائدهم ، أن المولود إذا ولد يتناً ، كان ذلك علامة سوء ، ودليلاً على الفساد . واليتن خروج رجل المولود قبلَ رأسه[5] .

ومن عقائدهم ان الرجل كان اذا ظهرت فيه القوباء عالجها بالريق ، واذا أصيب او أصيبت دابته بالنملة ، وخط عليها ابن المجوسي اذا كان من اختته تبرأ وتنصلح وترأب[6] .

وزعموا أن من أصيب بـ (الهُدَبِد) ، وهو (العَشَا) يكون في العين ، عمد الى سنام فقطع منه قطعة ، ومن الكبد قطعة ، وقلاهما ، وقال عند كل لقمة يأكلها بعد أن يمسح جفنه الأعلى بسبابته :

فيا سناماً وكَبِدْ ألا اذْهَبا بالهُدَبِدْ
ليس شفاء الهدبد إلا السنام والكبد

ويزعمون أن ذلك يذهب بالعشا بذلك[7] .

وقد زعم الجاهليون أن الطاعون الذي كان يقع كثيراً في الجاهلية فيحصد الناس

---

١ بلوغ الارب (٢/٣١٨) .
٢ نهاية الارب (٣/١٢٢) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٣١) .
٤ تاج العروس (٨/٤١) ، (غرل) ، بلوغ الارب (٢/٣٣١) .
٥ الحيوان (١/٢٨٦) ، (هارون) .
٦ بلوغ الارب (٢/٣٢٩) ، وتعرف (القوباء) بـ (كوباية) بلغة العامة لهذا العهد .
٧ انه لا يبرىء داء الهدبد مثل القلايا من سنام وكبد
تاج العروس (٢/٥٤٥) ، (الهدبد) ، بلوغ الارب (٢/٣٤٠) .

حصداً ، هو من وخز الجنّ،وأنه من فعلهم في الإنسان ودعوه (رماح الجن)، وذكر ذلك في الشعر فقال أحد الشعراء :

لعمرك ما خشيت على عديّ رماح بني مقيدة الحمار
ولكني خشيت على (عديّ) رماح الجن أو إياك جار[1]

وكانوا يرون أن أكل لحوم السباع يزيد في الشجاعة والقوة[2] .

وفي حركات الإنسان دليل ومعان تنبيء عن أشياء . فإذا اختلجت العين دل، ذلك على توقع قدوم شخص غائب محبوب . ولا تزال هذه العادة باقية عند الناس اليوم[3] .

ومن عاداتهم أن أحدهم اذا خدرت رجله ، ذكر أحب الناس اليه، فتنبسط[4].

وكانوا يعقدون الرتم للحمى ، ويرون أن من حلها انتقلت الحمى اليه . قال أحد الشعراء :

حللت رتيمة فكثت شهراً أكابد كل مكروه الدواء[5]

وقد زعموا أن في البطن حية ، اذا جاع الانسان،عضت على شرسوفه وكبده . وقيل : هو الجوع بعينه ، ليس أنها تعض بعد حصول الجوع[6] .

وكان من عادة الجاهليين حمل ملوكهم على الأعناق إذا اشتد بهم المرض. وهم يعتقدون أنهم بذلك سيتغلبون على المرض ، ويعللون ذلك بأنه أسهل على المريض، وأكثر راحة له من وضعه على الأرض[7] .

واعتقدت العرب ان دمَ الملوك والرؤساء يشفي من عضة الكلب[8] ، وزعموا ان الكَلَب جنون الكلاب المعتري من أكل لحم الانسان . وأجمعت العرب ان

---

١ ثمار القلوب (٦٨) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٢٣) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٢١ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٣/١٧٠) ، (خدر) .
٥ بلوغ الارب (٢/٣١٧) .
٦ بلوغ الارب (٢/٣١٣ وما بعدها) .
٧ بلوغ الارب (٣/٢٠ وما بعدها) .
٨ بلوغ الارب (٢/٣١٩) .

دواءه قطرة من دم ملك يخلط بماء فيسقاه ، وقيل إن الرجلَ الكَلِب يعض انساناً فيأتون رجلاً شريفاً ، فيقطر لهم من دم اصبعه ، فيسقون الكلب فيبرأ[1] .

ومن عقائدهم انهم كانوا اذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن ان يأخذوا بثأره ، فيأخذون روثة ، ويفتونها على رأسه ، ويقولون : روثة راث ثائرك . وقد يذر على الحية المقتولة يسير رماد ، ويقال لها : قتلك العين فلا ثائر لك . وفي أمثالهم لمن ذهب العين دمه هدر -: هو قتيل العين[2] .

واعتقد الجاهليون بـ (السفعة) ، و (السفعة) العين تصيب الانسان : عين إنسية وعين جنية ، و (السفعة) النظرة من الجن[3] .

واذا طالت علة الواحد منهم ، وظنوا ان به مساً من الجن ، لأنه قتل حية أو يربوعاً أو قنفذاً ، عملوا جمالاً من طين ، وجعلوا عليها جوالق وملؤوها حنطة وشعيراً وتمراً ، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر الى جهة المغرب وقت غروب الشمس ، وباتوا ليلتهم تلك ، فاذا أصبحوا ، نظروا الى تلك الجمال الطين ، فاذا رأوا انها بحالها ، قالوا : لم تقبل الهدية ، فزادوا فيها ، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا : قد قبلت الدية ، واستدلوا على شفاء المريض ، وفرحوا ، وضربوا بالدف[4] .

ومن أوابدهم تعليق الحلي والجلاجل على اللديغ ، يرون انه يفيق بذلك ، ويقال انه انما يعلق عليه ، لأنهم يرون انه ان نام يسري السم فيه فيهلك ، فشغلوه بالحلي والجلاجل وأصواتها عن النوم . وذهب بعضهم الى انه اذا علق عليه حلي الذهب برأ ، وإن علق الرصاص أو حلي الرصاص مات[5] .

ومن آرائهم في إطفاء نار الحرب انهم كانوا ربما أخرجوا النساء فبلن بين الصفين ، يرون ان ذلك يطفىء نار الحرب ويقودهم الى السلم[6] .

---

١ تاج العروس (١/٤٦٠) ، (كلب) .

٢ بلوغ الارب (٢/٣٥٨) .

٣ بلوغ الارب (٢/٣٦٥) .

٤ بلوغ الارب (٢/٣٥٩) .

٥ والى هذه العقيدة أشار النابغة الذبياني بقوله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السم ناقع

يسهد من ليل التمام سليمها ... بحلى النساء في يديه قعاقع

بلوغ الارب (٢/٣٠٤) .

٦ بلوغ الارب (٢/٤) .

ومن وسائل إبعاد الجن عن الناس ، وإبعاد عيونهم عنهــم ، تعليق كعب الأرنب . يقولون إن من فعل ذلك لم تصبه عين ولا سحــر ، وذلك لأن الجن تهرب من الأرنب ، لأنها ليست من مطايا الجن ، لأنها تحيض . وذكر أيضاً ان من علق عــلى نفسه كعب أرنب ، لم يقربــه (عمار الحي) (جنّان الحي) و (جنّان الدار) ، و (عمّار الدار) ولا (شيطان الحماطة) وجانّ العشرة (جار العشيرة) وغول العقر (غول القفر) ، وكل الخوافي وان الله يطفىء نار السعالي[1] . و (الحماطة) شجرة شبيهة بالتين تأوي اليها الحيات[2] .

وكانوا إذا خافوا عــلى الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له ، نجسوه بتعليق الأقذار عليه ، كخرقة الحيض وعظام الموتى . وذكروا أن أنفع من ذلك أن تعلق طامث عظام موتى ثم لا يراها يومه ذلك . ويشفي التنجيس مــن كل شيء ، إلا من العشق[3] .

ومن مذاهبهم قولهم في الدعاء : « لا عشت إلا عيش القُراد » . يضربونه مثلاً في الشدة والصبر على المشقة.يزعمون أن القُراد يعيش ببطنه عاماً وبظهره عاماً[4] .

وكانوا يتبركون بأشياء ، منها المدمى من السهام ، الذي ترمي به عدوك ثم يرميك به . وكان الرجل إذا رمى العدو بسهم فأصاب ، ثم رماه به العدو وعليه دم ، جعله في كنانته تبركاً به . ذكر أن (سعداً) قال : « رميت يوم أحد رجلاً بسهم فقتلته ، ثم رميت بذلك السهم أعرفه ، حتى فعلت ذلك وفعلوه ثلاث مرات ، فقلت:هذا سهم مبارك مدمى فجعلته في كنانتي ،فكان عنده حتى مات»[5].

كان أحدهم يلقى الرجل يخافه في الشهر الحرام ، فيقول : حجراً محجوراً ، أي حرام محرم عليك هذا الشهر ، فلا يبدؤه بشر[6] . وكانوا يقولــون ذلك اذا نزلوا مكاناً وخافوا فيه من الجن .

وكان من عاداتهم أنهم كانوا إذا أرادوا أن تورد البقر الماء ، فعافتــه قدموا ثوراً ، فضربوه،فورد ، فاذا فعلوا ذلك، وردت البقر . وفي ذلك قال الأعشى :

---

١ نهاية الارب (١٢٣/٣ وما بعدها) .
٢ عنجــرد تحلف حــين أحلف كمثل شيطان الحماط أعرف
بلوغ الارب (٣٢٤/٢) ، اللسان (١٤٦/٩) .
٣ بلوغ الارب (٣١٩/٢) .
٤ بلوغ الارب (٣٣٩/٢) .
٥ اللسان (٢٧٠/١٤) ، (دمى) .
٦ تاج العروس (١٢٣/٣) ، (حجر) .

ومـــا ذنبه إن عافت الماء باقر   وما أن تعاف الماء إلا لتضربا [1]

ويقولون إن الجن تصد البقر عن الماء ، وان الشيطان يركب قرني الثور [2] .

ويظهر أن هذا الاعتقاد من الاعتقادات التي كانت شائعة بين الجاهليين، بدليل وروده في أشعار عدد من الشعراء. وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصدّ الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الماء حتى تهلك [3] .

ومن عـــاداتهم أيضاً أنهم كانوا اذا وقع العُرُّ في ابلهم ، اعترضوا بعـــيراً صحيحاً لم يقع ذلك فيه ، فكووا مشفره وعضده وفخذه . يرون أنهم اذا فعلوا ذلك ذهب العر عن ابلهم [4] .

وذكر أن العرّ قروح مثل القوباء ، تخرج بالإبل متفرقة في مشافرها وقوائمها يسيل منها مثل الماء الأصفر ، فتكوى الصحاح لئلا تعديها المِراض . تقول منه: عرت الإبل ، فهي معرورة . قال النابغة الذبياني :

فحملتني ذنّب امرىء وتركتـه   كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع [5]

وفي المعنى المذكور قول الشاعر :

فألزمتني ذنباً وغيريّ جرّه   حنانَيْكَ لا تكوِ الصحيح بأجربا

وقول آخر :

كمن يكوي الصحيح يروم برءاً   به من كل جرباء الإهاب [6]

وذكر ان الفصيل كان اذا أصابه العر، عمدوا الى أمه فكووها، فيبرأ فصيلها [7] .

---

١ كتاب المعاني الكبير (٢/٩٢٨ وما بعدها) .

٢ بلوغ الارب (٢/٣٠٣) .

٣ وفي ذلك قال أنس بن مدركة في قتله سليك بن سلكة :

اني وقتـــلي سليكا ثم أعقله   كالثور يضرب لما عافت البقر

الدميري ، حياة الحيوان (١/١٨٢) ، الحيوان (١/١٨ وما بعدها) ، (هارون) .

٤ كتاب المعاني الكبير (٢/٩٢٨) ، اللســـان (٦/٢٣٠ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١/٣٩٨ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٥ وما بعدها) ، الحيوان (١/١٧) ، (هارون) .

٥ تاج العروس (٣/٣٩٠) ، (العر) ، اللسان (٤/٥٥٥) ، (عرر) .

وكلفتني ذنب امـرىء وتركـه   كذي العر يكوي غـيره وهو رافع

بلوغ الارب (٢/٣٠٥) .

٦ بلوغ الارب (٢/٣٠٥ وما بعدها) .

٧ بلوغ الارب (٢/٣٠٦) .

ومن ذلك انهم كانوا يفقأون عين فحل الإبل ، لئلا تصيبها العين . وكانوا اذا كثرت إبلهم فبلغت الألف ، فقأوا عين الفحل ، فان زادت الإبل على الألف فقأوا العين الأخرى . وذلك المقفأ والمعمى[1] .

وكانت العرب اذا أجدبت ، وأمسكت السماء عنهم ، وتضايقوا من انحباس المطر ، وأرادوا ان يستمطروا ، عمدوا الى السلع والعُشَر ، فحزموها، وعقدوها في أذناب البقر ، وأضرموا فيها النيران ، وأصعدوها في موضع وعر ، واتبعوها، يدعون الله ويستسقون ، وانما يضرمون النار في أذناب البقر تفاؤلاً للبرق بالنار . وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات[2] . ويقال لهذا الفعل (التسليع) . وذكر ان التسليع في الجاهلية انهم كانوا اذا أسنتوا ، أي أجدبوا ، علقوا السلع مع العشر بأذناب البقر وحدروها من الجبال وأشعلوا في ذلك السلع والعشر النــار يستمطرون بذلك . ونجد من الرواة من يقول : حدروها من الجبال وأشعلوا في ذلك السلع والعشر النار ، ومنهم من يقول : ثم يضرمون فيها النار ،وهم يصعدونها في الجبل ، فيمطرون[3] .

وقد أشير الى هذا الفعل في الشعر ، قال أمية بن أبـي الصلت :

سَلَعٌ ما ، ومثله عُشَرٌ ما عائلٌ ما ، وعالت البيقورا

وقال الورك الطائي (وداك الطائي) :

لا درّ درّ رجال خاب سعيهم يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجاعل أنت بيقوراً مسلّعة ذريعةً لك بين الله والمطر[4]

ومن السلع « المُسَلّعةُ » ، كانت العرب في جاهليتها تأخذ حطب السلع والعشر في المجاعات وقحوط القطر ، فتوقر ظهر البقر منها ، وقيل : يعلقون ذلك في أذنابها . ثم تلعج النار فيها يستمطرون بلهب النار المشبه بسنى البرق . وقيـل :

---

١ بلوغ الارب (٢/٣٠٦) ، (وذلك المقفأ والمعمى) ، الحيوان (١/١٧) ، (هارون) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٠١ وما بعدها) .
٣ اللسان (٨/١٦١) ، (سلع) ، تاج العروس (٥/١٣٨٤) ، (سلع) .
٤ اللسان (٨/١٦١) ، (سلع) ، تاج العروس (٥/٣٨٥) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٢) ، « الورك الطائي » ، اللسان (٨/١٦١) ، « وداك الطائي » ، تاج العروس (٥/٣٨٥)، (سلع)، ابن فارس، رسالة النيروز (١٨)، (الورل الطائى)، (١٨)، (الورك الطائي)، اللسان (٤/٧٣) .

يضرمون فيها النار ، وهم يصعدونها في الجبل ، فيمطرون »[1] .

وقد تعرض (أبو الحسين أحمد بن فارس) لموضوع (البيقور) ، فقال : « كانت العرب اذا أمسكت السماء قطرها ، استمطروا ، فعمدوا الى شجرتين يقال لهما السلع والعشر ، فعقدوهما في أذناب البقر فأضرموا فيها النار ، وأصعدوها في جبل وعرٍ وتبعوا آثارها ، يدعون الله عز وجلّ ويستسقونه . قال ابن الكلبي : وانما يضرمون النار تفاؤلاً للبرق » . « كانوا اذا فعلوا ذلك توجهوا نحو المغرب من بين الجهات كلها قصداً الى العين ، والعين قبلة العراق . قال العجاج :

سارٍ سَرى من قبل العين فجرّ غُرُّ السحاب والمرابيع البكر »[2]

عقيدتهم في الحيوان :

وللجاهليين عقائد في الحيوان . فمنهم من كان يعتقد أن للجن بهذه الحيوانات تعلقاً ، ومنهم من يرى أنها نوع من الجن ، ومنهم من كان يرى أن لبعضها، مثل الورل والقنفذ والأرنب والظبي واليربوع والنعام ، صلة بالجن ، وأنها مراكب لها ، يمتطونها كما يمتطي الإنسان الخيل والبغال والإبل والحمير[3] .

ومن مراكب الجن ، (العضرفوط) ، قال الشاعر :

وكل المطايا قد ركبنا فلم نجد ألذّ وأشهى من وخيد الثعالب
ومن فارة مزمومة شمرية وخود بردفيها أمام الركائب
ومن عضرفوط حطّ بي من ثنية يبادر سرباً من عظاء قوارب[4]

والعضرفوط دويبة من دواب الجن[5] ، ويقال : العضرفوط ذكر العِظاء ، وقيل : دويبة تسمى العِسودة ، بيضاء ، ناعمة[6] .

واعتقدوا أن السموم لما فرقت على الحيوانات ، احتبست العظاية (العظاءة)

---

١ اللسان (٨/١٦١) ، (سلع) .
٢ ابن فارس ، رسالة النيروز (١٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٦٠) .
٤ تاج العروس (٥/١٨٣) ، (العضرفوط) .
٥ وكل المطايا قد ركبنا فلم نجد ألذ وأشهى من ركوب الارانب
ومن عصرفوط عنّ لي فركبته أبادر سربا من عظاء فوارب
بلوغ الارب (٢/٣٦٠) .
٦ اللسان (٧/٣٥١) ، (عضرفوط) .

عند التفرقة حتى نفد السم ، وأخذ كل حيوان قسطاً منه على قدر السبق اليه ، فلم تنل العظاية نصيباً منه ، فخسرته . لذلك صارت تمشي مشياً سريعاً ثم تقف، لما يعرض لها من التذكر والأسف على ما فاتها من السم[1] .

و (الظباء) ماشية الجن ، في زعم بعضهم وهي تسمع وتكلم ، ولهم قصص عنها[2] .

وتزعم العرب أن (الهديل) ، فرخ على عهد (نوح) مات عطشاً ، وضبعه أو صاده جارح من جوارح الطير ، فما من حمامة الا وهي تبكي عليه[3] .

وللخرز عند الجاهليين وعند الأعراب حتى اليوم ، شأن كبير في السحر وفي دفع أذى الأرواح والعين ، وفي النفع والحب ، وأمثال ذلك . وسأتحدث عنها في المكان المخصص بالسحر .

وضرب المثل ببخل (أبي حباحب) . من محارب خصفة ، وكان بخيلاً ، فكان لا يوقد ناره الا بالحطب الشخت لئلا ترى ، وقيل : اسمه (حباحب)، فضرب بناره المثل ، لأنه كان لا يوقد الا ناراً ضعيفة ، مخافة الضيفان، فقالوا : نار الحباحب[4] .

وأم حباحب : دويبة ، مثل الجندب ، تطير ، صفراء خضراء ، رقطاء برقط صفرة وخضرة ، ويقولون اذا رأوها : أخرجي بُردى أبي حباحب ، فتنشر جناحيها ، وهما مزينان بأحمر وأصفر[5] .

وللعرب أساطير عن الكواكب ، من ذلك ما ذكروه من ان (الدّبران) خطب (الثريا) وأراد القمر ان يزوجه منها ، فامتنعت وأعرضت ، وقالت للقمر : ما أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له ؟ فجمع الدبران قلاصه، ووضعها قدامه ، وأخذ يتبعها يريد اقناعها بالزواج منه . ومن ذلك قولهم في (المرزم) ، وهو (الشعْرى) ، يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر . تقول العرب : اذا

---

١ بلوغ الارب (٢/٣٦٠ وما بعدهـا) ، الدميري ، حيـاة الحيوان (٢/١٢٢) ، (العظاءة) .

٢ بلوغ الارب (٢/٣٦١ وما بعدها) ، حياة الحيوان ، للدمـيري (٢/١٠٢ ومـا بعدها) ، (الظباء) .

٣ الدميري ، حياة الحيوان (٢/٣٨٢) ، تاج العروس (٨/١٦٤) ، (هدل) ، بلوغ الارب (٢/٢٦٤) .

٤ اللسان (١/٢٩٧) ، (حبحب) .

٥ اللسان (١/٢٩٨) ، (حجب) .

طلعت الشعرى جعل صاحب النحل يرى ، وهما الشعريان : (العبور) التي في (الجوزاء) و (الشعرى الغميصاء) التي في الذراع . تزعم العرب انهما أخت (سهيل) . وقد عبدت طائفة من العرب (الشعرى العبور) . قالوا : انها عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها عرضاً غيرها ، فأنزل الله : « وانه هو رب الشعرى » ، وسميت الأخرى (الغميصاء) ، لأن العرب قالت في حديثها انها بكت على أثر العبور حتى غمصت[1] .

وزعموا ان (سهيلاً) كان عشّاراً على طريق اليمن ظلوماً فمسخه الله كوكباً . وعرف بأنه نجم يماني عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ[2] .

و (الشمس) إلهة عند كثير من الجاهليين ، فتعبدوا لها ، وعدّت صنماً عندهم[3] .

ومن أساطيرهم ما تحدثوا به عن (برد العجوز) . حدثوا ان عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها ببرد يقع في أواخر الشتاء وأوائل الربيع فيسوء أثره على المواشي ، فلم يكترثوا بقولها ، وجزوا أغنامهم ، واثقين باقبال الربيع ، فلم يلبثوا إلا مديدة حتى وقع برد شديد ، أهلك الزرع والضرع ، فقالوا هذا برد العجوز . يعنون العجوز التي كانت تُنذر به .

وحدثوا : أن عجوزاً كانت بالجاهلية ، ولها ثمانية بنين ، فسألتهم أن يزوجوها وألحت عليهم ، فتآمروا بينهم ، وقالوا : إن قتلناها لم نأمن عشيرتها ، ولكن نكلفها البروز للهواء ثماني ليال ، لكل واحد منا ليلة . فقالــوا لها : ان كنت تزعمين أنك شابة ، فابرزي للهواء ثماني ليال ، فإننا نزوّجك بعدها ، فوعدت بذلك ، وتعرت تلك الليلة والزمان شتاء كلب ، وبرزت للهواء . وفعلت مثــل ذلك في الليل الآخر ، فلما كانت الليلة السابعة ، ماتت .

ونسب العرب اليها برد الأيام الثمانية ، وأسماؤها : الصنّ ، والصنبر ، والوبر ، وآمر ، ومؤتمر ، ومعلّل ، ومطفىء الجمر ، ومكفىء الظعن[4] .

ومن الأمور التي تداولوها قولهم في (زمن الفطحل) . وضربهم المثل به . قالوا : أيام كانت الحجارة رطبة ، وإذ كل شيء ينطق[5] . وهو دهر لم يخلق

---

١ تاج العروس (٣/٣٠٥) ، (شعر) .
٢ تاج العروس (٧/٣٨٤) ، (سهل) .
٣ تاج العروس (٤/١٧٢) ، (شمس) .
٤ الثعالبي ، ثمار (٣١٣/١ وما بعدها) .
٥ الثعالبي ، ثمار (٦٤٢ وما بعدها) .

فيه الناس بعد[1] .

وكانوا يعتقدون بالمسخ . وهو تحويل صورة الى أخرى أقبح منها ، وتحويل انسان الى حيوان أو حجر . ولهم اعتقادات في مسخ الأطفال ، وتبديل (الجن) لهم بأولادهم من ذوي العاهات . وقد زعموا أن (اللات) صنم ثقيف ، كان في الأصل يهودياً يلتّ السويق في (الطائف) فمسخ حجراً ، عبد فصار (اللات).

وللعرب قصص وضعوه على ألسنة الحيوانات نجده في كتب الأدب . ولهم أمثلة وراءها قصص في سبب ضربها . ونجد في كتب الأمثال والأدب أشياء كثيرة من ذلك . وقد صوّروا بعض الحيوانات ناطقة عاقلة،ونسبوا لها الحكمة والقول الحسن، وصوروا بعضها بليدة غبيّة . ونجد في كتب الأمثال والأدب أشياء كثيرة من ذلك[2] .

واتخذوا من بعض الناس مثلاً على أمر من أمور الحياة . وضربوا بهم الأمثال. فضربوا المثل ببلاغة (سحبان وائل) وبقدرته على الخطابة[3] . وبفصاحة (قس بن ساعدة الايادي)[4] . وجعلوهما المثل الأعلى في البلاغة والفصاحة عند العرب .

ووضعوا (باقل) مثلاً للعي والبلادة[5] . فما رووه عنه ، أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً ، فمرّ بقوم فقالوا : بكم أخذت الظبي ؟ فمدّ يديه ، وأخرج لسانه ، يريد بأصابعه عشرة دراهم وبلسانه درهماً فشرد الظبي حين مدّ يديه ، وكان الظبي تحت إبطه ، فجرى المثل بعيه ، وقيل : أشد عياً من باقل ، وأعيا من باقل،كما قيل أبلغ من سحبان وائل[6] . وذكر أنه كان من ربيعة[7] .

واتخذوا (بيهس) الفَزاري،الملقب بنعامة ، مثلاً للحمق ، فقالوا: أحمق من بيهس . وهو أحد الاخوة السبعة الذين قتلوا،وترك هو لحمقه[8] . زعموا أنه هو القائل:

ألبس لكل حالة لبوسها   إما نعيمها وإما بوسها

وإنما لقب بيهس بنعامة لأنه كان شديد الصمم ، وإذا دعا الرجل من العرب

---

١ تاج العروس (٦٣/٨) ، (المطحل) .
٢ راجع كتاب الحيوان للجاحظ ، وكتاب كليلة ودمنة وكتب الادب الاخرى .
٣ الثعالبي ، ثمار (١٠٢ وما بعدها) ، الدينوري ، المعارف (٦١١) .
٤ الثعالبي ، ثمار (٦٠ ، ٩٨ ، ٢٢٢ ، ١٢٤ وما بعدها ، ١٤٢) .
٥ الميداني ، الامثال (٤٣/٢) ، الثعالبي ، ثمار (١٠٢) .
٦ الثعالبي ، ثمار (١٢٧) .
٧ تاج العروس (٢٣٤/٧) ، (بقل) .
٨ تاج العروس (١١٣/٤) ، (بهس) .

على صاحبه بالصمم، قال: اللهم اصنجه صنجاً كصنج النعامة . والصنج أشد الصمم[1] .

وضرب المثل بحمق (هبنقة) ، واسمه (يزيد بن ثروان) أحد بني قيس بن ثعلبة ، الملقب بـ (ذي الودعات) . لقب بـه لأنه جعل من عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف مع طول لحيته . فسئل عن ذلك ، فقـال : لئلا أضل ، أعرف بها نفسي ، فسرقها أخوه في ليلة وتقلدها ، فأصبح هبنقة ورآها في عنقه، فقال : أخي أنت أنا ، فمن أنا ؟ فضرب بحمقه المثل . فقيل أحمق من هبنقة[2] .

وضربوا المثل بحمق دُغة . وهي بنت منعج ، زوّجت وهي صغيرة في بني العنبر ، فحملت ، فلما ضربها المخاض ظنت انها تحتاج الى الخلاء ، فبرزت الى بعض الغيطان ووضعت ذا بطنها ، فاستهل الوليد ، فجاءت منصرفة وهي لا تظن إلا انها أحدثت . فقالت لأمها : يا أماه ، هل يفتح الجعُر فاه ؟ قالت : نعم ويدعو أباه ، فسبّ بها بنو العَنْبر ، فسموا بني الجعراء[3] .

وقيل هي امرأة من بني عجل بن لجيم . وقيل هي : دغة بنت معيج بن إياد ابن نزار . ولدت لعمرو بن جندب بن العنبر[4] . وذكر ان اسمها : مارية بنت ربيعة ، من عجل ، وكانت عند (جندب بن العنبر) فولدت له (عدي بن جندب) ، وكانت حمقاء حسناء[5] .

وضربوا المثل بـ (جوف حمار) . وقالوا : هو أكفر من حمار ، وأخلى من جوف حمار . وهو رجل من عاد ، يقال له حمار بن مويلع، وجوفه واد له طويل عريض . لم يكن ببلاد العرب أخصب منه ، وفيه من كـل الثمرات ، فخرج بنوه يتصيدون : فأصابتهم صاعقة فهلكوا ، فكفر . وقال : لا أعبد من فعـل هذا ببني ، ودعا قومه الى الكفر فمن عصاه قتلـه ، فأهلكه الله تعالى وأخرب واديه ، فضرب العرب به المثل في الخراب والخلاء . قال الأفوه الأودي :

وبشؤم البغي والغشم قديماً ... قد خلا جوف ولم يبق حمار[6]

---

١ الثعالبي ، ثمار (٤٤٥) .

٢ قال الفرزدق :

فلو كان ذا الودع بن ثروان لالتوت ... به كفـه أعني يزيد الهبقـا

تاج العروس (٥/٥٣٤) ، (ودع) .

٣ الثعالبي ، ثمار (٣٠٩) .

٤ تاج العروس (١٠/١٢٨) ، (الدغية) .

٥ الدينوري ، المعارف (٦٢٠) .

٦ الثعالبي ، ثمار (٨٤) ، الميداني (١/٢٥٧) .

وذكر ان الجوف واد بأرض عاد ، فيه ماء وشجر ، حماه رجل اسمه حمار وكان له بنون فأصابتهم صاعقة فماتوا ، فكفر كفراً عظيماً وقتل كل من مر به من الناس . فأقبلت نار من أسفل الجوف فأحرقته ومن فيه وغاض ماؤه فضربت العرب به المثل . فقالوا : أكفر من حمار ، وواد كجوف الحمار وكجوف العير وأخرب من جوف حمار[1] .

وورد انه (حمار بن مالك) ، وهو رجل من عاد وقيل من العمالقة . كان مسلماً أربعين سنة في كرم وجود ، فخرج بنوه عشرة للصيد ، فأصابتهم صاعقة فهلكوا . فكفر كفراً عظيماً . وقال لا أعبد من فعل ببنيّ هذا . وكان لا يمر بأرضه أحد إلا دعاه الى الكفر ، فان أجابه وإلا قتله . فأهلكه الله وخرب واديه[2].

واذا وعد انسان وعداً ، فعليه الوفاء به ، لأن من شمائل الكريم الوفاء بالوعود والعهود . قالت العرب : « خلاف الوعد من أخلاق الوغد » . وكانت العرب تستعيبه وتستقبحه . وقد ضربوا المثل برجل من العرب في مخالفته المواعيد، فقالوا : « مواعيد عرقوب » . وعرقوب صاحب المواعيد[3] ، قيل : انه من الأوس ، كان أكذب أهل زمانه . فضربت به العرب المثل في الخلف ، فقالوا : مواعيد عرقوب . وذلك انه أتاه سائل ، وهو أخ له ، يسأله شيئاً . فقال له عرقوب: اذا أطلع نخلي ، « وفي رواية : اذا أطلعت هذه النخلة » ، فلما أطلع، أتاه على العدة ، قال : اذا أبلح ، فلما أبلح أتاه ؛ قال : اذا أزهى ، فلما أزهى أتاه ؛ قال : اذا أرطب ، فلما أرطب أتاه ؛ قال : اذا أتمر . فلما أتمر ، عمد اليه عرقوب وجدّهُ ليلاً ، ولم يعطه منه شيئاً . فصارت مثلاً في إخلاف الوعد. وورد:

وأكذب من عرقوب (يثرب) لهجة   وأبين شؤماً في الحوائج من زحل

وورد «مواعيد عرقوب أخاه بيترب» ، بالتاء وهي باليمامة . ويروى بالمثلثة، وهي مدينة الرسول نفسها. ويقال : هو أرض بني سعد. والأول أصح، وبه فسر قول كعب بن زهير :

كانت مواعيد (عرقوب) لها مثلاً   وما مواعيدها إلا الأباطيل

---

١ تاج العروس (٣/١٥٦) ، (حمر) ، (٦/٦٣) ، (الجوف) .
٢ فبشؤم الجور والبغي قديما   ما خلا جوف ولم يبق حمار
تاج العروس (٣/١٥٦) ، (حمر) .
٣ تاج العروس (٢/٥٣٦ وما بعدها) ، (وعد) .

وورد : « هو أكذب من عرقوب يترب » ، وتقول : « فلان اذا مطل تعقرب واذا وعد تعقرب » . ومن أمثالهم : « الشرّ ألجأه الى مخ عرقوب » « وشر ما أجأك الى مخة عرقوب » ، أي : عرقوب الرجل لأنه لا مخّ له . يضرب هذا عند طلبك من اللئيم أعطاك أو منعك . وهو لغة بني تميم . ومن المستعار : ما أكثر عراقيب هذا الجبل . العراقيب خياشيم الجبال وأطرافها وهي أبعد الطرق ، لأنك تتبع أسهله أين كان . والعراقيب من الأمور كالعراقيل عظامها وصعابها [1] .

وضربوا المثل في الاقامة على الذل برجل من ضبّة ، زعموا أنه عرف عندهم بـ (قضيب) فقالوا : أصبر من قضيب . و (قضيب) رجل آخر تمار بالبحرين ، كان يأتي تاجراً فيشتري منه التمر ، ولم يكن يعامل غيره [2] .

وضربوا المثل بـ (حديث خرافة) . زعموا أنه كان رجلاً من (بني عذرة) أو من (بني جهينة) سبته الجن ، فكان يكون معهم ، فاذا استرقوا السمع أخبروه فيخبر أهل الأرض ، فيجدونه كما قال . وقيل: « استهوته الجن واختطفته ثم رجع الى قومه، فكان يحدث بما رأى، يعجب منها الناس، فكذبوه ، فجرى على ألسن الناس وقالوا : هذه خرافة . ويقال أيضاً للخرافات الموضوعة من حديث الليل : حديث خرافة . وذكر أن (عائشة) قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثيني :قلت ما أحدثك حديث خرافة . قال : أما انه قد كان» [3] وذكر أيضاً أنه قال لها : « ان أصدق الأحاديث حديث خرافة » [4] .

---

١ ناج العروس (١/٣٧٨) ، (عرفب) .

٢ ومنه قولهم :

أقيمي عند غنم لا دراعي　　　من الفل التي نلوى الكثيب
لانتم حين جاء الفوم سبرا　　　على المحزاة أصبر من قضيب

أي لم نطلبوا بقتلاكم ، فأنتم فى الدل كهذا الرجل ، ناج العروس (١/٤٣٣) ، (فضب) .

لانتم ، يوم جاء الفوم سبرا　　　على المخراة أصبر من فضيب

اللسان (١/٦٨٠) ، (فضب) .

٣ ناج العروس (٦/٨٣) ، (حرف) .

٤ ابن قبيبة ، المعارف (٦١٠ وما بعدها) ، (حدىث خرافة) .

الفهرس